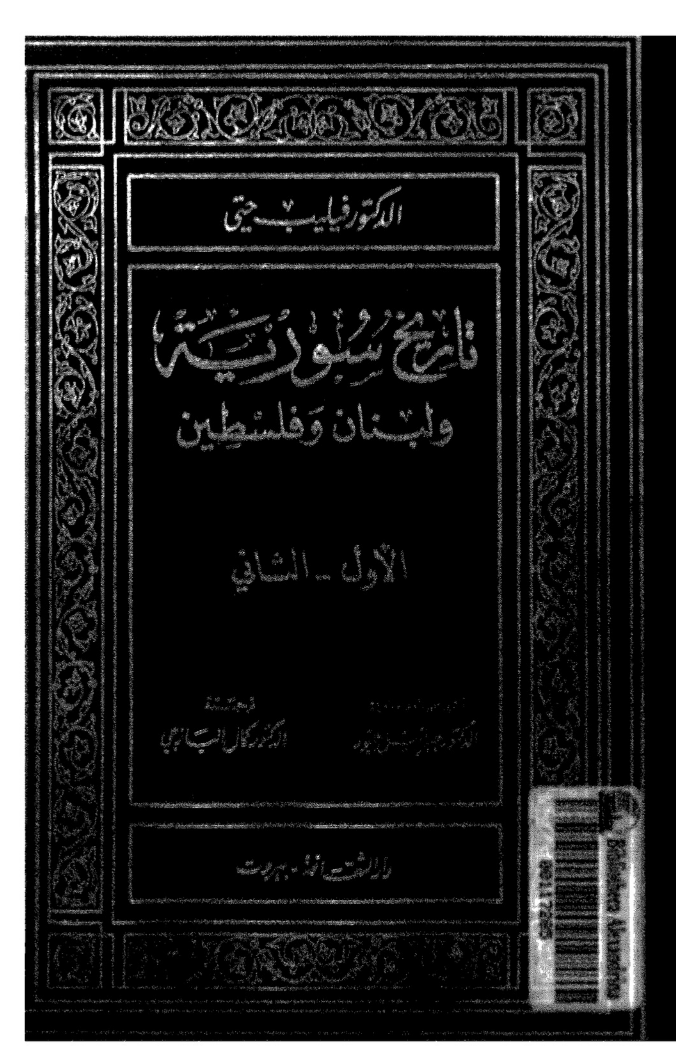

الدكتور فيليب حتي
تاريخ سورية
ولبنان وفلسطين
الأول - الثاني
ترجمة
الدكتور كمال اليازجي
دار الثقافة - بيروت

تاريخ سورية
ولبنان وفلسطين

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين

تأليف

الدكتور فيليب حتي

الجزء الأول

ترجمة

الدكتور جورج حداد — عبد الكريم رافق

أشرف على مراجعته وتحريره

الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة - بيروت

This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA
BY
PHILIP K. HITTI
By permission of the author.
Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المسهمون في اخراج هذا الكتاب

المؤلف: الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت، فنال شهادة بكلوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨. ثم سافر الى اميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥. وعين بعد تخرجه استاذاً فيها.

وعندما انتهت الحرب العظمى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية، وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦. ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب اولاً، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها. وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤، حين احيل على التقاعد.

ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد. وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس.

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (المطول) وهو مترجم الى العربية ومثله تاريخ العرب الموجز، وتاريخ لبنان (المطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين، وتاريخ الشرق الادنى.

المترجمان: الدكتور جورج حداد

درس في جامعة بيروت الاميركية وجامعة باريس والمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو وشغل منصب رئيس قسم التاريخ في الجامعة السورية وهو الآن استاذ تاريخ في جامعة كاليفورنيا

له عدة مؤلفات بالعربية والانجليزية عن تاريخ الحضارة في بلاد الشرق الادنى.

عبد الكريم رافق

تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة السورية بدرجة ليسانس وكان معيداً في ذلك القسم يوم ساهم في ترجمة هذا الجزء سنة ١٩٥٨.

المراجع الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً وهو الآن استاذ فخري. له عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن ابي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصره، وحياته، وحبه وشعره، وابن عبد ربه وعقده. وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها.

مقدمة الطبعة الاولى

ان تاريخ سورية بمفهومها الجغرافي هو من وجهة معينة تاريخ العالم المتمدن بصورة مصغرة. وهو عبارة عن مقطع بياني لتاريخ مهد حضارتنا والجانب هام من تراثنا الروحي والفكري. واذا ما اراد الانسان ان ينصف هذا التاريخ ويعطيه ما يستحق من اهتمام فان عليه بالاضافة الى امتلاك ناحية اللغات الساميّة القديمة ومعرفة المدونات العربية في العصور الوسطى ان يكون مطلعاً على المراجع اليونانية الرومانية وملماً بحقول الدراسات التركية والفارسية — وذلك عدا عن معرفة اللغات الاوربية الغربية الحديثة والمواد التاريخية التي كتبت بها.

ولا يدعي المؤلف ادراك هذه الامور كلها. فقد اقتصرت دراساته على ميدان الساميات وانحصرت ابحاثه ضمن نطاق الميدان العربي والاسلامي. غير انه تأثر بما رآه من وجود عدد كبير من الكتب والابحاث عن بعض مناطق سورية او عن فترات معينة من تاريخها الطويل المتنوع دون ان يكون هنالك كتاب واحد يعطي صورة شاملة متزنة لحياة البلاد كلها كوحدة منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ولذلك وجد ما يشجعه على القيام بهذه المحاولة. ويجب ان نذكر ان فينيقيي لبنان وعبرانيي فلسطين وعرب دمشق الذين كانوا جميعهم مواضيع ابحاث تاريخية عميقة نسبياً لا يمكن فهمهم تماماً ما لم يعالجوا كاجزاء متكاملة من شعب سورية الكبرى وما لم يعرض تاريخهم كأساس مشترك لحضارة الشرق الادنى المعاصر.

ولقد كانت هذه المهمة بعيدة عن السهولة. وكان من مشاكلها الرئيسية المحافظة في هذا التاريخ المتشعب على ذلك الخيط الذهبي الذي يراد به ربط الحوادث الهامة وذلك في حياة بلاد كانت عادة مرتبطة بدول اخرى او تابعة لها. وقد كان لمحاولة تمحيص المعلومات المتيسرة واستخدام عناصرها الاساسية وتفسير اتصالاتها وجمع كل ذلك في قصة متسلسلة يستفيد منها الطالب والانسان المثقف كان لهذه الامور كلها نواحيها الصعبة. فاذا كانت النتيجة التي لا تدعي صفة الابتكار ولا تطمح الى ان تكون ذات صفة نهائية تكفي لسد حاجتنا اليوم الى كتاب مبسط وموطأ وصحيح يروي تاريخ شعب سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ويمكن استخدامه كأساس عام لفهم المشاكل المعقدة الكثيرة التي تحيط

بالقوميات الناشئة في تلك المناطق ــ فان جهودنا عند ذلك لم تذهب عبثاً. وقد قام المؤلف برحلتين كبيرتين في صيف ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الى سورية وما يجاورها فجدّد عهده بالمواقع القديمة والمشاهد التاريخية وحصل على اطّلاع مباشر على الآراء والاتجاهات الحديثة. واذا كان حقّاً ما قيل ان الحاضر لا يمكن فهمه الا بعد دراسة الماضي فان من الصواب ايضاً ان الماضي لا يمكن فهمه فهماً تاماً بدون التعرف الكافي على الحاضر.

وقد قرأ بعين النقد جماعة من الاخصائيين في مختلف المواضيع والعصور فصول مخطوط هذا الكتاب التي عرضت عليهم وابدوا ملاحظاتهم القيمة. فالى جميع هؤلاء العلماء في هذه البلاد وخارجها ارفع آيات شكري. واذا كانت هنالك من أخطاء او نواح يبدو فيها شيء من التقصير فان المسؤولية انما تقع عليّ وحدي. واتقدم كذلك بالشكر الى طلابي الكثيرين الذين قرأوا المخطوط بكامله وافادوني بملاحظاتهم. وقد وضع معظم خرائط الكتاب الدكتور بايلي وايندر كما ان مؤسسة رزق حداد في نيويورك ساهمت بكرم في اعداد المخطوط للطبع ووضع الفهارس.

آذار ١٩٥٠

فيليب حتي

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن تاريخ المنطقة التي تشملها مادة هذا الكتاب في اي عصر مضى موضع دراسة عميقة وابحاث واسعة — مع كل ما يرافق هذا التاريخ من نواح أثرية وانترويولوجية ودينية وأدبية واقتصادية وسياسية — كما كان في السنوات القليلة الماضية. ولقد كان من نتائج دخول سورية والشرق الادنى بكامله الذي تشكل قسماً منه في ميدان السياسة العالمية ان توجهت الانظار اليها. واهتم جيل جديد من العلماء المحليين الذين اتموا دراستهم في الغرب وكذلك جماعة من طلاب العلم والاساتذة الاميركيين والاوربيين بدراسة تاريخها.

وقد استخدم المؤلف في تنقيح هذه الطبعة الثانية ما توصل اليه من نتائج هذه الابحاث الجديدة. ومن الطبيعي انه اخذ بعين الاعتبار ايضاً نقد المراجعين وملاحظات الزملاء والطلاب والمراسلين في كل انحاء العالم. وفضلاً عن ذلك فانه قام في السنوات الست الاخيرة بعدد من الزيارات الى هذه المنطقة ليجدد اطلاعه على المواقع والمشاهد القديمة وليتعرف الى مواقع جديدة. وفي هذه الاثناء كان يكتب مجلداً يرافق هذا الكتاب وموضوعه «لبنان في التاريخ» حيث اتيحت له فرصة ضبط عدد كبير من الحقائق والمراجع.

وكانت النتيجة انه لا تكاد تخلو صفحة من الطبعة الاولى من تغيير او تصحيح او اكثر. وقد عدلت التواريخ القديمة وخاصة ارقام تواريخ مصر وسومر وبلاد بابل وفقاً لما سيمر بالتاريخ الموجز. واستبدلت الطبعات القديمة للكتب التي استخدمت كمراجع في الهوامش بطبعات جديدة. واضيفت الى الخرائط اسماء الاماكن التي ادخلت في المتن كما اضيفت بعض الاسماء الى الفهارس. وصححت الاخطاء المطبعية التي امكن العثور عليها غير انه ليس ما يضمن ظهور اخطاء اخرى من هذا القبيل.

واننا نتوجه بشكرنا الى الكثيرين، الذين ساهموا في تنقيح هذه الطبعة، كما اننا نتوجه اليهم بشكر القراء الذين تعود عليهم هذه التنقيحات بالفائدة.

آذار ١٩٥٧

فيليب حتي

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة الاحاطة بما استجدّ في تاريخ البلاد السورية واصلاح ما ورد من الأخطاء العلمية والمطبعية في الطبعة السابقة وتوحيد تهجئة الالفاظ التي وردت اسماء للاعلام والمدن والبلدان في متن الكتاب وحواشيه وفي الخرائط والفهرس. كذلك اعدت النظر في الرسوم فاستعيض عن بعضها بما هو اكثر وضوحاً وقد ساهم معي في هذا العمل تلميذي سابقاً وزميلي الدكتور جبرائيل جبور واشرف على طبع الكتاب كما اشرف على طبع غيره من كتبي المترجمة فله مني خالص الثناء والشكر

فيليب حتي

الفهرس

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

القسم الثاني

الأزمنة الساميَّة القديمة

الصفحة

الصفحة

القسم الثالث

العصر اليوناني الروماني

الصفحة

فهرس الخرائط

الصفحة



موسى والعليقه المحترقة

صورة جدارية في الكنيس الذي وجد في دورا اوروبس (الصالحية)

ان في هذا الكنيس الذي يرجع عهده الى القرن الثالث اقدم نموذج للفن التوراتي
اليهودي والصور الجدارية التي وجدت فيه هي اليوم في المتحف الوطني بدمشق



فريق من النساء الساميّات



أبشه شيخ الاموريين



ساميّ مع حماره

القسم الأول

عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

مكانة سورية في التاريخ

تحتل سورية مكانة فريدة في تاريخ العالم . وقـد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية اجل شأناً من فضل اي بلد آخر خصوصاً وانها كانت تشمل فلسطين ولبنان ضمن حدودها القديمة . وربما كانت سورية اكبر بـلد صغير عـلى الخريطة ، فهي صغيرة جدًّا في حجمها ولكنها عالمية في تأثيرها .

وسورية باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية قد اعطت العـالم المتمدن ديانتين توحيديتين وكانت لهـا صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوئها ونعني الديانة الاسلامية . فانظار المسيحيين والمسلمين واليهود حيثما وجدوا تتجه الى احـــدى البقاع المقدسة في سورية ليستوحوا منها كما ان اقدامهم تسوقهم اليها ليهتدوا بهديها . وعلى ذلك فان اي انسان غربي متمدن يمكن ان يدعي الانتساب الى بلدَين : بلده وسورية .

وتتصل الرسالة الاخلاقية التي حملتها سورية الجنوبية اتصالاً وثيقا بفضل سورية الديني . فقد كان شعبها اول من نشر المبدأ القائل بان الانسان خلق على صورة الله وان كل انسان هو اخ لكل انسان آخر تحت ابوة الله وبذلك وضع اساس الحياة الديمقراطية . كذلك كان الشعب السوري اول من أصر عـــلى تفوق القيم الروحية واعتقد بالفوز النهائي لقوى العدالة وبذلك اصبح المعلم الاخلاقي للبشرية .

والسوريون القدماء لم يتحفوا العالم بابدع الافكار وارفعها فحسب وانما اوجدوا وسيلة للتعبير عن هـــذه الافكار بتلك العلامات البسيطة المظهر ذات المفعول السحري التي تسمى الابجدية والتي بواسطتها دونت اعظم الآداب العالمية وحفظت . وليس من اختراع يعادل باهميته اختراع الابجدية التي انشأها اللبنانيون الاقدمون ونشروها . فاليونان في الغرب انما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين او الكنعانيين كما كانوا يسمون انفسهم ، ثم اعطوها الى الرومان وبالتالي الى شعوب اوربا الحديثة ،

كما ان الآراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها الى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وافريقيا . ولو ان هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم اية خدمة اخرى لكان ذلك كافياً بان يتميزوا كاعظم المحسنين للبشرية .

غير ان فضل السوريين لم يقف عند ذلك . فقد ازدحمت في ارضهم الضيقة احداث تاريخية وثقافية تتصف بزهوها وفعاليتها اكثر مما ازدحمت به اي ارض اخرى بنفس المساحة ، وكان من شأن هـذه الاحداث ان جعلت تاريخ سورية وفلسطين تاريخ معظم العالم المتمـدن بصورة مصغرة . ففي الفترتين الهلنستية والرومانية اتحف ابناء هـذه البلاد العالم الكلاسيكي بجماعة من ابرز مفكريه ومعلميه ومؤرخيه . وكان بعض مؤسسي الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحديثة من السوريين . وازدهرت في بيروت مدرسة من اعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض اساتذتها في مجموعة قوانين يوستنيان التي اعتبرت بحق اعظم ما قدمته العبقرية الرومانية للاجيال .

وبعد انتشار الاسلام بمـدة وجيزة اصبحت العاصمة السورية دمشق قاعدة الامبراطورية الاموية الشهيرة التي توسع خلفاؤها بفتوحاتهم الى اسبانيا وفرنسا من جهة والهند وحدود الصين من جهة اخرى فكانت امبراطوريتهم اعظم من الامبراطورية الرومانية في ذروتها . وكانت كلمة الخليفة المقيم في دمشق هي القانون في طول هذا الملك الواسع وعرضه . ودخل العالم العربي في عهد الخلافة العباسية في بغداد فترة نشاط فكري من جملة مظاهره حركة الترجمة من اليونانية ، ويكاد لا يوجد في التاريخ مثيل لهذا النشاط . وكانت الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني حينذاك اعظم تراث تركه العالم الكلاسيكي للعصور الوسطى . وقد كان السوريون المسيحيون ابرز من ساهم في عملية نقل العلوم والفلسفة اليونانية هذه ، وكانت لغتهم السريانية جسراً انتقلت بواسطته العلوم اليونانية الى اللغة العربية .

وفي العصور الوسطى كانت سورية مسرحاً لحادث من ابلغ الحوادث التي عرفها تاريخ الاحتكاك بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . فقد تدفقت من فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا حشود من الصليبيين نحو سهل سورية الساحلي ومرتفعات فلسطين تريد الحصول عـلى المسيح الميت الذي لم يكن في قلوب الباحثين عنه حقيقة حية . وهكذا بدأت حركة كانت نتائجها بعيدة الاثر في اوربا وآسيا .

غير ان الحروب الصليبية لم تكن حادث في التاريخ العسكري الطويل المتنوع لهذه البلاد التي كانت، بسبب موقعها علـى ابواب آسيا وعلى مفترق طرق العالم، ساحة حرب دولية في زمن الحرب وطريقاً تجارية في زمن السلم. واي ارض غير ارض سورية يمكنها الادعاء بانها شاهدت مثل هذه المجموعة من المحاربين والفاتحين العالميين مبتدئة بتحوتمس ونبوخذنصر والاسكندر ويوليوس قيصر ومستمرة بعد ذلك بخالد بن الوليد وصلاح الدين وبيبرس حتى نابوليون؟

وقد قام شعب هذه البلاد في السنوات الاخيرة بعد احتجاب دام بضعة قرون في ظل المماليك والاتراك يرودون الشرق العربي بقيادته الفكرية. وكان السوريون وبصورة اخص اللبنانيون اول من اسس الاتصالات الحيوية في القرن الماضي مع الغرب عن طريق التعليم والهجرة والسياحة وبذلك كانوا الواسطة التي بها تسربت التأثيرات الاوربية والاميركية الى الشرق الادنى. وجالياتهم الحديثة المنتشرة في القاهرة وباريس ونيويورك وسان باولو وسدني هي آثار ناطقة بنشاطهم ومغامراتهم.

واهمية سورية التاريخية لا تأتي من فضلها المبتكر علـى النواحي الرفيعة من حياة الانسان فحسب وانما هي نتيجة موقعها الستراتيجي بين القارات القديمة الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية ايضاً. وهذا الدور الذي لعبته تشرحه لنا اعمال الفينيقيين الذين كانوا اول التجار الدوليين. وبسبب موقع سورية في قلب الشرق الادنى، الذي يقع هو ايضاً في وسط العالم القديم، فانها اصبحت في عصر بعيد جداً ناقلة الحضارات في العصور القديمة. فقد امتد الى طرفها الواحد وادي النهرين والى طرفها الآخر وادي النهر الواحد. وليس من منطقة في العالم يمكنها ان تنافس في قدمها ونشاطها واستمرارها هـذه المناطق الثلاث. فقد بزغ فيها فجر التاريخ المتواصل، وفيها يمكن ان نشاهد الى حدّ ما الشعوب نفسها خلال خمسين او ستين قرناً من التاريخ غير المنقطع. وقد كانت حضارة هذه المنطقة قائمة منذ الالف الرابع ق. م. ونحن نعلم اليوم ان حضارة اوربا الاولى لم تكن لمدة طويلة سوى انعكاس ضئيل لحضارة بلاد شرقي البحر المتوسط[1]. ويبدو أن بعض

---

[1] انظر الفصل الاول من كتاب: V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East* (London, 1952), pp. 1-2.

العناصر الاساسية في حضارة الصين القديمة قد اتت من الطرف الشرقي للهلال الخصيب كما اخذ يتضح لنا .

وقد اظهرت الابحاث الاثرية في السنوات الحديثة ان سورية كانت حتى في عصور ما قبل التاريخ تحتل مكانة رفيعة لانها كانت على الاغلب مكان تدجين القمح لاول مرة، ومكان اكتشاف النحاس ، واختراع الخزف المحلي مما ادى الى التحول من حياة الصيد والبداوة الى حياة الزراعة والاستقرار . وقد تكون هذه المنطقة اذاً قد عرفت المعيشة المستقرة في القرى والمدن قبل اي مكان آخر نعلمه . وربما كانت قبل ذلك ايضاً الموطن الذي ترعرع فيه سلف من اسلافنا المباشرين وهو الانسان الحديث[1]، مما سنراه في الفصل القادم .

---

[1] Homo sapiens والمعنى الحرفي لهذه الكلمة اللاتينية « الانسان العارف » بمعنى الانسان المدرك وهو الانسان الحديث .

الفصل الثاني

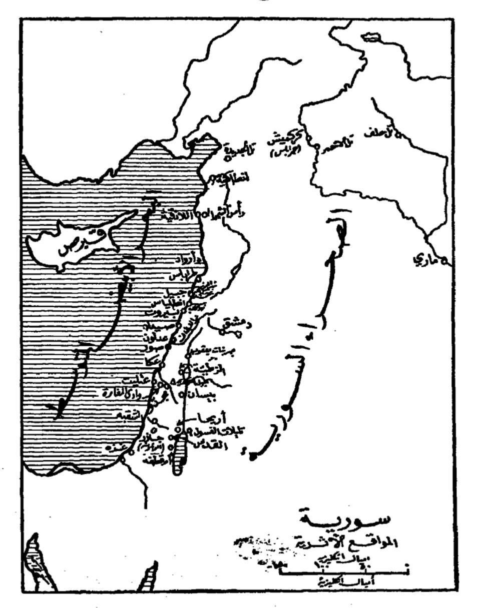
المقدمات الحضارية : الأدوات الحجرية

كما ان القسم الذي يشاهده الانسان من قطعة الجليد فوق سطح الماء لا يشكل الا قسماً صغيراً منها كذلك فان العصر الذي تبع اختراع الكتابة والذي نسميه عصر ما بعد التاريخ لا يشكل الا جانباً صغيراً من تاريخ سورية والسوريين بكامله . وقد بزغ فجر التاريخ في هذه البلاد في اوائل الالف الثالث ق. م. ، وذلك على اثر اختراع الكتابة في مهدي الحضارة المجاورين في جنوبي بلاد الرافدين ومصر وانتشاره من هذين المركزين . وتعود فترة ما قبل التاريخ التي نعتمد في معلوماتنا عنها على البقايا الأثرية بدلاً من الوثائق المكتوبة ، الى عشرات الآلاف من السنين خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) والعصر الحجري القديم (الباليوليتي) الذي سبقه . وقد اخذت الحفريات الاثرية التي حصلت في الثلاثين سنة الاخيرة في البوادي المجهولة في شمالي سورية وشرقها وفي كهوف لبنان وتلال فلسطين وفي مدن شرقي الاردن المدفونة تحت التراب تطلعنا على اسرار الحضارات القديمة المنسية ، وقد اثبتت هذه الحفريات دون شك ان هذه المنطقة التي اهملها الاثريون مدة طويلة بحيث كادت تصبح شبه مجهولة كانت اكثر تقدماً في اقدم العصور مما كنا نظن حتى الآن .

اقدم البقايا : الادوات الحجرية

عندما نحاول ان نلقي نظرتنا الاولى على الانسان في هذه المنطقة فانه يفلت منا كشخص ، ولكن آثاره يمكننا اكتشافها بشكل ادوات حجرية في بقايا الكهوف او على سطح الارض حيث تنتشر مثل « بطاقات الزيارة » على مساحات واسعة . وتتألف هذه الادوات والاسلحة من قطع من الصوان نحتت بشكل خشن او رققت بصورة غير منتظمة وكان يستخدمها كفؤوس يدوية او مكاشط او سواطير وترجع الى نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم اي الى نحو ١٥٠،٠٠٠

سنة[١] . وكانت الفأس اليدوية في هذه المنطقة اقدم الادوات الاكيدة التي صنعها الانسان البدائي وتتألف من كتلة من لب الصوان ازيلت منها بعض الشظايا ورققت بحيث يسهل امساكها واستعمالها للقطع او الدق . وهنالك ادوات اكيدة اقدم من



هذه واكثر خشونة تسمى ايوليت (حجارة الفجر) ولكنها لم تكتشف في منطقتنا . وتوجد صعوبة في المقدرة على التمييز بين مثل هذه الادوات التي صنعها الانسان

١) ويقابل ذلك حضارة العصر الآشولي في اوروبا وقد سميت كذلك باسم موقع نموذجي في فرنسا .

وبين الحجارة المحطمة بصورة طبيعية . اما اغصان الاشجار او سائر الاخشاب التي قد يكون الانسان البدائي قد استخدمها الى جانب الادوات الحجرية او قبل ذلك فانه لم يكن محتملاً ان تترك اي اثر يمكن اكتشافه بسهولة وذلك بسبب طبيعتها .

ومن الكهوف التي وجدت فيها ادوات من العصر الحجري القديم ودرسها العلماء في لبنان وفلسطين كهوف عدلون[١] وجبل الكرمل[٢] وأم قطفة[٣] والزطية[٤] . ووجدت بلطات يدوية من نفس الفترة عموماً في اماكن اخرى منها مجرى نهر الاردن (جنوبي جسر بنات يعقوب[٥]) وفي رأس الشمرة او اوغاريت القديمة[٦] . والبلطة ذات شكل مثلث او بيضوي وهي منحوتة اكثر من الفأس اليدوية .

ويحتمل ان يكون البشر الذين تركوا لنا هذه الآثار الحجرية نوعاً بدائياً غير متميز من الانسان الابيض ولا تزال حضارته مجهولة . وقد كانوا يعيشون في بعض الاحيان على الاقل في الكهوف لوقاية انفسهم من المطر والحيوانات المفترسة ومن الاعداء وذلك لان شدة الاقليم في عصر سابق كانت قد فرضت عليهم هذا الاسلوب من المعيشة . وبالرغم من ان الجليد لم يصل قط الى الجنوب حتى سورية فان اقليم

---

١) وتقع في منتصف الطريق بين صيدا وصور . وقد استكشف هذا الكهف وكهوفاً اخرى في منطقة نهر ابراهيم ونهر الكلب والطلياس ج. زيموفن *G. Zumoffen* . انظر كتابه : *La Phénicie avant les Phéniciens* (Beirut, 1900) pp. 4-16 ومقاله : « L'Age de la pierre en Phénicie » في مجلة : *Anthropos*, vol. iii (1908), pp. 431-55 .

٢) وقد اجرت تحريات اثرية فيه الآنسة دوروثي جارود .ود. بيت (*Dorothy A. E. Garrod and D. M. A. Bate.* انظر كتابهما : *The Stone Age of Mount Carmel* vol. i (Oxford, 1937) ch. 8.

٣) تقع شمال غربي البحر الميت واستكشفها رينه نوفيل *René Neuville* . انظر مقاله : « L'Acheuléen supérieur de la grotte d'Oumm Qatafa) في مجلة : *L'Anthropologie,* vol. xli (1931), pp. 13-51, 249-63 ومقاله الآخر : « Le Préhistorique de Palestine » في مجلة : *Revue biblique*, vol. xliii (1934), pp. 237-59 .

٤) وتقع شمال غربي بحيرة طبرية . ونقب فيها : *F. Turville-Petre* انظر مؤلفه : *Researches in Prehistoric Galilée.* (London, 1927), §§ 5, 6 ; قارن مع : Garrod and Bate pp. 113-15.

٥) انظر مقال : « Jisr Banāt Ya'qūb », *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine,* vol. vi (1936), pp. 214-15.

٦) انظر : Claude F. A. Schaeffer, *The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit* (London, 1939), p. I.

هذه البلاد لا بد انه تأثر به . وقد كانت الطور الاقليمي في نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم من النوع الممطر الكثير الرطوبة والمداري وكانت حيواناته التي انقرضت انواعها اليوم انقراضاً تاماً تقريباً من الحيوانات التي تعيش في بيئة كثيفة النبات . والبقايا الحيوانية التي وجدت تضم عظام الكوكدن وفرس النهر ومخلوق يشبه الفيل . وفي هذه الفترة كانت اوروبا تعاني شدة البرد في العصر الجليدي وهذا ما يسمح للشرق الادنى بان يكون سباقاً في تاريخ الجنس البشري ومآثره .

اقدم الهياكل العظمية البشرية

ترجع اقدم بقايا الهياكل العظمية البشرية في الشرق الادنى الى اواسط العصر الحجري القديم . وقد عثرت على معظمها في كهفين من كهوف جبل الكرمل الآنسة جارُد[١] وكذلك في كهف يقع في جنوبي الناصرة[٢] وآخر في شمال غربي بحيرة طبرية[٣]. ويشكل اكتشافها حادثاً بالغ الاهمية بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ في الشرق الادنى. وجميع هذه البقايا ترجع الى النموذج الموستيري الحضاري (وقد سمي كذلك باسم كهف في فرنسا) ويعود عهدها الى ما قبل مائة الف سنة على الاقل . وهي تظهر لنا سلسلة كاملة من بقايا الهياكل العظمية تتراوح بين النوع النياندرتالي (باسم وادٍ في منطقة الرين) وبين انواع ارقى حتى تصل الى اشكال تكاد تكون من النوع البشري الحديث . والانسان النياندرتالي كان قصير القامة كثيف البنية وكان يمكنه الوقوف تقريباً بدون ان يكون منتصباً تماماً . والذي يلفت النظر بشكل خاص في بعض هياكل جبل الكرمل انها تظهر بعض الصفات التشريحية التي للانسان الحديث[٤] . وقد كانت سعة جمجمتها اكبر مما كانت عليه عند الاوروبيين من النوع

---

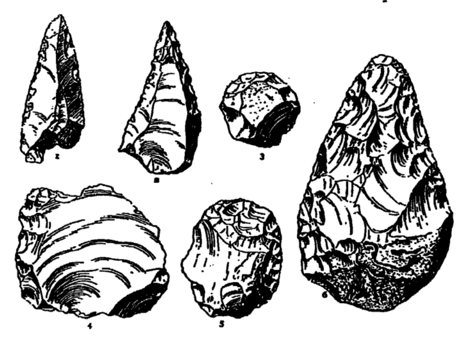
١) وهذان الكهفان هما مغارة الطابون ومغارة السخول؛ انظر : Garrod and Bate, chs. 4-7

٢) في جبل القفزة وقد استكشفه رينه نوفيل René Neuville في ١٩٣٤ ولم تنشر ابحاثه بعد. انظر مقال : « Jabal Qafze », في مجلة : *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. iv (1934), p. 202.

٣) مغارة الزطية : Turville-Petre, § 9, « Report on the Galilee Skull » by Edward Keith.

٤) انظر : Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel*, vol. ii (Oxford, 1939), ch. 2; cf. Earnest A. Hooton, *Up from the Ape* (New York, 1946), pp. 336-9; Alfred S. Romer, *Man and the Vertebrates* (Chicago, 1941), pp. 219-22.

نفسه ؛ وكانت الذقن اكبر ولكنه كان ينقصها التركيب المتصل بالكلام المترابط. وعلى ذلك فانها تشكل على ما يظهر حلقة هامة في تطور الانسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الادنى مسرحاً لتكوين نوع متوسط بين الانسان البدائي والانسان الحديث.



وكان انسان هذه البلاد لا يزال يعيش في الكهوف في اواسط العصر الباليوليتي (الحجري القديم). وصناعته كانت تقوم كالسابق على اعداد شظايا غير منتظمة وقطع خشنة من الصوان استعملها كبلطات يدوية ومكاشط وسواطير ومطارق[١]. ومما لا شك فيه ان النظام الاجتماعي كان بدائياً يدور حول وحدات من الجماعات التي تعيش على ما تنتجه الطبيعة من حيوان او نبات في شكله الطبيعي. وتشير العظام البشرية المكسرة بحذق لاستخراج المادة النخاعية التي طمع فيها الانسان الى وجود عادات تتصل باكل اللحوم البشرية. وكانت الضحايا من الاعداء الذين يقعون في الأسر او من الاقارب الذين اصبح وجودهم غير مرغوب فيه. وقد يكون بعضهم من الاشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية.

١) راجع : Garrod and Bate, pp. 88-90, 109-12; Turville-Petre, §§ 3, 6; Neuville in *Revue Biblique* (1934), pp. 237 seq.

وكانت الاحوال الاقليمية لهـذه الحضارة تتجه اتجاها واضحاً نحو الجفاف بين دورين ممطرين . وتنبئ البقايا الحيوانية عن وجود الغزال والضبع المرقط والدب والجمل وخنزير النهر والوعل بالاضافة الى الكركدن وفرس النهر[١] . ومع ان الطقس اصبح دافئاً وجافاً فان الانهـــار للدائمة كانت لا تزال تروي البلاد وبقيت هنالك بعض المساحات المحرجة والمشجرة .

وفي الفترة الاخيرة من اواسط العصر الحجري القـــديم طرأ تغير شديد على الاحوال الاقليمية وهطلت الامطار بغزارة . وهكذا حصلت فترة اخرى ممطرة دامت عشرات الآلاف من السنين ولا نعلم عنهـا الشيء الكثير بالنسبة لسورية وفلسطين . وتمثل هذه الفترة الملاجئ الصخرية في منطقة نهر الجوز (قرب البترون) ونهر ابراهيم[٢] . واخذت الحياة الحيوانية تتخذ مظهرها الحديث في هذه الفترة العامة بينما اختفت النماذج الاولية .

الدور الاخير للعصر الحجري القديم

وفي خلال الدور الاخير للعصر الحجري القديم الذي دام مدة طويلة هنالك ما يبرهن عن تزايـد في الجفاف باستثناء مرحلة من الرطوبة . وتشير البقايا الاثرية الى تناوب الاقليم الحار والبارد من النوع الرومي (اقليم بلاد البحر المتوسط) ويمتد ذلك حتى اواخر العصر الحجري القديم[٣] . وتقابل حضارة هـــذا الدور الفترة الاورغناسية (Aurignacian) في اوربا (وسميت كذلك باسم مركز نموذجي في فرنسا) وتتمثل في مكتشفات كهوف انطلياس ونهر الكلب[٤] وفي كهف اكتشف قرب بحيرة طبريا[٥] . واظهرت الحفريات الحديثة (١٩٣٨) في كسار عقيل قرب

---

١) انظر : Garrod and Bate, p. 226; Turville-Petre §§ 4, 8.

٢) راجع : Zumoffen, *La Phénicie*, pp. 29-48; *Anthropos*, pp. 443 *seq.*

٣) راجع : Leo Picard, *Structure and Evolution of Palestine* (Jérusalem, 1943), pp. 119-120.

٤) انظر مقال ألفرد إ. داي (Alfred E. Day) «آثار الانسان الاول المكتشفة حديثاً في انطلياس» في مجلة الكلية م ١٢ (بيروت ١٩٢٦) ص ٤٩٦ — ٤٩٩ ؛ Zumoffen, *La Phénicie*, pp. 20-28, 49-87; *Anthropos*, pp. 443 *seq.*

٥) مغارة الاميرة . انظر : Turville-Petre, § 2.

انطلياس بقايا هياكل عظمية لحيوانات مثل الضبع والكركدن والثعلب والماعز وكذلك بقايا بشرية[١] . ومتحف الجامعة الاميركية في بيروت غني بادوات العصر الحجري بصورة خاصة .

وتحتل بقايا الغزلان مكانة رئيسية بين البقايا الحيوانية . وبينا لا تختلف صناعة هذا الدور اختلافاً اساسياً عما سبق فان الادوات الحجرية تظهر ميلاً الى التضاؤل في الحجم وتصبح ادوات حجرية صغيرة (ميكروليتية) . ويشير ذلك الى ان الانسان قــــد بدأ في تركيب ادواته او اسلحته في مقابض خشبية او عظمية حتى اصبحت قسماً من آلة مركبة . وبما ان الخشب سريع العطب فانه لم يترك لنا اي اثر بينا اكتشف العظام التي يظن انها كانت تستعمل لهذا الغرض .

النار : الفحم

ان اقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن في هذه البلاد قد اتت من احدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل[٢] وترجع الى نهاية الدور الاول للعصر الباليوليتي اي الى نحو ١٥٠،٠٠٠ سنة . وهناك قطع اخرى ترجع الى الدور الاخير من العصر الحجري القديم (الدور الاورغناسي) وقد اكتشفت في كهف مجاور[٣] وتشير في تركيبها الى نماذج السنديان والطرفاء والزيتون والكرمة[٤] . ويبدو ان الانسان البدائي في تدرجه البطيء الشاق من المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفة لا قصداً على اكتشافات اعطته بعض التفوق واثرت على قــــدرته الكامنة على الاختراع وزادتها قوة . ومن اقدم هذه الاكتشافات اكتشاف النار .

فانسان العصر الحجري القديم لا بد انه شاهد او استعمل النار التي ولدتها الشهب الساقطة والبرق وسائر الاحداث الطبيعية . كذلك لا بد ان قطعاً من اللحم النيء

---

١) راجع : J. Franklin Ewing, « Aurignacian Man in Syria », *American Journal of Physical Anthropology*, n.s., vol. iv (1949) pp. 252-3;

ومقاله في مجلة المشرق م ٤١ (١٩٤٧) ص ٢١٨ — ٢٤٨ . وتشير المكتشفات الاثرية في ١٩٤٨ الى سكنى الانسان بصورة متواصلة لوادي انطلياس منذ ٣٠،٠٠٠ ق. م.

٢) مغارة الطابون . انظر : Garrod and Bate, p. 129

٣) مغارة الوادي قرب الطرف الغربي للكرمل .

٤) راجع : Garrod and Bate, p. 129.

والثار الخضراء والجذور التي يمكن اكلها قد وقعت في النار بطريق الصدفة . وليس من شك ان ما نتج عن ذلك من طراوة وتحسن في الرائحة دعت الانسان المتيقظ الفكر او المحب للاستقصاء الى اعادة التجربة . ولا بد ايضاً انه لاحظ الشرارات التي يولدها الاحتكاك والقدح عندما كان ينحت او يرقق الصوان وسائر الحجارة القاسية . غير انه اضطر الى ان ينتظر اجيالاً طويلة قبل ان يظهر رجل مجهول من طراز اديسون او بالاحرى رجال من هذا الطراز يفكرون بهذا الحادث ويحاولون توليد النار والسيطرة عليها لاجل اغراضهم الخاصة . وبهذا الحادث بدأ انقلاب من اعظم الانقلابات في تاريخ سير البشرية في معارج التقدم . وقد عرفت بالتدريج فائدة الشرارة وذلك ليس في اعداد مآكل جديدة فحسب ، وانما كتدبير للوقاية من البرد وكوسيلة لصد الحيوانات الجارحة وطرد حيوانات الصيد من الغابات .

اللغة

وهنالك عمل آخر فعّال تم تحقيقه في اوائل العصر الحجري القديم وهو نشوء تلك الوسيلة الخاصة للاتصال بين انسان وآخر التي نسميها اللغة . ويعود اصل اللغة الى عمل عقل كان لا يزال في بدء التحول الى عقل بشري ولذلك فانه ابعد من ان يتمكن البحث من تناوله . وقد ساعدت اللغة باعتبارها عملاً يهدف الى تأسيس الاتصال الفكري بين انسان وآخر على الجمع بين افراد منعزلين لتشكل منهم جماعات. وان عمليات تطورها واكتساباتها بمجموعها كانت عمليات تقوي المؤالفة بصورة متزايدة . ولكن بما انه لم يكن بمقدورها ان تترك آثاراً ملموسة حتى اختراع الكتابة بعد آلاف السنين فانه ليس لدينا من ادلة اثرية لاجل البحث عنها .

العصر الحجري الوسيط

يتطور العصر الحجري القديم بصورة لا يشعر بها نحو العصر الحجري الحديث الذي استخدم فيه الانسان الادوات الحجرية المصقولة . وقد سميت الفترة الانتقالية بالعصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام ١٢٠٠٠ ق . م . وانسان العصر الحجري الوسيط لم يقتصر على صقل الصوان والبازلت وسائر المعدات والاسلحة الحجرية بحيث جعلها اكثر فعالية بالنسبة لاغراضه ولكنه زيادة على ذلك استغل للمرة الاولى موارد بيئته لدرجة تستحق

الذكر . وتتمثل هـذه الحضارة في فلسطين بالدور النطوفي الذي سمي كذلك باسم وادي النطوف في شمال غربي القدس حيث نقبت الآنسة جارُد في ١٩٢٨ في كهف الشقبة[١] . وا كتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعـــد في مغارة الوادي وغيرها من المواقع .

الحضارة النطوفية

بدأت الحضارة النطوفية في اول العصر الحجري الوسيط ودامت حتى الالف السادس . وكان البشر الذين عاشوا في عهد تلك الحضارة من عرق اقصر قـامة من العرق الذي عاش في عهد الحضارة السابقة كما انهم كانوا نحـــاف الجسم مستديري الرؤوس يشبهون انسان العصر البرونزي الحجري الذي وجـدت آثاره في بيبلوس (جبيل) والمصريين الذين عاشوا في عصر ما قبل السلالات . ويبدو انهم كانوا من افراد العرق نفسه الذي انتسب اليه الحـاميون والساميون فيما بعد[٢] . وبالرغم من ان الحياة الحيوانية في العصر النطوفي كانت من النوع الحديث بصورة عامة فان هنالك فروقاً هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم. فقد كانت بقايا الغزلان لا تزال كثيرة ولكنها من نوع الايل وهو نادر اليوم ويدل على وجود احوال الجدب والجفـــاف . والضبع كان مرقطاً حينذاك من النوع الذي نجده فقط في جنوبي الصحراء الكبرى اليوم . والقنفذ كان يختلف تمـــام الاختلاف عن النوع القصير الاذنين الموجود حالياً[٣] . والاحوال الاقليمية قد تكون سبباً لاختفـاء حيوانات مثل الحصان والوعل الاحمر فيما بعد . والصناعة تكثر فيها العظام المشغولة والمحفورة ورؤوس السهام التي لها فرضة . والادوات كانت من النوع الصغير (او الميكروليتي) وهذا من مميزات حضارة العصر الحجري الوسيط .

---

١) انظر : Dorothy A. E. Garrod, « Excavation of a Palaeolithic Cave in Western Judaea », *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1928), pp. 182-5; Garrod and Bate, p. 114.

٢) انظر : W. F. Albright, « The Present State of Syro-Palestinian Archaeology », *The Haverford Symposium on Archaeology and the Bible ed Elihu Grant.* (New Haven, (1938), p. 7.

٣) راجع : Garrod and Bate, p. 153.

تدجين الحيوانات

ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب كبير في طبقات احد كهوف الكرمل[١] اول برهان عن تدجين الحيوانات ، وهذا حادث له اهميته البالغة في سير الانسان نحو الحياة المتمدنة . وقد دُجن الكلب حين كان لا يزال الانسان صياداً . وفيما سوى فائدة الكلب في الصيد والحراسة فانه كان اول جامع للنفايات وفضلات الطعام . وترينا ادلة اخرى ان تدجين الماشية الذي ادى الى حياة الرعي وما صحب ذلك من توفر طعام يمكن الاعتماد عليه اكثر مما كانت الحالة عليه في حياة الصيد ، قد اتى بعد حين . فقد كان على الانسان ان يدجن نفسه قبل ان يتمكن من تدجين سائر الحيوانات . واكتشفت اشكال نذرية من الطين تمثل حيوانات داجنة كالبقر والماعز والغنم والخنازير في مزار في اريحا تعود الى اواخر الالف السادس ق . م[٢] . ويحصل تدجين الحيوانات عادة بينما يكون الانسان في حالة البداوة ولذلك فانه يسبق ممارسة الزراعة . ولا بد ان انساناً من العصر الحجري الوسيط في الشرق الادنى قد اتته فكرة تدجين الحيوانات بطريق الصدفة . فقد حركته عاطفة الشفقة او المحبة واحتفظ في احدى المناسبات بصغار الحيوانات بعد قتل كبارها وراح يربي الجرو او النعجة مع اولاده ونجحت العملية ومن ثم اعيدت هذه التجربة ووسعت . فالانسان شمل الحيوان بحمايته وحصل منه مقابل ذلك على الحليب والخدمة إما في اعمال الصيد او في حمل الاثقال . واخذ المجتمع البدائي لحضارة العصر الحجري القديم يتراجع امام احوال اكثر تقدماً .

الزراعة

وعندما كان الانسان صياداً فان حركاته كانت تمليها حركات الحيوانات البرية التي كان يسعى وراءها لاجل الغذاء . وفي مرحلة حياة الراعي عندما حصل تدجين الحيوانات ظل الانسان متنقلاً ولكن مع هذا الاختلاف : وهو ان حركاته كان يمليها عليه بحثه عن المراعي الخضراء لاجل قطعانه . غير ان الحضارة النطوفية شهدت في اواخر العصر الحجري الوسيط او ربما في اوائل العصر الحجري الحديث

---

١) مغارة الوادي . انظر : Garrod and Bate, pp. 175-7.

٢) راجع : Johon Garstang and J. B. E. Garstang, *The Storg of Jericho* (London, 1940), pp. 49-51.

بذه مرحلة اخرى اتجهت نحو حياة الاستقرار وكان لها تأثير أثبت على الانسان وهذه المرحلة هي ممارسة الزراعة .

وقد كانت سورية مُسعدة بانها موطن الحيوانات النبيلة التي يمكن تأليفها كما انها موطن الحشائش التي يمكن تدجينها . فالقمح والشعير البريان ينموان بصورة طبيعية في سورية الشمالية وفلسطين[1] ولا بد ان قيمتها الغذائية قد اكتشفت في عصر بعيد جداً . والمناجل الصوانية وسائر الادوات التي تركها النطوفيون[2] بكميات كبيرة تظهر انهم ومعاصريهم في سورية الشمالية كانوا من اول من مارس شكلاً ما من اشكال الزراعة في الشرق الادنى . وكان الناس لا يزال اكثرهم من سكان الكهوف الذين يشبهون سكان مصر[3] ويعيشون على الصيد البري وصيد الاسماك وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي . ولا ريب ان الزراعة بدأت كعملية زرع بدائية بواسطة الفأس وكانت تستوجب التنقل من مكان الى آخر عندما تستنفد التربة السطحية خيراتها . ويحتمل ان تكون الخطوات الاولى قد اتخذت قبل الالف السادس وذلك قبل ظهور الخزف او المعادن بقرون . وهكذا اصبح جامع الغذاء منتجاً له الآن . وكانت اكياس الجلد والقطين لاتزال تستخدم لخزن الاطعمة والسوائل ونقلها . وليس لدينا دليل عن ممارسة اي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد . ويبدو ان المهاجرين الساميين الاولين الى مصر انما اتوا من سورية وادخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة[4] . والكلمة التي تعني القمح (gmhw) وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة (ka(r)mu) في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من السامية وبالاخص من الكنعانية[5] وتبدو صور المحاريث من بلاد بابل ومصر وسورية الحديثة متشابهة بشكل يلفت النظر (انظر الشكل في الفصل الحادي عشر).

---

١) انظر : Childe, p. 45; René Neuville, « Les Débuts de l'agriculture et la faucille préhistorique en Palestine » *Journal of the Jewish Palestine Exploration Society* (1934-5), pp. xvii seq.

٢) راجع : D. A. E. Garrod « A New Mesolithic Industry: The Natufian of Palestine », *Journal Royal Anthropological Institute of Great Britain*, vol. lxii (1932), pp. 261, 263, 265.

٣) انظر : Strabo, *Geography*, Bk. XVII, ch. I, § 2

٤) انظر : H. R. Hall, *The Ancient History of the Near East*, 8th ed. (New York, 1935), pp. 89-90.

٥) راجع : W. F. Albright, « Palestine in the Earliest Historical Period », *Journal of the Palestine* Oriental Society, vol. xv (1935), pp. 212-13.

اما كيف اكتشف انسان العصر الحجري الوسيط احتمال تدجين النباتات فذلك لا يمكن لأي امرئ ان يقوله بالضبط . وقد اعتاد الانسان حتى هـذا الوقت ان يجعل بعض الحبوب البرية في جملة طعامه . ولا بد ان بعض هـذه الحبوب سقطت بالصدفة على الارض في زمن ما وان انساناً او بالاحرى انساناً متفوقاً لاحظ نمو الحبوب بكثافة حول مخيم السنة السابقة وعندئذ اشرقت الفكرة العظمى في عقله . ولم يكن باقل من انسان متفوق ذاك الذي حمل قبيلته بالقوة او بالاقناع على عدم استهلاك جميع البذور التي جمعت في فصل معين وعلى ابقاء بعضها بل انتقاء اجودها لضمان غلة في المستقبل وتحسينها . وقد مهدت زراعة القمح والشعير الطريق لسائر الحبوب كالذرة مثلاً وفيما بعد للثمار مثل العنب والتين والزيتون وكذلك لمختلف انواع الخضار التي زرعت جميعها وتحسنت قبل ان يبدأ التاريخ .

حياة الاستقرار

وقد كانت الزراعة عملاً انقلابيا بالنسبة لتقدم الانسان اكثر من تربية المواشي وبتطورها اخذ الانسان يعيش في اكواخ مبنية من الطين او في بيوت من اللبن . وقد وجدت بقايا المساكن البدائية في اقدم الطبقات التي سكنها الانسان في اريحا وترجع الى نحو ٥٠٠٠ ق . م.[١] وفي طبقات تل الجديدة[٢] ورأس الشمرة[٣] وكذلك ببيلوس[٤] التي اتت بعدها . ولم توجد مساكن بشرية اقدم من هذه في اي مكان آخر وقد يكون لاريحا اقدم تاريخ متواصل من اية مدينة في العـالم . وانسان العصر الحجري الوسيط الذي كان حتى الآن متنقلاً اصبح بعد ممارسة تربية المواشي والزراعة ممارسة تامة مستقراً منتجاً يسيطر على موارد غذائه . واخذت الكهوف والملاجئ الصخرية في الاماكن المرتفعة تهجر بالتدريج واستبدلها الانسان بالمساكن في السهول، وظهرت ملكية الارض . وعندما كان الانسان متجولاً لا يستقر في مكان

---

١) انظر : Garstang and Garstang, pp. 47-8

٢) في شمالي سورية ولا يزال اسمها القديم مجهولاً. انظر ص ٢٢ فيما يلي هامش رقم ١ .

٣) انظر : Claude F. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 3-4

٤) راجع : Maurice Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. i (Paris, 1939), text, pp. 295-6.

ويعتبر دونان مباني بيبلوس من حوالي ٣٢٠٠ ق. م. اقدم مبان حجرية اثرية في الشرق وربما في العالم . وكان الذين بنوها غالباً من الشعوب التي سبقت قدوم الساميين . وترجع المقبرة الى النصف الاول من الالف الرابع .

واحد بحيث لاتؤثر عليه بيئته تأثيراً كافياً لم يكن بمقدور هذه البيئة ان تغيره التغير الكلي او تعطيه لونها المحلي ومن هنا فقد كان اختباره موزعاً وغير متشابه . اما الآن فان استقرار مسكنه قد عمل على تجمع الاختبارات المتشابهة وانتقالها بشكل تقاليد حضارية . وعلى ذلك فان الانسان المستقر قد كوّن لنفسه مخازن ليس للغذاء فحسب وانما للافكار التي جعلته قادراً على نقل اختباره الى الاجيال المقبلة بصورة احسن .

الحياة العقلية

كانت احدى النتائج الهامة للحياة الجماعية انها عملت بصورة قوية على تطور اللغة . والذي يذهلنا اليوم هو درجة الاتقان التي وصلتها اللغة بفعل العقل البشري في العصر الحجري الوسيط وترينا مقارنة العربية الحديثة الدارجة مثلاً بما يمكن معرفته من اللغة السامية الام تطوراً مستمراً نحو التبسيط بالنسبة للمستوى العالي في عصور ما قبل التاريخ البعيدة .

واثر آخر للحياة العقلية عند انسان العصر الحجري الوسيط اعتقاده الديني بآلهة او بمجموعة من الآلهة وظهور فكرة بدائية عنده اولية عن نوع من حياة ثانية للراحل بعد الموت . ويدلنا على ذلك وجود اواني الطعام والتقدمات في اماكن الدفن . وتعود آثار مثل هذا المعتقد الغامض بالحياة الثابتة الى الحضارة الموستيرية . غير ان تربية المواشي وممارسة الزراعة جعلت الديانة اكثر تعقيداً وصاروا يفضلون الآلهة التي تهتم بالحقول والمواشي على الارواح التي يعتمد عليها الصيادون . ففي مرحلة حياة الرعي كان الناس على ما يظن يعبدون الاله القمر الذي كان اكثر نفعاً وتلطفاً من الشمس في بلاد حارة مثل سورية وفلسطين . وكان القمر يبدد رهبة الظلام ويأتي بالبرودة التي يمكن للقطعان ان ترعى فيها براحة . ولذلك فانه كان صديق الراعي اكثر من الشمس . والمعبد الذي وجد في اريحا ويرجع الى اواخر الالف السادس ق. م. ربما كُرس للاله القمر[١] .

واثناء نشوء الحياة الزراعية اوجد الانسان في فكره ارتباطاً بين النمو وبين الشمس التي اخذت حينذاك تتقدم على القمر . وبدأت في ذلك العهد عبادة الالاهة الشمس وكذلك عبادة الارض الأم بشخص الاهة للخصب تتعهد شؤون الزراعة .

---

١) انظر ما سبق ص ١٦ .

واتخذت الديانة شكلاً مؤنثاً واضحاً لسبب آخر وهو ان المرأة يمكنها ان تمارس الزراعة بسهولة اكثر من ممارسة الصيد. والرموز المتعلقة بطقوس العبادة وكذلك الميتولوجيا المتصلة بالاهة الخصب التي بلغت ذروتها فيا بعـــد في قصص أدونيس — عشتار واوزيرس — ايزس في فينيقية ومصر كانت اصولها في هـذه الفترة. ولا بد ان مجموعة التماثيل الثلاثة التي اتت من اريحا القديمة وتشمل الاب والام والابن[١] كان لها معنى طقسي كما انهـا تفيدنا بان نظام العائلة كان قد اتخذ في الالف الخامس الشكل الذي اتخذه بصورة دائمة فيا بعد.

الفن

ورافق نمو انسان العصر الحجري الوسيط من الوجهـة الدينية تطوره الفني. والفن هو كاللغة صفة مميزة للبشر. وقد ولد عندما استيقظت امكانية التقليد المتعمد في وعي احد ابناء العصر الحجري. ودخلت حينذاك نفس الانسان في عـالم جديد هو عالم الخيال والجمال.

وكان الفن في مظهره الاول مرتبطا بالسحر ارتباطاً وثيقاً، وكان يُظن انـ صورة الحيوان تعطي الرسام سلطة على ما يرسمه او يمثله. وقد وجد في احد كهوف الكرمل رسم رأس ثور حفره انسان العصر الميزوليتي في العظم. ولما كان الانسان يشعر بالقوى المحيطة به ويعلم مقدار عجزه فانه وضع نظاماً سحرياً عززه بتمائم من العظم والحجر والتمس بواسطته الحماية من الاشياء التي كان يرهبها. فالخوف كان عنصراً اساسياً في ديانته الاولى. ونراه فيا بعد يبحث عن بعض الفوائـد بواسطة السحر ومن جملة هـــذه الفوائد زيادة محصول قطيعه او غلته. فعبادة الارواح والسحر هما اساس الديانة البدائية عـلى الغالب. فعبادة الارواح هي التي جعلت الانسان ينسب الى مختلف الاشياء التي تحيط به روحاً تسكنها وعليه ارضاؤها اذا كانت خبيثة او تقديم التقدمات لها اذا كانت نافعة.

والقطع المحفورة في العظم او الحجر من العصر النطوفي كثيرة واحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم. ويبدو ان «اقـــدم الامثلة المعروفة للفن

١) انظر: Garstang and Garstang, p. 57

التشكيلي في فلسطين على كل حال[١] » هي تلك التقدمات النذرية على شكل صور الحيوانات الداجنة التي وجدت في اريحا[٢]

حضارة العصر الحجري الحديث

وفي العصر الحجري الحديث (او النيوليتي) الذي دام نحو الفي سنة اعتباراً من عام ٦٠٠٠ ق . م . حصل تقدم محسوس في الزراعة وتربية الحيوانات واستعمال الادوات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة . وقد رأى هذا العصر ايضاً اختراع الخزف واكتشاف المعدن . وتختلف حضارة العصر الحجري الوسيط في سورية وفلسطين عن سائر الحضارات الميزوليتية بان صفتيها البارزتين وهما تربية المواشي والزراعة تسبقان الخزف والمعدن .

وعندما تعلم الانسان صنع الاواني من الطين وخبزها فانه قام باكتشاف آخر بالغ الاهمية في مجال تقدمه الحضاري . وسرعان ما حلت الاواني الخزفية محل الاواني من اليقطين او الجلد او قطع الحجارة والخشب المجوفة التي كانت تخدم حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت ولو بصورة غير تامة . وكان مؤدى الاختراع الجديد ان الانسان صار بامكانه ان يعيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج اليها وان يطبخ طعامه طبخاً حقيقياً بدلاً من ان يأكله نيئاً او مشوياً ، واهم من ذلك ايضاً انه صار يتمكن من خزن ما لا يمكنه استهلاكه في وقت معين ليستخدمه في المستقبل وهكذا اضاف الانسان الى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه . وبعد ان صار جامع الطعام في مرحلة البداوة منتجاً للطعام في مرحلة الزراعة اصبح الآن فوق هذا كله حافظاً للطعام . وقد اعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة ، وكانت اوقات الفراغ امراً ضرورياً في تنمية شؤون الحياة الرفيعة .

الخزف

يظهر الخزف في فلسطين في احدى الطبقات الدنيا في اريحا ويعتقد غارستانغ انه اخترع هناك[٣] . وقد اتخذ الخزف في اول الامر شكل احواض مجوفة في

---

١) انظر : Garstang and Garstang, p. 54

٢) راجع ما سبق ص ١٦ .

٣) انظر : Garstang and Garstang, pp. 53-4

لارض ومبطّنة بطبقة من الكلس ثم اشكال جرار ذات اطراف بسيطة وقعر مسطح وممسكات على شكل الكرة أو العروة . ويظهر اقدم الخزف في سورية في القسم الواقع بين النهرين . وقد يرجع خزف سورية الشمالية ذو اللون الواحد الى حوالي ٥٠٠٠ ق . م . وقد تبع ذلك خزف مدهون من تل الجديدة[1] الواقعة في شمالي شرقي انطاكية ويعود الى حوالي منتصف الالف الخامس وهو مزخرف برسوم بدائية جداً . وينتسب الى نفس الطبقة الحضارية الخزف المدهون الذي اكتشف في « ساكجي جوزي » في اقصى شمالي سورية واقدم انواعه هو الخزف الاسود المحفور ، وتتبعه انواع جديدة ذات زخارف ملونة[2] . ووجدت قطع من خزف سورية الشمالية في مناطق بعيدة الى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة . ويغلب ان يكون حصل اختراع دولاب الخزف قبل عام ٤٠٠٠ ق . م . ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة في جنوبي فلسطين حتى حوالي ٢٠٠٠ ق . م . وكان الخزف قبل هذا الاختراع يصنع باليد .

وقد شهد القسم الاخير من الالف الخامس والقسم الاول من الالف الرابع ارفع مرحلة في تاريخ الفن الزخرفي القديم . وكانت منطقة سورية الشمالية وبلاد الرافدين مركز هذه المرحلة . ويمكن تسمية هذه الحضارة بحضارة تل حلف بالنسبة لتل حلف[3] (وهي غوزان القديمة) على نهر الخابور . وتمثل هذه الحضارة في الغرب مدينة مرسين في كيليكية . وكان رجالها من مزخرفي الاواني الذين حاولوا التفوق كما يبدو على ما بلغه صناع السلال وحائكو السجاد من مهارة فنية . وكانت اوانيهم التي تشمل الصحون والطاسات والزوارق والجرار والكؤوس تعتبر من الوجهتين الصناعية والفنية من اجمل الاواني المصنوعة باليد في العصور القديمة . كانوا يستعملون الزخارف الهندسية والنباتية المتعددة الالوان « التي لم يجاوزها شيء في

---

١) وقد نقب فيها روبرت ج . بريدوود (Braidwood) . انظر كتابه : *Mounds in the Plain of Antioch* (Chicago, 1937), p. 7 ; Prehistoric Men (Chicago, 1948), pp. 92-3.

٢) راجع : John Garstang, « Excavations at Sakje-Geuzi, in North Syria », *Annals of Archaeology*, University of Liverpool, vol. I (1908), pp. 114-17.

٣) قام باعمال التنقيب فيها ماكس فون اوبنهايم (Max F. Von Oppenheim) ; انظر كتابه : *Deir Tell Halaf* (Leipzig, 1931) . و « التل » هو مرتفع اصطناعي مؤلف من أنقاض عدة مدن يعلو بعضها بعضاً . وهذا المظهر خاص بآسية الغربية حيث يبدو منذ ٢٠٠٠ ق. م. وكلمة « تل » عربية من اصل سومري .

جمالها في اي عصر آخر من عصور التاريخ وذلك من وجهة نظرنا الحديثة على الاقل[١] . وليس هنالك ايضاً ما يحملنا على الاعتقاد بان مقدرة الانسان العقلية قد ازدادت كثيراً منذ ذلك الحين . وان اكبر عدد من مراكز السكن من عصر الخزف المدهون الذي نحن بصدده واكثف البقايا وارقى الاثار الحضارية قد اتتنا من شمالي سورية وبلاد النهرين ، وهذا لا يترك لنا اي شك بان تيار الحضارة الرئيسي في غربي آسيا كان يمر حينذاك في هذه المنطقة تاركاً المناطق المجاورة غير متأثرة نسبياً .

ان اضافة الخزف الى ادوات الإنسان البيتية قد اسدت وان يكن بطريق الصدفة خدمة علمية مفيدة . ذلك ان الخزف غير قابل للتلف بالرغم من انه يمكن ان يتحول الى قطع مكسرة لا حصر لها . واسلوب صنعه وزخرفته يظهر لنا ذوق العصر وازياءه كما تظهر ذلك ثياب النساء في ايامنا هذه . وتوزع الخزف يعطينا احسن دليل للعلاقات التجارية القديمة . ولذلك فان دراسته تفتح للعالم الحديث نافذة واسعة يمكنه ان يتطلع منها الى الماضي المظلم . وتفتح الاواني المعدنية لنا نافذة اخرى . وبظهور الخزف والمعدن ننتقل من عصر ما قبل التاريخ الى بدء العصور التاريخية .

---

١) انظر : William F. Albright, *From the Stone Age to Christianity* (Baltimore, 1940), p. 98.

الفصل الثالث

الأدوات المعدنية

بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدرج الانسان حل فيها المعدن محل الحجارة كمادة رئيسية لصنع الادوات، وتسمى هذه المرحلة بعصر المعدن .

العصر النحاسي الحجري

وقد يكون هـذا الاكتشاف قد حصل في غربي آسيا بعد اختراع الخزف بمدة وجيزة، غير ان استعمال النحاس، وهو اول المعادن، على صورة واسعة قد تأخر غالباً نحو الف سنة . وفي سورية وفلسطين اخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع الى حد قليل حوالي ٤٠٠٠ ق . م . ولكنه لم يأخذ مكان الحجـارة كمادة رئيسية لصنع الادوات والاسلحة حتى بعد ٣٠٠٠ ق . م . ويمكن تسمية هذا الالف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الاوساط الراقية بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتكثر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في اوغاريت وسائر المواقع في شمالي سورية وفي تليلات الغسول[1] (التي اتت منها ادوات تعد من اقـدم الادوات المعدنية التي اكتشفت في فلسطين حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين . وفي حوالي ٣٠٠٠ ق . م . يبدأ العصر النحاسي وكثيراً ما يدعى خطأ العصر البرونزي . وتم فوز النحاس باكتشاف فلزات هذا المعدن في ادوم جنوبي البحر الميت وشرقيه حوالي ٢٠٠٠ ق . م .

وتظل سورية الشمالية في العصر النحاسي الحجري كما في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الادنى بأسره . ولا بد ان احد سكان هذه المنطقة قد اكتشف النحاس عندما كان يحرك نار مخيمه صدفة بقطع من المعدن الخام ثم

---

١) وقد نقبت فيها بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بعثة المعهد التوراتي البابوي . انظر : **Alexis Mallon *et al.*, *Teleilāt Ghassūl* I (Rome, 1934 ; Robert Koeppel *et al.*, *Teleilāt Ghassūl* II (Rome, 1940).**

لاحظ في اليوم التالي حبات المعدن المتلألأة بينما كان يحرك الرماد . وربما لم يدرك ذلك الانسان المقيم في سورية الشمالية في العصر الحجري الحديث انه بعمله هذا قد بدأ حركة انقلابية ادت الى رفع الحضارة بكاملها من مستوى الحجر الى المعدن وقد اصبح الانسان ، بعد اكتشاف المعدن وادراك خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الازمنة الحديثة . واتى البرونز بعد النحاس ثم تبعه الحديد . وصادف بدء عصر البرونز اختراع الابجدية . وهكذا تنتهي حضارات سورية السابقة لعصر الكتابة وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

وانتشرت معرفة النحاس من سورية الى جميع الجهات . ومن المحتمل جداً ان تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلالات من هذا المصدر عن طريق الغزوة السامية[1] . كذلك يمكن ان تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب[2] . وهكذا فان الجسر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحنى الفرات يبرز في اهميته كمسرح لتدجين القمح واختراع الخزف واكتشاف المعدن .

وتدل آثار الانسان في هذه المنطقة انه استخدم النحاس اولاً ثم مزيجه القاسي وهو البرونز لاجل صنع الاسلحة الحربية قبل ان يستخدمه لادوات السلم . وقد تمتعت القبائل او الجماعات التي جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للتطريق والالتواء بتفوق عظيم على تلك التي استعملت الحجارة . غير ان فنون السلم استفادت ايضاً . فقد تحسن فن العمارة بشكل ملموس . وظهرت ابنية كبيرة الحجم وتفيد بقايا المنازل انها كانت مستطيلة في تخطيطها بينما كانت المزارات مستديرة .

الحجارة الغسّولية

وفي مدينة تليلات الغسّول شمالي البحر الميت التي ترجع الى العصر النحاسي الحجري كان احد الجوانب الكبرى للبيوت المستطيلة كثيراً ما يقابل باحة .

---

١) انظر : Hall, p. 90 .

٢) اكتشف السومريون في الجنوب هذا المعدن على الغالب في زمن اقدم وبصورة مستقلة تلقوا ما يلزمهم من عمان ؛ انظر : Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (London, 1970), p. 36 ; « Sumerian Copper », *Report British Association for the advancement of Science*, 1928 (London. 1929), pp. 437-41.

وكانت الجدران مبنية من اللبن والاساسات مـن الحجر الغشيم . والسقوف كانت مصنوعة من القصب المغطى بالطين . وتحت ارض المنزل وجد اولاد وقـد دفنوا ضمن جرار . وبعض الموتى كانوا يحرقون وهذه عادة غير سامية قطعاً . وقد خصص سكان الكهوف في تل الجزر كهفاً لاحراق جثث رفاقهم المتوفين . وكان الحريق اسهل الطرق للتخلص من الجثة وبواسطته كانت روح الميت تستبعد بحيث لا يصيب الاحياء اي اذى . وان هذه الجرار التي تحتوي الموتى بدون ان يحرقوا وانما بشكل منحنٍ وتدفن تحت ارض منازل العصر النيوليتي قـد وجد مثلها في مناطق بعيدة في الشمال مثل اوغاريت[١] وكذلك في كركميش (جرابلس) في عصر متأخر[٢] . واكتشفت حوادث الدفن في اوان خزفية في اماكن اخرى كما في جزر[٣] (تل الجزر) جنوبي شرقي الرملة التي تنتسب الى نفس الحضارة القديمة . وفي جزر يمكن مشاهدة ساكن الكهف في طريقه لان يصبح من ساكني البيوت . والقرية التي نشأت فيما بعد احيطت بسور خشن كما كانت الحال في قرى كثيرة اخرى من عصر البرونز للحماية ضد الاعداء . وتبدأ تحصينات المدن في ذلك العصر . وقـــد وضع بجانب احدى الجثث المكتشفة في جزر خزف مملوء بالطعـام والشراب[٤] مما يظهر اهتماماً متزايداً بالموتى .

وتدل كومـــة العظام التي وجدت تحت معبد جزر ان الخنزير الذي دجنه الفلسطينيون منذ عهد بعيد كان الحيوان المفضل للذبيحة وهـــذا ما جعله موضع اشمئزاز بالنسبة لاعدائهم الساميين الذين اتوا بعدهم[٥] . وفي الجزر كانوا يزرعون العنب والزيتون ويدوسونها في حفر ذات تجويف اسفل لاجل الحثالة[٦] . ومثل هذه الاشكال البسيطة لمعاصر الثمار المنقورة في الصخر قد وجدت في اماكن اخرى

---

١) Claude F. A. Schaeffer, « Les Fouilles de Ras-Chamra », *Syria*, vol. XV (1934), pp. 111-12, pl. xi, No. 2, facing p. 110.

٢) C. Leonard Woolley, « Hittite Burial Customs », *Annals of Archaeology and Anthropology*, University of Liverpool, vol. vi (1914), p. 88; *Carchemish*, Vol. ii (London, 1921), pp. 38-9.

٣) قام باعمال الحفريات فيهـــا ١٩٠٢—١٩٠٨ ر . أ . مكاليستر Macalister ؛ انظر كتابه : *The Excavation of Gezer*, 3 vols. (London, 1912).

٤) انظر : Macalister, vol. ii, pp. 74 *seq.*, 285 *seq.*

٥) Macalister, vol. ii, pp. 379-80

٦) Macalister, vol. ii, p. 49

ايضاً . ويبدو ان الكرمة وشجرة الزيتون كانتا من نباتات حوض البحر المتوسط وقد زرعتا بصورة حثيثة ودجنتا في اول الامر في طرفه الشرقي ومن هناك انتشرتا فيما بعد باتجاه الغرب بطريق التجارة والتوسع . ويصدق هــذا ايضاً على شجرة التين . ولا يزال الزيتون وزيت الزيتون والعنب والتين والقمح والشعير حتى اليوم المواد الغذائية الاساسية في سورية . وفي بلد مثل فلسطين حيث التربة فقيرة بوجه الاجمال كان محصول الشعير اكثر بكثير من محصول القمح . وقمح الصين هو عيناً مثل قمح الشرق الادنى ويبدو ان الاصول البرية التي تحدرت منها ثيرانها واغنامها المدجنة اتت من الانواع البرية في الشرق الادنى[١] .

وقد جرت اعمال الحفر في مدن اخرى من العصر النحاسي الحجري من النموذج الغسولي في اريحا ومجدو[٢] (تل المتسلم) والعفولة وبيت شان (بيسان) ولاكيش (تل الدوير) واوغارت وبيبلوس . وتقابل الحضارة الغسولية في فلسطين حضارة تل حلف في سورية الشمالية وبلاد الرافدين وان اتت بعدها بقليل .

الزراعة المعتمدة على الري

وفي هذه الاثناء ازداد الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي . واتسع استخدام الثور والغنم والماعز التي بدأ تدجينها في العصر الحجري الحديث كما يتضح من ظهورها المتكرر على التماثيل الصغيرة من الطين . وهنالك اشكال حيوانية داجنة اخرى كانت شائعة وتمثل الخنازير والحمام . وتفيدنا الدلائل التي اتت في فترة تالية ان الحــمامة كانت مقرونة بالالاهة الام وهي الآلهة التي تمثل مبدأ الحياة والخصب . وكانت تقع جميع مراكز السكنى تقريباً في العصر النحاسي الحجري في اودية الانهار او السهول اللحقية وكانت تعتمد على الري. وهكذا فان العمل البارز في هذه الفترة في ميدان الزراعة هو الزراعة المعتمدة عــلى الري وتشمل زراعة انواع متعددة من الخضار كالخس والبصل والثوم والحمص والفول والتوابل . وينعكس هذا الازدياد في تنوع الغذاء المتوفر وكميته في ارتفاع وسطي القامة البشرية ارتفاعاً ملموساً في اواخر العصر النحاسي الحجري .

---

١) راجع : Carl. W. Bishop, « The Beginnings of Civilization in Eastern Asia », *Journal of the American Oriental Society*, vol. lix, suppl. (Dec. 1939).

٢) انظر : Robert M. Engberg and Geoffrey M. Shipton, *Notes on the Chalcolithic and Early Bronze Age Pottery of Megiddo* (Chicago, 1934).

التركيب العرقي

اما التركيب العرقي لسكان مراكز هـــذا الدور فانه ليس واضحا . والعنصر السائد حتما لم يكن ساميا ، والساميون كما سنرى يأتون فيما بعـــد ويحتلون شمالي سورية وجنوبيها. ولا بد ان ظهورهم حصل حوالي نهاية العصر النحاسي الحجري . ويحتمل القول بان بعض سكان هذه الفترة كانوا ينتسبون الى نفس العنصر الاصلي الذي تفرع عنه الساميون والحاميون فيما بعد . والبعض الآخر كانوا على ما يبدو من العنصر المعروف بالارمنوي كما تفيد دراسة بقايا الهياكل العظمية في الجزر في جنوبي البلاد[١] . وتدل البقايا الاثرية الاخرى المكتشفة في كركميش وساكجي غوزي في الشمال على الانتساب لهذا العنصر وتثبت شيوع النموذج الارمنوي في سورية في العصر النحاسي الحجري . ويساعد على اثبات ذلك ان كثيراً من اسماء الاماكن القديمة في سورية الوسطى والشمالية ومن جملتها دمشق وتدمر لا تترك مجالاً لاي اشتقاق سامي اكيد ، وربما كانت من بقايا الاسماء التي سبقت ظهور الساميين . والعنصر الارمنوي الذي هـــو الفرع الشرقي للعنصر الآلبي يتميز بالانف الثقيل البارز والجمجمة العريضة القصيرة . ويمثله الحوريون والذين سبقوا الهنود الاوربيين بين الشعوب القديمة والارمن واليهود بين الشعوب الحديثة . وزادت في قوة هـذا العنصر حركات تالية منها حركات الحثيين ولا تزال صفاته البـــارزة ظاهرة في البلاد السورية .

واذا لم يكن من شك بأن عروقا مختلفة شاركت في تكوين سكان سورية فان وجود عرق غريب من « الطغاة في الارض في تلك الايام »[٢] ليس هنالك ما يؤيده . ولا بـد ان قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الاقدام بالاضافة الى الاضرحة الاثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة على أسس مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيما على القادمين الجدد مما ادى الى ظهور مثل هذه الاساطير . وقد انتقلت هذه الاساطير المتعلقة « ببني عناق من الجبابرة[٣] » وبالعمالقة الى الادب العربي والاسلامي . واسم المدينة

---

١) Macalister, vol. i, pp. 58-9

٢) سفر التكوين ٦ : ٤

٣) سفر العدد ١٣ : ٣٣

الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي اتى منها جليات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت جُبرين) معناه «موطن الجبابرة».

وتكثر الدولمن حتى اليوم في شرقي الاردن ومرتفعات فلسطين وسورية وفي آسية الصغرى. وتبرهن آثار الادوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في احدى الدولمن في شرقي الاردن[١] انها تعود الى العصر النحاسي الحجري. واكثر هذه القبور (الدولمن) بدائية توجد في ارض كنعان وترجع الى العصر الحجري الحديث أي ٥٠٠٠ ق. م. وتظهر المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة في غربي اوربا بعد ذلك بالف سنة او اكثر وقد اثار وجودها قصصاً خيالية مماثلة عن الجبابرة في عصور ما قبل التاريخ.

التطور الفني

وقد تقدم الفن وخاصة الفن التشكيلي تقدما محسوسا بعد ظهور المعدن. وتكثر الاختام والحلي والاواني النحاسية الآتية من هذا العصر. وتحسنت الصفة الفنية لهذه المنتجات واشباهها. واخذ الناس يُعنون بصورة جدّية بفن النحت الذي كان اول ظهوره في العصر الحجري الوسيط كما رأينا. وقد اكتشفت رسوم بشرية وحيوانية على حجارة مرصوفة في طبقات العصر النحاسي الحجري الاخيرة في مجدو. وتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تليلات الغسول الموجودة على الجدران الداخلية المبيضة المبنية فن اللبن اشكالاً بشرية او إلهية بالوان متعددة[٢]. وكانت تلك اول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلي من المنزل. غير ان الزخارف على الخزف هي التي ظلت تتيح للفنان احسن الفرص لممارسة فنه. وفي نهاية الالف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بدء العصر المينوسي ومصر في اول عصر السلالات من شمالي سورية. وتبدو الاواني المزخرفة بطلاء زجاجي حسب تقاليد سورية الشمالية كمواد مستوردة في قبور الفراعنة الاولين في ابيدوس. وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سورية مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية الصغيرة المصبوبة

---

١) انظر: Gottlieb Schumacher, *Northern 'Ajlun* (London, 1890), p. 176

٢) راجع: Millar Burrows, *What Mean These Stones* (New Haven, 1941), p. 188; Chester C. McCown, *The Ladder of Progress in Palestine* (New York, 1943), pp. 61-63.

وبينها إله وإلاهة للخصب[١] يعتقد انهـــا اول تمثيل معروف للشكل البشري بواسطة المعدن .

وقد أدى نمو صنع المعادن والخزف الذي يتصف بــه اواخر العصر النحاسي الحجري واوائل العصر النحاسي الى ظهور حرَف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل . وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والاودية وفي اماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت . وبدأت التجارة تتخذ شكلًا دوليًا . وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين سورية وفلسطين ولبنان من جهة ومصر وبلاد بابل من جهة اخرى عاملًا اساسيًا في حياة هذه البلاد في العصور التالية . وقدْ نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الادنى نشاطا عظيما كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية .

ولم يبقَ سوى اختراع عظيم واحد حتى يظهر ضوء عصر التاريخ : ذلك الاختراع هو الكتابة . وقـــد اتت اول الوثائق المكتوبة المكتشفة حتى الآن من سومر حوالي ٣٥٠٠ ق. م. وانتشرت الكتابة من جنوبي بلاد الرافدين الى شمالي سورية واصبحت متقدمة تماماً في اوائل الألف الثالث . وبالكتابة يبدأ التاريخ . ولكن قبل ان ندخل في بحث عصر التاريخ في حياة سورية علينا ان نلقي نظرة على البلاد نفسها التي كانت مسرح الحوادث التاريخية .

---

١) وهي الآن في متحف المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو . انظر دليله : *Handbook and Museum Guide* (Chicago, 1941), pp. 6-7

الفصل الرابع

مسرح الحوادث

ان الصفة البارزة للطبوغرافية السورية هي تناوب الاراضي المنخفضة والاراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضاً وتتجه من الشمال الى الجنوب . ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق طولانية من هذا القبيل بين البحر والبادية .

السهل الساحلي

واول هذه المناطق من جهة الغرب هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقي من شبه جزيرة سيناء الى خليج اسكندرون (ايسوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فيتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . وفي القسم الذي يحاذي لبنان لايزيد عرض هذا السهل عن اربعة اميال في اي جزء من اجزائه بينما يبلغ اتساعه عشرين ميلاً عند عسقلان . وفي بعض الاحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلي مفاجئاً بشكل يستلفت النظر . ففي جونيه شمالي بيروت تلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً تلال ترتفع مقدار ٢٥٠٠ قدم على بعد اربعة اميال من البحر . وعلى ثلاثة اميال الى الجنوب عند مصب نهر الكلب (نهر ليكوس Lycus الكلاسيكي) تصل المرتفعات الجبلية الى البحر وبذلك تعطي السكان موقعاً ستراتجياً لمنع مرور القوات المعادية . كذلك في الكرمل يحول الراس الجبلي دون وجود اي سهل ويترك ممراً يكاد لا يبلغ عرضه ٢٠٠ يردة على الساحل وهكذا يتحول الى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بمصر ويتابع الساحل نحو الشمال .

ويرجع اصل معظم السهل الساحلي الى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالدور الثالث . وقد ترسّب فوق الطبقة الطبشورية في بعض الاماكن طميٌ اتت بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته .

والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها امواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل. وعلى ذلك فان الساحل المكون من شواطئ رملية واحواض بحرية والذي تزيد في ثروة تربته وترويها المرتفعات المجاورة هو سهل خصب جداً في جميع اجزائه ويشمل في الجنوب تلك السهول المشهورة في الازمنة القديمة وهي سهل صارونة وسهل فلسطيا ومنها اتى اسم فلسطين كما يشمل ساحل النصيرية في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان .

والساحل بكامله من اكثر السواحل استقامة في العالم فلا يوجد فيه خليج نهري عميق او اي خليج آخر مهم الا في الشمال حيث خليج اسكندرون . ومن هذا المكان حتى حدود مصر يكاد لا يوجد على مسافة ٤٤٠ ميلاً اي ميناء يستحق الذكر .

السلسلة الغربية

وتشرف على الساحل السوري سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ بالامانوس في الشمال وتمتد حتى جبل سينا المرتفع في الجنوب واهم اجزائها لبنان الغربي وهو لبنان الحقيقي . ولبنان هو الهيكل الذي ترتبط به السهول والمنخفضات المجاورة ارتباط اللحم بالعظم . هذه السلسلة الجبلية هي ثاني المناطق الطولانية وتشكل اول حاجز للمواصلات بين البحر وما يقع وراءه في الشرق ولا يمكن اختراق هذا الحاجز بصورة حقيقية الا في الطرفين الشمالي والجنوبي وذلك عند خليج اسكندرون حيث يجري الاتصال بطريق الجسر السوري مع سهول ما بين النهرين ، وعند برزخ السويس الذي يجري الاتصال بواسطته مع البحر الاحمر او مع الصحراء العربية . وبين هذين الطرفين يمكن اختراق الحاجز الجبلي فقط في وادي النهر الكبير (وهو Eleutherus القديم) شمالي طرابلس وعند تصدع مرج ابن عامر شرقي عكا وحيفا.

والامانوس[1] هو التواء فرعي يمتد من جبال طورس (التي تفصل سورية عن آسية الصغرى) باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية . ويحيط امانوس بخليج اسكندرون فيشكل حاجزاً بين سورية وكليكية ويرتفع الى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي (الاورنتس Orontes) طريقه الى البحر في الطرف

١) جبل اللكام بالعربية (من السريانية « اوكاما » *ukkāmā* اي اسود) وبالتركية جبل كاور داغ (Giaour Dagh اي جبل الكفار اي المسيحيين) لانه كان لمدة طويلة حصن الامبراطورية البيزنطية ضد الاسلام .

الجنوبي من امانوس . وتعبر هذا الجبل طرق تمتد الى انطاكية وحلب وتمر بالممر الرئيسي وهـــو مضيق بيلان المعروف باسم «ابواب سورية (Pylae Syriae) . ويتشكل امانوس من صخور كلسية كما في لبنان ومن صخور بركانية وتوجد صخور السربنتين قرب الاسكندرون وتحوي معدن الكروم الذي يكثر في الجبـــال التركية بشكل خاص[١] .

وتستمر السلسلة الغربية جنوبي مصب العـــاصي في جبل الاقرع (وهو جبل كاشيوس Casius في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع الى ٥٠٠٠ قدم ومن هناك تمتد الى جوار اللاذقية (Laodicea) حيث تعرف بجبال النصيرية (Bargylus)[٢] ثم تتابع سيرهـا الى نهر الكبير الجنوبي[٣]. ويشكل هذا النهر الذي ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان كما انه يكوّن الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسورية . وسلسلة النصيرية تتألف من صخور كلسية جوراسية مع مواد بازلتية دخيلة[٤] . وشكلها العـــام بسيط نسبياً ولكنه يتضمن اودية عميقة متعددة واخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار تحصن فيها جماعة الحشاشين الذين اقامـوا في سورية والتجأ اليها المسلمون غير السنيين المعروفون بالنصيرية . وبعض تلال هذه السلسلة لا تزال تتوجها الخرائب المهيبة للقلاع الصليبية القديمة .

لبنان

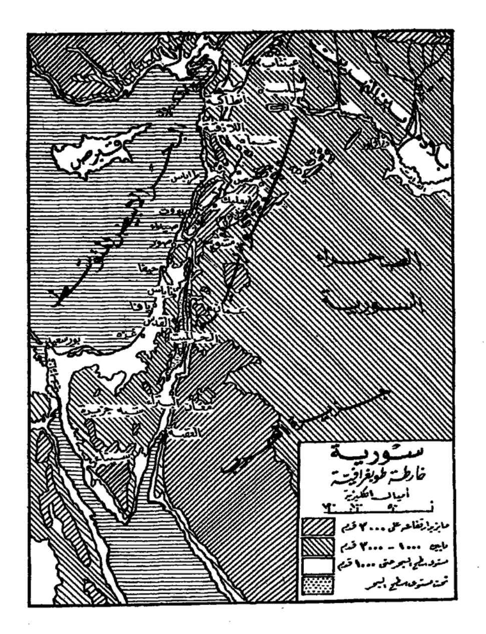
وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعا شبيهاً بالارتفاعات الالبية في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ اميال . ويأتي اسم لبنان من الاصل السامي «لاَبَن» بمعنى البياض . وقد سميت الجبال كذلك بسبب الثلوج التي تغطي قممها نحو ستة شهور في السنة ، ويبقى الجليد في الفجوات الكائنة في قمم

١) انظر : Max Blanckenhorn, *Handbuch der regionalen Geologie*, Vol. v. pt. 4, *Syrien und Mesopotamien* (Heidelberg, 1914), pp. 5, 14, 29; Alfred E. Day, *Geology of Lebanon* (Beirut, 1930), p. 30.

٢) Pliny, *Natural History*, Bk. V, ch. 17, § 20

٣) يقول الجغرافي العربي الاصطخري في القرن العاشر في كتابه مسالك الممالك طبعة م. ج. دي غوية M. J. de Goeje (ليدن ، ١٨٧٠) ص ٥٥ ان اللكام يمتد حتى اللاذقية في الجنوب ويسمي جبال النصيرية «بهراء» . انظر : René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), p. 146.

٤) انظر : Louis Dubertret *et al.*, *Contributions à l'étude géologique de la Syrie septentrionale* (Paris, 1933), vol. i, pp. 23-4.



الجبال على مدار السنة . وترتفع اعلى قمة في لبنان وهي القرنة السوداء الى ١١،٠٢٤ قدماً عن سطح البحر . وتقع في جوارها قمة ضهر القضيب التي تحتضن غابة الارز القديمة الباقية حتى اليوم وهي دون القمة المجاورة بنحو مئة قدم . واما جبل صنين المهيب الذي يشرف على بيروت وخليج مار جرجس فان ارتفاعه اقل من ضهر القضيب بمئة قدم ايضاً .

تقع غابة الارز التي ذكرناها في بقعة كالمدرّج يعتقد علماء الطبقات انها كانت نهاية جمودية في عصر ما قبل التاريخ[١] . ووصل جليد العصر الجليدي حتى موقع نيويورك في اميركا وغطى شمالي اوربا غير انه لم يصل اي مكان قرب سورية . ومع هذا فان تزايد البرد قد اوجد جموديات محلية كالتي ذكرناها . وبما هو اكثر اهمية من توسع الجليد كصفة لهذا العصر الجليدي ان الدلائل الاولى لوجود الانسان شوهدت في رسوبيات هذه الفترة . ويبدو ان الانسان الاول ظهر في اوربا خلال آخر فترة ما بين العصور الجليدية حيث ساعد الدفء على انسحاب الجليد بصورة موقتة . وفي حوالي نفس الوقت ان لم يكن قبل ذلك ظهر البشر الاولون في سورية وسائر بلاد الشرق الادنى .

ويخبرنا علماء الطبقات انه قبل ذلك بعصور كثيرة كانت مياه ما نسميه اليوم بالبحر المتوسط تغطي اراضي سورية بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي الهند . وكان ذلك في العصور الجوراسية[٢] والكريتاسية البعيدة . وخلال هذه الاحقاب الطويلة تراكمت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تيثس Tethys) لكي تشكل الصخور الكلسية التي يتألف منها معظم السلسلة الغربية في سورية . وفي الدور الثالث الطبقي الذي أتى بعد العصر الكريتاسي (الطبشوري) حصلت حركات ارضية واسعة نتج عنها تضييق رقعة تيثس الهائلة وادى الامر الى ظهور جبال النصيرية ولبنان الغربي والشرقي ومرتفعات اليهودية وهضاب الصحراء العربية وذلك برفع الطبقات السفلى والتوائها . وتساعد البقايا الحيوانية التي دفنت في الرسوبيات وتحجرت فيما بعد على تحديد العصر الذي حصلت فيه عملية التوسب . ومن اشهر الاماكن التي وجدت فيها الاسماك المتحجرة ساحل علما (قرب جونيه) وحاقل (فوق جبيل او بيبلوس القديمة[٣]) واقدم اشارتين لا شك فيهما الى الاسماك المتحجرة في الادب تظهران احداها في ترجمة لاحد الصليبيين في عام ١٢٤٨ في صيدا[٤] والاخرى في كتابات البيروني قبل ذلك بقرنين في منطقة جنوب شرقي بحر الخزر[٥] .

---

١) G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris, 1926), pp. 152-3 ; Day, p. 21

٢) وسميت كذلك باسم جبال الجورا بين فرنسا وسويسرا التي ترجع الى هذا العصر .

٣) انظر : Zumoffen, pp. 137-41

٤) انظر : Joinville, *Histoire de Saint Louis*, ed. Natalis de Wailly (Paris, 1874), § 602.

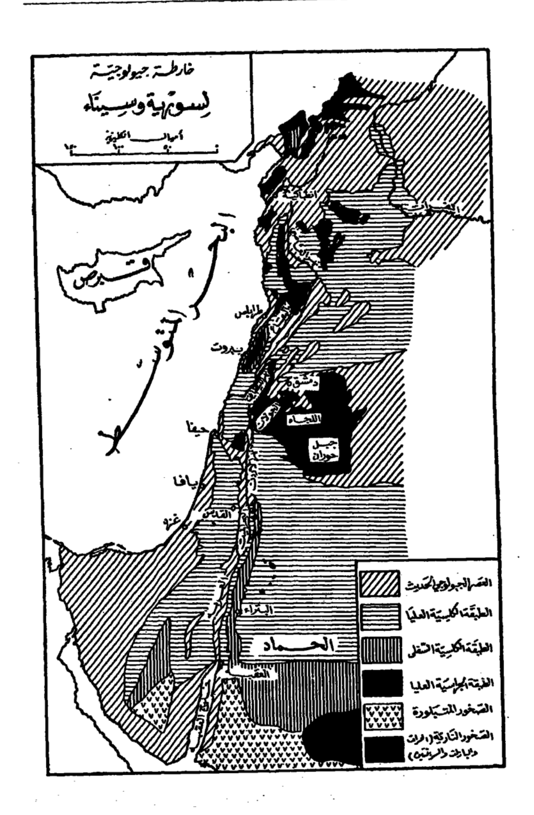
٥) راجع: صفة المعمور، لناشره أ . زكي والدي طوكان (نيو دلهي ١٩٤١) ص ٥٦)

وتضم صخور لبنـــان سلسلتين عليا وسفلى من الصخور الكلسية بينها طبقة متوسطة من الصخور الرملية . والسلسلة العليا من الطبقات الكلسية في لبنـــان تشكل قمم الجبـال وتتراوح في سمكها بين بضع مئات من الاقدام وخمسة آلاف قدم . اما قاعدة الطبقات السفلى فانها ليست معرضة في اي مكان حتى يمكن تقرير سمكها . وبينما تشكل هـذه الطبقات السفلى القسم الاسفل في الوديان العميقة فانها ارتفعت بواسطـــة الالتواءات الى نحو ٤٠٠٠ قدم في كسروان و ٧٠٠٠ قـدم قرب تومات نيحا (وهما القمتـــان التوأمان قرب جزين شرقي صيدا) والى نحو ٩٠٠٠ قدم في جبل حرمون . وتنتشر بكثرة على سطح الطبقة الكلسية السفلى في لبنان الشرقي والغربي قطع من فلزات الحديد تبرز للعيان وكانت عمليـــة اذابتها تحصل حتى العصور الحديثة في افران بدائية وقـد ساعد ذلك على تعرية لبنان من الاشجار بالشكل الذي نراه فيه الآن[١] .

والصخور الكلسية في الطبقات العليا هي التي سيطرت على مشاهد لبنان خلال العصور . ولونهـــا المائل للرمادي هو الذي اعطى المناظر شكلها . واشكال هذه الصخور قد اعطى التربة للزراعة وجعل الطرق كثيرة الغبار في الصيف ، ومن حجارتها اتت مواد البنـــاء . وقد نفذت مياه المطر بصورة مستمرة خلال طبقة الصخور الكلسية العليا حتى طبقة الرمال والطين التي تغطي الطبقة الكلسية الدنيا وتحتفظ بالمياه فتوجد تلك الينابيع المتدفقة المتلألأة التي تمنح نعمة الحياة للاودية والمنحدرات .

وسلسلة الطبقات المؤلفة من الصخور الرملية التي تنحصر بين الطبقة الكلسية العليا من العصر الكريتاسي الاخير وبين الطبقة الكلسية الدنيا من العصر الجوراسي الاخير هي من العصر الكريتاسي الاول في بعض اقسامها . وتشكل امتداداً شمالياً للصخور الرملية النوبية في مصر وسيناء والجزيرة العربية وشرقي الاردن . وكثافة الطبقات الرملية في لبنـــان تتراوح بين بضع مئات من الاقدام وبين الف قدم . وتخلو هـــذه الطبقات الرملية من المتحجرات ولكنها تحوي طبقات رقيقة من الليغنيت التي استخرجت محتوياتها في العصور الحديثة لتقديم الوقود لمعامل الحرير ولاجل السكك الحديدية في الحرب العالمية الاولى . وفي بعض المناطق ومنهـــا

١) انظر : Day, pp. 29-30


خارطة جيولوجية
لسورية وسيناء
أميال انكليزية
٥٠ ١٠٠ ١٥٠
قبرص
البحر المتوسط
انطاكية
طرابلس
بيروت
دمشق
اللجاه
جبل حوران
حيفا
يافا
القدس
غزة
البتراء
الحماد
العقبة
العصر الجيولوجي الحديث
الطبقة الكلسية العليا
الطبقة الكلسية السفلى
الطبقة الجراسية العليا
الصخور المتبلورة
الصخور النارية (الحرات

كسروان والمتن شرقي بيروت حيث أزال التأكل طبقة الصخور الكلسية العليا اصبحت طبقتا الصخور الرملية والصخور الكلسية الدنيا ظاهرتين للعيان . وطبقة الصخور الكلسية الدنيا وهي سمراء مائلة الى الاحمرار تكون في بعض الاماكن ذات الوان غنية متنوعة وتبدو في احسن مظاهرها ليس في لبنان وانما في البتراء . وتنتج عنها تربة صالحة بشكل خاص لنمو الصنوبر . وعندما تختلط بالطين وترويها المياه فانها تعطي التربة الخصبة لبساتين التوت والفواكه التي يقوم عليها جانب عظيم من ازدهار السهل الساحلي حول بيروت .

ويضع المشهد اللبناني امامنا الخطوط الصارمة للمرتفعات المتعددة الالوان المنحوتة بشكل واضح من جهة ، والبحر الذي يضيئه شعاع الشمس ويبدو فيه اللون النيلي الغني كما يتلون سطحه بمختلف الالوان من جهة اخرى . وتستمد المشاهد وضوحها من السماء الصافية والافق البعيد ومن ذلك الجو الرائق حيث تظهر بوضوح خطوط المظاهر الطبيعية والوانها وحيث يمكن ادراك ذلك التباين الشامل بين البر والبحر وبين الجبال والاودية . وقد اثر هذا الجمال بسحره على الشعراء والمغنين — ولا يزال — منذ ايام العبرانيين حتى العصور العربية .

موطن للاجئين

وبما ان طبقات جبال لبنان مائلة على العموم وملتوية وعامودية اكثر منها افقية فقد نتج عن ذلك خليطٌ من التلال والشواهق والاودية مما يجعل المواصلات صعبة بين مناطق البلاد واقسامها . ويزيد الامور تعقيداً ان الزحول او التصدعات تكثر في عموم المناطق وان مختلف الاراضي قد ضغطت بعضها على بعض عند خطوط الانهدامات فحطمت بعضها بعضاً وذلك عندما تعرضت القشرة الارضية في العصور البعيدة للضغط والالتواء . ومثل هذه الاراضي كانت خلال العصور ملاجىء للافراد والجماعات الذين اختلفت ميولهم السياسية وعقائدهم الدينية عن اهل بيئتهم كما انه كثرت فيها بشكل غير معتاد الاودية المرتفعة والمساحات الخصبة فقصدها السكان المجاورون المتصفون بكثرة النشاط وبتعشق الحرية . وهكذا فان الموارنة والدروز والشيعة (الذين يعرفون بالمتاولة في سورية) استقروا في معاقل لبنان وحافظوا على كيانهم . وكان الارمن والاشوريون الذين هربوا من مساوىء الحكم العثماني من آخر الشعوب التي وجدت لها مأوى هناك . وقد آثر النساك والزهاد

المسيحيون كهوف لبنان على مسرات هذه الحياة الدنيا ، ولجأت قبائل من اللصوص اليها ولكن لاسباب مختلفة[١] . وهنالك عدد كبير من المغاور اليوم مكرسة للعذراء وسائر القديسين كما ان وادي نهر قاديشا[٢] بكامله ويمتد من جوار غابة الارز الكبرى حتى طرابلس قد احتفظ باسمه السرياني الذي يعني « مقدس » .

فجبال لبنان وهي جبال بكل معنى الكلمة قد كانت خلال العصور موطن اللاجئين وقضاياهم الفاشلة كما انها كانت آخر المناطق التي سقطت في ايدي الغزاة الاجانب .

الجليل

وفلسطين من الوجهة الطبقية هي امتداد لبنان باتجاه الجنوب[٣] . وسهل لبنان الساحلي يستمر في سهل صارونة[٤] المتموج الذي يمتد من الكرمل الى جنوبي يافا ويتصل بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطيا)[٥] . وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوبي انهدام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الاعلى وهو بالواقع قسم منعزل من جبال لبنان وفي سلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم الجليل الادنى . وتبلغ مرتفعات الجليل الاعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد حيث تبلغ ٣٩٣٥ قدماً وهي اعلى قمة في فلسطين . ويرتفع الجليل الادنى الى ١٨٤٣ قدماً عند جبل طابور قرب الناصرة . وتشهد السلسلة الغربية بعد ذلك اعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر (Esdraelon) الذي يجتاز فلسطين بكاملها فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية في الجنوب . وتتمثل تلال السامرة التي تتخللها الاودية بجبل عيبال (الجبل الشمالي وارتفاعه ٣٠٧٧ قدماً) وبجبل جرزيم (٢٨٤٩ قدماً) وهو جبل السامريين المقدس . وننتقل من هذه التلال بصورة تدريجية لا يشعر بها الى هضبة اليهودية الكلسية المتراصة والوعرة التي تبلغ ذروتها جنوبي حبرون حيث يرتفع /

---

١) Strabo, *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, §§ 18, 20

٢) ويسمى نهر ابي علي قرب مصبه في البحر .

٣) Day, p. 24; cf. Dubertret, pp. 70-73

٤) من العبرية شارون *shārōn* ومعناها سهل . ولا يوجد اسم عربي له .

٥) انظر ما جاء بشأن الفلسطينيين في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

جبل جتة[١] الى ٣٧٤٧ قدماً عن سطح البحر . وتقع اورشليم علـى ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً . ثم تنحدر هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر السبع . وقد سميت هذه المنطقة الجنوبية القـــاحلة باسم مناسب من قبل العبرانيين وهو النقب (الارض الملفوحة) .

الكهوف

ان التشكيلات الكلسية الواسعة التي تتجه في لبنان نحو البحر بشكل رؤوس وتحفر فيها الامواج بعض الكهوف يمثلها لنا جبل الكرمل الذي يرتفع ١٧٤٢ قدماً عن البحر وقد وجدت في كهوفه هياكل اقدم البشر في الشرق الادنى[٢] . وقد تكون بعض الكهوف الان في مناطق بعيدة في الداخل حيث كان يصل البحر وما يرفده مـن انهار جوفية في سالف العصور . وربما وسع سكان الكهوف او اجروا تعديلات في المغاور والكهوف التي اتخذوها مسكناً لهم . واستخدمت هذه الكهوف ملاجئ للمضطهدين لاسباب دينية او سياسية كما في لبنان . وقـد التجأ ايليا عند هربه من غضب زوجة آخاب الى الكهوف وكذلك فعل داود حين هرب خوفاً من انتقام شاول[٣] . ومن الكهوف ما استخدم كمكان للدفن[٤] . وربما كان المكان الذي دفن فيه جسد المسيح مغارة من هذا القبيل فاصبحت اقدس مكان في العالم المسيحي .

حوض التصدع او الزحول

والمنطقة الطولانية الثالثة في سورية هي عبارة عن حوض طويل ضيق يحتل مكانا متوسطا في البلاد. وبعد ان يبدأ هذا الحوض في الشمال عند المنعطف الغربي للعاصي في سهل متسع يسمى العمق[٥] فانه يرتفع عند حماة الى نحو ١٠١٥ قدماً عن سطح البحر

---

١) في الترجمة العربية للتوراة «يوطة» (سفر يشوع ١٥ : ٥٥) وهي يطّا الحالية . انظر :
F. M. Abel, *Géographie de la Palestine*, vol II (Paris, 1938), p. 91.

٢) انظر ما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

٣) سفر الملوك الاول ١٩ : ٩ ؛ سفر صموئيل الاول ٢٢ : ١ .

٤) سفر التكوين ٢٣ : ٩ ؛ ٤٩ : ٢٩ — ٣١ .

٥) وقد ورد اسمه أونقي « Unqi » في النصوص الاشورية . انظر : Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), §§ 769, 772, 821.

ثم يسمى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان ويستمر جنوباً في وادي الاردن حتى البحر الميت ومن هناك بطريق وادي العربة حتى خليج العقبة وهو التفرع الشرقي للبحر الاحمر. وقد تشكل هذا الحوض بتصدع منطقة وزحول جانب منهـا في قشرة الارض في عصور طبقية حديثة نسبياً[١]. ان التصدع هذا الذي يشمل وادي البقاع والاردن والعربة هو من اغرب المظاهر في سطح الارض وخاصة في قسمها الجنوبي. ويرتفع سطح هذا الحوض المتصدع عند الحولة سبعة اقدام عن البحر، وعند بحيرة طبرية ينخفض ٦٨٥ قدماً عن البحر واما عند البحر الميت فانه يبلغ ١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر وهذا الانحدار غاية في السرعة[٢]. هنا اذاً يقع «قبو العالم الحقيقي» حيث لا يوجد مثل هذا الانخفاض الملموس في اي مكان آخر.

البقاع

يتراوح عرض البقاع[٣] وهو الجزء الكائن بين سلسلتي لبنـان بين ستة وعشرة اميال ويرتفع في جوار بعلبك الى ٣٧٧٠ قدماً عن سطح البحر. وبقرب هـذه المنطقة تقع نقطة توزع المياه حيث يتجه العاصي ببطء نحو الشمال بينا يتجه الليطاني نحو الجنوب. والعاصي هو اطول انهار سورية لان الفرات ليس نهراً سورياً من حيث منبعه او من حيث مجراه الكامل. والعاصي والليطاني همـا النهران الكبيران الوحيـدان في سورية. ويحذو الليطاني حذو العاصي عندما ينعطف فجأة في مجراه الاسفل نحو الغرب عنـد سفح قلعة الشقيف[٤] الصليبيـة ويشق طريقه في صخور لبنان الكلسية في الطبقة الكريتاسية العليا ويسمى بالقاسمية قبل مصبه بين صور وصيدا.

---

١) Picard, pp. 4 seq.

٢) ان تسمية الاردن من العبرية «يَرْدِن» اي النازل. وتسمى بحيرة طبرية Genessaret في العهد الجديد (لوقا ٥ : ١؛ يوحنا ٦ : ١). وفي العهد القديم تسمى Chinnereth (اي شبيه بالقيثار) انظر سفر العدد ٣٤ : ١١؛ قارن مع سفر الملوك الاول ١٥ : ٢٠. والحولة كانت تسمى في العصر الكلاسيكي بحيرة سمخ Semechonitis.

٣) ومعناه الحرفي «حيث تركد المياه» وهو سورية المجوفـة في العصر الكلاسيكي وكانت تضم حوران وقسماً من الاردن. انظر: Strabo, XVI. 2. 21; Josephus, *Antiquities of the Jews*, I, 11. 5; XIII. 13. 2, 3.

٤) وكانت تعرف بقلعة Belfort.

وبما ان هذين النهرين يجريان في سهل البقاع فان الاراضي حولهما هي اوسع اراضي للرعي واحسنها في سورية. وبما ان رواسب الطمي الحديثة والقرين تكسو هذه الاراضي فانها تشكل انسب تربة للزراعة . غير ان مجرى العاصي مثل كثير من الانهار الاخرى منخفض لدرجة تجعل استخدام مياهه بسهولة متعذراً . ولذلك استعملت النواعير[١] لرفع المياه لسطح الارض وقد نامت على صوتها المطرد النغم في حماة اجيال متعاقبة من الناس منذ العصر الروماني .

ويبلغ طول (وادي الاردن[٢]) نحو خمسة وستين ميلاً ويتراوح عرضه بين ثلاثة واربعة عشر ميلاً . وتتلقى هذه الحفرة الفريدة عدداً كبيراً من السواقي من المنحدر الغربي مما يجعل فلسطين ارضاً تتصرف مياهها بكثرة وتتجه هذه المياه في النهاية الى اكثر البحيرات ملوحة في العالم . ودرجة ملوحة مياه البحر الميت غير المعتادة ناتجة عن عدم وجود مخرج من جهة وعن الاتصال بالاوقيانوس في عصور ما قبل التاريخ من جهة اخرى . وتحوي هذه المياه نسبة مرتفعة من البرومين والبوتاس وكلورات المغنيزيوم . وهنالك صخور كلسية قيرية واسفلت من النوع الممتاز في البحر الميت وما حوله وكذلك في حاصبيا عند السفح الجنوبي الغربي لجبل حرمون .

الزلازل والبراكين

وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان والوادي المتصدع الكبير الذي يستمر في منخفض الاردن والبحر الميت على وجود منطقة للزلازل هناك . غير ان منطقة الهزات الارضية لا تقتصر على اماكن الزحول والتصدع . فالهضبة الواقعة شرقي جبل حرمون وجنوبي دمشق تخترقها خطوط من البراكين الخامدة وتعلوها في اماكن متفرقة حقول المواد البركانية . وتوجد ينابيع مياه حارة موزعة في بعض المساحات كما في طبرية ومنطقة البحر الميت وتدمر .

وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سورية اكثر من بروز البراكين في جغرافيتها فقد اصيبت انطاكية في طرف سورية الشمالي بالزلازل خلال العصور وخربتها في

---

١) ومفردها ناعورة ومنها اتت كلمة noria الافرنجية .

٢) ويسمى غور الاردن او الغور . ويسمى الاردن ايضاً نهر الشريعة . انظر ابو الفدا ، تقويم البلدان طبعة M. Reinaud and M. de Slane (باريس ١٨٤٠) ص ٤٨ .

القرون الستة الاولى الميلادية لا اقل من عشر مرات[١] . وتشاهد في جدران معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل وكذلك الامر في القلاع الصليبية الباقية . ويشير تهدم اسوار اريحا المفاجيء في عصر الغزو الاسرائيلي وكذلك خراب سدوم وعمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت الى حصول زلازل بالاضافة الى النيران في الحـــالة الاخيرة التي كان سببها ما انتجته الزلازل من ترشحات نفطية وينابيع من الاسفلت . وعندما كان انبياء العبرانيين وشعراؤهم ومؤرخوهم يكتبون في وصف سلطة يهوه وقدرته فانهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الارضية التي ترافقها الامواج المرتفعة كما انهم كانوا يستخدمون الصور المألوفة سابقاً أ والمتصلة بهذه الحوادث[٢] . ويخبرنا العهد الجديد في التوراة عن حدوث زلزال عند صلب المسيح وآخر عند قيامته .

وقد كانت مثل هذه الامواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل مخربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي . ونال صور وصيدا الكثير من اذاها ومن اذى الهزات[٣] . ومما جعل صور تتأثر بصورة خاصة طراز مبانيها من نوع «ناطحات السحاب» حيث بلغ ارتفـــاع بعضها سبعين قدماً او اكثر[٤] . وحصلت آخر زلزلة عنيفة في شمالي سورية عام ١٨٢٢ وحولت حلب وغيرها من المدن الى مجموعة من الخرائب وازهقت عشرات آلاف الارواح . وآخر زلزال قوي في فلسطين كان في ١٨٣٧ وهدم صفد تهديماً تاماً[٥] .

السلسلة الشرقية

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سورية . وتبدأ السلسلة في نقطة جنوبي حمص وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي[٦] على طول واحد وارتفاع

---

١) انظر : Ellen C. Semple, *The Geography of the Mediterranean Region* (London, 1932) p. 42.

٢) انظر سفر عاموس ٥ : ٨ ؛ ٩ : ٦ ؛ اشعيا ٢٩ : ٦ ؛ ايوب ٩ : ٥ — ٦ ؛ ٢٨ : ٩ ؛ المزامير ٦٠ : ٢ ؛ ١١٤ : ٣ — ٤ ؛ الملوك الاول ١٩ : ١١ ؛ العدد ١٦ : ٣١ — ٣٢ .

٣) انظر : Seneca, *Questiones naturales*, VI. 1. 11, 13; 24. 5; Strabo I. 3. 16

٤) Strabo V. 3. 7

٥) Francis R. Chesney, *The Expedition for the Survey of the Euphrates and Tigris* (London, 1850), vol. I, pp. 436, 441; H. B. Tristram, *The Land of Israel*, 3rd. ed (London, 1876), p. 567.

٦) ويسميه الجغرافيون العرب سنير واحياناً كانوا يطلقون الاسم على قسم من السلسلة فقط . ياقوت ج ٣ ص ١٧٠ .

واحد تقريباً ثم تنحدر من حرمون[١] بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي الجولان[٢] ومن هنـــاك تستمر في شرقي الاردن في تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة وتنتهي في جبل سعير[٣] جنوبي البحر الميت .

لبنان الشرقي

وتقسم هضبة بردى (نهر أبانا في التوراة) وواديه سلسلة لبنان الشرقي الى قسمين : شمالي لا يكاد يوجد في منحدره الغربي قرية واحدة، وجنوبي حيث يقوم جبل حرمون وهو من اعلى قمم سورية (٩٣٨٣ قدماً) واكثرها جلالاً وتكثر القرى في منحدره الغربي . وبسبب قلة الامطار والنبات في لبنان الشرقي فضلاً عن الاسباب الاخرى فان سكانه اقل كثافة ورقياً من لبنان الغربي . وقد اتاه سكانه عموماً من شرقي سورية[٤] . وتمر الحـــدود الشرقية للجمهورية اللبنانية اليوم بجبل حرمون وتنعطف حول الزبداني وتتبع ذرى القسم الشمالي من لبنان الشرقي . وتسير سكة حديد بيروت — دمشق في وادي الزبداني وبردى .

وينبع نهر بردى في مرتفعات وادي الزبداني الغني ويتجه نحو الشرق ويحيي قسماً كبيراً من الاراضي السورية التي بدونه كانت تبقى قاحلة ويعمل على خلق مدينة دمشق وهي مركز الحضارة الامامي على ابواب البـــادية . وبعد ان يروي بساتـــين دمشق المشهورة التي تشكل الغوطة وقد سميت دمشق بالفيحاء بسبب رائحتها الذكية ؛ فانه يتفرع الى خمسة فروع او جداول تفيد منها شوارع العاصمة السورية ومنازلها . ويرجع نظام المياه في دمشق الى عهد الخلفاء الامويين الاولين[٥] .

---

١) وهو جبل سيريون المذكور في المزامير ٢٩ : ٦ ؛ سفر التثنية ٣ : ٩ ويسمى حديثاً جبل الشيخ، وجبل الثلج في المقدسي : احدث التقاسيم في معرفـــة الاقاليم، طبعة م. ج. دي غويه (ليدن ١٨٧٧) ص ١٦٠ ؛ ابو الفداء ص ٤٨ ، ٦٨ .

٢) من العبرية Golān بمعنى «دائرة» وفي العصور الكلاسيكية Gaulanitis . ويذكر الجولان في ياقوت : معجم البلدان، طبعة وستنفلد ج ٢ (ليبزك ١٨٦٧) ص ١٥٩ .

٣) وفي العبرية سعير وهو مرادف تقريباً لأدوم .

٤) ويشير اسم «اهل الجبل» او الجبليين الى سكان السلسلة الغربية .

٥) انظر ما سنقوله في الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب عن دمشق الاموية .

حوران

ويمتاز سطح هضبة حوران[١] بانه بركاني في قسمه الاعظم وفيه صخور بازلتية وتربة غنية . وتبدأ الاراضي البركانية في التلول جنوبي دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلاً بما يعادلها عرضاً وهي اكبر مساحة من هذا النوع في سورية[٢] . ويحد هذه الاراضي في الشمال الشرقي منطقة اللجا[٣] ذات الحجارة السوداء وهي ملجأ — كما يدل اسمها العربي — للقبائل المتمردة في مختلف العصور وفي الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران او جبل الدروز . واحتلال الدروز لهذه المنطقة امر حديث نسبياً ويرجع الى اوائل القرن الثامن عشر على اثر الاضطرابات الحزبية في لبنان[٤] . وترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرقي حوران الى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم وتقوم بين حوران والبادية . وتمتد المنطقة البركانية غرباً حتى تشمل الجولان . وينتج حوران القمح بكثرة ومراعيه جيدة غير انه قليل الينابيع ولا اشجار فيه . وتتألف التربة من مواد بركانية سوداء منحلة ومن غرين احمر وهي غنية في المواد المغذية للنبات وتحتفظ بالرطوبة وتغطي الصخور الكلسية التي تشكل الصخور السطحية في سائر الاماكن . وتشمل البقايا الاثرية في حوران الاضرحة القديمة — وهي من صنع الانسان البدائي — ومعالم الطرق المندثرة والاقنية والصهاريج والمباني والحصون الرومانية والبيزنطية التي تدل على ازدهارها السابق وعلى انها كانت مخزن حبوب الامبراطورية . ولا تزال تمون فلسطين ولبنان بالقمح كما كانت تفعل في عهد العبرانيين والفينيقيين .

---

١) وهي منطقة Auranitis في العصر الكلاسيكي، وباشان في التوراة، وجورانو عند الاشوريين (انظر Luckenbill, vol. I, §§ 672, 821) اي « الارض المجوّفة » . وتقتصر حوران في المعنى المحدود للكلمة على السهل الواقع شرقي الجولان وغربي اللجا وجبل الدروز ، وفي المعنى الواسع وكتصرفية في العهد العثماني كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالاضافة الى عجلون .

٢) انظر : D. G. Hogarth, *The Nearer East* (New York, 1915), p. 66.

٣) ويشير العرب الى هذه المنطقة والى منطقة الصفا التي تجاورها في الشرق باسم الوعر مما يقابل اسمها الكلاسيكي، Trachonitis . انظر كتاب : George A. Smith : *The Historical Geography of the Holy Land*, 11th ed. (New York, 1904) pp. 615 *seq.*; do., *Syria and the Holy Land* (London, 1918) p. 29.

٤) سليمان ابو عزّ الدين : « توطن الدروز في حوران » مجلة الكلية م ١٢ (١٩٢٦) ص ٣١٣ — ٣٢٣ . انظر ما سنذكره في الفصل ٤٩ من هذا الكتاب عن هذه الحوادث .

وتمتد اراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحماد الى تلك الحقول الحجرية في الحجاز المعروفة باسم «حرات[١]» . وتستمر الطبقات الكريتاسية العليا في السلسلة الشرقية في شرقي الاردن وتبلغ ذروتها في الشمال في جبل عجلون (٤١٣٧ قدماً) وجبل جلعاد[٢] (٣٣٩٧ قدم) الذي يجاوره . وترتفع في الجنوب قرب الكرك[٣] الى ارتفاع ٣٧٧٥ قدماً فوق سطح البحر بينما تبلغ طبقات الصخور الرملية قرب البتراء ارتفاع ٤٤٣٠ قدماً .

بادية الشام

وتتدرج هضاب شمال شرقي حوران وشرقي الاردن نحو منطقة السهوب والحرات والرمال وتلتقي اخيراً بالاراضي القاحلة التي تشكل بادية الشام . وهذه المنطقة هي الخامسة والاخيرة في تضاريس سورية . والسهول الصحراوية صخرية وجيرية في غالبها ويندر ان تكون حجرية والبادية هي تتمة صحراء بلاد العرب الكبرى وتعتبر القسم السوري من المستطيل العربي وتفصل سورية عن العراق . وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الخصيب . وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشرقي اي العراق ببادية الجزيرة (او بادية ما بين النهرين) في قسمها الشمالي وتدعى بادية العراق او السماوة في قسمها الجنوبي . وسطح القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام وهو الحماد حجري في بعض اجزائه ورملي في اجزائه الاخرى ويكسوه العشب في الربيع . وتؤلف البادية السورية — العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في الغرب وخليج الكويت في الشرق بينما تصل قمته منطقة حلب في الشمال . ويبلغ عرض هذه البادية في اوسع مناطقها ٨٠٠ ميل . وكان سكانها الرحل يتاجرون مع السكان الحضر على جانبيها ويعملون كوسطاء وأدلاّء ورؤساء قوافل كما انهم في العصور البعيدة كانوا يبنون مدناً مثل تدمر الواقعة على الطريق عبر البادية بين الشرق والغرب . وكانوا خلال العصور بمثابة احتياطي دائم بالنسبة للسكان الحضر يرفدونهم بدم جديد اما بطريق

---

١) وهو الاسم العربي للاراضي البركانية .

٢) وتعني بالعبرية منطقة حجرية قاسية .

٣) وعرفت عند الصليبيين باسم Le Crac . انظر ما سيرد في الفصل ٤٥ من هذا الكتاب بشأن الكرك .

الفتح او بواسطة التغلغل السلمي . غير ان البدو عادة يقاومون الاستقرار وفي بحثهم عن المراعي لقطعانهم يجوبون السهول الصحراوية التي تكسوها الاعشاب بعد قدوم المطر . وحسن استقبال البدو للضيوف والزائرين لا يقترن بحسن استقبالهم للامور الجديدة . واذا كان التقدم في المجتمع المستقر يقوم على محاولة تغيير شروط المعيشة وبيئتها وتكييفها فإن سر البقاء في مجتمع بدوي يقوم على قبول هذه الشروط والتكيف بموجبها .

ان كثيراً من الجداول التي تنساب من المنحدرات الشرقية للسلسلة الشرقية في سورية تُغلب على امرها في نزاعها مع الصحراء وتغيب في تربتها القاحلة . والنزاع القديم بين الارض المزروعة والبادية هو حقيقة اساسية في جغرافية هذه المنطقة الطبيعية . والبادية التي تشبه البحر في كثير من مظاهرها كانت في حركاتها خلال عصور التاريخ مثل بحر عظيم تعيد بصورة مستمرة عملية المد والجزر . وهذا النزاع له ما يقابله في النزاع القديم ايضاً بين البدو الرحل الذين لا يملكون شيئاً في البادية وبين المزارعين المستقرين الذين يملكون اشياء في السهول الخصبة . وقبل مجيء الاسرائيليين بقرون وبعد قدومهم بقرون كانت الانظار الطامعة تتجه من البادية نحو البلاد المجاورة التي « تفيض لبناً وعسلاً » .

الفصل الخامس

البيئة الطبيعية

اتينـــا في الفصل الاخير على وصف مسرح التاريخ السوري في وضعه الطبقي والجغرافي . وسنتابع وصفه في هـذا الفصل من ناحية مظاهره الطبيعية ومن جملتها الاقليم والنبات والحيوان .

الاقليم

ان الصفة السائدة في اقليم سورية هي تناوب فصل ممطر يبدأ من منتصف تشرين الثاني حتى نهاية آذار مع فصل جاف يشمل بقية السنـة . وينطبق هذا بوجه الاجمال على منطقة البحر المتوسط بكاملها وسببه موقعها بين منطقتين مختلفتين تماماً في درجة هطول امطارهما وهما : منطقة الرياح التجارية الجافة او الارض الصحراوية الافريقية في الجنوب ومنطقة الرياح الغربية في الشمال . وهذه الرياح الغربية المحملة بالرطوبة هي التي تجلب المطر طوال السنة من المحيط الاطلسي الى اوربا الوسطى والشمالية . وهي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في سورية. اما في الصيف فان منطقة الحر تنتقل شمالاً من خط الاستواء وتصبح البلاد خلال شهور عديدة قريبة من الاحوال القاحلة التي تسود الصحراء الكبرى . ولا يحصل ذلك التقلب في المنـاخ الذي يقال انه يثير النشاط في اي مكان .

وعندما تهب الرياح الغربيـــة السائدة على البحر المتوسط مصحوبة احيانا بالعواصف فانها تمتلئ بالرطوبة ، ثم تصادف جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع . وبارتفاع الهواء فانه يتمدد وتسقط بعض محتوياته بشكل امطار . فالعوامل المؤثرة على المناخ اذاً هي درجة القرب من البحر والتضاريس والارتفاع والبعد عن الصحراء وعمـــل التأثيرات التي مصدرها البحر المتوسط والصحراء الكبرى . ونتيجة ذلك هي ان المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سورية تتلقى اكبر كمية من الامطار وتتناقص هذه وفقاً لدرجة الابتعاد من الغرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب .

وتشهد الارقام بهذه النتائج . فمعدل الامطار السنوية في بيروت خلال الاحدى واربعين سنــة المنتهية في تموز ١٩٢٦ كان ٣٥،٩ قيراطاً (بوصة) . وفي الساحل الفلسطيني كان معدل الامطار السنوي ٢٣ بوصة . ومعدل كمية الامطار في الشوير على ارتفاع اربعة آلاف قدم فوق بيروت خلال الخمس وعشرين سنــة المنتهية في تمـوز ١٩٢٦ كان ٥٩،٧ بوصة ، وفي القدس على ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً فوق الساحل كان المعدل ٢٥،٦ بوصة وكان متوسط الامطار في كسارة في منطقة البقاع المحاطة بالجبال في التصدع المشار اليه سابقاً ٢٤،٨ بوصة وفي وادي الاردن كان ٥،٥ . وتقل الامطار بعـــد مرتفعات فلسطين الوسطى الى ان تصل تلال شرقي الاردن حيث يرتفع الهواء فيتخلى عما فيه من رطوبة وهكذا يتخطى القسم الجنوبي من وادي الاردن تقريباً . ووراء الحاجز المزدوج الذي تشكله جبال لبنان للامطار فان دمشق لا يصيبها سوى عشر بوصات . ومتوسط الامطار في ذروة مرتفعات شرقي الاردن ٢٧،٥٥ بوصة غير ان القسم الشرقي من شرقي الاردن لا يصيبه سوى ٣،٩ بوصة[١]. وبوجه الاجمـال فان ساحل سورية وفلسطين يصيبه من الامطار اكثر من ضعف ما يصيب ساحل كاليفورنيا الجنوبية والسفلى .

ومتوسط درجة الحرارة السنوية في بيروت ٦٨ درجة فرنهايت . وكان اعلى درجة للحرارة سجلها مرصد الجامعـــة الاميركية في بيروت ١٠٧،٠٦ درجات (فرنهايت) في ١٨ ايار ١٩١٦ واوطى درجة للحرارة كانت ٢٩،٨٢ (فرنهايت) في ٣٠ كانون الاول ١٨٩٧ و ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٧[٢] . وتبلغ الرطوبة ذروتها في سواحل لبنان في تموز ، مع ما في ذلك من غرابة ، ويكون متوسطها ٧٥ بالمائة بينما تبلغ ادنى درجاتها في كانون الاول بمعـدل ٦٠ بالمائة[٣] . وفي الشتاء تنتشر التأثيرات الكثيفة الباردة والجافة من آسيا الوسطى فوق منطقة الهضاب الشرقية في سورية فتسبب الصقيع والثلج ويكاد لا يحصل ذلك في منطقة الساحل .

---

١) منصور جرداق : « هواء جبل لبنان » مجلة الكلية م ١٢ (١٩٢٦) ص ٤١٣–٤١٤ ، قارن مع : D. Ashbel, « Rainfall Map of Palestine, Transjordan, Southern Syria, Southern Lebanon » 3rd. ed. (Jerusalem, 1942).

٢) منصور جرداق في « الكلية » م ١٢ (١٩٢٦) ص ٤١٢ .

٣) انظر : W. B. Fish, « The Lebanon », *The Geographical Review*, vol. xxxiv (1944), p. 243.

وتعتدل درجة الحرارة في الساحل بتأثير البحر وهو اكثر حرارة من البر في الشتاء واكثر برودة في الصيف . ويعمل الحاجز الجبلي المزدوج وحوض التصدع على منع وصول الرياح البحرية المبردة الى الداخل . وتهب الرياح المحملة بالغبار من البادية وتصبح حرارة الصيف شديدة في المدن مثل دمشق وحلب . وكثيراً ما يسجل ميزان الحرارة في فلسطين ١٠٠ درجة (ف) في الظل وقد تبلغ الحرارة في وادي الاردن ١٣٠ درجة . واكثر ما يخشاه الانسان من الرياح الحارة الآتية من الشرق والجنوب الشرقي ريح السموم او الشرقية[١] وهي ريح مزعجة بشكل خاص وجافة ورطوبتها اقل من عشرة بالمائة في بعض الاحيان مما يجعل التنفس صعباً . وتتردد هذه الريح اثناء الربيع والخريف حيث كثيراً ما تصل الى الساحل وتبشر بقدوم المطر . وفي طرف البادية تكون على الغالب محملة برمل ناعم سريع التغلغل . وليس غريباً ان تكون قيادة العرب المسلمين قد اختارت يوماً كان يهب فيه ريح من هـذا النوع لقتال الجيش البيزنطي المدافع عن سورية في معركة اليرموك الحاسمة عام ٦٣٦[٢] .

التآكل

تتسرب كثير من مياه المطر في مساحات كبرى من الصخور الكلسية وتفقد . غير ان بعضها يتجمع في مجار تحت الارض ويخرج بشكل ينابيع . وهكذا فان انتشار الصخور الكلسية بكثرة في لبنان الشرقي والغربي وفلسطين يأتي بعامل آخر غير ملائم فضلاً عما يحدثه من منظر أغبر متألق . ذلك انه يحد من كميـة المياه ويجعلها قليلة وينجم عنه انخفاض عدد السكان وخاصة في لبنان الشرقي .

والمياه التي لا تتسرب في الطبقات الكلسية تشكل جداول وانهاراً وتتحول الى سيول بعد هطول الامطار بغزارة كما انها تتقلص اثناء جفاف الصيف فتصبح شريطاً ضئيلاً من المياه اذا لم تجف تماماً . وقد نتج عن تدفق المياه من المرتفعات

١) أتت كلمة sirocco الافرنجية من كلمة « الشرق » العربية بطريق الايطالية . وتقابل الريح الشرقية ، التي يظن انها تدوم ثلاثة ايام ، ريح الخمسين في مصر .

٢) انظر كلامنا في الفصل الثلاثين عن هـذه المعركة . راجع بشأن المصورات الحديثة المتعلقة بالحرارة والمطر والرياح : Charles Combier, *Aperçu sur les climats de la Syrie et du Liban* (Beirut, 1945).

مع ما يرافقه من تأكل وتعرية ان بعض الاراضي التي كانت مزدهرة اصبحت قاحلة على مر العصور. وعمل هذا الامر على تضليل بعض العلماء الذين اعتقدوا بحدوث تغيرات اقليمية هامـــة تتجه نحو الجفاف في العصور التاريخية في سورية والبلاد المجاورة[١]. وسنرى فيما بعد[٢] ان هذا الافتراض مبني على تعليل خاطئ تمامـــاً. والتغيرات المناخية او التبدلات في كمية الامطار لا تكفي لشرح هذا الامر الغريب الذي كثيراً ما يلاحظ في شرقي سورية وهو ان مساحات واسعة من الاراضي التي كانت مزدهرة كثيرة السكان اصبحت اليوم فقيرة قليلة السكان. والاسباب التي تخالف اية نظرية عن حصول الجفاف بعوامل مناخية هي تشابه المحاصيل الزراعية منذ العصور القديمة (باستثناء النباتات التي ادخلها العرب من الشرق في العصور الوسطى وادخلها المواطنون من العالم الجديد في العصور الحديثة) وبقاء اساليب الحراثة والاحتفاظ بنفس التواريخ الموسمية للحرث والحصاد خـــلال العصور. والعوامل الحقيقية لانحطاط قدرة الارض على الانتاج كانت تعرية سفوح المرتفعات بعمل مياه الامطار الجارية والرياح وتضاؤل قوة بعض الينابيع، والرعي وزوال الغابات التي كانت جذورها تساعد على تماسك التربة الرخوة، واهمال او تخريب اعمال الري بنتيجة الغزوات او هجمات البدو، وانهاك التربة المحتمل في بعض الاماكن[٣].

الحياة النباتية

وهنالك ثلاث مناطق متباينة للنبات تقع جنباً الى جنب في الاراضي السورية. فالسهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربيـــة تضم النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط. وتتصف هذه المنطقة بوجود الشجيرات الدائمة الخضار ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتعطي اريجاً قوياً ولا تزال تزدهر انواع النبات التي زودت الانسان باهم مواده الغذائية، كالقمح والشعير والدخن (نوع من الذرة) وقد دجنت هناك لاول مرة[٤]. وادخلت الذرة الصفراء فيما بعـــد. واضيفت في

١) انظر: Ellsworth Huntington, *Palestine and its Transformation* (Boston, 1911), chs. 12-14.

٢) راجع ما سيأتي في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب.

٣) انظر: Semple p. 100

٤) راجع ما جاء في اعلاه ص ١٦ — ١٧ بشأن الزراعة.

العصور الحديثـــة البندورة والبطاطا والتبغ من العالم الجديد الى البصل والثوم والخيار وسائر الخضار المعروفة منذ اقدم العصور[١]. والحبوب الاميركية كلها تقريباً (ما عدا الذرة وبعض انواع الشوفان) ومعظم انواع الخضار وثمار المنطقة المعتدلة اتت من آسيا وخاصة من الشرق الادنى بطريق اوربا[٢]. وتبغ اللاذقية يتمتع بشهرة في العالم كله. ومحاصيل الفواكه القديمة التي منها التين والزيتون والتمر والعنب قد زادت فيما بعد بدخول انواع جديدة كالموز والمتوجات الحمضية. واتى السكر من الشرق مع العرب الفاتحين. وانقطاع المطر في الصيف يستوجب الري لبعض هذه المحاصيل، وشمس بلاد البحر المتوسط القوية التي لا تنفك اشعتها تلفح الارض كل يوم تقريباً خلال موسم الجفاف تسبب نضوج الاثمار نضوجاً تاماً. واهم اشجار هذه المنطقة هي السنديان وصنوبر بلاد البحر المتوسط والتوت والزان. ولا شك بان الاشجار المتبدلة كانت اكثر فيما مضى. وقد كان تقلص منطقة الغابات ضاراً باعتبار ان الحراج كانت تؤخر تأكل التربة في المرتفعات.

وفي اعالي لبنان الغربي والشرقي تزول اشجار النخيل وشجيرات المنطقة المعتدلة التي نجدها في الساحل وذلك بفعل برودة الشتاء ولا تبقى الا الاشجار القوية الصامدة مثل الشوح والارز وسائر النباتات ذات الاثمار المخروطية. وهذا ما يشكل المنطقة النباتية الثانية. وتختلف مرتفعات لبنـــان الشرقي الفاصلة في قسمها الشمالي اختلافاً يستلفت النظر عن لبنان الغربي.

واما في المنطقة النباتية الثالثة التي يمثلها حوض التصدع وهضاب سورية الشرقية فان الحرارة الشديدة وقلة الامطار تؤدي الى وجود سهوب تكاد تنعدم فيهـــا الاشجار، وتظهر الاعشاب في مواسم معينة ولا تعيش فيها سوى الشجيرات الخشنة والعلّيق. وتتصف الهضاب الواقعـــة على اطراف بادية الشام ايضاً بقلة الاشجار وكثرة العليق الجاف الشائك. ويجري العاصي والاردن في اودية عميقة ولذلك فان فائدتها الطبيعية في الري قليلة.

وموقع هضاب شرقي الاردن وحوران مناسب بحيث يعرضها للرياح بسبب انخفاض تلال السامرة والجليل النسبي. وتتجمع بسبب ارتفاعها رطوبة كافية لاجل

١) راجع كلامنا عن الريّ والزراعة في الفصل الثالث.

٢) Walter T. Swingle, « Trees and Plants We Owe to Asia », *Asia*, vol xliii (1943), p. 634.

المراعي . وقد كانت حوران في العصور القديمة والحديثة مخزن قمح سورية ومصدر تصدير الحبوب كما يغلب الظن من فلسطين الى صور[١] وحتى الى اليونان .

ان وجود هذه المناطق النباتية الثلاث ناتج عن التقاء منطقتين نباتيتين في سورية وهما منطقة البحر المتوسط ومنطقة سهوب آسيا الغربية . وتوسط جبال لبنان يأتي بعامل جديد ويفرض تغييراً ناشئاً بصورة مباشرة عن تأثيرات الارتفاع، ويجعل الانتقال من تأثيرات البحر المتوسط الى التأثيرات القارية مفاجئاً جداً[٢] . ولذلك فاننا نجد مزارع الموز ومراكز الالعاب الشتوية وواحات البادية ضمن منطقة لا تبعد عن البحر اكثر من ستين ميلاً . ولكننا نشاهد تبايناً يستلفت النظر في كل مكان بين المناظر في الربيع حين تورق النباتات على أحسن وجه وبين المناظر في الصيف حين تكون الحرارة قد قضت على النبات .

شجر الزيتون

وفي العصور القديمة كانت الاشجار المثمرة الوحيدة التي تزرع على مقياس واسع هي الانواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف ونعني بها التين والكرمة والزيتون . وقد ادخل الفينيقيون الكرمة الى بلاد اليونان ومن هناك الى ايطاليا . ورافق الزيتون الكرمة او تبعها من الشرق الى الغرب[٣] . وشجرة الزيتون لا تتطلب الا القليل من العناية وتعطي الشيء الكثير . وثمرها كان ولا يزال يشكل احد مصادر الغذاء الرئيسية للطبقات الدنيا . ويمتد في جنوبي بيروت بستان للزيتون على مسافة اميال ويعتبر من أكبر بساتين الزيتون في العالم . وكان يستخدم زيت الزيتون لاجل الغذاء[٤] فيقوم مقام الزبدة التي يصعب حفظها ، ويستعمل في المصابيح لاجل التنوير[٥] وفي المراهم وصنع الروائح الذكية[٦] وكذلك يستخدم لاغراض طبية[٧].

١) سفر الملوك الاول ٥ : ١١ ؛ انظر كلامنا في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب عن الزراعة في العصر الروماني .

٢) قارن مع : H. B. Tristram, *The Survey of Western Palestine: The Fauna and Flora of Palestine* (London, 1888), pp. xix - xxii.

٣) انظر بشأن الاشجار السورية التي ادخلت الى ايطاليا ما سيأتي في الفصل ٢٢ .

٤) انظر سفر اخبار الايام الاول ١٢ : ٤٠ ؛ حزقيال ١٦ : ١٣ .

٥) سفر الخروج ٢٥ : ٦ ؛ متى ٢٥ : ٣ .

٦) سفر الخروج ٣٠ : ٢٥ ؛ صموئيل الثاني ١٤ : ٢ ؛ المزامير ٢٣ : ٥ .

٧) سفر اشعيا ١ : ٦ ؛ انجيل مرقص ٦ : ١٣ ؛ لوقا ١٠ : ٣٤ .

وكان الزيت يملأ قارورة صموئيل عندما مسح اول ملك على اسرائيل[١] واكتسب درجة من القدسية بحيث لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا في مسح جبهة المشرف على الموت وكان يعطى لب الزيتون بعد عصره طعاماً للحيوانات كما ان نواته تستخدم للوقود بعد جرشها . ومنذ ان عادت الحمامة الى نوح بغصن الزيتون فان ورق الزيتون اصبح عنوان السلام وعلامة السعادة . وفي مؤتمر الاشجار الذي يتحدث عنه سفر القضاة (٩ : ٨) اعترفت نباتات فلسطين بسيادة شجرة الزيتون فطلبت ان تملك عليها . . . .

الارز

ان افخم اشجار لبنان واشهرها شجر الارز (Cedrus Libani) وقد تغنى الشعراء والانبياء والمؤرخون الاقدمون بصفاته فوصفوه بالقوة (مزامير ٢٩ : ٥) والمقاومة (ارميا ٢٢ : ١٤) والجلال (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ ؛ زكريا ١١ : ١ — ٢) والملاءمة للحفر (اشعيا ٤٤ : ١٤ — ١٥) . وقد زود الارز سكان لبنان الاقدمين باحسن الاخشاب لبناء سفنهم وكان يجتذب ملوك وادي الرافدين ووادي النيل حيث لا تنبت اشجار كبرى . واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانباً من مجد لبنان كما كان يفعل قديماً (اشعيا ٣٥ : ٢ ؛ ٦٠ : ١٣) . ولا يزال يوجد الارز في مجموعات صغيرة — كباقات زهر في صدر لبنان العاري — اشهرها تقع فوق بشرّي حيث تقوم اكثر من اربعمائة شجرة يبلغ عمر بعضها الف سنة[٢] . ويبلغ ارتفاع اعلاها نحو ثمانين قدماً . وتعرف هذه الاشجار عند الشعب « بأرز الرب » . وقد اتخذت احداها شعاراً للجمهورية اللبنانية الحديثة . وهنالك غابة ارز اصغر واحدث وموقعها فوق الباروك في الجنوب حيث تسمى « أُبهل[٣] » . وقد إستغلت احراج الصنوبر والارز خلال العصور وبلغ هذا الاستغلال ذروته في عهد الاتراك

---

١) سفر صموئيل الاول ١٠ : ١ .

٢) راجع : George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885 ?), pp. 36-7. Albert E. Rüthy, *Die Pflanze und ihre Teile im biblisch-hebräischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41-2.

٣) وهو نوع من العرعر (*Juniperus Sabina*) وبالعبرية إرز . غير ان هنالك التباس بين الكلمتين . فخشب الارز الذي يستعمل في طقوس التطهر بعد الاحتكاك مع رجل مصاب بالبرص (سفر اللاويين ١٤ : ٤) او مع جثة ميت (سفر العدد ١٩ : ٦) هو العرعر كما يبدو وكان ينمو في البرية وبجانب المياه (عدد ٢٤ : ٦) .

العثمانيين حيث استخدمت كوقود لتسيير قطارات السكة الحديدية . وعمل هذا الاستغلال على تجريد الجبال من احسن اشجارها كما انه عجل في عملية التأكل ونشأ عن ذلك ايضاً تأخير التشجير من جديد .

الحياة الحيوانية

وقد ساهمت الاغنام والماعز وخاصة الماعز في تسهيل عملية التأكل باكلها العشب والنبتات الصغيرة على سفوح التلال بما جعل التربة رخوة واكثر تعرضاً لتأثير المياه الجارية . ونشأ عن حالة تضاريس جبال لبنان وعن كثرة تصريف المياه في مرتفعات فلسطين ان الكلأ الطبيعي للمواشي والخيل في سورية كان قليلاً بصورة دائمة غير انه بامكان الاغنام والماعز ان تجد العشب الكافي .

الحصان

كان الحصان بالاصل حيواناً برياً اميركياً ولكنه دخل شرقي آسيا في عصور ما قبل التاريخ البعيدة عندما كانت تشكل اميركا وآسيا قارة واحدة . ويظهر الحصان في شكله البري منذ الدور النطوفي في فلسطين[١] . وقد دجن في اوائل العصور القديمة في احد الاماكن شرقي بحر الخزر من قبل الهنود الاوروبيين الرحل . واستورده الكاشيون الى بلاد الرافدين على مقياس واسع وبواسطتهم دخل آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو الفي سنة . وقد اعطاه الحثيون الى الليديين ومنهم انتقل الى اليونان . وادخل الهكسوس الحصان الى سورية ومنها الى مصر قبل العصر الميلادي بنحو ١٨٠٠ سنة . ومن سورية انتقل قبل العصر الميلادي الى بلاد العرب حيث احتفظ الحصان العربي اكثر من اي مكان آخر بنقاوة دمه[٢] .

الابل

وكان الجمل كالحصان من اصل اميركي وانتقل الى شمال شرقي آسيا منذ ملايين السنين . ومن هناك وجد طريقه بواسطة كشمير والهند ، حيث اكتشفت عظامه المتحجرة ، الى شمالي غربي بلاد العرب ومنها الى جنوبي سورية . واول اشارة

١) انظر: Dorothea M. A. Bate, « A Note on the Fauna of the Athlit Caves », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. xlii (1932), pp. 277-78.

٢) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 20-21

معروفـــة للحمل في الادب واردة في سفر القضاة ٦ : ٥ حيث يوجد وصف غزو المديانيين لفلسطين في القرن الحادي عشر ق . م . واقدم رسوم معروفة لهذا الحيوان ترجع الى العصور الحجرية وقد اكتشفت حديثاً في كِلوة[١] في شرقي الاردن حيث تظهر في رسمين محفورين يبدو في احدهما وراء وعل من العصر الحجري الوسيط[٢] . والرسم هو رسم جمل صغير له سنام واحد وهو الجمـــل العربي المعروف اليوم . واكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه في تل حلف وتاريخها بين ٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق . م[٣] . ووجود الراكب لايترك شكاً في ان الحيوان كان مدجناً . وفي جبيل وجد تمثال صغير مصري الاصل يعود الى النصف الاول مـن الالف الثاني ق . م . وتمثل جملًا مضطجعاً في الوضع المعروف[٤] . والتماثيل المصرية الصغيرة الاخرى من عهد المملكة القديمة في مصر (نحو ٢٥٠٠ ق . م .) والتي وجدت في جبيل تؤكد وجود الجمل كحيوان للحمل في ذلك العهد .

وهنالك حيوان آخر أدخل الى سورية من آسيا القاحلة بطريق الجزيرة العربية وهو النوع القديم مـــن الغنم ويتصف بذنبه العريض السمين وصوفه الطويل وهو النوع المعروف حتى اليوم . وقد ذكر في الآداب التورانية والكلاسيكية[٥] . ويبدو ان عادة تسمين الغنم الغريبة التي بقيت في لبنان وتقوم على دس الطعام في الفم وتحريك الحنك بواسطة اليد كانت معروفة في مصر القديمـــة كما يتضح من اشكال حيوانية منحوتة نحتاً بارزاً تشبه الغزلان او الماعز وقد وجدت على قبور تعود الى السلالة السادسة .

وبالاضافة الى الجمل والحصان فان في سورية حيوانات اخرى للحمل والجر مثل الحمار والبغل وغيرهما ، وفيما سوى الغنم والماعز فان حيوانتها الداجنة تضم البقر

---

١) في جبل الطُّبيق في الحدود الجنوبية الشرقية لشرقي الاردن .

٢) انظر : Hans Rhotert, *Transjordanien : vorgeschichtliche Forschungen* (Stuttgart, 1938), p. 176, pl. 15, No. 2; p. 224, pl. 26, No. 1; Anges Horsefield « Journey to Kilwah », *The Geographical Journal*, vol. cii (1943), pp. 71-7.

٣) Von Oppenhein, *Tell Halaf*, p. 140, and pl. xxi a, facing p. 136

٤) Pierre Montet, *Byblos et l'Egypte*, (Paris, 1928), p. 91, No. 179; « Atlas » vol. (1929), pl. lii. No. 179.

٥) سفر الخروج ٢٩ : ٢٢ ؛ اللاويين ٣ : ٩ . انظر ايضاً : Herodotus, *History*, Bk III. ch. 113

والكلاب والقطط التي دجنت منـــذ اقدم العصور[١] . وان البقر والغنم والماعز والخنازير والدجاج هي جميعها حيوانات اسيوية دجنت وادخلت الى اوربا ومنها الى اميركا[٢] . والحيوانات البرية المعروفـة في البلاد هي الضبع والذئب والثعلب وابن آوى والظبي والوعل . والغزلان التي يمكنها البقاء بدون ماء مدة طويلة في طرق الزوال السريع . والمهاة العجيبة التي يمكنها العيش في مجاهل البادية بدون مياه آخذة بالانقراض . وقد قتلت آخر النعامات في نهاية العقد الثالث من هذا القرن في جبل الطبيق . وزالت من سورية الاسود والفهود التي كانت معروفة في عصر الصليبيين[٣] . وتوجد الافاعي والسحليات والعقارب بكثرة وخاصة في جنوبي البلاد . والطيور المعروفة هي النسر والباشق والبوم والحجل والقطا وغيرها مما هو مشهور لدى طلاب ادب التوراة .

١) راجع ما جاء بهذا الشأن في أعلاه ص ١٦ .

٢) انظر : Swingle in *Asia*, vol. xliii (1943), p. 634; Childe, p. 46

٣) اسامة بن منقـــذ ، كتاب الاعتبار . نشره فيليب حتي (برنستون ١٩٣٠) ص ١٠٤ وما يليها ، ١٤٤ .

القسمُ الثاني

الازمنةُ السّاميّةُ القديمة

الفصل السادس

قدوم الساميين

يمكن تقسيم تاريخ شعوب سورية في خطوطه الواسعة الى خمسة اقسام رئيسية هي :

(١) عصر ما قبل التاريخ وقد بحثناه في الفصول السابقة .

(٢) الدور السامي الذي بدأ بالاموريين (حوالي ٢٥٠٠ ق. م.) وانتهى بسقوط الامبراطورية البابلية الجديدة (او الكلدانية) في ٥٣٨ ق. م. وتبعته سيادة الفرس .

(٣) العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتوح الاسكندر الكبير في ٣٣٣ ق. م. وانتهى بالفتوحات العربية في ٦٣٣ — ٦٤٠ .

(٤) الدور العربي الاسلامي الذي استمر حتى الفتح العثماني في ١٥١٦ .

(٥) الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي خلال هـذا التاريخ الطويل المتنوع لم تكد تشهد سورية فترة واحدة كانت فيها كلها دولة مستقلة بمفردها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين . وقد كانت وحدتها تفرض عليها دائماً بارادة سلطة خارجية وفيما سوى ذلك فانها كانت عادة اما جزءاً من دولة اكبر او مجزأة بين دول وطنية او اجنبية . ولم تكن سورية نفسها المركز السياسي الا في عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق. م. وكانت العاصمة انطاكية وفي اثناء الخلافة الاموية (٦٦١ — ٧٥٠ م) التي جعلت دمشق عاصمتها . وكانت سورية في عهد المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٦) تابعة لمصر . وكان النيل في مصر وكذلك الفرات في بلاد الرافدين عوامل ساعدت على الوحدة ، ولم يكن في سورية عامل طبيعي من هذا النوع . والواقع ان وضع سورية الطبيعي كان يميل الى احداث التنوع اكثر من الوحدة .

اسم سورية والسوريين

ان اسم سورية يوناني في شكله[١] . ويظهر بشكل شرين Shryn في آداب اوغاريت[٢] وسيريون Siryôn في العبرية[٣] حيث يطلق على لبنان الشرقي . واستخدم اسم الجزء فيما بعد ليشمل البلاد كلها . وكلمة لبنان هي سامية ايضاً[٤] ولكنها تظهر في الوثائق المسمارية التي هي اقدم من الوثائق العبرية والاوغاريتية . وكانت احدى مناطق شمالي الفرات معروفة عند البابليين باسم سوري Su-Ri[٥] . ولا توجد في الغالب صلة في الاشتقاق بين «سورية» و«آسيريا» (اشور[٦]) . وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم واطلق على البـــلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالميـة الاولى . وقد شمل عموماً المساحة الواقعـة بين طورس وسينا وبين البحر المتوسط والبــــادية . وكانت فلسطين عند هيرودتس[٧] قسماً من سورية ـ وكذلك كانت عند الأتراك ـ وكان سكانها يعرفون بالسوريين الذين في فلسطين . واعتبر وليم الصوري[٨] وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية ايضاً . واسم فلسطين ايضاً اتى من اليونانية وكان بالاصل «فلسطيا» وهو متصل بذكرى الفلسطينيين الجنود الاوربيين الذين احتلوا المنطقة الساحلية في القرن الثالث عشر ق . م . في ذات الفترة تقريباً التي كان يحاول فيها الاسرائيليون احتلال الداخل[٩] . ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه التسمية وصارت تشمل المنطقة بكاملها حتى البادية .

---

١) وقد ظهر لأول مرة في Herodotus, Bk II. ch. 12

٢) في اوائل القرن الرابع عشر ق.م. انظر : Cyrus H. Gordon, *Ugaritic Handbook* (Rome, 1948), p. 142.

٣) سفر التثنية ٣ : ٩ ؛ المزامير ٢٩ : ٦ .

٤) راجع ما جاء في اعلاه ص ٣٣ عن اسم لبنان .

٥) انظر ما سيأتينا في الفصل السابع عن هذه التسمية .

٦) قارن مع كلام ارنست هرتزفلد في مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٢ (١٩٤٧) ص ١٧٨–١٨١ حيث يوافق على هذا الاشتقاق .

٧) Herodotus I. 105; II. 104, 106; III. 5, 91. Cf. Josephus, *Antiquities* I. 6. 2

٨) راجع : *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 5.

٩) انظر ما سيرد في الفصل الثالث عشر .

وتسمية سورية والسوريين غير واردة في النص العبري الاصلي للعهد القديم ولكنها مستعملة في الترجمة السبعينية للدلالة على آرام والآراميين . وبعض كتاب العصر الكلاسيكي يخلطون في الكلام عن السوريين حين يجعلون اسمهم مرادفاً للاشوريين . وقد اعطى العرب للبلاد اسماً جديداً وهو الشام او المنطقة الواقعة الى اليسار (اي الشمال) بخلاف اليمن او المنطقة الواقعة الى اليمين (اي الجنوب) وذلك بالنسبة للحجاز[1] . واستعمل اسم « سوري » بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقيـة تشمل سكان سورية كلها غير انه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط وكمصطلح لغوي فان اسم « سوري » Syrian بالانكليزية يشير الى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية (الآرامية) ومنهم الذين في العراق وايران ، كما انه يشير كمصطلح ديني الى اتباع الكنيسة السورية القديمة او السريانية ، وقد انتشر بعضهم حتى في جنوبي الهند[2] .

وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية ، غير ان ولاية سورية الرومانية كانت تمتد من الفرات الى مصر . وكانت هذه حدود سورية كما وصفها الجغرافيون العرب[3] وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية الدور العثماني[4] . والوحدة الطبيعية لهذه المنطقة التي تعرف باسم سورية لها ما يقابلها في الوحدة الحضارية ولكن ليس في الوحدة الجنسية او السياسيـة . وهي تشكل منطقة متشابهـة في الحضارة على وجه التقريب ومختلفة اختلافاً بيناً عن المناطق المجاورة . غير ان الحدود الحضارية بينها وبين الطرف الشرقي فقط للهلال الخصيب كانت دائماً حدوداً مائعة .

---

١) راجع المقدسي ص ١٥٢ ؛ ابو الفداء ص ٢٢٥ . راجع ما سياتي في الفصل ٤١ . انظر بشأن حدود الشام ابن حوقل : المسالك والممالك طبعة دي غوية (ليدن ١٨٧٢) ص ١٠٨ ؛ ياقوت ج ٣ ص ٢٤٠ . راجع : Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923) pp. 6 *seq.*

٢) تميز اللغة العربية بين هذه التسميات فتستعمل اسم « سوري » للمفهوم العرقي والجغرافي واسم « سرياني للمفهوم اللغوي والديني » .

٣) انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 3–4 ; Arnold J. Toynbee, *Survey of International Affairs*, vol. i, *The Islamic World* (London, 1927), pp. 347-8 ; Cornelius Van Dyck, المرآة الوضية في الكرة الارضية (بيروت ١٨٦٨) ص ١١٩–١٢٠ . قارن مع : Dussaud p. 1

٤) كما في الاصطخري ص ٥٥ وأبي الفداء ص ٢٢٥ .

العوامل التاريخية الفعالة

ان العوامل الفعالة في تاريخ سورية وسكانها ثلاثة وهي : اولاً وضعها الجغرافي كمجموع لمناطق مختلفة ينعكس في خليط من السكان والجماعات العرقية والمذاهب الدينية . وقد تقطع سطح الارض بحيث ان طبيعة هيئتها لم توجد في أي مكان بيئة تتسع اتساعاً كافياً لنشوء دولة قوية شاملة. والعامل الثاني هو موقعها الستراتيجي كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث وهـــو امر جعلها معرضة للاخطار والغزوات من جميع الجهات . فالبابليون والاشوريون ، والمصريون والحثيون ، والفرس والمكدونيون والرومان، والعرب والمغول والاتراك، والصليبيون وغيرهم من الامم الاخرى هاجموا البلاد في عصور مختلفة واحتلوها كلها او جانبا منها . والعامل الثالث هو مجاورتها لاقدم مركزين للحضارة الفعّالة وهما الحضارة السومرية البابلية في الشرق والحضارة المصرية في الجنوب الغربي. وفي العصور التالية تعرضت البلاد من جهة البحر لتأثيرات هندية اوربية من كريت واليونان وروما من جهة البر لتأثيرات هندية ايرانية من فارس والهند .

الطريق الدولي العظيم

وبسبب اتصال سورية بصورة دائمـــة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم فانها تعرضت لتأثيرات عالمية ولتدفق بقايا الجماعات المتفككة . ففي قسمها الجنوبي وجدت البهائية الحديثة ملجأ يحميها من الهـــلاك فعاشت جنباً الى جنب مع بقية مذهب قديم كالسامرية. ولا تزال تزدهر في اقسامها الوسطى طوائف الدروز والموارنة التي يعود اصلها الى العصور الوسطى . وفي الشمال نجد حتى الآن مذاهب النصيرية والحشاشين .

ان هذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبدأه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفـــيروز في شبه الجزيرة كما يتفرع الى اراضي البخور في جنوبي الجزيرة العربية . ومن سيناء يتحول الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر . وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحـــل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ويسير الآخر الى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الاردن في واديه الشمالي ثم يتجه رأساً الى دمشق

في الشمال الشرقي . ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذي تمثله بالتتالي بابل والمدائن وبغداد . اما الطريق الرئيسي فانه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقي بواسطة ممر الزبداني ويصعد شمالاً عبر سورية المجوفة متبعاً نهر العاصي وقادش الى شمالي سورية. ويتفرع في سيره عند قادش باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديدية اليوم هذا الطريق نفسه . وبعد ان يتفرع في شمالي سورية الى البحر بطريق الابواب السورية في جبل امانوس ويتفرع ايضاً الى الشمال الغربي بطريق الابواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فانـــه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السوري نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوباً الى الخليج الفارسي .

ولقد سلك بعض اجزاء هذا الطريق التجاري العظيم سرجون وسنحاريب ونبوخذنصر والاسكندر وبومبي وعمرو بن العاص ونابوليون والنـــبي وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة كما سلكه كثيرون غيرهم . وكانت تنقل على هذا الطريق في العصور القديـــة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقيا ، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب ، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاخشاب من سهول سورية وجبالها . غير ان القوافل كانت تحمل اكثر من ذلك . فقد كانت تحمل معها احمالاً غير منظورة من الافكار . ولئن استهلك القمح واستخدم الكهرمان لارضاء رغبة عابرة لاحدى الفتيات فان الافكار لم تفقد كلها . فقد اثرت بعضها في عقول السوريين وساهمت في انتاج تلك الحضارة المركبة المعروفـــة بالحضارة السورية والتي كانت مزيجاً من عناصر وطنية واخرى من حضارات البلاد المجاورة . وكان العنصر الوطني نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها .

النزاع بين البدو والحضر

والعامل الرابع بين العوامل التاريخية المؤثرة هو ان البلاد السورية كانت خلال تاريخها وخاصة في اطرافها الشرقية والجنوبية مسرح نزاع متواصل بـــين البدو والحضر المستقرين . وكان تاريخ الشرق الادنى بكامله مشهد حركة كبرى تنطوي

على تلك الغزوات والهجمات المتكررة التي يقوم بها البدو الطامعون في حياة الرخاء التي تتمتع بها السكان الحضر في الاراضي المجاورة . وان جانباً كبيراً من تاريخ سورية هو قصة تلك الموجات المتتالية التي يطغى بها سكان البادية المضطربون الجائعون فيحاولون بطريق التغلغل السلمي او بالقوة احتلال الاراضي الزراعية . ولقد كان لسكان الخيام الرحل ميزة على سكان البيوت المستقرين لقلة ممتلكاتهم وسرعة حركتهم وشدة احتمالهم . وقصة بني اسرائيل القدماء كما ترويها لنا صفحات العهد القديم في التوراة تعطينا أوفى ايضاح عن هذا الانتقال المتواصل من البداوة الى الحياة الحضرية . غير ان بني اسرائيل لم يكونوا اول من عرف هذا الانتقال بين الساميين. وقد مر ساميون كثيرون قبلهم وبعدهم بالمراحل نفسها بالنسبة لسورية[١] .

من هم الساميون ؟

وقد اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على اساس ان الساميين كانوا متسلسلين من الابن الاكبر لنوح. غير ان هذه التسمية من وجهة علمية هي تسمية لغوية وتطلق على الذين يتكلمون او تكلموا لغة سامية . واللغات السامية كما هو معترف بها اليوم هي مجموعة لغوية خاصة تضم اللغة الاشورية البابلية (الاكادية[٢]) والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشية . وتبدو في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلفت النظر وتختلف عن المجموعات اللغوية الاخرى واقربها اليها المجموعة الحامية . واهم نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغوية هي : وجود فعل ثلاثي كمصدر اساسي ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع، وتصريف الفعل يتبع نفس الاسلوب . وفي جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابهاً بين الكلمات الاساسية كالضمائر الشخصية ، والاسماء التي تدل على القرابة ، والاعداد واعضاء الجسم الرئيسية .

هذه القرابة اللغوية بين الشعوب التي تتكلم اللغات السامية هي اهم رابطة تبرر

١) راجع ما جاء في نهاية الفصل الرابع .

٢) كانت آكاد (و) وهي المقابل السامي لكلمة *Agadē* السومرية بالأصل اسم عاصمة سرجون مؤسس اول امبراطورية سامية ثم اطلقت على البلاد . وتقع المدينة في مكان اقتراب الدجلة والفرات واحدهما من الآخر وقد ذكرت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

ضمهم تحت اسم واحد ولكنها ليست الرابطة الوحيدة . فاذا ما قارنا مؤسساتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية وصفاتهم النفسية واوصافهم الطبيعية اتضحت لنا نواح هامة للتشابه . وعندئذ لا بد من الاستنتاج بان بعض اسلاف الذين تكلموا البابلية والاشورية والامورية والكنعانية والعبرية والآرامية والعربية والحبشية كانوا غالباً يشكلون جماعة واحدة قبل ان تحصل بينهم هذه الاختلافات وان هذه الجماعة كانت تتكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه .

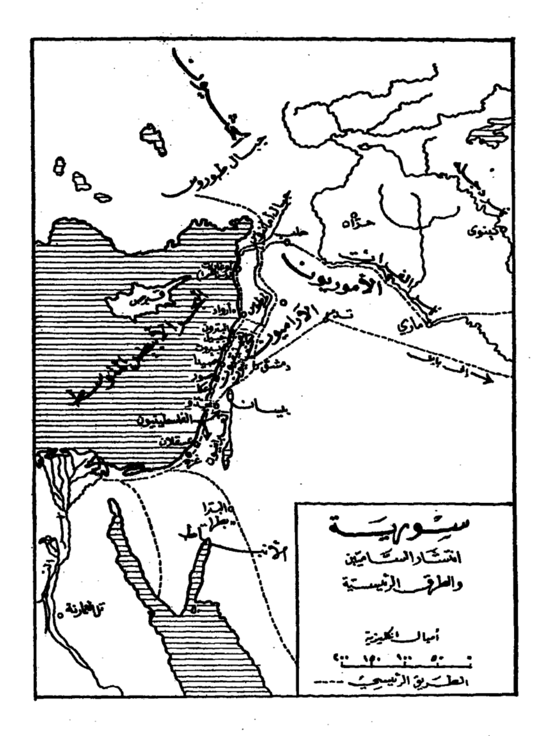
شبه جزيرة العرب مهد الساميين

واذا ما تساءلنا عن الموطن الاصلي لهذه الجماعة فان النظرية المحتملة اكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية. والحجة الجغرافية بالنسبة للجزيرة العربية تقوم على ان البلاد صحراوية يحيط بها البحر من ثلاث جهات ولذلك فانه عندما يزيد السكان عن قدرة الارض المأهولة الضيقة لاعاشتهم فانهم يميلون الى البحث عن مجال حيوي متيسر فقط في الاراضي الشمالية الخصيبة التي تجاورهم. ويؤدي ذلك الى الحجة الاقتصادية التي تقول ان اهل الجزيرة[١] الرحل كانوا دوماً يعيشون على ما يقرب من الجوع وان الهلال الخصيب كان اقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه.

وقد اتجهت في حوالي ٣٥٠٠ ق. م. هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي ووزعت افرادها الرحل بين السكان السومريين في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الاكاديين الذين عرفهم التاريخ (وسموا فيما بعد بالبابليين) . وعندما تزاوج الساميون مع غير الساميين الذين كانوا قبلهم واختلطوا بهم في منطقة الدجلة والفرات فانهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والمعيشة في البيوت وزراعة الارض وريها بل اكتسبوا ما هو اهم من ذلك وهو القراءة والكتابة . وسادت اللغة السامية التي حملوها معهم واصبحت الواسطة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال اجيال عديدة .

---

١) ان التمييز بين كلمة « Arabians » للدلالة على سكان شبه الجزيرة وكلمة « Arabs » العرب للدلالة على جميع الشعوب التي تتكلم العربية — وان كانت احياناً قوميتها فارسية او عراقية او سورية او مصرية الخ حيث اقتبست اللغة العربية بنتيجة الفتح الاسلامي واصبحت معظمها إسلامية — هذا التمييز اقترح لأول مرة في كتاب Hitti, *History of the Arabs*, p. 43, n. 3



وبعد الهجرة الاولى بنحو الف سنة حصلت هجرة اخرى من البادية واتت بالاموريين ووزعتهم في سهول سورية الشمالية . وشملت هذه الهجرة الشعب الذي

احتل فيما بعد السهل الساحلي وسمى نفسه بالكنعانيين واطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم فينيقية .

وبين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. خرجت جماعات اخرى من بلاد العرب فدخل الآراميون سورية المجوفة ومنطقة دمشق وانتشر العبرانيون في القسم الجنوبي من البلاد . وحوالي ٥٠٠ ق. م. ادت هجرة جديدة من بلاد العرب الى استقرار الانباط شمالي شرقي شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء وبلغت درجة رفيعة مدهشة من الحضارة في ظل الرومان .

وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع ذلك الذي حصل في القرن السابـــع الميلادي تحت راية الاسلام وانتشر هذا السيل ليس في سورية فحسب وانما في سائر مناطق الهلال الخصيب وكذلك في مصر وشمالي افريقيا وفارس وحتى في اسبانيا وبعض اجزاء آسيا الوسطى . وهذه الهجرة الاخيرة هي الحجة التاريخية التي يتقدم بها اصحاب النظرية التي تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الاصلي للساميين . ويضيفون الى ذلك حجة لغوية مؤداها ان اللغة العربية قــــد احتفظت في نواح كثيرة باشد تشابه باللغة السامية الام التي كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها ، وكذلك حجة بسيكولوجية خلاصتها ان سكان شبه جزيرة العرب وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية .

هذه الهجرات التي حصلت في عصور يفصل الواحد منها عن الآخر نحو الف سنة — كما لو كان ذلك الوقت ضرورياً لملء الخزان البشري قبل ان يفيض — قد اطلق عليها احياناً اسم موجات . والحقيقة انها اكثر شبهاً بسائر الحركات البشرية في التاريخ حيث تبدأ بانتقال اشخاص قلائل يتبعهم آخرون ويزداد عدد الذين يلحقون بهم الى ان تصل الحركة ذروتهـــا وتأخذ بالتراجع . وتاريخ الهجرة هو تاريخ بلوغ الذروة حين تصبح الحركة مما يستلفت النظر وان كانت في الواقع شملت عشرات من السنين من قبل ومن بعد .

الفصل السابع

الأموريون أول شعب سامي رئيسي في سورية

دخول الاموريين

ان اول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية واقام فيها هو الشعب الذي سماه جيرانه السومريون في الشرق بالاموريين ولا ندري الاسم الذي كان يطلقه على نفسه . فكلمة «اموريين» اذاً غير سامية وتعني «الغربيين». والعاصمة الامورية ماري الواقعة جنوبي مصب الخابور (وهذه ايضاً كلمة سومرية) هي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد أمورّو ومارتو اي بلاد الغرب ، وكان هذا ايضاً اسم المهم القديم وهو اله الحرب والصيد. ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سورية كلها وسموا البحر المتوسط «بحر أمورّو العظيم» .

وتظهر اول اشارة الى ارض الاموريين منذ عصر سرجون (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية كبرى في تاريخ الساميين[١]. واخذ الاموريون يظهرون بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب. ويقال ان «لبنان» و «صيدون» و «عسقلان» امورية في نهاية اسمائها. وفي اسم عمريت[٢] الحديثة الواقعة على الساحل الفينيقي الشمالي ما يخلد اسم الاموريين. وفي ذلك العهد اصبحت سورية سامية لاول مرة — باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين — واحتفظت بصبغتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر. وقبل ان يجتاح سرجون بلاد آمور كانت عاصمتها ماري قاعدة احدى السلالات السومرية القديمة. وقد عزل سرجون الفاتح السومري لوكال زاكيزي Luggal-Zaggisi صاحب إرك الذي ادعى في احدى كتاباته الاثرية انه

١) انظر : Arno Poebel, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), p 177

٢) بالمصرية القديمة MRT وهي مدينة مراثوس Marathus الكلاسيكية .

« فتح البلاد من مطلع الشمس حتى مغرب الشمس » وانه « تقدم من البحر الادنى ، من الفرات والدجلة ، حتى البحر الاعلى[١] » . وفي خلال القرن العشرين اصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها امورية في سكانها وحضارتها وحكومتها . ولا بد ان الغزاة الساميين وطدوا انفسهم فوق مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد الرافدين ويمكن الافتراض انهم كانوا قبل ذلك يتجولون في المناطق الشمالية والبقاع كبدو وراء قطعانهم .

وهناك شاعر سومري عاش قبل عام ٢٠٠٠ ق. م. بقليل حين كان الاموريون يحتلون بلاد بابل — قد عبر عن هذا الانتقال من حياة الرعي الى حياة الاستقرار بصورة شعرية حيث قال :

بالنسبة للاموري السلاح هو رفيقه
. . . فلا يعرف الخضوع .
وهو يأكل لحماً غير مطبوخ
وفي حياته كلها لا يملك بيتاً
وهو لا يدفن رفيقه اذا مات .
[والآن] مارتو يملك بيتاً[؟] . . .
[والآن] مارتو يملك حبوباً[٢] .

وكانت حياته البدوية تعتمد على الحمار لان الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً في ذلك الوقت[٣] . وكان لا يزال في القرن الثامن عشر يستخدم الحمار لاجل تقديم الذبائح .

والاموريون لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الاوسط واجتياح سورية وانما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين ايضاً وحكموها . وقد اسسوا عدة

---

١) راجع : F. Thureau-Dangin, *Die sumerischen und akkadischen Konigsin-schriften* (Leipzig, 1907), p. 155.

٢) Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (Upland, 1924, pp. 20-21

٣) Albright, *The Stone Age*, pp. 120-21

سلالات من اشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق. م. واهم هذه كانت سلالة بابل وهي اول سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب اليها حمورابي (م نحو ١٧٠٠)، اول مشرع عظيم في العصور القديمة[١]. وحمورابي هو الذي فتح بلاد آموره واضافها الى امبراطوريته البابلية .

مخفوظات ماري

وقد ادى هذا الفتح الى القضاء على مدينة ماري وادخالها في عالم النسيان حتى بضع سنوات خلت حين جرى التنقيب في موقع تل الحريري[٢] واتضح انه ماري القديمة . وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من اعظم ما كشفته اعمال التنقيب في العصور الحديثة . فقد تضمنت اكثر من ٢٠،٠٠٠ لوح مسماري وهو عدد لم يخرجه اي موقع آخر باستثناء نينوى . واللغة في معظم الاحيان اكادية غير ان المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تترك مجالًا للشك بان الذين كتبوا تلك الالواح تكلموا الامورية او اللغة السامية الغربية المختلفة عن الاكادية او السامية الشرقية . وتمثل الالواح محفوظات زمري ليم (حوالي ١٧٣٠ — ١٧٠٠[٣]) آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته اعظم ملوك ذلك العصر وهو حمورابي . وبين الالواح تحارير كتبها الملوك والموظفون ووثائق اقتصادية وادارية وتقارير لها قيمتها[٤]. ويظهر لنا

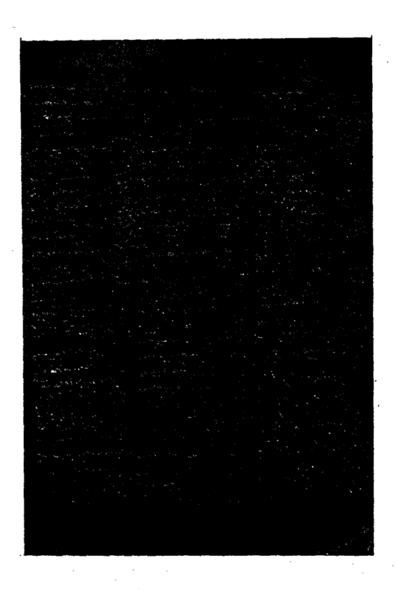
---

١) يقول Albert T. Clay في كتابيه : *Amurru : The Land of the Northern Semites* (Philadelphia, 1909) ; *The Empire of the Amorites*, (New Haven, 1919), بان حضارة البابليين الساميين إذا لم يكن اصلها في بلاد الاموريين فإن نشوءها خلال مدة طويلة على الاقل كان في تلك البلاد ، وانه كان للاموريين امبراطورية واسعة منذ الالف الرابع والخامس ، وان النظرية التي تقول باصل الساميين من جزيرة العرب لا اساس لها . غير ان هذه الاقوال لم تؤيد بعد .

٢) على يد André Parrot ؛ انظر تقاريره التي عنوانها : « Les peintures du palais de Mari », *Syria*, vol. xviii (1937) pp. 324-54 ; « Les fouilles de Mari », *Syria*, vol. xix (1938) pp. 1-29 ; vol. xx (1939), pp. 1-22. وتقع تل الحريري اليوم على بعد ميل غربي الفرات قرب بلدة أبو كمال ، وكانت ماري في العصور القديمة على ضفة النهر .

٣) انظر مقال : W. F. Albright, « An Indirect Synchronism between Egypt and Mesopotamia, *cir.* 1730 B. C. », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 99 (1945), pp. 9-10.

٤) راجع : Georges Dossin, « Les Archives épistolaires du palais de Mari », *Syria*, vol. xix (1938), pp. 105-26 ; « Les Archives économiques du palais de Mari », vol. xx (1939), pp. 97-113.



لوح عليه كتابة مسارية من عهد يهدوثليم والد زمري ليم
وجد في قصر ماري الملكي

احد التحارير ان المركبات التي تجرها الخيل كانت معروفة كما يرينا تحرير آخر ان الاشارات النارية كانت تستعمل كتدبير دفاعي وطني او كوسيلة سريعة للانباء . والحضارة الامورية كما تعكسها لنا اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من عناصر امورية وحورية وبابلية .

وفي هذه الالواح تبدو حَلَبو Halabu (حلب) كعاصمة يمخاض[١]، وجُبلة Gubla (جبيل، بيبلوس) كمركز لنسيج القماش والملابس، وقطنة Qatna (وهي اليوم المشرفة شمال شرقي حمص) كمركز هام، وحرانو Harranu (حران وفي التوراة Haron) — التي كانت احدى محطات ابراهيم في طريقه الى فلسطين — كامارة امورية. وتظهر الوثائق ان جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات امورية او تحت حكم امراء اموريين وليس ذلك فقط بل ان تقريباً كل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ومرتفعات عيلام كان يسيطر عليها امراء اموريون حوالي ١٨٠٠ ق. م. ويشير اسم احد امراء جبيل وهو يَنتن عمّو Yantin-'Ammu الى اصل اموري؛ وكلمة «عمو» معناها قبيلة.

وكان يحوي قصر زمري ليم الذي وُجدت فيه الالواح نحو ٣٠٠ غرفة فيها الواح جدارية جميلة باطارات ورسوم متقنة الصنع للرجال والآلهة فكان حسب تعبير احد الالواح من اماكن التفرج والمتعة في العالم. وكانت مساحة القصر اكثر من ستة فدادين وفيه تسهيلات للاستحمام وتصريف المياه[٢]. وفي القصر غرفتان مزودتان بالمقاعد وتشبهان غرف التدريس. وهنالك رسم ملون بالوان زاهية يمثل الملك يتسلم من عشتار رموز السلطة. وبناء القصر ووثائقه تظهر درجة من الحضارة لم يحلم بها من قبل وهي تنافس حضارة مصر وبلاد الرافدين.

الممر السوري الجبلي

كان ازدهار بلاد الاموريين نتيجة الزراعة المعتمدة على الري من جهة والعلاقات التجارية مع جيرانها من جهة اخرى. فالاراضي الكائنة بين خليج اسكندرون حيث يحدث البحر اعظم فجوة في البر وبين منحنى الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل ممراً طبيعياً بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين. والممرات لها اهميتها في الجغرافية التجارية وفي تاريخ الافكار وتساعد في توجيه عملية التمازج الحضاري. وفي

---

١) كان اسم ملكها يريم لِمْ Yarīm-Lim اسماً امورياً. انظر مقال: W. F. Albright, «Western Asia in the Twentieth century B. C.: The Archives of Mari», *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 67 (1937), p. 27.

٢) يرينا رسم في مجلة سيريا م ١٧ (١٩٣٦) لوح ٣ رسم ٢ (مقابل ص ١٦) مغسلين للاستحمام من الفخار (احدهما للماء الساخن والآخر للماء البارد؟) في الجانب الايمن ومستراحاً في الجانب الايسر.

هذه المنطقة يتحول الحاجز الجبلي في الشمال والغرب والحاجز الصحراوي في الجنوب الى ممر واحد منخفض يؤدي الى واد من جهة والى بحر من جهة اخرى ولذلك فقد سمي بالممر السوري[1]. ويقع الممر في سفح جبال طورس ولذلك يسمى احياناً «بالسفح». وهو المرحلة الاخيرة من خط المواصلات الذي يبدأ عند الخليج الفارسي ويصعد دجلة حتى ضواحي نينوى ثم يتجه غرباً الى الموانئ السورية وهكذا يصل بين تل حلف وحران وماري وحلب وغيرها من المدن القديمة. وفي هـــذا السهل يبدأ التاريخ السوري المستمر واول ممثليه الساميين هم الاموريون. ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمكدونيون كل بدوره السيطرة عليه كمنطقة انتقال. وسهله المملوء بالكلأ يتلقى بين ١٠ و ٢٠ بوصة من المطر سنوياً ويكفي ذلـــك لنمو العشب اللازم للحيوانات والقوافل. وتبدو بعض اقسام هذا السهل بعد المطر مرجة خضراء. وكانت الجداول المنحدرة من طورس ومياه الفرات تروي مدنه.

تحول مركز الاموريين الى الجنوب

كان مسرح تاريخ سورية الرئيسي في مطلع الالف الثاني ق.م. في الشمال حيث كان الاموريون يلعبون الدور الاكبر. وبعد منتصف الالف الثاني بقرن يتحول مركز الثقل الى سورية الوسطى وكان الاموريون لا يزالون يلعبون الدور الرئيسي. وفي هذه الاثناء كانت مصر قد بدأت توسعها لاجل بناء امبراطورية لاول مرة وجعلت قسماً كبيراً من سورية تحت سيطرتها[2] بفضل قوة تحوتمس (م ١٤٤٧) الذي يمكن اعتباره نابوليون السلالة الثامنة عشرة. وكانت هنالك دولة اخرى عظيمة ومنافسة لمصر تتألف في الافق الشمالي وهي دولة الحثيين[3]. وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة او الدول الامورية في سورية الوسطى وكانت تشمل في ذروتهـــا حسب ما تخبرنا اياه رسائل تل العمارنة — وهي اهم مصادرنا — قسماً كبيراً من شمالي لبنان وساحله وسورية المجوفة ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق. ويظهر على

---

١) انظر: Semple, p. 184.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل الحادي عشر.

٣) انظر الفصل الحادي عشر.

مسرح التاريخ احد ملوك هذه الدول وهو عبد عشرتا[١] التابع لمصر برسالة كتبت بلغة اكادية ركيكة — وهي اللغة الدولية في ذلك العصر — الى الفرعون امنحوتب الثالث (م ١٣٧٥) وفي اولها عبارات اعتيادية معروفة تبدو لنا ذليلة حقيرة اليوم ولكنها كانت جانباً من مراسم تلك الايام وقد جاء فيها :

« الى الملك الشمس ، سيدي ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عند قدمي الملك سيدي سبع مرات وسبع مرات اخرى اجثو . انظر ، انني خادم الملك وكلب بيته وجميع امورو احرسها للملك سيدي[٢] ».

النفاق الدولي

كان عبد عشرتا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة إرقة Irkat[٣] الفينيقية التي كان قد فتحها ولكن مركز مملكته كان كما يبدو في منطقة العاصي العليا . وكان قد ساعد الحثيين على فتح أمكي Amki[٤] ولكنه كان الآن يخادع الطرفين لكي يتوسع في المنطقة الوسطى ، فبينما كان يدعي الولاء لمصر ويتظاهر بالتعاون مع الحثيين الفاتحين كان بالحقيقة يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه . وقد سقطت المدن الواحدة بعد الاخرى على الساحل وفي الداخل في يدي عبد عشرتا وابنه أزيرو او نهبت من قبلهما ومن قبل الذين اشتركوا معهما . وقد ارضى بعض التابعين لمصر وتخلص من البعض الآخر . فاحتل قطنة وحماة وهدد اوبي Ubi (منطقة دمشق[٥]) ثم استولى على دمشق نفسها . واخذ ارواد وشيغاتا Shigata

---

١) عشرتا او عاشرة . انظر الفصل العاشر بشأن هذه الآلهة .

٢) راجع: J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna-Tafeln* (Leipzig, 1908), No. 60 ; cf. A. H. Sayce, *Records of the Past*. new series, vol. v. (London, 1891), pp. 97-8 ; S. A. B. Mercer, *The Tell-El-Amarna Tablets* (Toronto, 1939) No. 60.

٣) وهي بلدة RQT' في النصوص المصرية واركا Arka في العصر الكلاسيكي وعرقة اليوم على بعد ١٢ ميل شمال شرقي طرابلس . وهي مذكورة في سفر التكوين ١٠ : ١٧ وفي اخبار الايام الاول ١ : ١٥ ، ومذكورة عند الجغرافيين العرب باسم عرقة .

٤) وهو سهل العمق بين انطاكية وجبال الامانوس. انظر كلامنا عنه في الفصل الرابع .

٥) وفي الالواح السمارية DI-MASH-QA . انظر ما سيأتي في الفصل ١٢ .

وأمبي Ambi والبترون[1] وغيرها من مدن الساحل . ويبدو ان الاروادیین كانوا بسبب المنافسة التجارية مع اهل جبيل ضد المصريين منذ عهد تحوتمس . وكانت سيميرا Simyra[2] وحدها وهي مقر المقيم المصري وكذلك جُبلة[3] وهي مركز حكم الامير الكنعاني الموالي لمصر رب عدي الذي كان يحكم قسماً من الداخل ويدعي السلطة على الساحل حتى سيميرا ، لا تزالان تقاومان . واخيراً خضعت سيميرا ، وفصلت جبيل عن مناطقها الداخلية ولم يعد باستطاعتها مواصلة تجارة الاخشاب مع مصر فتعذر عليها البقاء . وارسل رب عدي الموالي لمصر التحرير بعد الآخر — ومجموعها نحو خمسين تحريراً[4] — ملأها بالشكوى من خيانة عبد عشرتا « الكلب[5] » وازيرو وتضرع الى سيده فرعون بحرارة لكي يرسل له المساعدات ولكن دون جدوى .

وقد تحرك امنحوتب في احدى المرات وارسل فصيلة من الجنود — بدلاً من جيش كامل تحت قيادته كما كان فعل سلفه تحوتمس — نجحت في استرجاع سيميرا واخماد الثورة موقتاً ولكنها لم تتمكن من الوقوف تجاه الخطر الذي يهدد من الشمال ومبعثه تقدم الحثيين . — —

وقد زال بموت عبد عشرتا موتاً غير طبيعي احد اشخاص الرواية ولكن الرواية

---

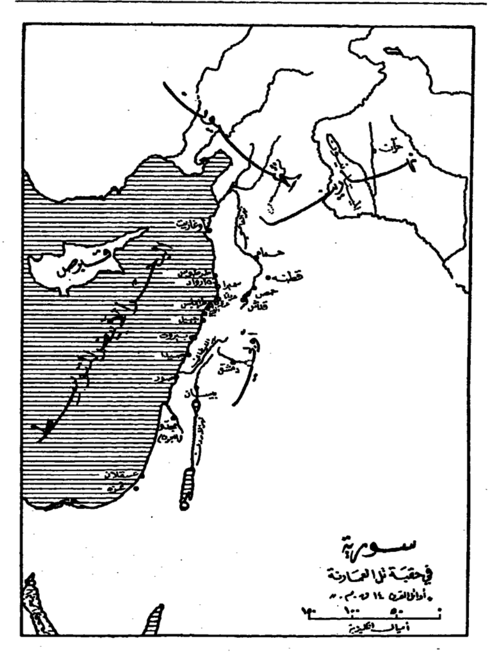
١) وقد وردت اسماء هذه المدن في النصوص السمارية هكذا : AR-WA-DA, SHI-GA-TA, AM-BI, BAT-RU-NA و Shigata ليست زغرتا الحديثة (المذكورة في مراسلات ماري باسم Sagarātim) وانما هي شكا شمالي البترون. و Ambi كانت تسمى Ampa عند الاشوريين ، وانفة عند العرب و Nephin عند الصليبيين وهي انفة الحديثة بين شكا وطرابلس . و Batruna هي Botrys عند اليونان واليوم البترون . انظر: Abel, *Géographie*, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 117.

٢) وهي في النصوص المصرية ḌMR و ṢU-MUR وفي العصر الكلاسيكي Simyros وقد تكون سمرا Sumra الحديثة شمالي مصب النهر الكبير تماماً وجنوبي طرطوس وهنالك دلائل على اكتشاف موقعها في ١٩٥٦. وتوجد اشارة اليها في سفر التكوين ١٠ : ١٨.

٣) وهي مدينة جبال Gebal في التوراة (واليوم تدعى جبيل وبالمصرية ʽKBN, ʽKPN, KPNI وفي اليونانية بيبلوس Byblos وباللاتينية Byblus .

٤) وبعضها محفوظة في لندن والاخرى في برلين . انظر: C. Bezold, and E. A. Wallis Budge *The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum* (London, 1892), Nos. 12-25 ; C.Q. Conder, *The Tell Amarna Tablets*, 2nd ed. (London, 1894), pp. 48 seq.; Knudtzon, Nos. 68 *seq.*; Mercer, Nos. 68 *seq.*

٥) انظر الرسائل رقم ٧٥، ٨٥ في Knudtzon .



نفسها استمرت . فقد تابع ابنه ووريثه أزيرو اعماله بنفس الاساليب المكيافيلية . ولم يغير وصول امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧٧ — ١٣٥٨[1]) الى العرش موقف

---

١) وقد اتى اخناتون بامور جديدة في الدين فاستبدل عبـــادة امون بعبادة اتون Aton قرص الشمس ولذلك غير اسمه وفقاً لذلك فاصبح معناه (جمال قرص الشمس اتون) ونقل عاصمته من طيبة الى أخيت اتون وموقعها اليوم يدعى تل العمارنة (والعمارنة هي جمع عمران وهو اسم قبيلة عربية سكنت هناك منذ مطلع القرن الثامن عشر).

مصر . واذا كان من شيء فان الوضع اصبح اسوأ . فالفرعون الجديد كان اكثر اهتماماً كما يبدو باصلاحه الديني منه في الدفاع عن امبراطوريته .

وبينما كان أزيرو واخوته وحلفاؤه يستولون على المدن المختلفة كان رب عدي يبعث بتحارير الشكوى مما كان يحصل الى فرعون وعماله وقد كتبت بالمسمارية على الواح خزفية . ومما قاله في تلك التحارير « ان ملوك كنعان عندما كانوا يرون مصرياً كانوا يهربون من امامه ولكن ابناء عبد عشرتا الآن يهزأون بشعب مصر ويهددونني باسلحة دموية[١] » ويشكو في رسالة اخرى من ان ابناء عبد عشرتا قد اخذوا بعض الناس والضباط واعطوهم لبـــلاد سوري Suri كرهينة[٢] . وسقطت اولازا Ullaza وارداتا Ardata [٣] ومدن اخرى في يد ازيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت سميرا وهدمت « لمنع وقوعها في ايدي الحثيين » كما ادعى ازيرو وعندما طلب فرعون اعادة بنائها وعد ازيرو بان يفعل ذلك خلال سنة لانه كان جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثيين . ولهذا السبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات اخرى ، لم يتمكن من الاستجابة لامر فرعون والذهاب الى البلاط المصري ليشاهد « وجه سيدي الجميل[٤] » . ويعطي تقريراً عن اعماله .

ومهما يكن فان ازيرو ذهب فيما بعد الى مصر بعد أن انتزع من المندوب المصري ايماناً بانه سوف لا يصاب باذى ، ولكنه عاد وجدد ولاءه للفاتح الحـــثي لشمالي سورية واسمه شوبيلوليوما[٥] . وفي هذه الاثناء نجد ان رب عدي الذي شعر بانه « اصبح كعصفور في شبكة » اخذ يفقد امله . وقد ارسل اخته واولادها ليلتجئوا الى

---

١) الرسالة رقم ١٠٩ في Knudtzon .

٢) الرسالة رقم ١٠٨ في Knudtzon وفي التحارير ورد اسم SU-BA-RI و ZU-BA-RI بدلا من Suri . وتتصل هذه البلاد اتصالاً وثيقاً بميتاني في شمالي سورية ويقول بعض العلماء ان هذا الاسم هو الذي اعطانا اسم «سورية» . قارن مع : Ignace J. Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chicago, 1944), p. 48; Alexander H. Krappe, « The Anatolian Lion God », *Journal of the American Oriental Society*, vol lxv (1945), p. 153.

٣) UL-LA-ZA هي ارتوزيا Orthozia في العصر الكلاسيكي وهي ارض ارتوزي الحديثة عند مصب نهر البارد شمالي طرابلس تماماً ؛ و AR-DA-TA هي أردة قرب زغرتا. انظر : Abel, *Géographie*, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 85.

٤) وسائل رقم ١٦٤ — ١٦٧ في Knudtzon.

٥) انظر ما سيأتي بشأنه في نهاية الفصل الحادي عشر .

صور[١] التي كان ملكها ابي ملكي غير منضم الى جماعة الامراء الناقمين بل كان يسترسل في توجيه تحارير الشكوى الى مصر كما كان يفعل رب عدي. واما رب عدي نفسه فقد هرب فيما بعد من جبيل الى بيروت[٢]. ولكن نساءه وابناءه سُلموا الى ازيرو. وعندما اصبحت بيروت في خطر تابع هربه الى صيدا[٣] التي بخلاف منافستها صور كانت قد تحالفت مع الاموريين. وهنا ادركه اخيراً ازيرو فوقع في قبضته.

وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلي ليس عن شمالي سورية فحسب وانما عن فينيقية ايضاً التي كانت مصدراً هاماً لموادها الخام. واخذت الشقة تتباعد بازدياد بين سورية وفلسطين.

الاموريون في فلسطين

ويسدل الستار بعد ذلك على الاموريين في سورية الوسطى وينتقل مركز الحوادث الى الجنوب. وقد كان الحثيون متمركزين في شمالي سورية واواسطها ولم يقم خلفاء اخناتون المباشرون بحملات جدية ضدهم وتظهر رسائل تل العمارنة انه بينما كان الحثيون يحتلون المنطقة الشمالية كانت جماعات جديدة تسمى الخابيرو[٤] تغزو المنطقة الجنوبية ويرافقها كما يبدو الآراميون وهم قبائل سامية جديدة اتت من البادية. ويرى بعض العلماء ان الخابيرو هم الساغاز Sa-Gaz انفسهم وكانوا مرتزقة في الجيش الحثي يتعاونون مع عبد عشرتا. وفي احدى رسائل رب عدي الاخيرة الى اخناتون يشير اليهم قائلاً: «منذ ان عاد والدك من صيدا، منذ ذلك الحين سقطت الاراضي في يد الغاز Gaz[٥]».

---

١) ṢUR-RI واسمها محفوظ في التسمية الحديثة «صور».

٢) BE-RU-TA وبالمصرية BI-'RU-TA وهي اليوم اكثر ازدهاراً من سائر المدن المذكورة. وكلمة b'eroth معناها آبار. انظر: Zellig S. Harris, *A Grammar of the Phoenician Language* (New Haven, 1936), p. 85. وقابل سفر يشوع ٩: ١٧؛ ١٨: ٢٥.

٣) ṢI-DU-NA وسميت كذلك باسم اله الصيد البري والبحري.

٤) راجع ما سيأتي في نهاية الفصل الحادي عشر.

٥) الرسالة رقم ٨٥.

عندما دخل الخابيرو فلسطين وجدوا ان ساميين قدماء هم الاموريون يحتلون قسماً منها على الاقل. وإن حلقات الاتصال التاريخي بين الممالك والجماعات الامورية الكثيرة في سورية التي كانت موزعة في الزمان والمكان مفقودة. ولا يمكننا التأكد ايضاً من ان الحركة الامورية نحو الجنوب كانت حركة اجماعية. واسم الاموريين مثل الحثيين تغير معناه مع الزمن كما يبدو وصار يستعمل بحرية اكثر. وربما كان الاموريون الطبقة الحاكمة في الجنوب[1]. وأحد المصادر الرئيسية التي استخدمها مؤرخو العهد القديم وانبياؤه يعطيهم مكانة ممتازة في فلسطين قبل الاسرائيليين ويجعل جميع سكان الاراضي الجبلية وشرقي الاردن اموريين[2] قبل قدوم بني اسرائيل[3]. وهنالك مصدر آخر رئيسي يجعل سكان البوادي خاصة من الكنعانيين. ويتضح ان الاموريين كانوا في القرن الثالث عشر يسيطرون على المواقع الستراتيجية ورؤوس التلال في سورية الجنوبية وانهم اسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد فاصبحت تلك المدن الكنعانية الهائلة التي توقف عند اسوارها وابراجها القادمون الاسرائيليون.

وبعد مدة تم للاسرائيليين انتزاع السيادة من ايدي الاموريين والكنعانيين. فقد استولوا على المناطق السورية الواقعة شرقي الاردن بعد اجتياح سيحون Sihon وجارتها الامورية في الشمال وهي ارض باشان[4]. وكان عوج Og ملك باشان الذي قيل عنه انه «من بقية الجبابرة» هائلاً في قامته. وكان طول سريره الحديدي (ربما تابوته البازلتي ؟) تسعة اذرع وعرضه اربعة اذرع[5]. وقد جاء في سفر النبي عاموس (٢: ٩) ان قامة الاموريين كانت مثل قامة الارز وانهم اقوياء كالسنديان. وتبدو قامات الاموريين في المباني الاثرية طويلة عسكرية. ولا بد من ان حجمهم وحضارتهم أثرا على سكان الكهوف القصار القامة البدائيين في جنوبي سورية حتى ان

---

١) راجع: Albrecht Alt, « Volker und Staaten Syriens im frühen Altertum », *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), pp. 22-24.

٢) راجع سفر العدد ١٣: ٢٩؛ يشوع ٢٤: ٨، ١٨؛ عاموس ٢: ١٠؛ حزقيال ١٦: ٣، ٤٥.

٣) واسرائيل هو يعقوب (سفر الخروج ١: ٧) حفيد ابراهيم.

٤) سفر التثنية ٢: ٣ وما يليه؛ ٣: ١ وما يليه.

٥) سفر التثنية ٣: ١١.

الاساطير قامت تتحدث عن ان جيلاً من الجبابرة اتى وتزاوج مع بنات الانسان ، وانتقلت هذه الاساطير الى الاسرائيليين[١]. ويبدو ان لمثل هذه الاساطير الموجودة عند شعوب اخرى كثيرة بعض الاتصال بظهور قادمين جدد يستخدمون المعادن[٢]. وكان البرونز هو المعدن في هذه الحالة. فقد جعل الاموريون الاولون رؤوس حرابهم النحاسية وخناجرهم وسكاكينهم اكثر صلابة بواسطة التطريق ثم بالمزج مع القصدير. واقدم الخناجر البرونزية من فلسطين تشبه خناجر شمالي سورية. وقد ادخل صهر البرونز من هناك الى فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق. م.

وينتسب شكل الاموريين الى ما يسمى بالنوع الارمنوي الذي يتصف بالرأس المستدير والانف الضخم. ويلاحظ نفس النوع بين عرب الجنوب[٣]. واقدم ممثلين للاسرى الاسيويين الذين اسرهم الفرعون ساحوراع (نحو ٢٣٥٠ حسب التاريخ على اقرب تقدير) ينتسبون الى هذا النوع. ويصدق الامر نفسه عـــلى الذين يظهرون في الرسوم الجدارية في بني حسن وكانوا يجلبون الكحل الى «مدير الصحراء الشرقية» (حوالي ١٨٩٠ ق.م.). وهنا يظهر الشيخ الاموري أبشة وهو غالباً من جنوبي فلسطين مع ابناء قبيلته وبناتها باثواب قصيرة متعددة الالوان ومنسوجة بعنايـة ودقة ويلبس الرجال نعالاً (او صنادل) والنساء احذية او جوارب. ويشاهد الرجال بلحية سوداء ووجه يشبه العصفور وقزحية عيونهم رمادية اللون وبؤبؤها اسود. ويقود أبشة موكبهم. ويتبع النساء في هذا الموكب رجل وحماره وعـــلى ظهره قربة وفي يده مضرب ليلعب على قيثارته ذات الثمانية اوتار. وعلى ظهر الحمار الصبور سرج يرتبط به رمح ومضرب عصي. ومن الاسلحة الاخرى التي يحملها الرجال اقواس مزدوجة وحراب. وهنالك قطعة عاج محفورة من أواخر السلالة الاولى (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) تظهر سامياً بلباس كان يلبسه في القتال على ما يظن وهو مئزر مزركش بحواش يصل الركبتين تقريباً.

لم تترك لنا اللغة الامورية كتابات اثرية ذات شأن وانما تركت اسماء اماكن

---

١) انظر ما جاء في اعلاه ص ٢٨ــ٢٩.

٢) M. E. Kirk, « An Outline of the Cultural History of Palestine », *Palestine Exploration Quarterly*, vol. lxxv (1943), p. 22.

٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 30.

وامراء فقط. ومع ذلك فانه يمكننا التأكد بانها اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة فحسب. ويمكن اعتبارها بالواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية او الفينيقية.

الديانة الامورية

ان الديانة الامورية في شكلها البدائي لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة بين الرحل في بادية الشام وبلاد العرب. وكان يوجد بجانب اله القبيلة امورو وهو اله الحرب عدد من الآلهة التي لا تعرف صفاتها بالضبط ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانية فيما بعد. وكان اهمها حدد (بالاكادية آدد او آدو[1]) المعروف ايضاً باسم رمّانو (صانع الصواعق) وهو اله مطر وعواصف يمثل نوعاً شائعاً في غربي آسيا ويظهر عادة مع الثور والصاعقة. ثم اصبح بعد ذلك البعل الاعظم. وبصفته اله رئيسي في الغرب عرف باسم مارتو. ويوجد اله آخر ذو شأن وهو رشف[2] وربما كان له بعض الصلة بالنار. واقتبسه المصريون في عهد الملكية الحديثة من الكنعانيين. وكان دجن الذي عبده الاموريون الذين فتحوا بابل اله غذاء بالاصل. وقد اجريت الحفريات في معبد مكرس له في مدينة اوغاريت. واقتبسه الفلسطينيون كإله السمك وكان يعبد خاصة في غزة. وجميع هذه الآلهة قد ذكرت في الواح ماري.

وكان لـــلاله امورو شريكة تسمى عاشرة Ashirat وتتصف بحب المسرات والنشاط وتشبه نموذج عشتار المعروف. وقد كانت الالاهة الرئيسية. وعبادة الافعى التي سبقت قدوم الاسرائيليين كانت متصلة على ما يبدو بالاهة انثى وربما كان ادخلها الاموريون. وفي عداد آلهة جنوبي بلاد العرب نجد ان هذه الالاهة متصلة بالاله القمر. واسمها يقابل Ashêrah بالعبرية وهي العمود المقدس او جذع الشجرة وتستعمل في الطقوس الدينية[3].

---

١) في الرسالة ٥٢ من رسائل تل العمارنة الموجهــة من ملك قطنة لطلب المساعدة من امنحوتب الثالث ضد الحثيين غالباً نرى ان الملك يسمي فرعون «يا الهي آدو». وفي تحارير قطنة رقم ٥٢–٥٥ أدخلت تعابير حورية كثيرة. انظر نهاية الفصل الثاني عشر.

٢) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ١٢.

٣) انظر الفصل العاشر في اول الفقرة عن الاصنام.

ومن الطقوس البارزة التي ادخلها الاموريون الى جنوبي سورية العمود المقدس وكان يمثل على ما يظهر اله القبيلة وعادة يقام في مكان مطهر وعادة في مغارة الى جانبها مذبح من الحجر الكلسي لا تدنسه اية آلة[١]. والساميون الذين حلوا في جزر محل السكان الاقدمين ومارسوا تضحية اول مولود وكذلك قاموا بالتضحية عند تأسيس الاماكن وبنوا الاماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبرى — هؤلاء الساميون كانوا اموريين[٢]. ومن اقدم الاشارات الى التضحية عند التأسيس إشارة واردة في شعر سومري ذكرناه آنفاً[٣] حيث يذكر ان الاموري كان يبني باحة معبده «على رجل ميت». وقد تابع الكنعانيون النظم والعادات الدينية التي كان يتبعها ابناء جنسهم الاموريين الذين اتوا قبلهم.

---

١) قارن مع ما جاء في سفر الخروج ٢٠ : ٢٥.

٢) انظر ما جاء في ص ٢٦ وما سيأتي في الفصل العاشر، في الفقرة عن الاماكن المرتفعة.

٣) انظر ص ٧١

الفصل الثامن

الكنعانيون ثاني شعب سامي رئيسي في سورية

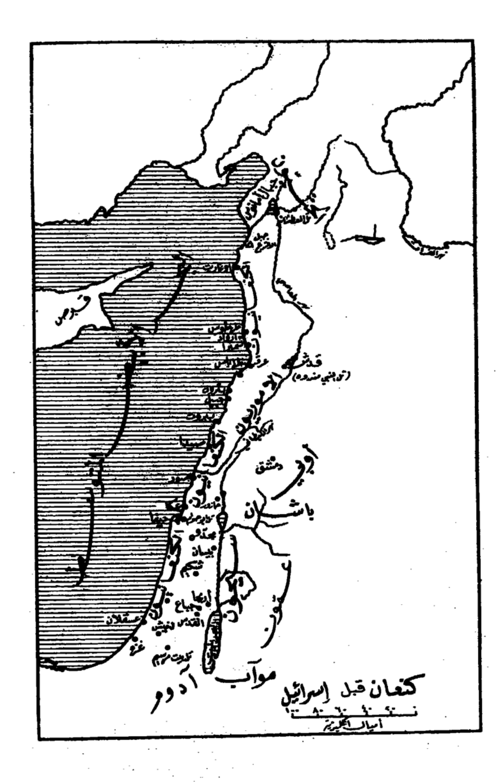
كان الكنعانيون الذين سماهم اليونان بالفينيقيين فيما بعد ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ سورية بعد الاموريين . والكنعانيون والاموريون ينتسبون الى موجة الهجرة نفسها . ولذلك فان الاختلاف العرقي بينهم معدوم وان كانت بعض العناصر السومرية والحورية اندمجت بالتدريج مع الاموريين بينما اندمجت بعض العناصر المحلية الاخرى مع الفينيقيين . والاختلاف الحضاري ناشئ عن ان مركز الاموريين الاصلي كان في شمالي سورية ولذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل . ولذلك كانوا متجهين نحو مصر . والاختلاف الديني كان بالدرجة الاولى اختلافاً في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية . واما الاختلاف اللغوي فكان اختلافاً في اللهجة فقط باعتبار ان اللغتين كانتا من الفرع السامي الغربي الذي يضم العبرية . وهذا الفرع نفسه يمكن تسميته بالشمالي الغربي لتمييزه عن الجنوبي الغربي الذي يضم العربية .

كنعان

ان اسم بلاد كنعان الذي كان يعتبر حتى الآن سامياً بمعنى الارض المنخفضة[١] لاختلافها عن مرتفعات لبنان اصبح الآن مشكوكاً في اصله السامي ويظن انه من اصل غير سامي . والاشتقاق الجديد يجعله حوري الاصل Knaggi بمعنى الصباغ الارجواني وهذا اعطى الصيغة الاكادية في نوزي «كناخني Kinakhni» (وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناخي Kinakhkhi) وبالفينيقية كنع Kena' والعبرية

---

١) من فعل كَنَع kana' اي انخفض او تواضع . انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 4-5; Claude R. Conder, *Syrian Stone-Lore* (London, 1896), pp 2-3; C. Autran, *Phéniciens* (Paris, 1920), p. 4; cf. Lewis B. Paton, *The Early History of Syria and Palestine* (New York, 1901), pp. 68-69.


كنعان قبل إسرائيل
أميال انكليزية
قبرص
قدش
دمشق
باشان
موآب
أدوم
عسقلان
غزة
القدس
أريحا
بيسان
مجدو
شكيم

كنعان اي بلا الارجوان[١]. وفي العصر الذي احتك فيه الحوريون احتكاكاً وثيقاً بساحل البحر المتوسط في القرن الثامن عشر او السابع عشر كانت صناعة الارجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقيـــة المشتق من اليونانية Phoinix[٢] اي احمر ارجواني الى الصناعة نفسها وبعد ان اطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فان كلمة فينيقي اصبحت بعـــد حوالي ١٢٠٠ ق. م. مرادفة لكنعاني. ولا بد ان هؤلاء الساميين السوريين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القديمة الاخرى كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية والمحلية اكثر مما تشعر بوحدتها القومية ، وكان عليها ان تنتظر اجنبياً ليعطيها اسماً عاماً.

وقد اطلق اسم كنعان في اول الامر عـــلى الساحل وغربي فلسطين ثم اصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية. وكان هذا اول اسم لفلسطين وجميع الاسماء الاخرى اقل اهمية. وفي وثائق العهد القديم الاولى اطلق اسم كنعاني بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون اي مدلول عرقي ، وتعبير « لغة كنعان[٣]» كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية.

تبدأ الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة حوالي مطلع الالف الثاني ق.م. غير ان اسلاف الذين سموا كنعانيين كانوا غالباً يحتلون البلاد قبل ذلك بالف سنة او اكثر. ويمكن استنتاج ذلـــك من اسماء الاماكن كما اظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل اريحا[٤] وبيت شان[٥] ومجدو[٦] التي لها اسماء كنعانيـــة واضحة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. وظهر في

---

١) راجع : W. F. Albright, « The Role of the Canaanites in the History of Civilization », *Studies in the History of Culture* (Menasha, 1942), p. 25; cf. Alt in *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), p. 25

٢) قارن مع G. Bonfante, « The Name of the Phoenicians », *Classical Philology*, vol. xxxvi (1941), pp. 1 *seq.*

٣) سفر اشعيا ١٩ : ١٨ .

٤) اصلها من يريحوا *Yerēho* اي مدينة القمر .

٥) وهي Beth-shan اي بيت الاله شان واليوم تسمى بيسان .

٦) او Megiddon المشتقة من جَدَدَ *gadad* اي قطع واليوم تل المتسلم .

الكتابات الاثرية في النصف الاول للالف الثاني مدن اخرى لها اسماء سامية معروفة يمكن اعتبارها كنعانية مثل عكو[١] وصور[٢] وصيدا[٣] وجبلة (جبيل) واركة وسيميرا[٤].

ممالك المدن

كانت نتيجة طبيعة اراضي كنعان وموقعها الستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي الدجلة وآسية الصغرى ان الكنعانيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة قوية موحدة. وبدلا من ذلك فانهم كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل الى الحكم غالباً بعد ان كان ينتسب الى طبقة الاشراف الملاكين. وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة باسوار ذات شرفات وابراج للدفاع[٥] يمكن لسكان الريف المجاورين ان يلتجئوا اليها في وقت الخطر وان يقصدوها في وقت السلم فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعياً. ومثل هذه المدن كانت تشكل مكان الدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الاقوياء او غارات البدو الرحل. غير ان انقسام البلاد الى ممالك مدن صغرى في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الاحيان وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة الميالة الى الاعتداء.

انتشرت المدن الكنعانية الاولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل[٦] في الجنوب ولكن تعرجات الشاطئ القليلة جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً. غير ان جبال امانوس وكاشيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب

---

١) Acco (من *'akko* اي رمل حار) وهي بتولمايس Ptolemais في العصر اليوناني واليوم عكا.

٢) *Sôr* بمعنى صخر.

٣) *Sidon* اي مصيدة سمك.

٤) انظر ما جاء في الفصل السابق.

٥) ومفرد هذه الابراج *migdol* وقد بقي هــذا الاسم السامي في الصيغة العربية «مجدل» التي تظهر في اسماء الاماكن.

٦) واصل الاسم من السامية *karmel* بمعنى ارض ذات بساتين.

لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الوراء كما فعلت جبال لبنان المرتفعة. ولذلك فان المدن العظيمة وهي التي قدر لها البقاء تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان وهي طرابلس[١]. وبوترس Botrys (البترون) وبيبلوس (جبيـــل) وبيريتوس (بـــيروت) وصيدا وصور. هذه المدن بالاضافة الى عرقة وسيميرا وارادُس[٢] (ارواد) في الشمال وغيرها من المدن كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها. وفي سورية الجنوبية تقع غزة[٣] وعسقلان[٤] على الساحل ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر ولاكش ومجدو وهازور Hazor وشكيم واورشليم[٥] وقد ذكرت جميع هذه المدن وكثير غيرها في تقارير حملات تحوتمس الثالث (في مطلع القرن الخامس عشر ق. م.) ورسائل تل العمارنة ويوجد وصف لها في سفري يشوع والقضاة.

كانت هذه المدن صغيرة في مساحتها. فقد كانت مساحة جزر وهازور[٦] وهما من اكبر المدن بين خمسة عشر وستة عشر فداناً بينما كانت مساحة اريحا ستة فقط. وربما كان وجود مرتفع يسهل الدفاع عنه او ينبوع ماء، العامل الذي قرر اختيار الموقع. ولكن سور جزر كما اتضح من الحفريات الحديثة كان ضخماً بحيث بلغ سمكه ستة عشر قدماً، وارتفعت اسوار اريحا حتى بلغ ارتفاعها واحداً وعشرين قدماً[٧]. تلك كانت حصون الكنعانيين القوية التي القت الرعب في قلوب جواسيس موسى[٨]. وكانت المركبات الحربية التي ادخلها الكنعانيون الى البلاد وسيلتهم

---

١) من اليونانية Tripolis اي ثلاث مدن. ولا يزال اسم المدينة الفينيقية القديمة التي كانت على الساحل ولم تظهر اهميتها حتى العصر الفارسي مجهولاً. انظر مـــا سنذكر بشأنها في الفصل ١٦ في العصر الفارسي.

٢) وهو اسم غير سامي.

٣) والاسم مشتق من «عَزّة» اي قوة وثبات.

٤) من العبرية *Ashqelon*.

٥) انظر ما سيأتي بشأنها في نهاية الفصل الحادي عشر.

٦) سيأتي ذكرها ايضاً في الفصل الحادي عشر في الفقرة التي عن الهكسوس.

٧) راجع: Garstang, *Heritage of Solomon*, pp. 109-110; A.-G. Barrois, *Manuel d'archéologie biblique*, vol. i (Paris, 1939), pp. 145 seq.

٨) سفر العدد ١٣ : ٢٨.

الرئيسية في الدفاع . وقـــد ادخل الحصان في ايام الهكسوس[١] تقريباً (حوالي ١٧٥٠ ق.م.). واما سائر اسلحة الهجوم فكانت تضم القوس والسهام برأس برونزي او صواني وخنجراً قصيراً وسكيناً معقوفاً — وقد وجدت آثار من جميع هـــذه الاسلحة — ونبوتاً ثقيلاً من الخشب القاسي .

وكان سكان الريف غالباً متفرقين قليلي العدد ويحتمل ان لا يكون عدد سكان فلسطين كلها قبل قدوم الاسرائيليين قد تجاوز ربع المليون[٢] . وقد حصل نمـــو المدن بدون اتباع مخططات موضوعة سلفاً . وكانت المنازل الكنعانية في القرن الخامس عشر كما كشفها علماء الآثار هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بوجه العموم . وكانت منازل الفقراء صغيرة الحجم ومزدحمة بعضها بقرب بعض كما في القرى القديمة الطراز اليوم . اما منازل الاغنياء فقد كان لها باحة في وسطها وحولها الغرف . وكانت بعض البيوت مزودة بعنبر للقمح وصهريج خاص[٣] .

المدن الواقعة على جزر

كانت تتمتع بعض المدن مثل ارادُس (ارواد) وصيدا وصور بخط دفاع مزدوج . وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يتاجرون او يزرعون بساتينهم والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلجأون اليها كلما تدفق الفاتحون الاشوريون مثلاً عبر الممرات الجبلية . فالاروادیون الذين كانت تسمى مدينتهم الكائنة على الساحل انتارادس Antaradus[٤] في العصر الهلنستي كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصخرية كما يفعل الناس في جزيرة منهاتن بنيويورك في ناطحات سحاب مصغرة . وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لاجل جزيرتهم . وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف اليها مياه ينبوع تحت

١) راجع ما سنذكره عن الهكسوس في الفصل الحادي عشر .

٢) Garstang, *Heritage of Solomon*, p. 107

٣) Macalister, *Excavation of Gezer*, vol. i, p. 169 ؛ ولاجل وصف سائر المنازل راجع: Barrois ص ٢٥١ وما بعدها .

٤) وكان الصليبيون يسمونها Tortosa واليوم طرطوس شمالي عمريت حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الفينيقية الهامة وهي معبد وقبور .

البحر يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع بحيث يتصل القمع بانبوب جلدي[١] وربما كان هذا اقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر .

كانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة «مبنية بنفس الشكل الذي بنيت فيه ارادُس[٢]». وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل بناه الاسكندر اثناء حصاره لها[٣]. وقد اظهرت الحفريات الحديثة تحت البحر والصور الفوتوغرافية من الجو ان المرفأ الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة وان الرصيف الذي كان يحميه وهو الآن على عمق خمسين قدماً كان طوله ٧٥٠ متراً وسمكه ثمانية امتار وان اسوار المدينة كانت تشرف على هذه المجموعة كلها مع ابراج في كل طرف[٤]. ويعتقد ان هذه الاشغال الضخمة بناهـــا الملك حيرام معاصر سليمان الذي بلغت المدينة ذروتها في ايامه . وهذا جعل صور من اقوى الموانئ في شرقي البحر المتوسط . غير ان امبراطورية صور في ذلك العصر وفي جميع العصور كانت قائمة على التجارة والغنى وليس على الاراضي والفتح .

وكانت تقع صيدا وهي شقيقة صور الشمالية على رأس جبلي اختاروه عـــلى الاكثر بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض بارصفة اصطناعية. وكان هذا المرفأ يقع الى جهة الشمال ، وفي الجنوب كان يوجـــد مرفأ آخر يسمى المرفأ المصري وهو اكبر من الشمالي ولكنه ليس اميناً مثله . وكان يحمي المدينة من جهة البر سور . وقلعة صيدا الحالية وتسمى قلعة البحر يعود اصلها الى زمن الحروب الصليبية وتقع على اكبر هذه الجزر . وفي اوائل القرن السابع عشر امر الامير اللبناني فخر الدين المعني بملء المرفأ القديم ليمنع اقتراب الاسطول العثماني[٥] .

---

١) انظر : Strabo XVI. 2. 13

٢) Strabo XVI. 2. 23

٣) انظر ما سيأتي عن حصار صور في الفصل السابع عشر .

٤) راجع : A. Poidebard, *Un Grand Port disparu : Tyr* (Paris, 1939), pp. 25-26.

٥) انظر ما سيأتي بشأن الامير فخر الدين في الفصل التاسع والاربعين .

اتحاد المدن

وللتغلب الموقت على عزلة ممالك المدن السياسية ، هذه العزلة التي تعكس تجزؤ البلاد الجغرافي كانت احسن وسيلة ان تحصل احدى المدن على الزعامة ويصبح لها سيادة سياسية على سائر المدن . وكانت المصالح المشتركة تتطلب الاتحاد الاختياري في بعض الاحيان . وقد حصلت على مثل هذه الزعامة اوغاريت في اواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر وصور بعد هذا القرن وطرابلس في القرن الخامس . وتحت ضغط الخطر المداهم خاصة كانت هذه المدن تتعاون وتشكل عصابات واحلافاً . ومن الاحلاف القليلة الهامة المعروفة ذلك الحلف الذي كسره تحوتمس الثالث في مجدو في ١٤٧٩ ق. م. غير ان السلطة الموجهة في ذلك الحلف كانت قادش الواقعة على العاصي . وتظهر مراسلات تل العمارنة بعد ذلك بقرن ليس فقدان العمل المشترك فحسب وانما محاولة الملوك الفينيقيين ايضاً للحصول على الفوائد من سيدهم المصري بعضهم على حساب بعض . وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم الى فرعون بصورة شخصية وافرادية . وقد برهن الكنعانيون خلال تاريخهم الطويل انهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون الى الاعمال الحربية . وكانوا يوجهون اهتمامهم الى نواحي التجارة والفن والديانة وليس الى الحروب . وكانت مدنهم عادة تحني رأسها امام حوادث الفتح الموجهة من مصر وبابل وبلاد الحثيين وفارس ومكدونيا . وكانوا يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم ويأملون ان يكافأوا ولو جزئياً بتوسيع اسواقهم في البلاد الداخلية .

الاقتصاد : الزراعة

وقد سعى سكان كنعان الى انماء انواع الاقتصاد التي تسمح بوجودها اراضيهم ومواردها الطبيعية . واقدم اعمالهم الرئيسية انحصرت في ميادين الزراعة وصيد الاسماك والتجارة . فالاهتمام بالزراعة كان من نواحي نشاطهم الرئيسية وقد اثر على ديانتهم تأثيراً عميقاً . وكان البذار يتم باليد في اول الامر ثم توسع اكثر عندما ادخل المحراث من بلاد بابل ، وربما دخل المحراث الى جنوبي البلاد من مصر . ووجدت بقايا اعمال الزراعة الكنعانية بين ١٥٠٠ و ١٣٠٠ ق. م. في تل بيت مرسيم (قرية سفر القديمة). واكتشف فأس من البرونز في رأس الشمرة .

وكانوا يحصدون بمنجل اسنانه من الصوان وتتصل بقبضة من العظم او الخشب بواسطة الملاط. واستعملت هذه الآلة حتى حوالي عام ١٠٠٠ ق. م. حين حل المنجل الحديدي محلها. ومن التاريخ نفسه تقريباً اتت اقدم آلة حديدية يمكن تعيين تاريخها وهي طرف محراث اكتشف في فلسطين الوسطى في جبعة موطن شاول وتسمى اليوم تل الفول. واتت من تل بيت مرسيا محاريث ومناجل حديدية بجانب الخزف الفلسطيني ساعدت على تأريخ هذه المكتشفات. وعملية الدراس كانت تتم بزلاجة خشبية في اسفلها حجارة صغيرة. وكانت تذرى الحبوب بمذراة خشبية كبيرة. والطحين كان يطحن في مطاحن يدوية من الحجر، والخبز كان يخبز في افران اسطوانية من الطوب. ولم تختلف الصورة العامة اختلافاً كبيراً عن العادات الريفية في سورية اليوم كما يتضح من دراسة سريعة لما اكتشف في السنوات الاخيرة من مناجل ومطاحن ومدقات واجران وغيرها من الادوات.

والمحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عن محاصيل هذه الايام. فالمحاصيل النموذجية كانت القمح والشوفان والشعير والفاصوليا والجلبانه والعنب والزيتون والتين والرمان والجوز[١]. وقد سميت الحبوب والكرمة والزيتون بحق ثالوث بلاد البحر المتوسط في الانتاج الزراعي. وعمد الفلاح في تكييف زراعته بمقتضى خطر عدم كفاية الامطار الى اساليب الزراعة الجافة وتتضمن التناوب السنوي في زرع الارض وتركها بدون زراعة. وكان المجتمع الكنعاني يضم طبقة من الفلاحين او المستأجرين المولودين احراراً تسمى خابشي Khapshi تقابل طبقة المُشكينو Mushkênu في المجتمع البابلي[٢]. وفي الريف اللبناني عمد السكان عندما استنفذوا الوسائل المحلية للعيش الى تحويل منحدرات الجبال الى سطوح متفاوتة الارتفاع (جلول) ببناء جدران يبعد الواحد بضع يردات عن الآخر لتوسيع رقعة الارض المزروعة وحماية التربة ضد التآكل ومثل هذه الجلول (جمع جلّ) كانت اكثر ملاءمة للحدائق والكروم والبساتين منها للزراعة الحقلية الواسعة. واقدم الاشارات

---

١) انظر ما جاء في الفصل الخامس. راجع: Barrois, pp. 309 *seq.*

٢) راجع مجموعة قوانين حورابي، المواد ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨ الخ. وقد بقيت كلمة مُشكينو في كلمة مسكين العربية وفي كلمة mesquin التي اقتبستها الانكليزية بطريق الفرنسية والاسبانية. وكلمة خَبشي اتت من اصل لا يزال باقياً في العربية في كلمة خبث.

الى هذه الجلول المدرجة التي تتصف بها مشاهد لبنان حتى اليوم ترد في كتابة اثرية من عهد تحوتمس الثالث.

واهم الحيوانات المدجنـــة كانت الابقار والاغنام والحمير والماعز والخنازير والكلاب، والثلاثة الاخيرة كانت تعيش على فضلات الطعام. وكان اللحم يؤكل في مناسبات خاصة وفي الاعياد فقط ويطبخ في قدور ذات فوهة واسعة. والطعام كان يؤكل باليد او بملاعق ذات مسكات عظمية. ومياه الشرب كانت ترفع من الصهاريج او تؤخذ من الينابيع وتحمل على الرأس في قرب من الجلد او في جرات كبيرة. والمصابيح كانت عبارة عن صحون خزفية بسيطة ذات فتحة صغيرة في طرفها لوضع الفتيل. ويرجع اقدمها الى النصف الاول للالف الثاني. وقد وُجد عدد كبير من ادوات المطبخ في المواقع القديمة منها الجرار والآنية والصحون الحجرية التي تظهر ان الحياة المنزلية قد بقيت في مظاهرها الاساسية حتى العصر الحاضر.

الصناعة

كان اصحاب الحرف والتجار يحتلون مكانة متوسطة في المجتمع الكنعاني بين الارستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من النبلاء الملاكين والمحاربين في سلاح المركبات وبين الطبقة الدنيا المؤلفة من عبيد الارمن والارقاء.

وكان الابناء عادة يتخذون مهنة آبائهم وظلّ هذا الاسلوب متبعاً حتى العصور الاخيرة. وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بان اصحاب الحرف كانوا ينتظمون في نقابات. والنقابات كانت تتألف من جماعات ترتبط بعضها ببعض بروابط المهنـــة والقربى وتعيش في احياء خاصة. وقد وجدت مثل هذه المنظمات في فلسطين قديماً منذ القرن الثامن عشر ق. م.

وقد بلغت صناعة الخزف وهي من اقدم الصناعات السورية ومن اكثرها نجاحاً ذروتها قبل عام ١٥٠٠ ق. م. وكان التأثير البابلي ظاهراً فيها منذ ٢٠٠٠ ق. م. واستعمال دولاب الخزاف الذي بدأ في اوائل الالف الثاني اعطى المصنوعات الخزفية صفات جديدة وشكلاً متناسقاً. والطين الذي استعمل حينئذٍ اصبـــح اكثر نقاوة. واخذت الصفات الامورية القديمة بالزوال واصبح تقليد النماذج الاجنبية وخاصة المصرية والكريتية والميكانية امراً شائعاً. واستوردت الاواني

الخزفية البراقة ببريق معدني وآنية الرخام المعرّق (الالباستر) من مصر بكميات كبيرة. واستخدمت كذلك الإواني القبرصية كنماذج كما تدل مكتشفات اوغاريت[١] وغيرها من الاماكن. وتقع اوغاريت على الساحل السوري تجاه قبرص تماماً. وبعد عام ١٥٠٠ ق. م. اصبحت التأثيرات القبرصية والميكانية قوية بشكل خاص. وصنعت نماذج خاصة لاجل الاشياء المتصلة بالطقوس الدينية والتقدمات النذرية. واستخدم القصدير في طلي الخزف واعطائه بريقاً خاصاً. والآثار المكتشفة في القبور تظهر ذوقاً عظيماً ومهارة فنية. وبلغ فن النحت ذروته في القرن السادس عشر.

صناعة المعادن

وكان الكنعانيون على الغالب لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والاخير (نحو ٢١٠٠ – ١٢٠٠ ق. م.). فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة. وقد اظهر التحليل الكيمياوي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس الشمرة ليس معرفة اذابة الحديد فحسب وانما معرفة مزجه بمعادن اخرى لصنع مزيج الفولاذ[٢] وكان هذا الامر مجهولاً حتى ذلك الوقت. واهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً وعن القصدير لاجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز وعن الذهب والفضة ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم. ووجدت صحون الفضة بين غنائم الفراعنة من سورية. وبلغ فن الصياغة ذروته في القرن السادس عشر. واكتشف ميزان احد الصاغة واوزانه في رأس الشمرة. واستخدمت وزنات الفضة غير المسكوكة كنقود في بلاد آسيا الغربية بالرغم من ان التجارة كانت عموماً بشكل مقايضة. ويشير سنحاريب (٧٠٥ – ٦٨١) احد فاتحي سورية الاشوريين الى هذه الاوزان التي صنعها بقوله: «لقد عملت قالباً من الطين وصببت البرونز فيه كما في صنع قطع نصف الشاقل[٣]». وقد وجدت السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والخارز والملاقط في اريحا من العصر الذي سبق قدوم بني اسرائيل. وبعد ١٥٠٠ ق. م.

١) انظر ما سيأتي في الفصل العاشر في الفقرة التي عن اوغاريت.

٢) راجع: Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2

٣) Daniel D. Luckenbill, *The Annals of Sennacherib* (Chicago, 1924), p. 123

تظهر في فلسطين اشكال حثية وقبرصية وميكانية من الاسلحة . واكتشفت اساور وخلاخل واقراط وخواتم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف المواقع . واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل «ابو هوام» قرب حيفا . وتظهر الآثار وجود آلات موسيقية كالقيثارة والناي والمزمار والعود والدف ولكن هذه لم تبق لسرعة تلفها . وعندما بدأ التجار الكنعانيون باستيراد التمائم والجعلان والاختام والخرز والاواني والاسلحة وغيرها من مصر فان صانعي المعادن الكنعانيين اخذوا يقلدونها . وتشيد اشعار هوميروس بصناعة المعدن وبالفنون الفينيقية وقد ذكرت ان صحناً من الفضة «عمله بدهاء الصيدونيون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله احسن شيء من نوعه في العالم كله[1]» .

العاج

كانت زينة عامة الناس تضم العقود والخواتم من الحجر الكلسي والبلور الصخري والعقيق وقد وجدت نماذج منها . ولم تكتشف الا خرزات وتمائم قليلة من العاج . وكان العظم يستخدم مكان العاج بالرغم من ان الفيل كان على الغالب موجوداً في سورية الوسطى كما تدل اخبار رحلات الصيد التي كان يقوم بها الفراعنة الى تلك المنطقة . وتعود اقدم قطع العاج الفينيقية الى القرن الرابع عشر . ووجدت تحف مجدو العاجية في قصر من اوائل القرن الثاني عشر وقد تكون من عصر اكثر قدماً . والامشاط التي اكتشفت في قبور في اسبانيا تتبع اساليب مجدو ولكنها ترجع الى القرن الثامن . واقدم تقليد يوناني معروف للاشغال الفينيقية يرجع الى هذا القرن . وهنالك قطعة عاج من القرن الثاني عشر او الثالث عشر في مجدو ترينا مغنياً يعزف على القيثارة . وبعض قطع العاج الفينيقية رائعة في صنعها وجمالها حتى انها اعتبرت من اثمن آثار الفن في الشرق القديم .

الزجاج

كانت صناعة الزجاج من الصناعات الاخرى التي تفوق فيها الكنعانيون .

---

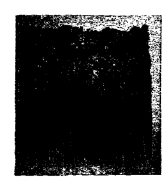
١) الياذة هوميروس الكتاب ٢٣ ، ٧٤٠ ــ ٧٤٥ . وقد استعمل اسم الصيدونيين كمرادف للفينيقيين .



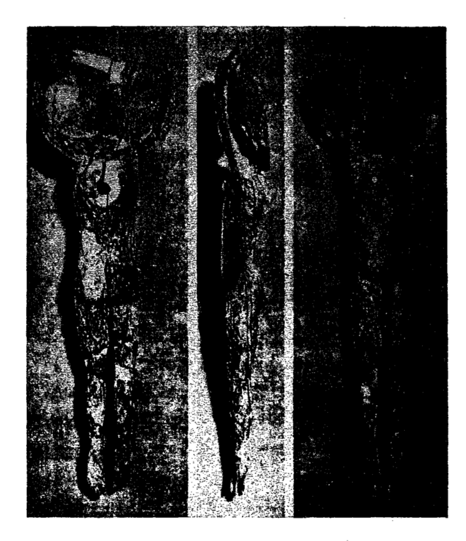
الالاهة الام على قطعة عاج من العصر الميكاني وجدت في
مينة البيضا مرفأ رأس الشمرة

تظهر الالاهة بلباس ميكاني جالسة على مذبح وعلى كل من جانبيها اسد وتمسك كوزاً من الذرة .
وكان هذا النموذج الزخرفي شرقي الاصل سومرياً الا انه شاع في العالم الايجي

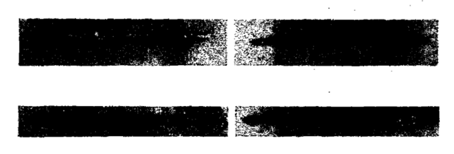




مشطان من العاج



قطع من الملاعق العاجية وقد جعلت ايديها باشكال نسائية



دبابيس عاجية

وكانت المرويات الكلاسيكية تنسب اليهم فضل اكتشاف الزجاج غير اننا نعلم اليوم ان المصريين صنعوا الزجاج قبل الكنعانيين بكثير. والاخبار المتعلقة بالكنعانيين يمثلها ما رواه پليني Pliny[١] من ان بعض التجار كانوا يعدون طعامهم على الشاطئ قرب عكا وقد استخدموا بعض قطع نترات البوتاس التي كان يحملها مركبهم لتركيز قدورهم على النار. ولكنهم اكتشفوا على اثر ذلك سائلاً شفافاً عندما تعرضت النترات للنار واختلطت بالرمل. ومهما يكن فان الواقع هو ان الفينيقيين هم الذين تاجروا بالزجاج المصري واتقنوا فن انتاج الزجاج القديم.

صناعة الاقمشة

كانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية ومكانها المنزل. وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم واثقال من الحجر والطين تستخدم لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث. ولا شك ان الصوف كان اقدم المنسوجات. وتذكر وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق. م. الصوف الكنعاني[٢]. والقطن الذي كان بالاصل من نبات الهند قد ادخله سنحاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى « الاشجار التي تحمل صوفاً » والتي كان رجاله « يقطعونها ويسرحونها لعمل الملابس[٣] ». ولم يكن القطن شيئاً معتاداً في تلك الايام. وادخل الفينيقيون هذه المادة الى العالم اليوناني في اوائل العصر الهلنستي ومعها اسمها السامي[٤]. وكانوا ينتجون الكتان كما يبدو في سورية الجنوبية في القرن العاشر لان روزنامة الجزر التي ترجع الى ذلك التاريخ تذكر « شهر اقتلاع نبات الكتان[٥] ». ويعتقد ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس اذا صحت ترجمة احدى الكلمات في سفر حزقيا ١٦: ١٠، ١٣[٦]. واكتشفت الابر والدبابيس في فلسطين

---

١) Pliny Bk. XXVI. ch. 65

٢) *Annual, American Schools of Oriental Research*, vol. xvi (1936), No. 77

٣) انظر : James H. Breasted, *Ancient Times*, 2nd. ed. (New York, 1935), p. 203

٤) والكلمة اليونانية هي *Kiton* او *chiton* بمعنى رداء . وكلمة cotton الانكليزية اتت من « قطن » العربية وهي شبيهة بالكلمة السامية القديمة التي بقيت في كلمة كتان العربية .

٥) انظر : Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina* (Gütersloh, 1928), vol. i, p. 7.

٦) انظر ما سيرد عن الحرير في الفصل العشرين في الفقرة التي عن الحاصلات الزراعية .



حاملو الجزية السوريون ، على قبر من طيبة ، في عهد تحوتمس الرابع (١٤٢٠ – ١٤١١ ق.م.)

يقدم حاملو الجزية أنفس ما لديهم من اواني الذهب والفضة. والذين في القسم الامامي يسجدون او يرفعون اذرعهم كعنوان عبادة فرعون . والوجوه ملتحية وهناك رأسان بلا شعر . ويظهر رجل في القسم العلوي من الرسم يقود فتاة عارية حليقة الرأس فيا عدا خصل الشعر المتدليـــة . وهناك رجل آخر واقف يمسك قرناً يحوي دهوناً . وفي القسم الاسفل يبدو اول رجل واقف وعلى ذراعه محفظة ضمنها اقواس، ويحمل مع الرجل الذي وراءه جراراً زرقاء قد تكون من الحجارة اللازوردية الكريمة. أما آخر رجل فيحمل على صحن آنية الشرب بشكل رأس طائر .

قبل قدوم بني اسرائيل في صناديق برونزية وبدون صناديق . والابر لها ثقوب بينما الدبابيس طويلة برؤوس مضلعة او ذات شقوق . ووجدت ازرار مستديرة بثقبين . وكانت تصنع أزرار الفقراء من الخزف المكسور اما الاغنياء فكانت ازرارهم من العظم او العاج .

وترينا الاشكال في الرسوم الجدارية الموجودة في قبور مصر من اوائل عصر

الهكسوس (نحو ١٧٠٠ ق.م.) جماعة من الكنعانيين يلبسون الاثواب الطويلة التي تصل من الكتف حتى الركبة . وهذه الاثواب مصنوعة من القماش المصبوغ ومزدانة بالشريط واحياناً مزخرفة بعناية . وبعد ان كان ذلك اللباس مستعملاً لدى الملك والكاهن فان سائر الناس صاروا يلبسونه . ويظهر حاملو الجزية السوريون على قبور طيبة التابعة للسلالة الثامنة عشرة يلتفون بشال ابيض له اطراف حمراء او زرقاء حول جسم الواحد من الخصر فما دونه . ويشاهد الاسرى الكنعانيون في المباني الاثرية المصرية يلبسون القميص او الرداء القصير والتنورة وثياباً فوقها تتألف من قطعة قماش طويلة ضيقة ملفوفة بشكل حلزوني حول الجسم . والمجموعة بكاملها بما فيها لباس الرأس تشبه ملابس البدوي . ورجال الفن المصريون يمثلون ليس الكنعانيين وحدهم وانما الآراميين ايضاً وغيرهم من الساميـــين باجسام اثقل من اجسام المصريين وفي الغالب بشعر طويل ولحى كثيفة سوداء مروسة . ويتدلى الشعر من الوراء بكتل كثيفة حتى الرقبة ويحجزه فوق الجبهة ما يشبه الشبكة . والكهنة كانوا يحلقون رؤوسهم كما في مصر . وفي العصور التالية كانت النساء يخبئن شعورهن تحت براقع وبعد الزواج كن يلبسن قبعات تغطي رؤوسهن تماماً وبعصائب مثل الاهلة[١]».

الارجوان

وهنالك صناعة اخرى كانت مزدهرة على الساحل وهي صيد الاسماك . ومدينة صيدا مدينة باسمها الى هذه الصناعة . وكانت المراعي البرية في بعض الاحيان مخيبة للامال او غير اكيدة بسبب فقر التربة او تقلب الامطار ولكن البحر كان يزود السكان بالاسماك وخاصة من نوع التونة وبالملح والصباغ الارجواني .

واقدم ذكر للارجوان قد ورد في نص من رأس الشمرة يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين الحائكين المكلفين بصنع الارجـــان argmn[٢]. وكانت

١) سفر اشعيا ٣ : ١٨ .

٢) انظر مقال Virolleaud في *Journal asiatique,* م ٢٣٠ (١٩٣٨) ص ١٤٦ . وتتخذ هذه الكلمة في الاشورية شكل *argamānu* وفي العبرية ارجان (انظر سفر اخبار الايام الثاني ٢ : ٧) وفي العربية ارجوان من اصل غير سامي .

سواحل البحر المتوسط كلها وليس السواحل الشرقية وحدها تحوي بكميات مختلفة صدف الموركس Murex الذي يستخرج منه السائل الارجواني ، وكانت شعوب اخرى من غير الفينيقيين كالمينوسيين واليونان مثلاً تستخدم هذه الاصداف. وتؤكد الاسطورة اليونانية انه بينما كانت الملكة هيلين تتنزه في طروادة على الساحل لتخفف عن نفسها ألم الاسر لاحظت ان السمكة الصدفية التي كان كلبها قد مضغها صبغت فمه بلون ارجواني غامق فاعجبت باللون واشترطت على من يريد ان ينال حظوة لديها ان يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالارجوان. غير ان ارجوان صور كان اشهر الاصبغة واثمنها في العصور القديمة. ووجد في جوار صور وصيدا نوع ممتاز من هذا الصدف ، وبما ان الفينيقيين كانوا حريصين على الاحتفاظ بما لديهم منه فقد اكتشفوا هذا الصباغ واستوردوه من اماكن بعيدة مثل ميناء سبارطة وجوار قرطاجة واوتيكا Utica. ولم يتاجروا بالصباغ نفسه وانما بالاقمشة المصبوغة التي منها الصوف والشعر والكتان والقنب. ولا ندري ماذا كانت وظيفة السائل بالنسبة للحيوان الصدفي ولكن من المؤكد ان ما زعمه البعض من انه يفرز بصورة طبيعية لتلوين المياه ليحمي نفسه ضد مهاجميه ليس بصحيح.

كان استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدفي وتقطير الصباغ يتطلبان اعمالاً واسعة وصعبة. ولذلك كان ثمنها مرتفعاً بالرغم من انها لم تكن مادة محتكرة. وبما ان الاغنياء فقط كان بامكانهم دفع ثمنها فقد اصبحت الثياب الارجوانية اللون عنوان التفوق[١] وادت فيما بعد الى التعبير المتعلق بالملوك : « مولود في الارجوان». وفي العصور الهوميرية[٢] والهلنستية[٣] اقترنت الثياب الارجوانية بالملكية والملوك. وكليوبطرة ملكة مصر كانت مولعة بها كما كانت هيلين في طروادة. وللدلالة على المكانة الدينية السامية فقد لبس الكاهن الاعلى اليهودي لباساً ارجوانياً وكذلك فعل رئيس كهان هيرابولس (منبج) في شمالي سورية[٤] وكاهن جوبيتر في مغنيزيا في آسية الصغرى[٥].

---

١) سفر استير ٨ : ١٥ ؛ الامثال ٣١ : ٢٢ ؛ انجيل لوقا ١٦ : ١٩ .
٢) الالياذة ٤ ، ١٤١–١٤٥ .
٣) كتاب المكابيين الاول ٨ : ١٤
٤) انظر : Lucian, *De Dea Syria*, § 42.
٥) Strabo XIV. ch. 1. § 41

وعملية اعداد الصباغ بالضبط ليست معروفة من المصادر الفينيقية. ويصفها بليني Pliny [١] فيقول ان السمك الصدفي يؤخذ حياً ـ لانه عندما يموت يفرز هذا العصير ـ وينتزع السائل من احد عروقه ويملح ويترك ثلاثة ايام منقوعاً ثم يغلى بحرارة معتدلة واثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت الى آخر. وفي حوالي اليوم العاشر عندما تصبح محتويات القدر مائعة تغطس المادة النسيجية فيه وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات ثم تسرّح وتوضع ثانية حتى تتشرب اللون تاماً. ويعتبر الصباغ على احسنه عندما يتخذ لون الدم المتجمد.

ان كثرة توارد الثروة الى رومـــة في القرن الاول ق. م. وسّع استخدام الارجوان وحمل فيما بعد على تقليد هذا الصباغ في ايطاليا وغيرها من البلاد. واستمر انتاجه في الشرق بعد الفتح الاسلامي. وقد ذكر «الارجوان الصوري» بين مواد الترف التي استوردها تجار البندقية في اواخر القرن الثامن. وبعـــد سقوط الامبراطورية البيزنطية حيث اقتصر امتياز صنع هذا الصباغ على فئة قليلة فقدت معرفته تماماً في الشرق. وبقيت في انكلترا حيث نقلت من الشرق في مناطق منعزلة حتى القرن السابع عشر.

وفيما سوى الارجوان فان اللبنانيين الاقدمين ادخلوا القرمز [٢] في التجارة القديمة. وقد ذكر القرمز في العهد القديم [٣] وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع من السنديان [٤] الذي ينمو حول السواحل الشرقية للبحر المتوسط. وعندما كانت تجفف الحشرات وتحل في بعض الحوامض كانت تعطي اللون القرمزي. وكانت هذه الحشرات برية في اول الامر ثم صارت تربى من قبل الفرس ثم من قبـــل الارمن فيما بعد.

---

١) Pliny Bk IX. ch. 62

٢) وكلمة crimson الانكليزية اتت من قرمز العربية وأصلها فارسي او ارمني.

٣) سفر اللاويين ١٤ : ٤ ؛ سفر العدد ١٩ : ٦ .

٤) انظر : Theophrastus, *De historica plantarum* Bk III. ch. 16. §1

الفصل التاسع

النشاط البحري والتوسع الاستعماري

كان الفينيقيون اول امة بحرية في التاريخ . وبما ان جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتزود السكان بالخشب الممتاز لصنع السفن فان البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحله الشرقية فاستجابوا اليه وحولوا حياة تنقلهم في ارجاء البادية الى حياة تنقل في البحر . وكان البحر لا يخيفهم والعالم المجهول يفتنهم بدلاً من ان يلقي الرعب في قلوبهم . وبعد ان بدأوا في الملاحة قرب السواحل ليبيعوا اسماكهم وزجاجهم وآنيتهم الخزفية وغيرها من المنتجات المحلية اخذوا فيما بعد يجوبون عرض البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وقد ظلوا يحتكرونها مدة طويلة. وتحول الباعة المتجولون الى امراء تجار. وكانوا مستعمرين نموذجيين فنشروا عناصر حضارتهم وحضارة جيرانهم وجعلوها مقبولة لدى الاجانب . وركز الكنعانيون نشاطهم باتجاه البحر خاصة بعد القرنين الثالث عشر والثاني عشر حين اخرجهم الآراميون من سورية الوسطى واضطرهم الاسرائيليون والفلسطينيون لمغادرة سورية الجنوبية فاصبحوا نسبياً أعظم الملاحين والتجار في التاريخ .

الطرق البحرية

لم يكن الفينيقيون اولئك الجوالين في البحار الذين تصورهم لنا بعض المرويات. فقد كانوا يتبعون طرقاً مرسومة بدأوا اولاً في استكشافها ثم استخدموهـــا واحتكروها تقريباً . وكانت اقدم طرقهم الدولية تصل بيبلوس وسائر الموانئ بمصر . ثم اصبحت الطرق الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر او تتجه شمالاً الى قبرص وغرباً الى ليكيا تحت جبال طورس ثم الى جنوبي رودس فكريت

وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ومنها بطريق جزيرة كوسّيرا[١] الى مستعمراتهم في شمالي افريقيا واخيراً غرباً على الساحل حتى مستعمراتهم في اسبانيا. وبالاضافة الى ذلك فقد وجدت طرق عرضية تعبر البحر من الشمال الى الجنوب وبالعكس.
وكان الفينيقيون اول من قدم اربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط وهي الاخشاب والقمح والزيت والخمر. وبالنسبة لليونان كان ارز لبنان ارزاً فينيقياً[٢]. وحمل الفينيقيون بعد ذلك منتجات صناعتيها الرئيسيتين وهما صنع الاقمشة والصناعة المعدنية. وكانت مصر وبلاد الرافدين ذات التربة اللحقية بحاجة ماسة الى الاخشاب الصلبة لبناء المعابد والقصور ولصنع زوارق الصيد والسفن التجارية والحربية. وكانت غابات لبنان ذات الثمار المخروطية الشكل والغنيـــة بالمواد الصمغية بما فيها من اشجار الصنوبر والشوح والارز والتربنتين لا تقدم الاخشاب فحسب وانما تقدم ايضاً الزفت والصموغ التي كانت ترافق تجارة الاخشاب. وكانت تستخدم هذه المواد لطلاء السفن والمحافظة عليها[٣]. وكان الزيت يستعمل كعطور كما يستهلك للغذاء. وكان الفينيقيون عنـــدما وسعوا اسواق البضائع المستهلكة يوسعون اسواق المنتجات حتى اصبحوا العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب والبضائع القليلة الآتية من الغرب ومعظمها من المعادن والآنية الخزفية في الشرق. واصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يكون بحيرة يونانية او رومانية بوقت كثير.

الملاحة

وعندما سعى الفينيقيون لترقية المبادلات التجارية بطريق البحر على مقياس دولي اخذوا يدرسون الملاحة درساً اصولياً. وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجمة القطبية واصبحوا بعد ذلك اول من اتقن فن الملاحة ليلاً والمسير حسب النجوم[٤]. واطلق اليونان على هذه النجمة اسم الفينيقيين. وكانت تعوّم

---

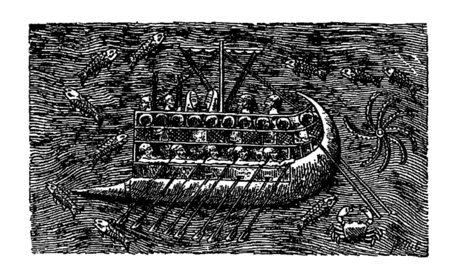
١) وهي جزيرة بنتلاريا الحديثة والمعروفة عند الجغرافيين العرب باسم قوصرة.

٢) Theophrastus III. ch. 12. §3; IX. ch. 2. §3

٣) Theophrastus IV. ch. 2, §§ 2, 3 قارن مع سفر الخروج ٢: ٣.

٤) قارن مع Strabo XVI. ch. 2. §24.

اخشاب الارز التي لا مثيل لها في المتانة في الجداول المنحدرة ايام الفيضان الى اقرب مرفأ لاجل بناء السفن او للتصدير . وكانت صيدا وصور تتلقى اخشابهـا من حرمون . وظهرت السفن الفينيقية من حوالي ١٤٠٠ ق. م. مرسومة على المباني الاثرية المصرية وهي بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمـة مرتفعتان ومجذافان يستعملان كدفة للسفينة وفي اعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردتين . وكانت تسيّر اقدم السفن التي لدينا رسوم عنها بواسطة الشراع والمجاذيف. والسفن كانت عريضة في وسطها بحيث كانت حمولتها كبيرة بدون ان تكون طويـلة . وتظهر السفن الفينيقية التجارية والحربية من العصور الاخيرة على الآثار الاشورية بمؤخرة مرتفعة ومدك مروس في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين . وبناة السفن الفينيقيون هم الذين بدأوا عادة وضع مجذّفين او اكثر الواحد فوق



سفينة فينيقية ذات صفين من المجاذيف

سفينة تجارية او حربية كما تشاهد في زخرف نافر في جدار قصر سنحاريب حوالي ٧٠٠ ق.م. ويجلس المجذفون كل خمسة منهم في صف واحد على ارتفاعـين مختلفين في القسم الاسفل من السفينة مما يجعل عدد المجذفين عشرين . ويجلس الركاب في القسم الاعلى . وترتفع مقدمة السفينة بصورة عامودية بشكل كبش مروس لاغراق سفن العدو .

الآخر . وكان الطابق الاسفل من السفينة عادة يضم صفين كل منهما باربعـة او خمسة مجاذيف بحيث كان عدد المجذفين كلهم بين ستة عشر وعشرين . وفي العصور

المتأخرة بلغ عدد المجذفين خمسين مجذفاً . وكان الركاب يقيمون في الطابق الاعلى . وكانوا يستعملون عوداً واحداً للشراع وكان الشراع ينشر عندما ترسو السفن او حين يكون الطقس رديئاً . وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه اليونان الاقدمون كما يتضح من الرسوم على الاواني . ويعتقد ان نفس النموذج بناه للملك سليمان اولئك « النواتي العارفون بالبحر»[١] الذين ارسلهم صديقه حيرام ملك صور . وكانت سفن سليمان ترسو في عصيون جابر[٢] وهي ميناء مملكة اسرائيل على خليج العقبة[٣]. وكانت السفن تصدر بواسطة هذه الطريق القصيرة الاخشاب والنحاس وتأتي بدلاً عنها بالذهب من اوفير والعطور والتوابل من سائر جهات شبه الجزيرة العربية وبذلك تتجنب المرور في برزخ السويس على اطراف مصر . وكانت ترسل محاصيل برية اخرى كالرقيق والخيول الى مصر بدلاً من المنتجات المحلية . وكان التجار الفينيقيون في مدن الدلتا[٤] في عهد السلالة العشرين (١٢٠٠ – ١٠٩٠) بارزين بشكل خاص . ويبدو انهم كانوا يتمتعون في ممفيس في القرن الثالث عشر بحقوق خاصة تتصل بوضعهم كأجانب وهذا من سوابق الامتيازات الاجنبية[٥].

لم يكن الفينيقيون اول امة بحرية فحسب بل كانوا اول امة في التاريخ تاجرت في البر والبحر . وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم اديسا وربما نصيبين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج الفارسي . والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة اتوا الى ساحل سورية بالاصل من منطقة الخليج الفارسي حيث كانت لهم مدن تحمل الاسماء نفسها مثل ارواد وصور وصيدا[٦]. ويعطينا حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين البرية

---

١) انظر سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧ .

٢) راجع ما سيأتي بشأن هذا الميناء في الفصل الرابع عشر في الفقرة التي عن داود .

٣) ان القول بان الفينيقيين كانت لهم مراكز في النقب لا يقبله العلماء عموماً . انظر : Garstang, *Heritage of Solomon* p. 371 : W. F. Albright, *Archaeology and the Religion of Israel* (Baltimore, 1942), pp. 59-60.

٤) يرى البعض ان « النيل » من اصل فينيقي وان الكلمة مشتقة من السامية نَهَل بمعنى جرى .

٥) راجع ما سيأتي في الفصل ٤٨ بشأن هذه الامتيازات .

٦) Strabo XVI. ch. 3. § 4.

والبحرية في مظاهرها المختلفة . وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والقصدير والرصاص من اسبانيا والرقيق واواني النحاس الاصفر من ايونيا والكتان من مصر والخرفان والماعز من شبه جزيرة العرب .

الدوران بحراً حول افريقيا

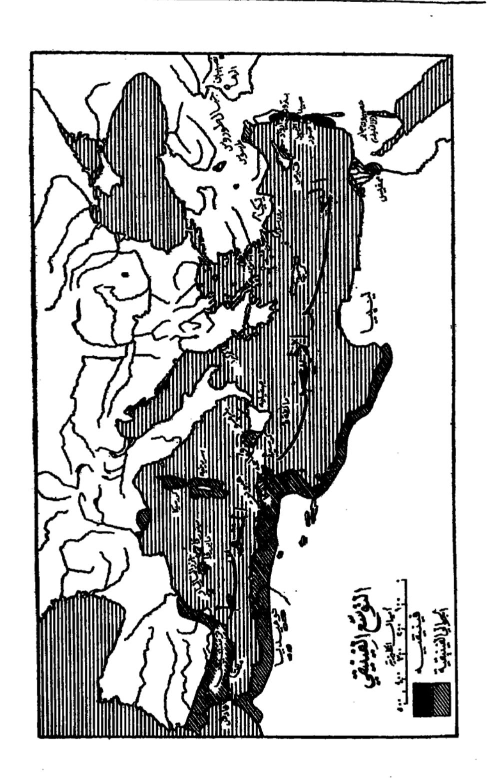
واعظم عمل بحري حققه الفينيقيون هو الدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين باكثر من الفي سنة وينسب الى الملاحين البرتغاليين عادة انهم اول من فعل ذلك . وقد قام الفينيقيون بهذا العمل باشارة من الفرعون نخاو (٦٠٩ — ٥٩٣ ق. م.) من السلالة السادسة والعشرين الذي اعاد حفر الترعة القديمة التي كانت تربط الفرع الشرقي للنيل بطرف البحر الاحمر الشمالي . بدأ الفينيقيون رحلتهم من هذا البحر واتجهوا جنوباً نحو المحيط الجنوبي وعند اقتراب فصل الخريف كان ينزل الملاحون اينما وجدوا ويزرعون القمح وينتظرون نهاية الموسم ثم يرحلون من جديد . وبعد ان قضوا سنتين على هذه الحال عبروا في السنة الثالثة اعمدة هيركوليس (مضيق جبل طارق) وعادوا الى مصر. قال هيرودتس « وهناك قالوا (ما يصدقه البعض ولكنني لا اصدقه) انهم بدورانهم حول ليبيا [افريقيا] كانت الشمس على يمينهم[١] ». وهذه العبارة الاخيرة التي لم يصدقها « ابو التاريخ » (اليوناني) تثبت صحة القصة . ذلك انه عندما تتجه السفن الى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فان شمس نصف الكرة الجنوبية تكون عن يمينها .

المستعمرات

كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون اينما ذهبوا . وبما انهم يمثلون امـة صغيرة فانهم كانوا يتسربون الى المناطق الجديدة بدون ان يثيروا الشكوك حولهم كما كان يمكنهم ان يتكيفوا بدون صعوبة حسب اي وضع جديد طالما انه لم تكن لهم حياة سياسية مشتركة — ويشبه ذلك الى حد كبير ما يفعله احفادهم المهاجرون اللبنانيون في العصر الحديث. وقد سيطروا بالتدريج كمستعمرين ومنظمين وادخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ووسعوا آفاقه . وتطورت المراكز التجارية

---

١) انظر : Herodotus IV. ch. 42



الواحد بعد الآخر الى مراكز للسكن وتطورت هذه الى مستعمرات . واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الاصلية الام بطرق الملاحة وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية الى سواحل كيليكية واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط فجعلته بحراً متوسطاً حقيقياً . ويمكن الاعتقاد بان مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص اسست قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط وان هذه الاخيرة اسسها الفينيقيون قبل مستعمراتهم في افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا. ويرجع نزولهم في جزر اواسط البحر المتوسط الى منتصف القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . واسست قادس Gades (اليوم Cadis) في اسبانيا واوتيكا Utica في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عـــام ١٠٠٠ ق. م. وتعتبران من اقدم المؤسسات في تلك المناطق . وقد اشتق اسم قادس Gades من كلمة فينيقية[١] معناها «جدار» او مكان مسوّر . ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية اثرية في سردينيا وقبرص اقدم من القرن التاسع . والكتابة المشهورة المكرسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقاً تعتبر اقـــدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع الى منتصف القرن الثامن[٢]. واما قرطاجة[٣] سليلة صور الشهيرة واعظم المستعمرات الفينيقية فانها تعود الى نحو ٨١٤ ق. م. وهي احدث من زميلتها في الغرب هيبّو Hippo التي كانت مقراً ملكياً (ولذلك اعطيت لقب Regius) وفيما بعد اصبحت اسقفية القديس اوغسطين . وكلمة هيبّو كلمة ليبيّة . وتفيد الاساطير اليونانية ان ليبيا Libya وهي الاسم اليوناني لشمالي افريقيـــا ثم للقارة الافريقية كلها كانت بالاصل اسم زوجة الاله بوسيدون (اله البحر) ووالدة آجينور Agenor ملك فينيقية .

وبلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن . ويشير نجاحه العظيم الى وجود طبقة اقدم من المستوطنين

---

١) شبيهة بكلمة «جدار» العربية. وكلمة اغادير *agadir* تعني بالبربرية «جدار» ايضاً .

٢) انظر : G. A. Cooke, *A Text-Book of North-Semitic Inscriptions* (Oxford, 1903), p. 52.

٣) بالفينيقية قارط حدشت *qart hadasht* اي المدينة الجديدة بخلاف Utica ومعناها المدينة القديمة ومشتقة من عتَق .

الساميين في شمالي افريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة ايبيريا . وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الالف الرابع الى مصر قد استمرت الى ابعد من ذلك . وهنالك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية[١] .

أدى تاسيس قادس وراء اعمدة هيركوليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) الى دخول الفينيقيين الى المحيط الاطلسي واسفر ذلك عن اكتشاف الاوقيانوس[٢] بالنسبة للعالم القديم . ويعتبر هذا الاكتشاف من اعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي[٣]. وقد عرف هوميروس وهيسيود عن وجود الاطلسي لاول مرة من الفينيقيين. ومن الصعب معرفة مدى توغل الفينيقيين في هذا الاوقيانوس الذي سماه العرب فيما بعد «بحر الظلمات». واما وصولهم الى كورنوال في انكلترا في بحثهم عن القصدير فقد اكده بعض الثقات ولكن لا توجد اشارة قديمة الى ذلك . ويقول هيرودتس[٤] انه ليست لديه معرفة خاصة بجزر كاسيتريدس[٥] Cassiterides (جزر القصدير) «التي يجلب منها قصديرنا». وهذه الجزر هي جزر سيلي Scilly الواقعة قرب طرف كورنوال . ويؤكد سترابو[٦] الذي كتب نحو عام ٧ ق. م. بان الكاسيتريدس تحوي القصدير والرصاص وان السكان يبادلونها

---

١) انظر: Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, IV. ch.10.§§13-29; الادريسي، صفة المغرب، طبعة دوزي ودي غويه (ليدن ١٨٦٤) ص ٥٧ ؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ١٢٨٤) م٦ ص ٩٣-٩٤ .

٢) من اليونانية *okeanos* واشتقاقها من كلمة عوج *ūg* (بمعنى حلقة) السامية امر مشكوك فيه . انظر: (R. Henning, « Die Anfänge des kulturellen und Handelsverkehrs in der Mittelmeer-Welt », *Historische Zeitschrift*, vol. cxxxix, No. 1, p. 12; H. Lewy, *Die semitischen Fremdwörter im Griechischen*, (Berlin, 1895), p. 208.

٣) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, vol. ii (Oxford, 1934), pp. 50, 52, 386.

٤) Bk. III, ch. 115

٥) من اليونانية *kassiteros* (قصدير) ومنها اتت الكلمة العربية ولكن الكلمة اليونانية من أصل شرقي وان يكن غير فينيقي .

٦) Strabo III. ch. 5. § 11

بالخزف والملح والاواني النحاسية وكان الفينيقيون وحدهم في العصور الاولى يقومون بهذه التجارة من قادس ويكتمون الطريق عن الناس . ويضيف سترابو بان السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكي تجد هي ايضا تلك الاسواق ولكن قائد السفينة قذف بسفينته عمداً على اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده ، وهذا يشير الى احتكار حقيقي لتجارة القصدير والى نوع من الضمان من قبل الدولة . ويتكلم ديودورس الصقلي[١] الذي كتب بعد سترابو بنحو ثلاثة ارباع القرن عن القصدير الذي كان يحمل من بريطانيا الى ساحل الغال المقابل ثم عن طريق الداخل الى ماسيليا (مرسيليا اليوم) وهي مستعمرة يونانية ربما قامت على موقع مستعمرة فينيقية اقدم منها . والكتابة الفينيقية الوحيدة المكتشفة في بريطانيا حتى الآن تركها على الغالب احد عمال احدى الفرق الرومانية من اصل قرطاجي على ما يبدو وترجع الى اول قرن من الاحتلال الروماني[٢] . واكتشف العالم بيتري Petrie في غزة القديمة اقراطاً ملتوية من ذهب اعتقد انها من اصل ايرلاندي وتاريخها ١٤٥٠ ق. م.[٣]

في اسبانيا

كانت معظم المستعمرات الفينيقية في اسبانيا تقع في ترشيش (Tartessus) وخاصة في المنطقة بين قرطجينة وقادس . وهذه الاسماء السامية للاماكن شائعة جداً ونراها على نقود بقيت حتى الآن . واسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة واشور هو اسم فينيقي على الغالب بمعنى المنجم او مكان الصهر[٤] . وكانت مدينة طرسوس في كيليكية التي ولد فيها القديس بولس تحمل نفس الاسم كما انها كانت مستعمرة فينيقية . وطقوس عبادة بعلها كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبعة في صور وقرطاجة . وسميت قرطجينة Carthagena باسم المدينة الام قرطاجة في

---

١) History Bk V. ch. 38. §4

٢) Alfred Guillaume, « The Phoenician Graffito in the Holt Collection of the National Museum of Wales », *Iraq*, vol. vii (1940), pp. 67-69.

٣) راجع : Flinders Petrie, *Ancient Gaza*, vol. ii (London, 1932), p. 7.

٤) وقد بقي الفعل الذي اشتقت منه في العربية « رَشّ » . راجع : Albright in *Studies in History of Civilization*, p. 42; cf. Albert Dietrich, *Phönizische Ortsnamen in Spanien* (Leipzig, 1936), p. 32.

شمالي افريقيا . ومدينة ملقة Malaga [١] معنى اسمها دكان او معمل صغير . ويذكر سترابو[٢] مكاناً لتمليح الاسماك في هذه المدينة وهو امر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك . ومدينة قادس كانت ايضاً معروفة بانتاج الملح . وكانت قرطبة (Cordoba) بالاصل مدينة ايبرية استولى عليها الفينيقيون : واقدم نقودها تحمل حروفاً فينيقية استبدلت فيما بعد بالبونية . وقد جمع منها هميلقار برقة والد هانيبال كما جمع من سائر المدن الاسبانية جيوشاً لاجل حملته ضد رومة . وربما كان اسم برسلونة الواقعة في الشمال متصلاً بكلمة «براق» الفينيقية (برق) التي نراها كلقب بجانب اسم والد هانيبال . وهكذا تأسس بواسطة هذه المستعمرات موطن ثان للحضارة السورية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

في اليونان

وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية واسمها ماهون Mahon تبدو في اول الامر بانها ماجو Mago [٣] وهو بالاصل اسم قائد قرطاجي . وكان للفينيقيين مراكز في جزر الباليار ولكن سلطتهم على الجزر التي سكانها من عرق ايبيري لم تكن قوية . وكانت لهم ايضاً مراكز في كورسيكا وسردينيا . ومدينة باليرمو في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم . وفي بلاد اليونان يشهد وجود اسماء سامية للمواقع والآلهة الى جانب وجود الاساطير والخرافات الكثيرة بنشاط فينيقي . وتتصل كورنثوس وهي مؤسسة فينيقية على الغالب باله من اصل فينيقي اسمه مليكرتس[٤] (ملقارت) كما تذكر الاساطير . ومن الجزر اليونانية التي لها صلة بالاستعمار الفينيقي ساموس وكريت[٥] وكانت لها مكانة بارزة في هذه الناحية .

---

١) من الفينيقية «مِلاكة» (*melākāh*) .

٢) Strabo Bk III. ch. 4. § 2

٣) من الفينيقية مَجِين *magēn* (ترس او مجنّ) . وكلمة mayonnaise الانكليزية أتت غالباً من نفس الكلمة بطريق الفرنسية .

٤) من الفينيقية ملك قارط اي ملك المدينة الذي اعتبر معادلاً في ما بعد للبطل اليوناني هركوليس ومبارياته مع خصومه الحيوانات الاثني عشر التي اصبحت رموز البروج تفسر لنا الاشغال الاثني عشر التي قام بها البطل اليوناني .

٥) ان اشتقاق اسم ساموس Samos من السامية شَمَش (الشمس) واشتقاق كريت من السامية «كارَت» بمعنى قطع مشكوك فيها . انظر : Hall, *Ancient History*, p. 523; Autran, *Phéniciens*, p. 5.

وتروي الاساطير ان الاله زفس بعد ان تحول الى ثور اختطف اوربا Europa الجميلة ابنة الملك الفينيقي آجينور[١] Agenor من مرج على الساحل السوري بعد ان وقع في حبها وهرب الى كريت التي كانت مركزاً للحضارة قبل ان تكون هنالك حضارة في البر الاوربي . وفي كريت تزوجها بعد ان استعاد شكله الاصلي . وقد ولد من هــــذا الزواج الملك والمشرع الكريتي مينوس Minos بينما اتخذت القارة (اوربا) اسم زوجة زفس ووالدة مينوس .

وقــد زعم ديودورس[٢] ان سكان مالطة — واسمها سامي[٣] بدون شك — كانوا فينيقيين . وكان لهذه الجزيرة مرفأ من احسن مرافئ البحر المتوسط ولا عجب اذا سميت «ملجأ» وكان يوجد في تراقية مناجم للذهب وتروي الاسطورة ان اول من استثمرها هــو قدموس Cadmus الصوري[٤] شقيق اوربا الذي ارسله والده للبحث عن شقيقته. وقد اشتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثاً عن الذهب حتى القرن السابع ق . م . ومن الامور التي تنسب الى قدموس[٥] بنـاء مدينة ثيبة — وتل الاكربول فيها واسمه قدميا قد سمي بالنسبة اليه — كذلك ينسب اليه انه انجب ولداً اسمه الليريوس تسمت باسمه الليريا (وهي بلاد البانيا اليــوم تقريباً) . والواقع هو ان هذه العاصمة الايولية القديمة كانت من اصل سوري كما ان فن العمارة اليوناني القــديم الذي منه اتت اشكال كلاسيكية مـــدين مسورية باستخدام الاعمدة وتيجانها .

وفي العصر الهوميري كان محمول السفن الفينيقية يضم نباتات ومحـــاصيل مثل الورود والنخيل والتين والرمان والمر والخوخ واللوز نشروها في بلاد البحر المتوسط كلها[٦] . وقد تكون السفن نفسها هي التي ادخلت من اليونان الى سورية نبات

---

١) وفي الالياذة ١٤ : ٣٢١ ورد اسم فينيكس Phoenix .

٢) Diodorus, Bk V. ch.12. §§ 2-4

٣) من فعل مالـَط بمعنى هرب.

٤) انظر: Strabo Bk VII. ch. 7. § 1 ; IX. 2. 3. ويبدو ان اسم قدموس مشتق من قادم ومعناها الآتي اي من الشرق او الشرقي.

٥) انظر ما سنذكره عن قدموس ايضاً في ص ١١٧ .

٦) Albert G. Keller, *Homeric Society* (New York, 1902), pp. 20, 43-44 والمر كلمة سامية قديمة استعارتها اليونانية .

الغار والدفل والسوسن والنعنع والنرجس وقد بقيت الاسماء اليونانية لبعضها في اللغات السامية . وتجارة التوابل كانت بكاملها بيد الفينيقيين الذين حرصاً على الاحتفاظ لأنفسهم بالطرق التجارية كانوا ينشرون الاخبار عن اخطار بلاد التوابل وطرقها . وكان يعتقد لمدة طويلة في العصر الكلاسيكي القديم ان سورية تنتج البلسم والمر . ولم يصبح الاصل العربي للمر مؤكداً الا في زمن فتوحات الاسكندر وكانت تجارته في ايدي السبأيين قبل الفينيقيين . وكان الغار بشكل تيجان يكلل الشعراء وقد تحولت الحورية دفنة Daphne مرة الى شجرة غار عندما لاحقها عشيقها ابولون وذلك في مكان قرب انطاكية لا يزال يحتفظ باسمها[١] . وقد جذب بلسم اريحا الملكة كليوبطرة واستأجرت جنائن في ذلك المكان .

قرطاجة

كانت قرطاجة اكثر المستعمرات نجاحاً بما لا يقاس في افريقيا وان تكن احدثها عهداً . وفي القرن الثامن كانت في ذروة منافستها للوطن الام الذي كان قد اخذ بالانحطاط . وقد عجّل في هذا الانحطاط موجة الاستعمار اليوناني في اواخر القرن الثامن واوائل السابع والفتح الاشوري للمدن الفينيقية الذي حصل في الوقت نفسه . ويستدل على مدى التجارة القرطاجية واساليب المقايضة الغريبة التي ولدتها من قصة رواها هيرودوتس[٢] حيث يقول ان الملاحين القرطاجيين على ساحل افريقيا الغربي كانوا ينزلون بضائعهم الى الشاطئ ويوقدون النار كاشارة للسكان ثم ينسحبون الى سفنهم . وكان السكان المحليون البدائيون يأتون حين ينظرون الدخان ويضعون ما يقابل تلك البضائع من الذهب .وينسحبون . ويعود القرطاجيون فينزلون في البر فاذا رأوا ان الذهب يعادل ثمن البضاعة يأخذونه وينصرفون والاّ فأنهم ينتظرون من جديد في سفنهم لكي يقوم السكان بمحاولة جديدة في هذه المساومة الخرساء . ويقول الراوي انه «لم يعمد اي من الفريقين الى ان يغش الآخر» .

---

١) انظر ما يتعلق بذلك في الفصل الثامن عشر .

٢) Herodotus Bk IV. ch. 196

وقد بلغ من سيادة قرطاجة التجارية والسياسية ان امبراطوريتها القوية امتدت في القرن السادس من حدود ليبيا الى اعمدة هيركوليس وضمت جزر الباليار ومالطة وسردينيا وبعض مواقع على ساحل اسبانيا والغال . ولم تتح الفرصة لصيدا وصور تحت النفوذ المصري والاشوري ان تكونا امبراطورية ولكن قرطاجة فعلت ذلك وادى هذا الى نزاعها مع رومة الآخذة بالظهور التي نازعتها سيادة البحر وبلغ من تسلط الاسطول القرطاجي على هـذا البحر انه قيل للرومان بانه لا يمكنهم غسل ايديهم في مياهه بدون اذن قرطاجة . ويقال ان سفينة قرطاجية جانحة ذات خمسة صفوف من المجاذيف استخدمت كنموذج قلده بناؤو السفن الرومان وصنعوا مئة وثلاثين سفينة منه في مدة ستين يوماً .

وفي عام ٢١٨ ق . م . قام هانيبال[١] الذي كان قد اقسم وهو لا يزال يافعاً بان يكون عدو رومة الدائم بمشروعه الذي كرس له حيـــاته وزحف ضد ايطاليا من اسبانيا بطريق جبال الالب . وبعـد قتال ناجح دام خمسة عشر عاماً في الارض الايطالية هوجمت رومة اثناءه استدعي هانيبال الى افريقيا وهناك كسر في معركة زاما (٢٠٢) الحاسمـة في جنوب غربي قرطاجة . وفي ١٩٦ هرب الى صور ومن هنـاك اتصل بانطيوخس ملك سورية واشترك معه في الحرب ضد اعداء قرطاجة الالداء[٢] . غير انه كسر نهائياً ولما لم يعد له امل بالهرب انتحر في آسية الصغرى في ١٨٣ وهو يقول : « ان هـــذا سيوفر على الرومان قلقهم في انتظار موت رجل مسن مكروه » .

اما قرطاجة فان ما اثارته من حسد بسبب انتعاشها ودوام ازدهارها قد فرض على عقل كاتو الضيق وعلى غيره من اصحاب النفوذ من الرومان قرارهم بان قرطاجة يجب ان تهدم . وقد تركت المدينة طعمة للنيران لمدة سبعة عشر يوماً في سنة ١٤٦ حتى اخفت موقعهـــا كومة من الرماد . ثم اعملوا المحراث فيها ولعنوا ارضها الى الابد . ان هـذا العمل وان حكمنا عليه بمقاييس تلك الايام لعمل اخرق وانه لا يزيد الرومان شرفاً .

---

١) من الفينيقية حاني بعل اي نعمة بعل .

٢) انظر ما سيأتي عن انطيوخس في الفصل ١٧ .

الفصل العاشر

الآداب والديانة وسائر مظاهر الحياة

ان السفن كالقوافل تحمل فوق ما تحمل من شحنات البضائع اموراً غير ملموسة تساويها في اهميتها ان لم تفقها بالنسبة للتقدم البشري . وهذه الامور غير المادية هي المؤثرات الحضارية المتنوعة التي اتى بها التجار والمستعمرون الفينيقيون ونشروها بين الشعوب التي احتكوا بها وخاصة اليونان الذين اصبحوا تلامذتهم في شؤون الملاحة والاستعمار واخذوا عنهم اشياء مختلفة في ميادين الادب والدين والفن الزخرفي . وقد اصبح البحر المتوسط بفضل النشاط الفينيقي قاعدة للدوافع الحضارية المتعددة الاشكال التي اتت ليس من فينيقية فحسب بل من بلاد بابل ومصر ايضاً . وكان الفينيقيون يلعبون دور الوسطاء من الناحيتين الفكرية والروحية كما كانوا من الناحية التجارية .

الابجدية

واول نعمة اعطيت للبشرية في درجة اهميتها كانت الابجدية التي نقلها اليونان غالباً بين ٨٥٠ و ٧٥٠ ق.م . والحقيقة ان اختراع النظام الابجدي ونشره يعتبر من جهة البعض اعظم منحة انعمت بها الحضارة السورية على البشرية . والمنحتان الاخريان هما ديانة التوحيد واكتشاف المحيط الاطلسي .

وقد حافظ اليونان على الاسماء السامية للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت تكتب الحروف في اقدم الكتابات الاثرية اليونانية من اليمين الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بما نقلوه في قصة قدموس الذي ينسب اليه ادخال ستة عشر حرفاً[١] . واذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة

---

١) راجع : Herodotus Bk. V. ch. 58; Pliny Bk. VIII. ch. 57 (56); Diodorus, Bk. III. ch. 67. § 1; Bk. V. ch. 57. § 5.

فانها تشير الى ان المهاجرين من سورية ادخلوا الى بلاد اليونان الابجدية وفن التعدين وعبادة ديونيسيوس اله الخمر[١] . ونقل اليونان في القرن السادس ابجدية ادخلوا عليها بعض التحسينات الى الرومان ومنها تولدت معظم الابجديات الاوربية . ومن جهة اخرى فان الآراميين الذين استعاروا ايضاً ابجديتهم من الفينيقيين نقلوهـا الى العرب والهنود والارمن وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالابجدية[٢]. وكان من صفات الابجدية الفينيقية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً بساطتها ممـا جعل فن الكتابة والقراءة في متناول الانسان العادي . وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية التي كان لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية .

ويبدو ان الفينيقيين الذين كانوا اول من استعمل نظاماً ابجديا راقياً في الكتابة ونشروه في العالم قد اخذوا اساس اسلوبهم من مصادر مصرية هيروغليفية بطريق سيناء . والرموز الهيروغليفية كانت في الاصل صوراً للاشياء التي ارادت الدلالة عنها ولكنها انشأت من وجهة صوتية اربعين اشارة كانت حروفاً ساكنة . غير ان المصريين المحافظين لم يذهبوا الى حد استخدام هذه العلامات الساكنة لوحدها. ولذلك فان العلامات ظلت بدون اهمية حتى حوالي نهاية القرن السابع عشر حين اتفق لاحد الاسرى الكنعانيين او لاحد العمال في مناجم الفيروز في سيناء كما يظن ان يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من اتقان ما فيها من تعقيد وان يستعمل العلامات الساكنة . وكان المكان الذي ربما حصل فيه ذلك هو سرابيط الخادم. وقد اعطيت للعلامات الساكنة اسماء سامية وقيمٌ سامية . فقد اتخذ الساميون مثلاً علامة رأس الثور وبدون ان يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية سموا العلامة «الف» باسمها السامي . ثم طبقوا المبدأ الذي بموجبه يعطى الحرف الصوت الاول في اسم الشيء الذي يمثله وفي هذه الحالة استعملوا علامة الالف لاجل صوت أ. وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على «بيت» فسموها «بيت» واستعملوها لاجل صوت ب . وعلامة اليد سموها «يود» واستعملوها لصوت ي، وعلامة الماء سموها «ميم» واستعملوها لاجل صوت م، وعلامة الرأس سموها «ريش» واستعملوها

١) Herodotus Bk. II. ch. 49

٢) انظر ما سيأتي بشأن الكتابة الآرامية في الفصل ١٢ .

لصوت ر[١]. وعلى ذلك فان العامل في سيناء استخدم فقط الفكرة الابجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن ان تتهجى بها الكلمات.

العربية	اللاتينية	اليونانية القديمة	رأس الشمرة	الفينيقية	العربية الجنوبية	الشكل الذي تمثله	السينائية
ء	A	A				راس ثور	
ب	B	B				بيت	
ج	CG	Γ					
د	D	Δ					
هـ	E	E				رجل يصلي	
و	FV	Ϝ					
ز	...	I				عقدة مزدوجة	
ح	H	B					
ط	..	⊗					...
ي	I	Ϩ				يد	
ك	...	K					
ل	L	Λ				منخاس	
م	M	M				ماء	
ن	N	N				افعى	
...	X	Ξ				سمكة	
ع	O	O				عين	
ف	P	Γ					
ص	...	...					
ق	Q	Ϙ					
ر	R	P				رأس انسان	
س ش	S	Σ				قوس	
ت	T	T				صليب	+

جدول يحتوي ابجديات مختلفة من جملتها ابجدية رأس الشمرة المسمارية

١) قارن ذلك مع الجدول الموجود في: *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 110 (1948), p. 14; David Diringer, *The Alphabet* (New York, 1948), p. 200.

الكتابات الاثرية الفينيقية

والفينيقيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع سيناء اقتبسوا على الغالب هذه الاشارات واضافوا اليها وجعلوا منها نظاماً ابجدياً تاماً مؤلفاً من اثنتين وعشرين علامة بدون حروف صوتية بسبب تأثير الهيروغليفية المصرية. وهكذا حصل ما سموه بحق اعظم اختراع اتى به الانسان.

وقد اكتشفت كتابات اثرية كنعانية قصيرة بالابجدية الخطية في لاكيش وبيت شمش وترجع الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر[١]. وكتابة لاكيش وجدت على صحن. واقدم نص مفهوم تماماً بالابجدية الكنعانية وجده الاثري الافرنسي دونان Dunand في بيبلوس وهو مؤلف من خمسة اسطر ويذكر بناء جدار من قبل شفط بعل ابن ايلي بعل ابن يحيم ملك — والثلاثة كانوا ملوكاً على بيبلوس[٢]. والحروف في جميع هذه الكتابات من غوذج اقدم من تلك التي وجدت في كتابة احيرام الطويلة المكتشفة في ١٩٢٣ من قبل الاثري الفرنسي مونتيه Montet في بيبلوس وترجع غالباً الى نحو ١٠٠٠ ق. م. واطول كتابة اكتشفت حتى الآن وطولها واحد وتسعون سطراً اتتنا من قره تبه Kara-Tepe شمال شرقي ادنة وقد كتبها ملك فينيقي من القرن التاسع[٣].

ونظام الكتابة الابجدية الخطية بحروفها الاثنين والعشرين والمكتوبة من اليمين الى اليسار[٤] كانت غالباً من عمل الفينيقيين في بيبلوس. وقد اخترع فينيقيون آخرون وهم الذين عاشوا في اوغاريت نظاماً ابجدياً آخر على اساس مختلف. فقد كتبوا الابجدية بقلم على الواح الطين ولذلك اتخذت شكل علامات مسمارية او

---

١) لايكش هي اليوم تل الدوير في جنوبي فلسطين ، وبيت شمش هي تل الرميلة قرب عين شمس غربي القدس.

٢) راجع : W. F. Albright, « Near Eastern Archaeology », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, N. 95 (1944), pp. 37-8.

٣) راجع : Julian Obermann, *New Discoveries at Karatepe* (New Haven, 1949)

٤) ان الكتابة من اليمين الى اليسار بدأت كما يظن ككتابات منحوتة وقد وضعت بهذا الشكل لتناسب الذي ينقش على الحجر. وأما الكتابات من اليسار الى اليمين فانها تمثل بدء الكتابة بالقلم والحبر.

اسفينية[1]. والواح راس الشمرة التي اكتشفت عام ١٩٢٩ كتبت بهذه الكتابة غير المعروفة حتى ذلك الوقت. ويرجع معظمها الى اوائل القرن الرابع عشر وبعضها اقدم من ذلك. ووجدت كتابة بهذا الخط ايضاً في بيت شمش. وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بان هذه الكتابة كانت شائعة في القرنين السادس عشر والخامس عشر.

كتابة احيرام الاثرية في بيبلوس حوالي ١٠٠٠ ق. م.

وهذا ما جاء في الكتابة «التابوت الذي صنعه ايتوبعل ابن احيرام ملك بيبلوس لابيه كمسكنه الابدي. واذا هاجم بيبلوس ملك او حاكم او قائد وعرّض بهذا التابوت فليكسر صولجان حكمه وليسقط عرشه الملكي وليهجر السلام بيبلوس؛ واما هو فليمح[2] انسان مشرد (؟) كتابته»!
(عن مجلة الجمعية الشرقية الاميركية م ٥٧ (١٩٤٧) ص ١٠٥).

وبالاضافة الى هذين النوعين من الكتابة اللذين اخترعهما الكنعانيون فانهم استخدموا انواعاً اخرى من الكتابة اكثر تعقيداً وعملوا منها كتابة واحدة وهي مجموعة الاشارات التي وضعوها نحو نهاية الالف الثالث وفقاً للكتابة المصرية الى حد ما وتضم نحو مائة رمز. ان هذه الكتابة الهيروغليفية المزعومة بقيت منها كتابات كلها على الحجر او النحاس واكتشفها دونان في بيبلوس عام ١٩٣٠ وفيها يظهر اقدم اثر للغة الفينيقية. وقد حلت محلها فيما بعد في المراسلات الرسمية الكتابة المسمارية الاكادية وهي المسمارية التي كتبت بها مراسلات تل العمارنة. وتظهر الاخطاء التي عملها الكتاب الكنعانيون في هذه التحارير على عدم معرفتهم التامة للغة

٣) انظر : **Johannes Friedrich, « Ras Schamra »,** ***Der alte Orient*****, vol. xxxiii (1933), Nos. 1-2 pp. 18-34; Harris,** ***Grammar*****, pp. 11-17.**

الاكادية التي تعلموها غالباً في المدرسة . والاسلوب الذي كتبوا فيه لا يترك مجالاً للشك بانهم كانوا يترجمون افكارهم من الكنعانية . واكتشفت بقايا مدرسة الكتبة من هذا النوع حيث امكن للطلاب ان يتعلموا اللغة الدولية لذلك العصر وهي الاكادية بمساعدة المعاجم او قوائم المفردات والتمارين — وكانت ملحقة بمعبد اوغاريت .

وفيما سوى الواح تل العمارنة فقد اكتشف الاثري البريطاني وولي Woolley في ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ثلاثمائة لوحاً مسمارياً (بالاكادية) في تل العطشانة (الألخ Alalakh القديمة). على العاصي الاسفل وتتراوح بين ١٩٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. وبعضها تحوي نصوصاً تتصل بالتنجيم وعلم الغيب .

ومثل هذه الكثرة في الكتابات بين اواخر الالف الثالث واواخر الالف الثاني لا تترك مجالاً للشك بان العصر كان عصر تنوع وتلقيح حضاريين تمازجت فيه بحرية الافكار العلمية والدينية من بلاد الرافدين ومصر وسورية وجرى التبادل فيما بينها . غير ان هذه الكتابات لم يبق منهـــا الا القليل . فالمدونات الفينيقية كان معظمها على مواد قابلة للتلف وهي اوراق البردي وتتعلق بالعمليات التجارية. وكان ورق البردي في هذه الفترة يأتي من مصر واستوردت كميات منه نحو ١١٠٠ ق.م. والقسم الاعظم من النصوص متأخر يتراوح تاريخه بين القرنين الخامس والثاني ق.م. وليس ما يدل على وجود كتابات اثرية فينيقية في فينيقية بعد الميلاد . غير ان اللغة الفينيقية في شكلها الغربي المعروف بالبوني ظلت تستعمل حتى العصر الاسلامي . والكتابات المكتوبة باللغتين اليونانية والفينيقية والمكتشفة في مالطة وقبرص هي التي سمحت للعلماء الفرنسيين وغيرهم في بذل الجهود منذ اواسط القرن الثامن عشر لتفسير اللغة الفينيقية وبلغت هذه الجهود ذروتها في نشر وترجمة النصوص الباقية من قبل المستشرق الالماني كيزينيوس Gesenius في ١٨٣٧ .

وحصلت حركة بعث ادبي فينيقي بلغت ذروتها في القرن السادس وانتجت شخصية سانخونياتن Sanchuniathon البيروتي الغامضة . وكانت الناحية التي ساهم فيها مجموعة اشعار خرافية عن شعبه ترجمها الى اليونانية كما يظن مواطنه فيلون

الجبيلي في اوائل القرن الثاني م[١] . والمرويات اليونانية تنسب الى طاليس Thales من ميلتوس (المتوفى حول ٥٤٦) رئيس « الحكماء السبعة » في بلاد اليونان انه تعلم في فينيقية ما يمكن تعلمه من بلاد بابل ومصر .

ولحسن الحظ ان الكثير من خير ما تركه التراث الادبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة . وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحِكم التي استعارها سفر الامثال والمزامير ونشيد الانشاد وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت في سفر التكوين وفي قصص الانبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً الى ان اكتشفت مدينة اوغاريت وكانت في عالم النسيان .

اوغاريت

في ١٩٢٩ بدأت بعثة افرنسية اعمال التنقيب في راس الشمرة بنتيجة ما اكتشفه احد الفلاحين بطريق الصدفة ، واتضح ان المرتفع يضم عدة مدن يعلو بعضها بعضاً ويرجع اقدمها الى الالف الخامس . وكان اسم المدينة في عصر ازدهارها في ١٤٠٠ ق. م. اوغاريت[٢] . وتقع على مسافة ميل واحد الى الداخل بالنسبة لمينائها المسمى «المينا البيضا» الذي يقابل جزيرة قبرص . وكان يقوم ازدهار المدينة على حركة التجارة التي كانت تمر فيها وفي مينائها . وكان ملكها يسمى نقماد (نقمادا ومعناه نقمة حدد) الذي كانت قواعد اعمدة قصره الملكي مطلية بالفضة . وكان يدافع عن القصر برج مربع ضخم عرضه اربعة عشر متراً وجدران كثيفة .

واثمن المكتشفات المتنوعة التي وجدت في هذا الموقع الالواح الفخارية وعليها كتابة ابجدية من النوع المسماري في منطقة المعبد . ومع انها كتبت في القرن الرابع عشر فان نصوصها الاصلية ترجع الى ابعد من ذلك بكثير . والكتابة تضم ثلاثين حرفاً واما اللغة فانها لهجة كنعانية . والمواد المكتوبة معظمها دينية وتتصل بطقوس

---

١) حفظ لنا المؤرخ يوسيبيوس قسماً كبيراً من ترجمة فيلون ولكن العلماء المعاصرين يعتبرون هذه الترجمة تزويراً من فيلون . وقد ترجم الى الالمانية ما يظن انه ترجمة فيلون بكاملها تحت عنوان : *Sanchuniathon's phonizische Geschichte* (Lübeck, 1837) واسم سانخونياتن من الفينيقية *Sakkonyaton* ومعناه « الاله Sakkon قد اعطى » .

٢) واسم اوغاريت معناه حقل والاغلب انه كلمة مستعارة من السومرية .

العبادة . وهذا الاكتشاف يعيد لنا جانباً هاماً من الادب الكنعاني الذي فقد لمدة طويلة . وتدور احدى القصائد الهامة حول النزاع السنوي بين اله النبات عليان بعل وخصمه موت . وينتصر موت على بعل في اول الامر وهذا طبيعي في بلاد يضع فيها جفاف الصيف حداً لحياة النبات، ولكن عندما تتجدد الامطار في الخريف فان بعل يعود فينتصر على موت . ومن المحتمل ان هذه القصيدة كانت تمثل كمسرحية على الساحل السوري قبل ان يفكر اليونان بالمسرحية بعدة قرون، واذا صح هذا فيكون السوريون قد سبقوا اليونان الذين يعتبرون عادة منشئي التمثيل المسرحي .

وهنالك مقارنات ومشابهات من حيث اللغة والافكار بين ادب اوغاريت وسفر ايوب. وتوجد موازنات في شعر اوغاريت كما في الشعر العبري. ومما يستلفت النظر التشابه في المفردات والافكار والاوزان الشعرية والتركيب الادبي بين الادب الاوغاريتي والمزامير العبرانية[١]. ونجد في الاوغاريتية ان بعل يوصف « براكب الغيوم » وكذلك يصفون الله في العبرية (المزمور ٦٨: ٤). وفي احد نصوص اوغاريت نجد ان الرعد هو صوت بعل، وفي سفر ايوب ٣٧ : ٢ — ٥ والمزمور ٢٩ : ٣ — ٥ نجد انه صوت يهوه . وهذا المزمور بكامله من اصل كنعاني ظاهر . وفي كلا الادبين تسمى لوياتان Leviathan « الحية المتحوية » (سفر اشعيا ٢٧ : ١)[٢]. وبعل يقتل لوياتان وكذلك يفعل يهوه . وهذا الحيوان البحري المخيف ذو سبعة رؤوس ويظهر بعد قرون في حيوان خرافي متصل بهركوليس . ودانيال (ومعناه ايل قد حكم) البطل الاوغاريتي الذي يقابل دانيال في قصة سوزانا « يحكم في قضية الارملة ويقضي في مسائل الايتام[٣] » كما يفعل الله في المزمور ٦٨ : ٥ وكما يفعل الصالحون في سفر اشعيا ١: ١٧ .

ان هذا المركز الدولي القديم — اوغاريت — الذي تظهر في فنه الزخارف

---

١) راجع : John H. Patton, *Canaanite Parallels in the Book of Psalms* (Baltimore, 1944).

٢) انظر : Cyrus H. Gordon, *The Loves and Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943), p. xii.

٣) Gordon, p. 35 ; Charles Virolleaud, *La Légende phénicienne de Danel* (Paris, 1936), p. 203

المصرية والحثية واستخدمت في منازله اواني الخزف الامورية ثم القبرصية والميكانية وفي اسواقه بيعت السيوف الحورية وسيوف الهكسوس قد هدمته الزلازل والنيران في عام ١٣٦٥ ثم اتته شعوب البحر وخربته نحو عام ١٢٠٠ وهكذا زالت هذه المدينة من التاريخ .

ديانة الخصب

كانت مراجعنا الادبية عن الديانة الكنعانية زهيدة قبل اكتشاف اوغاريت . وكانت تضم كتاباً في اليونانية بعضهم سوريون مثل فيلون الجبيلي ولوكيانوس السميساطي ولكنهم كانوا متأخرين وغامضين نوعاً . وكان لدينا مواد العهد القديم في التوراة ولكن تتصف بروح العداء التي كتب بها المؤلفون العبرانيون ، كما كان لدينا آباء الكنيسة المسيحية الاوائل ولكن معلوماتهم لم تكن اولية . والامر الاساسي في الديانة الكنعانية كما تظهره لنا هـــذه المصادر والمكتشفات الاثرية الحديثة هو عبادة قوى النمو والتوالد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعي يهتم بتربية الماشية في ارض امطارها قليلة وغير مؤكدة . ويصدق هذا الى حد كبير على جميع الديانات السامية القديمة . ويبدو ان الكنعانيين استعاروا من عبادات جيرانهم وطقوسهم في بابل ومصر كما استعاروا في سائر الميادين الثقافية واعاروا هم ايضاً فكانت العملية متبادلة .

والصفات البارزة في ديانة الخصب السامية هذه هي الحزن على موت اله النبات واجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه (آله الموت والعالم الاسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لانتاج موسم العام الجديد ، والفرح عند عودة الاله الى الحياة . وان زواج الاله او بعل بعد بعثه بالاهة الخصب عشتار تنتج عنه تلك الخضرة التي تكسو الارض في الربيع . وهذا الزواج المقدس الذي يتخذ صفة روحية رفيعة يصبح فيما بعد اتحاداً بين يهوه وشعبه . وفكرة الاله الذي يموت ثم يبعث تصبح جزءاً هاماً من الاعراف المسيحية .

ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف وعودته الى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجددة للشمس المنتصرة عندما تظهر بعد اتخاذها الظاهر

في الشتاء. وقد كانت اسطورة تموز[١] القديمة تتضمن ذلك. وسمى الكنعانيون هذا الاله أدون بمعنى سيد ثم اقتبسه اليونان وجعلوا منه ادونيس. وجعل فيا بعد معادلاً للاله المصري اوزيريس. واصبح ادونيس اشهر الآلهة السورية واقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس. وجعل الفينيقيون حادثته مع عشتار او سيدة بيبلوس[٢] عند منبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان[٣]. ففي هذا المكان جُرح تموز بينا كان يصطاد الخنزير البري وحماوه وهو يشرف على الموت الى حبيبته المتألمة. ومنذ ذلك العهد والنهر يصطبغ باللون الاحمر في احد الفصول وهو لون دمه كما يعتقدون (وقد شوه علماء الآثار الحديثون هذه القصة عندما اشاروا الى التربة الحمراء التي تجرفها سيول الربيع[٤]). وبينا كان تموز في العالم الاسفل ذبل النبات على الارض وظل ميتاً الى ان دخلت عشتار العالم الاسفل واستعادته. ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته في بيبلوس على خمسة اميال شمالي مصب النهر وتضمنت هذه الطقوس بحث النساء عنه. وكان العيد السنوي يدوم سبعة ايام. وكان الفرح يعم الجميع عند بعثه حتى ان اللواتي يعبدنه من النساء كن يضحين بشرفهن بينا الرجال يضحون برجولتهم ويخدمون في المعبد كخصيان. وقد تعدل هذا البغاء وتحول فيا بعد الى قص الشعر الرمزي بالنسبة للنساء. واما الختان الذي كان عادة سامية قديمة فانه بدأ كما يبدو كتقدمة للاهة الخصب وكان ايضاً بمثابة علامة قبلية فارقة. وقد ترك السوريون هذه العادة بعد نشوء المسيحية حين اعتنقوا الديانة الجديدة.

---

١) وهو في البابلية دوموزي *dumu-zi* ، الابن الأمين ، ومن اصل سومري . وقد بقي اسم تموز في تسمية الشهر الرابع للسنة السامية والشهر السابع في التقويم العربي الحديث لأن الشهر كان مكرساً لعبادته .

٢) زار هذا المعبد لوبكاتوس حوالي ١٤٨ م ووصف طقوسه في كتابه : *De Dea Syria*, § 6

٣) سمي نهر ابراهيم باسم امير ماروني قديم . والنبع الآن يسمى نبع افقا حيث لا تزال مراسم الاحترام تقام لسيدة المكان العذراء مريم باضاءة المصابيح في خلوة صغيرة تحت شجرة تين مشوهة ، ويعلق سكان المنطقة من مسيحيين وشيعة قطعاً من ثيابهم على اغصان الشجرة كنذور لإعادة العافية الى المرضى .

٤) وهنالك رواية اخرى للاسطورة تقول ان ادونيس الذي كان لقبه الفينيقي نعمان تحول الى شقائق النعمان وهي الزهرة التي تلطخت بدم ادونيس . وكلمة anemone الانكليزية اتت من نعمان بطريق اليونانية ، بينا كلمة نعمان العربية اتت بطريق السريانية .

وتتابع الحياة والموت لم يقتصر على النبات وانما شمل الانسان ونتج عنه التأكيد على الناحية الجنسية من الحياة. وقد تجلى ذلك في البغاء المقدس الذي كانوا يمارسونه بمناسبة طقوس عشتار ليس في بيبلوس وحدها بل ايضاً في بابل وقبرص واليونان وصقلية وقرطاجة وغيرها من الاماكن[١]. وبعض مظاهر هذه الطقوس استعارها العبرانيون كما يظهر وكان لديهم ما يسمى «عومسات المعبد[٢]». والاباحية الجنسية كانت مظهراً بارزاً في الاحتفالات الزراعية عند كثير من الشعوب القديمة في العالمين القديم والجديد. وربما كانت عادة تقبيل الذين يحضرون حفلة العرس للعروس من بقاياها. وقص الشعر لا يزال من الواجبات المتبعة عند الراهبات المسيحيات حين يكرسن انفسهن للعريس الالهي.

الآلهة

ان ديانة كنعان القديمة وبقية العالم السامي باعتبار انها بالدرجة الاولى تقوم على عبادة الطبيعة كانت تضم آلهتين رئيسيتين تعرفان باسماء مختلفة ولكنهما في جوهرهما: الجو الآب والارض الام. وفي اوغاريت كان اله الجو يعرف باسم ايل بينما الالاهة الام كانت تسمى عاشرة. وكان ايل الاله الاعلى للعالم الكنعاني العبراني[٣]. وبعده يأتي عليان[٤] الذي اصبح كبعل له مكان معين واعتبر حامياً لاحدى المدن. وكانت الامطار والغلال تحت مراقبته. والاعياد كانت تقام لارضائه والتقدمات تعطى لاستعطافه. والذبيحة او التقدمة كانت بجوهرها احتفالاً يشترك فيه العابد والمعبود او حفلة اشتراك. ولعدم وجود اية صورة محفورة كانوا يرمزون الى الاله بعمود او حجرة. والاله مُلُخ Moloch (او Molech[٥]) الذي تقدم له الاولاد كضحايا كان

١) راجع: Herodotus Bk. I. ch. 199; Strabo, Bk. XVI. ch. 1. § 20; VI. 2. 6; Baruch 6: 43; Lucian, §§ 22, 43.

٢) سفر حزقيال ٨: ١٤؛ ميخا ١: ٧؛ التثنية ٢٣: ١٨.

٣) كان حدد Hadad إله العاصفة والخصب ام الآلهة واكثرها جاذبية بين الآلهة السورية. انظر ما سيرد في الفصل ١٢.

٤) وهذه الكلمة لا علاقة لها بالكلمة العبرية «عليون» اي الاعلى في سفر التكوين ١٤: ١٨.

٥) سفر اللاويين ١٨: ٢١؛ سفر الملوك الثاني ٢٣: ١٠.

يعتبر انه نفس ملقارت اي سيد المدينة — مدينة صور. وحوادث دفن الاولاد الصغار في الجرار كما اكتشفت في المعابـــد تثبت مرويات التوراة عن عادة تضحية الاولاد.

كانت رفيقة ايل تسمى عاشرة Asherah (عاثرة Athirat) في اوغاريت. وكانت توجد الاهة اخرى اسمهـــا عشتارت Ashtart (عشتارت 'Ashtart) في اوغاريت وتل العمارنة وهي عشتار عند الاشوريين البابليين. وقد كانت عشتارت الالاهة الام. وسماها العبرانيون عشتوريت Ashtoreth (وجمعهـــا عشتاروت Ashtaroth[١]) واليونان آستارت Astarte. واقتبسها اليونان وادمجت بافروديت فاصبحت اشهر الاهات الخصب. وصارت باعتبارها بعلة (او سيدة) متصلة بمكان معين واصبحت حامية لمدينة. ومن هذه الحاميات بعلة جبيل. وكان اسم عشتار هو الذي تتسمى به الالاهات المحلية المقرونة بالبعليم في الاماكن المرتفعة الكنعانية التي كان لها تأثيرها وجاذبيتها الخاصة بالنسبة لعقول العبرانيين كما يظهر حتى ان الانبياء اضطروا لمهاجمتها مراراً[٢]. وقد كُرس ايلول وهو الشهر السادس الذي يقع في نهاية الصيف للالاهة عشتار لانه في هذا الشهر وبفضل قوتها كانت تنضج الحياة النباتية التي يمثلها الاله تموز. وبالاضافة الى لقب «بعلة» فقد كانت عشتار تلقب «ملكة» ايضاً وهذا يذكرنا «بملكة السماء[٣]». وهنالك كتابة اثرية عصرية اكتشفت في بيت شان من القرن الثالث عشر تسمي عنات «سيدة السماء[٤]». وتظهر عنات في لوح من أوغاريت كشقيقة عليان بعل وتعطى لقب العذراء. وقد بقي اسمها في بيت

١) انظر سفر الملوك الاول ١١ : ٥، ٣٣؛ الملوك الثاني ٢٣ : ١٣. ويرد هذا الاسم في العربية الجنوبية بشكل عَثتار من فعل «روى واغتنى» ويطلق على إله مذكر. وهذا الاسم الالهي علم عند جميع الشعوب السامية.

٢) سفر القضاة ٢ : ١٣؛ إرميا ٣٢ : ٣٥؛ الملوك الثاني ٢٣ : ١٣؛ صموئيل الاول ٧ : ٣—٤.

٣) سفر إرميا ٧ : ١٨؛ ٤٤ : ١٧—١٩، ٢٥.

٤) Burrows p. 230

عنات[١] وبيت عنوت[٢] وعناتوت[٣]. وكانت الالاهة عنات — عشتار تهب الحياة وتبيدها. ومن اوصافها البارزة ايضاً الحب والحرب. وكان رشف[٤] (اللهيب) في نفس الوقت اله الموت والخصب.

الهياكل

كانت الفكرة الاساسية في بناء الهيكل تزويد الآلهة بمسكن لها. فهنا كان الاله يسكن كما يسكن اي كائن بشري في بيته الخاص. وبواسطة الهيكل كان يتاح مجال للاتصال بين الاله والبشر بحيث يتمكن الكائن البشري من تأسيس علاقات شخصية مع الكائن الالهي. واقدم الهياكل الكنعانية المكتشفة ترجع الى مطلع الالف الثالث وكانت في اريحا ومجدو. وكان هذا النموذج القديم يتألف من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متكاملاً اكثر بعد منتصف الألف الثاني. واهم صفات مثل هذا الهيكل[٥] كما ظهرت في جزر وبيت شان[٦] واوغاريت وغيرهـــا من الاماكن كانت المذبح الصخري والنصب المقدس والعمود المقدس والغرف تحت الارض. وكان المذبح الذي تقدم عليه الذبيحة اهم هؤلاء بدون شك. والنصب او الحجر المقدس[٧] كان يمثل الاله المذكر وربما كان

---

١) سفر يشوع ١٩ : ٣٥ وهي اليوم البَعنة شرقي عكا . ٢) يشوع ١٥ : ٥٩ وتسمى اليوم بيت عينون شمالي الخليل . ٣) اخبار الايام الاول ٦ : ٦٠ وهي اليوم عَنَاتا شمال شرقي القدس .

٤) ورد هذا الاسم كاسم علم في اخبار الايام الاول ٧ : ٢٥ .

٥) الكلمة المستعملة لذلك هي *hēkallu* (هيكلو اي بيت او قصر) وهي مستعارة من السومرية وبقيت في كلمة « هيكل » العربية .

٦) تَلّ في بيسان . Alan Rowe و C. S. Fisher . انظر : Rowe : *The Topography and History of Beth-shan* (Philadelphia, 1930); do. *The Four Canaanite Temples of Beth-shan*, pt. I (Philadelphia, 1940).

٧) مصّبَة *maṣṣēbāh* وجمعها مصبوت (من نَصَبَ) وتترجم بكلمة « تمثـــال » او عمود في هوشع ٣ : ٤ ؛ الملوك الثاني ١٠ : ٢٧ ؛ التكوين ٣٥ : ١٤ ؛ صموئيل الثاني ١٨ : ١٨ .

لاصله علاقة بعضو التناسل . وبجانبه كان العمود المقدس او الشجرة المقدسة[١] وكانت تمثل النبات الدائم الخضرة التي تسكنه آلهة الخصب . وفي بيت شان كان هذا العمود يقوم في مدخل الحرم الداخلي . والغرف الكائنة تحت الارض كانت غالباً تستخدم لتلقّي النبوءات . وكانت الاواني المستخدمة في اراقة السوائـــل والمزخرفة بالحيات ، وطاسات البخور والمباخر التي وجدت تشير الى الاعمال التي استخدمت لاجلها هذه الاشياء[٢] وتفيد بقايا المعابد التي كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون اقدامهم قبل الصلاة ان الوضوء الذي يشكل جانباً لا بد منه في الصلاة عند اليهود والمسلمين لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين . والمباخر الكنعانية اقتبسها اليونان والاتروسكيون . وفي بيت شان كان يقوم مكان مرتفع في مؤخرة المعبد حيث كان يوضع غالباً تمثال الاله ويدل على بدء المكان المعروف « بقدس الاقداس » .

ولا يزال المسلمون والمسيحيون والدروز في سورية وفلسطين اليوم يؤدون واجب الاحترام للاشجار وهي عادة من البلوط او الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع او قرب قبر احد الاولياء او القديسين. وتشاهد اليوم قطع الثياب مربوطة بشجرة مقدسة عند افقا حيث ينبع نهر ابراهيم .

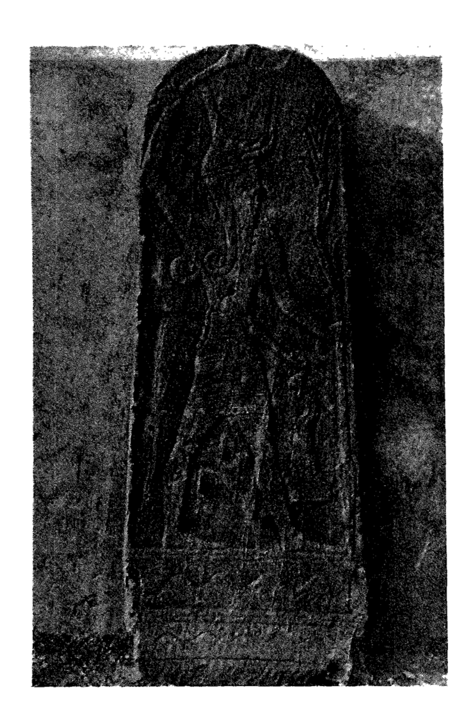
الاصنام

اكتفى الكنعانيون عامة بالنصب والعمود المقدسين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الاصنام . والصور والتماثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة كانت شائعة . والالاهة كانت عادة تمثل عارية ويداها عـــلى جانبيها او تمسكان بثدييها كما لو كانت تعطي الغذاء . وقد وجدت تماثيل صغيرة متعددة من هذا النوع مصنوعة من المعدن او الطين . ولكنها كلها تبدو انها كانت

---

١) أشيراء *asherāh* وجمعها أشيريم ؛ وترجمت بكلمة «سواري» في سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٣ ؛ الملوك الثاني ٢٣ : ٦–٧ ؛ اشعيا ٢٧ : ٩ . وقد حرمت في سفر التثنية ١٢ : ٣ ؛ ١٦ : ٢١ .

٢) لأجل رسوم هذه الاشياء انظر : **Rowe, *Four Canaanite Temples*** الالواح : ٢٢ : ٢٠ ، ٤١ آ ٣ ؛ ٥٧ آ ٣ ، ٤ ؛ ٧٠ آ ٥ .



عليان بعل اوغاريت (رأس الشمرة)

يمسك الاله بيده اليمنى نبوتاً وبيده اليسرى رمز الصاعقة ويقف امامه ملك اوغاريت تحت حمايته .

تستخدم في المنازل وليس في الهياكل. وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية. وكان المتعبد المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة اما العامي فربما اعتبر ان التمثال نفسه هو الآلهة. وكانوا يمثلون الالاهة السورية أتارغاتس عادة في اواخر الالف الثاني بشكل امرأة عارية ايضاً وترفع احدى يديها ممسكة بساق نبات الزنبق او بالحيات. وهنالك إلاهة سورية اخرى هي قادش وتتخذ ايضاً شكل امرأة عارية واقفة على اسد. وكان الاسد او الثور رمزاً للحيوية والقوة. اما لماذا اتخذت الحية رمزاً للخصب فان ذلك غير واضح. وقـــد يكون ذلك لانها كانت تعيش في احشاء الارض. ولا شك ان الاقدمين كانوا يعجبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديد جسمها كل سنة وعلى اصابة من تعضه بالموت المباشر. وقد يتردد الفلاح السوري حتى اليوم في قتل حية سوداء اذا وجدها في منزله على اساس انها قد تكون حاميته.

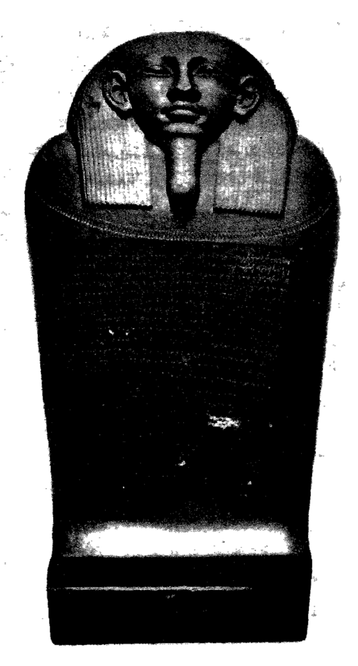
كانت عبادة الحية شائعة في مصر القديمة وكريت وغيرها من بلاد الشرق. وبيت شان التي كان التأثير المصري ظاهراً في هياكلها الاربعة المكتشفة كانت من مراكز عبادة الحية. وقد كرس اقدم هذه الهياكل الى «ميكال سيد بيت شان» من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٧). وميكال الذي قد يكون اسمه متصلاً بمُلخ Molech كان احد اشكال رشف اله الكنعانيين والاموريين. وقد اكتشفت طاسة مزخرفة بحية في قسمها الخارجي في هذا المعبد.

« الاماكن المرتفعة »

وفيما سوى الهياكل في المراكز الحضرية فانه كان للكنعانيين اماكن مقدسة محلية معظمها مزارات في الهواء الطلق على رؤوس التلال. تلك كانت «الاماكن المرتفعة» التي كان يهاجمها كتاب العهد القديم[1] بصورة متكررة. وفي كثير من الاحيان لم يكن المكان المقدس غالباً سوى مذبح مع ما يلازمه من حجر مقدس.

---

١) سفر الملوك الاول ١٣ : ٢.؛ ارميا ٣٢ : ٣٥ ؛ هوشع ١٠ : ٨ .



تابوت بشكل بشري لملك صيدا اشمون عزر
من اوائل القرن الثالث ق. م. والآن في متحف اللوفر

وفي «المكان المرتفع» المشهور في جزر وجدت بقايا اولاد قدموا كضحايا ودفنوا في جرار[١] .

عادات الدفن

وكانت العادة ان يدفن الاولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها بحيث تُدخل رؤوسهم اولاً . وفي اريحا وغيرها من المواقع كانت توضع الجرار تحت ارض المنزل . وحتى في ايام العبرانيين كانوا يتبعون عادة دفن الاولاد في تلك المدينة عند تأسيس المباني الجديدة[٢] . وممارسة اسلاف العبرانيين كسائر الساميين لهذه العادة يمكن استنتاجها من قصة ابراهيم الذي شعر بدافع لتضحية ابنه اسحق وقصة ميشا ملك مؤاب الذي ضحى بالفعل ابنه الاكبر[٣] .

كان الوضع الانسب لجثة الميت عند دفنها في منتصف الالف الثاني ان تكون ممددة على ظهرها وان يكون اتجاه الرأس نحو الشمال. وكانوا كثيراً ما يدفنون مع الجثة مصباحاً وجرة وصحناً كبيراً وغير ذلك من اواني الطعام والشراب مما يشهد بوجود اعتقاد غامض ان الميت يمكن ان يروقه نوع من المعيشة على الطراز المألوف في هذه الحياة الدنيا . وكانوا يدفنون النساء ومعهن حبات الخرز وسائر نواحي زينتهن كما ان الرجال كانوا يدفنون بسلاحهم . وتابوت الملك احيرام الحجري الضخم المزخرف بموكب جنائزي حيث تظهر النساء الباكيات والخدم الذين يحملون الهدايا يشير الى رغبة في حفظ الجسم . والتحنيط لم يُمارس الا بالنسبة لبعض ملوك كنعانيين تحت النفوذ المصري .

وهنالك تأثير مصري آخر يظهر في الدفن عند الفينيقيين وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشري . وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع يظهر فيها رأس بشري واحياناً شكل متكئ بكامله على الغطاء وترجع الى ما بين القرن

---

١) راجع ما ذكرناه في ص ٢٦ و ص ٨٤ .

٢) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤ .

٣) سفر التكوين ٢٢ : ١–٣ ؛ الملوك الثاني ٣ : ٢٧ .

السادس والثالث ق. م. ومن اجملها تابوت اشمون عَزَر ابن تبنيت[1] ملك «مدينتي صيـــدا» كما يسمي نفسه وكان يحكم بعد فتح الاسكندر بنحو نصف قرن . وعلى غطاء التابوت كتابة من اطول الكتابات الاثرية المعروفة . والفكرة الاساسية الواردة هي الفكرة المعتادة بمنع ازعاج الميت وذلك بطريق اللعنات من جهـــة وبالتأكيد من جهة اخرى انه لا توجد كنوز ثمينة مدفونة مع الجثة[2] وقد كان المصريون اول شعب اجنبي تسلط على فينيقية ، وآخر من فعل ذلك قبل فتوح الاسكندر هم الفرس .

---

١) اشمون عزر بمعنى اشمون يساعد . وكان اشمون أهم إله مذكر لمدينة صيدا وبالاصل كان إله النبات . ولا يزال اسمه باقياً في خرائب قبر شمون جنوب شرقي بـــيروت . واسم « تبنيت » لا يزال في اسم قرية تسمى كفر تبنيت جنوب شرقي صيدا وهي تقابل تِبني Tibni العبرانية (سفر الملوك الاول ١٦ : ٢١) .

٢) Cooke, pp. 30-40

الفصل الحادي عشر

العلاقات الدولية مع مصر وغربي آسيا

كانت الدول الكبرى في غربي آسيا في الالفين الثالث والثاني ق. م. ثلاث دول هي مصر وبابل والحثيون. وتبعتها دول ثلاث اخرى وظلت على مسرح التاريخ حتى نهاية القرن الرابع تقريباً وهي دولة الاشوريين والدولة البابلية الحديثة او دولة الكلدانيين ودولة الفرس. والعلاقات المتبادلة من عسكرية وتجارية وثقافية بين الدول السورية وهذه الدول الكبرى المجـــاورة تشكل الموضوع الرئيسي للحوادث التاريخية خلال فترة نحو ثلاثة آلاف سنة.

المملكة القديمة

ان علاقة مصر ببلاد شرقي البحر المتوسط ترجع الى ما قبل قدوم الفينيقيين في اوائل الالف الثالث. وكانت هذه الصلة تجارية في بادئ الامر ثم تنوعت وعززت واستمرت حتى غزو شعوب البحر في اواخر القرن الثالث عشر. واذا استثنينا فترات قصيرة مثل ظهور الهكسوس في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ومجيء الخابيرو في القرن الرابع عشر فان النفوذ المصري في الساحل الفينيقي دام من حوالي ٢٤٠٠ ق. م. حتى حوالي ١٢٠٠ ق.م. وقد استمر التأثـــير الحضاري والاقتصادي الى ما بعد انتهاء النفوذ السياسي وقام الحثيون في القرن الرابع عشر فتحدوا السيطرة الفرعونية على شمالي سورية وداخلها ووضعوا نهاية لها.

كانت اول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة جُبلة Gubla[1] (جبيل). وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupna وهو

---

١) يجب الانتباه إلى التفريق بينها وبين جَبَلة Gabala (GB'L في نصوص اوغاريت) وهي جَبلة الحديثة الواقعة إلى الشمال ومن المدن الكنعانية ايضاً.

اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها الى "جبـــلة". وبقي اسمها السامي في «جبيل» الحديثة. واسمها اليوناني بيبلوس Byblus الذي صار يعني «بابيروس» او «كتاب» قد بقي في لفظة «Bible» (الكتاب المقدس او التوراة). وقبل ان تصبح جبيل الميناء التي يصدر منها البابيروس فانها كانت مركز تصدير ارز لبنان المرغوب كثيراً الى وادي النيل. وهناك استخدم الارز في بناء المعابد والقصور والسفن وفي صنع التوابيت والاثاث الفاخر. وقد استورد الفرعون سنفرو (حوالي ٢٧٥٠ ق.م.) حمول اربعين سفينة من الارز لاعماله العمرانية. واقدم اتصال بين مصر وسورية لدينا دلائل مكتوبة عنه هو من عهد هذا الملـــك. وكانت تصدر الخمور والزيوت ايضاً لاجل التحنيط من جبيل. والمدن الفينيقية كانت تستورد لقاء ذلك الذهب والمصنوعات المعدنية ومادة الكتابة (البابيروس او ورق البردي). وقد نقش خوفو (Cheops حوالي ٢٦٠٠ ق.م.) باني الهرم الاكبر المشهور اسمه على آنية من الالباستر وارسلها كهدية الى سيدة جبيل. واعتبرت هذه الالاهة من قبل المصريين مساوية لالاهتهم هاتور التي بذلك اصبحت بالنسبة لهم سيدة البلاد السورية. وفي هيكل الدفن الذي يخص ساخوراع من ملوك السلالة الخامسة في ابو صير (خارج ممفيس القديمة) يوجـــد رسم حملة للبلاد الاجنبية وتظهر فيه غنائم الحرب وبينها زيت الزيتون في جرار كنعانية. وتمكن اونيس Unis (توفي حوالي ٢٣٥٠) وهو آخر ملوك هذه السلالة ان يحافظ على جبيـــل بواسطة اسطوله وربما كانت المدينة حينذاك من مستعمرات التاج.

وفي كتابات السلالة السادسة الاثرية نبدأ بالقراءة عن «مراكب جُبلة» في ملاحة البحر المتوسط. ولدينا من عهد هذه السلالة اول وصف مفصل للحملات البرية في فلسطين وسورية. وقد قاد هذه الحملات في اوائل القرن الثالث والعشرين اوني Uni قائد الفرعون بيبي الاول Pepi الذي «عاد جيشه سالماً» بعد ان حارب «سكان الرمال» الاسيويين وتوغل في الشمال حيث هدم الحصون وقطع اشجار التين والكرمة[١].

---

١) راجع: James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, vol. i (Chicago, 1906), § 313.

المملكة المتوسطة

وادعى فراعنة السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨) وهي اعظم السلالات في تاريخ مصر السيادة وربما مارسوها بشكل ضعيف ليس على الساحل الفينيقي فحسب بل على فلسطين وقسم كبير من سورية ومنها قطنة Qatna . وقبل احد امراء اوغاريت الهدايا من سنوسرت الاول (١٩٧١ – ١٩٢٨) وكان ابو الهول الذي يمثل امنمحت الثالث (١٦٤٢ – ١٦٣٣) يقوم عند مدخل هيكل بعل في هذه المدينة . وتدل اسماء الاماكن على اللوائح المصرية انه في حوالي نهاية حكم امنمحت كانت فلسطين حتى جلعاد في الشرق وفينيقية حتى وادي النهر الكبير في الشمال وحوران ودمشق ومعظم البقاع . جزءاً من الامبراطورية المصرية . وقد اتانا من زمن حكم سنوسرت اقدم وصف للحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي في سورية وفلسطين[١] .

قصة سنوحي

كان كاتب هذا الوصف من رجال البلاط المصريين واسمه سنوحي (Sinuhe) وقد رأى من الضروري عند اعتلاء سنوسرت العرش ان يهرب الى سورية حيث عاش بين البدو سنوات عديدة . وبعد ان اصبح طاعناً في السن دعي للعودة الى بلاط فرعون حيث دوّن مذكراته بشكل شعري .

وفي اول الامر انقذ زعيم بدوي على حدود مصر حياة هـــذا الرجل الهارب وزوده بالماء والحليب المغلي وسمح له بالسكنى مع عشيرته . وبعد ان اقام سنوحي في الجنوب ذهب الى جبيل ومن هناك اجتاز لبنان الى سهل البقاع حيث اصبح من جملة السكان وانتسب الى قبيلة كان اسم شيخها اموريا . وقد شجع الزائر شيخ القبيلة على الخضوع لفرعون ولكن الشيخ لم يظهر رغبة في التنازل عن استقلاله .

---

١) كان المصريون يسمون سورية الشمالية رتينو Retenu (Rzanu) او خورو Khūru (Kharu). وقد تكون رتينو تحريف كلمة سامية . أما خورو فقد تكون تحريف كلمة حوري" وهم الحوريون Horites المذكورون في التوراة. وكانت المنطقة بين لبنان الغربي والشرقي تسمى امورو (Amor) والسهـــل الفينيقي وفلسطين كانا يسميان زاهي Zahi (Djahi) بينما الفينيقيون كانوا يسمّون فنخو Fenkhu اي بناة السفن .

وتزوج سنوحي من ابنة حاميه الكبرى وخصصت له ارض طيبة فيها تين وكروم وخمر اكثر من الماء . « وكان عسلها كثيراً وزيتهـــا غزيراً وجميع الثمار كانت في اشجارها . وكان فيها شعير وقمح وماشية لا عد لها من جميع الانواع[١] » . وورث سنوحي المشيخة على القبيلة عن والد زوجته واصطاد بمساعدة كلابه واستقبل الضيوف على عادة البدو واعطى الماء للعطشان وارشد الضال واشترك في اعمال الغزو . واصبح محبوباً حتى انه اثناء القتال مع احد كبار القبيلة حيث استخدمت السهام والحراب والفؤوس صرخت النساء لمساعدته وشجعه الرجال . وبعد ان اشتاق هذا المنفي الى بلاده وارتعش لمجرد التفكير بانه سيدفن في ارض غريبة وسيلف بجلد ماعز فقط استجاب لقرار اصدره سنوسرت وكلف ابنـــه الاكبر بادارة املاكه وترك « الرمل لسكانه وزيت الشجر لاولئك الذين لا يعرفون دهناً احسن منه[٢] » وعاد الى بلاده حيث يمكنه التمتع بترف الاستحمام وبفراش حقيقي .

سورية في الامبراطورية المصرية

ادخلت سورية في الامبراطورية المصرية عند ظهورها في عهد احموس من السلالة الثامنة عشرة (توفي حوالي ١٥٤٦) وهو مؤسس المملكة الحديثة . وكان احموس هو الذي طرد الهكسوس من مصر ولحق بهم الى سورية التي منها اتوا وحمل بلاده على اتباع سياسة الفتوح والتوسع . وتابع خلفاؤه من بعده خطة التوغل في سورية وفلسطين . واجتاح تحوتمس الاول البلاد كلها حوالي ١٥٢٠ بدون مقاومة كبرى ووصل الفرات الاعلى « بلاد الرافدين » (نهارين) حيث ترك كتابة اثرية تشعر بفوزه وباعماله العظيمة . وقد استلفت الفرات الذي يجري باتجاه معاكس لمجرى النيل انظار المصريين كأمر غريب . وسرعان ما انتشرت اخبار متنوعة عن « هذا النهر المقلوب الذي تجري مياهه الى الجنوب بينما هي في الحقيقة تجري الى الشمال » . واصبح اسم هذا النهر « المياه المقلوبة[٣] » .

---

١) راجع : Adolf Erman, *The Literature of the Ancient Egyptians* (London, 1927), p. 19.

٢) Cf. David Paton, *Early Egyptian Records of Travel*, vol. i (Princeton, 1915), text v.

٣) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii §§ 73, 478.

معركة مجدّو

ولم تتوطد سيادة مصر نهائياً في سورية التي اصبحت جزءاً من الامبراطورية المصرية الناشئة الا بعد ان قام المحارب المشهور في مصر القديمة وهو تحوتمس الثالث (١٤٩٠ — ١٤٣٦) بست عشرة حملة حربية. وتتصف الحملة الاولى وهي اهم الحملات بسقوط مجدّو[1] في ١٤٦٨ حيث اصطدم الجيش المصري بحلف مؤلف من ٣٥٠ اميراً. وكان الهكسوس الذين طردوا حديثاً من مصر العمود الفقري لهذا الحلف وكان امير قادش على العاصي رئيسه. وقد دارت رحى الحرب تحت اسوار المدينة المحصنة تحصيناً قوياً. وعندما انسحبت القوات السورية امام هجوم العدو العنيف وجدوا ابواب المدينة مغلقة من قبل السكان. وكان على امـــير قادش نفسه ان يرفع الى فوق الاسوار وان تستخدم الثياب كحبال لرفعه. وبعد حصار دام سبعة شهور اضطرت المدينة التي كان «الاستيلاء عليها كالاستيلاء على الف مدينة» الى التسليم بعد ان فتك فيها الجوع. ووقع الامراء على قدمي فرعون «يطلبون النَفَس لمنخرهم». واستولى المصريون بطمع على كمية من الغنائم تكاد لا تصدق وتتألف من: ٢٠٤١ حصاناً و ٩٢٤ مركبة (منها ٣٢ لها تراكيب مصنوعة من الذهب والفضة) و ١٩٢٩ ثوراً و ٢٠٠٠ من الماشية الصغيرة و ٢٠،٥٠٠ من الحيوانات الاخرى و ٢٠٠ درع وعدد كبير من الاسلحة الثمينة. وصادروا من القصر الملكي ٨٧ ولداً و ١٧٩٦ من العبيد الذكور والاناث واباريق ذهبية وكمية من الاثاث والتماثيل. وقدم الامراء المغلوبون على امرهم رهائن[2].

قرر سقوط مجدّو مصير فلسطين. وتقدم تحوتمس المعروف بنشاطه نحو الشمال مسافة ٧٥ ميلاً حتى وصل منطقة لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وبنى حصناً. وفي خلال حملته الخامسة استولى على ارواد وبذلك أحكم قبضته على السهل الفينيقي.

---

١) ان السحر الذي يحيط بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ حيث يرد باسم ارمجدون Armageddon. وقد وضع الرومان جيوشاً بقربها حيث توجد اليوم قرية تسمى اللجون (من اللاتينية legio). قارن مع سفر الملوك الاول ٩ : ١٥.

٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii. §§412-443; George Steindorff and Keith C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 53-56.

وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الرسمي الذي اعلن فيه سقوط هذه المدينة التجارية العظيمة الواقعة في جزيرة ارواد العبارات التالية :

انظر ! ان جلالته قهر مدينة ارواد وما فيها من قمح وقطع جميع اشجارها الجميلة . انظر! لقد كان فيها محاصيل كل بلاد زاهي. لقد كانت جنائنهم ملأى بثمارها ، وخمورهم كانت في معاصرهم كالمياه الجارية، وحبوبهم على الجلول كانت اكثر من رمال الساحل. وقد غُمر الجيش بالحصة التي نالها (١)

ويذكر تحوتمس بعد ذلك الجزية التي احتوت على العبيد والخيل والمواشي وصحون الفضة والبخور والزيت والعسل والخمر والنحاس والرصاص والحجارة اللازوردية ، والصوان البلوّري الاخضر (فلسبار) والحبوب وارغفة الخبز والثمار وينتهي بهذه الكلمات : «انظر! ان جيش جلالته كان يسكر ويمسح بالزيت كل يوم كما لو كان في عيد في مصر[٢]» .

قادش

وقد اصاب سميرا Simyra جارة ارواد المصير نفسه في حملة تالية . اما قادش[٣] التي كانت مصدر الاضطراب الرئيسي فقد استولى عليها تحوتمس اخيراً ولكنه اضطر بعد اثنتي عشرة سنة ان يتوجه ضدها من جديد. وعندما لاحظ امير قادش ان المركبات الحربية المصرية يجرها خيول فحول لجأ الى حيلة واطلق فرساً اتجهت رأساً الى وسط الخيول فسببت تشويشاً هدد نظام المعركة . ولكن امنمحب Amenemhab القائد ورفيق تحوتمس انقذ الوضع حين قفز من مركبته وسيفه في يده «وشق بطنها وقطع ذنبها ووضعها امام الملك[٤]» .

نهارين

كانت الحملة الثامنة التي اسفرت عن انضمام منطقة الفرات من اعظم حروب تحوتمس في آسيا . وقد توج هذه الحملة باقامة لوحة للحدود شرقي الفرات الذي عبره

١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 461.

٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 462.

٣) وهي رسوم تل النبي مند جنوبي بحيرة حمص . انظر : Dussaud, pp. 106-108.

٤) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 589.

غالباً عند كركميش ولوحة اخرى في جوارها قرب تلك التي اقامها والده تحوتمس الاول . ونهب بلاد ميتاني في طريقه . وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المـــدن ويخربها ، ويقطع اشجار البساتين ، ويقتلع الذرة ويترك الارض قفراً . وربما قام باكثر من حملة على نهارين وفي احدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الارز في الجبال شرقي جبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش الى نهارين . وفي طريق عودته بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعاً من الفيلة وكان احدها على وشك قتله بضربة من نابه لولا يقظة امنمحب الذي اسرع لقطع خرطومه بضربة من سيفه[١] .

تشبه مغامرات امنمحب عدداً من المغامرات الاخرى الـــتي جرت للجنود المصريين في سورية. وقد وصلتنا احداها في قصة استيلاء قائد آخر من قواد تحوتمس اسمه جهوتي Djehuti على مدينة يافا[٢] وانتقلت الى القصص الشعبية . فقد دعا هذا القائد امير يافا الى مأدبة وسقاه الخمر حتى سكر ثم قتلوه . وقيل لاميرة يافا ان زوجها قتل جهوتي وسيعود ومعه ٥٠٠ كيس من الغنائم . وعلى ذلك فقد فتحت ابواب المدينة وخرج من الاكياس ٥٠٠ جندي مصري كانوا ضمنها فهاجموا الحامية وتغلبوا عليها . واخبر جهوتي الملك عن سقوط يافا بما يلي :

> افرح ! ان اباك الصالح آمون قد سلمك العدو في يافا وكل شعبه ومدينته . ارسل من يأخـــذهم كأسرى حتى تمـــلأ بيت ابيك آمون راع ملك الآلهة بالعبيد الذكور والاناث الذين سيركعون تحت قدميك الى ابد الآبدين (٣).

سجل تحوتمس انتصاراته على جدران معبده في طيبة وذكر اسماء المدن التي فتحها . وتشهد لائحة الغنائم التي حملها معه من عاج وابنوس وحلي وفضة وحجارة كريمة وخشب الخرنوب المطلي بالذهب بغنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة . ولا بد

---

١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 588.

٢) بالمصرية iapu, yapu ، من الفينيقية يافي yāfi بمعنى جيـــل ، ومنها أتت اللفظة العبرية yāfo و Joppa وهي يافا الحديثة .

٣) راجع : C. W. Goodwin in *Transactions of the Society of Biblical Literature*, vol. iii (1874), pp. 340-48; G. Maspero, *Etudes égyptiennes* (Paris, 1879), vol. i, pp. 53-72; Steindorff and Seele, p. 58.

ان المنطقة الساحلية كانت كثيفة السكان . وقد وضع الكهان هذه الكلمات التالية على لسان الاله آمون حامي تحوتمس بشكل اغنية للنصر :

لقد عبرت مياه المنحنى العظيم لنهارين
في النصر والقوة اللذين منحتهما لك
انهم يسمعون صرختك للحرب ويزحفون الى اوكارهم
انني انزع من منخرهم نسمة الحياة واجعل
رهبة جلالتك تخترق قلوبهم
لقد اتيت لاجعلك تدوس زعماء جاهي [زاهي]
انني اطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها (١) .

وقد بدأ تحوتمس في علاقاته مع سورية المقهورة سياسة أخـــذ ابناء الامراء المحليين لينشأوا على روح الصداقة مع مصر واعادتهم بالتدريج ليحلوا محل الجيل القديم المعادي لمصر[٢]. غير ان ذلك لم يبدل الامور كثيراً . وبما ان السوريين لم يكونوا قادرين على مقاومة الجيوش المصرية مقاومة متواصلة فانهم لجأوا الى عملية الاسراع في تأدية الجزية والخضوع عند اقتراب العدو والتوقف عن ارسال هداياهم حالمـــا يدير العدو ظهره . ولمدة حوالي نصف قرن بعد معركة مجدو اتت القوى المصرية المسلحة الى سورية وعادت منها عدة مرات . والحملات المتكررة كانت ضرورية ليس لاخضاع الجماعات المتمردة فحسب بل ايضاً لاجل استمرار وصول الضرائب لخزينة مصر . وكان ارتقاء فرعون جديد الى العرش وخاصة اذا اعتبر اضعف من سلفه مناسبة للقيام بثورة جديدة . وهكذا فان البلاد اصبحت فقيرة من الوجهة الاقتصادية وعاجزة عن الدفاع عن نفسها عسكرياً ضد الدول الجديدة الناشئة في شماليها .

انحطاط السيادة المصرية

كان الوضع كذلك عندما وصل امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧١ — ١٣٥٨)

---

١) Steindorff and Seele, p. 62.

٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 467.

الى العرش وكان من اكثر شخصيات التاريخ القديم جاذبية . ولم يكن اهتمام امنحوتب موجهاً نحو قضايا الدولة وانما نحو القضايا اللاهوتية . وكان في ذلك متأثراً على ما يظن بزوجته الجميلة والموهوبة نفرتيتي التي يعتقد البعض انها كانت من اصل سوري[١] . وتشير مراسلات تل العمارنة الى انه قبل موته كانت فلسطين قد خرجت عن طاعة مصر بصورة تامة . وظلت حرة حتى السنة الاولى من حكم ستي الاول (١٣١٧ — ١٣٠١) من السلالة التاسعة عشرة . واظهر رعمسيس الثاني (١٣٠١ — ١٢٣٤) من السلالة نفسها جانبا من الروح الحربية التي اتصفت بها السلالة السابقة . ووصلت حملاته الاولى حتى بيروت . وعلى بعد بضعة اميال الى شمالي هذه المدينة عند مصب نهر الكلب[٢] حيث تصل الجبال الى البحر خلد رعمسيس ذكرى حملته بنقش ثلاث كتابات في الصخر الكلسي وقد زالت معالمها الآن حتى ان الكتابة اصبحت غير مقروءة . وكأنما دشن بذلك بدء سلسلة من الكتابات في ذلك الموقع استمرت حتى عصرنا هذا منها كتابة تركها الحلفاء في عام ١٩٤٢ وكتابة لبنانية في ١٩٤٦[٣] مما جعل من هذه الواجهة الصخرية متحفاً في الهواء الطلق . وبين الكتابات الاشورية الست فان كتابة اسرحدون (٦٧١ ق . م .) وحدها هي المقروءة . ثم تأتي بعدها كتابة بابلية حديثة من عهد نبوخذنصر وكتابة يونانية انمحت وكتابات لاتينية متعددة تركها كركلا (وليس الفيلسوف ماركوس اوريليوس) وكتابة عربية . وقد ازال الفرنسيون احدى اللوحات المصرية المكتوبة ونقشوا عليها ذكرى احتلالهم لبنان في ١٨٦٠ — ٦١[٤] . وهنالك كتابة افرنسية اخرى تركها الجنرال غورو الى جانب كتابة في الانكليزية من عهد الجنرال اللنبي .

---

١) وتمثالها النصفي الذي كان في متحف برلين حتى عصر حديث يحتفظ في الوانه اللطيفة بصورة جميلة للملكة . وقد وجدته الجيوش الاميركية في مخبأ في ١٩٤٥ .

٢) سمي كذلك بسبب كلب محفور في الصخر ظل قائماً لمدة عدة قرون كحارس للمضيق . وتقول الاسطورة ان صراخه حين اقتراب العدو كان مرتفعاً حتى انه كان يسمع في كل المنطقة . وقد قذف المسلمون الذين يكرهون التماثيل هذه الصورة المنحوتة في النهر . وقد اخرج الاوستراليون في ١٩٤٢ ما يمكن ان يكون الكلب الاصلي وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت .

٣) تخلد ذكرى جلاء الجيوش الاجنبية واكثرها افرنسية عن لبنان .

٤) Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mündung des Nahr-el-Kelb* (Berlin, 1922).

واستمر انحطاط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين . ولدينا من نهاية هذه الفترة قصة حية تتخذ شكل تقرير سلمه الى فرعون حوالي ١١٠٠ ق. م. موفده ون آمون Wenamon الذي ارسل الى سورية ليأتي بالاخشاب لاجل زورق آمون المقدس . وتبرهن المعاملة المزرية التي نالها على يد امير جبيل ، اذا كانت تاريخية صحيحة ، ان ممثل مصر لم يعد بامكانه فرض احترامه على حاكم سوري . ويقول ون آمون في معرض روايته ما حصل : « لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرفأه وكان يرسل الي كل يوم وبدون انقطاع من يقول : اذهب من مرفأي[1] » . واصبح ون آمون عاجزاً امام زكر بعل الحاكم الوطني بعد ان يئس من بعثته وخاف على حياته . وكان يجلس هناك على الساحل ويتحسر بسبب مصابه . وكان معه ذهب وفضة ولكن اوراق الاعتماد اللازمة لم تكن معه . وفي وقت ما ارسل له الامير مغنية مصرية لتروح عنه . واخيراً يرق قلب زكر بعل وعند عودته من الطقوس الصباحية في الهيكل يمنح المندوب التعب القلق مقابلة وهو « جالس في غرفته العليا مسنداً ظهره الى نافذة بينما امواج البحر السوري العظيم تتلاطم على الصخور تحته» . ويعلن الحاكم اثناء المقابلة : « اما انا فانني لست بخادمك ولا بخادم الذي ارسلك . واذا ناديت جبال لبنان فان السماوات تنفتح وتأتي الاخشاب هنا على ساحل البحر[2] » . ويعترف زكر بعل بتفوق مصر الحضاري ولكنه يكره فكرة السيادة على منطقته . واخيراً يسمح زكر بعل بالتخلي عن الاخشاب بعد تسلم مبلغ اكبر من المال .

وعلى ذلك فان سورية التي كانت تحكم كمقاطعة مصرية على الحدود منذ نهاية عصر الهكسوس في اوائل القرن السادس عشر قد اصبحت خارجة عن الامبراطورية في خلال القرن الثاني عشر . وفي هذه المدة كان الحثيون قد وطدوا اقدامهم في القسم الشمالي للبلاد بينما الآراميون اصبحوا في سورية الداخلية والعبرانيون في سورية الجنوبية والفلسطينيون على الساحل الجنوبي .

---

١) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 569.

٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 577.

وحتى عندما كانت سورية ضمن الامبراطورية المصرية فان الادارة الامبراطورية كانت تهدف بوجه الاجمال الى المحافظة على النظام والسيطرة على الطرق الرئيسية وطلب الجزية . وكانت تبلغ الهدفين الاولين بواسطة الحاميات بينما الهدف الثالث كانت تحققه على يد عدد من الموظفين المقيمين. وكان المقيمون المصريون في المدن الهامة يعينون مفتشين متجولين ليقوموا بجولات التفتيش. وكان الممثل الرئيسي لفرعون في جنوبي سورية يقيم في غزة . وكان يتبعه المفتشون المختصون بجمع الضرائب والحكام المحليون المكلفون بشؤون الحاميات في بعض المدن. واما تفاصيل الادارة الداخلية فانها كانت بيد زعماء وطنيين يسيطرون على قواتهم المسلحة .

التأثير السوري في مصر

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائــــل تستلفت النظر بصورة اوسع عن التأثير السوري في مصر. ويتضح التأثير السوري في اقدس قصة مصرية وهي قصة آلام اوزيريس الذي قطع جسمه ارباً ووضع تحت شجرة الأثل في جبيل[١] . ويظن البعض ان الجثة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة اوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جـــداً[٢]. وقد ادخل الاله حورون Hawron وهو الاله الرئيسي في يبنة[٣] الى معابد مصر في ايام امنحوتب الثـــاني (حوالي ١٤٥٠ — ١٤٢٠) ويظهر في اسم حورمحب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق.م.) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم احد ابناء رعمسيس الثاني كان ميري استروت (Meri-Astrot) اي محبوب عشتاروت . وكان يوجد في نوكراتس التي ربما كانت مستعمرة فينيقية معبد لافروديت — عشتاروت في عام ٦٨٨ ق. م.

---

١) انظر : Plutarch, *De Iside et Osiride*, § 15. ونبات الـ tamarisk هو بالعبرية اشل وبالعربية اثل وفي المصرية أسر asr' وكانت هذه الشجرة تتصل باله الاموات . وكانت الشجرة التي دفن تحتها شاول وابناؤه (صموئيل الاول ٢١ : ٣٣) هي شجرة الاثل .

٢) Garstang, *Heritage*. p. 61.

٣) سفر اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٦ وتقع يبنة على بعد تسعة اميال شمالي أسدود . وكان حورون يعتبر مساوياً للاله ايل على ما يظن .

وهيراكلس الذي كرس له هيكل في كانوبُس Kanopus[١] – وهي ايضاً مستعمرة فينيقية على ما يعتقد – كان بدون شك الاله الفينيقي ملقارت .

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر اكبر من الاقبال على الفتيات المصريات في سورية . وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن واماء او زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى ان تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة افراد الطبقة العليا . وكان بين حريم الملوك والارستوقراطيين اميرات ميتانيات وحثيات وفينيقيات في كثير من الاحيان. وهنالك تباين واضح بين ملامح تحوتمس الرابع الدقيقة وانفه الاقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة تحوتمس الاول بفكه الكثيف وانفه القصير . واتت مع الزوجات الاجنبيات افكار اجنبيــة بين دينية وغير دينية . وقطع اخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الاولى تدل عــلى الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد . وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون اسلحة ثمينة مزخرفة وثياباً مزركشة واواني انيقة واثاثاً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة . واستعار المزينون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرائس النيل) والبابيروس (البردي) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنتيم) والسوسن والختمي نباتات زخرفية . وهم الذين كانوا ايضاً اول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في اوان معدنية[٢]. ولاجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في اسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل. ووجدت اوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب اسلوب سورية الشمالية كمستوردات في قبور الفراعنــة الاولين في ابيدوس. ووصل فن الدهان ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية[٣]. وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي اتت بها حوادث الحرب او عمليات التجارة والسياحة واخذوا يقلدونها . وفي

---

١) راجع : Herodotus Bk. II, ch. 113.

٢) Pierre Montet; *Les reliques de l'art syrien dans l'Egypte du nouvel empire* (Paris, 1937) p. 179.

٣) Childe, *New Light*. pp. 258-9.

حركة البعث في فترة سايتي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد اصالته في القرن التالي و كسفه الفن اليوناني.

ظهر العود لاول مرة في مصر بعد فتوحات تحوتمس الثالث . والاهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها . وتظهر القيثارة لاول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة . وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي اصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة .

ولم تكن القرون الاربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما ان اربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافيـــة لجعل سورية تركية . ولم يتأثر السكان الوطنيون الا قليلاً بالفكر واللغة المصريين . وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية او القبطية[1] . وفي العصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية . وكان معظم العلاقات التجارية بيد الفينيقيين. ويبدو ان اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد اخرى خاصة حيث الامطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة . وقد قال المثل الشائع ان من اعتاد على شرب ماء النيل يجب ان يشرب منه دائماً .

العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر

دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة اطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين[2] غير ان تأثير بلاد الرافدين الحضاري كان اعظم بكثير من تأثير

---

١) منها كلمة « ابنوس» اتت بطريق اليونانية ومنها كلمة ebony الانكليزية . وكلمة « واحة » بطريق القبطية ، وكلمة « نحس» بطريق القبطية واصلها كلمة تعني نوبي او اسود ومنها أتت الكلمة العبرية فنحاس ؛ وكلمة « طوب» بطريق القبطية وهذه الكلمة تشكلت منها كلمة adobe الانكليزية بطريق الاسبانية . وقد اخترع المصريون اسلوبهم الخاص في صنع الآجر ولم يختلف هـــذا الاسلوب منذ ذلك الحين .

٢) ان تعبير ميزوبوتاميا او ما بين النهرين يجب ان يطلق على المنطقة الشمالية بين الفرات والنجلة ويقابل الولاية الرومانية المعروفة بهذا الاسم والمعروف في العربية باسم الجزيرة . وقد سمى العرب القسم الجنوبي او بلاد بابل « العراق» . غير ان تعبير ميزوبوتاميا يطلق بصورة عامة على البلاد كلها .

مصر . وكان السوريون اقرب الى الاشوريين البابليين منهم الى المصريين من وجهة عرقية ولغوية وجغرافية .

كان السومريون وهم الشعب غير السامي الذي ابدع حضارة وادي الفرات يمثلون طيلة الالف الثالث ق. م. اهم جماعة حضارية في غربي آسيا كلها . واصبحت الكتابة المسمارية التي اخترعوها والافكار الدينية والروحية التي طوروها والآداب التي انشأوها جزءاً من تراث سورية بما فيها اسرائيل وذلك بواسطة خلفائهم البابليين والاشوريين . وصارت اللغة البابلية برموزها المسمارية الوسيلة الدولية للمراسلات الديلوماسية والتجارية في كل غربي آسيا ودخلت قصص بلاد الرافدين المتعلقة بآلهتهم ومنها قصة الخليقة والطوفان في الادب اليهودي المسيحي في سورية . وتحولت هذه القصص على يد كتّاب العهد القديم الى قطع ادبية تعتبر من اجمل الروائع الادبية التي عرفها الانسان. واستعارت سورية عدداً كبيراً من الكلمات الاكادية[1] بالاضافة الى الكلمات السومرية اثناء هذه الفترة[2].

كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع فيما وراء سورية. ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجاري تمر فيـــه معادن كيليكية الخام الى امبراطورية بلاد النهرين. وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور اور الملكية (حوالي ٢٧٠٠ ق. م.) تمر غالباً بهذه الطريق. وكان غوديا Gudea (حوالي ٢٣٥٠) امير لاغاش Lagash السومري يحصل على الارز من الامانوس بالاضافة الى الذهب من كيليكية . وتجار بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا

---

١) وهي لغة بابل واشور السامية الشرقية وسميت كذلك باسم اكاد Agade شمالي مدينة بابل ووردت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

٢) ومن هذه الكلمات hēkallu (هيكل) التي اتت مباشرة من السومرية (ɛ-gal بمعنى البيت الكبير) الى الكنعانية ؛ و kissa'u اي كرسي اتت من السومرية بطريق الاكادية . وتوجد اسماء متعددة للنباتات والمعادن من اصل اشوري بابلي ادخلت بطريق الفينيقية واليونانية الى اللغات الاجنبية مثل carob (الخروب) cassia (القثاء الهندي)، chicory (الهندباء) ، crocus (الكركم) ، gypsum (الجص)، hyssop (حشيشة الزوفاء) ، jasper (اليشب)، mandrake (تفاح الجن)، naphtha (النفط) ، nard (الناردين)، saffron (الزعفران)، sésame (السمسم). وكلمة «نجار» العربية اتت من naggāru السومرية الاكادية ، وكلمة «لوح» اتت من lī'u الاكادية .

الخشب المرغوب قد اكتشفوا المرتفعات المكسوة بالغابات في جبال سورية الشمالية حتى قبل ذلك العهد .

بابل

ويشك علماء كثيرون اليوم في ان تكون سورية الشمالية قد خضعت للحكم البابلي في اية فترة من النصف الثاني للالف الثالث. وسرجون الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية عظيمة في التاريخ السامي قد «غسل اسلحته في البحر[١]» كما جاء في احد النصوص وادعى السيطرة على جبال الارز ولكن تلك الجبال في هذه الحالة كانت الامانوس وليس جبال لبنان. واوصلته غزوته الى شمالي سورية. وربما كان خلفه الرابع نارام سين (حوالي ٢١٧٠) يعني جبال الامانوس او الجبال الواقعة شرقي بلاد اشور[٢] عندما ادعى الحكم على البلاد «حتى غابة الارز». ولم يسفر الضغط السياسي والعسكري الآتي من المناطق الشرقية عن نتيجة حاسمة الا عندما انهارت الدولة الحثية وظهرت قوة الدولة الاشورية. حينئذٍ اصبح من مبادئ سياسة حكام بلاد الرافدين ان يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية.

اشور

قامت اشور بمحاولتها الاولى السابقة لاوانها لاجل الظهور كدولة عظمى في عهد تغلات فلاسر الاول الذي غزا سورية في ١٠٩٤ واعلن نفسه فاتح آمورو بكاملها. وبعد ان اجتاز جبال طورس الى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولاء جبيل وارواد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كوريث الحثيين في سيطرتهم على سورية. وربما كانت جبيل لا تزال تحت حكم زكر بعل. وقطع الفاتح اخشاب الارز وارسلها الى بلاده لاجل هيكل آلهته. وفي سميرا ركب «بحر آمورو العظيم» الى البر وقتل بطريقه «حصان البحر» او درفيلاً[٣]. وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان .

---

١) Poebel, *Historical Texts*, pp, 175, 181.

٢) Gelb, *Hurrians and Subarians*, pp. 35-37.

٣) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 302.

واستولى الغزاة الآراميون على ممتلكات تغلات فلاسر عبر الفرات بعد مدة وجيزة وكان على احد خلفائه اشور ناصربال (٨٨٤ — ٨٥٩) ان يسترجعها. واتبع اشور ناصربال الطريق نفسها التي اتبعها اسلافه وزحف نحو سورية الشمالية ولكنه اتجه بعد ذلك الى الجنوب وعبر العاصي ودخل لبنان ونزل الى البحر بدون مقاومة. وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية وتبين فيما بعد ان ذلك الخضوع كان موقتاً. وكان ذلك اول غزو كامل لسورية من جهة بلاد الرافدين. ويقابل هذا الغزو ما تم على يد تحوتمس الثالث المصري قبل ستة قرون. ويعود الى اشور ناصربال وابنه ووريثه شلمناصر الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤) ذلك التنظيم العسكري الذي جعل من بلاد اشور سيدة آسيا الغربية.

اصطدم شلمناصر في معركة قرقر في وادي العاصي عـــام ٨٥٣ بتحالف دول سورية وعلى رأسها ملك دمشق الآرامي ومن افرادها آخاب ملك اسرائيل وممثلون عن صور وسائر دول المدن الفينيقية. وقد تم له تحطيم قوتها. ولكن يستدل على ان النصر لم يكن حاسماً كما ادعى في كتاباته الاثرية من انه اعاد الكرة عدة مرات بقصد اخضاع سورية وفلسطين. ولم يحصل على خضوع المدن الفينيقية الا في عام ٨٤٢. ويذكر في حولياته انباء انتصاره في هذه الكلمات :

في السنة الثامنة عشرة لملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة. وكان حزائيل ملك آرام يثق بجيوشه... ولكنني حققت سقوطه... وزحفت الى بعلي رأسي وهـــو رأس في البحر واقمت صورتي هناك. وفي ذلك الحين تلقيت الجزية من رجال صور وصيدا ومن ياهو ابن عمري (١).

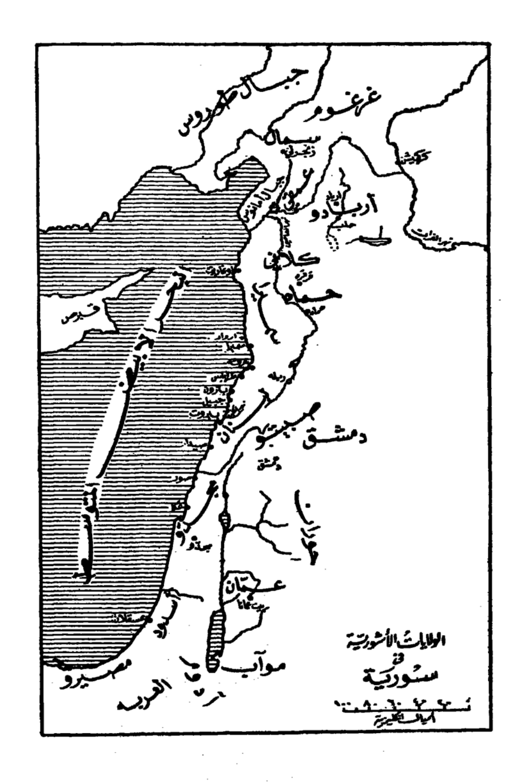
تلاشت الامبراطورية التي اقامها شلمناصر وابوه على حساب الدول السورية وغيرها ثم اعاد تأسيسها بعد قرن تغلات فلاسر الثالث[٢] ووريثه. وقد اقام تغلات فلاسر معسكره الرئيسي بين ٧٤٣ و ٧٤١ في أرباد Arpad[٣] ومن هناك ارسل حملات لاعادة فتح سورية او قام بقيادتها بنفسه. واجتاح ابنه شلمناصر الخامس

---

١) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 672. ويرجح ان يكون الرأس المشار اليه رأس الكرمل ولكن هذا الملك ترك دليلاً عن زيارته ايضاً عند نهر الكلب.

٢) وهو المذكور باسم Pul في سفر الملوك الثاني ١٥ : ١٩ ؛ قارن ذلك مع ١٦ : ٧.

٣) وقد ذكرت في النقوش الاشورية باسم Arpaddu. وورد ذكرها في اشعيا ١٠ : ٩ ؛ ٣٦ : ١٩ ؛ ارميا ٤٩ : ٢٣. وهي تل ارفاد الحديثة على بعد ١٣ ميلاً شمالي حلب.


جبال طوروس
غرغوم
سمأل
زنجرلي
أربادو
حلب
نهر الفرات
قبرص
حماة
دمشق
جبيل
بيروت
صيدا
صور
مجدو
عمان
مواب
مصيرو
العربية
الولايات الأشورية
في
سورية
أميال انكليزية

فينيقية ومدنها حسب الحوليات السورية التي ذكرها يوسيفوس[1]. وكانت صيدا وعكا وصور التي في البر ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المالية لصور التي في الجزيرة وزعامتها فاعترفت بالفاتح وسيادته واعطته اسطولاً مؤلفاً من ستين سفينة يعمل فيها نحو ثمانمائة مجذف فينيقي . وقد تفرق اسطول شلمناصر في معركة مع سكان الجزيرة ولكن عدداً كافياً من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل. وكانت الآبار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان واخيراً انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في ٧٢٢ بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها. وسنروي قصة حصار السامرة الذي بدأ في ٧٢٤ وتسليمها لخلفه سرجون الثاني في ٧٢٢ عند الكلام عن مملكة اسرائيل[2].

جاء الملك ايلو ايلي (لولي Luli بمعنى « المي هو الاله ») وهو ملك صور الميال الى مصر الذي دافع عن مدينته ضد الاشوريين وظهر كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني . ويبدو انه فرض سلطته على قسم كبير من فينيقية حتى انه حاول اخضاع قبرص. ولكن سنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١) ابن سرجون ووريثه طرد ايلو ايلي اخيراً عبر البحر الى قبرص ووضع مكانه الملك ايتبعل[3] ملك صيدا الميال لآشور. واحرق الفاتح الاشوري في اول الامر بيت ايلو ايلي الصيفي في لبنان وداس كرمه . وتسلقت جيوشه المنحدرات المرتفعة واستعانوا بالرماح والنبابيت وبالاستراحة تحت الارز حتى وصلوا الى قلعة على القمة المكللة بالثلج واقتيد حراسها مكبلين الى سنحاريب . ولا تزال ذكريات سنحاريب الذي « نزل كما ينزل الذئب الى الحظيرة » ماثلة حتى اليوم عند نهر الكلب حيث نقش على الصخور نقشاً يمكن مشاهدته . وتمكن سنحاريب من القيام بمغامراته في الخليج الفارسي بفضل بنائي السفن والملاحين الذين اخذهم من فينيقية .

وقامت صيدا التي خضعت لسنحاريب في ٧٠١ ضد ابنه اسرحدون في ٦٧٧ ولكنه هدمها وطرح سورها في الماء. وهرب ملكها عبد ملقارت الى عرض البحر

---

١) *Antiquities* Bk ix. ch. 14, § 2.

٢) انظر ما سيرد في الفصل الرابع عشر .

٣) ايتبعل بالفينيقية ايتوبعل itto-ba'al بمعنى « بعل معه » . انظر Luckenbill, vol. ii § 309.



نحت بارز لاسرحدون (الى الجبار) بجانب نحت تمثال رعمسيس الثاني عند نهر الكلب

ولكنهم اصطادوه وقطعوا رأسه. وبني حصن اشوري يسمى كار اسرحدون بجانب موقع صيدا بقصد القاء الرعب فيها. وسلّم ياكين ايل ملك ارواد مدينته ومعها ابنته. وخضعت مدن فينيقية اخرى تحت زعامة بعل ملك صور لاسرحدون. ووقعت معاهدة بين بعل واسرحدون ولكن ملك صور مزقها حالما شعر بان الوقت اصبح مناسباً لنزع النير الاجنبي. وهنالك نصب يقوم قرب نصب رعمسيس عند نهر الكلب يمثل اسرحدون واقفاً بجلال قرب كتابة اثرية تروي خبر الاستيلاء على ممفيس (في مصر) وعسقلان وصور[1]. وفي نصب آخر في زنجرلي (شمأل القديمة) غربي عينتاب في شمالي سورية يقف اسرحدون ممسكاً بحبل ربط به بعل ملك صور وترحاقا ملك مصر من الانف[2]. والواقع هو ان ترحاقا لم يقع قط في الاسر وهذا النصب كان يقصد منه الدعاية على الاغلب. وفي عهد اسرحدون وخلفه اشوربنيبال (٦٦٨ — ٦٢٦) فتحت مصر ووصلت الامبراطورية الاشورية وعاصمتها نينوى الى اقصى حدودها.

السيادة الكلدانية

ادعى الكلدانيون اصحاب دولة بابل الجديدة السيطرة على سورية كورثة الامبراطورية الاشورية. غير ان المدن الفينيقية لم تكن اقل تمرداً في عهد اسيادها الجدد منها في عهد الاسياد القدماء. وكانت مصر في هـــذه الاثناء قد تخلصت من الحكم الاشوري وبدأت تتنازع من جديد مع بلاد الرافدين على السيادة على سورية. وكانت المدن الفينيقية بوجه الاجمال اكثر ميـــلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية.

في عام ٥٨٧ ظهر نبوخذنصر بنفسه في شمالي سورية واقام معسكره في ربلة[3] في وادي العاصي ومن هناك ارسل قسماً من جيشه الى الجنوب للتغلب على المدن

---

١) ان هذا النصب هو الوحيد بين النصب الستة الاشورية عند نهر الكلب الذي يمكن قراءة كتابته. انظر: Luckenbill, vol. ii, § 582-585; Weissbach, pp. 27-30, pls. xi, xii, René Mouterde, *Le Nahr el-Kelb* (Beirut. 1932), p, 18, pl. vi.

٢) A. T, Olmstead, *History of Assyria* (New York), 1923), p. 384; cf. Hall, *Ancient History*, p. 499.

٣) وتمثلها قرية بنفس الاسم تقع على ٢١ ميلاً جنوبي حمص.

الفينيقية وفتح بلاد اليهودية نهائياً . وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة انتهى في ٥٧٢ خضعت صور[١] . وحارب اثناء ذلك ضد سورية المجوفة ومؤاب وعمون وسائر مناطق البلاد[٢] . وانتهت بالاستيلاء على صور آخر محاولات الحياة القوميـــة في فينيقية . وكانت المستعمرات اليونانية في هذه الفترة قد حلت محل المستعمرات الفينيقية وورثت نشاطها البحري ونشاط المدن الفينيقية الاصلية . وبذلك انتهى العالم الفينيقي الذي اشتهر بنشاطه وعلمه وحيويته ، ولكن الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته حتى فتوحات الاسكندر ولم يكن الآراميون الذين اتوا حديثاً ولا الاسرائيليون والفلسطينيون ليحدثوا تأثيراً كبيراً على هذه الشخصية .

التأثير الحضاري

اكتسب السوريون من الحضارة الاشورية البابلية عناصر كثيرة جداً من مادية ودينية ولغوية ونقلوها اخيراً بطريق اليونان الى سكان غربي اوربا . وقد اشرنا سابقاً الى المحراث الذي اخترعه سكان بلاد الرافدين وانتشر في بلاد الشرق الادنى[٣] . وادى استخدام المحراث الى انتاج نسبي اكبر في قطع الاراضي المزروعة وذلك بجعل استعمال القوة الحيوانية في الزراعـــة ممكناً . وكان الدولاب من الحسنات الاخرى التي منحها سكان بلاد الرافدين للشرق الادنى . وكان ظهور الدولاب مساعداً على انشاء نظام متقن للسفر والنقل . ولا يزال تقسيم اولئك السكان للزمن الى سنة مؤلفة من اثني عشر شهراً والى اسبوع مؤلف من سبعة ايام باقياً حـــتى اليوم . واول يوم في الاسبوع يسمى Sunday بالانكليزية لانهم كانوا يكرسونه لعبادة اله الشمس . واليوم الثاني (Monday) سمي كذلك بسبب تكريسه للاله القمر . ويوم السبت (Saturday) اكتسب اسمه من Saturn (زحل) . وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا يزال متصلاً بالتقويم القمري لهؤلاء الاقدمـــين . ونقل السوريون الى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور

---

١) انظر : سفر حزقيـــال ٢٩ : ١٨ ؛ Josephus, *Antiquities* Bk. x, ch. 11, § 1 do., *Apion* Bk. I, ch. 19.

٢) راجع : Josephus, *Antiquities* Bk. x, ch. 9. § 7. ، وهنالك نصبان عند نهر الكلب يصفان نشاطه الحربي والعمراني . انظر : Weissbach, p. 33.

٣) ان الكلمة المصرية التي تقابل «محراث» هي epi وهي الكلمة السومرية — الاكادية hebi.

الساعات ، ونظاماً للتنبؤ عن الخسوف والكسوف. وعلامات الابراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً نفس العلامات الاشورية. وكثير من انظمة الموازين والمقاييس قد اتى من البابليين بواسطة السوريين ، وهنالك شاهد لغوي لا يزال باقياً في كلمة « mina ».

الهكسوس

كان التغلغل المصري القديم في سورية قد توقف في مطلع القرن الثامن عشر بظهور مجموعة من الشعوب الغامضة الميالة الى الحرب والمعروفة باسم الهكسوس الذين سيطروا على سورية اولاً ثم على مصر نفسها. ويرجع هذا الاسم الى المصرية heku shoswet [١] ومعناها «حكام البلاد الاجنبية» ولكن المؤرخ المصري في العصر المتأخر مانيثو Manetho وهو اول من استعمل هذا الاسم اعتبر ان معناه « الملوك الرعاة[٢] ». وبعد ان كان هذا اللقب يطلق على الملوك الهكسوس انتقل فيما بعد الى الشعب بكامله. كان الهكسوس بالاصل حشداً او مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفتها منطقة شرقي البحر المتوسط الى مصر ثم اصبحوا يمثلون حركة تضم عدا عن الساميين، الحوريين والحثيين والميتانيين وهم من غير الساميين. كذلك كان جماعة الخابيرو بينهم. وربما كان لهذه الحركة صلات بحركة الهنود — الايرانيين او الهنود الاوربيين في الشمال ومن ضمنهم الكاشيون في بلاد الرافدين. ويمكن الاستدلال على ان العنصر الرئيسي كان كنعانياً او امورياً من اسماء حكامهم الاولين كما تظهر على الابنية او تماثيل الجعلان. هذه الحركة هي التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير من الحثيين والحوريين وربما من اليبوسيين Jebusites والفرزيين Perizzites وغيرهم من غير الساميين جنوباً حتى فلسطين. والادلة القليلة المتعلقة بهياكلهم العظمية تشير الى ان نموذج البحر المتوسط القديم قد حل محله جزئياً في هذه الفترة نموذج شبيه بالالبي[٣].

ويشهد على اتصال الهكسوس بالحضارة الهندية الاوربية في الشمال استخدامهم

١) Steindorff and Seele, p. 24; cf. Robert M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (Chicago, 1939) pp. 6-7.

٢) Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14.

٣) Engberg, p. 41.

للحصان وهو شيء ربما شارك فيه الكاشيون . والى جانب الحصان الذي ادخلوه الى سورية ومنها الى مصر فقد اتى الهكسوس بالمركبة الى كلا البلدين[١] ولم يستخدم الحصان للركوب . وكانت المركبة التي تجرها الخيل من ادوات الحرب ، ولا بد ان ظهورها ترك نفس التأثير الذي تركته الدبابة او الغازات السامة او اي « سلاح سري» آخر في الحرب العالمية الاولى. والحصان نفسه القى الرعب في قلوب السكان لانهم لم يشاهدوه من قبل . فلا عجب اذا اهتم الهكسوس بدفنه في قبر خاص او مع صاحبه كما تدل البقايا في تل العجول او غزة القديمة. وفي بعض الحالات كان يقدم الحصان كذبيحة ويؤكل لحمه[٢].

وبين الاسلحة الجديدة الاخرى التي ظهرت اتى الهكسوس بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب الذي كان قد ظهر لاول مرة في بلاد الرافدين في عهـــد سلالة اكادية في القرن الثاني والعشرين . وكان تفوق الهكسوس في السلاح يرتكز فوق ذلك على استعمالهم البرونز الذي كانت تمر تجارتـــه في شمالي سورية . وبلغت صناعة المعادن في عهدهم ذرى جديدة في سورية ومصر. وتقدمت صناعة الحلي والخزف والعاج والنقش تقدماً بارزاً . وكان الحفر في العظم معروفاً في سورية منذ العصر الحجري ولكن صناعة التنزيل ادخلت غالباً في هذا العصر[٣] وكانت الاشياء المنزلة في اول الامر ذات رسوم بسيطة من خطوط ودوائر. ولا تزال صناعة التنزيل التي تقوم على ادخال قطع من العظم او العاج بقصد الزخرفة في الصناديق الخشبية او قطع الاثاث صناعة فنية مزدهرة في دمشق . وتظهر افكار جديدة في صنع الخزف في عهد الهكسوس. وبلغت صناعـــة الخزف وهي من اكثر الصناعات نجاحاً في فلسطين ذروتها قبل نهاية هذه الفترة .

وانشأ الهكسوس نموذجاً خاصاً من المدينة المحصنة لاجل ايجاد تسهيلات لحماية مركباتهم وابوابها لان الحصن الكنعاني الاعتيادي لم يكن بامكانه تأمين ذلك . وكان هذا النموذج الجديد عبارة عن سياج مستطيل طوله نحو نصف ميل تحيط به

---

١) والكلمة المصرية المستخدمة لاجل مركبة هي كلمة « مركبة » السامية .

٢) Petrie, *Ancient Gaza*, vol. i, p. 4, pls. viii, ix, lvii; vol. ii, pp. 5,14; vol. iv, p. 16.

٣) Burrows, p. 190.

اسوار مرتفعة وكثيفة ومنحدرة من الطين المرصوص القاسي . ولزيادة الحرص كانوا كثيراً ما يحفرون خندقاً حوله . وفي سورية تمثل قطنة Qatna وهي على الغالب عاصمتهم فن العمارة عند الهكسوس . وفي قادش أثر لهذا النوع . وفي كركميش يظهر الموقع اعمال التحصين ولكن المخطط ليس مستطيلاً . وفي فلسطين تظهر مواقع هازور[١] وحصن شكيم[٢] مخطط الهكسوس المستطيل . وكانت لاكيش وشاروحن ايضاً من مدن الهكسوس. واريحـــا كانت من حصون الهكسوس من حوالي ١٧٥٠ حتى ١٦٠٠[٣]. وكانت بيت شمش تحت ادارة الهكسوس في هذه الفترة[٤] .

وفرض الهكسوس في سورية وفلسطين طبقة اقطاعية حاكمة على السكان المحليين. وكان مجتمعهم منظماً تنظيماً ضعيفاً في دولة اقطاعية نوعاً تتمركز فيها الـــثروة في ارستوقراطية مؤلفة من محاربي المركبات بصورة خاصة. وكان النظام تسيطر عليه الصفة العسكرية. وحضارتهم في سورية تشمل القرنين الثامن عشر والسابع عشر.

الهكسوس في مصر

وتسلل الهكسوس بصورة تدريجية الى مصر حيث ظهر اثرهم منذ ١٩٠٠ ق.م. في اواسط السلالة الثانية عشرة ولكنهم لم يستولوا على السلطة الا في ١٧٣٠. ويقول المؤرخ ماتيتو في روايته لهذا الحادث :

> لقد نزلت علينا لفحـــة من غضب الله . فقد تجرأ شعب وضيع الاصل من الشرق لم يتنبأ احد عن قدومه على غزو بلادنا فسيطروا عليها بالقوة وبدون صعوبة حتى ولا معركة . وبعد ان تغلبوا على حكامنا فانهم احرقوا المدن بوحشية وخربوا هياكل الآلهة وعاملوا السكان كلهم بمنتهى القسوة[٥] .

---

١) ومعناها «جدار او سياج» وهي اليوم تل القدح شمالي بحيرة طبرية .

٢) وهي اليوم «البلاطة» خارج نابلس الحديثة .

٣) Garstang and Garstang, *Story of Jericho*, p. 1.

٤) Elihu Grant, *Rameileh: Being Ain Shems Excavations*, pt. 3 (Haverford 1934), p. 11. وتمثل اسم بيت شمش قرية عين شمس الخربة الكائنة على بعد عشرين ميلاً غربي القدس على طريق يافا — الخليل . وقرب عين شمس يقوم تل الرميلة وهو موقع بيت شمش القديمة .

٥) Josephus, *Apion* Bk. i, ch. 14.

ويتضح ان دخول الهكسوس الى مصر لم يكن شراً مطلقاً فقد ادخلوا الحصان واشياء اخرى تظهر لاول مرة على الآثار المصرية. واقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع الى عصر الهكسوس في مصر في القرن السابع عشر[١]. واعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية وضعت في ١٥٨٠ تحت حكم الهكسوس[٢]. وجعل الهكسوس الههم بعل معادلاً للاله المصري سيت ونقلوا عبادته الى فراعنة السلالات التالية وخاصة الرعامسة الذين قد يرجع اصلهم الى الهكسوس[٣] كذلك ادخلوا بين سائر الآلهة اخت بعل ورفيقته عنات وجعلوا عشتاروت معادلة لايزيس. ويعتقد ان سكنى اسرائيل في مصر وتدرج يوسف الى السلطة من الحوادث التي تمت في فترة الهكسوس.

افاريس

كانت عاصمة الهكسوس في مصر مدينة افاريس Avaris[٤] في الدلتا ومنها بسطوا حكمهم في مصر الوسطى. وقد حكمت اول سلسلة من الملوك السوريين هناك قبل السلالة الخامسة عشرة وكانت اسماؤهم كنعانية او امورية واضحة مثل عنات هار ويعقوب هار (يعني: ليحمي هار اله الجبل). ويعقوب هـذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوراة. وكان مـلوك السلالة الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الهكسوس واعظمهم سلطة في السلالة الخامسة عشرة هو خيان الذي نجح كما يبدو في توحيد سورية ومصر في امبراطورية واسعة لمدة قصيرة على الاقل. وآثاره مبعثرة بين بلاد بابل حيث وجد اسد يحمل اسمه وكريت حيث يظهر اسمه على غطاء من الالباستر. وتشبه ذلك في كثرتها آثار ملك آخر من هذه السلالة وهو آبوفيس

---

١) James H. Breasted, *The Edwin Smith Surgical Papyrus*, 2 vols. (Chicago, 1930).

٢) T. Eric Peet, *The Rhind Mathematical Papyrus* (London 1923).

٣) Albright, *From Stone Age*, p. 169

٤) ان مدينة افاريس وهي مدينـة المنابر التي بناها الاسرائيليون لرعمسيس الثاني وتسمت باسمه (سفر الخروج ١ : ١١)، وتانيس Tanis في العصر الكلاسيكي، وتنيس التي ذكرها العرب في العصور الوسطى، وصوعن Zoan المذكورة في التوراة (عدد ١٣ : ٢٢) كلها اشكال مختلفة لنفس المدينة. وموقع المدينة اليوم هو «صان الحجر» الذي يذكرنا باسمها العبري (صوعن).

Apophis الاول . ويبدو ان الهكسوس كانوا في هذا العهد قد اقتبسوا اللغـة المصرية واستعملوا معها الاسماء المصرية.

وبعد قرن ونصف من حكم الهكسوس البغيض (حوالي ١٧٣٠ – ١٥٨٠) بدأت حرب التحرير بصورة جدية عن يد امير من طيبة اسمـه احموس Ahmose الاول مؤسس السلالة الثامنة عشرة الذي بعد مهاجمات متكررة كسب معركة اڤاريس الحاسمة وطرد الاجانب من البلاد . وانسحبت قواتهم المسلحة الى سورية حيث كانوا على رأس اتحـاد من الامراء الساميين . ولم يدخر احموس وقتاً في ملاحقتهم. واول مكان وقفوا فيه وقفة صامدة كان في معقلهم الجنوبي في شاروحن Sharuhen[1] . وكانت مقاومتهم عنيدة حتى ان الحصار دام ثلاث سنوات[2]. وقد بدأ بحملات احموس وخلفائه في سورية اتجاه جديد في سياسة مصر الخارجية استمر في السنين التالية . وكان تحوتمس الثالث (م ١٤٤٧) هو الذي سدد الضربات القاضية لسلطة الهكسوس في سورية . وعمل المصريون ما في وسعهم للقضاء على آثار اعدائهم ولهذا السبب بقيت معلوماتنا عن الهكسوس ناقصة لهذا الحد .

الحوريون

وكانت من الجماعات التي تألف منها خليط الهكسوس جماعة الحوريين وهم شعب لا سامي ولا هندي اوربي ولا يزال اصله مجهولاً. وكانت حضارتهم من اكثر العناصر حيوية في اواخر عصر الهكسوس والفترات التالية مباشرة . وقد اتى الحوريون من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة اورمية وجبال زاغروس ، وفي اواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ومنها اتجهوا الى سورية الشمالية حيث اسسوا احدى الممالك القوية في الشرق الادنى . وكانت الاموريون قبل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سورية. وقد يكون ظهور الحوريين في بلاد الهلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي اتت بالهنود الايرانيين الى فارس والهند والتي فرضت نزول الكاشيين من زاغروس الى بلاد بابل .

---

١) وقد اقترح ان يكون موقعها تل الفرعة في وادي غزة شمال غربي بئر السبع .

٢) Breasted, *Records*, vol. ii, § 13; and *A History of Egypt* (New York, 1905) p. 227 وتقول هذه المراجع ان مدة الحصار كانت ست سنوات مما يجعله اطول من اي حصار قبله في التاريخ .

مملكة ميتاني

وقـــد نجح الحوريون حوالي ١٥٠٠ ق. م. في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها ان امتد حكمها من البحر المتوسط الى مرتفعات ميديا وتضم بلاد اشور . وكانت عاصمتها واشوكاني ويظن ان موقعها هو الفخّارية على الخابور شرقي تل حلف وحران . وكان مركزها الرئيسي في بـــلاد الرافدين أرَبخا Arrapkha (كركوك الحديثة) وقد جرت الحفريات حديثاً في ضاحيتها نوزي[١]. وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين . ويبدو ان نفس البلاد التي تشير اليها الواح تل العمارنة باسم سوبارتو او «بلاد السوباريين» . والسوباريون وهم شعب آخر غير سامي كانوا غالباً بين سكان البلاد قبل وصول الحوريين[٢]. وكان الحوريون في ميتاني يشكلون اكثرية السكان ولكن الارستوقراطية والملوك كانوا هنوداً اوربيين . وكان ملوك ميتاني في معاهداتهم مع جيرانهم يتوجهون الى ميترا وڤارونا Varuna وإندرا وغيرها من الآلهة التي تعبد في الهند . واسماء الملوك مثل توشراتا هي اسماء هندية اوربية واضحة .

وكان توشراتا هذا اشهر الحكام الميتانيين . وقد وجدت تحارير كثيرة في تل العمارنة موجهة منه الى امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧٥) والى امنحوتب الرابـــع (توفي ١٣٥٨). والتحارير مكتوبة بالاكادية وهي اللغة الدولية في ذلك العصر ، غير ان تحريراً واحداً كتب بالحورية لغة الدولة الرسميـــة . وكانت احدى شقيقات توشراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما ان احدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع .

ويخاطب توشراتا امنحوتب الثالث في احدى رسائله بهذه الكلمات :

الى ميمّوريا الملك العظيم ، ملك مصر ، اخي ،

صهري الذي يحبني والذي احبه ،

---

١) وبصورة اصح نوزو وهي اليوم يورغان تبه Yorgan Tepe على عشرة اميال شرقي كركوك حيث يبدأ خط الانابيب الى حيفا وطرابلس .

٢) Gelb, pp. 1-2, 48.

هكذا يقول توشراتا الملك العظيم ، حموك ،
الذي يحبك ، ملك ميتاني ، اخوك :
انني في حالة حسنة . عسى ان تكون في حالة حسنة ! وبيتك ،
وشقيقتي وسائر نسائك واولادك ،
ومركباتك وخيولك وجيشك ،
وبلادك وجميع ممتلكاتك . ليكثر السلام عليك ![1]

كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين الدولة الحثية الناشئة في الشمال والامبراطورية المصرية الآخذة في التوسع في الجنوب. وتفيدنا الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد ان تحوتمس الاول وتحوتمس الثالث وامنحوتب الثاني قاموا بحروب موفقة ضد نهارين[2]. وقد هوجم توشراتا الصديق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحثي العظيم شوبيلوليوما الذي تابع فتوحاته اثناء حكم ماتيوازا ابن توشراتا. وقد نصت معاهدة بين شوبيلوليوما وماتيوازا على احتفاظ الفاتح الحثي بشمالي سورية على ان تكون حدودها الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب . اما القسم الباقي من المملكة فقد اصبح تابعاً فيما بعد للملك الاشوري أدد نيراري (١٣٠٤ — ١٢٧٣) ثم اصبح قسماً من الامبراطورية الاشورية المتوسعة في عهد وريثه شلمناصر الاول[3]. وهكذا زالت دولة كانت في احد العصور تشارك مصر والدولة الحثية السلطة العالمية .

اللغة الحورية

لم يتمكن العلماء بعد من تفسير رموز اللغة الحورية ولكنها كما يبدو ليست بلغة سامية ولا هندية اوربية. واقدم وثائقها هي ست الواح دينية من ماري والواح قليلة اخرى من الألخ Alalakh (تل العطشانة) في سهل انطاكية. وقد بنيت

١) Bezold, No. 8; Mercer, No. 19.
٢) انظر ما جاء في ص ١٤١ .
٣) Gelb, pp. 76, 80-81.

المؤسسة الحورية في الألخ على مؤسسة امورية سبقتها . وترجع هذه الالواح الى نحو اربعمائة سنة قبل المواد الحورية التي وجدت في بوغاز كوي ورأس الشمرة. واكتشفت في رأس الشمرة بعض الالواح الحورية وقاموس سومري — حوري . واستخرجت من مدينة قطنة Qatna لائحة باسماء الاعلام الحورية. والعدد الكبير من الالواح المكتشف في نوزي من القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الاكادية كتبة حوريون استعملوا بعض كلمات حورية هنا وهناك. وقد عرفت معاني هذه الكلمات من النص الاكادي الذي وجدت فيه. وتلقي محفوظات نوزي ضوءاً جديداً على طرق المعيشة في عهد اسلاف الشعب العبراني وان كان هذا الامر يبدو مستغرباً . من ذلك ان عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجة العاقر ان تزود زوجها بجارية تلد له اولاداً[١].

بقايا الحوريين

وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سورية في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ان المصريين اخذوا يطلقون اسم خورو Khuru على بلاد كنعان . وتركت



تمثال نصفي لاحد الهكسوس وجد في غزة ويوضح شكل الوجه الحوري

١) قارن مع سفر التكوين ١٦: ٢-٣ .

حضارتهم المادية بقايا من الخزف المدهون بنماذج بيضاء على ارضية قاتمة وآثار نوع خاص من البناء وفن النقش على الاختام. والحوريون Horites المذكورون في العهــــد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الاهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الحوريين (Hurrians). وقد اتضح ان ترجمـــة هذا الاسم «بساكني الكهوف» هي ترجمة خاطئة. وكان الحوّيون Hivites غالباً هم انفسهم الحوريون.

ويعتقد ان الحوريين هم الذين اعطوا الاشوريين تلك الملامح الـــتي تميزهم عن ابناء عمهم الساميين في الجنوب اي البابليين والملامح السامية المزعومة التي يتصف بها اليهود هي بالحقيقة حثية حورية. وبعد الفتح الحثي لميتاني اصبح الحوريون مشمولين باسم «حثي» المبهم. وفي شرقي سورية امتص الآراميون بقايا الحوريين. وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى الفرزل وتحتفظ بالكلمة التي معناها الحديد (brzl) وترد في نص من رأس الشمرة. ولا يزال النوع السائد حتى اليوم بـــين اللبنانيين من موارنة ودروز- هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الابحاث الانثروبولوجية[١]. وينطبق الامر نفسه على النصيرية في شمال غربي سورية. ويختلف ذلك اختلافاً واضحاً عن النموذج الطويل الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان شمالي الجزيرة العربية[٢].

---

١) انظر: Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass., 1936), pp. 10 *seq.*; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, 1940), pp. 20-21, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin, «The Anthropology of the Near East Female», *American Journal, of Physical Anthropology*, vol. xxii (1937), pp. 379; *seq.*; C. U. Ariens Kappers, «The Anthropology of the Near East», *Actes du XVIIIe congrès international des orientalistes* (Leyden, 1931), pp. 178-9.

٢) راجع: Carleton S, Coon. *The Races of Europe* (New-York, 1939), pp. 623-4; William M. Shanklin, «The Anthropology of the Ruwala Bedouins», *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. Lxv (1935), p. 379; do. «Anthropology of the Akeydat and the Maualy Bedouin», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxi (1936), p. 248. وقد اظهرت الابحاث الحديثة ان طريقة وضـــع الاطفال في السرير تسبب فلطحة الرأس احياناً.

الحثيون

وكان الحثيون الذين تبدو ملامحهم على الآثار شبيهة بملامح الحوريين شعباً اناضولياً في الاصل يسكن منطقة نهر الهاليس Halys. وكانوا يسمون بلادهم خاطي[١] وعاصمتهم (مدينة خاطي) خطوشش وهي اليوم بوغازكوي على بعد تسعين ميلاً شرقي انقره. ويأتي الاسم الانكليزي من كلمة حطي Hitti العبرية. ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوشار Kushshar مجهولاً. وفي حوالي ٢٠٠٠ ق. م. تغلب الغزاة الهنود الاوربيون على القبائل الخاطية ونتج عن تمازج السكان الاصليين الاناضوليين بالفاتحين الهنود الاوروبيين الخاطيون في آسيا الصغرى. وشكل السحنة الذي يتمثل في الانف الكبير والجبهة والذقن المتراجعتان كان شكل السكان الاصليين ولا يزال سائداً في شرقي الاناضول وبين الارمن.

المملكة الحثية القديمة

وكان اول ظهور للخاطيين في عملية حربية كبرى نحو ١٥٩٥ حين نهب ملكهم مرشلش الاول مدينة بابل بنتيجة غزوه لها وانتهت بذلك سلالة بابل الاولى التي كان حمورابي من ملوكها. وكان مرشلش نفسه قد فتح حلبا Halpa (حلب) وهدمها وسبى سكانها وارسل حدد وسائر آلهتها كغنائم حرب الى خطوشش التي نقل اليها مركز الحكم من العاصمة القديمة. وكانت حلب مركزاً ليس لعبادة حدد فحسب وانما لمملكة اسمها يمخاض كان يحكمها قبل هذه الفترة بقليل يريم لم الذي كان يسيطر على عشرين من صغار الملوك. وتوغل احد خلفاء مرشلش في اراضي المكسوس جنوباً حتى دَمَشونس Damashunas التي تشبه لفظة دمشق[٢]. واذا كان ذلك صحيحاً فانه يكون اول ذكر لدمشق في التاريخ المدون. ومهما يكن فان ملوك خاطي لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسلطة دائمة على المنطقة الواقعة جنوبي جبال طورس. وظلت هذه الجبال حدود المملكة القديمة من جهة الجنوب.

---

١) وقد وردت في النقوش الاثرية المصرية باسم خيطا Kheta. وربما كان معنى هذه الكلمة «الفضة».

٢) John Garstang, *The Hittite Empire* (London. 1929), p. 3; *Heritage of Solomon*, p. 30.

المملكة الحثية الحديثة

دامت المملكة الحثية الحديثة او الامبراطورية الثانية من حوالي ١٤٥٠ حتى ١٢٠٠ ق. م. وبلغت ذروتها في عهد الملك القوي شوبيلوليوما (حوالي ١٣٨٠ — ١٣٥٥). وقد حصل بنتيجة تقدمه في ميتاني على مركز ثابت في شمالي سورية وتمكن من انتزاع منطقة تمتد حتى جنوبي جبيل من المصريين. وفي نهاية حكمه كانت امبراطوريته قد اصبحت اقوى دولة في غربي آسيا. ودخل الهكسوس والميتانيون والحوريون في دولة يمكن ان نسميها الآن حثية. واصبحت كركميش المعقل الرئيسي جنوبي جبال طورس.

لم يعتمد شوبيلوليوما فقط على استخدام السلاح. فقد لجأ الى اثارة الاضطراب ضد مصر في مقاطعتها الاسيوية واقناع امير اوغاريت ان يتخلى عن حليفه فرعون[1] ونجح في ذلك كله. واستخدم الزعيم الاموري عبد عشرتا وابنه ازيرو «كطابور خامس». واخذ ازيرو بمساعدته يستولي على مدن فينيقية الساحلية. وفي الوقت نفسه كان ازيرو يكتب الى اخناتون عن اسفه البالغ بان مهمته في مقاومة الغزو الحثي لم تسمح له بالحصول على شرف الاجتماع بالموفد من فرعون. واصبحت الامور مضطربة حتى ان المقيم المصري نفسه كان غير قادر على معرفة الصديق من العدو.

معاهدة مع مصر

واستأنف النزاع لاجل السيادة على سورية بين الامبراطوريتين المتنافستين على زعامة العالم حين حاول فراعنة السلالة التاسعة عشرة الاوائل استرجاع ما عجز آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة عن الاحتفاظ به. وفي معركة قادش المشهورة التي تلت ذلك (نحو ١٢٩٦ ق.م.) لم يكن النصر الذي ادعاه رعمسيس الثاني على عدوه الحثي موتلّش Muwatallish نصراً مبيناً كما اذاع رعمسيس، وذلك بالاستناد الى نتائج المعركة. فقد ادعى رعمسيس انه قهر زعيم خيطا وذبح جميع رؤساء حلفائه وهزم العدو حتى العاصي «وطرحهم في الماء كالتماسيح»؛ وقد سقطوا على

---

١) انظر: Kundtzon, No. 45, ll. 22, 30; Mercer No. 45, ll. 22, 30.

وجوههم الواحد فوق الآخر وتمكن من قتل من شاء قتله[١] » . والحقيقة هي ان رعمسيس تمكن بصعوبة من انقاذ حياته عندما تعرض لكمين بطريق الحيلة ، وعمل هجوم المركبات الحثية على تفريق محاربيه . وقد اضطر بالنتيجة الى الانسحاب من سورية الشمالية والوسطى والى توقيع ميثاق عدم اعتداء نحو عام ١٢٨٠ مع حتوشلش اخي موتلش والملك الثاني بعده . وهذا هو الميثاق الوحيد الذي وصلنا من العصور القديمة . وكان هدفه كما قالت الوثيقة « ان يكون سلام واخاء بيننا الى الابد » . واعترف الميثاق بان سورية الشمالية ومن ضمنها امورو اصبحت حثية بينما بقيت سورية الجنوبية بما فيها فلسطين تحت الحكم المصري[٢]. واحتفظ بنسخة من الميثاق الاصلي منقوشة على لوح فضي باللغتين المصرية الهيروغليفية والبابلية المسمارية.

وبعد فترة من الانحطاط سقطت الامبراطورية الحثية حوالي ١٢٠٠ ق. م. بتأثير هجمات من جهة اخرى وهي منطقة بحر ايجـــة . ولعب الفريجيون الدور الرئيسي بين الغزاة كما يبدو . وقامت في شمالي سورية على انقاض الامبراطورية الحثية ممالك وطنية صغيرة مراكزها كركميش وحلب وحماة . وكان الاشوريون يسمونها ممالك حثية . وكان قيامها في عصر توسع الامبراطورية الاشورية الناشئة نحو الغرب التي كانت دوماً تهدد كيانها . وسقطت الواحدة بعد الاخرى فريسة للدولة المتوسعة من الشرق . وكان فتح كركميش في عام ٧١٧ عن يد سرجون الثاني عنوان انتهاء آخر دولة حثية مستقلة .

صلة الحثيين بفلسطين

وفقدت كلمة « حثي » معناها السياسي بعد انحلال الامبراطورية وصار لها مدلول جديد حضاري وعرقي . واستمر الاشوريون في تسمية سكان المناطق الـــتي كان يسكنها الحثيون سابقاً بالحثيين بالرغم من ان اكثريتهم لم تكن لهم صلة عرقية بالحاطيين الاناضوليين القدماء او بالحاطيين الهنود الاوروبيين . ولم تكن فلسطين في اي وقت قسماً من الامبراطورية الحثية ولكن عناصر حثية كثيرة وجدت فيها .

---

١) Stiendorff and Seele, p. 251; cf. Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, § 336.

٢) انظر تفاصيل هذه الشروط في: Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, §§ 367-91.

ويطلق مؤلف احدى وثائق العهد القديم اسم الحثيين بوجه عام على جميع سكان البلاد من غير الساميين قبل مجيء العبرانيين . ويدعي هذا المؤلف وجود عنصر حثي بين سكان فلسطين منذ ايام ابراهيم ويعتبر حبرون (الخليل) مدينة حثية[١]. ويروى ان عيسو تزوج نساء حثيات وتزاوج بنو اسرائيل مع الحثيين[٢]. وتشهد الآثار عن وجود تأثير حثي مادي هناك في القرن الرابع عشر بشكل تقدمات نذرية واختام واسلحة ذات اشكال خاصة . وليس من شك في ان سليمان كان لديه نساء حثيات بين حريمه[٣]. وعندما خاطب النبي حزقيال[٤] مدينة اورشليم الخائنة قال لها : « ابوك اموري وامك حثية » .

نظام الدولة الحثية

كانت المملكة الحثية فوق كل شيء ارستوقراطية اقطاعية تمارس سلطتها على مجموعة متنوعة من العناصر العرقية. ويرجع نجاحها العسكري كما كانت الحال بالنسبة للهكسوس الى استخدام الحصان والمركبة كسلاح رئيسي . وكان سلاح المركبة يتألف من سائق ومحارب وحامل ترس وكان الترس مربعاً . وفي ساحة القتال كان الحثيون يستخدمون ايضاً فرقاً منظمة من المشاة يقودها امراء من الاسرة المالكة او زعماء محليون . وكانت اسلحة الهجوم القوس والفأس والرمح والسيف المنحني .

اللغة الحثية

كانت اللغة الحثية مزيجاً كما كان الشعب الحثي نفسه غير انه يمكن تصنيفها عموماً كلغة هندية اوربية او متصلة بلغات هذه المجموعة. والارستوقراطية العسكرية كانت كما في ميتاني من اصل هندي اوربي . وربما كانت الارستوقراطيتان من اصل واحد وتتكلمان نوعاً من اللغة ذاتها .

---

١) سفر التكوين ٢٣ : ٢ — ٢٠ .

٢) التكوين ٢٦ : ٣٤ ؛ القضاة ٣ : ٥ — ٦ .

٣) سفر الملوك الاول ١١ : ١ ؛ صموئيل الثاني ١١ : ٣ .

٤) سفر حزقيال ١٦ : ٣ .

ووجدت اكبر مجموعة من الوثائق الحثية في ١٩٠٦ — ١٩١٢ في بوغاز كوي واتضح ان هذه الوثائق هي محفوظات الدولة وتتألف من اكثر من ١٠،٠٠٠ لوح خزفي جمعها ملوكهم نحو ١٣٠٠ ق.م. وهذه الالواح الخزفية المكتوبة بالمسمارية التي فسرها عالم تشيكي[١] تشكل اهم مصادر معلوماتنا عن الحثيين. وقد استعمل الحثيون الكتابة المسمارية لاجل حاجاتهم اليومية بينما استخدموا الكتابة الهيروغليفية في الآثار. والكتابات الاثرية الهيروغليفية على الصخر تتناوب سطورها من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال وقد فسرت رموزها في السنوات الاخيرة. واهم مواقع الآثار الحثية في سورية التي تحمل كتابات هيروغليفية هي كركميش (جرابلس) وحلب وحماة[٢]. وتوجد اربع وعشرون كتابة على الحجر من كركميش في المتحف البريطاني وفي متحف استانبول اربع كتابات من حماة. ووجدت في رأس الشمرة اربعة اختام حثية.

وتتألف بقايا الادب الحثي من ترانيم وصلوات واساطير وعقود ورسائل. وقد اكتشف جزء من مجموعة قوانينهم التي ترجع الى منتصف القرن الرابع عشر[٣]. والعقوبات التي تفرض اخف بكثير مما عند الساميين. فليس هنالك تشريع على اساس مبدأ «العين بالعين» ويتضح من كثرة القوانين المتصلة بالزراعة انها كانت تشكل اساس الحياة الاقتصادية.

الديانة

ولا نعلم حتى الآن سوى الشيء القليل عن الديانة الحثية. وتظهر الافكار المتعلقة بعبادة الارواح بصورة بارزة في الشكل البدائي لهذه الديانة. فالينابيع والانهار والاشجار والجبال كانت تعتبر مقدسة. وكان اشهر الآلهة تيشوب اله العاصفة وهو الاله الوطني. وكان الميتانيون يعبدونه. وآلهة المدن كانت مظاهر محلية لهذا الاله. وكان اسمه الحثي تلبنش Telepinush. وهو يقابل الاله السوري حدد ورفيقته تسمى

---

١) واسم هذا العالم فريدرخ هروزني Friedrich Hrozny انظر كتابه: *Die Sprache der Hethiter* (Leipzig, 1917); *Hethitische Keilschrifttexte aus Boghazköi* (Leipzig, 1919).

٢) Ignace J. Gelb. *Hittite Hieroglyphic Monuments* (Chicago, 1939), p. 8.

٣) F. Hrozny, *Code hittite provenant de l'Asie Mineure* (Paris, 1922).



الاله الحثي تيشوب اله العاصفة

وجد في ١٩٣٠ في تل الاحمر (تل برسيب القديمة) جنوبي كركميش عـــلى الفرات
والآن في متحف حلب

وقد تدل لحية الاله الاشورية الشكل ان تاريخ النصب يعود الى القرن الثاني عشر. وقرص الشمس المحاط بقمر مجنح يظهر تأثيراً مصرياً. ويمسك الاله بصاعقة ذات ثلاثة فروع بيده اليسرى ويرفع فأس حرب بيده اليمنى. والثور الذي يقف عليه هو رمز القوة والخصب. والاحذية الملتوية الى الأعلى لا يزال يلبسها بعض سكان جبال لبنان.

عشتاروت في المعاهدة مع مصر ولكن اسمها الحثي لم يعرف حتى الآن وربما كانت « ما Ma » وهي الارض الام واقدم آلهة لدى الشعب المغلوب . وعبادة تيشوب – عشتاروت تقابل عبادة تموز – عشتاروت عند السوريين واصبحت في الغرب عبادة ادونيس والزهرة (فينوس)، وفي آسيا الصغرى لدى الفريجيين اصبحت عبادة آتيس Attis وسيبيل Cybele. وكان يمثل تيشوب عادة بشكل رجل يقف على ثور ويمسك الصاعقة . واقوى الاهة انثى كانت الاهة الشمس التي اصبحت الاهة الحرب واتخذت بعض صفات الارض الام . ولباس الاله كما يتضح من الآثار كان رداء قصيراً وقبعة مخروطية الشكل، امـــا لباس الالاهة فكان ثوباً طويلاً وقبعة اسطوانية مرتفعة . والاحذية المروسة والمفتولة الى الاعلى في قسمها الامامي كانت من الصفات المشتركة في لباس الآلهة الانثى والذكر . والاشكال البشرية كانت تمثل بنفس اللباس ولكن بحجم اصغر . والالبسة الثقيلة والاحذية المفتولة الى اعلى تفيد ان اصل هذا الشعب كان في اقليم بارد تهطل فيه الثلوج .

وعندما احتك الحثيون بالسوريين والمصريين والاشوريين اقتبسوا الآلهـــة الاجنبية . وقد استشهدوا في المعاهدة مع مصر « بالف من الآلهة الذكور والاناث». وربما يمكن ان نستنتج من اهمية الآلهة الانثى في مجموعة الآلهة الحثية ومن الشرط الذي وضعه شوبيلوليوما لمساعدة ماتيوازا لاجل وراثة عرش ميتاني وهو زواج هذا الامير من اميرة من خاطي على ان تكون زوجته الوحيدة – يستنتج من ذلك ان وضع المرأة بـــين الحثيين كان رفيعاً نسبياً مع وجود ميل نحو اتخاذ زوجة واحدة .

من هم الخابيرو ؟

بينما كان الجيش الحثي في فترة العمارنة يقوم بأعماله الحربية في الشمال كان جماعة من المرتزقة الاجانب الذين يسمون في الكتابات المسمارية الخابيرو Khabiru يجتاحون البلاد في الجهة الجنوبية . وقد اعتبر بعض العلماء هذه الكلمة الاكادية معادلة للكلمة العبرية «عبري» (وعبراني التي تترجم عادة « بالذي يأتي من الجانب الآخر» او بمعنى «العابر»). ويوصف الخابيرو في وثائق نوزي من القرن الخامس عشر بانهم عبيـــد اصبحوا كذلك باختيارهم . وتظهر هذه الكلمة في المدونات المصرية من حوالي

١٣٠٠ — ١١٥٠ ق. م. بشكل عپيرو Epiru' (بحرف p) مما يثير الشك في صحة المعادلة بين الخابيرو والعبرانيين .

ويظهر الخابيرو لاول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الاول (حوالي ١٦٠٠ ق. م.) الذي استأجرهم . وفي رسائل تل العمارنة[١] نرى الخابيرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي ١٣٦٧ يستولون على شكيم . وقد وجهت ستة من هذه التحارير (رقم ٢٨٥ — ٢٩٠) من عبد خبا[٢] تابـــع فرعون في اوروسالم (اورشليم)[٣] الى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الخابيرو الذين يهددونه . وفي جميع هذه الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعددة العناصر وبدون اوصاف مشتركة ومعبأة بلا شك في بلاد الرافدين . وقد اطلق هذا الاسم هناك لاول مرة على المحاربين في عهد نارام سن (نحو ٢١٧٠) من ملوك السلالة الاكادية القديمة . ويذكر الاسم ثانية في رسالة من ماري من القرن الثامن عشر وفي الواح نوزي من القرن الخامس عشر . وكما يبدو فانه ليس اسماً عرقياً وانما تسمية اطلقت على جماعات من الرحل والاجانب والاشقياء المستعدين للانضمام الى صفوف اي جيش لقاء اجرة او بدافع الحصول على الغنائم .

---

١) الرسالة رقم ٢٨٩ .

٢) القسم الثاني من هذا الاسم هو اسم الاهة حثية حورية .

٣) اصل الاسم من الكنعانية ياروشالم بمعنى « دع شالم يؤسس » . وكان شالم اله السلام عنـــد الكنعانيين ويظهر في اسمي « ابشالوم » وسليمان ، وفي اسماء فينيقية وهو مذكور في لوح من اوغاريت. انظر : Burrows, p. 229.

الفصل الثاني عشر

الآراميون الشعب السامي الثالث الرئيسي

قبل ان يسمى الآراميون بهذا الاسم كانوا قبائل من الرحـــل في بادية شمالي الجزيرة العربية . وكانوا كسائر البدو من قبلهم ومن بعدهم يضغطون من وقت الى آخر على اراضي جيرانهم النائية في بلاد بابل وسورية وهدفهم امتلاكها. وقبل ان ينتصف الالف الثاني ق. م. كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الاوسط حيث نشأت قوميتها ولغتها . ويمكن الاعتقاد بان الآرامية اتت من لهجة سامية غربية كانت مستعملة في شمال غربي بلاد الرافدين في النصف الاول للالف الثاني . ولم يكتسبوا اسمهم « الآراميين » حتى ايام تغلات فلاسر الاول (نحـــو ۱۱۰۰ ق. م.) حـــين اقاموا في منطقة الفرات الاوسط حتى سورية في الغرب[١]. وكانت الهجمات الحاطية في اوائل القرن السادس عشر على بابل وشمالي سورية هي التي فتحت الابواب كما يبدو في وجه الحركة الآرامية واعطت القادمين الجدد من الصحراء محطاً ثابتاً في تلك المنطقة . وسهّل القضاء على ميتاني عن يد الحثيين بعد قرن ونصف حركة الآراميين من جديد . وتبين ان هذه الهجرة الآرامية كانت بعد الهجرتين الامورية والكنعانية ثالث حركة سامية كبرى اتت من الصحراء .

بدء ظهورهم في بلاد الرافدين

كانت جماعات متعددة تشكل اقساماً من الحركة الآرامية ولكنها لم تكن تعرف بهذا الاسم . فبالاضافة الى الحابيرو الذين ذكرناهم سابقاً كان يوجد الاخلامو Akhlamu.، وهذه التسمية التي تعني «الرفاق» لم تكن تسمية عرقية وقد اطلقها

---

١) قارن مع : Emil G. H. Kraeling, *Aram and Israel* (New York, 1918), pp. 20, 22. واصل اشتقاق كلمة آرام (قارن مع كلمة ارم القرآنية) غير مؤكد.

لاول مرة كما يبدو الاموريون المقيمون في منطقة الفرات على اتحاد من القبائل . ويخبرنا الملك الاشوري آدد نيراري الاول (نحو ١٣٠٠ ق.م.) ان اباه قهر جماعات الاخلامو[١] في شمالي بلاد الرافدين . وفي تحرير ارسله حتوشلش حوالي ١٢٧٥ الى احد ملوك بابل اشارة الى الاخلامو المعادين الذين يقيمون على طول نهر الفرات . ونقرأ قبل ذلك في احدى رسائل[٢] تل العمارنة عن الاخلامو في عهد اخناتون وانهم كانوا يستولون على المدن والاراضي السورية برضى حكام وطنيين غير مخلصين ان لم يكن تحت قيادتهم . وفي الوثائق التي اتت فيما بعد نجد الآراميين والاخلامو مقترنين بصورة وثيقة . فالملك تغلات فلاسر الاول يقول «لقد زحفت الى وسط الاحلامي الآراميين اعداء الاله اشور سيدي[٣]» . وكانت هذه القبائل الآرامية تعيش بجوار كركميش ولكننا نشاهد الآراميين بعد ذلك في بلاد بابل في الشرق يدعون الكلدو (الكلدانيين او البابليين الحديثين) الذين كانت لهم صلة وثيقة بهم . ويصف تغلات فلاسر وخلفاؤه حملاتهم في مات آريمي Mat Arimi او بلاد الآراميين[٤] وذلك في كتابات اثرية اخرى .

انتشارهم في شمالي سورية

يستدل من هذه المدونات الاشورية البابلية وغيرها ان قسماً كبيراً من بلاد الرافدين وسورية الشمالية والوسطى قد اجتاحته في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية وان هذه المناطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب حثية قليلة منها كركميش . وقد ادى ضغط الآراميين المتواصل الى طغيانهم التدريجي على الاموريين والحوريين والحثيين في وادي العاصي والمنطقة التي تليها في الشمال والى امتصاص هؤلاء او طردهم . وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسع نحو الغرب واستمر فيه ازدهار الجماعات الحثية والامورية بينما

---

١) Luckenbill, vol. i, § 73.

٢) الرسالة رقم ٢٠٠ .

٣) Luckenbill, vol. i, § 239.

٤) E. A. Wallis Budge and L. W. King, *Annals of the Kings of Assyria*, vol. i, (London, 1902) pp. 134 *seq.*; Luckenbill, vol. i, § 366; vol. ii, § 36.

بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون انْ تمس . واصبحت دمشق وهي مركز دولة آرامية فيما بعد يسكنها الآراميون في ١٢٠٠ ق. م. وتعطي حوليات رعمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧) التهجئة الآرامية لاسم دمشق[١]. وقد احتل الآراميون مدينة حران غالباً وهي احدى مراكزهم في ما بين النهرين قبل احتلالهم دمشق. واقتبس القادمون الجدد بالتدريج حضارة الاموريين والكنعانيين الذين اقاموا بينهم غير انهم احتفظوا بمظهر واحد من حضارتهم وهو اللغة . وبخلاف الاسرائيليين والفلسطينيين الذين اقاموا في اواخر القرن الثالث عشر في جنوبي مناطقهم فان الآراميين احتفظوا بلهجتهم الاصلية التي قدر لها ان تلعب دوراً بالغ الاهمية في حياة غربي آسيا فيما بعد .

الدول الآرامية في ما بين النهرين

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت الحركات الآرامية والاسرائيلية قد انتهت واصبح الشعبان يجاور واحدهما الآخر في موطنهما الجديــــد. وظهرت الدول الآرامية الاولى في منطقة الفرات الاوسط وهي الممر بين بلاد الرافدين وسورية. وقد سميت احداها آرام النهرين Aram Naharain[٢] والنهران المقصودان هما الفرات ورافده الخابور وليس الفرات والدجلة . وكلمة « نهارين » المصرية هي تحريف لهذا الاسم نفسه . ويظهر هذا الاسم مراراً في الكتابات المسمارية من اواخر القرن الثالث عشر ويميل الى الزوال بعد القرن التاسع عندما كان الاشوريون قد قضوا على الآراميين في هذه المنطقة[٣]. ومن الدول الاخرى في ما بين النهرين دولة فدان آرام[٤] Padam Aram ولم تكن باتساع آرام النهرين وكان مركزها مدينة حران .

---

١) ويقابل تيرمسكي Tiramaski اسم آرام . وهنالك اسم دَرمشق اي حصن مشق . انظر : W. Max Müller, *Asien und Europa nach altagyptischen Denkmalern* (Leipzig, 1893), p. 234; Dussaud, p. 292; cf. Sina Schiffer, *Die Aramaer* (Leipzig, 1911), p. 136. والشكل الذي يتخذه اسم دمشق في رسائل العمارنة هو دُمشقا Dumashqa (رسالة رقم ١٠٧ سطر ٢٨) ، دِمشقا Dimashqa (رسالة رقـــم ١٩٧ سطر ٢) تِمشكي Timashgi (رسالة رقم ٥٣ سطر ٦٣) .

٢) انظر هذا الاسم في سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ؛ التثنية ٢٣ : ٤ ؛ القضاة ٣ : ٨ .

٣) قارن مع : Roger T. O'Callaghan, *Aram Naharaim* (Rome, 1948), p. 143.

٤) قارن مع : Abel, *Géographie*, vol. i, p. 245. انظـــر سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ؛ ٢٨ : ٥ ؛ ٣١ : ١٨ .

والواقع ان الكلمتين تستعملان بالترادف في العهد القديم . وكانت تقع حران على طريق تجـــاري عظيم — ومعنى اسمها «طريق» — واصبحت من اعظم مراكز الحضارة الآرامية . والمرويات العبرانية التي لم تنس الصلة العبرانية الآرامية القديمة جعلت اسلاف الشعب العبراني يأتون من هذه المنطقة قبل استقرارهم في فلسطين . وتقول هذه المرويات ان ابراهيم اوفد رسوله الى حران ليبحث عن زوجة لابنه اسحق وهي رفقة كما تقول ان يعقوب ذهب بنفسه ليتزوج ليئـــة وراحيل[1]. وهكذا فان اسلاف ابناء يعقوب هم آراميون من جهة الام . وهنالك عبارة تسمي أبا الامة العبرانية آرامياً[2]. وسفر التكوين الذي يدون بدء التاريخ العبراني مملوء بالتعابير ذات الصبغة الآرامية وبالمفردات الآرامية[3]. وكان اسلاف الشعب العبراني يتكلمون الآراميـــة كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية .

آرام دمشق

غير ان اهم الدول العديدة التي اسسها الآراميون كانت تلك التي كان مركزها اولاً في صوبة ثم في دمشق . وقد تأسست مملكة دمشق في اواخر القرن الحادي عشر فكانت معاصرة تقريباً لتأسيس المملكة العبرانية وتطورت فأصبحت مملكة كبرى تمتد الى الفرات من جهة والى اليرموك من جهة أخرى . وكانت متاخمة للاراضي الاشورية في الشمال والعبرانية في الجنوب . وكانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان وسورية الشمالية وباشان تحت سلطتها الاكيدة في حوالي ١٠٠٠ ق.م. ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير الى آرام او سورية. وقد كان هؤلاء الآراميون في سورية خلال قرنين ألد اعداء العبرانيين .

كانت صوبة عاصمة مملكة بنفس الاسم والكلمة مشتقة من صهوبة Sehobah

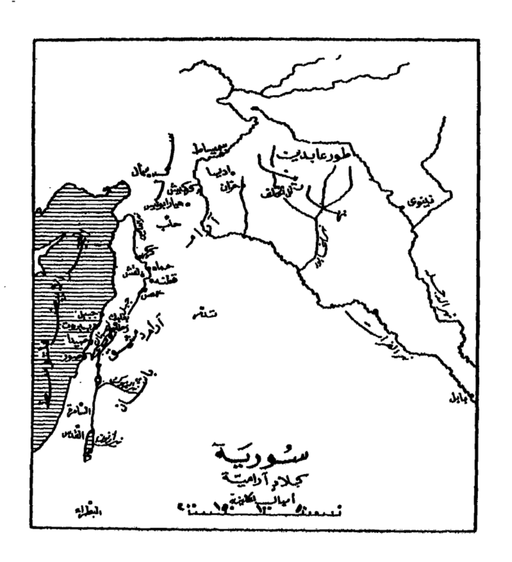
---

١) سفر التكوين ٢٤: ٤؛ ٢٩: ٢١ وما يليها .

٢) سفر التثنية ٢٦: ٥ حيث يقول «آرامياً تائهاً كان ابي». وقـــد جاء في احدى الترجمات «سورياً». قارن مع : Josephus, *Antiquities*, Bk. I, ch. 7, §2,

٣) سفر التكوين ١١: ٢٨ وما بعدها؛ ١٢: ١؛ ٢٩: ١ ؛ ٣١: ٢١ ؛ واول ذكر لعبارة آرامية في التوراة هي يجرشهدوثا اي رجم الشهادة (سفر التكوين ٣١: ٤٧).

بمعنى احمر او نحاس. ويظن ان موقعها هو في كالسس Chalcis او عنجر الحديثة جنوبي زحلة في البقاع[١] وقد بدأت الاصطدامات بين ملوكها ومنافسيهم العبرانيين



في الجنوب في عهد شاول مؤسس المملكة العبرانية[٢]. وكان من اقدم ملوك صوبة حدد عزر (اي حدد عون) الذي ادى انتصار داود عليه الى اعطاء ذلك الملك

---

١) انظر: Abel, vol. i, p. 248; Kraeling p. 40; وكانت كالسس (والكلمة يونانية معناها نحاس) فيما بعد عاصمة ايطوريا Ituraea (المذكورة في الانجيل لوقا ٣: ١) وهي مملكة عربية.

٢) سفر صموئيل الاول ١٤: ٤٧.

العبراني السلطة على مصادر ذلك المعدن الهام النحاس[١]. ولم ينتصر داود على حدد عزر وحلفائه فحسب وانما نجح في احتلال دمشق موقتاً. وبعد فترة قصيرة نجد رصين ملك هذه المدينة يعمل كتابع لصوبة ويقوم بمحاربة اسرائيل «طيلة ايام سليمان[٢]». وتنتقل السيادة بعد ذلك من صوبة الى دمشق. وعندما انقسمت المملكة العبرانية الى قسمين في عام ٩٢٢ كان ذلك من مصلحة ملوك دمشق الذين كانوا يقيمون المملكة الواحدة ضد الاخرى.

واخذ بنحدد الاول[٣] ملك دمشق (حوالي ٨٧٩ — ٨٤٣) من ملك يهوذا كنوزاً ثمينة من المعبد ومن القصر الملكي في اورشليم ثم هاجم ملك اسرائيل وجعل جلعاد في شرقي الاردن تحت السيطرة الآرامية[٤]. والواقع ان مملكة اسرائيل كانت كما يبدو تابعة اسمية لآرام منذ اواخر ايام ملكها عمري (حوالي ٨٧٥) وعندما رفض آخاب ابن عمري ووريثه دفع الجزية او الانضمام الى التحالف ضد الهجوم الاشوري الذي كان وشيك الوقوع ظهر بنحدد بغتة امام عاصمته السامرة ليجبره على الطاعة[٥].

معركة قرقر

وبلغت هذه الغزوة الاشورية ذروتها في المعركة التي حارب فيها شلمناصر الثالث في عام ٨٥٣ ق.م. وكان تحالف الملوك السوريين يضم اثني عشر ملكاً يرأسهم بنحدد[٦] الذي كان جيشه يضم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠،٠٠٠ من المشاة. وقد

---

١) اخبار الايام الاولى ١٨: ٨؛ صموئيل الثاني ٨:٨. ومدينة بيروثاي المذكورة في سفر صموئيل هي اليوم بريتان جنوبي بعلبك.

٢) سفر الملوك الاول ١١: ٢٥.

٣) كلمة بنحدد او بن حدد في العبرية تقابلها بار حد (اي ابن حدد) في الآرامية. وكان بنحدد الاول وبنحدد الثاني نفس الشخص. انظر: Albright, «A Votive Stele Erected by Ben-Hadad I of Damascus», *Bulletin, American Schools Oriental Research,* No. 87 (1942), pp. 26-27.

٤) سفر الملوك الاول ١٥:١٨—٢٠؛ اخبار الايام الثاني ١٦:٢ وما بعده.

٥) سفر الملوك الاول ٢٠:١ وما بعده.

٦) وهو حدد عزر في كتاب: Luckenbill, vol. i, § 611.

اتى الملك آخاب بالجيش الثاني في قوته وبعده اتى جيش ملك حماة . وقدمت ممالك مدن فينيقية كثيرة قواتها للمساهمة في المعركة . وكان عدد الجيوش التي وقفت بوجه شلمناصر في موقعة قرقر على العاصي ٦٠،٠٠٠ جندي وانتهت بدون نتيجة حاسمة . وكان على الاشوريين ان ينتظروا سنين كثيرة اخرى قبل ان يتمكنوا من اخضاع دمشق .

حزائيل

ويظهر وريث بنحدد واسمه حزائيل (يعني « ايل قـــد رأى » حوالي ٨٠٥) كاعظم محارب في التاريخ الآرامي . فبعد ان صمد لهجومين قام بهما شلمناصر في ٨٤٢ و ٨٣٨ قاد حملة ضد اسرائيل ووسع ممتلكاته في شرقي الاردن الى الجنوب حتى نهر آرنون (الموجب) الذي يصب في البحر الميت[١] . وكان ياهو (نحو ٨٤٢ — ٨١٤) الذي كان يدفع الجزية لشلمناصر هو ملك اسرائيل حينذاك . وكانت اسرائيل تحت رحمة آرام في عهد يهواحاز وريث ياهو حتى ان حزائيل لم يترك له اية قوة فيها سوى خمسين فارساً وعشر مركبات[٢]. وتوسع حزائيل في فتوحاتـــه حتى سهل فلسطين الساحلي بقصد الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية . ثم «حوّل حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم» ولكنهم منعوه من ذلك بعد ان قدموا له الذهب والكنوز التي كانت في المعبد[٣]. وعندما تضعضعت قوة الذين خلفوا حزائيل بسبب الهجمات الاشورية عجزوا عن المحافظة على حدود مملكتهم في المناطق الجنوبية . وعادت الحدود القديمة الى سابق عهدها في زمن الملك يربعام الثاني الذي اصبح ملكاً في السامرة في عام ٧٨٥ ، وزاد هذا الملك على ذلك بانه بدأ بمهاجمة دمشق وحماة .

غير ان الخطر الحقيقي كان مصدره من جانب آخر . فقد كانت القوة العسكرية الاشورية جاهزة للزحف من جديد . واتت الفرصة المناسبة في ٧٣٤ حين هُدد

---

١) سفر الملوك الثاني ١٠:٣٢ — ٣٣ .

٢) الملوك الثاني ١٣:٧.

٣) الملوك الثاني ١٢: ١٧ — ١٨ .

آحاز ملك يهوذا بصورة جدية من قبل فقح Pekah ملك اسرائيل ورصين Rezin ملك دمشق فطلب تدخل الاشوريين[١]. واستجاب تغلاث فلاسر الثالث لطلبه واجتاح المقاطعات الست عشرة التابعة لدمشق مع المدن التي عددها ٥٩١ مدينة «وهدمها حتى اصبحت مثل الكثبان التي يتركها السيل»[٢]. وكان بين الملوك التابعين لاشور والذين حاربوا وسقطوا امام اسوار دمشق بنامو الثاني ملك شمأل (زنجرلي) في اقصى الشمال. ورصين نفسه هرب «وكفأرة [او وعل ؟] دخل باب مدينته». وهناك اصبح محاصراً «مثل عصفور في قفص». ولكن الحصار استمر. واخيراً فتحت المدينة في عام ٧٣٢. وقتل ملكها وقطعت اشجار بساتينها — موضع فخارها في جميع العصور — «ولم تنجُ واحدة منها» ونُفي اهلها[٣]. وهكذا انتهى امر آرام دمشق وانتهت معها السيادة الآرامية الى الابد.

التجار الآراميون

فاق توسع التجارة والحضارة الآرامية توسع الآراميين السياسي والعسكري ودام الى ما بعد انتهاء هذا الاخير. هذه الحضارة التي بلغت ذروتها في القرنين التاسع والثامن لا تقدر اليوم حق قدرها حتى في الاوساط المتعلمة. والسوريون الحديثون لا يشعرون باصلهم وتراثهم الآراميين بالرغم من ان كثيرين من اللبنانيين يصرون على اصلهم الفينيقي. وكان التجار الآراميون يبعثون قوافلهم الى جميع مناطق الهلال الخصيب وحتى الى منابع الدجلة في الشمال. وا كتشفت في خرائب نينوى بعض الموازين البرونزية التي تركوها. وكانوا يحتكرون تجارة سورية الداخلية كما كان يحتكر ابناء عمهم ومنافسوهم الكنعانيون التجارة البحرية. وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانئ البحر. وقد تاجر الآراميون بالارجوان من فينيقيـــة وبالمطرزات والكتان واليَشْب (Jasper) والنحاس

---

١) سفر الملوك الثاني ١٦: ٥ وما يليه.

٢) Luckenbill, vol. i, § 777.

٣) Luckenbill, vol. i, § 776; Hugo Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch zum Alten Testament*, 3rd ed. (Leipzig, 1909), pp. 31-2; cf. Is. 17 : 1 *seq.*

والابنوس والعاج من افريقيا «وبمحصول البحار» الذي ربما كان اللؤلؤ الذي اشتهر به الخليج الفارسي خلال العصور[١] .

اللغة الآرامية

كان التجار الآراميون هم الذين نشروا لغتهم منذ اول عهدهم في مختلف البلدان وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وقد وصلنا من عام ٧٣١ ق.م. في عهد تغلات فلاسر الثالث اول رسم يمثل كاتباً يدوّن بالآرامية الغنائم المأخوذة من احدى المدن المفتوحة. وهو يمسك بيده ليس قلماً ولوحاً من طين لاجل الكتابة المسمارية وانما ملف بردي وريشة . ويبدو انه كان يكتب بكتابة ابجدية. وفي نحو عام ٥٠٠ ق.م. اصبحت الآرامية التي كانت اللغة التجارية لاحدى الجماعات السورية ليس فقط اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الهلال الخصيب كلها بل اللغة التي يستعملها سكان تلك البلاد في كلامهم . وكان فوزها على شقيقاتها اللغات السامية الاخرى بما فيها العبرية تاماً. واصبحت لغة المسيح وشعبه[٢]. والاشارة الثانية ، ان لم تكن الاولى ، للمسيحيين وجدت مكتوبة بالآرامية بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن ربما كان كنيسة في بومبي مما يجعل تاريخها قبل عام ٧٩م[٣]. وهنالك صلاة آرامية تسمى « قدّيش » (المقدس) تشبه الصلاة المسيحية المعروفة بالصلاة الربانية في بعض عباراتها وهي اقدم منها وتبدأ بعبارة « ليتمجد ويتقدس اسمه العظيم[٤]». واسطورة احيقار[٥] الواسعة الانتشار تحوي بعض حكم اشورية او بابلية ولكنها بالآرامية وقد كتبت في القرن السابع او ما بعده.

---

١) Olmstead, *History of Palestine*, p. 534.

٢) انظر بشأن موضوع الآرامية كاللغة التي كتبت بها مادة الاناجيل : Charles C. Torrey, *Our Translated Gospels* (New York, 1936).

٣) راجع : W. R. Newbold, « Five Transliterated Aramaic Inscriptions», *American Journal of Archaeology*, vol. xxx (1926), pp. 288 *seq.* والاشارة الاخرى هي في اعمال الرسل ١١: ٢٦ .

٤) انظر ما يشبه ذلك في العبرية في حزقيال ٣٨:٢٣.

٥) ان هذا البطل الذي يظن انه وضع الامثال قد ذكر لاول مرة في طوبيا ١: ٢١ وما يليه ويظهر في عدد من القصص العبرية والسريانية والارمنية والعربية وغيرها . ويبدو تأثيره في قصص ايسوب Aesop .

ولم يقتصر انتشار الآرامية على المناطق السامية. ففي عهد داريوس الكبير (٥٢١ — ٤٨٦) جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الامبراطورية الفارسية وهكذا اصبحت حتى فتوحات الاسكندر اللغة المتداولة في امبراطورية تمتد «من الهند حتى الحبشة». ان مثل هذا الفوز الذي حققته لغة لا تدعمها سلطة امبراطورية من اهلها ليس له مثيل في التاريخ.

ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الآراميون اول من اقتبسها واستعملت في لغات اخرى في القارة الاسيوية. وحصل العبرانيون على ابجديتهم من الآراميين بين القرنين السادس والرابع وكانوا قبلًا يستعملون الابجدية الفينيقية القديمة مدة من الزمن. والحروف المربعة التي تطبع بها اليوم كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآرامية. واخذ عرب الشمال ابجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الانباط. كذلك حصل الارمن والفرس والهنود على ابجديتهم من مصادر آرامية، وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من اصل آرامي. وحمل الكهنة البوذيون من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا. وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الآرامية الى الشرق الاقصى وغرباً بطريق اليونانية الى الاميركتين مطوّقة العالم كله.

الكتابات الاثرية

وجدت اقدم الكتابات الاثرية الآرامية المعروفة اليوم في شمالي سورية وتعود الى بدء القرن التاسع. وتوجد بينها كتابة قصيرة من تل حلف (غوزانه[1]). ثم تأتي كتابة اكتشفت حديثاً على نصب نذري على بعد اربعة اميال ونصف شمالي حلب التي كانت تحت حكم دمشق وترجع الى نحو عام ٨٥٠ ق.م. وقد كتب عليها اسم بنحدد الاول والكتابة التالية:

النصب الذي اقامه بار حدد ابن طاب رمّان ابن حاديان ملك آرام لسيده ملقارت وقد نذره له لانه اصغى الى صوته[2].

---

١) انظر: Raymond A. Bowman, «The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf», *American Journal of Semetic Languages*, vol. lviii (1941), pp. 359–62; cf. Bowman in *Journal of Near Eastern Studies*, vol. vii (1948), p. 71.

٢) قارن مع: Maurice Dunand, «Stèle araméenne dédiée à Melqart», *Bulletin du Musée de Beyrouth*, vol. iii (1939), pp. 65-76; cf. Albright, p. 26.

وعلى ذلك فان كتابة زاكر ملك حماة ولَعَش[1] المشهورة (نحو ٧٧٥) التي كانت تعتبر اقدم كتابة آرامية اصبحت في الدرجة الثالثة في قدمها. وقد اقيم نصب زاكر من قبل هذا الملك الآرامي لتخليد ذكرى انقاذه من هجوم شنه عليه سبعة عشر ملكاً بينهم مُلوك دمشق وشمأل وعدد من المدن الفينيقية[2].

وانت كتابات اثرية اخرى تركها الآراميون من زنجرلي (شمأل) وهي مدينتهم الرئيسية في الشمال. وفيما سوى هذه الكتابات على النصب والمباني فان هنالك اوزاناً ومستندات كثيرة عليها كتابات آرامية تتراوح بين القرن الثامن والقرن الخامس ق. م. واوراق البردي الآرامية التي كتبتها جالية يهودية في مصر العليا واكتشفت في الالفنتين (جزيرة اسوان الحديثة) ترجع الى ما بين ٥٠٠ و ٤٠٠ ق. م.

وقد تفرعت اللغة الآرامية مع الزمن الى مجموعتين هما المجموعة الشرقيـــة في وادي الفرات وتمثلهـــا المندعية والسريانية ، والمجموعة الغربية وتمثلها الآرامية التوراتية[3] والترجوم ولهجات شمأل وحماة والتدمرية والنبطية. وكانت تتكلم المندعية طائفة غنوسطية تسكن قرب الفرات بين القرنين السابع والتاسع م. واصبحت السريانية وهي لغة اديسا لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية ، واستعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر للميلاد ثم حلت العربية محلها. وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة اديسا وجعلوها لغة الكنيسة والادب والتعامل الثقافي صاروا يعرفون باسم سوريين. واصبح لاسمهم القديم اي الآراميين مدلول وثني غير مستحب في عقولهم ولذلك تجنبوه بوجـــه

١) او لـُعَش وكانت عاصمتها حزرك وفي التوراة حدراخ (سفر زكريا ٩: ١) وتقع على العاصي جنوبي حماة وغربي قطنة. انظر: Olmstead, *Historg of Palestine*, p. 407; Dussaud, pp. 144, 236-37,

٢) راجع: H. Pognon, *Inscriptions sémitiques de la Syrie, de la Mésopotamie et de la région de Mossoul* (Paris, 1907), pp. 156 *seq.*

٣) وهذه الآرامية موجودة في التوراة في سفر عزرا ٤: ٨ حتى ٦: ١٨ ؛ ٧: ١٢ — ٢٦؛ وسفر دانيال ٢: ٤ حتى ٧: ٢٨ . والعبارات الآرامية التي استعملها المسيح مذكورة في انجيل مرقص ٥: ٤١؛ ٧: ٣٤. وبما ان الآرامية وضعت في سفر دانيال ٢: ٤ على لسان الكلدانيين فانها صارت تسمى خطأ كلدانية اذ اللغة التي تكلمها الكلدانيون او البابليون الحديثون كانت لهجة من الاكادية.

العموم وحلت محله التعابير اليونانية وهي سوري Syrian بالنسبة للشعب وسرياني Syriac بالنسبة للغة . ولنذكر ان اليونان كانوا يسمون بـــلاد آرام «سورية»[١]. وكثيراً ما يسمى سكان البلاد سوريين ولغتهم سورية في الترجمة السبعينية للتوراة (Septuagint) وكذلك في الترجمة اللاتينية الشائعة (Vulgate)[٢]. وفي التعبير الحديث تقتصر كلمة «سريانية» على لهجات ادنسا والمناطق المجاورة .

الحضارة المادية

اقتبس الآراميون الحضارة المادية للشعب الذي سكنوا بين ظهرانيه . ففي شمالي سورية اصبحوا ورثاء ومتابعين لعمل الحضارة الحثية الاشورية وفي سورية الوسطى ورثوا الحضارة الكنعانية وتابعوها . واتخذت عاصمتهم شمأل[٣] في الشمال الغربي مظهر مدينة حثية ولكن ملوكها كانوا يتسمون باسماء آرامية على الغالب وتركوا كتابات اثرية بحروف فينيقية . وكانت هذه المدينة من المدن الآراميـــة النادرة التي جرت فيها حفريات اثرية .

وقد اقام احد ملوك شمأل واسمه بنامو الاول الذي عاش في النصف الاول للقرن الثامن تمثالاً ضخماً للاله حـــدد ارتفاعه تسعة اقدام ونصف ظهر فيه الاله بقبعة ذات قرنين ولحية مستديرة مجعدة وعينين منزلتين بالحجارة الكريمة وذراعين ممتدتين لاعطاء البركة[٤]. وتقول الكتابة التي تحت زنار التمثال ان هم الملك الاكبر كان سعادة شعبه . ويذكر ان الارض التي منحته اياها الآلهة المحسنة كانت «ارض شعير وقمح وثوم ويعمل الرجال في حرث تربتها وزرع كرومها[٥]» . وهنالك تمثال تذكاري لبنامو الثاني (٧٣٢ م.) اقيم غالباً فوق ضريحه من قبل ابنه ويقول :

---

١) انظر ما جاء في ص ٦٦ عن اشتقاق اسم سورية .

٢) قارن مع سفر عزرا ٤ : ٧ ؛ دانيال ٢ : ٤ .

٣) شمأل ومعناها «الشمال». وتقع قرية زنجرلي الحديثة في منتصف الطريق تقريباً بين انطاكية ومرعش وكانت المدينة الرئيسية في شمأل او سمأل .

٤) اكتشف هذا التمثال في ١٨٩٠ في كرجين Garjin على بعد ميل ونصف شمال شرقي زنجرلي.

٥) انظر : Cooke, p. 161 ; Arno Poebel, *Das appositionnelle Pronomen* (Chicago, 1932), p. 43. ويسمي بنامو نفسه «ملك يؤودي Ya'udi» ويقابل يهوذا .

«وفي ايام ابي بنامو عيّن حاملين للكؤوس وسائقي مركبات[١]» وبذلك زاد في فخامة البلاط الملكي .

ويظهر شكل ابن بنامو الثاني واسمه بار ركّاب منحوتاً بشكل بارز على عرش محفور حفراً فخماً في الابنوس والعاج والذهب ولا يقل ابهة عن عرش سيده ملك اشور . ويرتكز العرش على مخروطيات الارز وفي زوايا المقعد الاربعة رؤوس ثيران . وتحت قدميه يوجد كرمي يمثل هذه الزخارف الفنية . وثوبه الطويل ذو الحواشي وقبعته المروسة من النوع الحثي . اما لحيته وتجاعيد شعره فانها تتبع الاسلوب الاشوري .

حدد الرّاعد

والاله الذي كان يوجه الآراميون اعظم اهتمام لعبادتــــه كان حدد اله الزوابع والرعد ويسمى ايضاً أدَد او أدّو Addu . وكاله للبرق والرعد كان حدد مفيداً حين يرسل المطر الذي يخصب الارض وكان مضراً حين يرسل السيول . ومن القابه رمّون (الرّاعد)[٢]. وكان نعمان السوري يسمي اله سيده ملك دمشق بهذا اللقب[٣] . وكان الاسمان يستعملان معاً احياناً فيقال حــــدد رمون . ويظهر في نحت بارز من زنجـــــرلي حاملاً الشوكة ذات القضبان الثلاثة والمطرقة رمز البرق والرعد . وفي ملاطية يبــدو في شكل منحوت واقفاً على ظهر ثور وهذا رمز القوى المولدة . وكان اهم معبد للاله حدد في هيرابولس (منبج)[٤] ولكن له معابد في مدن سورية اخرى كثيرة وفي لبنان . وكان محبوباً بصورة

---

١) قارن مع : Cooke, p. 174; Mark Lidzbarski, *Handbuch der nordsemitischen Epigraphik*, vol. i (Weimar, 1898), p. 443.

٢) يبدو ان الاكاديين استعاروا هذه الكلمة (التي لا تتصل بطريق الاشتقاق بكلمة رمّون اي الرُمّان) من المناطق الغربية. وكان الاشوريون يلفظونها رَمّان rammân . وقد يكون اسم حدد اشتق من فعل لا يزال في اللغة العربية وهو هَدّ بمعنى كسر او هدم .

٣) سفر الملوك الثاني ٥ : ١٨ .

٤) بالاشورية Nampigi وبالارامية Nappigu (وفيا بعـــد اصبحت مابج Mabug او Mabbog بمعنى نبع من فعل nbag اي نبع) وباليونانية Bambyce وفي اليونانية الرومانية هيرابولس اي المدينة المقدسة، واليوم منبج .

خاصة بين المزارعين في سورية وامتزجت عبادته فيما بعد بعبادة الشمس وزخرف رأسه عند ذلك بالاشعة كما في بعلبك. وفي الغالب يجب اعتبار جوبيتر هليوبوليتانس الذي عبد في بعلبك معادلاً للاله حدد . وفي العصر الروماني تبدل اسمه فاصبح جوبيتر الدمشقي (Jupiter Damascus) .

وقد أمر بنامو الاول ابنه في الكتابة التي تركها على تمثال حدد ان يتلو العبارة الآتية عندما يقدم الذبائح : « لتأكل روح بنامو مع حدد ولتشرب روحه مع حدد ولتفرح بالتقدمة لحدد»[١]. ويعطينا ذلك فكرة طريفة عن فكرة الآراميين القدماء في الحياة الآخرة . وعرف الآراميون بعادة تسمية ابنائهم « بار حدد» اي ابن حدد او ابن آلهة اخرى محببة لديهم . وبقيت هذه العادة شائعة في سورية حتى العصر المسيحي وتلقي ضوءاً مفيداً على العلاقة المفترضة بين الاله والذي يعبده .

اتارغاتس

وعبدت رفيقة حدد اوزوجته وهي الاهة توالد في هيرابولس وفي مراكز سامية اخرى باسم اتارغاتس Atargatis[٢]. وكان اليونان والرومان يبسّطون الامر فيسمونها « الالاهة السورية». وقد اتانا وصف لعبادتها من العصر الكلاسيكي كتبه لوكيانس[٣] وهو سوري من سميساط ولد حوالي ١٢٥ م. وكان يكتب باليونانية . وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيانس هي صفات عبادة الالاهة الام السامية وفي النقود التي اتت من هيرابولس نراها تلبس تاجاً ويصحبها اسد احياناً . ويتألف

---

١) انظر : Cooke, p. 162; Poebel, p. 48.

٢) وهذا الشكل اليوناني للاسم مأخوذ من الآرامية عتار Atār، اي عشترت بالاضافة الى الآرامية عتاه Atāh، (ولا علاقة لها بالآلهة الفريجية آتيس Attis). وكانت عبادة عتار وعتاه بالاصل عبادتين ساميتين مختلفتين ثم اندمجتا. انظر : S. Ronzevalle, « Les Monnaies de la dynastie de 'Abd-Hadad », *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. xxiii (1940), No. 1, p. 26.

٣) في كتابه De Dea Syria. انظر نص الكتاب وترجماته في : *The Syrian Goddess*, tr. Herbert A. Strong, ed. John Garstang, (London, 1913); ed. and tr. A. M. Harmon, « The Goddesse of Surrye, in *Lucian*, vol. iv (London, 1925), pp. 337-411.

رمزها من الهلال مع قرص الشمس . وكان لها معبد في كرنيون Carnion[١] في جلعاد . وكانت عسقلان في فلسطين مركزاً لعبادتها حيث اعتبرت غالباً معادلة لافروديت .

وانتشرت عبادة اتارغاتس بين اليونان في العصر السلوقي وبواسطتهم وصلت الى رومة حيث اقيم معبد باسمها. وتشاهد في الآثار الرومانية جالسة على عرش بين اسدين. وكان كهنتها عموماً من الخصيان الذين اعتادوا القيام برحلات الى اليونان وايطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبؤات والرقص الروحاني وجمع تبرعات الاتقياء لاجل معبدها في هيرابولس .

وهنالك نموذج غريب لاتارغاتس على النقود من هيرابولس حيث تظهر محجبة . ووجدت صور اخرى كثيرة لاتارغاتس المحجبة[٢]. وتظهر رسوم نساء محجبات بحجاب ثقيل يشبه حجاب اي مسلمة محافظة اليوم على نقش من معبد بعل في تدمر وفي لوح منحوت من دورا اوربس . وترينا بعض الآثار الاخرى الرأس محجباً . ويبدو ان الحجاب كان في الشرق القديم رمز المرأة المتزوجة ولباسها المفروض . وكان التشريع الاشوري من منتصف الالف الثاني ق.م. يتطلب من نساء الرجال الاحرار وبناتهم ان يغطين رؤوسهن حين يخرجن الى الشارع[٣].

وكانت مجموعة الآلهة الآرامية تضم فيما سوى الزوج الالهي حدد واتارغاتس عدداً من الآلهة الاخرى ذات المكانة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر مستعار من الامم المجاورة . وكانت الآلهة حدد وايل وركّاب ايل وشمش ورشوف هي التي اعطت الملك بنامو الاول الصولجان في الكتابة الاثرية التي تركها ومنحته الاشياء

---

١) وهي Karnion او Carnain التي هي على الغالب Ashteroth Karnaim (اي عشتاروت ذات القرنين) المذكورة في سفر التكوين ١٤:٥ . والموقع الحالي هو إما تل عشترا على احد عشر ميلاً شمال غربي درعا أو تل الاشعري على اربعة اميال جنوبي تل عشترا وهذا اكثر احتمالاً.

٢) انظر : Ronzevalle, pp. 25-26.

٣) راجع : V. Scheil, *Recueil des lois assyriennes* (Paris, 1921), §§ 41, 42; Morris Jastrow, Jr., «An Assyrian Law Code», *Journal American Oriental Society*, vol. xli (1921), pp. 34-38. انظر بشأن الحجاب في الشرق القديم : Morris Jastrow, «Veiling in Ancient Assyria», *Revue archéologique*, vol. xiv (1921), pp. 209-38; R. de Vaux, «Sur le voile des femmes dans l'orient ancien», *Revue Biblique*, vol. xliv (1935), pp. 397-412.

التي صلى لاجلها. وركّاب او سائق المركبات هو اله مستورد الى سورية مع اله الشمس الاشوري. وشمش الاشوري هو اسم اله الشمس الذي كان يعبد في العالم السامي كله. ورشوف هو الاله الفينيقي رشف الذي كان كثيراً ما يمثل بشكل جندي مسلح. وفي كتابة زاكر ملك حماة يرفع هذا الملك يديه لبعل شمين (سيد السموات) ويقول: «كل من يمحو اسم زاكر ملك حماة ولعش من هذا النصب او يخربه من امام ايل وير El Wer او يزيله من مكانه او يمد يده ضده... فان بعل شمين وايل وير وشمش وسهر وآلهة السماء وآلهة الارض... ستهلكه»[1]. ويتضح ان بعل شمين هو حدد ولكن هوية ايل وير لم تعرف بعد. وسهر[2] هـو الاله القمر. وكانت حران مركز الاله القمر الذي يسمى سين عند الاشوريين. ويرد ذكر هذا الاله على حجر تيماء[3] التي ترجع كتابتهـا الى القرن الخامس ق.م. باسم شنغالا Shingalla وهو اسم اشوري مستورد معناه سين العظيم. والالهان الآخران المذكوران على هذا الحجر هما سلم (بمعنى صورة او تمثال) ويشير غالباً الى بعل المحلي، وعاشرة[4].

---

١) انظر: Pognon, p. 176; Mark Lidzbarski, *Ephemeris für semitische Epigraphik*, vol. iii (Geissen, 1915), pp. 4, 11.

٢) وتأتي كلمة شهر العربية من هذا الاصل.

٣) تيماء هي واحة في شمالي الحجاز.

٤) Cooke, pp. 196-197.؛ انظر ما جاء بشأن عاشرة في ص ١٣٠.

الفصل الثالث عشر

الشعب العبراني

كان العبرانيون الشعب السامي الرابع الرئيسي الذي سكن سورية بعد الاموريين والكنعانيين والآراميين. وكان اهم مركز للاحداث السورية في عهد الاموريين في الشمال في منطقة الجسر السوري. وانتقل مركز هذه الاحداث في زمن الكنعانيين الى الساحل، وكان في زمن الآراميين في الداخل، اما الآن فقد تحول مع العبرانيين الى الجنوب اي فلسطين.

اصل العبرانيين

كان دخول العبرانيين الى كنعان – كما كانت تسمى سورية الجنوبية حينذاك – نتيجة ثلاث هجرات كما يظن ولكن هذه الهجرات غير محددة بالضبط. فقد بدأت موجة الهجرة الاولى في بلاد الرافدين وكانت معاصرة تقريباً للحركة التي حصلت في القرن الثامن عشر وكان من شأنها انتشار الهكسوس والحوريين في ساحل البحر المتوسط الشرقي[1]. واتصلت الهجرة الثانية بالآراميين في القرن الرابع عشر في عصر العمارنة. واما الهجرة الثالثة التي نعرف عنها اكثر بكثير فقد اتت من مصر والجنوب الشرقي بقيادة موسى ويشوع في اواخر القرن الثالث عشر[2]. وكان الكنعانيون يشكلون معظم السكان عندما اتى الرواد اسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين. وكان الاموريون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلها جماعة مستقرون بصورة كثيفة وهذا ما اعطى للقادمين الجدد مجالاً للسكنى. وكانت توجد اقوام اقل شأناً في اماكن متفرقة وبعيدة.

---

١) انظر ص ١٦١ و ١٦٢.

٢) قارن مع: Theophile J. Meek, *Hebrew Origins* (New York, 1936), pp. 3 seq.

وتزاوج السكان الجدد مع جميع هؤلاء وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف باصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

وقد برهنت سورية مرة اخرى بعد مجيء العبرانيين على مقدرتها في امتصاص الدخلاء الرحّل او نصف الرحّل بتشجيعهم على ان يصبحوا مستقرين وان يتركوا ذلك المصدر الغريب لقوتهم وهو التنقل . فقد اتى الشعب الذي عرف فيما بعد بالعبرانيين بشكل متجولين ومغامرين ومرتزقة وجنود لا ارتباط لهم ثم استقروا بالتدريج بين السكان الذين سبقوهم وفاقوهم في مدنيتهم وتعلموا منهم حرث الارض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم واهم من ذلك القراءة والكتابة . ويضاف الى هذا كله ان العبرانيين تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم . واللغة الفينيقية واللغة العبرانية القديمة كما هي مدونة في العهد القديم لا تختلفان الا من ناحية اللهجة . واصبح العبرانيون القدماء بوجه الاجمال ورثة المظاهر الاساسية للحضارة الكنعانية المادية واتباع كثير من العبادات والعادات والصفات الدينية الكنعانية .

الدور القبلي

يحيط الغموض ببدء وجود العبرانيين في سورية الذي سجل بشكل اسطوري تقليدي . والمرويات العبرانية المذكورة بشكل مختصر جداً تقول ان ابراهيم[١] — جدهم الاكبر او قبيلتهم الاصلية — اتى من اور في بلاد الرافدين بطريق حران واقام موقتاً قرب حبرون (الخليل) . وترك وريثه اسحق[٢] ابناً اسمه يعقوب[٣] . وبعد ان اقام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن تفضيلاً له على اخيه عيسو[٤] وتغير اسمه فاصبح اسرائيل[٥] . وحصل

---

١) بالعبرية ابرام abh-rām اي الآب رفيع او عالي .

٢) من العبرية Yiṣḥāq اي ليبتسم [ايل] .

٣) من العبرية ,Ya'qôbh اي ليحفظ [ايل] .

٤) انظر سفر التكوين ٢٥ : ٢٣ ، ٢٧ — ٣٤ .

٥) بالعبرية Yisrē-'ēl او ليحكم ايل او ايل يحكم .

عيسو على اسم آخر وهو ادوم (اي احمر) وحل ورثته فيا بعد محل سكان منطقة جبل سعير وعرفوا باسم الادوميين[١]. وهكذا ازيل عيسو من حياة العبرانيين وتفكيرهم كما ازيل قبلًا اسماعيل[٢] ابن ابراهيم من جاريته المصرية هاجر وفُضل عليه اسحق. وبين اولاد يعقوب الاثني عشر كان يوسف[٣] الحادي عشر وهو الابن الاكبر لراحيل وقد باعه اخوته لجماعة في مصر وارتفع شأنه في الدولة المصرية. وبعد ان اقام ورثة يوسف واخوته اجيالًا عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى.

ذلك هو مختصر التاريخ العبراني القديم كما وضعه كتاب عاشوا بعـــد وقوع الحوادث بمئات السنين واستندوا على ما سمعوه وعلى سلسلة طويلة من المرويات الشفهية.

لم يكتف هـــؤلاء المؤرخون بابتداء مروياتهم بالجد الاكبر للشعب العبراني فتوسعوا في قصة الانسان ولخصوها مبتدئين بالخليقة. واخذوا في ذلك موادهم من مصادر بابلية ولم يصبح هذا الامر محققاً الا بعد منتصف القرن الماضي حين كشف تفسير الكتابات المسمارية عن وجود ما يقابل قصص الخليقة والطوفان وغيرها. غير ان هذه القصص هذبت وبُسطت وصار لها مغزى اخلاقي على يد الكتاب العبرانيين ثم كتبت بشكل جميل حتى انها اصبحت قسماً من تراث البشرية الادبي. وهي لا تزال بشكلها هذا تسلي وتعلم اجيالًا من القراء في جميع البلاد وفي مختلف اللغات.

انه ليتضح ان التاريخ الذي كتبه العبرانيون عمـــا سبق الدور القبلي ليس بتاريخ. وليس من السهل استخلاص لب الحقائق التاريخية من المرويات التي تتعلق بالدور القبلي نفسه. وقد تعكس لنا قصة ابراهيم اخبار الهجرة الاولى كما ان قصة اسرائيل قد تكون انعكاس الهجرة الثانية. وأمـــا قصة موسى فهي تاريخية بالتأكيد.

---

١) سفر التثنية ٢: ٤، ١٢، ٢٢.

٢) من العبرية يشمع ايل Yishmā'-'ēl اي ليسمع ايل.

٣) بالعبرية ياسَف Yāsaph اي ليضيف [ايل].

الخروج من مصر

يبدأ تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب اذاً بالخروج من مصر. ان هذا الحادث الهام حصل في الثلث الاخير للقرن الثالث عشر. فقد وجدت احدى القبائل العبرانية — وهي قبيلة راحيل — في مصر في زمن الهكسوس مأوى لها وازدهرت. وكان مكان سكناها هناك ارض غوشن Goshen قرب افاريس Avaris عاصمة الهكسوس. واخيراً اتى فرعون «ولم يكن يعرف يوسف[١]» وفرعون هذا هو رعمسيس الثاني كما يعتقد (حوالي ١٣٠١ — ١٢٣٤). وقد حصل الخروج غالباً في عهد مرنفتاح ابن رعمسيس (١٢٢٤—١٢١٥). ويحوي نصب في طيبة بتاريخ ١٢٣٠ ق. م. اقدم ذكر لاسرائيل كاسم شعب في فلسطين. وربما كانت الاشارة لجماعة من الاسرائيليين الذين لم يهاجروا الى مصر.

بعد ان غادر افراد قبيلة راحيل ارض مصر في اوائل القرن الثالث عشر قضوا عدة سنوات في سينا وجوار قادش — برنيا[٢]. حيث تعرضوا لمتاعب كثيرة. ان تلك «البرية العظيمة المخيفة» التي ظلت مخاطرها تراود العبرانيين لمدة اجيال يمكن اجتيازها اليوم بمدة خمس ساعات على طريق من الاسفلت طولها ١٤٠ ميلاً تصل مصر بفلسطين. وفي مديَن وهو القسم الجنوبي من شبه جزيرة سينا وضع العهد الالهي. وتزوج زعيم الاسرائيليين موسى الذي يبدو اسمه ككلمة مصرية معناها «ابن» من ابنة كاهن مدين الذي يعبد يهوه[٣] والذي علّم موسى هذه العبادة الجديدة. وكان هذا الاله العربي الشمالي اله صحراء وبالاصل اله القمر ومقره كان خيمة وطقوسه تشمل بعض الاعياد والتضحيات من بين القطيع[٤]. وتزاوج آخرون غالباً مع المدينيين والقينيين[٥] وسائر سكان بادية شمالي الجزيرة العربية.

---

١) سفر الخروج ١: ٨.

٢) يظن انها عين قديس اليوم على بعد ٥١ ميلاً جنوبي بئر السبع.

٣) سفر الخروج ٣: ١؛ ١٨: ١٠ — ١٢. وكلمة يهوه (بالانكليزية Jehovah) من العبرية التي قد تكون صيغة المضارع من فعل هَوَه بمعنى أحدث.

٤) سفر الخروج ٣: ١٨؛ ٥: ١؛ سفر العدد ١٠: ٣٥ — ٣٦.

٥) اي الحدادين (بالعربية قين بالمفرد)؛ سفر القضاة ١: ١٦؛ ٤: ١١؛ سفر العدد ١٠: ٢٩. وكان المصريون وعرب الجزيرة العربية يعلمون عن وجود المعادن في سينا ووادي العربة قبل هذا العصر بكثير.

السكنى في فلسطين

وفي حوالي ١٢٥٠ ق. م. ظهر هؤلاء البداة المتحدرون من اخلاط العشائر في الجهة الجنوبية الشرقية من سورية – اي من بادية شرقي الاردن – وهدفهم احتلال الاراضي الخصيبة . وكان عددهم لا يمكن ان يتجاوز ستة آلاف او سبعة آلاف[١] اذا اعتبرنا شروط حياة الصحراء وقلة المياه والكمية المحدودة من الطعام والاراضي الصالحة لرعي القطعان . وتجنب العبرانيون ممالك ادوم ومؤاب وعمون الصغيرة التي تقع الى جنوبي البحر الميت وشرقيه وشماليه الشرقي ولم يحاولوا اخضاعها حتى عهد الملكية .

وكان اول فوز عـــبراني في شرقي الاردن على سيحون ملك الاموريين وتبعه فوز آخر على عوج (Og)[٢] الملك الجبار ملك باشان . وفي فلسطين نفسها كانت من بين المدن الاولى الكنعانية المحصنة التي سقطت لجيش (تل الدوير) ، وعاي ('Ai)[٣] واريحا. وكان سقوط اريحا من اروع هذه الحوادث[٤]. فقد احرق يشوع اريحا بالنار بأمر يهوه «وكل ما بها»[٥]. ولم تسقط مجدو في الشمال حتى بعد حوالي مائة سنة. وأدى التغلغل العبراني في الجليل الى فتح حاصور[٦] موقتاً وهي عاصمة مملكة كنعانية في الشمال. وكان على العبرانيين ان يعيدوا فتحها في عهد القضاة[٧]. ولم تسقط المدن الاخرى المهمة مثل بيت شان واورشليم وجزر حتى حوالي ١٠٠٠ ق. م او بعد ذلك بقليل.

---

١) قارن مع سفر الخروج ١٢:٣٧؛ العدد ١:٢١ وما بعده؛ ٢:٤ وما بعده .

٢) سفر العدد ٢١:٢١ وما يليه؛ ٢١:٣٣ وما يليه .

٣) قرب دير ديوان الحالية . يشوع ١٠: ٣٠–٣١ ؛ ٨: ٣ وما يليه .

٤) يشوع ٦:١٥ وما يليه .

٥) يشوع ٦:٢٤٬٢ .

٦) تل وقاص او تل القدح وهو على نحو ٣/٤ ٣ الميل غربي جسر بنات يعقوب . سفر يشوع ١١ : ١٠ – ١٣ .

٧) سفر القضاة ٤:٢ ؛ ٢٣ – ٤ ؛ صموئيل الاول ١٢: ٩ .

ومع ذلك فان ما يسمى بالفتح العبراني كان من جهة فتحاً عسكرياً ومن جهة اخرى تغلغلاً سلمياً بطيئاً الى ارض «اللبن والعسل». وبعد ان حصل القادمون الجدد على محط رجل في الارض المزروعة فان قوتهم ازدادت بالتزاوج مع عناصر اقدم وبانضمام اقاربهم اليهم وكانوا قد بقوا في البلاد ولم يهاجروا الى مصر. وهكذا اصبحوا يسودون البــــلاد. وكان من الطبيعي ان تكون المعارك عظيمة الشأن بالنسبة لمؤرخيهم. ولم تكن تلك المعارك نقطة الارتكاز في المرويات فحسب وانما كثيراً ما حصلت مبالغة في كثير من الحوادث. ويمكن القول بالاجمال ان العملية حصلت باخضاع سكان البلاد للعبرانيين بطريق المعاهدة او الفتح او الامتصاص التدريجي.

وعندما سيطر العبرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الاحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بين سائر القبائل لتهتم بشؤونها الدينية. وهكذا سكنت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الاراضي المرتفعة لحول اورشليم بينا استقرت القبائل الاخرى في السهول الاكثر خصباً في الشمال.

القضاة

شملت فترة الاستيطان تقريباً الربع الاخير للقرن الثاني عشر والارباع الثلاثة الاولى للقرن الحادي عشر وهي تقابل ما يسمى بعصر القضاة. وكان هؤلاء القضاة بالحقيقة ابطالاً وحكاماً وطنيين ظهروا بصورة عفوية في ايام الشدة وقادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين او الحكام الاجانب. وكانت دبورة وهي أم ملهمة في اسرائيل من اولئك القضاة وقد قادت مع باراق ست قبائل للنصر على الكنعانيــــين في الشمال[1]. وكذلك كان جدعون الذي رد هجوم المديانيين ومعه ٣٠٠ رجل[2]. وكان شمشون اشهر اولئك القضاة وقد ازدانت قصة نزاعه مع الفلسطينيين باضافات كثيرة على يد القصاصين العبرانيين[3]. واتى المديانيون كغزاة من البدو واستخدموا

---

١) سفر القضاة ٤ : ٤ — ١٤ .

٢) القضاة ٧ : ١٥ وما يليه .

٣) سفر القضاة الاصحاح ١٥ و ١٦ .

لاول مرة الجمل المدجن. وهكذا ادخلوا سلاحاً جديدا في الحرب وكان له مفعول عظيم خاصة في الغزو على مسافات بعيدة.

الفلسطينيون

وكان الفلسطينيون اقوى المنافسين الذين كان علــى العبرانيين ان يقاتلوهم لامتلاك البلاد. والفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين اتوا من منطقة بحر ايجة. وبعد ان فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد الساحلية. وقد أدت حركات غامضة للشعوب في آسية الصغرى والبلاد الايجية في اواخر القرن الثالث عشر الى تفرق قبائل بكاملهـــا فبحثت عن موطن لها في مناطق اقل اضطراباً. وتوافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سورية وبعد تقويضها بعض الدول ومنها اوغاريت[١] وصلت الساحل المصري. وقد هزمت هناك حوالي ١١٩١ ق. م. في معركة بحرية وبرية عن يد رعمسيس الثالث ولكنه سمح لها ان تنزل بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبية الذي صار يسمى فلسطيا Philistia[٢]. واستقرت مجموعة اخرى تسمى التجكر Tjeker في دور Dor جنوبي جبل الكرمل حيث صادفهـــم المبعوث المصري ون آمون بعد قرن تقريباً[٣]. وكان نشاط لصوص البحر في شرقي البحر المتوسط في زمن ون آمون مصدره جوالة البحار هؤلاء. وكان قد اتى قبل الغزوة الفلسطينية جماعة آخرون من شعوب البحر من اليونان وآسية الصغرى وبعضهم اتى بطريق قبرص ونزلوا في الساحل المصري حيث صدهم مرنفتاح حوالي عام ١٢٢٥ ق.م.

مدنهم الخمس

امتد الساحل الذي استولى عليه الفلسطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي

---

١) انظر ص ١٢٧ — ١٢٩. وقد هدمت صور بعد ذلك بمدة قصيرة.

٢) انظر Breasted, *Records*, vol. iv, § 403 حيث يوجــد اول ذكر لاسم «بليست Pelest». وكان Palaeste اسم مكان في منطقة الليرية وهي ابيروس. انظر: G. Bonfante, «Who were the Philistines?» *American Journal of Archaeology*, vol. L (1946), p.251.

٣) انظر ما جاء في ص ١٤٤ — ١٤٥.

يافا . واهم المدن التي استوطنوها كانت غزة وعسقلان واشدود وعقرون Ekron وجت[٣] Gath[١] واحتفظت باسمائها السامية تحت حكمهم . وكانت جت[٣] أبعد مدنهم في الداخل وسياستهم كانت ان يظلوا قريبين من البحر حيث يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التي تغطيها الكروم فيما وراءه. وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبين بلاد الفينيقيين في الشمال. ولم يؤسس الفلسطينيون مستعمرات ما عدا مدينتي اللد وصقلغ Ziklag[٢] اللتين يمكن استثناؤهما. وقد توسعوا من المنطقة الساحلية في الداخل واستولوا على عدد من المدن الكنعانية ونزعوا السلاح من السكان. وكانت حملات الفراعنة المتتابعة لمعاقبة سورية وفرض مختلف المطالب عليها قد أفقرتها واضعفت مقاومتها امام هجوم قبائل البادية وقرصان البحار . وما كان باستطاعة الفلسطينيين ولا العبرانيين ان يصيبوا ذلك النجاح في تثبيت اقدامهم في البلاد لو ان مصر الامبراطورية كانت لا تزال قادرة على السيطرة التامة عليها .

ومما يساعد في الدلالة على ان الفلسطينيين كانوا اوربيين الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي اقامه رعمسيس الثالث . كما يدل على قدومهم من جزر اليونان وخاصة كريت[٣] نموذج الخزف الذي ادخلوه . وبما انهم أتوا معهم بنسائهم فانهم ظلوا مترفعين في اول الامر يشكلون طبقة عسكرية اجنبية تقيم في الحاميات وتمثل حضارة اجنبية . وقد نظمت مدنهم الخمس بشكل ممالك مدن كل منها تحت حكم سيد[٤] ولكنها جميعها كانت تشكل اتحاداً. ويبدو ان السيادة كانت لمدينة اشدود. وتظهر صورة احد اسيادهم بلحية على الشفة السفلى وشعر مجدول على الجانب على غطاء تابوت من الخزف وجد في بيت بلِت Beth-pelet (خربة المشاش) قرب بئر السبع في اقصى جنوبي اليهودية .

---

١) وقد تكون تل عرق المنشية على ستة اميال ونصف غربي بيت جبرين (Eleutheropolis) .

٢) وهي في اقصى جنوبي منطقة يهوذا وربما كانت تل الخويلفة على عشرة اميال شرقي تل الشريعة.

٣) وقد ذكرت باسم كفتور في سفر عاموس ٩:٧؛ سفر ارميا ٤٧: ٤ .

٤) وردت في التوراة العبرانية باسم سِرِن seren في سفر يشوع ١٣ :٣؛ القضاة ٣:٣؛ ١٦: ٥؛ صموئيل الاول ٦: ١٦ وهي من الكلمات الفلسطينية القليلة الباقية. وكلمة اخرى هي « كوبَع » بمعنى خوذة واتت الى العربية (قُبع) بطريق العبرية ويرجعها البعض الى الحثية . وكلمة caput اللاتينية تعود الى نفس الاصل .

وكانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشر . فقد كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق. م. واخذوا منهم تابوت العهد وحملوه الى اشدود[١]. وفي نحو عام ١٠٢٠ كانوا يقيمون في حاميات في البلاد المرتفعة نفسها. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو ١٠٠٤) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان[٢]. ولا يمكن ان يعني ذلك الا ان الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا بالنسبة لبني اسرائيل .

والذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على اعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والهجوم . وهنالك صورة خاطفة لمحارب فلسطيني مزود بالاسلحة المعدنية في قصة جليات الذي كانت قناة رمحه « كنول النساجين » وسنان رمحه كان يزن «ست مئة شاقل حديد» والذي كان ترسه ثقيلاً جداً حتى انه احتاج الى حامل ترس خاص « يمشي قدامه[٣] ». وقد عرضت بعض حوادث البطولة الحربية الشهيرة عند العبرانيين كما في قصتي شمشون وداود لتتعارض مع مظاهر هذه القوة لدى الفلسطينيين .

الحديد

واستثمر الفلسطينيون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه حتى انهم احتكروها . وكانوا يضطرون الاسرائيليين الذين يريدون تحديد آلاتهم الزراعية وادواتهم القاطعة ان يذهبوا الى حدادين فلسطينيين[٤]. وكان هذا العائق الكبير في ايام الحرب كما اتضح مما جرى في عهد شاول .

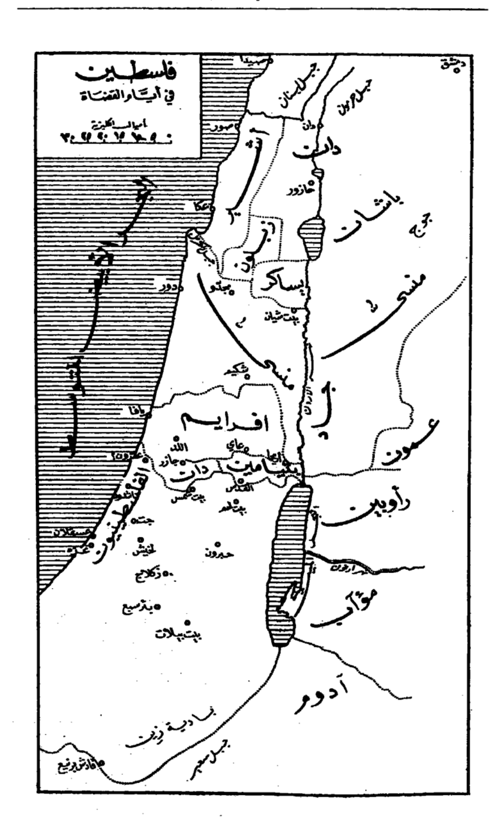
---

١) سفر صموئيل الاول ٥ : ١. انظر بشأن صلة تابوت العهد بما يشبهه وبما جاء قبله عند الساميين ــ اي القبة قبل الاسلام عند العرب والمحمل في الحج عند المسلمين والعُطفة عند البدو ــ Julian Morgenstern, *The Ark, the Ephod and the « Tent of Meeting »* (Cincinnati, 1945), pp. 1 *seq.*

٢) سفر صموئيل الاول ١٣ : ٣ وما يليه ؛ ٣١ : ١٢ .

٣) سفر صموئيل الاول ١٧ : ٧ .

٤) سفر صموئيل الاول ١٣ : ١٩ ــ ٢٢ .


فلسطين
في أيام القضاة
أميال انكليزية
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٣٠
دمشق
جبل لبنان
جبل حرمون
صيدا
صور
دان
دان
حاصور
باشان
ججع
عكا
يساكر
دور
مجدو
بيت شان
منسى
منسى
شكيم
يافا
افرايم
الله
عاي
اريحا
جازر
دان
بنيامين
القدس
بيت شمس
بيت لحم
جت
اشدود
عسقلان
غزة
لخيش
حبرون
زكلاج
بئر سبع
بيت بيلات
الاردن
عمون
رأوبين
ارنون
موآب
آدوم
بادية زين
جبل سعير
قادش برنيع

وكان الحثيون قبل قدوم الفلسطينيين قد استخدموا الحديد بصورة محدودة في اوائل القرن الثالث عشر كما يستدل من مراسلات حتوشلش وكان مصدر الحديد المناطق الواقعة على البحر الاسود. غير انه لم يصبح استعمال هذا المعدن شائعاً في سورية حتى قدوم الفلسطينيين. وحافظ الحثيون على اسرار صناعته بحرص شديد كما فعل الفلسطينيون من بعدهم. وقد تفوق الكنعانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية تفوقاً حاسما على الغزاة الاسرائيليين[١] .

ولم يحصل غير الفلسطينيين على معرفة صهر الحديد المعقدة الا في ايام حكم داود (توفي نحو ٩٦٣) حين ضعفت سلطة الفلسطينيين في البلاد[٢]. فانه عدا عن تغلبه على الفلسطينيين قد فتح ايضاً بلاد ادوم التي كانت مصدراً غنياً للحديد الخام. وكان هذا المعدن موجوداً في لبنان ايضاً وتعلم الفينيقيون استخدامه في بناء سفنهم. وهكذا فان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة اهم وهي عصر الحديد. وكان ذلك اهم فضل لهم.

وفوق ذلك فانه يمكن الاعتقاد بانهم اعطوا جيرانهم وورثتهم الفينيقيين ميلاً للاسفار البحرية البعيدة كان من نتائجه استكشاف البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الاطلسي الشرقي. وفيما سوى هذا وبقايا قليلة للحضارة المادية بشكل خزف وآلات زراعية ومطارق وازاميل حديدية فان الفلسطينيين كادوا ان لا يتركوا اثراً يمكن ان يذكرنا بهم. وكجماعة اجنبية فانه لم يكن لهم ما يضمن بقاءهم سوى تجديد عددهم بواسطة الهجرة وذلك امر مستحيل في تلك الظروف، وفي نهاية حكم داود اخذوا يتجهون نحو الزوال كشعب. ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ولم يتركوا الا اليسير جداً لمعرفة لغتهم وديانتهم وعمارتهم وسائر مظاهر حضارتهم. وعندما كتب نحميا[٣] في منتصف القرن الخامس لم يذكر الفلسطينيين بل

---

١) يشوع ١٧ : ٢ ؛ القضاة ١ : ١٩ .

٢) اخبار الايام الاول ٢٢ : ٣ .

٣) سفر نحميا ٤ : ٧ ؛ ١٣ : ٢٤ .

ذكر «الاشدوديين» الذين كانوا يتكلمون بلسان اشدودي . ومن اسماء الاشخاص النادرة التي وصلتنا اسم «أخيش»[١]. ومن آلهتهم داجون[٢] اله الحبوب كما يعني هذا الاسم وقد اقتبس من آلهة الكنعانيين . وكان مركز عبادته اشدود ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان . اما عمارة معبـــد داجون وقصر الحاكم او السيد في غزة[٣] وسائر معابد الفلسطينيين المذكورة في العهد القديم فاننا لا نعرف عنها شيئاً .

---

١) سفر صموئيل الاول ٢٧ : ٢ .

٢) سفر القضاة ١٦ : ٢٣ ؛ صمـــوئيل الاول ٥ : ٢ – ٧ ؛ اخبار الايام الاول ١٠ : ١٠ ؛ سفر المكابيين الاول ١٠ : ٨٤ .

٣) سفر القضاة ١٦ : ٢٣ وما يتبع .

الفصل الرابع عشر

المملكة العبرانية

المملكة المتحدة

كانت مقاومــــة العبرانيين للفلسطينيين بصورة خاصة فرصة سنحت لتأسيس المملكة العبرانية . وبالحكومة الملكية يبدأ تاريخ الامة العبرانية . ففي ظلها اصبح للعبرانيين صفات قومية بارزة وان كانوا فقدوا النظرة السياسية . وكان العبرانيون الشعب الوحيد بين الشعوب السامية القديمة الذي انشأ شعوراً قومياً متطرفاً كما ان العبرانيين وحدهم من بين الساميين القدماء احتفظوا بصفاتهم القومية وبفرديتهم . وقد ساعدت الديانة مساعدة كبرى في توحيدهم وتعاونهم .

وكان لجيران العبرانيين من ادوميين ومؤابيين وعمونيين ملوك . والفلسطينيون كان لهم اسياد او اقطاب حافظوا على اتحاد ضعيف . وكان للفينيقيين ممالك مدن وكانت بعضها مثل بيبلوس وصيدا وصور قد تطورت وصارت تشكل امماً . غير ان العبرانيين كان لهم حتى هذا الحين قضاة او زعماء يظهرون عندما تدعو الحاجة . ولذلك ذهب شيوخ اسرائيل الى زعيمهم الديني صموئيل وطلبوا منه ان يجعل لهم «ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب»[1]. ومُسح رجل اسمه شاول اول ملك عليهم نحو عام ١٠٢٠ ق.م. رجل «من كتفه فما فوق كان اطول من كل الشعب»[2]. ففكرة الملكية لم تأت من مصادر خارجية فحسب وانما الملكية نفسها في نظامها تشكلت بالتدريج على اسس مقتبسة من الدول المجاورة . غير انها اختلفت نوعاً في ناحيتين : فالتنظيم القبلي بقي لاغراض ادارية من جهة والملك كان عليه ان يحكم حسب اوامر يهوه كما اعلنت بواسطة الرجال الصالحين .

---

١) سفر صموئيل الاول ٨: ٥ .

٢) سفر صموئيل الاول ٩: ٢ .

كان الملك العبراني الاول مخيباً للآمال بل كان فاشلاً بالواقع . وكانت اخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية . وكان يعيش كشيخ بدوي في خيمة في بلدته جبعة[١]. ولم تمتد حدود مملكته الصغيرة الى ابعد من منطقة قبيلته بنيامين في اول الامر . ومع ذلك فقد كان انتخابه يعني الثورة ضد الاسياد الفلسطينيين . وبعد قتال طويل قتل الفلسطينيون في معركة جلبوع[٢] ثلاثة من اولاده وجرح شاول بصورة خطرة ولذلك انتحر . وبعد ان قطع العدو المنتصر رأسه سمر جسده واجساد ابنائه على سور بيت شان وارسل سلاحه كغنيمة حرب الى معبد عشتاروت[٣].

داود

كان المؤسس الحقيقي للمملكة داود (نحو ١٠٠٤ – ٩٦٣ ق. م.) حامل سلاح شاول وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ولكنه نجح في النهاية ليس في تحقيق الاستقلال التام فحسب بل ايضاً في توسيع حدود المملكة الى ابعد مما بلغته في اي وقت آخر . قام داود بسلسلة من العمليات الحربية ادت الى التخلص من نير الفلسطينيين وجعل ادوم ومؤاب وعمون تحت حكمه وحققت له ما هو اغرب من ذلك وهو حكم سورية المجوفة الآرامية حتى حدود مملكة حماة كما يظن[٤]. ووصل جنوده الى دمشق ، وكانت المملكة التي اسسها اقوى دولة محلية ظهرت في فلسطين في اي عصر . وقد تمت له بنتيجة فتح ادوم السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سورية والجزيرة العربية . ولا نعلم عن وجود اية ممالك في بلاد ادوم الصغيرة او في جارتيها الشماليتين مؤاب وعمون قبل القرن الثالث عشر ق. م. وكانت فروع من الآراميين وبعض الخابيرو قد نزلت كما يبدو في هذه المنطقة في القرن السابق وكان البدو الرحل يجوبون هذه المناطق منذ القرن العشرين . ولا بد ان الهكسوس والآراميين قضوا على جميع بقايا الحضارة التي سبقت القرن العشرين . ولم تكشف

---

١) وهي تل الفول على اربعة اميال شمالي اورشليم . انظر صموئيل الاول ١٠: ٢٦؛ ١١ : ٤ .

٢) وهو اليوم جبل الفقوعة في المرتفع الشمالي الشرقي لجبل افرايم ويشكل مكان انفصال المياه بين حوض قيشون ووادي الاردن . واسم القرية الحديثة جلبون يذكرنا بالاسم القديم .

٣) صموئيل الاول ٣١: ١–١٠؛ اخبار الايام الاول ١٠: ١–١٠؛ قارن مع صموئيل الثاني ١: ٦–١٠.

٤) صموئيل الثاني الاصحاح ٨، ١٠، ١٢: ٢٦ – ٣١؛ قارن مع سفر العدد ٣٤: ٧ .

اعمال التنقيب الحديثة عن اية مدينة كبيرة في منطقة شرقي الاردن خلال هذه الفترة الطويلة بكاملها .

بعد ان وطد داود وضع مملكته ووسع حدودها واخضع جيرانها تم له تحقيق الوحدة الموقتة بين شعبه . ويغلب ان عدد النفوس بموجب الاحصاء الرسمي الذي عمله وهو من اقدم عمليات الاحصاء في التاريخ كان نحو ستمائة او سبعمائة الف نفس[١]. وانتقى داود حصن اورشليم اليبوسي ليكون عاصمة له وكان قد انتزعه من ايدي سكانه اليبوسيين . وكان هذا الاختيار موفقاً . فالمدينة تقع خارج المراكز القبلية الاصلية على الحدود بين القسم الشمالي والجنوبي للمملكة تقريباً وتسيطر على طريق من اهم الطرق الداخلية وهـو الذي يتجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربي وادي الاردن . ومع ذلك فان الدفاع عنها كان سهلاً . في هذه المدينة اقام داود مقره الملكي وهو قصر بني بالحجارة وخشب الارز من لبنان وقد بناه معماريون ونجارون صوريون ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام (٩٨١ — ٩٤٧ ق. م.)[٢]. وكانت الصداقة بين صور واسرائيل مبنية على المنفعة المتبادلة : فصور كانت فقيرة بالمحاصيل الزراعية بينما كانت اسرائيل بحاجة الى المواد التي تنقلهـا التجارة البحرية . وقد شيد داود بالاضافة الى قصره معبداً وطنياً ليهوه في العاصمة الجديدة وهكذا جعل اليهوية الديانة الرسمية في الدولة الموحدة . واصبح داود الملك المثالي بالنسبة للعبرانيين .

وفي زمن حكم داود « رجل الحرب » يبدأ ظهور الادب العبري وهو من اغنى وارفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر حضارية . وظهر المذكر **mazkir** الذي كانت مهمته الرسمية تدوين الحوادث الهامة وحفظ الحوليات الملكية[٣] . وقـد استعاروا الكتابة من الفينيقيين[٤]. ويظن ان الكهان بدأوا فيما بعد باعداد كتب مشابهة للوثائق الرسمية . ومن مثل هذه المدونات استخلص تاريخ الملكية الاولى

---

١) قارن مع صموئيل الثاني ٢٤: ٩؛ اخبار الايام الاول ٢١: ٥ .

٢) سفر صموئيل الثاني ٥: ١١ .

٣) صموئيل الثاني ٢: ١٦ ؛ سفر الملوك الثاني ١٨: ١٨ ، ٣٧ .

٤) انظر ص ١١٩ .

وادخل جانب منه في العهد القديم . ومؤرخ هذه الفترة كائناً من كان يكتب مواده باسلوب حيوي موضوعي. وهو يصف داود ليس كملك فقط وانما كانسان ويكتب كما يمكن للمعاصر ان يكتب. واول فصلين من سفر الملوك الاول هما اول قطع من النـــثر العبري . وكتابته عن ترجمة حياة داود في الفصول ٩ الى ٢٠ من سفر صموئيل الثاني هي قطعة رائعة من الانشاء التاريخي. ولم يكتب تاريخ مثل هذا من قبل. وهذا المؤرخ المجهول وهو اقدم المؤرخين يبدو عصرياً بشكل مستغرب. كذلك بدأت مجموعات من المؤلفات الشعرية في عصر داود وكان هو نفسه شاعراً له مكانته. وفي الواقع فان الاثر الذي تركته مواهبه الشعرية والموسيقية كان عظيماً حتى ان الاجيال نسبت له وضع عدد من المزامير التي بلغ من قيمتها الانسانية العامة واهميتها الدائمة انها لا تزال تستخدم كمصدر وحي وكوسيلة لرفع القوى الروحية .

سليمان في كل مجده

ورث داود ابنـــه سليمان (حوالي ٩٦٣ – ٩٢٣ ق. م.) ووصلت المملكة العبرانية في عهده ذروة فائقة من المجد والابهة . فاخبار الملوك العبرانيين ليس فيها ما يشبه مشاريع سليمان التجارية والصناعية ونشاطه الواسع في استخراج المعادن واعمـــاله العمرانية ومستوى الترف الهائل في معيشته . وكان يعيش بين مظاهر النشاط هذه حياة ملك مستبد شهواني في بلاط شبيه ببلاط مصر او اشور. وملكه جعل العبرانيين ينساقون بصورة اتم في تيار الحياة والمدنية الشرقيتين.

وقد بنى قصر سليمان معماريون فينيقيون واستخدموا في بنائه ارزاً من لبنان . ومفاوضات والده مع الفينيقيين امر مشكوك فيه . واستغرق بناء القصر ثلاث عشرة سنة. وكان الجناح الملكي غنياً باعمدة الارز حتى سمي «بيت غابة لبنان[١]».

وكان الهيكل الذي بناه اكثر اهمية من الناحية القومية . ويعتقد ان موقعه هو الموقع الذي فيه قبة الصخرة اليوم. وقد بني هيكل سليمان في الاصل ليكون معبداً ملكياً ملحقاً بالقصر واستغرق بناؤه سبع سنوات فقط ولكنه اصبح فيما

---

١) سفر الملوك الاول ٧: ٢ .

بعد مركزاً عاماً لعبادة العبرانيين . وكان المعماريون والبناؤون ايضاً من الصوريين واستخدموا ارز لبنان. ولاجل اتمام البناء كان ثلاثون الفاً من رعايا سليمان مسخرين ليشتغلوا بالنوبة فيعمل عشرة آلاف منهم شهراً في لبنان مع رجال حيرام وشهرين في بيوتهم يتابعون اعمالهم المعتادة[١]. وكانت الاخشاب المقطوعة تنزل الى البحر وتنقل ارماثاً الى يافا ثم توسل الى اورشليم . وكانت زخرفة الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة . وطقوس الهيكل وذبائحه تظهر الاساليب المتبعة عند الكنعانيين . وكان عبيد الهيكل من الكنعانيين . وحتى كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانية[٢].

وكانت اعمال سليمان العمرانية تضم التحصينات والثكنات والعنابر . وترينا اسطبلاته التي كشفت حديثاً حيث كان يضع مركباته مرابط بصفوف مزدوجة يمكن ان تتسع لاربعمائة وخمسين حصاناً حصل على بعضها من مصر وكيليكية[٣]. وقد بنى بمساعدة صديقه الفينيقي الملك حـــيرام اسطولاً من السفن لتجارة البحر الاحمر . وكانت قاعدة الاسطول عصيون غابر[٤] التي سميت ايلات Elath فيما بعد وايلة Aila في العصر الروماني . وكان اسطول سليمان يقوم من هذه الميناء تحت ادارة ضباط من صور بحملات بحرية حول ساحل الجزيرة العربية وافريقيا الشرقية[٥]. وكان الهدف الرئيسي استيراد البخور والعاج والذهب والحجارة الكريمة . وكان النحاس والحديد المنقّيان في عصيون غابر يشكلان مادة التصدير الرئيسية فيشحنان بحراً او ينقلان بطريق القوافل الى الجزيرة العربية بـــدلاً من السلع المستوردة من هناك ومن الهند . وكانت ادوم وكل المنطقة الواقعة في مملكة سليمان بين البحر الميت وخليج العقبة (وتسمى اليوم العربة) غنيـــة بالنحاس والحديد . ولذلك

---

١) الملوك الاول ٥ : ١٣ .

٢) انظر بشأن اشتقاق كلمة هيكل في ص ١٤٩ ، هامش رقم ٢ .

٣) قارن مع سفر الملوك الاول ١٠ : ٢٦ ، ٢٨ — ٢٩.

٤) وهي تل الخليفي في رأس خليج العقبة واجريت فيها تنقيبات عام ١٩٣٨ ؛ راجع : Nelson Glueck, « The First campaign at Tell el-Kheleifeh», *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 72 (1938), pp. 3-18.

٥) سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧ — ٢٨ ؛ ١٠ : ١١ ؛ اخبار الايام الثاني ٩ : ١٠ .

اصبحت ميناء سليمان مركزاً للتعدين وصهر المعادن. وكان القينيون Kenites [١] المحليون على الغالب هم الذين علموا الادوميين اتباع سليمان فنون استخراج المعادن وصنعها. وكانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية والمحملة بالتوابل من تلك البلاد خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر باراضي مملكة سليمان.

وقد تضافرت الاساطير والقصص الخيالية على جعل اسم سليمان مرادفاً خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة. وحتى الجن[٢] كان يأتمر بأمره في البر والجو. واجتذب بلاطه الفخم ملكة من جنوبي بلاد العرب وهي الملكة بلقيس المعروفة في المرويات الاسلامية. وتدعي السلالة الحاكمة في الحبشة التسلسل من هذا الاتحاد. ومن الالقاب الرسمية لملوك الحبشة الحاليين «اسد يهوذا». ونسبت امثال كثيرة «لسليمان الحكيم» واصبح بعضها قسماً من الكتاب المقدس.

غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هـــذه الافكار. فالمملكة التي ورثها سليمان كانت اكبر بكثير من المملكة التي اعطاها لمن اتى بعده. وكانت فلسطيا تعترف بالسيادة المصرية. وحصن جزر الكنعاني استولى عليه فرعون الذي تزوج سليمان ابنته واعطاه اياه فرعون مهراً لابنته. وكانت هذه الاميرة المصرية احدى افراد حريم سليمان المؤلف من ٧٠٠ من الزوجات و ٣٠٠ من السراري[٣]. وقد بنى بتأثير نسائه «اماكن مرتفعة» قرب اورشليم لعبادة آلهة صيدا ومؤاب وعمون[٤]. وفي اواخر حكمه حرر الملك الآرامي رصين نفسه ومملكته. وقبل ذلك فان الامير الادومي حدد الذي كان داود قد طرده من منطقته حيث قضى على كل انسان من الذكور — عاد ليزعج سليمان[٥]. وكان يستخدم سليمان العمال لاجل اشغاله العامة حسب نظام السخرة. وكان هذا التدبير البعيد عن الحكمة بالاضافة الى نفقاته وتبذيره من الاسباب الاساسية للنقمة التي ادت في عهد خلفه الى انقسام المملكة.

---

١) يبدو ان القينيين كانوا قد اصبحوا في عصر موسى مندمجين بالمديانيين الى حد كبير.

٢) ترجع هذه الكلمة الى كلمة آرامية معناها «مخبأ».

٣) سفر الملوك الاول ١١: ٣.

٤) الملوك الاول ١١: ٥ — ٨.

٥) الملوك الاول ١١: ١٤ — ٢٢.

انقسام المملكة

كان داود وسليمان قد وحّدا بصورة مؤقتة شعبي اسرائيل ويهوذا المنفصلين. وكان اقتصاد كل من الشعبين يختلف عن الآخر. فالشعب الذي يسكن الشمال كان مزارعاً يعيش على القمح والزيتون والكروم وسائر محاصيل اراضيه الخصبة. اما الشعب الجنوبي فكان يعيش خاصة على الرعي في المرتفعات الصالحة للاغنام وسائر القطعان. وكانت قبيلة افرايم وغيرها من القبائل الشمالية اكثر تعرضاً للتأثير الكنعاني. وكانت تفضل في مسائل العبادة الالوهيم (جمع ايل) وتعبدها بطقوس شمسية مأخوذة من الطقوس الكنعانية القديمة. وكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الجنوب تفضلان يهوه الذي مسكنه هيكل اورشليم والذي كانت عبادته اكثر بساطة. غير ان السبب المباشر للانقسام كان اقتصادياً.

بعد موت سليمان في نحو ٩٢٣ ق. م. اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة في شكيم ليمسحوا ابنه رحبعام ملكاً واثيرت حينذاك قضية هل هو مستعدٌ ان يخفف عبء الضرائب المفروضة عليهم ام لا؟ غير ان جواب الفتى رحبعام وهو في السادسة عشرة من عمره كان قاسياً متهوراً حيث قال: ابي ادّبكم بالسياط وانا اؤدبكم بالعقارب[١]. ولذلك رفضت القبائل العشر الاعتراف برحبعام وانتخبت يربعام من قبيلة افرايم ملكاً عليها وكان الناطق بلسانها. وشكلت هذه القبائل مملكة اسرائيل التي كانت عاصمتها شكيم اولاً ثم ترزة ثم السامرة. اما قبيلتا يهوذا وبنيامين فقد ظلتا ثابتتين في ولائهما لرحبعام وشكلتا مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم.

واصبحت المملكتان متنافستين واحياناً عدوتين احداهما للاخرى. وكان لكل منهما ايام ازدهار وانحطاط. وكان توازن القوى يميل تارة لمصلحة اسرائيل وطوراً لجانب يهوذا. وتشرح لنا الاتجاه في طريق الانحلال الداخلي تلك التغيرات الكثيرة في ملوك اسرائيل حيث شهدت تسعة عشر ملكاً في مدة قرنين، وتلك الثورات والمكائد في كلتا الدولتين. تلك كانت العوامل الداخلية التي ادت اخيراً

---

١) الملوك الاول ١٢: ١١.

الى خرابها. فالعبرانيون كغيرهم من سكان سورية لم يعملوا قط بقول مغنيهم «ما احسن وما اجمل ان يسكن الاخوة معاً[١]».

مملكة اسرائيل

كان اشهر ملوك اسرائيل الاوائل عُمري (حوالي ٨٨٥ — ٨٧٤) ويدل اسمه على اصل عربي او بالاحرى نبطي. وكان الاثر المهم الذي تركه مدينة السامرة[٢] التي اسسها وحصنها ونقل اليها مركز الحكم من ترزة[٣]. وبنى في عاصمته الجديدة قصراً وسعه وزخرفه ابنه ووريثه آخاب. هذا القصر هو «بيت العاج»[٤] الذي اظهرت فيه الحفريات الحديثة اثاثاً مزيّلاً بالعاج ويبدو ان جانباً كبيراً منه كان مكسواً بالذهب. وكانت اهم جماعة من نحاتي العاج في تلك الفترة تزدهر في الشمال في سورية حيث كانت توجد منازل غنية ذات غرف مخططة بخشب الارز المنزل بالواح من العاج. وكان في قصور داود وسليمان في اورشليم على الغالب مثل هـــذه الغرف المخططة بخشب الارز. والقصر الملكي في السامرة هو المثل الوحيد لقصر تأكد العلماء من وجوده من ايام العهد القديم. وقد بلغ من الاثر الذي تركه عمري في معاصريه انه لمـــدة قرن بعد انتهاء سلالته استمرت الحوليات الاشورية على الاشارة الى السامرة باسم «بيت عُمري».

كانت علاقات الملك آخاب (حوالي ٨٧٤ — ٨٥٢) ودية مع جيرانه ولكنه كان يصطدم بصعوبات في بلاده. وقد اشترك كحليف لمملكة دمشق في معركة قرقر[٥] التي لم تكن حاسمة. وتزوج ايزابل ابنة اثبعل ملك صور وصيدا التي

---

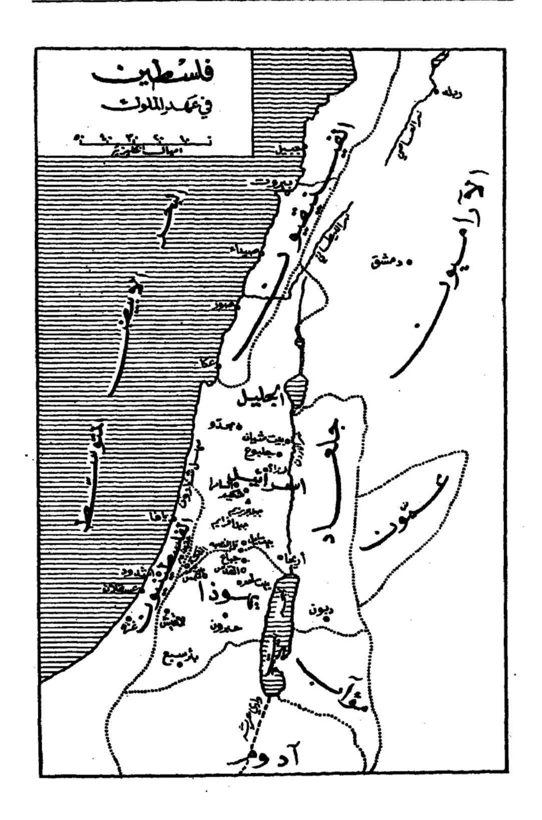
١) سفر المزامير ١٣٣ : ١ .

٢) وهي حالياً سبسطية من اليوناني Sebastos (بمعنى الموقر) وهو الاسم الجديد الذي اعطي المدينة على شرف اوغسطس عندما بناها من جديد هيرودس الكبير عام ٢٧ ق. م.

٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ . تقع السامرة على ستة اميال شمالي غربي شكيم. وموقع ترزه لم يعرف بعـــد . انظر «ترزة» في معجم : John D. Davis, *The Westminster Dictionary of the Bible*, rev. Henry S. Gehman (Philadelphia, 1944); Abel, vol. ii, p. 485.

٤) سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ ؛ عاموس ٣ : ١٥ ؛ ٦ : ٤ ؛ J. W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1-6.

٥) انظر ص ١٩٧ .


فلسطين
في عهد الملوك
جبيل
بيروت
صيداء
صور
عكا
دمشق
الجليل
مجدو
بيت شان
جلبوع
السامرة
يافا
اشدود
عسقلان
غزة
أريحا
القدس
جباع
بيت لحم
يهوذا
حبرون
بئر سبع
ديبون
عمون
موآب
آدوم

كانت ذات شخصية قوية وسيطرت على زوجها وحاولت فرض عبادة بعل صور على اسرائيل[١] . وادى ذلك الى نزاع مرير وطويل للسيادة على حياة اسرائيل الدينية بين عبادة البعل وعبادة يهوه .

وبلغت ردّات الفعل التي بدأها ايليا واليشع ضد اسرة عمري ذروتها في ثورة تزعمها ضابط في الجيش اسمه ياهو وقضى فيها على السلالة . وطُرحت الملكة الام ايزابل المسنة من نافذة بامره وأكلت جثتها الكلاب[٢]. واستولى ياهو على العرش في ٨٤٢ ق. م. واعاد عبادة يهوه كعبادة وحيدة في اسرائيل . ولم يكن ياهو موفقاً في حروبه الخارجية . ويمثل هذا الملك او رسوله على «المسلة السوداء» التي اقامها شلمناصر الثالث[٣] يقبل الارض عنـــد قدمي الملك الاشوري ويقدم الجزية . بشكل اوان من الفضة والذهب والرصاص . وقبل ظهور ياهو بقليل قام ميشا ملك مؤاب بثورة ضد اسرائيل وخلد انتصاره على نصب اقامه في ديبون[٤]. وقد كتب على هذا النصب اطول نقش في العبرية ويعتبر من اقدم النقوش الاثرية في هذه اللغة. وتختلف عن العبرية التي كتبت بهـــا التوراة من حيث اللهجة فقط . وفي حوالي نفس الوقت كانت ثورة اخرى ناجحة تحدث ضد مملكة يهوذا ، ويرينا ذلك ضعف تينك المملكتين .

وقد بدت مظاهر غير منتظرة للقوة في عهـــد يربعام الثاني (حوالي ٧٨٥ — ٧٤٥) وهو الملك الثالث من سلالة ياهو . ففي عهده توسعت الحدود الشمالية على حساب الآراميين[٥]. وكشفت الحفريات عن بقايا السور المزدوج الذي اعاد بـــه تحصين السامرة . وتظهر هذه البقايا ان سمك السور يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً في

---

١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣١ ؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. IX, ch. 6, § 6.

٢) الملوك الثاني ٩ : ٣٣ — ٣٥ .

٣) والمسلة الآن في المتحف البريطاني . انظر : Eberhard Schrader, *The Cuneiform Inscriptions and the Old Testament*, tr. O. W. Whitehouse, vol. i (Edinburgh, 1885), p. 199

٤) وهي ذيبان في شرقي الاردن والنصب الآن في متحف اللوفر . راجع : Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, pp. 1 seq. والحروف هي حروف فينيقية تماماً .

٥) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٥ .



حجر مؤاب الذي اقيم لذكرى انتصار ميشا ملك مؤاب على اسرائيل
اقيم قبل ٨٤٢ ق. م. بقليل وهو الآن باللوفر

بعض الاماكن . ويمتاز حكمه زيادة على ذلك بان النبي عاموس كان يتنبأ في بيت ايل[١] في اواخر ملكه .

وكان بامكان اسرائيل ان تتمتع بالهدوء خاصة لان اشور لم تكن حينذاك في وضع يسمح لها بمتابعة سياسة الاعتداء . كذلك كانت مصر متوارية عن الانظار . غير ان الوضع تغير عندما ظهر تغلات فلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧) الذي جدد سلطة امبراطورية اشور . وقد نجح بسلسلة حملات في اخضاع دمشق وجلعاد والجليل وسهل صارونة وتحويلها الى مقاطعات اشورية[٢] . ولم يكتف بالاسلوب القديم وهو ابقاء الحاكم الوطني كتابع بل بدأ سياسة جديدة تقوم على ارسال نائبي الملك من بلاد آشور ليحكموا المقاطعات المفتتحة[٣] . وقد حاول رصين آخر ملوك دمشق وفقح ملك اسرائيل حمل آحاز ملك اورشليم على الاتحاد معهما في حلف ضد العدو المشترك . وقد اصبحت اسرائيل جزءاً صغيراً مما كانت عليه سابقاً . ودفعت السامرة جزية ثقيلة كما فعلت يهوذا وجيرانها فلسطيا وعمون ومؤاب وادوم .

نهاية اسرائيل

عندما رفض هوشع ملك اسرائيل بعد بضع سنوات متابعة دفع الجزية هاجمه شلمناصر الخامس وريث تغلات فلاسر وحاصر المدينة ثلاث سنوات بسبب قوة حصونها[٤] . وسقطت بين ٧٢٢ و ٧٢١ في يد خلفه سرجون الثاني الذي سبى احسن رجال اسرائيل وعددهم ٢٧٫٢٨٠ شخصاً الى ميديا[٥] . وتلاشت مملكة اسرائيل الى الابـــد . ولم يشكل المسبيون سوى قسم صغير من سكان المملكة الشمالية غربي الاردن ويقدر عددهم باربعمائة الف نفس . وهكذا فان «الاسباط العشرة المفقودة» لم تفقد قط . والذين منهم اصبحوا مسبيين اندمجوا بغيرهم . والبحث عن هـــذه

---

١) «بيت الله» وتقع خرائب المدينة وهي اليوم بيتين على ١١ ميلاً شمالي القدس.

٢) الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ .

٣) Luckenbill, *Records*, vol. i, § 803, 805, 806, 809.

٤) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٤ .

٥) الملوك الثاني ١٧ : ٦ ؛ Schrader, vol. i, p. 264 Julius Oppert in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 28.

الاسباط العشرة وادعاء بعض الجماعات في انكلترا والولايات المتحدة انها متسلسلة منها هي امور تدعو الى السخرية. وقد اظهر الرحالة بنيامين من بلدة توديلا في القرن الثاني عشر مقداراً اكبر من الفهم التاريخي حين كتب ان الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرقي ايران ينحدر افرادها من المسبيين الاصليين[١].

السامريون

واضاف سرجون وخلفاؤه الى سياسة السبي او نقل الذين كانوا شوكة في جنب دولة اشور شيئاً آخر هو سياسة الاستعمار والاستيطان. فقد اتوا بقبائل من بلاد بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب لتحل محل الاسرائيليين المسبيين واسكنوها في السامرة ومنطقتها[٢]. وقد امتزج المستوطنون الجدد ببني اسرائيل ليشكلوا السامريين. واتحدت معتقداتهم الدينية ايضاً مع عبادة يهوه[٣]. وحصل الانشقاق النهائي بين الفريقين حوالي ٤٣٢ ق. م. بعد عودة عزرا ونحميا من السبي حيث دافعا عن فكرة النقاوة العنصرية وطردا من اورشليم حفيد الكاهن الاعلى لزواجه من ابنة الحاكم السامري[٤]. ويبدو ان الشاب المطرود اصبح كاهن السامريين وبني هيكل له على جبل جرزيم لينافس هيكل اورشليم. وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتب الخمسة فقط. ولذا فان هذا القسم من العهد القديم ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين. وقد نقلوه في نوع قديم من الحروف العبرية. وجرزيم وليس صهيون هو المكان المقدس الحقيقي بالنسبة لهم.

وازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن. ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً في اي وقت. ومن اطرف احاديث المسيح حديثه مع امرأة سامرية تعجبت كيف يطلب منها ان تعطيه ليشرب مع انه يهودي[٥]. واختار المسيح في مثل من

---

١) *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela*, ed. A. Asher (London, 1840), p. 83; tr., p. 129.

٢) Luckenbill, vol. ii, §§ 17, 118. وقد اتى اسم السامرة على الغالب من شمر Shemer يعني حارس ، انظر سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ .

٣) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٢٥ — ٣٣ .

٤) سفر نحميا ١٣ : ٢٨ ؛ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IX. ch. 7. § 2; ch. 8. §§ 2, 4.

٥) انجيل يوحنا ٤ : ٩ .

ابدع امثاله رجلًا سامرياً محتقراً ليكون بطل قصة ويلعب فيها دوراً نبيلاً[١]. وفي اثناء اضطهاد انطيوخس ابيفانس (١٧٥ — ١٦٤ ق. م.) تألم السامريون كما تألم اليهود[٢] بالرغم من موافقتهم بالظاهر على التساهل وتكريس هيكلهم على جبل جرزيم للاله زفس[٣].

وقد بقيت هذه الطائفة خلال العصور حتى الوقت الحاضر كما تبقى المتحجرات ويمثلها اليوم نحو مائتي شخص يعيشون في نابلس وهي شكيم القديمة. وفي العصور الوسطى كانت تزدهر جماعات من السامريين في غزة والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن. ولغتهم هي العربية اليوم. ولا يزال بامكان السواح الذين يزورون نابلس في عيد الفطير ان يشاهدوا السامريين يضحون حمل الفصح.

مملكة يهوذا

شهد عرش يهوذا عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك اسرائيل وهو تسعة عشر ملكاً غير ان هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثلث اكثر من مملكة اسرائيل في الشمال. ومن الحوادث المشهورة في اول عهد المملكة غزو احد فراعنة مصر لها. فان شيشنق Shishonk (وفي التوراة يدعى شيشق) وهو ليبي اسس السلالة الثانية والعشرين — قد اغتنم فرصة تقسيم المملكة اليهودية ودخل البلاد (حوالي عام ٩٢٠) وخرب المدن ونهب اورشليم وحمل معه كنوز الهيكل والقصر كغنائم[٤]. ولم يكن باستطاعة رحبعام ان يصد الغزوة. وتزوجت احدى بنات هذا الفرعون من يربعام بينما كانت احدى بنات سلفه قد تزوجت سليمان.

واستفادت يهوذا كما فعلت اسرائيل في القرن الثامن من توقف حركات الهجوم الاشوري والمصري. وكان عهد الملك عزيا (ويدعى احياناً عزريا، حوالي ٧٨٢ — ٧٥١) الذي كان ملكه طويلًا عهد تقدم في شؤون الدولة. وقد اعاد تنظيم الجيش

١) انجيل لوقا ١٠: ٣٠—٣٧.

٢) سفر المكابيين الثاني ٥: ٢٣.

٣) سفر المكابيين الثاني ٦: ٢؛ Josephus, *Antiquities* Bk. XII. ch. 5 § 5.

٤) سفر الملوك الاول ١٤: ٢٥—٢٦؛ Breasted, *Records*, vol. iv §§ 709 *seq.*

واصلح حصون اورشليم وكسب انتصارات على الفلسطينيين والعربان واخذ الجزية من العمونيين وغيرهم من اعداء المملكة[١]. وقد تجاوز اهتمامه الشؤون العسكرية فنشط الزراعة بحفر الخزانات وحمى قطعانه في البرية ببناء ابراج لا تزال حتى اليوم ويمكن معرفتها بواسطة قطع الخزف المؤرخة[٢]

حزقيا

واصبحت مملكة يهوذا اكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من اشور بعد زوال مملكة اسرائيل في عام ٧٢١. وصارت يهوذا بعد ذلك ببضع سنوات في اوائل حكم حزقيا (٧٢١ — ٦٩٣) تدفع الجزية لاشور. فقد اتبع حزقيا سياسة تحد ضد اشور بعد ان شجعته مصر ولم يكترث لتحذير النبي اشعيا ولذلك تحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من الدول المجاورة. ولكي يحتاط ضد وقوع حصار حفر قناة طولها ١٧٠٠ قدم في الصخر ليضمن المياه اللازمة لعاصمته[٣]. وهذه القناة هي المعروفة بنفق سلوام Siloam وقد اكتشفت بالصدفة على جدارها كتابة اثرية بالعبرية مؤلفة من ستة اسطر تفيد ان الحفر بدأ من الجانبين وبدقة فائقة: « فبينما كان لا يزال [الحفارون يرفعون] المعول الواحد باتجاه الآخر وعندما كان لا يزال يوجد سوى ثلاثة اذرع يجب [حفرها سمع] صوت الواحد ينادي الآخر لان الصخر كان متصدعاً »[٤].

وبنتيجة ذلك قام سرجون وخلفه سنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١) النشيطان بسلسلة من الحملات والعمليات الحربية الانتقامية ضد فينيقية والمدن الفلسطينية ويهوذا وبلغت ذروتها في عام ٧٠١ في حصار اورشليم. وبعد الاستيلاء على صيدا وعكا وخضوع موفدي اشدود وعمون ومؤاب وادوم تقدم سنحاريب على الساحل الفلسطيني فأخذ يافا والمدن الاخرى حتى عسقلان وحدود مصر في الجنوب. ثم

١) اخبار الايام الثاني ٢٦: ٦ — ٨.

٢) اخبار الايام الثاني ٢٦: ٩ — ١٠.

٣) سفر الملوك الثاني ٢٠: ٢٠؛ اخبار الايام الثاني ٣٢: ٢.

٤) Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, p. 15 وحروف هذه الكتابة لا تختلف كثيراً عن حروف الكتابة على نصب مؤاب.

تحول الى الشرق وفتح لاخيش. وقاومت صور وعقرون[١]. وعندما سمع ان الجيش المصري كان يتقدم الى الشمال وبما انه رأى انه لا يجوز ترك حصن عظيم مثـــل اورشليم في مؤخرتـــه فانه اوسل فرقة الى اورشليم وزحف مع بقية جيشه نحو الجنوب. والتحم عند التقيه Eltekeh [٢] في معركة ضد القوات المصرية والحبشية المجتمعة يقودها ترهاقة (طهرقا) وحال دون تقدمها. ولكنه قبل ان يتمكن من تحويل قواته كلها ضد اورشليم «خرج ملاك الرب وضرب في تلك الليلة مئة الف وخمسة وثمانين الفاً من جيش اشور[٣]». وربما كان ذلك هو الطاعون الذي اصاب جيش نابليون في تلك المنطقة في ١٧٩٩ والذي كثيراً ما كان يصيب الحجاج المسلمين.

لم تسقط اورشليم غير ان مناطق الريف خُربت. واعتقد الملك واشعيا كما يبدو ان يهوه سيحمي مدينته مهما كانت الظروف[٤]. وسمح لحزقيا ان يحتفظ بعرشه ولكنه اضطر ان يدفع الجزية المتأخرة وان يرسل بناته وغيرهن من نساء القصر والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب الى نينوى ويفاخر سنحاريب باعمـــاله بالكلمات التالية:

> أما حزقيا اليهودي الذي لم يخضع لسلطتي فانـــني حاصرت ستاً واربعين من مدنه القوية المسورة والمدن التي بجوارها والتي لا يمكن تعدادها وفتحتها ونهبتها واعتبرتها كغنائم. واما هو فانني حبسته كعصفور في قفص في اورشليم مدينته الملكية... ان حزقيا هذا قهرته ابهة ملكي المخيفة .

ويبدو ان ما يدعيه من «اخذ» رجال عددهم «٢٠٠،١٥٠ رجلاً» يشير الى عدد سكان يهوذا كما كانوا يقدرونه حينذاك وقـــد اعتبرهم الملك الاشوري غنائم حرب.

---

١) وهي اليوم المغير على بعد ستة اميال غربي جزر.

٢) وهي غالباً خربة المقنع على ستة اميال تقريباً جنوب شرقي المغير.

٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ٣٥ ؛ Herodotus Bk. II, ch. 141.

٤) الملوك الثاني ١٩ : ٦ – ٧، ٢٠.

٥) راجع: Luckenbill, vol. ii, § 312; cf. Schrader, vol. i, pp. 286, 297; J. M. Rodwell in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 62.

سقوط اورشليم

بقي صدقيا (٥٩٧ — ٥٨٦) الذي كان في الحادية والعشرين من عمره متظاهراً بالولاء لنبوخذنصر عدة سنين ثم استسلم لميوله وحاول الاستقلال كما انه استجاب في ذلك لرغبة الزعماء الوطنيين في بلاده واعتمد كالمعتاد على مساعـــدة مصر . فنقم نبوخذنصر وارسل جيشاً هدفه خراب اورشليم وحاصرها . ورفع الحصار موقتاً عندما اقتربت قوة مصرية بقيادة هوفرع Hophra[1] ولكنه سرعان ما عاد وبشكل أشد من السابق . وانهكت قوى الحامية بعد عام ونصف واحدثت ثغرات في الاسوار في ٥٨٦ . وهرب الملك ورجال حربه تحت جنح الظلام ولكنهم تابعوه وادركوه في سهل اريحا . وعندما أُتي به الى معسكر نبوخذنصر في ربلة قُتل ابناؤه امامه ثم سملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يراه . ثم قيد الملك بالسلاسل وحمل الى بابل[2] . اما اورشليم فانها هدمت مع هيكلها . وسبي العظماء من سكان المدينة والبلاد ويقدر عددهم بخمسين الفاً . ولم يبق الا جماعة من البائسين . ودُمرت[3] كل مدينة مهمـــة في يهوذا تقريباً وظلت كذلك عدة قرون . وفي عام ٥٨٢ كان نبوخذنصر قد اتم اعادة السيطرة على جيران يهوذا باستثناء صور التي قاومت تحت الحصار حتى ٥٧٢[4] . وكان ملكها والذائد عنها اتبعل الثاني الذي حل محله بعل الثاني في ٥٧٤ . وحصلت ثورة ضعيفة في صور عام ٥٦٤ ولكنها اخمدت بسهولة . وهكذا اصبحت سورية كلها مستقرة في ايدي الكلدانيين .

---

١) وذكر باسم Apries في Herodotus, Bk. II, ch. 161 ; Diodorus, Bk. I. ch. 68.

٢) سفر الملوك الثاني ٢٥ : ١ — ٧ ؛ اخبار الايام الثاني ٣٦ : ١١ — ٢٠ ؛ ارميا الاصحاح ٣٩ ؛ ٥٢ : ٤ — ١١ ، ٢٧ .

٣) ارميـــا ٣٩ : ٨ — ١٠ ؛ ٥٢ : ١٢ — ٣٠ ؛ اخبار الايام الثاني ٣٦ : ١٧ — ٢١ . Josephus, *Antiquities* Bk. X, ch. 11 ; *Apion* Bk. I, ch. 21.

٤) انظر ص ١٥٦ .

الفصل الخامس عشر

مظاهر الحضارة العبرانية

اتبع العبرانيون في مراحل حياتهم الاولى في فلسطين النموذج الحضاري للشرق الادنى الذي كان يمثله الكنعانيون . وقد اعطت كنعان لاسرائيل لغتها وابجديتها كما رأينا . وعندما استقر بنو اسرائيل في الموطن الجديد تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاشوا بينه . وبما ان لهجتهم كانت لهجة كلام فقط فانهم اضطروا ان ينتظروا الحصول على فن الكتابة من جيرانهم قبل ان يكون لهم ادب .

وكنعان علّمت اسرائيل الزراعة . فالعبرانيون دخلوا البلاد كبدو رحل وتم انتقالهم من مرحلة الرعي الى الزراعة بعد استقرارهم . وظل كثيرون من احفادهم في اراضي يهوذا المرتفعة يتبعون حياة الرعي غير ان الزراعة اصبحت مورد المعيشة الرئيسي في سهول الشمال الخصيبة .

الطقوس المستعارة

ومع الزراعة اكتسب العبرانيون من الكنعانيين بطريق التزاوج تلك الافكار والاعمال التي اعتبرت ضرورية لاجل الخصب ولضمان المحاصيل الجيدة . ويعني ذلك انهم اقتبسوا دفعة واحدة تقريباً مجموعة من الطقوس والمشاهد والمراسيم القديمة التي تضم الاعمدة الخشبية[1] «والاماكن المرتفعة» وعبادة الحية[2] والعجل الذهبي[3]. وكان الاعتقاد بان الطريقة المناسبة في العبادة هي تضحية حيوان وتقدمة هدايا في

---

١) «العاشرة». انظر ص ١٢٨ وما يليها .

٢) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٤ .

٣) سفر الملوك الاول ١٢ : ٢٨ — ٢٩ ؛ اخبار الايام الثاني ١٣ : ٨ .

الهيكل من محاصيل الحقل والقطيع — كان هذا الاعتقاد عاماً بين شعوب سورية وبلاد الرافدين . وكان رقص داود امام تابوت العهد[١] من مظاهر رقصة كنعانية تتصل بالخصب . ولا تزال آثارها باقية في الحركات الطقسية الايقاعية التي يجريها الدراويش في هذا العصر .

والتحريمات المتصلة بالطقوس والمذكورة في الاسفار الخمسة تفيد ضمناً ان هذه العادات كانت قبل تحريمها قد اقتبسها العبرانيون من جيرانهم ثم اعتبرها الرؤساء غير متفقة مع اتجاهات الديانة العبرانية . وكان تحريم طبخ الجدي[٢] في لبن امه يبدو غريباً واعطيت له تفاسير خاطئة الى ان اظهرت كتابات اوغاريت ان هذه العادة كانوا يمارسونها هناك .

والاعتراف بيهوه كالاله الرئيسي وذلك بحق الفتح لم يمنع اعتبار الآلهة المحلية مسيطرة على خصب البلاد . وكانت سلطة يهوه على الدولة بينما شؤون الحياة العادية من زراعة وتجارة لم تكن من صلاحياته الرئيسية . وفي بعض الاحيان وخاصة في القسم الشمالي من المملكة كان يهوه يكتسب كثيراً من صفات بعل مما جعله سيد السماء وباعث المطر والمسيطر على العواصف . وكان الاهل كثيراً ما يسمون ابنهم البكر بالنسبة ليهوه بينما يسمون صغارهم بالنسبة لبعل . وتزداد نسبة الاسماء العبرانية المؤلفة من اسم بعل باطراد في الفترة الاولى . وشاول يسمي ابنه ايش بعل Esh-Baal (رجُل بعل) ويوناثان يسمي ابنه مريب بعل (بعل ينازع) ، وداود يسمي ابنه بعل يداع Beeliada (بعل يعرف)[٣]. وقد بلغ من منافسة هذا الاله الكنعاني ليهوه انه في ايام ايزابيل وآخاب[٤] لم يكن هنالك اكثر من ٧٠٠٠ شخص لم ينحنوا امام بعل وقد سر ايليا على ما يظهر بهذا العدد .

الفن

وليس من شك في الاصل الكنعاني للفن والبناء الديني عند العبرانيين . وهيكل

---

١) سفر صموئيل الثاني ٦ : ١٤ .

٢) سفر الخروج ٢٣ : ١٩ ؛ ٣٤ : ٢٦ .

٣) اخبار الايام الاول ٨ : ٣٣ — ٣٤ ؛ ٩ : ٣٩ — ٤٠ ؛ ١٤ : ٧ .

٤) انظر في اعلاه ص ٢٠٩ و ٢١١ ؛ وراجع سفر الملوك الاول ١٩ : ١٨ .

سليمان وهو البناء الاثري الديني الوحيد عند العبرانيين القدماء لم يشيده معماريون صوريون فحسب بل خطط وفقاً لتخطيط معبد كنعاني، واتبعت زخرفته نماذج كنعانيـــة . وكان القصر الملكي في اورشليم ايضاً من عمل الصناع الفينيقيين[١]. والملاكان (الشيروبيم) بشكل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة تمثل نموذجاً فنياً عند الساميين القدماء . وفكرتنا عن الملاك كولد صغير له جناحان ترجع عن طريق فن عصر النهضة ليس الى الثور المجنح الاشوري كما يظن البعض بل الى ابي الهول المجنح او الاسد المجنح الذي له رأس بشري عند السوريين. وكانت جدران هيكل سليمان وستار خيمة الرب تزدان بالشيروبيم (الملائكة). وكان بنو اسرائيل يفكرون بالهم واقفاً او جالساً في عرشه على ملاك[٢].

كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الآلات الموسيقية[٣]. وكان الموسيقيون والمغنون الاول في الهيكل كنعانيين في اشخاصهم وتدريبهم . وعندما بدأ داود بالموسيقى العبرانية المقدسة ورقاها سليمان لم يكن هنالك من نموذج يمكن اتباعه سوى النموذج الكنعاني . والنقابات الموسيقية نفسها في عهود اسرائيل الاخيرة كانت تُسر بارجاع اصلها الى عائلات باسماء كنعانية[٤]. ويبرهن رسم امرأة من مجدو تلعب على العود ان تلك الآلة كانت معروفة في فلسطين قبل ايام داود بنحو الفي سنة . ومؤلف سفر التكوين[٥] يعترف بقدم الآلات الموسيقية التي يستعملها شعبه حين ينسب لاحد احفاد قايين انه كان «أباً لكل ضارب بالعود والمزمار». وبعد اقتباس هـــذه الآلات استخدمت لاجل الموسيقى الدينية والزمنية . وكانت اهم آلات الدق عند الاسرائيليين الدف الذي تشير اليه التوراة في اماكن كثيرة[٦]. اما آلات النفخ فيمثلها الناي والبوق . وكان النـــاي قصبة بسيطة مفردة او

١) راجع اعلاه ص ٢٠٥ .

٢) صموئيل الثاني ٢٢ : ١١ ؛ المزامير ١٨ : ١٠ .

٣) اخبار الايام الاول : الاصحاح ٢٥ .

٤) راجع: Albright, *Archaeology and the Religion of Israel*, pp. 14, 126-7.

٥) سفر التكوين ٤ : ٢١ .

٦) سفر الخروج ١٥ : ٢٠ ؛ القضاة ١١ : ٣٤ ؛ صموئيل الاول ١٨ : ٦ ؛ المزامير ٦٨ : ٢٥ .

مزدوجة من النوع الذي لا يزال يستعمله الرعاة في سورية . وكان يصنع البوق (شوفر Shofar) من قرن كبش او ماعز ولا يزال يستعمل في الكنائس العبرانية[١] . ومن الآلات ذات الاوتار اصبحت القيثارة مفضلة على غيرها . وليس لدينا فكرة عن الالحان التي كانت تلعب على هذه الآلات .





١ — ملاك من العهد الفينيقي يرتكز عليه عرش احيرام ملك بيبلوس

٢ — ملاك من صنع رفائيل في مجموعة السكستين بالفاتيكان

وكانت الاغاني ترافق الموسيقى ومن اقدم الاغاني المحفوظة اغنية دبورة التي تذكر انتصاراً كسبه الاسرائيليون على الكنعانيين[٢] . وهنالك اغان تتصل بالزيارة وتستخدم في الصعود الى الهيكل وقد ادمجت في عدد من المزامير[٣] . وكانت الاغاني بطبيعة الحال مؤلفات شعرية . ويتصف الشعر العبري بالتوازي والمطابقة كما في

---

١) انظر : Curt Sachs, *The History of Musical Instruments* (New York, 1940), pp. 110-112.

٢) سفر القضاة الاصحاح الخامس .

٣) المزامير ١٢٠ — ١٣٤ .

شعر اوغاريت . وهذه المطابقة المستعارة من الكنعانيين هي التي اعطت المزامير وغيرها من المؤلفات الشعرية في العهد القديم كثيراً من جلالها وعظمتها وتوقيعها الموزون . ونصف العهد القديم تقريباً شعري في تركيبه .

الشؤون المنزلية

اقتبس العبرانيون كذلك في الشؤون الزمنية عادات اولئك الذين عاشوا بينهم وتزاوجوا معهم . وكانت فكرتهم العامة عن الحياة والآخرة تقريباً كما كانت في كنعان . وعادات الدفن كانت متشابهة. فقد كان يوضع الجسم في قبر مع ادوات كانت تستخدم في الحياة اليومية كالصحون والجرار . وكانت ثيابهم وحليهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاساليب والازياء الكنعانية . وكان الملوك والانبياء يلبسون رداء طويلاً من نوع خاص فوق ملابسهم واقتبسته النساء فيما بعد . وكانت الطبقة العليا ايضاً تلتف بقماش من الكتان يتألف من قطع مستطيلة من الكتان الرقيق .

كان الغزل والنسيج من الصناعات المنزليــــة للاستهلاك الشخصي . ومن جملة اوصاف حكيم العبرانيين للمرأة الفاضلة انها « تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين[١] » . وتدل حجارة الاثقال للانوال التي وجدت بكثرة في قرية سفر[٢] وقطع الانوال الخشبية وبراميل الصباغة التي اكتشفت في لاخيش — تدل على وجود صناع ممتهنين كانوا ينتجون لاجل الاستهلاك العام[٣] . وكانت هاتان المدينتان من المراكز الكنعانية القديمــــة . ولم يبرع الصناع العبرانيون في فن سوى فن قطع الحجارة الكريمة . وتظهر لنا الاختام من عصر الملكية درجة رفيعة من المقدرة في هذا الفن . واشارات التوراة الى عشائر الكتبة والحائكين والى ابناء الصياغين[٤] توحي بوجود منظمات ضعيفة تقابل النقابات كانت تضم افراد نفس الحرفة لاجل المصلحة الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية المتبادلة[٥] .

---

١) سفر الامثال ٣١ : ١٣ .

٢) ومعنى اسمها « مدينة الكتب » وهي اليوم تل بيت مرسيم على ١٣ ميلاً جنوب غربي الخليل .

٣) راجع: Barrois, *Manuel*, vol. i, pp. 482-487.

٤) انظر اخبار الايام الاول ٢ : ٥٥ ؛ ٤ : ٢١ ؛ نحميا ٣ : ٨ ، ٣١ ؛ قارن مع عاموس ٧ : ١٤

٥) انظر ما جاء ص ٩٤ و ٩٥ .

كانت منسوجات الكتان تصنع من الكتان الوطني. وكان يزدهر هذا النبات القديم في الساحل الشرقي للبحر المتوسط وفي مصر. وقد زرع في سهل اريحا قبل الاحتلال العبراني[١]. وزال نبات الكتان الاعتيادي تقريباً من فلسطين ولكن الازهار البرية التي تنتسب الى فصيلة الكتان لا تزال تعطي سورية ولبنان منظراً جميلاً في الربيع[٢]. وادخل القطن بعد الكتان بينا استعمل الصوف قبل ذلك بمدة طويلة. وكان المنتوج المنزلي للصوف الذي يحاك في المنزل ايضاً يشكل اللباس الاعتيادي للطبقة المتوسطة الغنية.

ويـــذكر تقويم الجزر في منتصف القرن العاشر القمح والزيتون والعنب عدا الكتان. وكانت ارض الميعاد «ارض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان؛ ارض زيتون وزيت وعسل»[٣]. وكانت مكانة القمح عظيمة بين الحبوب. وغزوات الاعداء كانت توجه غالباً ضد البيادر[٤] ولا تزال. واكتشفت حجار رحى صغيرة لطحن القمح في اماكن عديدة. وتدل الافران التي وجدت في بيت شمش ان بعض عادات صنع الخبز قد استمرت حتى العصر الحاضر حيث تستعمل التنانير (جمع تنور)[٥]. وبقايا معاصر الزيت والخمر كثيرة[٦]. وقد وجدت نفايات الزيتون بكميات كثيرة في لاخيش مما يدل على ان هذه الصناعة كانت ذات شأن في عصر الملكية. واقتبس العبرانيون المصباح الكنعاني الذي يستعمل فيه زيت الزيتون للاحتراق واستخدموه وحده لمدة سبعة قرون تقريباً. واقدم مصباح اجنبي مستورد من بلاد الرافدين حوالي ٥٠٠ ق. م. اكتشف في بيت شمش ويظهر فيه التحسن لوجود مسكة في جانبه وغطاء في اعلاه مع ثقب لاجل الفتيل. وتدل جرة بشكل خلية مخروطية

---

١) سفر يشوع ٢: ٦.

٢) George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai* (Beirut, 1896) pp. 181-184.

٣) سفر التثنية ٨: ٨.

٤) صموئيل الاول ٢٣: ١.

٥) انظر: Elihu Grant, *Rumeileh*, p. 49; do., *The People of Palestine* (Philadelphia, 1921) pp. 78 *seq.*

٦) لاجل الرسوم المتصلة بذلك انظر: Elihu Grant, *Ain Shems Excavation*, pt. 1 (Haverford, 1931), pp. 27, 78; *Rumeileh*, pl. vii.

وجدت في تل النصبة على ممارسة تربيـــة النحل[١] . واشارات التوراة الى البصل والثوم والفول والعدس والخيار والكزبرة وغير ذلك من الخضار والحبوب تدل على ان عادات العبرانيين الغذائية لم تختلف كثيراً عن عادات جيرانهم[٢]. وكان للحمص والعدس اهمية في الطبخ[٣].

وتظهر الكروم ومنتوجاتهـــا بصورة بارزة في الطقوس العبرانية وفي الحياة الاقتصادية. ونبات الكرمة نفسه كان يدل على الخصب[٤]. والخمر كان يستخدم لاجل التقدمة في الهيكل[٥]. وفي الفن كانت الكروم والعنب تظهر على الفسيفساء واعمال النحت في المعابد والمدافن القديمة. والرمان ايضاً كان يستعمل في الزخرفة وعصيره كان مرغوباً فيه كشراب منعش[٦].

وبين الازهار كان الزنبق او السوسن[٧] يعتبر افضلها. وقد ظهر السوسن في زخارف الهيكل وعلى النقود فيما بعد. وتكثر الاشارة اليه والى غيره من النباتات في نشيد سليمان. وربما استعمل هذا الاسم بصورة عامـــة ليشمل شقائق النعمان والاقحوان التي تشكل في الربيع منظراً بهيجاً غنياً بالالوان في حقول سورية. ولا بد ان المسيح كان يفكر في احدى هذه الازهار حين قال انه «ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها[٨]».

---

١) انظر : Burrows, p. 172. تقع تل النصبة على نحو ٨ اميال شمالي القدس وميلين جنوبي البيرة واعتبرها عدد من العلماء انها مدينة المصفاة Mizpah . انظر سفر الملوك الاول ١٥: ٢٢؛ صموئيل الاول ٧: ٥ — ١٦ ؛ راجع كلمة Mizpah في *Westminster Dictionarg.*

٢) انظر سفر العدد ١١:٥ ؛ صموئيل الثاني ١٧ : ٢٨ ؛ حزقيال ٤: ٩؛ اشعيا ١: ٨ ؛ الخروج ١٦: ٣١ ؛ العدد ١١: ٧ .

٣) سفر التكوين ٢٥ : ٣٠ .

٤) سفر العدد ١٥ : ٥ .

٥) سفر اللاويين ٢٣ : ١٣ ؛ العدد ١٥ : ٥ .

٦) نشيد الانشاد ٨ : ٢ .

٧) بالعبرية shoshannāh ومنها اتى اسم Susanna ؛ نشيد الانشاد ٢: ١— ٢ ، ١٦ ؛ ٤ : ٥ ؛ ٦ : ٣ .

٨) انجيل متى ٦ : ٢٨ — ٢٩ .

النقود

لم تدخل النقود المسكوكة او المختومة الى فلسطين حتى القرن الخامس ق. م. وكانوا قبل دخول النقود يتبعون النظام البابلي المبني على الشاقل كوحدة للوزن. وعندما كانوا لا يلجأون الى المقايضة في مبادلاتهم التجارية كانوا يستخدمون الميزان. وقد اكتشفت موازين متنوعة مصنوعة بموجب نظام الشاقل في مواقع مختلفة.

وفي اوائل القرن الخامس دخلت الدراهم الاثينية الفضية التي كانت قد اصبحت تقريباً نقداً دولياً الى الشرق الادنى وقلدت في فلسطين وبلاد العرب[١]. واقدم نقد عبراني وجد حتى الآن يرجع الى اواسط القرن الخامس وربما كان من ضرب نحميا.

المعلمون الدينيون

اذا كانت مساهمة العبرانيين في التقدم العالمي لا تدخل في نواحي الفن والسياسة والاقتصاد ففي اية ناحية تقع هذه المساهمة اذاً؟ انها تقع في ناحية الديانة. فالمساهمة الدينية هي التي جعلت العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الاخلاقية. وعبقريتهم بكاملها تظهر في العهد القديم.

ولم يصلنا مؤلف يشبه العهد القديم في اهميته من العصور التي سبقت المسيحية. والعهد القديم هو اكثر من مؤلف ادبي، انه صرح حضارة بكاملها. وقد اتتنا بعض آثار اخرى ادبية للحضارات القديمة بطريق الاكتشافات الاثرية الحديثة بعد ان ظلت مدفونة في باطن الارض اجيالاً طويلة، غير ان هذا الاثر الادبي قد وصلنا بطريق المرويات والتقاليد المتواصلة. وقد كان العهد القديم خلال العصور قوة فعالة في حياة الرجال والنساء. ومرت مادته نفسها باطوار كثيرة من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي. وهنالك نوع من الوحدة تتخلل العهد القديم. ولم يمض زمن لم تكن فيه مادته موضوع دراسة عميقة. ولم ينفك الفنانون والشعراء والكتاب في العصور القديمة والوسطى والحديثة يستمدون

---

١) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 57-8.

الوحي من مواضيع التوراة. ومعظم اللغات المتمدنة تحمل طابع اشارات التوراة والافكار المتصلة بالتوراة.

وهنالك عددٌ من المعلمين فضلاً عن المؤرخين ساهموا في تأليف العهد القديم. فقد كان هنالك اولاً المشرع الذي يظهر بشخص موسى وقد تكلم بلسان يهوه. والشريعة الموسوية التي انزلها الله على موسى[١] كان لها ما يقابلها في قوانين حمورابي التي بالرغم من انها اقدم باكثر من خمسمائة سنة تمثل طوراً ارفع من الحضارة وهو الطور الصناعي والتجاري بينما كان العبرانيون في مرحلة الزراعـــة والرعي. وفي مجموعة قوانين حمورابي كان العبد يحرر في السنة الرابعة[٢] بينما في شريعة موسى كان يحصل ذلك في السنة السابعة[٣]. وكان عقاب السارق في قانون حمورابي ان يعيد الاشياء المسروقة ضعفين او ثلاثة اضعاف[٤] بينما عليه ان يعيدها في شريعة موسى بين اربعة او خمسة اضعاف[٥]. وكان ضرب الاب او الام يعاقب في قانون حمورابي بالتشويه[٦] بينما في شريعة موسى يعاقب بالموت[٧]. وحمورابي ينزل العقاب بالقضاة الذين يقبلون الرشوة[٨] بينما موسى يكتفي بمنع الرشوة[٩]. والشريعتان تضعان العادات والاعراف الموجودة بشكل قوانين وتضمان عادة الثأر البدوية القائمة عـــلى مبدأ «العين بالعين»[١٠]. وهو ارفع بمرحلة من عادة الثأر بدون قيد التي كانت معروفة قبلاً. وحمورابي وموسى تسلما قوانينهما من سلطة عليا فأخذها حمورابي من شمش

---

١) سفر الخروج ٢٠: ١٩ — ٢٢؛ انجيل متى ١٥: ٤.

٢) Robert W. Rogers, «The Code of Hammurabi», in *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York, 1912), § 117.

٣) الخروج ٢١: ٢؛ التثنية ١٥: ١٢.

٤) Rogers, §§ 120, 124.

٥) الخروج ٢٢: ١.

٦) المادة ١٩٥.

٧) سفر الخروج ٢١: ١٥.

٨) المادة ٥ من قانون حورابي.

٩) سفر الخروج ٢٣: ٨؛ التثنية ١٦: ١٨ — ١٩.

١٠) الخروج ٢١: ٢٤؛ التثنية ١٩: ٢١؛ سفر الـــلاويين ٢٤: ٢٠؛ قانون حورابي مادة ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠.

وموسى من يهوه. غير ان العنصر الاخلاقي في مجموعة موسى كما تحتويها الوصايا العشر لا يوجد ما يساويه في اية مجموعة اخرى. ولم يأت بما هو احسن من هذه الوصايا العشر سوى المسيح. والمنع او التحريم في هذه الوصايا لا يشمل الاعمال فحسب وانما يتجاوزها الى مجرد التفكير والرغبة.

وكان هنالك معلم عبراني من نوع آخر هو الكاهن kôhên الذي كان يعلم الشريعة ولكنه كان يعمل اكثر مما يعلم. فقد كان يقوم بالمراسم عند المذبح ويجري سائر الطقوس ويعمل كوسيط بين الانسان والله. وكان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الامم القديمة والكهانة عند العبرانيين كانت تنحصر في اسرة هارون بصورة وراثية[1].

ومن المعلمين ايضاً الرجل الحكيم. وكان الحكيم العبراني يخاطب الفرد وليس المجموع ورسالته كانت ادراك النجاح اكثر منها الحصول على رضى الاله. والحكمة بخلاف الشريعة كان مصدرها الانسان وكانت نتيجة ملاحظته واختباره. وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هي اسفار ايوب والامثال والجامعة واعظمها بل بالاحرى اعظم كتب الحكمة في اية آداب هو بدون شك سفر ايوب.

ومؤلف سفر ايوب لم يكن رجلاً حكيماً لا مثيل له فحسب بل كان شاعراً لا يجارى ايضاً. والشعر العبراني كسائر انواع الشعر هو نطق صادر عن شعور قوي مفرغ في شكل خاص. والشاعر الغنائي كان اكثر انواع الشعراء شيوعاً في اسرائيل. وكمغنّ كان يهدف في اغنيات النصر التي ينشدها الى الاشادة بالخلاص الذي تمّ على يد يهوه. وكان يعبر كواضع للمزامير عن عواطف رجل تائب يطلب الرحمة او يظهر الفرح بسبب الغفران[2] او كان يعبر عن عواطف رجل ضعيف يصرخ في وقت الضيق او يمجد الله لعونه[3]. والشاعر كان معلماً ايضاً في اسرائيل.

---

١) الخروج ٢٨ : ١ ؛ العدد ١٦ : ٤٠ .

٢) المزامير ٥١ ؛ ٣٢ .

٣) المزامير ٣ ؛ ٣٨ ؛ ٢٣ .

الانبياء

وكان النبي يتمتع باهمية خاصة بين سائر المعلمين . وكلمة « نبي » هنا لا تفيد المتنبئ عن حوادث المستقبل وانما الذي يتكلم بالنيابة عن الله وهذا معنى الكلمة من حيث الاشتقاق[١]. والديانة العبرانية انما تبدأ بالانبياء .

وقد ظهرت النبوة كاحتجاج ضد عبادة البعل وسائر العبادات الاجنبية . وكان غرضها من وجهة ايجابية تأييد ديانة يهوه . فالانبياء كانوا المدافعين عن يهوه . وبعد ان بدأ انبياء اسرائيل من هذا الاساس فانهم توصلوا الى ناحية رفيعة من التفكير الديني ، وفي الواقع اوجدوا ديانة جديدة توحيدية متمركزة حول اله اعلى يعم الكون وهو اله واحد فقط . وقد علم الانبياء ان هذا الاله الواحد هو كائن اخلاقي عادل . واكثر من ذلك فانه يتوقع ان يكون تابعوه اخلاقيين وعادلين . ومثل هذا الاله يسر ليس بالذبائح بل بالعيش الذي يتبع قواعد الاخلاق . والذي يهمه هو السلوك اكثر من الطقوس. فالتوحيد الاخلاقي الشديد كان المبدأ الاسامي في تعاليم الانبياء .

وقد قام هؤلاء المعلمون الجدد في عالم تتألف دياناته من سلسلة من الاعمال والاصول التي يعتبر الاتباع الصحيح لها جوهرياً للحصول على رضى الاله او لتجنب غضبه واتوا بتفسير جديد لله والانسان وعلاقاتهما. وكان هدفهم ليس خلاص الروح[٢] بل تنمية الفرد والمحافظة على المجتمع . واصبحوا المدافعين عن العدالة الاجتماعية . ولم يقم اي معلمين دينيين في بابل وخاطي او اليونان بمثل هذه المحاولة لربط الاخلاق بالديانة او اعتبار قواعد السلوك الاجتماعي كأوامر الهية . والعنصر الاخلاقي في كتاب الاموات وغير ذلك من قطع الادب المصري ضعيف جداً اذا ما قورن بما

١) ان كلمة نبي العبرانية هي عربية في شكلها ومعناها الذي ينبئ واصل الكلمة سامي قديم موجود في الاكادية nabu بمعنى يدعو .

٢) كان للمصريين وحدهم بين الامم القديمة تعاليم مفصلة بشأن الحياة بعد الموت . وكان الشيول Sheol وهو مقر الاموات عند العبرانيين غامضاً غير محدد بالضبط وبدون خطة رسمية. وكان الصالحون والاشرار يذهبون اليه وخاصة الاشرار حيث يكون وجودهم جامداً بدون نشاط . انظر سفر التكوين ٣٧ : ٣٥ ؛ صموئيل الاول ٢ : ٦ ؛ المزامير ٩ : ١٧ ؛ ٦ : ٥ ؛ ٣١ : ١٧ ؛ سفر الجامعة ٩ : ١٠ ؛ اشعيا ١٤ : ٩ ؛ قارن مع اشعيا ٢٦ : ١٩ ؛ دانيال ١٢ : ٢ .

اتى به انبياء العبرانيين . وقد بنى المسيح على اساس التعاليم العبرانية النبوية وليس على الاسس القانونية او الكهنوتية واكمل محمد البناء على هذا الاساس المشترك . ولذلك فانه ليس من المبالغة ان يقال ان حركة النبوة عند العبرانيين «قد احدثت اعظم حركة في تاريخ البشرية الروحي»[١].

والتفكير النبوي لم يقتصر على ايجاد فكرة جديدة عن طبيعة الله وصفاتـــه وعلاقة الانسان بالله وبالانسان وانما انتجت نوعاً جديداً من الادب الموزون الفعال. وجانب كبير من تأثيره الشفوي يفقد عن طريق الترجمة . وقد ظهرت اكثرية الادب النبوي بين عامي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق. م.

وكان اقصى ما توصل اليه البابليون والاشوريون والمصريون واليونان نوعٌ من التوحيد المشوب بالشرك (henotheism) يعتقد بوجود اله واحد اعلى بدون ان يمنع الاعتقاد بآلهة اخرى . وفي العبادة توصلوا الى عبادة اله واحد مع الاعتقاد بوجود اكثر من اله واحد في الوقت نفسه (monolatry) . واذا كان البعض قد توجـــه بالصلاة الى مردوخ او اتون او ابولون كما لو كان في ذلك الوقت لا يوجد اله آخر فان ذلك لا يجعلهم موحدين. فالتوحيد هو نظام عقائدي ناشط مكافح لا يقتصر على انكار سيطرة سائر الآلهة في نواحٍ محدودة وانما ينكر وجود الآلهة الاخرى ذاتها . واله التوحيد لا يمكن ان يكون قبلياً او قومياً بل يجب ان يكون امميا عاماً . والاعتقاد بوجود اله اعلى دون ان يمنع الاعتقاد بآلهة اخرى (اي henotheism) هو مرحلة متوسطة بين الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد .

ومن الواضح ان موسى وكذلك داود كانا من اتباع هذه المرحلة المتوسطة من التوحيـــد . فقد كان يهوه بالنسبة لهما اله العبرانيين وحدهم وسيطرته كانت على ارض اسرائيل[٢]. وهذا الاتصال الوثيق بين الاله والبلاد لم يكن عند العبرانيين وحدهم فقد كان يعترف به معاصروهم . ويهوه الاله العبراني الذي بدأ كإله قبلي يسره انزال العقوبات القاسية بالمصريين الذين اضطهدوا شعبه ، ثم اصبح الهاً قومياً

---

١) Julius A. Bewer, *The Literature of The Old Testament in its Historical Development* (New York, 1926), p. 87.

٢) سفر التثنية ٢٨ : ٦٤

يسمح باستئصال الاموريين والكنعانيين[١] ويأمر بقتل المئات من كهنة منافسه[٢] ان هذا الاله (يهوه) لم يرفع الى تلك المكانة الفريدة كاله وحيد في العالم وكإله يتصف بالمحبة والعدالة والرحمة والغفران الا في مستهل الفترة النبوية. اما كيف حصل هذا التطور فانه ليس من السهل شرح ذلك. وبموجب التفكير القديم كانت القبيلة او الشعب عندما تتغلب على قبيلة اخرى او شعب آخر فان ذلك يعتبر برهاناً قاطعاً على ان اله الشعب المنتصر هو الاقوى. وبصورة آلية يقبل الشعب المغلوب هذا الاله. غير ان انبياء العبرانيين لم يتبعوا ذلك التفكير. فبينما كانت جيوش الاشوريين تُخضع شعب يهوه كان انبياء يهوه يعلمون بان يهوه كان يستخدم اشور كاداة لمعاقبة شعبه لانهم اخطأوا. وهكذا تحول الانكسار الى انتصار، ومكانة يهوه لم يحافظ عليها فحسب بل ارتفعت الى ذروة فريدة من العالمية.

عاموس الموحد الاول

قد لا يصدق الانسان ان راعياً وجاني جميز من قرية قليلة الشأن في يهـــوذا والبرية المجاورة كان اول رجل في تاريخ الفكر ادرك وحدة الله وصفته العالمية. ذلك كان عاموس من قرية تقوع[٣] الذي اعلن رسالته حوالي ٧٥٠ ق. م. وقد كان عاموس نبياً يتكلم ولا يكتب وكذلك كان محمد. وربما كان عاموس أمياً. وقد نشر رسالته في مملكة الشمال في عهد يربعام الثاني الذي ادت فتوحاته الى تدفق ثروات ومواد ترف جديدة على المجتمع الاسرائيلي. وكان عاموس اول من نظر الى يهوه كإله شعوب اخرى غـــير بني اسرائيل[٤] وكإله عدالة اجتماعية. واليك الكلمات التي وضعها على لسان يهوه (الاصحاح الخامس):

٢١ بغضت كرهت اعيادكم ولست التذ باعتكافاتكم.

---

١) سفر يشوع ١٠: ٨ — ٤٢.

٢) سفر الملوك الاول ١٨: ٣٦ — ٤٠؛ قارن مع سفر التثنية ١٣:١٣ — ١٧؛ ١٧: ٢ — ٥.

٣) ولا تزال آثار هذا الاسم في خربة تقوع او تقوعـــة وهي قرية خربة تبعد ستة اميال جنوبي بيت لحم.

٤) عاموس ٩: ٥ — ٧.

٢٢ اني اذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا ارتضي وذبائح السلامة من مسمناتكم لا التفت اليها.

٢٣ ابعد عني ضجة اغانيك ونغمة ربابك لا اسمع.

٢٤ وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم.

اشعيا وقدسية الله

وقد فكر النبي اشعيا الذي بدأ نبوته نحو ٧٣٨ كما فعل عاموس على اساس التوحيد النظري. وكان يعتبر الآلهة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الانسان[١]. وقد احدث تقدماً في تفكير عصره بالاصرار على قدسية الله وبابراز كماله المختلف عن نقص الانسان حيث يقول: «قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الارض[٢]». عاش اشعيا في عهد مضطرب حصل فيه خراب السامرة عن يد سرجون (٧٢٢ ق. م.) وهجوم سنحاريب على اورشليم (٧٠١ ق. م.) ولكنه كان يقف فوق معاصريه ويقدم مثلاً رائعاً عن الوطنية التي لا تتراجع امام اية تضحية نظراً لوحي ايمانه الذي لا يتزعزع باله قدوس. وقد ظلّ لمدة ثلاث سنوات معرّى وحافياً ليظهر نوع المعاملة التي سينالها الاسرى المصريون والكوشيون على يد الاشوريين[٣]. وكان اشعيا بالاضافة الى ذلك نبياً تكلم عن قدوم المسيح ورأى بعين ايمانه حلم السلام العام تحت رئاسة «امير السلام» فتعم سلطته العالم ويطبع الناس سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ويسكن الذئاب مع الخراف[٤]. لقد بشّر اشعيا بنظام جديد لم تستطع ان تحققه ٢٦٠٠ سنة من التقدم. وكان اشعيا الثاني وهو مؤلف الاصحاح ٤٠ الى ٥٥ موحداً ايضاً.

ارميا والعهد الجديد

اختلف ارميا عن عاموس واشعيا بانه كان نبيا كاتباً. واتصفت نبوته بالآلام

---

١) اشعيا ٢ : ٨ ، ١٨ ؛ ١٠ : ١٠ .

٢) اشعيا ٦ : ٣ .

٣) اشعيا ٢٠ : ٣ .

٤) اشعيا ٩ : ٦ – ٧ ؛ ٢ : ٢ – ٤ ؛ ١١ : ١ – ٩ .

التي رافقتها مدة طويلة (٦٢٦ — ٥٨٦ ق. م.) . وربما كان انبل شخصية في العهد القديم كله . وقد شهد مهاجمة نبوخذنصر لاورشليم في ٥٩٧ وتخريبه لها في ٥٨٦ . وكان كعاموس واشعيا الثاني موحداً ولكن توحيده كان أتم وعملياً اكثر . وقد اعلن بشكل لا يقبل الشك ان جميع الآلهة الاخرى هي اباطيل من صنع الانسان ومن منتجات الخيال[١]. وقد حلم كما فعل اشعيا بعهد طوبائي يسود فيه الحق والعدالة[٢].

غير ان ما يتوج سفر ارميا هو في الفصول ٣٠ حتى ٣٣ ويعتبر البعض انها تضم انبل تفكير في العهد القديم. ففيها يقطع يهوه عهداً جديداً مع شعبه حيث يجعل شريعته في داخلهم ويكتبها على قلوبهم وليس على الواح حجرية كما حصل في عهد آبائهم[٣]. وقد اخذ يسوع في العشاء الاخير فكرة العهد الجديد هذه كما ان مؤلف الرسالة الى العبرانيين ذكر الاشارة الاصلية لهذه الفكرة[٤]. وفي المناسبة نفسها يعلن ارميا مبدأ المسؤولية الفردية التي تخالف ما قيل سابقاً بان «الآباء اكلوا الحصرم واسنان الابناء ضرست[٥]» وهكذا بلغ مرحلة من الشعور الاخلاقي لم تبلغه بعض الامم الاوربية في عصرنا اذا حكمنا من تصرفها في الحرب العالمية الثانية .

أنبياء آخرون وفضلهم

وقد كان لبعض الانبياء العبرانيين الآخرين فضلهم ومساهمتهم . فقد توصل هوشع الذي كان من المملكة الشمالية ونشر تعاليمه بين ٧٤٥ و ٧٣٥ الى الفكرة السامية التي مؤداها ان الله محبة وذلك بعد اختبار محزن في حياته العائلية[٦]. فقد كانت زوجته التي ولدت له ثلاثة اولاد غير امينة ولكنه ظل يحبها ؛ وكذلك احب الله اسرائيل غير المخلصة له . وكان النبي ميخا (نشر تعاليمه بين ٧٣٠ و ٧٢٢)

---

١) ارميا ٥: ٧؛ ١٤: ٢٢؛ ١٠ : ١٠ — ١٢؛ ١٦ : ١٧ — ٢١ .

٢) ارميا ٢٣ : ٥ .

٣) ارميا ٣١: ٣١ — ٣٤؛ ٣٢: ٤٠ .

٤) انجيل متى ٢٦: ٢٨ ؛ لوقا ٢٢: ٢٠ ؛ الرسالة الى العبرانيين ١٠: ١٦ — ١٧ .

٥) ارميا ٣١: ٢٩ — ٣٠ ؛ قارن مع حزقيال ١٨ : ٢ — ٤ .

٦) هوشع ١٤ : ٤ .

معاصراً لاشعيا ومدافعاً عن الفقير الذي كان يراه يتألم من الظلم وقلة العدل. وقد رأى ان الامور ستصبح في وضع احسن[1]. وكلماته المتصلة بالعدالة الاجتماعية كلمات خالدة حيث يقول (الاصحاح السادس):

٦ بِمَ اتقدم الى الرب وانحني للاله العلي؟
هل اتقدم بمحرقات بعجول ابناء سنة؟

٧ هل يسر الرب بالوف الكباش بربوات انهار زيت؟
هل اعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي؟

٨ قد اخبرك ايها الانسان ما هو صالح؛ وماذا يطلبه منك الرب الا ان تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع الهك؟

وقد اظهر النبي حزقيال معاصر ارميا في الاصحاح ١٨ شعوراً بالمثل العليا الاخلاقية لم تظهره الامم المسيحية في حروبها في القرن العشرين. وعلى ذلك فان البشرية توصلت في اقوال الانبياء العبرانيين الى مستوى لم تتجاوزه قط إلا في اقوال المسيح وربما في اقوال بولس. وتبنى الاسلام وهو الديانة التوحيدية الثالثة الكبرى في العالم الوحدانية الاخلاقية لليهودية والمسيحية. وشاركت الزردشتية الديانتين القديمتين في بعض الصفات البارزة. وبظهور التوحيد في مظهره اليهودي والمسيحي تم ثالث عمل مجيد حققته الحضارة السورية القديمة[2].

وقد اصبحت الآرامية بعد العبرية اللغة التي وجد فيها الفكر الديني عند اليهود وسيلة للتعبير. ومن اهم المؤلفات الكبرى بعد التوراة يأتي التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) ويضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الخمسة المكتوب. واما النص (وهو المشنة بمعنى اعادة او تعليم) فانه ورد بالعبرانية الجديدة بينما شرح النص (الجماره Gemara بمعنى تتمة) وضع بالآرامية. والتلمود

---

١) ميخا ٤ : ١ — ٨.

٢) انظر ص ١٧ — ١٨ وما سيأتي في الفصل ٢٥. راجع: Toynbee, *Study of History*, vol. ii, pp. 75-77. وتوينبي يجعل الحضارتين العربية والايرانية منتسبتين لحضارة السورية التي كانت كأصل لهما. وهو يعتبر الخلافة العباسية كشكل جديد ظهرت فيه الدولة السورية العامة (ج ١ ص ٦٧ — ٦٨) بعد توقفها بسبب الهلنية الدخيلة.

الاورشليمي الذي جمع في القرن الرابع م. لم يبلغ في شهرته واهميته كمرجع درجة التلمود البابلي. ومن اقدم الحاخامين الذين اعترف بهم كمرجع هام في تفسير التوراة وفي وضع مبادئ تفسيرية هِلِل Hillel الذي ولد في بابل وعاش في اورشليم ومات فيها عام ٩ م. وقد اوجز الدين بكلمات قليلة حيث قال: لا تفعل لسائر الناس ما تجده قبيحاً بالنسبة لك[١]». وقد علم المسيح[٢] نفس هذا المبدأ وكذلك فعل بولس[٣] الذي درس على غمالائيل Gamaliel حفيد هِلِل. واشهر من ذلك بين اقوال هِلِل قوله: «لا تفعل للآخرين ما لا تريد ان يفعلوه لك[٤]».

---

١) قارن مع سفر اللاويين ١٨:١٩ .

٢) انجيل متى ٢٢: ٣٩؛ مرقس ١٢: ٣١.

٣) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٥:١٤؛ قارن مع رسالة بولس الى اهل رومية ٨:١٣ .

٤) انظر ما سيأتي في اوائل الفصل ٢٥ .

الفصل السادس عشر

سورية تحت الحكم الفارسي

بين الفترة السامية والفترة الهندية ـ الاورية

سيادة الدولة البابلية الحديثة

إنّ تدمير نابوبولاصر ، مؤسس الدولة البابلية الحديثة، بالاشتراك مع كي اخسار Cyaxares الميدي لمدينة نينوى العظيمة في سنة ٦١٢ ق. م. وما تـلا ذلك من ابادة قوات الدولة البابلية الحديثة لفلول الجيش الاشوري الذي ارتد الى حران في ٦٠٩ ، اثار التساؤل فيما اذا كانت بابل الحديثة ام مصر القديمة هي التي سترث منطقة شرقي البحر المتوسط. ولم يطل تقرير ذلك اذ ان الهزيمة الساحقة التي الحقها القائد نبوخذنصر ، ابن نابوبولاصر ، بالفرعون نيخو[1] في كركميش سنة ٦٠٥ لم تدع مجالاً للشك فيمن سيحظى بالسيادة على تلك المنطقة. وحين تجرأ هوفرع غير متعظ بعبرة سلفه نخاو على تحدي تلك السيادة لاقى المصير نفسه عـلى ارض المعركة في فلسطين . وكان سادة سورية الجدد ويسمون ايضاً بالكلدانيين من الساميين وابناء عم الاشوريين ـ البابليين ويرجح انهم افراد موجة متأخرة كان لها بعض العلاقة بالآراميين[2].

وفي هذه الاثناء تتساءل الشعوب التي رزحت لعدة قرون تحت وطأة اعظم قوة عسكرية عرفها العالم فيما اذا كان الوقت قد حان لان تتمتع بحريتها من جديد . وجاءها الجواب الحاسم بتدمير نبوخذنصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢) لاورشليم في عام ٥٨٦ واخضاع صور في عام ٥٧٢ بعد حصار دام ثلاثة عشر عامـاً . وكان على سورية الكبرى ان تحكمها بلاد الرافدين من جديد في الثمان والاربعين سنة التالية .

---

١) انظر ص ٢١٩ .

٢) انظر ص ١٧٥ و ١٨٤ .

سقوط الدولة البابلية الحديثة

انقضى الحكم الكلداني عام ٥٣٨ ق. م. حين هاجم الفرس، وهم شعب جديد ظهر في منطقة ابعد الى الشرق، جارتهم بابل بقيادة كورش. وكان هذا قد وحّد الميديين والفرس، وهم ابناء عم في الاصل، تحت حكم واحد ثم قهر قارون ومملكته ليديا في اقصى آسية الصغرى[١]. وكان يحكم بابل آنئذ نابونيدس (٥٥٦ — ٥٣٨) الملك المولع بالآثار الذي بلغ من اهتمامه بمخلفات الماضي حداً جعله يكثر من صور آلهة المدن الاخرى القديمة في عاصمته مما اكسبه كره كهانه ونقمة رعيته. والغريب ايضاً انه اتخذ من تيماء، وهي واحة بعيدة في شمالي الحجاز، مقراً له مـــدة من الزمن تاركاً شؤون الدولة بين يدي ابنه العاجز بلشاصر[٢]. وكان ولي العهد هذا يهتم بحياة البذخ في القصر الملكي المترف الذي بناه نبوخذنصر اكثر من الاهتمام باتخاذ التدابير لاصلاح حصون عاصمته. واتضح معنى الكتابة التي كتبت على جدار القصر والتي تقول «قسمت مملكتك واعطيت للميديين والفرس[٣]».

دولة عالمية جديدة : الفرس

حلّت الكارثة ببابل سنة ٥٣٩ ق. م. وبقيت القلعة والقصر الملكي يقاومان حـــتى آذار سنة ٥٣٨. وعلى ذلك اعترفت مناطق الامبراطورية البابلية بما فيها سورية وفلسطين بالحكم الفارسي الجديد. ويعتبر سقوط بابل اكثر من مجرد انهيار امبراطورية اذ انه في ذلك الوقت وفي ذلك المكان انتهى عصر وهو العصر السامي وبدأ عصر جديد وهو العصر الهندي — الاوربي. وانقضت ايام الامبراطوريات السامية ولم تعد الا بعد اكثر من الف عام وكانت في هذه المرة برعاية ممثلين جدد

---

١) وقارون هذا هو المقصود في التشبيه «غني مثل قارون» وكان قد استشار المتكهنين مرتين قبل اثارة الحرب فأكدوا له «بأنه سيدمر امبراطورية عظيمة» وكانت تلك الامبراطورية امبراطوريته. انظر Herodotus Bk. I, ch. 53.

٢) انظر: Sidney Smith, *Babilonian Historical Texts* (London, 1924) pp. 76 *seq.*; Raymond P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 105 *seq.*

وكلمة بلشاصر مشتقة من الكلمة الاكادية بل شار اوصور Bēl-shar-uṣur ومعناها «يا بعـــل احم الملك».

٣) سفر دانيال ٥ : ٢٨ .

هم عرب الجزيرة الذين لم يكن لهم شأن يذكر في العلاقات الدولية القديمة . اما الفرس الذين بدأت بهم الفترة الهندية — الاوربية فينتسبون الى الفرع الهندي — الايراني من المجموعة الهندية الاوربية . وقــد خلفهم في سيادتهم على العالم السامي المكدونيون فالرومان فالبيزنطيون وكلهم من الهنود الاوربيين .

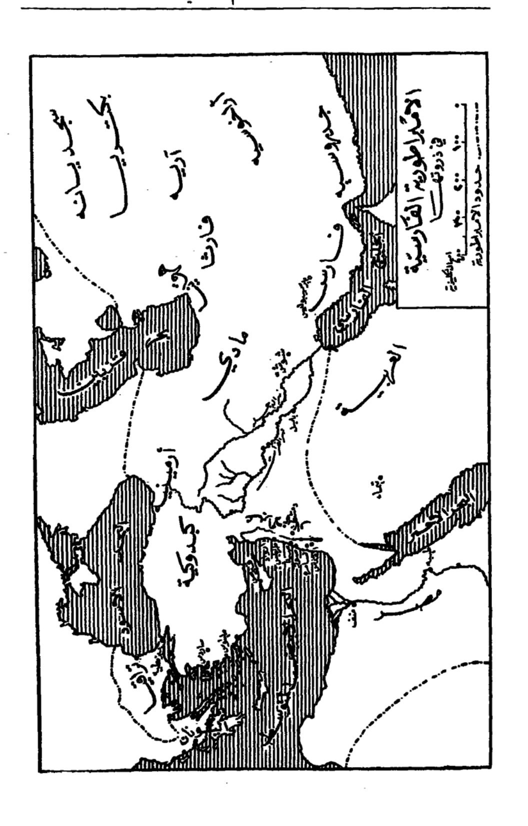
اصبحت دويلات سورية وفلسطين الآن جزءاً من امبراطورية عظيمة تعتبر من اكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم . وقد قدر لها ان تضم بعد ربع قرن من ولادتها العالم المتمدن بأسره الممتد من مصر والمدن الايونيــة في آسية الصغرى الى البنجاب في الهند . ومن ثم اخذت تتطلع بعين الطمع عبر الهلسبونت الى الجزء المتمدن الوحيـــد في اوربا . وساعد في جمع اطراف هذه الامبراطورية المترامية شبكة من احسن الطرق التي عرفت حتى ذلك الحين ، يضاف اليها نقـــد موحد ولغة رسمية هي الآرامية . واصبحت هذه اللغة التي شاع استعمالها طويلاً في الشؤون التجارية اللغة الرسمية للمقاطعات الغربية جنباً الى جنب مع الفارسية . وكانت جميع المراسيم والسجلات المتصلة بهذه المقاطعات تترجم الى اللغة الآرامية الرسمية . وعادت المدن الفينيقيـــة الى الازدهار في ظل هذا السلم الفارسي كمراكز للتجارة العالمية .

تنظيم الامبراطورية

آلت مهمة تنظيم هذه الامبراطورية الضخمة الى داريوس الاول (٥٢٦—٤٨٦) وهو من اقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعاً وتنوراً . فهو الذي بنى الطرق وحسّنها وانشأ نظاماً للبريد واصلح الضرائب وأعدّ اسطولاً لايجاد طريق بحرية بين مصر وفارس. وكان الفينيقيون عماد هذا الاسطول . وقد قسّم البلاد الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى مرزبانة يحكم كل منها حاكم يدعى مرزبان . وكان المرزبان حاكماً مدنياً وليس عسكرياً . ويقوم الى جانبه قائد وامين سر مستقل كل منهما عن الآخر ويتصلان بالعاصمة مباشرة . واضيفت الى سوزا وبابل ، المقرين الملكيين ، عاصمة ثالثة هي برسبوليس[١] حيث شيّد داريوس عدداً من الابنية هدمها

---

١) سوزا هي المدينة المذكورة في التوراة باسم شوشن والآن تسمى شوش . وخرائب برسبوليس وهي التي قامت بعد فسرجادي عاصمة كورش تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال شرقي شيراز .


الامبراطورية الفارسية
في ذروتها
حدود الامبراطورية
فارس
مادي
العربية
أرمينيا
كبدوكية
مصر

الاسكندر فيا بعد. وقد تمتعت القوميات الخاضعة في المرزبانات بوضع مستقل لحد ما ولا ريب ان هذا كان من عوامل الاستقرار فيها. وفرض على كل مرزبانـــة حصة معينة من الجزية تدفعها الى الخزينة الملكية. وكان بعض الموظفين المتجولين بالنسبة للسلطة الامبراطورية بمثابة «عيونها وآذانها».

يتفوق نظام داريوس على جميع الانظمة التي سبقته بأنه كان نظاماً امبراطورياً يجمع بـــين الحكم الذاتي المحلي ومسؤولية الحكم المركزي والمراقبة العليا. وفي الحقيقة لم ينافسه نظام آخر حتى عهد الرومان. فهو يجمع احسن خصائص النظامين المصري والاشوري ويتجنب مساوئهما.

كانت سورية وفلسطين بالاضافة الى قبرص في الولاية الخامسة التي سميت مرزبانة «عبر نهرا»[1]. وتدفع جزية مقدارها ٣٥٠ وزنة[2] وهي جزية خفيفة نسبياً. وكانت لا تزال في قبرص جاليات فينيقية عديدة.

اعادة اليهود من السبي

وجد كورش حين دخل بابل في ٥٣٩ — ٥٣٨ جالية يهودية يعود اصلها الى سبي نبوخذنصر الذي حصل في عامي ٥٩٧ و ٥٨٦. وليس من الصعب الافتراض بان افراد هذه الجالية قد ساعدوا كورش عـــلى احتلال المدينة. وسارع الفاتح الفارسي الى اصدار مرسوم يخول الذين يودون الرجوع الى ارض آبائهم واعادة بناء معبدهم حق العودة[3]. وقد تصور، على ما يظهر، ان وجود طائفـــة يهودية في فلسطين تدين بوجودها لاحسانه سيشكل توازناً فعالاً تجاه الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شؤون فلسطين. وتعاكس سياسة كورش هذه سياسة نفي الشعوب الخاضعة التي اتبعها الاشوريون والكلدانيون. واعتبر اليهود كورش كمخلص ارسله الله[4].

---

١) ومعناها «عبر النهر» (الفرات) — راجع سفر عزرا ٦:٦، ٨، ١٣.

٢) انظر: Herodotus, Bk. III, ch. 91.

٣) عزرا ٦: ٣ — ٥.

٤) اشعيا ٤٤: ٢٨؛ ٤٥: ١.

لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين استفادوا من هذه الفرصة ويبدو الرقم ٤٢،٣٦٠ الذي يعطيه عزرا ونحميا مبالغاً فيه اذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو ٥٨،٠٠٠ نسمة كما انه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق الجمع النهائي[١] . ولا بد ان الذين استجابوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسية من العناصر الناقمة ومن الذين لم تكن لهم جذور في الارض الجديدة . وقد عبر شاعرهم عن الحنين الذي راود اكثرهم بكلمات مؤثرة حية (المزمور ١٣٧) حيث قال :

١ — على انهار بابل هناك جلسنا — بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون .

٢ — على الصفصاف في وسطها علقنا اعوادنا .

٣ — لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحين قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون .

٤ — كيف نرنم ترنيمة الرب في ارض غريبة ؟

٥ — ان نسيتك يا اورشليم تنسى يميني.

٦ — ليلتصق لساني بحنكي ان لم اذكرك ، ان لم افضل اورشليم على اعظم فرحي.

ومما لا شك فيه ان كثيراً من المسبيين الآخرين عملوا بنصيحة النبي ارميا (الواردة في الاصحاح ٢٩ من سفر ارميا) :

٥ — ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمارها .

٦ — خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا .

٧ — واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم اليها وصلّوا لاجلها الى الرب لانه بسلامها يكون لكم سلام.

وقد فضّل اغنياء المسبيين البقاء حيث هم بدليل ورود اسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك العهد وكانت بعض هذه الاسماء مركبة من اسماء آلهة بابلية . وكانت اهم مراكز اقامتهم على خابور[٢] وهو كبارو (العظيم) لدى البابليين . وتقع هذه القناة العظيمة المتفرعة عن الفرات الى الجنوب الشرقي من بابل. وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان اول افراد ما عُرف

١) عزرا ٢ : ٦٤ ؛ نحميا ٧ : ٦٦ .

٢) حزقيال ١ : ١ ، ٣ ؛ ٣ : ٢٣ ، ٢٣ .

بالدياسبورا Diaspora اي اليهود المقيمين خارج فلسطين . وكانت الديانة اليهودية عاملًا رئيسياً لتماسك اليهود في ديار هجرتهم .

كان زعيم اليهود العائدين[١] زروبابل[٢] وهو من سلالة الملك يهوياقين. وقد ارجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوخذنصر واعترفت به الجماعة العائدة حاكماً عليها لبعض الوقت . وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية في سنة ٥١٥ ق. م. في عهد داريوس وقد تمّ هذا المشروع على نفقة الدولة .

حذا ارتحشستا الاول (٤٦٥ — ٤٢٤) حذو كورش فسمح بعودة فريقين متتاليين من المسبيين الواحد برئاسة نحميا والآخر برئاسة عزرا . وكان نحميا هذا في الحادية والعشرين من العمر يعمل حاملًا للكؤوس في البلاط الملكي ويظن انه من الخصيان . وقد وصل اورشليم حوالي ٤٤٤ ق. م. وهدفه الصريح اعادة بناء اسوار المدينة . واتم عمله هذا بالرغم من معارضة جيرانه مثل صنبلاط[٣] حاكم السامرة وجشمو[٤] Gashmu الزعيم العربي وحتى بعض وجهاء اليهود المحليين . وحكم نحميا شعبه في ظل السيادة الفارسية وذلك بين عامي ٤٤٤ — ٤٣٢ ق. م. وكانت الدولة حكومة دينية كما في عهد زروبابل .

وقد ذكرت مرويات التوراة[٥] التي قبلها عدد متزايد من العلماء ان عزرا ،

---

١) ان كلمة يهودي وتعني بالاصل احد افراد قبيلة او مملكة يهوذا (التي منها تشتق) اطلقت بعد ذلك على اي فرد من الشعب اليهودي الذي رجع من السبي وشملت اخيراً كل افراد هذا الشعب في العالم . اما كلمة «اسرائيلي» فتشير الى فرد من نسل اسرائيل اي يعقوب . ولا تزال كلمة « عبراني » اشمل تعبيراً وتضم كل الاسرائيليين .

٢) مشتق من الاكادية زرو—بابيلي Zēru-babīli اي «ذرية بابل»؛ ويسمى ايضاً «شش بازار Shesh-bazzar»؛ عزرا ١ : ٨ و ١١ ؛ ٥ : ١٤ ويرد «زروبابل Zerobabel » في مـتى ١ : ١٢ ؛ انظر نحميا ١٢ : ١—٩ .

٣) وهي بالآشورية سن اوبال ليت Sin-ubal-lit اي « سن يهب الحياة ». ويرجح انه من نسل شخص اتى به الملوك الاشوريون ليحل مكان الذين نفوا من السامرة . وهو الذي تزوجت ابنته حفيد الكاهن الاعظم .

٤) وقد يكون من نسل قبيلة عربية كقبيلة ثمود (يذكرها القرآن باسم ثمود) التي نفاها سرجون الى فلسطين .

٥) عزرا ١٤٧ وما بعده .

الكاهن والكاتب، قد رجع الى اورشليم قبل نحميا ليصلح ديانة الشعب برخصة من الملك. وكما كان يهدف الى ايجاد عقيدة دينية نقية صافية فانه كان يهدف ايضاً لايجاد نقاوة العنصر وبلغ من برنامجه العنصري انه كان يحتم طلاق النساء غير اليهوديات واعلان ابنائهن غير شرعيين[١]. وفي ذلك فاق نحميا الذي اكتفى بلعن هؤلاء الازواج وجلدهم ونزع شعورهم وانتزاع اليمين منهم بعدم عمل ذلك ثانية[٢]. ولم يطرد نحميا الزوج المذنب من البلاد الا في حالة واحدة.

تمتع اليهود في عهد زروبابل ونحميا بامتياز الحكم الذاتي. ولكن اللغة العبرية في عهدهم لم تعد تستعمل كلغة دارجة وذلك ليس في بلاد سبيهم فحسب وانما في بلاد يهوذا ايضاً[٣]. وقد حلت محلها اللغة الآرامية وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية. واستعمل اليهود الآرامية في مراسلاتهم الرسمية[٤]. وقد تركت اللغة العبرية عند اندثارها تراثاً غنياً من المفردات في اكثر اللغات المتحضرة. ويرجع اصل اكثر اسماء الاعلام شيوعاً في الانكليزية كيوحنا ويوسف وبولس ومريم الى اصل عبري.

الفرس في فينيقية

وفي الوقت الذي كان فيه الفرس يشجعون اليهود على اعادة بناء موطنهم القديم كانوا يعتمدون على الموارد الفينيقية لتوسيع امبراطوريتهم. وقد تم هجوم قمبيز (٥٢٩ — ٥٢١) ابن كورش على مصر بمساعدة سفن فينيقية ونتج عنه ضم مصر حتى النوبة الى الامبراطورية الفارسية. ولتزويد فرق المشاة التي تجتاز الصحراء بين فلسطين ومصر بالمياه استؤجرت الجمال من سكان الجزيرة العربية. وتوفي قمبيز في مكان غير معروف في سورية في طريق عودته الى مصر[٥].

---

١) عزرا ١٠: ٣ — ٥، ١٠ وما بعده.

٢) نحميا ١٣: ٢٥.

٣) نحميا ١٣: ٢٤.

٤) عزرا ٤: ٧.

٥) يجعل المؤرخ يوسيفوس دمشق مكان وفاته. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 2, § 2. ويقول هيرودوتس انه مات في «اقبطانا Agbatana». انظر: Herodotus, Bk. III, ch. 64. اما بليني فيقول ان المكان هو «اكبتانا Ecbatana» على رأس جبل الكرمل. انظر: Pliny, Bk. V, ch. 19.

كان الاسطول الفينيقي ايضاً عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة احشويرش (xerxes) ٤٨٥ — ٤٦٥[١]. ويظهر ان الفينيقيين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحريين القدماء ولذلك قدموا ٢٠٧ سفن. كما اظهرت براعة الفينيقيين الهندسية تفوقها[٢] في حفر قناة عبر البرزخ لتجنب العواصف حول جبل آتوس. وقد حطم الاسطول كله تقريباً في معركة سلاميس البحرية سنة ٤٨٠[٣].

كان داريوس، والد احشويرش، اول من بدأ النزاع مع بلاد اليونان وهزم جيشه في معركة مراثون سنة ٤٩٠. وكان اليونان في نظره امة من البرابرة وقرصان البحر وهم مصدر ازعاج دائم لشواطئ آسية الصغرى في منطقة نفوذه. ومن المؤكد ان مستوى الحضارة الذي كان يمثله داريوس لم يكن باقل من مستوى معاصريه اليونان. فقد كان وخلفاؤه من اتباع زردشت الذي رأى الحياة صراعاً مستمراً بين قوى الخير والنور المتمثلة بآهورا مزدا وبين قوى الشر والظلام المتمثلة بأهريمان. ولم يتفوق على مبادئ الزردشتية الاخلاقية آنئذ سوى وصايا الديانـــة اليهودية. وكانت الحرب بالنسبة لليونان، كما عبر عنها شعراؤهم ومؤرخوهم حينذاك، حرباً بين الحرية والاستبداد الشرقي. وسرعان ما لبست ساحات المعارك في مراثون وثرموبيلي حلل الشرف والمجد ورفع الذين ضحوا بحياتهم فيها الى مصاف الابطال القوميين والخالدين. وكان النزاع الفارسي — اليوناني بالنسبة للعالم اجمع المرحلة الاولى في الصراع بين الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي تابعه الاسكندر وبومبي ومعاوية وصلاح الدين ومن بعدهم نابليون واللنبي.

طرابلس العاصمة الفينيقية

كانت دمشق المدينة الرئيسية في سورية في العهد الفارسي[٤]. اما في فينيقية فسمح لاربع مدن هي ارواد وجبيل وصيدا وصور بممارسة الحكم الذاتي المحلي واعطيت

---

١) انظر: Herodotus, Bk. VII. ch. 96.

٢) انظر: Herodotus, Bk. VII, ch. 23.

٣) انظر: Herodotus, Bk. VIII, chs. 86. 89-90, 96.

٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20

كل منها حق الحكم على دولة صغيرة . وفي القرن الرابع اتحدت دويلات المدن الفينيقية هذه بعضها مع بعض وجعلت طرابلس ، وهي مدينة حديثة العهد ، مقر المؤسسات الاتحادية . وبعد ان كانت طرابلس تتألف في الاصل من ثلاثة مراكز متفرقة تحمل اسماء ممثلي صور وصيدا وارواد توحدت في السنة الاولى من حكم ارتحشستا الثالث (اوكوس Ochus ٣٥٩ — ٣٣٨) وسميت « اثار » او ما يشبه ذلك كما ورد على قطعة نقود محلية تعود الى سنة ١٨٩ — ١٨٨ ق. م. وقد دعاها اليونان تريبوليس Tripolis (بالعربية طرابلس)[١]. وبما ان هذه المدينة الثلاثية كانت مكان اجتماع المجلس العام الفينيقي فانها قامت بوظيفة عاصمة لفينيقية[٢]. وكان يعقد المجلس اجتماعات سنوية يشترك فيها نحو ثلاثمائة مندوب . وبلغ من تكبر الموظفين الفرس على الوطنيين في احدى هذه الاجتماعات ان نقم هؤلاء وقرروا التمرد . ولا بد ان الفينيقيين قد شعروا في اواسط القرن الرابع ان شمس الفرس قد آذنت بالغروب .

صيدا تتحول الى رماد

بدأت الثورة ضد ارتحشستا هذا في القسم الصيداوي من طرابلس في عام ٣٥١ وانتشرت منه حتى عمّت الساحل الفينيقي كله . وكانت مصر مصدر التشجيع كالمعتاد . وسرعان ما انتقل مركز الثورة الى صيدا نفسها في عهد الملك تينس Tennes . وقطع الصيداويون اشجار الحديقة الملكية في المدينة او بجوارها واشعلوا النار في التبن المخزون لخيالة الفرس ثم حصلوا على جنود مرتزقة وسفن ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف وعلى الاسلحة والمؤن واستعدوا للصراع المقبل . وسار ارتحشستا من بابل على رأس جيش يقدر عدده بـ ٣٠٠،٠٠٠ من المشاة و ٣٠،٠٠٠ من الفرسان[٣]. واثناء مسيره كان مرازبته في سورية وكيليكيا يطردون من فينيقية بعد محاولتهم قمع الثورة . وطردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس

---

١) انظر : George F. Hill, *Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia* (London, 1910), § 48.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 15.; Diodorus, Bk. XVI, ch. 41.

٣) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 40, § 6.

واعلنت استقلالها. وعندما سمع تنيس بتقدم ارتحشستا بنفسه على رأس جيش كبير خاف وهرب وسلم مدينته. ومع ذلك قرر سكانها الموت احراراً. وفي ساعة يأسهم احرقوا جميع السفن في الميناء لئلا يحاول بعض المواطنين الهرب واعتصموا في بيوتهم بينما كانت النار تلتهمهم وتلتهم ممتلكاتهم[1]. ويقال ان اكثر من ٤٠،٠٠٠ شخص قد هلكوا بذلك. اما القلائل الذين اسروا فنقلوا الى بابـل[2]. وهكذا اصبحت المدينة التي كانت فيما مضى سيدة المتوسط رماداً وحرمت العالم المثقف من وثائقها. وهذه هي المرة الثانية التي تمحى فيها صيدا من الوجود وكانت الاولى على يـد اسرحدون في ٦٧٧. واستسلمت بقية المدن الفينيقية متعظة بمصير صيدا المفجع.

مظاهر الحضارة

لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة السورية وتبدلها تحت تأثير الحكم الفارسي. والواقع هو ان تاريخ سورية كله في هذه الفترة هو من اكثر العصور غموضاً في تاريخ البلاد كله. وتقتصر مصادر معلوماتنا على بعض النقود والكتابات الاثرية المبعثرة والمؤلفات العبرية والكلاسيكية. وتتوقف المصادر العبرية فجأة حوالي العام ٤٠٠ ق. م. وليس لدى علم الآثار سوى قليل من المعلومات. ومع ذلك فمن المؤكد ان الحضارة السورية ظلت مجموعة تامة من عناصر سامية وتشكل المصادر الآرامية الفينيقية عنصرها السائد كما كانت الحال في العصر البابلي الحديث.

واذا افترضنا ان قصة احيقار Ahiqar ألفت لاول مرة في الفترة الفارسية فيمكننا ان نتخذها دليلاً على نوع الادب الذي كان يعنى به آنذاك. وهـو من نوع ادب الحكم. وهناك ايضاً التأثير الفارسي على الديانة اليهودية الذي يستغرب عدم ظهوره حتى وقت متأخر وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد. والشكل الذي يتخذه هو اتجاه نحو الثنائية التي تتضمن ظهور منافس شخصي للاله الواحـد. وقد انتقل هذا المفهوم الثنائي الى العهد الجديد في التوراة حيث يتخذ شكل

---

١) انظر: Diodorus, Bk. XVI, ch. 43-45.; Frederick C. Eiselen, *Sidon* (New York, 1907), pp. 75-77.

٢) انظر: Sidney Smith, p. 149; A. T. Olmstead, *History of the Persian Empire* (Chicago, 1948), pp. 436-7.

معاكسة مبدأ الخطأ لمبدأ الصواب ومبدأ الظلمة لمبدأ النور. ويمكننا ان نرجع تنظيم اليهود المتدرج لطبقات الملائكة وغو الاعتقاد في يوم الحساب الاخير بما فيه من ثواب وعقاب بعد الموت الى تأثيرات ايرانية. وتكشف فكرة الحساب الاخير كما يعرضها كتاب اخنوخ (٤١ : ١) بما فيها من وزن اعمال الانسان في ميزان عن تأثير فارسي وان كانت فكرة الميزان نفسه تعود الى مصادر بابلية ومصرية سابقة. ولكن مفهوم دانيال عن اليوم الاخير (٧ : ٩-١٢) ليس ايرانياً. ولم تدخل اللغة العبرية والآرامية سوى كلمات قليلة مستعارة من الفارسية القديمة. وكلمة الفردوس Paradise اتت من الفارسية بطريق العبرية واليونانية[١].

اما في مجال البناء فالبقايا الوحيدة المهمة هي قصر ومكان للعبادة وجدا في تل الدوير (لاخيش). ويمكن تحديد تاريخ القصر بالضبط في منتصف القرن الخامس وذلك بواسطة قطعة من الخزف الاتيكي الاحمر. ويرجح انه كان مقراً فارسياً يحوي مصارف للمياه مستديرة من الاجر وبعض الملاحق الاخرى لتأمين الراحة. وتتبع بعض التماثيل التي اكتشفت حديثاً في انقاض قصر احد الموظفين الفرس في صيدا (قبل ٣٥٠ ق.م.) نموذج التماثيل في العاصمة برسبوليس. الا ان التوابيت الرخامية على شكل بشري التي اكتشفت في صيدا بأعداد كثيرة تشير الى ان اصول النحت الاتيكي قد رسخت في البلاد في القرن الرابع. واصبحت الدراخما الاتيكية في هذا القرن الوحدة النقدية المعترف بها بعد ان عمّ تداولها في القرن السابق. ووجد الخزف اليوناني في هذين القرنين سوقاً واسعة في بلاد المتوسط الشرقية. ويصاب الفخار المحلي بانحطاط حاسم خلال الفترة الفارسية ومن اسباب ذلك طغيان المنتجات اليونانية. ويمكن القول بوجه عام ان اليونان التي كانت في القرن السابع تتلقى التأثيرات الحضارية من فينيقية انعكس وضعها في القرن الخامس واصبحت تعطي بدلاً من ان تأخذ. وكان هناك نوع من التوازن بين عمليات العطاء والأخذ في القرن السادس. وفي هذا القرن تظهر المراكز التجارية اليونانية في الاراضي السورية ويتزايد عددها بصورة مستمرة بعد ذلك. وكان التجار والصناع اليونان منتشرين في مدن الساحل قبل فتح الاسكندر بقرن على الاقل.

---

١) تعني بالاصل «حديقة» (انظر سفر الجامعة ٢ : ٥ ؛ نشيد الانشاد ٤ : ١٣). وتطور التعبير فاصبح معناه «المقر السماوي للمباركين». (انجيل لوقا ٢٣ : ٤٣). والكلمة العربية «فردوس» اتت بطريق الآرامية.

القسمُ الثالث

العصر اليونَاني الرّومَاني

الفصل التاسع عشر

الاسكندر وخلفاؤه السلوقيون

وضع فيليب المكدوني الخطط «لتحرير» المدن اليونانية في آسية الصغرى من سيطرة فارس وليرد في الوقت ذاته الزيارة التي قام بها داريوس واحشويرش لليونان ولكن امر تنفيذها ترك لابنه الاسكندر الذي فاق اباه بشهرته ونشاطه. وكان فيليب قد اوصل مكدونيا الى زعامة الدول اليونانية عندما قتل اغتيالاً.

معركة ايسوس

بدأ الاسكندر في سن العشرين هجومه في ربيع عام ٣٣٤ ق. م. على رأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين الف رجل. فعبر الهلسبونت وانساح في آسية الصغرى، وهي جزء من الامبراطورية الفارسية آنئــذ، وما كاد يخرج من مضائق كيليكيا ويعبر مناطق السهول حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦—٣٣٠) ومعه حشد منوع يقرب من مئة الف جندي. وكانت كل شعوب آسية، حسب رواية احد المؤرخين الشرقيين المتأخرين[١]، «مقتنعة ان المكدونيين لن يجرأوا على الدخول في معركة مع الفرس بسبب كثرة عددهم»... وفي المعركة الــتي تلت في ايسوس[٢] (عام ٣٣٣)، وهي ممر ضيق استطاع اليونان بمهارتهم العسكرية ان يقابلوا فيه تفوق الفرس في عدد جيشهم واضطر داريوس الذي كان يرقب المعركة من عربته الفاخرة التي تجرها اربعة خيول جنباً الى جنب الى الاسراع في الهرب مع فلول جيشه شرقاً تاركاً معسكره واهل بيته. وقد عوملت نساء الملك معاملة

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 8, § 3.

٢) انظر: Arrian, *Anabasis Alexandri*, Bk. II, chs. 9-13; Polybius, *Historiarum libri*, Bk. XII, chs. 17-22.; Diodorus, Bk. XVII. ch. 33. راجع بشأن الوصف المفصل لمعركة ايسوس ما يلي: W. W. Tarn, « Alexander », *Cambridge Ancient History*, vol. vi, (Cambridge, 1927) pp. 366-9.

مهذبة نبيلة . وتخليداً لذكرى الانتصار اسست مدينة الاسكندرونة ، التي لا تزال تحمل اسمه ، مكان الحادث . واعطت اصداء هذا النصر الحاسم مجداً جديداً للاسم اليوناني وملأت قلوب الفرس بالشكوك ان لم يكن بالخوف .

مقاومة صور

لم يتابع الاسكندر عدوه الهارب الى الشرق بل اندفع باتجاه الجنوب ليؤمن السيطرة على البحر وعلى كل خطوط المواصلات وراءه . وانفذ قائده بارمينيو مع مفرزة من الفرسان على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق — مقر قيادة الفرس في سورية . وكان النصر في ايسوس قد جعل البلاد كلها خاضعة له . اما هو نفسه فاتبع الطريق الساحلية فاستسلمت ماراثوس وارواد وجبيل وصيدا . ولم يتجرأ على اغلاق الابواب في وجه المهاجم سوى صور ، ملكة الساحل الفينيقي ، التي سبق ان تحدّت شلمناصر وسرجون ونبوخذنصر . فبنى الاسكندر رصيفاً طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ قدم من الشاطئ حتى الجزيرة التي يبلغ طولها ميلين . وكانت المدينة التعيسة الحظ تتوقع المساعدة من شقيقاتها في الشمال ولكن هذه عوضاً عن ذلك وضعت سفنها تحت تصرف الفاتح . كما انها توقعت المساعدة من ابنتها البعيدة قرطاجة حيث بعثت شيوخها ونساءها واطفالها . ولكن املها خاب هنـــا ايضاً . وبعد حصار دام سبعة اشهر من البحر والبر خضعت صور للاسكندر في ٣٣٢ فشنق حوالي ٢٠٠٠ من اهلها وباع ما يقدر بثلاثين الفاً في سوق النخاسة . وكان يتبع في ذلك العادة الشائعة في الحرب . واحتفل بنصره باقامة الالعاب والشعائر الدينية وبتقديم الذبائح في معبد اله المدينة ملقارت الذي اعتبره معادلاً لهركوليس[١] .

يسجل التاريخ بمقاومة صور لزحف الاسكندر آخر انتفاضة للروح القومية الفينيقية . فقد تحطمت التقاليد القديمة الى الابد ولم تعد الروح القديمة تثبت نفسها ابداً .

حين كان الاسكندر لا يزال يحاصر صور وردته رسالة من داريوس يقترح فيها

---

١) انظر : **Arrian, Bk. II, chs. 18-24; Diodorus, Bk. XVII, chs. 41-46; Quintus Curtius, *De rebus gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, ch. 2.**

اقتسام الامبراطورية بحيث يكون نصيب الاسكندر جميع البلاد الواقعة غربي الفرات مع مال كثير وزواجه من ابنة داريوس. واشار بارمينيو عليه بقبول الصفقة مضيفاً بأنه لو كان مكانه لما كان تردد. فاجابه الاسكندر «وهكذا كنت افعل انا لو كنت بارمينيو[1]».

لم تكترث غزة بمصير صور فقاومت ببطولة لا تقل عن بطولتها ولكنها لم تثبت طويلاً كما ثبتت. وكانت غزة فيما مضى زعيمة المدن الفلسطينية الخمس. وبعد حصار شهرين قهرت حاميتها التي كانت تضم كثيراً من العرب وابيدت وجر قائدها الخصي حول اسوار المدينة وهو موثوق بعربات الاسكندر. وبيع سكان المدينة عبيداً. وقد اصيب الاسكندر بجراح طفيفة هنا كما اصيب في ايسوس[2]. واستولى الفاتح على مخازن ضخمة من التوابل لان المدينة كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية والبلاد التي تجاورها. وباحتلال غزة دق مسمار آخر في نعش السيادة الفارسية في البحر المتوسط.

اخضاع مصر

اصبحت الطريق مفتوحة الآن الى مصر التي بفتحها يصبح الاسطول الفارسي عديم الفائدة. ولم يبد المصريون اية مقاومة لاستبدال سيد بآخر. وقام الاسكندر اثناء وجوده في مصر بزيارة آمون (الذي اعتبر معادلاً للاله جوبيتر بعد ذلك) في الواحة التي تدعى اليوم واحة سيوه في الصحراء الليبية على بعد نحو مائتي ميل من الحدود المصرية، وحياه الكاهن الاعلى كابن الاله. كما انه وضع اسس المدينة التي لا تزال تحمل اسمه. وكان هذان العملان ينطويان على اهمية بالنسبة للمستقبل ابعد مما كان باستطاعة صانعهما التنبوء به. وكانت عملية الجمع بين فكرة الالوهية وفكرة الملكية قد ادخلت الى العالم اليوناني — الروماني وتوطدت اخيراً فيه. ولم يكن يوجد لفكرة الملكية ذات الصفة الالهية، وهي مؤسسة طبيعية في الشرق القديم، اي اثر تقريباً في اوروبا قبل عصر الاسكندر وخلفائه. وقد برزت الاسكندرية

---

١) انظر: Plutarch, « Alexander », in *Vitae*.

٢) انظر: Arrian, Bk. II, ch. 27.; Curtius, Bk. IV, ch. 6.

بالتالي لتصبح مقر الثقافة الهلنستية والوريثة الشرقية لاثينا. وكانت الثانية في المرتبة بعد رومة في العصر الروماني. ويعتبر انشاء هذا الميناء في اقصى الشمال الغربي للدلتا، من الوجهة التاريخية ، اكثر اهمية من مجرد فتح مصر .

المعركة الحاسمة قرب اربيلا

عاد الفاتح المكتسح في ربيع سنة ٣٣١ الى سورية حيث بقي مدة كافية للضرب على ايدي السامريين الذين اغتالوا نائبه وللاحتفال ايضاً بابهة وعظمة باقامة الالعاب والشعائر في معبد صور[١]. اما امر زيارته لاورشليم في طريق ذهابه الى مصر وتقبل خضوعها شخصياً فأمر مشكوك فيه[٢]. وكانت الطريق التي سلكها الآن تمر عبر سورية الجوفة ووادي العاصي وتبلغ الفرات عند ثابساكس Thapsacus. وامر ان تشيد بجوارها مدينة يرجح ان قائده سلوقس نيكاتور قد اتمها واطلق عليها اسم نيقفوريوم Nicephorium[٣]. وبعد ان اجتاز بلاد الرافدين باتجاه شمالي شرقي خاض نهر دجلة شمالي موقع نينوى. وهزم على السهل بين ذلك الموقع واربيلا في الشرق آخر جيش حشده ملك من سلالة الاخمينيين التي انجبت كورش الكبير وداريوس الكبير . وهرب داريوس الثالث بنفسه[٤]. وكان هدف الاسكندر التالي مدينة بابل مقر الحكومة المركزي التي بلغ ارتفاع اسوارها ثلاثمائة قدم. ورحّب كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بالقادم الجديد بأكاليل الزهور والهدايا. واستولى الفاتح على كنوز كثيرة ولكنها لا تعتبر شيئاً اذا قورنت بتلك الثروات الخيالية التي اختزنها الاباطرة الفرس في مقرهم الصيفي سوزا والتي سقطت بيد الفاتح فيما بعد. ومن سوزا استؤنف السير شتاء عبر جبال عالية وعرة الى برسبوليس. فنهبت كنوزها واشعلت النار بالقصر الملكي الذي شيده داريوس . وهكذا انتقم لتدمير المعابد اليونانية في اثينا من قبل احشويرش[٥].

---

١) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 1-4.

٢) قارن ذلك مع : Josephus, Bk. XI, ch. 8, §§ 3-5; Olmstead, *History of the Persian Empire*, p. 507, n. 11.

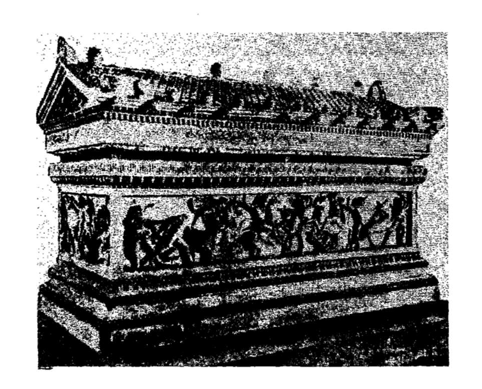
٣) وهي اليوم الرقة . انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21, Bk. VI, ch. 30. ؛ قارن ذلك مع : A. H. M. Jones, *Cities of the Eastern Roman Provinces*, (Oxford, 1937), p. 216.

٤) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 14-15.

٥) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 16-18; Diodorus, Bk. XVII, ch. 7.

توجهت من وادي برسبوليس في ربيع عام ٣٣٠ كتيبة سريعة عـــلى رأسها الاسكندر باتجاه الشمال وكان هدفها اكبتانا (عاصمة ميديا القديمة وهي همذان اليوم) حيث فرّ داريوس. وبينما كانت الكتيبة تتقدم اغتال متآمران داريوس في معسكره. وسمح للاسكندر ان يحصل على الجثة فارسلها الى برسبوليس لتدفن باحتفال ملكي. واعتبر الاسكندر نفسه الآن الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي.

توجه الاسكندر شرقاً كأنه لم يكتف بما قد حصل عليه فقام بغزوة عبر نهر سرداريا Jaxartes[١] ثم توغل جنوباً بطريق كابل الى البنجاب في شمـــالي غربي



«تابوت الاسكندر»

وجد في صيدا والآن في استانبول ويرجع الى اواخر القرن الرابع ق. م. ومن المحتمل جداً انه يمثل معارك الفرس والاسكندر. غير ان جميع المرويات القديمة تقول بان الاسكندر دفن في مصر. وربما كان هذا التابوت قد صنع لحاكم صيدا الفينيقي.

١) هو نهر سرداريا اليوم ويعرف باسم سيحون بالعربية وهي مقتبسة من بسيزون في سفر التكوين ٢ : ١١ .

الهند. وبدأ التذمر بين ضباطه وجنوده المنهوكين ابان حملته الى الهند وتمرد البعض وكان ذلك في عـــام ٣٢٦. فعاد الاسكندر الى بابل حيث انصرف الى الملذات ووضع خطط فتوحات جديدة. وتوفي بالحمى في قصر نبوخذنصر في حزيران ٣٢٣ قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من العمر تاركاً وراءه سجلاً فريداً من الاقدام والجلد والحيوية المتدفقة والخيال الخصب. واصبح اسمه متصلاً باسماء ابطال قصص خيالية متعددة مزخرفة بانواع المبالغات الفائقة التصور. ويشير دانيال اليـــه بوضوح (٨:٥،٢١). ويبدو الاسكندر ذو القرنين في القرآن (١٨:٨٢ وما بعدها) كأنه مكلف برسالة الهية.

امتزاج الشرق والغرب

لعل اعظم مأثرة قدمها الاسكندر للتاريخ هي في اتاحته الفرصة لامتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية. وكانت عملية التداخل الثقافية قد بدأت قبل عهده الا ان فتوحاته زادت في سرعتها وسهّلتها. وقد اعطى بنفسه مثالاً على مزج الدم اليوناني والاسيوي بزواجه من الاميرة روكسانا من بكتريا (بلخ) واثنتين غيرها من الاسرة الملكية الفارسية في سوزا. وشجع ضباطه وجنوده ليحذوا حذوه. وكان يلبس في المناسبات الرسمية اللباس الشرقي. «واخذ ينغمس في عادات الفرس الناعمة المتخنثة ويقلد بذخ الملوك الاسيويين[1]». وقد حاول على عكس احشويروش ان يصل اوربا وآسيا ليس بالجسور الخشبية والروابط الجامدة بل بروابط الحب الشريف والزواج الطاهر والنسل المشترك[2]. وانه لحدث عظيم في التاريخ عندما صلى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة الآف مكدوني وفارسي على ضفاف دجلة لاجل وحدة القلوب ودولة مشتركة[3] وكان الانبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا مهما كان تصورهم ناقصاً، اخوة الانسان. ولكننا الآن امام اول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا اثر للحواجز فيه بين اليونان والبرابرة وعمل على

---

١) انظر: Diodorus, Bk. VII, ch. 8.

٢) انظر: Plutarch, Complete works, *Essays and Miscellanies*, (New York, 1909), vol. i, p. 164.

٣) انظر: Arrian, Bk. VII, ch. 11. § 9.

تحقيقه. ولم ينقطع تماماً ذلك الامل البراق الذي ضمنه الفيلسوف الفينيقي زينون فيما بعد في «جمهوريته» عن افكار الناس منذ ذلك الحين.

كان انشاء المدن التي يروى انها زادت عن السبعين وسيلة اخرى في تحقيق سياسته المدروسة حول تقارب اوثق بين الشرق والغرب. وهدفت هذه المدن الى ثلاثة اغراض وهي ان تكون مراكز سكنى للمحاربين المسرحين، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي الهليني. ولا بد ان الاسكندر كان تلميذاً جديراً باستاذه ارسطو اذ كان يحتفظ كما يروى بنسخة من الياذة هوميروس التي نقحها ارسطو بجانب خنجره تحت وسادته. ويقال انه ذكر في رسالة بعث بها من آسية الى استاذه: «اؤكد بالنسبة لي انني افضل ان اتفوق على الآخرين في معرفة الاحسن من ان اتفوق عليهم في مدى سلطتي وممتلكاتي[1]». وسرعان ما اصبحت اللغة اليونانية لغة العلم. وعندما اتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت الى اللغة اليونانية اصبحت في متناول العالم المتمدن كله.

تجزؤ الامبراطورية

تمزقت الامبراطورية المكدونية المترامية الاطراف التي تمّ ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها. وتسابق قواده للفوز باحسن اقسامها. وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية. ويبرز من هذه الفوضى اربعة قواد على رأس اربع دول: بطليموس في مصر وسلوقس في مرزبانة بابل وانتيغونس في آسية الصغرى وانتيباتر في مكدونيا. وهكذا «انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون عظيمة تتجه نحو رياح السماء الاربع[2]». وكان بطليموس اكثر هؤلاء الاربعة ذكاء الا ان سلوقس كان بالتأكيد اقدرهم.

سلوقس مؤسس الدولة السورية

برز اسم سلوقس الاول (٣١٢ – ٢٨٠ ق. م.) الملقب نيكاتور Nicator

١) انظر: Plutarch, « Alexander », in *Vitae.*

٢) انظر: دانيال ٨: ٨.

(المنتصر) لاول مرة في الحملة الهندية التي قادها الاسكندر. ولم تكن منطقة سورية–فلسطين في حوزته لدى اقتسام الامبراطورية لانها الحقت بآسية الصغرى. ولكن بطليموس تغلب في عام ٣١٢ ق. م. بمساعدة سلوقس على انتيغونس في غزة وضم فلسطين الى مقاطعته المصرية. وبقيت كذلك لاكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة. واسترجع سلوقس في السنة ذاتها بابل التي كان قد خسرها. وبعد ان ساهم في احراز نصر آخر على انتيغونس في ايبسوس Ipsus (في فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ ق. م.) حصل على القسم الشرقي كله من آسية الصغرى بالاضافة الى سورية من الفرات حتى المتوسط[١]. واصبحت انطاكية التي بناها على العاصي وسماها باسم والده مقر حكومة سورية ومع ذلك تعتبر السنة ٣١٢ ميلاد الدولة السورية وبدأ التاريخ السلوقي[٢]. ويظهر اسم «ملوك سورية» لاول مرة. وكان ايجاد تقويم رسمي اعظم مأثرة للسلوقيين بعد تأسيس المدن. وكان بطليموس في هذه الاثناء قد وسع حدود مملكته الى خط يقع شمالي ارواد وجنوبي حمص. وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالي ٢٥٠ ق. م. ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي ارواد بعد خمس وعشرين سنة.

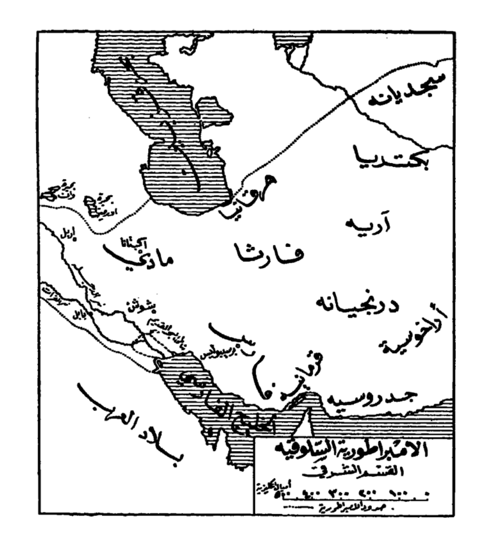
اما في الشرق فقد وسع سلوقس حدود مملكته السورية فشملت فارس حتى نهر جيحون Oxus في الشمال والسند في الجنوب. وهكذا اصبحت المملكة السورية تضم تقريباً القسم الاسيوي من امبراطورية الاسكندر. وكانت مملكة سلوقس اعظم الممالك التي قامت على انقاض ممتلكات الاسكندر في قوتها واتساعها. ولم يكتف بذلك بل اجتاز الهلسبونت في اواخر ٢٨١ مصمماً ان يضم مكدونيا الى ممتلكاته الواسعة وكان عرشها شاغراً بموت قائد آخر من قواد الاسكندر وهو ليسياخوس Lysimachus غير انه قتل هناك.

اتبع سلوقس سياسة نشر الهلينية التي وضعها الاسكندر فشيّد ما لا يقل عن ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس وتسع مدن تحمل اسمه وخمساً تحمل

---

١) انظر: Appian, *Romaika*, § 55

٢) دعاه السوريون واليهود التأريخ اليوناني؛ انظر: سفر المكابيين الاول ١٠:١، الكتاب ١١. بدأت السنة في ١ تشرين الاول واستعمالها حتى اليوم محدود في سورية؛ قارن ذلك مع: Richard A. Parker and Waldo H. Dubberstein *Babylonian Chronology* (Chicago, 1942) p. 18.



اسم امه لاوديسا وثلاثاً باسم زوجه الباكترية آباما[١]. اما سلوقية[٢] التي بنيت لتحمي مصب العاصي ولتكون ميناء لانطاكية فهي اما من بناء سلوقس او احد خلفائه

١) انظر : Appian, § 57.

٢) تذكر غالباً وخاصة على النقود باسم سلوقية بيرية Pieria لتميزها عن المدن الاخرى التي تحمل نفس الاسم . وبيرية التي هي في الاصل اسم منطقة في مكدونيا اطلقت على مقاطعة تقع على الساحل الشمالي من سورية وعلى ضفة العاصي اليمنى . وقد شيدت على بعد خمسة اميال شمالي العاصي لتستفيد من مكان سهل التحصين ولتتجنب المياه الرقيقة الطينية . وبلغ سكانها في ٢١٩ ق. م. ثلاثين الف نسمة .

المباشرين . وقد نقل جثمانه ودفن فيها . وكان يعبد هناك كاله[١]. واصبحت من ثم مدفن السلالة . ومن المدن التي سميت لاوديسا فان تلك التي تقــــع على الساحل السوري وتسمى بالعربية اللاذقية لا تزال مزدهرة وفيها احسن ميناء على الساحل . وأباميا على العاصي (افاميا لدى الجغرافيين العرب) هي قرية صغيرة اليوم تعرف بقلعة المضيق . وقد اصبحت مركزاً عظيماً في المملكة السورية وكان فيها الجيش والخزينة الحربية واصطبل تابع للدولة يضم ٣٠،٠٠٠ فرس و ٣٠٠ حصان[٢]. وكان بمثابة مستودع حيث تربى فيه فيلة الحرب وتدرب . اما المدن التي تسمى انطاكية فكانت العاصمة بطبيعة الحال اكثرها اهمية .

كادت الامبراطورية التي بناها سلوقس الاول ان تنهار في عهد الملوك الذين اتوا بعده . ففي عهد احد احفاده ، سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٦ — ٢٢٦) هاجم بطليموس اورجيتس Euergetes سورية واحتل انطاكية وسار بجيوشه دون ان يلقى مقاومة حتى الفرات . ولكن الاضطرابات الداخلية اوجبت عودته الى بلاده فاتيحت الفرصة لسلوقس في ان يسترجع مقاطعاته المسلوبة. واغتنم الفرتيون في هذه الاثناء الوضع المضطرب في المملكة السورية للتخلص من نيرها . فهزم ارشاق Arsaces ، ملك فرتيا[٣]، سلوقس في معركة بعد سنة ٢٤٠ ق. م. عدة وجيزة ويعتبر هذا التاريخ بدء التأسيس الحقيقي للسلالة الفرتية[٤]. وكان ملـــك برغامس منهمكاً ايضاً في مد سلطانه على الجزء الاكبر من آسية الصغرى .

كانت المملكة السلوقية قد فقدت الكثير من مقاطعاتها وعظمتها عند اعتلاء

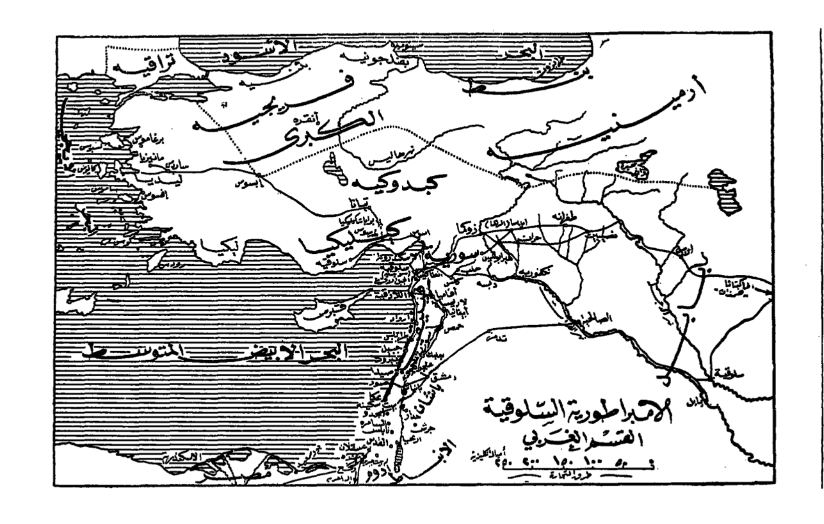
---

١) انظر : Appian, § 63.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

٣) جزء من مرزبانة في الجنوبي الشرقي من بحر الخزر . وكان الفرتيون من اصل سكيتي .

٤) احتفل فيما بعد بمعركة اقدم منها حصلت سنة ٢٥٠ كبداية للاستقلال الفرتي؛ قارن ذلك مع : **Edwyn R. Bevan, *The House of Seleucus* (London, 1902), vol. i, P. 285.**


الامبراطورية السلوقية
القسم الغربي
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
فريجيه الكبرى
كبدوكيه
كيليكيه
أرمينيه
بنطس
تراقيه
سوريه
قبرص
ليكيا
أنقره
دمشق
حمص
تدمر
سلوقية
مصر
الاسكندرية

انطيوخس الثالث (٢٢٣ — ١٨٧)[١] العرش. وقد عزم انطيوخس على انقاذ الموقف فسار على رأس جيشه باتجاه الشرق اولاً ليسترد المقاطعات الايرانية وكان النجاح حليفه. وعبر جيشه جبال هندكوش ونزل وادي كابل وتوغل جنوباً حتى اصبح على ابواب الهند. وتمتعت هذه الشعوب البعيدة برؤية الجيش المكدوني للمرة الثانية. وقد اهتم لدى عودته الى بابل بالجزيرة العربية كما فعل الاسكندر قبله، إذ ان الحاجة الى توابلها وسائر منتجات بلادها الحارة وأهمية وضعها المتوسط بين شطري الامبراطورية الشرقي والغربي من وجهة طرق الملاحة كانت كلها اعتبارات ذات شأن. غير ان قيامه برحلة مع اسطوله من الدجلة الى شواطئها الصعبة كانت كافياً لاقناع انطيوخس بعدم جدوى اية خطة لاحتلال دائم لمثل هذه الجزيرة الصحراوية. ولذلك عاد في ٢٠٤ ق. م. الى سلوقية على الدجلة، عاصمة مرزباناته الشرقية.

---

١) تمثل الشجرة التالية صلات النسب بين افراد الاسرة السلوقية :

١ ـ سلوقس الاول نيكاتور (٣١٢ — ٢٨٠ ق. م.)

٢ ـ انطيوخس الاول سوتر (٢٨٠ — ٢٦١)

٣ ـ انطيوخس الثاني تيوس (٢٦١ — ٢٤٦)

٤ ـ سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٦ — ٢٢٦)

٥ ـ سلوقس الثالث كرونوس (٢٢٦—٢٢٣)   ٦ ـ انطيوخس الثالث الكبير (٢٢٣—١٨٧)

٧ ـ سلوقس الرابع فيلوباتر (١٨٧ — ١٧٥)   ٨ ـ انطيوخس الرابع ابيفانس (١٧٥—١٦٤)

*

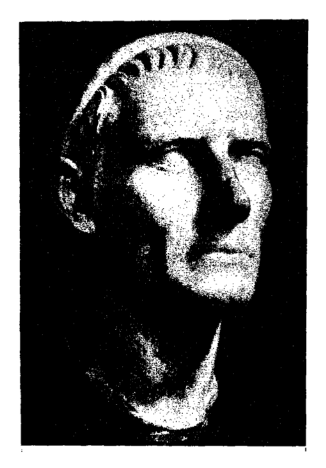
١٠ ـ ديمتريوس الاول سوتر (١٦٢—١٥٠)   ٩ ـ انطيوخس الخامس يوباتر (١٦٤—١٦٢) *

*

١١ ـ اسكندر الاول بالاس (١٥٠—١٤٦)

ملاحظة : تشير الخطوط ذات النجوم الى بنوة مزعومة . انظر بشأن الملوك الباقين ما سيأتي في الصفحات التالية ؛ Cf. Parker and Dubberstein, pp. 19 *seq*; Neilson C. Debevoise, *A Political History of Parthia* (Chicago, 1938), pp. 70-71.

وجه انطيوخس اهتمامه بعد ذلك الى بطليموس عدوه في الجنوب. وكان قد قام قبلاً في عام ٢١٧ بمحاولة استرجاع الاقسام المنتزعة من سورية ولكنه فشل في معركة جرت على الحدود عند رفح (رافيا Raphia قديماً). الا ان جهوده الآن في ١٩٨ نجحت. وفي بانياس[١] حيث هزم انطيوخس القوات المصرية استعمل



انطيوخس الثالث الكبير
من تمثال نصفي في متحف اللوفر

١) كانت منابع الاردن محاطة بمنطقة مقدسة مكرسة لاله عرف فيه اليونان الههم بان Pan. وحين شيدت مدينة هناك بعد ذلك اطلق عليها اسم بانياس التي ترد في الانجيل باسم قيصرية فيلبي. وقد اعاد الوالي فيلبس بناءها او ربما وسعها وسماها قيصرية على شرف طيباريوس. انظر: Bevan, vol. ii, p. 37; Dussaud, *Topographie*, pp. 390-91.

الجيش السوري ، كما في رافيا ، الفيلة التي كان الملك قد جلب كمية جديدة منها من الهند[١]. وقد استرجع انطيوخس بعد قتال مستمر دام عشرين سنة كل مـــا فقده والده وجده تقريباً وكسب بذلك لقب الكبير .

وفي هذه الفترة اتى الى بلاطه وفد من رومة ليحذره من التعرض لمصر . وهذا هو اول اتصال نسمع به بين رومة وانطاكية ويعتبر فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية القديمة . وفي هذا الوقت بالذات يلتجىء هانيبال الى سورية ويحرض انطيوخس على مهاجمة ايطاليا[٢]. ولم يكن هذا على معرفة تامة بقدرة السلطـــة الجديدة التي ظهرت في الغرب . وتجرأ بدخول الحرب لمصلحة اليونان حيث كان الرومان يتوسعون، ولكنه اصيب بهزيمة على ايديهم في ترموبيلي سنة ١٩١ ق. م.[٣] وهزمـــه الرومان في العام التالي للمرة الثانية قرب مغنيزيا في غربي آسية الصغرى واضطر في عام ١٨٨ ان يتخلى عن كل ممتلكاته وراء جبال طوروس وان يدفع غرامة حربية ضخمة[٤]. وهكذا فقد الى الابـــد آسية الصغرى بما فيها من طرق تجارية برية وبما تقدمه من اتصال مباشر مع الحضارة اليونانية . واصيب البيت السلوقي بضربة قاصمة وهو في اوج النجاح الذي بلغه منذ تأسيسه .

ترك الصلح المخجل والجزية الثقيلة سورية في وضع ضعيف ولكنها لم تبلغ من الضعف درجة تمنعها من اتباع خطة الهجوم من جديد ، اذ ما كاد يعلم انطيوخس الرابع (١٧٥ — ١٦٤) ان مصر تعد حملة لاسترجاع سورية المجوفـــة — موضع النزاع — حتى بدأ الهجوم اولاً في البر والبحر وهزم الجيش المصري في ١٦٩ ق. م. هزيمة ساحقة في قلعة بيلوزيوم الواقعة على الحدود[٥] واسر الملك بطليموس فيلوميتر نفسه. وسرعان ما وقعت مصر السفلى كلها في يدي انطيوخس ولم ترفض الاستسلام سوى الاسكندرية التي تعرضت للحصار لاول مرة في تاريخها . ومع ذلك اسرع

---

١) انظر : Polybius, *Histories* Bk. XVI, ch. 18 *seq.*

٢) انظر : Livy, *Historiorum*, Bk. XXIV, chs. 43, 60.

٣) انظر : Appian, §§ 18-20.

٤) انظر : Polybius, Bk. XXI, chs. 16-17; Livy, Bk. XXVII, ch. 45.

٥) الفرما بالعربية . انظر : Polybius, Bk. XXVIII, ch. 18.

يرفع الحصار عنها بضغط من رومة التي كان انطيوخس لا يزال يدفع لها اقساط الغرامة الحربية[١]. وجلا الفاتح السوري عن البلاد وعاد الى وطنه.

الثورة المكابية

واذا كان باستطاعة رومة ان تحد من نشاط انطيوخس العسكري فانه لم يكن باستطاعتها تقييد نشاطه كمبشر بالهلينية. وقد حقق الملك بفتحه لمصر ناحية رئيسية من طموحه، وكانت الناحية الثانية صهر ممتلكاته في وحدة ثقافية. وكان يتبع في ذلك السياسة التقليدية للاسرة السلوقية التي اعتبرت الهلينية القاسم المشترك الذي سيلتقي عنده جميع رعاياهم. ولكن انطيوخس ذهب ابعد مما يجب. وبلغ منه ان اعلن نفسه الهاً او الاله الظاهر (تيوس ابيفانس) وقرن نفسه في هـذه المناسبة بزفس اوليمبيوس. وبما ان آلهة السوريين لم تكن غيورة فقد منحت اتباعها امتياز عبادة الملك. ولكن الامر يختلف بالنسبة لاله اليهود.

كانت الارستقراطية والاغنياء والطبقة المتطورة بين اليهود في اورشليم قـد تجاوبت حتى الآن مع العوامل الخارجية بتبنيها اللغة والعادات اليونانية وكانت على استعداد الآن للتعاون. ولم يكن لديهم اي اعتراض لتسميتهم انطاكيين[٢]. واصبح اللباس اليوناني شائعاً بين الشبان وبدأ الجنازيوم اليوناني بالظهور. واعتمد انطيوخس على تعاونهم فشجع اعتبار يهوه مساوياً لزفس واقام مذبحاً في المعبد للاله اليوناني. وكان ذلك كما جاء في دانيال (١١:٣١) «وتجعل الرجس المخرب». وكان قد جرد هذا المعبد في طريق عودته من مصر من كل كنوزه. ووضع بعد ذلك يده على ثروات كل المعابد في سورية تقريباً. وقـد احتاج للمال ليحقق نزواته ورغباته الخيالية[٣].

بالرغم من ان زفس اوليمبيوس الذي اوجده انطيوخس كان يحمل اسما يونانياً فقد كان يحمل شخصية بعل الشرقي كما يحمل شخصية زفس الغربي. وكان

١) انظر: Livy, Bk. XLVII, ch. 11; Polybius, Bk. XXIX, ch. 2; Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 2.

٢) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٩.

٣) انظر: Polybius, Bk. XXVI, ch. 1; Livy, Bk. XLI, ch. 20.

يعبد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية ويمثل بلباس نصف سامي[١]. ومع ذلك كان المتمسكون باصول الديانة والقوميون بين اليهود متحدين في معارضتهم الاكيدة. ونشبت الثورة اليهودية[٢] سنة ١٦٨ ق. م. بزعامة يهوذا وهو ابن كاهن بسيط يدعى ماتاتياس من الاسرة الهاسمونية. واتخذ بعد ذلك لقب المكابي[٣]. ووجهت الثورة في اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية. وقد نظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية. وكان هناك اتقياء (حا سيديم) بين الذين ثاروا على انطيوخس ولم يقبلوا بتدنيس يوم السبت بقيامهم باعمال حربية لذلك ابيدوا بسهولة[٤]. وتعتبر هذه الحادثة من اقدم حوادث الاستشهاد الديني في التاريخ المدون. وقد احتلت اورشليم بجهود الاخوة المكابيين فطهر الهيكل واعيدت الذبائح اليومية. ولتخليد هذه الذكرى اقيم عيد هنوكة (التكريس) ولا يزال يحتفل به سنوياً منذ ذلك الحين.

جمهورية يهودية

وبالرغم من ان الحركة كانت ذات طابع ديني في بدايتها فانها قد تطورت الى ثورة قومية تهدف الى تحرير البلاد. ولم يكن النزاع ضد القوات السورية فقط بل كان نزاعاً بين المتعصبين والقوميين اليهود الذين لم يترددوا في اخلاصهم للنزعة العبرانية من جهة.. وبين انصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الهلنستي او حزب الاصلاح من جهة اخرى. وكان النصر في كلا النزاعين حليف المكابيين. وانتخب سمعان شقيق يهوذا سنة ١٤١ ق. م. كاهناً اعظم وحاكماً. ومنح الملك

---

١) انظر: M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), p. 704.

٢) تعبير جغرافي اول من استعمله عزرا في ٥:٨ ليشير الى ولاية في الامبراطورية الفارسية.

٣) سفر المكابيين الاول ٢: ٤؛ انظر ايضاً Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 6, § 1. ان اصل التعبير ومعناه غير واضحين ولعله مشتق من العبرية (مقبة) اي المطرقة بالاشارة الى الضربات الساحقة التي انزلت بالعدو.

٤) سفر المكابيين الاول ١: ٦٢-٦٣؛ ٢: ٣٨.

السلوقي ديمتريوس الثاني نيكاتور اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان[١]. واخذ سمعان يضرب النقود. وبدأت اورشليم عصراً جديداً فارخت الوثائق منذ ذلك الحين فصاعداً كما يلي: «في السنة الاولى من حكم سمعان الكاهن الاعظم والحاكم[٢]». وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين سنة.

بعد ان انتصر اليهود المكابيون اصبحت نظرتهم القومية اضيق مما كانت عليه عند اليهود القدماء. فحاربوا اخوانهم اصحاب النزعة الهلينية كما حاربوا غير اليهود. وهاجم يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ — ١٠٥) الذي خلف والده سمعان، السامريين الذين استسلموا لمشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها[٣]. وكان قبل ذلك قد اجبر الادوميين الذين كانوا في هذه الاثناء قد توغلوا في جنوبي اليهودية على الاختتان والتهود (حوالي العام ١٢٦ ق.م.)[٤]. وكانت الجمهورية اليهودية في عهد المكابيين الاوائل ذات شكل ديني. وقد نقش يوحنا على نقوده «يوحنا الكاهن الاعظم» ولكن ابنه اريسطوبولس (١٠٥ — ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك او على حد تعبير يوسيفوس «وضع تاجاً على رأسه[٥]». واتخذ مع سائر ملوك السلالة المتأخرين اسماء يونانية بجانب العبرانية. وبعد عهد خلفه اسكندر جناديوس (١٠٣ — ٧٦) الذي وصلت رقعة البلاد ذروتها في ايامه اصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية. وكانت منطقة الجليل بوضعها الذي نعرفه من الاناجيل من عمل ارسطوبولس. وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية[٦] واصبح يسكنها الآن الايتوريون وهم من اصل عربي ولغتهم آرامية. وقد خيّر

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 6, § 7. وسفر المكابيين الاول ١٣: ٣٤ وما بعده.

٢) سفر المكابيين الاول ١٣: ٤٢.

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4, §§ 2-3.

٤) سفر المكابيين الاول ٤: ٢٩؛ ٥: ٦٥. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 9, § 1 كانت كلمة «Idumaea» الشكل اليوناني لابدوم.

٥) انظر: *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 1.

٦) اشعيا ٩: ١؛ سفر المكابيين الاول ٥: ١٥؛ انجيل متى ٤: ١٥.

سكان الجليل بين الطرد او الختان. ففضلت الاكثرية الختان[١]. ولذلك كان كثيرون من السكان الذين عمل بينهم المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغـة العبرية برطانة. وكان ينظر اليهم بانهم ادنى من اليهود القدماء. وغير اهل لظهور نبي فيهم[٢]. واعتبر التصرف الذي اجراه هيركانوس وابنه سابقة اتبعها آخرون من البيت الحسموني في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها وهو الاختيار بين اليهودية او الابادة[٣].

آخر انتفاضات المملكة السلوقية

لم يكن اليهود وحدهم الذين كانوا يضغطون على المراكز التي تنهار فيها السلطة السلوقيـة بل كانت القبائل العربية المجاورة ايضاً وخاصة الانباط على حدود الامبراطورية الجنوبية. اخذت فرتيا وبكتريا والبلاد المجاورة بعيداً في الشرق تستعيد استقلالها. وبدت تبرز حوالي العام ١٣٠ ق. م. سلالة عربية في الرها تعتمد اسمياً على فرتيا ويتسمى اكثر ملوكها باسم ابجر. ونجحت قبيلة عربية اخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمركز حول حمص (Emesa) وتتبع السلوقيين بالاسم فقط. كذلك توطدت دولة وطنية اخرى تتألف من الايتوريين في سورية المجوفة واتخذت عنجر (Chalcis) عاصمة لها. وكان خلفاء انطيوخس الرابع بوجه العموم عاجزين. وتحت حكمهم اخذت الاسرة السلوقية، التي وقفت امام العالم لعدة اجيال كالاسرة الامبراطورية في الشرق، تفقد بالتدريج مكانتها وسلطتها وكرامتها. ويرينا القرن الذي تلا ابيفانس صورة مضطربة من الثورات الوطنية والانشقاق الداخلي والنزاع العائـلي وفقدان المقاطعات بالتدريج. وتقلصت الامبراطورية التي امتدت في الماضي من البحر المتوسط الاسفل والبحر الايجي الى التركستان والهند واصبحت الآن دولة محلية في شمالي سورية.

واصبح الانباط العرب الآن قوة هامة وكانوا قد طردوا بقايا الادوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق. م. ثم انتزعوا سورية المجوفة من ايدي السلوقيين حوالي

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 3.

٢) انجيل مرقس ١٤: ٧٠؛ لوقا ٢٢: ٥٩؛ اعمال الرسل ٢: ٧؛ يوحنا ١: ٤٦، ٧: ٤١ و ٥٢. Bevan, vol. ii, p. 256.

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 4.

٨٥ ق. م. ووضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم لتتجنب مصيراً اسوأ فيما لو وقعت في ايدي الامير الايتوري[١]. وكان الايتوريون آنذاك يكتسحون الشاطئ بين صيـــدا وتيوبروسوبون[٢] (Theouprosopon) ويخربون حقول جبيل وبيروت. وكانت مدن فينيقية اخرى تستعيد آنئذ حريتها المحلية. ولم يبق من المدن الساحلية بين فينيقية ومصر سوى عدد قليل مثل عسقلان لتتعهد بـــذور الحياة الهلينية. اما البقية مثل غزة حيث ازدهرت الحضارة الهلينية فقد امست خراباً مقفراً شواهد ماثلة تتحدث عن انتقام اليهود[٣].

ضاعت جميع المقاطعات الشرقية في الامبراطورية خلال هذه الفترة من الانحطاط السلوقي. وكان الفرتيون في ١٣٠ ق. م. قد وسعوا امبراطوريتهم حتى اصبحت تمتد من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي. اما في الغرب فقد وقف في وجه الجيوش الفرتية الملك تيغرانس الارمـــني (ديكران) وحموه متريداتس Mithrodates الكبير[٤] ملك البونت. وفي عهد تيغرانس وصلت المملكة الارمنية ذروة قوتها.

كان هذا الملك الطموح قد اكتسح بلاد الرافدين التي حكمها الفرتيون وفي عام ٨٣ ق. م. كان يكتسح سورية الشمالية وكيليكية[٥] التي كانت لا تزال تحت حكم السلوقيين والتي كان سكانها يشبهون الآراميين. ولم يعد يسمع عن الاميرين السوريين اللذين تلقب كل منهما بالملك آنـــذاك وهما: فيليب الاول فيلادلفوس

---

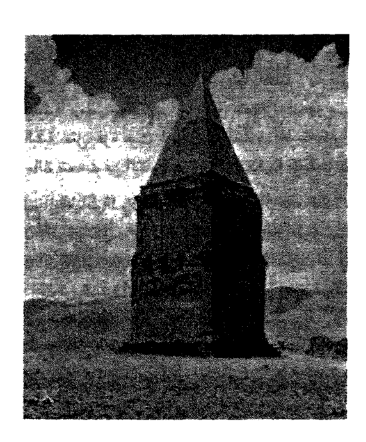
١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 2 ; *War*, Bk. I, ch. 4, § 8. الايتوريون هم يطور (Jetur) في التكوين ٢٥:١٥ ؛ سفر اخبار الايام الاول ١: ٣١.

٢) وهي بالفينيقية P'ne-El (بنويل Penuel اي وجـــه الله) وهي الرأس المنحدر الذي يسمى الآن رأس الشقعة. ويرد خطأً باسم شقة في Abel, vol. ii, pp. 4, 117 ; Baedeker, *Palestine and Syria* (Leipzig, 1912), P. 338 ; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, §§ 15, 18.

٣) انظر: Bevan, vol. ii, p. 264.

٤) وهي اكثر صواباً من Mithridates . وهي مشتقة من الفارسية (ميتراس Mithras) اي الشمس ويرجح انها تعني «عطية الشمس». وكانت مملكة البونت الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الاسود شمالي ارمينية بالاصل مرزبانة في الامبراطورية الفارسية ثم نالت استقلالها عنـــد انهيارها. ويدعي ملوكها بانهم ينحدرون من ملك فارسي قديم.

٥) انظر: Appian, 48.





بناء جنائزي او تذكاري على جبل الهرمل قرب بعلبك وربما اقامه احد حكام حمص الوطنيـــين في اواخر العصر الهلنستي. ويظهر البناء مزيجاً من العناصر اليونانية والشرقية في العمارة والزخارف المنحوتة. وتظهر في مشهد الصيد الحيوانات والاسلحة بـــدون ان يظهر الصيادون وقد رمم هذا البناء ترميماً جزئياً في العصر الحديث.

وانطيوخس الخامس يوسيبوس. وبنى تيغرانس مدينــــة ملكية جديدة هي تيغرانوسرتا[١] في منطقة الدجلة العليا. واتخذ لقب «ملك الملوك». ولم يكن السوريون ميالين الى المقاومة لان المنازعات الاهلية والخصومات بين افراد السلالة الحاكمة انهكتهم. ورحبت المدن اليونانية نفسها بفرصة التمتع بالحياة الاعتيادية من جديد. وتقبل الجميع الحكم الجديد بارتياح. وقد وصلت جيوش تيغرانس في اندفاعها نحو الجنوب مدينة عكا التي دعيت آنذاك Ptolemais واحتلها حوالي ٦٩ ق. م. وبذلك تعرضت المملكة اليهودية للخطر. وكان يمكن استخدام فلسطين كمرحلة لاحتلال مصر التي رنت اليها رومة بابصارها وخاصة في هذه الفترة حــين كانت اسرة البطالمة تتداعى.

الرومان يضمون سورية

بينما كان تيغرانس يوسع ممتلكاته على حساب الفرتيين والسوريين كان حموه وحليفه مترداتس ينشيء امبراطورية لنفسه على حساب آسية الصغرى والرومان[٢]. واخيراً اوقفته الجيوش الرومانية عند حده وطردته من البلاد فالتجأ الى تيغرانس الذي رفض تسليمه. واعلنت رومة الحرب فاضطر تيغرانس الى سحب حاميته من سورية في ٦٩ ق. م. واسترجع الامــير السلوقي، انطيوخس الثالث عشر الاسيوي، منطقة انطاكية واعترفت رومة بذلك[٣]. ولكن فيليب الثاني لم يعترف بحكمه. وكان هذان آخر من لبس تاج السلوقيين الملكي[٤]. ولم تمض مدة طويلة

---

١) انظر: Strabo, Bk. XI, ch. 12, § 4; 14. 15. ولم يحــدد الموقع بالضبط ولعله ميا فارقين.

٢) انظر: Strabo, Bk. XII, ch. 3, § 1.

٣) انظر: Appian, § 49.

٤) جدول يبين تتمة الملوك السلوقيين وبعضهم كانوا متنافسين يدّعون الملك. وقد ذكرنا الملوك الاولين سابقاً؛ قارن مع: A. Bouché-Leclercq, *Histoire des Séleucides*, (Paris, 1914), pp. 640-641.

١٢ ــ ديمتريوس الثاني نيكاتور (ابن ديمتريوس الاول) ١٤٦–١٣٨ و ١٢٨–١٢٥ ق. م.
١٣ ــ انطيوخس السادس تيوس Theos (ابن اسكندر الاول) ١٤٤–١٤٢.
١٤ ــ تريفون Tryphon (مغتصب) ١٤٢ – ١٣٧.
١٥ ــ انطيوخس السابع سيديتس Sidetes (ابن ديمتريوس الاول) ١٣٧–١٢٨.

بعد ذلك حتى تمكن مترداتس من استرجاع العرش الذي فقده . فسار بومبي هذه المرة ضده وهزمه واحتل البونت. وهكذا ابعد اكبر عدو لرومة في آسية الصغرى وكان ذلك في عام ٦٤ ق.م. وهو نقطة حاسمة في تاريخ سورية . وقد احتلت فلسطين في السنة التالية[١]. واصدر بومبي قراراً بان تحكم سورية مباشرة من قبل نائب قنصل روماني . وهكذا انتهى عهد ليبدأ عهد جديد وهو العهد الروماني .

---

١٦ — اسكندر الثاني زابيناس Zabinas (ابن تاجر) ١٢٨—١٢٢ .
١٧ — سلوقس الخامس (ابن ديمتريوس الثاني) ١٢٥ .
١٨ — انطيوخس الثامن غريبوس Grypus (ابن ديمتريوس الثاني) ١٢٥—٩٦ .
١٩ — انطيوخس التاسع سيزيكينوس Cyzicenus (ابن سيدينس) ١١٢ — ٩٦ .

وتقلبم سورية في السنوات الاثنتين والثلاثين الاخيرة من عصر الاضطراب حكام متمددون : سلوقس السادس ابيفانس (ابن غريبوس) ٩٦—٩٣ ؛ انطيوخس العاشر يوسيبوس Eusebes (ابن سيزيكينوس) ٩٤—٩٢ في انطاكية؛ انطيوخس الحادي عشر ابيفانوس (ابن غريبوس) ٩٥—٩٤؛ فيليب الاول فيلادلفوس (ابن غريبوس) ٩٢—٨٣؛ ديمتريوس الثالث تيوس (ابن غريبوس) ٩٥—٨٨ ؛ انطيوخس الثاني عشر ديونيسوس (ابن غريبوس) ٨٨—٨٤؛ انطيوخس الثالث عشر الاسيوي Asiaticus (ابن يوسيبوس) ٦٩—٦٥ ؛ فيليب الثاني (ابن فيليب الاول) ٦٨—٦٤ ؛ من ٨٣—٦٩ لا يوجد ملك .

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4.

الفصل الثامن عشر

العصر الهلنستي

دخلت الهلينية الى غربي آسيا قبل فتوحات الاسكندر كما رأينا قبلاً وقد سهلت هذه انتشارها ثم زادت السياسة السلوقية في سرعة هذا الانتشار وقوته. وكانت نتيجة هذا التداخل بين الثقافتين اليونانية والسامية تلك الحضارة المركبة التي عرفت بالهلنستية لتمييزها عن الحضارة الهلينية او اليونانية الصرفة. وسادت الهلينية وهي ابرز مظاهر العصر السلوقي ليس في سورية فحسب بل في غربي آسيا ومصر. وقد انحصرت الهلينية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين اولهما الآرامي وثانيهما العربي ودامت في سورية مدة الف عام حتى الفتوحات الاسلامية.

المدن اليونانية

كان عدد من المدن التي اسسها الاسكندر وخلفاؤه منبتاً لهذه الثقافة اليونانية الانتقائية التي انتشرت خاصة بين غير اليونانيين وقد اختار اولئك المؤسسون المواقع بعناية في نقاط ستراتيجية وعند مراكز المواصلات الهامة وعلى طول مجاري الانهار. وكانت المستعمرات مدناً يونانية في لغتها وحكومتها. وكان بامكان السكان اليونان ان يعيشوا ويبقوا كما اتضح بينما كان ذلك متعذراً فيما لو تفرقوا بين جماعات وطنية مختلفة. وكان سكان هذه المدن بالدرجة الاولى من الجنود والمرتزقة اليونان والمكدونيين الذين اسكنوا بموجب اوامر ملكية. وقد حصل بعضهم على زوجاتهم من بين السكان الوطنيين. وسرعان ما تهافت المدنيون تدريجياً الى هذه المستعمرات متأملين ببعض الفوائد او لانهم طردوا من وطنهم لعوامل سياسية او اقتصادية. وانضم الى سكان هذه المدن مع الزمن سكان مولدون واصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية الهلينية. وهكذا اصبحوا يضمون جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعبيد.

كانت العاصمة انطاكية الاولى من بين مراكز نشر الثقافة اليونانية. وقد بنيت حوالي ٣٠٠ ق. م. على الضفة اليسرى لنهر العاصي وعلى بعد نحو عشرين ميلاً من البحر في وادٍ جميل. واصبحت في عهد السلوقيين اعظم مدينة سياسية في آسيا كلها. وقد فاقتها كمركز للثقافة اليونانية مدينتا الاسكندرية والقسطنطينية وربما مدينة او مدينتان يونانيتان جديدتان غيرهما. ثم تليها كل من سلوقية ولاوديسة وافامية. وازدهر في هذه المدن عدد من الادباء الفصحاء والفلاسفة في القرنين الاخيرين قبل الميلاد ولم يكونوا من الدرجة الاولى باستثناء بوسيدونيوس.

وفي الوقت الذي كان فيه السلوقيون منهمكين في تأسيس المدن اليونانية شمالي لبنان كان البطالمة يفعلون مثل ذلك في جنوبيه. ومع ذلك فحكام مصر المكدونيون كانوا اقل حماسة لنشر رسالة الهلينية من حكام سورية. ومن المدن التي اسسوها فيلوتيريا Philoteria[١] على بحر الجليل التي سميت بالنسبة لفيلوتيرا شقيقة بطليموس الثاني فيلادلفوس. اما بيلّا Pella[٢] الواقعة فيما سمي بعد ذلك بالديكابوليس (المدن العشر) Decapolis[٣] فربما كانت من بناء الاسكندر نفسه. وسميت كذلك بالنسبة لعاصمة مكدونيا. وهنالك مدينة جيرازا Geraza[٤] وهي ايضاً من مدن الديكابوليس التي يرجح انها اسست كمدينة هلنستية من قبل انطيوخس الرابع وسميت انطاكية على الخريزورواس Chrysorrhoas[٥]. ونستدل من اسماء عدة مدن اخرى مثل اريثوسا Arethusa (الرستن على العاصي جنوبي حماة) وسيروس Cyrrhus (كورس شمالي حلب) على اصلها المكدوني[٦]. وتحولت الدساكر او الحصون المحلية في احوال كثيرة الى مدن يونانية — مكدونية.

---

١) يرجح انها خربة كرك في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية. انظر: Abel, vol. ii, p. 131; cf. Dussaud, *Topographie*, p. 22; Polybius, Bk. V, ch. 70.

٢) قارن مع: Appian, § 57. وهي بالعربية فِحْل او فَحْل.

٣) انظر انجيل مرقس ٥: ٢٠؛ انظر ما سيأتي في الفصل ٢١ بشأن الديكابوليس.

٤) وهي جرش اليوم من اللغة السامية القديمة ولكن اشتقاقها غير معروف بالتأكيد. انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٣.

٥) وهو جدول ينبع من عيون في المنطقة المجاورة. انظر Carl H. Kraeling, *Gerasa, City of the Decapolis* (New Haven, 1938) pp. 27 seq.

٦) اريثوسا كانت حورية بئر مشهورة في احدى الجزر اليونانية؛ اما كورس فهي مدينة في مكدونية بجوار بيلا.

بنيت المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمامات وملاعب الرياضة والساحات العامة وغيرها من المنشآت التي يعبر فيها الفرد عن نفسه كعضو في المجتمع . واحتفظ فيها بالشكل السياسي لدويلات المدن اليونانية مع الاهتمام الكبير بشخصية المواطن كجزء اساسي في المجتمع . وفي هذا كله تختلف المراكز الجديدة عن المراكز السامية القديمة التي كانت تبنى عادة حول حصن او نبع او معبد كنواة لها. ولكنها تنمو دون اية خطة وليس فيها اية وسائل للتعبير عن الحياة الديمقراطية . واصبحت سورية في ذلك العهد تضم من المدن اكثر مما عرفته في اي عصر سبق .

المدن القديمة تصبح مدناً هلنستية

لم يقتصر السلوقيون والبطالمة على انشاء مدن جديدة وانما حولوا بعض المدن ذات الاسماء السامية القديمة الى مدن هلنستية وغيروا اسماءها . فمدينة عكا يصبح اسمها بتولمايس Ptolemais في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧ ق. م.). وتكريماً له ايضاً اصبحت مدينة ربة عمون تسمى فيلادلفيا[١]. وسميت بيت شان (بيسان اليوم) سكيثوبوليس Scythopolis[٢]. وفي الشمال اصبحت بيريتوس (بيروت) تسمى لاوديسة في القرن الثاني وسميت حماة ابيفانية على شرف انطيوخس الرابع . وتبدل اسم شيزر المجاورة واصبحت لاريسا بالنسبة لمدينة في تساليا . وسميت اديسا بالنسبة لمدينة مكدونية تحمل نفس الاسم. وينسب تحويلها الى مستعمرة مكدونية تسمى انطيوكية كاليروهي Antiochia Callirrhoe الى الاسكندر نفسه . وقد اعاد بناءها انطيوخس الرابع ودعاها انطاكية[٣]. اما نصيبيس Nisibis (نصيبين اليوم) التي تمر بها الطريق الرئيسية للمواصلات بين

---

١) هي عمان اليوم عاصمة الاردن ويظهر فيها اثر الاسم القديم .

٢) دعيت كذلك بالنسبة للسكيثيين الذين عاثت جموعهم حوالي ٦٢٧ ق. م. في سورية حتى حدود مصر . انظر : Herodotus, Bk. I, ch. 105; وارميا ٦ : ٢٣ . واعتبرت هذه القرية فيما بعد الاثر الوحيد لهجومهم .

٣) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21 ; Polybius, Bk. V, ch. 51. ان اقدم شكل لاسمها هو اورهاي Urhai في الآرامية وقد بقي في العربية باسم الرها وتحول في التركية الى اورفا .

سورية وبلاد ما وراء الدجلة فقد بناها نيكاتور كما يتضح من احدى الكتابات الاثرية. وسمح للعنصر الوطني في هذه المدن القديمة ان يحتفظ بكانته الى درجة اكبر مما كان معتاداً في المدن المؤسسة حديثاً. وغالباً ما كانت تعود المدينة اليونانية او المكدونية المفروضة حديثاً الى وضعها الوطني القديم.

ومما يستلفت النظر ان اكثر هذه المدن القديمة التي استعمرت وبدلت اسماؤها قد طرحت بالتالي اسماءها اليونانية وكذلك المظاهر السطحية من الهلينية واستعادت صفتها السامية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم. فمدينة بيرويا Beroea هي اليوم حلب وخالكيس Chalcis في سورية المجوفة هي عنجر اليوم (اختصار عين جرّ) واليوثيروبوليس Eleutheropolis هي بيت جبرين[1]. والاستثناء الوحيد هو طرابلس. اما شكيم التي اعاد بناءها الامبراطور تيطس وسميت ينابوليس (المدينة الجديدة) فهي اليوم نابلس. وكذلك فان اكثر المقاطعات والجبال والانهار التي اتخذت اسماء يونانية تعرف اليوم باسمائها السامية.

ومع ذلك فقد بقي كثير من العناصر الفنية والمهارية والثقافية الاخرى التي ادخلتها الجاليات اليونانية والمكدونية. وتظهر واضحة في الفترة الرومانية. وانهيار المملكة الهلنستية لم يتبعه باي شكل من الاشكال انهيار الثقافة الهلنستية. ومع وجود القوس والقنطرة فيما سبق فان التاج الكورنثي للاعمدة انتشر باطراد. وكانت المسارح والملاعب التي بناها افراد الاسرة الهيرودية في عهد الرومان تتبع النموذج الهلنستي[2]. وفي الحقيقة فان اكثر البقايا الهلنستية في سورية تعود الى الفترة الرومانية.

تفاوت انتشار الهلينية

اختلفت مناطق سورية في استجابتها للمؤثرات اليونانية. ففي الشمال لم يقتصر اطلاق اسماء الوطن الام على المدن بل شمل سائر الاماكن. وبالاضافة الى ذلك فقد اوجدوا تعادلاً بين الآلهة المحلية والآلهة اليونانية واعادوا تسميتها. فاصبح بعل

١) أو جبجيل الواقعة على طريق غزة — اورشليم.

٢) انظر ما سيأتي في الفصلين ٢١ و ٢٣.

يسمى زفس واقتبست الاساطير والخرافات الهندية الاوربية في البلاد الجديدة . وكانت تقع على بعد اربعة اميال من انطاكية ضاحيتها ومركز افراحهـا دفنة حيث انقلبت الحورية التي تحمل نفس الاسم والتي تبعها ابولون وقد اسره جمالها الى شجرة غار . وقد حدث المشهد الاصلي في تساليا . وتدفق الانطاكيون والحجاج من كل اطراف سورية الى معبـد ابولون في دفنة الواقع في وسط غابة من شجر الغار حيث تكثر المياه[1]. وقد اعطي هذا المعبد حق التجاء الناس اليه واصبح المكان مركزاً للخلاعة . وبوجه الاجمال فان شمالي سورية اصبح «مكدونيا جديدة» حيث شعر العنصر اليوناني المحتل وكأنه في وطنه .

وتأتي بعد ذلك المدن الفينيقية التي يجب ان نذكر ان علاقاتهـا مع العالم اليوناني تعود الى القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . ولما كانت قد فقدت في هذه الاثناء روحها الوطنية فقد ساعد ذلك على تسهيل عملية الجمع بين العناصر اليونانية والسورية . ولم تتردد صور وصيدا وارواد ولاوديسة — بيريتوس (كما كانت بيروت تدعى احياناً) ومراثوس في سك نقود تحمل كتابات يونانية بجانب الفينيقية . واصبحت الهلينية التي توطدت في سورية الفينيقية اكثر قوة وانتاجاً من تلك التي ظهرت في سورية الآرامية . وفي هذا العصر لا بد ان الفينيقي المثقف كان يشعر وهو في مدينة يونانية كأنه في وطنه تقريباً وكذلك كان يشعر اليوناني في ميناء فينيقي . ولم تقل العناية بالفلسفة والادب اليوناني في صيدا وصور عما كانت عليه في انطاكية ولاوديسة . وكان بعض مشاهير الكتّاب في اللغة اليونانية من القرنين الاخيرين قبل الميلاد من مواطني هاتين المدينتين الفينيقيتين . وكان احدهم وهو زينون الصيداوي استاذ سميّه زينون من بلدة كيتيوم في قبرص (٣٣٣— ٢٦١ ق. م.) مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة وهي اعظم ما انتجه العصر . وكيتيوم نفسها مستعمرة فينيقية وكان ابنها المشهور في نظر معاصريه فينيقياً . وذهب زينون «انبل رجال عصره»[2] الى اثينا وبدأ يعلم في رواقها Stoa poikile في سنة ٣٠٢ . وكان صديق انتيغونس ملك مكدونيا وحفيد قائد الاسكندر . ولكنه ابتعد عن السياسة . وانتهى المرسوم الذي رافق ما منحته اياه اثينا من

---

١) ولهذا سميت بالعربية «بيت الماء». انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 6.

٢) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p.330.

التكريم بعد موته بالكلمات التالية : «لقد جعل حياته نموذجا اتبعـه الجميع لانه كان يعمل بموجب تعاليمه». وكتب احدهم عن زينون في شعر على قبره ما يلي :

واذا كانت بلادك الاصلية هي فينيقية .

فهل يجب ان يضيرك شيء؟ الم يأت قدموس من هناك

الذي اعطى اليونان كتبها وفن كتابتها[١]؟

وترأس فينيقي آخر مدرسة فلسفية في اثينا وهو ديودورس المشاء الصوري الاصل وكان لا يزال ناشطاً في سنة ١١٠ ق. م. وقد ذكره شيشرون[٢]. وكان احد مبادئه الاخلاقية ان الخير الاعظم يتألف من امتزاج الفضيلة مع انعدام الألم وهذه صيغة تشير الى محاولة التوفيق بين وجهتي نظر الفلسفتين الرواقية والابيقورية.

وهنالك سوري اكثر شهرة يتبع الفلسفة الانتقائية واسمه انطيوخس العسقلاني وقد حاول ان يوحد آراء الافلاطونيين والرواقيين . واسس بالاضافة الى اكاديميته السورية واحـدة في الاسكندرية واخرى في اثينا. وحضر شيشرون[٣] دروس اكاديميته الاثينيـة مدة ستة شهور ويتكلم عنه بتعابير الود والاحترام . ويصفه بلوطرخس[٤] بأنه «رجل مقنع وخطيب قوي». ويذكر سترابو[٥] اثناء وصفه لعسقلان بان مولد انطيوخس فيها عنوان شهرة للمدينة .

بقاء الآرامية

من الطبيعي ان اللغة والثقافة اليونانيتين حصلتا على مكانة خاصة لاقترانهما بالشعب الفاتح . وقد اعترف الفريقان ان تفوق الادب والحضارة اليونانية المطلق

---

١) انظر : Diogenes Laertius, *Lives of Eminent Philosophers*, tr. R. D. Hicks (London, 1925), Bk. VII, § 30; cf. *The Greek Anthology*, ed. and tr. W. R. Paton (New York, 1927), Bk. VII, § 117.

٢) انظر : *De Oratore*, Bk. I, ch. 11.

٣) انظر : *Brutus*, Bk. XCI, ch. 315.

٤) انظر : « Lucullus », in *Vitae*, ch. 42.

٥) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29.

امر لا يقبل الجدل . ولكن الواقع هو ان الشرق الهليني كان شيئاً مصطنعاً . فديانة البعليم واليهودية احتفظتا بتقاليدهما القديمة في وسط هذا الشرق الهليني . وبالاضافة الى ذلك فان السلوقيين تبنوا العبادات المحلية باشكال هلينية واظهر اكثرهم احتراماً للآلهة المحلية . وحين كان سلوقس الاول يبحث عن موقع لاقامة مرفأه الذي كان ينوي بناءه قدم ذبيحة الى زفس المقيم في جبل كاشيوس وهو اله العاصفة والرعد المحلي الذي ارسل نسراً ليريه مكان تأسيسها[١] . واعادت زوجة سلوقس بناء معبد أتارغاتيس في بامبيس — هيرابوليس Bambyce-Hierapolis (منبج) حيث بقيت عبادة الالاهة السامية تزدهر[٢] . وبدأت اسرار جبيل تقترن بافروديت وادونيس ولكن هذا لا يعني جعل المشرق هلينياً بقدر ما يعني جعل العالم الهليني شرقياً . وبقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة الذي بقي في صميمه سامياً في طرق معيشته . وحتى القرن الثالث الميلادي كانت تدمر تستعمل اللغة الآرامية الى جانب اللغة اليونانية كلغة رسمية . وكذلك استعملت دورا — اورويس الآرامية واليونانية في كتاباتها الاثرية . واصبح افراد الجاليات اليونانية بالتدريج اكثر تأثراً بالحياة السامية من تأثر الوطنيين بالحياة اليونانية . واعطي بعض الملوك السلوقيين المتأخرين القاباً آرامية . فعرف اسكندر الاول (١٥٠—١٤٦) بلقب بالاس Balas واسكندر الثاني (١٢٨—١٢٢) الذي لم يكن من الاسرة السلوقية بلقب زابيناس Zabinas [٣] . ونجحت الحضارة الوطنية في سورية الآرامية وفلسطين اليهودية بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام فاعطت اكثر مما اخذت .

ومما لا شك فيه ان السوريين المثقفين قد درسوا اليونانية وكتبوا بها . ولكن ليس هناك ما يدعونا الى الاعتقاد انهم استعملوها في حياتهم البيتية باستثناء اولئك الذين نشأوا في المستعمرات اليونانية . ويرجح ان سكان المدن القديمة التي اعيد تأسيسها كانوا يتكلمون لغتين . وقد احتفظ الريف بلغته القديمة وعاداته وطريقة

---

١) انظر : Malalas, *Chronographia*, ed, L. Dindorf (Bonn, 1931), p. 199

٢) انظر : Lucian, 17.

٣) من الواضح ان « Balas » هي ba'lā وهي اختصار اسم مركب يظهر فيه اسم الاله بعل . وزابيناس هو زبينا Zēbina « المشترى » . ورد الاسم في عزرا ١٠ : ٤٣ وكان غالباً يعني بالاصل المشترى من الله .

حياته . ولم تتأثر اكثرية السكان بالحضارة اليونانية بأكثر مما تأثر به السوريون المعاصرون بالحضارة الفرنسية . والذي حصل بنتيجة ادخال الهلينية هو تمزيق البنيان السياسي والفكري الذي كان سامياً صرفاً والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد. واحتاج الامر الى مرور الف عام قبل ان يمكن اعادة ذلك البنيان.

النشاط الادبي

لم يترك الادب الآرامي في سورية السلوقية اية آثار كما انــه لم تكتشف اية كتابات آرامية اثرية من هذه الفترة . وقد تضاءل النشاط الادبي المحلي امام الشعر اليوناني لشعوره بالنقص حتى كاد ان ينعدم . ولكن ليس من شك بأن كثيرين من كتاب ذلــك العصر الذين تسموا باسماء يونانية وكتبوا في تلك اللغة هم من اصل سوري . ففي الحقب الاولى من القرن العشرين ظهرت عدة رسائل ومؤلفات اخرى بالفرنسية تحمل اسماء افرنسية المظهر لكتاب لبنانيين ويكاد يستحيل معرفتها بأنها عربية . ويصح الافتراض ان بعض القطع الآرامية الادبية قــد كتبت ولكنها لم تصلنا . وكان من الممكن ان تلاقي بعض المؤلفات العبرية مصيراً مماثلا لو لم يُتح لها حظ ايجاد مترجم يوناني ودخولها في عداد الكتب الدينية غير الرسميـــة (الابوكريفا) . ومن المصادر الرئيسية لمعلوماتنا عن هذه الفترة سفر المكابيين الاول الذي كتب كما يبدو بين عامي ١٠٥ و ٦٣ ق.م. وترجم الى اليونانية من اصل عبري . ونرى في كتاب اخنوخ المزعوم والذي كتب في الاصل بالعبرية او الآرامية في حوالي نفس الفترة ووصلنا بكامله في اللغة الحبشية فقط — نرى ان الخلود الذي كان حتى ذلك الحين من نصيب الاتقياء فقط قــد اصبح يشمل الناس جميعاً وترافقه افكار الثواب والعقاب . وقد يكون في هذا تعبير عن اعظم افكار ذلك العصر . وشغلت احدى المشاكل التي يعالجها اخنوخ ، وهي ازدهار الاشرار ، العقول اليهودية والعقول اليونانية . وانضم كتابان عبريان من العصر السلوقي الى مجموعة الكتب الدينية الرسمية وهما : سفر الجامعة الذي كتب حوالي العام ٢٠٠ ق.م. من قبل يهودي ارستقراطي تأثر بالهلينية وسفر دانيال الذي كتب في القرن الثاني ق.م. ويتصل سفر الجامعة بالفكر اليوناني اكثر من الكتاب الآخر .

لم يصبح اي قسم من الامبراطورية السلوقية مركزاً حقيقياً للابداع الفني والادبي والعلمي ولم يكن الملوك قط مشجعين اسخياء للعلم شأنهم شأن ملوك البطالمة باستثناء بطليموس الاول مؤسس مكتبة الاسكندرية ومتحفها المشهورين في العالم. وقد اسست المكتبات في العواصم وكانت احداها في انطاكية. واذا اخذنا بعين الاعتبار تحسن المواصلات وانتشار حضارة واحدة وسيادة لغة واحدة فانه كان بامكان العلم ان يزدهر اكثر لو حظي بتشجيع الملوك. والعالم الوحيد الذي يستحق الذكر في المقاطعات الشرقية هو سلوقس من مدينة سلوقية على الدجلة وهو من اصل كلداني عاش خلال القرن الثاني ق. م. وقال ان الشمس هي مركز الكون. واتبع في ذلك فرضية اريسطرخس[1] وحاول ان يجد البراهين لها. واتى سلوقس بآراء صحيحة علمياً عن علاقة المد والجزر بالقمر التي ذكرها بوسيدونيوس السوري[2].

بوسيدونيوس المؤرخ

انجبت سورية الهلنستية اثنين من الجغرافيين المؤرخين وبعض الفلكيين وعدداً محدوداً من الشعراء الذين لم يكن احدهم من المرتبة الاولى وعدداً كبيراً من الفلاسفة وخاصة من المدرسة الرواقية. واكثرهم من القرن الثاني واوائل القرن الاول ق. م. وقد اقامت الرواقية منذ البدء علاقات وثيقة مع المفهوم السامي للحياة وبقيت خلال وجودها ملائمة لليونان الذين تأثروا بالحضارة السامية وللساميين الذين تأثروا بالهلينية. والرواقية في تأكيدها على الاخوة والدولة العالمية، وعلى الفضيلة والحياة الاخلاقية، وبنظرها الى كل ما له علاقة بالجسد من قوة وضعف وصحة ومرض وغنى وفقر بروح اللامبالاة فانها كانت الى حد ما طليعة للمسيحية. كان بوسيدونيوس الآفامي ابرز الكتاب السوريين وهو فيلسوف رواقي ومؤرخ وعالم طبيعي، ومن اعظم مؤلفاته اثراً اتمامه لتاريخ بوليبيوس الذي اصبح مرجعاً للمؤرخ ليفي وسترابو وبلوطرخس وغيرهم وهكذا ساهم في مهمة تعليم الرومان الاوائل ومهد الطريق لمجد العصر الاوغسطي. وقد ولد بوسيدونيوس حوالي العام ١٣٥ ق. م. ودرس في اثينا وبعد ان تجول في ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا

---

١) من بلدة ساموس وعاش في الاسكندرية بين ٢٨٠ – ٢٦٤ ق. م.

٢) انظر : Strabo, Bk. III, ch. 5, § 9.

وصقلية استقر كرئيس المدرسة الرواقية في رودس حيث توفي سنة ٥١ ق.م. وبلغ من شهرته ان بومبي توقف في رودس في طريق عودته من سورية ليستمع الى محاضراته . وعندما وصل القائد الروماني الكبير الى بيت الفيلسوف منع مرافقه من قرع الباب كما هي العادة واظهر احتراماً اكثر باخفاض حزمة العصي[١]. ويقول شيشرون[٢] انه هو ايضاً استمع الى محاضرات بوسيدونيوس . ويعتبر عقله آخر عقل عظيم انجبته الحضارة الهلينية قبل ان تتأثر بروما . وتصور المقتطفات التالية من كتاباته الحياة الراقية للمدن السورية وتصف بعض المنتجات الطبيعية :

كانت هنالك عدة اندية حيث يروحون عن انفسهم بصورة دائمة فيستعملون اماكن الرياضة والحمامات ويمسحون انفسهم بالطيب الثمين والدهون ويستخدمون «المداوس» لانهم هكذا كانوا يسمون قاعات طعام الاعضاء كما لو كانت منازلهم الخاصة ، ويملأون انفسهم في معظم اوقات النهار بالخمور والطعام ويحملون معهم كميات كبيرة ، وسط اصوات القيثارات الصاخبة التي جعلت مدناً بكاملها ترن بالضجيج[٣] .

وتنتج الجزيرة العربية وسورية ايضاً البرسية Persea وما يسمى بشجر الفستق . ويحمل هذا ثمراً اشبه بالعنب له قشرة بيضاء وشكل مستطيل مما يشبه الدموع وتزدحم بعضها على بعض كعناقيد العنب . وداخلها اخضر شاحب وطعمها اقل لذة من ثمرة الصنوبر ولكنها اطيب رائحة منها[٤] .

الشعراء السوريون اليونان

ومع ان الشعر اليوناني السوري ليس مبتكراً بشكل يلفت النظر فانه يتميز بتنوعه واهتمامه بجمال الطبيعة وخصب خياله ولونه وقوة شعوره بالهزل . وكان كثير من الشعراء بارعين في الارتجال وشعر المناسبات . وقد استخدم انتيباتر الصيداوي واصله من صور وعاش في اوائل القرن الاول ق. م. اشعار المناسبات خاصة للحوادث التذكارية وللكتابة على القبور . ويذكر سامعيه في المقطع التالي باقامته في ميناء فينيقي :

---

١) انظر : Cicero, *Tusculanarum Disputationum*, Bk. II, ch. 25; Pliny, Bk. VII, ch. 31.

٢) انظر : Cicero, *De Natura Deorum*, Bk. I, ch. 3.

٣) انظر : E. S. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p.202; cf. Athenaeus, *The Deipnosophists*, ed. and tr. Charles B. Gulick (London, 1933), Bk. XII, § 527.

٤) انظر : Bouchier, p. 202 ; Athenaeus, Bk. XIV, § 649.

حان الوقت لتسرع السفينة فليست هناك زوابع قائمة
ذات تماريج مائلة لتمزق صدر المحيط
والسنونو تبني عشها تحت السقف
وعلى المروج تضحك الاوراق النضة

اسحبوا مراسيكم المبللة ايها البحارة
واخرجوا المراسي المدفونة من الرمال
وارفعوا الاشرعة المتينة الصنع عندما آمركم
هكذا يأمر ابن باخوس وسيد الميناء[1]

كان انتيباتر ابيقورياً في فلسفته وهذه بعض اقواله :

يقول العالمون بالنجوم انني قصير العمر . انني كذلك يا سلوقس[2] ولكن ذلك لا يهمني . ليس هناك سوى طريق واحدة الى العالم الاسفل Hades التي يسلكها الجميع . واذا كانت طريقي اسرع فسأرى مينوس[3] بسرعة . دعنا نشرب لانه صحيح جداً ان الخمر حصان الطريق بينما يتبع المشاة طريقاً جانبية الى العالم الاسفل[4] .

وهناك فيلسوف ابيقوري وشاعر مناسبات آخر اسمه فيلوديمس Philodemus. وقد ولد في اوائل القرن الاول ق. م. في جَدَرَة[5] وهي مستعمرة مكدونيـــة اسست بين سكان شرقي الاردن شبه الرحل على مرتفع شاهق يشرف على مضيق الهيروماكس Hieromax (اليرموك) والطرف الجنوبي لبحر الجليل (طبرية). وقد اقام فيلوديمس في رومة في عهد شيشرون الذي مدحه بحماسة . واكثر اشعاره الباقية هي من النوع الخفيف والغزلي وتؤيد قول شيشرون فيما يختص بميوعـــة مواضيعه ورشاقة طريقته[6]. وهذا نموذج منها :

---

١) انظر : Bouchier, pp. 193-4 ; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, § 2.

٢) يبدو ان الاشارة هي لسلوقس الكلداني الذي كان منجماً ايضاً .

٣) هو ملك كريت ومشرعها الذي اصبح بعد موته احد القضاة في العالم الاسفل .

٤) انظر : *Greek Anthology*, Bk. XI, § 23.

٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 11, § 4. الموقع هـــو قرب ام قيس اليوم . ويذكر سكان جدرة في انجيل مرقس ٥ : ١ ؛ لوقا ٨ : ٢٦ ، ٣٧ .

٦) انظر : *In Pisonem*, chs. 28, 29.

لقد وقعت في حب ديو من بافوس – وليس ما يدهش في ذلك : ثم احببت ديو من ساموس – ولم يكن ذلك امراً كثير الاهمية : وللمرة الثالثة احببت ديو من ناكسوس – ولم تعد القضية مجرد نكتة : وفي المرة الرابعة احببت ديو من ارغوس . ويبدو ان الاقدار ذاتها قد اسمتني فيلوديمي [« محب الناس »] لانني اشعر دائماً برغبة ملحة لشخص باسم ديو[1] .

مليغر

لعل اكثر الشعراء طرافة في عصر غير شعري هو مليغر من جدَرة (ام قيس) وكان سوري الاصل ومن المرجح انه تكلم الآرامية في بيته وعرف الفينيقية بالاضافة الى اليونانية . وكأكثر الكتاب السوريين في عصره فقد بحث عن رزقه خارج مدينته الاصلية . وفي سن العشرين (حوالي ١١٠ ق. م.) هاجر الى صور التي نعرف لمحة عن حياتها الداخلية من مقاطعه الشعرية . ولا بد ان حياة المدينة كانت طائشة فالمغنون وعازفو القيثار كانوا محبوبين والشراب كان شائعاً . وكانت نساء الطبقة العليا يمشين في عزلة ولمن من يرافقهن حين يسرن في الشوارع . وانتقل مليغر بعد ذلك الى جزيرة كوس Cos حيث جمع ديواناً شعرياً سماه الاكليل . ويضم خيرة اشعار الكتاب الاوائل وقد شبه كلًّا منهم في شعر من عنده بزهرة جميلة او شجرة انيقة[2] . ويصف في شعر قصير آخر يلفت النظر باقة من سبعة اولاد عرفهم بنفسه في صور وشبههم بالزنبقة الجميلة والبنفسجة البيضاء العطرة والوردة والكرمة والبرعم والزعفران ذي الضفائر الذهبية وغصن الزعتر وغصين الزيتون الدائم الاخضرار . وقد قدم اله الحب هذه الباقة الى افروديت[3] . وفيما يلي مقطعان شعريان مما يكتب على القبور من نظم مليغر :

جزيرة صور كانت مربيتي وجدرة التي هي اتيكية ولكنها تقع في سورية ولدتني . لقد انبثقت من يوكراتس Eucrates انا ، مليغر ، الذي سرت بجانب عرائس مينبوس Menippus[4] بمساعدة

---

١) انظر : Greek Anthology, Bk. V, § 115

٢) انظر : Greek Anthology, Bk. IV, § 1.

٣) انظر : Greek Anthology, Bk. XII, § 256.

٤) شاعر هجاء من جدرة ايضاً لمع اسمه حوالي العام ٢٨٠ ق. م. وكان بالاصل عبداً ثم اصبح بعد ذلك من معتنقي المدرسة الكلبية (Cynic) في الفلسفة وعالج حماقات البشر وخاصة الفلاسفة منهم بلهجة تهكمية . وقد استعمل لوكيان هجاءه بكثرة . ودعي مينبوس أبا الادب الرخيص ويذكرنا نثره الفني الذي يمتزج احياناً بمقاطع شعرية بمقامات الحريري .

آلهة الشعر . فاذا كنت سورياً فما هي الغرابة ؟ ايها الغريب اننا نقطن بلداً واحداً هو العالم ؛ وشيء واحد انبت كل البشر[١] .

سر بهدوء ايها الغريب فالرجل المسن ينام بين الموتى الاتقياء يلفه النوم الذي هــو نصيب الجميع . هذا هو مليغر ابن يوكراتيس الذي قرن آلهة الحب الدامعة العذبة وآلهة الشعر مع العرائس . لقد ربته صور التي ولدتها السماء وتراب جدرة المقدس حتى بلغ أشده ورعت كوس المحبوبة من الميروبس شيخوخته . فاذا كنت سورياً فاقول لك سلام ! واذا كنت فينيقياً اقول لك نايديوس Naidius[٢] ! واذا كنت يونانياً فاقول لك Chaire ! (اي السلام) وقل انت نفس القول[٣] .

---

١) انظر : Greek Anthology, Bk. VII, § 417.

٢) تبدو هذه الكلمة الفينيقية لمعنى «السلام» بأنها صيغة المضارع للشخص الاول في حالة الجمع من yādbāh ومعناها تقديم الشكر ولها نهاية يونانية .

٣) انظر : Greek Anthology, Bk. VII, § 419.

الفصل التاسع عشر

النظم السلوقية

الملكية

كانت النظم السياسية للدولة السلوقية مزيجاً غريباً من عناصر يونانية — مكدونية وعناصر سورية — فارسية وقد سادت هذه الاخيرة فيها . فعلى رأس الدولة كان يقوم الملك بسلطة مطلقة وكان في الحقيقة هو الدولة واليه ترجع السلطات كلها . وكان يعين الموظفين ويسرحهم حسب مشيئته . وكان حكمه فردياً ملكياً يرتكز على حق الفتح والوراثة . وكانت تحيط به هالة مقدسة ورثها عن الاسكندر والملوك الشرقيين . وقد اعلن الاصل الالهي لمؤسس السلالة في مطلع حكمه بواسطة نبوءة قبلت بوجه عام . ثم اصبح جزءاً من اللقب الملكي في عهد خلفائه . واتخذ السكان الاصليون من غير اليونان موقفاً يحسن وصفه بالاذعان السلبي .

كان شكل القصر بما يعرض فيه من مرمر وذهب وبما يظهر فيه من حجاب وخصيان شرقياً اكثر منه غربياً . وكان الملك يضع على رأسه في المناسبات الرسمية تاجاً كرمز للملكية . وكان التاج كما يظهر على النقود عبارة عن شريط ذهبي ضيق. واتخذ الخاتم ايضاً شعاراً للملكية[1]. واستعمل سلوقس مرساة منقوشة كخاتم له لاسباب لا تزال غامضة[2]. وتظهر هذه المرساة ايضاً على النقود والاوزان السلوقية. اما اللباس الملكي فقد ظل الرداء الوطني القديم المستعمل في مكدونيا ولكنه زيد في بهائه وصنع من الارجوان . وكان الثوب القرمزي يقترن بالملكية ومنصب الكاهن الاعظم[3].

---

١) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ١٥ .

٢) انظر : Appian, §. 56.

٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠ : ٢٠ ؛ ١١ : ٥٨ ؛ Polybius, Bk. XXVI, ch. 1.

تميزت الولائم الملكية بالابهة وبرزت فيها الصحون الذهبية والفضية والخمور المعتقة والآلات ذات الاوتار وروائح المر وغيرها من العطور الشرقية . وقد ترك لنا بوسيدونيوس[١] صوراً خاطفة عن الحفلات الزاهية التي اقيمت بمناسبة الالعاب في دفنة من قبل انطيوخس السابع سيديتس[٢] (١٣٧ — ١٢٨ ق.م.). ويقال ان المضيف الملكي سمح لكل مشترك في الحفل ان يحمل الى بيته من لحم الحيوانات البرية والبحرية ما يكفي لاملاء عربة بالاضافة الى كميات الحلوى المعمولة بالعسل واكاليل المر والبخور ومشبكات الذهب «التي يبلغ طولها طول الرجل». وكانت من عادة انطيوخس الثامن غريبوس (المعقوف الانف ١٢٥ — ٩٦ ق.م.) ان يوزع في مثل هذه المناسبات على المدعوين اوزاً حياً وارانب وغزلاناً بالاضافة الى الاكاليل الذهبية والآواني الفضية والعبيد والخيول والجمال. وبعد ان يركب كل رجل جمله يشرب نخباً ويقبل الجمل بما عليه والخادم الملحق به . وكانت التسلية الرئيسية بالاضافة الى الولائم تتضمن الصيد والفروسية .

البلاط

كانت الحاشية تتجمع حول الملك، ومما لا شك فيه ان لغة البلاط كانت اليونانية. ويستبعد ان يكون الملك السلوقي قد عرف لغة اي من مواطنيه الاصليين. وكان يذهب عدد كبير من الامراء الملكيين وهم صغار الى اثينة او رومة لتلقي العلم . وكانت اعلى وظيفة في البلاط هي وظيفة «وزير القضايا» وهي استمرار لمنصب الوزير عند الفرس . وكانت سلسلة الوظائف تضم رئيس الديوان الملكي ووزير المالية والكاتب المالي وقائد الحرس والطبيب الرئيسي . وكان الموظفون في المقاطعات هم الولاة او المرازبة وحكام المقاطعات الصغرى والكتاب ومراقبو الضرائب . وكانت وزارة المالية وزارة مرغوباً فيها بشكل خاص[٣].

ان طبقة النبلاء المكدونيين التي هاجرت من ارض اجدادها وطعمت بطبقة النبلاء الجديدة المتألفة من موظفين ترقوا بعطف الملك — لم تكن في وضع يمكنها

١) انظر : Athenaeus, Bk. XII, ch. 540.

٢) لقب بهذا نسبة الى بلده Side في بامفيليا حيث نشأ .

٣) راجع : Appian, § 45.

من تقييد السلطة الامبراطورية. وكانت نساء القصر يتنازعن ويدبرن المكائد للوصول الى السلطة. وكان السلوقيون والبطالمة فيما سوى الجيل الاول من خلفاء الاسكندر يتزوجون بامرأة واحدة ولكن كان لديهم محظيات. وقد منح انطيوخس الرابع محظيته سلطة ملكية على طرسوس ومدينة اخرى في كيليكيا مما ادى الى نقمة سكانها[١]. ومارس افراد الاسرتين عادة الزواج بالشقيقات كما فعل الفراعنة وملوك الفرس. وكان لدى افراد الاسرة المالكة وجماعة الموظفين وفرة من العبيد وكان المجتمع الهلنستي في كل مكان فقيراً في الآلات غنياً في العبيد[٢].

الجيش

كان الجيش والاسطول تابعين للملك. وتمتع الجيش السلوقي بنفوذ في شؤون الدولة. واعتبر سلوقس الاول انه من المناسب اخذ موافقة الجيش حين هيأ ذلك الزواج الغريب بين ابنه ووريثه انطيوخس الاول وزوجة ابيه وحين اراد تعيينه على بعض المقاطعات[٣]. وقد تألف الجيش في مراحله الاولى من جميع المكدونيين واليونان في المملكة وكان وسيلة اساسية يصل بها الرجال الى السلطة. وكان مقر قيادته في افامية ولكن معسكراً اقيم في انطاكية للحرس الملكي. وكان يتألف جيش انطيوخس الثالث في معركة وافيا (رفح) سنة ٢١٧ من ٢٠،٠٠٠ مستوطن اوربي يدعمهم ١٠،٠٠٠ من الرجال المختارين من قوميات كثيرة و ١٠،٠٠٠ من العرب وسائر رجال القبائل الاخرى وعدد من المرتزقة مما يرفع العدد الى ٦٢،٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان[٤]. وكان الفرسان اعلى في المرتبة ويتقاضون اجوراً اكثر من المشاة.

كانت الكتيبة نواة الجيش وقد جند افرادها بصورة رئيسية من بين المستوطنين اليونان والمكدونيين وعددها لم يكن ثابتاً. وقد بلغ في معركة مغنيزيا ١٩٠ ق.م.

١) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٠ .

٢) للحصول على تفاصيل اكثر عن البلاط وحياته ارجع الى: E. Bikerman, *Institutions séleucides* (Paris, 1938), pp. 31-50.

٣) انظر : Appian, § 61.

٤) Polybius, Bk. V, ch. 79.

ستة عشر الفاً[١]. وكانت الكتيبة مسلحة بالسيوف والرماح الضخمة التي بلغ طولها واحـــداً وعشرين قدماً تحميها الخوذ والتروس. وكان السلاح الوطني لليونان والمكدونيين الرمح وليس السيف وبقي كذلك. وكان يتألف رماة القذائف من النبالة واصحاب المقاليع وقاذفي الرماح وكلهم من غير الهلينيين. ومدفعية الملوك الهلنستيين التي كانت تضم المنجنيق فتحت فصلاً جديداً في تاريـــخ فنون الحصار وادت الى تحسن مقابل في فن تحصين المدن. وفي معركة رافيا ساهم الفان من النبالة واصحاب المقاليع من الفرس والاكراد. اما في معركة مغنيزيا فاشتركت فرقة تتـــألف من حوالي الف فارس ميدي وفرقة ملكية من الف خيال اغلبهم من السوريين. وسار الرماة العرب وهم يركبون الجمـــال إمام الفرسان وحملوا سيوفاً رشيقة طولها اربعة اذرع لكي يتمكنوا من الوصول الى العدو من علو كبير كهذا[٢].

الفيلة لاجل الحرب

عرف استخدام الجمل والحصان في الحروب في آسية الغربية لعدة قرون ولكن الفيل كان ظاهرة جديدة في الجيش السلوقي واصبح هذا الحيوان شعاراً سلوقياً كما ترينا قطع النقود. ويبدو ان الهنود كانوا يقومون بالتدريب في مركز الفيلة في أفامية. واستعمل الملوك البطالمة فيلة من افريقيا. وفي عام ٢٧٣ ق.م. ارسل حاكم بكترية عشرين فيـــلاً الى انطيوخس الثالث الذي استخدمها ضد مصر[٣]. وتقابلت الفيلة الهندية والافريقية في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافيـــا وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعددها على الافريقية في المعركتين مما لا يمكننا تبرير الاستنتاج بانها كانت اقوى[٤]. واستخدم انطيوخس في رافيا ١٠٢ من الفيلة[٥]. كما ان سلوقس الاول استخدم في معركة ايبسوس Ipsus (٣٠١ ق.م.) ٤٨٠ منها

---

١) انظر: Appian, § 32.

٢) انظر: Livy, Bk. XXXVII, ch. 40; cf. Appian, § 32

٣) انظر: Sidney Smith, p. 156.

٤) انظر: Livy, Bk. XXXVII, ch. 39, § 13; Polybius, Bk. V, ch. 84.

٥) انظر: Polybius, Bk. V, ch. 79.

وكانت الى حد كبير سبب نصره الذي اكسبه مقاطعة آسيا. وبلغ مجموع الفيلة التي كانت في المركز السلوقي حوالي ٥٠٠ فيل[١].

وفي ترتيب المعركة كان يركب سائق هندي على رقبة الفيل الذي يحمل برجا خشبياً يجلس فيه اربعة مقاتلين[٢]. ولا بد ان منظر هذه الحيوانات المحاربة كان يوحي بالرهبة الى حد جعل اليهودي الذي روى اعمالها في احدى معارك المكابيين ان يرى ظهورها مغطاة بالابراج وفي كل منها اثنان وثلاثون من الرجال الاشداء[٣]. ويقول نفس الراوي ان الحيوانات كانت تستثار للقتـــال بعرض «دم العنب والتوت» عليها[٤].

كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص[٥]. ولم تستعمل الحيوانات لتحارب حيوانات الاعداء كما في رافيا بل لتكون ايضاً بمثابة حاجز ضد الخيالة كما في ايبسوس. ويبدو ان هذا هو الغرض الرئيسي الذي كان يستخدم السلوقيون تلك الحيوانات لاجله. وقد استعملوها ايضاً لاقتحام موقع حصين. ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم[٦]. وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة اعداء مميتة للفرق التي تواجهها لاول مرة ويزول تأثيرها امام المشاة المجربين.

وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سورية ارسلوا في عام ١٦٣ ق. م. بعثة للقضاء عليها. واثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنـــة والنادرة احد مواطني اللاذقية بحيث طعن رئيس البعثة طعنة مميتة حين كان يتطيب في الجنازيوم بتلك المدينة[٧]. وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة احد البطالمة ولكن احد منافسيه جرده منها. وهذا آخر ما نسمع عنها.

---

١) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

٢) انظر: Livy, Bk. XXXVII, ch. 40.

٣) انظر سفر المكابيين الاول ٦: ٣٧.

٤) انظر سفر المكابيين الاول ٦: ٣٤.

٥) انظر: Appian, § 33

٦) انظر: W. W. Tarn, *Hellenistic Military and Naval Developments* (Cambridge, 1930), p. 95.

٧) انظر: Appian, § 46.

وتعتبر السنون التي انقضت بين وفاة الاسكندر وذلك الحادث الفترة الوحيدة في التاريخ التي لعب فيها هذا الحيوان دوراً هاماً في الحروب الغربية .

الاسطول

كلفت نفس البعثة الرومانية التي قضت على فيلة الحرب بمهمة احراق الاسطول السلوقي الذي كان قد زاد عن العدد الذي سمح به لانطيوخس الثالث بموجب معاهدة الصلح . ومع ان الاسطول لم يقم بأي دور حاسم في اية معركة ذكرتها المدونات التاريخية فانه كانت له غالباً قيمة كافية في الحرب لان تستدعي ادخال مادة في المعاهدة تحدد عدد وحداته وتعين مجال نشاطه في المياه الاسيوية فقط . ويبدو ان قسماً صغيراً منه كان يرابط في الخليج الفارسي[١]. وكانت مهمة الاسطول بوجه عام ان يتعاون مع الجيش المحارب وان يحمي النقليات العسكرية . ومما لا شك فيه ان اكثر بحارته كانوا من الفينيقيين .

كانت وحدة الاسطول هي السفينة ذات الصفوف الخمسة التي حلت في هـذا الزمن محل السفن ذات الصفوف الثلاثة الاقل قوة ويرجح انها اخترعت في فينيقية او قبرص قبل زمن الاسكندر بقليل[٢]. وكانت السفن ذات الصفوف الخمسة تجذف بصف واحد من المجاذيف ويعمل خمسة رجال في كل مجذاف . ويمتد ظهر السفينة فوق رؤوس المجذفين . وتحمل السفينة فرق الجنود الذين كانوا يحمون في القرن الثاني ق. م. بابراج خشبية خفيفة منتصبة فوق ظهر السفينة . ويمكن استعمال السفينة نفسها للانقضاض على السفن الاخرى وهو اسلوب بحري برع فيه الفينيقيون .

ادارة المقاطعات

ظهرت وحدة الامبراطورية السلوقية في تجانس تنظيمها العسكري وفي نظام ادارة المقاطعات الذي ورثت قسمه الاكبر من الفرس. ولا نعلم الشيء الكثير عن ادارة المقاطعات المحلية ولكن يبـدو ان الجهاز الحكومي القديم كان باقياً .

---

١) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9 § 5.

٢) انظر : Tarn, P. 132.

واحتفظت الوحدة الادارية باسمها الفارسي وهو المرزبانة . وقد ادعى ابيان[١] انه كان يوجد اثنان وسبعون مرزبانة في الامبراطورية في عهد سلوقس الاول ولا بد انه مزج بين تقسيمات المرزبانات الداخلية والمرزبانات ذاتها . ويروي بوسيدونيوس[٢] انه كان في سورية ثماني مرزبانات — اربع في الشمال الكثيف السكان الذي يسمى « Seleucis » واربع في الجنوب الذي يسمى « سورية الجوفة » . وقد تجمعت الولايات الشمالية حول المدن التالية : انطاكية ، سلوقية ، افامية ، اللاذقية . ويظهر ان دمشق ولبنان بالاضافة الى فينيقية شكلت اول مرزبانة في سورية الجنوبية . وشكلت السامرية والجليل مع الساحل المرزبانة الثانية . وتألفت الاثنتان الباقيتان من شرقي الاردن وايدومية . وكانت اليهودية في اكثر عهدها كما رأينا سابقاً دولة كهنوتية تدفع الجزية في ظل السيادة السلوقية .

قسمت المرزبانة لاغراض ادارية الى مقاطعات صغيرة أوكلت لحكام ثانويين . ويصعب تحديد ترتيب هذه الاجزاء وربما كانت تتبدل من وقت لآخر . وكانت دار سك النقود الملكية في انطاكية ولكن وجدت دور في المقاطعات في صور وصيدا وارواد وغيرها من المدن الهامة .

المدن

كانت المستعمرات المكدونية — اليونانية منظمة بوجه عام حسب الفكرة الهلينية القديمة بشأن الحكم الذاتي لدولة المدينة . وقد شكلت المدن المتأثرة بالهلينية كذلك دول مدن من هذا النوع . وقد وجب عليها ان تدفع الضرائب وتطيع الاوامر الملكية من وقت لاخر ، ولكن سمح لها بادارة شؤونها الداخلية . وقد سمح للمدن المرموقة بنوع خاص ان تسيطر حتى على مقاطعات مجاورة . وكان يصوت سكان انطاكية كأعضاء جماعة هلينية وربما صوتوا ايضاً في مجلس الجيش الامبراطوري . والميزة المعمارية للمدينة الهلنستية هي شوارعها المستقيمة التي تتقاطع في زوايا قائمة فتقسمها الى مربعات تبدو من نقطة مرتفعة كأنها لوح الشطرنج . اما النموذج العام فهو نموذج مدينة يونانية لها ساحة عامة (آغورا) في احد الاماكن

١) انظر : Appian, XI, § 62.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 4.

المتوسطة وتطل عليها المعابد. وبلغت مساحــــة الآغورا في دورا – اورويس ٢٨،٠٧٩ يرداً مربعاً. وتراوح عرض شوارعها بين ١٨ – ٢٤ قدماً وبلغ عرض الشارع الرئيسي ٣٦ قدماً[١]. ومن سوء الحظ انه لم تكتمل الحفريات في اية مدينة سلوقية حتى الآن كما في دورا – اورويس[٢]. ومن جهة اخرى كانت المدن الجديدة تختلف في مظهرها كما في سياستها. وبقي العنصر الوطني من السكان فيها يعيش حسب الطريقة التقليدية.

الضرائب

عاش الفلاحون الوطنيون في قرى حافظت على وضعهم وطريقة حياتهم دون اهتمام بتغيرات الملوك. وكانت الارض التي يزرعونها ملكاً للملك او لبعض الملاكين على الغالب وكانوا يشرون ويباعون معها. وكان وضعهم وضع رقيق الارض. وليس هناك من شك في انهم دفعوا ضرائبهم عيناً.

وتابع السلوقيون عادة جمع العشور التي عرفت منذ اقدم العصور في آسية الغربية وهي عشر محصول الموسم. ويبدو من المصادر المتفرقــــة ان الضريبة لم تفرض على الفرد بل على الجماعة[٣]. وكان يدفع قسم كبير منها عيناً باسم المدينة او السكان او القبيلة من قبل الزعيم او الكاهن الاعظم. وليست لدينا معرفة تامة حول الضرائب المختلفة وكمياتها وطريقة تعيينها ولكن ليس هناك من شك بان كثيراً من هذه الامور كان يقرره التقليد القديم ويتكيف مع الاحوال الاقتصادية المباشرة.

كان هناك بالاضافة الى الجزية وعائدات الارض التي كانت مرتفعة جداً في اليهودية ضرائب ملكية تشمل ضريبة الرأس وضريبة التاج[٤] وضريبة الملح. وقد

---

١) انظر: M. T. Rostovtzeff *et al., The Excavations at Dura-Europos*, vol. ix, (New Haven, 1944), pp. 23,25.

٢) انظر بشأن مخطط لدورا: Rostovtzeff, *Caravan Cities*, tr. D. and T. Talbot Rice (Oxford, 1932), p. 154.

٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠: ٢٩–٣٠؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4§9.

٤) يدل التعبير على ان اليهود اعتادوا ان يقدموا للـــملوك السوريين تيجاناً من الذهب ثم قدموا قيمتها بعد ذلك.

اعفى انطيوخس الثالث مدينة اورشليم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك اعفاها بمقدار الثلث وذلك في الوثيقة التي منحها اياها حوالي عام ٢٠٠ ق.م.[١] وبعد نصف قرن حين كان يوجد ملكان سلوقيان متنافسان وهو امر معتاد في ذلك العصر اظهر كل منهما استعداده لتقديم اي ثمن لدعم اليهود له. وقد عرض احدهما وهو ديمتريوس الاول سوتر في عام ١٥٢ ق.م. في رسالة الى يوناثان الكاهن الاعظم — على اليهود اعفاءهم من الجزء الاكبر من الجزية والضرائب التي كانت تدفع حتى ذلك الحين ومثلها ضريبة الرأس والضريبة على الملح وثمن التيجان بالاضافة الى ثلث محصول الحقول ونصف اثمار الاشجار التي كانت تذهب عادة الى الملك. كما انه عرض اعفاء اورشليم من ضريبة العشر الاعتيادية[٢]. ويفهم من ضريبة الملح التي يذكرها كل من انطيوخس وديمتريوس بان مقالع الملح كانت تعتبر من املاك العرش. ومن المرجح ايضاً ان المناجم والمقالع الحجرية والغابات ومصائد السمك يملكها ويديرها الملك. ويخول انطيوخس اليهود في وثيقته حق استيراد الاخشاب من لبنان معفاة من الضرائب لاعادة بناء معبدهم وسائر الابنية[٣].

---

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 3, § 3.

٢) انظر سفر المكابيين الاول ١٠:٢٩—٣٠ ؛ Josephus, Bk. XIII, ch. 2, § 3

٣) للحصول على معلومات اوفى عن هذا الموضوع راجع : Bikerman, pp. 106-132, Rostovtzeff, *Social and Economic History*, pp. 440 seq.

الفصل العشرون

التجارة والصناعة

كانت سورية العمود الفقري للامبراطورية السلوقية وانطاكية رأسها السياسي وسلوقية عاصمتها التجارية وافامية مقرها الحربي وسلوقية التي على الدجلة عاصمة جناحها الشرقي وساردس عاصمة جناحها الغربي. وكان ربط هذه الاقسام المختلفة من الامبراطورية والمراكز التجارية والسياسية المختلفة بطرق مناسبة وآمنة يشكل الاهتمام الرئيسي للملوك السلوقيين الاوائل. وكانوا حين يبنون مستعمرة جديدة يهتمون بربطها بالطرق الرئيسية الموجودة والطرق المحلية التي اضاف اليها ملوك سورية ومصر الهلنستيون طرقاً جديـــدة. وكان من شأن التسهيلات الجديدة في المواصلات وتمتع العالم الهلنستي حتى في عهد تجزئته بشيء من الوحدة والتناسق في الثقافة العامة، بما في ذلك اللغة المشتركة والنقود الموحدة، ان اعطت التجارة حافزاً خاصاً. وقد رافق حركة بناء المدن ذاتها ظهور نشاط تجاري اقتصادي يوناني نتج عنه توافد التجار ورجال الاعمال والصناع.

السياسة السلوقية

كانت تجارة سورية في المستوى الداخلي والخارجي ذات اهمية كبرى بالنسبة للملكة وسكانها. ويبدو ان السياسة السلوقية كانت تهدف اولاً الى ان تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسية للاستهلاك المحلي والمرور وثانياً الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع الغرب وخاصة العالم اليوناني — الروماني. وكانت مصر منافسة لسورية في تطلعها الى تجارة الترانزيت. وهكذا كان للصراع الحربي المستمر بين السلوقيين والبطالمة اسس اقتصادية وسياسية.

الهند

ويمكن لمنتجات الهنـــد ان تأتي عن طريق البحر الى مستودعات في اليمن

(العربية السعيدة) لتصبح هناك جزءاً من تجارة الجزيرة العربية[١] ومن ثم تنتقل بواسطة القوافل الى البتراء وبلاد البطالمة او يمكنها الاتجاه عن طريق البحر على طول الساحل الغربي للخليج الفارسي فتمر بالعقير Gerrha وتصعد الدجلة الى سلوقية. وهذه البضائع المتجمعة بعد ان تنضم اليها في سلوقية المواد التي تجلبها القوافل البرية كانت تتجه غرباً فتصعد الفرات مارة بدورا — اوروبس (الصالحية) الى انطاكية او تتبع الطريق القديمة شرقي دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمرو وتسير غرباً الى نصيبين ومنها الى اديسا ثم الى انطاكية او دمشق. وقد جعل هذا من سلوقية على الدجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفاً لبغداد في العصور الوسطى. وقد بقيت هذه الطريق التجارية الشرقية التي تمر بسلوقية على الدجلة مطروقة خلال القرن الثالث ق. م. ولكن في الفترة المضطربة في اواخر القرن الثاني واوائل القرن الاول اصبحت الطريق الصحراوية المارة بتدمر اكثر ملاءمة وخاصة لان القبائل التدمرية كانت آنئذ في وضع يمكنها من ضمان الامن والمياه اللازمة. وقد بقي هذا الاختصار في الطريق الذي يمر بمدينة الواحة التدمرية مستعملاً بكثرة لمدة نحو اربعة قرون[٢].

كان بامكان القوافل المنطلقة من مصر او البتراء او الساحل الفلسطيني ان تتبع الطريق الساحلية حتى تصل الى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية او يمكنها ان تنعطف من مجدو او صور الى دمشق متبعة الطريق الاولية القديمة الكبرى. اما القوافل المنطلقة من ارواد او ماراثوس فيمكنها هي ايضاً ان تتبع الطريق الساحلية شمالاً او تستدير شرقاً باتجاه حمص وافامية. وكانت سلوقية او جارتها انطاكية الواقعة على نهر العاصي الصالح للملاحة آنذاك نقطة الالتقاء في سورية لجميع هذه القوافل.

وكان السلوقيون ابان ذروة حكمهم اسياداً غير منازعين ايضاً لطريق الحرير التي تخترق الهضبة الايرانية وآسية الوسطى حتى منغوليا البعيدة بقدر ما كانت

---

١) للتوسع في تجارة الجزيرة العربية الجنوبية راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 44-48.

٢) راجع ما سنذكره في الفصل ٢٩ بشأن تدمر.

تستخدم في تلك الايام . وكان قسم كبـــير من تلك الطريق يمر في الممتلكات السلوقية . والتقت منتجات الشرق الاقصى بمنتجات الهند وغربي الجزيرة العربية في بلاد الرافدين وانتقلت غرباً اما بطريق نصيبين والرها او بطريق دورا — اوروبس .

دورا — اوروبس (الصالحية)

كانت تحمي الطرق الرئيسية في عهد السلوقيين سلسلة من المستعمرات القوية المزدهرة التي كانت تستخدم في الوقت ذاته كأماكن مناسبة للراحة لرجال القوافل ومراحل لجمالهم . وكانت دورا — اوروبس احدى هذه المستعمرات[١] . وقد اسست حوالي العام ٣٠٠ ق. م. من قبل سلوقس الاول على الطريق الصحراوية في موضع متوسط بين عاصمتي سورية وبلاد الرافدين وسرعان ما تطورت من حصن قوي الى سوق تجارية هامة . وكانت تقع في مكان يتصف بمنعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان . وبلغت المدينة ذروتها كمركز للقوافل في عهد الفرتيين . واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات . وقد احتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦ م. بوقت قصير وهدموها واصبحت بعد ذلك جزءاً من الصحراء . ولم يعرف العلماء خرائبها التي تدعى اليوم الصالحية الى ان عثر ضابط انكليزي في ١٩٢٠ على بعض الالواح المزخرفة المهمة حين كان منشغلاً في حفر الخنادق[٢] . وقد اتضحت اهمية خرائب دورا حتى انها دعيت «بومبي الشرق» .

جرها (العقير)

كانت جرها Gerrha اهم مركز تجاري على الخليج الفارسي[٣] . وكانت تسيطر هذه المدينة العربية تقريباً على الساحل الغربي للخليج الفارسي وعلى طرق القوافل

---

١) تعني كلمة دورو Dūru الاكادية دائرة او جداراً (قارن مع دانيال ٣:١) وقـــد اضيفت «اوروبوس Europos» تقليداً لذكرى مكان ولادة سلوقس الاول في مكدونيا .

٢) انظر : Rostovtzeff, *Caravan Cities*, p. 153.

٣) يرجح انها العقير اليوم ويلفظها البدو عجير .

الكبرى في ذلك الجزء من الجزيرة العربية. وكان يتجه احد هذه الطرق جنوباً ويصل العقير باليمن بينما تتوجه الطرق الاخرى في قلب الصحراء الى تيماء ومنها الى البتراء. وكان الاتصال البحري الرئيسي بين الهند والامبراطورية السلوقية يتم ايضاً بواسطة العقير. ومعلوماتنا القليلة عن هذا المركز التجاري وتجاره تأتينا كلها من المصادر الكلاسيكية[١]. ولكنه يصعب تفسير ملاحظة بليني[٢] بان ابراج المدينة كانت مبنية من مربعات من الملح. وليس من دليل في هذه المصادر بان اهل العقير قد خضعوا للسلوقيين في اي زمن. وقد توقف انطيوخس الثالث في العقير وهو في طريق عودته من حملته في الشرق واكرمه اهلها بتقديم هدية تتألف من ٥٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠ وزنة من اللبان و٢٠٠ وزنة من زيت المر او القرفة[٣].

يبدو ان السلوقيين كانوا يتزودون بحاجاتهم الرئيسية من بضائع الجزيرة العربية بواسطة اهل العقير وخاصة حين كانت سورية الجنوبية جزءاً من دولة البطالمة. وكانت تتألف هذه البضائع من المر واللبان وغيرهما من المواد العطرية. وكان طلب اللبان كبيراً في الامبراطورية السلوقية لان اية عبادة يونانية كانت او يهودية او غيرها من العبادات السامية لا تكتمل الا به. وكان يحرق على كل مذبح في العالم الهلنستي كما كان شأنه في العالم المسيحي بعد ذلك. وكانت القرفة ايضاً من محاصيل البلاد الحارة التي لها تقدير كبير وهي في الحقيقة من منتجات الهند ولكن اليونان ظنوها من الجزيرة العربية. وكانت كمية لا بأس بها من البضائع الهندية التي تنتقل الى الاراضي السلوقية تمر بأيدي اهل العقير.

التجارة مع الغرب

كانت بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسيا المشحونة الى سورية يستهلك جزء منهـا محلياً ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب. وكانت تتبع التجارة السلوقية مع الغرب الطرق البرية والبحرية. وقد ساهمت مساهمة غير قليلة في ازدهار سورية. وكانت هذه التجارة تتألف من منتجات سورية الزراعيـة

---

١) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 3; Diodorus, Bk. III, ch. 42.

٢) انظر: Pliny, Bk. VI, ch. 32.

٣) انظر: Polybius, Bk. XIII, ch. 9.

والصناعية بالاضافة الى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة في شرقها. وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة في التجارة السورية. وقد نشطت هذه التجارة كثيراً في هذه الفترة بين الدول الهلنستية ومع البلاد المجاورة وكان السلوقيون اكثر اهتماماً بها من البطالمة. وقد زودت الحرب سوق الرقيق بالاسرى كما زودته القرصنة بضحايا الاختطاف. وقد حصل تدفق الرقيق بصورة مستمرة نحو المدن اليونانية في الغرب آتياً اليها من سورية والبلاد المجاورة وذلك خلال القرنين الثالث والثاني. وكان الاقبال على الرقيق عظيماً يشبه على الاقل الاقبال على الخدم في عصرنا الحديث. وبالاضافة الى ذلك فان عمال المناجم وعمليات البناء والاشغال العامة كانوا تقريباً كلهم من العبيد. وكانت المعابد ايضاً تملك وتتاجر في هذه البضاعة البشرية.

مستعمرات فينيقية جديدة

كانت رودس الدولة التجارية الرئيسية على الطريق البحرية لفترة من الزمن. اما ديلوس وهي جزيرة اخرى ومقر معبد كبير اقيم على شرف ابولون وكان من اكثر المنشآت الدينية شهرة في العالم القديم فقد برزت بعد سقوط كورنثوس في سنة ١٤٦ ق. م. كمركز لتجارة الترانزيت الواسعة. وكان لبيروت علاقات تجارية خاصة مع هذه الجزيرة الايجية. وبعد ان هدم تريفون Tryphon — وهو مطالب بالعرش السلوقي — مدينة بيروت في سنة ١٤٠ ق. م. استرجعت هذه قوتها كما ترينا النقود[1] وتمتعت بحيوية كافية لتأسيس مستعمرة في هذه الجزيرة الايجية. وقد كرست المستعمرة لبوسيدون وهو الاله الحامي لبيروت. وكان لها معبد ذو ملاحق واروقة معمدة لعرض الخزف الفينيقي. واحتل البيروتيون في النشاط التجاري والاجتماعي والديني في ديلوس مركزاً لا يفوقهم فيه سوى الايطاليين.

ونتج عن تشجيع النشاط التجاري والاستعماري للمدن الفينيقية في عهد السلوقيين والبطالمة تأسيس غير مستعمرة واحدة. وقد اقتفى التجار الفينيقيون طريق الاسكندر المحفوف بالاخطار عبر جدروزيا Gedrozia البعيدة. والصيداويون

١) انظر: *Catalogue of Greek Coins of Phoenicia*, p. liii; cf. Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 19.

في شكيم الذين استأذنوا اثناء الثورة المكابية لتحويل المعبد السامري على جبل جرزيم الى معبد لجوبيتر يرجح انهم من الفينيقيين المتأثرين بالهلينية[١]. وكان لصيدا مستعمرة اخرى هي مريسة Marisa[٢] في اقصى الجنوب في ايدومية. وكانت مريسة بلداً تجارياً مزدهراً في عصر البطالمة وهي من تلك المدن الايدومية التي فضل ذكورها الختان على النفي في عهد يوحنا هيركانوس.

يبدو ان دور اليهود في هذه النهضة التجارية في سورية في عهد السلوقيين لم يكن ابرز من الدور الذي لعبوه في اية فترة سابقة. ويعبر مؤرخهم والناطق باسمهم يوسيفوس (حوالي ٣٧ — ١٠٠ م.) عن ذلك بقوله: «نحن لا نسكن بلاداً ساحلية ولا نسر بالتجارة ولا في التعامل مع الآخرين الذي ينتج عنها[٣]».

المنتجات الزراعية

اصبحت سورية في العصر الهلنستي الاخير بلداً هاماً في الزراعة والبستنة. وقد بدأ التقدم في هذه الامور في عهد البطالمة في سورية المجوفة وفينيقية وفلسطين. وقد ازداد الانتاج القديم من الحبوب (الشعير والقمح) والعنب وغيره من الثمار والجوز والخضروات بواسطة تحسين الاساليب وبدافع الطلبات المتزايدة. وظهرت الآن سوق واسعة للدهون التي كانت تصنع من الازهار المحلية. وادى التعامل الناشط مع البلاد الاجنبية المجاورة الى تبادل المنتجات الزراعية وادخال نباتات جديدة.

ويعتقد ان الفاصوليا والعدس والخردل والقرع وغيرها من النباتات المصرية النموذجية قد ادخلت الى سورية الجنوبية في عهد البطالمة[٤]. ويبدو ايضاً ان شجرة

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 5.

٢) لعل معناها «مكان مرتفع» وهي مريشة الواردة في سفر يشوع ١٥: ٤٤؛ قارن مع اخبار الايام الثاني ١١: ٨؛ ١٤: ٩-١٠. تعرف بمكان تل سندحنه Tell Sandaḥannah، على بعد ميل جنوبي بيت جبرين.

٣) انظر: *Antiquities*, Bk. I, ch. 12.

٤) انظر: F. M. Heichelheim, « Roman Syria », *An Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenney Frank vol. iv, (Baltimore, 1938), p. 130; Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 1165.

الفستق وهي فارسية الاصل كما يشير اسمها[١] قد ادخلت الى سورية في هذه الفترة . ثم انتقل هذا النبات ومعه اسمه من هذه البلاد الى اللغات اليونانية واللاتينية والايطالية . ومما يدعو الى الاستغراب ان الطريق التي اتبعتها الاشجار الفارسية الاخرى مثل المشمش والخوخ والكرز كانت عكس الطريق السابقة اذ انها تظهر في ايطاليا قبل الشرق الهلنستي . ولا تذكر المصادر شيئاً في العصور الهلنستية عن البرتقال والليمون وهما من اصل فارسي ايضاً، ولا عن الموز (والكلمة مأخوذة من الفارسية) وهو من اصل هندي ماليزي . ومع ان القطن قد عرف منذ اقدم الازمان في مصر والهند وادخل الى بلاد اشور حوالي ٧٠٠ ق. م. فانه لم يزرع في سورية السلوقية على مقياس كبير بل كان بالاحرى من الاشياء الطريفة . وكانوا ينتجون الحرير المحلي من دود الحرير البري في غربي آسيا ولكن الحرير الصيني الحقيقي استورد بعد سنة ١١٥ ق. م. واستورد السكر والارز من الهند . ويشير بليني[٢] اشارة عابرة الى محاولة فاشلة قام بها سلوقس (الاول ؟) لتوطين حب الهال الهندي amomum [٣] والناردين «تلك العطور الناعمة» . ويتكلم بليني في نفس المناسبة عن شجيرة القرفة بانها ليست لها قوة كافية لان تستوطن بجوار سورية .

الصناعة

اصبحت صناعة الخمر والزيت في عهد البطالمة اكثر نشاطاً . وكان هذان المحصولان بالاضافة الى الزيتون والخبز والسمك يشكلان جزءاً اساسياً من غذاء السكان . ولم تكن صناعة الاخشاب في الزمن الهلنستي اقل ازدهاراً منها في ايام الفراعنة . وكانت مصر الخالية من الاشجار تعتمد على ارز لبنان الذي كان تابعاً للملك وعلى بلوط باشان . وكان استثمار غابات سورية ولبنان من امتيازات الملوك

---

١) هي pistah بالفارسية وتعني الجوزة .

٢) انظر : Pliny, Bk. XVI, ch. 59.

٣) ان اسم هذه الشجيرة ذات الرائحة الذكية التي استحضر منها اليونان والرومان بلسماً ثميناً حسن الرائحة هو من اصل هندي وقد اتى بطريق اللغة العربية الجنوبية . ويطلق الاسم اليوم على حب الهال والزنجبيل .

في عهد السلوقيين كما كان الامر في عهد الفرس والاشوريين والفينيقيين[١]. وكان بحر الجليل يقدم الشجيرات الذكية الرائحة[٢] وكانت اريحا تحتكر تجارة البلسم[٣].

حافظت صناعة المنسوجات التي ترجع الى ايام الفينيقيين وما قبل ذلك على تفوقها واستمر اصحاب المصانع السوريون يستخدمون نفس البراعة والاساليب الفنية ولكنهم نوعوا النماذج الفنية لتتفق مع اذواق مختلف الزبائن. وكانت صناعة الصوف السورية واسعة بشكل خاص. وبقي الطلب كبيراً على الاقمشة الارجوانية اللون وكانت الاقمشة الصوفية المستوردة الى منغوليا في اوائل العصر المسيحي تشير الى تقاليد سورية هلنستية[٤].

حافظت سورية على شهرتها القديمة في صناعة الخزف والزجاج وهما من اختصاص الشرق الادنى منذ ابعد العصور. وسرعان ما قلد السوريون الخزف اليوناني الذي غمر سوق الشرق الادنى اثر فتوحات الاسكندر وصنعوه في بلادهم. وكان الخزف الشائع بصورة خاصة في البدء هو الخزف الاسود ذو البريق المعدني ثم حل مكانه بعد ذلك نوع من الخزف الاحمر ذو بريق معدني جميل وقد ادخل في القرن الثاني. وتنتثر قطع من الجرار المهورة من صنع اتيكا وردوس في طول البلاد وعرضها. وكان زجاج صيدا وصور غالي الثمن ومرغوباً فيه جداً. واستمرت هاتان المدينتان تزودان العالم باحسن الزجاج حتى الفترة الرومانية[٥]. وكان يوجد رمل ممتاز لصناعة الزجاج بالقرب من صيدا. وقد صنعت هاتان المدينتان وغيرهما من المدن الفينيقية أواني من الزجاج المصبوب وصدرتها قبل ان تخترع الزجاج بطريق النفخ. ولا بد ان هذا الاختراع الذي يعتبر فاتحة عهد جديد قــد حصل في آواخر القرن الاول ق. م[٦].

---

١) كان الملوك في عهد الرومان ومن المحتمل في عهد الفينيقيين يحتكرون شجر السرو والصنوبر والشوح والسرعر.

٢) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 16; Polybius, Bk. V, ch. 45, § 10.

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 4, § 2; Strabo, Bk. XVI. ch. 2, § 41.

٤) انظر: Rostovtzeff, p. 1223.

٥) راجع: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 25; Pliny, Bk. V, ch. 17.

٦) انظر: Rostovtzeff. *Social and Economic History*, p. 689.

محل الرق Parchment وملفات البابيروس (ورق البردي) محل الالواح الطينية كمادة للكتابة في العصر الهلنستي. واحتكرت برغامم الرق منذ القرن الثاني وكلمة الرق نفسها معناها بالافرنجية ما يخص برغامم. وقد زودت الاسكندرية العالم بالبابيروس. وادخلت هذه المادة من مصر الى سورية وفلسطين وهنالك اشارات متفرقة الى نمو البابيروس فيها[١]. ويرجح ان طريقة صنع البابيروس تتضمن نزع قشرة النبات ثم قطع الساق طولانياً الى قطع مستطيلة رقيقة وتوضع بصورة عامودية على لوح خشبي ثم توضع فوقها بشكل متقاطع مجموعة اخرى من القطع المستطيلة وتنقع كلها بعد ذلك بالماء وربما تضاف اليها مادة غروية وتجفف في الشمس. ويمكن استعمال الصفحات مفردة او تلصق لتشكل ملفات[٢]. ومن فينيقية ادخلت هذه المادة الى اليونان حيث شاع استعمالها في القرن السادس.

خطا فن صناعة المعدن خطوات كبيرة الى الامام في هذ العصر. وكان انطيوخس ايبفانس غالباً ما يتهرب من حاشيته ليزور اماكن صائغي الفضة والذهب وليتحدث في الامور الفنية مع السباكين وغيرهم من الصناع[٣]. وكانت تأتي الفضة وكذلك الذهب من بلاد العرب النبطية كما ان الفضة كانت تأتي من جبال طوروس. وكان يأتي الحديد من جبال طوروس ومن جنوبي فلسطين وخاصة ايدومية ومن لبنان في المنطقة المجاورة لبيروت[٤]. ومما لا شك فيه ان هذا المعدن كان لاغراض اقتصادية اغلى المعادن قيمة. ويمكن ان يكون البطالمة قد استثمروا ايضاً النحاس والحديد ومناجم اخرى في سلسلة لبنان. واستمر الاستثمار حتى زمن الرومان[٥]. واصبح اللؤلؤ الذي كان مجهولاً في الغرب قبل عهد الاسكندر ذا قيمة كبرى لاجل الزينة.

---

١) انظر: Pliny, Bk. XIII, ch. 22.

٢) ان الكلمة السامية القديمة لملف قد بقيت في كلمة «مجلة» العربية التي تستخدم اليوم للمجلات. وترجع كلمة « Papyrus » ومنها اشتقت كلمة « Paper » الى كلمة مصرية تتعلق بفرعون « Pharaoh » ويبدو ان الفراعنة احتكروا هذه البضاعة.

٣) انظر: Polybius, Bk. XXVI, ch. 1.

٤) قارن ذلك مع ما سبق في ص ٣٦.

٥) راجع: Heichelheim, pp. 156-157.

النقد

شُجع ضرب النقود في جميع الممالك الهلنستية كعامل في تطور التجارة . وحل النقد بالتدريج كواسطة للتعامل مكان المقايضة التي كانت الاسلوب المتبع لمـــدة طويلة . واتت مع النقود الاوزان الملكية الصادرة في انطاكية وسلوقية . وسمح بمختلف الاوزان والمقاييس في المقاطعات المختلفة وحتى في المدن ضمن نفس المملكة .

مظاهر الترف

تمتعت سورية السلوقية بفترة ازدهار نسبي بعد ان ازدادت التجارة واستخدمت فيها النقود والاوزان الرسمية وتحسنت الزراعة وتطورت . وقد حفظ التاريخ اخباراً تعطي فكرة عن مقدار الثروات التي جمعها وجهاء العصر ، من ذلك ان هرمياس رئيس وزراء انطيوخس الكبير استطاع حوالي العام ٢٠٠ ق. م. ان يدفع مرتبات الجيش الملكي كله من امواله الخاصة[١]. وهناك مثـــال آخر عن ديونيسيوس «صديق او مساعد» انطيوخس ابيفانس اذ يروى لنا انه كان لديه في الاحتفال بالالعاب في دفنة الف عبد يسيرون في الموكب ويحملون اواني فضية لا يقل وزن كل منها عن الف دراخمة . ثم تلاهم ٦٠٠ وصيف ملكي يحملون اواني ذهبية و ٢٠٠ امرأة ترش الزيوت العطرية من اباريق ذهبية . وتعقب هؤلاء في الموكب ٨٠ امرأة جالسات في محفات ذوات مساند ذهبية و ٥٠٠ امرأة في محفات ذوات مساند فضية[٢]. وقد رغب ابيفانس نفسه ان يتفوق على الانتصارات الرومانية فاحتفل بالعاب دفنة وعرض فيها اواني ذهبية وفضية بشكل يفوق الوصف . وسار في العرض ٣٠٠٠ كيليكي يلبسون تيجاناً ذهبية و ١٠،٠٠٠ مكدوني يحملون تروساً ذهبية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً برونزية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً فضية . وكانت اكثرية الجنود المواطنين البالغين ٣٠٠٠ يضعون اغطية ذهبية على خدودهم ويلبسون تيجاناً ذهبية وكان الباقين اغطية فضية على خدودهم[٣].

---

١) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 50, § 2.

٢) انظر : Atheuaeus, Bk. V, ch. 195.

٣) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 194.

السكان

لا بد ان مستوى المعيشة كان عالياً جداً في كل البلاد في اوائل القرن الاول اعتماداً على شهادة بوسيدونيوس حيث يقول : «كان جميع سكان سورية آمنين من اي ضيق يتعلق بضرورات الحياة بسبب الوفرة الكبيرة التي تقدمها بلادهم[١]». وبسبب ارتفاع مستوى المعيشة يحسن بنا ان نفترض زيادة في السكان يعود جزء منها الى اسكان الجاليات في عهد مؤسس السلالة وخلفائه الاولين. واستمر الاتجاه نحو التزايد حتى الفترة الرومانية. ويقول سترابو[٢] (حوالي ٦٣ ق. م. — حوالي ٢٤ م.) ان انطاكية «لا تقل كثيراً في الغنى والعظمة عن سلوقية على الدجلة والاسكندرية في مصر». ويروى ان سكان سلوقية قد بلغوا ٦٠٠،٠٠٠[٣] في زمن بليني اي بعد زمن سترابو بقليل. وكان سكان الاسكندرية يبلغون نفس المقدار تقريباً في عهد اوغسطس قيصر. وفي العهد الروماني الذي سبق الامبراطورية قدر عدد سكان سورية بين خمسة وستة ملايين يعيش مليونان منهم في فلسطين[٤].

---

١) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch: 210.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 5.

٣) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 30.

٤) انظر : Julius Beloch, *Die Bevolkerung der griechish-romishen Welt* (Leipzig, 1886), pp. 242 *seq.*

الفصل الحادي والعشرون

سورية كولاية رومانية: فترة ما قبل الأمبراطورية

٣٠٨

ان تقدم الجيوش الرومانية في غربي آسيا الذي بـدأ في معركة مغنيزيا سنة ١٩٠ ق. م. اخذ يتزايد حتى فتح بومبي سورية سنة ٦٤ ق. م. وكانت سورية لدى ضمها في حالة من الفوضى اوجدها فيها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر. وكان زعماء العرب يسيطرون على المدن في الشمال. وقد اعتدى الانباط واليهود على الممتلكات الهلنستية في الجنوب. واحتل زعماء اللصوص كثيراً من المدن الساحلية الفينيقية وجعلوا منها قواعد للقرصنة. وساعد لبنان الجبلي على تهيئة الاحوال الجغرافية اللازمة لحمايتهم كما فعلت كيليكية قلعة القرصنة في شرقي المتوسط. وبنى القراصنة في المتسعات البعيدة الوعرة في كيليكية حصوناً صخرية لاخفاء عائلاتهم وكنوزهم ضماناً لسلامتهم ولتكون ملاجئ لهم في اوقـات الخطر[1]. وما دامت التجارة مع بلاد الرافدين والبلدان الابعد في الشرق اكثر ربحاً فان الاغراء على امتهان القرصنة واللصوصية لم يكن قويا جداً ولكن الوضع تغير الآن بعد ان سادت الفوضى السلوقية واختل نظام التجارة في البلاد الواقعة وراء الساحل بسبب فتوحات الارمن والفرتيين المتتالية. وفي الحقيقة فان احد ملوك السلوقيين ويدعى تريفون (١٤٢ — ١٣٧ ق. م.) وهو عبد في الاصل شجع القرصنة فعلاً في كيليكية واستخدمها كوسيلة لتدعيم قبضته على العرش[2].

كان القراصنة لصوص الطرق البحرية العامة وكانت هذه الطرق في شرقي المتوسط واضحة الحدود وكثيرة الاستعمال. وقبل قدوم بومبي نظم القراصنة انفسهم في

---

١) انظر: Theodor Mommsen, *History of Rome*, tr. William P. Dickson (New York, 1894), vol. iv, pp. 58, 143.

٢) انظر: Mommsen, vol. iii, p. 87; vol. iv, p. 59.

قوة بحرية دولية ضمت في عملياتها حوض المتوسط الشرقي كله فسببت بذلك نقصاً في المؤن الذاهبة الى رومة التي كانت تعتمد على التجارة البحرية لتتزود بالحبوب. ومع ان بومبي كما يظن قد أباد القراصنة من تلك المنطقة كلهـــا قبل ضم سورية[١] فان بعضهم ظلوا ناشطين هناك حتى في ايام خلفه[٢].

ادخل بومبي سنة ٦٤ ق. م. سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد وهو ولاية سورية Provincia Syria. وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية واصبحت عاصمتها انطاكية بينما جعلت كيليكية ولاية قائمة بذاتها. وسمح للملوك العرب بالبقاء على ان تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الاصلية وان يدفعوا جزية سنوية. ومع ذلك احتفظ ملك الانباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال. وابقيت اليهودية دولة خاضعة ضمن اطار ولاية سورية[٣] ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية والتي ضمها اليهود الى ممتلكاتهم اعيدت الى وضعها السابق ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات. وشكلت عشر من هذه المدن عصبة عرفت بالديكابوليس وقد انضمت اليها مدن اخرى فيما بعد. وجميعها تقع شرقي الاردن باستثناء سكيثوبوليس Scythopolis (بيسان). ومنحت انطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات اخرى الحكم الذاتي ايضاً وجعلت تحت حكام الولايات.

نواب القناصل

اعتبرت ولاية سورية ذات اهمية مركزية هامة في الممتلكات الاسيوية حتى انها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراك في الحرب[٤]. وعهد بها الى بعض الموظفين الرومان البارزين جداً. وكان اولهم اولوس غابينيوس Aulus Gabinius (٥٧—٥٥ ق. م.) مبعوث بومبي الكفؤ الذي زاد في انقاص سلطة المملكة اليهودية بتجريد الكاهن الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريسطوبولس من رتبته الملكية وبفرض ضرائب ثقيلة على السكان

١) انظر: Mommsen, vol. iv, pp. 142-146.

٢) انظر: Dio (Cassius), *Historia Romana*, Bk. XXXIX, ch. 56.

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4, § 4.

٤) انظر: Appian, § 51.

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلًا منها مجلس او سنهدرين Sanhedrin. واعاد غابينيوس بناء عدد من المدن اليونانية ـ السورية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان ودورا وغزة[١].

حل كراسوس مكان غابينيوس وكان عضواً في حكومة الثلاثة التي ضمت ايضاً بومبي ويوليوس قيصر. وكان كراسوس طماعاً شرهاً فجعل من سورية بعد وصوله مباشرة في ٥٤ ق.م. قاعدة لعملياته الحربية ضد فرتيا التي كانت عاصمتها طسيفون Ctesiphon (المدائن) والتي اعتبر غناها بأنه لا ينفذ. وبعد اخضاع البونت وارمينيا على التوالي والحصول على سورية اتصلت رومة مباشرة بفرتيا. وفي الحملة الثانية التي جردها كراسوس في ربيع عام ٥٣ خانه حليفه العربي ابجر[٢] ملك اديسا وتمزق جيشه في الصحراء السورية على بعد ثلاثين ميلًا من (حران) Carrhae وقتل. وقطع رأسه ويده اليمنى وارسلا ملك الى الفرتيين في سلوقية على الدجلة الذي يقال انه صب ذهباً مصهوراً في حلق الرجل الميت وقال «اشبع نفسك بما كنت تطمع فيه كثيراً في حياتك[٣]».

خلف كراسوس خازنه القدير كاشيوس وهو احد قتلة قيصر فيما بعد. وقد ادرك كاشيوس ان الهزيمة الساحقة جنوبي حران قد عرضت سورية كلها للخطر لذلك اسرع بالاستعداد للهجوم القادم الذي لم يحصل حتى سنة ٥١. وقد تمركز نائب القنصل في انطاكية على رأس فرقتين وكان على استعداد لابداء مقاومة عنيدة. وشعر الفرتيون بان الحصار سيطول فتراجعوا على طول نهر العاصي وانسحبوا اخيراً من سورية كلها[٤]. ومهما يكن فانه كان من اثر هذا الهجوم ان انعش عدداً من الملوك المحليين الذين كان يميل كثير منهم الى الفرتيين.

ادت الحروب الاهلية في رومة والحالة المضطربة في الدولة الرومانية كلها الى

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3.

٢) تذكره المصادر اللاتينية باسم «ابجاروس Abgarus». ويذكره بلوطرخس باسم «اريامنس Ariamnes» في الفصل ٢١ من ترجمة «كراسوس Crassus» في مجموعة التراجم.

٣) قارن مع: Plutarch, «Crassus», ch. 33; Dio, Bk. XL, ch. 27.

٤) انظر: Dio, Bk. XL, ch. 29.

اضطراب الحالة من جديد في سورية. وحدث اثناء زحف قيصر ضد ابن مثرادتس الكبير الذي استغل الحروب بين بومبي وقيصر فنصّب نفسه من جديد على البونت ان توقف في زحفه في سورية (٤٧ ق. م.) ومنح الامتيازات لعدد من مدنها. واثناء تقسيم العالم الروماني من قبل «الحكومة الثلاثية» الثانية التي كان اوكتافيان (اوغسطس فيما بعد) عضواً فيها اعطي مارك انطونيو الشرق بما فيه سورية ومصر. ولم يأت حكمه الذي دام اربع سنوات (٤٠ — ٣٦ ق. م.) بالهدوء ولا بالسلم. وعاش حياة ماجنة مع كليوباترة واهمل شؤون الدولة. وقد ادت الغزوة الفرتية الكبرى من ٤٠—٣٨ ق. م. الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صور[١]. ولم يستتب النظام الا بصعوبة وبعد مدة. وتمادى انطونيو حتى انه منح جزءاً كبيراً من فينيقية وسورية المجوفة الى عشيقته المصرية وبايع ابنه منها ويدعى بطليموس بلقب ملك سورية. وكان يسري في الطفل دم سلوقي بسبب التزاوج بين سلالتي مصر وسورية. وبعد معركة اكتيوم البحرية المشهورة في ٣١ ق. م. التي قهر اوكتافيان فيها انطونيو وكليوباترة مرّ اوكتافيان الامبراطور الروماني المقبل بفلسطين وسورية ورحب به اهلها الذين تاقوا الى حكومة مستقرة. وجعل هذا النصر من اوكتافيان الحاكم الوحيد في العالم الروماني. وبعد اربع سنوات تلقى من مجلس الشيوخ لقب اوغسطس (المعبود، الموقر) وبدأ حكمه كامبراطور. وافتتح فصل جديد في تاريخ العالم.

في ايام هيرودس الملك

عندما عهد الى انطونيو بشؤون الشرق اهمل الاسرة المكابية ووضع مكانها الاسرة الهيرودية. وكان مؤسس هذه الاسرة سياسياً ايدوميا ماهراً وهو يهودي بالاسم وقد منح الرعوية الرومانية وعينه يوليوس قيصر نائباً (وكيلاً مالياً عندما زار سورية)[٢]. واصبح انتيباتر Antipater السلطة الحقيقية وراء هيركانوس الضعيف. واتخذ هيرودس ابن انتيباتر زوجة ثانية له وهي حفيدة هيركانوس الثاني وهكذا وحّد

---

١) انظر: Bouchier, p. 29.

٢) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 8, §§ 3, 5.

العائلتين[١]. وفي عام ٣٧ ق. م. اخذ هيرودس هذا، الذي عرف فيا بعد بالكبير، اورشليم ووطد سلطته كملك وبقي يدير الامور لمدة ثلاث وثلاثين سنة بفضل رومة.

شجع هيرودس المصالح الرومانية على حساب المصالح القومية. وقد نجح حيث اخفق انطيوخس ابيفانس في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستية. وبدأ في مشروع إنشاء ابنية عامة بدّل وجه البلاد تبديلاً تاماً. وقد بنى في اورشليم ميداناً لسباق الخيل ومسرحاً ومدرجاً واقام العاباً عامة وكانت كلها لا تتفق مع اليهودية. وزيادة على ذلك اعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقره المحبب فزينها بالابنية واعاد تسميتها باسم سباسطية Sebaste[٢] تكريماً لاوغسطس قيصر. وقد نقّب العلماء في بقايا ابنيته[٣]. وليزيد في سرور الامبراطور سيده اعاد بناء برج ستراتون Turris Stratonis على الساحل وسماه قيصرية[٤] التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية. وعاش في بلاطه نيقولاوس الدمشقي الذي فاق بوسيدونيوس كفيلسوف ومؤرخ. وقد ألف نيقولاوس، الذي عرف اوغسطس شخصياً، تاريخاً عاماً ونقل يوسيفوس عنه مادة القسم المتعلق بهيرودس[٥].

تزوج هيرودس عشر نساء وذبح بعضهن مع بعض افراد اسرته وسحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق. وتوفي عام ٤ ق. م. بعد نحو سنتين من ميلاد المسيح، الذي اقترح العلماء انه وقع حوالي (٦ — ٢ ق. م.). وقد وهب مملكته في وصيته المعدلة الى ابنه ارخيلاوس Archelaus[٦] الذي تنافس مع اخيه هيرودس انتيباس على العرش واستلم جزءاً كبيراً من المملكة ولكن اعطي لقب حاكم Ethnarch

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 6, § 4.

٢) كلمة «سباستوس Sebastos» اليونانية تعني «اوغسطس Augustus» في اللاتينية.

٣) اكتشفت خرائب قصره في اوبعا في ١٩٠٠—١٩٥١ وهي اعظم خرائب من نوعها في فلسطين.

٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 9, § 6; Pliny Bk. V, ch. 14; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 27. يمكن ان يكون ستراتون الذي سمي البرج باسمه ملك صيدا حين فتحها الاسكندر.

٥) نشرت اجزاء من مؤلفات نيقولاوس من قبل: Ludwig Dindorf, *Historici Graeci minores*, vol. i, (Leipzig, 1870), pp. 1-153.

٦) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 8, § 1.

فقط[١]. واصبح هيرودس انتيباس حاكم منطقة الجليل[٢]. وهو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر[٣]. وكان هيرودس انتيباس كأبيه وغيره من افراد سلالته ذا وجهين : فهو يهودي في وطنه وهلنستي خارجه. وحين خلع ارخيلاوس (٦ م.) وضعت اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او النواب الرومان الذين كان خامسهم بيلاطس البنطي.

الهلينية الرومانية

دامت الهلينية ذات الصبغة الرومانية التي ظهرت في ٦٤ ق. م. حتى سنة ٣٣٠ م. حين نقل قسطنطين الكبير عاصمته من رومة الى بيزنطة مفتتحاً بذلك فترة جديدة في تاريخ بلدان المتوسط. ويجب ان نذكر ان الحضارة الرومانية ذاتها كانت وارثة للحضارة اليونانية القديمة ومنتفعة بها بالاضافة الى كونها استمراراً لها. وفي الحقيقة فان الرومان بصفتهم من الهنود الاوروبيين كانوا الوحيدين من بين شعوب المتوسط الذين برهنوا عن مقدرة في قبول اكثر من المظهر الخارجي لحضارة اقربائهم اليونان[٤]. اما بالنسبة لاكثرية السكان الساميين والحاميين في آسية الغربية وشمال افريقية فقد بقيت تلك الحضارة كأنها مفروضة عليهم من الاجانب.

عندما اتى القرن الاول ق. م. كان قد حصل انسجام بين الحضارتين اللاتينية واليونانية. وتمت تسوية لصالح اللغة اليونانية التي بقيت لغة التعامل في الشرق كما كانت قبلاً ولكن اللاتينية اصبحت اللغة الرسمية في الادارة. وكان اليونان ضعفاء في الجانب السياسي والتنظيمي على عكس الرومان الذين كانوا اقوياء فيه. اما في المجالات الفنية والفلسفية حيث كان اليونان اقوياء فكان الرومان ضعفاء. وهكذا تابعت الهلينية تقدمها في سورية بعد ان تقوت وزادت غنى في ظل الرومان. وبفضل الحماية الرومانية بقيت في مأمن من الخطر «البربري». وتابعت الحياة في المدينة اليونانية

---

١) معناه «حاكم شعب»؛ انظر : Josephus, Bk. XVII, ch. 11, § 4.

٢) انظر انجيل لوقا ٣ : ١.

٣) انظر : Josephus, Bk. XVIII, ch. 2, § 3.

٤) انظر : M. Cary and T. J. Haarhoff, *Life and Thought in the Greek and Roman World* (London, 1940), p. vi.

السورية باشكالها السياسية المميزة وتعاقب احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكري سيرها كما كانت قبلاً . وكانت تلك السلالات المحلية التي سمح لها الرومان الاقوياء بالبقاء وهي سلالة هيرودس في اليهودية والحارث Aretas في البتراء واذينة Odenathus في تدمر قد اصطبغت جميعها بصبغة يونانية .

لم تتحمل الجماعات المحلية في ظل نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة في ممارسة استقلالها الذاتي . فقد احتفظت بدياناتها ولغتها وعاداتها الخاصة . واخـذ الرومان على عاتقهم مسؤولية حمايتها . وكان هذا يتم بواسطة الجيوش الايطالية . وكانت تؤخذ الجزية من السكان الوطنيين بدلاً عن الخدمة العسكرية . وكان الحكام الرومان الذين يمارسون اشرافاً عاماً على الشؤون الداخلية يعيّنون عادة لفـترة قصيرة ولا يتقاضون من الدولة راتباً ، هذا اذا استثنينا ما كانوا يستطيعون جبايته باساليب مريبة وبتلزيم الضرائب .

الفصل الثاني والعشرون

اوائل الامبراطورية الرومانية

حكومة الولايات

عندما اصبحت رومة دولة عالمية انتقل مركز التاريخ السياسي لاول مرة من آسيا الى اوروبا حيث بقي فيها منذ ذلك الحين باستثناء فترة الخلافة. ولم يكن لدى رومة الامبراطورية سوى نموذج واحد تستطيع ان تتبعه في ادارتها للولايات الاسيوية الغربية وهو النموذج السلوقي. ولذلك كان من الطبيعي ان يتبع الاباطرة الرومان نفس المبادئ العامة وان يحتفظوا بنفس نوع الحكم الذي كان سائداً في عهد الملوك الهلنستيين الذين كانوا قبلهم.

وبسبب موقع سورية كولاية على الحـــدود تتاخم الدولة الفرتية وهي الدولة المنافسة الخطرة الوحيدة لرومة وعدوتها المخيفة فقد جعلت ولاية امبراطورية وكان الامبراطور نفسه نائب قنصل لها. ولهذا عهد بها الى نائب[1] (Legate) له رتبة قنصلية دائماً وتتراوح مدة وظيفته بين ثلاث وخمس سنوات. وكان منصب الحكم فيها الى جانب منصب حكم بلاد الغال اشرف المناصب التي يمكن ان تمنحهـــا الامبراطورية واكثرها قيمة[2]. وكانت سورية في الشرق كبلاد الغال في الغرب مقراً مركزياً للسلطة العسكرية. وكان يساعد الحاكم هيئة كافية من اهم افرادها الموظفون الذين كانوا يهتمون بجمع واردات الدولة. وكانت الجباية تتم اما مباشرة او بواسطة تلزيم الضرائب. وكان يوجد تحت امرة النائب او الحاكم قوة عسكرية كبرى تتألف من اربع فرق وكانت كلها تقريباً في اوائل الامبراطورية من الجيوش

---

١) قارن مع انجيل لوقا ٢: ٢ ؛ Victor Chappot, *La Frontière de l'Euphrate* (Paris, 1908) pp. 20 *seq.*

٢) راجع بشأن لائحة الحكام: Gustave A. Harrer, *Studies in the History of the Roman Province of Syrgia* (Princeton, 1915), pp. 11-65.

الايطالية. وكان حاكم سورية مسؤولاً عن سلامة الممتلكات الرومانية في آسية الغربية كلها. ومن اقدم الولاة كيرينيوس Quirinius[١] الذي عينه اوغسطس وقام باحصاء اليهود. وكان بيلاطس البنطي في الحقيقة موظفاً مالياً في اليهودية بين (٢٤—٣٧م) ولكن طيبريوس[٢] كلفه بادارة جميع شؤونها تحت اشراف حكام سورية وقد طرده احدهم ويسمى فيتيليوس Vitellius لسوء معاملته للسامريين[٣].

الحكومة المحلية

عاشت الجماعات المحلية تحت حكومات مختلفة فاحتفظت المستعمرات المكدونية اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس للشيوخ ومجلس شعبي. وبقيت دولة المدينة اليونانية القديمة نموذج التنظيم الاداري. وكذلك احتفظت دول المدن الفينيقية بحكوماتها التقليدية التي تسودها اقلية غنية وقد اصطبغت الان بالصبغة

---

١) يذكر في لوقا ٢: ٢ باسم كيرينوس. ولعل من Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 1, § 1; Bk. XVII, ch. 5, §2. ان كيرينيوس عين حاكماً على سورية حوالي عام ٦ م. اما الرجل الذي ولد المسيح اثناء حكمه فهو كوينتيليوس فاروس Quintilius Varus الذي عين في ٦ ق. م. وكان سلفه هو سنتيوس ساتورنينوس Sentius Saturninus (٩ — ٦ ق. م.). راجع للاستزادة عن كيرينيوس: Tacitus, *Annales*, Bk. III, ch. 22; Suetonius, *Vitae Duodecim Caesarum*, Bk. III, ch. 49.

٢) نسب السلالة اليوليانية — الكلودية:

١ — اوغسطس (الابن المتبنى ليوليوس قيصر) (٢٧ ق. م. — ١٤ م.)
⋮
٢ — طيبريوس (١٤ — ٣٧ م.)
├── جرمانيكوس
│ └── ٣ — غايوس (كاليغولا ، من احفاد اوغسطس بواسطة ابنته جوليا) ٣٧ — ٤١
│   ⋮
│   ٥ — نيرون (٥٤ — ٦٨)
└── ٤ — كلوديوس (٤١ — ٥٤)

ملاحظة : يشير الخط المنقط الى علاقة تبني.

٣) انظر لوقا ٣: ١؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 4, §§. 1, 2; ch. 6, § 5; *War*, Bk. II, ch. 9, § 2; Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

اليونانية . اما الجماعات الآرامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كالسابق . وعاش العرب في ظل غير نظام واحد . ففي حمص Emesa كان الحكم بيد الملوك الكهنة وفي عنجر Chalcis الى الجنوب في سورية الجوفة كان يحكم ايضاً حاكم وطني . واستمرت هاتان الاسرتان من الامراء في الحكم حتى اواخر القرن الاول الميلادي . وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي او شبه البدوي لا يزال سائداً كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية واتبع النظام القبلي في الادارة . وفي اليهودية حيث لم يعد الكاهن الاعظم ملكاً اصبح رئيس طائفة وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعيّنه . واظهرت رومة طيلة حكمها شيئاً كثيراً من التسامح تجاه مثل هذا التنوع .

كان وراء هذا التنوع في التنظيم والسيطرة شيء من التشابه العرقي والحضاري يفوق كل ما كان في السابق . فجميع السوريين قد اصبحوا الآن ساميين تماماً يتكلمون لغة واحدة هي الآرامية ويكتب مثقفوهم بلغة واحدة هي اليونانية . فالفينيقيون الذين تأثروا بالهلينية اكثر من جيرانهم وانسبائهم الاراميين في الداخل فقدوا سيطرتهم في القرن الاول الميلادي على لغتهم الاصلية التي بقيت شائعة حتى زمن متأخر في مستعمراتهم في افريقيا . اما اليهود الذين لم تقتصر اقامتهم في هذه الفترة على اليهودية بل كانت لهم جاليات في جميع المدن السورية الكبرى فقد احتفظوا بالعبرية كلغة مقدسة . ومن بين العرب كان الايتوريون الاقوياء في شمالي فلسطين والايدوميون الذين تهودوا اسمياً واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين يتجهون نحو تبني الآرامية . اما العرب الذين ظلوا بداة فانهم تمسكوا دون شك بلغتهم العربية . واستمر الانباط في الجنوب الذين كانت لهم من بين جميع العرب اوثق الصلات مع الزومان في استعمال العربية في كلامهم ولكنهم استخدموا الآرامية في كتاباتهم الاثرية[1] . وعلى وجه العموم فان هذه الصورة كانت تظهر تبايناً كبيراً بالنسبة للفوضى العرقية والحضارية اثناء عصر العمارنة مثلاً .

وانتشر العنصر المكدوني اليوناني في جميع المدن السورية وكان اكثف ما يكون في المستعمرات السلوقية مثل انطاكية وسلوقية وأفامية ولاوديسة وفي

١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

مراكز التجارة كالمدن الفينيقية والفلسطينية الساحلية ودمشق وتدمر في الداخل . وكان هؤلاء المقيمون ينحدرون من المحاربين القدماء والتجار والصناع والمغامرين من المكدونيين واليونان الذين اتوا ليعيشوا في الشرق لاسباب سياسية او غيرها. ولم يؤسس الرومان سوى مستعمرات قليلة. فكانت لهم جالية من المحاربين القدماء في بيروت في عهد اوغسطس واخرى في بعلبك واصبحت كلتاهما مركزين نشيطين للحضارة الرومانية[١]. وكان عدد الذين يتكلمون اليونانية بين هذه الجاليات اكبر من عدد الذين يتكلمون اللاتينية ، وكان كثيرون من هؤلاء يعرفون اليونانية من قبـــل ويمكنهم الاتصال بالسكان الوطنين وبالجاليات الاخرى بواسطة هذه اللغة . وفوق ذلك فان الرومان كانوا بعكس اليونان مترفعـــين ولم يهتموا بحضارة السكان الذين يحكمونهم . وكان هدف الرومان الرئيسي في سورية ان يجعلوها قاعدة ضد العدو وان يستثمروا مواردها . ولم يظهر السوريون سوى اهتمام قليل في الحملات الرومانية العسكرية الا حين كانت سلامتهم تهدد .

فضل الرومان

لم يكن عمل الادارة الرومانية في ولاية كسورية ذات حضارة راقية كالحضارة الرومانية، وان اختلفت عنها في صفاتها، ناجحاً او مزدهراً النجاح والازدهار اللذين بلغهما في الولايات الاخرى شبه المتحضرة مثل اسبانيا او بلاد الغال . فالجاليات اليونانية والمدن الفينيقية واليهودية في سورية لما لهـــا من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية ولما فيها من مدارس في الفن والفلسفة والادب ــ لم تجد مـــا تستعيره من رومة الا القليل . وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لها كتاباً مغلقاً[٢]. ولكن الامر يختلف بالنسبة للعرب والعرب الآراميين اذ اقيمت بينهم في شرقي لبنان الشرقي وفي القسم المأهول من شرقي الاردن مستعمرات رومانية بدأت كل واحدة منها بنواة من المقيمين الايطاليين ثم تجمع حولهم آخرون واصبحوا جماعات خاصة . وامكن القيام بذلك بعد ان ضم تراجان سنة ١٠٦ م. شرقي الاردن وحوران التي كانت قبلاً تحت حكم الانباط ثم جعلها اوغسطس تحت حكم هيرودس.

---

١) انظر ما سنذكره في الفصل ٢٣ .

٢) انظر : Bouchier, p. 5.

وفي سنة ١٠٥ اخضع تراجان البــتراء فالحقت البتراء العربية Arabia Petraea بالامبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية Provincia Arabia. ولما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى فان الادارة الرومانية انشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء لحماية الاماكن التي كانت راقيــة الحضارة وكثيرة السكان بصورة خاصة. وكان جنود هذه الحصون على الغالب من قوات مساعدة اتت من القبائل الموالية. وكان الطريق العرضاني بين الشرق والغرب الذي يصل مدن الدجلة والفرات بمدن البحر المتوسط ماراً بتدمر يجتاز هذه المنطقة. وكان يعبرها طريق طولاني كبير دعاه الرومان طريق ماريس Via Maris وورد في التوراة باسم طريق الملك King's Highway [1]. ويبدأ هذا الطريق من دمشق فيمر في حوران الى جلعاد ومنها الى مؤآب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق قوافل الجزيرة العربية. وهذا الطريق الرئيسي في شرقي الاردن الذي يعود الى آواخر الالف الثاني ق. م. قد رصفه تراجان واستخدم كطريق عسكرية لفرق الجيش ثم استعمله الحجاج المسلمون بعد ذلك[2]. وقد شجعت التسهيلات الجديدة ميلاً نحو حياة الاستقرار لدى الجماعات البدوية او نصف المتحضرة. وكان التحضر نقطة اساسية في السياسة الرومانية. ويمكن القول بايجاز ان الخدمة الرئيسية التي ادتها الادارة الرومانية للولاية السورية هي انقاذها من الاضطرابات الاهلية وحمايتها ضد الاعداء الخارجيين. كذلك فتحت امامها بهذه المناسبة سوقاً عالمية.

سورية في ذروتها

ان استعادة سورية لقوتها في القرن الاول من الحكم الامبراطوري (حوالي ٣٠ ق. م — ٧٠ م.) بعد الانحطاط الذي هوت اليه نتيجة للحروب الخارجية والاهلية كان سريعاً ومؤكداً. ووجدت الولاية نفسها جزءاً اساسياً من امبراطورية

---

١) انظر سفر التكوين ١٤: ١-٥؛ عدد ٢٠: ١٧؛ ٢١: ٢٢. راجع للاستزادة عن الطرق الرومانية: Peter Thomsen, «Die romischen Meilensteine der Provinzen Syria, Arabia und Palestina», *Zeitschrefit des deutshen Palastina-Vereins*, vol. xl, (1917), pp. 1 *seq.*; Christina P. Grant, *The Syrian Desert* (London, 1937), pp. 62-65.

٢) اصبح الطريق منذ ان اصلحته حكومة الاردن في السنوات الحديثــة يدعى طريق الملك عبد الله.

كانت تمتد من الاطلسي وبحر الشمال الى الفرات ومن الرين والدانوب الى الصحراء الكبرى وساد النظام والسلم الروماني في ظل الجيوش الامبراطورية. وتوطد الامن من خطر اللصوصية والقرصنة كما صدت الهجمات الفرتية والعربية. وشددت الحراسة على الممرات الستراتيجية مثل ممر كيليكية . وربطت شبكة من الطرق التي تعتبر من المظاهر البارزة للمهارة الادارية والهندسية بين اجزاء الامبراطورية كلها في وحدة متراصة نسبياً . ولا تزال توجد حتى اليوم احجار المسافات التي كانت تقوم على الطرق السورية. وكان الرومان يهتمون بالمحافظة على هذه الطرق وعلى تصريف المياه من حولها . واسس اوغسطس مصلحة للبريد جعلت صلة الادارة المركزية بممثليها في الولايات اكثر ارتباطاً . ونشطت التجارة وعاد الازدهار وارتاحت الدولة الرومانية كلها بعد سنة ٧٠ م. لفترة طويلة من الاضطرابات الاهلية الخطرة. ومن حسن حظها انها تمتعت بين ٩٦ م. — ١٨٠ بسلسلة من الاباطرة الاكفاء الذين بدأوا بنرفا Nerva وانتهوا بماركوس اوريليوس ويوصف عصرهم بأنه «عصر الاباطرة الصالحين[1]». ولم تحكم دولة كبرى كما حكمت الدولة الرومانية في القرن

---

١) جدول الاباطرة الخمسة الصالحين :

١٢ — نرفا (٩٦ — ٩٨)

١٣ — تراجان (٩٨ — ١١٧)

١٤ — هادريان (١١٧ — ١٣٨)

١٥ — انطونينوس بيوس (١٣٨ — ١٦١)

١٦ — ماركوس اوريليوس (١٦١ — ١٨٠)

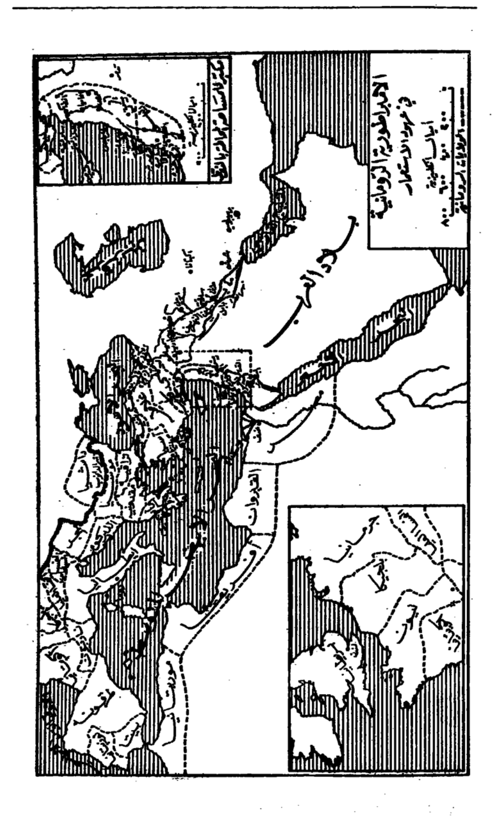
ملاحظة : تشير النقاط الى علاقة تبني .

جدول لأسرة الانطونيين :

١٥ — انطونينوس بيوس (١٣٨ — ١٦١)

١٦ — ماركوس اوريليوس (١٦١—١٨٠) | ١٧ — لوشيوس فيروس (١٦١ — ١٨٠)

١٨ — كومودس (١٨٠ — ١٩٢)



الثاني الميلادي[١]. ووصلت الامبراطورية الى ذروتها في عهد هادريان (١١٧–١٣٨) وكان والياً سابقاً في سورية. وكانت سورية الرومانية قد حصلت في عهد سلفه تراجان (٩٨ – ١١٧) على اوسع امتداد لها واكبر ازدهار[٢].

وفي ذلك القرن توحد العالم المتمدن كله تقريباً وامتد من الاطلسي الى اواسط آسيا تحت حكم واحد. ولم تقم قبلاً مثل هذه الامبراطورية. وفي تلك المملكة الواسعة ارتفعت شعلة الحضارة عالياً واضاءت باشعاع اكثر مما عرف في اي عصر مضى في التاريخ. وفي قلب تلك المملكة تماماً كان يقوم البحر المتوسط كمركز للاشعاع والاحياء. وسورية تقع على شاطئه الشرقي. وبلغ من التسهيلات وانتشار الامن انه كان باستطاعة الانسان ان يسافر بامان من يورك في انكلترا الى ضفاف الفرات في اي وقت تقريباً. وكان بامكان المسافر ان يستعين بلغة واحدة وهي شكل معين من اللغة اليونانية للانتقال من شرقي اسبانيا الى وادي السند.

وزاد في وضع سورية كأول ولاية في الامبراطورية نجاح الفرق الرومانية المرابطة فيها في رفع قائدها فسباسيان Vespasian الى العرش الامبراطوري في عام ٦٩ م. والفوز على منافسه الذي اختارته الفرق المرابطة في المانيا. وبعد اكثر من قرن من ذلك (١٧٥) حين تلقت الفرق في سورية اشاعة كاذبة بان ماركوس اوريليوس قد توفي سارعت الى اعلان قائدها افيديوس كاشيوس[٣] امبراطوراً وهو من مواطني كورس[٤] في شمالي سورية وحاكم المقاطعات الشرقية.

قوة الانتاج الاقتصادي

ان الشعور بالامن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة كل هذه عملت على تشجيع الانتاج الاقتصادي الى حد لم يعرف قبلاً. وانعكس الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة وظهور المدن الجديدة. ولا بد ان كانت

---

١) انظر : Cary and Haarhoff, p. 82.

٢) انظر : Bouchier, p. 40.

٣) انظر : Harrer, pp. 35-36.

٤) تقع على منحدرات جبل طوروس شمالي شرقي انطاكية ؛ راجع ما سيأتي في الفصل ٣٩.

سورية الكبرى المتزايدين قد بلغوا في القرن الثاني سبعة ملايين[١] وهو رقم لم يتوصل اليه في اي عهد. ولا يحتمل ان يكون عدد السكان السوريين قد تجاوز هذا الرقم في اي زمن. وفي سورية المجوفة كان سبب الخصب العظيم يعود جزئياً لعامل آخر وهو تنظيم المياه التي يأتي بها العاصي تنظيماً فعالاً. وشملت الاختراعات الآلية في العصر الروماني المحراث المتطور وما يعرف باللولب الارخميدي وطاحونة الماء. كما طرأ تحسن ايضاً على النواعير ولا بد ان ذلك الوادي كله، وقسم منه الآن شبه صحراوي، كان مركز زراعة ناشطة[٢]. وتوجد بقايا معاصر الزيت شرقي حمص حيث لا توجد اية اشجار اليوم. وأفاميا التي بلغ عدد سكانها الاحرار بموجب احصاء كيرينيوس في عهد اوغسطس ١٠٧،٠٠٠ نسمة[٣] هي اليوم ارض مقفرة. وشرقي الاردن نفسها التي اغلبها صحراء اليوم كانت بالنسبة ليوسيفوس[٤] ارضاً تكثر فيها المحاصيل والسهول التي تنتج مختلف انواع الثمار كالبلح والعنب والزيتون. وان خصب التتمة الشمالية لشرقي الاردن وهي حوران (Auranitis Trachonitis) كان يضرب به المثل. وقد تحولت هذه المنطقة في ظل الرومان من بلاد رعاة ونصف متحضرين الى بلاد مدن وقرى. وكانت المنطقة كلها تعتمد على استعمال الصهاريج التي تجمع فيها مياه الامطار غير المنتظمة والغزيرة احياناً. ولما كانت حوران تقع على طرف الصحراء هي وعاصمتها بصرى[٥] Bostra فانها كانت اول منطقة سكنها وزرعها رجال القبائل من الصحراء. وقد وسعت المدينة في عهد تراجان وحصنت واطلق عليها اسم نوفا تراجانا بصرى Nova Trajana Bostra وكانت ملتقىً هاماً لطرق القوافل الذاهبة الى دمشق والبحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي. واصبحت بعد ديوكليتيان Diocletian (٢٨٤ — ٣٠٥)

---

١) قارن مع Heichelheim, pp. 158-159; Henry Lammens, *La Syrie, précis historique*, (Beirut, 1921), vol. i, p. 11; Beloch, pp. 245 *seq.*

٢) انظر: Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, tr. William P. Dickson (London, 1909), vol. ii, p. 136.

٣) انظر: *Ephemeris epigraphica*, vol. iv (Berlin, 1881), p. 538.

٤) *War*, Bk. III, ch. 3, § 3.

٥) ترد في سفر المكابيين الاول ٥ : ٢٦، ٢٨ باسم Bosora ويعرفها الاتراك باسم اسكي شام (الشام القديمة) وهي بصرى اليوم.

عاصمة ولاية بلاد العرب . ودرجة الازدهار التي بلغتها هذه المنطقة في عهد الرومان لم تبلغها حتى في عهد الامويين الذين كانت عاصمتهم دمشق[١] .

الزراعة

تعطينا بعض العبارات المتفرقة في كتابات سترابو (توفي حوالي ٢٤ م.) وبليني (توفي عام ٧٩) واثيناوس (زها في ٢٢٨) وغيرهم من الكتاب اللاتين فكرة عن الازدهار العام في زراعة سورية . وتظهر قمم جبال لبنان الشاهقة المتوجة بالغابات بنفس المظهر السابق. وكثير من الكتاب يجعلون هذا الجبل من المناطق المشهورة بالاخشاب . ويمكن الافتراض بان نظام حماية الاشجار البرية والقطع المنتظم كان يطبق على شجر الارز على الاقل . ويعدد بليني[٢] بين اشجار سورية شجرة النخيل والفستق والتين والارز والعرعر والبطم والسماق. وادخل في القرن الاول الميلادي عدد من الاشجار السورية الى ايطاليا . ويعتبر فيتليوس Vitellius الحاكم في عهد طيبريوس صاحب الفضل في ادخال انواع متعددة من شجر التين والفستق الى مقره الريفي في ألبا لونغا Alba Longa[٣]. واثناء زيارة نيقولاوس الدمشقي لرومة بصحبة هيرودس الكبير قدم لاوغسطس هدية من احسن ثمار النخيل وهو ما عرف بالبلح النيقولاوي بالنسبة له وكان حلواً كالعسل وكان حجمه كبيراً حتى انه «اذا وضعنا اربعة منه جنباً الى جنب يبلغ طولها ذراعاً[٤]». وكانت تستخدم في زراعة الكرمة وغيرها من النباتات المثمرة الآلات المائية والمعاصر وطرق التسميد الراقية[٥]. وادخل شجر الخوخ الدمشقي الى ايطاليا قبل عهد بليني بزمن طويل . اما شجرة العناب فادخلت قبل عهده بقليل[٦]. ويشير بليني[٧] الى الاشجار التي تحمل ثمار

---

١) قارن مع ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

٢) انظر : Pliny, Bk. XIII, chs. 10-13.

٣) انظر : Pliny, Bk. XV, chs. 21, 24; Athenaeus, Bk. XI, §500.

٤) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 9; Athenaeus, Bk. XIV, ch. 22.

٥) قارن مع انجيل متى ٢١ : ٣٣ .

٦) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 10; Bk. XV, chs. 12-14.

٧) انظر : Pliny, Bk. XV, ch. 8; XXIII, ch. 50.

الزيت وتنمو نمواً عفوياً في الاقسام الساحلية من سورية وثمرها حلو الطعم ويستخدم في الاغراض الطبية وهي كما يبدو شجرة التربنتين .

شكلت الحبوب غذاء السكان الرئيسي . وزيادة على الحبوب التي تعتبر من لوازم المعيشة كان الارز الذي يتطلب رياً اصطناعياً يزرع بشكل متقطع على طول الساحل[١]. وكانت الخضراوات ذات الاوراق من اكثر الاطعمة شيوعا بالإضافة الى الحبوب . ولم يكن هناك طلب نظامي للحوم الا بين الاغنياء. ونذكر من بين الخضار التي كانت تزرع بصورة واسعة العدس واللوبيا والفاصوليا والحمص والحمص الجبلي والترمس . وكان الترمس يستعمل بكثرة للمواشي . وكان الفقراء يستسيغون بصورة خاصة النباتات البصلية كالبصل والكراث والثوم. ومن التوابل التي ازدهرت في سورية الكزبرة والخردل واليانسون والكمون والزنجبيل والنعنع[٢]. وتذكر المصادر فطر اورشليم وثوم هليوبولس وبصل عسقلان[٣]. وكانت عسقلان تنتج الحناء ايضاً التي كانت لها قيمة كبيرة . وكان ملفوف سورية مرغوباً . وحين يعدد بليني[٤] انواع الفجل وهو نبات خاص بسورية يعتبر الفجل السوري الذي كان قد ادخل حديثاً الى ايطاليا احسنها . وفي رأي هذا المرجع الروماني حول التاريخ الطبيعي كانت زنابق انطاكية ولاوديسة اكثرها قيمة[٥]. وقد زرع نبات البابيروس واستخدم كمادة للكتابة . واستمرت زراعة الكتان والقنب والقطن في آسية الغربية كلها . ولا يزال عرق السوس ينمو كنبات بري قرب المستنقعات وعلى ضفاف الانهار حول انطاكية .

البستنة

كانت البستنة السورية مظهراً جميلاً في الحضارة الرومانية القديمة . وتعود الى

---

١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 1, § 18.

٢) انظر سفر الخروج ١٦ : ٣١ ؛ سفر العدد ١١ : ٧ ؛ انجيل متى ١٣ : ٣١ ؛ انجيل مرقس ٤ : ٣١ ؛ انجيل متى ٢٣ : ٢٣ وسفر اشعيا ٢٨ : ٢٥، ٢٧ .

٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29; Pliny Bk. XIX, ch. 32.

٤) انظر : Pliny, Bk. XIX, ch. 26.

٥) انظر : Pliny, Bk. XXI, ch. 11.

اصول سامية قديمة تطورت عن زراعة الاثمار والازهار والاعشاب الواسعة التي كانت تعتمد فقط على الري الصيفي . ولم يكن الفردوس السامي سوى حديقة غرسها السيد الاله شرقاً في عدن[١] . وكان هذا الفردوس يتبع نموذج البساتين الارضية في البلاد المروية بصورة اصطناعية بين فلسطين وفارس . وقد شُجِّع فن البستنة السامي في زمن الحكم الفارسي وازداد اتقاناً في عهد الرومان . وكان يطبق ليس على مقياس خاص فحسب بل على مقياس عام ايضاً كما نرى في الغابات المقدسة والاراضي التابعة للمعابد . وكانت دفنة التي كرس معبدها وغابتها للاله ابولون احدى المناطق المشهورة بجمالها في العالم الروماني . فاجتذبت الحجاج والزوار من بلاد الامبراطورية[٢] . واصبحت الحدائق التي يعتزل الانسان فيها للراحة والتي رافقت حضارة المتوسط وظهرت في انطاكية ودمشق واورشليم نموذجاً اولياً لحدائق المتعة التي اوجدت في رومة ومن بعدها في غرناطة[٣] . ولا يزال الماء يستعمل حتى اليوم كعنصر فني في النوافير التي تنشر المياه بما يشبه السبرقع في باحات الدور في دمشق .

الصناعة

يبدو ان صناعة الاصبغة في مناطق صناعة النسيج في صيدا وصور قد استمرت في عهد الرومان . وكان الارجوان الفينيقي عظيم القدر في كل مكان . وبلغ في عهد سترابو[٤] من كثرة عدد معامل الاصبغة في صور ان اصبحت المدينة « غير مرغوبة كمكان للسكنى » . ويذكر بليني[٥] ان اوراق السماق كانت تستعمل في دباغة الجلد[٦] ولا تزال تستعمل حتى اليوم . وكانت سورية ومصر المصادر الرئيسية للبضائع الكتانية لكل الامبراطورية كما كانت من احسن مصادر الجلد . وكانت الصناعة

١) سفر التكوين ٢ : ٨ وراجع بشأن اشتقاق كلمة « الفردوس » ما سبق في ص ٢٤٩ .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٣ .

٣) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 528-529.

٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 23.

٥) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 13.

٦) يشير كتاب العهد الجديد الى دبّاغ في يافا — اعمال الرسل ٩ : ٤٣ ؛ ١٠ : ٦ .

بمعناها الحرفي «صناعة يدوية». ولما كانت تنقصها التجارب والآلات فقد بقيت جامدة. واستخدمت عدة نباتات سورية لانتاج الادوية والروائح العطرية للسوق المحلية والخارجية. وراجت الخمور السورية عن جدارة في العالم القديم كله[١]. وكانت انطاكية وجبيل[٢] وطرابلس وبيروت وصور ولبنان وحوران وعسقلان وغزة تنتج الخمور. ويقال ان خمر أفامية كان يصلح للمزج مع العسل[٣]. ووردت اشارة الى خمر الجليل في العهد الجديد[٤].

يأتي الاسفلت او الزفت في المرتبة الاولى بين الموارد المعدنية وكانا يوجدان بكميات كبيرة في منطقة البحر الميت (Lake Asphaltites) وبمقدار اقل في جوار صيدا[٥]. وكانت كبريتات الزئبق والزرنيخ السورية تستخدم في الدهان ولكبريتات الزرنيخ لون ذهبي[٦]. ومن جملة نواحي استخدام النساء للكوربا صنع اطارات المغازل[٧]. وكان الالباستر في دمشق اكثر بياضاً من سائر الانواع[٨]. ويبدو ان الجص كان يحضر في سورية بنفس الطريقة التي يحضر بها اليوم الجبس الجاف[٩]. ووجدت مقالع للاحجار بالقرب من انطاكية[١٠] التي كان فيها ايضاً مقالع حجرية كما في هليوبولس. وكان يستخرج النحاس في جبل لبنان وجنوبي فلسطين بجوار اريحا وفي بيروت ومنابع نهر الاردن. وكانت اكثر مناجم الشرق الادنى تسيطر عليها الحكومة ويستخدم فيها العبيد. وكانت تصنع التماثيل ايضاً. وعندما امر

---

١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 3, § 22.

٢) انظر : Athenaeus, Bk. I, ch. 29, § a.

٣) انظر : Pliny, Bk. XIV, ch. 9.

٤) انجيل يوحنا ٢ : ٣ ; قارن مع : Josephus, *War*, Bk. III, ch. 10, § 8.

٥) انظر : Pliny, Bk. XXV, ch. 51 ; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 42. حيث يسمى البحر الميت خطأ « بحيرة سيربونيس Sirbonis ».

٦) انظر : Pliny, Bk. XXX, ch, 22.

٧) انظر : Pliny, Bk. XXXVII, ch. 2.

٨) انظر : Pliny, Bk. XXXVI, ch. 12.

٩) انظر : Pliny, Bk. XXXVI, ch. 59.

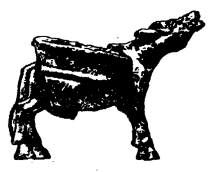
١٠) انظر : Libanius, *Orationes*, No. 11, § 25.

الامبراطور كاليغولا (٣٧–٤١) بصنع تمثال ضخم له ليقام في معبـــد اورشليم طلب نائبه في سورية الى صانع من صيدا القيام بذلك[١]. وشكل اصحاب مختلف المهن كالتجار واصحاب السفن والباعة والصناع جمعيات للحماية المشتركة وتبادل المنفعة. وكان في تدمر نقابة لصائغي الذهب والفضة كما كان يوجد في جرش نقابة لصانعي الفخار. ولا بد ان معامل الاسلحة الامبراطورية التي انشأها الامبراطور ديوكليتيان (توفي عام ٣١٣) في انطاكية ودمشق وادينا هي امتداد لشركات اقدم[٢].

التجارة

كانت التجارة وخاصة بمظهريها الخارجي والداخلي المورد الرئيسي للثروة. واغنى مدن الشرق الادنى الروماني كانت المدن التجارية كالبتراء وتدمر وجرش ومدن الساحل الفينيقي. وكان الصناعيون والملاكون يأتون في المرتبة الثانية في الغنى بعد التجار.

كان التجار على وجه العموم من اهل البـــلاد. ويظهر التاجر الروماني (Negotiator, mercator) وهو ظاهرة جديدة في تاريخ الشرق على اثر ضم بومبي لسورية. وهذا التاجر كان ايطاليا او ايطالياً يونانياً ويستقر اول الامر في انطاكية. وفي عصر اوغسطس يصل البتراء. ومع ذلك فأنه يتراجع خلال القرن الاول الميلادي امام منافسه السوري المعروف بمهارته وخبرته وامام اغراء الاسواق الجديدة في الغرب حتى يختفي فعـــلاً من السوق[٣]. وبقيت التجارة فردية كالصناعية. وكانت الشركات



تمثال برونزي صغير لحمار وخرجه ويبدو الحمار برأسه المرفوع ورجليه المتصلبتين وهو ينهق

١) انظر: Philo (Judaeus), *Opera*, ed. Leopold Cohn and Paul Wendland (Berlin, 1915), vol. vi, ch. 31, §§ 220-222.

٢) انظر: Malalas, p. 307, ll. 20 *seq.*

٣) انظر: M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Roman Empire* (Oxford. 1926), pp. 158-159.

او عمليـــات المشاركة نادرة. واستمرت تجارة العبيد في الازدهار. وكان المدينون المفلسون يسلمون انفسهم لدائنيهم. وكان تجار العبيـــد المحترفون يقبضون على اليافعين الطائشين ويختطفون الاطفال ويشترون الاطفال غير المرغوب فيهم.

بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها في ايام الحكم الروماني الذهبية حين كانت مدن القوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا اوروبس مراكز تجارية مزدهرة. ثم نشطت الطرق البحرية حين اعاد تراجان تجديد القناة التي تصل النيل بالطرف الشمالي الغربي الاقصى للبحر الاحمر والتي كان الفراعنة القدماء اول من بدأ بحفرها. وصدرت المدن الفينيقية البلح «واحسن طحـــين من القمح[١]». وكان اللبان المصدّر من سورية[٢] يعود اصله بالحقيقة الى جنوبي الجزيرة العربية[٣]. وصدرت محاصيل نباتات غربي آسيا المستخدمة في الطب والعطور الى العـــالم الروماني كله. وتمتعت العطور والعقاقير المنتجة في تلك المنطقة بشهرة عالمية. وغالباً ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعة والسلفيوم silphium والمجيداريس magidaris والناردين الآتية من سورية. وكانت الخمور والزيوت المختلفـــة والثمار المجففة والدهون تصدر بالكميات. وقد وجدت في مصر وقبرص وايطاليا وجنوبي روسيا آنية تحمل توقيع شخص باسم انيون Ennion من صيدا وهو من اشهر صناع الزجاج السوريين في القرن الاول الميلادي[٤]. ولا بد انه كان لمعامله مكتب في رومـــة. وكان لصانع زجاج آخر من صيدا مكتب فرعي في بلد بعيدة مثل كولونيا. وكذلك عاش احسن عمال البرونز في منتصف القرن الاول الميلادي في صيدا. وقد وجدت في امكنة متعددة خارج سورية بقايا منتجات

---

١) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 28, § a.

٢) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 27, § f.

٣) انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 47–48.

٤) انظر: Heichelheim, p. 189; Rostovtzeff, p. 540, n. 43.

الحائكين السوريين كالاقمشة الكتانية والصوفية الرخيصة والحرائر ذات اللون الارجواني .

اشتملت واردات سورية على الخزف من اليونان وايطاليا والسمك المجفف من مصر واسبانيا وورق البردي من مصر والمر والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والتوابل والجواهر من الهند والحرير من الصين . وكانت عكا مركزاً هاماً لتجارة السمك . وكانت الحيوانات البحرية تشكل جزءاً كبيراً من الغذاء الشعبي لسكان السواحل. واستعمل ورق البردي في صناعة حبال السفن كما استعمل لاجل الكتابة .

الفصل الثالث والعشرون

حياة المدينة والريف

القرى

لم يختلف المظهر العام لحياة الريف في سورية الرومانية بصورة جذرية عن النموذج القديم. وكانت البلاد مرصعة بآلاف القرى التي يسكنهـا على الغالب الفلاحون الذين يعيشون على انتاج الكروم او المزارع. ولا توجد آثار لعبودية الارض في هذه القرى وليس هناك وثائق تفيد عن وجود عبيد تابعين للدولة للقيام بالاعمال الوضيعة. ويرجح ان اعمال الشرطة في القرى كانت تقع على عاتق المدينة التي توجد القرية في منطقتها. وليس هناك ما يدل بوضوح عن قيام القرية بانفاق المال لاجل التربية والصحة العامة او اعمال الخير[1]. ولا بد ان بعض الاراضي المحيطة بالقرية كانت مشاعاً وتؤلف مصدر ايراد للقرية. وكان الافراد احيانـاً يملكون القرى.

كان نموذج الرجل العادي هو الفلاح او زميله القروي الذي يعمل كنجار او حداد او صانع احذية او بائع. وكان تأثر هذه القرى بالحضارة الرومانية ضئيلاً كتأثرها بالحضارة الهلينية. وقد تمسك القرويون وخاصة اولئك الذين يعيشون بعيداً عن مراكز المدن بطرق حياتهم التقليدية بصورة شديدة. وان الكتابة ومحتويات النقوش الاثرية التي تعود الى القرون الميلادية الثلاثة الاولى وقد وجدت في الصفا وهي منطقة بركانية تبعد حوالي مائـة ميل جنوبي شرقي دمشق لتظهر دوام الشعائر والعادات القديمة[2].

---

١) انظر: George M. Harper, Jr., *Village Administration in the Roman Province of Syria* (Princeton, 1928), p. 57.

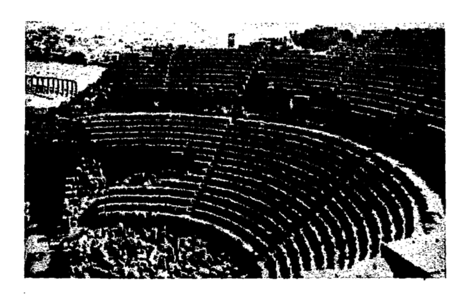
٢) انظر: René Dussaud and Frédéric Macler, *Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne* (Paris, 1903), pp. 54 *seq.*

الاغنياء

وتأتي الطبقة الارستقراطية الوطنية فوق طبقة الفلاحين وتتألف من كبار الملاكين واصحاب قطعان الاغنام والماعز الساكنين في المدن المجاورة. وكان افراد هذه الطبقة زعماء ايضاً في القضايا الدينية. وكانت مدن القوافل والمدن الساحلية والمستعمرات اليونانية الرومانية تؤوي التجار الاغنياء والصناعيين وموظفي الحكومة. واوجد الرق في المدن طبقة الذين يعتبرون انفسهم ارفع من ان يعملوا. واستخدم بعض السادة اوقات فراغهم بصورة حسنة في خدمة المدينة او الدولة وآخرون في خدمة الادب والفن. ولكن اكثرهم شكلوا طبقة مترفة تنهمك في الرياضة واللهو والنشاط الاجتماعي. ومع ذلك فان عوامل الاقليم والمفاهيم التقليدية للحياة عملت على الاعتدال في العادات. وان شعور الولاء نحو العائلة — وهو اثمن عنصر في تراث العصر القبلي — لم يفقد سيطرته على السكان ولا يزال حتى اليوم قوة حية.

الاحوال الاجتماعية

كانت نساء الريف يخرجن سافرات كما هي الحال اليوم. اما نساء المدن فكن



المسرح الجنوبي الكبير في جرش
بني في عهد دوميتيان في نهاية القرن الاول

يلبسن براقع تقتصر على الرأس فقط او تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف بما يشبه طريقة الحجاب الحديثة . ويظهر الوشم احياناً على تماثيل النساء وغالباً ما يكون على الصدر وهي عادة لا تزال موجودة .

وبما ان القانون الروماني لم يعترف بغير زوجة واحدة فلا بد ان نظام تعدد الزوجات لم يكن سائداً في الاقسام المأهولة في سورية الرومانية . ويبدو ان الختان وهي عادة سامية قديمة قد اهمل نتيجة للاحتكاك مع الجنود الاوربيين[١] وترك نهائياً بتأثير المسيحية .

كانت انواع اللهو في المدن المتأثرة بالحضارة الهلينية او الرومانية وفي المدن الساحلية هي من النوع اليوناني الروماني العادي كالمصارعة وسباق العربات والمباريات الموسيقية والتمثيليات المسرحية . وكان ركوب الهجن شائعاً في المناطق المجاورة للصحراء . وكان الصيد محبباً لدى الاغنياء . وترينا البقايا الاثرية مناظر صيد الدببة والبقر الوحشي والغزلان والخنازير البرية من قبل رماة السهام او حاملي الرماح الراكبين . واستعملت كلاب الصيد احياناً . اما الحمامات العامة وهي مزيج من الجنازيوم والحمام الساخن وكانت قد ظهرت في سورية السلوقية فقد ظلت موجودة في الفترة الرومانية .

منذ اوائل عصر الامبراطورية بدأ السوري يقترن في تفكير الرومان بالموسيقى والرقص والعاب السرك وغيرها من انواع التسلية . ويظهر في الادب اللاتيني ذكر راكبي خيل السباق من لاوديسة وممثلين من بيروت ولاعبي السرك من صور وراقصي الباليه من قيصرية والعازفين على الناي من مدينة هليوبولس والموسيقيين من غزة والمصارعين من عسقلان . وانشأ الممثلون السوريون المحترفون فرقاً منظمة تذهب من مكان الى مكان ويمكن استئجارها في الولائم ومناسبات الاعياد . ولا بد ان رومة قد رعت عدة فرق كهذه وكان بعضها من انطاكية . ويصرح الشاعر الهجاء الروماني جوفنال[٢] (حوالي ٦٠ — ١٤٠ م) بلهجة غاضبة : « لقد اخذ نهر العاصي السوري منذ مدة طويلة يصب مياهه في نهر التيبر حاملاً معه رطانته

---

١) انظر : Herodotus, Bk. II, ch. 104.

٢) انظر : Satura, No. 3, ll. 62-65

وعاداته وقيثاراته واوتار اعواده». وتحدث الرومان عن لاعبات الناي السوريات ambubaia [١] كما يتحدث الناس اليوم عن المرأة الباريسية المتأنقة. وجاء في خبر لاثيناوس[٢] ان فينيقية «ترن بالاغاني البذيئة من اقصاها الى اقصاها». وتفرّغ الامبراطور الخليع فيروس Verus بعد حملته الى البلاد الفرتيــــة في سنة ١٦٦ م للهو والمتعة في اللاذقية ودفنة ثم عاد الى عاصمته بقافلة من الموسيقيين والممثلين والمهرجين السوريين وغيرهم من المسلين الذين اثروا في ذوق العصر بصورة محسوسة[٣].

انطاكية ودفنة

وكان لانطاكية وضاحيتها دفنة قصب السبق في حياة الترف والخلاعة. وليس هناك مكان آخر في سورية الرومانية حيث يبدو التمتع بالحياة كهدف رئيسي للسكان وواجباتها كأمر ثانوي كما في هذه البقعة من شمال سورية. وسمح بومبي لانطاكيــــة بان تحتفظ بامتياز الحكم الذاتي الذي حازته في عهد السلوقيين. وقد جردها سبتيموس سفيروس بعد ظفره في ايسوس (١٩٤) من رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) وجعلها «قرية» تابعة للاذقية بسبب تأييدها لمنافسه. وجعلها خلفه كراكلا مستعمرة[٤]. وانعم يوليوس قيصر عليها بعدة منشآت من بينها مسرح ومدرج. وساهم هيرودس الكبير ببناء طريق ورواق معمّد[٥]. واضاف اليهــــا كاليغولا وتراجان وهادريان عدداً من الحمامات. ورصف انطونينوس بيوس طريقها الرئيسي بالغرانيت الذي اتى به من مصر. واعاد كومودس (١٨٠-١٩٢) تنظيم العابها الاولمبية الدورية. وكانت في زمن يوسيفوس[٦] ثالث مدينــــة في

١) مشتقة من الكلمة السريانية ambūbo وتعني الناي.

٢) انظر: Athenaeus, Bk. XV, § 697c.

٣) انظر: Mommsen, vol. ii, p. 132; Bouchier, p. 17.

٤) انظر: Glanville Downey, «The Political status of Roman Antioch», *Berytus*, vol. vi (1939-1940), pp. 1 *seq.*

راجع بشأن امتيازات المدن والمستعمرات: A. H. M. Jones, *The Greek city* [(Oxford, 1940), pp. 132 *seq.*

٥) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3; *War*, Bk. I, ch. 21, § 11.

٦) انظر: *War*, Bk. III, ch. 2, § 4; George Haddad, *Aspects of Social Life in Antioch in the Roman-Hellenistic Period* (Chicago, 1949), pp. 70-73.

الامبراطورية (بعد رومة والاسكندرية) . وكانت المصابيح تضيء شوارعها المبلطة وساحتها العامة بعد حلول الليل . وكانت هذه المدينة بخلاف المدن الاخرى «يوازي فيها توهج الانوار في الليل بصورة عامة تألق النهار[١]». ويشير ليبانيوس احد فصحاء انطاكية المتأخرين[٢] (٣١٤ – حوالي ٣٩٣) في خطبة يمتدح فيها مدينته الى هذه الصفة فيقول: «تحل انوار اخرى مكان نور الشمس وهي مصابيح تفوق بكثير احتفال المصريين بالنور، وعندنا يتميز الليل عن النهار باختلاف وسائل التنوير فقط» . ولا يوجد وصف كهذا بالنسبة لاية مدينة اخرى . ويفخر ليبانيوس[٣] بعد ان يصف منابع دفنة والقناة التي تتجه منها الى انطاكية فيقول :

لكل ساقية في الحمامات العامة غزارة تشبه النهر ، والوضع متشابه بالنسبة لعدد من الحمامات الخاصة. وبقدر ما هناك بيوت للسكن هناك ايضاً مجار للمياه لا بل نجد في بعض البيوت عدداً من هذه المجاري. كما ان اغلب المصانع تتمتع بهذه الفوائد نفسها . ولهذا فاننا لا نعرف القتال عند الأبار العامة حول من يخرج الماء اولاً – وهو شر يقاسي منه عدد كبير من المدن حين يكون الازدحام شديداً حول الأبار وتتعالى الاصوات بسبب الجرار المحطمة . اما لدينا فان المراكز العامة للمياه تجري مياهها لاجل الزينة طالما ان كل انسان لديه مياهه داخل بيته . ويبلغ من صفاء هذا الماء ان الدلو يبدو فارغاً ويبلغ من بهجته انه يحفزنا للنهل منه .

كان الطريق بين انطاكية ودفنة وطوله خمسة اميال تحيط به الحدائق العامة والنوافير والمنازل الخاصة والابنية الفخمة التي تتناسب مع موكب الافراح الذي كان يحتشد بين بوابة المدينة ومركز المسرات المألوفة. وكانت دفنة ذاتها التي يبلغ محيطها عشرة اميال حديقة للمسرات ، وهي على حد تعبير ليبانيوس «انقى هبة اعطتها ملكة العرائس» . وكان المكان ذا شهرة عالمية بسبب مياهه السائلة المتدفقة وممراته الظليلة واشجاره الجميلة من الغار (الذي سميّت باسمه) وسروه الطويل وجميع ذلك كان مكرساً لأبولون. وقد ابقى الاباطرة المسيحيون انفسهم فيما بعد على هذه الاشجار . وكان القانون الذي يمنع قطعها لا يزال ساري المفعول في القرن السادس[٤]. وكانت توجد ساقية في الغابة المقدسة تضطرب مياهها لاسباب

---

١) انظر : Ammianus Marcellinus, *Rerum gestarum*, Bk. XIV, ch. 1, § 9.

٢) انظر : *Orationes*, No. 11, § 267.

٣) انظر : *Orationes*, No. 11, §§ 244-245.

٤) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 14, § 5.

مجهولة في فترات معينة. وكان الكهنة الملازمون لها يصابون ايضاً بغيبوبة ويجيبون على الاسئلة المطروحة عليهم . وكان الاباطرة انفسهم يستشيرون نبوءة دفنة هذه . وكان يتمتع معبد ابولون وديانا الذي بناه سلوقس في الاصل بحق ايواء اللاجئين[١]. وكان فيه صفوف من الاعمدة على الجانبين وجدران تشع برخامها . وينتصب فيه تمثال ضخم لأبولون يكاد يمس السقف . وكان الاباطرة القدماء الذين يزورون دفنة يقيمون في الخيام . وقد بنى ديوكليتيان (٢٨٤ — ٣٠٥) قصراً فيهـــا واضاف تيدوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) الى جماله . وبنى هادريان الذي كان نائباً للامبراطور



القناة الرومانية التي تجلب المياه من دفنة الى انطاكية

على سورية وتلقى في انطاكية انباء اعتلائه العرش عدة ابنية في انطاكية ومسرحاً في دفنة . كما انه اصلح او وسع الاقنية التي تزود البلدين بالمياه . وقد ازدانت دفنة بعدة ابنية اخرى. «ولم تتفوق عليها اية مدينة في الامبراطورية في بهاء ابنيتها العامة

١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 6. وسفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٣.

وفخامتها[١] ». وكان الشارع الرئيسي فيها الذي يبلغ طوله ميلين والذي توجد على جانبيه صفوف من الاعمدة المغطاة ويتوسطه طريق عريض للعربات يجتاز وسط المدينة بمحاذاة نهر العاصي[٢].

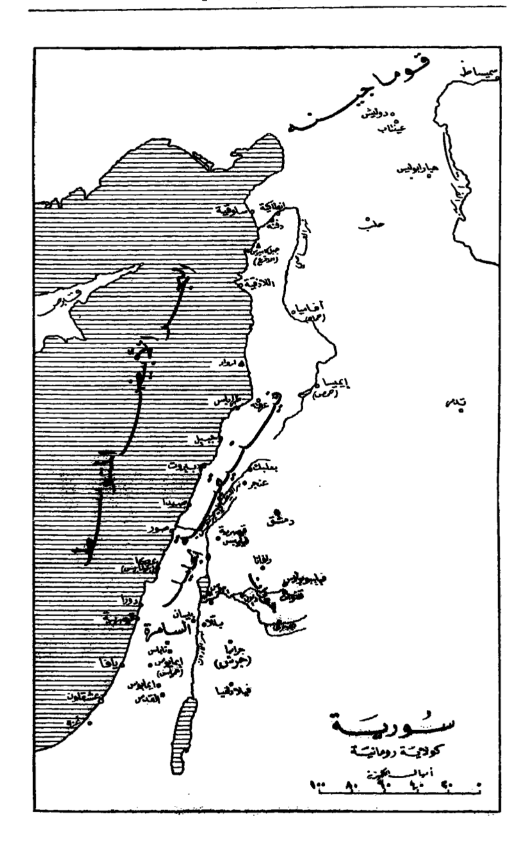
كانت دفنة منذ ايام السلوقيين مركز اعظم الاحتفالات بالالعاب في سورية. وقد اوصى احد اعضاء مجلس الشيوخ الاغنياء من انطاكية – وكان قد رافق اوغسطس في عودته الى رومـــة – بكل ثروته لاقامة احتفالات في دفنة تدوم ثلاثين يوماً للالعاب الاولمبية وتشتمل على الرقص والروايات التمثيلية وسباق العربات ومباريات الرياضة والمصارعة. وفي اوائل القرن الثالث مددت فـــترة الاحتفالات الى خمسة واربعين يوماً. وساهمت النساء في بعض هذه الالعاب. وكانت الاحتفالات كما يمكن ان يتوقع مشهداً لبعض الحوادث الاخلاقية الشاذة. واصبح يضرب المثل بدفنة لخلاعتها.

كان الانطاكيون المعروفون بكبريائهم وشغبهم وروحهم النقادة مشهورين ببراعتهم في فن السخرية ولا بد انهم لم ينسوا بأن مدينتهم كانت فيما مضى مدينة ملكية ولذلك كانوا على استعداد لتأييد اي مطالب بالعرش يرشحه الجيش السوري. وكانوا يتخاصمون دائماً مع الاباطرة الذين يقيمون في مدينتهم. وقد جرّد هادريان المدينة من حق اصدار النقد كما جردها ماركوس اوريليوس من حق انتخاب مجلس لها. ونقل سبتيموس سفيروس الزعامة بين المدن السورية الى اللاذقية حيث بقيت موقتاً وجعلت انطاكية ملحقة باللاذقية لمدة من الزمن كما ذكرنا. وكان الاباطرة يمنحون الالقاب والامتيازات لبعض المدن مكافأة لها على حسن سلوكها ويجردونها منها كعقاب لعدم ولائها. وقد امر سفيروس بتقسيم سورية الى ولاية شمالية تسمى سورية المجوفة وسمح باقامة فرقتين فيها والى ولاية جنوبية وتسمى فينيقية السورية وسمح بفرقة واحدة. وقد بدأ نزاع انطاكية فيما بعد مع يوليانس الذي امضى فيها شتاء سنة ٣٦٢ يستعد لحملته الفارسية حين حاول تحديد اسعار المشروبات والرقص. وكان اعضاء مجلس الشيوخ يسيطرون على «السوق السوداء». وكانت اكثرية السكان

---

١) انظر : Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 129.

٢) انظر : G. Downey, « Imperial Building Records in Malalas », *Byzantinische Zeitschrift*, vol xxxviii (1938), p. 308.


قوماجينة
سميساط
دوليش
عينتاب
هيرابوليس
حلب
سلوقية
انطاكية
دفنة
اللاذقية
أفاميا
إميسا
(حمص)
تدمر
أرواد
طرابلس
عرقة
جبيل
بيروت
بعلبك
عنجر
صيدا
دمشق
صور
دورا
بيسان
بيلا
السامرة
نابلس
يافا
جراسا
(جرش)
عسقلان
القدس
فيلادلفيا
سورية
كولاية رومانية
١٠٠ ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠

آنذاك من المسيحيين ولكن الامبراطور لم يكن مسيحياً وقد حاول اعادة الوثنية. فسخروا منه بأنه قزم يتباهى بلحية تيس[١]. وكانوا هم انفسهم حليقين دائماً حتى في شيخوختهم . وكان تراجان قبله بمدة طويلة قد جعل انطاكية مقر الحملات الفرتية التي انتهت فيها حياته. وحين كان الامبراطور يشتو فيها سنة ١١٥ م. تعرضت المدينة لاعنف زلزال تذكره المصادر وكاد ان يهلك هو فيه . «وقد بلغ من اهتزاز جبل كاشيوس نفسه ان بدت قممه كأنها تنحني وتنفصل عنه وتقع على المدينة ذاتها[٢]» . اما الكارثة الثانية التي حلت بالمدينة فكانت حين احتلها شابور الاول (Sapor) الفارسي في سنة ٢٦٠ م. وكان المواطنون في تلك الاثناء منهمكين في التمتع برواية مسرحية حين صاحت زوجة الممثل فجأة، «هل نحن في حلم ام ان الفرس هنا؟» فالتفت جميع الناس حولهم واذا بالسهام تمطر عليهم[٣]. واشعلت النار في المدينة وذبح كثير من سكانها دون ان يفقد احد من الفرس .

لاوديسة وأفامية

كانت لاوديسة (اللاذقية) ، منافسة انطاكية التي تقع الى جنوبيها ، مركز مسرات محبب ايضاً يتردد عليه الوجهاء . وفي اوائل القرن الاول الميلادي كانت التلال القليلة الانحدار التي تشرف على المدينة مغطاة كلها حتى قممها تقريباً بالكرمة. وكانت الكروم تمتد شرقاً حتى افامية تقريباً وتصدر الخمور من ميناء لاوديسة الممتاز الى الاسكندرية[٤]. وقد قام هيرودس الكبير (توفي ٤ ق. م.) الذي دشن السياسة اليهودية الملكية في اغداق النعم على المستعمرات الرومانية كوسيلة للحصول على رضى الاباطرة — فزود لاوديسة وغيرها من المدن بقناة للمياه[٥] لا يزال يشاهد قسم كبير منها حتى اليوم .

فاخرت افامية وهي مستعمرة شقيقة للاوديسة في الداخل منذ ايام السلوقيين

١) انظر : Ammianus Marcellinus, Bk. XXII, ch. 14, § 3.

٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 25, § 6.

٣) انظر : Ammianus, Bk. XXIII, ch. 5, § 3.

٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 9.

٥) انظر : Josephus, *War*, Bk. I, ch. 21, § 11.

بالحدائق الملكية الممتلئة بحيوانات الصيد وبالاراضي المجاورة الغنية بالمراعي. وقد وجد في معبدها نصب لالاهة مشهورة ويرجح انها هي التي تنبأت بالعظمة المقبلة لجوليا دومنة مؤسسة السلالة السورية الامبراطورية[١] وشجعت خطط زوجها سبتيموس سفيروس لوصول العرش. وقد زار سفيروس المدينة ثانية بعد ان اصبح امبراطوراً. وقد وجدت تقدمات للاله بعل الافامي في اماكن بعيدة في الغرب مثل فيزون Vaison في جنوبي فرنسا حيث اقيم معبد «لبعل سيد الحظ[٢]». وبرز بعض ابناء افامية في العصرين البيزنطي والمسيحي[٣].

حمص

تقع حمص على العاصي جنوبي افامية وقد احتفظت بحكامها الوطنيين من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني. وكانت دمشق وتدمر واديسا من المدن التي تحكمها طبقة ارستقراطية وطنية. وكانت كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة. الا ان الدولة التدمرية تطورت الى دولة كبرى[٤]. وانضمت طبقة النبلاء في حمص وكذلك في تدمر ودمشق الى طبقة النبلاء الامبراطورية لفترة من الزمن وساهمت بالتالي في ادارة الامبراطورية حتى قبل ان يتوصل اثنان من اعضائها الى العرش الامبراطوري[٥]. وكان مؤسس الاسرة الحمصية رجلاً حرّف اسمه باللاتينية فاصبح سامبسيجرامس Sampsigeramus [٦]. وقد جرد الامبراطور دوميتيان (٨١–٩٦) افراد ذريته من العرش. ومع ذلك عاد احد ابناء الاسرة للظهور في زمن فالريان

---

١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ بشأن هذه السلالة.

٢) انظر : *Philologus*, vol. xxxi (1872), p, 362.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤.

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩.

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦.

٦) يرد خطأ باسم «سامبسيكرامس Sampsikeramus» في Strabo, Bk. XVI. ch. 2, § 10 قارن مع : Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 248. ويبدو ان معنى الاسم بالآرامية «ليقوي اله الشمس». انظر مقال : «Sampsigeramus», Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopadie der classischen Altertumswissenschaft*.

وقاد في عام ٢٥٨ م. حامية مدينته ضد الفرتيين[١] كما فعل ملوك اديسا الذين اسمهم (ابجر) وملوك تدمر في مناسبات مختلفة. ونال معبد بعل في حمص شهرة حين رفع احـــد صغار كهنته واسمه بسيانوس Bassianus الى عرش القياصرة حيث تسمى الاكابالس Elagabalus (٢١٨—٢٢٢) بالنسبة الى اله مدينة حمص[٢]. وتسمى المدينة على نقود هذا الامبراطور باسم متروبولس وكانت تسمى على نقود سلفه كراكلا مستعمرة. واصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة فينيقية اللبنانية[٣].

دمشق

كانت دمشق وهي عاصمة سورية سابقاً ولاحقاً قد تفوقت عليها انطاكية وبعض المدن الساحلية طيلة العصر السلوقي والروماني. ولم يعرها الكتّاب الكلاسيكيون الا اهتماماً ضئيلاً. وكانت منطقة دمشق في زمن سترابو[٤] لا تزال تتعرض لغارات اللصوص الذين كان يتسع احد كهوفهم في تلال منطقة اللجاه المعروفـــة باسم Trachonitis (اي الوعرة) في الجنوب لايواء ٤٠٠٠ منهم. وكان من المحتمل ان يغير قطاع الطرق هؤلاء على القوافل الآتية من العربية السعيدة (اليمن). وبلغ من اتساع منطقـــة دمشق ان دخلت في عهد طيبريوس في نزاع على الحدود مع صيدا[٥]. وكانت تعتمد لاجل ازدهارها على تجارتها وبساتينها المروية بالاضافة الى واردات منطقتها. ويبدو ان وضعها قد تحسن في القرن الثاني. فقد رفع هادريان المدينة الى رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) ومنحها اسكندر سفيروس (٢٢٢—٢٣٥) حقوق المستعمرة. وأسس فيها في عهد ديوكليتيان مصنع للاسلحة وهذه دلالة مبكرة على براعة اهلها في صنع السلاح. وحمل ابناؤها التجار الهها السامي حدد رمان تحت اسم جوبيتر الدمشقي الى الغرب حتى ايطاليا. واصبح احد كهنة

---

١) انظر: Malalas, p. 296.

٢) تشبه كلمة «الاكابال» التعبير العربي إله الجبل. انظر مقالة: «Elagabal», Pauly-Wissowa. انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦.

٣) قارن مع: Malalas, p. 296.

٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

٥) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 6, § 3.

الاله جوبيتر اوبتيموس مكسيموس دامسكينوس Jupiter Optimus Maximus Damascenus عضواً في مجلس الشيوخ المحلي في ميناء بتيولي Puteoli الذي يسمى اليوم بوزيولي Pozzuoli[١].

بيروت

كانت بيروت Berytus الوحيدة بين المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً في نشاط غير النشاط التجاري والاقتصادي. وقد منح الاكابالس مدينة صيدا حقوق المستعمرة. ونالت صور حقوق متروبولس في عهد هادريان ورفعهـا سبتيموس سفيروس الى مرتبـة مستعمرة مكافأة لها لانها دعمته في نزاعه لاجل السلطة الامبراطورية اثناء النزاع مع نيجر الذي ايدته بيروت. ولكن بيروت كانت من اقدم المستعمرات الرومانية في سورية وقد منحها اوغسطس اللقب الفخري كولونيا جوليا اوغستا فيلكس Colonia Julia Augusta Felix بالنسبة لابنته[٢]. وقد تحسن ميناؤها في عهد هذا الامبراطور باضافة رصيفين على شكل هلال لهما ابراج في كل طرف ويمكن ان تمد منهما سلسلة لمنع دخول السفن غير المرغوبة. ولما كانت بيروت مركز مفرزة من الفرقة الثالثة الغالية منذ ايام اوغسطس فقد اصبحت مدينة ذات حامية وكان سكانها يقدمون جنود الاحتياط حين يحتاج نائب الامبراطور الى ذلك[٣]. واصبحت في وقت باكر جداً جزيرة رومانية في بحر هليني. وبما ان ملوك اليهود كانوا يرغبون باستعطاف الاباطرة الرومان عن طريق منح الهبات للمستعمرات فقد خصوا مدينة بيروت بكثير من عطفهم المادي. فشيد اغريبا الاول (٤١–٤٤) حفيد هيرودس الكبير في بيروت مسرحاً فائقاً في فخامتـه وجماله كما بنى مدرجاً وحمامات واروقة معمدة انفق عليها بلا حساب[٤]. وجرت في تدشينهـا حفلات موسيقية كما حصل عرض لالعاب المصارعة. ولاجل الزيادة في روعة البرنامج ادخل نحو سبعمائة زوج من المجرمين الى الملعب وتصارعوا حتى قضوا

١) انظر: *Corps Inscriptionum Latinarum*, vol. x (Berlin, 1883), No. 1576.

٢) راجع: Pliny, Bk. V, ch. 17, § 20.

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, § 9.

٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, § 5.

الواحد على الآخر . وبعد سنوات قليلة احتفل تيطس بعيد ميلاد والده فسباسيان بعرض مشاهد مماثلة ولكن الضحايا في هذه المناسبة كانوا من اسرى اليهود[١]. وقد جعل اغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠) من بيروت مقره المحبب وموّل احتفالاتها السنوية واقام فيها عدة تماثيل . وكانت حفلاتها المسرحية والعاب السرك فيها لا تزال شائعة في القرن الرابع .

اشتهرت المدينة في مجال آخر من النشاط . فقد كانت مركز اشهر مدرسة للقانون الروماني في الولايات ولذلك اصبحت كعبة رجال القانون في الشرق كله وبقيت كذلك لآخر عصر الامبراطورية[٢]. وكان يظهر بوسيدون (نبتون) الاله الحامي للمدينة على النقود ممسكاً بيده رمحاً بثلاث شوكات او تجره خيول البحر .

هليوبولس

كان لبيروت مستعمرة شقيقة في سورية المجوفة هي هليوبولس . وقد احتفظ الرومان بهذا الاسم اليوناني (مدينة الشمس) وكان قد فرضه السلوقيون حين جعلوا الهها بعل معادلاً للاله الشمس. واستعاد الاسم السامي القديم، الذي يمكن ان يكون معناه بعل البقاع وليس مدينة بعل، مركزه وبقي في اسم بعلبك. وجعل اوغسطس المدينة مستعمرة ووضع فيها حامية من نفس الفرق التي استخدمت في جعل بيروت مستعمرة . وسميت على النقود التي صدرت في عهده باسم كولونيا جوليا اوغسطا هليوبولس Colonia Julia Augusta Heliopolis . ولكن صفة المدينة الرومانية بقيت اقل من صفة بيروت وصفتها اليونانية اقل من انطاكية بينما كانت صفتها السامية اكثر من الاثنتين .

كان العازفون على القيثار من هليوبولس معروفين في كل الامبراطورية مثل موسيقيي انطاكية . وكانوا يدعون للاشتراك ليس في مناسبات الاعياد فحسب بل في طقوس المعابد ايضاً . وكانت نساء المدينة مشهورات بجمالهن وهي نعمة منحتهن اياها الالاهة السورية التي تلازم منحدرات لبنان المجاورة[٣] كما اشتهر الرجال

---

١) انظر : Josephus, *War*, Bk. VII. ch. 3, § 1 ; ch. 5, § 1.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

٣) انظر : « Descriptio », in Karl Müller, *Geographie Graeci minores*, vol. ii (Paris, 1861), p. 518.

بفصاحتهم وذلك من ايحاء عرائس الشعر في منطقتهم الجبليـــة . ولكن الشهرة العالمية للمدينة كان مصدرها معبدها العظيم .

ويرجع هذا المعبد الذي كرّس في الاصل لعبادة الاله السوري حدد الى مـــا قبل العصر السلوقي على الغالب . وتمتعت شعائره بشهرة كبرى حتى قبل ان يعاد بناؤه ويوسع من قبل الاباطرة الرومان . وقبل ان يبدأ تراجان حملته الثانية ضد الفرتيين (١١٦ م) بدأ باختبار قدرتـــه على التنبؤ بتقديم ورقة بيضاء من ورق الكتابة في مغلف مختوم وجواباً على ذلك تلقى ورقة فارغة مما اعطاه فكرة رفيعة عن قوة بصيرة المقام وقدرته على التنبؤ[١]. ثم تابع استشاراته بصورة جدية فجاءه الجواب بصورة رمزية وكان عبارة عن حزمة من الاخشاب ملفوفة بقطعة من القماش. وكان موت تراجان في سنة ١١٧ في كيليكية ونقل رفاته منها الى رومة تفسيراً كاملاً وان يكن متأخراً لما ظهر من المعبد .

بدأ التوسيع المتقن لمعبد هليوبولس في عهد انطونينوس بيوس (١٣٨–١٦١)[٢] واستمر ببطء حتى زمن كراكلا (٢١١–٢١٧) وغيره من اباطرة السلالة السورية الذين اتموا البناء وجعلوه من عجائب الدنيا . ويظهر المعبد لاول مرة على احد وجهي نقود سبتيموس سفيروس . وحفر كراكلا وامه السورية جوليا دومنة كلمة «هليوبولس» على نقودهما . ولا تزال النذور عـــلى شرف هذين الاثنين مقروءة جزئياً في اللغة اللاتينية على قاعدة رواق المعبد العظيم حيث تقول الكتابة الاثرية ان الاعمدة النحاسية قد كرست وان التيجان طليت بالذهب على شرفهم من قبل احـــد افراد الفرقة العسكرية[٣]. ويرد اسم المعبد ايضاً على نقود فيليب العربي (٢٤٤ – ٢٤٩ م[٤]).

كان المعبد يضم تمثالاً ذهبياً للاله وقد ظهر بشكل شاب حليق اللحية يلبس ثوب سائق عربة فيمسك في يده اليمنى سوطاً وفي اليسرى رموز الصاعقة وسنابل

١) انظر : Macrobius, *Saturnaliorum*, Bk. I, ch. 23, §§ 14-16.

٢) انظر : Malalas, p. 280. حيث يذكر ان انطونينوس بنى المعبد كله .

٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. iii, No. 138.

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

القمح[١]. وكان يحمل هذا التمثال في بعض الاحتفالات السنوية على اكتاف اعيان هليوبولس الذين اعدوا انفسهم لهذه الاحتفالات المهيبة بحلق شعور رؤوسهم ونذر التقشف والطهارة. وكانت تقدس في هذا المعبد ايضاً حجارة سوداء مخروطية وقد نقل الاكابالس احداها الى احد معابد رومة. وكان يقام معرض تجاري في المدينة بهذه المناسبة. وقد جعل المعبد من هليوبولس اشهر مدينة في منطقة لبنان وثاني مدينة بعد انطاكية في ولاية سورية لعدة قرون. وحمل التجار والمحاربون القدماء الى بلاد كثيرة في الغرب هذا الاله السامي القديم باسم جوبيتر هليوبوليتانس Jupiter Heliopolitanus وكان لقبه الكامل هو جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس Jupiter Optimus Maximus Heliopolitanus.



شكل يمثل جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس في بعلبك

تفوق خرائب معبد هليوبولس[٢] اية خرائب اخرى وصلتنا من عهد الرومان بما فيها خرائب رومة نفسها. وقد نسب المسلمون، الذين حولوا منطقة المعبد الى

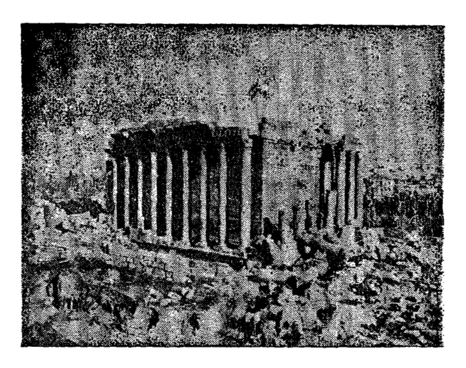
---

٦) انظر: Macrobius, Bk. I, ch. 23, §§ 11-13.

٢) درست هذا الموقع ونقّبت فيه بعثة المانية بين ١٩٠٢ – ١٩٠٤. انظر: O. Puchstein, *Erster und zweiter Jahresbericht über die Ausgrabungen in Baalbek* (Berlin, 1902-1903); do., *Führer durch die Ruinen von Baʿalbek* (Berlin, 1905);

راجع ايضاً: Theodore Wiegand, *Baalbek*, 3 vols. of text, 1 of illustrations (Berlin, 1921-5).

قلعة ، بناءه الى سليمان لانه من يستطيع غير سليمان الذي كان يسيطر على الجن ان يقيم بناء كهذا ؟ . وبالرغم مما سببته الهزات الارضية وهجمات المغول فان ما بقي من المعبد كاف لاحداث اثر في كل من يشاهده . ففي داخل منطقة القلعة توجد بقايا معبدين مع ملحقاتهما وهما : معبد جوبيتر — حدد ومعبـــد رفيقته اتارغاتس (عشتاروت) الذي ينسب بصورة عامة الى باخوس[١]. ومن بين هذين المعبدين فان

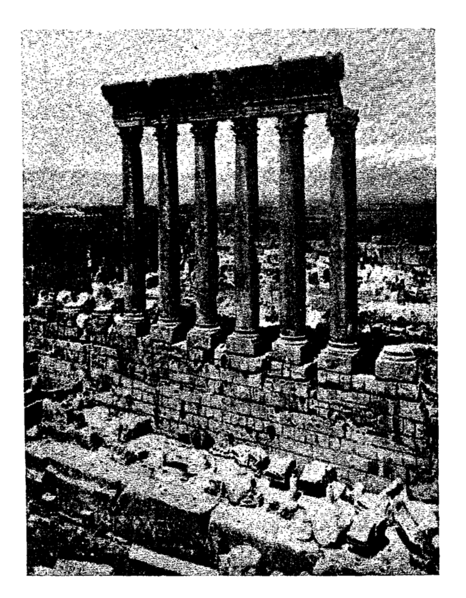


هيكل (باخوس) عشتاروت من الشمال الغربي

معبد اتارغاتس هو احدثها واصغرها ولا يزال سالماً اكثر من الآخر . وفي الحقيقة فانه احسن الابنية القديمة حفظاً واكثرها غنى في الزخارف في سورية كلهـــا . وتحيط بهيكل جوبيتر — حدد مجموعة من اعمدة كبيرة من الحجر الاصفر ذات

١) انظر: Hermann Thiersch, «Zu den Tempeln und Zur Basilika von Baalbek», *Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Gottingen*, Philologisch-historische Klasse (Berlin, 1926), pp. 1 *seq.*; do., «Le Temple de la déesse Syrienne à Ba'albek», *Revue biblique*, vol. xxxv (1926), p. 461.

تيجان كورنثية تعلوهـــا الافاريز . ولا تزال ستة من هذه الاعمدة تقف شامخة حتى هذا اليوم تواجه جبال لبنان بعظمة مهيبة . والواقع ان هـــذه هي البقايا



الاعمدة الستة القائمة في معبد جوبيتر في بعلبك

الرئيسية من معبد جوبيتر — حدد كله . ويتألف كل عمود من ثلاث قطع من الصخر ويرتفع الى علو ٦٢ قدماً ويبلغ قطره سبعة اقدام ونصف . وقد اخذ

يوستنيان من بعلبك الاعمدة من البورفير التي جلبت بالاصل من مصر واستعملها في بناء كنيسة القديسة صوفياه (آيا صوفيا) . وظهر في احد هذه الاعمدة بعد ان كسر على الطريق المعدن الذي كان يصل بين اقسامه .

ويبلغ طول كل جانب من الباحة التي اقيم فيها المذبح نحو ٣٤٠ قدماً. وكان يحيط بها رواق يضم ثمانية واربعين عموداً . وبنيت في طرفهـا الغربي كنيسة من نوع الباسيليكا ذات ثلاث حنيات في القرن السادس ولكنهـا تنسب عموماً الى قسطنطين او تيودوسيوس وكلاهما من القرن الرابع[١] . وينتصب المعبد بكامله على مصطبة اصطناعية تقوم على مجموعة هائلة من الاقبية . ولا يزال يشاهد المعبد حتى اليوم من مسافـة بعيدة . ويتألف الطرف الشمالي الغربي من السور من حجارة ضخمة قد يكون الغرض منها تأمين متانة البناء في حال حدوث الزلازل . ويبلغ قياس الجوانب في ثلاث من هذه الحجارة التي تعلو ٢٠ قدماً عن الارض ما يقارب ٦٢ × ١٤ × ١١ قدماً لكل حجر منها . وقد قدر ان كل واحدة من هذه تكفي لبناء بيت مربع يبلغ سمك جدرانه قدماً واحداً وطول واجهته ٦٠ قدماً وعلوه ٤٠ قدماً. ولا تزال صخرة تشبه هذه الصخور موجودة في المقلع الكائن في ضواحي المدينة .

وبالاضافة الى ضخامة الحجارة في الجدران والحجم الهائل للاعمدة فان ما تتصف به بشكل خاص مجموعة الابنية الباقية هو الغنى في تفاصيل الزخارف والاشكال المنحوتة في الافاريز. وتتألف الزخارف من القمح والخشخاش (التي ترمز الى الحياة والموت) وصور الجن المجنحين وهم يرفعون الحجاب وصور كيوبيد يحمل الاقواس والسهام او يركب على التنـين والدلفين . وتزين درجات المدخل اشجار الكرمة وضفائر الزهور. وتغطي السقف اشكال هندسية تنتثر فيها اوراق النباتات بالاضافة الى تماثيل نصفية للاباطرة او الآلهة . وتمتاز بوابات معبد اتارغاتس بغناها باوراق الاشجار والاشكال المنحوتة .

ويقع على بعد حوالي ٣٠٠ يردة من القلعة معبـد مستدير يعود الى العصر الامبراطوري المتأخر وينسب الى فينوس او فورتونا (الاهة الحظ) . وتحول هذا

١) انظر : Thiersch in Nachrichten pp. 20 seq.

المعبد في العصور الوسطى الى كنيسة مكرسة للقديسة بربارة فضمن بذلك بقاءه . ويقوم في وسط المدينة الحاضرة .

سورية الجنوبية

قامت مدن ذات نماذج مختلفة جنباً الى جنب في سورية الجنوبية . فهناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل — غزة وضاحيتها انتيدن Anthedon[١] وعسقلان ويافا وعكا وكانت كلها قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية في هذا الزمن . ويقول سترابو[٢] بان يافا كانت مركزاً سيء السمعة لزعماء اللصوص . ثم تأتي المدن اليهودية التي بنتها الاسرة الهيرودية وهي : قيصرية على البحر وسبسطية وطبرية وقيصرية فيلبي . وتلت هـــذه بعض المستعمرات الرومانية القليلة وكانت احداها نيابولس (المدينة الجديدة) وتذكر في العهد القديم باسم شكيم . وحدث اثناء الحرب اليهودية ان يهود هذه المدينة التي كانت تدعى سكيثوبولس انقلبوا على شعبهم وناصروا الرومان الذين قضت فرقتان من جيوشهم فصل الشتاء فيها[٣]. وقد هدمت المدينة فيما بعد من قبل اليهود الثائرين[٤]. وبعد الحرب اعاد فسباسيان الذي كان اسمه الاول فلافيوس بناء المدينة التي دعيت آنئذ تكريماً له باسم فلافيا نيابولس Flavia Neapolis . ولا يزال الاسم ظاهراً في مدينة نابلس اليوم . وكانت نيابولس مكان ولادة يوستين الشهيد[٥]. وهو من آباء الكنيسة الاوائل ويعود اليه الفضل بافتتاح اول مدرسة مسيحية في رومة حيث يقال انه جلد حـــتى مات حوالي العام ١٦٥ م .

بنى فسباسيان مدينة اخرى هي عمواس Emmaus وقد وضع فيها ثمانمئة من

---

١) جعل هيرودس اسمها غريبياس . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 13, § 3 ويخطئ بلني: Pliny, Bk. V, ch. 14. حين يجعل موقعها في الداخل ولا يزال الاسم القديم ظاهراً في خربة تيدا Khirbat-Tida . انظر : Abel, vol. ii, p. 200.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 28.

٣) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, §§ 3-4.

٤) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, § 1.

٥) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٥ .

المحاربين القدماء[١]. وهذه المدينة هي عمواس المذكورة في انجيل لوقا (٢٤: ١٣) وتقع على بعد سبعة اميال الى الشمال الغربي من اورشليم على الطريق الرومانية[٢] ويجب تمييزها عن مدينة اخرى باسم عمواس تقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال الغربي من اورشليم[٣]. وتعطينا فيلبوبولس Philippopolis في منطقة حوران مثالاً عن بلوغ احدى القرى رتبة مدينة. فقد كانت بالاصل قرية قليلة الاهمية بجوار بصرى ثم رفعها فيليب العربي الذي ولد فيها الى رتبة مدينة في ٢٤٤ م. وكانت تلك السنة تاريخ ارتقائه الى عرش القياصرة. وقد ازداد سكان المدينة بدخول عنصر جديد اليها وهو المستعمرون الايطاليون واصبحت نفسها مستعمرة رومانية. وهي مدينة شهبا كما يذكرها الجغرافيون العرب[٤].

اما في الداخل فقد بقي حلف «المدن العشر» او الديكابولس موجوداً. ويعدد بليني[٥] المدن ويشير الى «منطقة الديكابولس» التي بدأت كما يبدو حيث يتصل مرج ابن عامر (Esdraelon) بوادي الاردن وتمتد الى الشرق. وكانت تسيطر هذه المدن على المنطقة وقد اختلف عددها بين حين وآخر. ويذكر بطليموس بيت ــ شان وبيلا وديون Dion[٦] وجرش Gerasa وفيلادلفيا[٧] وجدرة ورافانا Raphana[٨] وكناثا Kanatha (Canatha)[٩] وهيبوس[١٠] ودمشق. واضيفت لها مدن اخرى فيما بعد

---

١) انظر: Josephus, *War*, Bk. VII, ch. 66.

٢) وهي اما ان تكون كبيبه Kubaybah الحاضرة او جارتها قلونيه Qalūniyah (colonia).

٣) انظر سفر المكابيين الاول ٣: ٤٠؛ ٩: ٥٠؛ Josephus, *War*, Bk. II, ch. 20, § 4.

٤) راجع ياقوت ج ٣، ص ٣٣٩؛ Dussaud, *Topographie*, p. 368; Abel, vol. ii, p. 184.

٥) انظر: Pliny, Bk. V, ch. 16.

٦) بالنسبة لمدينة مكدونية وهي تل الاشعري اليوم بين هيبوس وكناثا (القنوات) شرقي بحيرة طبرية. انظر: Abel, vol. ii, p. 306.

٧) ربة عمون وهي عمان اليوم.

٨) هي الرافة في حوران.

٩) هي القنوات جنوب شرقي رافانا.

١٠) هي قلعة الحصن في الجانب الشرقي من بحيرة طبرية.

فاصبح العدد ثمانية عشر . وفي عهد الرومان تفوقت بيت شان وتقع على الطرف الغربي من نهر الاردن على شقيقاتها التي تقع كلها شرقي النهر[١] . وولد باسيليوس الاصغر Basilides the Younger وهو فيلسوف ومعلم ماركوس اوريليوس في بيت — شان. وهناك مدينة مشهورة اخرى في الديكابولس وهي جرازه — جرش اليوم — وتقع على بعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرقي بحيرة طبرية واثنين وثلاثين ميلاً جنوب شرقي جَدرَة . وقد كشفت حفرياتها الحديثة عن المخطط اليوناني للمدينة التي كان فيها مسارح ومعابد وملعب وساحة عامة (فوروم) وشوارع معمـــورة واكثرها يعود الى آواخر القرن الاول او الى القرن الثاني الميلادي . وتعتبر هذه الآثار الرائعة ، كالبتراء وتدمر وهليوبولس ، من اعظم الآثار شهرة في سورية الرومانية . وقد تبعت المسيح في عهد رسالته الاولى جموع من مدن الديكابولس[٢] .

---

١) انظر : Rowe, *Topography and History of Beth-Shan*, p. 46.

٢) انظر انجيل متى ٤ : ٢٥ .

الفصل الرابع والعشرون

النشاط الفكري

إن سورية الرومانية التي برزت في مجال اللهو وانتجت ابطال السرك والمسرح ظلت من حيث النشاط الفكري وراء جارتها مصر — التي كان فيها مكتبة الاسكندرية ومدرستها. وكما كان ينتظر فان عدداً من المؤلفات الادبية القديمة كانت عبارة عن قصص العشاق واللصوص والمشعوذين والرحالة التي اتضح انه ليس لها قيمة دائمة. واذا استثنينا كتابات بروبوس Probus ، اللغوي اللاتيني والنقادة البيروتي الاصل، فان مساهمة السوريين في الادب اللاتيني لا يكاد يكون لها اي اهمية خاصة. ولم تنجب انطاكية وهي اغنى واكبر مدينة في آسية الرومانية وثالث مدينة في الامبراطورية اي مؤلف بارز.

عاش ماركوس فاليريوس بروبوس في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي. وبدأ حياته كجندي الا أنه كرّس اهتمامه بعد ذلك لدراسة ادب رومة الكلاسيكي. فاستقر في رومة ونشر كتابات فرجيل وهوراس وغيرهما من الشعراء الكبار نشراً علمياً وبذلك وضع اساس الحركة الكلاسيكية في العصر الامبراطوري المتأخر واعتبر من اعظم اللغويين اللاتين[1].

التاريخ

كانت مساهمة السوريين في الادب اليوناني اكثر اهمية بكثير. ومرجعنا الرئيسي عن تاريخ سورية في العهد الامبراطوري الاول هو مؤلف يوناني لاحد المؤرخين اليهود. وكان هذا المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في اورشليم حوالي ٣٧ م. وكتب «آثار اليهود Antiquties of the Jews» وكتاب «الحروب اليهودية The Jewish

١) قارن مع : «Probus», *Harper's Dictionary of Classical Literature and Antiquities*, ed. Harry T. Peck (New York, 1897).

War»[١]. وادعى يوسيفوس بانه ينحدر بطريق امه من المكابيين . وعندما كان شاباً ذهب الى رومة ليدافع امام نيرون عن قضية بعض الكهنة من ابناء دينه ولدى عودته اصبح قائداً في الجيش اليهودي في ثورته ضد السيادة الرومانية . وقد اسر الا ان فسباسيان انقــذه . ومنذ ذلك الحين التحق يوسيفوس بعائلة فسباسيان وعاد مع تيطس الى رومة . واتخذ هناك اسم فلافيوس كتابع للاسرة الفلافيــة والف كتبه المعروفة . ويعتمد كتابه «آثار اليهود» على كتاب العهد القديم كثيراً في اختصار تاريخ اليهود كله ويكتب بالتفصيل عن الحكم المكابي المتأخر والحكم الهيرودي . اما كتاب «حروب اليهود» الذي كتب بالاصل في اللغــة الآرامية فيعطينا اخباراً مفصلة عن الصراع العنيف مع رومة الذي شهده بنفسه . وتصطبغ هذه الاخبار برغبة المؤلف في ارضاء حماته الاباطرة .

وقلما يوجد اسم آخر غير يوسيفوس يستحق الذكر في علم تدوين التاريخ في سورية . ولا نعرف سوى القليل عن فيلو Philo الجبيلي (حوالي ٦١ — ١٤١ م.) النحوي وواضع كتاب عن الديانـــة الفينيقية حفظت بعض نتف منه في كتاب يوسيبيوس . وكذلك نجهل اخبار ميناندر Menander اللاذقي . وهو بليغ عاش في وقت متأخر (القرن الثالث) ودون بعض الاخبار الفينيقيـــة . وعاش في النصف الثاني من القرن الثاني كاتب آخر محاط ببعض الغموض وهو جمبليخوس Jamblichus (Iamblichus) الذي كتب تاريخ بابل . وعندما كان شاباً اخذه ملك ارمني الى بلاطه فتعرف الى اللغة البابلية والسحر الفارسي[٢]. ويقول جمبليخوس عن نفسه بانه كان سورياً من ناحية الاب والام . ولم يلمّ باللغة اليونانية حتى وقت متأخر في حياته. والف بالاضافة الى تاريخه قصة غرامية باليونانية اذا لم تكن الاولى من هذا النوع في الادب اليوناني فانها على الاقل من المؤلفات الاولى فيه .

الجغرافيا

ان اعظم مساهمة تستحق الذكر في ميدان الجغرافيا قام بها مارينوس Marinus

---

١) ترجمت مؤلفات يوسيفوس من قبل : William Whiston, new ed., 2 vols. (London, 1897) وقد نشرها وترجمها and revised by A. R. Shilleto, 5 vols. (London, 1890-1900); ايضاً : H. St. J. Thackeray *et al.*, Loeb classical Library, 7 vols. (London, 1926-43).

٢) انظر : Mommsen, vol. ii, p. 124.

من صور الذي زهـــا في منتصف القرن الثاني . وكان مارينوس اول من وضع المصورات المرسومة على اسس رياضية حسب خطوط العرض والطول بدلاً من تلك التي كانت مبنية على رحلات المسافرين فقط . وفي تعيين خطوط العرض والطول بالنسبة لكل موقع جغرافي ساعد مارينوس في ازالة الشك الذي ساد حـــتى ذلك الحين فيما يتعلق بمواقعها النسبية. وبذلك اصبح مؤسس الجغرافيا العلمية. ويستشهد بطليموس[١] بأقواله حتى انه يعترف بأنه بنى كل مؤلفه على كتابات مارينوس.

ولا يستوقف انتباهنـــا في ميدان العلوم سوى مؤلف آخر هو ارخيجينس Archigenes الطبيب الافامي . وقد مارس عمله في رومة في عهد تراجان في اوائل القرن الثاني . ويذكره جوفنال[٢] عدة مرات ويتضح مما كتبه انه كان طبيباً محبوباً بين الطبقة الراقية في العاصمة وخاصة للامراض العقلية . وقد كتب ارخيجينس رسالة عن النبض كانت موضوع تعليق جالينوس Galen وخلف عدداً من التلاميذ الذين تمتعوا بمرتبة محترمة في المهنة لعدة سنين .

البلغاء

وكان لمارينوس مواطن يدعى ادريانس Adrianus الذي اشتهر كبليـــغ وفيلسوف . وكانت البلاغة آنئذ احب الفروع الادبية الى الناس . والبليغ من ناحية نظرية كان الشخص الذي يترافع امام المحاكم ويعلم الناس فن المرافعة . ومن ناحية عملية كان محاضراً يذهب من مكان الى آخر ليظهر مقدرته كخطيب امام الجماهير المتعلمة . وكان البلغاء يخطبون في عدد كبير من المواضيع دون ان يقتنعوا بصحتها . وقد هاجر ادريانس من صور الى اثينة حيث تبوأ كرسي البلاغة . وفي الخطاب الافتتاحي الذي وجهه الى الاثينيين «اسهب في الكلام ليس عن حكمتهم بل عن حكمته لانه بدأ كلامه بقوله : «للمرة الثانية تأتي الآداب من فينيقية[٣]». وكان يقوم بواجب الاستاذية بمباهاة عظيمة ويلبس الثياب الثمينـــة ويزين نفسه

١) انظر : *Geography*, Bk. I, ch. 6.

٢) انظر : *Satura*, No. 6, l. 236; No. 13, l. 98; No. 14, l. 252.

٣) انظر : Philostratus and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, ed. and tr. Wilmer C. Wright (London, 1922), p. 227.

بالجواهر ويركب في طريقه لالقاء محاضراته في عربة كانت لجم خيولها مطلية بالفضة. وكان يسميه التلاميذ «الفينيقي» وحاول البعض تقليد لهجته. وعندما كان ادريانس في اثينة قابل ماركوس اوريليوس الذي دعاه في طريق عودته الى العاصمة لزيارة بلاطه. وكان ادريانس مسروراً بمغادرة اثينة حيث حوكم وبرئ من تهمة قتل سفسطائي اهانه. وشرّف الامبراطور هذا الرجل البليغ بصداقته له حتى انه تنازل وعين له موضوع احدى خطبه. وعينه كومودس، خلف اوريليوس، سكرتيره الخاص.

وكان من تلامذة ادريانس بليغ يدعى انتيباتر من مدينة هيرابولس وقد حظي مثله بالعطف الامبراطوري. ولم يظهر انتيباتر اي تفوق على معاصريه في خطبه المرتجلة والمكتوبة ولكنه امتاز عليهم في فن كتابة الرسائل. وهذا ما دعا سفيروس لاختياره سكرتيراً خاصاً له[١] كما عينه معلماً لولديه: كاراكلا وغيتا Geta. وعندما اغتال كراكلا فيما بعد (٢١٢ م.) اخاه كتب اليه انتيباتر رسالة لوم يأسف فيها بانه لم يبق لكراكلا الآن «سوى عين واحدة ويد واحدة» وان اللذين علمهما مؤدبهما «بان يستخدما السلاح ليؤيد واحدهما الآخر قد استخدماه الواحد ضد الآخر»[٢]. وكان سفيروس قد رفع انتيباتر الى مقام القنصلية وجعله والياً على بيثنيا Bithynia. وظهر هناك انه متسرع في استعمال القوة فأقيل وانسحب الى مدينته الاصلية حيث يقال انه توفي جوعاً بارادته.

وهناك شخصية ادبية من شمالي سورية تسترعي الاعجاب في العصر الانطونيني وهي شخصية لوكيانس من مدينة سميساط Samosata، عاصمة كوماجين Commagene. وقد ولد حوالي ١٢٥ م. وبعد ان مارس الحقوق في انطاكية وعمل في كتابة الخطب المأجورة للخطباء اتخذ مهنة محاضر متجول، فساح في آسية الصغرى ومكدونيا واليونان وايطاليا وبلاد الغال. وتبوأ في بلاد الغال لفترة موقتة كرسي الفلسفة في مدينة يونانية الثقافة وذلك قبل عودته الى بلاده الاصلية.

كان لوكيانس سورياً وقد افهم الناس ذلك بصعوبة بالنظر لجهل المعاصرين

١) انظر: Philostratus and Eunapius, p. 269.

٢) انظر: Philostratus and Eunapius, p. 271.

الفروق العرقية . وكانت الآرامية لغته الاصلية الا انه ككل المثقفين السوريين في عصره كانت ثقافته يونانية . وفي عصر كانت فيه تسهيلات السفر اعظم منها في اي وقت آخر حتى حدود المئة سنة الاخيرة فانه تعرف الى اكثر مناطق الامبراطورية رقياً. واضاف الى ما عرف عن السوريين من حب التجول المقدرة على طرق مختلف المواضيع وخصب الخيال الذي اشتهر به السوريون. ومن المؤلفات الاثنين والثانين التي وصلتنا منسوبة اليه، وبعضها مزيف دون شك، كتاب «المحاورات Dialogues وهو اهمها». واما كتابه «قصة صحيحة *A True Story*»[١] فقد تسلسلت منه قصص السندباد البحري ورحلات كوليفر وغيرها من القصص . ويعتبر مُؤلّفه «الالاهة السورية *The Syrian Goddess*» اكثر مصادرنا اهمية حول ديانـــة سورية الرومانية في عصره .

تقوم شهرة لوكيانس في تاريخ الادب على انه اول من استخدم المحاورة بين الاموات كوسيلة للروايات الهزلية والهجـــاء. وقلده في ذلك دي فونتونيل de Fontenelle [٢] واللورد ليتلتون Lyttelton [٣] وغيرهما من المحدثين. ولا يستعمل لوكيانس السخرية بشكل مركز محدود فحسب بل بشكل عام واسع ايضاً. وكانت الآلهة الاولمبية والفلاسفة اليونان والارستقراطيون الرومان والمتعصبون في الدين والرحالة المتحمسون الذين فقدوا توازنهم ــ جميع هؤلاء كانوا من ضحايا سخريته . ولم يلق حتى ولا هوميروس او هسيود او هيرودوتس اي احترام في كتاباته . ومهما يكن فان تهديمه لا يتلوه عمل بنّاء . ويقرر بطل مؤلفـــه ايكارو منيبوس *Icaro-Menippus* بعد استيائه من منازعات الفلاسفة ومزاعمهم ان يقوم بزيارة الى النجوم ليقرر مقدار الصواب في النظريات الفلسفية . وبمساعدة زوج من الاجنحة يحط منيبوس اولاً في القمر حيث يستعرض مخاصمات الناس ومشاعرهم. ومن هناك يتابع سيره الى جبل الاولمب ويمثل امام زفس نفسه . ويشهد هنا كيف تتلقى السماء صلوات الناس فهي تصعد بواسطة ثقوب كبيرة ويتمكن زفس من سماعها

---

١) ترجم هذا الكتاب ونشره : A. M. Harmon in *Lucian*, vol. i (London, 1913), pp. 248-357.

٢) هو Bernard le Bovier de Fontenelle ؛ انظر كتابه : *Nouveaux Dialogues des Morts* (Paris, 1638).

٣) هو George Lyttelton ؛ انظر كتابه: *Dialogues of the Dead* (London, 1760).

بازالة الاغطية الضخمة . ويتضح ان زفس قاض متحيز يتأثر بحجم المكافأة التي يوعد بها . ومع ذلك فانه يصدر الاحكام ضد الفلاسفة ويهدد بتدميرهم كلهم خلال اربعة ايام .

وقد عين لوكيانس بعد ان تقدم في السن حاكماً على مصر . وربما كان كومودس هو الذي عينه ويظن انه توفي فيها حوالي نهاية القرن الثاني .

الفلسفة

لم تكن مساهمة المفكرين السوريين ضئيلة في مجال الفلسفة وخاصة في ما يتعلق بالافلاطونية الحديثة . وكان هذا يتفق مع التقاليد السورية الساوقية . وقد اعجب سترابو[١] بالفلاسفة المشهورين في عصره الذين كانوا من اهل صيدا ويذكر اثنين منهم كزملاء له. ويقال ان النظرية الجوهرية قد وضعت في تلك المدينة في وقت سابق. وحافظت صور ايضاً على شهرتها في الفلسفة . ويذكر سترابو[٢] فيلسوفاً رواقياً من اهلها يسمى انتيباتر . ويبدو انه نفس انتيباتر الذي وصفه بليني[٣] بانه كان شاعراً وقيل عنه ان الحمى كانت تهاجمه كل سنة في عيد ميلاده . وهناك فيلسوف من صور اكثر شهرة يدعى مكسيموس وقد سافر كثيراً وزار رومة غير مرة واستقر فيها في زمن كومودس. ولم يثبت انه كان استاذاً لماركوس اوريليوس. وكان مكسيموس سفسطائياً؛ وبليغاً اكثر منه مفكراً اصيلاً. وكبقية الافلاطونيين ميّز بين الله والمادة وجعل الشياطين تلعب دور الوسيط بين الله والانسان. وفي رسائله الاحدى والاربعين التي وصلتنا[٤] يستخدم التشبيه والمقتطفات الشعرية بكثرة .

فاقت افامية مدينة صور بصورة اوسع كمركز للفلسفة. وفي العصر الانطونيني ويرجح انه في عهد ماركوس اوريليوس اصبح احد ابنائها المسمى نومينيوس Numenius المؤسس الحقيقي للافلاطونية الحديثة . وقد اتهم بحق فيلسوف مصر

---

١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 24.

٢) انظر : Strabo, *Loc. cit.*

٣) انظر : Pliny, Bk. VII, ch. 52.

٤) انظر : Ed. (Gr. and L.) Fred. Dübner, *Theophrasti Characteres* (Paris, 1877), pp. 1-176; Karl Meiser, *Studien zu Maximos Tyrios* (Munich, 1909).

اليوناني ، بلوتينوس Plotinus — الذي نسب اليه هذا الشرف — بانه بنى تعاليمه على تعاليم نومينيوس الافامي وبأنه « كان يزهو في ريشه »[١]. وقد يكون نومينيوس حصل على ثقافته اليونانية في الاسكندرية. وقد اقام في اثينة ويرجح انه عاد الى افامية لقضاء بقية حياته . وقد استشهد باقواله بورفيريوس ويمبليخوس وغيرهما من الفلاسفة الوثنيين من جهة كما استشهد به كليمنت Clement الاسكندري واوريجين Origen وغيرهما من الآباء المسيحيين من جهة اخرى . وكان يعلم الاسرار اليونانية والمصرية ولكن معرفته بالعهد القديم هي التي تميز كتاباته عن كتابات غيره من الفلاسفة . وكان موسى بالنسبة اليه « النبي » كما كان هوميروس « الشاعر » . وكان افلاطون « موسى اليوناني » . واعتبر بان الله هو ثالوث كوني يضم الهة ثلاثة : الآب والخالق والمخلوق (العالم)[٢] .

اصبحت أفاميــــة في القرن الثالث مركز مدرسة للافلاطونية الحديثة تتمتع ببعض الاهمية وقد اسسها اميليوس Aemilius تحت رعاية زنوبيا ، ملكة تدمر[٣]. وكان اميليوس من المعجبين بنومينيوس ويقاربه في تفكيره . وكان من تلامذة بلوتينوس Plotinus الذي يعتبر اول من نظم المذهب الافلاطوني الحديث كما كان معلم بورفيريوس ، احد كبار شخصيات الافلاطونية الحديثة في سورية.

ولد بورفيريوس عام ٢٣٣ في صور او بتنيّة Batanaea [٤] ودرس في صور وبعد ذلك في اثينة حيث بدّل معلمه لونجينوس[٥] اسمه السامي « ملك » الى اسم يوناني هو بورفيريوس Porphyrios (المكسو بالارجوان الملكي[٦]). وقد جذبتـــه شهرة

١) انظر : Kenneth S. Guthrie, *Numenius of Apamea: The Father of Neo-Platonism* (London, 1917), p. 96.

٢) انظر : Guthrie p. 38.

٣) انظر ما سيرد في الفصل ٢٩ .

٤) هي المنطقة الجنوبية من حوران والاسم هو الصيغة اليونانية لكلمة باشان Bashan القديمة ، انظر : Smith, *Historical Geography*, p. 542. ولا تزال اثار الاسم موجودة في كلمة البثنية al-Bathanuyah. للتوسع حول بتنية راجع : Dussaud, *Topographie*, pp. 323 seq.

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

٦) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

بلوتينوس الى رومة حيث تخصص بالافلاطونية الحديثة لمدة ست سنوات. وقد سكن وعلّم في رومة الى ان توفي حوالي ٣٠٥. وحين كان فيها نشر كتاب استاذه واسمه التاسوعات *Enneads*. ولولا بورفيريوس لما كان بلوتينوس سوى مجرد اسم. وكان بورفيريوس مؤلفاً خصب الانتاج في الفلسفة والنحو والبلاغة والرياضيات، وعلم النفس والموسيقى ومبادئ النباتيين. وكان يعتبر الرجل العالم بين الافلاطونيين الحديثين. وكان في تعاليمه يقول بوجود العقل لدى الحيوانات ولكنه لم يعتقد بانتقال الارواح البشرية الى اجسامهم. وكان يذهب في تنقية الروح الى ابعد من بلوتينوس فيطالب ببعض اعمال التقشف مثل العزوبة والامتناع عن اكل اللحم وعدم حضور الحفلات واماكن التسلية[١]. وفي عام ٤٤٨ في عهد تيودوسيوس الثاني احرقت اكثر مؤلفاته بصورة علنية ومنها رسالة ضد المسيحيين.

وكان من تلاميذ بورفيريوس واتباع بلوتينوس شخص يسمى يمبليخوس[٢] من مدينة كالسيس Chalcis (عنجر) في سورية المجوفة. وقد حاد يمبليخوس عن عادة العلماء من ابناء وطنه فاقام في سورية طيلة حياته وكان يقوم كل سنة برحلة الى منابع جَدرَة الحارة[٣]. وكانت وفاته حوالي العام ٣٢٥ م. ولا يشاطر العلماء المحدثون معاصري يمبليخوس[٤] في اعجابهم به اذ انهم يعتقدون بانه اقام شهرته على اعمال السحر والمعجزات. وقد اله تلاميذه ومن بعدهم الافلاطونيون الحديثون واصبحت كلمة *Theios* (الاله) لقبه المعتاد. واضاف الى نظرياته في اللاهوت نظريات في الارقام التي نسب اليها كما كان يفعل الفيثاغوريون الجدد قيمة اعظم مما للرياضيات العلمية[٥]. ويشارك في فلسفة الكونية مدرسته في الاعتقاد بخلود العالم. ويحاول في ابحاثه في علم النفس ان يحتفظ للروح بوضعها المتوسط بين الكائنات

---

١) راجع: Eduard Zeller, *Die philosophie der Griechen*, 3 rd. ed. (Leipzig, 1881), vol. iii, pt. 2, pp. 636-77.

٢) ربما كان من نسل المؤرخ المذكور سابقاً في هذا الفصل.

٣) لقد ذكرت هذه المنابع المعدنية (الحمة) في الكتابات الكلاسيكية وفي التلمود وهي اليوم مستثمرة تماماً انظر: Abel, vol. i, pp. 154, 458; vol. ii, p. 19.

٤) انظر: Philostratus and Eunapius, p. 363.

٥) انظر: Zeller, p. 700.

البشرية المنحطة والمتفوقة وذلك اكثر مما حاوله بورفيريوس ويختلف عنه في انه لا يجعل للحيوانات عقلاً .

مدرسة الحقوق في بيروت

اذا كانت افامية قد برزت في ميدان الفلسفة فان بيروت برزت في القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانية المدنية التي ازدهرت فيها منذ اوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس . وربما اسس هذه المدرسة سبتيموس سفيروس (١٩٣ — ٢١١)[١] وخلد ذكره في بيروت بمعبد وتمثال وشجعها خلفه من السلالة السورية . ولم تكن اقدم اكاديمية مشهورة من نوعها فحسب بل كانت اطولها عمراً . انها من صنع رومة وقد اصبحت مركزاً فكرياً مبدعاً في الامبراطورية الرومانية وبقيت كذلك . وقد قامت مدارس اخرى في الولايات فيما بعد كمدرستي الاسكندرية واثينة وغيرهما ، ولكن مدرسة بيروت تمتعت بالمكانة الاولى طيلة عهدها . وكانت الاسكندرية واثينة يونانيتين اكثر منهما رومانيتين . اما بيروت فكانت رومانية اكثر منها يونانية . وبالاضافة الى ذلك فان بيروت كانت اكثر حظاً في اجتذاب مجموعة من الطلاب والاساتذة اللامعين الذين جعلوا من الاكاديمية جامعة ونشروا شهرتها في كل مكان . وكانت دراسة القانون آنذاك من متطلبات اشغال الوظائف الحكومية .

بابينيان

ان الشخصيتين اللتين منحتا الاكاديمية شهرة واسعة وخلدتا في مجموعة قوانين يوستنيان هما : بابينيان واوليبيان . وقد سمى يوستنيان مدينة بيروت « ام القوانين ومرضعتها » . ويبدو ان بابينيان (اميليوس بابينيانس) كان من مواطني حمص . وهناك ما يدعو الى الظن بأنه بدأ يعمل في ميدان القانون كمعلم في بيروت قبل ان يدعوه سبتيموس سفيروس ، زوج جوليا دومنة التي كان من اقربائها ، ليكون مستشاره في رومة . وبعد ان طرد كراكلا بابينيان من وظيفته اغتال اخاه غيتا (٢١٢م.) وامر بقطع رأس بابينيان . ولم يفعل اكثر من انتهار الجلاد لاستعماله

---

١) قارن مع : Paul Collinet, *Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth* (Paris, 1929), pp. 16-25; Henri Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas Empire* (Cairo, 1921), p. 4.

فأساً بدلًا من السيف[1]. اما سبب الاعدام فليس واضحاً لكن ليس من الصعب ان نرى ان طاغية كهذا لا يمكنه قبول مرشد شديد ورجل شريف مثل بابينيان. ومع انه كان في السابعة والثلاثين من عمره حين اعدم فان التراث العظيم الذي تركه لم يتركه اي روماني فقيه آخر. وقد ادخل لا اقل من ٥٩٥ فقرة من كتاباته في موجز *Digest* يوستنيان. وكان احد جامعيه ويسمى اناطوليوس Anatolius ايضاً من اساتذة القانون في بيروت. وشكل كتاب بابينيان «الاجوبة *Responsa*» جزءاً من برنامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق. وان احد كبار شارحي القانون[2] في القرن السادس عشر يعتبر ان بابينيان هو اول المحامين الذين وجدوا والذين سيوجدون ويقول بانه لم يتجاوزه احد قط في المعرفة القانونية ولن يوازيه احد. وعلم بابينيان الذي تسيطر عليه الحصافة الفكرية والنزاهة الاخلاقية قد جعل منه نموذج المحامي الحقيقي.

اولبيان

كان من منافسي بابينيان مواطنه وخلفه اولبيان. وكان اولبيان (دوميتيوس اولبيانس Domitius Ulpianus) من ابناء صور وقد علم في جارتها الشمالية بيروت. واستدعي من كرسيه في بيروت الى عاصمة العالم المتمدن ليساعد بابينيان في ادارة الامبراطورية باسم القياصرة السوريين. ولما ظهر خليفة كراكلا — وهو الاكابالس الذي اصبح امبراطوراً في ٢١٨ — جرّد اولبيان من مهامه ولكن اسكندر سفيروس اعاده مستشاراً امبراطورياً حين اعتلى العرش في ٢٢٢. وادخل اثناء وجوده في هذا المنصب اصلاحات قضائية وغيرها لم تكن مرغوبة لدى بعض الفئات. وقد قتل عام ٢٢٨ بأيدي الجنود بعد ان شقوا طريقهم ليلًا الى القصر الامبراطوري الذي كان قد التجأ اليه وقتلوه بحضور الامبراطور ووالدته[3].

عاش اولبيان مدة اطول من بابينيان وساهم اكثر منه في مختلف الشؤون. وقد اقتبس جامعو «الموجز» من مؤلفاته حوالي ٢٥٠٠ فقرة شكلت بمجموعها

١) انظر: Dio, Bk. LXXVIII, ch. 1, § 1; ch. 4, § 1.

٢) انظر: Cujacius, *Opera*, vol. iv (Naples, 1722), cols. 3 B, 4 A-B.

٣) انظر: Dio, Bk. LXXX, ch. 1, §§ 1-3.

ثلث الكتاب كله. وفي مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي وضعت في ٤٣٨ للامبراطورية الرومانية الشرقية اعتبرت كل كتابات اولبيان وبابينيان مرجعاً موثوقاً لدى القضاة. واسلوب اولبيان في الكتابة اسهل من اسلوب بابينيان واكثر وضوحاً منه. وقد كان لهذين الفقيهين تأثير مستمر على انظمة اوربا بواسطة الاقتباسات الكثيرة من مؤلفاتهما.

بقيت اللاتينية لغة التعليم في بيروت[١] حتى اوائل القرن الخامس ثم حلت محلها اليونانية. وفي تلك الاثناء كانت بيروت قد تحولت سياسياً وفكرياً من محور رومة الى محور القسطنطينية. ومهما يكن فان بعض قطع الادب السوري التي كتبت باللغة اليونانية الركيكة في اوائل العصر الامبراطوري الروماني كان تأثيرها اكثر دواماً وفائدة من جميع القطع الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مجتمعة. وكانت هذه القطع هي الاناجيل وبعض الكتابات المسيحية القديمة الاخرى.

---

١) راجع بشأن حياة الطلاب في بيروت ما سيأتي في الفصل ٢٧.

الفصل الخامس والعشرون

ظهور المسيحية

في عام ٦ ق.م. او حوالي هذا التاريخ ولد ذاك الذي قسم التاريخ الى عصرين. وكانت الاضواء مسلطة آنئذٍ على رومة سيدة العالم وعلى العرش المتألق الذي كان قد اقامه اوغسطس قيصر قبل حين. ولم يكن المؤرخ ليحفل بوجود ابن نجار في ولاية نائية من الامبراطورية جمع بعض الاتباع حوله وعلم وبشر وشفى ثم صلب بسبب معتقداته. وقد ظهر مؤرخ شاب معاصر كان في الوقت ذاته من ابناء دينه ومن مواطنيه — فخصص له اي لهذا «الرجل الحكيم» و «صانع الأعمال الخارقة» كما قال عنه، قطعة صغيرة تنتهي بهذه الملاحظة: «وعشيرة المسيحيين التي سميت بالنسبة اليه ليست منقرضة اليوم[١]». والمؤرخ اللاتيني الوحيد الذي يذكر «المسيح Christus»[٢] يشير بصورة عرضية بأنـــه «تعرض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطي[٣]». وحصل هذا على الغالب في عام ٢٧[٤]. ومع ذلك فان الذين كانوا اقرب الى المسيح في الجليل واليهودية وعرفوه جيداً اصبحوا مقتنعين بأنه لم يكن شخصاً عادياً بل ابن الله. وقد بدلوا طريقة حياتهم حالاً وكما فعل المسيح لم يترددوا في بذلها في سبيل معتقداتهم. واهتم بعضهم

---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 3, § 3. ويعتبر بعض النقاد هـــذه الفقرة مدسوسة.

٢) هي ترجمة للكلمة العبرانية مشيا māshīah (المسيح) التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملك الموعود. اما «يسوع Jesus» فهو الصيغة الهلينية ليشوع Joshua التي اتت من Jehoṣhua وهي بالعبرانية Jehōshua (يهوه هو الخلاص).

٣) انظر: Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

٤) قارن مع: Lactantius, *De Mortibus persecutorum*, Bk. II, الذي يضع تاريخــاً يقابل ٢٣ آذار عام ٢٩.

في تسجيل تعاليم سيدهم واعماله. وهكذا وصلتنا الاناجيل وهي مصدرنا الرئيسي عن حياة المسيح. وقدر لذلك الدين الجديد القليل الاهمية في الظاهر — والذي اعتنقه عدد قليل من الفلاحين اليهود في منطقة صغيرة تابعة للامبراطورية الرومانية العظيمة الراقية — ان يبقى طويلاً بعد ان سقطت الامبراطورية التي كانت تبدو راسخة ومستقرة وبعد ان اصبحت في بطون التاريخ. وقد دام اكثر من اية فلسفة وعقيدة اخرى في بلاد اليونان والرومان.

واذا كانت لبعض حوادث حياة المسيح او تعاليمه ما يشبهها في التراث الديني لبلاد الشرق القديم فان الانسان لا يستطيع ان يجد في اي مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الافكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية، كما انه ليس باستطاعة احد ان يكتشف في اي زمن شخصاً طبق ما علمه بمثل هذه الصورة التامة.

كان اساس هذه الرسالة الجديدة المحبة، محبة الله ومحبة الانسان. والمحبة الواحدة تفترض الاخرى. والله نفسه محبة. وبالمحبة جعل المسيحيون الانسانية عائلة واحدة تحت ابوة واحدة. وهكذا وضعت المسيحية الاولى مثلاً عالمياً اعلى بخلاف المثل الاعلى الاقليمي الذي كان يسود في كل مكان. وكان اليونان والرومان يفكرون بالانسانية على اساس القومية؛ بينما المسيحيون السوريون كانوا اول من اعطى العالم نظرة عالمية فعالة. ولم تكن نظرتهم الى العالم بانه كسب يجب الحرص عليه وانما نظروا اليه كعبء. ومجتمعهم لم يكن له طموح دنيوي. وكانت الديانة في جميع تعاليمها تؤكد على واجب تكريس الانسان نفسه لله بصورة لا تعرف الانانية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضاً عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية.

لم تتخذ اي من العقائد الهلنستية المحبة كفلسفتها الاساسية. والرواقية وحدها حاولت السير في ذلك الاتجاه. ولم تعلم اية عقيدة سابقة بان هناك الهاً فادياً يهتم حتى باحط افراد الجنس البشري. كما انه لم تكن لاية منها رسالة حيوية تتوجه للفقير والمنبوذ، وللعشار والخاطئ. وقلما اثرت اية ديانة وثنية على الدوافع الداخلية للسلوك والحياة. فقد كانت كلها تهتم بصورة رئيسية بالطقوس. ولم توجد اية منها

مثل ذلك الارتباط الفعال بين الدين والاخلاق او تخصص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحية .

قرنت المسيحية الحياة الاخلاقية بالدين بصورة وثيقة . فاصبح الاحسان عندئذ من اعمال الايمان بدلاً من ان يكون من اعمال العدل . واعطى الدين الجديد للمضطهدين وعديمي الحظ الامل في حياة ثانية تقدم للابرار المسرات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا . وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسناً لشعبه فقط او لمن ادخل في احدى ديانات الاسرار .

وكان الدين الجديد في مجموعة افكاره وتعاليمه الاخلاقية وفلسفته في الخلود وعقيدته الراسخة قادراً كما يبدو على تلبية المطالب الروحية والفكرية والاجتماعية التي كان المتنورون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليدية في كل مكان بدون ان ينجحوا في الحصول عليها . ثم ان الكنيسة في تنظيمها كمؤسسة وضعت اساليب فاقت كثيراً كل ما وضعته الديانات الاخرى . وشق هذا الدين السوري طريقه ببطء ولكن بصورة اكيدة الى مرتبة التفوق الروحي . وبهذا الدين اتت الحضارة السورية بمأثرتها الثالثة وهي اعظم مآثرها في سبيل تقدم العالم . والعالم المتمدن لا يقدّر دائماً بان التعبير الاساسي عن اعلى مثله كان في الادب المسيحي .

تقدم المسيحية

كان مقدار تقدم المسيحية بطيئاً اول الامر . ولا بد ان المسيحية قد بدت للمواطن الروماني المتوسط حتى اواخر القرن الاول كمذهب يهودي غامض وانها من الفلسفات الكثيرة الاخرى التي كانت تنتشر من الشرق الادنى . وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود . وقد حكم الامبراطور دوميتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية[1] ويقصد بدون شك المسيحية . ولم تستلفت امكانيات الدين الجديد انظار الناس بوجه عام حتى زمن تراجان . وعندما اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة قام الكتاب اليونان واللاتين يحاربون الدين الجديد . وكانت الاديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتاب تقترن بالامجاد الماضية للتاريخ القومي . وكانت بالنسبة للرومان بصورة عامة رموزاً للسلطة الامبراطورية.

---

١) انظر : Dio, Bk. LXVII, ch. 14.

وبالاضافة الى ذلك فقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليوناني . ولكن الهوة ازيلت نهائياً بجهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل ، ذلك بان هؤلاء الكتاب باعطاء المسيحية شكلها الهليني جعلوها ملائمة للانتشار في العالم . وكان بولس يعرف اللغة والفلسفة اليونانية واستعمل التعابير والمصطلحات الفلسفية وتبنى بعض آراء من ديانات الاسرار . وبفضل الطريقة التي انتهجها تم التفاهم بين الديانة المسيحية والحضارة اليونانية . وقد اتخذت المسيحية طابعاً هلينياً قبل ان تصبح مقبولة لدى الرومان واليونان . ويجب الاعتراف بان عباداتهم الوطنية كانت تتجه نحو التوحيد . وساعد ازدياد حركة السفر والتبادل على تقويض الولاء لعدد من الآلهة المحلية واحلال عدد محدود من الآلهة تتمتع بمفعول اوسع . وقد ساعد استبدال الجمهورية بالنظام الملكي على ذلك الاتجاه . فحين يدين الانسان بالولاء الى حاكم رئيسي واحد على الارض يسهل عليه الولاء لحاكم رئيسي واحد في السماء. وقد عملت كل هذه الظروف لصالح المسيحية ولكن قبل ان يتأكد لها النصر كان على اتباعها المتمسكين بها ان يتعرضوا لنار الاضطهاد .

الاضطهاد

ولما كان اليونان والرومان يعتقدون بآلهة متعددة فانهم كانوا بوجــه العموم متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الاخرى . والواقع انهم ذهبوا الى حد اضافة آلهـــة جديدة الى مجموع الهتهم . وقد سمحوا حتى في عاصمة امبراطوريتهم بالعبادة المصرية الغريبة والشعائر اليهودية واباحوا تمثيل المسرحيات ليس باللغات اللاتينية واليونانية فحسب بل باللغات العبرية والفينيقية والآرامية . وكانت سياستهم في شؤون الدين «عش ودع الآخرين يعيشون». وبما ان المسيحيين كانوا موحدين فانهم لم يتمكنوا من التساهل وكانوا نشيطين متحمسين في بحثهم عن اتباع جدد لديانتهم . وامتنعت جماعاتهم الاولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدنهم . ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العادات الوثنية بالاضافة الى جهدهم المستمر في كسب الاتباع كان لا بد ان يؤدي الى الاصطدام .

حصل اول اضطهاد عنيف في عهد نيرون بمناسبة حدوث حريق عارض دمر قلب مدينة روما في ٦٤ م. وفسر الجمهور الناقم هذا الحريق بانه حادث آخر من

حوادث لهو امبراطورهم الجنوني . وعندما ارتاع نيرون من ذلك حاول ان يلقي التهمة على المسيحيين في العاصمة وامر بابادتهم جميعاً[١]. ومع ان هذا الاضطهاد كان محلياً فقد تلته حوادث متفرقة ضد المسيحيين في الولايات[٢]. وفي عام ٦٧ م يعتقد انه حكم على بولس بالموت في رومـــة لكونه مسيحياً وذلك وفق القانون الذي اصدره نيرون[٣]. ويبدو ان بطرس استشهد بالصلب في رومة[٤] حوالي نفس الوقت الذي استشهد فيه بولس بالسيف[٥]. وقتل كثيرون بنفس الوقت. وقد اثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والاقاويل حولهم . وكانوا بمثابة كبش مناسب للفداء بالنسبة للرعاع كلما حلّ بالمدينة او بالسكان حادث شؤم . وكثيراً ما كان الحكام المحليون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيين لعضويتهم فيما اعتبروه جمعيات سرية .

وحدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م . في عهد دوميتيان . وكان ايضاً محلياً وموجهاً بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيين في كثير من الاحيان. وكان بين الذين حوكموا في هذه الاضطهادات احفاد يهوذا ، اخي المسيح ، الذين اطلق سراحهم باعتبارهم «جماعة بسطاء[٦]». وفي عام ١١٢ اصدر تراجان مرسوماً ينص عـــلى ان المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللامبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة فانهم سيعاقبون كخونة . وكانت عبادة الامبراطور اكثر عبادات الدولة قوة وانتشاراً وقد انشأها اوغسطس واصبحت تعبيراً مادياً للولاء نحو العرش . وجعل مرسوم تراجان المسيحيين خارجين حقيقيين عن القانون في مئتي السنة التاليـــة . وكانوا يلاحقون ويعاقبون بشكل منتظم في مناسبات متعددة. وعندما بدأت الامبراطورية تسير نحو الانحطاط في القرن الثالث واخذت الكنيسة المسيحية تصبح

---

١) انظر : Tacitus, *Annales*, Bk. XV, ch. 44.

٢) قارن مع رسالة بطرس الرسول الاولى ٤ : ١٣ — ١٩ .

٣) قارن مع رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٤ : ٦—٨ .

٤) انظر انجيل يوحنا ٢١ : ١٨ — ١٩ .

٥) انظر : Lactantius, Bk. II.

٦) انظر : Eusebius, *Historia ecclesiastica*, Bk. III, ch. 20, §§ 1-4.

آمنة في طريق تقدمها حاول اصحاب الشأن القضاء على المسيحية كوسيلة لاعادة نفوذ الدولة . وفي عام ٢٥٠–٢٥١ اوجب ديقيوس Decius من جديد معاقبة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لآلهة الدولة . وفي عام ٢٥٧ – ٢٥٨ لم يوجب فالريان على المسيحيين ان يقدموا الذبائح علناً فحسب بل منعهم من عقد اجتماعاتهم معاً . وهكذا فقد ترك بعضهم بصورة علنية ، على الاقل ، دينهم .

كان ديوكليتيان هو الـــذي امر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع . وقد نص مرسومه الذي صدر في شباط ٣٠٣ على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه . وامر بفرض جميع انواع العقوبات باستثناء الاعدام ولكن حتى الاعدام نفسه طبق وعلى مقياس واسع . وكان هذا المرسوم مثار دهشة لانه صدر عن شخص كان يميل الى المسيحيين علناً . ويظن ان زوجة ديوكليتيان وابنته كانتا مسيحيتين[١] . ويبدو ان الامن والازدهار اللذين كان يتمتع بهما المسيحيون في البلاد كلها قد اثارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنيين الذين ملأوا رأس الامبراطور بتقارير عن مؤامرات واعمال شغب مزعومة . وكانت هنالك اسباب اخرى لهذا الاضطهاد . واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات بشدة لا يعدلها شيء . واستخدمت عبقريات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب . ويتحدث يوسيبيوس[٢] عن مسيحيين في الجزيرة العربية ذبحوا بالفأس وعن آخرين في انطاكية شويت اجسامهم على المشواة . ويذكر ايضاً اخبار نساء كن يرمين انفسهن في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب وبلغ من كثرة الذين افنوا في الامبراطورية بهذه الطريقة ان اقام الجلادون الامبراطوريون اخيراً عمود نصر يحمل كتابة اثرية تفتخر بانهم ابادوا اسم المسيحيين وخرافتهم واعادوا عبادة الالهة الى سابق صفائها وزهوها . وبعد سنوات قليـــلة اصبحت المسيحية في عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة . وكان اضطهاد ديوكليتيان آخر اضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية .

ديانات الاسرار

حين كانت المسيحية تتجه الى السيطرة على العالم كانت تنافسها ديانات اخرى

---

١) انظر : Lactantius, Bk. XV.

٢) انظر : Eusebius, Bk. VIII, ch. 12, §§ 1, 2.

من اصل شرقي ومن ابرزها ديانات الاسرار . وكانت آلهة الاسرار بالاصل آلهـــة نبات ثم اصطبغت في هذا العصر بالهلينية تماماً وتبناها اليونان والرومان . وكان ديونيسيوس[١] من اقدم هذه الآلهة وهو اله الخمر وروح حياة النبات بوجه عام . وكانت ايزيس المصرية ارفع الآلهة المؤنثة شأناً . وقد اعترف كاليغولا (حوالي ٤٠م.) بها بين العبادات الرومانية الرسمية . وبلغ من شيوع عبادة ايزيس انها انتشرت في جميع الامبراطورية في القرنين الاول والثاني الميلاديين .

كانت ديانة ميثرا Mithras وهو بالاصل اله الشمس عند الفرس احدث ديانات الاسرار الجديـــدة واكثرها شعبية . وقد بدأت كعبادة زردشتية ثم لقيت في القرن الثالث الميلادي ترحيباً عظيماً وخاصة بين الجنود الرومان . وقد استهوتهم بصورة خاصة قوة هذا الدين الذي صور الحياة كصراع مستمر بين اله خيّر وبين قوة شريرة . وبدا الامر لمـــدة من الزمن بان المصير هو اما فوز المسيحية او ديانة ميثرا .

ومن صفات ديانات الاسرار كونها سرية . وكان الانتساب اليها مقتصراً على اولئك الذين اتيح لهم الاطلاع على اسرارها . وكانت آخر مرحلة في الاطلاع هي ابلاغ الشخص بان الذي يتمتع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص . وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة الاتحاد الشخصي مع مخلص الهي اختبر الحياة والموت بنفسه .

ومن المظـــاهر الاخرى لديانات الاسرار التعبير عن المشاعر الشخصية بحرية اكثر مما تسمح به طقوس الدولة والعائلة[٢] . وبما ان ديانات الاسرار كانت تنقصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسمية فانها التجأت الى وسائل جديدة لكي تكسب اتباعاً جدداً — وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصراً «تجديدياً» قد يبلغ حد الخلاعة . وبالاضافة الى ذلك فقد وعدت هذه الديانات اولئك الذين اجتازوا مراحل الاختبار الضرورية بحياة سعيدة . وبعد الموت يرتفع المطلع على الاسرار الى العالم الالهي ويسكن مع الآلهة . وفي هذه الامور وكذلك في نظرية الخلاص تتشابه هذه الديانات مع المسيحية وتلاقي ترحيباً لم يكن في وسع العبادات الرومانية اليونانية ان تقدم ما يكفي لمقاومته .

---

١) انظر في ص ١١٨ .

٢) انظر : Franz Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain*, 4th ed. (Paris, 1929), pp. 24 seq.

تنتسب المذاهب الغنوسطية (التي تعتقد بالمعرفة دون الايمان) وديانات الاسرار الى نفس النموذج الديني. فالفكرة الرئيسية في كلتيهما هي الغنوسيس Gnossis اي المعرفة السامية والاستنارة الروحية التي تتاح للمختارين بحيث يمكن انقاذ الروح من حال عبوديتها. والمرويات المسيحية تجعل سيمون الساحر (اعمال الرسل ٨ : ٩ وما بعدها) مؤسس الحركة الغنوسطية.

كان للمسيح في سورية ذاتها عدة منافسين في القرنين الاولين. وكان اقوى هؤلاء حدد — رمانو الذي تحول في العصر الهلنستي الى زفس (او جوبيتر) الذي كان من دمشق او من هليوبولس (بعلبك) او من هيرابولس (منبج). وانتشرت عبادته في جميع الامبراطورية. وكانت رفيقته اتارغاتس منافسة لايزيس وللعذراء. وهناك زفس او جوبيتر آخر في بلدة دوليكه Doliche[1] وقد عاش «حيث يوجد الحديد». ونجح جوبيتر دوليكينوس وهو بالاصل تيشوب Teshub[2] اله الحثيين في نشر عبادته في الامبراطورية كلها بصحبة الجيوش الرومانية. وكما كانت الحال بالنسبة لسائر الديانات الشرقية فقد نقل الجنود والعبيد والتجار طقوس عبادته الى اكثر البلاد الاوربية. وكان اخلص اتباعه في بادئ الامر الحدادون وهم احسن من يتقن الحرفة في آسيا، غربي الصين. فحيثما تجد جماعة هذا الاله المتفرقة الحديد فهناك تقيم اكوارها وتمارس الفنون التي ورثتها. وكان الهها يسافر معهـا. «وقد يمكن للرومان ان يغلبوا السوريين ولكن آلهة الرومان قد تخلت عن مكانها لآلهة سورية[3]».

مراكز المسيحية في سورية

كان اول مركز للمسيحية السورية المنظمة في مدينة انطاكية. واصبحت كنيسة انطاكية بصورة خاصة ام الكنائس التي انشئت في البلاد الوثنية. وكان بولس وغيره من الدعاة الاوائل للدين المسيحي ينطلقون من انطاكية للبدء في اعمالهم التبشيرية ثم يعودون اليها لرفع التقارير عن اعمالهم. واصبحت انطاكية

---

١) هي عينتاب، انظر: Dussaud, *Topographie*, p. 472; Franz Cumont, *Études syriennes* (Paris, 1917), pp. 173 *seq.*

٢) انظر في ص ١٧٠ — ١٧٢.

٣) انظر: Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 123.

بعد ان دمر الرومان في ٧٠ م.[١] منافستها اورشليم العاصمة الوحيدة للعالم المسيحي وتمتعت لبعض الوقت بمقدار معين من السلطة على الابرشيات المجاورة على الاقل. وكان يدعى اسقفها في القرن الرابع رئيس اساقفة (متروبوليت Metropolite). وعقد في المدينة اكثر من ثلاثين مجمعاً للاساقفة (سينودس) وكان انعقاد اولها في عام ٢٦٥[٢]. واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التي كان المسيح افرادها يوحنا فم الذهب Chrysostome (توفي ٤٠٧)[٣]. وعلى عكس الاتجاه العاطفي والصوفي في الدين اكدت المدرسة على العنصر الانساني وركزت الاهتمام على المسيح التاريخي. وكانت لغة المدرسة، كما تأكد، اللغة اليونانية.

كانت اليونانية والآرامية تستعملان في العبادة منذ عهد الرسل. وبعد ان ارتقت انطاكية الى مكانة الزعامة في الجزء الذي يتكلم اليونانية في سورية بدأت اديسا بالارتقاء الى مكانة مشابهة في البلاد التي تتكلم الآرامية (السريانية). وكانت اديسا اقدم مركز للمسيحية في ما بين النهرين[٤]، كما كانت مهد الادب السرياني. ويرجح ان الترجمات الرئيسية للتوراة السريانية قد وضعت هناك في اواخر القرن الثاني. وادت المجادلات حول طبيعة المسيح في القرنين الرابع والخامس الى تجزئة المسيحية السورية الى عدد من الفرق[٥].

آباء الكنيسة

تدين المسيحية بقسم كبير من نجاح انتشارها الى سلسلة من المؤلفين المعروفين بآباء الكنيسة الذين فسروا عقائد الكنيسة ووسعوها. ويسمى اول ستة منهم الآباء الرسوليين لانهم عاصروا الرسل في بعض ادوار حياتهم. وكان احد هؤلاء سورياً يدعى اغناطيوس Ignatius «الذي خلف بطرس في اسقفية انطاكية[٦]».

---

١) انظر ما سيأتي في الفصل التالي.

٢) انظر: Eusebius, Bk. VII, ch. 29.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٧.

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨.

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨.

٦) انظر: Eusebius, Bk. III, ch. 36.

وتذكر المرويات انه حين زار تراجان انطاكية في عام ١٠٧ تصرف هذا الاسقف في حضرة الامبراطور بجرأة كانت نتيجتها انه أرسل الى رومة حيث اعــدم في المدرج وذلك بافتراس الحيوانات الكاسرة له. وقد وصلتنا من بين مؤلفاته المختلفة سبع رسائل اصيلة .

وبين الآباء الذين عاشوا قبل مجمع نيقية (١٥–٣٢٥ م.) شخصان بارزان كانت لهما صلة بسورية وهما يوستين الشهيد Justin (the) Martyr واوريجين Origen . وقد ولد يوستين في نابلس حوالي العام ١٠٠م. ولكنه لم يكن من ابوين سامريين. وكان طالباً متحمساً للفلسفة الافلاطونية ثم اعتنق المسيحية نتيجة محاورة جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ واوصاه الشيخ بدراسة الانبياء العبرانيين والمسيح. وكثيراً ما كان يشار الى يوستين باسم الفيلسوف. وقد ادخل عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقية في اللاهوت المسيحي وحارب تعاليم الغنوسطيين. وكان هناك معاصر له من المسيحيين الغنوسطيين اسمه ماركيون Marcion قد فرّق بين اله العهد القديم واله العهد الجديد وقال ان المسيح قاسى الآلام بالظاهر فقط. وانتقلت الهرتقة المركيونية من رومة الى انطاكية وبقيت سورية .

وتجرأ يوستين حين خاطب الامبراطور انطونينوس بيوس قائلًا : «اما نحن فاننا مقتنعون باننا لن نسمح لاي كان ان يلحق بنا الاذى ما لم يثبت علينا فعل الاذى او يقوم البرهان على اننا رجال سافلون، اما بالنسبة لك فاقتلنا لانك تستطيع ذلك ولكن لا تستطيع ان تؤذينا[١]» وينسب الى يوستين انه افتتح اول مدرسة مسيحية في رومة . وقد جلد فيها وقطع رأسه لانه رفض ان يقدم الذبائح للآلهة ويظن ان ذلك كان في عهد ماركوس اوريليوس. وقد جعلته الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية قديساً. وكان اوريجين يرأس مدرسة لتعليم الدين المسيحي في الاسكندرية كما اسس مدرسة اخرى في قيصرية. وتوفي نحو عــــام ٢٥٣ في صور حيث يشيرون حتى اليوم الى قبره المزعوم بانه قبر الساحر الكبير اوريانوس .

١) انظر . Justin. *Apologia,* I, § 2.

الفصل السادس والعشرون

التأثير السوري والتأثير الروماني

لم يكن توغل المسيحية حتى اقصى اطراف الامبراطورية الرومانية وانتصارها النهائي على جميع الديانات اليونانية والرومانية وعلى منافساتها في الشرق ـ الا ناحية من نواحي انتشار تأثير الحضارة السورية وهي الناحية الدينية. اما النواحي الاخرى فكانت الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وفي هذه الاثناء كانت عمليات نشر الحضارة الرومانية تعمل في اتجاه معاكس.

التأثير الروماني عن طريق الرعوية

كان انتشار الحضارة الرومانية يتضاءل كلما بعدت المسافة عن رومة. ولم يكن في سورية سوى عدد قليل من المقيمين الايطاليين ليكونوا بمثابة مركز لنشر الثقافة اللاتينية. وكان اغلب هؤلاء من الموظفين الحكوميين الذين يجبون الضرائب ويفصلون في القضايا الهامة ويحضرون الالعاب والاحتفالات ولكنهم بقوا يعاملون كأجانب. ولكن الاباطرة منذ البدء كانوا يمنحون السكان الوطنيين في مستعمرات مثل بيروت وهليوبولس حق الرعوية الرومانية فيحوزون مكانة ممتازة بين سكان الولايات. كما ان بعض المدن الاخرى التي لم تكن من المستعمرات اعطيت حق الرعوية او بعض الامتيازات الخاصة اما عن طريق المنحة او المعاهدة. وقد تمتعت صور مثلاً حتى بحق الاعفاء من الضرائب العادية. وكانت سياسة «فرق تسد» اسلوباً سياسياً رومانياً قديماً طبق ليمنع المدن او الجماعات المختلفة من التكتل معاً ضد رومة.

ان سياسة منح الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين قد ازدادت بشكل ملحوظ عندما اعتلى تراجان الاسباني الاصل عرش القياصرة. وبلغت هذه السياسة ذروتها في ٢١٢ م حين اصدر كراكلا مرسومه المشهور بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات تقريباً. واصبح منذ ذلك الحين فصاعداً اي سوري

مواطناً رومانياً بحكم الواقع ويحق له استلام اعظم وظيفة في الدولة اذا كان اهلاً لذلك. غير ان الفوائد كانت مقتصرة في الواقع على النفوذ الاجتماعي وبعض الفوائد الاقتصادية. ولا بد ان صيحة بولس «انني مواطن روماني»[١] «وانني ارفع امري الى قيصر»[٢] قد رددها كثير من السوريين في تلك الايام. ومع هذا فان ذلك لا يعني ان السوريين لم يعودوا يشعرون بانهم سوريون. وكانت الحضارة الهلينية في ظل الحماية الرومانية تسلك الطريق الصحيحة نحو حل المشكلة المعقدة وهي مشكلة صهر مجموعة من القوميات المختلفة في شبه وحدة في مجال الفكر والسياسة. وصار يبدو ان حكم الاسكندر المنسي وهو مشاركة المنتصرين والمغلوبين قد تحقق جزئياً.

التأثير الروماني عن طريق الخدمة العسكرية

كان الرومان منذ البداية يستخدمون غير الايطاليين كفرق احتياطية. وبالتدريج اصبحت الفرق الرومانيـــة نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الاصليين. وكان افراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومان. وكان الجنود السوريون في الوحدات الرومانية يرابطون في مختلف اقسام الامبراطورية. وعندما ذهبت الفرقة الثالثة الى ايطاليا لتساعد في توطيد مركز فسباسيان حيا جنودها الشمس المشرقة «حسب العادة السورية»[٣]. وكانت تضم الفرقة المرابطة في نوميديا نسبة كبيرة من المحاربين السوريين القدماء من افاميـــة ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وصور. وكانت اللاتينية لغة الجيش. ونستنتج من الكتابات الاثرية التي خلفها الجنود السوريون الذين خدموا في الولايات الغربية عند عودتهم انه يمكنهم استعمال اللاتينية. واتخذ بعضهم اسماء رومانية او عـــلى الاقل كانت اسماؤهم الاولى رومانية.

كانت اللاتينية ايضاً اللغة الرسمية للحكام. فالمراسيم الامبراطورية كانت تصدر باللاتينية ومعها ترجمة يونانية[٤]. وحلّ التقويم الروماني محل كثير من التقاويم المحلية كما اقتبس نظام الاوزان والمقاييس الروماني بشكل عام.

١) قارن مع اعمال الرسل ٢٢: ٢٧.
٢) انظر اعمال الرسل ٢٥: ١١.
٣) انظر: Tacitus, *Historiae*, Bk. III, ch. 24.
٤) انظر · Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 12, § 5.

المقاومة اليهودية

كانت الجماعة اليهودية اقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية . وكانت الارستقراطية قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية . وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الارستقراطي ويحتكرون الوظائف على تأييد رومة . اما الفريسيون الذين مثلوا عامة الشعب فقد تمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى التحرر . ويتصل الفريسيون من حيث مثاليتهم بالهاسيديم Hasidim من العصر المكابي[١] .

عومل اليهود منذ عهد پومبي كجماعة متميزة بسبب الوحدانية الشديدة لدينهم. فكانوا في عهد الاباطرة معفيين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الامبراطور . فلم يطلب منهم المساهمة في عبادة الحاكم الروماني المقرونة بتقديم القرابين له . وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغـــذون شعورهم القومي . وادى هذا الى اصطدامات اتسعت فاصبحت ثورة قومية بين ٦٦ — ٧٠ م. في عهد نيرون وبين ١٣٢—١٣٤ تحت حكم هادريان . ونتج عن هاتين الثورتين الانفصام النهائي بين اليهود والمسيحيين وحلت بالمجتمع اليهودي كارثة دائمة .

تدمير تيطس لاورشليم

عهد نيرون بمهمة قمع الثورة الاولى الى قائده فسباسيان[٢] الذي اخضع بين ٦٧—٦٨ منطقة الريف والحصون المنعزلة[٣]. وكانت يافا بين المدن التي دمرت. وقد بلغ عدد الجيش الروماني ٥٠،٠٠٠ ولم يلاق سوى مقاومة ضئيلة . وحين كان فسباسيان على وشك محاصرة اورشليم توفي نيرون ورفع هو الى العرش . وعهد بأمر انهاء المهمة الحربية الى ابنه تيطس الذي شدد الحصار على اورشليم مدة خمسة اشهر انتهت في ايلول سنة ٧٠ . ويمكننا الحصول على فكرة عن مصير المحاصرين المفجع من وصف ميثاق متبادل بـــين اليهود تعهدوا فيه بابادة انفسهم حين كان

---

١) انظر في ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

٢) انظر : Dio, Bk. LXIII, ch. 22, § 1.

٣) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, §§ 1, 3-4.

الجنود الرومان يفتحون المدينة . فبعد ان ابادوا نساءهم واولادهم توقف كل منهم عن القتال ورمى سلاحه حول افراد عائلته المذبوحين وقدم رقبته لضربة من الذي جعلته القرعة يقوم بهذه المهمة الكئيبة . وقد كتب الوصف التالي مؤرخ ساهم بنفسه في هذه الحرب[١] :

كان الازواج يضمون زوجاتهم بحنان ويحملون اطفالهم بين اذرعهم ويتعانقون عناق الوداع والدموع تترقرق في مآقيهم . ولكنهم نفذوا في الوقت ذاته ما اعتزموا عمله كأنهم يعملون ذلك بايد غريبة . وقد جعلوا عزائمهم لضرورة ما قاموا به تفكيرهم بالمصائب التي سيقاسونها فيما لو سقطوا بايدي اعدائهم . وكانوا رجالاً تعساء بالحقيقة بسبب الضرورة التي وجدوا فيها وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم واطفالهم بايديهم اهون الشرور التي تنتظرهم[٢]...

لقد هدمت المدينة واحرق المعبد وهو المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس فوق ابنية متعاقبة في نفس الموقع . وكان التهديم الذي قام به تيطس تاماً حتى ان الناس نسوا اذا كان المعبد قد بني على التلة الشرقية او الغربية في اورشليم . وقد فشلت جميع محاولات اعادة بنائه بالاستناد الى وصف التوراة وحدها . وقدر بان مليون يهودي قد هلكوا في هذه الحرب . واجبر كثير من الاسرى بان يقاتل الواحد الآخر او يقاتلوا ضد الحيوانات المفترسة في المدرجات . ومنعت البقية الباقية من اليهود من الاقتراب من عاصمتهم . والواقع انها لم تعد عاصمتهم . وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود . واصبح اليهود منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن . وهكذا اضيف فصل روماني في تاريخ تفرق اليهود (الدياسبورا) الى الفصول الاشورية والكلدانية .

وقد اختطف احد الجنود الرومان الشمعدان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق وحمله في موكب النصر الذي كرموا به عودة تيطس الى العاصمة الامبراطورية . وحتى هذا اليوم لا يزال يحمله احد الجنود عالياً على القوس المشيد قرب الفوروم برومة لذكرى الانتصار العظيم . اما بخصوص الديانة اليهودية فقد انحطت بانحطاط اتباعها . ولم يكن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها

١) انظر في ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

٢) انظر : Josephus, *War*, Bk. VII, ch. 9, § 1. هذه الفقرة هي من الترجمة المنقحة التي قام بها : A. R. Shilleto (London, 1890). Cf. Dio, Bk. LXV, ch. 6, § 3.

وفشلت جميع محاولات العلماء اليهود ابتداء من فيلون الاسكندري (زها عام ٤٠م) لتقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية .

تعرض اليهود لغصة موت أخرى حين رفع راية الثورة اليهودية من ١٣٢—١٣٥م. قائد غامض يسمى سيمون باركوخبا Simon Bar Kokba[١] (Kochba). وقد سحق هادريان الثورة وحوّل اورشليم الى مستعمرة رومانية باسم ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina[٢]. وكان اسمه الاول ايليوس Aelius. وابدل المعبد القديم بمعبد كرس لجوبيتر كابيتولينس Jupiter Capitolinus. ويقدر ديو[٣] عدد القرى التي دمرت بتسعمئة وخمس وثمانين قرية وعدد القتلى من السكان بخمسمئة وثمانين الفاً .

السلالة السورية في رومة

فتحت ابواب النفوذ السوري في رومة على مصاريعها عند ما نجح زوج سيدة من حمص باحتلال عرش القياصرة حوالي اواخر القرن الثاني . وكانت تلك السيدة جوليا دومنة ابنة كاهن الاكابال في حمص . اما الزوج فكان سبتيموس سفيروس قائد احدى الفرق في سورية . وتم الزواج حوالي ١٨٧ م.

ولد سبتيموس في لبتيس Leptis (هي لبدة اليوم في طرابلس الغرب) وكانت مستعمرة فينيقية في افريقيا . وكان الامبراطور الروماني الوحيد في التاريخ الذي قدم من تلك القارة . وكانت اللاتينية بالنسبة اليه لغة اجنبية وظل يتكلمها برطانة طيلة حياته . اما لغته فكانت اليونية التي لا تختلف كثيراً عن الآرامية ، لغة زوجته . وقد اعتلى سبتيموس العرش في سنة ١٩٣م.[٤] وادعى الانتساب الى

---

١) هو تعبير آرامي يعني « ابن الكوكب » وقد تكون فيه اشارة الى سفر العدد ٢٤: ١٧ . ودعاه اليهود بعد هزيمته باركوزيبا Bar Koziba اي « ابن الكذب ».

٢) انظر : Eusebius, Bk. IV, ch. 5. ؛ قارن مع : Dio, Bk. LXIX, ch. 12. حيث يجعل تأسيس المستعمرة الرومانية سبب الحرب وليس نتيجتها .

٣) انظر : Dio, Bk. LXIX, ch. 14, § 1.

٤) راجع بشأن نزاعه مع نيجر وغيره من المنافسين : Herodian, *Historiarum*, Bk. III, chs. 1 *seq.*

ماركوس اوريليوس على اساس انه تبناه ولكن هذا التبني حصل بعد وفاة ماركوس وكان مزوراً ، وبذلك اتصل بالاسرة الانطونية .

وقد وصفت جوليا دومنة بانها كانت على جانب عظيم من الجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والادبية. وقد منحت لقب اوغسطا وساعدت زوجها في تصريف شؤون الدولة. وكان كبير المستشارين احد اقربائها وهو الفقيه بابينيان[١]. وعندما توفي زوجها في ساحة المعركة في بريطانيا (٢١١ م) بقيت مسيطرة على ولديها كراكلا وغيتا وقد خلفا والدهما كأمبراطورين.



تمثال نصفي لجوليا دومنة يظهر شعرها المتجعد

كان اسم كراكلا الحقيقي باسيانس **Bassianus** بالنسبة لاسم جده لامه. اما لقبه هذا فقد حصل عليه بسبب نوع من الجبة الغالية التي ادخل استعمالها[٢]. وقد ولد هو نفسه في ليون **Lyons** في بلاد الغال. وكان الاخوان يكنان واحدهما للاخر منذ الطفولة اشد انواع البغض. ولذلك حاول كراكلا الآن وهو اكبر الاثنين ان يجعل نفسه الحاكم الوحيد وفي سبيل ذلك دبر اغتيال اخيه غيتا وهو في ذراعي والدته في جناحها الخاص. وكان غيتا قد دعي الى ذلك الجناح بحجة المحاولة للتوفيق والصلح. واصيبت جوليا نفسها بجراح في يدها اثناء محاولتها حماية ابنها[٣]. وقد حدث ذلك في سنة ٢١٢ وهي السنة التي منح فيها كراكلا حق الرعوية الرومانية لجميع سكان الولايات الاحرار. وكان آنئذ في الثالثة والعشرين ويكبر اخاه بسنة واحدة.

---

١) انظر في ص ٣٦٠.

٢) انظر: **Dio, Bk. LXXIX, ch. 3, § 3.**

٣) انظر: **Dio, Bk. LXXVIII, ch. 2, §§ 3-4.**

ومنذ ذلك الحين حكم على الامبراطورة انوالدة التعيسة «ان تبكي على موت الولد الواحد وعلى حياة ابنها الآخر[١]».

بعد ان بدأ كراكلا سياسة سفك الدماء لم يعرف اين يتوقف. وقد قتل جميع الذين اعتبرهم موالين لاخيه بالاضافة الى غيرهم وبلغ مجموع ضحاياه ما يقرب عشرين الفاً. وكان بين الضحايا بابينيان الذي ازدان به بلاط ابيه. وقد حكم كراكلا بقوة السيف واعجب بهانيبال فاقام له التماثيل في امكنة متعددة[٢]. وطلب من مجلس الشيوخ ان يدرج اسمه بين الآلهة. وقد كتب احد المؤرخين المعاصرين له هـــذا المقطع في وصف كراكلا:

انتسب انطونينوس الى ثلاثة عروق لم يتحلّ بأية فضيلة من فضائلها، ولكنه جمع في نفسه كل عيوبها. فاخذ من بلاد الغال التقلب والجبن والطيش ومن افريقيا الخشونة والقسوة ومن سورية التي منها اصله عن طريق امه اخذ الدهاء[٣].

وقفت والدة كراكلا مكتوفة الايدي تجاه هذا الفجور. ولم تجرؤ على ذرف دمعة واحدة على ابنها الذي اغتيل. وقد عهد اليها كراكلا بمراسلاته وبالاوراق الرسمية. وكان صالونها يضم بالاضافة الى بابينيان وخلفه اولبيان كلًّا من ديوجينس لائرتيوس Diogenes Laertius[٤] كاتب تراجم المؤرخين اليونان، وديو كاشيوس Dio Cassius المؤرخ والموظف في الدولة، وفيلوستراتس Philostratus السفسطائي، وقد اشرنا الى مؤلفاتهم في هذا الكتاب. وكان جالينوس الطبيب اليوناني المشهور عضواً في هذه الحلقة التي جمعتها فتنة هـــذه السيدة السورية ذات الاصل الوضيع نسبياً وتنوع معارفها. وكان اسم ابيها باسيانس Bassianus يعني الوضيع بينما اسمها دومنة يعني سيدة. ومثل هذه الصفات النسائية التي اظهرتها دومنة كانت نادرة

---

١) انظر: Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, vol. i (London, 1898), p. 141.

٢) راجع بشأن مساهمته في المعبد العظيم في هليوبولس ص ٣٤٤ من هذا الكتاب.

٣) انظر: Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. هذا المقطع مأخوذ من ترجمة Ernest Cary (London, 1927), vol. ix, p. 291. ويقول العلماء الباحثون اليوم ان المؤرخ ديو اعطى صورة بشعة لكراكلا خاصة لعدم مجاراته لمجلس الشيوخ الذي كان آنذاك عاجزاً تاماً.

٤) دعي كذلك بالنسبة الى لائرتس Laertes في كيليكية التي يذكرها Strabo, Bk. XIV, ch. 5, § 3. ولم يعين موقعها بالضبط حتى الآن.

الوجود عند السيدات الرومانيات الحقيقيات. وذكر عدد من المؤرخين بان اخلاقها كان يرتاب بها ولكن المؤرخ ديو لا يذكر لها اية فضائح .

كانت جوليا صدفةً في انطاكية حين وصلتها انباء اغتيال ابنها بتحريض من مكرينوس Macrinus في مدينة اديسا (٢١٧ م.) وكان مكرينوس قائد الحرس الامبراطوري وخلف ابنها في منصبه . وقد حاولت الانتحار جوعاً ليس بسبب حزنها على ابنها المكروه بل لانها لم تستطع التفكير بالعودة الى الحياة العادية بعد «ان كانت تأمل ان تصبح الحاكم الوحيد وان تجعل نفسها معادلة لسميراميس ونيتوكريس[١] خاصة وانها كانت نوعاً ما من نفس البلاد التي تحدّرتا منها[٢]». ونجحت اخيراً محاولاتها المتكررة في الانتحار ونقل جثمانها الى رومة ليدفن فيها .

تابعت عمل جوليا دومنة شقيقتها الصغرى المقتدرة جوليا ميزا Julia Musea[٣]. وقد ولدت ميزا في حمص ثم انتقلت الى رومة بعد زواج شقيقتها . وبقيت تعيش هناك في البلاط حتى مقتل ابن اختها كراكلا. وتمكنت بالنظر لما تمتعت بـــه من قوة عظيمة وحكمة سياسية وثروة ضخمة من التآمر بنجاح على قلب مكرينوس وتتويج حفيدها إلاكابالس[٤]. وكان زوجها رومانياً غنياً شغل منصب القيادة العليا

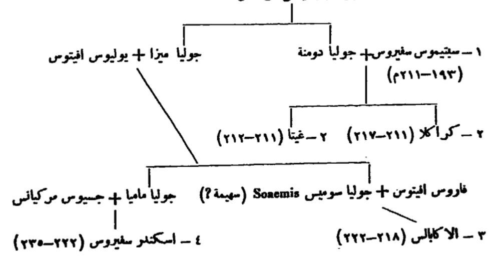
---

١) راجع بشأن الاعمال التي يعزوها الاقدمون الى هاتين السيدتين : Herodotus, Bk. I chs. 184-6.

٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 23, § 3.

٣) هي مؤنث كلمة ميزيوس Maesius وهو اسم روماني قديم .

٤) كان اسمه الاصلي باسيانس بالنسبة لجده الاكبر . وفيما يلي شجرة النسب للسلالة السورية :



في عدة ولايات ووصل الى رتبة القنصلية في سنة ٢٠٩ م. وكان والد إلاكابالس رجلاً سورياً من أفامية ولكن الصبي فيما ذكر قد ولد في حمص حيث ورث الكهانة. وقد دعم الجيش السوري هذا الشاب قريب جوليا دومنة البالغ من العمر الرابعة عشرة فهُزم مكرينوس وقتل في انطاكية سنة ٢١٨ م.

اله الشمس السوري يعبد في رومة

دخل الامبراطور الكاهن مدينة رومة منتصراً وهـــو يحمل الحجر الاسود المقدس في عربته . وكان هذا شعار الهه بعل الحمصي وهو اله الشمس الذي تسمى باسمه . وكان يحتفظ به في الاصل في معبد حمص الفخم الذي كان يزدان بالذهب والفضة والجواهر[١] والذي كان يتمتع بحق التجاء الناس اليه . واصبحت عبادة الاله السوري متفوقة في العالم الروماني . وكانت الطقوس التي ادخلت معها فخمة جداً ترافقها ذبائح ثمينة كانت تقدم على مذابح تنوء بالعطور وتصب عليها خمور معتقة لتختلط مع دم الضحايا . واضاف الامبراطور الى القابه العديدة لقباً جديداً وهو « الكاهن الاعلى للاله الشمس إلاكابالس الذي لا يُقهر » . اما بالنسبة لحكمه فكان تتمة لحكم نسيبه وهو عبارة عن سلسلة من اعمال الفجور والرعونة المتطرفـــة . وكانت جدته تدير امور الحكم وعندما شعرت بقرب سقوطه اقنعته بان يتبنى حفيدها الآخر اسكندر سفيروس[٢] ويعينه خلفا له . وفي سنة ٢٢٢ اغتال الحرس إلاكابالس وخلفه الاسكندر المذكور .

كان اسكندر آنذاك فتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره وكان والده سورياً رفيع المرتبة من مواطني عرقة[٣]. اما والدته وهي أرملة كشقيقتها فقد نودي بها اوغسطا ومارست الوصاية . وكان اسكندر آخر افراد هذه السلالة السورية واحسنهم . وقد اعاد التحف الدينية والحجارة المقدسة الى اماكنها الاصلية وكان سلفه قـــد وضعها في رومـــة كما انه منع عبادة شخصه وهو على قيد الحياة واقام في محرابه

---

١) انظر : Herodian, Bk. V ch. 5.

٢) الاسم الاصلي هو الكسيانس باسيانس ؛ انظر : Herodian, Bk. V, ch. 5.

٣) انظر : Dio. Bk. LXXIX, ch. 30, § 3.

الخاص تماثيل نصفية لزردشت وابراهيم والمسيح . واستمعت والدته لمحاضرات الفقيه اوريجين. وقد انقص الترف في البلاط وخفف الضرائب ورفع مستوى النقد وشجع الادب والعلم ولكنه لم تكن لديه ثقة في نفسه كافية لان يتحرر من وصاية امه . ولم يستطع الحد من تعسف الطبقة العسكرية . وقد قتل مستشاره ورئيس حرسه اولبيان في فتنة عسكرية . وفقد ديوكاشيوس قيادته في فتنة اخرى .

احتفل اسكندر في عام ٢٣٣ في رومة بانتصاره على الفرس بعد ان استرد منهم بلاد ما بين النهرين . وكان تجدّد الروح القومية يحرك الآن هذا الشعب في ظل قائد جديد هو ارتحشستا مؤسس السلالة الساسانية (٢٢٧ م .) على انقاض السلالة الفرتية[1] . وكان على الاسكندر ان يواجه هجوماً في بلاد الغال من القبائل الجرمانية حين قتل في ٢٣٥ في فتنة ذهبت ضحيتها والدته ايضاً .

فيليب العربي

بعد عشر سنوات من ذلك شاهدت رومة تتويج سوري آخر هو فيليب




قطعة نقود من عهد فيليب العربي
جانباً نقد برونزي من بعلبك ضرب باسم فيليب العربي ٢٤٤ — ٢٤٩
ويظهر احد الجانبين منظراً جانبياً وامامياً لمعبد جوبيتر في بعلبك

العربي . وقد ولد في قرية صغيرة في حوران[2] وكان قائداً للحرس حين اغتيل سلفه وهو يقابل الفرس فنادى به الجنود خلفا له . وقد صادق مجلس الشيوخ على هذا

---

١) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 3, §§ 1-4. ; Herodian, Bk. VI, ch. 2.

٢) انظر في ص ٣٥٠ .

الاختيار في سنة ٢٤٤. ولم يجعل هذا الامبراطور السوري اسمه مكروهاً باي استغلال استبدادي للسلطة، الا ان ذكرى الاساليب الدنيئة التي استخدمها لاتمام القضاء على سلفه المحبوب لم تنس ابداً. وقد اكسبته حملاته ضد القبائل على الدانوب الاسفل لقب جرمانيكس مكسيموس Germanicus Maximus. وكانت من نصيب هذا السوري العربي ان يرئس في سنة ٢٤٨ احتفالات ذكرى مرور الف سنة على تأسيس رومة. وقد جرت الالعاب وغيرها من امور التسلية بروعة عظيمة. وكان الامبراطور يعتبر مؤيداً للمسيحية اذا لم نقل مسيحياً تماماً ويقال ان بعض الرسائل قد وجهها اوريجين اليه والى الامبراطورة[1]. ومع ذلك فلم يترك اي تأثير على الكنيسة. ويجمع المؤرخون على اعتبار قسطنطين اول امبراطور مسيحي. وفي عام ٢٤٩ لقي نفس المصير الذي حل بأباطرة كثيرين آخرين في هذه الفترة وهو الموت العنيف على يد الفرق المتمردة. ويقال ان خلفه قد استورد اسوداً من افريقيا واطلقها في الصحراء السورية مما ازعج سكانها الشديدي المراس.

التوسع الاقتصادي

لقد تجلى التوسع الاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بعدد الجاليات التي يمكن تتبع تاريخها منذ بداية الامبراطورية حتى نهايتها. وحصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط وخاصة في القرنين الثاني والثالث من قبل «السيري Syri» وهو لفظ اطلق على السكان الذين اصلهم من شرقي المتوسط. وملأت السفن السورية البحر كما في الايام السالفة. وقد انتعشت الخصائص الفينيقية القديمة وهي النشاط والتكيف وحب التجارة المربحة والمقدرة على عقد الصفقات واتمام العمليات التجارية الكبيرة والصغيرة «وكان السوريون من بين جميع شعوب الامبراطورية اكثرها نشاطاً في هذه المغامرات التجارية[2]».

انتشرت الحواضر السورية بمظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والدينية على طول شاطئ المتوسط واتبعت في الداخل الطرق التجارية الرئيسية ومجاري الانهار

١) انظر: Eusebius, Bk. VI, chs. 34, 36, 39.

٢) انظر: Arthur E. R. Boak, *A History of Rome to 565 A. D.*, rev. ed. (New York, 1930), p. 319.

الكبرى . ومن جملة الجزر كانت ديلوس[١] وصقلية مراكز جاليات سورية قوية . ومن الموانئ الايطالية كانت نابولي واوستيا مرغوبتين بصورة خاصة . وقد وصل التجار السوريون عن طريق الدانوب الى بانونيا Pannonia كما وصلوا عن طريق الرون الى ليون . وكان لرجال الاعمال السوريين مراكز في اسبانيا ولكنهم في بلاد الغال كانوا ناشطين بصورة خاصة . وقد اكتشفت في لبنان رسالة تعود الى اواخر القرن الثاني موجهة الى البحارة في مدينة آرل Arles المكلفين بشحن الحبوب[٢]. وتذكر كتابة كتبت بلغتين وجدت على قبر من القرن الثالث في بلاد الغال تاجراً سورياً من القنوات Kanatha كان يملك معملين في حوض الرون حيث كان يستورد البضائع من اكيتانيا[٣]. وكان اسمه ثيّم Thayyim (او يوليان) ابن سعد .

احتكر التجار السوريون بصفتهم مستوردين مقداراً كبيراً من تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، وكصيارفة لم يكن لهم منافس . وكانت سلعهم الرئيسية تتألف من الخمور والتوابل والحبوب والاواني الزجاجية والمنسوجات والجوهرات. وكانت بعض هذه السلع تستخدم كنماذج تعلم اصحاب المصانع الوطنيون والصناع تقليدهـــا بالتدريج . وحيثما كان التجار السوريون يقيمون فهناك كانوا يشيدون معابدهم. وكان بعل غزة يعبد في اوستيا وبعل بيروت يعبد في اماكن بعيدة حتى اسبانيا. وعرف اله بيروت باسم بعل مرقود Marqod[٤] (بالمركودس Balmarcodes اي اله الرقصات) ووجد معبده في دير القلعة (على رأس تلة تشرف على المدينة) . وقد استعملت بعض اعمدته حديثاً في بناء الكاتدرائية المارونية في بــــيروت . ووجدت في بتيولي Puteoli بايطاليا مذابح قدم عليها احد المصلين جَمَلـــين من

---

١) انظر في ص ٣٠١ .

٢) انظر : J. P. Waltzing. *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains*, vol. iii, (Louvain, 1899), pp. 526-27.

٣) انظر : Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain* 4 th. ed., p. 100.

٤) من كلمة رقدَ اي رقص . راجع : Georgius Kaibel, *Epigrammata Graeca* (Berlin, 1878), No. 835; Louis Jalabert, « Inscriptions grecques et Latines », *Mélanges de la faculté orientale* (Beirut, 1906), vol. i, pp. 181-188.

الذهب الى الالاهة النبطية دوسارس Dusares (ذو الشرى Dushara)[١]. وترك متعبدون آخرون في هذه المدينة كتابات مكرسة لجوبيتر اله هليوبولس. وبينما كانت هذه النصب التذكارية في الغرب تكتب باللاتينية بصورة رئيسية فإن احداها من المقيمين التدمريين في رومة كانت مكتوبة بالآرامية وموجهة الى آلهة تدمر[٢].

لم يكن التجار والمستعمرون والجنود والعبيد السوريون اقل حماسة في نشر الديانة المسيحية مما كانوا في نشر العبادات الوثنية. وظهر اثرهم في تطور المسيحية في الغرب في ناحية التقشف والرهبنة والعبادة المتصفة بشدة العاطفة. وكان تقديس الصليب واتخاذه رمزاً دينياً من العناصر المسيحية الاخرى التي ادخلها السوريون الى اوربا. وكانت جاليتهم في رومة قوية حتى انها قدمت للكنيسة عدداً من البابوات[٣].

---

١) راجع بشأن خرائب معبده في سيع Sr بحوران: Howard C. Butler, *Syria*, Div. II, Sec. A. (Leyden, 1919), pp. 385-90.

٢) انظر: *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. vi (Berlin, 1876), No. 710.

٣) انظر: Louis Bréhier, *Les Origines du crucifix dans l'art religieux* (Paris, 1908), pp. 39-43, 54-55, 59.

الفصل السابع والعشرون

سورية في العهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير

ان القرن الثالث الذي حصل فيه التغلغل الديني والاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بصورة سريعة قد شهد نهاية مرحلة من الحضارة اليونانية اللاتينية وبدء مرحلة اخرى. وكان نموذج الحضارة الموحدة تقريباً الذي كان يميز الامبراطورية حتى ذلك الحين قد اخذ بالتفكك. وبدأت اسسه المادية تنهار بفعل الحروب الاهلية الطويلة والهجمات الخارجية المتكررة. وتعرضت دعائمه الفكرية والروحية المتداعية لغزو موجات جديدة من الافكار المسيحية . فكان التغير منذ ذلك الحين سريعاً وتاماً. واخذت مرحلة حضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن اتحاد المسيحية مع الهلينية الوثنية تحل مكان المرحلة الحضارية القديمة . وكان لها لون مسيحي يوناني شرقي ومركزها القسطنطينية .

القسطنطينية العاصمة الجديدة

وقد سميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع امبراطور آخر سنة ٣٠٦ ثم اصبح امبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤ و ٣٣٧ . وكان تأسيسها في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوربا بآسيا. ودشنت في ١١ آيار ٣٣٠ كعاصمة جديدة. وقد منحها موقعها الستراتيجي الجغرافي فوائد عسكرية واقتصادية واتحدت كل هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعي الذي يستطيع العالم الشرقي ان يتجمّع حوله بسهولة . وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومة القديمة على نهر التيبر .

ويدل هذا التحول ذاته على الاعتراف بالاهمية الفائقة للقسم الشرقي من الامبراطورية. وكانت هذه الولايات الآن اغناها في الثروة والموارد الطبيعية .

واتجهت كل الامبراطورية في ذلك الاتجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضرة الرئيسية وهي فارس التي كانت رومة في نزاع مستمر معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد.

المسيحية : الديانة الجديدة

قبل ان يؤسس قسطنطين عاصمة جديدة للدولة اعترف بديانة رسمية جديدة. ففي رسائله الرسمية من عام ٣١٢ و ٣١٣ لم يظهر التسامح للمسيحيين في مملكته فحسب بل منحهم عطفه ايضاً[١]. وفي سنة ٣٢٥ عقد مجمعاً كنسياً من كل اساقفة الامبراطورية في مدينة نيقية في بيثنيا Bithynia في آسية الصغرى وكان هذا اول مجمع من نوعه. وقد حكم فيه على الآريوسية[٢]. ونظمت مجموعة تعاليم الدين المسيحي بصورة نهائية في ما عرف بالعقيدة النيقية Nicene Creed.

ويرجح ان تكون قصة اعتناق قسطنطين المسيحية من باب الاساطير. وتروي هذه القصة انه شاهد في السماء اثناء زحفه على رومة عام ٣١٢ صليباً متألقاً عليه كتابة يونانية تقول: «بهذا ستغلب»[٣]. والذي نعلمه بالتأكيد هو ان قسطنطين استخدم اللواء الكبير وعليه اشارة الصليب (labarum) كعلم امبراطوري وبواسطته تقدم نحو النصر على منافسه ماكسنتيوس Maxentius[٤]. وسواء كان اعتناق قسطنطين المسيحية قد تم بدافع المصلحة او بدافع الايمان فليس لذلك اهمية تاريخية. والامر الثابت هو ان المسيحية بعد ان كانت فيما مضى عبادة غريبة غامضة اصبحت في عهده الآن الديانة الرسمية للامبراطورية. واذا كانت بلاد اليونان قد سيطرت على فكر الرومان من قبل فان سورية الآن قد سيطرت على نفوسهم.

---

١) انظر: Eusebius, Bk. X, ch. 5.

٢) الاريوسية هي محاولة لتحديد علاقة اقانيم الثالوث على اساس تمييزها وتبعيتها الواحدة للاخرى. وتقول بان الابن هو من طبيعة مشابهة وليست مساوية للاب. وكان اتجاهها يميل الى انكار ألوهية المسيح. اما مؤسسها فكان آريوس الذي عاش في الاسكندرية في هذه الفترة. وقد حمل المبشرون الاريوسيون القوط واللومبارديين وغيرهم من القبائل الجرمانية على اعتناق مذهبهم ؛ راجع: Sozomenus, *Historia ecclesiastica*, Bk. I, chs. 20, 21.

٣) قارن مع: Sozomenus, Bk. I, ch. 4.

٤) قارن مع: Lactantius, ch. 44; Eusebius, Bk. IX, ch. 9. § 2.

وفي هذه الفترة كان اكثر الرجال نفوذاً في الامبراطورية قد اصبحوا من اتباع المسيح مع ان غالبية السكان بما فيهم اعداء قسطنطين كانوا لا يزالون وثنيين. وكان النظام والتنظيم والثروة والقوة الموجهة في جانب الاقلية. وكانت هيلانة والدة قسطنطين مسيحية تقية. وقد قامت بزيارة الى اورشليم حيث يروى انها وجدت الصليب الحقيقي في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة. وفي ذلك المكان شيّد قسطنطين كنيسة القيامة الاولى. وعملت الطقوس المتصلة بالاماكن المقدسة التي ادخلها الامبراطور ووالدته على الاسراع في جعل سورية مسيحية.

وقد عمل هذان الحادثان في عهد قسطنطين وهما نقل العاصمة من رومة الى القسطنطينية والاعتراف الرسمي بالمسيحية على جعل عهده من ابرز المراحل في تاريخ اوربا. كما انهما يبرران تلقيبه بالعظيم. وقد قدّر لهذه الامبراطورية الجديدة التي دشنها قسطنطين والتي كانت مسيحية في عقيدتها ويونانية في لغتها وشرقية في اتجاهها ان تدوم مع ما تخللها من احداث خطيرة حوالي احد عشر قرناً وربع القرن. وقد اصبحت اعتباراً من القرن السابع بمثابة حصن ضد الاسلام وسقطت اخيراً في عام ١٤٥٣ تحت وطأة هجوم المدافعين الجدد عن الاسلام نعني الاتراك العثمانيين.

بقي استمرار الامبراطورية من ناحية خارجية ونظرية قائماً لعدة سنوات بعد تأسيس القسطنطينية. ومع ذلك فان شطري الامبراطورية قد انفصلا في الواقع اكثر من مرة وحكمها اباطرة مختلفون. وحصل الانقسام النهائي في سنة ٣٩٥ حين توفي تيودوسيوس الكبير وخلفه ابناه هونوريوس واركاديوس. الواحد على الغرب والآخر على الشرق. وكان تيودوسيوس (٣٧٩—٣٩٥) آخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة. ومنذ ذلك الحين وجدت امبراطورية رومانية شرقية كان النجاح حليفها بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب. واخيراً سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانية. وقد كسب تيودوسيوس لقب الكبير بصموده الباسل امام القوط ولدعمه المسيحية الخالية من البدع. واعتنق جميع خلفاء قسطنطين باستثناء يوليان وحده (٣٦١—٣٦٣) الدين المسيحي.

التقسيات الادارية

كانت سورية تقسم في نهاية القرن الرابع الى عدة مقاطعات. احتفظ قسمها

الشمالي باسم سورية وقسم الى جزئين: سورية الاولى Syria Prima ومركزها انطاكية ومن مدنها الرئيسية سلوقية ولاوديسة وجَبلة وبيرويا (حلب) وخالكيس اد بيلوم Chalcis ad Belum ؛ ثم سورية الثانية Syria Secunda ومركزها مدينة افامية ومن المدن التابعة لها ابيفانية (حماة) واريتوزة (الرستن) ولاريسة (شيزر). وقسمت فينيقية ايضاً الى قسمين: فينيقية الاولى Phoenicia Prima ومركزها صور ومدنهـا الرئيسية هي بتولمايس (عكا) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون Botrys وطرابلس وعرقة وارواد؛ ثم فينيقية الثانية او فينيقية التي تقابل لبنان Phoenicia ad Libanum ومركزها حمص وتضم مدن دمشق وهليوبولس وتدمر. وكانت فينيقية الاولى هي فينيقية البحرية المعروفة في التاريخ. اما الثانية فكانت مقاطعة داخلية تضم مدناً لم يسبق ان كانت تابعة لفينيقية او لبنان. وقد قسمت فلسطين الى ثلاثـة اجزاء: فلسطين الاولى Palaestina Prima وكانت قيصرية مدينتها الرئيسية وضمت اورشليم ونيابولس (نابلس) وجوبا Joppa (يافا) وغزة وعسقلان وغيرها من المدن؛ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda ومركزهـا سكيثوبولس (بيسان) ومدنها الرئيسية جَدَره وطبرية؛ ثم فلسطين الثالثة Palaestina Tertia وكانت البتراء مدينتها الرئيسية وقد تشكلت من الولاية العربية السابقة.

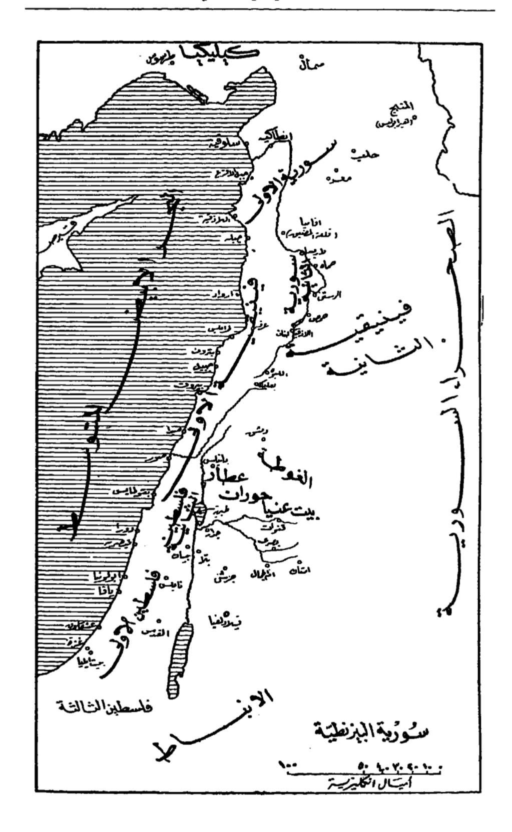
التجارة

ويبدو ان تقسيم الامبراطورية وتجزؤ ولايتها السورية لم يلحق الضرر بعلاقات سورية التجارية الداخلية والخارجية. ففي العصر البيزنطي كما في العصر الذي سبقه كانت جميع تجارة المتوسط تقريباً بايدي السوريـين واليونان[1]. ويصف القديس جيروم التجار السوريين بانهم كانوا يجتازون العالم الروماني كله في القرن الرابع يدفعهم حبهم للتجارة المربحة ويتحدون جميع المخاطر[2]. ولم يتوقف ازدهار مراكزهم في بلدان البحر المتوسط كلها. وكان يمكن العثور عليهم في رومة ونابولي وقرطاجة ومرسيليا وبوردو وغيرها من المراكز التجارية. وكانوا يستوردون الخمـور من

---

١) انظر: J. B. Bury, *History of the Later Roman Empire* (London, 1923) vol. ii, p. 316.

٢) انظر: Cumont, *Religions orientales*, p. 100.


كيليكيا
حلب
انطاكية
سلوقية
فينيقية
الثانية
الغوطة
حوران
بيت عنيا
القدس
فلسطين الثالثة
سورية البيزنطية
أميال انكليزية
١٠٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠

عسقلان وغزة والارجوان من قيصرية والاقمشة المنسوجة من صور وبيروت والفستق ونصال السيوف من دمشق والاقمشة المطرزة من مدن متعددة. وكان القماش المطرز مطلوباً بصورة خاصة لاستعماله لحاجات الكهنوت.

كان الحرير من السلع القديمة التي اتخذت الآن اهمية جديدة وسيطر السوريون على تجارته باجمعها. وتؤكد المرويات ان بيوض دود الحرير من الصين قد ادخلت لاول مرة باانابيب من الخيزران الى القسطنطينية في منتصف القرن السادس (في عهد يوستنيان) على يد رهبان يظهر انهم كانوا من النساطرة[١]. ولكن هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بانه كان للسوريين بعض المعرفة بتربية دود الحرير منذ زمن بعيد وذلك بواسطة دود الحرير البري[٢]. وكانت المواد الحريرية الصينية تنقل بطريق البتراء الى احد الموانئ الفينيقية حيث وجب صبغها ونسجها او ربما اعادة نسجها قبل ان تصبح مقبولة في الاسواق الرومانية. وهكذا ارتبطت صناعة الحرير في سورية بصناعة الارجوان. وسرعان ما احتكرت الدولة البيزنطية هاتين الصناعتين.

وظلت سورية تستورد التوابل وغيرها من منتجات البلاد الحارة من الجزيرة العربية والهند. وكانت سورية تصدر بالمقابل الى هذه البلاد والى الصين ايضاً الزجاج والادوات المطلية بالميناء والاقمشة الناعمة. ونسمع بوجود تاجر سوري في الصين منذ القرن الثالث الميلادي[٣].

وكما هي الحال اليوم بالنسبة للمهاجرين السوريين فان المهاجرين في العصر البيزنطي كانوا يستوطنون عموماً في بلاد هجرتهم الى امد غير محدود. وكان بعضهم يعود الى وطنه بصحبة زوجات اجنبيات. وتوجد فوق باب احد الجوامع في قرية تدعى امتان[٤] اليوم على حدود الصحراء السورية كتابة اثرية يونانية وهي بالاصل

---

١) انظر: Procopius, Bk. VIII, ch. 17, §§ 1-8; Bouchier, p. 162.

٢) انظر: F. Hirth, *China and the Roman Empire* (Leipzig, 1885. reprinted in China, 1939), pp. 255-6; Consult Robert S. Lopez, « Silk Industry in the Byzantine Empire », *Speculum*, vol. xx (1945), pp. 1-42.

٣) انظر: Hirth, p. 306.

٤) جنوب شرقي صلخد في حوران. انظر: Dussaud, *Topographie*, p. 355.

كتابة تذكارية على احد القبور من منتصف القرن الرابع لزوجة من روان في بلاد الغال ماتت «بعيدة عن وطنها»[١]. وشعرت الجالية السورية في اورليان كأنها في وطنها حتى انه حين دخل الملك غونتراند Gontrand المدينة في سنة ٥٨٥ كان افرادها بين الذين استقبلوه وكانوا يترغون بفضائله «بلغة السوريين واللاتين واليهود»[٢]. وبلغ من نفوذ جالية باريس في عهد الميروفنجيين حوالي ٥٩١ ان انتخبت احد اعضائها وهو تاجر سوري يدعى يوسيبيوس Eusebius اسقفاً للمدينة وسيطرت على الوظائف الكنسية[٣].

الصناع المهاجرون

كانت اكثرية المهاجرين السوريين من رجال الاعمال ولكن بعضهم كانوا عبيداً وجنوداً ورهباناً وصناعاً. وعمل المعماريون والنحاتون السوريون في بلادهم على تطور الاساليب الهلنستية المتأخرة التي تدعى عادة بالبيزنطية. ومنذ اوائل القرن الثاني استخدم المعماريون من الولايات الشرقية في رومة[٤]. وكان المهندس الذي بنى لتراجان جسراً فوق الدانوب اثناء الحملة الداسية الثانية دمشقياً يدعى ابولودورس Apollodorus . وهو نفسه الذي وضع بعد ذلك مخطط فوروم تراجان مع المعبد والمكتبة والاعمدة التي لا تزال قائمة وذلك تخليداً لذكرى انتصارات سيده . وكان اسلوب وضع التماثيل على الاعمدة الضخمة من مميزات فنون سورية الشمالية بالاصل .

ومن المرجح ان يكون الصناع الفنانون من سورية قد استدعوا لتجميل العاصمة الجديدة رافنا Ravenna التي نقل اليها هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) بلاطه لتجنب مخاطر الهجمات الجرمانية . وبقوا هناك ليعلموا حرفتهم للصناع المحليين . وقد ادخلوا صناعة الفسيفساء وغيرها من اساليب التزيين . وفي القرن الخامس اصبحت رافنا العاصمة الفنية لشمالي ايطاليا. وقد وصفت مدرستها في الفن والهندسة

---

١) انظر : *Revue archéologique*, vol. xxxix (1901), pp. 375-6.

٢) انظر : Gregory of Tours, *Historiae Francorum*, Bk. VIII, ch. 1.

٣) انظر : Gregory, Bk. X, ch. 26.

٤) انظر : Pliny, *Epistulae ad Traianum*, No. 40

المعمارية بانها « نصف سورية »[١]. واصبحت البندقية بعد رافنا ممثلة الحضارة الشرقية في البلاد الايطالية. ووصفت مدينة رافنا نفسها ايضاً بانها نصف سورية وقد نصب فيها اساقفة سوريون. وهناك زائر من بلاد الغال كان مرأى السوريين امراً مألوفاً لديه في جنوبي فرنسا وقد لاحظ وجود سوري كان « يرتل المزامير »[٢]. ولا بد انه كان يوجد عدد من هؤلاء الشمامسة والرهبان.

الادب والتعليم

اتصفت الحياة الفكرية في سورية في اول العهد البيزنطي بالاضطراب. وقد استمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين لعدة سنوات بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية. ولم تكن قد اندثرت بعد الافلاطونية الحديثة التي بلغت ازهى عصورها في القرن الثالث والقسم الاول من القرن الرابع والتي كان من ابرز دعاتها بورفيريوس ويمبليخوس السوريان[٣]. وكان آباء الكنيسة يشقون طريقهم الى الامام كقادة للفكر. وكان السفسطائيون والبلغاء يتراجعون ولكنهم لم يزولوا تماماً.

ليبانيوس

كان ليبانيوس (٣١٤ — حوالي ٣٩٣) اعظم البلغاء السوريين في القرن الرابع وهو من مواطني انطاكية ويظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان. وبعد ان دَرَس في انطاكية واثينة انشأ مدرسة للبلاغة في العاصمة الامبراطورية الجديدة. وعلّم ايضاً في نيقية ونيكوميديا وعاد في سن الاربعين الى مدينته الاصلية حيث بقي يعمل لمدة اربعين سنة كخطيب ومعلم وسياسي وقد حظي بشرف صداقة كبار الموظفين والاباطرة.

لم يهتم ليبانيوس ابداً بتعلم اللاتينية[٤] واحتقر المسيحية وعدّها عدوة للحضارة

١) انظر : O. M. Dalton, *Byzantine Art and Architecture* (Oxford, 1911), pp. 8, 77.

٢) انظر : Sidonius Apollinaris, *Epistulae*, Bk. I, No. 8.

٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٩.

٤) انظر : *Epistulae*, No. 923; cf. No. 956.

الصحيحة ولم يرَ خيراً الا في الهلينية. وقد خاب ظنه وتألم عندما تخلى انجب تلاميذه في انطاكية وهو المعروف فيما بعد باسم يوحنا فم الذهب عن آلهة اليونان وفضل اتباع المسيح[١]. ومن تلاميذه ايضاً باسيليوس الكبير (٣٢٩ — ٣٧٩) الذي درس على ليبانيوس إما في القسطنطينية او في انطاكية. واصبح بعد ذلك اسقف قيصرية في كبدوكية واحد المدافعين عن الارثوذكسية ضد الاريوسية. ولا تزال الطقوس التي وضعها القديس باسيليوس ونقحها يوحنا فم الذهب تستعمل في كنائس الروم الارثوذكس. وقد تعكرت شيخوخة ليبانيوس بآلام جسدية سببها صاعقة اصابته وانحطاط العلوم الوثنية بعد موت الامبراطور يوليان في ٣٦٣ وقد اسف لموته ليبانيوس لانه كان يعجب به ويرعاه.

تعطينا كتابات ليبانيوس التي وصلتنا واغلبها من الرسائل والخطب صورة حية للازمنة والامكنة التي عاش فيها[٢] كما انها تفتح امامنا نافذة صغيرة يمكن ان تعطينا لمحة عن الاساليب التربوية في ذلك العهد. وكانت الدروس في انطاكية تستمر في اشهر الشتاء والربيع اما الصيف فيخصص للنشاط المتصل بالاحتفالات والاعياد. وكانت الحصص الدراسية تبدأ في الصباح الباكر وتدوم حتى الظهر. وكان بعض التلاميذ صغار السن في السادسة عشرة فقط. اما التعليم العالي فكان في ايدي البلغاء. وكان هؤلاء ينتخبون كاساتذة من قبل مجلس الشيوخ المحلي في المدن ومن قبل الجماعات عموماً في المدن الصغيرة. وكان البلغاء يعلمون ويخطبون لكي يكونوا مثالاً للطلاب وكانوا مسؤولين عن النظام. وانتظموا في انطاكية في ثلاث نقابات لكل منها رئيسها الخاص. وكان البلغاء يتقاضون اجور خدماتهم من المدن والطلاب. وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهاج المدرسي. ولم يدرس اللاتينية سوى الذين يفكرون بالحصول على وظيفة حكومية. وكانوا يؤكدون على اهمية المنطق. ودرس ارسطو من جديد بعد ان انتبه بورفيريوس الى اهميته.

---

١) قارن مع : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

٢) ذكرت فقرات منها في ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.

اميانس مرسلينوس

كان اميانس مرسلينوس (حوالي ٣٣٠ – ٤٠١) احد الذين راسلون ليبانيوس وهو انطاكي مثله . وقد ولد من اسرة يونانية نبيلة ثم التحق بالجيش في سن مبكرة وحصل على مراتب عليا اثناء خدمة طويلة مشرفة قضاها في بلاد ما بين النهرين وبلاد الغال . وفي سن متأخرة كتب باللاتينية تتمة لكتاب تاسيتوس لم يصلنا منها سوى جزء فقط. ويهتم فيها اكثر من المعتاد بالاخلاق العرقية والشخصية وبالمؤسسات الاجتماعية . ويمكن اعتبار اميانس آخر كاتب قديم باللاتينية يستحق عن جدارة لقب المؤرخ . وكان في موقفه من المسيحية اكثر تسامحاً من ليبانيوس . وكان يشبهه في اعتزازه اللامتناهي بمدينته وبلاده الاصلية . فقد كانت انطاكية غنية في البضائع المستوردة والمحلية حتى انه ليس لها منافس[١]. وكانت فينيقية «التي تقع في سفح جبل لبنان منطقة مملوءة بالسحر والجمال»[٢]. وكانت فلسطين بلاداً «تكثر فيها الاراضي المزروعة والمعتنى بها كثيراً»[٣]. وكانت بلاد العرب الرومانية «بلاداً تنتج انواعاً كثيرة من البضائع وتنتشر فيها الحصون والقلاع القوية» وتضم بين مدنها الكبرى «بصرى وجرش وفيلادلفيا (عمان) وجميعها منيعة جداً بسبب اسوارها القوية»[٤].

يوحنا فم الذهب

اصبحت انطاكية بفضل كثرة ما انتجه المؤلفون مثل ليبانيوس واميانس العاصمة الفكرية لسورية الشمالية . وقد تعلم فيها آريوس ونسطوريوس كلاهما[٥]. وازدادت

---

١) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 8.

٢) انظر : Ammianus, Bk, XIV, ch. 8, § 9.

٣) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 11.

٤) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 13. وقد نشر مؤلفات اميانس وترجمها : John C. Rolfe, *Ammianus Marcellinus*, 3 vols. (London and Cambridge, Mass. 1935-8).

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

تألقاً بالمآثر القيمة للخطباء والمؤلفين المسيحيين وكان ابرزهم يوحنا فم الذهب (٣٤٧ – ٤٠٧).

تعلم يوحنا ليعمل في القضاء ولكنه سرعان ما تخلى عن ذلك ليتبع حياة الزهد في جبل قرب انطاكية. ويبدو ان هذا الجبل هو جبل سلبيوس Silpius الوعر الذي يقع جنوبي انطاكية حيث خلد ذكره باسم مار يوحنا الى جانب وليّ مسلم[١]. واحتفظ الناس هناك خلال العصور بنور ضئيل يشع في احدى المغاور. وقد اتصف وعظه الفصيح في مدينته بالدعوة الى نبذ الميوعة في الاخلاق والترف في الحياة. وكان الاغنياء يهاجمون لحصولهم على ثروتهم بالعنف والخداع والاحتكار والربا الفاحش ولموقف اللامبالاة الذي وقفوه إزاء قضية المحرومين من الامتيازات والمساكين[٢]. وكانت رسالته رسالة اجتماعية في عصر كهنوتي لاهوتي. وبلغ من شهرته كواعظ ان انتخب في عام ٣٩٨ بطريركاً للقسطنطينية[٣]. وهناك باع الكنوز التي جمعها سلفه وانفقها على المحتاجين واتبع نفس الطريقة في الوعظ. وكان يؤكد بأن خيانة الزوج لا تقل شراً عن خيانة الزوجة. واخذ يطهر الادارة الكنسية مبتدئاً من الاعلى.

ان مثل هذا الاصرار الشديد على الاصلاح الاخلاقي والاجتماعي كانت نتيجته المؤكدة وقوع يوحنا فم الذهب في نزاع مع البلاط. وكان بين اقوى اعدائه الذين نقموا عليه يودوكسيا Eudoxia المتكبرة زوجة الامبراطور اركاديوس التي قارنها يوحنا في احدى مواعظه بهيرودية كما احتج على اقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة[٤]. وقد نفي مرتين من العاصمة وتحمل متاعبه كلها بثبات وصبر الى ان توفي وهو في طريقه الى المنفى في اقصى حدود الامبراطورية قرب القفقاس. وقد اجبر على المسير مسافات طويلة متعرضاً لاشعة الشمس والامطار فانهارت قواه وتوفي

---

١) هو حبيب النجار.

٢) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

٣) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, chs. 3, 5.

٤) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, chs. 16,20; Palladius, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi*, Bk. VIII.

في الطريق[١]. ونقل جثمانه فيما بعد الى القسطنطينية ودفن في احتفال مهيب. وقد اكسبته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الاولى لقباً عرف به بعد وفاته وهو «الذهبي الفم». وكانت مواعظه المتلئة بالفصاحة اكثر منها بالعلم تلقي بعض الضوء على الحياة الاجتماعية في عصره[٢]. ويدوم اعتبار يوحنا على مدى العصور كمعلم من اشهر معلمي الاخلاق المسيحية الاولى الذين انجبتهم الكنيسة[٣].

يوسيبيوس

وكان من آباء الكنيسة البارزين في ذلك العصر يوسيبيوس (٢٦٤ — حوالي ٣٤٩) اسقف قيصرية في فلسطين واول مؤرخ كنسي عظيم. وقد ولد في فلسطين وربما في قيصرية ذاتها وتثقف في انطاكية. وقد اشترك مع عدد من الاساقفة المعاصرين فدافع في اول الامر عن قضية آريوس. ولكنه في مجمع نيقية حيث عهد قسطنطين اليه بمهمة رفيعة وهي افتتاح جلسات المجمع ادان زعيم الهراتقة. وقد القى خطبة مدح فيها الامبراطور كما جلس على يمينه. وبقي يوسيبيوس طيلة حياته صديقاً حميماً لقسطنطين ومعجباً به ومتحمساً له. وكان من اعظم الرجال المثقفين في عصره. وقد وضع عدة مؤلفات تاريخية وسبقت الاشارة الى احدها وهو التاريخ الكنسي *Ecclesiastical History*. ويصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحية وعلاقتها بالامبراطورية.

وهناك مؤرخ آخر ولد في قيصرية وهو بروكوبيوس[٤] (توفي حوالي ٥٦٣) المؤرخ الكنسي لعصر يوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) المليء بالاحداث. وقد عين في

١) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, ch. 28; Palladius, Bk. XI.

٢) راجع بشأن المجموعة الكاملة لمؤلفاته: *Patrologia Graeca*, ed. J.-P. Migne, vols. xlvii–lxiv (Paris, 1862-3).

وبشأن ترجمة مواعظه ورسائله راجع: *The Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, ed. Philip Schaff, ser. 1, vols. ix-xiv (New York, 1889-90).

٣) وجدت على جدار كنيسة آيا صوفيا عام ١٩٤٦ صورة له من الفسيفساء مخبأة تحت الملاط التي غطاها به الاتراك مع غيرها من الصور من عدة قرون.

٤) نشرت مؤلفاته وترجمت من قبل: H. B. Dewing, *Procopius*, 7 vols. (London and Cambridge, Mass., 1914-40).

٥٢٧ حين كان شاباً سكرتيراً خاصاً ومستشاراً قانونياً للقائد الروماني بليساريوس Belisarius[١] ولذلك صحبه في جميع حملاته في آسيا وافريقيا وايطاليا. ثم جعله يوستنيان عضواً في مجلس الشيوخ. وكان بروكوبيوس يكتب احياناً كمسيحي واحياناً اخرى كمتحمس لآلهة اليونان. ومما يجعل مادته التاريخية موثوقة هو ان بعضها مستقى من المرويات الشفهية واغلبها نتيجة معلوماته الشخصية.

ويتصل عدد كبير من مشاهير المسيحيين بسورية الجنوبية مع ان اصلهم ليس سورياً. ومن ابرز هؤلاء القديس جيروم (٣٤٥ – ٤٢٠). وقد اوصله مزاجه في التقشف الى دير في بيت لحم سنة ٣٨٦ ومنه انتقل الى الصحراء السورية حيث امضى خمس سنوات في حياة العزلة بين النساك. وساعد فيما بعد في ادخال حياة الرهبنة الى الغرب. ولعل من اعظم مآثره ترجمته التوراة الى اللغة اللاتينية وسميت الترجمة بالفلكاته Vulgate واستخدمت منذ ذلك الحين كترجمة اساسية لاجل الصلوات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية.

غزة

كانت غزة بالاضافة الى قيصرية المدينة الوحيدة في الجنوب التي احتفظت بشعلتها الفكرية في هذا العصر. وكانت اورشليم لا تزال تقاسي من الخراب الذي الحقه بها الرومان. وكان اصل سوزومين (سوزومينوس) المؤرخ الكنسي اليوناني في القرن الخامس من قرية تسمى بتيليا Bethelia او بيت ايل Bethel بجوار غزة وكان والداه مسيحيين. وتظهر كتاباته معرفة وثيقة بتلك المدينة وضواحيها. وقد اهدى تاريخه الى تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠). ولكن شهرة المدينة تعود بصورة رئيسية الى مدرسة للبلاغة ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠ م. وقد تأثرت المدرسة بجو الاسكندرية العلمي وكانت بين حين وآخر تتبادل المعلمين والطلاب مع قيصرية وغيرها من مراكز العلم. وكان بعض اساتذتها من الافلاطونيين الحديثين ولكن الاكثرية دعوا انفسهم بالسفسطائيين المسيحيين. وكانت مؤلفاتهم تشتمل على شروح للتوراة ورسائل ضد الملينيين او غير المسيحيين. وعلى وجه

---

١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨.

العموم كانت مدن الساحل الجنوبي اقل انهماكاً في المشاحنات الكنسية من انطاكية وغيرها من مدن الشمال .

بيروت كمركز علمي

كانت بيروت المدينة الوحيدة من بين مدن سورية البيزنطية كلها التي نافست انطاكية في الزعامة الفكرية. ومرد هذا الى انها كانت تضم مدرسة الحقوق[١]. وهو علم اعتني به بصورة خاصة في العصر البيزنطي .

وصلت هذه المؤسسة الحقوقية غاية تطورها في القرن الخامس عندما اجتذبت جماعة من خيرة المفكرين الشبان في الامبراطورية البيزنطية . ولم تكن مدرسة القسطنطينية التي اسست في ٤٢٥ تعتبر منافسة لها . وكان منهاجها يشتمل على العلوم والهندسة والبلاغة واللغة اليونانية واللاتينية . ومدة الدراسة فيها كانت اربع سنوات ولكن يوستنيان اضاف اليها سنة خامسة حين رقي العرش في عام ٥٢٧ . وكان الطلّاب معفيين من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين . وبدأ كثير من الاساقفة والقديسين والشهداء المسيحيين حياتهم العلمية في مدينة بيروت .

وردت اول اشارة في الكتابات الكنسية الى مدرسة الحقوق في بيروت في خطبة لغريغوريوس توماترجس Thaumaturgus[٢] (صانع العجائب) القاها حوالي ٢٤٠ م . وكان غريغوريوس قد اتى من كبدوكية ليدرس في بيروت اولاً ثم في قيصرية بفلسطين حيث اعتنق الديانة المسيحية بتأثير معلمه اوريجين . وهناك تلميذ مشهور آخر هو بمفيلوس Pamphilus البيروتي الاصل والذي اصبح بعد ذلك كاهن مدينة قيصرية نفسها حيث استشهد في ٣٠٩ في عهد غاليريوس Galerius . ويذكر بمفيلوس بين تلاميذه المؤرخ المشهور يوسيبيوس . وبلغ من شدة احترام هذا التلميذ لمعلمه ان اضاف الى اسمه الخاص اسم بمفيلوس . وهناك غريغوريوس النازينزي Nazianzus (في كبدوكية) الذي اصبح اسقف القسطنطينية وقديساً فيما

---

١) انظر ما سبق في ص ٣٦٠ .

٢) انظر : *The Works of Gregorg Thaumaturgus, Diongsius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871), pp. 49-50.

بعد. فقد غادر اثينة حوالي ٣٥٦ مفضلًا الاقامة في بيروت لمتابعة دراسته القانونية. وهناك من كان اكثر شهرة من هؤلاء وهو سفيروس، بطريرك انطاكية اليعقوبي (٥١٢ – ٥١٨) الذي كتب ترجمته زميله زكريا الغزي[١].

حياة الطلاب

حفظت لنا ترجمة سفيروس تفاصيل ممتعة عن حياة الجامعة في مدينة عالمية كبيروت تقع على حدود الشرق والغرب. ويبدو ان التلاميذ القدماء كانوا يستقبلون التلاميذ الجدد بالسخرية ولكن دون ان يسيئوا معاملتهم في الواقع[٢] وذلك لاختبار مقدرتهم في ضبط النفس – وهو يشبه التحامل المعتاد على طلاب السنة الاولى (الفرشمن) في الجامعات الاميركية. وقد وصل زكريا الى بيروت في خريف عام ٤٨٧ او ٤٨٨ بعد سنة من وصول سفيروس. وكان قلقًا مثل سائر الطلاب الجدد عندما حضر لاول مرة درس الاستاذ المشهور ليونتيوس ولكن سفيروس والطلاب القدامى احسنوا استقباله. وعند انتهاء المناظرات ذهب زكريا وكان شديد التدين ليصلي في كنيسة القيامة. والتقى بعد ذلك بسفيروس عند المرفأ ورجاه ان يحضر الى الكنيسة يومياً بعد المحاضرات وان يتجنب سباق الخيل والمسارح وان يمتنع عن الشرب والمقامرة التي كان ينغمس فيها سائر التلاميذ. فاجاب البطريرك المقبل اي سفيروس وكانت العبيد ترافقه عندما يأتي الى المعهد لانه من عائلة غنية مؤكداً لصديقه الشاب زكريا بانه طالب حقوق وليس براهب ولكنه وعده بان يعمل ما في استطاعته.

كانت تعطل جميع الدروس بعد ظهر كل سبت وطيلة نهار الاحد[٣]. وكانت ساعات المساء خالية من الدروس ليتمكن التلاميذ من المذاكرة في الاعمال التي قاموا بها اثناء النهار. وقد شكل زكريا جمعية مسيحية كانت تجتمع كل مساء في كنيسة القيامة لدراسة مؤلفات باسيليوس ويوحنا فم الذهب وغيرهما من الآباء.

---

١) نشرت بالسريانية (وقد فقد الاصل اليوناني) وترجمها: M. A. Kugener تحت عنوان: *Vie de Sévère*, in *Patrologia Orientalis*, vol. ii (Paris, 1907), pp. 1-115.

٢) انظر: Zacharias, p. 47.

٣) انظر: Zacharias, P. 52.

وتشير الصفة العالمية لعضوية الجمعية الى كثرة عدد الطلاب الاجانب. وكان رئيسها شخصاً يسمى افاغريوس Evagrius من مدينة سميساط وكان سابقاً تلميذاً في انطاكية حيث جرح في اضطراب جرى فيها. وكان افاغريوس يصوم يوماً ولا يغتسل الا مرة واحدة في السنة ليلة عيد الفصح[١]. وقد تأثر سفيروس بهذه الامثلة من الزهد فأخذ يمتنع عن اكل اللحم.

وتظهر في هذه الاثناء جمعية اخرى بين الطلاب للاهتمام بعلم الغيب. وكان الاعضاء البارزون يتألفون من ارمني وتسالونيكي وسوري من هليوبولس ومصري من طيبة. وقد استهوت المصري امرأة لم تبادله عواطفه ولذلك اتفقوا على انه اذا ضُحّي العبد الاسود الذي يملكه هذا المصري تتأثر الشياطين وتحصل الغايات المرجوة[٢]. وعندما كانت هذه الطقوس تتم في السرك في منتصف الليل قوطعت فجأة من المارة. وقد هرب العبد الخائف واخبر عن سيده. فبدأ البحث عن كتب السحر واخيراً وجدت مخبأة في القسم السفلي من كرسي الطالب واحرقت. ووجد انها مملوءة باسماء الشياطين وصورهم الغريبة وكان بعضها ينسب الى زردشت. وكشفت التحريات الاخرى ان الاستاذ ليونتيوس نفسه كان يشترك في مثل هذه الاعمال. وتشكلت محكمة للتحقيق من موظفين يمثلون الكهنة وحكومة المدينة فوجدت ليونتيوس وجماعة آخرين مذنبين. فاحرقت كتبهم وهرب بعض المتهمين من المدينة.

لم تنتهِ مشاكل بيروت المتصلة بالسحر عند هذا الحد اذ وصلت جماعة من السحرة المتجولين الى المدينة وقامت بمساعدة طالب من آسية الصغرى وبمعاونة كاهنين بالتنقيب في قبور احدى الكنائس حيث وعدوا بالكشف عن كنوز كان داريوس قد خبأها. وللاستعانة بالشياطين كانت المبخرة وغيرها من ادوات الكنيسة الفضية ضرورية لهم. ولكن العملية لم تتم بسبب حصول زلزال وعوقب الكاهنان وحكم على احدهما بالعزلة في احد الاديرة[٣].

وقد حصلت بين عامي ٥٥١ — ٥٥٥ سلسلة من الهزات الارضية كادت ان

١) انظر : Zacharias, p. 56.

٢) انظر : Zacharias, p. 58.

٣) انظر : Zacharias, pp. 70-73.

تقضي على مدن الساحل الفينيقي. وكانت بيروت قد تعرضت الى هزة في عام ٣٤٩ هدمت بعض اجزائها ولكن يبدو انها لم توقف تقدم جامعتها. ولكن الامر يختلف هذه المرة، اذ ان المدينة «التي كانت اجمل المدن وزينة فينيقية حتى ذلك الحين قد سلبت جمالها. فهدمت اهم ابنيتها ولم يبق منها بناء واحد تقريباً. ولم تسلم غير الاساسات. وهلك عدد كبير من سكانها من وطنيين واجانب تحت الانقاض»[١]. فانتقل اساتذة الجامعة الى صيدا حيث قاموا بتدريس موادهم ريثما يتم بناء المدينة والجامعة من جديد. ولكن قبل تدشين ابنية الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ بقليل حصلت كارثة اخرى حيث نشبت النيران والتهمتها كلها. وبعدها لم نعد نسمع شيئاً عن الجامعة.

١) انظر : Agathias, *Historiarum*, Bk. II, § 15.

الفصل الثامن والعشرون

المظاهر الدينية في العهد البيزنطي

تبدو سورية في العصر البيزنطي بمظهر يختلف عن مظهرها في العصر الروماني. وقد اصبحت الآن بلاداً مسيحية بوجه عام. والواقع ان هذه الفترة هي الفترة الوحيدة التي كانت فيها سورية بلاداً مسيحية تماماً. ونظراً لوقوع العصر البيزنطي بين العصر الروماني الوثني والعصر الاسلامي العربي فانه كان فريداً في تاريخ سورية.

ولم تكن البلاد مسيحية فحسب بل كان العصر تسيطر عليه الصفة الدينية. فقد كانت الكنيسة اعظم مؤسساته وكان القديسون ينالون اكبر جانب من الاحترام. وقد وجد بين القرنين الرابع والسادس عدد من الرهبان والكهنة والاساقفة[1] والراهبات والنساك بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد. وكانت ابنية الكنائس واماكن الصلاة والباسيليكات والاديرة تنتشر في البلاد وجميعها تتبع اسلوباً جديداً في الهندسة المعمارية يظهر فيه الباب وابراج الاجراس والصلبان البارزة. وقد وسعت كهوف النساك او صنعت من جديد. واقيمت الاعمدة التي كان — ويا للغرابة — يعيش العموديون عليهـا ويموتون. وقد نشطت حركة زيارة الاماكن المقدسة. واعتبرت النذور والصلوات عند قبور القديسين اكثر تأثيراً من زيارة الاطباء. وتعتبر البقايا المعمارية والآثار الدينية البيزنطية الموجودة اليوم اكثر عدداً من آثار جميع العصور مجتمعة.

---

١) يذكر مخطوط سرياني بانه حضر مجمع نيقية تسعة عشر اسقفاً من فلسطين وعشرة من فينيقية واثنان وعشرون من سورية المجوفة وستة من الولاية العربية (بصرى وفيلادلفيا ... الخ). انظر: B. H. Cowper, *Syriac Miscellanies* (Edinburgh, 1861), pp. 9-10. ويبدو ان الاساقفة كانوا لم يحصلوا بعد على الميزة التي فصلتهم نهائياً عن القس.

الرهبنة

كانت الرهبنة طريقة محببة في الحياة وكان لمبادئها الاساسية وهي العزوبة والفقر والطاعة جاذبية كبرى . وبتناقص السكان وتضاؤل الازدهار وحدوث الاضطرابات الاهلية التي تميز بهـا العصر الروماني في القرنين الثالث والرابع فقد الناس ثقتهم وايمانهم بالمؤسسات العلمانية . فقد اتت المسيحية بشيء خارق للطبيعـــة وسماوي يضم اعتقاداً بالقيم الروحية التي تستحق ان يعتزل الانسان العالم لاجلها وان يموت في سبيلها .

انبثقت الرهبنة كنظام من عادة الزهد المسيحية . وكان مؤسسها مصريا يدعى القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بـــين ٣٥٦ و ٣٦٢ م. وسرعان ما انتقل هذا الاسلوب الجديد في الحياة المسيحية من مصر الى سورية الجنوبية حيث بدأ حركة الرهبنـــة هيلاريون Hilarion من غزة وهو احد تلاميذ انطون . وفي اواخر القرن الرابع ظهرت جماعات من النساك حول انطاكية. وكان افرام (توفي حوالي ٣٧٣) احد مؤسسي الرهبنة السورية . وفي القرن التالي ظهر اول العموديين وهو القديس سمعان (توفي ٤٥٩) في شمالي البـــلاد. ولا يزال السواح[١] يشاهدون العمود الذي اقام عليه سمعان وسط آثار كنيسة فخمة (قلعة سمعان) . وقد دام هذا الشكل الغريب من حياة الرهبنة حتى القرن الخامس عشر . واصبحت حياة الرهبان الاوائل في مصر وجنوبي سورية النموذج المحبب لدى العالم المسيحي . وتأتي كلمة «Hermit» الافرنجية (اي ناسك) من كلمة يونانية تعني الصحراء .

المباني الكنسية

نشأت الكنيسة المسيحية عن حلقات صغيرة من التلاميذ الذين اعلنوا ان قائدهم كان مخلصاً ومسيحاً . وكانت اول حلقة سميت مسيحية هي حلقة انطاكية . وبدأ الرسل وعظهم في المعابد اليهودية وكان الذين يعتنقون المسيحية على ايديهم اما من اليهود او من غير اليهود الذين يرتادون هـــذه المعابد . ولهذا كانت نواة

١) راجع : Jean Lassus, *Sanctuaires Chrétiens de Syrie* (Paris, 1917), pp. 133 seq.

الجمعيات المسيحية الاولى من اليهود على الاكثر . ولا بد انه كان يصعب آنذاك التفريق بين الطائفة المسيحية الناشئة والطائفة اليهودية القائمة .

ويظن ان اقدم اماكن العبادة المسيحية كانت إما البيوت الخاصة حيث تعقد اجتماعات غير رسمية او معابد اليهود . وعندما تحولت اماكن العبادة هذه الى كنائس بصورة رسمية لم تجد نموذجاً تتبعه سوى الكنيس . وكان الكنيس اليهودي بديلاً محلياً للمعبد القديم بعد خرابه . وكان يمثل طريقة جديدة وثورية في العبادة اذ انه اطّرح عادة تعليم الدين بواسطة الاسرار وعادة التكفير بتقديم الضحايا . وهو بهذا قد اصبح النموذج الاصلي لكل من الكنيسة والجامع .

تعود اقدم بقايا كنيس وجد في فلسطين الى القرن الاول الميلادي[١] . اما اقدم كنيس في دورا اوروبس فكان بيتاً خاصاً تحول الى كنيس حوالي عام ٢٠٠ م. وقد زود كنيس في دورا اوروبس يعود الى منتصف القرن الثالث بباب للنساء ومقاعد خاصة لهن . وتعتبر زخارف جدرانه فريدة في الفنون الكنسية اذ تصور مناظر عن حياة الاسلاف والملوك اليهود[٢] . وتوجد في نفس المدينة بقايا كنيسة تعود الى حوالي ٢٣٢ م. وهي اقدم من اية كنيسة عرفت في فلسطين[٣] . وفي الحقيقة فانها تعتبر اقدم كنيسة مسيحية عثر عليها . وقد بقيت بعض آثار من عهد قسطنطين في كنيسة القيامة وكنيسة المهد حتى اليوم . وكنيسة المهد كما نراها اليوم يعود بناؤها الى يوستنيان . واكثر كنائس جرش ترجع الى القرن السادس مع انه توجد في بعضها اقسام تعود الى القرنين الرابع والخامس . وكانت احداها بالاصل كنيساً تحول الى كنيسة بعد اعادة بنائه . وفي القرون التالية تحولت ابنية الكنائس الى مساجد .

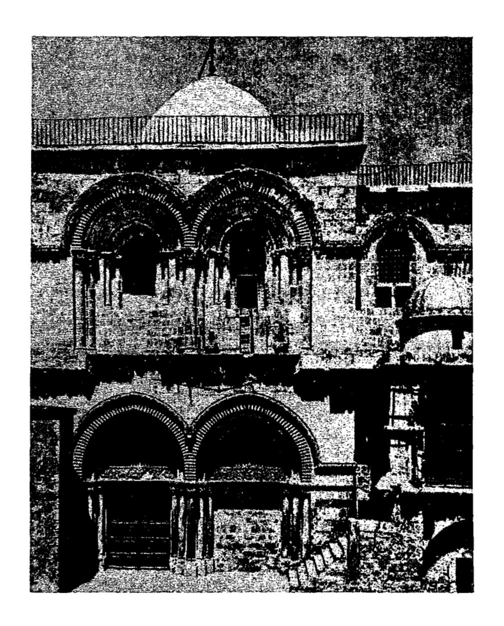
يمكننا الاستنتاج من هذه البقايا وغيرها بأن الكنيسة والكنيس يتصلان واحدهما بالآخر من ناحية العمارة . وكان كلاهما يمثل في العصر البيزنطي نموذج

١) انظر : E. L. Sukenik, *Ancient Synagogues in Palestine and Greece* (London, 1934), pp. 8, 69.

٢) انظر : Rostovtzeff *et al.*, *Excavations at Dura-Europus*, vol. vi, pp. 309-96; Sukenik, pp. 82-5.

٣) انظر : Rostovtzeff *et al*, *Ibid* pp. 238-88; J. W. Crowfoot, *Early Churches in Palestine* (London, 1941), pp. 1 *seq.*

الكنيسة المستطيلة (الباسيليكا) . وكان الكنيس يتجه نحو اورشليم بينما تتجه الكنيسة نحو الشرق . وقد كان الفن فيهما متصلاً اتصالاً وثيقا .



كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس

كان النموذج القديم للكنيسة المسيحية عبارة عن غرفة مستطيلة وكان هـــذا الشكل مستحباً لبساطته وصلته بنموذج البناء السائد . وتعطينا كنيسة ام الجمال

ذات الصحن الواحد (٣٤٤ م.) الموجودة جنوبي بصرى في حوران مثالاً عن هذا النوع[١]. وكانت الباسيليكا السورية في القرنين الرابع والخامس تتألف من صحن معترض تتصل به من جهة الشرق ثلاث حنيات او حنية مركزية بالاحرى تحيط بها غرفتان جانبيتان. وتعود جذور هذا المخطط الى نموذج البناء الذي كان سائداً قبل الميلاد. وفي بقايا الكنيسة القائمة في دير يعود الى القرن السادس عشر عليـــه في حفريات سكيتوبولس (بيسان) لا نرى اروقة جانبية. وكانت هناك حنية على شكل حذوة الفرس في الطرف الشرقي. ولا شك ان المذبح كان يقوم في مدخل الحنية[٢]. وقد وجد في قاعة الدير تقويم بالفسيفساء والوانها السائدة هي الازرق الداكن الذي يتصف به البازلت المصقول وانواع متعددة من اللون الاحمر والبني الفاتح على ارضية بيضاء.

الفن المسيحي

تظهر بقايا الفن المسيحي الاول تأثره بالفن اليهودي. وقد اقتبست الكنيسة من الكنيس في النواحي الرمزية. فكان شكل المسيح في اقدم صورة يمثل ومعه عصاً وربما كانت العصا التي ضرب بها موسى الصخرة. وشكل المسيح في المدافن تحت الارض اقتبسه المسيحيون عن صور موسى. وكانت سورية في رأي بعض العلماء من مراكز الفن المسيحي[٣]. واقتبس فن الايقونات المسيحي في تطوره التدريجي من التعابير الهلنستية المتصلة بالآلهة والشعراء والخطباء. وبقي هذا الفن يختلف حسب الزمان والمكان حتى بلغ فردية معينة ونموذجاً من مستوى معين في القرنين الرابع والخامس.

ومن المواضيع الشائعة جداً لدى الفنانين المسيحيين الاوائل موضوع الراعي الصالح. ويظهر بجانب اشكال اخرى من التوراة على جدار كنيسة دورا اوروبس.

---

١) انظر: Howard C. Butler, *Early Churches in Syria*, pt. 1 (Princeton, 1929), p. 19.

٢) انظر: G. M. Fitzgerald, *A Sixth Century Monastery at Beth-Shan* (Philadelphia, 1939), p. 3.

٣) قارن مع: Joseph Strzygowski, *Orient oder Rom* (Leipzig, 1901); do., *Origin of Christian Church Art* (Oxford, 1923), pp. 1-16; do., *L'Ancien Art chrétien de Syrie* (Paris. 1936), pp. xlvi-lii.

ويصور الراعي غالباً حاملاً على كتفه حملاً . وفكرة الراعي قديمة جداً في الفكر السامي . وحمورابي يسمي نفسه في مقدمة مجموعة قوانينه «براعي» شعبه[١]. وكانت اقدم اشكال الراعي تمثله فتى حليق اللحية يلبس قميصاً قصيراً بدون اكمام وهو النموذج المألوف في الفن اليوناني الروماني . ومع ذلك فان النموذج اليوناني نفسه يعود في اصوله الى الشرق الادنى . وفي نماذج من النحت البارز من القرن التاسع ق. م. وجدت في شمال في سورية الشمالية وأخرى من القرن الثامن ق. م. وجدت في دور شاروكين قرب نينوى ، تظهر اشكال بشرية على اكتافها غزلان وكان رأس الحيوان في كل منها يتجه في نفس اتجاه رأس الرجل . ويرجح ان المقصود هو تقديم الغزال كضحية .

وكان السوري في العصر البيزنطي يبحث في الهندسة المعمارية والرسم والنحت وغيرها من ميادين فن الزخرفة عن طرق جديدة في التعبير مستقلة عن النماذج اليونانية الرومانية التي كانت منذ فتوح الاسكندر تؤثر في الانتاج الفني . وكان الفن الوطني يهدف بصورة مؤكدة الى الواقعية . وقد حرّر نفسه بالتدريج من استعمال النماذج العارية والاشكال التقليدية ومهّد الطريق للفن المسيحي في العصور الوسطى وللفن الاسلامي .

احياء الآرامية

تطورت الكنيسة المسيحية في سورية من ناحية لغوية في اتجاهين: الاتجاه اليوناني على الساحل وفي المدن التي تأثرت بالهلينية والاتجاه السرياني في الداخل[٢]. وقد ظهرت الكنيسة التي تستعمل اللغة السريانية منذ القرن الثاني . وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية . وقد اشار التحول عن اليونانية والعودة الى الآرامية في العصر البيزنطي الى اليقظة الجديدة بين السوريين. وكان تجدد الاهتمام باللغة السامية القديمة دليلاً على احياء للوعي القومي كما كان رد فعل ضد الوثنية .

---

١) انظر: **Robert W. Rogers, *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (NewYork 1912), p. 399.**

٢) التمييز بين الآرامية والسريانية راجع ما سبق في ص ١٨٣ و ١٨٤

ولما كان السوريون يعرفون عدة لغات دائماً فان الذين اهتموا منهم بالمحاماة درسوا اللغة اللاتينية اما الذين عكفوا على دراسة الفلسفة فتعلموا اليونانية ولكن بقيتهم وخاصة اولئك الذين وجدوا خارج المراكز ذات الصفة العالميـــة فانهم تمسكوا باللغة الوطنية . وكان على الموظفين البيزنطيين في الداخل ان يستخدموا التراجمة . ويشكو يوحنا فم الذهب[١] في انطاكية ذاتها بان الذين كانوا يستمعون اليـــه لا يستطيعون فهم مواعظه اليونانية وان الكهنة كانوا لا يسمعون سوى السريانية الدارجة .

اديسا

والادب السرياني الذي وصلنا ادب مسيحي بكامله تقريباً الا انه يشتمل ايضا على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية . وكان اول مركز كبير له بعيد عن المدن التي تتكلم اليونانية هو اديسا التي اعتبرت اثينـــة العالم الآرامي حيث استخدمت السريانية في اول الامر لاغراض ادبية . وقد ازدهرت مدرسة اديسا حتى عام ٤٨٨ — ٤٨٩ عندما هدمت تماماً بأمر الامبراطور زينون. فانتقل الاساتذة الى نصيبين التي اصبحت وريثة اديسا كمركز علمي سرياني يوناني . ووجدت كنيسة اديسا التي انشئت حوالي اواخر القرن الثاني نفسها في القرون التالية غير منسجمة مع التقاليد اليونانية في انطاكية والغرب. وكانت تستعمل ترجمات التوراة الخاصة بها اولًا بشكل الدياتسرون Diatessaron وبعد ذلك بشكل البشيتا Peshitta (وهي الترجمة البسيطة)[٢]. وبقيت البشيتا منذ ذلك الحين الترجمة السريانية المعروفة .

كان افرام سيروس (السوري، من حوالي ٣٠٦ — حـــوالي ٣٧٣) اول اللاهوتيين العظام في الكنيسة المسيحية كما كان ايضاً شاعراً دينياً وساعد في ادخال الرهبنـــة[٣]. وقد ولد افرام في نصيبين واتى الى اديسا حيث اسس او اعاد تنظيم مدرسة للاهوت اصبحت جامعة عظيمة للسوريين . وقد عاش قبله بارديسانس

---

١) انظر : Joannes Chrysostomus, *Opera Omnia*, vol. ii (Paris, 1837), p. 222.

٢) انظر ما سبق في ص ٣٧١ .

٣) انظر مـــا سبق في ص ٤٠٣ . راجع بشأن منتخبات من ترانيمه ومواعظه : *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. xiii (New York, 1898), pp. 119-341.

Bardesanes[١] (ابن ديسان ١٥٥ — ٢٢٣ م.) وكان من اديسا ايضاً. وقد وضع اساس علم التراتيل وادخل الموسيقى الى تلك الكنيسة ولكن البعض يعتبره غنوسطياً.

الانشقاقات الدينية

نتج عن المعارضة للفكر المسيحي بالشكل الذي مثلته بيزنطية وانطاكية انشقاقات او «هرتقات» من وجهة نظر الكنيسة الرسمية. وكانت هذه الانشقاقات الى حد ما كما هو الامر في ناحية اللغة تعبيراً عن اليقظة القومية. وبعد ان غمرت الروح السورية لعدة قرون موجة من الحضارة اليونانية عادت اخيراً الى تأكيد ذاتها من جديد. ولم يكن السوريون كشعب قد اصطبغوا بالصبغة اليونانية الآن بأكثر مما اصطبغوا به قبلاً بالصبغة الرومانية. وكان انصرافهم عن حكامهم البيزنطيين يعود ليس لاسباب تتعلق بالمبادئ فحسب بل لاسباب سياسية واقتصادية ايضاً. وكان البيزنطيون اكثر استبداداً في حكمهم واكثر جوراً في نظام ضرائبهم. فقد جردوا السكان الاصليين من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلاً. واظهروا حتى في المسائل الدينية تسامحاً اقل من تسامح اسلافهم الوثنيين.

كانت المناقشات اللاهوتية عصب الحياة بين المثقفين في القرنين الرابع والخامس. وقد تركزت على طبيعة المسيح والمواضيع المتعلقة بها التي لم تعد تثير اهتمام المسيحيين منذ ذلك الحين. فنتج عن ذلك هرتقات ومدارس فكرية لا تحصى وكان بعضها يعكس استخدام منطق ارسطو وتطبيق مبادئ الافلاطونية الحديثة. وفي هذه الاثناء اخذت تظهر عبادات قريبة من الزردشتية والبوذية بين الجماعات المسيحية. ويشير يوحنا فم الذهب[٢] الى فئة في انطاكية اعتقدت بتناسخ الارواح وكانت تلبس اردية صفراء. وكانت المانوية Manichaeism من اخطر العبادات الجديدة التي كانت تنتشر من الشرق وقد اسسها ماني Mani حوالي عام ٢٤٦ م. وقد مات ماني

١) تعني «بار Bar» بالسريانية (ابن) و «ديسان Daisān» (اسم جدول في اديسا)؛ وقد ذكره Eusebius, Bk. IV, ch. 30. والكتاب العرب ابتداءً من ابن النديم في كتاب الفهرست؛ نشره: Gustave Flugel (Leipzig, 1872) pp. 338-9.

٢) انظر: *Opera Omnia*, vol. iv, p. 53

في السجن بسبب معتقداته[١]. اما ديانته التي جمعت عناصر مسيحية وبوذية وزردشتية في مجموعة واحدة فقد انتشرت في العصر البيزنطي من فارس الى اسبانيا. وقد اثارت «اخطاؤها» الآباء السوريين بشكل لم تفعله اية اخطاء اخرى من قبل.

ابوليناريس

كان اصحاب ما يسمى بالهرتقات من اصل سوري او يحملون ثقافة سورية. وقد بدأت السلسلة بآريوس في القرن الرابع الذي أدان مجمع نيقية[٢] آراءه ومع ذلك بقيت لها اهمية عظيمة من الناحية اللاهوتية والسياسية. وكردّ فعل ضد الآريوسية وتأكيدها على الطبيعة البشرية للمسيح اكد ابوليناريس Appollinaris اسقف لاوديسة (توفي حوالي ٣٩٠) انه بينما كان للمسيح جسد بشري حقيقي وروح بشرية حقيقية فان الكلمة (Logos) تحتل في شخصه المقدس مكان النفس التي هي اسمى جزء في الانسان. واتضح ان ابوليناريس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الافلاطوني الحديث بان الطبيعة البشرية مركبة من ثلاث عناصر وهي جسد وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الانسان عاقلاً ومختلفاً عن الحيوانات). وترتبط تعاليم ابوليناريس بين الآريوسية والنسطورية بانها تعارض الواحدة وتمهد الطريق للأخرى.

الكنيسة النسطورية

ولد نسطوريوس في كيليكية الشرقية وعاش في دير قرب انطاكية. وفي عام ٤٢٧ رقي الى اسقفية القسطنطينية بناء على اقتراح الامبراطور تيودوسيوس الثاني الذي امل بذلك ان يأتي من انطاكية باسقف شبيه بيوحنا فم الذهب. ولكنه حكم عليه في عام ٤٣١ من قبل مجمع افسس. وكانت وجهة نظره التي اعتُرض عليها انه يوجد في المسيح شخص الهي (الكلمة Logos) وشخص بشري يتصلان واحدهما بالآخر بانسجام تام في العمل ولكن ليس بتلك الوحدة التي تظهر في شخص واحد. وكان لنسطوريوس اتباع عديدون شكلوا النساطرة الحقيقيين.

---

١) حفظ لنا الفهرست ص ٣٢٧ — ٣٣٨ اخباراً تعتبر من اكثر الاخبار القديمة تفصيلاً عن ماني ونظامه.

٢) انظر في ص ٣٨٦ — ٣٨٧.

وظهر النساطرة المعروفون بنساطرة بلاد فارس فيما بعد. وبتعبير اصح شكلوا الكنيسة الشرقية او كما تسمي نفسها مفاخرةً «كنيسة الشرق». وكانت قد وجدت هذه الكنيسة منذ عصر الرسل ولا يزال يوجد لها اتباع حتى اليوم. وعندما انقطعت صلتها بالامبراطورية الرومانية نشر اتباعها معتقداتهم وطقوسهم المحلية. وهم يعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريين. ومع ان بعض كتاب هذه الكنيسة قد استخدموا اللغة النسطورية بصورة اكيدة فان المفردات التي كانت تستخدم في الطقوس والمجامع المختصة بها كانت بوجه عام خالية تماماً من تلك اللغة. وهذه هي الكنيسة التي كانت لها فيما بعد حيوية كافية جعلتها ترسل المبشرين حتى الى الهند والصين.

الكنيسة اليعقوبية

كان المذهب المونوفيزي Monophysitism (القائل بالطبيعة الواحدة) اعظم انشقاق تعرضت له الكنيسة الشرقية بعد النسطورية. وبتعبير دقيق كان اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا بمبدأ الطبيعتين (الالهية والبشرية) في الشخص الواحد للمسيح الذي وصفه مجمع خلقدونية في عام ٤٥١ م. واتخذوا شعارهم «الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة». وبتعبير آخر اعتقد اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بان المظهر البشري والالهي في المسيح لا يشكل سوى طبيعة مركبة واحدة ومن هذا اتى اسمهم[١].

وفي اواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس كسبت المونوفيزية القسم الاكبر من سورية الشمالية كما ورثت اتباع ابوليناريس في الجنوب. ويعود نجاحها بدرجة كبيرة الى امرين اولهما الدعاية النشيطة التي قام بها راهب سوري يدعى برصوما Barsauma (ويجب التفريق بينه وبين برصوما النسطوري اسقف نصيبين حوالي ٤٨٤ – ٤٩٦) وثانيهما شخصية سفيروس بطريرك انطاكية (٥١٢ – ٥١٨)[٢]. ويزعم اصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة ان سمعان العمودي كان يؤمن بفكرتهم

١) من الكلمة اليونانية مونوس monos وتعني واحد مضافة الى كلمة فيزيس Physis وتعني طبيعة.

٢) انظر في ص ٤٠٠ – ٤٠١.

اللاهوتية . كذلك ايد الغساسنة[١]. وغيرهم من العرب السوريين هذا المذهب . وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية في سورية من قبل يعقوب البرادعي (Barde'ana) الذي رسم اسقفاً لاديسا حوالي عام ٥٤٣ وتوفي في عام ٥٧٨ . وبنتيجة ذلك سمي اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة السوريون باليعاقبة . وهكذا اصبح القسم الغربي من الكنيسة السورية منفصلاً تماماً عن القسم الشرقي .

انتشر مذهب الطبيعة الواحدة من سورية الى ارمينيـــة في الشمال ومصر في الجنوب . ولا يزال الارمن والاقباط حتى هذا اليوم يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة . وقد اخذ عدد اتباع هذا المذهب في سورية وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ ان اصبح الاسلام القوة المسيطرة في هذه البلاد .

الخطر الفارسي

لم تتنبه سورية وحدها في العصر البيزنطي الى تقاليدها القديمة من جديد بل ان مصر وبلاد الرافدين تنبهتا ايضاً الى ذلك . وفي عهـد السلالة الساسانية الطامعة اخذت الدولة الفارسية المجاورة تنازع بيزنطة السيادة على الشرق . وقد صدّ قائد يوستنيان القدير بليساريوس الهجوم الاول (٥٢٧ – ٥٣٢) . وكان بروكوبيوس من مدينة قيصرية ومؤرخ هذه الحرب يرافق بليساريوس كمستشار له[٢]. غير ان هذا الهجوم لم يكن سوى مقدمة للخطر المحدق .

وعاد الفرس في عام ٥٤٠ الى الظهور من جديد في عهد كسرى الاول انو شروان (٥٣١ – ٥٧٩) . وقـد زحف هذا الملك النشيط على رأس ٣٠٠٠٠٠ رجل على سورية بطريق هيرابولس (منبج) واشعل النار في مدينة حلب التي لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضت عليها[٣] . وكان مقدارها ٤٠٠٠ ليبرة (رطل انكليزي) من الفضة وهو ضعف المقدار الذي اشترت به هيرابولس سلامتها . ثم تابع كسرى سيره من حلب الى انطاكية التي كانت فيها حامية ضعيفة . ولم تستطع نجدة مؤلفة

---

١) انظر ما سنذكره عن الغساسنة في الفصل ٢٩ .

٢) انظر : Procopius, Bk. I, ch. 12, § 24.

٣) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 7, §§ 1-13.

من ٦٠٠٠ جندي اتت من فينيقية اللبنـــانية[١] من منطقة حمص ان تقف في وجه المهاجم الفارسي . وكانت قوة الجيش الروماني في هذا الزمن مركزة في الغرب حيث كان يوستنيان يحاول اعادة جمـع اطراف الامبراطورية الرومانية القديمة . فنهبت مدينة انطاكية وجردت كاتدرائيتها من كنوزها الذهبية والفضية ومن رخامها الفاخر، وهدمت المدينة بكاملها واخذ سكانها اسرى[٢] . وبنى لهم الفاتح قرب عاصمته طسيقون (المدائن) مدينة جديدة افتخر بتسميتها انطاكية كسرى .

وهكذا انتهى كيان المدينة كمركز فكري بعد ان دام ثمانية قرون. وكانت انطاكية في آخر ايامها مدينـــة مسيحية مشهورة تأتي في مرتبة القسطنطينية والاسكندرية كمقر بطريركي. وقد عقدت فيها عشر مجامع كنسية بين ٢٥٢ — ٣٨٠ م . ويبدو ان تقدير يوحنا فم الذهب[٣] لعدد افراد الطائفة المسيحية فيها بمائة الف قد تجاهل عدد العبيد والاطفال. ويروي ملالاس[٤] المؤرخ الانطاكي المعاصر بان زلزال عام ٥٢٦ الذي نكبت به المدينة ادى الى هلاك ٢٥٠،٠٠٠ انطاكي[٥] . وكانت النتائج الاقتصادية لنهب الفرس لها ولهـــذا الزلزال ولزلزال عام ٥٢٨ نتائج وخيمة .

تابع كسرى مسيره من انطاكية الى افامية وهي مركز مسيحي آخر مزدهر . وقد ادعت كنيستها بانها تلك قطعة من الصليب الحقيقي طولها ذراع واحد وهي محفوظة بكل وقار في تابوت مرصع بالجواهر[٦]. وكان هذا الاثر الثمين يحرسه كهنة خاصون ويعرض مرة في كل سنة حيث يقوم جميـع السكان بمراسم العبادة امامه . وقد اخذ التابوت وجمع كل الذهب والفضة في المدينة . وقدمت جميع هذه للمهاجم لارواء نهمه الا ان الاثر نفسه قد سلم اذ كان لا قيمة له بالنسبة لكسرى. وعندما

---

١) انظر في ص ٣٨٩.

٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 9, §§ 14-18.

٣) انظر : *Opera omnia*, vol. vii, p. 914.

٤) معنى الكلمة السريانية « ملالا Malala » خطيب او واعظ .

٥) راجع لاجل التوسع في عدد السكان : Bury, *History of the Later Roman Empire* vol. i, p. 88.

٦) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11.

اتهم احد المواطنين جندياً فارسيا بانه دخل بيته وهتك عرض ابنته امر كسرى باعدام الزاني في المعسكر[١] . وقد نسب المواطنون سلامة المدينة من الدمار الى فعالية الاثر المقدس .

كانت خالكيس قرب حلب الضحية الثانية وقد اشترت سلامتها بكمية من الذهب . ثم استمرت حملة كسرى في السلب وتناولت المقاطعات الواقعة شرقي الفرات .

وفي عام ٥٤٢ عقدت هدنة تجددت بعد ذلك عدة مرات حتى عام ٥٦٢ حيث وقعت معاهدة مدتها خمسون سنة تلزم يوستنيان بدفع جزية الى « الملك العظيم » وبالامتناع عن القيام بأية دعاية دينية في المقاطعات الفارسية . وقد تجددت المنازعات في اوائل القرن السابع الا ان الحديث عنها يتصل بفصل يأتي فيما بعد ويتعلق بقيام الدولة العربية الاسلامية[٢] .

١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11, §§ 36-8.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٠ .

الفصل التاسع والعشرون

الدول السورية العربية قبل الاسلام

شهدت سورية قبل ظهور الاسلام وانتشاره في الشمال قيام ثلاث دول عربية وسقوطها على حدودها وهي : دولة الانباط في الجنوب ودولة تدمر في الشمال ودولة الغساسنة بينهما . وقد اشتركت هذه الدول الثلاث ببعض اوصاف عامة في تاريخها المتعاقب . ويرجع اصلها الى تحضير القبائل البدوية او المتنقلة كما يرجع ازدهارها الى تجارة المرور . وتحالفت كل منها لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة مع احدى الدولتين العالميتين . وهما رومة وفارس وتلقت المساعدات منهما . وقد قضت رومة اخيراً على الدولتين النبطية والتدمرية وقضت بيزنطة وفارس على دولة الغساسنة .

١ — الانباط

يظهر الانباط لاول مرة في القرن السادس ق . م . كقبائل بدوية في الصحراء الواقعة في شرقي ما يسمى اليوم بشرق الاردن . وكانت هذه البلاد منذ بداية القرن الثالث عشر مقر ممالك صغيرة هي مملكتا آدوم وموآب في الجنوب ومملكتا عمون وجلعاد في الشمال وجميعها كنعانية وآرامية . ويظهر من البقايا الاثرية ان مملكتي آدوم وموآب لم تحتلا قبل القرن الثالث عشر ق . م . وكان تاريخهما خالياً من الحوادث بين ذلك والقرن التاسع عشر . وكانتا بين القرن الثالث والعشرين والقرن التاسع عشر حين خضعتا كما يبدو الهجمات الآتيــة من الصحراء مزدحمتين بالسكان . وقد تمكنت قوة العبرانيين العسكرية وديانتهم ان تتوغل في هذه البلاد احياناً كما حدث في عهد القضاة وداود ولكن ديانة التوحيد العبرانية لم تتمكن ابـداً من عبور نهر الاردن بقوة تامة او من اقامة محط قدم جنوبية . وقد

اندمج هؤلاء السكان فيما بعد بالاتحاد النبطي .ومعهم قبائل ثمود[1] ولحيان[2] في شمالي الحجاز .

من حياة الرعي الى الحياة الزراعية

كان الانباط لا يزالون رحّلاً في القرن الرابع ق. م. يعيشون في خيـــام ويتكلمون العربية ويكرهون الخمر ولا يهتمون بالزراعة . وفي القرن التالي تركوا حياة الرعي واتبعوا حياة الاستقرار وعملوا في الزراعة والتجارة . وفي اواخر القرن الثاني كانوا قـــد تحولوا الى مجتمع منظم جداً متقدم في الحضارة ومتصف بالتطور والترقي[3] . وكان مثالهم هـذا مثالاً آخر يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الادنى القديم وهو تحول الرعاة الى مزارعين ثم الى تجار في بلاد قليلة الموارد ولكنها حسنة الموقع بالنسبة لتجارة القوافل التي عوضت قلة عن مواردها الطبيعية.

ان اول تاريخ ثابت في عهد الانباط هو عام ٣١٢ ق. م. حين نجحوا في صد هجمات حملتين من سورية بقيـــادة انتيغونس[4]، احد خلفاء الاسكندر، ضد «صخرتهم» (ام البيـارة) . وكانت عاصمتهم التي بدأت كحصن جبلي ثم اصبحت محطة للقوافل عند ملتقى طرق التجارة التي كانت تنقل اللبان وتجارة التوابل قد اصبحت محصنة بقوة في ذلك الحين . وكان هذا الملجأ الصخري، البتراء، قبل عهد الانباط مدينة يلتجىء اليهـــا الادوميون الذين انتزعوها من ايدي الحوريين Horites (Hurrians) ابناء سعير Seir) . وكانت عاصمة الانباط محفورة في قلب صخر رملي يظهر جميع الوان قوس القزح ولذلك كانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة .

من الزراعة الى الحياة التجارية

ان كلمة بتراء Petra وهي اللفظ اليوناني لكلمة «صخرة» وفي العربية الفصحى

---

١) ذكرت في القرآن ٧ : ٧١ ; ١١ : ٦٤ ، ٧١ .

٢) قريبة الصلة بثمود . انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32, § 156 ; ch. 33, 165.

٣) راجع : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, §§ 22, 26 ; Diodurus, Bk. III, ch. 48, § 4.

٤) انظر : Diodorus, Bk. II, ch. 48, §§ 6-7 ; Bk. XIX (ch. 6), § 94.

الرقيم[١] هي ترجمة كلمة سلع Sela'[٢] العبرية. ووادي موسى هو الاسم الحديث للموقع بكامله. وقد وسّع الانباط سلطتهم ومراكزهم من عاصمتهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث اعادوا بناء المدن الادومية والموآبية القديمة واقاموا مراكز جديدة لحماية القوافل ومحطات مستحدثة لاستثمار الموارد المعدنية. وكانت مدينتهم المدينة الوحيدة بين الاردن والحجاز التي توجد فيها مياه غزيرة ونقية. وزيادة على ذلك كانت المدينة حصينة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب. واصبحت البتراء منذ آواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة العربية الذي ينتج التوابل وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال. وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى ايلة Aila على البحر الاحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء[٣]. وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بجمال أخرى نشيطة.

لم يكتف مهندسو المياه الانباط بمياه ينابيعهم ولذلك اصبحوا بارعين في استخراج المياه الباطنية وفي استخدام مياه الامطار القليلة وحفظها. ويبدو انهم قد ورثوا تلك العصا السحرية التي مكنت متجولاً سامياً قديماً في تلك المنطقة وهو موسى من استخراج المياه من الصخرة الجافة[٤]. وهكذا تمكنوا من انتزاع اجزاء من الصحراء وتحويلها الى اراض مزروعة اكثر مما فعله اي شعب عربي من قبل او من بعد.

ولا نسمع سوى القليل عن بلاد الانباط في القرن الثالث حين كان سكانها يُنمون امكانياتهم. وفي اوائل القرن الثاني اصبحت قوةً يحسب لها حساب في

---

١) انظر القرآن ١٨ : ٨ ؛ ياقوت، جزء ١، ص ٩١ و ٧٢٨ ؛ جزء ٢، ص ١٢٥ و ٨٠٤ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IV, ch. 4, § 7; ch. 7. § 1.

٢) ذكرت في سفر اشعيا ١٦ : ١ ؛ ٤٢ : ١١ ؛ الملوك الثاني ١٤ . ٧ ؛ قارن مع اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٢ ؛ ارميا ٤٩ : ١٦ ؛ عوبديا ٣ : ٤ . انظر : G. and A. Horsfield, *Quarterly Department of Antiquities of Palestine*, vol. vii (1938), pp. 1 *seq.*

٣) قارن مع : Pliny, *Natural History*, Bk. VI, ch. 32, § 145.

٤) انظر سفر الخروج ١٧ : ٦ .

سياسة الشرق الادنى. وقد وقعت في فترة ظهورها تحت تأثير البطالمة. وتعتبر سنة ١٦٩ ق.م. فاتحة عهد سلسلة من الملوك الانباط الذين عرفت اخبارهم بالتأكيد.

المملكة النبطية

كان الحارث (حوالي ١٦٩ ق.م.) على رأس قائمة هؤلاء الملوك ويدعى «اريتاس Aretas ملك العرب»[١]. وقد تسمى بهذا الاسم كثير من ملوك الانباط كما تسمى به ملوك الغساسنة فيما بعد. وكان الحارث معاصراً لمؤسس الاسرة المكابية. وبدأت الاسرتان عهدهما كحليفتين طبيعيتين ضد ملوك سورية السلوقيين[٢]. ولكنهما اصبحتا فيما بعد متنافستين. وقد سارع الحارث الثاني («ايروتيموس Erotimus»[٣] (حوالي ١١٠ — ٩٦ ق.م.) مؤسس السلالة لمساعدة غزة في عام ٩٦ ق.م. وكان اسكندر جنايوس Jannaeus المكابي يحاصرها. وحوالي عام ٩٠ ق.م. حاز خلف الحارث الثاني وهو عبيدة (اوبوداس الاول Obodas I) نصراً هاماً على جنايوس[٤]. وقد نشبت المعركة على الشاطىء الشرقي لبحر الجليل ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سورية اي منطقة حوران وجبل الدروز اليوم. واستغل عبيدة وخلفه الحارث الثالث (حوالي ٨٧ — ٦٢) انحطاط جيرانها السلوقيين والبطالمة فوسعوا الحدود العربية الى الشمال. ولم تكن رومة قد ظهرت بعد على مسرح الشرق.

كان الحارث هذا المؤسس الحقيقي لسلطة الانباط. فقد هزم مراراً جيش اليهودية وحاصر اورشليم. كما انه استجاب لدعوة تلقاها من دمشق واقام نفسه عليها سنة ٨٥ ق.م. كحاكم لتلك المدينة السلوقية والسهل الغني الملحق بها وهو سورية المجوفة. وكان الدافع لهذه الدعوة كره سكان دمشق لحاكم خالكيس (عنجر) الايتوري الذي طمع بعرش سورية[٥]. وبعد اثني عشر عاماً صدّ الحارث هجوماً

١) انظر سفر المكابيين الثاني ٥ : ٨ .

٢) انظر سفر المكابيين الاول ٥ : ٢٤ — ٢٧ ؛ ٩ ؛ ٣٥ .

٣) انظر : Dussaud and Macler, *Mission*, p. 70.

٤) انظر ما سبق في ص ٢٩٦ .

٥) انظر ايضاً ما سبق في ص ٢٧٠ .

قام به بومبي[١] الذي كان يحلم بتوسيع الحدود الرومانية حتى البحر الاحمر . وبدا كأنه اقوى سيد في سورية . وكان هذا اول احتكاك مباشر مع رومة .

بينما كان الحارث يصد الرومان باليد الواحدة كان يفتح بالاخرى الباب على مصراعيه للتأثيرات اليونانية الرومانية . وادخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلنستية وكسب لقب محب الهلينية Philhellene . وكان اول من سك نقوداً نبطية اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالة . كما انه اتى بالصناع السوريين الى عاصمته وادخلوا معهم نماذج هلنستية وربما نحتوا الواجهة الجميلة التي تسمى اليوم الخزنة وكانت بالاصل قد وضعت لتكون له . ويرجح ان المسرح قد بني ايضاً في زمن الرومان[٢]. وبدأت البتراء منذ ذلك الحين تتخذ مظاهر مدينة هلنستية نموذجية فكان فيها شارع رئيسي جميل وعدة ابنية دينية وعامة . ومنذ هذا العهد اخذت دولة الانباط تقوم بدور « موالٍ » حليفٍ لرومة . وطلب يوليوس قيصر في عام ٤٧ من مالكو (مالكوس الاول Malchus I حوالي ٥٠ — ٢٨ ق. م.) ان يقدم الفرسان لتساهم في حربه في الاسكندرية . وشجع عبيدة الثالث[٣] (حوالي ٢٨ — ٩ ق. م.) وهو خلف مالكو المذكور ايليوس غالوس Aelius Gallus حاكم مصر في عهد اوغسطس قيصر على القيام عام ٢٤ بالحملة السيئة المصير ضد بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ووعده بالمساعدة التامـــة . ويعزو سترابو صديق غالوس مسؤولية فشل الحملة لخيانة الدليل « سيلاُيس Syllaeus وزير الانباط »[٤]. وعنـــدما اعتلى الحارث الرابع الذي خلف عبيدة العرش دون ان يستأذن اوغسطس بالأمر كاد ان يفقد عرشه بنتيجة ذلك .

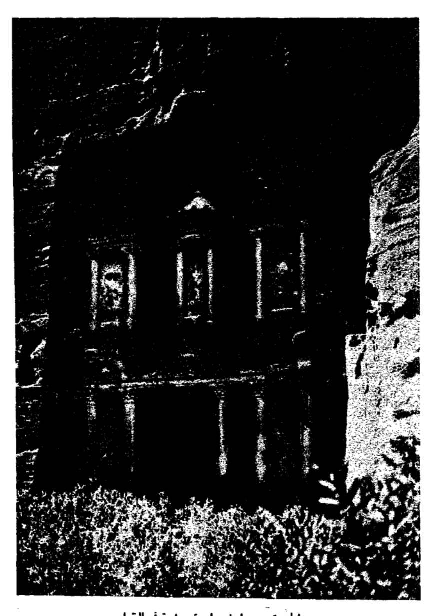
---

١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5. § 1; *War*, Bk. I, ch. 8 § 1.

٢) قارن مع Rudolf E. Brünnow and Alfred v. Domaszewski, *Die Provincia Arabia*, vol. i (Strasbourg, 1904), pp. 190 250-61; Gustaf Dalman, *Petra und seine Felsheiligtümer* (Leipzig, 1908), pp. 183-8.

٣) يرجع اسم عبدة (ابوده Oboda) المدينة المهدمة التي تقع شمالي غربي البتراء الى عبيدة هذا او شخص آخر بهذا الاسم . انظر Abel, vol. ii, p. 400.

٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 23; Hitti, *History of the Arabs*, p. 46; cf. A. Kammerer, *Pétra et la Nabatène* (Paris, 1929), p. 199.



الخزنة وهي اجمل واجهة معمارية في البتراء
وقد اقيم هذا البناء في الاصل ليكون معبداً او قبراً لاحد
ملوك الانباط الاخيرين

المملكة في ذروتها

بلغت المملكة ذروتها في عهد الحارث الرابع (٩ ق. م. — ٤٠ م.) الذي كان حكمه طويلاً ومزدهراً. وقد تابع عملية نشر الحضارة الرومانية. وكان من ولاته ذاك الذي حاول القبض على بولس في دمشق[١]. وقد تزوج الحاكم هيرودس ابن هيرودس الكبير ابنة الحارث هذا وتجرأ على طلاقها ليتزوج راقصة كانت السبب الرئيسي في مقتل يوحنا المعمدان[٢]. فشن الأب الناقم حرباً مظفرة على هذا الملك اليهودي[٣]. ويمكن ان يرجع تاريخ «الاماكن المرتفعة» التي لا تزال قائمة في البتراء[٤] والقبور الجميلة التي تمثلها قبور الحِجْر (مدائن صالح) في الحجاز الى زمن حكمه. وكانت الحِجْر مركزاً لقبيلة ثمود[٥].

كانت المملكة تضم في اقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرقي الاردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالي الجزيرة العربية. ومهما يكن فان القسم السوري كانت تفصله عن قسم شرقي الاردن منطقة اتحاد الديكابولس[٦]. وكان يربط ما بين القسمين وادي السرحان. وكانت تستخدم هذه المنطقة الصحراوية الواقعة على الحدود الشرقية لشرقي الاردن كطريق رئيسية كبرى تبدأ من قلب الجزيرة العربية الى سورية وتتجنب المرور بالديكابولس[٧]. ويمكن الافتراض انهم كانوا في هذه المدن يستفيدون من مياه الينابيع الباطنية وينشئون الخانات وابراج المراقبة والحصون ومراكز الشرطة على طول هذه الطريق وكذلك على طول وادي العربـــة وهو وادي

---

١) رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنثوس ١١ : ٣٢ .

٢) انجيل متى ١٤ : ٦ — ١١ .

٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 5, §§ 1-2.

٤) انظر: Alexander B. W. Kennedy, *Petra: Its History and Monuments* (London, 1925), figs. 42, 53, 57, 156.

٥) انظر القرآن ١٥ : ٨٠ .

٦) انظر ما سبق عن الديكابولس في ص ٣٥٠ .

٧) انظر: Nelson Glueck, *Explorations in Eastern Palestine, III* (New Haven, 1939), pp. 144-5.

التصدع والزحول الذي يمر بالبتراء ويربط وادي الاردن بخليج العقبة . ومثل هذه التدابير كانت تعتبر ضرورية للوقاية من غارات البدو . وكان طريق وادي العربة يتفرع عند البحر الميت باتجاه الغرب الى فلسطين وباتجاه الشرق الى شرقي الاردن حيث يتصل بالطريق الملكي[1] الذي يجتاز القسم الخصب من الهضبة . وكانت تمر في هذين الواديين البضائع النبطية في زمن السلم والاسلحة في زمن الحروب .

الملوك الآخيرون

لا نعرف عن حكام الانباط الاخيرين غير بعض الحقائق المستخرجة من الكتابات الاثرية المحلية والنقود والكتابات الكلاسيكية . ومنذ حكم عبيدة الثالث[2] (حوالي ٢٨ — ٩ ق.م.) اخذت تظهر في النقود صورة الملكة مع الملك. واستمرت التماثيل التصفية المزدوجة للزوجين الملكيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية الملكية. وهناك كتابة اثرية على تمثال لعبيدة الثالث هذا تدعوه « الالهي »[3] مما يدل على ان الانباط كانوا يؤلهون ملوكهم بعد الموت . وقد وصفت الملكة على نقود مالكو الثاني (٤٠ — ٧٠ م.) ابن الحارث الرابع « بشقيقة الملك »[4] مما يشير الى ان بعض الملكات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين متبعين في ذلك عادة الفراعنة والبطالمة . وتشير الكتابة الاثرية على تمثال عبيدة بان احدى زوجات الحارث الرابع كانت اخته ايضاً . وقد ارسل مالكو الثاني في عام ٦٧ الف فارس و٥٠٠٠ من المشاة لمساعدة تيطس في هجومه على اورشليم[5]. وفي اثناء حكمه اصبحت دمشق في ايدي الرومان . ويرجح ان ذلك كان في عهد نيرون . وبموت مالكو ينتهي عصر الانباط الذهبي الذي بدأ في عام ٥٠ ق. م.

---

١) انظر ما سبق في ص ٣١٩ .

٢) يذكر باسم ابوداس الثاني Obodas II في Cooke, p. 216 . قارن بشأن القوائم الكاملة للملوك والاختلافات في ترقيم الملوك والتأريخ: Kammerer, pp. 176-7; Cooke, p. 216; René Dussaud and Frédéric Macler, *Voyage archéologique au Safâ et dans le Djebel ed-Drûz* (Paris, 1901), p. 172; Dussaud and Macler, *Mission*, pp. 69-90.

٣) انظر : Cooke, p. 244.

٤) انظر : Kammerer, p. 254.

٥) انظر : Josephus, *War*, Bk. III, ch. 4, § 2.

وتذكر الكتابات الاثرية التي وجدت في حوران رابيـــل الثاني Rabbil II (رابل Rabel حوالي ٧١ — ١٠٥) آخر ملوك الانباط وهو ابن مالكو وورثه — وتشير اليه بصورة تهكمية كما يبدو بانه الشخص «الذي جلب الحيـــاة والخلاص لشعبه[١]». وتدلنا بعض نقوده بأنه حكم لمدة من الزمن مع امه . ولم يعرف بالضبط ما حدث في تلك السنة الحاسمة التي ادت الى انهيار هذه الدولة السورية العربية الواقعة على الحدود وضمها الى امبراطورية رومة . وكانت رومة قد ابتلعت كل الممالك الصغيرة في سورية وفلسطين واخذت تتأهب للقتال مع تلك الدولة الاسيوية الكبيرة وهي دولة الفرتيين . ولم يمكن اذ ذاك التغاضي عن وجود اية دولة نصف مستقلة تقع بينهما . فكان يجب على جميع الدول المتوسطة بينهما ان تصبح في قبضة الامبراطورية التامة. ولعل الرومان في نهاية حكم رابيل رفضوا الاعتراف بخلف له. ثم كان تحرك كورنيليوس بالما Cornelius Palma نائب تراجان في سورية ضد البتراء كافياً لسحق اية مقاومة[٢]. واصبحت بلاد الانباط في السنة التالية جزءاً من الولاية العربية الرومانية وكانت بصرى فيها المدينة الرئيسية التي اصبحت عاصمة فيما بعد[٣]. وزالت البتراء العربية Arabia Petraea من الوجود .

اما عاصمتها الجميلة والغنية (مدينة البتراء) التي كانت «حمراء وردية اللون وقديمة يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ» — فقد اصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أتت . وتحول طريق التجارة الذي كان يتجه من الشرق الى الغرب شمالًا الى تدمر كما تحول الطريق الجنوبي — الشمالي باتجاه الشرق حيث يقع طريق الحج والخط الحديدي الحجازي الحديث. ثم تحولت البتراء التي اعتنقت المسيحية في القرن الثالث فصارت اسلامية في القرن السابع والقرون التالية . وقد انتزع بلدوين الاول Baldwin I المدينة المحصنة من المسلمين مباشرة بعد تنصيبه ملكاً في ١١٠٠ واحتفظ بهـــا

---

١) انظر : Cooke, p. 255; Dussaud and Macler. *Voyage*, pp. 166-7; Kammerer, pp. 255-56.

٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 14, § 5.

٣) راجع ما ورد عن بصرى في ص ٣٢٣ .

الصليبيون حتى انتصار صلاح الدين الحاسم في عام ١١٨٩. وبقيت مهملة حتى كشفت آثارها للعالم في ١٨١٢ من قبل المكتشف السويسري بوركهارت Burckhardt[١].

العلاقات التجارية والصناعية

وصلت علاقات البتراء التجارية الى مناطق تعتبر من ابعد المناطق في العـالم المتمدن آنذاك. وقد تركت آثاراً كتابية مبعثرة بين بتيولي Puteoli التي كانت مرفأ لرومة لمدة من الزمن وجرها (العقير)[٢] على الخليج الفارسي. كما وجدت وثائق نبطية اخرى في مليتوس ورودس ودلتا النيل الشرقية ومصر العليا وعند مصب الفرات. ويعود تاريخ الكتابة الاثرية المشوهة التي وجدت في بتيولي ثم اصبحت اليوم في متحف نابولي الى عام ٥ م. ويُكرس هذا النقش شيئاً من اجل حياة الملك الحارث الرابع في هيكل يرمم وكان قد بني قبل ذلك العهـد بخمسين سنة[٣]. وتشهد كذلك الوثائق الصينية بمشاريع الانباط التجارية.

وكانت السلع الرئيسية تتألف من المر والتوابل والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والمنسوجات الحريرية الفاخرة من دمشق وغزة والحناء من عسقلان والاواني الزجاجية والارجوان من صيدا وصور واللؤلؤ من الخليج الفارسي. وكان الانتاج المحلي لبـلاد الانباط يضم الذهب والفضة وزيت السمسم الذي كانوا يستخدمونه مكان زيت الزيتون[٤]. ويرجح ان الاسفلت وغيره من المعادن المربّحة كان يستخرج من الساحل الشرقي للبحر الميت. وكان الحرير الخام يستورد من الصين مقابل ما يصدر اليهـا. وقد عرف الحرير الصيني كمادة في سورية منـذ ايام السلوقيين. وكان الحرير الخام ينسج في صيدا في القرن الاول الميلادي. وكانت الاشياء المستوردة من اليونان ورومة تجلب في جرار اتيكية ولا تزال توجد بعض قطع منها حول

١) انظر: John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), pp. 418-34.

٢) انظر ما سبق في ص ٢٩٩ و ٣٠٠.

٣) انظر: *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, Pars II, tom. i (Paris, 1899), No. 158.

٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

البتراء وايلة[١]. وكانت ايلة ولويكي كومه Leuke Kome (المدينة البيضاء المفقودة على البحر الاحمر قرب الوجه) حلقتين في سلسلة محطات القوافل وكانت بصرى وصلخد حلقتين داخليتين. واستخدمت هذه المدن مع غيرها كمستودعات للاسلحة والبضائع. وقد عززت الجيوش المحلية بجاليات من الانباط. ومما يستوعي زيادة الاهتمام ان احد المواقع المكتشفة حديثاً وهو جبل رام Ramm الذي يبعد خمسةً وعشرين ميلاً شرقي ايلة قد قيل عنه انه إرم Iram الواردة في القرآن[٢]. وكان الانباط يحمون طرق القوافل ويفرضون الضرائب على البضائع ويمارسون نوعاً من الاحتكار لمدة من الزمن. ووجد سترابو «انه بلغ من شدة ميلهم للحصول على الممتلكات انهم كانوا يفرضون الغرامات علناً على كل من ينقص ممتلكاته كما كانوا يمنحون مراتب الشرف لكل من يزيد فيها»[٣].

المظاهر الحضارية

كانت حضارة الانباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في اساسها وبقيت كذلك.

وقد اصاب سترابو ويوسيفوس وديودورس باطلاق اسم العرب على الانباط، اذ ان اسماءهم الشخصية واسماء الهتهم واثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالاً للشك بان لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية. وفي الكتابة الاثرية في بتيولي التي سبق ذكرها يرد اسم علي، الذي شاع لدى المسلمين فيما بعد، لاول مرة في المدونات. وفي كتابات اخرى تظهر اسماء حبيب وسعيد وهي اسماء عربية شائعة ايضاً[٤]. وترد بعض الكلمات العربية مثل «قبر» و«غير» في عدة كتابات

١) هي ايلات Elath القديمة وتدعى اليوم العقبة لان احمد بن طولون بنى حصناً في ذلك الموقع.

٢) انظر: M.-R. Savignac and G. Horsfield, «Le Temple de Ramm» *Revue biblique*, vol. xliv (1935), pp. 245-78; Harold W. Glidden, «Koranic Iram, Legendary and Historical», *Bulletin, American Schools of Oriental Research*; No. 73 (1939) pp. 13-15.

٣) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

٤) انظر: *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, pp. 260, 242.

اثرية. وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربيـــة صرفة في احدى الكتابات الاثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربياً[١].

كانت اللغة الآرامية وهي اللغة الشائعة في ذلك العصر يستعملها الانباط كما كان يستعملها جيرانهم في الشمال[٢]. ويجب ان نذكر انه لم تكن هنـاك حروف عربية بعد. والرسالة التي كتبها الانباط في ٣١٢ ق. م. الى انتيفونس كانت «بالحروف السريانية[٣]». وكانت الآرامية اللغة الوحيدة التي باستطاعتهم استعمالها على ابنيتهم الاثرية ونقودهم. وبالتدريج انفصلت الكتابة النبطية عن الآرامية. وحوالي منتصف القرن الاول ق. م. اتخذت طابعها المميز واصبحت ذات صفة ثابتة.

ويمكن الافتراض ان التجار الانباط كانوا الى حد ما يتكلمون لغتين ان لم يكن اكثر، كتجار القاهرة وبيروت اليـــوم. ولا بد ان بعضهم كانوا يعرفون ليس اللغتين العربية والآرامية فحسب بل اليونانية وبمقدار اقل اللاتينية ايضاً.

ومما يزيد في اهمية الحروف النبطية ان الابجدية العربية قد انحدرت منها مباشرة كما يستدل من دراسة الكتابات الاثرية العربية القديمة. واقدم نص عربي وصلنا هو نص النَمارَه al-Namarah في شرقي حوران من عام ٣٢٨ م. وهو مكتوب بحروف نبطية[٤]. ويعتـــبر خط النسخ الذي كتبت به اللغة العربية في قدمه كالخط الكوفي الذي ينسب الى الكوفة في بـــلاد ما بين النهرين. وتخالف المرويات الاسلامية الادلة التي مصدرها الكتابات الاثرية فتشير خطأً الى بلاد ما بين النهرين بانها اول مكان ظهرت فيه الكتابة العربية الصحيحة.

الدّيانة

كانت ديانة الانباط من النوع السامي الشائع واساسها طقوس الخصب المتصلة

---

١) انظر: Jaussen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (Paris, 1909) pp. 172-6.

٢) راجع لاجل التوسع في لغة الانباط: J. Cantineau, *Le Nabatéen*, 2 vols. (Paris, 1930-32).

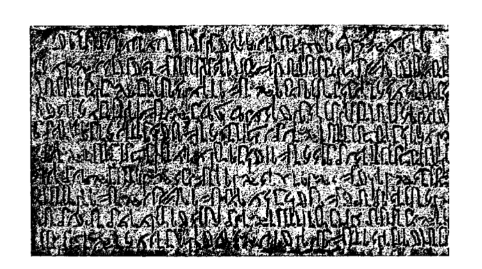
٣) انظر: Diodorus, Bk. XIX (ch. 6), § 96.

٤) انظر: Cantineau, vol. i, p. 22.

بالزراعة . وقد احتفظت بعناصر من العبادة القديمة المقترنة « بالاماكن المرتفعة » والحجارة القائمة .

وكان على رأس مجموعة آلهة الانباط الاله دوشارا (ذو الشرى او دوسارس Dusares)[١] . وهو اله الشمس الذي كان يعبد بشكل مسلة او حجر اسود غير منحوت له اربع زوايا . وقد بقي في انقاض معبد نبطي في خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة وربما بني في القرن الاول ق . م .[٢] .

كانت اللات الالاهة الرئيسية في الجزيرة العربية وتتصل بالاله ذو الشرى ،



كتابة اثرية نبطية على احد الاضرحة من علم ٢٦ م.
وجدت في الحِجْر (مدائن صالح)

١) والشرا هو اسم مكان . راجع : W. H. Waddington, *Inscriptions grecques et latines de la Syrie* (Paris, 1870), pp. 478-9.
ولا يزال الجبل الحواري الذي يشرف على شمال شرقي البتراء يدعى حتى اليوم شرى shara ترد شرّى sharra في *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. vii (1938), pl. i.).
ويرجح ان الكلمة تعني حمى او منطقة مقدسة . انظر : Dalman p. 49.

٢) انظر : M. E. Kirk, « An outline of the Ancient Cultural History of Trans-jordan », *Palestine Exploration Fund Quarterly* (1944), p. 196.

وكانت الاهة القمر . ومن الالهة التي ذكرت في الكتابات الاثرية مناة والعُزّى المذكورتان في القرآن . كما يظهر في الكتابات هُبَل ايضاً . وكانت الالاهة الآرامية اتارغاتس تمثل في خربة التنور كالاهة الحبوب واوراق النباتات والثمار والسمك[١] . وهنالك آلهة عديدة من هذا المكان تقابل آلهة تدمر ودورا – اوروبس وهيرابولس وهليوبولس . وكانت عبادة الافعى تشكل جزءاً من الديانة .

لا نعرف سوى القليل عن الاحتفالات المتصلة بعبادة الانباط . ويبدو وصف سترابو لاحدى الولائم الملكية التي « لا يشرب الانسان فيها اكثر من احد عشر كأساً مستعملاً في كل مرة كأساً ذهبياً مختلفاً »[٢] بانه اشبه بحفلة تتصل بالطقوس الدينية . ويبدو ان تقشف الازمنة القديمة قد زال بتأثير « الحضارة الحديثة » . وتتضح الطقوس الدينية من رواية لسترابو نفسه يذكر فيها « انهم كانوا يأكلون على موائد مشتركة بشكل جماعات تتألف من ثلاثة عشر شخصاً ويقوم على خدمة كل جماعة مغنيتان » . وباقتباس مظاهر الترف والاساليب الهلنستية في الحياة فان الآلهة بدلت اسماءها السامية القديمة واتخذت مظهراً رومانياً فاصبح ذو الشرى يدعى ديونيسوس .

ومما لا شك فيه ان تصوير الصفات القومية للانباط في كتابات سترابو[٣] وديودورس[٤] وهما من احسن مصادرنا امر مبالغ فيه ولكن لا بد ان يكون فيه عنصر من الحقيقة . والصورة العامة هي صورة شعب متفهم للامور محب للكسب منظم وديمقراطي ، منهمك في التجارة والزراعة . ولم يكن يوجد في المجتمع سوى عدد قليل من العبيد مع عدم وجود فقراء معدمين . وحافظ الافراد على علاقات سلمية بعضهم مع بعض حتى انهم لم يحتاجوا الى رفع الدعاوى . وبلغ من ديمقراطية الملك انه غالباً ما كان يقدم تقريراً عن اعمال ملكه الى الجمعية العامة . واشغل

---

١) انظر : Nelson Glueck, *The Other Side of the Jordan* (New Haven, 1940), pp. 180-86; Kirk, p. 196.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, §21,26-27.

٤) انظر : Diodorus, Bk. XIX, (ch. 6), §§ 94-7.

الناس بالامور المتعلقة بهذه الحيـــاة حتى انهم نظروا الى الاموات كما ينظر الى البقايا البالية .

بلغ تأثير الانباط في الشمال الى بلاد العبرانيين من جهة وفي الجنوب الى الجزيرة العربية من جهة اخرى . ويظن ان عمري Omri ملك اسرائيل ومؤسس السامرة حيث دفن حوالي ٨٧٤ ق . م . كان من الانباط[١] . وبعد حوالي قرن اعتبر اماصيا Amaziah ملك يهوذا بأن آلهـة الايدوميين في البتراء قوية جداً مما يستدعي وضعها في معبد اورشليم لتعبد جنباً الى جنب مع يهوه[٢] ونستنتج من اسم جشمو Gashmu الذي عارض في مشروع بناء سور لاورشليم بأنه كان من انباط ثمود[٣] . ويمكن ان يكون « المجوس الذين اتوا من المشرق »[٤] عرباً من الصحراء النبطية وليسوا مجوساً من بـلاد فارس[٥] . وقد توصل يوستين الشهيـد[٦] وغيره من آباء الكنيسة الى هذا الاستنتاج من طبيعة الهدايا التي قدمت . ويرجح ان العرب الذين يذكرون بمناسبة عيد العنصرة[٧] كانوا من الانباط . والبـــلاد العربية التي وجد فيها بولس مكاناً يعتزل فيه[٨] كانت بدون شك احدى البقاع الصحراوية في تلك المنطقة .

وقد تكشف الابحاث العلمية فيما بعد مقداراً كبيراً من تأثير الانباط على الديانتين المسيحية والاسلامية الناشئتين اكبر مما عرف حتى الآن . وكلمة حنيف[٩] الواردة في القرآن والتي اطلقت على معاصري النبي محمد الذين كانت لهم بعض الافكار التوحيدية الغامضة من اصل نبطي آرامي .

---

١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ .

٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٧ ؛ اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٤ .

٣) انظر ما سبق في ص ٢٤٤ .

٤) انجيل متى ٢ : ١ .

٥) قارن مع : Ernest E. Herzfeld, *Archeological History of Iran* (London, 1935) pp. 64-6.

٦) انظر : « Dialogue with Trypho », *Ante-Nicene Christian Library*, vol. ii (Edinburgh, 1867), pp. 195-6.

٧) اعمال الرسل ٢ : ١١ .

٨) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ١ : ١٧ .

٩) القرآن سورة ٢ : ١٢٩ ؛ ٣ : ٦ ؛ ٤ : ١٢٤ ؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 108

الفن والبناء

لقد اوجد الانباط نموذجاً جديداً في العمارة يشتمل على معابد وقبور وغيرها من الابنية محفورة في الصخر . ومن صفات بنائهم الغرفة ذات العقود . ولعلهم في اساليب الزخرفة اوجدوا اصناف الالواح النافرة التي انتقلت منهم الى بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس[١] .

وأظهر سكان البتراء في نحتهم كما في ديانتهم علاقة وثيقة بنحت المدن الواقعة على اطراف الصحراء مثل تدمر ودورا — اوروبس وديانتها .

وتأثر الصناع الانباط بالنماذج اليونانيـــة فادخلوا نوعاً جديداً من الخزف يأتي في المرتبة بين احسن الانواع التي انتجتها تلك المنطقة[٢] . وبقايا الكؤوس والفناجين والصحون والاباريق والطاسات تظهر رقة فائقـــة كرقة قشر البيض تدعو الى الاعجاب وتشهد بصناعة متفوقة . وترينا مختلف الانواع من البسيط الخالي من الزخارف الى المدهون الى المزخرف بواسطة الدولاب . ولون الطين المستعمل هو لون الطين الطبيعي المائل الى الحمرة . اما الرسوم فغالباً ما تكون نماذج ازهار او اوراق بشكل هندسي . ويُعتبر انتشار اشكال العنب واوراق الكرمة على الفخار والزخارف المعمارية دليلاً آخر على ان الامتناع عن شرب الخمر المعروف قديماً لم يعد قائماً . وقد استطاع علماء الآثار التابعون للمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية في القدس التعرف عن طريق قطع الفخار الى ما يقرب من خمسمائة موقع نبطي بين العقبة والطرف الشمالي من البحر الميت[٣]. وقد ذكروا ان الانباط في الفن والبناء والهندسة وربما في الادب وفي الفخار بالتأكيد — كانوا موهوبين ومن اكثر الشعوب براعة في التاريخ[٤]. والانباط الذين قاموا بقيادة القوافل التي كانت تشبه الشرايين في تجارة الشرق القديم وببناء مدينة تعتبر فريدة في تاريخ عمل الانسان وببناء

---

١) انظر : Neilson C. Debevoise, « Origin of Decorative Stucco », *American Journal of Archeology*, vol. xlv (1941), p. 60.

٢) انظر : Kirk, P. 195; Glueck, pp. 173-4.

٣) انظر : Glueck, p. 173.

٤) انظر : Glueck, pp. 159-60.

السدود والصهاريج حيث لا توجد مياه الآن — هؤلاء الانباط يمثلهم اليوم بدو الحويطات الوضيعون الذين لا يزالون يهيمون في الاماكن التي ازدهر فيها اسلافهم في الماضي وينصبون خيامهم خارج «المدينة الوردية اللون والتي يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ».

٢ — التدمريون

وبينما كانت شمس البتراء آخذة بالغروب كانت تشرق شمس تدمر وهي مدينة اخرى للقوافل. وبفضل وجود نبع غزير يقوم في قلب الصحراء وتصلح مياهه للشرب رغم انها كبريتية نشأت واحة تقوم في وسطها قرية صغيرة. وكان الذين استقروا فيها بضع قبائل عربية. وادى الاتجاه الجديد في الامبراطوريات العالمية والتحول في طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم.

تدمر

دعا السكان المحليون بلدتهم هذه تدمر. وتظهر بهذا الاسم لاول مرة حوالي عام ١٨٠٠ ق. م. وتعود الى الظهور في وثيقة اشورية لاحقة تقول ان تيغلات فيلاسر الاول Tiglath-Pileser I (حوالي ١١٠٠ ق. م.) طارد اعداءه البدو حتى هذا الملجأ الصحراوي[١]. ويقول يوسيفوس ان السوريين يلفظون الاسم تادامورا Thadamora [٢]. ولا يزال الاسم السامي القديم يظهر في كلمة تدمر العربية. والمؤرخ العبراني (اخبار الايام الثاني ٨:٤) الذي يروي ان سليمان بنى «تدمر» قد هدف إما الى تعظيم سليمان ومملكته او مزج بين تدمر وتامار Tamar في ايدوميــة التي اسسها هذا الملك العبراني[٣]. فالاسم اليوناني Palmyra يعني مدينة النخيل ويطابق

---

١) انظر: Julius Lewy, « Les Textes paléo-assyriens », *Revue de l'histoire des religions*, vol. cx (1934), pp. 40-41 ; P. Dhorme, « Palmyre dans les textes assyriens», *Revue biblique*, vol. xxxiii (1924), pp. 106-8; cf. Luckenbill, vol. i, §§ 287, 308.

٢) انظر: *Antiquities*, Bk. VIII, ch, 6, § 1.

٣) سفر حزقيال ٤٧ : ١٩ ، ٤٨ : ٢٨ ؛ قارن مع الملوك الاول ٩ : ١٨ .

الاسم العبراني تامار Tamar . واشتقاق كلمة تدمر Tadmor غير مؤكد[١]. وقد انتقلت الرواية اليهودية الى المسلمين وهالهم ضخامة الآثار الباقية في المدينة وعظمتها فنسبوا بناءها الى الجن بأمر من سليمان .

مركز التجارة عبر الصحراء

اوجد توسع الامبراطورية الفرثية في منطقة الفرات في منتصف القرن الثاني ق. م. وضعاً جديداً في الشرق الادنى كالوضع الذي حدث بعد ثلاثة ارباع القرن حين ضمت رومة اليها سورية. وكانت تدمر تقوم بين هاتين الامبراطوريتين العالميتين. وساعد موقعها المنعزل في قلب الصحراء على عدم تمكن الفرق الرومانية والفرسان الفرثيين من سهولة الاستيلاء عليها . واستفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . واستغل رجال السياسة فيها بذكاء موقعها الستراتيجي بين دولتين كبيرتين متنافستين وكانوا يقفون مرة الى جانب رومة ومرة الى جانب فرثيا مما جعلهم يحافظون على ميزان القوى ويستفيدون من الحياد . وقد ابقوا على استقلال مدينتهم كدولة حاجزة وذلك بالايقاع بين الدولتين المتخاصمتين .

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن بمرور قوافلهم بسلام . وكان الادلاء يقودون هذه القوافل عبر المنطقة الجرداء كما كان يحميها ركب الرماة من غارات البدو . وقد وضعت المدينة ضرائب ثقيلة على مختلف انواع التجارة لدى مرورها فيها . وكانت البضائع تتألف من بعض الحاجيات الضرورية وكثير من كماليات العالم المعاصر . ولم تختلف كثيراً عن البضائع التي كانت تمر بالبتراء وهي : الصوف والارجوان والحرير والاواني الزجاجية والعطور والروائح وزيت الزيتون والتين المجفف والجوز والجبن والخمور[٢]. وقد وجدت قطع من الحرير

---

١) لعلها متصلة بكلمة تدمورتا tedmortâ السريانية ومعناها «يعجب من» انظر : W. F. Allbright, «The North-Canaanite Poems of Al'êyān Ba'al and the Gracious Gods. *Journal, Palestine Oriental Society*, vol. xiv,» (1934), p. 130, n. 149.

٢) قارن مع : J.-B. Chabot, *Choix d'inscriptions de Palmyre* (Paris, 1922), pp. 26-30.

الصيني في قبر يعود الى عام ٨٣ م.[١] وكان التدمريون آنـــذاك يقومون بالقسط الاكبر من تجارة البحر المتوسط مع بلاد فارس والهند والصين[٢]. ومما يدل على القيمة الكبرى التي كان ينظر بها الى التجار المواطنين ما اعلن في الكتابات الاثرية التي تعود الى منتصف القرن الثالث الميلادي عن اقامة «مجلس الشعب» تماثيـــل «لرئيس القافلة» و «رئيس السوق»[٣]. وقد ازدهرت الصناعة الوطنية الى جانب التجارة. وتبرهن كتابة اثرية من عام ٢٥٨ م. عن وجود «نقابـــة للصاغة الذين يصنعون الذهب والفضة» وكانت تتمتع بنفوذ كبير[٤]. ومما يدلنا على ان الزراعة لم تكن مهملة كلياً اكتشاف سدٍّ في العصور الحديثة طوله ربع ميل وقد بني بين تلّين لاجل جمع المياه واستخدامها في الري. وكانت النتيجة ان اصبحت تدمر من اكثر المدن ثروة في الشرق القديم.

واستعيض بالتدريج عن اكواخها الطينية ببيوت من الحجر الكلسي وانشئت شوارع عريضة. وكان الشارع الرئيسي يؤدي الى معبد بعل Bel. وقد اقيمت الاعمدة على طول الشوارع واتخذت المدينة مظهر مدينة رومانية يونانية مزدهرة. وكان فيها ساحة عامة (آغورا) ومسرح. وكان غناها كافياً لاستثارة جشع انطونيو الذي امر الفرسان عام ٤١ ق. م. بغزوها. وكل ما فعله التدمريون حينذاك انهم اخلوا مدينتهم وهربوا حاملين معهم امتعتهم الثمينة عبر الفرات[٥]. وكان هذا اول احتكاك دونت حوادثه بين رومة وتدمر.

تدمر كتابعة لرومة

لم يكن سهلاً لمدينة الصحراء ان تحافظ على سيادتها التامة في وجـــه النفوذ المتزايد للامبراطورية الواقعة في غربيها. ولا بد انها في اوائل العصور المسيحية

---

١) انظر: R. Pfister, *Textiles de Palmyre* (Paris, 1934), pp. 39 *seq.*, 62.

٢) انظر: Harold Ingholt, « Tomb in the Syrian Desert », *Asia*, vol. xli (1941), p. 506; Grant, *Syrian Desert*, pp. 55, 61, 64.

٣) انظر: Cooke, pp. 274, 279.

٤) انظر: Cooke, p. 286.

٥) انظر: Appian, *De bellis civilibus*, Bk. V, § 9.

كانت قد اعترفت بسيادة رومة ودليلنا على ذلك المراسيم الامبراطورية بين عامي ١٧ — ١٩ م. في عهد طيبريوس التي كانت تتصل بالرسوم الجمركية الخاصة بها ولكن المدينة لم تتخل عن استقلالها ابداً. ويبدو انه وصلها في نفس هذه الفترة مقيم روماني يمثل رومة وقد سمحت لاحد رعاياها واسمه الكسندروس بان يقوم بمهمة من طرف رومة لدى سامبسيجرامس امير حمص[1]. وقد الحق تراجان مدينة تدمر بالولاية التي اوجدها عام ١٠٦ ومنحها هادريان لدى زيارته في عام ١٣٠ اسم هادريانا بالميرا Hadriana Palmyra [2] وجعلها تابعة لرومة. وقد اصبحت المدن التابعة لتدمر تابعة لرومة. وتلقت تدمر في اوائل القرن الثالث حقوق المستعمرة من سبتيموس سفيروس او من امبراطور آخر من السلالة السورية الحاكمة في رومة. وكانت المدينة تدعى على نقود كراكلا باسم مستعمرة Colonia. وبهذه الصفة اعفيت من الرسوم الجمركية. وكان امراً طبيعياً ان تعطف اسرة سفيروس على مدينة تدمر. وقد وجدت دعائم زخرفية كانت مزدانة فيما سبق بصور جوليا ميزا وسائر افراد الاسرة في الساحة العامة (الآغورا) التي حصلت فيها الحفريات في عام ١٩٣٩[3]. وبدأت تدمر والدول التي تدور في فلكها عهداً جديداً من الازدهار الذي دام أكثر من قرن ونصف بعد ان اصبحت تابعة لرومة. وكانت الطرق الرومانية تربط رومة بدمشق عاصمة سورية الداخلية وبمدن الفرات[4] وبالحصون الامامية التي تحمي خطوط الدفاع. وقد كشفت اعمال المسح الجوي الحديثة بقايا مثل هذه الحصون التي تبدأ في منطقة الدجلة وتستمر في كل سورية وشرقي الاردن حتى البحر الاحمر[5]. واخذ المواطنون البارزون في تدمر يضيفون اسماء رومانية الى اسمائهم. واتخذت المدينة نفسها تسمية جديدة. واضافت احدى الاسر اسم «سبتيموس»

---

١) ذكر في ص ٣٦٠.

٢) انظر: Cooke, p. 322.

٣) انظر: Jean Starcky, *Palmyre, guide archéologique* (Beirut, 1941), p. 48.

٤) انظر: Alois Musil, *Arabia Deserta* (New York, 1927), pp. 514-16; do., *Palmyrena*, (New York, 1928), pp. 237-46.

٥) انظر: Antoine Poidebard, *La Trace de Rome dans le désert de Syrie* (Paris, 1934); Aurel Stein, «Surveys on the Roman Frontier in 'Iraq and Trans-Jordan», *Geographical Journal*, vol. xcv (1940), pp. 428-38.

امام اسمها السامي مما يدل على نوالها حق الرعوية في عهد سفيروس ويرجح ان ذلك كان اعترافاً بالخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الدولة الفرتية .

تأتي دورا ـ اوروبس في طليعة المدن التي كانت تابعة لتدمر . وقد استخدمت هذه المدينة كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة . ووجدت فيها بقايا ابنية ذات زخارف نافرة تمثل جنوداً تدمريين . وكانت الرصافة من المدن الهامة الاخرى الملحقة بتدمر وقد دعيت باسم سرجيوبولس Sergiopolis فيما بعد بالنسبة لقديسها المحلي سرجيوس . وكان سرجيوس جندياً استشهد حوالي ٣٠٥ في عهد ديوكليتيان وبقي لمدة طويلة القديس المفضل لدى الكنيسة السورية واصبحت مدينته مركزاً هاماً يقصده الزوار واوجدت فيها اسقفية[١] . وتذكر هذه المدينة باسم رصابا Rasappa في كتابة اثرية اشورية تعود الى اواخر القرن التاسع ق. م.[٢] . وهي نفس مدينة رزف Reseph (بمعنى الجمر المتوهج) التي هدمها سنحاريب[٣]. وقد قدر لهذه المدينة التي اصبح اسمها بالعربية الرصافة ان تلعب دوراً اكثر اهمية كمصيف محبب لدى الخلفاء الامويين .

اسرة اذينة

ارتقت الأسرة التي كان يتصدر اسمها كلمة سبتيموس الى مركز الزعامة في تدمر في منتصف القرن الثالث . والتمثال الذي شيد في عام ٢٥١ على شرف عميد الاسرة سبتيموس حيران ابن اذينة يدعوه زعيم «راس» تدمر وعضو مجلس شيوخها الممتاز»[٤] . ويبدو انه كان اول تدمري اضاف لقب «راس» الى رتبته الرومانية كعضو في مجلس الشيوخ . ويظهر والده في الكتابات الاثرية بلقب عضو في مجلس الشيوخ فقط وهي رتبة يظن انها منحت له حين زار اسكندر سفيروس مدينة

---

١) انظر : Ptolemy, Bk. V, ch. 15, § 24; Procopius, Bk. II, ch. 5, § 29. Musil, *Palmyrena*, pp. 260-68, 299-326.

٢) انظر : Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch*, p. 77; cf. Dussaud, *Topographie*, pp. 253 *seq*.

٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ ؛ اشعيا ٣٧ : ١٢ .

٤) انظر : Chabot, p. 55; de Vogüé, *Inscriptions sémitiques* (Paris, 1868-77), p. 24; Cooke, p. 285; cf. Daniel Schlumberger in *Bulletin d'études Orientales, l'Institut français de Damas*, vol. ix (1934), pp. 41-2, 53 *seq*.

تدمر في عام ٢٣٠ او ٢٣١ بمناسبة الحروب الفارسية . ويرجح ان حيران هذا كان والد اذينة المشهور (باليونانية اوديناتوس Odenathus ؛ قارن مع العربية اذينة تصغير اذن)[١] . ويستدل من اسماء الاعلام بان الاسرة كانت من اصل عربي . ويدعو أحد المؤرخين اليونان اذينة هذا «حاكم العرب «Saracens »[٢] . وكان افراد الاسرة يشكلون الجهاز التنفيذي للحكومة التي كانت بيد مجلس الشعب . وكان الاشخاص الذين يستحقون التقدير يكرمون من قبل هذا المجلس .

لم تبدأ تدمر القيام بدور هام في القضايا الدولية حتى زمن حيران . اذ انه في تلك الاثناء كانت قد حلت سلالة جديدة نشيطة في ايران مكان السلالة الفرتية القديمة . وكانت هذه السلالة هي الساسانية التي دامت سلطتها من عام ٢٢٧ م . حتى ظهور الاسلام . وفي عام ٢٦٠ اوقع الجيش الساساني في عهد شابور الاول هزيمة مخجلة بالجيوش الرومانية قرب اديسا حتى ان امبراطورها فاليريان سقط اسيراً بايدي اعدائه وكسب الساسانيون من وراء ذلك شهرة كبيرة . وكان فاليريان قد انعم قبل سنتين برتبة القنصلية على اذينة[٣] . وامتدت غارات الفرس التالية الى شمالي سورية ونتج عنها نهب انطاكية وغيرها من المدن[٤] . وقد هرع اذينة في هذه المعركة على رأس جيش كبير من السوريين وقبائل البدو لانقاذ فاليريان . فهزم الفرس على ضفاف الفرات وتتبعهم حتى اسوار عاصمتهم برسبوليس واسر بعض افراد الحرم الملكي الا انه لم يتمكن من استعادة الامبراطور السجين[٥] . وقد توفي فاليريان في الاسر وحشي جلده وعلق في احد المعابد .

كوفيء اذينة في عام ٢٦٢ على ولائه للامبراطور الجديد غالينوس Gallienus فمنح لقب زعيم الشرق Dux Orientis الذي جعل منه ما يشبه نائب الامبراطور على القسم الشرقي من الامبراطورية . وكانت الامبراطورية انـذاك في حالة ضعف

١) انظر : Zosimus, *Historia nova*, Bk. I. § 39; cf. G. Ryckmans, *Les Noms propres sud-sémitiques*, vol. i (Louvain, 1934), p. 41.

٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 5, § 6.

٣) انظر : Cooke, p. 286.

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٠ و ٤١ .

٥) انظر : Pollio in *Scriptores historia Augustae*, Bk. XXIV, ch. 15.

واضطراب لانقضاض العالم البربري باسره عليها في اوربا وآسيا. وفي ذروة نجاح اذينة اغتيل مع وريثه في احوال غامضة في (٢٦٦ او ٢٦٧) بينما كان يحتفل باحدى المناسبات في حمص. وكان لابن اخيه صلة بالمؤامرة التي يمكن ان تكون رومة قد دبرتها. وكان اذينة يتمتع ببنية رياضية قوية مكنته من تحمل الصعوبات كما امتاز بالهوايات والفضائل التي يقدرها العرب كثيراً. وظهر كرمه في المآدب الضخمة الرائعة وفي رعاية الاحتفالات الدينية وفي هدايا العطور التي كان يقدمها للحمامات العامة.

زنوبيا

ومهما يكن فانه يتضاءل كشخصية تاريخية امام ارملته الطموحة الجميلة التي حكمت بعده باسم ولدها القاصر وهب اللات (وتترجم باليونانية اثينودوروس Athenodorus)[١]. وكانت زنوبيا التي تذكرها الكتابات الاثرية التدمرية باسم بَت زاباي Bath-Zabbay (ابنة العطية)- وهي الزباء شبه الخرافية الواردة في المصادر العربية – مثل زوجها قوية البنية ولكنها نشيطة مولعة بالصيد وركوب الخيل. وكانت حنطية اللون ذات اسنان اشبه باللؤلؤ وعينين واسعتين براقتين وتعيش حياة الابهة والوقار في بلاط فخم يتبع نظام بلاط الاكاسرة. وكانت حاشيتها تحييها بالسجود حسب الاسلوب الفارسي. وفي المناسبات الرسمية كانت تلبس ثوباً من الارجوان موشى بالجواهر ومشدوداً عند الخصر وتترك احد ذراعيها عارياً حتى الكتف. وكانت تركب والخوذة على رأسها في عربة تشع بالاحجار الثمينة. وقد ادعت القربى بزميلتها السابقة كليوباترا في مصر وورعت الثقافة اليونانية وكانت هي نفسها تتكلم الآرامية واليونانية وبعض اللاتينية[٢]. وبلغ منها انها جمعت تاريخاً للشرق. وكان زينة المفكرين بين رجال بلاطها الفيلسوف لونجينوس.

ولكن زنوبيا كانت اكثر طموحاً وتأثيراً كحاكمة من كليوباترا. فقد اتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى صارت اشبه بامبراطورية حقيقية اذ شملت سورية وجزءاً من آسية الصغرى وشمالي الجزيرة العربية. وفي عام ٢٧٠ سار قائدها زبدة

---

١) انظر: Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXIII, ch. 13; Bk. XXVI, ch. 38.

٢) انظر: Bouchier, pp. 144-5.

الى مصر على رأس جيش قيل ان عدده بلغ ٧٠،٠٠٠ رجل . فخلع حاكما Zabda مغتصباً فيها واقام حامية في الاسكندرية. وسكت النقود لاول مرة في هذه المدينة وعليها رأس وهب اللات بجانب رأس اورليان. وفي العام التالي (٢٧١) صدرت نقود في الاسكندرية وقد حذف منها رأس اورليان. وكانت زنوبيا قد استنتجت حينذاك بان قوتها كافية لاعلان استقلال ابنها التام . فاتخذ لقب « ملك الملوك » . وكان يلقب ايضاً على النقود الاسكندرية والانطاكية باوغسطس وتلقب والدته باوغسطا. وقد كتب على احجار المسافات في سورية اسماء الامبراطور وزنوبيا اوغسطا. واقيم على عمود عال في شارع الاعمدة الكبير في تدمر تمثال للملكة في آب من عام ٢٧١ نقشت عليه كتابات اثرية باللغتين اليونانية والتدمرية ولا تزال واضحة حتى اليوم وهذا نصها :

الى سيدتهم سبتيميا زنوبيا اكثر الملكات شهرة وتقوى والى القائدين الممتازين بلقب سبتيموس وهما زبدة[١]، القائد العام ، وزبأي[٢]، قائد الموقع ، في شهر آب من عام ٥٨٢[٣] .

وكان ينتصب بالقرب منه تمثال آخر يحمل كتابة اثرية باللغة التدمرية فقط جاء فيها :

تمثال سبتيموس اذينة ملك الملوك ومجدد الشرق كله وقد شيّده القائدان الممتازان ، زبدة القائد العام وزبأي قائد جيش تدمر ، لسيدهما في شهر آب من عام ٥٨٢[٤].

توقع القائدان التدمريان زبدة وزبأي قيام رومة باعمال عسكرية . فتوغلا في

---

١) قارن مع زَبَد في سفر اخبار الايام الاول ٧ : ٢١ ؛ وهي كلمة من اللغة العربية الجنوبية تعني « هو (الله) اعطى » . انظر : Ryckmans, vol. I, p. 83 . وكلمة وَهَب في اللغة العربية الشمالية لها نفس المعنى .

٢) لعلها صيغة من كلمة زبداي Zabday وهي شبيهة بكلمة زَبَد . انظر عزرا ١٠ : ٢٨ ، نحميا ٣ : ٢٠ .

٣) هذا التاريخ هو بالنسبة لعصر السلوقي الذي يبدأ في ١ تشرين الاول عام ٣١٢ ق . م ؛ انظر: J. Cantineau, *Inventaire des inscriptions de Palmyre*, fasc. i (1930), p. 27.

٤) انظر : Starcky, p. 49; cf. Chabot, p. 56; de Vogüé, pp. 28-9; Cooke, pp. 290-93; Cantineau, fasc. i, p. 25.

داخل آسية الصغرى واقاما الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى انكيرا Ancyra (انقرة)؛ وقد شعرت حتى خلقدونية التي تقابل بيزنطة بوجود جيوشهم[١]. وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تشكل لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان. وكانت امبراطورية قصيرة الاجل الا انها سبقت امبراطورية الامويين باربعة قرون.

تدمر في ايامها الاخيرة

واخيراً تحرك الامبراطور الروماني اورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) الذي اعاد بقوة بأسه النظام الى الامبراطورية بعد فترة من الاضطراب تميزت بهجمات الفرنجة والالمان والقوط وكذلك الفرس. وفي اوائل عام ٢٧٢ اخضع اورليان الحاميات التدمرية في آسية الصغرى ثم تابع مسيره لاحتلال سورية. ولم تظهر انطاكية التي كانت مع سلوقية موالية للرومان سوى مقاومة ضئيلة؛ اما حمص التي كان يضمر سكانها الحسد لتدمر بسبب الاسبقية التي تدعيها فقد احتُلّت بعد بعض المقاومة. وانسحبت زنوبيا وزبدة الى تدمر[٢] بعد ان تفوقت فرق الفرسان والمشاة الخفيفة التابعة لاورليان بتحركاتها على فرق فرسانها الثقيلة. واصبحت طريق البادية المؤدية الى العاصمة مفتوحة الآن امام العدو المهاجم. وتمهّل اورليان في حمص لاقامة مذابح جديدة لاله الشمس الاكابالس[٣] وبنى في طريق عودته الى رومة معبداً خاصاً له كانت تمارس فيه الطقوس السورية.

حاصر اورليان مدينة تدمر وعززت قواته بجيوش مصرية الا ان زنوبيا لم تتلقَ اية مساعدة حتى ولا من بلاد فارس. وكان التدمريون يقذفون المحاصرين بالحجارة والنبال وكرات النار. وقد رفضت الملكة في البدء الشروط المعتدلة للاستسلام التي قدمها اورليان ولكنها ادركت انها تحارب معركة خاسرة وحاولت انقاذ نفسها بالهرب ليلاً على هجين سريع. وقد ادركها الخيالة الذين كانوا يلاحقونها بينما كانت تحاول عبور الفرات[٤]. وكان ابنها قد سقط قتيلاً في الدفاع عن مدينته.

---

١) انظر: Mommsen, *Provinces of the Roman Empire*, vol. ii, p. 107.

٢) انظر: Zosimus, Bk. I, § 52.

٣) انظر ما سبق في ص ٣٨١.

٤) انظر: Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXVI, ch. 28.

ولم يكن امام تدمر سوى الاستسلام. فجردها الفاتح من مصنوعاتها الفنية وزخارفها الثمينة التي اخذ بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد في رومة. واقتصر عقاب السكان على فرض غرامة عليهم وتعيين حاكم روماني مع عدد من الرماة.

واعدم لونجينوس مع غيره من مستشاري زنوبيا في حمص لتشجيعه الملكة على التخلص من الوصاية الرومانية. وما كاد اورليان يصل الهلسبونت في طريق عودته (اواخر ٢٧٢) حتى سمع بثورة جديدة في تدمر ادّت الى اغتيال حاكمه والتغلب على حامية المدينة[١]. فهرع راجعاً وفاجأ المدينة فهدمها واعمل السيف في سكانها. وقد سلم معبد بعل. اما زنوبيا فاخذت الى رومة مع احد ابنائها[٢]. وسارت محملة بالجواهر ومقيدة بسلال ذهبية فازدان بها موكب اورليان عند دخوله المظفر الى عاصمته في ٢٧٤. وقدمت لها دار خاصة قرب تيبور (تيفولي) حيث امضت بقية سني حياتها. وتزوجت هناك من روماني على ما يرجح وانجبت اولاداً[٣].

زالت اهمية تدمر باستثناء فترات قصيرة في عهد ديوكليتيان (٢٨٤ — ٣٠٥) ويوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ثم دخلت بالتدريج في عـــالم النسيان. وبالرغم من الاشارة اليها بصورة عرضية كمركز اسقفي فان الصحراء تغلبت على سكانها حين فقدوا سيطرتهم على تلك الصحراء. وكان هذا من الامور المعتادة. وسكن جميع اهلهـــا في العصور الحديثة داخل بقايا المعبد القديم الذي كان طيفاً لمجدها القديم ويشرف هذا المعبد على الآثار الرائعة لمدينة اجدادهم. وفي عام ١٩٢٩ اجـــلى الفرنسيون السكان من المعبد وابتنوا لهم قرية عصرية بجانبه. وقد بني ايضاً مطار حربي وثكنات لفرقة الهجانة في ذلك الموقع.

البقايا الاثرية

تعتبر اليوم آثار تدمر من اكثر المناظر جلالاً في الصحراء. وهي تجذب هواة الآثار من جميع انحاء العالم وتفتنهم. وقد تحول معبد بعل الذي يقوم على سطح مرتفع الى ما يشبه المتحف. ووجدت فيه اشكال نساء محجبات وهن يساهمن في

١) انظر: Zosimus, Bk. I, § 6.

٢) انظر: Zosimus, Bk. I, § 59.

٣) انظر: Pollio in *Scriptores*, Bk. XXIV, ch. 27.

احتفال ديني . وامام المعبد ينتصب قوس اثري يبدأ عنده شارع الاعمدة الكبير . وكان هذا الشارع المعمد الذي يبلغ طوله ١٢٤٠ يردة يشكل المحور الرئيسي للمدينة وتتفرع منه شوارع ثانوية. ولم يسلم من اعمدته البالغة ٣٧٥ عموداً او اكثر، ارتفاع كل منها ٥٥ قدماً، سوى حوالي ١٥٠ عموداً بعضها سليم وبعضها مهشم . وغالبية هذه الاعمدة من الحجر الكلسي الابيض الوردي اللون ولها تيجان كورنثية. وبعضها من الغرانيت المنقط بالازرق مما يدل على اصل مصري (من اسوان). وقد تضمنت الاعمدة دعائم زخرفية مزدانة بتماثيل شيدت على شرف المواطنين الجديرين بالتقدير ويعتبر ذلك من خصائص البناء التدمري . والتماثيل النصفية التدمرية هي عادة تماثيل امامية وليست جانبية وتظهر عيوناً مفتوحة واسعة وتحمل كتابات اثرية فوق الكتف . ويظهر افراد الاسرة المالكة والطبقة الارستقراطية مرتدين الرداء اليوناني بينما يظهر عامة الشعب بلباس الفرتيين[١]. وقد وجد تمثال ساق يرتدي لباساً فرتياً كما وجد شكل آخر يضع شملة رومانية .

ومن خصائص الآثار التدمرية ايضاً القبور او « بيوت الابدية » على حد تعبير التدمريين[٢]. وتنتصب خارج المدينة كأبراج عالية وتتألف من غرف موزعة على عدة طوابق ومزخرفة من الداخل بالالوان والصور المنحوتة للموتى. وفي دورا اوروبس عدد قليل من القبور على شكل ابراج .

تعتبر الزخارف المنحوتة في تدمر[٣] ودورا اوروبس ذات اهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الفن . اذ انها تفيد في سدّ الثغرة بين الفن السامي القديم في بابل واشور وفينيقية وبين الفن المسيحي. ويمكن ان نتتبع من خلالها بدايات التأثيرات الشرقية على الرسوم الرومانية اليونانية مما مهّد الطريق لظهور الفن البيزنطي.

اللغة

كانت الحضارة التدمرية حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية

---

١) راجع لأجل الامثلة على ذلك : Henri Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 2 (Paris, 1938), pp. 51 *seq.*

٢) انظر : Harold Ingholt, « Five Dated Tombs from Palmyra », *Berytus*, vol. ii (1935), pp. 60, 109.

٣) راجع : Harold Ingholt, « Quelques Fresques récemment découvertes à Palmyre », *Acta Archaeologica*, vol. iii (1932), pp. 1-20.

وفارسية . ولا شك ان السكان الاصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا في كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة . وبقيت اكثرية السكان عربية رغم امتزاجها بالآراميين . ولا تعود الكتابات الاثرية الى اقدم من ٩ ق. م. حين كانت المدينة في



والد تدمري واولاده الثلاثة حوالي ١٧٠ م.

يبدو الوالد بدون لحية وبرأس مكشوف يمسك آنية في يده اليسرى وبعض البلح او الموز في يده اليمنى. ويمسك ابنه الواقف بين الابنتين عصفوراً بيده اليسرى وعنقود عنب باليد اليمنى وتضع الابنتان نقاباً لا يغطي الوجه . والكتابة قرب يـد الرجل اليسرى تذكر اسمه : زبديبول بن مقيمو بن نوربيل بن زبده بن عبداي (بن زبدي) بول . واسماء الاولاد من اليمين الى اليسار هي : تدمر ابنته ، مقيمو ابنه، علية ابنته .

طريقها لان تصبح مركزاً تجارياً مشهوراً . والكتابة التدمرية الدارجة التي كانت بالاصل كتابة سكان سورية السلوقية الذين يكتبون بالآرامية في القرن الاول ق. م. لم تنشأ عنها اية اختلافات جذرية. وكانت القرارات العامة توضع باللغتين اليونانية والآرامية . وقد سهل وجود الكتابة اليونانية قراءة الكتابة الآرامية .

ووجدت احدى الكتابات الاثرية التدمرية في هنغاريا وكتابة اخرى في بريطانيا العظمى . والكتابة الاثرية الانكليزية تركها احد التدمريين وكان قد تزوج امرأة انكليزية وصنع لها تمثالاً . وكان الرومان يستخدمون الرماة التدمريين في اماكن بعيدة مثل مراكش وبريطانيا .

كانت اللهجة التي يتكلم بها التدمريون تتصل باللغة الآرامية الغربية وليس باللغة الآرامية الشرقية (لغة اديسا) . وكانت في الحقيقة نفس اللهجة المستعملة في سورية وبلاد الانباط وتدمر ولا تختلف عن اللهجة التي تكلم بها المسيح . ولا شك ان الطبقة المثقفة كانت تتكلم اليونانية زيادة على الآرامية ويظن ان رجال الاعمال كانوا يفهمون اللغة العربية كما كان يستعملها بعض التدمريين كلغة دارجة .

لونجينوس

لم ينبغ في تدمر احد من رجال الفكر المتميزين سوى ديونيسيوس كاشيوس لونجينوس . ويرجح انه من مواطني حمص وقد درس اولاً في الاسكندرية ومن ثم في اثينة حيث كان من تلاميذه بورفيريوس المشهور[١] . وكانت امه سورية وعرفت اللغة السريانية[٢] . وكان من معاصريه امبليوس الأفامي[٣] . ويعتبر هذا الفيلسوف التدمري فريداً في عصر كثر فيه منمّقو الكلام والمراوغون الثرثارون الخياليون . وبلـــغ من سعة معلوماته ان وصفه احد معاصريه بأنه « مكتبة حية ومتحف متنقل »[٤] . ولونجينوس هو الذي علّم زنوبيا الأدب اليوناني واصبح مستشارها بعد ذلك . ولسوء الحظ لم يبقَ من مؤلفاته سوى بعض الفقرات والمقتطفات[٥] . وترينا هذه بأنه قد بقي وثنياً رغم انه لم يكن مناوئاً لليهودية او المسيحية . وتحمّل القتل على يدي الرومان برباطة جأش وبشاشة حريّتين برجل من مستوى سقراط[٦] .

---

١) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

٢) انظر : Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXVI, ch. 30.

٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

٥) لم يتأكد بعد فيما اذا كان لونجينوس هذا هو لونجينوس كاتب قطعة « حول السمو On the Sublime » التي لا تزال في المناهج الجامعية الانكليزية .

٦) انظر : Zosimus, Bk. I, § 56.

الآلهة التدمرية

تألفت مجموعة الآلهة التدمرية من عدد متنوع من الآلهة من سورية وبلاد العرب وفارس وبابل . وكان بعضها يحمل اسماء لاتينية اضافيـــة . ولم تختلف الديانة في جوهرها عن ديانة سورية الشمالية وصحرائها . وكان بعل صاحب السيطرة العظمى . ولم يكن الهاً شمسياً تاماً بل الهاً كونياً من اصل بابلي يعادل مردوخ . وكان يهيمن على مصير الانسان كما كان مسؤولاً عن الآلهة السماوية . وقد كرّس المعبد الكبير له . واعتبر معادلاً لزفس فيما بعد . وقد كرّس معبد آخر في تدمر للاله بعل شمين (سيد السموات)[١] . وتخلد ذكرى هذا الاله قرية في لبنان تدعى بعلشميه . وكان له كما كان لبعل معبد في دورا حيث يذكر اسمه في كتابة اثرية من عام ٣٢ م تتعلق بنذر[٢]. وقد وجدت في تدمر عدة مذابح مكرسة لشَمْشَ (سَمسَ ، الشمس) . وتظهر هذه الالهة الشمسية احياناً الى جانب بعل مع الاله القمري في الجانب الآخر . وكان اسم إله القمر عجلي بول Agli-bol ، (عجل بعل)[٣]. ويظهر في بعض الاشكال بهلال على كتفيه[٤] . ولا بد ان يرخي بول Yarkhi-Bol كان الهاً قمرياً ايضاً بدلالة القسم الاول من اسمه ولكنه كان الاله الذي يقدم النبوآت ممـــا يجعله مساوياً لابولون . وكان ملاك بعل Malak-bel الاله الرسول ويعادل هرمس . وقد وجد مذبح يستحق الاهتمام مكرس « للاله المجهول الصالح والرحيم »[٥].

وبين الكتابات الاثرية عدة تكريسات دينية الى ارصو Arsu[٦] وعزيزو Azizu[٧]،

---

١) راجع : Chabot, p. 43; Henri Seyrig, « Antiquités syriennes », *Syria*, vol. xiv (1933), pp. 246 *seq.*

٢) انظر: Du Mesnil du Buisson, *Inventaire des inscriptions palmyréniennes de Doura-Europos* (Paris, 1939), pp. 13-14 ; Chabot, pp. 43, 73-5 ; Rostovtzeff *et al.*, *Excavations at Dura-Europos*, vols. vii–viii, pp. 299 *seq.*, pl. xxxvii.

٣) انظر : Chabot, pp. 71-3 ; Cooke, pp. 269, 301-2 ; de Vogüé, p. 93.

٤) انظر : Chabot, p. 65.

٥) انظر : Harold Ingholt, « Inscriptions and Sculptures from Palmyra » *Berytus*, vol. iii (1936), P. 92 ;
قارن مع اعمال الرسل ١٧ : ٢٣ .

٦) تذكره كتابات الصفا باسم رَضو Radu بمعنى رضى ، رحمة . انظر في ص ٣٣١ .

٧) انظر : *Berytus*, vol. iii (1936), pp. xxiv, 2.

ويدل اسماهما على اصل عربي . ويوصف الاثنـــان «بالالهين الصالحين المكافئين»[١] . وكان عزيزو يعبد ايضاً في اديسا وفي حوران بلاد الغساسنة . وكانت اللات التي يؤلف اسمها القسم الاخير من اسم آخر ملوك تدمر الالاهة الرئيسية في الجزيرة العربية[٢]. وكانت تعبد ايضاً في بلاد الغساسنة. وهناك الاهة اخرى في مجموعة الآلهة التدمرية تسمى عثر عته Athar-'atheh، (اتار غاتس) الالاهة الآرامية التي كان مركز عبادتها الرئيسي في هيرابولس[٣] . وقد كرس مذبح بناه احد الانباط في تدمر (١٣٢ م) الى الاله النبطي شيع القوم Shay-'-al-Qaum (الذي يرافق او يحمي الناس) . ويبـــدو انه كان الحامي الخاص للقوافل . ويوصف الاله بانه «الذي لا يشرب الخمر»[٤] .

٣ ــ الغساسنة

تؤكد المرويات انه حوالي نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة التدمرية آخذة بالزوال كانت احدى القبائل العربية الجنوبيـة تشق طريقها الى حوران . وهؤلاء هم بنو غسان الذين ينسب سبب رحيلهم عن اليمن الى تصدّع قديم في سد مأرب[٥]. وفي حوران صادفوا سكاناً من العرب اتوا قبلهم وهم الضجاعم من قبيلة سليم وقـد حلوا مكانهم كحكام على المنطقة في ظل السيادة الرومانية . وتنصّر الغساسنة خلال القرن الرابع[٦] . وكان مؤسس سلالتهم شخص يسمى جفنة ابن عمرو مزيقياء الذي لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد . وفي الحقيقة ان تاريخ السلالة الجفنية بكامله غامض . وفي التواريخ العربيـة يختلف عدد الملوك بين احد عشر واثنين وثلاثين[٧] . وتهتم

---

١) انظر : Chabot, p. 69.

٢) القرآن سورة ٥٣ : ١٩ .

٣) انظر : Cooke, p. 268.

٤) راجع : Chabot, pp. 67-8; Cooke, pp. 304-5.

٥) انظر : Hitti, *Historg of the Arabs*, pp. 64-5.

٦) وترجع بعض الاسر المسيحية التي تعيش اليوم في سورية ولبنان مثل آل المعلوف وآل عطية باصلها الى الغساسنة .

٧) انظر : ابن قتيبـــة ، المعارف ، نشره : F. W. Wüstenfeld (Gottingen, 1850), pp. 314-16;

التواريخ البيزنطية بصورة رئيسية بعلاقاتهم مع القسطنطينية . ولا يعرف بشكل كافٍ سوى تاريخ الملوك الخمسة الاخيرين الذين شمل حكمهم القرن الذي سبق الاسلام .

الحارث بن جبلة

كان اول هؤلاء الملوك واعظمهم الحارث بن جبلة[١] (حوالي ٥٢٩ — ٥٦٩) الذي يظهر لاول مرة عام ٥٢٨ وهو يحارب المنذر الثالث[٢] اللخمي ملك الحيرة . واللخميون واصلهم ايضاً من جنوبي الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية للامبراطورية الفارسية واستخدموا كدولة حاجزة بنفس الطريقة التي استخدم البيزنطيون بها الغساسنة . واعترافاً بخدمات الحارث فقد عينه الامبراطور يوستنيان في العالم التالي سيداً على كل القبائل العربية في سورية ومنحه لقب فيلارك (رئيس قبيلة) Phylarck وبطريق Patricius . وترجم العرب هذه الالقاب بمعنى «ملك» . وربما اعتبر ملوك الغساسنة انفسهم خلفاء لملوك الانباط .

ولما كان الحارث موالياً للعرش البيزنطي فقد استمر في صراعه ضد اللخميين وساهم في اخماد الفتنة السامرية كما حارب في الجيش البيزنطي تحت امرة بليساريوس في بلاد ما بين النهرين[٣] . وفي عام ٥٤٤ أسر المنذر احد ابناء الحارث وقدّمه ضحية

المسعودي ، مروج الذهب ، نشره وترجه : C. B. de Meynard and P. de Courteille, vol. iii (Paris, 1864) pp. 217-21 ;

حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، نشره : Gottwaldt (Leipzig, 1844), pp. 115-22 ;

تاريخ ابي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) جزء ١ ، ص ٧٦ — ٧٧ .

قارن مع : Th. Noldeke, *Die Ghassânischen Fürtsen ans dem Hause Gafna's* (Berlin, 1887), pp. 52-60 ; tr. Pendali José and Costi K. Zurayk, *The Princes of Ghassan from the House of Gafna* (Beirut, 1933), pp. 57-67.

١) يشار اليه احياناً باسم الحارث الثاني لتمييزه عن جده الحارث ابن ثعلبة وهو من احفاد جفنة ويسميه المؤرخون العرب «الاعرج» .

٢) يذكره المؤرخون اليونان باسم Alamoundaros ويدعوه Procopius, Bk. I, ch. 17, §, 47. باسم Alamoundaras حيث يجعل اسم الحارث Aretas ابن Gabalas.

٣) انظر : Procopius, Bk. II. 16§5; Malalas, ed. Dindorf, p. 435.

للالاهة العزّى التي تقابل افروديت[١] . وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب قنسرين (خالكيس) حين قتل غريمه اللخمي . ويرجح ان هذه المعركة هي المشهورة في التواريخ العربية باسم معركة حليمة بالنسبة لابنة الحارث التي يقال انها بيديها دهنت جنود ابيها بالطيب قبل دخولهم المعركة[٢] . وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة لبـــلاط يوستنيان حيث ترك تأثيراً عميقاً على افراد الحاشية كشيخ بدوي مهيب[٣] . وكان موظفو البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون ان يهدئوا الامير المعتوه يوستين وهو ابن اخ يوستنيان ووريثـــه يكتفون بالقول : « اسكت ! والا استدعينا الحارث »[٤] .

حصل الحارث اثناء وجوده في القسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعي اسقفاً على الكنيسة المونوفيزية السورية . وقد انتشرت العقيدة الجديدة في سورية كلها اثناء حكمه وحكم ابنه . ويقال ان يعقوب رسم مائة الف كاهن ونصّب تسعة وثمانين اسقفاً في تلك البلاد . ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها اذ كانت تمتـد من قرب البتراء الى الرصافة شمالي تدمر وتشتمل على البلقـــاء والصفا[٥] وحوّران . واصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجاري . وتقول المرويات الاسلامية ان النبي محمداً مرّ بهـــا هو وقافلته وهناك اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية . اما بشأن العاصمة السياسية

---

١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 28, § 13.

٢) انظر : ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، نشره : C. J. Tornberg, vol. i (Leyden, 1871), p. 400.
ابن قتيبة ، ص ٣١٤ — ٣١٥ ؛ قارن مع تاريخ ابي الفداء ، جزء ١ ، ص ٨٤ .

٣) انظر : Theophanes, *Chronographia*, ed. C. de Boor (Leipzig, 1883), p. 240.

٤) انظر : John of Ephesus, *Ecclesiastical History*, ed. William Cureton (Oxford, 1853), p. 151; tr. R. Payne Smith (Oxford, 1860), p. 174.

٥) احتل هذه المنطقة البركانية قبل هذا العصر جماعة من العرب الذين تركوا حوالي ستة آلاف كتابة اثرية وبناء اثري عليها اشكال خيالة يحملون الرماح ويصطادون الغزلان . وتذكر الكتابات الاثرية يثع Yth' (وهو ليس سوى يشوع في العبرانية Yeshūa' ، ويشوع في الآرامية Yeshū' ، ويسوع في العربية) واللات والله . وتمثل ، حسب وجهة النظر المقبولة ، مع الكتابات اللحيانية والثمودية امتداداً الى الشمال ، للغة العربية الجنوبية . انظر : F. V. Winnett, *A study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), pp. 53-4 ; René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 66-7, 151.

لآل جفنة فيبدو انها كانت في البدء مخيماً متنقلاً ثم استقرت بعد ذلك في الجابية[١] في منطقة الجولان كما كانت ايضاً بعض الزمن في جلّق[٢] في جنوب حوران .

المنذر

خلف الحارث ابنه المنـــذر (حوالي ٥٦٩ – ٥٨١ Alamoundaros) في نحو نفس الوقت الذي ولد فيه النبي محمد . وسار الابن على خطى ابيـــه فدعم قضية المونوفيزية وحارب اللخميين اتبـاع فارس . ولكن حماسته للمذهب الذي تعتبره بيزنطة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين يوستين الذي بلغ منه ان ارتاب بولائه السياسي . ولذلك كتب الامبراطور رسالة الى حاكمه في سورية يأمره فيها بالتخلص من المنـذر ولكن الكاتب اخطأ فوجهها الى المنذر نفسه عوضاً عن الرسالة التي يجب ان توجه اليه والتي يطلب فيهـا الامبراطور منه ان يتفضل بزيارة الحاكم للتشاور معه . وبعد فترة من الجفاء تمت تسوية الامور وقـام الزعيم الغساني مع ولديه بزيارة القسطنطينية (٥٨٠) واستقبل بحفاوة من قبـــل الامبراطور الجديد طيبريوس الثاني . وبلغ من الامبراطور ان استبدل الرمز الذي يضعه المنذر على رأسه بالتاج. واحرق المنذر في السنة ذاتها الحيرة عاصمة اللخميين[٣]. وبعد سنتين حين كان يحضر حفلة تدشين كنيسة في حوارين استجابة لدعوة تلقاها من حاكم سورية قبض عليه وارسل مع زوجته وثلاثة من اولاده الى القسطنطينية ومنها الى صقلية. وقطعت المساعدة السنوية عن آل جفنة منذ ذلك الحين وانتهت جميع العلاقات الودية.

الفوضى

وجهت عدة غزوات بقيادة النعمان، الابن الاكبر للمنذر، من البادية على سورية الرومانية . وخُدع النعمان نفسه اخيراً (حوالي ٥٨٤) كما خُدع ابوه من قبـــله

---

١) انظر : Dussaud, *Topographie*, pp. 332-3 . لا يزال الباب الغربي لدمشق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

٢) لعلها الكسوة عـــلى بعد ١٠ اميال جنوبي دمشق . انظر : Dussaud, *Topographie*, pp. 317-18 ; Leone Caetani, *Annali dell'Islām*, vol. iii (Milan, 1910), p. 928.

٣) قارن مع الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، نشره M.J. de Goeje vol. i (Leyden, 1879-81), p. 1021 ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، جزء ٢ (بولاق ١٢٨٥) ص ٢٧ .

ونقل الى القسطنطينية . وبهذا تمزقت رابطة الغساسنة القومية . وتجزأت المملكة الى اقسام متعددة يرئس كلاً منها امير كبير او صغير من سكانها . وقد تحالف بعض الامراء مع دولة الفرس وحافظ البعض الآخر على استقلاله بينما بقي البعض الآخر بجانب بيزنطة . وعند هذا الحد يفقد الاخباريون اليونان كل اهتمام في الموضوع وتبقى التواريخ العربية مشوشة . وبقيت الفوضى سائدة حتى فتحت الدولة الفارسية سورية في ٦١١ — ٦١٤ .

ويحتمل ان يكون هرقل قد اعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس من البلاد بعد اربع عشرة سنة . وقد جاء انه في حروب الفتح الاسلامي كانت قبائل دولة الغساسنة السابقة تحارب بجانب بيزنطة . وحارب آخر امراء الغساسنة ، جَبَلة ابن الايهم ، في عام ٦٣٦ ضد الفاتحين المسلمين في معركة اليرموك[١] الحاسمة ولكنه اعتنق الاسلام فيما بعد . ويروى انه اثناء حجه الاول وطأ بدوي عباءته فصفعه على ازاره فحله جبلة ، فشكاه الى الخليفة فحكم الخليفة بان على الامير اما ان يقيد البدوي او يرضيه ، فما كان من جبلة الا ان ترك الدين الجديد وانسحب الى بيزنطة[٢] .

ابهة بلاط الغساسنة

لقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين عدد من شعراء الجاهليـــة الذين وجدوا في امرائه حماة اسخياء . وكان احد هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني المشهور . فبعد ان تخاصم مع اللخميين نال عطف الغساسنة وثقتهم واغدقوا عليه الكثير من نعمهم . وكان يرد على ذلك بالتغني بمدحهم . ويمجـــد في احد ابيات الشعر التي يستشهد بها كثيراً اقدامهم في الحرب حيث يقول :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[٣]

---

١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره : M. J. de Goeje, (Leyden, 1866), p. 136; tr. Philip K. Hitti, *Origins of the Islamic State* (New York, 1915), pp. 208-9.

٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة ١٣٠٢)، جزء ١ ، ص ١٤٠ — ١٤١ ؛ قارن مع ابن قتيبة ص ٣١٦ .

٣) انظر ديوان النابغة الذبياني ، نشره : M. Hartwig Derembourg (Paris, 1869), p. 78; cf. Charles J. Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry* (New York, 1930), p. 96.

وقد امضى شاعر المدينة حسان بن ثابت قبل ان يصبح شاعر النبي اياماً سعيدة في بلاط الغساسنة وكان يدعي صلة القربى معهم . ونأخذ لمحة عن حياة الترف التي كان يحياها جبلة ابن الايهم من وصف ينسب لحسان بن ثابت في كتاب الاغاني[١] وقد جاء فيه :

لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء اهل الحيرة... وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها وكان اذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين واصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب واتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة واوقد له العود المندى ان كان شاتياً وان كان صائفاً بطن بالثلج وأتي هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفنك وما اشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم[٢] .

ويقال عندما اعتنق جبلة الاسلام ودخل مع حاشيته بموكب حافل الى المدينة كان يضع على رأسه تاج اجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قرطين لام الحارث ابن جبلة[٣]. وقد اصبح يضرب المثل في الادب العربي بهاتين اللؤلؤتين اللتين يبلغ حجم الواحدة منهما بيضة الحمامة[٤].

ان مثل هذه الاخبار بالرغم مما فيها من مبالغة تدل على حالة اقتصادية مزدهرة. ولا بد ان الغساسنة اتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الامطار واستثمار الينابيع الجوفية وهي فنون اكتسبها السوريون في العصر الروماني واضاعوها بعد ذلك . وتشهد على هذا بقايا ما يقرب من ثلاثمائة مدينة وقرية على المنحدرات الشرقية والجنوبية لحوران[٥]. ومهما يكن فان ما يفوق ذلك اهمية هو

---

١) انظر الاغاني ، جزء ١٦ ، ص ١٥ . مع ان الوصف مشكوك بصحته الا انه بدون شك مبني على قصائد الشاعر . قارن مع ديوانه الذي نشره : Hartwig Hirschfeld (Leyden, 1910), pp. 16-17, 45, 55 ;

العقد الفريد ، جزء ١ ، ص ١٤٢ .

٢) قارن مع : Reynold A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, 2nd ed. (Cambridge, 1930), p. 53.

٣) وتدعى في الاغاني ، جزء ١٤ ، ص ٤ «مارية» التي يمكن ان تكون بتأثير الآرامية لقباً يقابل سيدة اكثر منها اسم علم وربما يكون اسم هذه السيدة ملوية كما في الاغاني جزء ١٦ ، ص ١٠٣

٤) انظر الميداني ، مجمع الامثال (القاهرة ١٣١٠) جزء ١ ، ص ١٥٦

٥) انظر ما سبق في اواخر ص ٤٥ .

ان الغساسنة قد نقلوا كأسلافهم الانباط بعض عناصر اساسية في الحضارة السورية الى اقربائهم الاصليين في الجزيرة العربية وخاصة الحجاز مهد الاسلام في المستقبل. وقد اعطى الانباط تلك الحروف التي جعلت كتابة لغة القرآن ممكنة[١]. وقبل ان يزول الغساسنة نقلوا بعض الافكار المسيحية التي كان لها تأثيرها مع بعض افكار اخرى على الاسلام. وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ببعض العناصر المبدعة كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل. وبالاضافة الى ذلك فان هذه الدول السورية الواقعة على الحدود وذات الاصل العربي وآخرها دولة الغساسنة قد مهدت الطريق نوعاً ما لفتح العرب لسورية في المستقبل تحت راية الاسلام. وكانت هذه الدول بمثابة مقدمة للاحداث الضخمة التي حصلت بعد قليل.

---

١) راجع ما جاء بشأن الانباط في ص ٤٢٧ .

تاريخ سورية

ولبنان وفلسطين

طبعــة ١٩٨٣

تاريخ سورية

ولبنان وفلسطين

تأليف

الدكتور فيليب حتي

الجزء الثاني

ترجمة

الدكتور كمال اليازجي

أشرف على مراجعته وتحريره

الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة - بيروت

This is an authorized translation of

HISTORY OF SYRIA

BY

PHILIP K. HITTI

Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المسهمون في إخراج هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦ ، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت ، فنال شهادة بكلوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨ . ثم سافر إلى أميركا والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥ . وعيّن بعد تخرجه أستاذاً فيها .

وعندما انتهت الحرب العظمى الأولى عـــاد إلى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية ، وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هـــذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦ ، ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب أولاً ، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها . وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤ ، حين أحيل على التقاعد .

ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك ، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد . وهو الآن عضو في مجلس أمناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة ، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس .

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب(المطول)وهو مترجم الى العربية ومثله تاريخ العرب الوجيز ، وتاريخ لبنان (المطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطـــين ، وتاريخ الشرق الادنى .

المترجم : الدكتور كمال اليازجي

كان استاذاً مشاركا للأدب العربي في الجامعة الاميركية حين ترجم هذا الجزء وهو الآن استاذ فخري ، له عدة كتب منها معالم الفكر العربي،وروافد الادب العربي،والشيخ ابراهيم الحوراني .

المراجع : الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت سابقاً وهو الآن استاذ فخري . له عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن ابي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصره ، وحياته ، وحبه وشعره ، وابن عبد ربه وعقده . وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها .

الفهرس

القسم الرابع

العصر العربي

القسم الخامس

تحت الحكم العثماني

فهرس الخرائط

الصفحة

القسم الرابع

العصر العربيّ

الفصل الثلاثون

سورية في العهد الاسلامي

عشية ظهور الاسلام

يبرز في الحقبة الاخيرة من العصور القديمة حدثان هامان: الاول هجرة القبائل الجرمانية التي انتهت بسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب، والثاني انطلاق القبائل العربية الاسلامية الذي ازال الامبراطورية الفارسية، وسلخ عن الامبراطورية البيزنطية افضل اقاليمها. وكان الحدث الثاني اروع الحدثين مظهراً. فقد كانت، لدى وقوعه، فارس وبيزنطة، الدولتين الوحيدتين اللتين تتمتعان بقوة عالمية، في حين لم يكن العرب شيئاً مذكوراً. فمَن من معاصري تلك الفترة كان باستطاعته ان يتكهن ان مثل هذا الحدث لمن الامور المحتملة الوقوع؟

وبعد ست سنوات من حرب تخللتها عدة انتكاسات، ظفر هرقل سنة ٦٢٨ باسترجاع سورية — ومدينة الرها في شماليها موطن ابائه — بعد ان كانت قد وقعت في ايدي الفرس، وبعد ان كان خسرو الثاني قد اجتاحها (٦١١ — ٦١٤) واعمل فيها النهب والدمار اينما توجه. فقد غزا دمشق، وروّع اهلها بالقتل والاسر، وترك كنيسة القيامة خراباً يباباً، وذلك بعد ان انتهب ما فيها من كنوز وتحف ومنها الصليب الحقيقي. وفي ١٤ ايلول سنة ٦٢٩ اعاد امبراطور بيزنطة الظافر هذا الصليب الى القدس[1]. فنادوا به محرراً للمسيحية ومعيداً لوحدة الامبراطورية الشرقية.

---

١) لا يزال المواطنون من النصارى حتى اليوم يحيون ذكرى هذا العيد بايقاد المشاعل. وقد ذهبوا في منشأ هذا التقليد الى ان هيلانة والدة قسطنطين الثاني عندما اكتشفت عود الصليب دفيناً في الارض سنة ٣٢٦، اعلنت النبأ لابنها وهو في القسطنطينية، عن طريق ايقاد المشاعل من قمة الى اخرى حتى القسطنطينية.

الغارات الاولى

في هذه الاثناء كانت فرقة من ٣٠٠٠ رجل عربي تشن غارة على بلدة تدعى «مؤتة»[١] واقعة الى الشرق من ساحل البحر الميت الجنوبي، يقودها زيد بن حارث ربيب محمد. وكان الغرض من هذه الغارة، على ما يبدو، الانتقام لرسول، قتله احد الغساسنة، وكان النبي قد بعث به الى بصرى من اجل ان يعود منهـا، الى الذين اعتنقوا الاسلام مجدداً، بغنائم ذات بال بينها السيوف المشرفية المفضلة التي كانت تصنع في تلك النواحي[٢] وقد اعتبرت هذه الخطة التي اختطها محمد بمهاجمة البلدان المتاخمة مما يزيد في قدر الدين الجديد وشهرته بين المؤمنين. اما زيد فقد سقط في ساحة القتال، واما بقية جيشه فعاد بهم الى المدينة القائد الفتيّ خالد بن الوليد[٣]، الذي لم يلبث ان غدا بطل الاسلام الحربي. ولم تكن هذه الغزوة، في نظر سكان مؤته، سوى واحدة من غزوات البدو المتكررة التي اعتادوها من امد بعيد، لكنها كانت، بواقع الامر، السهم الاول في نزاع لم يهدأ حتى استسلمت بيزنطة، وحل اسم النبي العربي في معابدها محل اسم المسيح.

وفي السنة التالية (٦٣٠) قاد محمد بنفسه حملة على واحة تبوك[٤] في شمالي الحجاز. ومنها شرع في مفاوضات مع المواطن المجاورة انتهت بخضوع سكانها. فقد أُمّنَ الاقوام على ارواحهم، ومنحوا حق الاحتفاظ بممتلكاتهم والبقاء عـلى عقائدهم،

---

١) هي في شرقي الاردن، على مسيرة ساعتين من الكرك جنوباً؛ وقد زارها Alois Musil انظر كتابه : *Arabia Petraea*, vol. i (Vienna, 1907), p. 152

٢) راجع ياقوت المجلد الرابع ص ٥٣٦؛ و M. J. de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie* (Leyden, 1900), p. 5.

٣) الطبري المجلد الاول ص ١٦١٠؛ قابل : Theophanes, p. 336; J. Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. vi (Berlin, 1899), p. 52.

٤) على طريق الحج، وهي الآن على طريق القطار الحديدي بين دمشق والمدينة. الواقدي: المغازي، نشر ا. فون كريمر، (كلكوتا ١٨٥٥ — ٥٦) ص ٤٢٥ — ٢٦؛ ياقوت، المجلد الاول، ص ٨٢٤ — ٢٥؛ البلاذري، ص ٥٩؛ Caetani ii pp. 238, *seq*. انظـر وصف القرية الحديثة في Jaussen and Savignac pp. 57-64; Alois Musil, *The Northern Hegaz* (New York, 1926) pp. 234-5, 318-19.

شريطة ان يدفعوا جزية سنوية. وكان اول هذه المواطن قاعدة أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة[١]. وسكانها من النصارى. تليها مقنا[٢] الواقعة الى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكانها من اليهود الذين كانوا يمارسون في الغالب صناعة الحياكة وصيد الاسماك. ثم اذرح الواقعة بين البتراء ومعان، وعدد سكانها نحو مئة اسرة. ثم الجرباء على مسيرة ساعة من اذرح شمالاً، على الطريق الروماني القديم بين بصرى والبحر الاحمر، وسكانها نصارى ايضاً. وقد قدّر لهذا الموقع ان يلعب فيما بعد دوراً ذا بال في الحملات الصليبية. ان هذه الاماكن كانت المواطن الوحيدة في سورية التي اتصل بها الاسلام في غضون حياة النبي. ولقد كانت الشروط التي استسلمت بموجبها[٣] موعزة بما سيجيء. فان حملات محمد على هذه المواطن في سورية الجنوبية لم تكن الا بمثابة محاولات تجريبية لما قُدّر ان يتم فيما بعد على يد خلفائه.

وفي السنة التي تلت وفاة محمد، أُعدت العدّة لفتح البلدان المجاورة. وكانت الجزيرة العربية قد خرجت من حروب الردة[٤]. واخذت توثق روابطها وتتحد تحت قيادة رجل واحد وهو الخليفة الاول ابو بكر (٦٣٢ — ٣٤). فالزخم الذي تجمع في تلك الحروب الداخلية كان لا بـــد من ان يلتمس مخارج جديدة، لا سيما والمفترض ان العقيدة الجديدة قد اقامت بين اتباعها اخوّة جامعة. وهذه الروح الحربية في القبائل التي كانت، من اقدم العهود، تعتبر الغزو[٥] ضرباً من الرياضة القومية، لم يكن لها بد من ان تحقق ذاتها بصورة من الصور بعد الاسلام. وكان من المتوقع، فوق هذا، حصول مساندة من القبائل العربية المقيمة في جنوبي

١) انظر الجزء الاول ص ٢٠٦ ؛ Caetani, vol. ii, pp. 253-5

٢) اليعقوبي المجلد الرابع ص ٦١٠؛ انظر وصف حديث لهذه الواحة في Musil, *Northern Hegaz*, pp. 114-16, 312.

٣) البلاذري ص ٥٩ — ٦٠.

٤) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 140-42; C. H. Becker in *The Cambridge Medieval History* (New York, 1913) vol. ii, pp. 334-6.

٥) ومنها في الانكليزية كلمة « *razzia* »

سورية. ذلك ان هذه القبائل، نظير جذام وقضاعة[١]، كانت في هذه الاثناء قد تنصرت، لكنها لم تكن في حالة من الرضى. لان المساعدة المالية السنوية التي كانت تتناولها لسنوات خلت في مقابل حراسة الحدود كان هرقل قد اوقفها كتدبير اقتصادي[٢] وقد اهمل، فوق ذلك، امر الحصون التي قامت على الحدود الجنوبية، وانتزعت منها حامياتها لتعزيز الحشد في الشمال في وجه الخطر الفارسي. وهكذا فقد كانت سورية، اقرب الميادين.

طلائع الفتح

وفي سنة ٦٣٣ وجهت الى سورية ثلاث سرايا، قاد الاولى عمرو بن العاص، وتولى الثانية يزيد ابن ابي سفيان، وترأس الثالثة شرحبيل بن حَسَنة[٣]. وذلك على ان يكون عمرو، قائد حملة مصر العتيد، هو القائد الاعلى اذا اقتضت الخطة توحيد العمليات الحربية. وكان حامل اللواء في سرية يزيد اخوه معاوية، المؤسس العتيد للدولة الاموية في دمشق. ولقد سلك كل من يزيد وشرحبيل الطريق الذي طالما سلك بين تبوك ومعان. اما عمرو فقد سلك طريق ايلة الساحلي. ثم انضمت الى هذه السرايا، فيما بعد، امدادات رفعت العدد في كل منها من نحو ٣٠٠٠ الى زهاء ٧٥٠٠ مقاتل. والراجح ان ابا عبيدة بن الجراح، الذي غدا فيما بعد امير الجيش، انما جاء على رأس احد هذه الامدادات.

وقع الصدام الاول في وادي العربة[٤]، وهو غور عظيم جنوبي البحر الميت، وكان النصر فيه ليزيد على سرجيوس بطريق فلسطين. وكان مقر قيادة سرجيوس في قيسارية، فلحق العرب بجيشه المرتد، وادركوه عند داثن قرب غزّة وكادوا

---

١) بنو سليح (الجزء الاول ص ٤٤٦) قوم من قضاعة. وكان بنو عاملة في هذه الاثناء يقيمون الى الشمال القريب، ومن هنا تسرّبوا فيما بعد الى جنوبي لبنان، حيث لا يزال المكان يعرف بجبل عامل. انظر عاملة في ابي الفداء؛ التقويم ص ٢٢٨.

٢) انظر: Theophanes, p. 335.

٣) البلاذري ص ١٠٧ — ٨؛ De Goeje, pp. 21-4

٤) راجع الخريطة الجزء الاول ص ٣٤.

يجهزون عليه (٤ شباط ٦٣٤)[١]. ولقد قُتل سرجيوس في هذه المعركة وخلت السبيل ، ولو الى حين ، امام الفاتحين . فاجتاح يزيد وعمرو القسم الجنوبي من فلسطين برمته ، واصبحت قيسارية نفسها مهدّدة ، وعزلت القدس تماماً عن البحر[٢] .

مغامرة خالد عبر البادية

وعندما انتهى هذا الخبر الى هرقل ، وكان لا يزال في حمص ، حيث قيل انه كان تلقى كتاباً من النبي يدعوه فيه الى الاسلام ، سارع الى تنظيم حملة جديدة بقيادة اخيه ثيودوروس . وتلقى خالد بن الوليد ، في الوقت نفسه من ابي بكر ، امراً بالسير فوراً من العراق لتعزيز الجيش المرابط على الجبهة الشامية . وكان الهجوم على العراق قد بدأ قبل الحملة على الشام بقليل ، لكنْ لمّا كانت سورية اقرب الى الحجاز كان جل اهتمام العرب موجهاً اليها .

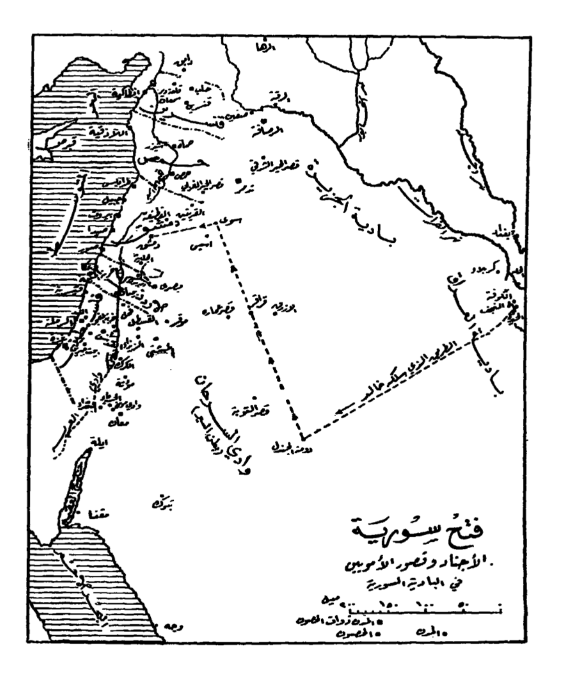
ويغلب على الظن ان خالداً بدأ سيره المحفوف بالمخاطر عبر البادية من الحيرة ، التي كانت هي وبعض المواقع الاخرى قد ألقت السلاح واستسلمت له. اما الطريق الذي سلكهُ فالمظنون انه الطريق الجنوبي الغربي المؤدي الى دومة[٣] الجندل (الجوف حديثاً) في منتصف الطريق بين البلدين . واذ بلغ دومة كان باستطاعته ان يواصل منها السير مخترقاً بطن السر (وادي سرحان حديثاً) الى بُصرى ، وهي مدخل سورية الجنوبي ، لكن كانت هنالك حصون تعترض سبيله . لذلك سلك الطريق الشمالي الغربي الى قراقر (قلبان قراقر حديثاً) على تخوم البطن الشرقية . ومن هنا

---

١) ياقوت : المجلد الثاني ص ٥١٤ — ١٥ ؛ البلاذري ص ١٠٩ ؛ De Goeje, pp. 31-4; Caetani, vol. ii, pp. 1141-54.

٢) ان الحوادث المثبتة في المدونات العربية التي جمت في غضون قرنين او ثلاثة قرون بعد وقوعها مضطربة في سياقها التاريخي ومموهة من حيث الضبط والتقدير . والتحري المعتمد هنا مبني على تمحيص كايتاني ودي غويه وولهوزن وبكّر ، وسواهم من اعلام النقد الحديث.

٣) ورد ذكرها في سفر التكوين ٢٥ : ١٤ وفي سفر اشعيا ٢١ : ١١ .


فتح سورية
الأجناد وقصور الأمويين
في البادية السورية
حمص
الرصافة
قصر الحير الشرقي
قصر الحير الغربي
دومة الجندل
تبوك
معان
أيلة

توجه شمالًا الى سوى[١]، مسيرة خمسة ايام في قفر يكاد لا يكون للماء أثر فيه. ولقد نقلت حاجة الجنود من الماء — وعددهم يتراوح بين الخمس مئة والثمان مئة — في القرب، اما الخيول فقد اتخذ لها من اكراش الرواحل احواضاً. على ان مياه اكراش الجمال هذه كانت مما يجوز الانتفاع به في الطوارئ. وكانت الخيل تقاد جنيبة وقد استجلبت لتمتطى لدى الاشتباك فقط. وكان دليلهم من طيء اسمه رافع ابن عمير، ولقد بهره شعاع الشمس في بعض مراحل السفر، فاخطأ المعالم التي يعرف بها وجود الماء في باطن الارض، فالتمس من الجيش ان يرقبوا عوسجة ما، واذ وجدوها حفروا قربها فاصابوا تراباً رطباً وماء. وهكذا نجا الجيش من الهلاك، وتحقق حدث فريد من البطولة في اختراق القفار[٢].

وكان ظهور خالد، بعد مسير ثمانية عشر يوما فقط شمالي شرقي دمشق، في مؤخرة الجيش البيزنطي «المرتجل»، مباغتة مسرحية (٢٤ نيسان ٦٣٤). وكانت جولته الاولى — وقد تم له فيها النصر — مع الجيش الغساني المسيحي يوم عيد الفصح في مكان قرب عذراء في مرج راهط[٣]. واقتضى دهاؤه الحربي ان يوجه هجومه جنوباً مجتازاً شرقي الاردن، وذلك من اجل ان يقيم اتصالًا فعالًا بجيوش زملائه القواد، اذ كانت تقاسي ضنكاً شديداً. ولم تكن الرغبة في احراز المجد لنفسه. او الحرص على الظفر بالغنائم، ليثنيه عن هذا الهدف.

سقوط دمشق

هذه الجيوش التي اجتمعت تحت قيادة موحّدة، لعلها قيادة خالد كسبت

١) هي بالقرب من سبع بيار الحديثة، الى الشمال الشرقي من دمشق.

٢) ان روايات المصادر العربية عن الطريق التي سلكها خالد في حلته هذه قد ادّت الى مشاكل تاريخية وجغرافية عديدة؛ قابل البلاذري ص ١١٠ — ١١٢؛ الطبري ج ١ ص ٢١١١ — ١٣؛ ٢١٢١ — ٤؛ ابن الاثير ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣، اليعقوبي — تأريخ — نشر م. ت. هوتسما (ليون ١٨٨٣) ج ٢، ص ١٥٠ — ٥١؛ ابن عساكر — التاريخ الكبير — (دمشق) ج ١، ص ١٣٠؛ البصري، فتوح الشام، نشر و. ن. ليس (كلكوتا، ١٨٥٤) ص ٦٣ — ٦٥. ان الخطة الموضوعة اعلاه قد اعتمدنا فيها على: Musil, *Arabia Deserta*, pp. 553-73; Caetani, vol. ii, pp. 1220-36.

٣) هو سهل على ١٥ ميلًا الى الجنوب من دمشق. انظر البلاذري ص ١١٢، وياقوت ج ٤ ص ١٠١٦.

معركة دامية في اجنادين[1] (٣٠ تموز ٦٣٤) فغدت ابواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها في وجه الفاتحين. وشُنّت من ثم غزوات شتى في كل اتجاه لمدة ستة اشهر. وقد سقطت بصرى بعد مقاومة ضعيفة ، وتلتها فِحل[2] التي كانت تسيطر على معبر الاردن الشرقي ، ثم بيسان على عدوة النهر . ولم يكن القائد البيزنطي الجديد بانس Baanes ، باوفر حظاً من زميله السابق ؛ اذ لم ينقضِ شهر من الزمان حتى انهزم جيش الروم على اثر معركة مع الفاتحين في مرج الصفّر[3]، وطلب النجاة بالاعتصام خلف اسوار دمشق . فجد خالد في اثره ، والقى الحصار حول العاصمة العتيدة للامبراطورية الاسلامية . على ان الحصار لم يكن اكثر من محاولة لعزل المدينة لان العرب لم يكونوا قد حذقوا اساليب الحصار ولا عرفوا ادواته. وبعد ستة اشهر سلمت المدينة (ايلول ٦٣٥) على اثر خيانة ، وكان المفاوضون اسقف المدينة ، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي ، واحد كبار الموظفين في دائرة المال في الدولة . اما الرواية التقليدية التي تذهب الى ان المدينة سقطت نصفها عنوةً ونصفها صلحاً ، فالقرائن متوفرة على انها رواية متأخرة ، قصد منها تبرير اقدام الامويين على قسمة الكاتدرائية ، والاستيلاء على شطرها[4] . وقد اشتملت شروط الصلح على المبادئ نفسها التي فرضها النبي[5]، فغدت نموذجاً لما عوملت بموجبه سائر المدن السورية .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق ، اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم .

---

١) لا يزال موقعها مجهولا ؛ اما القول بانها هي جنابتين الواقعة بين الرملة وبيت جبرين – على الطريق بين غزة والقدس – فامر مشكوك في صحته . Caetani, vol. iii, pp. 176-87; Wellhausen, *Skizzen*, vol. vi, pp. 57-8 Dussaud, *Topographie*, p. 318.

٢) او هي فَحْل بالفتح. انظر : Gr. Pella, Bi-hi-lim عن لوحات تل العمارنة (الجزء الاول ص ٧٥) وهي المعروفة اليوم بخربة فحل . انظر أيضاً : Caetani, vol iii, pp. 187-211; Abel, vol. ii, pp. 34, 405.

٣) هو سهل على ٢٠ ميلاً الى الجنوب من دمشق .

٤) Caetani, vol. iii, pp. 359-92 انظر ايضاً ادناه الفصل ٣٨ الفقرة عن الجامع الاموي.

٥) انظر اعلاه ص ٥ من هذا الجزء .

ولا يسكن شيئاً من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية[١]».

وبسقوط القاعدة السورية غدا النصر التام محققاً. وقبل انصرام العام تمّ لابي عبيدة احتلال مدينة حمص. فقد سارعت جميع المدن المجاورة — بعلبك وحمص وحماه — الى فتح ابوابها، وخروج الرعايا في حالات عـــدة «لاستقباله، يصحبهم. النافرون على الدفوف والمنشدون، وانحنوا امامه احتراماً». وذلك على نحو ما جرى في شيزر[٢]. ولم تصمد سوى القدس وقيسارية وبعض مدن الساحل، في انتظار وصول نجدة من هرقل.

ولم يرد هرقل ان يخذلهم، ولذلك حشد من منطقة انطاكية وحلب جيشاً من نحو خمسين الفاً، جله من الارمن والعرب المرتزقة، ضمهم الى قيادة اخيه ثيودوروس ومساعده بانس[٣]. واذ تيقنت القيادة العربية من تفوق جيش العدو بالعدد، عمدت الى الجلاء سريعاً عن حمص بل وعن دمشق وسواها من المدن ذوات الموقع الحربي الخطير، وحشدت زهاء ٢٥٠٠ مقاتل في وادي اليرموك[٤]. اذ يستطاع من هنا الانسحاب الى الصحراء اذا اقتضى الامر. وقد سلك جيش هرقل الطريق من البقـــاع (سورية المنخفضة) الى شرقي الاردن وبعد فترة من المناوشات، نادى الجيش خلالها ببانس امبراطوراً، نشبت المعركة. وكان ذلك عند ملتقى اليرموك برافده الرقّاد، قرب الواقوصة (الياقوصة حديثاً). وبلغ القتال اشده في يوم شديد الحر (٢٠ آب ٦٣٦) انعقدت فيه الغبار سحباً، فكانت ولا شك عوناً للعرب على اعدائهم. وانساق الجيش البيزنطي منكفئاً الى موضع ضيق بين الجدولين. فكان

---

١) البلاذري ص ١٢١.

٢) هي لا رِسّا، سَيجَر حديثا، على نهر العاصي، وتبعد ١٥ ميلاً الى الشمال الغربي من مدينة حماه. انظر ادناه الفصل ٤٦ الفقرة عن شهادة أسامة.

٣) الطبري ج ١، ص ٢١٢٥؛ Theophanes, p. 337

٤) هيروماكس، شريعة المناذرة حديثاً (نسبة الى اسم قبيلة بدوية (Abel, vol. i, p. 171) وهو احد روافد نهر الاردن؛ وينبغي عدم الخلط بينه وبين يرموث المذكور في سفر يوشع ١٠ : ٣ وهو خربة يرموك الحديثة، في جوار اجنادين.

جسر الرُّقاد الى الغرب بيد العرب ، وكان خط المواصلات من الشرق قد قطع ايضاً ، فخاب كل أمل بالانسحاب ، ولم تجدِهِم شيئاً تراتيل القسس وصلواتهم ، ولا استعانتهم بالصلبان[١]. ولم تتمكن فرق الارمن ولا المرتزقة من العرب السوريين ان يصمدوا في وجه الهجوم الكاسح الذي قام به ابناء الصحراء ، فسقط بعضهم قتيلاً هنا وهنالك ، ودفع بعضهم الى النهر بعنف ، وانهزم البعض الآخر ، لكنه لاقى حتفه على الضفة الاخرى . وقد كان ثيودوروس احد الضحايا ، فتقرر بذلك مصير سورية . وقد اقر هرقل نفسه بذلك ، فكانت كلماته الاخيرة : «عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو[٢] !» .

وفي فصل الخريف من العام نفسه قامت فرقة ، يقودها فيما ترجح ابو عبيدة ، باحتلال دمشق مجدداً . وعمدت على الاثر جميع المدن التي سبق للعرب ان احتلوها الى استقبال الفاتحين بصدور رحبة . وخاطبهم سكان حمص قائلين «لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم[٣]» . ثم ان حلب وانطاكية الى الشمال لم تلبثا ان القت السلاح ، لكن قنسرين وحدها قاومت بعض المقاومة . واستطاعت اخيراً جبال طوروس ، وهي الحد الطبيعي للبلاد السورية ، ان توقف هذا الزحف المتواصل الذي حققه السلاح العربي .

سقوط القدس وقيسارية

وكانت قوّاد آخرون يديرون عمليات حربية بنجاح مماثل في الداخل وعلى امتداد الساحل . فقد احتل شرحبيل عكا وصور[٤] ، وظفر يزيد واخوه معاوية بصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس[٥] . لكن القدس وقيسارية في الجنوب ، وقد

١) ابن عساكر ج ١ ، ص ٢٦٣ ؛ البصري ، ص ١٩٧ .

٢) البلاذري ص ١٣٧ ؛ قابل الطبري ج ١ ، ص ٢٣٩٥ — ٩٦ .

٣) البلاذري ص ١٣٧ . وقد نسب الى سكان فحل ما هو شبيه جداً بهذه المواطف ؛ البصري ص ٩٧ .

٤) البلاذري ص ١١٦ ؛ De Goeje, p. 133

٥) البلاذري ص ١٢٦ ؛ Caetani, vol. iii, p. 801

اصطبغتا بالصبغة الهلينية ، استمرتا في المقاومة . فصمدت القدس في وجه عمرو حتى سنة ٦٣٨، عندما اشترط سكانها ان يكون تسليم المدينة لعمر بن الخطاب بالذات، وهو آنئذ يقوم بزيارة الى الجابية[١]. اما قيسارية فقد كان وضعها اشدّ تعقيداً، اذ كانت على اتصال بالامداد البحرية. لكنها عنت اخيراً سنة ٦٤٠ بعد هجمات متواصلة دامت سبع سنوات ، وبلغت ذروة حدتها بالحصار الذي ضربه معاوية عليها[٢]. وكان مما ساعد على سقوطها نهائياً خيانة يهودي من المقيمين داخل اسوارها. ففي خلال هذه السنوات السبع (٦٣٣ — ٦٤٠) تم اخضاع سورية كلها من الجنوب الى الشمال .

فتح يسير

وليس من العسير ان نعلل «الفتح اليسير[٣]» الذي تم للعرب باكتساح هذا الاقليم ، من الامبراطورية البيزنطية ، ذي الموقع الحربي الخطير . فالغارات التي شنها الفرس ، في اوائل القرن السابع ، كانت قد فعلت في تقويض دعائم الجيش فعل الانشقاق المونوفيزي في منتصف القرن الخامس في تصديع وحدة المجتمع الروحية . اما المساعي التي بذلها هرقل في الآونة الاخيرة (٦٣٨) لرتق الخرق الديني ، باقتراحه بعض التسوية فكانت نظير ما سبقها من المحاولات عقماً . ولقد عمد سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، وهو سوري يتحدر من اسرة يعقوبية المذهب ، الى استنباط تسوية جديدة ، فجهد في تحويل الانظار عن الخلاف الاصلي في طبيعة المسيح الى فكرة «المشيئة الواحدة». لكن هذه البدعة لم تكن لترضي الارثوذكس البيزنطيين ولا السوريين المنشقين، بل ادت الى نشوء شعبة جديدة هي المونوثيلية ، يقول اتباعها بانه كان للمسيح مشيئة واحدة هي المشيئة الالهية. اما جمهور السوريين

---

١) الطبري ج ١ ص ٢٤٠٢ وما يليها ؛ البلاذري ص ١٣٨—١٣٩ ؛ اليعقوبي ج ١ ص ١٦٧—٦٨؛ De Goeje, pp. 152 seq.

٢) البلاذري ص ١٤٠ — ١٤٢؛ De Goeje. pp. 166-9; Caetani, vol. iv, pp. 156-63

٣) البلاذري ص ١٦ ؛ I. 18, p. 126, II. 13, 19

فقد تشبثوا بكنيستهم ، لان الكنيسة لم تكن في نظرهم مؤسسة دينية فحسب ، بل كانت ، الى ذلك ، تعبيراً مكبوتاً عن عاطفة قومية دفينة .

وكما عرفنا سابقاً[١]، لم يعرف من السوريين منذ فتح الاسكندر انهم فقدوا طابعهم القومي او اضاعوا لغتهم الاهلية او اهملوا دينهم السامي ، او سلكوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة . فالحضارة الهلينية لم تكن يوماً اكثر من طلاء خارجي ، ولم تؤثر في غير النخبة من اهل المدن . اما سواد السكان فقد كانوا ولا بد يعتبرون الحكام غرباء عنهم ، وهذه المجافاة ما بين الحاكمين والمحكومين قد استفحلت ولا شك بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب . وغالب الظن ان السوريين من ابناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين اقرب اليهم عنصراً ، ولغة ، وربما دينا ايضاً ، من اسيادهم البيزنطيين المقوتين .

الرجل الاداري محل القائد الحربي

اما وقد تم فتح سورية ، فلم يعد بد من ان يحل رجل الادارة محل رجل القيادة. وعلى ذلك عزل خالد ذلك البطل الذي اهله تاريخه الحربي الباهر في جزيرة العرب ، وفي العراق وسورية ، الى ان يلقب بـ «سيف الاسلام» — بامر من الخليفة عمر ، وولي مكانه ابو عبيدة . وابو عبيدة هذا صحابي بارز ، وهو احد اعضاء المثلث الذي استأثر بالسلطة الاسلامية[٢] وكان العضوان الاولان ابا بكر وعمر . ولقد تلا عمر ابا بكر في الخلافة ، بعيد معركة اجنادين سنة ٦٣٤ . وكان على ما يبدو يضمر لخالد السوء ، لكنه لم يعهد الى صديقه ابي عبيدة بالقيادة العليا الا بعد معركة اليرموك . وعندها انكفأ خالد من الحياة العامة وانزوى في حمص ، وفيها مات مهملاً (٦٤٢) ليعيش في الاخبار حياة مجترحي المعجزات . ولقد بني مدفنه ومسجده على الطراز التركي سنة ١٩٠٨ وكانت زوجته فضاء قد دفنت هناك الى جانبه .

---

١) انظر الجزء الاول ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ — ٨٢ ، ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣١٦ — ٣١٨ .

٢) H. Lammens, « Le Triumvirat Abu Bakr, 'Omar et Aboû 'Obaidah » *Melanges de la faculté orientale,* vol. iv, (Beirut, 1910), pp. 113 *seq.*

ولما زار عمر المعسكر الاسلامي في الجابية سنة ٦٣٨ للاحتفال بالفتح وتقرير حالة المغلوبين، لم يكتف بان ثبّت ابا عبيدة في قيادة الجيش بل عينه حاكماً عسكرياً، ونائباً للخليفة. على ان دخول الخليفة المسن الى القدس راكباً جملاً، لابساً رث الثياب، لم يترك في الناس اثراً محموداً[١]. وكان في استقباله البطريرك صفرونيوس «حامي الكنيسة المعسول اللسان». قيل انه التفت الى احد مرافقيه، وكلمه باليونانية قائلاً[٢] «حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال، ورآه قائماً في المكان المقدس[٣]».

خطورة الفتح الاسلامي

ولقد تخطى فتح سورية الاعتبارات الزمنية والمحلية، وجلّل دولة الاسلام الناشئة بالمهابة والمجد في نظر العالم، واكسبها الثقة بالنفس.

والآن وقد غدت سورية قاعدة عسكرية، فان جيشاً عربياً توجه منها بقيادة عياض بن غَنْم نحو الشمال الشرقي، وقام باعمال حربية تم له بها، بين ٦٣٩ و ٦٤٦، اخضاع بلاد ما بين النهرين جملة[٤]. ففتح من ثم الطريق الى شمالي غربي فارس وما وراءها من بلاد، واستغل هذا الكسب استغلالاً تاماً. ثم زحف جيش آخر بقيادة عمرو ابن العاص وسواه ممن اشتركوا في فتح سورية، في اتجاه جنوبي غربي، تم له به، بين ٦٤٠ و ٦٤٦، اخضاع مصر[٥]. ومن مصر استؤنفت بسهولة الاعمال الحربية في

---

١) الطبري ج ١، ص ٢٤٠٧؛ cf. De Goeje, p. 157;

٢) Theophanes, p. 339; Constantine Porphyrogenitus, « De administrando imperio » in J.-P. Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cxiii (Paris, 1864), col. 109. يرجح ان صفرونيوس كان ماروني الاصل.

٣) سفر دانيال، ٩: ٢٧؛ ١١: ٣١؛ ١٢: ١١؛ ومقتبس في انجيل متى ٢٤: ١٥؛ وفي انجيل مرقس ١٣: ١٤. والاشارة في سفر دانيال الى انطيوخس ابيفانس، انظر اعلاه الجزء الاول ص ٢٦٧.

٤) البلاذري ص ١٧٢ وما بعد؛ الطبري ج ١، ص ٢٥٩٥ — ٨.

٥) ان لفظة « غزو » كانت تطلق على الغارات الصغيرة ما بين القبائل، فاصبحت تطلق بعد الفتح على الحروب القومية الاسلامية، انظر: Hitti, *History of the Arabs*, p. 160 seq.

شمالي افريقيا، واخيراً في الاندلس، وذلك بالتعاون الوثيق مع المحاربين السوريين. اما في شمالي سورية فقد غدت آسيا الصغرى معرضة للغارات التي استمرت بلا انقطاع ما يقرب من قرن .

تعليل الفتح الاسلامي

هذا، وقد كانت هذه الفتوح اشبه بالحروب المنظمة منها بالغارات الطارئة التي جرت على غطها الفتوحات الاولى[1]. فالحملات الاولى على العراق وسورية لم تكن نتيجة لخطة مرسومة وتدبير سابق، اذ لم يكن ابو بكر ولا عمر، وقد احرزت في عهد ولايتهما جل هذه الانتصارات، ليعقدا المجالس الحربية، ويضعا خطط القتال. بل لم يحلما اصلاً – في الادوار البدائية على الاقل – باقامة قاعدة دائمة في المناطق المحتلة. لكن الذي قادهم الى هذه النتيجة انما هو مجرى الحوادث وسير الامور. وبناء على ذلك لم يسمح للجيوش، في اول الامر، بالاقامة في المدن، بل اقيم لها معسكر بجوار الجابية ليكون بمثابة قاعدة بدائية. وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بان بعض الحملات الاولى، نظير حملة خالد على العراق، جرت دون امر من الخليفة، بل لعلها جرت خلافاً لاوامره .

وليس ينبغي ان ينظر الى الفتح الاسلامي من ناحية انه كان، بالدرجة الاولى، جهاداً دينياً . فان التعليل التقليدي الذي اعتمده المؤرخون المسلمون، يجري مجرى التعليل اللاهوتي الذي اعتمده اليهود في تاريخهم القومي، ونصارى القرون الوسطى في توسع الكنيسة . فهو يغلّب على هذه الحركة الطابع الديني، ويعتبر انها جاءت تبعاً لارادة الهية مقرّرة. والواقع ان التوسع العربي الاسلامي انما دعت اليه عوامل اقتصادية بعيدة الغور[2]، لم يخفَ امرها على المحققين من مؤرخي العرب نظير البلاذري[3]. فقد ذكر ان ابا بكر، اذ اخذ في اعداد الحملة على سورية،

---

١) Hitti, *History of the Arabs*, 160, 167-8.

٢) استخرجها كيتاني: Caetani, vol. ii, pp. 831-61، وجرى على ذلك بعده بكر ولامنس وغيرهما من النقاد المحققين في العصر الحديث .

٣) فتوح البلدان، ص ١٠٧ .

«كتب الى اهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم».

فاذا نحن تحرينا التوسع الاسلامي، محيطين بملابساته الراهنة، بان لنا انه كان حلقة من سلسلة من الهجرات، او من «موجات النزوح»، حملت الفائض من سكان البادية القاحلة الى ما يتاخم الهلال الخصيب، من مناطق هي احفل باسباب الحياة. وقد كان، بواقع الامر، الشوط الاخير من اشواط النزوح المتواصلة ابداً، والتي بدأت بالهجرة البابلية، قبل ذلك بنحو اربعة الاف سنة[1]. على ان هذه الموجة الاسلامية كانت ذات طابع مميز هو الدافع الديني. وقد كان من اجتماع العامل الديني بالدافع الاقتصادي ما جعل الحركة امراً لا يدفع. تخطى بها حدود الهجرات السابقة الى مدى بعيد. على انه لا بد من الاعتراف بان الاسلام كان بمثابة «صيحة الحرب»، او نداء هو من قبيل صيحة «الديمقراطية» في الحرب العالمية الاولى والثانية. بل لقد كان فوق ذلك، ان عمل على توثيق الصلة بين القبائل وجمع الاشتات المتنافرة التي لم يسبق لها ان اتحدت من قبل. ولئن كانت الرغبة في نشر العقيدة الجديدة وفي الفوز بجنة النعيم هي العامل المحرك في حياة البعض من المحاربين البداة، فان الحرص على الظفر باسباب الراحة والرغد، التي كانت تحفل بها الحياة المدنية في الهلال الخصيب، كان المحرك الدافع في ما يتعلق بالكثيرين منهم.

ومن هذا القبيل افتراض آخر مشابه لهذا في الشطط، هو صورة رسمها بعض كتّاب النصارى للمسلمين العرب، يجتاحون البلدان وهم يعرضون القرآن باليد الواحدة والسيف بالاخرى. انما كان هنالك مجال ثالث للاختيار في ما يتعلق باهل الكتاب[2] هو دفع الجزية. «قاتلوا... من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[3]». ومن الخير ان نتذكر ان دفع الجزية كان في نظر الفاتحين اولى واشهى. فانه اذا اعتنق الذميّ الاسلام سقطت عنه الجزية.

---

١) راجع الجزء الاول ص ٦٧ ، ٦٩ .

٢) انظر ما سيأتي في اول الفصل ٣١ الهامش .

٣) سورة البراءة : ٢٩ .

ان الفتوحات الاسلامية التي تمت في القرن الاول تعتبر ، من حيث الخطورة التاريخية ، في منزلة فتوحات الاسكندر . وهذان هما الحدثان البارزان في تاريخ الشرق الادنى السياسي والحضاري قديماً . ففي غضون الالف سنة التي تلت فتوحات الاسكندر ، كانت الحياة الحضرية في سورية والبلدان المجاورة تتحول نحو الغرب عبر البحر ، وتتسم بطابعه . اما الآن ، فقد اتجه هذا التحول شرقاً عبر الصحراء ، ولم تلبث آخر الصلات بروما وبيزنطية ان انفصمت ، وانشئت مكانها صلات جديدة بمكة والمدينة . وكان هذا التحول بالمعنى الضيق ردة الى القديم ، ذلك لان الحضارة العربية الاسلامية لم تبدع الكثير من العناصر الاصيلة ، بل كانت بالاولى انعاشاً للحضارة السامية القديمة[١] فالحضارة الهلينية من هذه الناحية ، انما هي ظاهرة دخيلة بين حضارتين متجانستين .

وفي مدى عقد من الزمان بدل الفتح الاسلامي وجه الشرق الادنى ، وفي مدى قرن بدل وجه العالم المتمدن . وذلك فوق ما يستطيع فتح الاسكندر ان يدعيه . والفتوحات الاسلامية بعيدة عن ان تعتبر من قبيل الاحداث العارضة ، فقد قام الدليل على انها كانت عاملاً حاسماً في تطوير مجتمع العصور الوسطى ، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية ، قاطعة بذلك الصلة البحرية بين الشرق والغرب . هذا فضلاً عن ان احتلال شواطئ المتوسط ، الشرقية والغربية والجنوبية ، كوّن عالماً جديداً هو العالم الذي عاش فيه شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤) ومعاصروه . وبذلك انتهى العصر القديم وبدأت العصور الوسطى[٢] .

---

١) Hitti, *History of the Arabs*, p. 174-75

٢) هذا ما ذهب اليه هنري بيرين في بحثه : *Mahomet et Charlemagne*, 7th. ed. (Brussels, 1935); do., *Histoire de l'Europe* (Paris, 1936), pp. 18-24.

الفصل الحادي والثلاثون

الادارة العربية

كانت المعضلة التالية التي واجهها العرب : كيف يتيسر لهم ان يديروا هذه الممتلكات الجديدة ؟ فقد افاق العرب من نشوة النصر العظيم ليجدوا انفسهم تجاه معضلة، لم يكونوا مهيئين لمعالجتها كما ينبغي ، اذ لم يتهيأ لهم في ماضيهم من الخبرة ما يمكن ان يعولوا في ذلك عليه . وبيّنٌ ان سنن المجتمع البدائي في المدينة لم تكن تفي بالغرض، وكذلك شرائع المجتمع الاسلامي الجديد، فانها لم تكن قابلة التطبيق، ذلك لان الامم المغلوبة لم تكن بعدُ قد اعتنقت الاسلام .

عهد عمر

وكان عمر اول من واجه هذا المشكل . ففي اليوم المعروف بـ «يوم الجابية» عقد مؤتمراً دام ثلاثة اسابيع ، بحث فيه مع قواده المشكل الراهن . الا انه لم يُعرف بالضبط ما الذي اسفر عنه هذا المؤتمر، ولا وقف احد تماماً على بنود الاتفاق الذي اشتهر بـ «عهد عمر» [1]. ولئن كان هذا العهد قد تحدر الينا بروايات متعددة [2]، فان هذه الروايات ، على اختلافها ، قد اشتملت على احكام تابعة لعصور متأخرة. وبديهي ان عمر لم يكن ليضع احكاماً لحالات لم تكن بعدُ قد برزت الى حيز الوجود.

---

1) A. S. Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects* (Oxford, 1930), p. 12.

٢) راجع ابن عساكر ، ج ١، ص ١٧٨ — ١٨٠ ، ١٥٠ — ٥١ ؛ الابشيهي ، المستطرف ، (القاهرة ١٣١٤ هـ) ج ١ ، ص ٩٩ .

لكن من المحتمل ان تكون بعض المبادئ الواردة في العهد المذكور مما تجلت فيه سياسة عمر . وفي طليعة ذلك ان يكون المسلمون العرب في البلاد المحتلة بمثابة طبقة ارستقراطية دينيـــة عسكرية، فيحافظون على نقاوة دمهم ، ويمتنعون عن مخالطة المواطنين ، فلا يقتنون المزارع ، ولا يعملون في الارض . اما الشعوب المغلوبة فقد جُعلوا في وضع خاصٍ عرفوا فيه بِـ « اهل الذمة[1] » . وقد ترتب عليهم، بحكم هذا الوضع ، ان يؤدوا اتاوة تشتمل على ضريبة الارض (الخراج في ما بعد) وعلى ضريبة الدخل (الجزية في ما بعد)، لكنهم دخلوا في حماية الاسلام واعفوا من التجنيد، اذ كان من حق المسلم وحـــده ان يمتشق الحسام مدافعاً عن حياض الاسلام. هكذا نشأ مبدأ المباينة بين الغالب والمغلوب، وغدا اصلاً ثابتاً من اصول السياسة .

ومبدأ آخر ينسب فضل سنّه الى عمر ، هو ان ما سقط في ايدي المحاربين من اموال منقولة واسرى حرب انما هو داخل في الغنيمة ، وهو من نصيب المقاتلين ، كما كان الى حينه . وليست الارض كذلك ، اذ هي من حق جمهور المسلمين، يتألف منها ومن سائر الاموال التي تجبى من الرعايا ما يعرف بِـ « الفيء ». على ان الذين تعهدوا اراضي الفيء بقوا يدفعون ضريبة الخراج مع اعتناقهم الاسلام .

ومن الجلي ان نظام الضرائب الذي جعلته الاخبار المنقولة من محدثات عمر انما جاء في اعقاب سنين كثيرة من التجربة والاختبار . فالخلفاء الاولون وولاة الامصار لا يحتمل ان يكونوا قد استنبطوا وفرضوا نظاماً من الضرائب وجهازاً من الادارة المالية . فقد كان ايسر عليهم ان يواصلوا باسم الله ، نظام الحكم البيزنطي القائم في الاقاليم ، والذي كان مرعياً في سورية ومصر . فكان نظام الضرائب في الامبراطورية الاسلامية لذلك يختلف بين مكان وآخر بحسب طبيعة التربة وتبعاً للنظام المحلي السابق (بيزنطياً كان او فارسياً) لا بمقتضى الحالة التي تم فيهـــا فتح

---

١) قصد به اصلاً « اهل الكتاب » اي اليهود والنصارى وصائبة العراق . ووسع في ما بعد حتى شمل الزردشتيين وسواهم .

البلاد : صلحاً او عنوةً. اما التعليل الذي جرت عليه المصادر العربية[1] لاختلاف الضرائب باختلاف نوع الفتح فواضح انه رواية شرعية متأخرة. بل حتى التفريق ما بين الجزية كضريبة على الشخص، والخراج (من خوريجيا اليونانية، او من الارامية) كضريبة على الارض، لا يمكن ان يكون قد نشأ في عهد باكر كعهد عمر. ولا شبهة في ان التعبيرين قد تعاقبا على معنى واحد هو الضريبة بالمدلول العام. فقد وردت لفظة «جزية» في القرآن مرة واحدة (التوبة : ٢٩) وفي غير قرينة شرعية. وكذلك لفظة «خراج» فانها وردت مرة واحدة كذلك (المؤمنون ٧٤) وبمعنى يختلف دلالة عن ضريبة الارض. فالتفرقة بين الجزية والخراج، والحالة هذه، لم تتضح حتى العهد الاموي المتأخر.

وضريبة الجزية دلالة على انحطاط المنزلة، وكانت تؤدى دفعة واحدة. اما مقدارها فكان في الغالب اربعة دنانير[2] لمن عُدّ من طبقة الاغنياء، وديناران لمن اعتبر من متوسطي الحال، وديناراً واحداً لمن كان من الفقراء. وقد اعفي منها النساء والاطفال والمستعطون والمسنون والمرضى، الا من كان منهم ذا دخل شخصي مستقل. لكن الخراج كان يدفع مقسطاً وبالنوع. يؤخذ من الماشية ومحصول الارض، ولا يقبل من الخنازير ولا الميتة من الدواب ولا الخمر، مما نص القرآن على تحريمه. وربما ترتب على الشعوب المغلوبة ان تدفع، فضلاً عما تقدم، ضرائب اخرى لاعالة جند المسلمين.

المناطق العسكرية

ولقد تم في مؤتمر الجابية تقسيم سورية الى اربعة اجناد، تبعاً للاقاليم البيزنطية الاربعة التي كانت زمن الفتح، هي : جند دمشق، وجند حمص، وجند الاردن،

---

١) الماوردي : الاحكام السلطانية، نشر م. انجر (بون، ١٨٥٣) ص ٢٥٣ — ٥٦؛ ابو يوسف كتاب الخراج (القاهرة، ١٣٤٦ هـ) ص ٤٦؛ البلاذري : ص ١٢٠ — ٢١.

٢) لفظة دينار العربية من اليونانية : ديناريوس؛ وقد كان الوحدة للنقود الذهبية في الخلافة وكان يزن نحو اربعة غرامات. وكان الدينار في عهد عمر يساوي عشرة دراهم، وغدا معادلاً لاثني عشر درهماً بعد ذلك.

وجند فلسطين؛ فاشتمل جند الاردن على الجليل وامتد شرقاً حتى الصحراء، وشمل جند فلسطين المنطقة الواقعــــة الى الجنوب من سهل مرج ابن عامر . وقد اضاف الخليفة يزيد بن معاوية، في ما بعد، جنداً خامساً هو جند قنسرين ، سلخه عن حمص، وضم اليه انطاكية ومنبج والجزيرة[١]. ثم ان الخليفة عبد الملك بن مروان فصل منطقة الجزيرة وجعلها جنداً مستقلاً اما معسكر الجابيـــة فقد بقي ، الى حين ، بمثابة العاصمة . ثم نشأت معسكرات اخرى في جوار حمص وعمواس[٢] وطبرية[٣] (لجند الاردن) واللد (لجند فلسطين). وقد حل ، في ما بعد ، معسكر الرملة محل معسكر اللد .

وما ان استوطن الجنود العرب هذه المناطق المحتلة ، حتى استحضروا اسرهم الى هذه المعسكرات . وكانت الكثيرات من زوجاتهم او جواريهم ، ولا ريب ، من سبايا البلاد المحتلة . ولما كان هؤلاء الجنود من المحاربين والمقاتلين ، فقد كان لهم من الحقوق والافضليات ما لم يكن للوافدين المتأخرين من الجزيرة العربية . وكان على رأس الجند القائد الاعلى والحاكم العام ، الذي جمع في شخصه جميـــع السلطات التنفيذية والقضائية والعسكرية . الا انه ابقى على هيكل الجهاز الحكومي البيزنطي ، واحتفظ بالموظفين الاهليين ، الذين لم يغادروا البلاد ابان الفتح، في مناصبهم. ذلك لانه لم يكن لدى العرب رجال مدربون يحلون محل هؤلاء الموظفين . وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت عنايتهم موجهة بالدرجة الاولى نحو توثيق سيطرتهم على البلدان المحتلة، وجباية الضرائب المرتبة على اهلها[٤] ! وعليه فقد كانت الحكومة العربية الاقليمية، في دورها البدائي ، سواء في سورية او مصر او العراق، حكومة عسكرية محضة ، ذات هدف مالي واضح .

---

١) ياقوت، ج ١ ، ص ١٣٦ ؛ البلاذري ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ قابل اليعقوبي ج ٢ ، ص ١٧٦ : راجع الخارطة ص ٩ من هذا الجزء .

٢) او هي عَمَواس : انجيل لوقا ٢٤ : ١٣ .

٣) هي طبرية الحديثة .

٤) J. Wellhausen, *Das arabische Reich und sein Sturz* (Berlin, 1902), pp. 18, 20-21 ; tr. Margaret G. Weir, *the Arab Kingdom and its Fall,* (Calcutta, 1927), pp. 28, 32.

طاعون عمواس

وقبل انصرام العام الذي عقد فيه مؤتمر الجابية (٦٣٩)، ظهر في عمواس وبأ مخيف، فتك في الجنود فتكاً ذريعاً وقضى، في ما روي، على زهاء ٢٠،٠٠٠ منهم، بينهم القائد الاعلى ابو عبيدة[1] وخلفه يزيد[2] وعلى الاثر عين عمر معاوية في مكان اخيه الاكبر يزيد، وكان ذلك سنة ٦٤٠. وبقي معاوية لمدة عشرين سنة حاكماً على سورية وسيد الموقف فيها، واستمر لمدة عشرين سنة اخرى خليفة للمسلمين، نافذ السلطان في العالم الاسلامي. وحينما غدت سورية، في ابان حكمه قاعدة للخلافة، استهلت عهداً من القيادة والسيادة استمر ما يقرب من قرن.

معاوية في عهد ولايته

ان السياسة التي استنها معاوية الوالي هي السياسة التي اتبعها معاوية الخليفة، فتحقق له بذلك المقام البارز الثابت في عالم الشهرة بين العرب. فقد جعل نقطة الانطلاق في سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا الى حينه على النصرانية، وكذلك القبائل العربية التي سبق ان استوطنت البلاد منذ العهد الجاهلي واعتنقت النصرانية، نظير الغساسنة. ولقد كان الكثير من هذه القبائل ترتقي بنسبها الى عرب الجنوب، خلافاً للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال. وقد اختار معاوية، زوجة له، امرأة مسيحية يعقوبية هي ميسون ابنة بجدل، من بني كلب من عرب الجنوب، احتفظت بدينها وغدت ام يزيد. وكان طبيب معاوية الخاص، وشاعر بلاطه مسيحيين ايضاً[3]. واحتفظ معاوية بمنصور بن سرجون[4] مديراً للمالية

---

١) لا تزال ذكراه، نظير ذكرى سواه من محاربي المسلمين الاولين، تحيا كذكرى الاولياء.

٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٢؛ الطبري، ج ١، ص ٢٥١٦ — ٢٠؛ ابن عساكر، ج ١، ص ١٧٥ — ٧٧.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٣ تحت مآثر اخرى والفصل ٣٨ تحت مواضيع الشعر والتربية والعلوم.

٤) ورد ذكره في ص ٨ من هذا الجزء.

الدولة. هذا وان المدونات العربية لتشهد على الاخلاص الذي كان السوريون يكنونه لحاكمهم الجديد، بداعي سياسته المستنيرة السمحة[١].

وشرع معاوية بعد ذلك في تنظيم الولاية على اسس ثابتة، فعمد الى العناصر الخام التي تألف منها الجيش وصهرها، ثم سبك منها جيشاً مدرباً من الطبقة الاولى، هو الاول من نوعه في الاسلام. وبذلك ابطل النظام القبلي القديم الذي كان من بقايا عهد الزعامات السلالية. ولم يعترضه اي تدخل من قبل المدينة، لان الخليفة الجديد عثمان (٦٤٤ — ٥٦٠)، الذي تولى بعد عمر، كان نسيباً له، اذ كان كلاهما من امية، وهي فرع ارستقراطي من فروع قريش. اما محمد فكان ينتسب الى عشيرة اخرى من تلك القبيلة. وقد ابقى معاوية الجيش على قدم الاستعداد، بموالاة الغارات الفصلية على بلاد الروم.

بناء اول اسطول

ولقد ثبت لمعاوية ان جيشاً مخلصاً جيد التدريب لا يفي وحـــده بحماية منطقة ساحلية. وكان قد ظفر في عكا باحواض بيزنطية لبناء السفن وافية التجهيز[٢]، فعمد الى تشغيلها بحيث غـــدت الاولى من نوعها، بعد دار الصناعة في الاسكندرية. وكانت احراج لبنان آنئذٍ غضة، فكانت تمد هذه الصناعة بالخشب اللازم. وقد نقل الامويون هذه الاحواض، في ما بعد، الى مدينـــة صور[٣]. وكان الاسطول الاسلامي مجهزاً، ولا شك، بملاحين من الروم السوريين ذوي الخبرة الطويلة في ريادة البحار.

قامت الحملة البحرية الاولى من عكا سنة ٦٤٩ مستهدفة جزيرة قبرس وقـــد

١) الطبري، ج ١، ص ٣٤٠٩ — ١٠؛ المسعودي، ج ٥، ص ٨٠، ١٠٤؛ قابل العقد، ج ١، ص ٢٠٧.

٢) البلاذري، ص ١١٧.

٣) البلاذري ص ١١٧ — ١٨؛ Guy le Strange, *Palestine under the Moslems* (Boston, 1890), p. 342.

اشبهت مدينة مسددة نحو قلب سورية. وكتب معاوية الى الخليفة عثمان يصف قرب الجزيرة من سورية فذكر «ان قرية من قرى حمص ليسمع اهلها نباح كلابهم [اي كلاب الروم] وصياح دجاجهم حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر[١]» على ان عثمان لم يوافق على مشروع الحملة موافقة تامة بل اشترط على معاوية ان يصطحب زوجته، للتدليل على قرب الجزيرة، وعلى صحة تقديره لسهولة اخضاعها[٢]. وقد جعلت هذه الحملة البحرية من معاوية الاميرال الاول في تاريخ العرب[٣]. اما عمر، الخليفة الذي سبق عثمان، فقد رفض قطعاً ان يسمح بهذه الحملة البحرية، كما سبق له ان فعل في ما اتصل بافريقيا. والتوصيات التي ارسل بها الى عمرو بن العاص تشهد على الرعب الذي يخالج ابن الصحراء من البحر: «لا تجعل بيني وبينك ماء وانزلوا موضعاً متى اردت ان اركب راحلتي واصير اليكم فعلت[٤]».

الاسطول البيزنطي يشرف على التلف

وقد اسفرت الحملة البحرية الاولى في تاريخ الاسلام عن كسب جزيرة قبرس، واوصلتهم الثانية (٦٥٤) الى جزيرة رودس. وبعد ذلك بعامين بيعت بقايا نصبها العظيم — وهو تمثال أپولو الذي بلغ ارتفاعه مئة وعشرين قدماً، واعتبر احدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم — الى تاجر حطام معدنية، روى انه استخدم لنقلها تسع مئة جمل. وفي سنة ٦٥٥ وقع اشتباك بحري بين الاسطول السوري يقوده بسر بن ابي ارطاة، والاسطول المصري من جهة، وبين الاسطول الرومي وهو بقيادة الامبراطور قسطنطين الثاني حفيد هرقل من جهة ثانية، وذلك عند فونكس (فينيكي حديثاً) على ساحل ليكيا. واسفر الصدام عن اول انتصار

---

١) الطبري ج ١، ص ٢٨٢٠ — ٢١.

٢) البلاذري، ص ١٥٢ — ٥٣.

٣) «اميرال» لفظة من اصل عربي «امير البحر» لم تتسرب الى اللغات الاوروبية الا بعد العهد العربي الاسباني.

٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٠؛ قابل ابن الطقطقي — الفخري نشر درنبرغ (باريس ١٨٩٤—٩٥) ص ١١٤.

بحري عظيم احرزه المسلمون. ولقد دعيت هذه المعركة في الاخبار العربية بذي (او ذات) الصواري[١]، وذلك اما لان المكان كان مكتظاً باشجار السرو. او تبعاً للعدد العظيم من الصواري التي ارتفعت من السفن الكثيرة التي اشتبكت في القتال. ولقد عمد العرب فيها الى ربط كل سفينة عربية بسفينة رومية، محولـــين بذلك المعركة البحرية الى قتالٍ بالسلاح الابيض، وهو القتال الذي الفوه. فأنزلت هذه الواقعة في القوات البحرية البيزنطية ما انزلته في قواتهم البرية واقعة اليرموك[٢]، اي انها ابادتهم. وقد ذكر الطبري[٣] ان مياه البحر غدت مشبعة بالدماء.

على ان معاوية لم يستطع ان يستغل هذه الانتصارات الـــتي احرزها القواد وامراء البحر، استغلالاً تاماً. اذ كان العالم الاسلامي يتمخض باضطرابات داخلية تنذر بنشوب حرب اهلية. لذلك بدا له من المناسب، في سنة ٦٥٨ او ٦٥٩، ان يعقد هدنة مع قسطنطين الثاني في مقابل دية، يدفعها اليه سنوياً، اتى على ذكرها ثيوفانس[٤] واشار اليهـــا البلاذري اشارة عابرة[٥]. لكن دفع الدية لم يلبث ان توقف، واستؤنفت من ثم الاعمال العدائية، ضد العدو الرابض ابداً في الشمال، براً وبحراً.

١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، نشر شارل توري (ليدن، ١٩٢٠) ص ١٨٩ — ٩٠؛ الطبري، ج ١، ص ٢٨٦٥، ٢٩٢٧.

٢) Theophanes, pp. 332, 345-6.

٣) الطبري، ج ١، ص ٨٦٨.

٤) Theophanes, p. 347.

٥) البلاذري ص ١٥٩.

الفصل الثاني والثلاثون

خلافة الراشدين

شهد الاسلام في ١٦ حزيران ٦٥٦ اول حادثة اغتيل فيها خليفة بيد مُسلم[1]. والخليفة هو عثمان ابن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين. وانما عرف الخلفاء الاربعة الاول بالراشدين لانهم كانوا جميعاً من اقرباء النبي المقربين وصحبه الملازمين، ولانهم حاولوا ان يسيروا في تدبير امور الدولة سيرته ويأتموا بتوجيهاته وارشاداته. ذلك ان ما فرضته عليهم شخصية محمد وسيرته من الهيبـــة كان لا يزال عاملاً فعّالاً في حياتهم. وقد كانوا جميعهم إلا عثمان من المؤمنين الاولين، وكانت المدينة عاصمتهم.

الخلفاء الراشدون

١ً ابو بكر ... ٦٣٢ — ٦٣٤

٢ً عمر ... ٦٣٤ — ٦٤٤

٣ً عثمان ... ٦٤٤ — ٦٥٦

٤ً علي ... ٦٥٦ — ٦٦١

ولم يوصِ احد من هؤلاء الخلفاء بالخلافة لابنـــه من بعده، ولا اسس سلالة

---

١) المراد بالخليفة: خليفة محمد بكل اعتبار ما عدا النبوّة؛ كان محمد خاتم الانبياء فلا يمكن ان يكون له خليفة. وعليه فالخلافة منصب مدني محض. واذ لم يكن في الاسلام نظام كهنوتي ولا سلطة كهنوتية امتنع ان يكون على رأسه رجل يقابل البابا. اما الرأي المخالف الخاطئ فلم يلق انتشاراً واسعاً حتى اواخر القرن الثامن عشر. انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp.185-6

مالكة. بل قد ولي كل منهم بالبيعة ؛ وهي ان يتقدم زعماء الناس وشيوخ القبائل، ويأخذوا بيد المرشح ، فعلًا او رمزاً ، دلالة على الولاء .

عهد الراشدين عهد المشيخة

عاش الخلفاء الراشدون في نظام مشيخي بسيط ، لكنهم انجزوا الكثير من جليل الاعمال . فأبو بكر ، وهو حمو النبي واكبر منه بثلاث سنوات ، اخضع الجزيرة العربية ، ورد اليها الحياة الهادئة ؛ وقد اطلق عليه ، بفضل سلامة طويته ، لقب الصدّيق . وكان عمر السابق الى جعل سنة الهجرة (٦٢٢) السنة التي بدأ منها العصر الاسلامي ؛ وهو الذي رعى سير الفتوحات في اقسام كبرى من العالم المعروف حينذاك ؛ وكان البادئ في انشاء ديوان[١] الدولة ، وتنظيم حكومات الولايات في المناطق المحتلة . وقد سقط عمر بطعنة من خنجر مسموم سددها اليه مولى نصراني فارسي[٢] ، ولكن عمر ترك في التاريخ ذكراً حياً رفعه الى مرتبة اعظم رجل في العهد الاسلامي الاول بعد النبي .

كان عثمان عنصراً غريباً في سلسلة متناسقة من الشخصيات . فقد كان من بيت امية وهو فرع ارستقراطي من قريش قاوم الدعوة الى ان سقطت مكة في يد محمد ٦٢٩ — ٦٣٠ . وذلك قبل وفاة النبي بعامين . وكان بنو امية حماة الكعبة فكانوا يجنون من حج الناس اليها موارد ذات بال . لذلك كان قبول الدعوة يلحق بهم من الاضرار ما لا يصيب سواهم ممن قبلوها وقد تم في خلافة عثمان جمع القرآن وضبط نصه بما اعطى كلام الله شكلًا ثابتا لا يقبل التغيير ، حافظ عليه حتى الوقت الحاضر . وتحقق في عهده فتح فارس واذربيجان وقسم من ارمينيا . على ان سيرته لم تكن خالية من اسباب اللوم ، اذ ولّى أخاه بالرضاعة على مصر وكان واحداً من عشرة اشخاص اقصاهم محمد يوم دخل مكة ؛ وعيّن اخاً له من أمه والياً

---

١) هذا الديوان الذي نظم دخل الدولة وخرجها نقل بعدئذٍ عن النظام الفارسي كما تدل لفظة ديوان الفارسية بالذات ؛ الفخري ص ١١٦ ؛ الماوردي ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 172.

٢) الطبري ، ج ١ ، ص ٢٧٢ — ٧٣ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٨٣ .

على الكوفة وكان قد اساء الى محمد؛ واقام ابن عم له[١] اميناً على ديوان الدولة. اما الخليفة نفسه فقد قبل الهدايا من عمّاله ومن اعوانهم، وكان منها جارية جميلة ارسلت اليه من البصرة. لذلك وجهت اليه تهم التحيز لاقربائه، والمحاباة في الحكم، وعمد ثلاثة من الطامعين بالخلافة الى اشاعة السخط بين الناس. وكان هؤلاء الثلاثة من قريش، وكان في طليعتهم علي[٢].

قضية علي

وقد كان لعلي، من اول الامر، مشايعون مخلصون، يعتقدون دينياً انه هو صاحب الحق بالخلافة، وانه كان ينبغي له هو ان يتولّاها، دون سواه، بعد محمد سنة ٦٣٢. فقد ذهب هؤلاء الى ان علياً كان اولى الناس بها لانه ابن عم النبي[٣] اولاً، وكان الثاني او الثالث بين من آمنوا بالرسالة، وزوجاً لابنة النبي الوحيدة (فاطمة) التي قدر لها ان تبقى بعده في قيد الحياة، ووالداً للحسن والحسين وهم كل من ترك النبي من ذرية. بل قد ذهبوا الى ما هو ابعد من ذلك، فاعتقدوا ان تولي هذا المنصب، وهو ارفع منصب في الاسلام، لا يمكن ان يكون قد ترك رهناً بميول الناخبين ونزواتهم. وانه لا بد من ان يكون الله ومحمد قد اعدا له ما يلزم، وان علياً هو الشخص الذي اعداه له. وهذا من شأنه ان يجعـــل علياً الخليفة الشرعي الوحيد للنبي، وينزل خلفاءه الاخرين بمنزلة المغتصبين. وقد تقرر عند هؤلاء المشايعين ان الولاية بعد علي انما هي لذريته وذلك بحكم الحق الموروث.

ثم ان العلويين نظموا حزباً قوياً في الكوفة. ومن الكوفة انبعثت شرارة

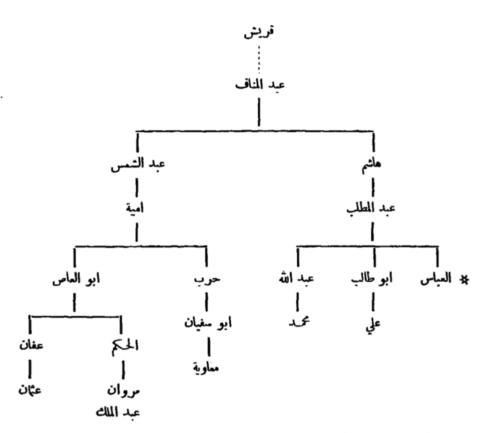
---

١) هو مروان بن الحكم، الذي غدا في ما بعد احد خلفاء الامويـــين؛ انظر الجدول الذي سيأتي في الفصل ٣٤ في الهامش.

٢) اما الآخران فهما طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام، وهما من المؤمنين الاولين وقدماء الصحابة، ومن العشرة المبشّرة الذين وعدهم النبي بالجنة.

٣) الشكل التابع يوضح صلة القرابة التي تجمع بين علي وعثمان ومعاوية ومحمد: (في ذيـــل الصفحة التالية).

الفتنة ضد عثمان ، ومنها امتدت الى مصر ، فسار منها خمس مئة ثائر نحو المدينة في نيسان ٦٥٥ . وقد حاصروا الخليفة الشيخ في بيته ، وكانت اليد السابقة الى اغتياله يد ابن ابي بكر صديقه وقد هوت عليه فيما كان يقرأ المصحف الذي سبق له ان جعله المصحف الام[١] . وبعد مداولة قصيرة بويع علي بالخلافة .



* الذي ينتسب اليه الخلفاء العباسيون .

١) هنالك مدن عديدة تدعي شرف الاحتفاظ بهذا المصحف ، ودم عثمان يلطخ منه الصفحة التي ورد فيها قوله تعالى ٢: ١٣١ — ١٣٣ : « اذ قال له ربه اسلم . قال اسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنيّ ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ الا وانتم مسلمون . ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموتُ اذ قال لبنيه ما تعبدون بعدي . قالوا نعبد إلهك وإله اباءك ابراهيم واسماعيل واسحاق الهاً واحداً ونحن له مسلمون » وقد قيل لابن بطوطة اذ زار احد مساجد البصرة سنة ١٣٢٦ ان فيه مصحف عثمان . انظر : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، نشر وترجمة B. R. Sanguinett و C. Defrémery ج ٢ (باريس ١٨٩٤) ص ١٠ — ١١ .

خلافة علي

كانت خلافة علي حافلة بالقلاقل من اولها الى منتهاها. وكانت مشكلته الاولى: كيف يتخلص من منافسيه الباقيين طلحة والزبير، وقد رفضا واتباعهما في الحجاز والعراق ان يعترفوا بولايته. وقد زاد موقف المعارضين قوة انضمام عائشة، زوجة النبي الاثيرة، الى صفوفهم. وكانت عائشة تضمر لعلي بغضاً دفيناً: ذلك ان علياً اثار حولها ريبة في صباها اذ تخلفت يوماً عن ركاب النبي في بعض اسفاره. فجاء على الاثر الوحي من الله مؤيداً لها ناطقاً ببراءتها[1]. وقد التحمت المعركة في ظاهر البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ ودعيت «يوم الجمل» نسبة للجمل الذي كانت عائشة راكبة عليه. وقد صُرع في هذه المعركة منافسا علي كلاهما[2]، واسرت عائشة، وعوملت بما يليق بـ «ام المؤمنين». وهكذا انتهت الحرب الاهلية الاولى في الاسلام. واقام علي في الكوفة عاصمته الجديدة وكأنه الخليفة غير المنازع. لكن العهد لم يطل حتى أتت الحرب الاهلية الثانية.

معاوية في الميدان

ولم يحجم عن مبايعة علي الا واحد من الولاة هو معاوية. ومعاوية، وهو والي ورية ونسيب عثمان، برز الآن مطالباً بثأر الخليفة القتيل. وقد طبع الحادث بالطابع الروائي فاخذ يعرض، في مسجد دمشق، قميص عثمان الملطخ بالدم والانامل التي قطعت من يد زوجته نائلة فيما كانت تدافع عنه[3]. وهي عربية سورية من بني كلب نظير زوجة معاوية. ولقد كان معاوية حريصاً على اخفاء اغراضه الخاصة، لكنه صارح علياً بامر اوقعه في ورطة وبيلة اذ جعله بين امرين: فإما ان يعاقب القاتلين، او ان يقر ضمناً بالتواطؤ معهم. والاقتصاص من القاتلين كان مما لا

---

١) سورة النور، ١١، ١٢.

٢) الطبري، ج ١، ص ٣٢١٨ وما بعد.

٣) الفخري، ص ١٢٥، ١٣٧.

يقدم علي عليه، بل ولا يقوى عليه. لكن المسألة في اساسها كانت تتجاوز الاعتبارات الشخصية الى مركز الزعامة في العالم الاسلامي: هل يكون في العراق ام في سورية، وفي مدينة الكوفة ام في مدينة دمشق؟ اما المدينة المنورة فلم تكن في الحسبان. ذلك لان الفتوحات الواسعة كانت قد زحزحت قلب الدولة الى الشمال، واحالت العاصمة السابقة الى مقام فرعي.

الحرب الاهلية الثانية

واخيراً التقى الجيشان في سهل صفين[1]: الجيش العراقي بامرة علي، والسوري بامرة معاوية. وبعد مناوشات استمرت بضعة اسابيع نشبت المعركة في ٢٦ تموز سنة ٦٥٧. وبعد ثلاثة ايام من القتال الشديد بات النصر في جانب علي واوشك ان يتم له، واذا بالمصاحف ترفع على أسنّة الرماح! وقد اعتبرت هذه البادرة – كائناً ما كان المفهوم منها – بمثابة دعوة للجانبين الى تحكيم القرآن في موضوع النزاع مكان السلاح. وانما كانت حيلة لجأ اليها عمرو بن العاص، قائد رجال معاوية، وهو من عرف بالمكر الشديد والدهاء البالغ. وعلى الاثر توقف القتال، ووافق علي بوحي تقاه وسلامة طويته. على اقتراح معاوية بتحكيم كلام الله حقناً لدماء المسلمين[2].

التحكيم

عين علي ممثلاً عنه في التحكيم ابا موسى الاشعري، وهو رجل لا يشوب تقاه ريب، الا ان ولاءه لعلي كان موضعاً للشك. وقد تحدّاه معاوية بعمرو بن العاص، وهو بين دهاة العرب الاربعة في الاسلام[3]، ومنهم معاوية نفسه[4]. فعقد الحكمان،

---

١) هو سهل الى الجنوب من الرقة على ضفة الفرات الغربية. الطبري، ج ١ ص ٣٢٥٦ وما بعد؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨ وما بعد؛ الدينوري، الاخبار الطوال، نشر Vladimir Guirgass (ليدن، ١٨٨٨) ص ١٧٨ وما بعد.

٢) للاطلاع على نص قرار التحكيم راجع الدينوري، ص ٢٠٦ – ٢٠٨.

٣) المسعودي، ج ٤، ص ٣٩١؛ ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، ج ٥ (القاهرة، ١٩٠٧)، ص ٣.

٤) لمعرفة الاثنين الآخرين انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ الفقرة عن إخضاع العراق.

وفي صحبة كل منهم اربع مئة من الشهود ، اجتماعاً عاماً في كانون الثاني سنة ٦٥٩ في اذورح ، على طريق القوافل بين دمشق والمدينة .

والخبر الشائع هو ان الحكمين اتفقا ضمناً على خلع الزعيمين ، وجعل الامر مجدداً شورى بين المسلمين . ولكن بعد ان وقف ابو موسى ، وهو اكبر الاثنين سناً ، واعلن انه قد خلع صاحبه ، عمد عمرو الى الخدعة وايد زميله في خلع علي[١] . على ان الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون الى الاعتقاد بان الذي جرى فعلاً هو ان كلا الحكمين خلعا كلا الزعيمين . وهذا مؤداه ان علياً وحده هو الذي خلع اذ لم يكن معاوية خليفة بعد[٢] . وواقع الامر ان التحكيم بالذات قد رفع منزلة معاوية الى مقام علي ، او حط مقام علي الى مستوى منزلة معاوية ، اذ ان قرار الحكمين ازال علياً عن منصب فعلي في حين انه اقصى معاوية عن ادعاء وهمي لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به . والحق ان معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة الا بعد مضي سنتين على التحكيم ، وكان علي آنذاك قد قضى نحبه .

وفي صباح ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١ ، بينما كان علي في طريقه الى المسجد في مدينة الكوفة سدد اليه احد الخوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته . والخوارج جماعة من اتباع علي انشقوا عنه واتخذوا شعاراً لهم «لا حكم الا لله[٣]» ، وانقلبوا عليه وغدوا الد اعدائه فغدوا بذلك الفرقة الاولى في الاسلام . على ان حادث الاغتيال هذا قد وقع بدافع شخصي محض[٤] . وبقي المكان المنعزل الذي دفن فيه علي بظاهر الكوفة سراً خافياً طيلة العهد الاموي وصدر العصر العباسي ،

---

١) قابل الفخري ، ص ١٢٧ — ١٣٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٢ ؛ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٣٤٠ — ٣٣٦٠ ؛ المسعودي ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ — ٤٠٢ .

٢) H. Lammens, « Etudes sur le règne du Calife Omaiyade Mo'awia 1er », *Mélanges de la faculté orientale*, vol, ii (1907), pp. 17-32; Wellhausen, pp. 57-9; Caetani, vol. x, pp. 6-76.

٣) الفخري ، ص ١٣٠ ؛ قابل القرآن الكريم : سورة يوسف : ١٧٠ .

٤) المبرد ، الكامل ، نشر William Wright (لندن ، ١٨٦٤) ص ٥٤٨ — ٥٥١ .

حتى وقع عليه هارون الرشيد اتفاقاً سنة ٧٩١[١]. وهذا هو مزار علي او «المشهد[٢]» في النجف وهو من اهم مناسك الحج في الاسلام واهمها على الاطلاق لدى الشيعة.

ولقد تبين ان تأثير علي ميتاً كان اشد منه وهو في قيد الحياة. اذ لم يلبث ان غدا في نظر مشايعيه امامهم الاكبر وولي الله عليهم. ولئن كان يعوزه الكثير من مقومات الخلق السياسي، فقد كان غنياً بالمواهب التي تكون، في نظر العربي، الانسان الكامل. فقد كان فصيح اللسان، صائب الرأي، باسلاً في القتال، مخلصاً لاصدقائه، جباراً في نظر خصومه. وقد رفعته الاخبار المروية الى مثال الفتوّة الاعلى، وحف باسمه من الامثال والخطب والحكم والاشعار والنوادر ما جعل منه «سليماناً حكيماً» آخر. فسيفه ذو الفقار، الذي قيل انه كان بيد النبي في معركة بدر المأثورة[٣] قد خلده هذا البيت السائر من الشعر:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

ثم ان حركة «الفتيان» في الاسلام التي نحت فيما بعد نحواً شبيهاً بمنظمات الفروسية في العصور الوسطى اتخذت من علي نموذجاً لها، وكذلك اعتبرته جماعات عديدة من الدراويش عماداً ومثالاً اعلى. وبقي في نظر الكثير من اتباعه، على مر العصور، الامام المعصوم، وغدا في نظر الغلاة منهم تجسيداً للعزة الالهية[٤].

---

١) للاطلاع على اقدم التفاصيل عن هذا المدفن راجع ابن حوقل، ص ١٦٣.

٢) «المشهد» مكان الشاهد، والشاهد مَن شهد ان لا اله الا الله، لا من سقط شهيداً من اجل حكمة الشهادة. اما لفظة «مقام» فمعناها حرفياً مكان القيام، لكنها تعني اصطلاحاً، موضعاً حل فيه احد الاولياء. وكثيراً ما تستعمل احدى اللفظتين مكان الاخرى.

٣) للاطلاع على اخبار هذه المعركة راجع: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 116-17

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٢.

الفصل الثالث والثلاثون

معاوية مؤسس الخلافة الأموية

نودي بمعاوية خليفة في ايلياء (القدس) في اوائل سنة ٦٦٠[١] ؛ لكنه اختار ان يجعل مدينة دمشق عاصمة لخلافته . فقد كانت القدس اقرب الى البدو والعرب من عاصمة الاراميين القديمة والقاعدة الحديثة للحكومة البيزنطية الاقليمية ، وكانت المدن الساحلية معرضة للهجوم البحري ؛ وكان يحمي المدينة والكوفة الصحراء من الوراء .

ازاحة المطالبين بالخلافة من الطريق

وقد كان هم معاوية الاول ان يتخلص من المطالبين بالخلافة ، وان يهدئ الاحوال ، ويعمل على تحقيق الاستقرار . فوفّق الى ان يعمل مع جماعة من القواد ندر وجود امثالهم بعد ذلك في الاسلام . وكان عمرو بن العاص ، ساعده الايمن قد انتزع مصر (٦٥٨) من سلطة المشايعين لعلي ، فكان كأنما فتح مصر للمرة الثانية . ثم تولاها لمعاوية[٢] ، واستمر عليها حتى وافاه الاجل سنة ٦٦٣[٣]. اما الحجاز فكان بطبيعة الحال فاتراً في ولائه للخليفة الجديد ؛ ذلك ان مكة والمدينة لم تنسيا ان الامويين تلكأوا في اعتناق الاسلام ، وان اعتناقهم له كان على سبيل المصلحة ، اكثر منه بداعي الاقتناع والايمان . لكن مهد الاسلام في هذه الاثناء

---

١) في شوّال سنة ٤١ هـ على ما ذكره المسعودي ، ج ٥ ، ص ١٤ ؛ وسنة ٤٠ هـ على ما في الطبري ، ج ٢ ، ص ٤ ، واليعقوبي ، ج ٢، ص ٢٦٦ .

٢) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ وما بعد .

٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ — ٦٣ ؛ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٤٠١ — ١١ .

لم يكن مبعثا لقلاقل ذات بال . واما العراق فقد عمد فوراً وعلانية الى الوقوف بجانب الحسن الابن الاكبر لعلي من فاطمة . اذ كان الحسن في رأي العراقيين الخلف الشرعي الوحيد لوالده الذي ذهب ضحية للاغتيال . لكن معاوية استطاع ، على اثر حملة صاعقة (٦٦١) ، ان يحصل من منافسه على تخلٍّ صريح عن جميع مطالبه (مدعياته) . وكان الحسن على كل حال اميل الى الانقطاع الى الشؤون العائلية منه الى الاضطلاع باعباء الحكم ، فعمد الى التنازل لمعاوية في مقابل عطاء سنوي وافر عين هو مقداره ، ثم تحول الى المدينة ، وعاش فيها حياة رغد ورفاهية . وكان هذا العطاء على مدى الحياة ، وقد اشتمل على خمسة ملايين درهم[١] من بيت مال الكوفة ، وعلى الوارد من احد اقاليم فارس ؛ وتضمن جعلاً سنوياً لاخيه الاصغر الحسين مقداره مليونا درهم لمدى حياته[٢]. وبعد نحو من ثماني سنوات توفي الحسن في المدينة وله من العمر خمسة واربعون عاماً . وكان الحسن كثير الزواج والطلاق حتى لقب بالمطلاق ، فقد تزوج و طلق نحواً من مئة امرأة . وكان في ما يبدو مصدوراً ، لكن من المحتمل ان يكون قد مات مسموماً[٣]، بفعل مكيدة نسائية . الا ان اتباعه القوا التبعة على معاوية ، واعتبروا الحسن شهيداً ، بل سيد الشهداء .

هدوء موفق في العراق

وجعل معاوية على الكوفة (٦٦١) — وهي يوم ذاك على جانب من المذلة والهياج والضغينة — المغيرة ابن شعبة ، من اهل الطائف في الحجاز ؛ وكان والياً على البصرة في خلافة عمر ، فعزله عنها لسوء سيرته[٤]. وقد وصف المغيرة بانه لو كان

---

١) درهم في الفارسية ، دراخمه في اليونانية ؛ وهو الوحدة الفضية في نظام النقد العربي . وكان عادة ١/١٠ او ١/١٢ من الدينار (انظر ص ٢١ من هذا الجزء حاشية ١) لكن قيمته الحقيقية كانت كثيرة الاختلاف .

٢) الطبري ، ج ١ ، ص ٣ ؛ الدينوري ، ص ٢٣١ ؛ ابن حجر ، ج ٢ ، ص ١٢ — ١٣ .

٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

٤) البلاذري ، ص ٢٥٦ ، ٣٤٤ — ٤٥ ؛ ابن الاثير في «اسد الغابة» ، ج ٤ ، (القاهرة ، ١٢٨٦) ، ص ٤٠٧ .

داخل سبعة ابواب، موصدة دونه، لاستطاع بدهائه ان يحطّم اقفالها. وفي اثناء الفوضى التي عقبت اغتيال علي، زوّر المغيرة شهادة عن لسان معاوية، عين فيها نفسه قائداً لموكب الحجاج الى الحجاز. وقد تمكن بوصفه حاكماً ان يضرب الخوارج بالشيعة، والشيعة بالخوارج، وان يلاشي مقاومة العلويين، ويوطد هيبة بني امية في ولايته. فاحرز بذلك مكانة جعلته احد دهاة السياسة الاربعة في الاسلام[1].

وقد تولى العراق بعد المغيرة ربيبه زياد ابن ابيه، الداهية السياسي الرابع. ومع ان زياداً كان قد عمل على تأييد العلويين في فارس. فان معاوية استلحقه بصورة سافرة، رغبة في استغلال مؤهلاته النادرة، وهو ابن لابيه – ابي سفيان من بغي كانت في الطائف[2]. ولما كان الناس على شيء من الارتياب في امر ابيه فقد كني بـ «ابن ابيه». ثم ان ولاية زياد على الكوفة اتسعت حتى ضمت، فضلاً عن العراق، بلاد فارس والاقطار العربية التابعة، فغدا بذلك حاكماً على النصف الشرقي من الامبراطورية الاسلامية. واستطاع زياد – وهو المستلحق بنسب ابي سفيان – بعينه الساهرة على الاحداث في ولايته، وبسمعه المرهف، وبسيفه الماضي، ان يحمل القطر الثائر على البقاء في الفلك السفياني. أما ما اثاره البدو، وسائر العرب، من مشاكل في البصرة والكوفة، فقد عالجها بنقل خمسين الفاً منهم الى شرقي فارس[3].

موجة الفتوحات الثانية

بعد ان استقرت الاحوال نوعاً في بلاد المسلمين، سمت بمعاوية همته العجيبة نحو

---

١) انظر ما سبق في ص ٤٣٢.

٢) ورد ذكر هذا الاستلحاق في المسعودي، ج ٥، ص ٢٠ – ٢٢؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٩ – ٧٠؛ وابن عساكر، ج ٥، ص ٤٠٩ – ١٠ ع.

٣) البلاذري، ص ٤١٠؛ الطبري، ج ٢، ص ٨١، ١٥٥ – ٥٦. وكان قد سبق ذلك عمليات نقل اخرى في الشرق الادنى، راجع الجزء الاول ص ٢١٣ – ١٤، ٢٢٠.

البلدان المجاورة ، فوجه اليها الحملات براً وبحراً . وكان هدف الحملة البحرية الامبراطورية البيزنطية[١]. وكان ما تم على يد معاوية من فتوحات يؤلف الموجة الثانية من حركة التوسع الاسلامي ، وقد جاءت بعد فترة حفلت بالفتن الداخلية[٢]. وكان رائد الموجة الاولى ابو بكر الصديق ، وقد بلغت ذروتها في عهد عمر .

وقد جرت حركة التوسع براً في عهد معاوية في مجريين : احدهما شرقي والآخر غربي . وكانت البصرة ، وهي في عهدة زياد ، القاعدة الاساسية للحملات الشرقية التي استكملت اخضاع خراسان (٦٦٣ — ٧١) ، واجتازت نهر جيحون[٣] ، واجتاحت بخارى في اقاصي تركستان (٦٧٤)[٤] وفتحت من المدن مرو وبلخ وهراة ، وسواها من المدن التي قدر لها ان تصبح في ما بعد من ابرز مراكز العلم في الاسلام . وقد عادت الجيوش الى البصرة بكثير من الاسلاب التي غنمتها من قبائل الترك الجائلة في ما وراء جيحون . هكذا حصل اول اتصال بين العرب والترك — ذلك الاتصال الذي كتب له ان يلعب دوراً هاماً في تاريخ الاسلام بعد حين .

اما حركة التوسع غرباً ، فكان قائدها عقبة بن نافع ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، فاتح مصر وحاكمها[٥]. ففي سنة ٦٦٣ عين عمرو ابن خالته على إفريقيا (افريقيا حديثاً)[٦] ، فانشأ نافع هنالك مدينة القيروان (٦٧٠)[٧] وجعلها قاعدة

---

١) سيعالج هذا الموضوع في الفصل التالي .

٢) انظر ما سبق في ص ٣٠ — ٣١ من هذا الجزء .

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ في الفقرة عن اخضاع ما وراء النهر .

٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ البلاذري ، ص ٤٠٩ — ١٠ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٦ وما يتبع .

٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٣ ، ص ١٠ — ١١ .

٦) افريقيا الصغرى هي تونس الحديثة والاسم محرف عن الاصل اللاتيني « افريقا » ، اخذه العرب عن الرومان ، واطلقوه على القسم الشرقي من بلاد البربر ، واطلقوا لفظة « المغرب » على القسم الغربي فقط .

٧) « القيروان » : من لفظة فارسية الاصل هي « كادوان » . راجع بشأن حملة عقبة : ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ ، ١٩٤ — ٩٥ .

حربية في وجه البربر . وقد بنى جانباً من هذا المعسكر بحجارة من خرائب قرطاجة في الجوار القريب ، فغدت القيروان الوريثة الاسلامية لقرطاجة القديمة . وباعتناق البربر للاسلام دفعوا الى الجيش العربي ، واستخدموا في الحملات التي واصلت الزحف في شمالي افريقيا ، وعملت في ما بعد على فتح اسبانيا ؛ وبمساعدتهم استطاع نافع ان يخرج البيزنطيين من مناطق كثيرة من ساحل افريقيا الشمالي ولا يزال المكان الذي استشهد فيه نافع (٦٨٣) معروفاً بـ «سيدي عقبة» ، وهو يبعد بضعة اميال الى الجنوب الشرقي من بسكرة في الجزائر[١]. وقد غدا مدفنه مزاراً قومياً ومع ان زحف عقبة على شمالي افريقيا كان عملاً عسكرياً باهراً ، فانه كان — مثل نظيره في اواسط آسيا — قليل الغناء ، اذ لم يعقبه احتلال . لذلك كان لا بد من ان تعاد كرة الفتح ثانية هنا وفي ما وراء النهر[٢] .

مآثر اخرى لمعاوية

ثم ان هذه الحملات التي قام بها القواد ، على ضخامتها ، لم تشغلهم عن الشؤون المدنية . فقد تركت الادارة المالية في الدولة بايدي الخبراء الاكفاء من آل سرجون ، أسلاف القديس يوحنا[٣]. وغدا دخل بيت المال بحيث استطاع معاوية ان يضاعف اعطيات الجنود ، ويعزز الحصون القائمة على الحدود ، في وجه اعدائه الشماليين ، وان يحقق الكثير من مشاريع الزراعة والري في الحجاز ، وهو اجدب الاقاليم تربة ، وان يحمل العلويين والهاشميين على السكون عن طريق المخصصات المالية . وكان من الهاشميين العباسيون ، وهم اقرب الى النبي من بني امية ؛ وكان النبي نفسه اول من شرع مبدأ «تأليف القلوب»[٤]. وكان من مآثر معاوية ايضاً ان انشأ في الدولة الدواوين ، ووضع الاسس لمصلحة البريد[٥] .

---

١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٩١ .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل السادس والثلاثين عن اخضاع ما وراء النهر .

٣) راجع ص ٢٣ و ٢٤ من هذا الجزء .

٤) راجع القرآن ٩: ٦٠ .

٥) الفخري ، ص ١٤٨ ، قابل بما سيجيء في الفصل السادس والثلاثين .

ولقد كان لمعاوية، في شؤون الحرب والسلم، من رعاياه السوريين، مناصرون شديدو الاخلاص، من المواطنين الاصليين ومن العرب الوافدين علـــى السواء. وكان سواد العرب السوريين من اصل يمني لا حجازي، وكانوا — كما مر معنا — قد سبق لهم ان تنصروا. وكانت منهم ميسون زوجة معاوية؛ قيل انه طلقها اذ رويت لها ابيات عبرت فيها عن شديد حنينها الى الصحراء، وايثارها لزوج من طراز آخر، منها قولها:

لبيت تخفق الارياح فيـــه احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
واكل كسيرة في كسر بيتي احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل وادٍ احب الي من نقر الدفوف[١]

عين معاوية طبيبه المسيحي، ابن أثال، عاملاً عـــلى ولاية حمص. وهو تعيين منقطع النظير لمسيحي في التاريخ الاسلامي[٢]. وكان شاعر البلاط في عهده الاخطل[٣] من بني تغلب، وتغلب قبيلة مسيحية. وكان الموارنة واليعاقبة يرفعون اليه خصوماتهم الدينية ليقضي فيها بينهم[٤] وفي الرها عمل مراراً على ترميم كنيسة مسيحية هدمها الزلزال[٥]. بمثل هذه السياسة السمحة والشهامة الفائقة، استطاع معاوية ان يمتلك قلوب السوريين، وان يوطد مركز سورية في الامبراطورية الاسلامية

ولعل ابرز مزايا معاوية ما وصفه به مؤرخوه من الحلم[٦]— تلك اللباقة السياسية

١) أبو الفداء، ج ١، ص ٢٠٣.

٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦٥؛ يعتبر ولهوزن هذا الخبر ملفقاً، انظر: Wellhausen, p. 85

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٨ في الفقرة عن الشعر.

٤) هذا اول ذكر ورد للموارنة في تاريخ العرب؛ انظر: Wellhausen, p. 84; Th. Nöldeke, Z. D. M. G., vol. xxix (1877), pp. 82-92.

٥) Theophanes, p. 356.

٦) الفخري، ص ١٤٥؛ العقد، ج ٢ ص ٣٠٤؛ المسعودي، ج ٥، ص ٤٠؛ Lammens in *Mélanges*, vol. i, pp. 66-108.

التي مكّنته من ان يقوم دائماً بالعمل المناسب في الوقت المناسب . وقد عرّف هو هذه السياسة الفائقة بقوله : «لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها[1]» . وقد تجلت لباقته كذلك في الكتاب الذي ارسله الى الحسن يسأله فيه ان يتنازل له عن الخلافة ، قال : «اما بعد ، فانت اولى بهذا الامر مني لقرابتك ، ولو علمت انك اضبط له واحوط على حريم هذه الامة واكيد لبايعتك، فسل ماشئت» . وجعل مع الرسالة ورقة بيضاء ممهورة بتوقيعه[2] . وبفضل مزية الحلم كانت صلاته الشخصية بمعاصريه صريحة وودية ، فكان من شأن خصومه ان يدعوه اخا النغيل ، ويعلنوا ولاءهم لعلي حتى في حضوره . وربما عمد اصدقاؤه الى التعريض بعظم ردفيه ، والى مكايدته باسمه الذي معناه «كلبة عاوية» وبلقب اسرته «امية» وهو تصغير امة ، والامة : الجارية .

تعيين ولي العهد

وفي سنة ٦٧٩[3] عين معاوية ابنه يزيد خلفاً له ، وذلك قبل وفاته بستة اشهر (نيسان ٦٨٠) . وهو عمل لم يسبق له نظير في الاسلام . وكان يزيد قد نشأ في كنف امه في البادية ، لاسيما بادية تدمر ، حيث كانت قبيلتها المسيحية تتنقل[4] . وكان وهو في العاصمة ، يخالط المسيحيين ايضاً ، وكان بين رفاقه المفضلين القديس يوحنا ، وهو بعد علماني ؛ وكان منهم الاخطل شاعر البلاط . وقد مارس وهو فتى في البادية الصيد وركوب الخيل ، وتمرس بالحياة الخشنة ؛ اما في المدينة فقد انكفأ الى معاقرة الخمرة ونظم الشعر . وقد غدت البادية منذ ذلك العهد فما بعد «مدرسة

١) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٨٣ ؛ العقد ، ج، ص ١٠ .

٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ٥ .

٣) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٦٩ — ٧٣ ؛ قابل بالطبري، ج ٢، ص ١٧٤ — ٧٧ ؛ وابن الاثير ، ج ٣، ص ٤١٦ — ١٧ ، حيث قدم هذا التاريخ ثلاث سنوات .

٤) Lammens in *Mélanges*, vol. iii pp. 189-229.

في الخلاء» لانجال الامراء المنتمين الى الاسرة الحاكمة ، يلتمسون فيها الاستجمام ، ويستقيم لسانهم باللهجة العربية الخالصة[١]، الخالية من رطانة الاراميين، وينجون الى ذلك ، من الاوبئة التي كانت تجتاح المدن بين الحين والحين . ولعل تعيين معاوية لابنه يزيد ولياً للعهد ، كان قد تردد في خاطره زمناً ما . يستنتج هذا من ارساله له سنة ٦٦٩ في الحملة البحرية على القسطنطينيـــة[٢]، وغرضه من ذلك ان يزيل من اذهان رجال الدين ما قد يكون خامرها من عدم جدارته ونقص مؤهلاته . اما الآن ، وقد تيقن من تأييد العاصمة له ، فقد استقدم الوفود من الامصار ، واخذ منهم البيعة لابنه الاثير . واما وفود العراق غير الموالين ، فقد اخذهم بالتمليق او الاكراه او الرشوة[٣].

وكان هذا الحدث البارز فاتحة مرحلة جديدة في التاريخ الاسلامي . اذ ادخل على نظام ولاية العهد مبدأ الوراثة[٤]، فقـــد امن بعد النظام الذي جرت عليه اهم السلالات الاسلامية الحاكمة . وصار سابقة مكنت الخليفة الحاكم من ان يعيّن ، من ابنائه او انسبائه ، من يتوسم فيه الجدارة ، فيحقق له البيعة مقدماً . وكان من شأن هذا التعيين ان يعمل على تعزيز الاستمرار والاستقرار في الاحوال ، وان يثبط اطماع المطالبين بالسيادة ، والمنافسين في الحكم .

معاوية الملك النموذجي

ومع ان الذي اداه معاوية لقضية العرب والاسلام كان منقطع النظير ، فانه لم يلق ، ولا قواده « الطغاة » ، عطفاً من مؤرخي العرب المسلمين . وليس تعليل ذلك بالامر العسير ؛ فان معظم هؤلاء المؤرخين كانوا من الشيعة ، او من علمـــاء

---

١) العقد ، ج ٦ ، ص ٢٩٣ ، س ٣٠ .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٤ الفقرة « بلوغ القسطنطينية » .

٣) العقد ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ — ٩ ؛ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ — ٢٨ .

٤) بشأن ولاية العهد في خلافة الراشدين راجع ما سبق ، ص ٢٧ من هذا الجزء .

العراق وفارس، او من اعلام المدينة [١]. وكانوا، من حيث هم مؤرخون، يشاوف وجهة نظر الفقهاء المحافظين الذين انكروا على معاوية تحويل الخلافة (الحكم الديني) الى ملك (حكم مدني)[٢]. واعتبروه اول ملك في الاسلام. وقد كان العرب يكرهون هذا اللقب، ويكادون لا يطلقونه الا على سلاطين الاعاجم. وقد اخذوا عليه ايضاً انه احدث الكثير من البدع المنكرة، منها المقصورة[٣]. وهي خلوة في داخل المسجد للخليفة لا يصلي فيها سواه. ومنها القاء خطبة الجمعة وهو جالس[٤]، واتخاذ سرير الملك[٥]. على ان الحق الذي لا مرية فيه هو ان معاوية كان المثال المحتذى لمن تبعه من الخلفاء في علو الهمة، ومدى التسامح، وفرط الكياسة والدهاء. ومع ان الكثيرين منهم حاولوا ان يتأثروا خطاه[٦] فانّ القليلين منهم قاربوا النجاح في ذلك.

---

١) ان واحداً فقط من ممثلي علماء الشام بقي ذكره حياً هو ابن عساكر الدمشقي (١١٠٥ — ١١٧٦).

٢) ابن خلدون، المقدمة (القاهرة)، ص ١٦٩ وما بعد؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٧.

٣) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦٥، الدينوري، ص ٢٢٩؛ الطبري، ج ٢، ص ٧٠، س ٢٠؛ المبرّد، ص ٥٥٢؛ ولقد انشئت المقصورة من اجل المحافظة على حياة الخليفة وذلك بعد المحاولة الفاشلة التي استهدفت الخليفة وهو يؤدي فريضة الصلاة.

٤) كان عذر معاوية في ذلك انه اصبح في سنيه الاخيرة بديناً جداً كبير البطن.

٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٧؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، (القاهرة، ١٩١٤)، ص ٦.

٦) المسعودي، ج ٥، ص ٧٨؛ ولا يزال مدفن معاوية في مقبرة الباب الصغير في دمشق يزار الى الآن.

الفصل الرابع والثلاثون

الصلات العدائية بين العرب والروم

الحدود السورية

ان الحدود الفاصلة بين العرب والروم كانت في غضون العهد الاموي ، وفي العهد العباسي حتى منتصف القرن الثاني عشر ، السلسلتين المتقابلتين لجبال طورس. ولما كانت الدولتان العدوتان وجهاً لوجه ، على جانبي هذا الخط ، فقد سعت كل منهما في اول الامر ان تقصي الاخرى عنها بتحويل البقعة الفاصلة بينهما الى ارض مهجورة ؛ وكان لمعاوية فضل كبير في خلق هذه المنطقة الحرام[1]. الا ان بعض الخلفاء الامويين المتأخرين اتبعوا سياسة مغايرة ، كانت تهدف الى احراز موطىء قدم هنالك ، عن طريق ترميم بعض المدن ، وتحويلها الى حصون ، وبناء حصون جديدة . وهكذا ضرب الامويون نطاقاً من التحصينات امتدت من طرسوس في كيليكيا حتى ملطية ، في اتجاه الفرات الاعلى ، مشتملاً على اذنه والمصيّصة ومرعش . وكانت هذه المراكز مواقع استراتيجية اذ قامت عند تقاطع الطرق العسكرية ، او على مداخل الممرات الجبلية . وقد دعيت بحق « العواصم » ، واطلقت هذه التسمية بنوع اخص على المعاقل الداخلية الجنوبية ، في مقابل الحصون الخارجية الشمالية التي عرفت بـ « الثغور »[2]. وقد امتدت منطقة الثغور

---

١) البلاذري ، ص ١٦٤ – ٦٥ ؛ ورد اسمها « الضواحي » في الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣١٧ ، وفي ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

٢) الثغر ، وفي الاصل : الثلمة والشق ، قابل Guy Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, 1930), p, 128.

عبر التخوم السورية والعراقيـــة ، فعرف ما يحمي منها الارض السورية بالثغور الشامية ، وما يحمي العراق بالثغور الجزرية[١].

ولقد تقلصت منطقة الثغور في عهد العباسيين ، فغدا امتدادها من اولاس على البحر المتوسط عبر جبال طورس حتى سميساط على الفرات[٢]. ولما كانت طورس قائمة على المدخل الذي يجتاز جبال طورس ، وهو المعروف بابواب كيليكيا ، فقد غدت قاعدة هامة للحملات الحربية الكبرى عـــلى بلاد الروم ، وحشد فيها جيش وافر العدد من الفرسان والمشاة. وكان هنالك ممر آخر عبر جبال طوسوس ، ليس مطروقاً كالاول ، يمتد من مرعش الى أَبُلُسْتَين[٣] ، ويعرف بدرب الحدث . وجميع هذه الحصون قد انتقلت مراراً وتكراراً من العرب الى الروم ، ومن الروم الى العرب ، اذ كانت الحرب بين الجانبين سجالاً ، والنصر مداً وجزراً . ولقد قاتل العرب في العهدين الاموي والعباسي ، عن كل شبر من هذه الارض ، قتالاً ضارياً ، فكانت هذه الارض بحق «ارضاً حرماً». ولعلها قد ارتوت من دماء القتلى اكثر من اية بقعة اخرى في آسيا .

جرت عادة العرب في خلافة معاوية وعبد الملك ، وسواهما من الخلفاء ، في كل عام ، على القيام بحملتين على بلاد الروم : حملة كبرى في الصيف (الصائفة) . وحملة ثانية ، على نطاق اصغر ، في غضون الشتاء (الشاتية)[٤]. وكان الغرض منها احراز الغنائم ، كما كان غرض البدو من غزواتهم . لكن الاماني ربما امتدت بعيداً بحيث راودها الاستيلاء على بيزنطية جملة . على ان القسطنطينية كانت من طرسوس على نحو ٤٥٠ ميلاً خطاً مستقيماً ، ولم يستطع العرب في وقت من الاوقات ان يحرزوا

---

١) البلاذري ، ص ١٨٣ وما يتبع ، وص ١٦٣ وما يتبع .

٢) الاصطخري ، ص ٦٧ — ٦٨ .

٣) اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٩٣ — ٩٤ ؛ قابل : Le Strange, p. 133 وقد كان اسمها البيزنطي Ablastha ، واليوناني Arabissus ، والعربي المتأخر «البستان» .

٤) البلاذري ، ص ١٦٣ ، س ١ .

مركزاً ثابتاً لهم في اسية الصغرى . فقد وجهوا جل جهودهم العسكرية نحو الطريق الاسهل ، وسيروا حملاتهم شرقاً وغرباً ، حتى لكأن الطبيعة قد اقامت جبال طورس لتكون على الدوام حداً فاصلاً بين البلدين . ثم ان المناخ في اناطوليا كان بالغ القساوة بالنسبة الى ابناء الصحراء . لقد تجمدت اللغة العربية على منحدرات طورس الجنوبية ، ولم يقدر لها ان تغدو لسان بلد من بلدان اسية الصغرى ؛ ذلك ان سكان آسية الصغرى قد كانوا منذ اقدم العصور — عصور الحثيين — من غير العرق السامي .

بلوغ القسطنطينية

ولقد بلغت هذه الغزوات المتتابعة في آسية الصغرى آخر الامر الى العاصمة وكان ذلك في سنة ٦٦٨[1]، بعد ست وثلاثين سنة فقط من وفاة الرسول . وكانت تلك المرة الاولى التي وقعت فيها انظار المقاتلين العرب على المدينة العاتية ، القائمة على خليج البوسفور . وكان قائد هذه الحملة فضالة بن عبيد الانصاري[2]، وقد مضى فصل الشتاء في خلقيدونه(ضاحية القسطنطينية الآسيوية). فقاسى جنوده كثيراً من قلة المؤن، ومن داء الجدري وسواه من الامراض[3]. وفي ربيع سنة ٦٦٩ ارسل معاوية ابنه المتبذّل يزيد الى هذه الحملة بمدد ، على غير رغبة صادقة منه[4]، فعمل يزيد وفضالة على محاصرة القسطنطينية . وضربا نطاقاً حول سورها المرتفع

---

١) ابن الاثير، ج ٣، ٣٨١ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٦ ، قابل ص ٢٧، حيث ورد ذكر هجوم سابق على القسطنطينية قاده بسر بن ابي ارطاة .

٢) من الانصار وهم في الاصل مؤمنو المدينة الذين استقبلوا النبي واعانوه عقيب هجرته من مكة سنة ٦٢٢.

٣) الاغاني، ج ١٦ ، ص ٣٣ ؛ النويري ، نهاية الارب في فنون العرب (القاهرة ١٩٢٥) ج ٤ ، ص ٩١ .

٤) Lammens in *Mélanges*, vol. iii, pp. 306-12; J. Wellhausen, « Die Kämpfe der Araber mit den Romäern in der zeit der Umaijiden *Nachrichten von der Konigglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, philologisch-historische classe* (Göttingen, 1902) pp. 423 seq.

المثلث . ومع ان الاسطول قد ساعد ولا شك في تضييق الحصار ، فانهم اضطروا الى رفع الحصار في ذلك الصيف ، اذ تسنى لبيزنطية ان تظفر بامبراطور جديد ذي حزم وعزم هو قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥).

وفي الروايات الاسطورية لهذا الحصار ان يزيد ابدى من الشجاعة وشدة البأس ما استحق به ان يلقب بـ « فتى العرب ». وقد ورد في الاغاني[١] ان هذه الجولات كان بعضها للروم على العرب وبعضها للعرب على الروم ، وانه كان كلما لاح النصر في جانب علت اصوات التهليل والابتهاج من خيمة فيه ، اذ كانت احدى الخيمتين لابنة ملك الروم ، والاخرى لابنة جبلة بن الايهم[٢] الملك الغساني السابق ، وان الحمية ثارت في صدر يزيد فاندفع آملًا ان يظفر بالاميرة الغسانية . والحق ان بطل هذه الاساطير انما هو ابو ايوب الانصاري ، لا يزيد بن معاوية ، وابو ايوب هذا كان في ما سبق يحمل راية النبي في المعارك . وهو الذي استقبل النبي في بيته على اثر هجرته الى المدينة.[٣] والاخبار المنقولة تؤكد انه اصيب في اثناء الحصار بزحار ذهب بحياته ، وان قبره المزعوم خارج اسوار المدينة لم يلبث ان غدا مزاراً لنصارى الروم ، يقصدونه متى اصابهم جفاف ، لاعتقادهم بان الابتهال فيه الى الله يستنزل المطر ويجيء بالري[٤]. وقيل ان الاتراك العثمانيين عندما حاصروا القسطنطينية ، بعد ذلك بزمن ، عثروا على هذا القبر ، اذ هدتهم اليه اشعة عجيبة ، مما يذكرنا بقصة كشف الصليبيين الاول «للحربة المقدسة » في انطاكية[٥]. وقد اقيم عنده مسجد، فغدا رجل المدينة ولياً لدى ثلاث امم : العرب والروم والترك .

الحصار الثاني لمدينة القسطنطينية

لقد امتدت يد معاوية القوية عبر بلاد الروم مرتين الى داخل العاصمة

١) الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .
٢) راجع الجزء الاول ص ٤٥٠ .
٣) البلاذري ، ص ٥ .
٤) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .
٥) انظر . ما سيأتي في الفصل ٤٥ في الفقرة عن انطاكية — الايالة الثانية .

بالذات . وجاءت المرة الثانيـــة بعد الاولى بخمس سنوات . وعرفت بحرب السنوات السبع (٦٧٤ — ٦٨٠). اما المعارك البحرية بين الاسطولين فقد جرى معظمها في مضيق البوسفور وبحر مرمرة . وكان ممـــا اطال في امد هذه الاعمال الحربية احتلال العرب لشبه جزيرة بارزة من الشاطئ الاسيوي ، داخلة في بحر مرمرة ، دعاها الروم سيزيكس[١] ، وسماها العرب « جزيرة ارواد » وقد جعلها العرب مقراً لجيشهم الغازي ، يأوون اليها في الشتاء ، وينطلقون منها على الروم في الربيع والصيف . على ان اخبار هذه المعارك في المدونات العربية والبيزنطية متضاربة . وهي بذاتها شديدة التشويش والاضطراب . ولقد عزي الفضل في نجاة المدينة من يد العرب الى استخدام النار اليونانية . وهي اختراع جديد لمزيـــج شديد الاشتعال يقتدح فوق الماء وتحته على السواء. قيل اكتشفه لاجئ دمشقي اسمه كالينيكوس ؛ وكانت هذه اول معركة استخدم فيها هذا « السلاح السري ». وقد كتم الروم قاعدة تركيب هذه المادة عدة قرون. ثم تسنى للعرب ان يعرفوها لكنها ضاعت من بعدهم الى اليوم . ولقد اسهبت الاخبار اليونانيـــة في وصف الاضرار التي انزلتها هذه النار في سفن العرب ؛ وفيها ان السفن التي سلمت من النار تحطمت في عودتها الى الشام[٢] عام ٦٧٩

والى هذه الحقبة ترجع حملات الاسطول العربي عـــلى عدد من جزر بحر ايجه، ومياه المتوسط الشرقي . فجزيرة قبرس كانت قد وقعت في يدهم قبلًا ، وكانوا قد غزوا شواطئ رودس اولًا سنة ٦٥٤[٣]. ثم احتلوها حتى سنة ٦٧٢[٤]. وبعد عامين جرى احتلال اقريطش على ذلك النحو . اما صقلية التي قدّر لها ، في ما بعد ، ان تغدو ولاية زاهرة تابعة للدولة الاغلبية التي اجتاحتها من الشاطئ الافريقي ، فقد

---

١) Theophanes, pp. 353-4 ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ البلاذري ، ص ٢٣٦ .

٢) Theophanes, pp. 353 *seq.*

٣) انظر ما سبق ، ص ٥٢ من هذا الجزء .

٤) البلاذري، ص ٢٣٦ ؛ قابل : الطبري، ج ٢، ص ١٥٧ .

بلغها اسطول معاوية سنة ٦٦٤ ، ووالى عليها هجمات كثيرة[1]. وفي عهد سليمان بن عبد الملك نزل العرب في رودس ثانية ، واحتلوها حتى (٧١٧ – ١٨).

الهجوم الاموي الاخير على القسطنطينية

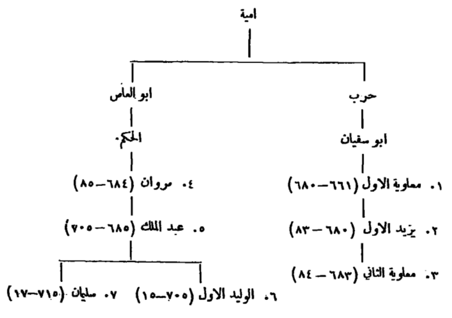
وفي السنوات الخمس والثلاثين التي عقبت وفاة معاوية، ساد العلاقات العدائية بين العرب والروم شيء من السكون. فان العهد القصير الذي تولى فيه ابنه يزيد (٦٨٠–٨٣) حفل بالفتن الاهلية[2]، ولم يتجاوز عهد حفيده معاوية الثاني ثلاثة اشهر. وكان معاوية الثاني هذا فتىً ضعيفاً سقيم الصحة . وكان والده يزيد غير خليق بتولي اعباء الحكم من بعد والده معاوية. على ان الحملات ضد الروم لم تستأنف حتى كان عهد سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ – ١٧)، وهو احد افراد السلالة المروانية من بيت امية[3]. وفي حديث شائع ان الخليفة الذي يقدّر له ان يفتتح القسطنطينية ينبغي ان يحمل

---

١) البلاذري ، ص ٢٣٥ .

٢) انظر الفصل ٣٥ من اول مأساة الحسين حتى ولاية الحجاج .

٣) تتجلى في الشكل التالي الصلة بين الفرع السفياني والفرع المرواني من الاسرة الاموية .



اسم النبي . ولما كان اسم هذا الخليفة سليمان ، وكان العرب يعتبرون سليمان الحكيم نبياً ، فقد اعتقد سليمان بن عبد الملك انه هو المقصود بالحديث . فحالما ولي الخلافة، واصل ارسال المعدات والامداد التي كان اخوه الاكبر الوليد قد بدأها . وكان اخ آخر له ، هو مسلمة، قد قاد حملة في اواخر عام ٧١٥ عبر بها آسية الصغرى، ظاهرتها في الوقت نفسه حملة بحرية ، ولم يتهيأ لاحداهما ان تحرز شيئاً من النصر . فبينما كان الاسطول عند كيليكيا ، في طريقه الى القسطنطينية ، نزل ملاحون بيزنطيون على الساحل السوري ، واحرقوا مدينة اللاذقية . وفي فريجيا تخطت الحملة العربية مدينة عمورية (اموريون، اسار قلعة حالياً) بعد حصار غير مجد ، لكنهم ظفروا في مسيرهم غرباً باحتلال پرغاموم وساردس . وتمكنوا اخيراً من اجتياز الدردنيل عند ابيدوس . وفي ٢٥ آب ٧١٦ حاصروا القسطنطينية من ناحية البر ، وتيسر لهم بعد اسبوعين ان يلقوا عليها الحصار من جهة البحر . فرسا الاسطول العربي بمحاذاة اسوار المدينة على طول شاطئ مرمرة والبوسفور . واقفل المدخل المؤدي الى « القرن الذهبي » بسلسلة كانت الحاجز الاول من نوعه في التاريخ .

كان هذا الهجوم على عاصمة الروم اشد هجوم قام به العرب عليها ، واوفر الحملات حظاً من عناية المؤرخين في تدوين اخبارها فقد وصل الى المحاصرين امدادات من الاسطول المصري . واستخدموا ضد الروم النفط وكثيراً من ادوات الحصار الثقيلة[١]. لكن المدينة صمدت بفضل دفاع الامبراطور ليو[٢] الايصوري (٧١٧ — ٤١) . وقد كان هذا في اول امره جندياً من اصل سوري وضيع ، ولد في مرعش ؛ وكان ، في ما قيل ، مولى للخليفة ، يجيد العربية واليونانية[٣]. وقد اشتد الحصار فغدا اهل المدينة في ضيق شديد، وطال الامر بالمحاصرين، واشتد ما قاسوه من النار اليونانية ، وقلة المؤن ، وغارات البلغاريين[٤]؛ وزاد في شقائهم انتشار وباء الطاعون،

---

١) العيون والحدائق ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٧١) القسم الثالث ص ٢٤ .

٢) في الاصول العربية : اليون ؛ الطبري ، ج ٢ ص ١٣١٥ .

٣) العيون، القسم الثالث، ص ٢٥.

٤) راجع .Theophanes, pp. 386-99 ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٧ — ١٩ .

وتفاقم قساوة الشتاء. لكن مسلمة صمد بعناد، ولم يفتّ في عزمه شيء من هذه المشقات، حتى ولا موت اخيه الخليفة سليمان. لكنه اضطر الى القفول عملاً بالامر الذي صدر اليه من الخليفـــة الجديد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٢٠)، فانسحب الجيش على الاثر في حالة يرثى لها. اما الاسطول — او ما بقي منه — فقد حطمته، في عودته، عاصفة عاتية، ولم يصل منه الى الشاطئ السوري — اذا صحت ارقام ثيوفانس — الا خمس سفن من اصل الف وثمانمئة؛ وكان هذا آخر العهد بالاسطول العربي. وقد ارتفعت اصوات التهليـــل في اوربا، واعتبر المؤسس السوري للاسرة الايصورية المخلص الذي انقذ اوربا المسيحية من حكم العرب المسلمين.

ولم يبلغ مدينة القسطنطينية بعد ذلك فاتح عربي الا مرة واحدة. غير ان ذلك لم يكن على يد الامويين. كان قائد هذه الحملة هارون الرشيد العباسي، وذلك سنة ٧٨٢[1]، عندما كان لا يزال ولياً للعهد. فقد رابطت جيوشه في سكوتاري (كريسوبوليس)، وفرضت الجزية على الامبراطورة ارين[2]. ولم تشهد «مدينة قسطنطين» احداً من غزاة المسلمين عند ابوابها الا بعد ذلك بنحو من سبعة قرون عندما ظهر عنصر جديد، من عرق تركي مغولي، خرج من اواسط آسيا، واعتنق دين العرب، وغدا رافع لوائه في العالم.

ومع ان الحملة الكبيرة التي تولاها مسلمة كانت حملة فاشلة، فقد الهبت خيال الاخباريين المسلمين، وخلفت وراءها الكثير من الحكايات الاسطورية. فمسلمة ربما بنى مسجداً في ابيدوس[3]، حيث رابط جيشه؛ ولعله احدث عين ماء هناك عرف

---

١) البلاذري، ص ١٦٨.

٢) الطبري، ج ٣، ص ٥٠٣ — ٥؛ ابن الاثير، ج ٦، ص ٤٤—٥.

٣) في النص العربي «ابدوس» ورد محرفاً الى «اندوس» في ياقوت، ج ١، ص ٣٧٤، وفي البلدان لابن الفقيه نشر دي غويه (ليدن، ١٨٨٥) ص ١٠٤، س ١؛ والى «اندلس» في المسعودي، ج ٢، ص ٣١٧،-قابل المسالك والممالك لابن خرداذبة، نشر دي غويه (ليدن، ١٨٨٩)، ص ١٠٤

في ما بعد باسمه ؛ اما ان يكون قد بنى مسجداً في القسطنطينية[١]، وفرض على الروم بناء بيت للاسرى العرب في جوار القصر الملكي ، ودخل كنيسة القديسة صوفيا على ظهر فرسه ، فمحض اختلاق . فلقد اورد المقدسي ، العالم الجغرافي السوري[٢] في مؤلفه الذي وضعه سنة ٩٨٥ معتزاً « ان مسلمة بن عبد الملك ، لما غزا بلد الروم ، ودخل هذا المصر ، شرط على كلب الروم بناء دار[٣] بازاء قصره في الميدان ، ينزلها وجوه الاشراف اذا اسروا » . وقد ورد ذكر عبد الله البطل ، قائد حرس مسلمة ، بعد ذكر سيده في المجد الاسطوري . وفاز بلقب بطل الاسلام . فبعد ان سقط في معركة ، وقعت سنة ٧٤٠[٤] ، غدا لدى الاتراك بطلاً قومياً عرف بالسيد الغازي ، واقيمت تكيةٌ على قبره في جوار اسكي شهر . بل ان ابناء الاقليم من نصارى الروم قد اجلّوه كذلك وقدّسوه ، فاذا هو مثال آخر « لمسلم لامع عمد النصارى الى اقامة تمثال له في احدى كنائسهم[٥] » .

المودة في لبنان

ولقد جرى على يد مسلمة ، قبل ذلك ، معارك صغيرة وجهها ضد قوم ذوي تاريخ غامض ، كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية الوعرة في شمالي سورية ، ويتمتعون

---

١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩٨ ؛ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، للدمشقي ، نشر مهرن (سانت بيترزبورغ ، ١٨٦٥) ، ص ٢٢٧ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، نشر بوبر ، ج ٢ ، القسم ٢ ، (بركلي ، ١٩٠٩ — ١٢) ، ص ٤٠ ، س ١٢ — ١٣ ، حيث يدعي المؤلف ان احد الفاطميين القى خطبة الجمعة في هذا المسجد . راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي . نشر امدروز (بيروت ١٩٠٨) ص ٦٨ ، س ٢٧ — ٢٨ .

٢) احسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

٣) عرفت هذه الدار بالبلاط ، وذكرت في ياقوت ، ج ١ ، ص ٧٠٩ ، كأنها كانت تستخدم لهذه الغاية في عهد سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ — ٦٧) ، انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن الحمدانيين . و « بلاط » من السريانية مأخوذة من اصل لاتيني او يوناني : Platea, Palatium .

٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧١٦ .

٥) المسعودي ، ج ٨ ، ص ٧٤ .

بقسط وافر من الحكم الذاتي . وكان هؤلاء المردة[١] - كما كانوا يدعون - يمدون الروم من معاقلهم في جبال اللكام وطورس بالرجال ، والجنود غير النظاميين ، فكانوا شوكة في جانب العرب . وقد عرفوا ايضاً بالجراجمة ، بالنسبة الى مدينتهم الكبرى « جرجومة » في امانوس (جبال اللكام)[٢] وكانوا بحكم موطنهم على الحدود العربية البيزنطية بمثابـة « جدار نحاسي »[٣] يصون آسية الصغرى من الفاتحين . وكانوا مسيحيين، لكن لم يتضح بعد هل كانوا من القائلين بالطبيعة الواحدة ، ام بالطبيعتين . اما من حيث هم ثائرون ومغامرون ومحاربون، فقد ادوا خدماتهم لأقوى مساوم . وعندما استولى المسلمون العرب على انطاكية ، تعهد هؤلاء الجراجمة للروم باعمال الاستكشاف، وحراسة الطرق التي تمر في جوارهم[٤]. وحوالي سنة ٦٦٦ ارسل ملك الروم شراذم منهم مع فرق من فرسانه وجيوشه النظامية ، دخلت صميم لبنان واحتلت فيه المواقع الحساسة، حتى حدود فلسطين. والغالب ان جبل لبنان في ذلك العهد كان قليل السكان[٥] ، كثيف الاحراج ، ولم يزدحم منه الا المنطقة الساحليـة . وقد التف حول هؤلاء المردة جماعات من الفارين والناقمين ، واختلطوا في لبنان الشمالي بالموارنة[٦]. وكان معاوية في ذلك العهد كثير المشاغل بشؤون العلويين وبمشاكل داخلية اخرى ، فوافق عـلى ان يؤدي الى امبراطور الروم فريضة سنوية كبيرة ، في مقابل امتناعه عن امداد هذا العدو الداخلي ، وعلى ان يؤدي هو بدوره اليهم ضريبة سنوية ايضاً . وينبغي ان لا يغيب عن الذاكرة ان العرب لم يستسيغوا يوماً حرب العصابات ، وقول ابن خلدون[٧] ان الفتوحات التي سهلت عـلى العرب انما هي التي جرت في الاراضي المنبسطة لا يعوزه المبرر التاريخي .

---

١) اللفظة من اصل سامي م رد بمعنى : الانتقاض ، والمقاومة . قابل الدينوري ؛ ص ١٣٠ س ٣ حيث اعيدت اللفظة خطأ الى اصل فارسي بمعنى « انسان » .

٢) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٥٥ ؛ البلاذري ، ص ١٥٩ .

٣) Theophanes p. 364.

٤) البلاذري ، ص ١٥٩ .

٥) قابل الجزء الاول ص ٨٩ - ٩٠ .

٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٩ حول الموارنة .

٧) المقدمة ، ص ١٢٥ .

وقد عمد معاوية، آخر الامر، الى نقل جماعة من اهل العراق الى الساحل البحري وانطاكية[١]، وكان ذلك سنة ٦٦٩. وانما فعل ذلك حتى يصدّع جبهة الجراجمة. وكان سبق له ان نقل اليها جماعات من فارس، ليحلوا محل الروم الذين نزحوا عنها على اثر الفتح الاسلامي. وانما كان ذلك تدبيراً وقائياً غرضه صد غزوات الروم البحرية. لذلك عمد الى حشد هؤلاء الوافدين في صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وبعلبك ومدن اخرى[٢].

ولقد سبب الجراجمة للمروانيين من المتاعب نظير ما سببوه للسفيانيين. فقبل عبد الملك بن مروان، حوالي سنة ٦٨٩، بالشروط التي فرضها يوستنيانوس الثاني، ووافق على ان يدفع للجراجمة اسبوعياً مبلغ الف دينار. وكان امبراطور الروم قد بث عصابات جديدة من هؤلاء الريفيين في سورية، مما حمل عبد الملك على اتباع الطريقة التي جرى عليها معاوية قبله[٣].

واخيراً تقرر في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ١٥) ان يقضي نهائياً على خطر المردة. فهاجم مسلمة هؤلاء العابثين بالامن في عقر دارهم ودمر عاصمتهم الجرجومة؛ فهلك بعضهم، وهاجر البعض الآخر الى اناطوليا، وانضمت جماعة ممن بقي منهم الى الجيش السوري، وقاتلوا تحت لواء الاسلام. وفي عهد يزيد الثاني، ساهموا في اخضاع الفتن التي نشبت في العراق[٤].

---

١) البلاذري، ص ١٦٢.

٢) اليعقوبي، ص ٣٢٧؛ قابل البلاذري، ص ١٤٨.

٣) البلاذري، ص ١٦٠، س ٨؛ المؤلف نفسه، انساب الاشراف، نشر Goitein، ج ٥، (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٥٥ — ٣٠٠.

٤) للاستزادة عن المردة راجع: Lammens in *Mélanges*, vol. i, pp. 14-22؛ المؤلف نفسه، تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، ج ٢ (بيروت، ١٩١٤) ص ٤١ — ٤٨.

الفصل الخامس والثلاثون

الفتن الاهلية : الشيعة ، اهل المدينة ، الفرس

مأساة الحسين

لم يجرؤ العلويون ، طيلة حكم معاوية الحازم ، على ان ينازعوه السلطان بعمل عدائي صريح . لكن ، ما ان تولى يزيد ، الشاب المستهتر من بعده (٦٨٠) ، حتى اتسع المجال امام الاحزاب المعارضة للعصيان والانتفاض . فقد عمد الحسين ، وهو الابن الاصغر لعلي وفاطمة ؛ مدفوعاً بنداءات العراقيين الملحة المتكررة ، الى المجاهرة بانه الخليفة الشرعي بعد اخيه الاكبر الحسن ، ووالده علي[١] . وكان الحسين ، الى ذلك الحين ، قد خالف رغبات مشايعيه العراقيين ، وآثر حياة العزلة في المدينة ؛ لكنه خرج ، في هذه الاثناء ، من عزلته ، وفارق مكة متوجهاً الى الكوفة ، وقد رافقته جماعة قليلة من اخلص اتباعه وادنى اقربائه بينهم نساؤه واهل بيته .

وكان عبيد الله بن زياد قد خلف والده في ولاية العراق . وزياد هو الداهية الذي اتخذه معاوية اخاً له[٢] بالحاقه بنسب ابيه ، ابي سفيان . وكان عبيد الله قد عرف بما نواه الحسين فاقام الخفراء في مراكز على جميع الطرق بين الحجاز والعراق . وفي كربلاء ، على ٢٥ ميلاً الى الشمال الغربي من الكوفة ، اطبقت دورية من فرسان عبيد الله على الحسين ؛ واذ أبى ان يستسلم ، هاجمه عمر بن سعد بن ابي وقاص — وسعد هو فاتح العراق الشهير ، ومؤسس مدينة الكوفة — باربعة آلاف مقاتل .

---

١) الفخري ، ص ٥٩ ؛ الدينوري ، ص ٢٤٣ — ٤٤ .

٢) انظر ما سبق في ص ٣٧ من هذا الجزء .

فدارت الدائرة على الحسين واتباعه ، اذ قتل الحسين وتمزقت جماعته البالغة مئتي رجل شر ممزق[1]. وارسل رأس حفيد النبي الى يزيد في دمشق ، فاعاده الى اخت الحسين وابنه ، وكانا رافقاه الى العاصمة ، فاخذاه ودفناه في كربلاء[2] .

وقد غدا اليوم الذي قتل فيه الحسين ، وهو العاشر من محرم سنة ٦١ هـ (١٠ تشرين الاول ٦٨٠) منذ ذلك الحين ، يوم حداد ونواح عند مسلمي الشيعة . ففي مثل هذا اليوم العاشر (عاشوراء) من كل عام ، تمثل مأساة النضال الباسل والحدث المفجع الذي وقع للامام الشهيد . وربما عمد فيه غلاة المتفجعين من الفرس ، حتى الوقت الحاضر ، الى السير في الطرقات شبه عراة ، والدم يتـــدفق من جراح احدثوهـــا في اجسادهم تدليلاً على صدق الولاء وشدة الاسف وانكار الذات . وقد غدت اسماء يزيد ، وعبيد الله ، وعمر ، منذ ذلك الحـــين . عند الشيعة اسماء ملعونة . في حين غدت كربلاء اقدس مكان في العالم ، ولا يزال الحج اليها عندهم اولى منه الى مكة . وفي كربلاء ولد المذهب الشيعي ؛ وكان دم الحسين ، على ما تبين في ما بعد ، افعل في اذكاء هذا المذهب حتى من دم علي نفسه . وصار الاعتقاد بامامة علي ، وخلافة ذريته من بعده ، في المذهب الشيعي ، نظير الاعتقاد بنبوة محمد عند اهل السنة[3]. وغدا «يوم كربلاء» و «ثأر الحسين» صيحة الاستنفار عند الشيعة . وهذا الاستنفار لم يفتر حتى ولا بعد المساهمة الفعالة التي حققتها الشيعة في تقويض العرش الاموي .

طامع آخر بالخلافة

على ان القضاء على الحسين لم يُنهِ النزاع على الخلافـــة ، لانه كان نزاعاً مثلث الاركان . ذلك ان عبد الله بن الزبير برز الآن الى الميدان ، وجاهر بعدائه ليزيد

---

١) قابل اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ؛ المسعودي ، ج ٥ ، ص ١٤٣ .

٢) ابن حجر ، ج ٢ ، ص ١٧ ؛ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ — ٣٥ ؛ ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٦٧ — ٧٥ ؛ الدينوري ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ .

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٨ في الفقرة عن الشيعة .

وكان ابوه من قبل قد زاحم علياً عليها بلا جدوى[١]. وكان عبد الله هذا ممن زينوا للحسين القيام بمغامرته الخطرة[٢]. فالتفت الحجاز حول عبد الله ، ونادت به امير المؤمنين . وعندها خف يزيد الى ارسال حملة تأديبية لاخضاع الثائرين في المدينة ، كان فيها عدد كبير من نصارى الشام . وكان قائد هذه الحملة مسلم بن عقبة ، وكان اعور ، وقد حمل على محمل لانه كان شيخاً طاعناً في السن[٣]. نشب القتال يوم ٢٦ آب سنة ٦٨٣ ، وكان النصر حليف الحملة السورية . وهناك مجال كبير للشك في ان يكون جنود الشام قد استباحوا مدينة الرسول ، وانتهكوا حرمتها[٤]، اما ابن الزبير فقد لجأ الى مكة على اعتبار أنها ذات حرمة . وان ارضها مقدسة . لكن مسلمة لحق به[٥] ، إلا انه مات في الطريق وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكوني ، وهو الذي اصاب باحد نباله الحسين في كربلاء اذ كان يستقي[٦]. ولم يتحرج الحصين من توجيه المنجنيق نحو الحرم[٧] . وقد اتصلت النار بالكعبة فاحترقت برمتها . وكذلك الحجر الاسود وهو من معبودات الجاهليين ، واقدس الاثار الاسلامية — فقد تصدع ثلاثة[٨]. وبدا بيت الله للانظار مجرداً من كسوته[٩] كأنه الثكلى قد شقت الجيب . وفي هذه الاثناء توفي يزيد ، وتوقف في ٢٧ تشرين الثاني ، القتال الذي كان قد نشب في ٢٤ ايلول ٦٨٣ .

---

١) انظر ما سبق في ص ٣١ من هذا الجزء .

٢) المسعودي ، ج ٥ ، ص ١٣١ ؛ الدينوري ، ص ٢٥٦ — ٥٧ .

٣) هو غير عقبة الذي سبق ذكره في ص ٣٨ من هذا الجزء .

٤) الدينوري ، ص ٢٧٤ — ٧٥ .

٥) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٠ .

٦) الطبري ، ج ١ ، ص ٢٢٢٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، الدينوري ، ص ٢٦٩ .

٧) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٧ — ٤٩ .

٨) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ — ١١ ؛ الانساب ، ج ٤ B ، ص ٥٢ ، ٥٥ ؛ راجع بشأن الحجر الاسود النبطي والكعبة الجزء الاول من ٤٢٨ .

٩) الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

كان موت يزيد ، وانسحاب الجيش السوري بصورة مفاجئة من الحجاز ، مما عزز وضع ابن الزبير في الحجاز . اذ نودي به ، على الاثر ، خليفة ، ليس في الحجاز وحدها وهي موطنه ، بل وفي العراق وجنوبي الجزيرة ، وحتى في بعض انحاء الشام. وكان قد عين اخاه مصعباً[1] نائباً عنه ووالياً له على العراق؛ وجعل على سورية الضحاك ابن قيس الفهري ، زعيم القيسية (عرب الشمال) ، وكانوا طالما قاوموا الامويين[2]. على ان اليمنية (عرب الجنوب) تحركوا على الاثر ومنهم الكلبيون ، وتداعوا الى نصرة الخليفة المسن الشرعي مروان بن الحكم[3] وانزلوا بالضحاك وجماعته هزيمة منكرة . كان ذلك في شهر تموز سنة ٦٨٤ في مرج راهط ، وهو سهل الى الشمال الشرقي من دمشق[4]. وكانت معركة مرج راهط «صِفّيناً» اخرى في مصلحة الامويين ، وهي آخر معركة وقعت في الفتنة الاهلية الثالثة في الاسلام . وكانت نظير سابقتها ، التي حدثت بين علي ومعاوية ، انما وقعت بداعي النزاع على الخلافة بين سلالتين[5]. اما النزاع القبلي بين بني قيس — الذين يمثلون النازحين المتأخرين من شمالي الجزيرة ، وبين بني كلب — المؤيدين المساندين للخلافة الاموية ، فقد طال امده، — وعجل في النهاية — بانهيار السلالة الاموية . وهذا النزاع لا يزال يتمثل ، في السياسة المعاصرة ، بين لبنان وسورية[6].

ان سحق الحزب المعارض للامويين في الشام قد بتر احد اطرافه ، اما الرأس فقد بقي حياً في الحجاز . وقد كانت خلافة ابن الزبير لا تزال ناشطة هنالك ، حتى ارسل اليها عبد الملك — اذ تولى الخلافة بعد ابيه مروان بن الحكم — واليه

---

١) اليعقوبي ١ ج ٢ ، ص ٣١٤.

٢) انظر ما سبق في ص ٣٢ من هذا الجزء .

٣) ورد ذكره في ص ٢٨ من هذا الجزء .

٤) العقد ، ج ٢، ص ٣٢٠ — ٢١ ؛ المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٠١ ؛ الانساب ، ج ٥ ص ١٣٦ وما يتبع .

٥) انظر ما سبق في ص ٣١ و٣٢ من هذا الجزء .

٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٩ في الفقرة عن الشهابيين .

ذا اليد الحديدية، الحجاج بن يوسف. وكان الحجاج في اول امره معلم صبيان في الطائف ، وكان نسبه في بني ثقيف ، وفيهم كان نسب المغيرة بن شعبة[١]. وكان الحجاج آنذاك في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان جيشه مؤلفاً – كما في الاخبار – من ٢٠ الف مقاتل[٢]. وقد ضرب حصاراً حول مكة استمر ستة اشهر ، ونصف الشهر ، اولها ٢٥ اذار ٦٩٢ . ولم يكن الحجاج اكثر تحرجاً في رمي المدينة المقدسة بالمنجنيق من زميله السابق الحصين . لكن ابن الزبير واصل النضال مدفوعاً بتحريض امه اسماء ، ابنة ابي بكر واخت عائشة ؛ لكنه كان قتالا يائساً[٣] انتهى بذبحه، وارسال رأسه الى الشام. اما جثمانه فقد صلب مقلوباً، ثم دفع الى امه[٤]. وهذه اولى حوادث الصلب في المدونات الاسلامية .

وبوفاة ابن الزبير زال العلم الاخير من اعلام الاسلام الاولين ، وتم الاخذ بثار عثمان ، وتحطمت قوة الانصار الى الابد . وبه سلم للاسلام وضعه الجديد ، وتهيأ للاعتبار السياسي ان يسود الاعتبار الديني في سلطان الدولة سيادة تامة . ومنذ ذلك الحين غدا مقام مكة والمدينة في التاريخ مقاماً ثانوياً ، واصبح تاريخ الجزيرة احفل بتأثير العالم الخارجي فيها منه بتأثيرها في العالم الخارجي . ذلك ان « الجزيرة الام » كانت قد استنفدت نفسها .

حزم الحجاج في عهد ولايته

عين عبد الملك الحجاج بن يوسف والياً على الحجاز ، فبقي حكمه فيه نحو سنتين ، تمكن خلالها من تهدئة الحالة ، ليس في الحجاز وحده بل في اليمن ، وفي اليمامة شرقاً.

---

١) راجع ما سبق في ص ٣٦ من هذا الجزء .

٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٤٥ – ٤٨ .

٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١٩ – ٢٠ ، الدينوري ، ص ٣٢١ ؛ الاغاني ، ج ٨ ، ص ٤٣ ، الانساب ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ – ٦٩ .

وفي سنة ٦٩٤ انيطت به مهمة، نظير مهمته هذه خطورة، ان لم تكن اشد واخطر، هي ولاية العراق.

وكان العراق لا يزال في حالة اهتياج وغليان. وكان اهله «على قول الحجاج اهل شقاق ونفاق»[١]. وقد كان فيه، فضلاً عن الزبيريين والشيعة، جماعة الخوارج[٢]، ثم اولئك العلويون الذين نادوا، بعد مقتل الحسين، باخيه من ابيه – محمد بن الحنفية – اماماً عليهم، ولقبوه بالمهدي[٣]. ولقد كان محمد هذا ابناً لعلي من غير فاطمة، وكني بابن الحنفية نسبة الى امه. وكان الخوارج اشد هؤلاء انتفاضاً. فجعلوا الشرق في غليان دائم. وقد انتشروا من العراق الى فارس، وانقسموا الى عدة فرق دينية متطرفة، واجتاحوا الاهواز وكرمان، واحتلوا الري، وحاصروا اصفهان، واعملوا النهب والسلب انى توجهوا.

والتقت حركتهم في فارس بحركة الموالي الناشئة[٤] المعارضة للعرب الاسياد. وهم الفرس الذين اعتنقوا الاسلام على اعتبار انه قد ساوى بين جميع الذين انضموا اليه، لكنهم سرعان ما اصيبوا بخيبة، وشعروا انهم كانوا مخدوعين.

وما كاد الحجاج يتلقى تعيينه الجديد، حتى غادر المدينة في كوكبة من الفرسان اجتاز بها البادية في مسالك وعرة، وبلغ الكوفة متخفياً، دون سابق اشعار. وكان ذلك من النهار عند الفجر الباكر، وقد حل وقت الصلاة. فدخل المسجد وفي صحبته اثنا عشر من راكبي الهجن، وقد جعل قوسه في كتفه وسيفه الى

---

١) المسعودي، ج ٥، ص ٢٩٥؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٢٦.

٢) راجع ما سبق في ص ٣٣ من هذا الجزء. وراجع بشأن منهجهم وآرائهم البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتي (القاهرة ١٩٢٤)، ص ٦٥ – ٩٤.

٣) المهدي في اوساط الشيعة زعيم عتيد يرد الاسلام الى حقيقته الاولى. ويكتسح العالم، وينشر السلام والرخاء في العالم قبل زواله؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 441.

٤) الموالي جمع مولى، وهو من اعتنق الاسلام من غير العرب وألحق نفسه ببعض قبائل العرب. ومنزلته هذه المضطربة قد جعلته دون المسلمين العرب. انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ في الفقرة عن الاصلاحات المالية، والفصل ٣٧ في الفقرة عن الموالي.

جانبه ؛ ووقف بالمصلين ، ثم نزع عمامته التي كانت تستر سحنتـــه العابسة ، والقى خطبة نارية غدت احب الخطب الى القراء ، واشد ما في الادب العربي وقعاً ؛ قال :

« انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

يا اهل الكوفة ! اني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، واني لصاحبها ، وكأني انظر الى الدماء ترفرف بين العمائم واللحى ... الا ان امير المؤمنين امرني باعطائكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة[١]. وقـــد امرتكم بذلك ، واجلت لكم ثلاثاً ، واعطيت الله عهـــداً ان لا اجد احداً من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه[٢]». ثم امر غلامه ان يقرأ عـــلى الجمع كتاب امير المؤمنين فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عبد الملك ، امير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم». ولكن احداً لم يرد السلام. فصاح الحجاج بالقارئ غاضباً « اسكت يا غلام » ثم قال : « يسلم عليكم امير المؤمنين فلا تردوا السلام ! اما والله لأؤدبنكم ادباً سوى هذا الادب ، اقرأ يا غلام الكتاب». ولما بلغ الى السلام، لم يبق احد في المسجد الا قال« وعلى امير المؤمنين السلام[٣]».

ان الوالي الجديد ، الذي القى عصا المعلم ليأخذ بسيف المقاتل ، كان عند قوله. لم يكن هنالك من عنق هو في مأمن من ان يطال. ولا رأس في عصمة من ان يُسحق. وقد كانت مهمته ان يعيد هيبة الدولة بين الرعية مهما كان الثمن، وقد حقق ذلك . فبلغ ما زهقه من ارواح الناس – على ما قيـــل – ١٢٠ الفاً . وقد وُجد منهم في السجون على اثر وفاته خمسون الفاً من الرجال ، وثلاثون الفاً من النساء[٤].

---

١) هو القائد الذي قام في اوائل عهد معاوية (٦٦٤ – ٦٥) بحملة بلغ بها حدود الهند وانتهب كابل وملتان ؛ قابل ما سيأتي في الفصل ٣٦ والفصل ٣٧ . وقد كان الحجاج صهره .

٢) المبرّد ، ص ٢١٥ – ١٦ ؛ قابل اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ؛ المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ . اما البيت في مستهل الخطبة فلشاعر قديم .

٣) المبرد ، ص ٢١٦ .

٤) ابن العبري ، ص ١٩٥ ؛ قابل المسعودي ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ ؛ وللمؤلف نفسه التنبيـــه والاشراف ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٣) ، ص ٣١٨ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٢٣ .

وهذه الارقام المبالغ فيها، الى جانب الاخبار المجسمة عن استبداده وضراوته، وشراهته وقلة تقواه، تشير الى ان ما تركه المؤرخون عنه – وجلهم من الشيعة، او من السنة الموالين للعباسيين – انما يمثـــل صورة مشوّهة عنه، لا رسماً صادقا له .

على ان القارئ المتأمل، لا يلبث ان يستشف من خلال السطور، الكثير من المآثر الادارية البناءة التي يعود الفضل فيها الى الحجاج . فقد اعاد فتح الاقنية القديمة المردومة، وشق اقنية جديدة، وبنى قاعدة جديدة هي مدينة واسط – دعيت كذلك لتوسطها بين مدينتي العراق الكبيرتين : البصرة والكوفة[1]. وقد وضع تشريعاً لاصلاح النقد والضرائب والمكاييل[2]. اما الاصلاح الذي تولاه في ما يتعلق بالقرآن، فلا يعدو – على ما يظهر – ادخال اصلاحات فرعية على الخط، تساعد على تفادي الخطأ في قراءة النص الكريم[3]. واما التدابير القمعية الشديدة، فسواء أكان على حق في اتخاذها ام لم يكن، فقد اعادت الاستقرار الى الكوفة والى البصرة، وطالما كانتا مهد العصيان والانتفاض . وكذلك هيبة الدولة فقـــد توثقت على طول الساحل الشرقي لجزيرة العرب ومنه عُمان – وكانت حتى انذاك ذات كيان مستقل . وكانت فارس داخلة في ولايته، فاستطاع قائده المهلب ان يقضي فعلاً على الازارقة، وكانوا اشد الخوارج خطراً على الوحدة الاسلاميـــة . والازارقة سموا كذلك تبعاً لزعيمهم الاول نافع بن الازرق، وكان من التطرف في تعليمه بحيث اعتبر كل من لم يكن خارجياً – حتى ولو كان مسلماً – من الملحدين، فاحل دمه ودم زوجته واولاده[4]. وكان الازارقة في هذه الاثناء قـــد بسطوا

---

١) ابن خلكان، وفيات الاعيان (القاهرة، ١٢٩٩)، ج ١، ص ٢٢١ ؛ الذهبي، دول الاسلام (حيدر اباد، ١٣٣٧)، ج ١، ص ٤٢ ؛ الطبري، ج ٢، ص ١١٢٥ .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ الاصلاحات المالية وغيرها .

٣) انظر ما سيأتي في آخر الفصل ٣٦ .

٤) الشهرستاني، الملل والنحل، نشر كورتن (لندن، ١٨٤٦)، ص ٨٩ – ٩٠ ؛ البغدادي، ص ٧٢ – ٧٦ ؛ الطبري، ج ٢، ص ١٠٠٣ وما يتبع .

سلطانهم ، بقيادة قطري بن الفجاءة . على كرمان[1] وفارس ، وسواهما من الاقاليم الشرقية . عـــلى ان قواد الحجاج ، في ما وراء فارس ، تمكنوا من الوصول الى وادي الاندلس ، كما سنرى في الفصل التالي . وقد كان اعتماد الحجاج في عاصمتـــه واسط على حامية من الجيش السوري قد وثق بها ثقة — هي نظير ولائه للامويين — لا تعرف الحدود .

١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٤ — ٨٥ .

الفصل السادس والثلاثون

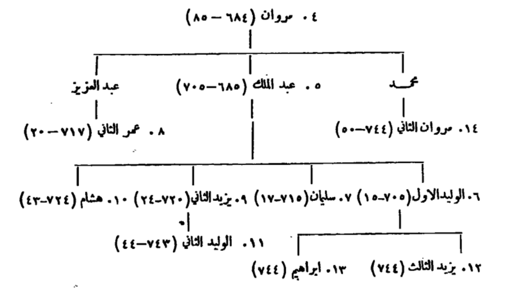
دمشق في أوج عزها

دمشق في اوج عزّها

ان السلالة الاموية في دمشق بلغت اوج عزها وسلطانها في عهد عبد الملك بن مروان وبنيه الاربعة[1]. ففي خلافة الوليد (٧٠٥—١٥) واخيه هشام (٧٢٤—٤٣) بلغت الامبراطورية الاسلامية اوسع حدودها، فامتدت من شواطئ المحيط الاطلسي وقمم البرنيه، حتى الاندلس وحدود الصين، فكانت تفوق باتساعها مساحة الامبراطورية الرومانية في اوسع حدودها. ولم يسبق للامبراطورية العربية قبل ذلك العهد، ولا تأتى لها بعده، ان تبلغ الى هذا المدى. ففي هذا العهد الزاهر

---

١) يمثل الشكل الشجري المثبت ادناه صلة النسب التي تجمع بين افراد الفرع المرواني من السلالة الاموية :



تمّ للعرب نهائياً اخضاع ما وراء النهر ، واعادة فتح شمالي افريقيا وتهدئة الاحوال فيها والاستيلاء من ثمّ على شبه جزيرة ايبيريا . وفي هذا العصر تحقق تعريب ادارة الدولة . فنقلت الدواوين الى العربية ، وضربت النقود بالعربية وحدها ، ونظمت مصلحة البريد ، وأنشئت المباني الضخمة نظير مسجد الصخرة في القدس ، وهو اقدس حرم في الاسلام بعد حرمي مكة والمدينة .

ان فتح سورية والعراق وفارس ومصر ، في عهد عمر وعثمان ، ختم الدور الاول من تاريخ الفتوحات الاسلامية ؛ وامتداد حدود السلطة الاسلامية في عهد معاوية الى خراسان وآسيا الوسطى شرقاً ، والى افريقيا غرباً ، توّج الدور الثاني[1] ؛ واخضاع ما وراء النهر اخضاعاً تاماً ، واجتياح وادي الاندلس في عهد عبد الملك ومن تلاه مباشرة ، كان ختام الدور الثالث .

اخضاع ما وراء النهر

ان اخضاع الاقاليم التي اصبحت الآن تدعى تركستان وافغانستان وبلوخستان وبنجاب اخضاعاً نهائياً انما تمّ على يد قوّاد الحجاج بن يوسف . وكان احد هؤلاء القواد عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ، وكان حاكماً على سجستان ، وهو سليل ملوك كندة الذين حكموا في اوسط الجزيرة العربية . وكانت شقيقته قد تزوجت احد ابناء الحجاج . ففي سنة ٦٩٩ — ٧٠٠ زحف عبد الرحمن على الزنبيل[2] ، وهو الملك التركي (او الايراني ؟) في كابل (افغنستان) وكان قد امتنع عن اداء الجزية المعتادة . وكانت الاسرة الحاكمة والجيوش في هذه الممالك وسواها من ممالك آسيا الوسطى من عرق تركي ، لكن الرعايا كانوا في الغالب ايرانيين . وكان جيش عبد الرحمن وافر العُدد بحيث دعي «جيش الطواويس» . لكن حركة العصيان التي قام بها عبد الرحمن في وجه الحجاج ، وضعت حداً لمعاركه المظفرة ، وعزل من

---

١) انظر ص ٣٨ من هذا الجزء .

٢) Wellhausen, *Reich*, p. 144, n. 3 ؛ وفي الطبري محرفاً : رتبيل ، ج ٢ ، ص ١٠٤٢ وما بعد ؛ التنبيه ، ص ٣١٤ .

القيادة . وفي سنة ٧٠٤ القى بنفسه من اعلى برج هناك ، فسقط جثة هامدة[١]. وهي من اندر ما دوّن من حوادث الانتحار في الاسلام .

على ان حروب عبد الرحمن لاتعد شيئاً بالقياس الى ما تم عـــلى يد قتيبة بن مسلم الباهلي . وكان الحجاج قد اشار بتعيينه حاكماً على خراسان سنة ٧٠٤، على ان تكون تابعة لولايته[٢]. فاتخذ قتيبة مدينة مرو قاعدة له، قاد منها ، في مدى نحو عشر سنوات ، عدداً من الحملات الحربية البارعة الموفقة ، اجتاح بها ما وراء النهر . هذا النهر هو نهر جيحون[٣] الذي كان حتى ذلك الزمن الحد التقليدي ، لا التاريخي، بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية وتلك الناطقة بالتركية . وفي هذا العهد ، وهو عهد الوليد ، وضع المسلمون في هذه الاصقاع قدماً ثابتـــة . وكان في جيش قتيبة اربعون الف مقاتل عربي من البصرة ، وسبعـــة آلاف من الكوفة ، وسبعة آلاف من الموالي[٤]. ففي الحملة الاولى استرد قتيبة القسم الادنى من طخارستان وعاصمتها بلخ[٥]. وبـــين سنة ٧٠٦ و ٧٠٩ اكتسح بخارى من بلاد الصغد والمنطقة المجاورة لها . واستولى بين ٧١٠ و ٧١٢ عـــلى سمرقند (من بلاد الصغد كذلك) وخوارزم (خيوا حديثاً) الى الغرب . وفي غضون العامين التاليين قاد حملة الى مناطق نهر سيحون لاسيما فرغانة ، واقام فيها حكماً اسلامياً اسمياً ، في ما هو معروف اليوم بخانات آسيا الوسطى . ولقد كان الكثيرون من سكان تلك الاصقاع على البداوة ، فكان الوضع العام هنا ، مثله في شمالي افريقيـــا والمناطق الاخرى : غزوات تتبعها غزوات ، وجزية تفرض ، فامتناع عن اداء الجزية، فهجوم ، فتسليم ومصالحة .

---

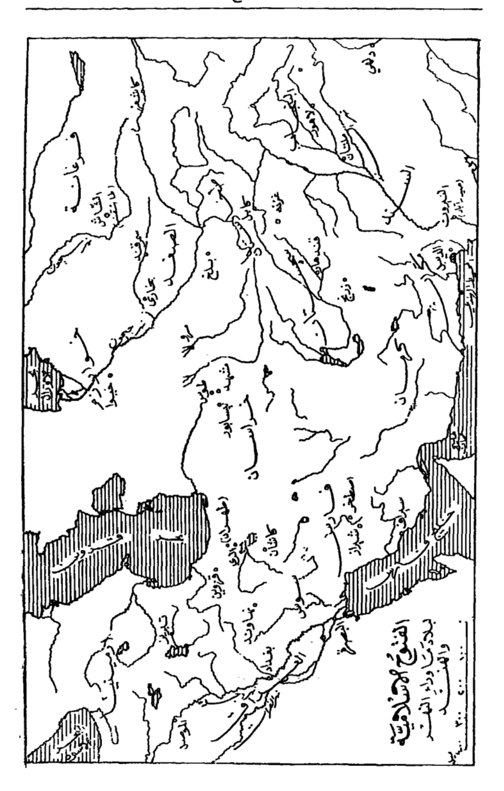
١) الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٣٥ .

٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ؛ [illegible]

٣) آمو داريا حديثاً ، وجيحون هو الاكسوس ، اما سيحون فهـــو جاكسارتس ويعرف بسرداريا اليوم . وقد ورد اسم كل من النهرين في سفر التكوين ٢ : ١١ و ٢ : ١٣ .

٤) البلاذري ، ص ٤٢٣ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٩٠ — ٩١ .

٥) البلاذري ، ص ٤١٩ .


الفتوح الإسلامية
بلاد ما وراء النهر
والهند

لقد كان عبور نهر سيحون حدثاً تاريخياً حاسماً، لان هذا النهر، لا نهر جيحون، هو الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الايرانيين والترك. وكان عبوره اول تحدٍّ مباشر من العرب للشعوب المنغولية، ومن الاسلام للديانة البوذية. وكان للبوذيين صوامع في بخارى وبلخ وسمرقند[١]. وقد وقع قتيبة في سمرقند على عدد من الاصنام فعمد الى احراقها بيده. ونتج عن ذلك اقبال الكثيرين من عبدتها على اعتناق الاسلام، ممن كانوا يظنون ان من اغضبها هلك للحال. وكذلك في بخارى، فان معابد النار قد هدمت، وسرعان ما غدت بخارى وسمرقند وخوارزم مراكز لتعليم الاسلام في اسيا الوسطى، ولم تلبث ان تحولت الى مراكز للعلوم العربية، على نحو ما كانت مرو ونيسابور في خراسان، والبصرة والكوفة في العراق.

استلحاق ما وراء النهر

ولقد استأنف الاعمال الحربية التي بدأها قتيبة قائده نصر بن سيار[٢] ومن خلفه من القواد. وكان هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٤٣) قد عينه حاكماً على بلاد ما وراء النهر؛ فجعل قاعدته في بلخ ثم في مرو؛ ومن مرو اضطر الى اعادة فتح (٧٣٨ – ٤٠) معظم المنطقة التي اجتاحها قتيبة قبله، والمظنون ان قتيبة كان قد اكتفى باقامة حامية من العرب تتولى جباية الضرائب، وتعمل، بالتعاون مع الحكام الاهليين. اما كاشغر في تركستان الصينية، التي زعموا ان قتيبة كان قد اكتسحها (٧١٥)[٣]، فلم يبلغها العرب الا في هذا العهد. وعندما رقي الوليد الثاني

---

١) كان حاكم الصغد يقيم في سمرقند، ويحمل لقباً فارسياً هو «الاخشيد». وكان هذا لقباً لملك فرغانة ايضاً. وكان حكام هذين البلدين، وحكام خوارزم والشاش يلقبون كذلك بالقاب فارسية (نظير: خداه، وشاه، ودهقان). وكانوا في ما يظن يتصلون عن طريق الزواج بالخان والخاقان من امراء الترك القريبين. على ان العرب اطلقوا لفظة «ترك» على كل من لم يكن فارسياً من رعايا المنطقة الواقعة الى الشمال الشرقي من نهر جيحون. انظر ابن خرداذبه، ص ٣٩ – ٤٠؛ اليعقوبي؛ ج ٢، ص ٤٧٩.

٢) ابن الاثير، ج ٤، ص ٤١٦؛ W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 2nd. ed. (Oxford, 1928), p. 192.

٣) ابن الاثير، ج ٥، ص ٢.

سدة الخلافة (٧٤٣) استدعى نصر بن سيار الى دمشق ، وامره ان يحضر معه جميع انواع طيور الصيد ، وكافة اصناف ادوات العزف . لكنّ الوليد اغتيل ونصر لا يزال في طريقه اليه . وقد تمكن القواد الذين خلفوا نصراً حتى سنة ٧٥١ من ان يحتلوا الشاش (تاشكند)، الى الشمال الشرقي من سمرقند، فتم للمسلمين بذلك توطيد سيادتهم في آسيا الوسطى ، ولم يعد لهم من بين السلطات المحلية اي منازع . وهكذا ضم ما وراء النهر بكامله ونهائياً الى ممتلكات الخلافة المترامية الاطراف . الا ان المحاولات التي قاموا بها على بلاد الخزر ، ما بين بحر قزوين والبحر الاسود، في سنة ٧٣٧ وما بعد، ما آلت الى شيء[١]. وقد كان الخزر من اصل جرماني (هوني) لكنهم تهودوا في ما بعد .

فتح العرب في الهند

وفيما كان قتيبة ونصر يواصلان حملاتهما الناجحة في الميدان الشرقي ، كان قائد آخر يقود حملته في اتجاه جنوبي داخل بلاد الهند . هذا القائد هو محمد بن القاسم الثقفي ، صهر الحجاج . وكان جيشه يشتمل على ستة الاف جندي من السوريين[٢]. وقد تيسر له في سنة ٧١٠ ان يخضع مكران ، ويواصل الزحف على ما يعرف اليوم ببلوخستان . واستطاع ان يجتاح بين سنة ٧١١ و ٧١٢ السند ووادي الاندس الادنى ودلتاه. واحتل هنالك مرفأ الديبل حيث وجد صنماً (بدّا) لبوذا «طوله في السماء اربعون ذراعاً»[٣]. وسار من ثمّ على النيرون (حيدر اباد حديثاً) واحتلها كذلك . وفي السنة التالية امتدت الفتوحات شمالاً حتى ملتان في جنوبي البنجاب وعند سفح جبال حملايا. وكانت ملتان مركزاً لمعبد بوذي قومي وقع بيد الغزاة ، وكان فيه جمع غفير من الحجاج ورجال الدين سيقوا على اعتبار انهم اسرى حرب . وكانت النفائس التي ظفر بها العرب من هذا المعبد كثيرة الى حد

١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ؛ المسعودي ، ج ٢، ص ١٩٨ وما بعد.

٢) البلاذري ، ص ٤٣٦ .

٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

عرف معه هذا المعبد «ببيت الذهب»[1]. وغدت ملتان لسنين كثيرة قاعدة الهند العربية ، وحصن الاسلام الامامي في تلك الاصقاع .

الحملات الحربية على البيزنطيين

كان عبد الملك في اوائل خلافته قد شغـــل باخماد ثورة ابن الزبير ، فاضطره ذلك الى ان يوافق على دفع الجزية (٧٠/٦٨٩ — ٩٠) «لطاغية الروم»، ولأحلافه المسيحيين من الجراجمة الذين كان امرهم آنئذ قد توثق في لبنان[2]. لكنه استطاع ، بعد ذلك بقليل ، ان يثير الحرب على اعداء العرب الدائبين . وتمكنت جيوشه في سنة ٦٩٢ من ان تهزم جيوش يوستنيان الثاني عند سباستبوليس في كيليكيا . ثم استأنف الوليد هذه الحملة بعـــد عبد الملك وظفر جيشه سنة ٧٠٧ بدخول الطوّانة ، وهي اعظم حصون كبدوكية . وبعد ان استولى على ساردس وبرغامس. خلا امامه الطريق الى القسطنطينية ، وتمكن من ثمّ مسلمة بن عبد الملك ، قائد سليمان ، من ان يلقي حولها حصاره المشهور بين آب ٧١٦ وايلول ٧١٧ — ذلك الحصار الذي لم يجد شيئاً[3]. اما ارمينيا التي كان العرب قد اجتاحوها (٦٤٤—٤٥) في عهد ولاية معاوية على سورية ، فكانت قد انتفضت اثناء فتنة ابن الزبير ، فعمد عبد الملك الى اخضاعها ثانية[4].

حملة شمالي افريقيا

وكذلك افريقيا ، فقد دعت الحاجة الى اعادة فتحها في هذه الآونة . ان سيطرة عقبة[5] قائد معاوية على هذه المنطقة كانت من الضعف بحيث اضطر القائد

---

١) البلاذري ، ص ٤٤٠ .

٢) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء .

٣) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .

٤) البلاذري ، ص ١٦٠ .

٥) راجع ص ٣٨ — ٣٩ من هذا الجزء .

الذي خلفه الى الجلاء عنهـا . لكن الحسن بن النعمان الغساني (٦٩٣ — ٧٠٠) استطاع ، في غضون خلافة عبد الملك ، ان يصفي مقاومة البربر ويطيح بسيادة البيزنطيين . وتمكن بعد الاستعانة باسطول اسلامي من ان يطرد الروم من قرطاجنة وسواها من الثغور . ثم استأنف زحفه على حلفائهم البربر ، وعلى رأسهم آنئذ كاهنة[١] ، لها عليهم سلطان عظيم . فهزمها وتركها قتيلة في جبل اوراس (الجزائر) قرب بئر ما زالت تسمى باسمها ، هي بير الكاهنة .

تولى الحكم بعد حسان ، موسى بن نصير الشهير . وفي عهده انسلخت هذه الاقطار عن ولاية مصر ، وصارت ذات حكومة خاصة قاعدتها القيروان ، وغدت تابعة للخلافة في دمشق رأساً . ولد موسى بن نصير قرب بيروت . وكان ابوه اسيراً من نصارى سورية ، وقع في يد خالد بن الوليد مع جماعة من الصبيان ، كانوا يدرسون الانجيل في بيعة في عين التمر في العراق[٢] . والى موسى هذا يرجع الفضل في توسيع حدود هذا الاقليم غرباً حتى طنجة .

ان الفتوحات التي تمت على يد حسان وموسى بن نصير ادخلت البربر[٣] نهائياً في حوزة الاسلام . ولقد كان معظم هؤلاء البربر ، المقيمين آنذاك في المنطقة الساحلية الخصبة ، على النصرانية . وكان قد ازدهر فيهم ترتليان وقبريانوس واوغسطينوس ، وسواهم من القديسين والامراء في عهد الكنيسة الاول . ولما كان السكان البيزنطيون والرومان قبلهم قد تجمعوا في المدن الساحلية ، فقد بقيت حضارتهم غريبة بالنسبة الى هؤلاء البدو ، او شبه البدو ، من اهالي افريقيا الشمالية . وكان البربر اكثر نزوعاً نحو العرب المسلمين . فهم حاميون واذاً فهم الصق نسباً بالعرب

---

١) البلاذري ، ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٧ ، ص ٨ — ٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، نشر دوزي (ليدن ، ١٨٤٨) ، ج ١ ، ص ٢٠ — ٢٤ .

٢) يعتقد غير هؤلاء ان موسى كان لخمياً ، يروي سواهم انه يمني . قابل البلاذري ، ص ٢٣٠ ؛ ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٤ .

٣) لفظة بربر تتحدر في الراجح من اللفظة اللاتينية : barbari (من اصل جرماني) ، اطلقها اهل المدن الافريقية التي حكمها الرومان وبثوا فيها الحضارة اللاتينية على جميع الرعايا الاهليين الذين لم يتخذوا اللاتينية لساناً لهم .

السامين. يضاف الى ذلك انهم كانوا والعرب في مستوى واحد من التقدم الحضاري. هذا فضلاً عن ان اجتياح الفينيقيين القدماء لهذا القطر، واستعمارهم له، عمل على تمهيد الطريق لتعريبه. وقد جاء في اخبار العرب ان معظم البربر من اصل كنعاني[١]. وقد بقيت اللغة القرطاجنية، وهي كالعربية لغة سامية، متداولة في المواطن المنعزلة حتى قبيل الفتح الاسلامي. ومن هنا يسهل علينا تعليل السرعة العجيبة التي تم بها نهائياً تعريب البربر وحملهم على الاسلام. فما ان قهروا حتى جندوا، وتألفت منهم حملات جديدة، انضوت تحت راية الاسلام في سيره المطرد.

فتح الاندلس

ان اجتياح افريقيا الشمالية حتى شاطىء المحيط الاطلسي[٢] مهّد السبيل للاستيلاء على اوروبا الجنوبية الغربية. وقد تحققت هذه الخطوة الخطيرة الاولى في سنة ٧١٠، عندما اقدم جيش من جيوش العرب، لاول مرة، على اجتياز المضيق البالغ ثلاثة عشر ميلاً. ولئن كان الغرض المباشر مجرد الغزو، فان الغزوة لم تلبث ان تحولت الى فتح اكتسح شبه جزيرة ايبيريا برمتها[٣]، وتلاه احتلال كلي او جزئي استمر نحواً من ثمانية قرون. كانت حملة العرب هذه على القسم الجنوبي الشرقي من القارة الاوروبية آخر حملاتهم، واروع ما قاموا به من الفتوحات؛ وهي تمثل غاية ما بلغته حركة التوسع في الجبهة الافريقية الاوروبية، كما يمثل فتح تركستان اوج التوسع في الجبهة الآسيوية.

طارق يعبر المضيق

ان الحملة التي قام بها طارق فريدة في بابها، باعتبار ما اتصفت به من سرعة العمل وكمال الظفر، ليس في تاريخ العرب فحسب، بل وفي تاريخ اوروبا في العصر

---

١) الطبري، ج ١، ص ٥١٦؛ المسعودي، ج ٣، ص ٢٣٩ — ٤٠؛ ابن الفقيه، ص ٨٣. راجع الجزء الاول ص ١١٠ — ١١١.

٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٠٣ - ٥.

٣) دعاها العرب الاندلس، والاسم من لفظة فندال وهو اسم القبائل الجرمانية التي سبق ان اجتاحت اسبانيا.

الوسيط . ففي تموز سنة ٧١٠ نزلت فرقة مؤلفة من اربع مئة جندي من المشاة ومئة من الفرسان، بقيادة مولى لموسى بن نصير اسمه طريف، في شبه جزيرة صغيرة تكاد تكون اقصى مناطق القارة الاوروبية الى الجنوب . ولم يتضح بعد هل كان طريف هذا من العرب ام من البربر[١] . لكن شبه الجزيرة قد حملت اسمه عهدئذ ، ولا تزال الى الآن تعرف بجزيرة طريف (تريفا بالاسبانية)[٢] . ان نجاح طريف من جهة ، واضطراب الوضع في المملكة القوطية الغربية في اسبانيا من جهة اخرى ، كانا مما اغرى موسى بن نصير سنة ٧١١ ، بان يرسل اليها مولى له آخر ، اسمه طارق ابن زياد ، على رأس سبعة آلاف مقاتل ، كان اكثرهم نظيره من البربر ، فنزل بهم قرب الصخر العاتي الذي خلّد اسمه منذ ذلك العهد ، فعرف بجبل طارق[٣] . اما السفن التي استخدمها ، فالاخبار التاريخية تؤكد ان الذي قدمها له شخص يكاد يكون اسطورياً هو جوليان[٤] ، امير سبتة[٥] البيزنطي . واما الدافع لهذه المعونة فغير واضح ، والرواية التي ترجع السبب الى اعتداء رودريك ، مغتصب العرش القوطي ، على ابنة جوليان الفاتنة ، ليست حرية بالثقة . والحق ان حكاية الفتح برمتها ، قد زينها الاخباريون العرب والاسبان على السواء ، وتزيدوا فيها ما شاء لهم التزيد .

نصر حاسم

وفد طارق بجيشه ، وقد عززه بالامداد حتى بلغ ١٢ الف مقاتل ، وقابل جيش

---

١) قابل : المقّري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، نشر دوزي وريت (ليدن، ١٨٥٥) ج ١ ، ص ١٥٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٧ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ اخبار مجموعة في فتح الاندلس، نشر لافونت الكنترا Lafuente y Alcantara (مدريد، ١٨٦٧) ، ص ٦ .

٢) اورد ذلك الادريسي في «ذكر الأندلس» (وهي مقتبسات من نزهة المشتاق) نشر دون جوزيف كونديDon Josef A. Conde (مدريد ، ١٧٩٩)، ص ٢١، ٣٥، ٤٤ .

٣) الادريسي ، ص ٣٦ .

٤) ورد هذا الاسم أليان في البلاذري ، ص ٢٣٠ ، ويُليان في أخبار مجموعة ، ج ١، ص ٤ ؛ وابن عذاري، ج ٢ ، ص ٦ ؛ والمقّري ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، وابن عبد الحكم، ص ٢٠٦ ؛ ويوليان في ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ . ولعل اسمه الحقيقي أربان ، او أليان .

٥) الاسم من اللاتينية اصلاً : septem اي سبعة ؛ الادريسي، ص ١٢ .

رودريك عند مصب نهر وادي بكة[١]، على ضفة ضحضاح البحيرة. على ان خيانة وقعت في معسكر القوط، كان قد دبرها بعض انسباء الملك المخلوع، هو ابن غيطسة او غيطشة، ساعدت على هزيمة الجيش الاسباني الذي بلغ ٢٥ الفاً. وفي هذه المعركة فُقد رودريك[٢] نفسه ولم يسمع شيء عنه بعد ذلك.

ولقد آلت هذه المعركة الى نصر حاسم، اذ استمر بعدها زحف المسلمين في سائر نواحي شبه الجزيرة، بدون توقف. اما طارق فقد سار بالقسم الاكبر من جيشه نحو العاصمة طليطلة، وفي طريقه ارسل بعض الفصائل لاخضاع المدن المجاورة التي مر بها. ولقد مر جيشه بمدينة اشبيلية، وكانت منيعة الحصون، وبلغ قرطبة — عاصمة المسلمين الزاهرة في ما بعد — فسقطت على اثر خيانة نسبت الى راعٍ، قيل انه دلّ العرب على صدع في سورها[٣]. إما مالقة فلم تقاوم، واما طليطلة فقد سلمها بعض اليهود من سكانها. وكان ذلك في اواخر صيف ٧١١. وفي اقل من نصف سنة غدا القائد البربري سيداً على نصف اسبانيا، وقد استأصل مملكة باسرها.

موسى في اثر طارق

وفي شهر حزيران من العام التالي جهّز موسى ابن نصير جيشاً من العرب والسوريين[٤] بلغ عشرة آلاف جندي، وسار بهم على جناح السرعة الى ساحة الحرب. ذلك لانه لم يرق له ان يكون كل المجد، وجميع الغنائم من نصيب قواده. على انه استهدف في سيره المدن التي حاد عنها طارق، وفي طليطلة او في

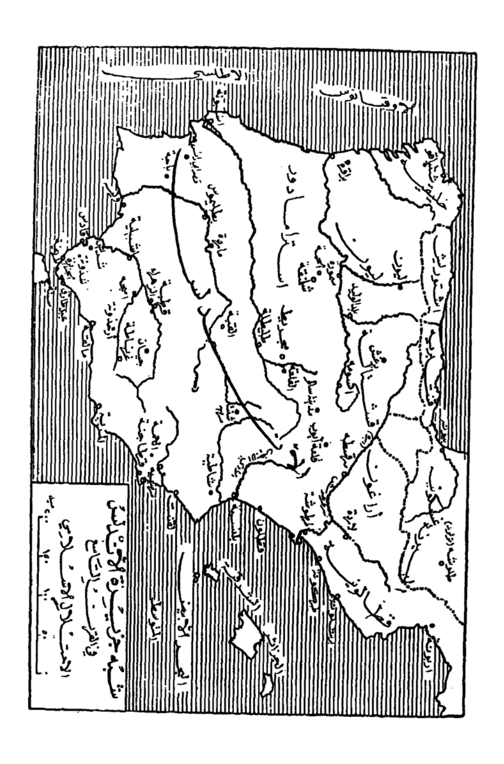
---

١) حرف بالاسبانية الى Guadilbeca فالتبس بـ Guadelete. Cf. Stanley Lane-Poole and Arthur Gilman, *The Moors in Spain*, (New York, 1911), pp. 14, 23.

٢) حرفه العرب الى لذريق، لزريق، روذريق. المقري، ج ١، ص ١٦٠، ١٦١؛ ابن عبد الحكم، ص ٢٠٦؛ ابن عذاري، ج ٢، ص ٨؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١١٧؛ اخبار مجموعة، ص ٨؛ المسعودي، ج ١، ص ٣٥٩.

٣) ابن عذاري، ج ٢، ص ١٠ — ١١؛ اخبار مجموعة، ص ١٠ قابل المقّري، ج ١، ص ١٦٤ — ٦٥.

٤) الطبري، ج ٢، ص ١٢٥٣.



جوارها ، لحق بعبده السابق، وجلده وقيّده بالاغلال ، لانه ابى الامتثال لامر كان اصدره اليه ، في المراحل الاولى من حملته هذه ، بان يتوقف[١] . ثم استأنف زحفه المظفر ، وسرعان ما بلغ سرقسطة في الشمال واحتلها . وكانت مرتفعات ارغونة ، وبلاد ليونة وغاليسيا ، خليقة بالسقوط لولا ان ورد عليه امر سامٍ من الوليد في دمشق . فقد اخذ الخليفة علـى واليه الاساءة نفسها التي عاقب الوالي عليها قائده التابع ، وهي التصرف على هواه وعدم مراجعة رئيسه .

موكب النصر

خلف موسى بن نصير ابنه عبد العزيز في قيادة الجيش ، وسار متوجهاً نحـو سورية . وقد اشتمل موكبه ، باستثناء حاشيته الخاصة على اربع مئة من افراد السلالة القوطية المالكة ، وافراد الأسر الارستقراطية ، تزين رؤوسهم التيجان ، وتطوق اوساطهم الاحزمة الذهبية ، وفي اثرهم جموع من العبيد والاسرى[٢] يحملون نفائس الغنائم . وكان مرور موكب النصر في شمالي افريقيا وجنوبي سورية موضوعاً مستحباً لدى الاخباريين العرب[٣] . وعندما بلغ موسى بموكبه منطقة طبرية انتهى اليه أمر من سليمان اخي الوليد وولي عهده — وكان الوليد مريضاً — بان يؤخر وصوله الى العاصمة حتى يتفق مع ارتقائه الى سدة الخلافة[٤] .

والظاهر ان موسى تغاضى عن الامر : وفي شهر شباط سنة ٧١٥ دخل دمشق ، فترك دخوله اليها وقعاً شديداً في النفوس . وقد استقبله الوليد ، وفي رأي البعض

---

١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٧ — ١٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

٢) كان عددهم ٣٠ الفاً (!) برواية المقري ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ قابل ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ — ٢١١ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١ — ٢٢ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس (مدريد، ١٨٦٨) ، ص ١٠ ؛ ومن هذا القبيل : ابن قتيبة ، قصته فتح الاندلس (مستخرج من «الامامة والسياسة» وملحق بابن قوطية) ، ص ١٣٨ و ١٤٠ وما بعد .

٤) قابل : المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، نشر دوزي ، الطبعة الثانية (ليدن ، ١٨٨١) ، ص ٨ .

ان الذي استقبله هو الخليفة الجديد سليمان. واقيم لهذه المناسبة مهرجان ملكي كبير ازدان بمظاهر المجد والابهة، وذلك في باحة المسجد الاموي الذي كان الوليد قد فرغ حديثاً من اتمام بنائه، بجوار قصر الخليفة. وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً من ايام النصر في الاسلام، اذ لم يسبق ان شوهد مثل هذا العدد من امراء الغرب والإسرى الاوروبيين ذوي الشعور الصهباء، وقد جاءوا يقدمون خضوعهم لامير المؤمنين. ولئن كان هنالك حدث يمثل المجد الاموي في اوجه، فلا مراء انه هذا الحدث. وكان من ابرز ما قدمه موسى الى الخليفة من الاسلاب التذكارية الثمينة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق قد غنمها من كاتدرائية طليطلة. وكان القوط قد تنافسوا في تزيينها بالاحجار الكريمة، حتى نسجت الاساطير حولها، فنسبت اتقان صنعها الى جن سليمان، وروت ان الرومان حملوها من هيكل سليمان الى عاصمتهم، ونقلها القوط من هناك الى اسبانية. وكان طارق، على ما في الرواية، قد انتزع احدى قوائمها عندما اغتصبها منه موسى في طليطلة، فابرزها الآن بصورة مثيرة، مدللاً على انه هو، لا موسى، صاحب المأثرة[1].

على ان الخليفة الذي تلا الوليد عاقب موسى واذله. فبعد ان اوقفه في الشمس حتى التلف، عزله وحجز ممتلكاته. وقد لاقى موسى الخاتمة التي لاقاها عدد من القواد المظفرين والاداريين الحازمين في الاسلام. وآخر ما عرف عنه، وهو قاهر افريقيا واسبانيا، انه كان يستعطي القوت الضروري في بعض قرى الحجاز النائية[2].

ولقد ألحقت اسبانيا في هذه الاثناء بالامبراطورية السورية، واستأنف القائد الذي تلا موسى العمل على اخضاع المناطق المفتوحة في الشرق والشمال. وبعد

---

١) المقري، ج ١، ص ١٦٧، ١٧٢؛ ابن عبد الحكم، ص ٢١١؛ ابن الاثير، ج ٤، ص ٤٤٨ — ٤٩؛ ابن خلكان، ج ٣، ص ٢٦— ٢٧؛ نبذة من اخبار فتح الاندلس (قطعة مستخرجة من الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية، ملحقة بابن قوطية، مدريد، ١٨٦٨) ص ١٩٣، ٢١٣؛ انظر الف ليلة *Arabian Nights*, No. 272.

٢) المقري، ج ١، ص ١٨٠؛ قابل ابن خلكان، ج ٣، ص ٢٧.

ان وطئت حملة العرب الاولى ارض اسبانيا للمرة الاولى بست سنوات ، وقف رجال الحملات التي استأنفت الزحف من بعدها امام قمم البرنيه الشامخة .

تعليل سهولة الفتح

ان هذا الفتح الذي يبدو لاول وهلة منقطع النظير . كان من المحتمل ان لا يتم ، لولا ما كانت تعانيه الاوضاع الداخلية من ضعف وتفسخ . فلقد كان سكان البلاد مزيجاً من الاسبان والرومان ، وكان الحكام من القوط الغربيين الذين سبق ان احتلوا البلاد في اوائل القرن الخامس ، فحكموها حكماً مطلقاً ، واحياناً استبدادياً . وقد بقوا سنوات كثيرة علـى مسيحيتهم الآرية ، ولم يعتنقوا الكثلكة التي كانت مذهب رعاياهم حتى النصف الثاني من القرن التالي . ولقد كانت الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع تعاني الرق والعبودية ، فكان لهؤلاء ، ولليهود المضطهدين يد في تسهيل عمل الفتح على العرب الفاتحين .

عبور جبال البرنيه

وفي عام ٧١٧ او ٧١٨ تمكن الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي[1] . وهو الخلف الثالث لموسى بن نصير ، من عبور الجبال التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا . كانت هذه الحملات سلسلة من الغارات استأنفها، من بعد الحر، خلفه السمح بن مالك الخولاني، وكان الغرض منها الاستيلاء على النفائس التي اشتهرت بها الاديار والكنائس في تلك المنطقة . وفي خلافة عمر الثاني سنة ٧٢٠ احتل السمح اربونة التي تحولت في ما بعد الى حصن ضخم اشتمل على دار صناعة . وفي العام التالي جرت محاولة فاشلة لاحتلال تولوز ، قاعدة الدوق يوديس الاكوتيني، قتل فيها السمح ، وسجل بذلك النصر الاول الذي احرزه امير جرماني على العرب .

---

١) ابن عذاري، ج ٢، ص ٢٤ ـــ ٢٥ ؛ ابن الاثير، ج ٥ ، ص ٣٧٣ .

معركة تور

وبعد انقضاء اثنتي عشرة سنة ، قاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، امير الاندلس بعد السمح ، اكبر الحملات وآخرها عبر البرنيه . وبعد ان تم له النصر على الدوق يوديس، وذلك على ضفاف نهر غارون ، اجتاح مدينة بوردو ، وسار شمالاً نحو بواتيه، فبلغها واحرق بناء كنسياً كان يقوم خارج اسوارها. ثم توجه نحو تور. وكان في تور مزار للقديس مارتن ، وهو ولي كبير من اولياء الغاليين. وكان من اهم ما اجتذب الغزاة الى تور ما في مزارها هذا من نفائس النذور .

وفيما كان عبد الرحمن متوجهاً من بواتيه الى تور ، انبرى له شارل ، قيّم القصر في البلاط الميروفنجي . ومع ان شارل هذا لم يكن ملكاً بالاسم ، فقد كان كذلك بالفعل . وكان قد تمكن بشدة بأسه من ان يخضع الكثيرين من اعدائه ، وان يكره يوديس على الاقرار بسيادة اهل الشمال من الفرنجة .

وبعد مناوشات استمرت سبعة ايام حمي وطيس القتال . وكان ذلك اليوم يوم سبت في سنة ٧٣٢ ، وقد درى محاربو الفرنجة ، وجلهم من المشاة ، كيف يتقون البرد بجلود الذئاب . وفي غمرة القتال وقفوا صفوفاً متراصة في مربع مجوّف ثابت كالصخر ، وصامد كقطعة من جليد — كما في تعبير المؤرخين الغربيين[١]. واذ ثبتوا في مواقفهم راحوا يحصدون فرسان الاعداء كلما اقبلوا عليهم . ولقد قتل عبد الرحمن في هذه المعركة . وكان الظلام يفصل بين المتقاتلين ، فانسحب الغزاة تحت جنح الظلام ، وتواروا عن الانظار . ولم يدرِ شارل اي نصر تم على يده حتى الصباح التالي . فقد اكسبه هذا النصر لقب «المطرقة» فغدا معروفاً به «مارتل».

١) André Duchesne, *Historiae Francorum Scriptores*, vol. i, (Paris, 1936) p. 786.

كانت ساحة القتال هذه في نظر المسلمين «بلاط[١] الشهداء»[٢] ليس الا؛ والشهيد كل من قتل في حرب على غير المسلمين. اما في نظر النصارى فقد كانت نقطة تحول في المسلك الحربي الذي نهجه عدوهم الدائم. فالذي يتراءى للمؤرخين الاوروبيين، انه كان من المحتمل ان يروا المساجد حيث تقوم الكنائس اليوم في باريس ولندن، والطرابيش حيث تلبس القبعات، لو ان نتيجة هذه المعركة جاءت معكوسة[٣]. وواقع الامر انه لم يحدث ما هو حاسم في ساحة الحرب في تور. لكن الغزوة الاسلامية كانت قد استنفدت نفسها، وبلغت مداها الطبيعي. اذ غدت على نحو من الف ميل من نقطة انطلاقها في جبل طارق، فضلاً عن قاعدتها في القيروان. وكانت معنويات الجيش قد هبطت بتأثير الخلافات الداخلية. فقد اشتدت الغيرة بين العرب والبربر، وتظلم البربر من ان العرب قد قسموا لهم المرتفعات الوسطى القاحلة، في حين احتفظوا لانفسهم باخصب اقاليم الاندلس؛ هذا مع ان الحروب قامت في اشد احتدامها واثقل اعبائها على اكتافهم. كذلك العرب فقد كانوا ابعد شيء عن ان توحدهم جامعة العصبية ووحدة الهدف، وكانت عداوة العصبية التقليدية بين اهل الشمال (المضريين)[٤] واهل الجنوب (اليمنيين) قد اخذت في الانتعاش تباعاً في ما بينهم. ثم ان المضريين كانوا على مذهب اهل السنة في حين تحول بعض اليمنيين الى الشيعة، او مالوا الى العطف على القضية الشيعية، فما كان من البربر الا ان اظهروا مفارقتهم لهم باعتناق مبدأ الخوارج[٥].

دمشق العاصمة

ان الحملة على مدينة تور توقفت، في حين ان الحملات التي استهدفت نواحي اخرى استأنفت نشاطها. ففي سنة ٧٣٤ احتل العرب افنيون، وبعد تسع سنوات

---

١) انظر ص ٥٢ حاشية ٣، من هذا الجزء.

٢) اخبار مجموعة، ص ٢٥؛ المقري، ج ١، ص ١٤٦. فقد جرت المعركة على طريق روماني مرصوف. قابل انجيل يوحنا، ١٩: ١٣.

٣) Gibbon, *Decline and Fall*, vol. vi, pp. 15 *seq.* see also Lane-Poole, pp. 29–30.

٤) كان بنو مضر وبنو ربيعة وهم من عرب الشمال يشار اليهم في الغالب باسم مشترك هو مَعَدّ. قابل ص ٥٧ — ٥٨ من هذا الجزء.

٥) راجع ص ٣٢ — ٣٣ من هذا الجزء.

اغاروا على ليونه ونهبوها . وبالرغم من ذلك لا تزال معركة تور تعتبر المدى الاقصى الذي بلغه المسلمون في زحفهم المظفر . ولما كان تاريخها وهو العام ٧٣٢ هو كذلك العام المئوي الاول لوفاة النبي ، كان جديراً بنا ان نتوقف عنده لنستعرض الوضع الاجمالي . فاذا نحن القينا نظرة على ملك العرب ، بعد وفاة مؤسس الاسلام بمئة عام ، وجدنا اتباعه يحكمون امبراطورية تفوق باتساعها امبراطورية روما في اوج اتساعها ؛ فهي تمتد من خليج بسكي الى الاندس وحدود الصين ، ومن بحر آرال الى شلالات النيل . ولقد كانت عاصمة هذه الامصار الرحبة مدينة دمشق — اقدم مدن العالم الباقية وهي التي يقال ان محمداً تردد في دخولها ، لانه شاء ان يدخل الفردوس مرة واحدة لا غير[١] لقد قامت هذه المدينة في وسط الغوطة وكأنها لؤلؤة في حزام من الزمرد . وكان اعتماد البساتين المحيطة بها ، في وجودها عبر العصور ، على الارتواء من سواقٍ تستمد مياهها من ثلوج لبنان الشرقي . فقــد انحدر اليها من الشمال نهر بردى (ابانا) ، ثم تفرّع في سواق كثيرة انسابت في انحاء السهل المتسع . وجاءها من الجنوب نهر الاعوج (فاربر) وقد مدته الروافد الكثيرة المتحدرة من جبل الشيخ . ولقد ذكر ياقوت[٢] العالم الجغرافي الشهير في القرن الثالث عشر ، انه قصد الى المواضع الاربعة التي تعتبر فراديس العالم ، فوجد دمشق في طليعتها ؛ قال : « وجملة الأمر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله[٣] » .

والمدينة تشرف على سهل يمتد جنوباً في غرب نحو قمة مهيبة من قمم لبنان يسميها العرب جبل الشيخ[٤] لانها مجللة ابداً بالثلوج . وفي قلب العاصمة قام المسجد الاموي ، وهو مثال من روائع الفن الهندسي الذي لا يزال يستهوي رواد الآثار الفنية حتى اليوم . والى جانب المسجد ارتفع قصر الخليفة المعروف بالخضراء تبعاً لقبته الخضراء[٥] . وقــد كان من عادة الخليفة ان يعقد مجالسه الرسمية في قصره ،

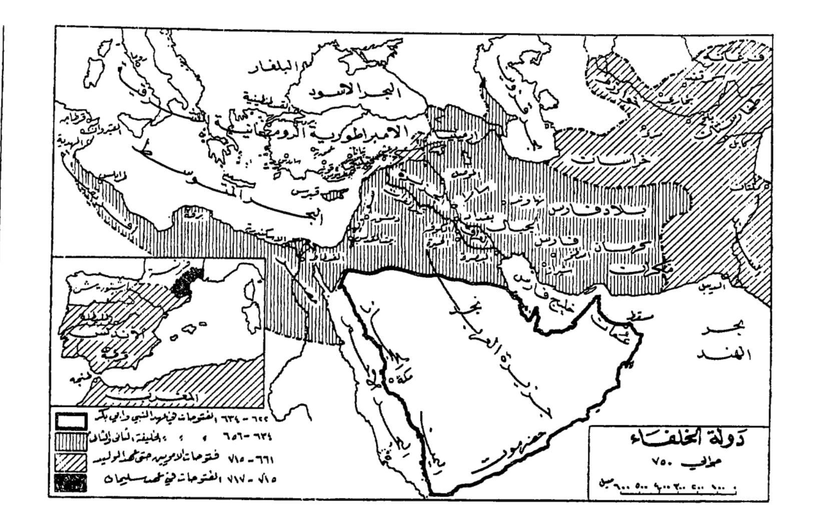
١) من المصادر الاخرى التي تمتدح مدينة دمشق ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٤٦ وما بعد .

٢) البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ .

٣) البلدان ، ج ٢ ، ص ٥١٠ .

٤) راجع الجزء الاول ، ص ٤٤ ، ذيل ١ .

٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، نشر وليم رايت (ليدن ، ١٩٠٧) ص ٢٦٩ ، س ٣ ؛ الاغاني ، ج ٦ ، ص ١٥٩ .


دولة الخلفاء
حوالي ٧٥٠
٦٢٢ - ٦٣٤ الفتوحات في عهد النبي وأبي بكر
٦٣٤ - ٦٥٦ « « الخليفة الثاني والثالث
٦٦١ - ٧١٥ فتوحات الأمويين حتى عهد الوليد
٧١٥ - ٧١٧ الفتوحات في عهد سليمان
البلغار
البحر الأسود
القسطنطينية
الامبراطورية الرومانية
البحر المتوسط
قبرص
خراسان
بلاد فارس
خليج فارس
مسقط
بحر الهند
مكة
جزيرة العرب
حضرموت
الأندلس
المغرب

فيجلس متربعاً على عرش مربع الجوانب ، تستره الوسائد المزركشة ، وقد ارتدى الحلل الزاهية الفضفاضة ، ووقف عن يمينه انسباؤه من جهة ابيه حسب سنهم ، وعن يساره انسباؤه من جهة امه . اما الحاشية والشعراء واصحاب الشكايا فيقفون خلفه .

تعريب الدولة

كان من الطبيعي ، بعد ان بلغت الدولة من الاستقرار هذا المبلغ ، ان تلتفت الى تعريب الادارة وسائر مصالح الدولة . فقد كانت لغة الدواوين العامة ، حتى ذلك الوقت ، الرومية في سورية ، والبهلوية وبعض اللهجات المحليـــة ، في العراق والمناطق الشرقية ؛ ولم يكن هنالك مجال للاختيار . ذلك ان الفاتحين المسلمين ، القادمين من البادية ، لما كانوا يجهلون التدوين والمعاملات المالية ، اضطروا الى ان يحتفظوا في الدوائر المالية بالموظفين اليونان والفرس وسواهم ممن لا يحسنون استخدام العربية . لكن كان قد تيسر ، في غضون هذه الفترة ، لبعض الموظفين ان يتعلموا العربية ، ولبعض المساعدين العرب ان يلموا بشؤون التدوين المعقدة . فاصبح العرب بذلك على استعداد لاحلال العربية في دواوين الدولة ، محل سائر اللغات ، بوصفها اللغة الرسمية . وكان هذا الانتقال بحكم الضرورة بطيئاً ، اذ بدأ في عهد عبد الملك واستمر في عهد ابنه . يستدل على ذلك من ان بعض المصادر تنسب هذا العمل الى الوالد ، في حـــين يضيفه بعضها الآخر الى الابن[1] . وهكذا ففي غضون الف من السنين توالت على سورية ثلاث لغات كتابية : الآرامية ، واليونانية الرومية ، والعربية . اما في العراق وملحقاته فقـــد تولى الحجاج ، والي الامويين ، احلال العربية ، في الدوائر المالية ، محل اللهجات الاقليمية . واما مدى النجاح الذي تحقق في تعريب الرعايا فسنعالجه في الفصل التالي[2] .

---

١) العقد، ج ٢، ص ٣٢٢؛ الماوردي، ص ٣٤٩—٥٠؛ البلاذري، ص ١٩٣، ٣٠٠ — ٣٠١ ويعزو البلاذري ذلك بسذاجة بالغة الى امر تافه هو ان احد الكتاب الروم بال في المحبرة .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٧ في الفقرة عن طبقات المجتمع .

وقد حدث مع تغيير لغة الدواوين، تغيير في السكة. فان النقود البيزنطية كانت، حتى ذلك الحين، قد تركت في التداول في سورية[١]. الا انه ربما نقشت بعض الآيات القرآنية فوق النقوش الاصلية، وضربت بعض قطع النقود الذهبية والفضية على الغرار البيزنطي والفارسي. فان معاوية قد ضرب بعض النقود النحاسية جاعلاً رسم الخليفة، وقد شهر سيفه، مكان رسم الملك وبيده الصليب. ولم يسبق للدينار والدرهم[٢] ان سكّا بالشكل العربي الخالص[٣] الا على يد عبد الملك (٦٩٥). وفي السنة التالية قام الحجاج بضرب نقود فضية في الكوفة[٤].

مصلحة البريد

وقد أنشأ عبد الملك فضلاً عما تقدم، مصلحة بريدية منظمة[٥]، خدمةً لموظفي الدولة وتسهيلاً لمراسلاتهم. اقامها على الاساس الذي وضعه له سلفه الاول معاوية[٦]. فقد جعل منها عبد الملك شبكة محكمة، تربط اجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف، وتجمع شتاتها. فعمد، تحقيقاً لهذه الغاية الى اجراء الخيول بصورة منظمة، في مراحل متتابعة بين دمشق من جهة وقواعد الولايات من جهة اخرى؛ واقام على البريد موظفين مسؤولين، كان من جملة ما ترتب على كل منهم ان ينهي الى الخليفة كل ما يحدث في منطقته من الاحداث الهامة. وقد استخدم الوليد هذا الجهاز في تنظيم اعمال البناء، وتحقيق مشاريع العمران.

اصلاحات في المالية وفي سواها

ولقد تمت في هذه الفترة تعديلات تناولت الضرائب والشؤون المالية. فقد

---

١) البلاذري، ص ٤٦٥ — ٦٦.

٢) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء، ذيل ١.

٣) الطبري، ج ٢، ص ٩٣٩؛ البلاذري، ص ٢٤٠، ٤٦٦ — ٧٠.

٤) قابل: ياقوت، البلدان، ج ٤، ص ٨٨٦.

٥) العمري، التعريف في المصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)، ص ١٨٥. والبريد لفظة سامية قديمة من برد بمعنى ارسل، قابل سفر استير ٨ : ١٠؛ الاصفهاني التاريخ، ص ٣٩.

٦) الفخري، ص ١٤٨.

كانت الضريبة الوحيدة التي وضعت مبدئياً على المسلم مهما كانت قوميته، اداء فريضة الزكاة. على ان المسلمين الذين نعموا بهذا الامتياز عملياً كانوا اولئك الذين تحدروا من اصل عربي لا غير. لقد حاول بعض المستجدين في الاسلام، وجلهم من العراق، ان يستغلوا هذا المبدأ. فأخذوا يغادرون قراهم ومزارعهم، ويتحولون الى المدن، أملاً بالالتحاق بالجيش العربي، على اعتبار انهم من الموالي. ولئن كان قد أطلق هذا اللفظ في ما بعد على العبيد المحررين. فانه لم يكن، في هذه الفترة، يقترن بشيء من معنى المذلة او انحطاط المنزلة. على ان هذا التدبير اوقع بيت المال في خسارة مزدوجة؛ ذلك لان قبول الاسلام استتبع حكماً، نقصاً في عائدات الضرائب، والالتحاق بالجيش اقتضى اضافة معينة الى مقدار الاعطيات. فعمد الحجاج لذلك الى وضع التدابير لمعالجة هذا النقص، فأمر برجوع هؤلاء الموالي الى مزارعهم[١]، ورتب عليهم الضريبة الباهظة التي اعتادوا ان يؤدوها، بما يعادل الخراج والجزية معاً.

لكن تدبير الحجاج هذا اثار النقمة في اوساط المسلمين المستجدين، فاستنسب الخليفة التقي عمر الثاني (٧١٧—٢٠) ان يعيد التدبير القديم الذي رسمه سميه السابق[٢]، وهو ان المسلم، عربياً كان او مولى، لا يترتب عليه دفع جزية ما[٣]. وعندما ورد عليه تذمر من عامل له في خراسان يشير الى ان شدة الاقبال على اعتناق الاسلام قد استتبعت نقصاً خطيراً في واردات الجباية، واقترح ان تمتحن صحة اسلام هؤلاء المستجدين في الاسلام بان يجري كشف عليهم يعرف منه ما اذا كانوا قد اختتنوا ام لا، اجاب عمر: «ان الله قد بعث نبيه رسولاً لا خاتناً[٤]». الا انه أصرّ على ان تعتبر الارض التي كان يؤدى عنها الخراج، بعد تحول اصحابها الى الاسلام، ملكاً للامة الاسلامية جمعاء، وأتاح للمالك السابق ان يحتفظ بالارض، على انه مستأجر لها[٥]. وبما ان مقدار الجزية كان ضئيلاً، فقد احتفظ بيت المال بموارده الرئيسية من الخراج.

---

١) المبرد، ص ٢٨٦.
٢) راجع ص ١٩ — ٢٠ من هذا الجزء.
٣) البلاذري، ص ٤٢٦.
٤) الطبري، ج ٢، ص ١٣٥٤؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٣٧.
٥) ابن عساكر، ج ٤، ص ٨٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦٢؛ ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز (القاهرة، ١٣٣١)، ص ٨٨ — ٨٩.

على ان تدبير عمر لم يكن موفقاً ، لانه انقص موارد الدولة بالنسبة التي زاد بها عدد ابناء المدن من الموالي[1]. فقد اقبل البربر والفرس وسواهم ، جماعات غفيرة




وزن بيزنطي عليه تصديق الوليد (ت ٧١٥)

وقد رسم على وجهه الاول صليب ؛ وهذا الشكل B ٢ اشارة الى انه وزنتان ؛ وعلى وجهه الاخر كتابة بالخط الكوفي تشير الى ان الخليفة قد اقره مساوياً اوقيتين . ولعله اقدم وزن عليه نقش عربي معروف الى اليوم

على الاسلام ، رغبة في الاستفادة من الامتيازات المالية الكثيرة التي نجمت عن ذلك التدبير ؛ مما حمل بعض الولاة على ان يعودوا مبدئياً ، فيما بعد ، الى سياسة الحجاج بعد ان اجروا فيها تعديلات فرعية طفيفة .

ولقد تمت على يد الحجاج اصلاحات اخرى، منها اصلاح الكتابة الذي استهدف سهولة التمييز بين الحروف التي ترسم بصورة واحدة، نظير الباء والتاء والثاء؛ والدال والذال؛ وذلك بان ادخل عليها علامات فارقة . ثم عمل على ازالة الابهام في التحريك باقتباس اشارات من السريانية ، ترمز الى الضمة والفتحة والكسرة ، على ان تجعل فوق الحروف او تحتها .

اما المباني الاثرية الرائعة التي هي من ابرز مآثر هذا العصر فسنعالجها في فصل تال (الفصل ٣٨) .

---

١) ابن الجوزي ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

الفصل السابع والثلاثون

الأحوال السياسية والاجتماعية في عهد الأمويين

كانت الاقسام الادارية في الخلافة الاموية تعتمد النظام البيزنطي في المناطق الغربية ، والنظام الفارسي في المناطق الشرقية . وكانت اهم هذه المناطق تسع هي : ١ — سورية وفلسطين ؛ ٢ — الكوفة وسائر العراق ؛ ٣ — البصرة ، مضموماً اليها فارس وسجستان وخراسان والبحرين وعُمان ، وربما نجــد واليمامة ايضاً ؛ ٤ — ارمينيا ؛ ٥ — الحجاز ؛ ٦ — كرمان ، ملحقة بمنطقة الحدود الهندية ؛ ٧ — مصر ؛ ٨ — افريقيا ؛ ٩ — اليمن وسائر القسم الجنوبي من الجزيرة. وقد وزعت هذه المناطق التسع على خمس ولايات هي : ولاية العراق ، وقد اشتملت على الجانب الاعظم من فارس وشرقي الجزيرة العربية ، وقاعدتها مدينة الكوفة ؛ وولاية الحجاز وقد ضمت اليمن والاقليم الاوسط من الجزيرة العربية ؛ وولاية الجزيرة (القسم الشمالي من ارض ما بين النهرين) ، وقد الحقت بها ارمينيا واذربيجان واقسام من شرقي آسيا الصغرى ؛ وولاية مصر ، مع منطقتي الصعيد والدلتا ؛ واخيراً افريقيا ، مشتملة على شمالي افريقيا ، وغربي مصر ، ثم الاندلس وجزر المتوسط ، وقاعدتها مدينة القيروان .

الحكومة الاقليمية

كانت الحكومة الاقليمية تتولى ثلاث مهمات هي : الادارة السياسية ، وجباية الضرائب ، والارشاد الديني . وكان يقوم بهذه المهام الثلاث ثلاثة انواع من الموظفين : فالوالي (الامير ، الصاحب) كان يتولى تعيين العمال على المناطق ، ويتحمل مسؤولية اعمالهم . وكان ، بوصفه والياً ، يضطلع باعباء الشؤون السياسية ، والادارة العسكرية في ولايته . على ان المشرف على جباية الموارد كان احياناً موظفاً خاصاً يدعى صاحب الخراج ، وكانت صلته بالخليفة رأساً . اما مورد الدولة الرئيسي فكان

يجمع من الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة . وكانت النفقات الاقليمية تسدد من الموارد المحلية ، ولا يرسل الى خزانة الخليفة الا الوفر الباقي على صورة رصيد .

ان الموظفين القضائيين الاولين الذين لم يتعاطوا الا القضاء كانوا يتلقون تعيينهم في الاقاليم من الولاة. وكان الكثيرون من هؤلاء القضاة في العهد الاموي يُختارون، مبدئياً ، من بين العلماء الذين سبق ان تفقهوا بالقرآن والحديث . وكانوا يتولون القضاء في امور الرعايا المسلمين ليس الا ، اما غير المسلمين فقد اتيح لهم استقلال داخلي ، كانوا يخضعون بموجبه لرؤسائهم لا سيما الروحيين في ما يتصل بالاحوال الشخصية ، نظير مسائل الزواج والطلاق والارث. وكان هؤلاء الموظفون القضائيون يديرون اوقاف الايتام والمعتوهين، الى جانب النظر في قضايا الناس.

ديوان الخاتم

وكان في ما انشأ معاوية ديوان الخاتم ؛ مكتب حكومي مهمته ان يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية ، قبل ان تختم وترسل في سبيلها[١]، ويجمع هذه النسخ في ملفات خاصة . والذي يبدو من تسمية هذا المكتب « بالديوان » انه من اصل فارسي[٢]. وما جاء عهد عبد الملك حتى اصبح لدى الحكومة في دمشق دار حافلة بانواع الوثائق[٣].

تنظيم الجيش

كان الجيش الاموي منظماً على غرار الجيش البيزنطي ، فكان يتألف من خمس فرق هي : القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة . على ان مروان الثاني ، آخر خلفاء بني امية (٧٤٤ — ٥٠)، ابطل هذا النظام ، وآثر عليه نظام وحدة

١) الطبري : ج ٢، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ؛ الفخري : ص ١٤٩.
٢) قابل البلاذري ، ص ٤٦٤ .
٣) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

صغيرة متراصّة ، عرفت بالكردوس[١]. لذلك كان من الصعب ان يميز باعتبار اللباس والسلاح بين الجندي العربي ونظيره اليوناني. اما الفرسان فكانوا يستخدمون السروج المستديرة الملساء، نظير تلك التي لا تزال الى الآن تستخدم في الشرق الادنى. وكان السلاح الثقيل يتألف من العرّادة والمنجنيق والكبش او الدبابة. وكان السلاح الثقيل، وسائر الذخائر والامتعة، تنقل على الجمال وراء الجيش.

وكانت قوى الجيش الرئيسية المقيمة في دمشق تتألف من السوريين، ومن العرب الذين نزحوا الى سورية واستوطنوها. وقد احتفظ الخلفاء السفيانيون بجيش عدده ستون الفاً، بلغت نفقاته السنوية ستين مليون درهم[٢]. لكن يزيد الثالث (٧٤٤) خفض جميع الاعطيات السنوية بنسبة عشرة بالمئة فلقب بالناقص. وفي عهد خلفه، وهو آخر افراد السلالة الاموية، كان عدد الجيش قد هبط الى ما لا يزيد عن الاثني عشر الفاً[٣].

كذلك الاسطول العربي، فان نظامه نقل عن الاسطول البيزنطي، وكان اكثر ملاحيه من السوريين[٤]. ان السفينة كانت هي الوحدة الحربية في القتال، وكان في كل من سطحيها الاسفلين ما لا يقل عن خمسة وعشرين مقعداً للتجذيف، يجلس على كل منها رجلان. وهؤلاء المئة من الملاحين في كل سفينة كانوا ايضاً مسلحين. اما الذين كانت مهمتهم القتال فكانوا يرابطون على ظهر السفينة.

الحياة في البلاط

كانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف، بالقياس الى حياة الخلفاء السابقين في المدينة؛ فقد كانت هذه، بوجه الاجمال بسيطة موسومة بالوقار[٥]. ذلك

---

١) الطبري، ج ٢، ص ١٩٤٤؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٢٦٧، س ٧ – ٨؛ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٦٥، س ١٦ (قابل ص ١٩٥، س ٢٥ – ٢٧).

٢) المسعودي، ج ٥، ص ١٩٥.

٣) ورد هذا الرقم ١٢٠٠٠٠ في الفخري، ص ١٩٧، وهو خطأ؛ ابو الفداء: ج ١، ص ٢٢٢؛ انظر ما سيجيء، ص ٥٣١.

٤) انظر ص ٢٤ – ٢٥ من هذا الجزء.

٥) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء.

ان صلات الناس بالخلفاء الامويين اخذت في ان تخضع لضرب من العرف السياسي. فارتداء الاثواب الرسمية التي طرّز على حواشيها اسم الخليفة مع بعض العبارات الدينية، بدأ يشيع، على ما هو محتمل، في عهد عبد الملك. وكان الاقباط في مصر يحيكون النسيج، ويصنعون القراطيس[١] من ورق البردي للكتابة. وقد امر عبد الملك ان توضع بعض العبارات الاسلامية في رأس الادراج مكان الصليب ورموز التثليث. ويستدل من اطلاق لفظة «طراز» الفارسية على الزركشة في الاثواب، ومن التشجير في النسيج والملابس الرسمية والمقتنيات الاخرى، التي صنعت خصيصاً للبلاط، على ان الخلفاء قد تبعوا في هذه المظاهر الزي الفارسي لا البيزنطي[٢].

اما ليالي الخلفاء فكانت وقفاً على السمر ومجالس الانس. فكانت متعة معاوية الاصغاء الى القصص، ومن اجل ذلك استقدم قصاصاً من اقاصي اليمن، وهو عبيد (عُبَيد) بن شريه، ليحدثه باخبار الغابرين من الابطال[٣]. وكان ماء الورد شرابهم المستطاب، وكذلك هو في دمشق، وسواها من مدن الشرق، الى اليوم.

على ان بعضهم رغب في شراب اقوى مفعولاً. وكان يزيد بن معاوية اول من زاول الشرب من الخلفاء، فلقب لادمانه بيزيد الخمور[٤]. وكان في جملة ندمائه قرد أليف يكنى بأبي قيس، كان قد عوّده الشرب. وقد قيل ان يزيد كان يشرب كل يوم، في حين كان الوليد الاول يشرب يوماً ويدع يوماً. على ان هشاماً اكتفى بالشرب مرة واحدة كل يوم جمعة؛ وقنع عبد الملك بالشرب مرة واحدة في الشهر، لكنه كان يكثر حتى ليضطر الى تناول المقيّئات[٥]. على ان الاخبار المتعلقة بالجانب المرح من حياة الخلفاء قد ورد اكثرها في العقد والاغاني[٦]، وما

---

١) مفردها قرطاس لفظة يونانية الاصل؛ البلاذري، ص ٢٤٠.

٢) R. B. Sarjeant in *Ars Islamica*, vol. ix (1942), pp. 60-62.

٣) انظر ٤٩٢ — ٩٣؛ والفصل ٣٨ في الفقرة عن التأريخ.

٤) الانساب، ج ٤ B، ص ٣٠؛ العقد ج ٣، ص ٤٠٣؛ النويري، نهاية الارب، ج ٤، ص ٩١.

٥) قابل: العقد، ج ٣، ص ٤٠٤.

٦) ذكر صاحب الاغاني في الجزء الاول ص ٣ انه قد توخى في اختياره للاخبار الى ما فيه «رونق يروق الناظر ويلهي السامع».

جرى مجراها من المجاميع الادبية التي لا يجوز ان تعتمد بدلالتها الحرفية. وكان يزيد الثاني شغوفاً بالقيان فضلاً عن الخمر، وكان يقضي معظم وقته مع قينتين اثيرتين عنده هما سلّامة وحَبَابة. وكان يوماً يداعب حبابة فالقى في فيها بحبة عنب فشرقت بها وماتت. فجزع عليها جزعاً ذهب بحياته[1]. على ان صاحب السبق في الشرب كان ابنه الوليد الثاني (٧٤٣ — ٤٤)، الخليع الذي لا يرعوي، والذي كان لهوه الاثير، كما في الاخبار، ان يسبح في بركة من الخمر، ويشرب منها حتى يهبط مستوى سطحها[2]. ويقال انه فتح القرآن يوماً، فوقعت عينه على الآية واستفتحوا «وخاب كل جبار عنيد[3]». فغضب غضباً شديداً، ورمى الكتاب الكريم بنباله حتى مزقه[4]. وقد حفظ لنا صاحب الاغاني[5] رواية شاهد عيان، وصف بها بعض مجالس الوليد الخليعة، وكان يقيم بعضها في قصره بالبادية قرب القريتين، في منتصف الطريق بين دمشق وتدمر. اما الخلفاء الذين كانوا على جانب من الرصانة، فكانوا يحتجبون عن مطربيهم بستائر يضربونها دونهم. ولم يكن الوليد من هؤلاء[6].

اللهو البريء

وقد اخذ بعض الخلفاء ورجال بطانتهم بضروب من اللهو البريء نذكر منها الصيد والسباق ولعب النرد. اما لعبة الكرة والصولجان فالغالب انها تسربت اليهم من الفرس في اواخر العصر الاموي، ولم تلبث ان غدت من امتع ضروب الرياضة وارقاها لدى العباسيين. ولم تكن مشاهدة قتال الديكة من الامور النادرة. وكان الصيد من ضروب اللهو القديمة في الجزيرة، وكان العرب يستخدمون اولاً الكلاب السلوقية (منسوبة الى سلوق في اليمن) وحدها، لكنهم استعانوا في ما

١) العيون والحدائق (١٨٦٥)، ص ٤٠ — ٤١؛ قابل الاغاني، ج ١٣، ص ١٦٥ .
٢) النواجي، حلبة الكميت (القاهرة، ١٢٩٩)، ص ٩٨.
٣) القرآن الكريم، سورة ابراهيم، آية ١٨ .
٤) الاغاني، ج ٦، ص ١٢٥ .
٥) الاغاني، ج ٢، ص ٧٢ .
٦) الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، نشر احمد زكي (القاهرة، ١٩١٤)، ص ٣٢.

بعد بالفهود . وكان الفرس والهنود قد عنوا بترويض الكلاب لهذه الغاية قبل العرب بزمن طويل . وكان يزيد بن معاوية اول صياد اشتهر في الاسلام ، فعلم الفهود ان تركب على اكفال الجياد لدى الخروج الى الصيد. وكان يُلبس كلاب الصيد خلاخل من ذهب ، ويعيّن لكل منها عبداً يقوم على خدمته[١]. وكان الوليد من اسبق الخلفاء الى تنظيم المهرجانات العامة لسباق الخيل او رعايتها[٢]. وكان اخوه سليمان قد اعدّ العدة لاقامة سباق عام يتبارى فيه الفرسان ، لكنه مات قبل ان يحقق ذلك[٣]. وقد اشترك في سباق اجراه اخوهما هشام اربعة الاف فرس من خيول الامراء وسواها ، «ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس»[٤]. وكان لهشام ابنة تقتني الخيول وتعنى بامرها[٥].

نساء الخلفاء

والذي يبدو ان سيدات البلاط كنّ يتمتعن نسبياً بقسط وافر من الحرية . فقد كن ولا شك يظهرن محجّبات في المجتمعات العامة ، اذ الحجاب تقليد ساميّ قديم اقرّه القرآن[٦]. وهذه عاتكة ابنة معاوية الجميلة يقول فيها الشعر شاعر مكي يسنح له استراق النظر اليها وهي في طريقها الى الحج ، فيما كانت الحجب والستائر مرفوعة . ولم يتردد الشاعر في ان يلحق بها حتى عاصمة ابيها . وهنا وجد الخليفة انه لا بد له من ان «يقطع لسان الشاعر» بالطريقة التقليدية ، وهي انه وصله بصلة مالية ، ثم اختار له ، الى ذلك ، زوجة موافقة[٧]. ويقال عن حفيدة لمعاوية تدعى عاتكة ايضاً ، انها غضبت على زوجها ، وهو الخليفة العاتي عبد الملك بن مروان

---

١) الفخري ، ص ٧٦ .

٢) المسعودي ، ج ٦ ، ص ١٣ — ١٧ .

٣) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ٥٦ .

٤) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .

٥) العيون والحدائق (١٨٦٥) ص ٦٩، س ١٢ سورة الاحزاب : ٥٣ ، ٥٥ .

٦) انظر الجزء الاول ص ١٨٨ ، ٤٣٢ .

٧) الاغاني ، ج ٦ ، ص ١٥٨ — ٦١ .

ودخلت غرفتها واوصدت الباب على نفسها ، وابت ان تفتحه لاحد . حتى جاءها احد افراد الحاشية الاثيرين عندها وهو يبكي ، ووقف على بابها طالباً شفاعتها لدى عبد الملك ، مدعياً باطلاً ، ان احد ابنيه قد قتل الآخر ، وان عبد الملك قد امر بقتل القاتل[1]. وان شاعراً[1] آخر ، هو وضاح اليمن ، بلغ من جرأته ان نظم شعراً تغزل فيه باحدى زوجات الوليد في دمشق ، ولم يأبه لتهديد الخليفة . لكنه لم يلبث ان قُتل بجرأته[2]. ولقد كان من عادة هذا الشاعر ، وسواه من الرجال ذوي الصورة الجميلة ، ان يحجبوا وجوههم في الاحتفالات العامة حتى لا يصابوا بالعين[3]. لكن نظام الحريم ، وما رافقه من استخدام الخصيان ، لم يغدُ عرفاً سالكاً حتى عهد الوليد الثاني[4] . وقد جرى العرب في اتخاذ الخصيان على السياق البيزنطي ، وكان معظم الخصيان الاولين من الروم[5].

العاصمة

لا يمكن ان تكون مدينة دمشق قد تغيرت كثيراً ، في مظاهرها الخارجية ، ومناهج الحياة فيها ، منذ عهد الامويين . فقد كانت آنئذ ، مثلها اليوم ، ذات دروب ضيقة مسقوفة ، فيها الشامي بسراويله الفضفاضة ، وعمامته الكبيرة ، وحذائه الاحمر المستدق الرأس ، يسير جنباً الى جنب بدوي قد لوّحته الشمس ، والتفّ بعباءة متهدلة ، وستر رأسه بكوفية وعقال . وقد يمرّ من وقت الى آخر رجل يرتدي ملابس افرنجية[6]. او تعبر الطريق بضع نساء محجبات ، ويسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكة في بيوتهن التي تشرف على الاسواق والساحات

---

١) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ — ٧٥ .

٢) الاغاني ، ج ٦ ، ص ٣٦ وما يتبع ؛ و ج ١١ ، ص ٤٩ .

٣) الاغاني ، ج ٦ ، ص ٣٣ .

٤) الاغاني ، ج ٤ ، ص ٧٨ — ٧٩ .

٥) J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century* (London, 1911), pp. 120 *seq.*; Charles Diehl, *Byzance: Grandeur et décadence* (Paris, 1919), p. 154.

٦) تعريب Frank ، اطلقت على جميع الاوروبيين وشاعت على الاخص في عهد الصليبيين .

العامة . ولم تكن هنالك قوانين للسير الى اليمين والى اليسار ؛ ولا كان الدرب مقسوماً بين الراكب والراجل . وقد يرى الناظر في وسط الجموع المزدحمة رجلاً من الاشراف على صهوة جواده ، وقد ارتدى عباءة من حرير ، وتقلد في وسطه سيفا ؛ ويسمع اصوات باعة الشراب والحلوى ، تعلو وسط هذا الضجيج الناجم عن وقع اقدام المارة ، وحوافر الحمير ، واخفاف الجمال ، التي تحمل المنتجات المختلفة من البادية والمزارع ؛ ويتنسم جو المدينة الذي يعبق باصناف الروائح المختلفة : مما يثقل العين والاذن والانف .

وفي دمشق ، كما في حمص وحلب ، وسواهما من المدن ، اقام العرب في احياء مختلفة تبعاً لرابطتهم القبلية . ولا يزال هذا التقسيم الى حارات واحياء واضحاً حتى اليوم . وكان لكل بيت باب على الشارع يؤدي الى بهو داخلي يتوسطه حوض ماء كبير ، فيه نافورة ينطلق منها الماء في الفضاء ، مكوناً حجاباً ثابتاً من الرشاش . وقد نبتت الى جانبه شجرة برتقال او اترجّ . والامويون هم اصحاب الفضل في تجهيز دمشق بنظام لتوزيع المياه منقطع النظير في ذلك العهد ، لا يزال مألوفاً الى اليوم . ولا يزال اسم احدهم — هو يزيد الاول — يطلق على قناة متصلة بنهر بردى ، كان هو الذي شقها او وسع جوانبها[١] . اما الجنائن الغنّاء التي تحيط بالمدينة — الغوطة — فمدينة بوجودها لنهر بردى الذي تجري منه المياه في قنوات اخرى الى انحاء المدينة لتبعث فيها النضارة والخصب . ولا يزال في دمشق الى اليوم نحو من ستين حمّاماً عاماً ، بعضها مزدان بالفسيفساء والبلاط المزخرف ، وكلها تشهد لغزارة المياه في المدينة ، ولاحكام توزيعها[٢] .

طبقات المجتمع

كان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات ، اعلاها طبقة الحاكمين وجماعة الاشراف من العرب الفاتحين . وكان العرب ، حتى العهد العباسي ، يؤلفون

---

١) الاصطخري ، ص ٥٩ ؛ قابل N. Sauvaire, « Description de Damas : 'Oyoun et-Tawârikh, par Mohammed ebn Châker », *Journal asiatique*, ser. 9, vol. vii (1896), p. 400.

٢) للاستزادة من هذا الموضوع راجع : M. Ecochard, *Les Bains de Damas* (Beirut, 1942).

طبقة اجتماعية وراثية لا يعرف عدد افرادها بالضبط ، انما ينبغي ان لا يغيب عن الذهن ان الذين رغبوا في الزراعة من العرب والبدو كانوا قليلين ، ولذلك غلب عليهم التجمع في المدن. وكان من الطبيعي ان يتحاشى العرب جبال لبنان ، وعلى ذلك لم ينزح اليه العرب الا في القرن التاسع فما بعد. وفي بعض الاخبار المتأخرة ان التنوخيين ، الذين كان لهم في امور لبنان السياسية شأن بارز ، لم يدخلوه حتى اوائل القرن التاسع[1]. ولم يكن هؤلاء التنوخيون كثيري العدد، ولا تحدرت منهم ذرية ما[2]، شأنهم في ذلك شأن سواهم من الاسر الاقطاعية . اما بنو عاملة ، فقد انساحوا الى المنطقة الجنوبية منه ، بعد القرن الحادي عشر[3] . و كذلك في سورية ، فان بني حمدان الذين أسسوا دولتهم في حلب[4] لم يبلغوا اليها حتى اواسط القرن العاشر . ثم بلغها بعدهم بنو مرداس[5] في اوائل الحادي عشر ، وتولوا الحكم فيها من بعدهم . ومما هو جدير بالذكر ، ان هذه القبائل لم تأت ، ولا واحدة منها ، تواً من البادية ؛ بل كانوا ممن سبق لهم ان اقاموا في الحيرة ، او في سواها من مناطق الهلال الخصيب . اما في ما يتعلق بالقبائل البدوية التي تسيطر اليوم على بادية الشام ، فان هجرتها اليها حديثة نسبياً . فعرب عنزة لم يستقروا فيها حتى مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر ، اذ لحقوا بقبائل شمّر الذين سبقوهم اليها من نجد ؛ وماعرب الرولى الا فرع من عنزة ، وهم آخر من هاجر من البدو الى سورية[6] .

ولا شك ان بعض العرب ، وربما البدو ، قد تسللوا الى الارياف ، وانشأوا فيها القرى . وقد تمّ نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة : من استيطان

---

١) الشدياق، تاريخ الاعيان في جبل لبنان (بيروت، ١٨٥٩)، ص ٢٢٤؛ قابل: صالح ابن يحي، تاريخ بيروت، نشر لويس شيخو (بيروت، ١٩٠٢)، ص ٦٥ ، وفيه تنسب تنوخ ، التي تحدر منها بنو بحتر ، الى احد ملوك اللخميين المنذر بن ماء السماء ، لا الى قبيلة تنوخ .

٢) قابل : فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب (القاهرة ، ١٩٣٣) ، ص ٢٣٣ .

٣) راجع ما سبق ، ص ٦ ح ١

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ حول الحمدانيين .

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٤ حول المرداسيين .

٦) راجع وصفي زكريا ، عشائر الشام، ج ١ (دمشق، ١٩٤٥)، ص ١١٧ — ١١٨ .

مؤقت، الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار، فالى حيـــاة ريفية مستقرة. ونشأت معظم هذه القرى حول منابع المياه، واعتبر في اختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصب التربة. اما مناقب الحياة البدوية، وخصائص نظامها، نظير التماسك العائلي، والافتخار بالشجاعـــة والضيافة وطغيان الاحاسيس الشخصية في جميـــع العلاقات الانسانية، فلا تزال بارزة، وموضوعاً للثناء العظيم، في المجتمع السوري واللبناني.

بلغ الجيش العربي الذي فتح سورية نحواً من ٢٥ الف جندي[١]. فقد كان عدد الجنود من المسلمين العرب في عهـــد مروان الاول، عشرين الفاً، كما في سجلات ديوان الجند في حمص وتوابعها. وكان عددهم في عهد الوليد الاول خمسة واربعين الفاً في دمشق وملحقاتها، التي اشتملت على الساحل الفينيقي. وعلى هذا الاساس، فان عدد المسلمين في سورية، في القرن الاول بعد الفتح، لا يحتمل ان يكون قد زاد على مئتي الف نفس، من اصل مجموع السكان الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ونصف[٢]. اما لبنان، فقد بقي معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من اصل فينيقي. وكان في جميـــع الامصار اقلية ضئيلة من البدو، لكن هؤلاء استطاعوا ان يلعبوا دورهم الهام في العمل على توحيد الاكثرية المنتشرة في الاصقاع المتباعدة.

لقد كان من استقرار العرب في المدن ان غدت العربية في غضون ذلك الزمن لغة المدن. ثم ان تردد ابناء الريف الى المـــدن لبيع منتجاتهم او مزاولة اعمالهم، دعاهم الى تعلم اللغة الجديدة، دون ان يضطرهم الى التخلي عن لسانهم القديم. وكذلك اهل الفكر من السكان الاصليين، فقد استنسبوا ان يتعلموا العربية من اجل ان يؤهلوا انفسهم للعمل في وظائف الدولة.

ان عدد الذين سارعوا الى اعتناق الاسلام من أبناء الارياف كان اقل، بطبيعة الحال، من اولئك الذين اقبلوا على اللغة الجديدة. ذلك، في الدرجة الاولى، لان

---

١) راجع ما سبق ص ٤١٥ ـ ١٦.

٢) قابل الجزء الاول ص ٣٠٦، ٣٢٣؛ Lammens, *La Syrie*, vol. i, pp. 119-20

الخلفاء الامويين، باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني[١]، لم يحبذوا هذا التحول، لا سيما في الاوساط الزراعية. وعلى ذلك، فان تساهل الامويين لم يكن محصوراً في الامور السياسية، بل كان عاماً في المنحى الديني والفكري ايضاً. ولئن كانت العاصمة والمدن الكبرى قد اتسمت، لدى انصرام العهد الاموي، بسمات المدن الاسلامية، فان الاماكن الاخرى، وعلى الاخص المناطق الجبلية، قد حافظت على مظاهرها الاقليمية، وابقت على طابعها الحضاري المحلي. ولقد اخرجت سورية الاموية لاهوتياً من اعظم لاهوتيي الكنيسة الشرقية، واشهر واضعي التسابيح في شعائرها، هو يوحنا الدمشقي؛ واعدّت للمسيحية من ابنائها خمسة من البابوات، ارتفع منهم اثنان الى مصاف القديسين[٢]. اما لبنان، فقد بقي مسيحياً في ايمانه، وسريانياً في لسانه، لقرون عديدة بعد الفتح. والواقع ان الذي انتهى امره بالفتح هو النزاع الحربي، اما الخصام الديني والعرقي والاجتماعي، وفوق ذلك كله اللغوي، فكان ما يزال في اوله.

طبقة الموالي

ويلي طبقة العرب المسلمين طبقة الموالي، اي المسلمين من الاعاجم، وهم السكان الاصليون، الذين حملوا، عن طريق القوة او الضغط او الاضطهاد على اعتناق الاسلام، فتم لهم بذلك التمتع؛ ولو اسمياً، بحقوق الرعوية الاسلامية جميعها. وكان دأب هؤلاء ان يلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء، فيعتبروا من افرادها ويحسبوا من مواليها.

لكن التحاقهم بالعرب على هذه الصورة ادى الى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية الدنيا في البيئة الاسلامية، فامتعضوا لذلك اشد الامتعاض، واظهروا هذه المرارة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم الى الشيعة في العراق، والى الخوارج في فارس. على ان البعض منهم قد اعتنق الدين الجديد عن ايمان وحرارة، غدوا بهما اقوى دعاته

١) راجع ص ٩ — ١١ من هذا الجزء.

٢) هم يوحنا الخامس (٦٨٥ — ٨٦)، القديس سرجيوس (٦٨٧ — ٧٠١)، سيسينيوس (٧٠٨)، قسطنطين (٧٠٨ — ١٥)، القديس غريغوريوس الثالث (٧٣١ — ٤١)؛ انظر ما يلي ص ١١٥، Horace K. Mann, vol. i, pt. 2 (St. Louis, 1914), pp. 64-7, 77-104, 124-6, 127-40, 203-24.

واشدهم اضطهاداً لابناء دينهم السابق . ولقد كان الموالي ، بطبيعة الحال ، السابقين في المجتمع الاسلامي الى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة . فقد نقلوا ادبهم وعلومهم الى ابناء دينهم الجديد، وما ان اظهروا تفوّقهم على العرب في ميدان العلم والفكر، حتى اخذوا ينافسونهم في تولي الزعامة السياسية . ثم نتج عن اختلاطهم بهم بالزواج تهجين الدم العربي ، حتى آل الامر اخيراً الى اطلاق لفظة «عرب» على جميع المسلمين الذين تكلموا العربية ، دون اعتبار للعرق الذي تحدروا منه .

اهل الذمة

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من اهل الذمة ، وهم الذين قبل منهم دينهم على انه دين منزل ، والمراد بهم النصارى واليهود والصابئة ؛ ذلك ان الاسلام شملهم بالامان ، وصانهم بالعهود والمواثيق . وقد اتاح النبي نفسه[1] للنصارى واليهود هذا الوضع السمح على اعتبار انهم اهل الكتاب، ومرد ذلك انما هو اجلال النبي للكتاب المقدس ، من جهة ، وعلمه من جهة اخرى ، بان عدداً من القبائل العربية النازلة على تخوم سورية والعراق ، كبني غسان ، وبكر وتغلب وتنوخ ، كانت قد تنصرت. اما الصابئة فقد منحوا هذا الامتياز[2] على اعتبار انهم موحدون . وهؤلاء هم المندبون المعروفون بنصارى القديس يوحنا ؛ ولا يزال منهم قوم يسكنون الى الآن الاغوار المحاذية لمصب نهر الفرات . اما في الجزيرة العربية بالذات ، فلم يسمح بوجود غير المسلمين ، وذلك عملاً بحديث منسوب الى النبي . وقد استثني من ذلك جماعة قليلة من يهود اليمن . على ان هذا الوضع السمح ، الذي تمتع به اهل الذمة ، غدا مبرراً لتجريدهم من السلاح ، وفرض الجزية عليهم ، في مقابل حماية المسلمين لهم ؛ وكان هذا التدبير هو الحل الذي اعتمده الاسلام لمشكلة الاقليات .

لقد اتاح هذا الوضع لاهل الذمة ان يتمتعوا بقسط وافر من الحرية، وذلك في مقابل اداء ضريبة الخراج والجزية. على انهم ، اذ لم يكونوا من صميم المجتمع الديني ذي السيادة في البلاد ، كانوا في منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية. وظل مرجعهم في

---

١) سورة التوبة : ٢٩ ، البقرة : ٩٩ ، ١٠٣ ، آل عمران : ٦٢ — ٦٥ الخ .
٢) سورة البقرة : ٥٩ ، المائدة : ٧٣ ، سورة الحج : ١٧ .

الامور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا في القضايا التي مست المسلمين[١]، ذلك لان ذوي الامر استنكفوا من تطبيق الشريعة المحمدية عليهم، اذ هي لم توضع لهم. وقد بقيت بعض المبادئ العامة في هذا النظام تسري على اهل الذمة ابان العصر العثماني، وفي عهد الانتداب. اما مبدأ الجمع بين الدين والسياسة، فهو تقليد سامي قديم، وليس هو من محدثات الاسلام.

على ان هذا الوضع السمح الذي خُصّ به اهل الذمة في عهد النبي قد شمل، بعد ذلك، عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت، وعبدة الكواكب من اهل حرّان (الصابئة)، والوثنيين من البرابرة وسواهم. ومع ان هؤلاء لم يكونوا اصحاب دين سماوي، وكانوا قانونياً خارج نطاق الاسلام، فقد اتاح لهم الفاتحون المسلمون الاختيار بين ثلاثة امور هي: الاسلام والسيف، والجزية؛ بدلاً من امرين لا غير: هما الاسلام والسيف. فقد صرّح ابو يوسف[٢] القاضي المعروف في عهد هارون الرشيد، ان المشركين وعبدة النار وعبدة الاصنام، فضلاً عن اهل الكتاب، يجوز ان يمنحوا الامان، ويعتبروا مواطنين داخلين في ذمة الدولة الاسلامية.

ولقد كان اهل الذمة في سورية، حتى عهد عمر الثاني، يعاملون بالحسنى، لا يستثنى من ذلك الا حادثة واحدة وقعت لامير تغلب المسيحية، اذ قتله الوليد الاول لامتناعه عن اعتناق الاسلام[٣]. والظاهر ان المسلمين كانوا اقل تساهلاً بشأن النصارى المتحدرين من اصل عربي، كما يبدو ذلك من هذا الحادث، ومن موقفهم من بني تنوخ بوجه الاجمال. فقد دعي النازلون في جوار قنسرين من التنوخيين الى الاسلام، وعلى اثر فتح سورية، فلبى بعضهم الدعوة[٤]. واجبر المهدي العباسي (٧٧٥ — ٨٥) المقيمين منهم في جوار حلب على اعتناق الاسلام، وعمد الى هدم كنائسهم. أما القبط في مصر، فبعد ان لجأوا في اثبات كيانهم الى الانتفاض على أسيادهم المسلمين، عادوا فآثروا الخضوع في خلافة المأمون العباسي (٨١٣—٣٣)[٥].

---

١) راجع سورة المائدة: ٤٧ — ٥٢.
٢) الخراج، ص ٧٩، س ١٥ — ١٧.
٣) الاغاني، ج ١٠، ص ٩٩.
٤) البلاذري، ص ١٤٤ — ٤٥.
٥) الكندي، تاريخ مصر وولاتها نشر روفون غست Rhuvon Guest (ليدن، ١٩١٢)، ص ٧٣، ٨١، ٩٦، ١١٦، ١١٧؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق، ١٢٧٠)، ج ٢، ص ٤٩٧.

ولقد استأنف النصارى واليهود مزاولة الاعمال التي طالما كسبوا بها عيشهم، مع ان البعض من هذه الاعمال، نظير صنع الخمرة والمتاجرة بها، وممارسة بعض الالعاب التي هي من قبيل الميسر، كانت جميعها محرمة في الاسلام. وقد استمرّت حانات الخمرة ودور المقامرة، حيث كان لعب النرد من احب ضروب اللهو، في ازدهارها؛ بل قد تمتعت احياناً برعاية بعض المتنفذين حتى من المسلمين. وكان الرهبان ارباب خبرة واسعة في صناعة الخمور، وجني العسل، وتعهد الاثمار والازهار. اما في ما يتعلق بالاديار، فغالب الظن انها كانت تشتمل على دار ضيافة للهو والسمر. وقد اورد العمري (ت ٣٤٩)، وهو من ابناء دمشق، اخباراً كثيرة عمل فيها الخلفاء وسواهم من المسلمين على رعاية الاديار والمناسك، من اجـــل الشرب واللهو؛ ولم يكن ذلك اللهو دائماً من النوع البريء. وهذا الامر يصدق بصورة خاصة على الوليد بن يزيد[١]. ففي رواية ان الوليد استطاب خمرة شربها في احد الاديار الى حد انه ملأ الجرن الذي شرب محتواه هو واخوه، بالنقود الفضية. وقد كانت الخمور تصدر من لبنان حتى المدينة جنوباً؛ وروي عن شاعر حجازي كان يقضي ليالي كثيرة حتى الصبح في مجلس لهو مع اصحابه، انه اثار ريبة زوجته، فقال لها:

لا تعدميني نديماً ماجداً انفاً لا قائداً قاذفاً خلقاً ببهتان
سبيئة من قرى بيروت صافية[٢] عذراء او سبئت من ارض بيسان
انا لنشربها حتى تميل بنـــا كما تمايل وسنان بوسنان[٣].

قيود عمر

ان شهرة عمر بن عبد العزيز لم تقم، في الدرجة الاولى، على تقاه او على الغاء الضرائب عن المستجدين في الاسلام فحسب، بل على انه اسبق الخلفاء في الاسلام الى وضع القيود الشديدة على الرعايا المسيحيين — تلك القيود التي نسبت خطأً الى سميه السابق عمر ابن الخطاب[٤]. فقد سن قوانين حظر بموجبها على النصارى تقـــلد

١) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، نشر أحمـــد زكي، ج ١، (القاهرة، ١٩٢٤)، ص ٣٢١ — ٢٢، ٣٤٩، ٣٥١ — ٥٢، ٣٥٥ — ٥٦.

٢) قابل الجزء الاول ١٠٤، ٣٢٨ — ٣٣٠.

٣) الاغاني، ج ٢، ص ٨٦، ٨٨.

٤) راجع ص ٣١ من هذا الجزء. ابن عبد الحكم، ص ١٥١ — ٥٢.

الوظائف في مناصب الدولة، وحرم عليهم لبس العمائم، والزمهم بجز نواصيهم، وبأن يرتدوا ملابس خاصة، ويشدوا اوساطهم باحزمة من جلد، ويركبوا مطاياهم دون ان تسرج؛ ثم منعهم من بناء الكنائس، ومن رفع اصواتهم في الصلاة. وقصر عقوبة المسلم، ان هو قتل نصرانياً، على الدية، وقضى برفض شهادة النصراني على المسلم. ومن المحتمل ان تكون هذه التدابير قد وضعت استجابة لطلب الجمهور. اما في الوظائف الادارية والمهام التجارية والاعمال الصناعية، فلم يتمكن العرب المسلمون، وجلهم ما زالوا اميين، ان ينافسوا ابناء البلاد من المسيحيين. كذلك اليهود — وهم اقل عدداً من النصارى، وقد مارسوا من الاعمال ما هو احقر — فان بعض هذه القيود، على ما يبدو، قد سرت عليهم، وانهم حرموا كذلك من تقلد المناصب في الدولة. ومن الجدير بالذكر ان التمييز بين جماعات الناس، عن طريق الزامهم بارتداء ملابس خاصة، تدبير عرف قبل الاسلام في الشرق الادنى، وان بعض هذه القيود لم تطبق بعد عهد عمر.

طبقة الرقيق

وكان الرقيق الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع. والرقيق نظام سامي قديم، اقرته التوراة فغدا نظاماً شرعياً. ثم قبله الاسلام، بعد ان نص على اصلاح حالة العبيد[١]؛ اذ حرّم الشرع على المسلم ان يستعبد اخاه في الدين، لكنه لم يمنح العبد من الاعاجم الحق بان يعتق لدى اعتناق الاسلام.

وكان اقتناء العبيد في فجر الاسلام عن طريق الشراء او الاختطاف او الغزو او الاسر في الحروب ان لم تؤد عن الاسير الفدية، وفيهم النساء والاولاد. ولم تلبث تجارة الرقيق ان نشطت في العالم الاسلامي، وجنى منها اصحابها ارباحاً وافرة. وكانت اسواق الرقيق تستورد الزنوج من افريقيا الشمالية والوسطى، والرقيق الاصفر من فرغانة وتركستان الصينية، والرقيق الابيض من الشرق الادنى واوروبا الجنوبية الشرقية. وكانت طبقة الرقيق تستمد حيويتها واستمرارها من نظام الرقيق نفسه. فالشرع الاسلامي يعتبر اولاد الامة من العبد، او من اي رجل غير سيدها، او من سيدها ان هو لم يلحقها بنسبه، عبيداً ايضاً. اما اولاد العبد من زوجة حرة فكانوا يعدون من الاحرار.

---

١) سورة النساء: ٤٠، ٢٩ — ٣٠؛ النور: ٣٣.

ثم ان القرآن قد نصّ على وضع متوسط بين السيد من جهة والامة من جهة اخرى تخلف عن نظام التسري، فاعتبر اولاد السيد من جاريته احراراً، وارتفعت منزلة الجارية الى «ام ولد». وعندها يحظر على الزوج بيعها او اهداؤها لاحد ؛ فاذا مات عنها اعتقت. وقد طالما اعتبر اطلاق العبد قرباناً يتقرب به السيد من ربه . وكان العبد المحرر يتمتع بما يحق للمولى من سيده ، حتى انه ليرث ممتلكات سيده اذا توفي بلا وارث. لقد كان دور العبيد ، في هذا الاختلاط الذي عمل على مزج العرب بالاعاجم ، دوراً هاماً ولا شك . وقد جرى هذا في طبقة الاشراف كما في طبقة العوام . فبيزيد الثالث انهار فخر الخلفاء التقليدي بصفاء الدم العربي الذي يجـــري في عروقهم ، اذ كانت امه اميرة فارسية ، سباها الحجاج في خراسان ، وارسلها هدية الى الوليد ؛ في حين كان ابراهيم ، اخو يزيد وولي عهده ، ابناً لجارية لعلها يونانية[١]. وكانت ام مروان الثاني ، الذي ولي الخلافة بعد ابراهيم ، امـــة كردية[٢] ؛ وفي رواية انها كانت حبلى بمروان عندما اقتناها ابوه[٣]، مما يمتنع معه ان يكون آخر خلفاء بني امية اموياً . واخذ من ثمّ يزداد مقام الامة على مقام الزوجة بصورة مطردة في العصر العباسي[٤].

الوضع الاقتصادي العام

ان انفصال سورية عن الامبراطورية البيزنطية اضعف تجارتها البحرية الى حد بعيد . لكنها استعاضت عن ذلك نوعاً باسواق جديدة اتيحت لها بسيادتها على فارس وآسيا الوسطى . ولقد عمد العرب الى اثبات سطوح السفن التي كانت تخوض المتوسط بمسامير من حديد ، وعملوا على طليها بالقطران ، منعاً لتسرب الماء الى داخلها . اما تلك التي مخرت في خليج فارس والمياه الشرقية ، فكانت سطوحها

---

١) العقد ؛ ج ٢ ، ص ٣٣٣ ، ٣٥٢ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٣ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٨٧٤ ، المسعودي ج ٤ ، ص ٣١ — ٣٢ .

٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٥١ .

٣) الانساب ، ج ٥ ، ص ١٨٦ .

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في الفقرة عن عصر جديد .

قد ثبتت ، قبل ولاية الحجاج ، بالحبال ، فامر ان تعالج بالتدبير الذي عولجت به سفن المتوسط[١]. وقد بلغت سفن الحجاج حتى جزيرة سيلان البعيدة ، وتعرضت احياناً لغارات القرصان الهنود[٢]. وقد انشأ عبد الملك داراً لصناعة السفن في تونس[٣] غير تلك التي انشأها معاوية في عكا[٤]، ثم نقل ابنه مصنع عكا الى صور ، حيث بقي حتى زمن المتوكل العباسي[٥]. وكان في البصرة وضواحيها ، في عهد بعض المتأخرين من حكامها في العصر الاموي ، نحو من ١٢٠ الف قناة تمخرها القوارب الصغيرة . غير ان الاصطخري[٦] قد شك بصحة هذا الرقم ، وهو جغرافي من ابناء القرن العاشر زار المكان بنفسه .

وهذه القنوات كانت قد شقت اولاً ، كما في دمشق ، خدمة للري . على ان الزراعة في سورية بوجه الاجمال لم تتضرر كثيراً ، رغم ما كان من طمع القيمين على بيت المال . ولم يكن تحريم الخمر في الاسلام ليقضي على زراعة الكرمة ، الا الى مدى محدود . وهي ما زالت في ازدهارها منذ اقدم الازمنة .

---

١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، نشر دي غويه (ليدن، ١٨٩١) ص ١٩٥ – ١٩٦ .

٢) البلاذري ، ص ٤٣٥ .

٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١١ .

٤) راجع ص ٢٤ من هذا الجزء .

٥) البلاذري ، ص ١١٨ .

٦) ص ٨٠ .

الفصل الثامن والثلاثون

مناحي الحياة الفكرية في العهد الأموي

عندما بادر السوريون والعراقيون والفرس والقبط والبربر الى الدخـــول في حظيرة الاسلام، وامتزجوا بالعرب عن طريق الزواج، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وغدا المسلم، كائنة ما كانت جنسيته الاصلية، يقبل على تعلم العربية، فيعتبر في جملة العرب. عـــلى ان العرب انفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم او الفن او التقليد الفكري او التراث الثقافي، وانما جاءوا بعنصرين جديدين من عناصر الثقافة هما اللغة العربية والدين الاسلامي؛ اما في ما سوى ذلك، فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى الاعتماد على الشعوب التي غلبوها على امرها، فكانوا يمثلون بين ايدي مواليهم مثول التلميذ امام استاذه. وبذلك غدوا مثالاً آخر على المنتصر يغدو اسيراً للمقهور، وعليه فقد كانت مكانة السوريين من العرب نظير مكانة اليونان من الرومان. فاذا نحن تحدثنا عن الطب والفلسفة او الرياضيات عند العرب، فلسنا نعني ضرورة انها من نتاج العقل العربي، او انها نمت وازدهرت برعاية سكان الجزيرة العربية؛ بل نقصد انها اودعت كتباً عربية ألفها علماء من السوريين والفرس والعراقيين والمصريين والعرب، من نصارى ويهود ومسلمين، بعد ان استمدوا اصولها من منابع يونانية وآرامية وهندية وفارسية، وغير ذلك من المصادر.

على ان الحياة الفكرية زمن الامويين لم تبلغ مستوى رفيعاً، اذ كان هذا العصر بوجه الاجمال عصر تمخض واختمار. ذلك ان قربه من الجاهلية، وتوالي الفتن وكثرة الحروب، واضطراب الحالة الاقتصادية والاجتماعية، عملت جميعها على عرقلة ما من شأنه ان ينهض بالحركة الفكرية. ومع ذلك فقد كان هذا العهد هو العهد الذي بذرت فيه البذور التي قدر لها ان تنمو وتزكو وتبلغ غاية نضجها في خلافة بني العباس.

النحو والمعاجم

كان درس قواعد اللغة من المهام الفكرية الاولى التي اضطلع بها العرب في هذا العصر . وكان مما دعا الى ذلك حاجة المستجدين في الاسلام الى تعلمها ، ورغبتهم في قراءة القرآن ، وحرصهم على تقلد الوظائف الحكومية ، واملهم في الالتحاق بطبقة الفاتحين . والجدير بالذكر ان المحاولة الاولى لدرس اللغة العربية. درساً علمياً بدأت في مدينة البصرة ، الواقعة في جوار الحدود الفارسية . ولئن كانت هـذه الخطوة قد تحققت في الاصل من اجل المسلمين الاعاجم . فقد كان هؤلاء في جملة القيمين عليها . ففي هذه المدينة اشتهر ابو الاسود الدؤلي (٦٨٨) الذي جعلته اخبار الرواة منشيء النحو العربي . وقد أورد ابن خلكان[١] ، احد مشاهير مؤلفي التراجم، خبراً ساذجاً عن نشأة هذا العلم ، حيث ذكر ان علياً هو الذي وضع لابي الاسود المبدأ الاساسي ، وهو ان «الكلام كله ثلاثة اضرب اسم وفعل وحرف ، ثم دفعه اليه وقال له : تمّم على هـذا الاساس» . فأتمّ موفقاً . وواقع الامر ان النحو العربي انما نشأ وتطور على نحو بطيء وفي امد طويل . وقد اتّسم بسمات بارزة من المنطق اليوناني والخصائص اللغوية السنسكريتية .

ثم ان عالماً آخر من علماء البصرة ، هو الخليل بن احمد (ت حوالي ٧٨٦) ، تولى جمع اول معجم في اللغة العربية ، هو المعجم المعروف بكتاب العين . والذي يبدو ان الخليل قد اعتمد في تنسيق معجمه النظام الابجدي السنسكريتي الذي يبدأ بالحرف الحلقي « ع » . وينسب اصحاب التراجم الى الخليل ايضاً استنباط بحور الشعر العربي ووضع اصول العروض[٢] ، مما لا يزال متبعاً الى يومنا هذا .

الحديث والشرع

ان توفر المسلمين على درس القرآن ، وحرصهم على التدقيق في شرحه ، افضيا بهم الى وضع علمين توأمين هما علم المفردات وفقه اللغة ؛ وكان من ذلك ايضاً ان نشأ علم آخر تتمثل به اخص ظاهرة من ظواهر الفكر الاسلامي، هو علم الحديث.

---

١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .
٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

والحديث، بمدلوله الاصطلاحي، هو الكلام المنسوب الى النبي، او الى احد صحابته. لذلك كان القرآن والحديث بمثابة الاساس الذي قام عليه علم الفقه واصول الدين، واصبحا الوجهين الملازمين للشريعة الطاهرة. على اننا نكاد لا نعرف من اعلام هذه الحقبة، التي لم يبلغنا من آثارهـا شيء يذكر، الا نفراً قليلاً من المحدّثين والفقهاء، اشهرهم الحسن البصري (ت ٧٢٨)، وابن شهاب الزهري (ت ٧٤٢). والمعتقد ان الحسن البصري قد عرف شخصياً اكثر من سبعين من الصحابة. وقد كان اهل السنة لا يملّون من تناقل اقواله الرشيدة. وارباب التصوف لا ينكرون تأثير زهده وتقاه[١]. وكان الزهري شديد الاستغراق في درس الحديث حتى ان زوجته قالت له يوماً: «والله لهذه الكتب اشد عليّ من ثلاث ضرائر[٢]». اما مدينة الكوفة، التي كانت تنافس البصرة في ميدان النشاط الفكري، فقد اخرجت عمرو ابن شراحيل الشعبي (ت حوالى ٧٢٨)، الذي يقال انه اخذ الحديث عن نحو من مئة وخمسين من الصحابة[٣]، وانه كان يرويه من الذاكرة دون ان يدون منه شيئاً. ولقد ارسله عبد الملك بن مروان بمهمة ذات بال الى امبراطور الروم في القسطنطينية.

ان القانون الروماني قد اثر ولا شك، امـا بصورة مباشرة واما عن طريق التلمود وسواه، في بعض وجوه التشريع الاسلامي، في سورية ومصر، ابان الخلافة الاموية؛ وذلك في المعاملات[٤]، ودواوين الدولة: نظير السكة والخاتم والقراطيس المستخدمة لكتابة الوثائق، وغير هذه من المنافع العامة. وقد جرى العرب على غرار الروم في اعتبار هذه الشؤون والمنافع من المهام الخاصة بالدولة، وفي اعتبار الدولة مسؤولة عن حماية الرعية من التزوير والتزييف والتهريب، وكل ما يتصل بها من المخالفات. واعتبروا من واجبها كذلك انزال العقوبات الشديدة بمرتكبيها[٥]. اما التنفيذ فقد جرى عن طريق الوظائف الادارية التي ورثها العرب والمستجدون

---

١) للراغب في الزيادة ان يراجع ابن خلكان، ج ١، ص ٢٢٧ — ٢٩.

٢) ابن خلكان، ج ٢، ص ٢٢٣؛ ابو الفداء، ج ١، ص ٢١٥ — ١٦.

٣) السمعاني، الانساب، نشر مرغوليوث (ليدن، ١٩١٢) ورقة رقم ٣٣٤؛ قابل ابن خلكان، ج ١، ص ٤٣٦.

٤) انظر: M. Hamīdullāh, «Influence of Roman on Moslem Law», *Hyderabad Academy Studies*, No. 6 (1943), pp. 43 seq.

٥) البلاذري، ص ٢٦٢ — ٧٠.

في الاسلام من الشعوب التي كانت خاضعة ، في ما سبق ، للدولة البيزنطية . ومع ذلك كله فان القارئ لا يصادف في تعابير التشريع العربي الفاظاً مقتبسة من اليونانية ولا اللاتينية ، مع ان بعض التعابير العربية تؤدي المعنى نفسه الذي تؤديه التعابير اللاتينية المقابلة لها [١] . ولسنا كذلك على علم باي كتاب في القانون الروماني ترجم الى العربية . وينبغي ان لا يغرب عن البال ان جميع المذاهب الفقهية الكبرى انما نشأت وازدهرت في مناطق غير بيزنطية ، منها العراق والحجاز [٢] . اما المذهب الضعيف الذي انشأه في سورية الامام الاوزاعي [٣] (ت ٧٧٤) فلم يعش طويلاً .

تدوين التاريخ

بدأ تدوين التاريخ على نحو رواية الحديث ، وكان اول المهام الفكرية التي عني بها المسلمون العرب . وقد كان الدافع الى الاهتمام بالتاريخ رغبة المؤمنين في جمع اخبار النبي والصحابة ، والحاجة الى التثبت من نسب كل عربي مسلم ، لتعيين العطاء المفروض له من بيت المال ، ثم حرص الخلفاء الاولين على تقصي اخبار الملوك والحكام الذين سبقوهم . وهذا معاوية يستدعي عَبيداً (عُبَيداً) [٤] الى دمشق ليحدثه عن ملوك العرب القدماء على اختلاف ممالكهم [٥] فيؤلف له « كتاب الملوك واخبار الماضين » . وكان هذا الكتاب لا يزال يتمتع بانتشار واسع في عهد المسعودي المؤرخ [٦] (ت ٩٥٦) . وممن اشتهر في علم الاوائل وهب بن منبّه (ت حوالي ٧٢٨) ، وهو يهودي من اهل اليمن يغلب انه اعتنق الاسلام . وقد نشر له منذ عهد قصير كتاب اسمه « التيجان » يبحث في ملوك حمير .

الخطابــة

ان الخطابة على انواعها قد ازدهرت في العصر الاموي ازدهاراً لم تبلغ نظيره

---

١) انظر ما يلي ، آخر الفصل ٤٢ .

٢) انظر ما يلي ، آخر الفصل ٤٢ .

٣) انظر ما يلي ، فصل ٤٢ في الفقرة عن الاوزاعي .

٤) راجع الفصل ٤٧ حول حياة الاسرة الحاكمة .

٥) الفهرست ، ص ٨٩ ، س ٢٦ ؛ وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير (حيدراباد ، ١٣٤٧) ، ص ٣١٢ — ١٣ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .

٦) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

في ما بعد. فقد كان خطيب المسجد يلجأ اليها في عظة الجمعة ليؤدي عن طريقها رسالته الدينية. وكان القائد يستعين بها على اثارة الحماسة في صدور الجنود، والحاكم يعوّل عليها في بث الروح القومية في نفوس رعاياه. ولا تزال عظة الحسن البصري التي القاها في حضور عمر بن عبد العزيز، وحفظ منها شيء في سيرة عمر[١]، وخطب زياد بن ابيه[٢] الحماسية، وخطب الحجاج[٣] النارية، تعد الى الآن، من انفس الذخائر الادبية التي بقيت لنا من ذلك الزمن القديم[٤].

كتابة الرسائل

وكانت رسائل الخلفاء الاولين بالغة الايجاز واضحة الغرض. ولم يُعمد الى اطالتها وتنميقها والاسهاب فيها الا في اواخر العهد الاموي. وقد ذكر ابن خلكان[٥] ان اول من اطالها عبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠)، كاتب الخليفة الخاص. اما ما تميزت به هذه الرسائل من رقة واناقة، فينمّ عن مؤثرات فارسية. وهذه المؤثرات الفارسية كثيراً ما تلحظ في الحكم والامثال القديمة.

الشعر

لم يكن عهد الفتوحات العنيف مؤاتياً لظهور الشعراء في امة ذات تقليد راسخ في الشعر. ولا كان الاسلام مؤاتياً لنشاط ربة القريض[٦]. ولكن ما كاد الامويون يتولون الخلافة، ويدفعون السياسة في اتجاه دنيوي، حتى عادت الصلات بآلهة الخمر والغناء والشعر الى سابق عهدها. وفي هذه الفترة بلغ الانتاج الشعري اوج ازدهاره.

وكان من اقدم الشعراء الامويين كعب بن جعيل التغلبي (ت حوالي ٧٠٥).

---

١) ابن الجوزي، السيرة، ص ١٢١ — ٢٦.

٢) انظر الفصل ٣٣ حول العراق في استقرار مؤقت.

٣) انظر الفصل ٣٥ حول الحجاج الوالي النشيط.

٤) من رغب في شواهد اخرى فليراجع ابن قتيبة، عيون الاخبار، ج ٢ (القاهرة، ١٩٢٨) ص ٢٣١ — ٥٢، الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ (القاهرة، ١٩٢٦) ص ١٧٧ وما يتبع، ج ٢؛ (١٩٢٧)، ص ٤٧ وما يتبع؛ العقد، ج ٢، ١٧٢ وما يتبع.

٥) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٥٠، قابل المسعودي، ج ٦، ص ٨١.

٦) القرآن، سورة الشعراء: ٢٤ — ٢٧، سورة يس: ٦٩؛ سورة الحاقة: ٤١.

وكانت بعض بطون تغلب قد دخلت الاسلام. ومع ان كعباً كان قد اعتنق الاسلام، فانه كان يقسم بإله النصارى والمسلمين، ويجلّ قرّاء الانجيل والقرآن على السواء[١]. وان الاثر المسيحي ليتجلى في شعره اكثر مما يتجلى في شعر نسيبه المسيحي الاخطل.

وكان الاخطل[٢] (حوالي ٦٣٤ — حوالي ٧٢٨) شاعر البلاط الاموي، وكان يناصر قضية الامويين في وجه الحزب الديني. ولم يكن يتردد في هجاء المنافسين اذا كان ذلك بطلب من يزيد. وذلك بخلاف موقف كعب[٣]. وكان الاخطل، بوصفه شاعر البلاط، يدخل على معاوية والصليب يتدلى من عنقه. على ان التعليم المسيحي لا يبدو انه كان قد مس قلب هذا الشاعر المدمن الفاجر الا مساً رقيقاً. فقد قال لزوجته الحامل يوماً، اذ جرت وراء اسقف راكب على حماره، لتتبرك بلمس ثوبه فلم تصب الا ذيل الحمار: «هو وذنب حماره سيان»[٤].

وكان الاخطل واحداً من ثلاثة شعراء ملأ ذكرهم العصر. وكان الآخران جريراً الهجاء اللاذع (ت حوالي ٧٢٩) وهو شاعر الحجاج[٥]، والفرزدق الفاسق (٦٤٠ — ٧٣٢) شاعر عبد الملك واولاده: الوليد وسليمان[٦] ويزيد. وكانوا في مديحهم — وهو مورد رزقهم — يقومون نحو أسيادهم بما تقوم به الصحافة الحزبية اليوم. وكثيراً ما كان الهجاء ينشب بينهم فيحمل واحدهم على الآخر. اما من حيث جودة الشعر فقد كانوا في طليعة شعراء العرب، حتى ان نقدة العرب لم يقعوا على من يجوز ان يوازى بهم منذ ذلك العهد.

---

١) خليل مردم «كعب بن جعيل التغلبي». مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١٩ (١٩٤٤)، ص ١٥ — ٢٤، ١٠٤ — ١٢.

٢) لقد نشرت مجموعتان من شعره تحت عنوان «شعر الاخطل» نشرهما الاب صالحاني (بيروت، ١٨٩١، ١٩٠٥).

٣) ابن قتيبة، كتاب الشعر والشعراء، نشر دي غويه (ليدن، ١٩٠٢—٤)، ص ٣٠١ — ٤.

٤) الاغاني. ج ٧، ص ١٨٣.

٥) ابن قتيبة، الشعر، ص ٢٨٧. ومن رغب في شواهد اخرى فليراجع ديوانه (القاهرة، ١٣١٣)، ج ١.

٦) ابن قتيبة، الشعر، ص ٢٠٧ — ٩٧. وللاطلاع على مدائحه راجع ديوانه. اعده ر. بوشير (باريس، ١٨٧٥) ونشر بعد وفاته. راجع ايضاً الاغاني، ج ٨، ص ١٨٦ — ٩٧، ج ١٩، ص ٢ — ٥٢؛ ابن خلكان، ج ٣، ص ١٣٦ — ٤٦.

وفي العهد الاموي تجلى الشعر الغزلي، لاول مرة، باجلى مظاهره. وكان الزعيم الاكبر لشعراء الجزيرة عمر بن ابي ربيعة (ت حوالي ٧١٩)، امير شعراء الغزل في الادب العربي. كان عمر قرشياً[١]، فوقف شعره الحبي على النساء الجميلات الوافدات الى الاماكن المقدسة لتأدية فريضة الحج، واستطاع ان يخلد شعوره نحو الجنس اللطيف بشعر يجيش عاطفة، والفاظ تذوب رقة.

وكما كان عمر يمثل في شعره الحب الاباحي، كان معاصره جميل العذري (ت ٧٠١) يمثل بشعره الحب العذري البريء ذا الطابع الافلاطوني. وكان جميل من بني عذرة، وهي قبيلة نصرانية كانت تقيم في الحجاز. وكان الشعر الذي قاله في بثينة — وهي فتاة من قومه[٢] — ينم عن روح رقيقة، لا نظير لها في ذلك العهد. ولقد كان لجميل في هذا النوع من الشعر الغنائي الرقيق منافس، هو شاعر نسجت حوله هالة اسطورية، دعي بقيس بن الملوّح، وعرف بمجنون ليلى[٣]، (ت حوالي ٦٩٩[٤]). فقد افتتن قيس هذا بفتاة من بني قومه بادلته الحب، لكن اباها اكرهها على الزواج من سواه. وعندها اضاع قيس صوابه يأساً، وهام على وجهه شبه عار، يجول بين هضاب نجد واوديته بقية حياته، يتغنى بمفاتن حبيبته، ويحنّ الى نظرة من محياها؛ ولا يعود الى رشده الا متى ذكر له اسمها. ولقد غدا مجنون ليلى بطلاً لروايات لا تحصى في الادب العربي والتركي والفارسي، كلها تشيد بقوة الحب الخالد.

والى جانب الشعر الحبي بدأ الشعر السياسي بالظهور في هذا العصر. وكانت اولى مناسباته المبايعة ليزيد بالخلافة[٥]، اذ طلب الى مسكين الدارمي ان ينظم شعراً يناسب المقام، وينشده علناً في هذه المناسبة[٦]. وقد بلغ هذا الشعر السياسي

---

١) الاغاني، ج ١، ص ٣٢. للاطلاع على حياته وشعره راجع: جبرائيل جبور، عمر ابن ابي ربيعة، مجلدان (بيروت، ١٩٣٥ / ١٩٣٩).
٢) ابن قتيبة، الشعر، ص ٢٦٠ — ٦٨: الاغاني، ج ٧، ص ٧٧ — ١٠٠.
٣) الاغاني، ج ١، ص ١٦٩، كما في ابن خلكان، ج ١، ص ١٤٨.
٤) الكتبي، فوات الوفيات، (بولاق، ١٢٨٣)، ج ٢، ص ١٧٢.
٥) راجع ما سبق، ص ٤٢ من هذا الجزء.
٦) الاغاني، ج ١٨، ص ٧١ — ٧٢: قابل ابن قتيبة، الشعر، ص ٣٤٧.

اوجه في القصيدة التي نظمها عبيد الله بن قيس الرقيات[١] (ت ٧٠٤) في عبد الملك ابن مروان. وفي هـذا العصر تحققت كذلك اولى المحاولات لجمع الشعر الجاهلي القديم، وذلك على يد حماد الراوية (حوالي ٧١٣ — ٧٧٢). وكان حماد فارسي الاصل، وكان في لسانه عجمة؛ وقد عُدَّ بين الذين اشتهروا في تاريخ العرب بالذاكرة العجيبة. وفي بعض الروايات انه قدم مرة الى الوليد بن يزيد — وهو شاعر كذلك[٢] — لينشده من الشعر الجاهلي وحده مئة قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء؛ وان الوليد سمع منه بالذات اولاً، ثم اناب عنه من يواصل الاستماع اليه، فبلغ ما انشده ٢٩٠٠ قصيدة. وعندها سر منه الخليفة، وأمر له بمئة الف درهم[٣].

ثم ان قرب العهد بين الشعر الاموي من جهة، والاسلام وشعر الجاهلية من جهة اخرى، قد اضفى عليه من صفاء الاسلوب وقوة التعبير وجلال الطبع، ما جعله مثالاً تحتذيه الاجيال اللاحقة؛ وغدت اوضاعه وخصائصه الفنية، منذ ذلك العهد، النموذج الذي احتذاه الشعراء العرب في التعبير عن خوالجهم الخاصة، والنظم في اغراضهم العامة. وكان من ذلك عجز الشاعر، منذ ذلك الحين، عن ان يسلخ نفسه عن تراثه الادبي، وان يبدع شعراً انسانياً يبقى على مرور الزمن. ولذلك كان جل اعتماد النحاة في مؤلفاتهم على شواهد استمدوها من الشعر الجاهلي والاموي.

التربية والتعليم

لم تكن التربية ذات نظام مقرر في ذلك العهد وانما ارسل الامويون احداثهم الى البادية شرقاً[٤] لكي يقبسوا اللهجة العربية الصافية، ويمارسوا ركوب الخيل، ويتعلموا الرماية والقنص. وكان معاوية صاحب السابقة في ارسال ابنه وولي عهده

١) راجع ديوانه نشر رودو كنكاكس (ڤينا، ١٩٠٢) ص ٦٧ وما يلي.

٢) راجع ديوانه نشر غبريللي (دمشق، ١٩٣٧) حيث تبرز خمرياته.

٣) ابن خلكان، ج ١، ص ٢٩٢، الاغاني، ج ٥، ص ١٦٤ — ٦٥. انظر كذلك العقد، ج ٣، ص ١٣٧ — ٣٨.

٤) راجع ص ٤١ — ٤٢ من هذا الجزء.

العتيد الى البادية لهذا الغرض. وقد كان الجمهور يعتبر الفتى مؤدَّباً ان هو تعلم القراءة والكتابة، واحسن الرماية والسباحة. اما من برع في هذه الامور، فقد كان فوق المتأدب، انه الرجل الكامل[١]. وغالب الظن ان اشتراط السباحة في العلم امر نشأ مع ظروف العيش على ساحل المتوسط. اما المثُل الخلقية العليا في التربية، كما يشف عنها أدب العصر، فقد حاولت ان تبقي على القيم الخلقية التي طالما اعتز بها اهل البادية نظير: الشجاعة، والصبر، والمروءة، والجود، والضيافة، وحفظ الجوار، والوفاء بالعهود.

وقد غدا المؤدب في عهد عبد الملك بن مروان في جملة حاشية البلاط. وكان مما اوصى به عبد الملك مؤدب اولاده «علِّمهم الصوم، وخذهم بقلة النوم[٢]». لكن عمر بن عبد العزيز كان اميَل الى العنف بحق اولاده، فكان يوعز بمعاقبتهم بالضرب ان هم لحنوا[٣]. ويتجلى تقاه في ما اوصى به مؤدب اولاده حيث قال «... وليكن اول ما يعتقدون من ادبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن[٤]».

اما من رغب في العلم من الجمهور فلم يكن متاحاً له من المدارس، منذ بدء الاسلام، الا الحلقات المسجدية. وكان محور التعليم في هذه الحلقات القرآن والحديث، وكان القراء هم المعلمين الاولين. فالقرّاء، والحالة هذه، اقدم المعلمين في الاسلام؛ ولا يزالون القيمين على التعليم في الارياف والقرى النائية. وكان عمر بن الخطاب، منذ سنة ٦٣٨، قد ارسل نفراً من هؤلاء المعلمين الى جميع الانحاء، وامر الناس ان يجتمعوا اليهم في المساجد ايام الجمعة. وكان اول معلم برزت شهرته في مصر قاضياً ارسله اليها عمر بن عبد العزيز سنة ٧٤٦[٥]. وكان للضحاك

---

١) ابن سعد، ج ٣، قسم ٢، ص ٩١، س ١٠ — ١١؛ قابل ج ٥، ص ٣٠٩، س ٧ وما بعد؛ الاغاني ج ٦، ص ١٦٥، س ٩.

٢) المبرّد، ص ٧٧، س ٦ — ٧.

٣) ياقوت، معجم الادباء، نشر مرغوليوث، ج ١، (ليدن، ١٩٠٧)، ص ٢٥ — ٢٦.

٤) ابن الجوزي، السيرة، ص ٢٥٧ — ٥٨. راجع الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٣٨ — ١٤٣.

٥) الكندي، الولاة، ص ٨٩؛ السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، (القاهرة، ١٣٢١)، ج ١، ص ١٥٤.

ابن مزاحم (ت ٧٢٣) ، وهو احد مؤدبي اولاد عبد الملك[١] ، كتّاب في الكوفة يعلم فيه الصبيان دون ان يستوفي منهم رسوماً[٢] .

العلوم – علم الطب

وكان اعتماد العرب في العلوم الطبيعية على اليونان ، وكان اسبقها الى الظهور عندهم علم الطب . وتتجلى وجهة نظر المسلمين الى العلوم الطبية في الحديث المنسوب الى النبي ، وهو : « العلم علمان ، علم الاديان وعلم الابدان » .

وعندما اكتسح العرب آسيا الغربية كانت علوم اليونان قد فقدت حيويتها وفاعليتها ، وغدت تراثاً تقليدياً تداولته ايدي الشارحين والمحترفين ممن اجادوا اليونانية او السريانية . وقد كان اطباء البلاط الاموي نفراً من هؤلاء ، اشتهر منهم الطبيب النصراني ابن أُثال ، طبيب معاوية[٣] ، والطبيب اليوناني ثياذوق ، طبيب الحجاج[٤] . وكان من هؤلاء طبيب يهودي ، فارسي الاصل ، بصري الموطن ، اسمه ماسرجويه ؛ عمل سنة ٦٨٣ ، في خلافة مروان بن الحكم ، على ترجمة كتاب في الطب عن السريانية ، كان قد ألفه باليونانية راهب نصراني في الاسكندرية اسمه اهرون[٥] ؛ فكان اول كتاب علمي بلغة الاسلام . ويذكر عن الوليد ، حفيد عبد الملك ، انه عزل المصابين بالجذام والعمى ، وسواها من الامراض المزمنة ، ورتب لهم ما ينبغي للعناية بامرهم[٦] ؛ فتحققت بذلك اول مؤسسة صحية في الاسلام . وقد ذكر عن عمر ابن عبد العزيز انه امر بنقل معاهد الطب من الاسكندرية ، حيث ازدهر الطب اليوناني ، الى انطاكية وحرّان[٧] .

---

١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
٣) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ، ١٨٨٢) ، ج ١ ، ص ١١٦ ،
٤) ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٢١ .
٥) ابن العبري ، ص ١٩٢ .
٦) ابن العبري ، ص ١٩٥ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٩٦ ، المسعودي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .
٧) ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١١٦ ، س ٢٥ – ٢٦ .

علم الكيمياء القديم

وكان من العلوم المتصلة بالطب علم الكيمياء القديم ، وهو من العلوم الاولى التي ظفرت بعناية العرب ، ادى فيه العرب ، كما في علم الطب خدمات بارزة . ولقد ورد في الاخبار عن خالد بن يزيد (ت ٧٠٤ او ٧٠٨) انه كان اول عالم وحكيم في الاسلام ؛ وانه كان ، على ما ذكر صاحب الفهرست[١] ، اول من امر بنقل كتب في الكيمياء والطب والتنجيم عن اليونانية والقبطية الى العربيـــة . والحقيقة التي تستشف من هذه المزاعم ان الحوافز الاولى التي دفعت العرب الى طلب العلم ، والمعارف العلمية الاولى التي كسبوها ، انما صدرت من اصول يونانية . ثم ان الاخبار تقرن اسم هذا الامير الاموي باسم جابر بن حيان ، مع ان جابراً زها بعد هذا العصر بزمن طويل (حوالي ٧٧٦) ؛ وسنأتي على ذكره فيما بعد . وكذلك الرسائل الموضوعة في التنجيم والكيمياء ، والمنسوبة الى جعفر الصادق (٧٠٠ — ٧٦٥[٢]) ، وهو احد الائمة الاثني عشر عند الشيعة ، فقد اظهر البحث العلمي الحديث انها منحولة[٣] .

المجاري الفكرية

وقد ظهر في العصر الاموي كذلك حركات دينية فلسفية عديدة غلب عليها اسم الفرق . ذلك ان احتكاك المسلمين بالنصارى في سورية اثار ضرباً من التأمل الديني والنقاش الفكري ، انتهى بظهور عدد من تلك الفرق ، من اشهرها فرقة المعتزلة . والمعتزلة فرقة دينية فلسفية تعتمد العقل في بناء آرائها ؛ اسسها في البصرة واصل بن عطاء (ت ٧٤٨) ، وكان معتقدها الاول ان المسلم اذا ارتكب كبيرة خرج من جماعة المؤمنين ، لكنه لا يكون في عداد الكفار ، بل يغدو في منزلة بين

---

١) الفهرست ، ص ٢٤٢ ، ٣٥٤ : Julius Ruska, *Arabische Alchemisten, I. Chālid Ibn Jazīd Ibn Mu'āwija*, (Heidelberg, 1924), pp. 8 *seq.*

٢) الفهرست ، ص ٣١٧ ، س ٢٥ ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، نشر فلوغل ، ج ٢ ، (ليبزغ ، ١٨٣٧) ، ص ٥٨١ ، ٦٠٤ ؛ ج ٣ ، (لندن ، ١٨٤٢) ، ص ٥٣ ، ١٢٨ .

٣) انظر : J. Ruska, *Arabiche Alchemisten*, II. *Ga'far Al ṣādiq, der sechste Imām* (Heidelberg, 1924) pp. 49-59.

المتزلتين[١]. وكان واصل احد تلامذة الحسن البصري، وكان يميل الى الاخذ بهذا الرأي، فجعله نقطة التحول في تعليم المعتزلة. وكان من آرائها الاساسية ايضاً ان الصفات الالهية، نظير القدرة والحكمة والحياة، ليس لها وجود ازلي بازاء ازلية الذات الالهية، وذلك على اعتبار ان اثبات الصفات يفسد عقيدة التوحيد، وهي العقيدة الاساسية في التعليم الاسلامي. وعمدت المعتزلة كذلك الى الحد من القدرة الالهية من اجل توثيق فكرة العدالة. ومن هنا كان شيوخ المعتزلة يؤثرون ان يعرفوا «بأهل العدل والتوحيد». بلغت هذه الحركة الفكرية اوجها ابان خلافة المأمون العباسي[٢] في مدينة بغداد، وفيها استؤنف النشاط الفكري من حيث انتهى في البصرة والكوفة.

وهنالك فرقة اخرى كانت قد اعتنقت فكرة حرية الارادة في هذا العصر عرفت بالقدرية (من معنى القدرة)، وذلك معارضةً للجبرية (من معنى الالزام[٣]). ذلك ان ظهور القدرية كان ردّةً في وجه التعليم الاسلامي الصارم الذي يقول بالجبر المطلق، مستخرجاً مما نص عليه القرآن من ان قدرة الله لا تحد[٤]؛ وهذه الردة تنم، في ما يبدو، عن تأثير نصراني. وعلى ذلك فقد كان القدريون يذهبون الى ان الانسان يملك القدرة على اعماله. ولقد كانت هذه الفرقة اقدم الفرق الفلسفية في الاسلام، وكان لها في تعليم حرية الارادة اتباع كثيرون كان منهم اثنان من خلفاء بني أمية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث[٥].

القديس يوحنا الدمشقي

وكان من ابرز من تسرب على يدهم الاثر المسيحي والفكر اليوناني الى الجو

١) المسعودي، ج ٦، ص ٢٢؛ ج ٧، ص ٢٣٤؛ قابل الشهرستاني، ص ٣٣؛ البغدادي، اصول الدين (استنبول، ١٩٢٨)، ج ١، ص ٣٣٥؛ المختصر، ص ٩٨؛ النوبختي، فرق الشيعة. نشر ريتر (استنبول، ١٩٣١)، ص ٥.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في آخر الفقرة عن القلاقل في سورية ولبنان وفلسطين.

٣) قابل الايجي، كتاب المواقف، نشر سورنسن (ليبزغ، ١٨٤٨) ص ٣٣٤، ٣٦٢.

٤) سورة آل عمران: ٢٥ — ٢٦؛ الحجر: ٢١؛ الشورى: ٢٦؛ الزخرف: ١٠.

٥) قابل ابن حزم، الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ٣ (القاهرة، ١٣٤٧)، ص ٣١.

الاسلامي القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٠ — حوالي ٧٤٩[١]) . ويوحنا الدمشقي هذا — وهو الملقب «بدفاق الذهب» نظراً لفصاحة لسانه — كان يؤلف باللغة اليونانية، مع انه كان سورياً . وقد تكلم في حياته اليومية اللغة الآرامية ولا شك، وكان الى ذلك يحسن العربية . وقد كانت المناقشات التي نشبت بينه وبين علماء المسلمين، حول حرية الارادة وعقيدة القضاء والقدر، البادرة التي استهلت عهد الحركة العقلانية في الاسلام[٢]؛ وكان يعلّم ان الله خلق العالم وتركه يجري بقوة استمراره[٣]. وكان يوحنا في صباه يحضر مجالس الشراب مع الاخطل ويزيد بن معاوية. وقد شغل، في ما بعد، منصباً رفيعاً في الدولة كان لوالده من قبله على انه لم يلبث ان اعتزل هذا العمل في اوائل خلافة هشام (حوالي ٧٢٤) ولجأ الى دير القديس سابا في الجنوب الشرقي من مدينة القدس، يعيش فيه حياة الزاهدين المنقطعين الى العبادة.

ولقد وضع القديس يوحنا عدداً من روائع المؤلفات[٤]، من اهمها كتاب «ينبوع الحكمة» الذي لخص فيه آراء المشاهير من المؤلفين الكنسيين الذين تقدموه، ونسقها تنسيقاً حسناً . وكان هذا الكتاب اول «خلاصة لاهوتية» وصلت الينا . وقد اعتمده بطرس اللومباردي وتوما الاكويني، وغدا المرجع والمعتمد لمشاهير علماء الدين ممن جاء بعدهما . وقد نُقل الكثير من مؤلفات يوحنا الى اللسان اللاتيني . واتفقت الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية على اعتباره قديساً . ومن اطرف ما كتب مما نحن بصدده محاورتان ساقهما بين مسيحي ومسلم، شدد فيهما على الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية[٥] . وكان الغرض من هذا الكتاب ان يكون تبريراً للنصرانية، ومستنداً لهداية النصارى في مناقشة المسلمين؛ ولعل مادته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري امام الخليفة، ويشترك هو فيها بالذات مما يشهد على انه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لهما[٦] . اما

---

١) قد احتفل بمرور اثني عشر قرناً على وفاته في دمشق سنة ١٩٥٠ .

٢) راجع الفصل ٤١ حول الاضطرابات في سورية ولبنان وفلسطين.

٣) انظر كتابه : «Exposition of the Orthodox Faith», in *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. ix, p. 39.

٤) Migne, *Patrologia Graeca*, vols. xciv–xcvi

٥) Migne, vol. xciv, cols. 1585-98; vol. xcvi, cols, 1335-48

٦) راجع ص ٤٠ — ٤١ من هذا الجزء.

في ما يتصل بقصة برلام الزاهد، ويوصافات الامير الهندي[١] – ولعلها اشهر حكاية دينية في العصور الوسطى – فان نسبتها الى القديس يوحنا غير صحيحة . ذلك ان اصلها اللاتيني واليوناني يعود الى ترجمة عربية عن اصل فارسي، متأخر عن عهد القديس يوحنا[٢]. والقصة هي الرواية المسيحية لحياة بوذا، ومن الغرابة ان تكون الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية قد اجلّتاه على السواء باسم يوصافات .

وكان من وجوه النشاط البارزة في حياته، دفاعه عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة، مع التشديد بان المعبود ليس هو مادة الصورة، بل ما تمثله[٣]. وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور ليو الايصوري يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات تزلفاً منه، فيما يظن، الى المسلمين . وكان من ذلك ان تعرض يوحنا لغضب الامبراطور . وقبل وفاته بوقت قصير، قام بجولة واسعة في سورية داعياً الى مقاومة مبطلي الايقونات، وبلغ من جرأته ان قصد الى القسطنطينية معرضاً حياته لخطر الموت. لقد كانت الشعائر الدينية، على اختلاف مظاهرها، ذات اهمية حيوية في تقديره؛ وقد نظم هو نفسه اناشيد روحية (حفظت بعضها الكنائس الانجيلية في كتب اناشيدها) بلغت من جمال الشعر الكنسي ارفع مقام . وكان القديس يوحنا آخر آباء كنيسة الروم الشرقية . وكان من حيث هو عالم لاهوتي، وخطيب ديني، ومدافع كنسي، ومجادل عقائدي، ومنظم للفن البيزنطي، وللموسيقى البيزنطية، من ابرز مفاخر الكنيسة في ظل الخلافة .

القديس يوحنا الدمشقي

---

١) Migne, vol. xcvi, cols. 857-1250

٢) راجع : "Barlaam and Ioasaph" in *Encyclopedia Catholica*

٣) *Nicene Post-Nicene Fathers*, Ser. 2, vol. ix, p. 88

المرجئة

كانت الحركة الفكرية التي قام بها الخوارج والقدرية والمعتزلة الخطوات الاولى في الاتجاه الذي نال من صلابة موقف أهل السنة ، وكانت حركة المرجئة الخطوة التالية في هذا الاتجاه . وكان الركن الاول في تعليم المرجئة ارجاء الحكم على اصحاب الكبائر وعدم التسليم باخراجهم من حظيرة الايمان[١]. ذلك لانهم اعتقدوا ان الاعمال ليست شرطاً في صحة الايمان . وانما نشأ هذا التعليم من اجل تبرير موقف الخلفاء الامويين الذين اتهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدسة . فقد ذهب ارباب هذا الرأي الى ان الامويين مسلمون ولو اسمياً ، ولما كانوا ، بحكم الواقع ، قادة الاسلام السياسيين ، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين . وقالوا ان علياً ومعاوية كليهما من عبيد الله ، فالحكم بشأنهما لله وحده . وفي هذا الجو السمح الذي خيّم على هذه الحركة الفكرية نشأ الامام الكبير ابو حنيفة (ت ٧٦٧) ، مؤسس المذهب الاول من المذاهب الفقهية الاربعة في الاسلام[٢].

الخوارج

وكان الخوارج ، نظير المرجئة ، من الفرق السياسية الدينية في الفكر الاسلامي . يعود منشأهم الى عهد صفين ، اذ سخط على عليّ جماعة من اتباعه ، لانه جعل حقه في الخلافة موضوعاً للتحكيم[٣]. وكان هؤلاء من اخلص اتباعه ، فغدوا من اشد خصومه . اما غرضهم فكان المحافظة على المبادئ الديمقراطية الاولية التي اقرها التعليم الاسلامي . ومن اجل ذلك اثاروا حروباً وفتناً متواصلة ، بقيت الدماء تجري بسببها مدة ثلاثة قرون . فلقد عارضوا المبدأ القائل بحصر حق الخلافة في قريش[٤]، وابوا الاخذ بكرامة الاولياء ، وبما يرافق ذلك من مراسيم خاصة وزيارات الى

١) قابل البغدادي ، المختصر ، ص ١٢٢ — ٢٣ ؛ ابن حزم ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في الفقرة عن الاوزاعي .

٣) راجع ما سبق ، ص ٣٢ — ٣٣ من هذا الجزء .

٤) ابن الجوزي ، نقد العلم والعلماء (القاهرة ، ١٣٤٠) ، ص ١٠٢ .

مدافن الصالحين . وحرموا الطرق الصوفية على اختلافها . وقد بقي منهم الى الآن الفرقة المعروفة بالاباضية، وهم اتباع ابن اباض[١]. احد زعمائهم في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة. وتجدهم اليوم متفرقين في الجزائر وليبيا وعُمان وزنجبار .

على ان اهمّ تلك الفرق على الاطلاق كانت فرقة الشيعة ، وهي احد الفريقين المتعادين اللذين تخلفا عن الانشقاق الذي وقع بين المسلمين في عهد الاسلام الاول، بسبب الاختلاف على صاحب الحق الشرعي في الخلافة ؛ واما الفريق الآخر فهو اهل السنة[٢]. وفي العهد الاموي تهيأ للشيعة توطيد نظامها ؛ وكان الفارق الاساسي بين الشيعة (انصار علي) والسنة (جماعة المحافظين) مسألة الامامة ، وهي خلافة محمد ورئاسة المسلمين . فالشيعة تتشبث بأن امامة علي وابنائه هي الامامة الحقة الوحيدة، وهي في ذلك نظير الكثلكة التي تتمسك بخلافة البابوات للقديس بطرس . فالنبي قد اعتبر القرآن — وهو كلام الله المنزل — الواسطة بين الله والبشر ، اما الشيعة فقد جعلت ذلك الوسيط انساناً هو الامام[٣]. وعلى ذلك فالسني يعبر عن عقيدته بانه يؤمن بالله الواحد الصمد،يؤمن بنزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الازل، اما الشيعي فيزيد فقرة اخرى لاستكمال التعبير عن الايمان اذ يقول انه يؤمن بان الامام الذي اختاره الله ، وبث فيه شيئاً من روحه القدسي ، هو الهادي الى الحق والمرشد الى سبيل الخلاص .

فالخليفة في نظر السنة هو الرئيس الزمني لجماعة المسلمين ، وهو امير المؤمنين وحامي الشريعة ؛ فهي لا تخصه بسلطة روحية[٤] . والشيعة بخلاف ذلك — تحصر الامامة في اسرة علي، ولا تكتفي باعتبار الامام الرئيس الاوحد للمجتمع الاسلامي،

---

١) البغدادي ، المختصر ، ص ٨٧ — ٨٨ ؛ الايجي ، ص ٣٥٦ ؛ الشهرستاني، ص ١٠٠ .

٢) السنة بمعنى العادة والتقليد ، وهي اصطلاحاً مبدأ المحافظين من جماعة المسلمين .

٣) وردت هذه المادة في القرآن بغير المعنى المصطلح وذلك في سورة البقرة : ١١٨ ، والنحل : ٧٩ ، والفرقان : ٧٤ ، ويس : ١١ . والامام بحسب الاصل : من تقدم الناس في الصلاة . وكانت هذه المهمة اولاً للنبي ، وغدت من بعده لخلفائه او لمن انتدبوهم لذلك . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

٤) الايجي، ص ٢٩٦ وما بعد؛ الماوردي ، ص ٢٣ — ٢٤ ؛ النسفي ، عمدة عقيدة اهل السنة ، نشر كورتن (لندن ، ١٨٤٣) ، ص ٢٨ — ٢٩ .

بل تجعله الى ذلك الرئيس الروحي والزعيم الديني ، وتذهب الى انه يستمد سلطانه من النص المقدس . وهكذا يصبح لسليل محمد ، من ذرية علي وفاطمة ، قوة خارقة تصل اليه عن طريق الوراثة [١] ، بها يغدو فوق البشر ، وعن طريقها يتميز بالعصمة . على ان بعض نصوص السنة المتأخرة قد نسبت العصمة من الاثم والخطإ الى الانبياء دون سواهم ، وأخصهم محمد[٢] . وتمادى غلاة الشيعة في تأليه الامام حتى انهم اعتبروه تجسيداً للألوهية . ولا شك في ان فكرة المهدي المنتظر ، التي تجلت في ما بعد وقامت على انتظار مخلّص يفتتح بظهوره عهداً جديداً من الحرية والرغد ، إنما هي صدى للأمل بظهور مسيح جديد .

ولقد كان العراق ، من بين سائر الاقطار الاسلامية ، اخصبها تربة لنمو تعاليم الشيعة . ثم غدت فارس ، بعد اوائل القرن السادس عشر ، المعقل الاكبر للتعليم الشيعي . ويبلغ مجموع عدد الشيعة اليوم ٥٠ مليوناً ، اي نحواً من اثني عشر بالمئة من مجموع المسلمين [٣] . فهم في لبنان وسورية ، حيث يعرفون بالمتاولة ، يبلغون على سبيل التقدير ٢٣٢ الفاً . ولقد تحدر من الشيعة عـــدد من الفرق الصغيرة يكاد لا يحصى ، بينهم الخارجيون والمتطرفون الذين لم يعودوا يعتبرون من الشيعة . وكان التشيع كالمغناطيس ، يجذب اليه جميع الناقمين والمخالفـــين لاعتبارات اقتصادية او اجتماعية او سياسية او دينية . من هؤلاء جماعة كانت قد ظهرت في اوائل الاسلام ، وعملت متسترة ضد التعليم العربي الجديد ، ثم اخذت في الانضواء الى صميم الشيعة ، لتحمل من ثم لواء المعارضة في وجه النظام القـــائم . وما الاسماعيلية والقرامطة والدروز والنصيرية ، ومن جاراهم ، ممن سنعرض لهم في ما بعد ، الا فروع نمت من الاصل الشيعي .

من المحتمل ان يكون النبي محمد قد تنكر للموسيقى كما تنكر للشعر [٤] ، وذلك لصلتها بالشعائر الدينية الوثنية ليس الا . ففي حديث عنه انـــه قال ان الآلات

---

١) الشهرستاني ، ص ١٠٨ — ٩ ؛ المسعودي ، ج ١ ، ص ٧٠ .

٢) ابن حزم ، ج ٤ ، ص ٢ — ٢٥ ؛ الايجي ، ص ٢١٨ وما بعد ؛ I. Goldziher, *Der Islam*, vol. iii (1912), pp. 238-45.

٣) اذا اضفنا الى هذا العدد المنشقين عن الشيعة نظير الزيدية والحشاشين وجماعة « علي الهي » بلغ المجموع نحواً من ٤٥ مليوناً ، وارتفعت النسبة الى ١٥ بالمئة من مجموع المسلمين .

٤) صورة الشعراء ، ٢٢٤ — ٢٦ .

الموسيقية مؤذن الشيطان يدعو بها الناس الى عبادته[١]. وكان السواد الاعظم من علماء الشريعة والفقه يعرضون عن الموسيقى والموسيقيين، في حين كان جمهور الناس يعبرون عن رأيهم فيها بالقول المأثور: «الخمر كالجسد، والسماع كالروح، والسرور ولدهما[٢]».

وما كادت الروعة الاولى، التي رافقت ظهور الاسلام تنكشف، حتى اخذ المغنون المحترفون، من نساء ورجال، يظهرون على مسرح الحياة. ففي العصر الاموي غدت مكة، وبالأخص المدينة، مدرسة للغناء ومعهداً للموسيقى[٣]. فوفد عليهما من بعيد الموهوبون من ارباب الفن، وصدر منهما الى بلاط دمشق سيل متزايد ابداً من اهل الحذق الفني. ولما كان يزيد الاول، الخليفة الاموي الثاني، هو نفسه موسيقياً، فقد ادخل الغناء والعزف الى البلاط[٤]، وكأن اول من اقام، في دار الخلافة، المهرجانات الكبرى التي حفلت بالغناء وشرب الخمر. ثم ان عبد الملك شمل برعايته سعيد بن مسجح (او مسجّح حوالي ٧١٤) خرّيج المدرسة الحجازية، ولعله اعظم موسيقي انجبه العصر الاموي. وكان سعيد هذا مولى زنجياً من اهل مكة، قيل انه طاف في انحاء سورية وفارس، ونقــل بعض الالحان البيزنطية والفارسية الى العربية[٥]. وقد اضيف اليه فضل تنسيق الموسيقى العربية نظرياً وعملياً في عهد العرب الاول. وكذلك الوليد الاول، الخليفة الذي رعى الفنون والعمارة في الاسلام، فقد استدعى الى عاصمته ابن سريج (ت حوالي ٧٢٦)، احد المغنين الاربعة الكبار في الاسلام[٦]، ومعبد (ت ٧٤٣)، وهو مولّد من اهل المدينة، واستقبلهما بحفاوة بالغة. وقد بقي معبد اثيراً محبباً في البلاط اذ ظفر بالحظوة لدى يزيد الثاني

---

١) راجع النويري، نهاية الارب، ج ٤، ص ١٣٢ — ٣٥؛ الغزالي، احياء علـوم الدين (القاهرة، ١٣٣٤) ج ٢، ص ٢٣٨ وما بعد؛ A. J. Wensinck, *A Handbook of Early Muhammadan Tradition* (Leyden, 1927), p. 173; Henry G. Farmer, *A History of Arabian Music to the Thirteenth Century* (London, 1929) pp. 24-25.

٢) النواجي، ص ١٧٨، راجع النويري، ج ٤، ص ١٣٦ وما بعد.

٣) العقد، ج ٣، ص ٢٣٧.

٤) الاغاني، ج ١٦، ص ٧٠؛ قابل المسعودي، ج ٥، ص ١٥٦ — ٥٧.

٥) الاغاني، ج ٣، ص ٨٤.

٦) الاغاني، ج ١، ص ٩٨.

والوليد الثاني [١]. ويزيد هذا هو الذي اعاد الشعر والموسيقى الى سابق عهدهما في حياة الاسرة الحاكمة، بعد فترة من الرصانة والزهد تميز بها عهد الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز. وحكاية يزيد مع المغنيتين حبابة وسلامة من الاخبار المعروفة [٢]. وكان الوليد الثاني يحسن العزف على العود، وينظم الاغاني. وكان يجمع في بلاطه حشداً من العازفين والمغنين. اما هشام فقد خص برعايته مغنياً من اهل الحيرة اسمه حنين.

ولقد كانت الانغام خاضعة لنظام معروف من الايقاع (النوتات)، إلا ان هذا النظام لم يدون، وانما كان ينقل شفهياً من جيل الى جيل. وهذا كتاب الاغاني، حافل بالابيات التي كانت تغنى في العهد الاموي، لكنه لم يثبت لنا ايقاعاً واحداً مدوناً. وكان من شيوع العناية بالغناء والموسيقى في ظل الامويين ما اتاح لمنافسيهم العباسيين استغلال ذلك في الدعاية ضد الحكام الامويين «المغتصبين المارقين».

التصوير

ان تنكر الاسلام للفن التصويري لا يتجلى بصورة بارزة حتى اوائل العصر العباسي؛ وهو، في ما يبدو، صدى لرأي جماعة من اليهود اعتنقوا الاسلام، او من رواسب الفكر البدائي الذي يزعم ان من كان فيه شبه من شخص آخر كان باستطاعته ان يؤثر تأثيراً سحرياً مماثلاً.

ولقد ذهب معظم الفقهاء، منذ العصر العباسي، الى ان رسم الكائنات الحية من خصائص الله وحده. وروي عن النبي انه قال ان اشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون [٣]. ومنذ ذلك الحين لم يرسم مخلوق بشري في مسجد ما في دنيا الاسلام؛ الا ما كان من ذلك على جدران القصور، وفي الكتب المدونة، وهو قليل. وعليه فقد استمد الفن الزخرفي جل مواضيعه من علم الهندسة ومملكة النبات.

واقدم ما يمثل فن الرسم في الاسلام الرسوم الطينية المحفوظة في قصير عمرة. وهو قصر في شرقي الاردن، بناه الوليد الاول، وكان يأوي اليه في موسم الصيد. وهذه الرسوم تمت عن صناعة مصورين من النصارى. فقد رسمت على جدران القصر

١) الاغاني، ج ٢، ص ١٩ وما بعد؛ المسعودي، ج ٦، ص ٤.
٢) راجع ص ٨٩ — ٩١ من هذا الجزء.
٣) البخاري، الجامع الصحيح (بولاق، ١٢٩٦)، ج ٧، ص ٦١.

صور لستة من الامراء، جميعهم من اعداء العرب، بينهم رودريك ملك القوط الغربيين في اسبانيا[1]. وهنالك اشكال اخرى رمزية تمثل النصر، والفلسفة، والتاريخ، والشعر. وبينها مشهد صيد يمثل اسداً ينقضّ على حمار وحشي. وهنالك رسوم سواها تمثل راقصات عاريات، وموسيقيين ومطربين. وليس بين آثار الفن الاسلامي ما هو اسلم حفظاً من هذه الرسوم.

ولقد كشفت الحفريات الحديثة في خربة المفجر[2] الواقعة على بعد ثلاثة اميال من اريحا شمالاً، عن قصر شتوي للامويين متقن الصنع، زخرفت جدرانه برسوم انسانية وحيوانية. وقد اثبت النحات عليه اسم هشام (٧٢٤ — ٤٣) مما لا يدع شكّاً في هوية بانيه. وهنالك تمثال قائم لفتاة تحمل ضمة من الزهور؛ ولوحة تمثل جماعة من الفتيات السمينات يرقصن، وقد صبغن شفاههن واظافر انامل اليدين واصابع الرجلين بصباغ قرمزي. هذا، الى حديقة حيوانات جمعت انواعاً من الطيور والارانب والحيوانات الاخرى. وهذا الفن ينم عن صلة لا تقبل الخطأ بالفن الهيليني النبطي؛ والظاهر ان زلزالاً وقع سنة ٧٤٦ هدم هذا القصر قبل ان يتمّ بناؤه.

قصور البادية

كان للخلفاء الامويين، كما ذكرنا سابقاً[3] قصور في الارياف يلجأون اليها فراراً من الامراض السارية[4]، يعيشون فيها حياة قروية فيشفون ما في نفوسهم من حنين الى حياة البادية. واننا لنجد بقايا القصور ودارات الصيد منثورة على تخوم البادية، لاسيا في القطاع الجنوبي، وهي مبان انشأ بعضها معماريون امويون على الطراز البيزنطي او الفارسي، ورمموا البعض الآخر وكان مما بناه الرومان قديماً[5].

نذكر من هذه القصور، على سبيل المثال اثنين هما عمرة والمفجر. والجدير بالذكر ان هذين الاسمين، نظير اسماء قصور عديدة اخرى، من الاسماء الحديثة،

---

١) راجع ص ٧٤ من هذا الجزء.

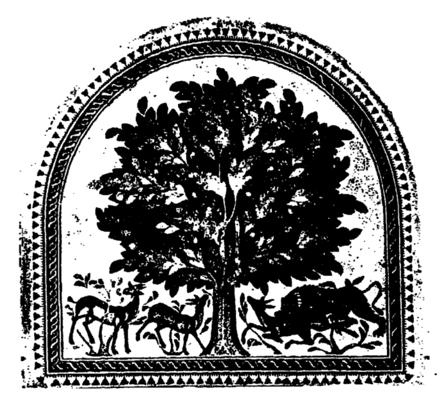
٢) جرت هذه الحفريات على يد دائرة الآثار الفلسطينية وبدأ العمل سنة ١٩٣٥. راجع: « Excavations at Khirbet el Mefjer », *Quarterly of the department of Antiquities in Palestine*, vol. v (1936); pp. 132-8; vol. vi (1937), pp. 157-68.

٣) راجع ص ٤١ — ٤٢ من هذا الجزء.

٤) الطبري، ج ٢، ص ١٧٨٤.

٥) راجع الجزء الاول ص ٣١٨ — ١٩.

ولم ترد في المدونات القديمة . وخير هذه القصور على الاطلاق هو قصير عمرة[١]، وذلك لما يمتاز به من تصاوير جدارية ذات روعة بالغة . ويعود بناء هـذا القصر الى عهد الوليد الاول بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥، لكنّ خبره لم يشتهر في اوساط العلماء حتى سنة ١٨٩٨[٢].



بلاط من الفسيفساء في قصر خربة المفجر ، يبدو فيه رسم فني لشجرة اترج يرعى الى احد جانبيها ظبيان ، وينقض اسد على ظبي ثالث في الجانب الآخر . ويحيط بالصورة حاشية من الفسيفساء مشرقة الالوان تبدو بها الصورة كأنها قطعة من السجاد

وقصر آخر مشهور جـدًّا من قصور هذه المنطقة هو المعروف بالمشتّى[٣] . بناه

١) تصغير قصر ، من لفظة لاتينية castrum بطريق السريانية .

٢) انظر: Alois Musil, *Kusejr 'Amra und andere Schlosser ostlich von Moab* pt. I (Vienna, 1902) pp. 5 seq. ; do., *Kusejr 'Amra, I. Textband* (Vienna. 1907). وقد ظن موزل هذا ان الوليد الثاني هو الذي بناه .

٣) قابل : Musil, *Arabia Deserta*, p. 408 ; do., *Palmyrena*, p. 279, حيث يعتبر هذا القصر وقصوراً اخرى سواه من قصور الصيف لا الشتاء .

الوليد الثاني الذي كان شديد الولوع بالصيد ، وبغير الصيد من ضروب اللهو غير البريء . ولا تزال واجهة هذا القصر الجميل ، ذات النحت الدقيق ، محفوظة الى اليوم في متحف برلين[١]. والوليد هذا هو الذي بنى ايضاً قصر خربة المنية الى الشمال الغربي من بحيرة طبرية . وقد عثر في الحفريات على دينارين يتفق تاريخهما مع تاريخ نقش هناك ينص على ان الوليد الثاني هو الذي امر ببنائه[٢]. وكان الوليد قد اقام ايضاً في قصر آخر ، نحو عشرين ميلاً الى الجنوب من مدينة عمان ، هو قصر القسطل[٣]. وقد ذكر مؤرخ سابق[٤] ان الذي بنى القسطل هو الحارث بن جبلة الغساني[٥]، فاذا صحت الرواية كان هذا القصر من آثار الجاهليين . وقد شغل الوليد كذلك بناء آخر في ذلك الجوار عرف بالازرق[٦]. وكان ابوه يزيد الثاني قد بنى او رمم قصر الموقّر[٧]، الذي لم يبقَ من آثاره الا القليل . اما قصر الطوبة (التوبة ؟) ، الى الجنوب الشرقي من الموقر فقد عفت آثاره ولم يبقَ ما يدل عليه .

ثم ان هنالك قصوراً خربة اخرى على تخوم البادية الى الشمال من هذا المكان بعضها لم يتناوله الدرس الى الآن ، اهمها قصر أُسيس[٨] (سَيس حديثاً) الواقع ٨٣ ميلاً من دمشق شرقاً . وهو موقع محصن يشتمل على جهاز للري يستخدم للانتفاع بمياه الامطار . وغالب الظن انه من المباني التي اقامها الوليد ، وهو الوحيد بين الآثار الباقية من نوعه .

---

١) راجع: Brunnow and Domaszewski, *Provincia Arabia*, vol. ii, pp. 105-70; B. Schulz and J. Strzygowski, « Mschatta », *Jahrbuch der Koniglich-preuszischen Kunstsammlungen*, vol. xxv (1904), pp. 205-373.

٢) « Khirbat Minya », *Quarterly of the department of Antiquities in Palestine*, vol. vi (1937), pp. 215-16; vol. vii (1938), pp. 49-51.

٣) من اللاتينية castellum بطريق السريانية . ياقوت ج ٤ ، ص ٩٥ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

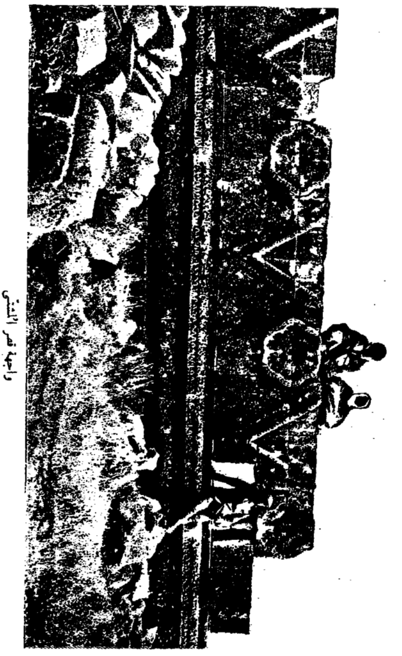
٤) هو حمزة الاصفهاني ، ص ١١٧ .

٥) ورد ذكره في الجزء الاول ص ٤٤٧ .

٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٤٣ .

٧) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٦٨٧ . ان المنطقة التي قامت فيها قصور البلقاء والموقر والقسطل وسواها من المباني واقعة الى الشرق من نهر الاردن وبشتمل كذلك على مواب .

٨) ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٧١ ؛ Musil, *Palmyrena*, p. 282; G. Sauvaget, « Les Ruines omeyyades du Djebel Seis », *Syria*, vol. xx (1939), pp. 239-56.



واجهة قصر المشتى

قصر الحير

وهنالك قصران آخران في هذه المنطقة يعرفان بالحير[١]؛ والظاهر انه كان للخلفاء مساكن ذات حدائق مسوّرة تحفظ فيها حيوانات برية للصيد. يقع اول هذه القصور على بعد اربعين ميلاً الى الشمال الشرقي من مدينة تدمر، وهو المعروف بقصر الحير الشرقي، تمييزاً له عن القصر الغربي الواقع بين تدمر والقريتين. ويبلغ اتساع اراضيه خمسة اميال طولاً ونحو ميل واحد عرضاً. اما باني هذا القصر فهو هشام بن عبد الملك، وكان ذلك سنة ٧٢٩. وقد زعم احد المؤرخين ان هذا القصر هو قصر الرصافة[٢] المنسوب الى هشام[٣]. وكان هشام شديد التعلق بالرصافة، وفيه مات ودفن[٤]. ولقد استخدمت في هذا القصر «السقاطة» التي سبق استخدامها في سورية قبل الاسلام، والتي عرفت في اوروبا في آخر القرن الثاني عشر.

ويقع على بعد اربعين ميلاً الى الجنوب الغربي من تدمر، قصر الحير الغربي الذي بناه هشام ايضاً سنة ٧٢٧، كما يستدل من بعض نقوشه الباقية. ويبدو ان هشاماً كان يقيم فيه قبل ان تحول الى الرصافة. وقد يكون هذا القصر هو الذي دعاه مؤرخو العرب بالزيتونة[٥]، وكان اولاً حصناً بيزنطياً او رومانياً. وبين اثاره الرائعة تمثالان لامرأتين عند المدخل، ينم صنعهما عن الفن التدمري. وبين الرسوم صورة لقينتين تعزف احداهما على عود ذي خمسة اوتار[٦].

---

١) في مسكويه، تجارب الامم، نشر مرغوليوث، ج ١ (القاهرة، ١٩١٤) ص ١٥٩ س ١٥ ورد الاسم «حائر» ولفظة حير من السريانية بمعنى البقعة المحصورة بحائط، وهي ذات صلة بلفظة حيرة بمعنى الخيم او المعسكر؛ انظر ما سبق الجزء الاول ص ٤٤٩.

٢) راجع الجزء الاول ص ٤٣٥ — ٣٦.

٣) G. Sauvaget in *Bulletin d'études orientales*, vol. v (1935) pp. 136-7; do., «Remarques sur des monuments omeyyades», *Journal Asiatique*, vol. ccxxxi (1939), pp. 1-13. وللاستزادة من العلم عن هذا البناء راجع ايضاً Henry Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 1 (1934) pp. 1-3; ser. 2 (1938), pp. 1-9; K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, pt. 1 (Oxford, 1932), p. 330.

٤) الطبري، ج ٢، ص ١٧٢٩.

٥) الطبري، ج ٣، ص ١٤٦٧.

٦) وهذا يبطل نسبة استنباط الوتر الخامس الى الفنان المشهور زرياب الذي توفي حوالي سنة ٨٥٢؛ Hitti, *History of the Arabs*, p, 598.

ان زخارف هذا القصر المحفوظة الآن في المتحف الوطني في دمشق تملأ الثغرة الفاصلة بين الفن البيزنطي والفن الاسلامي . فهي تؤلف بين العناصر الساسانية والبيزنطية والسورية وتنسقها في نظام منسجم . ولقد تحولت الاشكال الفنية التي نشأت هنا الى المغرب، وبلغت غايتها من الدقة والاتقان في قرطبة وغرناطة . ولقد جرى العباسيون مجرى الامويين في انشاء الجنائن حول القصور على النظام المتبع في قصر الحير . فقد اشتملت عاصمتهم المؤقتة سامرا على قصر من هذا النوع ، وصفه العالم الجغرافي الكبير اليعقوبي[1] بقوله انه قد حوى حيوانات برية من غزلان، وحمر وحشية، وظباء وارانب ، ونعام، جعلت في بقعة فسيحة جميلة ، احاط بها سور عال . ولسنا نصادف عند الرومان رغبة في انشاء حدائق الحيوانات حتى العهد الامبراطوري ، مما ينم بوضوح عن تأثير شرقي[2] .

وكان الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك (٧١٥ — ١٧) يقيم في بلدة بناها في فلسطين هي الرملة . وهي البلدة الوحيدة التي انشأها العرب في سورية[3] وقد بقيت آثار من قصر الخليفة حتى مطلع القرن العشرين ، ولا تزال مأذنة المسجد الابيض قائمة كما رممها المماليك . وغدا هذا المسجد ، بعد المسجد الاموي في دمشق ، وقبة الصخرة في القدس، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سورية .

المساجد : المسجد الاقصى

ظل المسلمون، بعد فتح سورية بنحو من نصف قرن يقيمون الصلاة في كنائس حولوها الى مساجد . ولم يعمدوا ، في هذه الاثناء الى بناء مسجد ما . وخلافاً لما ورد في الاخبار ، لم يقسموا الكنائس بالذات بينهم وبين النصارى ، بل اكتفوا بقسمة الباحة المقدسة . فكان المصلون من ابناء دمشق يدخلون من باب واحد في السور ، ثم يتحول النصارى الى اليسار ، وينعطف المسلمون الى اليمين[4] . وعندما

---

١) البلدان ، ص ٢٦٣ .

٢) للاستزادة عن هذا القصر راجع : D. Schlumberger, « Les Fouilles de Qasr el-Heir el Gharbi » *Syria*, vol. xx (1939) pp. 195-238, 324-73; Ja'far al-Hasani. «Qasr al-Hayr», *Majallat al-Majma' al-Ilmi, al-'Arabi*, vol. viii (1941), pp. 337-45.

٣) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، نشر جوينبول (ليدن ، ١٨٥٣) ، ص ٤٠ .

٤) Creswell, pt. i, p. 134.

احتل المسلمون مدينة حماه، حولوا الكنيسة التي نعتها احد المؤرخين الاهليين[١] بالكبرى، الى الجامع الاكبر. ولا تزال الواجهة الغربيـــة في حالة سليمة[٢]. وكذلك المسجد الاكبر في حمص[٣]، ومسجد حلب[٤]، فقد كانا من معابد النصارى. ولا تزال الآثار المسيحية، والاعمدة الرومانية ظاهرة للعيان في معبد حمص.

وكان اول مسجد بني في سورية قبـــة الصخرة[٥] في القدس، بناه عبد الملك سنة ٦٩١ في موقع قام عليه قبلاً هيكل سليمان. وهو يمثل اقدم بناء اثري اسلامي لا يزال قائماً. والى يمين الصخرة كان موقف محمد في ليلة عروجه، ومن هنا ارتقى حصانه العجيب[٦] نحو السماء. ولما كانت مدينة القدس موقفاً للنبي، واول قبلة في الاسلام، فقد اكتسبت في نظر المسلمين صفة التقديس في عصر باكر. وربما كان ذلك ايضاً لاعتبارات سياسية. فقد هدف الخليفة الاموي من ايجاد معبد فخم الى تحويـــل قوافل الحجاج السوريين عن مكة، وهي آنئذٍ في حوزة منافس له في الخلافة[٧]، والى ان تتضاءل في جنبه كنيسة القيامة وسائر كاتدرائيات النصارى في سورية[٨]. ومن اجل تحقيق هذا الغرض، عمد عبد الملك الى استخدام المهندسين الاهليين، والفنانين المدربين في مدارس بيزنطا. واقيم هـــذا البناء على طراز كاتدرائية بُصرى[٩]؛ اما ابوابه البرونزية المزينة بصفائح فضية مزخرفة، فهي من اقدم ما بقي لنا من هذا النوع من الزخارف، وهو الفن الذي اتقنه الفنانون

---

١) ابو الفداء، ج ١، ص ١٦٨.

٢) Creswell, p. 14.

٣) البلاذري، ص ١٣١؛ المقدسي ص ١٥٦.

٤) البلاذري، ص ١٤٦ — ٤٧.

٥) ويسمّيه الاوروبيون خطأً مسجد عمر، فمن الجائز ان يكون عمر عندما زار القدس سنة ٦٣٨ (انظر ما سبق في ص ١٤ من هذا الجزء) قد بنى معبداً بسيطاً من الخشب او الطوب.

٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 114.

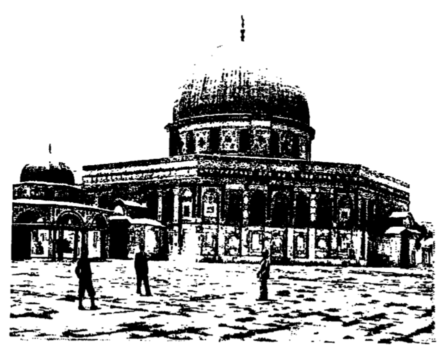
٧) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١١؛ راجع ما سبق في ص ٥٨ من هذا الجزء.

٨) المقدسي، ص ١٥٩.

٩) **Dussaud, *Syrie antique*, p. 10., cf. M. S. Briggs, *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine* (Oxford, 1924), p. 37.**

البيزنطيون وتميّزوا به . ولقـــد اسرف الفنانون في تزيينه بالفسيفساء والرسوم الكاشانية ، عند بنائه في الاصل ، او عند ترميمه او تجديده . ويشتمل الطراز الكاشاني على الرصف بقطع البلاط المربعة او المسدسة الصقيلة ، وربما رسمت فيها صور نباتية او اشكال هندسية . وهي تعود الى اصل فارسي بشهادة اسمها[١] . اما صناعة الفسيفساء فمن المستطاع ارجاعها الى العهد البابلي . وقد ترك لنا عبد الملك على دائر باطن القبة كتابة بالخط الكوفي هي اقدم ما بـــين ايدينا من الكتابة الاسلامية . وبعد ذلك بنحو قرن وربع القرن ، عمد الخليفة العباسي المأمون الى ترميم هذا البناء ، ولم يتحرج من ان يزيل عنه اسم عبد الملك ليضع اسمه في مكانه ؛ لكنه ، لحسن الحظ ، غفل عن ان يغيّر التاريخ[٢] .

والى شرقي القبة بناء صغير انيق يعرف بقبة السلسلة ؛ وكان يقوم مقام بيت المال لمسجد القبة ويبدو من طرازه وزخارفه انه يعود الى العهد نفسه . ومن اجل



قبة الصخرة وقبة السلسلة

١) كاشان مدينة في مديا ؛ ياقوت ؛ البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥ .

٢) والعبارة هي : بنى هذه القبة عبد الله عبد (الله الامام المأمون) أميرُ المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين . فليقبلها آلله منه ويرضى عنه ! امين .

صيانة حرمة المكان روى المسلمون حديثاً زعموا به ان الملك سليمان وضع هنالك سلسلة جعلها حاجزاً ، يستطيع الصادقون المخلصون وحدهم ان يروها ويلمسوها ، دون ان تتأثر بلمسهم ، اما الكاذبون المراؤون فلا يرونها .

المسجد الاقصى

وبالقرب من قبة الصخرة ، اقام عبد الملك مسجداً آخر هو المسجد الاقصى[1] ، غدت القبة منه بمثابة المزار . واسم المسجد الاقصى بالمعنى المتداول يطلق عملياً على الباحة المقدسة برمتها ، البالغة نحواً من ٣٤ فداناً ، بكل ما يقوم عليها من ابنية مقدسة ، نظير التكايا الصوفية والسبل العامة التي انشأ بعضها المماليك وسلاطين بني عثمان في ما بعد ؛ والحرم الشريف معبد آخر من هذه المباني المقدسة ، وهو يقوم في موقع كان سابقاً لهيكل يهودي ، وكنيسة مسيحية ، ومعبد وثني (روماني) ، مما يجعله من اقدس الاماكن على وجه الارض . ثم ان المسجد الاقصى يقوم على موقع كان سابقاً لكنيسة كرسها يوستنيانوس للقديسة مريم . وقد استخدمت انقاضها في بنائه . وبعد ان رمم المنصور العباسي هذا المسجد مما لحقه من فعل الزلزال ، اجرى فيه الصليبيون بعض التغييرات ، ثم استرده منهم صلاح الدين سنة ١١٨٧ .

المسجد الاموي

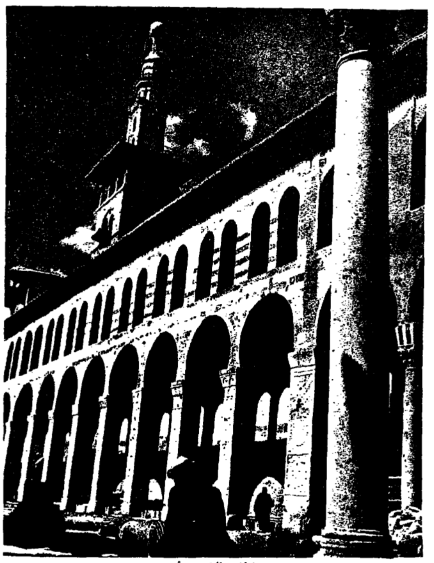
ويجيء بعد المسجد الاقصى ، خطورة وتاريخاً ، المسجد الاموي في دمشق . فقد استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ على كاتدرائية القديس يوحنا المعمداني . وانتزعها من ايدي الرعية المسيحية ، وحولها الى هذا المسجد[2] الذي يُعد من افخم المعابد في العالم . ولا يزال الجامع الاموي الى الآن يعتبر ، بعد معابد مكة والمدينة والقدس ، الحرم المقدس الرابع في الاسلام . وكانت كاتدرائية القديس يوحنا هذه قد بنيت على انقاض هيكل مكرس لجوبتر الدمشقي — وهو في الاصل الاله

---

١) الاقصى : الابعد ، من اشارة مزعومة في القرآن (سورة الاسراء ١) ، ومن هذه الآية نشأت حكاية المعراج . اما الفخري (ص ١٧٣) فقد نص على ان بانيه هو الوليد . للوقوف على وصف اسبق راجع ابن الفقيه ، ص ١٠٠ — ١٠١ ، دوّن حوالي سنة ٩٠٣ ؛ والمقدسي ، ص ١٦٩ — ٧١ ، دوّن حوالي ٩٨٥ .

٢) ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ ابو الفداء ، ج ١ ، ص ٢٠٩ — ١٠ .

السوري حَدَد[١] — بني على طراز هيكل الشمس في تدمر. ولقد تذرع المسلمون لتبرير استيلائهم على الكنيسة — وكانوا حتى ذلك الحين قد شاطروا اصحابها النصارى



الجامع الاموي في دمشق

جانباً من باحتها — برواية تاريخية تزعم انه لدى فتح دمشق، كان دخول خالد بن الوليد وابي عبيدة[٢] اليها في وقت واحد، دخلها الواحد من الشرق عنوة، والآخر

١) راجع الجزء الاول ص ١٨٦.
٢) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

من الغرب سلماً؛ وان الفريقين التقيا في وسط الكنيسة، دون ان يدري احدهما بالآخر. ولا يزال مدفن رأس يوحنا تحت قبة في المسجد متقنة الصنع غنية التذهيب. وهنالك اثر نصراني آخر، هو كتابة يونانية منقوشة على عتبة باب السور الجنوبي مؤداها: «ملكك ايها المسيح ملك كل الدهور، وسلطانك في كل دور فدور[١]».

والمقول ان الوليد واصل العناية بتحقيق هذا المشروع مدة سبع سنوات، ووقف عليه خراج سورية برمته[٢]. ولم يقتصر على استخدام اهل الخبرة من ابناء البلاد، بل حشد له صناعاً وفنانين من الفرس والهنود. وارسل الى امبراطور الروم في طلب مئة من الفنانين اليونان[٣]. ولقد زين سقف المسجد واعالي جدرانه بالفسيفساء الملونة والرخام النادر، وبدت فيه رسوم جدارية مذهبة ومرصعة بالحجارة الكريمة، تمثل مشاهد من الاشجار والمدن شاهدها العالم الجغرافي السوري المقدسي[٤]. لكن احد الحكام المتزمتين سترها بطلاء من طين، فبقيت محجوبة، الى ان كشف عنها سنة ١٩٢٨[٥]. ولقد تبيّن، لدى درس هذه الرسوم والزخارف، انها اصدق تمثيلاً للصناعة السورية الاهلية منها للفن اليوناني البيزنطي.

وقد بنى الوليد في الجانب الشمالي من المسجد مئذنة استخدمت ايضاً بمثابة منارة[٦]، وغدت نموذجاً للمآذن في سورية وشمالي افريقيا، ثم نقل طرازها الى الاندلس على يد عبد الرحمن الاول. وهذه المئذنة هي اقدم مئذنة اسلامية خالصة لا تزال قائمة. اما المئذنتان الاخريان في الطرف الجنوبي، فقد قامتا على برجين قديمين للكنيسة[٧]. ويذكر لنا الغزالي (ت ١١١١) انه اعتكف في المئذنة الشمالية،

---

١) قابل: المزمور ١٤٥: ١٣؛ والرسالة الى العبرانيين الاصحاح ١: ٨.

٢) المقدسي، ص ١٥٨؛ قابل: العيون والحدائق، ص ٧.

٣) ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٢؛ وكتاب العيون يجعل عددهم مئة الف ويذكر ان بعضهم استخدموا في مكة والمدينة: قابل الطبري ج ٢، ص ١١٩٤؛ ابو الفداء، ج ١، ص ٢١٠؛ ابن جبير، ص ٢٦١.

٤) ص ١٥٧؛ قابل الاصطخري، ص ٥٧، ابن رسته، ص ٣٢٦؛ العيون، ص ٨ – ٩.

٥) E. de Lorey and M. van Berchem, *Les Mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas* (paris, 1930); Creswell, pp. 119-20.

٦) دعيت ايضاً «صومعة» (ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٠)، وقد راج اسم المئذنة في ما بعد.

٧) قابل ياقوت، ج ٢، ص ٥٩٣.

وانقطع فيها الى التأمل والصلاة[١]. والطراز المربع المنبسط للمآذن متحدر ولا شك من برج المراقبة او برج الكنيسة. اما الطراز المستدير المستدق، الذي يذكّرنا بالاعمدة الرومانية القديمة، فقد اعتمده الترك، في ما بعد، وحققوه في بناء المساجد في سورية، كما يتمثل ذلك في مسجد خالد بن الوليد في حمص.

ويتميز جامع دمشق ايضاً بانه اول مسجد ظهر فيه المحراب؛ وفيه تظهر كذلك الحنية المشابهة لحذوة الفرس. ومع ان البناء قد احترق سنة ١٠٦٩ ثم سنة ١٤٠٠ (على يد تيمورلنك)، واخيراً سنة ١٨٩٣، فانه لا يزال، في نظر المسلمين، من عجائب الدنيا السبع وهو العجيبة الرابعة بينها[٢].

والوليد، وهو في طليعة المعنيين بالمباني من الامويين، هو كذلك صاحب الفضل في ترميم مسجد المدينة، وتوسيع مسجد مكة وتجميله، وبناء الكثير من المدارس والمستشفيات[٣] والمساجد في سورية. ويضاف اليه كذلك نقل قبة نحاسية مذهبة من كنيسة في بعلبك الى مسجد كان والده قد بناه في القدس. ولما كان عهده عهد أمن ويسار، فقد كان حديث الناس في دمشق متى اجتمعوا، يدور بالاكثر على الصروح الفخمة والمباني الانيقة[٤].

ولقد تحقق، في ما خلفه الامويون من قصور ومساجد، انسجام العناصر الفنية العربية والفارسية والسورية واليونانية، وتألف من ذلك جميعه البادرة الاولى في الفن الاسلامي. فالعنصر العربي قد تمثّل في تكرار وحدات فنية بغير نهاية، بحيث يستطاع الاضافة اليها، او الحذف منها دون اخلال بالشكل ككل؛ وهذه الاعمدة التي يحفل بها مسجد قرطبة تشهد على ذلك؛ وكذلك الاشكال الهندسية المتلاحقة، فانها توحي رتابة الصحراء، حيث تبدو صفوف جذوع النخيل في واحة ماء او قوائم الجمال في القوافل الظاعنة، كأنها لا تنتهي عند حد. اما الفن الفارسي، فقد ادى من دقة الزخرفة واناقة الزركشة وروعة الالوان الشيء الكثير. وهكذا فان العناصر والاشكال السامية القديمة واليونانية الدخيلة قد ائتلفت في سورية الاموية واتجهت نهائياً في خدمة الاسلام.

---

١) الغزالي، المنقذ من الضلال (القاهرة، ١٩٣٦)، ص ٢٧؛ قابل ابن خلكان، ج ٢، ص ٢٤٦.

٢) ابن الفقيه، ص ١٠٦؛ ابن عساكر، ج ١، ص ١٩٨؛ ياقوت، ج ٢، ص ٥٩١.

٣) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء.

٤) الطبري، ج ٢، ص ١٢٧٢ — ٧٣.

الفصل التاسع والثلاثون

الكنيسة المسيحية السريانية

الكنيسة السريانية الشرقية

كانت الكنيسة المسيحية السريانية، قبل ظهور الاسلام، قد انقسمت الى طوائف عديدة، فكان منها اولاً الكنيسة السريانية الشرقية، او كنيسة الشرق. فهذه الطائفة التي نشأت في اواخر القرن الثاني تدعي انها قد واصلت، بلا انقطاع، نشر التعليم الروحي، وممارسة الطقس الكنسي والنظام الكهنوتي والتقليد الديني، منذ عهد الملك ابجر (Abgar) الرهاوي؛ وقد زعموا انه كتب الى السيد المسيح يسأله ان يشفيه من المرض العضال الذي اصابه، وان المسيح وعده بان يوجه اليه احد تلاميذه بعد صعوده الى السماء[1]. هذه الكنيسة هي التي تسمى خطأً بالكنيسة النسطورية، منسوبةً الى الراهب الصقلي نسطوريوس[2]. الذي تأخر عنها تاريخياً نحواً من قرنين ونصف القرن. فان الروم الكاثوليك هم الذين سموها، في عهد متأخر، بالنسطورية من اجل ان يلصقوا بها وصمة الهرطقة، ولكي يميزوا بينها وبين من التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية، ممن قالوا بالطبيعة الواحدة، واطلق عليهم اسم الكلدانيين. ولقد انتخب اول بطريرك للطقس الكلداني سنة ١٥٥١ في مدينة الموصل، وذلك على يد جماعة من الساخطين[3].

ان هذه الكنيسة بجمعها بين لاهوت المسيح وناسوته، واستنكارها لتأليه مريم العذراء، ونشاطها البالغ في نشر تعاليمها، وتفانيها في نشر رسالتها، كانت في اوائل الاسلام، العامل الاقوى في الحضارة السورية التي طبعت الشرق الادنى بطابعها، من مصر حتى بلاد فارس. فان جماعة من ابناء هذه الطائفة كانوا قد اقبلوا

---

١) راجع بشأن نسخ هذه المراسلة سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت، ١٩٠٩) ج ٢ (ملحق لسعيد بن يحيى الانطاكي) ص ٢٦٣ – ٤.

٢) للاستزادة من اخباره راجع السمعاني: Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. iii, pt. i (Rome, 1725), pp. 35-7; راجع ايضاً ما سبق في ص ٤١١ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

٣) Donald Attwater, *The Christian Churches of the East* (Milwaukee, 1946), vol. i, p. 190.

في القرن الرابع فما بعد ، على درس كتب الفلسفة اليونانية ، وعملوا على نقلها الى لسانهم ، وبثّها في سورية والعراق . ثم اخذت هذه الكنيسة في الانتشار شرقاً من الرها حتى تسربت الى فارس . وفي اواخر القرن الخامس عمد اسقف العاصمة الساسانية — مدائن كسرى — الى تنصيب نفسه بطريركاً على الكنيسة الشرقية . لكن المقام البطريركي لم يلبث ان انتقل الى بغداد عندما انشئت سنة ٧٦٢ . فحظي هنالك برعاية الخلافة . وقد كان لهذه الكنيسة سجلّ من النشاط التبشيري منقطع النظير حتى في ظل الاسلام ، والمدافن الاثرية وسواها من الآثار تشهد على وجود كنائس سريانية في مرو وهراة وسمرقند ، وفي مواضع اخرى في آسيا الوسطى ، يعود تاريخها الى اواسط القرن السادس .

وحوالي هذا الوقت تسللت جنوباً الى الهند ارساليات تابعة لهذه «الحركة البروتستانتية الشرقية» حيث كانت النصرانية قد توثقت قبل ذلك بقرنين من الزمان . فنشأت على ساحل الهند الغربي كنائس سريانية لاسيا في ملبار وسيلان . ولقد عُرف إتباع الطقس السرياني في الهند بـ «نصارى القديس توما» ، تبعاً لاخبار لا يعوّل عليها جعلت من توما هذا المعلم الاول للمسيحية في الهند . وقد تعززت هذه الطائفة ، في القرن الثامن والتاسع ، بوفود هاجروا اليها من بغداد وسواها من مدن الاسلام . واذ بلغت شهرتها الى الغرب ، سارع الفرد ملك انكلترا الى فتح سفارة له في ذلك الصقع النائي .

على ان العمل التبشيري الباهر هو الذي تحقق في الشرق الاقصى . ففي ما بين القرن السابع والتاسع ، ثم في غضون الثاني عشر والرابع عشر ، تسلل جماعة من الرهبان السريانيين الى داخل الصين ، فوصلت الفئة الاولى منهم الى سيان فو سنة ٦٣٥ ، في الوقت الذي كانت جيوش المسلمين تكتسح بلاد فارس . ولقد نصبت لوحة تذكارية لستة وسبعين من هؤلاء المرسلين ، نقشت عليها اسماؤهم ومآتيهم باللغتين الصينية والسريانية ، وذلك «في السابع من الشهر الاول من عام ٧٨١

---

١) ذلك بالمقارنة مع تعليم الارثوذكس الذي يعتبر المسيح ذا طبيعتين صيغ منها شخص واحد ؛ قابل بما سبق ، ص ٤١١ — ٤١٢ .

للميلاد» . وهـــذه اللوحة لا تزال قائمة في تلك المدينة الى اليوم[١]. وهنالك دير نسطوري في موضع لا يبعد كثيراً عن هذا المكان هو الآن معبد «تاوي» . وبعد ان استمرت هذه الكنيسة السريانية في الصين ما يزيـــد على السبعة قرون (٦٣٥ — ١٣٦٧) ، انفصلت عن الكنيسة الام التي كان الاسلام قد اضعفها ، حتى لم تعد تقوى على امداد فروعها ؛ وعندئذ تمثلتها الاديان المحلية والفرق «التاوية» والطوائف الاسلامية ، لكنها بقيت ، مع ذلك ، في تاريخ الصين بمثابـــة «الدين المنير[٢]» . اما اثرهـا الثقافي فظاهر في الحروف السريانية التي كانت اللغة المغولية والمنشوكية تكتب بها[٣] ؛ وكذلك في صناعة تجليد الكتب وزخرفتها في تركستان اذ هي تمت الى صناعة اقباط مصر بصلة متينة ، والمظنون انها انتقلت اليهم عن طريق هؤلاء المسيحيين السريان[٤] .

وكان يقيم في منطقة ارمية والموصل وكردستان الوسطى، عند ابتداء الحرب العالمية الاولى ١٩٠،٠٠٠ من اتباع الكنيسة السريانية الشرقية[٥] ؛ اما من بقي منهم فقد تسلل ، منذ ذلك الوقت ، الى العراق وسورية . على ان الإسم الجديد الذي اطلقه عليهم المرسلون الانكليكان ، وتقبله منهم بعض زعمائهم، لا يبدو نابياً متى قورنت سحنة الكثيرين منهم بالشكل الاشوري كما هو منقوش على الانصاب التاريخية .

اما الفرع الغربي للكنيسة السريانية، الذي علم بالطبيعة الالهية الواحدة للمسيح[٦]، ورفع العذراء الى مراتب القديسين ، فلم يكن ذا نشاط تبشيري يذكر . فقد كانت فلسفته اللاهوتية التي تعلّم بالطبيعة الواحدة تغلّب وحدة المسيح الالهية على الجانب الانساني فيه . ولقد عرف القائلون بالطبيعة الواحدة في سورية باليعاقبة ، دعاهم

١) P. Y. Saeki, *The Nestorian Documents and Relics in China* (Tokyo, 1937), pp. 35, 68.

٢) Saeki, pp. 65, l. 15, 457, l. 7; cf. 449, l. 10.

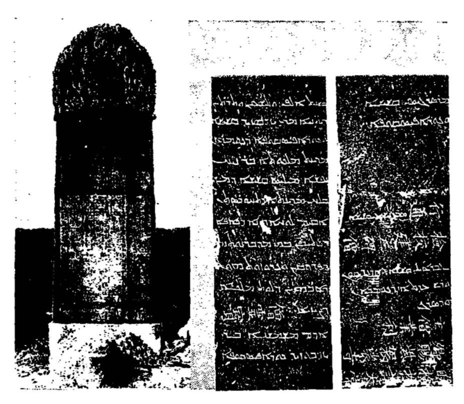
٣) راجع الجزء الاول ، ص ٤١٢ .

٤) Mehmet Aga-Oglu, *Persian Bookbindings of the Fifteenth Century* (Ann Arbor, 1935), p. I. For more on the Nestorians consult Assemani, vol. iii, pt. 2.

٥) A. Yuhanan, *The Death of a Nation* (New York, 1916) pp. 8-9.

٦) قابل الجزء الاول ، ص ٤١٢ .

بذلك خصومهم اليونان اذ كانوا اتباع يعقوب البرادعي اسقف الرها في اواسط القرن السادس[١]. وكان الغسانيون وسواهم من العرب السوريين قد اعتنقوا هذا



الكتابة السريانية والصينية المنقوشة في ادنى النصب

النصب التذكاري السرياني في سيان فو المؤرخ ٧٨١ للميلاد

المذهب قبل ظهور الاسلام[٢]، فكانت الكنيسة المعروفة باليعقوبية هي الغالبة في سورية، بينما كانت المدعوة خطأً بالنسطورية اوسع انتشاراً في فارس. اما لغة الكنيستين فقد كانت ولا تزال السريانية[٣]، على ان اللغة اليونانية كانت تدرس في الاديار ايضاً. وقد ساهم اليعاقبة في الجهود الذي بذله النساطرة في نقل الفكر

١) راجع ما ورد سابقاً في ص ٤١١ — ٤١٢ . والسمعاني يكرس القسم الاكبر من كتابه *Bibliotheca Orientalis*، المجلد الثاني، لدراسة اليعاقبة والقائلين بالطبيعة الواحدة .

٢) راجع الجزء الاول ص ٤٤٩ .

٣) بعد ان تنصر الاراميون غدوا يفضلون تسمية اللغة بالسريانية على تسميتها بالارامية .

اليوناني الى سورية ثم الى دنيا الاسلام . وكانت قنسرين في شمالي سورية مركزاً هاماً لاذاعة تعليم الطبيعة الواحدة وترجمة علوم اليونان . وكان علماء اليعاقبة اقطاب النشاط العلمي واعلام حركة النقل العلمي في ذلك العهد .

ولقد بقي من اتباع هذه الكنيسة الجليلة حتى اوائل القرن الثاني عشر نحو من مئتي الف نفس ، وذلك في جوار ماردين وديار بكر وأرمينيا [١]. ومنذ ذلك الحين عصف بهم الاضطهاد والتشريد فلجأ من بقي منهم الى سورية ولبنان . اما مقامهم البطريركي فهو اليوم في حمص ، وهم يأبون اسم اليعاقبة ، ويؤثرون ان يدعوا باسم السريان الارثوذكس او السريان القدماء . اما من اعتنق منهم مؤخراً طقس الروم الكاثوليك فقد تألفت منهم كنيسة السريان الكاثوليك التي قام مركزها البطريركي في لبنان . وهـــذا الفرع من الكنيسة الغربية يقابله فرع الكلدانيين من الكنيسة الشرقية .

وقد تحدر من تعليم الطبيعة الواحدة ، فضلاً عن الكنيسة اليعقوبية السورية ، كنيستان مستقلتان : هما الكنيسة الارمنية والكنيسة القبطية الحبشية . وكان تفوّق كنيسة السوريين على كنائس ارمينيا ومصر والحبشة مأثرة بارزة اخرى من مآثر المجتمع والفكر السوري . وجدير بالذكر ان الكنيستين السريانيتين الشقيقتين : الشرقية والغربية ، مع كل ما كان لها من رغبة في علوم اليونان ، انما نشأتا وتوسعتا بعامل الردة التي اثارت المجتمع السوري ضد المحاولات التي قامت بها بيزنطة وروما لصبغها بالصبغة اليونانية . ولما كانت هاتان العاصمتان المسيحيتان قد عمدتا الى اعتبار التعليم اليعقوبي والتعليم النسطوري ضربا من الهرطقة ، فقد كان قيامها في الاصل احتجاجاً على التدخل الخارجي في شؤونها الاهلية ، وتنكراً لعملية التوفيق التي استهدفت تحويل المسيحية ، وهي دين سوري ، الى منظمة يونانية رومانية . واذ اجتاح الاسلام هذه الاصقاع عصف بها حتى لم يبقَ منها الى اليوم الا صور متحجرة لمجتمع سرياني منقرض [٢] .

---

١) Yuhanan, p. 9.

٢) Toynbee, vol. v, p. 127.

الموارنة

وفرع آخر من فروع الكنيسة السورية القديمة هو فرع الموارنة ، الذي يعود اصله الى عميده القديس مارون (مارو[١]). ومارون هذا ناسك راهب متعبّد متقشف لا يعرف عن حياته شيء كثير ؛ عاش بين انطاكية وقورس (قورش) وفي قورس توفي سنة ٤١٠ ؛ وهو في ما يظن ، «مارون الكاهن الناسك» الذي وجه اليه يوحنا كريسستم وهو في طريقه الى منفاه ، رسالة يرجوه فيها ان يصلي من اجله ويواصله باخباره[٢]. وفي الاخبار ان القديس مارون هذا ، بعد ان توفي ، عمد تلاميذه الى جثمانه فنقلوه الى مكان قرب افامية على نهر العاصي ، دفن فيه ثم اقيم فوقه دير على اسمه تخليداً لذكراه . وفي سنة ٥١٧ نشبت بين هؤلاء الموارنة واليعاقبة فتنة ذهبت بحياة ثلاث مئة وخمسين راهباً مارونياً من رهبان هذا الدير ، لا تزال الكنيسة المارونية الى اليوم تحتفل بذكرى جهادهم . واذ بان لسائرهم ان الاقامة في لبنان اوفر امناً ، لجأوا اليه وثبتوا اقدامهم في ربوعه الشمالية . وهنالك امتزجوا بالمردة الذين كانوا قد تسللوا الى هذه المنطقة من الشمال[٣].

ولئن كان مارون هذا هو قديس هذه الطائفة ومعلمها الاول ، فان يوحنا مارون (ت حوالي ٧٠٧) هو بطل الامة الجديدة التي نشأت وترعرعت على ضفاف قاديشا ومؤسس كيانها القومي . وغالب الظن ان يوحنا مارون هو الذي اعطى هذه الطائفة اسمها ؛ فقد ولد في سروم قرب انطاكية ، ودرس السريانية واليونانية في مدينة انطاكية قبل ان التحق بالدير الذي اقيم على ضفة العاصي . ثم استأنف تحصيله في القسطنطينية ، ورسم من ثم اسقفاً على البترون في لبنان . وكان كرسيه اولاً في سمار جبيل ، ثم تحول الى كفرحي ، وهناك بنى ديراً دُفن فيه ، وتقوم اليوم في هذا المكان مدرسة تحمل اسم هذا الزعيم الكبير . ولقد نمت الطائفة المارونية برعايته الى ان غدت امة مستقلة ، استطاعت ان تقصي عنها باليد الواحدة خليفة المسلمين[٤]،

١) لفظة من اصل سرياني معناها السيد الصغير .

٢) راجع الترجمة العربية في كتاب اسطفان الدويهي ، تاريخ الطائفة المارونية ، (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٩ — ٢٠ .

٣) راجع ص ٥٢ و ٥٣ من هذا الجزء .

٤) راجع ص ٥٣ من هذا الجزء .

وبالاخرى امبراطور البيزنطيين . وقد حاول يستنيانوس الثاني سنة ٦٩٤ ان يخضع الموارنة ، فارسل اليهم جيشاً هدم ديرهم القائم على العاصي ، لكن يوحنا مارون تمكن من القضاء عليه في اميون[١]. ومنذ ذلك الوقت تشبث الموارنة بالعزلة ، وانشأوا ضرباً من الفردية التي طالما تميز بها ابناء الجبال . وكانت قنوبين[٢] ، القائمة في الجبال الصخرية الوعرة مركزاً للبطريرك الماروني الى حين ، ثم تحول عنها الى بكركي في جوار مدينة بيروت .

وكان زعماء الموارنة في اواسط القرن السابع على صلة طيبة بالامبراطور هرقل ، فكان ذلك داعياً لأن تنسب الطائفة برمّتها الى تبني تعليمه في الطبيعة الواحدة[٣]. وكان سعيد بن البطريق اول من قطع بذلك[٤]، وكان المسعودي[٥] ، معاصره المسلم ، يرى هذا الرأي ايضاً . وجاء بعد سعيد بن البطريق وليم الصوري[٦] ، مؤرخ الحملات الصليبية ، فأشار الى ان « الهرطقة التي ارتكبها مارو واتباعه ، لا يزالون عليها ، انما هي : ان السيد المسيح ما زال ، كما كان منذ البدء ، ذا مشيئة واحدة وطبيعة واحدة » . وقـــد قدر هذا المؤرخ عددهم باربعين الفاً ، ثم استأنف قائلاً انهم في سنة ١١٨٠ نبذوا هرطقتهم ، وعادوا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ؛ على ان المدافعين عن هذه القضية من الموارنة ، ابتداء من الدويهي[٧] (ت ١٧٠٤) وابن غرون[٨] (ت ١٧١١) ، قد ادعوا لكنيستهم الاستمرار في الامانة للكنيسة الجامعة

---

١) للاستزادة من اخباره راجع : Assemani, vol. i, pp. 496-520.

٢) لفظة سريانية من اصل يوناني معناها الدير ؛ وهو من الاسماء الجغرافية اليونانية القليلة الباقية في لبنان .

٣) راجع ص ١٢ من هذا الجزء .

٤) ابن البطريق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

٥) التنبيه ، ص ١٥٣ — ٥٤ .

٦) *History*, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey, vol. ii, p. 459.

٧) ص ٢٩٢ وما يلي .

٨) **Fausto (Murhij) Naironi,** ***Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitharum*** **(Rome, 1679).**

عبر العصور[١]. اما ما يدعيه بعض المؤلفين من الموارنة في العصر الحاضر[٢] من انه قد كان هنالك كاهن آخر من القائلين بالطبيعة الواحـــدة في الرها ، مات حوالي سنة ٥٨٠ ، اختلط اتباعه على اولئك المؤرخين بموارنة لبنان ، فيبدو انه امر جدير بالاعتبار . وليس من شك في ان الموارنة في العصر الصليبي كانوا موضع اهتمام روما، على ان الاتحاد المذكور لم يتحقق حتى القرن الثامن عشر . فكنيستهم التي يسوغ اعتبارها كنيسة لبنان القومية قد حافظت ، حتى يومنا هذا ، على طقسها السرياني ، وعلى اباحة الزواج للكاهن . وقـد امتنعت روما عن ان تطوّب اياً من مؤسسيها التاريخيين الشهيرين وتجعله في عداد القديسين . اما عـــدد الموارنة في لبنان ، فهو بحسب احصاء سنة ١٩٥٢ ، ٣٧٧٫٥٤٤ نفساً ، فهم اكبر طائفة دينية في هـــذه الجمهورية . ولقد حمل المهاجرون المتأخرون من الموارنة طقسهم الديني الى ايطاليا وفرنسا واوستراليا واميركا الشمالية والجنوبية ، والى انحاء اخرى من العالم المتمدن.

الملكانيون

ان الكنيسة السريانية بفرعيها الشرقي والغربي ، وما تحدر منها من طوائف، لم تكن جامعة لجميع النصارى السوريين . بل ان جماعة صغيرة منهم انساقت بتأثير اللاهوت اليوناني المنبثق من انطاكية والقسطنطينية ، ووافقت على مقررات مجمع خلقدون الكنسي (٤٥١). وبذلك استطاعت هذه الطائفة ان تحرز وضعاً قانونياً ، تفادت به الحرم الكنسي، وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة ، ورعاية المدينة القيصرية . وكان من خصومها ان لقبوا اتباعها، بعد ذلك بعدة قرون، بالملكانيين[٣] على سبيل التأنيب . وكان سواد الكهنة الملكانيين يختارون في الغالب من بـــين سكان المدن ، ومن ابناء اليونانيين الذين استوطنوا المستعمرات . ثم اخذت اللغة اليونانية تحل تباعاً محل السريانية في شعائرهم ومراسيم الصلاة ، والطقس البيزنطي

١) نذكر من المدافعين المتأخرين افرام الديراني مؤلف : « الحاماة عن الموارنة وقديسيهم » (بيروت، ١٨٩٩) ؛ ويوسف الدبس صاحب : « تاريخ سوريا » ، ج ٥ (بيروت، ١٩٠٠)، ص ١٥٦ وما بعد؛ وبيير ديب Pierre Dib, *L'Eglise maronite*, vol. i (Paris, 1930). pp. 62-143.

٢) Bernard G. Al-Ghaziri, *Rome et l'Eglise syrienne-maronite*, (Paris, 1906), pp. 31-3. 44-5.

٣) من لفظة سريانية « ملكا » ، معناها الملك .

يقوم مقام الطقس السرياني ، وهوذا مئات المخطوطات في المكتبات الاوروبية والشرقية ، تشير الى ان انتشار اليونانية لم يتحقق كاملاً حتى مطلع القرن السابع عشر[١]. ومع ان الطائفة الملكانية كانت تتمتع بتأييد السلطة الحاكمة ، فقد بقيت ضعيفة نسبياً فلم تتعدّ في انتشارها شمالي سورية وفلسطين ومصر . ولقد احتفظت الاجيال التي خلفتهم من السوريين بمقام بطريركيّ في دمشق ، وآخر في القدس ؛ وهم يعرفون اليوم باسم الروم الارثوذكس[٢].

ومما يدعو الى الغرابة ان اسم «الملكانيين» اخذ يطلق في العهد الحاضر – على سبيل الحصر – على الجماعة التي انشقت عن الكنيسة الارثوذكسية والتحقت برئاسة روما؛ لكن هؤلاء يدعون، مع ذلك، ان صلتهم بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية كانت منذ القديم واستمرت بلا انقطاع. اما عددهم اليوم فيبلغ نحو نصف عدد الطائفة الارثوذكسية الذين يبلغون ٢٣٠،٠٠٠ . ولهم مقام بطريركي في مصر وآخر في لبنان. اما سواد الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس فيقيمون في سورية لا في لبنان .

التفاعل مع الاسلام

ويغلب على الظن ان الاسلام ، في اول امره ، لم يبدُ غريبا كل الغرابة لدى النصارى السريان ، ولا دخيلاً عليهم ؛ بل لعله ، بالنسبة اليهم – كان اقرب الى طائفة يهودية – مسيحية جديدة منه الى دين جديد . لذلك كانت خصومة الاسلام للمسيحية بوجه العموم من قبيل المنافسة اكثر منها من قبيل التعارض في المبادئ . ولقد كتب احد بطاركة الكنيسة الشرقية[٣]، على اثر الفتح العربي ، يصف الحكام الفاتحين بهذه العبارات الفياضة المشرقة يقول : «ان العرب الذين اولاهم الله السلطة على العالم في هـذا العهد هم ، كما تعلمون ، يقيمون فيما بيننا ، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء ، بل هم على عكس ذلك : يمتدحون ديننا ويجلّون الكهنة والقديسين ، ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك» . ولقـد غالى بعض

١) اسحق ارمله ، الملكيون : بطريركيتهم الانطاكية (بيروت، ١٩٣٦)، ص ١٠٢ ، ١٠٤ – ١١٥ حبيب زيات في مجلة المشرق ج ٣٧ (١٩٣٩)، ص ١٧٤ .

٢) راجع جدول اسماء البطاركة في كتاب ارمله ، ص ٢٦ وما بعد .

٣) Išo'yahb iii, «Liber epistularum», in *Scriptores Syri*, ser. II, vol. lxiv, ed. Rubens Duval (Paris, 1904-5), text p. 251, ll, 13-19, cf. p. 252, ll. 8-12, tr. p. 182.

المستشرقين[١] في هذا الاعتبار، حتى انهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثاً للنصرانية السريانية. فقد اعتبر يوحنا الدمشقي محمداً هرطوقياً، لا مؤسساً لدين جديد، وخلط بين الاسلام والآريوسية التي نبذت الوهية المسيح[٢]. وقد كان يقول لخصومه المسلمين: «عندما تدعوننا مشركين ندعوكم مشوّهين»، ثم يتساءل قائلاً: لماذا يلام النصارى على سجودهم امام الصليب، في حين يفعل المسلمون مثل ذلك امام الحجر الاسود؟ وكان مما ساعد على التمادي في هذا الاعتداد ان الكاتب انما هو كاهن يدوّن بلغة غريبة. ولقد بدا لعمر بن عبد العزيز، فيما يظهر، انه يستطيع ان يحمل ليو الايصوري على اعتناق الاسلام بسهولة، وذلك بان يرسل اليه رسالة يدعوه فيها الى الاسلام؛ لكن الامبراطور اجاب عنها بكتاب حاول فيه ان ينقض مشتملاتها[٣].

ولقد كانت عقيدة التوحيد ويوم الحساب من اروج المواضيع في الادب القرآني، وفي الاناجيل المرفوضة والرسائل الصوفية على السواء[٤]. وهذا القديس افرام (ت حوالي ٣٧٣) الذي يعتبر اعظم معلم انجبته الكنيسة السريانية بفرعيها يصف جنة النعيم بما يلي وصفاً محسوساً:

«لقد شاهدت مقامات الابرار، ورأيت الابرار انفسهم، واذا الطيوب تقطر منهم، والروائح العطرية تفوح من اعطافهم، وطاقات الزهور تكلل رؤوسهم، وانواع الفاكهة تزين قاماتهم... وعندما يتكيء الابرار الى المائدة تجود عليهم الاشجار باظلالها في الهواء الطلق؛ وتتفتح الزهور من تحتهم وتنضج الفواكه من فوقهم... الرياح تقف بين ايديهم مستعدة لاداء ما يطلبون، تهب احداها بالطمأنينة، وترفع الاخرى بالشراب فيجري رقراقاً؛ يحفل بعضها بالزيت، وبعضها الآخر يحمل الطيوب... كل من امتنع عن الخمور في الدنيا تتوق اليه الخمور في

---

١) E. g. Carl. H. Becker, *Islamstudien*, vol. i (Leipzig, 1924), pp. 16-18, 386 *seq*.

٢) Migne, *Patrologia Graeca*, vol. xciv, cols. 763-74. وانظر الجزء الاول ص ٤١١.

٣) Theophanes, *Chronographia*, p. 399; Mahbûb (Agapius of Manbij), « Kitāb al-'Unwān », كتاب العنوان, in *Patrologia Orientalis*, vol. viii (Paris, 1912), p. 503.

٤) راجع: William Wright, *Apocryphal Acts of the Apostles*, 2 vols., (London, 1871).

في الفردوس ، وتمتد اليه كل نبتة من الكرمة بعنقود من العنب . وكل من عاش عفيفاً تستقبله الحوريات بصدور نقية طاهرة[١] » .

ثم ان التفرقة بين الفروض والنوافل واضحة في الديانتين وتقوم بينهما مشابهات كثيرة في ممارسة الشعائر ومزاولة طقوس العبادة . فقد اقرت الكنيسة السريانية ثلاث صلوات قانونية في النهار ، واثنتين في الليل ، قبل ان نظم الاسلام الصلوات الخمس بوقت طويل . والصلوات الليلية التي ورد وصفها في القرآن (المزّمل : ١ ـ ٨ ، ٢٠) تعيد الى الذاكرة رياضة الرهبان الروحية وتوفرهم على العبادة . ولقد كان النساك يتخذون في اثناء الصلاة اوضاعاً جسدية معينة تشتمل على السجود ولمس الارض بالجبين . وكان المصلي ، اذا ما كرر السجود متضرعا ، وصدم الارض بجبينه سقط شعر رأسه امامه على الارض[٢]. وفي شعر جاهلي وصف لناسك ، تحجر جبينه من ملمس الارض ، حتى غدا فيه ما يشبه ركبة العنزة[٣] .

ولقد كان من الطبيعي ان ينقل بعض النصارى ، لدى اعتناقهم للاسلام ، شيئاً من افكارهم وشعائرهم ، وان تقتبس بعض الفرق والبدع شيئاً من ذلك وتحتفظ به . ثم اخذت شقة الخلاف تضيق عندما اقتبس رواة الحديث الاولون احداثاً وقعت لمؤسسي المسيحية نسبوها الى مؤسس الاسلام . فقد ذكر عن محمد انه امتدح « من يعطي الصدقة سراً بحيث لا تعلم شماله ما صنعته يمينه[٤] » ، وجهر بان الله قد قال « قد اعددت لاهل التقوى من عبادي ما لم تره عين ، ولم تسمع به اذن ، ولا خطر على قلب[٥] » . بل ان ما يقرب من الصلاة الربانية نفسها قد روي ان محمداً تلاه[٦] . وفضلاً عن ذلك كله فقد وجد الزهد المسيحي طريقاً آخر الى قلب الاسلام هو النظام الصوفي المتأخر .

---

١) Sancti Ephraem Syri, *Opera omnia* (Rome, 1743), p. 563; cf. Tor Andrae, tr. Theophil Menzil, *Mohammad: the Man and his Faith* (New York, 1936); القرآن : الغاشية ٤ — ١٦ ؛ الرحمن ٤٦ — ٧٨ .

٢) John of Ephesus in *Patrologia Orientalis*, vol. xvii, p. 40.

٣) لويس شيخو ، النصرانية وآدابها (بيروت ، ١٩١٩) ، ص ١٧٨ .

٤) قابل : انجيل متى ٦ : ٣ — ٤ .

٥) قابل الرسالة الى اهل كورنثيا ٢ : ٩ .

٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 396.

الالفاظ المستعارة

ان الناطقين بالسريانية من النصارى يستطيعون فوراً ان يتبينوا الكثير من الالفاظ الاساسية السريانية بين المفردات الاسلاميـــة . فالالفاظ العربية نظير : فرقان ، (الانفال : ٢٩ ، ٤٢) ، آية (البقرة : ٣٧ ؛ آل عمران : ٩) ، كاهن (الطور : ٢٩ ؛ الحاقة : ٤٢) ، سجود (البقرة : ١٩ ؛ القلم : ٤٢ ، ٤٣) ، سفر (الجمعة : ٥) ، قسيس[١] (المائدة : ٨٥) صلاح (البقرة : ٢ ، ٤٠ ؛ النور : ٥٧) ، زكاة (البقرة : ٤٠ ، ٧٧ ، ١٠٤) ، وكثير سواها ، انما هي الفاظ مستعارة من السريانية او الآرامية[٢] ، وهنالك تعابير كنسية ومصطلحات اكليريكية عديدة عربت عن السريانية كما يستدل من الالفاظ التالية : اشبين ، برشان ، تلميذ ، شمّاس ، عماد ، كنيسة ، كاروز ، ناقوس . امـــا الالفاظ المستعارة من اليونانية فلم تكن كثيرة ، نذكر منها : طقس ، قندلفت ، انجيل ، اسقف ، شدياق ، ابرشية ، زنار[٣] . وهنالك الفاظ يونانية اخرى تسربت الى العربية عن طريق السريانية ، منها: خوري بطريرك ، اسكيم ، هرطوقي .

ضبط الكتابة

ولقد ادت السريانية مأثرة هامة اخرى الى العربية هي ضبط الكتابة . على ان الحروف العربية نفسها قد اخذت ، كما اسلفنا[٤] ، من النبطية ، وهي شقيقة السريانية .

اما الخط العربي فقد كان في اول امره غفلاً من النقط التي تميّز الآن بين الحروف اذ كانت ترسم بشكل واحد . وقد كان خالياً من الحركات كذلك ، فكانت جميع

---

١) هذه اللفظة واللفظة السابقة وردتا في القرآن بصيغة الجمع فقط .

٢) للاطلاع على الفاظ اخرى راجع : Arthur Jeffrey, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda, 1938).

٣) للاستزادة من ذلك راجع : Georg Graf in *Zeitschrift fur Semitistik und verwandte Gebiete*, vol. vii (1929), pp. 225 *seq.* ; vol. ix (1939), pp 234 *seq.* ; انظر ما سيأتي في آخر الفصل ٤١ .

٤) راجع الجزء الاول ص ١٨٣ ، ٤٢٧ .

حروفه من الصوامت . على انه في خلال القرن الاول للهجرة ، ادخل على الخط نظام من النقط والحركات لعلها من اصل نبطي، استخدمت على نحو معيّن. فالنقطة الواحدة فوق الحرف رمزت الى الفتحة ، والنقطة تحت الحرف اشارت الى الكسرة[1]، وهذا تماماً ما كان السريان الشرقيون قد اصطلحوا عليه لوقت طويل . وحوالي اواخر هذا القرن ، وتبعاً للنسق السريانية ايضاً ، جعلت بدلاً من النقط خطوط قصيرة فوق الحرف وتحته ، نشأت منها الفتحة والكسرة كما تستخدمان اليوم . هذه هي الاصلاحات التي نسبتها الاخبار الى الحجاج[2]. وهذا الجهاز السرياني من النقط الصوتية هو ايضاً اساس النظام العبراني الذي اعتمده علماء اليهود في ضبط نص التوراة بعد سنة ٧٥٠ للميلاد[3].

---

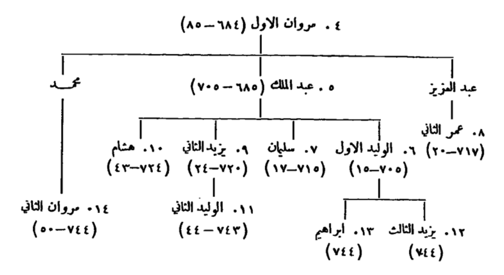
١) اما الضمة فواضح انها اخذت من الواو .

٢) راجع ص ٨٦ من هذا الجزء .

٣) Frank R. Blake in *Journal, American Oriental Society*, vol. lx (1940), pp. 391-413.

الفصل الأربعون

سقوط الدولة الأموية



شكل شجري يوضح صلة النسب ما بين الخلفاء المروانيين في الدولة الاموية

بلغت السلطة الاموية اوج عزها في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ١٥)، وهنالك اثنان من الخلفاء لا غير يجدر ذكرهما من بعده: هما عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك .

خليفة متعبد

كان عمر (٧١٧ — ٢٠) الخليفة المتعبد الوحيد في عهد اشتهر بطابعه الدنيوي؛ وكان هدفه الاسمى ان يتأثر خطى جده لامه، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي قدر له ان يحمل اسمه . وقد عني مدون ترجمته عناية خاصة بوصف تقاه وزهده وبساطته، واكّد على انه كان يرتدي الثياب المرقعة، ويختلط برعاياه اختلاطاً كان يعسر معه، على من قصده لرفع ظلامته اليه، ان يميّزه من بينهم[1]. وقد شعر علماء الدين

١) ابن الجوزي، ص ١٧٣ — ٧٤، ١٤٥ وما بعد .

في عهده ان الدهر قد غدا مؤاتياً لهم، وجاءته من ثم شهرة الورع والتقى اللذين عرف بهما في التاريخ. فعمر هو الذي ابطل ما كان معاوية قد شرعه من شتم علي من المنابر في صلاة الجمعة[١]. وقد ادخل، الى ذلك، اصلاحات مالية لم تثبت طويلاً لكنها، مع ذلك، ساعدت على انتهاج سبيل المساواة في معاملة العرب وغير العرب من المسلمين، وشجعت اخيراً على الاختلاط بين ابناء الفاتحين الحاكمين وابناء المواطنين المحكومين[٢].

آخر اموي مقتدر

ان المؤرخين العرب يعتبرون هشاماً (٧٢٤ — ٤٣) بحق آخر السياسيين في البيت الاموي[٣]. ذلك لان الخلفاء الاربعة الذين تولوا الحكم بعده كانوا عاجزين، ان لم نقل فاسدين ومنحطين. فقد قال هشام عندما توفي ابنه معاوية — جد الاسرة الاموية في الاندلس — وهو في رحلة صيد «تالله لقد اجمعت ان ارشحه للخلافة ويتبع ثعلبا[٤]»! وكان واليه على العراق قد احتفظ لنفسه بـ ١٣ مليون درهم، بعد ان بذّر من دخل الدولة نحواً من ثلاثة اضعاف هـذا المبلغ، فاعتقله واضطره الى ارجاع المال[٥]. وهذا الحدث كان واحداً من احداث كثيرة تشهد بمجموعها على انتشار الفساد في الوضع السياسي. وكان نظام الخصيان الذي ورثه العرب من البيزنطيين والفرس قد اخذ في الانتشار مسهلاً بذلك نشوء نظام الحريم. وجرى في اثر الثروات الطائلة تضخم في عدد العبيد، فادى كلا الامرين الى الانغماس في البذخ والايغال في الترف. ولم يكن الانحطاط الخلقي قاصراً على الطبقة العليا، بل ان آفات المدينة، وفيها الخمر والنساء والغناء، كانت — فيما يظهر — قد استولت على ابناء البادية، فاخذت الآن في استنزاف حيويتهم.

---

١) الفخري، ص ١٧٦.

٢) راجع ص ٨٤ — ٨٥ من هذا الجزء.

٣) المسعودي، ج ٥، ص ٤٧٩؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٩٣؛ ابن قتيبة، المعارف ص ١٨٥.

٤) الطبري، ج ٢، ص ١٧٣٨ — ٣٩.

٥) الطبري، ج ٢، ص ١٦٤٢؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٨٧.

اربعة خلفاء عاجزين

وكان الوليد الثاني، الذي تولى بعد هشام، رجلاً قوي البنية جميل الطلعة؛ لكنه كان اجدر بالموسيقى والشعر منه بشؤون الحكم[١]. ولقد اقتطع فترة من حياته اللاهية في البادية لينصب خليفة في العاصمة، ثم عاد الى ما كان عليه من لهو ودعابة. ولا تزال خرائب قصوره الى اليوم توشّي حواشي البادية السورية[٢]. انما كان بين الاخطاء التي ارتكبها ما هو اشد وادهى؛ من ذلك انه اوصى بالخلافة من بعده لولدين له من احدى جواريه، وانه استبعد جماعة اليمنية (عرب الجنوب) وهم سواد العرب المقيمين في سورية. وكان قد نشب، قبل ذلك، نضال شديد بين مبدأ انتقال الخلافة بالوراثة الذي ابتدعه معاوية[٣]، وبين العرف القبلي الراسخ الذي يجعل الولاية للاكبر سناً، فغدا الامر اشد تعقيداً عندما اوصى مؤسس الفرع المرواني بالخلافة من بعده الى اثنين من ابنائه على التوالي: هما عبد الملك وعبد العزيز[٤]. ولا شبهة في ان عدم وجود مبدأ مقبول واضح ينظم انتقال الخلافة لم يكن مما يدعو الى الاستقرار والاستمرار. اما اليمنية فهم من قام العرش السوري على عواتقهم، وكان عداؤهم للقيسية (عرب الشمال) مستحكماً راسخ الاصول، واستمر كذلك حتى العهود الاخيرة[٥]. فلقد تزعم يزيد، ابن عم الوليد، مؤامرة اوعز فيها لبعض الناقمين من اليمنية فتعقبوا الخليفة حتى ادركوه وقتلوه جنوباً من تدمر[٦].

تميز عهد يزيد الثالث (٧٤٤) — وهو اول خليفة امه أمَة[٧] — بكثرة الاضطرابات في الامصار. وقد اضطر اخوه ابراهيم، الذي ولي الخلافة من بعده مدة شهرين فقط، ان يتنازل عنها لنسيب بعيد، هو مثلها ابن لجارية مملوكة[٨]، وهو مروان الثاني (٧٤٤ — ٥٠).

---

١) الاغاني، ج ٤، ص ١٠١ وما بعد.
٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.
٣) راجع ص ٤١ من هذا الجزء.
٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٠٦.
٥) راجع ص ٥٨ من هذا الجزء.
٦) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٠؛ الفخري ص ١٨٢.
٧) الطبري، ج ٢، ص ١٨٧٤، المسعودي، ج ٦، ص ٣١ — ٣٢.
٨) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٣، ٤٠٤؛ المسعودي، ج ٦، ص ٤٧.

وعندما تولى مروان الخلافة كانت الفوضى تسري في سائر انحاء الدولة . وقد ظهر مطالب بالخلافة من آل امية في سورية، وظهر آخر من الخوارج قام بحركة عصيان في العراق، وعمد جماعة من الزعماء في خراسان الى الانتفاض على الخليفة، بحيث اضطر مروان الى نقل حكومته الى حران، حيث يستطيع ان يعتمد على مساندة القيسية، ويتمكن من ان يسدد الضربات لجماعتين من اشد خصومه هما العلويون والعباسيون.

العلويون والعباسيون

لم يكن الامويون في نظر الشيعة الا مغتصبين منافقين، فقد ارتكبوا بحق علي وذريته جرماً لا يغتفر ولا ينسى. وكان اخلاصهم التام لاهل بيت النبي قد لفت اليهم انظار الجمهور وحوّل نحوهم كل عطف، حتى غدت جبهتهم مرتع الناقمين من حيث السياسة والاجتماع والاقتصاد جميعاً. ومنذ ما اختار علي مدينة الكوفة قاعدة له اصبح العراق حصن الشيعة الحصين، فكان للعراقيين من ثم على السوريين ضغينة اخرى، هي انهم انتزعوا منهم قاعدة الخلافة. ولقد انضمّ الى جمهور الناقمين جماعة من اتقياء اهل السنة، كانوا يتهمون البيت الأموي بالعناية بالعالميات والانغماس بشؤون الدنيا، وبالتقاعس عن اقامة الشرع القرآني .

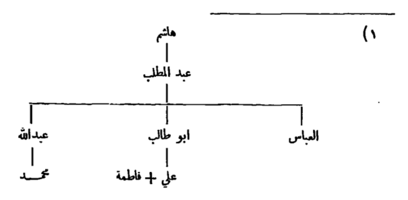
كذلك العباسيون، فقد جروا مجرى العلويين في استغلال الاوضاع المضطربة للمطالبة بالخلافة لانفسهم. وكانت دعواهم تقوم على انهم، اذ كانوا من سلالة عمّ النبي[١]، كانوا بفضل ذلك احق بالخلافة من بني امية .

الخراسانيون

وقد زاد في حراجة الوضع عامل آخر هو نقمة المسلمين غير العرب بوجه عام،

---

١)



والمسلمين الفرس بوجه خاص؛ وذلك بسبب ما لاقوه من سوء المعاملة على يد المسلمين العرب. فقد كانت تلك المعاملة ابعد شيء من المساواة التي وُعد بها الداخلون عندئذ في الاسلام. فكانت حالهم اشبه بحالة الموالي[١]، حتى انهم لم يعفوا، في بعض الاحوال، من الجزية التي كانوا يؤدونها اذ كانوا ذميين. وقد بلغت هذه النقمة اشدها في فارس – ذلك البلد الذي كان العرب انفسهم يقرون بانه اعرق مجداً وارقى حضارة. وكانت خراسان في الشمال الشرقي اخصب البلاد تربة لنمو بذور الحركة الشيعية العباسية، اذ لاقى فيها تعليم الشيعة تجاوباً صارخاً في قلوب الخراسانيين، فاخذت من ثم النزعة الايرانية القومية تستعيد حيويتها تحت قناع الحركة الشيعية في الاسلام.

على ان الحاجة بقيت ماسة لشيء واحد لا غير هو القيادة – القيادة التي تجمعُ تحت لوائها الشيعة والعباسيين والفرس، وغير هؤلاء من خصوم الامويين، وتدفع بهم في وجه العدو المشترك. وقد تحققت هذه القيادة اخيراً في شخص عبدالله ابي العباس، حفيد حفيد العباس. وكان نجاحه في السيطرة على جميع القوى المقاومة للامويين يعود بالاكثر الى براعته في تنظيم الدعاية. وقد اختار العباسيون قاعدة لعملهم قرية يبدو لاول وهلة انها خاملة ومنعزلة هي الحميمة، الى الجنوب من البحر الميت[٢]. على انها كانت، بواقع الامر، ذات موقع خطير، يسهل منه الاتصال بالقوافل والمسافرين ومواكب الحجاج، الوافدة من جميع اقطار العالم الاسلامي. فكانت مركزاً يدرب فيه المرشحون لاعمال الدعاية على مبادئ الجماعة واساليبهم، ثم يوجهون منه في مهام سرية. وفي الحميمة تحقق عمل من اقدم اعمال الدعاية السياسية في الاسلام واشدها دهاء واوفرها نجاحاً، انه عمل لم يقع له نظير حتى قيام الفاطميين[٣].

اندلاع الثورة

اول ما انفجر بركان الثورة في خراسان، وذلك في شهر حزيران سنة ٧٤٧.

---

١) راجع ص ٨٤ و ص ٩٧ – ٩٨ من هذا الجزء.

٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٦ – ٥٧؛ الفخري، ص ١٩٢ – ٩٣؛ الطبري، ج ٣، ص ٣٤؛ ياقوت، ج ٢، ص ٣٤٢؛ Musil, *Northern Heǧāz*, pp. 56-61، راجع ايضاً الخارطة في جيب ذلك الكتاب.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٤ حول الفاطميين.

وكان على رأس حركة العصيان عامل العباسيين ابو مسلم الخراساني ، وهو مولى من اصل منبهم[١]. وكان العلم الذي رفعه اسود اللون ، وكان قد اتخذ السواد لوناً لثيابه حداداً على رجل من ذرية علي قتل في خراسان ، فغدا العلم الاسود شعار السلالة الناهضة . وسار ابو مسلم على رأس جيش مؤلف من عرب اليمن (من الازد) والفلاحين الفرس ، ودخل مرو عاصمة خراسان دخول المنتصرين . وكان والي الامويين ، نصر بن سيار ، قد الحّ على مروان بطلب النجدة ، مبيناً له الخطر المداهم، ولكن دون جدوى[٢] ، حتى انه لجأ في وصف ذلك الوضع الى الشعر فقال :

اری خلل الرماد ومیض نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامُ
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام[٣]

غير ان الخليفة كان عن ذلك كله في شغل شاغل بما كان يجري عنده . فان حركة العصيان التي اثارتها اليمنية كانت قد اندلعت من فلسطين وبلغت الى حمص . وكذلك في العراق فان الخوارج كانوا قد ثاروا من جديد[٤] . وجدير بالذكر ان مرواناً كان جندياً باسلاً اكسبه صبره وصموده في الحروب لقب « الحمار » ، ولم يكن هذا اللقب آنئذ عاراً او معيباً . والى مروان يرجع الفضل في تعديل خطط القتال، اذ تخلى عن نظام القتال في صفوف — هذا النظام الذي جرى عليه النبي اولاً ، فترك عليه مسحة من التقديس — واتخذ بديلاً عنه نظام الكراديس[٥]، وهي وحدات صغيرة اشد تماسكاً واسرع انتقالاً . الا انه كان الآن عاجزاً ، وفي وضع لا يوحي غير اليأس . ذلك ان شمس الامويين كانت قد آذنت بالافول .

الضربة الحاسمة

سقطت مرو ، فتبعتها نهاوند ، ومدن فارسية اخرى، فانكشفت بذلك الطريق

١) الفخري ، ص ١٨٦ .
٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٥٣ وما بعد ؛ الدينوري ، ص ٣٥٩ وما بعد .
٣) الفخري ، ص ١٩٤ .
٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٤٣ — ٤٩ .
٥) راجع ٨٨ — ٨٩ من هذا الجزء .

الى العراق . وهنا سقطت الكوفة – وهي اهم مدن العراق ، ومختبأ ابي العباس – من غير كبير مقاومة . وفي ٣٠ تشرين الاول سنة ٧٤٩ بويع لابي العباس بالخلافة في مسجدها الكبير[١]. وكانت الراية البيضاء في سائر المناطق الشرقية تتقهقر في وجه الراية السوداء . واخـــيراً عزم مروان على ان يصمد حتى النهاية ويقاتل قتال المستميت . فسار على رأس اثني عشر الف مقاتل[٢] من حران شرقاً حتى بلغ الزاب الاعلى (كانون الثاني ٧٥٠) – وهو احد فروع دجلة – فالتقى على ضفته اليسرى بقوى المعارضة يقودها عبدالله بن علي ، احد اعمام الخليفة الجديد . واستمر القتال تسعه ايام ، لكن العزم على كسب المعركة لم يعد من شأن الجانب السوري ، ذلك لأن عهد القوة المعنوية العالية والقيادة الملهمة كان قد ولّى ، وغدت الهزيمة امراً لا مفر منه .

واخذت المدن السورية ، من ثم ، تفتح ابوابها ، واحدة بعد الاخرى ، لعبدالله وجيوشه الخراسانية العراقية . ولم تتفرد بشيء من الدفاع الا مدينة دمشق . على ان اياماً قليلة من الحصار كانت كافية لاخضاع المدينة الشامخة (٢٦ نيسان ٧٥٠) . ورابط فرسان العباسيين في مسجدها الكبير سبعين يوماً ، استأنف بعدها الجيش المظفر سيره جنوباً نحو فلسطين . ومن هنا أرسلت على جناح السرعة فصيلة في اثر الخليفة الفارّ ، ادركته في مصر العليا وقتلته خارج كنيسة في بوصير[٣] (٥ آب ٧٥٠). ثم ارسل رأسه مع شارات الخلافة الى ابي العباس[٤].

كانت المهمة الرئيسية التالية التي واجهها ساسة العباسيين : ماذا عساهم يصنعون بمن بقي من الامويين ؟ وقد اجمع الرأي على وجوب استئصالهم ، وعهد بذلك الى عبدالله . ولم يتورع القائد الصارم عن استخدام اعنف الوسائل ليمحو من الوجود

---

١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤١٧ – ٤١٨ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٧ – ٣٣ ؛ المسعودي ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، ٩٨ .

٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٧ ؛ قابل ص ٤٥ ؛ راجع ص ٨٩ ح ٣ . الحاشية الاخيرة .

٣) وردت ايضاً ابوصير ، ولعلها بوصير الملق في الفيّوم . راجع ساويروس ابن المقفع ، سير البطاركة الاسكندرانيين ، نشر سيبولد (همبرغ ، ١٩١٢) ، ص ١٨١ وما بعد ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٩ – ٥٠ .

٤) المسعودي ، ج ٦ ، ص ٧٧ .

اولئك الاعداء الذين يمتون اليه بصلة النسب . بل لقد انتهكوا حتى حرمة المدافن في دمشق وقنسرين ومواضع اخرى، فنبشوا القبور وصلبوا الجثث، وطرحوا الاشلاء خارجاً . وقد اخرج جثمان هشام من قبره في الرصافة، وجلد ثمانين سوطاً ثم احرق حتى استحال رماداً[١]؛ ولم يعفّوا الا عن قبر معاوية، وقبر عمر التقي . وفي ٢٥ حزيران سنة ٧٥٠ ادب عبد الله مأدبة لثمانين من امراء الامويين في ابي فطرس (انتباترس القديمة) على نهر العوجا بالقرب من يافا؛ وما ان بدأ الاحتفال حتى انقضّ الجلادون على المدعوين، واخذوا يحصدون رؤوسهم واحداً تلو الآخر . حتى اذا بسطت نطع الجلد على الجثث وهي ما زالت دافئة، وعلى القتلى وهم بعد يعالجون سكرات الموت، تحول القائد واعوانه الى الموائد ليستأنفوا الاستمتاع بالطعام الشهي، على ايقاع انين المحتضرين وحشرجة المنازعين[٢]. ثم ارسل العملاء والجواسيس يجوسون بلاد الاسلام لاصطياد الفارين من ابناء الاسرة الاموية المنهارة وقد تتبعوهم بالقتل «فطلبوا من بعدها بطن الارض[٣]» وذلك بعد ان امتنع الأمان لهم على وجهها .

فرار مدهش

على ان شخصاً واحداً نجا من هذه المجزرة البشرية العامة هو عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة هشام . فان هذا الفتى، الذي كان له من العمر تسعة عشر عاماً، كان قد اختبأ في مضرب لجماعة من البدو على ضفة الفرات اليسرى في شمالي سورية . وذات يوم فوجئ القوم بمشهد اعلام سوداء تقترب منهم . فألقى عبد الرحمن نفسه في النهر، وتبعه اخوه وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره . لكن المطاردين العباسيين جدوا في اثرهما . وإذ وثق اصغر الاخوين بالأمان الذي قطعه له المطاردون

---

١) المسعودي، ج ٥، ص ٤٧١؛ قابل اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٢٧ — ٢٨ . انظر ايضاً الفخري، ص ٢٠٤ .

٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٢٥ — ٢٦، المسعودي، ج ٦، ص ٧٦؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٣٢٩ — ٣٠؛ المبرّد، ص ٧٠٧؛ الاغاني، ج ٤، ص ١٦١، قابل ص ٩٢ — ٩٦؛ الفخري، ص ٢٠٣ — ٤؛ Theophanes, p. 427 . قابل ذلك بقصة ابادة يهوه لبيت آخاب (الملوك الثاني، ٩ : ١٤ — ٣٤) وابادة محمد علي لمماليك مصر (في ما يلي الفصل ٤٩ حول بشير الثاني؛ جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٢٥، ج ٢، ص ١٦٠ — ٦٢ .

٣) ابن خلدون، ج ٤، ص ١٢٠ .

ان هو عاد ، رجع ادراجه من اواسط النهر ، فلاقى حتفه ذبحاً . اما الاكبر فاستأنف السباحة حتى ادرك الضفة المقابلة [١] .

وسار عبد الرحمن متنكراً في اتجاه جنوبي . وفي فلسطين التحق به مولاه بدر الذي عرف بدهائه واخلاصه للبيت الاموي . وقد عينت مكافأة مالية كبيرة ثمناً لرأس الامير الهارب ، لكنه نجا باعجوبـــة من مؤامرة دبرها حاكم شمالي افريقيا لاغتياله . وراح من ثم يطوي ساحل افريقيا الشمالي بطوله ، وحيداً شريداً طريداً لا رفيق يؤنسه ولا مال يسعفه . وبعـــد خمس سنوات من التجول حط رحاله في الاندلس (٧٥٥) ، وهي البلاد التي كان اسلافه قد فتحوها وحكموها . وفي السنة التالية اقام نفسه سيداً على شبه الجزيرة ، لا ينازعه في ذلك منازع . وقـد اختار عاصمة له مدينة قرطبة التي يعود تاريخها ، فيما هو مشهور ، الى العهـــد القرطاجني ، فقدّر لها ان تزدهر وتصبح عاصمة لمملكة جديدة ومهداً لحضارة راقية . وقد حاول عبد الرحمن ان ينشئ دولته على غرار الدولة الشامية . فافتتح عهد علم وسخاء سار بوجه العموم على خير ما رسمه الخلفاء السابقون في دمشق . وكان هشام ، قبل وصول عبد الرحمن الى الاندلس باربعة عشر عاماً ، قـــد وجّه الى الاندلس جيشاً سورياً مؤلفاً من ٢٧ الف مقاتل ، بقيادة بلج بن بشر القشيري لمحاربة البربر . فاستقرّ هذا الجيش في اقطاعات عسكرية منتشرة على الساحل الاسباني المحاذي للمتوسط [٢] . واقيمت فرق من دمشق وحمص وقنسرين والاردن وفلسطين ، في المرية واشبيلية وجيان ومالقه وشذونه على التوالي ، واعطى هؤلاء الوافدون لمواطنهم الجديـدة اسماء جغرافية سورية ، وكانت المشابهة في الاحوال الجوية والاوضاع الطبيعيـــة الجغرافية مما ساعد الوافدين المستجدين على الاستئناس باوطانهم الجديدة . وباكتساب السوريين لهذه المناطق اخذت الاغاني السورية والشعر والفن السوريين جميعاً تستحوذ على قلوب ابناء البلاد . ولقد قدّر لكثير من هذه العناصر ان تتسرّب ، في ما بعد ، من اسبانيا والبرتغال الى العالم الجديد . واخذ جغرافيو العرب ، من ثم ، يتحدثون عن الاندلس بوصفها اقليماً سورياً ؛ لكن معركة الزاب لم تلبث ان احالت سورية نفسها الى اقليم عباسي .

---

١) اخبار مجموعة ، ص ٥٢ — ٥٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٧٧ .

٢) اخبار مجموعة ، ص ٣١ ؛ قابل ابن القوطية ، ص ١٤ — ١٥ ؛ المراكشي ، ص ٩ .

الفصل الحادي والأربعون

سورية تغدو اقليماً عباسياً

زالت بسقوط الامويين سيادة سورية على دنيا الاسلام ، وانقضى العز الذي كان لها . ذلك ان العباسيين اختاروا العراق مركزاً لهم ، ومدينة الكوفة ، القريبة من حدود فارس ، عاصمة لخلافتهم . وقد تنبّه السوريون ، بعد الهزيمة المنكرة التي منوا بها على الزاب ، الى الواقع المؤلم ، وهو ان مركز الثقل في الاسلام قد تحول عن بلادهم في اتجاه شرقي . فعقدوا رجاء اخيراً على سليل لمعاوية من البيت السفياني[1] ، توقعوا ان يعود ، عودة المسيح ، وينجيهم من منافسيهم العراقيين الفائزين . ولا يزال هذا الامل يختلج ضعيفاً في قلوب المسلمين السوريين الى اليوم .

العهد الجديد

وكان ابو العباس في هذه الاثناء يعمل جاهداً على توثيق امره في المناطق التي اكتسحها من جديد . وكان قد وصف نفسه في الخطبة التي افتتح بها عهده في الكوفة بالسفاح[2] ، مشيراً الى السياسة الحازمة التي ينوي اتباعها . وهذا معناه ان الاسرة التي تسلمت الحكم كانت تنوي استخدام القوة في تنفيذ تدابيرها اكثر من الاسرة الزائلة . ولأول مرة مدّ بساط النطع لضحايا الجلادين بالقرب من عرش الخلافة . وقد جمع الخليفة الجديد من حوله رجال الدين وعلماء الشريعة ، محيطاً الدولة الفتية بجو حافل بالمؤثرات الدينية ، وذلك في مقابل ما عرفت به الدولة الزاحلة من ابهة

---

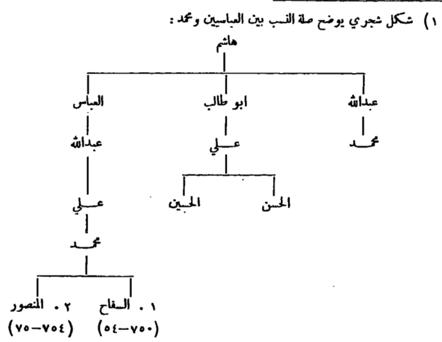
١) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٣٢٠ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الامم وتعاقب الهمم ، نشر دي غويه ويونغ ، ج ٢ (ليدن ، ١٨٧١) ص ٥٢٦ ؛ ياقوت ، ج ٤ ، ص ١٠٠٠ ؛ الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٨٨ ؛ H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades* (Beirut, 1930), pp. 391-408.

٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٠ ، س ٢٠ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣١٦ .

الملك . ثم محمد ، في الاحتفالات الرسمية ، الى الاتشاح ببردة النبي ، نسيبه البعيد[١]، واخذت اساليب الدعاية المحكمة ، التي ساعدت على تقويض ثقة الشعب في نظام الحكم القديم ، تعمل الآن على توثيق النظام الجديد لدى الجمهور . وقد نادى المغالون من دعاة العباسيين بان السيادة ينبغي ان تبقى في البيت العباسي الى ان يتسلمها منهم آخر الامر عيسى ابن مريم[٢] . ثم اضيف الى ذلك — فيما بعد — انذار شديد هو انه اذا قدر للخلافة العباسية ان تنهار فان نظام الكون لا بد ان يختل باسره[٣] . وقد وضعت لهذه الغاية احاديث بالجملة تنطوي على تأييد العباسيين ومعارضة القضية الاموية . وبلغوا من التمادي ان محوا اسماء الامويين المنقوشة على المباني[٤] وعدلوا طراز المنبر في المساجد كما كان عليه في عهد الامويين .

على ان الفارق الحقيقي الذي ميز هذه الخلافة عن سابقتها انما كان في أن العباسية اتسمت بالسمة الفارسية، بحيث طغت المراسم الفارسية على مظاهر الخلافة، وسيطرت الافكار الفـــارسية على شؤون السياسة ، وغلبت نسبة النساء الفارسيات في دور

١) شكل شجري يوضح صلة النسب بين العباسيين ومحمد :



٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن الطولونيين .

٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٨٦ ، راجع ص ١٣٠ من هذا الجزء .

الحريم ، حتى تحولت الخلافة الى امبراطورية من المسلمين المستجدين ، ما كان العرب فيها الا عنصراً واحـــداً من العناصر العديدة التي تألفت منها . ولئن كانت الدولة الاموية ، على اعتبار ما ، وريثة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فقد كانت خلافة بني العباس ، باعتبار أعمّ واوسع ، وريثة امبراطورية الاكاسرة . وقـــد سمت الخلافة العباسية نفسها « دولة » ، اي عهداً جديداً ، وكانت بواقع الامر عهداً جديداً ، شعر العراقيون فيه انهم قد تحرروا من وصاية السوريين عليهم ، واحس الشيعة انهم قد انتقموا لأنفسهم ، ووجد الفرس مناصب الدولة الرفيعة متاحة لهم . فقد انشأوا منصباً جديداً في الدولة ، كانوا اول من شغله ، هو الوزارة ؛ وهو المنصب الاعلى بعد الخلافة . واقبل الخراسانيون من ثم على الانخراط في فرقة الحرس المنوطة بالخلافة . وهكذا تضاءل مجد الارستقراطية العربية وانهار صرح العروبة ، لكنّ الاسلام استمر في سيره المظفر بزي جديد هو النزعة الايرانية .

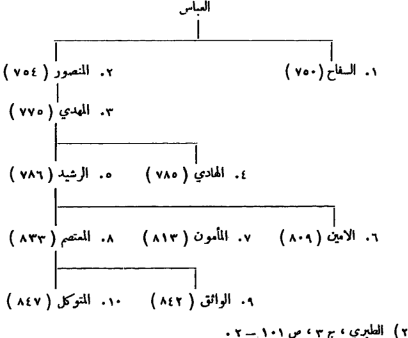
ان الخلافة الثالثة بعد خلافة الراشدين وخلافة الامويين ، وهي الخلافة التي اسسها السفاح (٧٥٠ — ٥٤) واخوه المنصور (٧٥٤ — ٧٥) ، كانت اطـــول الخلافات الاسلامية عهداً واوسعها شهرة . فقد كان الخلفاء ، الخمسة والثلاثون الذين تعاقبوا على الخلافة من بعد الخليفة الثاني جميعاً من سلالته العصبية . ولقـد اختار المنصور لعاصمته موقع قرية مسيحية ذات اسم فارسي هو بغداد (معناه عطية الله[1]) . كانت تقوم على الضفة الغربية السفلى من نهر دجلة . بنيت هذه العاصمة التي دعيت رسمياً بدار السلام سنة ٧٦٢ ، واقيم حولهـــا سور خارجي من طوب مؤلف من جدارين ، وسور داخلي بلغ ارتفاعه تسعين قدماً ، وجعـــل بين السورين خندق عميق . وقامت مدينة المنصور في الوادي عينه الذي ضم عدداً من امنع مدن العصر القديم ، ولم تلبث ان غدت وريثة امجاد مدائن كسرى وبابل ونينوى ، وسواهن من العواصم القديمـــة في الشرق الادنى . واذ كانت بغداد مسرحاً للمغامرات الاسطورية الرائعة التي خلدتها شهرزاد في قصة الف ليلة وليلة ، وقاعدة لعهدين من ازهى العهود هما عهد هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩) وعهد المأمون (٨١٣ — ٣٣) ، فقد برزت في الاسطورة وفي التاريخ رمزاً منقطع النظير لمجد الاسلام . ولقد نسج

١) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٢) ، ص ٢٣٥ ؛ البلاذري ، ص ٢٩٤ .

عهد هذين الخليفتين حول السلالة برمتها هالة من المجد لم يقدر لها الى الآن ان تتلاشى، وامتد اوجها ما بين عهد المهدي (٧٧٥ — ٨٥) الخليفة الثالث، وعهد الواثق (٨٤٢ — ٤٧) الخليفة التاسع[1]. ثم اخذت، بعد الواثق في طريق الانحدار حتى خلافة المستعصم (١٢٤٢ — ٥٨) ، وهو السابع والثلاثون من خلفاء هذه السلالة. وفي عهده اجتاحها المغول ودكّوا معالمها. لقد استمرت ذرية السفاح والمنصور في الحكم اكثر من خمسة قرون، الا انهم لم يكونوا دائما الحاكمين الفعليين.

كان اول والٍ للعباسيين على سورية عبدالله بطل الزاب نفسه. فما ان توفي السفاح حتى طلب عبدالله هذا الخلافة لنفسه، مزاحماً فيها ابن اخيه الآخر المنصور، معتمداً على جيش كبير جيد التدريب، كان قد حشد في الاصل لمجاهدة الروم. وبعد ان قضى على ١٧ الف جندي من الخراسانيين الذين لم يكونوا موضعاً لثقته، سار بمن بقي، وجلهم من السوريين، في اتجاه شرقي[2]. فتصدى له ابو مسلم في نصيبين (تشرين الثاني ٧٥٤) وهزمه. وبعد ان قضى في المعتقل سبع سنوات، نقل في موكب وسمي الى بيت رفعت دعائمه — فيما يذكر — على قاعدة من الملح، ثم احيط

١) شكل شجري لنسب الخلفاء الذين بلغت الخلافة العباسية اوجها في عهدهم :



٢) الطبري، ج ٣، ص ١٠١ — ٠٢ .

بالماء فلم يلبث ان سقط عليـــه ودفن تحت انقاضه[١]. وكان ابو مسلم آنئذٍ حاكم خراسان المستقل ومعبود قومه ، وكان شديد البطش بخصومه وخصوم الدولة على السواء. حتى ان ظفره بدأ يثير الظنون والمخاوف . وقد استدرج في طريق عودته الى ان يعرج على المدائن ويواجه الخليفة . لكن هذا الفارس الذي كان العباسيون مدينين في بناء عرشهم لسيفه بعد سيف عبد الله ، قـــد سقط بين يدي المنصور ضحية للغدر[٢].

وجاء بعد ذلك دور الشيعة . فقـــد كان هؤلاء يظنون اولاً ان العباسيين انما يقاتلون من اجلهم ، لكن الغشاوة التي كانت على عيونهم زالت الآن ، وبان لهم ان الذي عناه ابو العباس وجماعته «باهل البيت» هم آل العباس بيتهم الخاص ، وليس بيت علي وفاطمة . فاستمروا في اعتبار ائمتهم وحدهم اصحاب الحق الشرعي في تسلم مقدرات الاسلام ، مما حط مقام الخلفاء العباسيين الى مقام المغتصبين . واذ ذاك لجأ العلويون ثانية الى العمل في الخفاء واستغلوا كل فرصة سانحة لاثارة القلاقل جهاراً . ولقد افتى مالك بن انس المشهور باسم الشيعة فحلهم من عهـــد الولاء للعباسيين . والامام مالك هو مؤسس احد المذاهب الفقهية الاربعة الكبرى في الاسلام ، ومذهبه لا يزال حتى الوقت الحاضر شائعاً في اقاليم افريقيا الشمالية . وكان اثنان من احفاد الحسن هما محمد وابراهيم قد تزعما حركة ثورية ، فبادر العباسيون الى سحقها بلا رحمة[٣]. وعمدوا الى محمد الملقب بالنفس الزكية فصلبوه في المدينة

---

١) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ — ١٠٧ ؛ الدينوري ، ص ٣٧٦ — ٧٨ .

٣) شكل شجري يوضح سلالة علي :

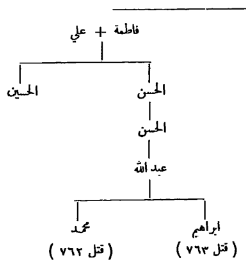
عبد المطلب
- عبد الله
  - محمد
    - فاطمـــة + عـــلي
- ابو طالب
  - عـــلي
- العباس
  جدّ الخلفاء العباسيين

(يتبع في ذيل الصفحة التالية)

(كانون الاول ٧٦٢) واحتزوا رأس أخيه ابراهيم (شباط ٧٦٣) قرب الكوفة، وارسلوا به الى الخليفة[١].

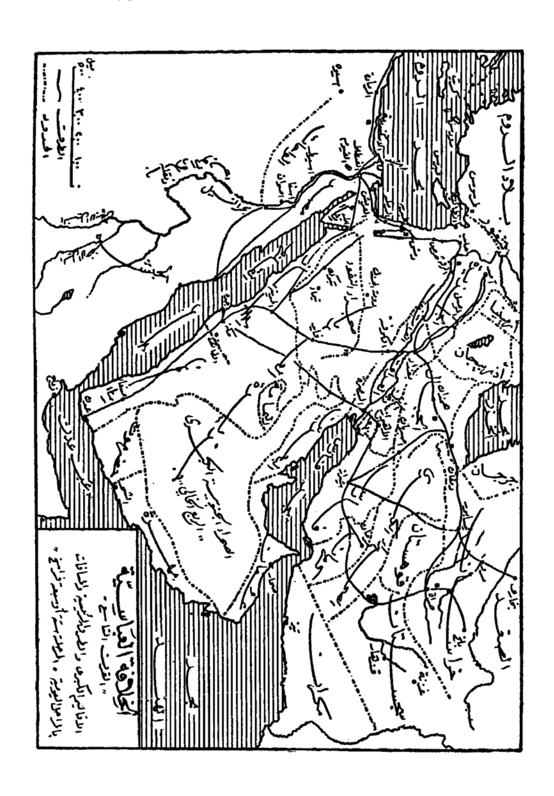
وكان هنالك جماعة اخرى من احلاف الشيعة لم يكن بد من تصفية امرهم، هم البرامكة. والبرامكة اسرة فارسية رفعها المنصور الى مقام الوزارة. وهي اسرة عريقة متحدرة من كاهن بوذي كبير (برمك). وقد قام افرادها بجلائل الاعمال، وبذلوا بسخاء نادر حتى غدت لفظة «برمكي» مرادفة للجود. لكنّ هارون الرشيد، صاحب الارادة الفولاذية، لم ترق له مهابتهم ووجاهتهم، فعمل من ثم على القضاء عليهم سنة ٨٠٣ فما بعد، وصادر ثروتهم التي بلغت، فيما قيل، ٣٠٬٦٧٦٬٠٠٠ دينار نقداً، غير المقتنيات والممتلكات[٢].

وبانتقال الخلافة بعيداً الى بغداد لم يعد امر الروم، وهم اعداء العرب التقليديين، من شواغل العباسيين الكبرى. اما القلاقل التي رافقت هذا الانتقال، فقد هيأت لقياصرة الروم ان يبسطوا نفوذهم في اتجاه شرقي حتى حدود آسية الصغرى وارمينيا، فاضطر المنصور وخلفاؤه الى ان يبذلوا الجهـــد في تحصين ثغور سورية ومرافئ



١) الطبري، ج ٣، ص ٢٤٥ — ٦٥، ٣١٥ — ١٦؛ المسعودي، ج ٦، ص ١٨٩ — ٢٠٣؛ الدينوري، ص ٣٨١.

٢) العقد، ج ٣، ص ٢٨؛ الطبري، ج ٣، ص ٦٨٠؛ ٦٧٦ — ٧٧؛ المسعودي، ج ٦، ٣٨٧ — ٩٤؛ الفخري، ص ٢٨٨. قابل ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٢٣ — ٢٤؛ كتاب العيون، القسم ٣، ص ٣٠٦ — ٨.


الخلافة العباسية

لبنان[1]. ففي سنة ٧٨٢[2] قاد هارون الرشيد – وهو بعد امير – جيوشه حتى بيزنطة ، وفرض على الاميرة ايرين ، الوصية على عرش الروم ، جزية ضخمة . وقام وهو خليفة ، بسلسلة من الغارات اخترق بها «ارض الروم[3]» . وشن ابنه المعتصم سنة ٨٣٨ هجوماً اخيراً على ارض الروم . وعند هذا الحد توقف النزاع الذي استمر بين الخلافة العباسية ودولة الروم ما يربو على القرن ونصف القرن .

القلاقل في سورية ولبنان وفلسطين

لم يتوانَ السوريون ، بعد ان فقدت بلادهم مكانتها الممتازة ، عن التعبير عن معارضتهم الشديدة بالسيف وبالبيان . لكن موقفهم اخذ يتطور مع مرور الايام من سيء الى اسوأ ، حتى تركهم محرومين من مناصب الدولة . وان الجواب الذي اجاب به احدهم ابا جعفر المنصور عندما قال انه قد كان من حظ الناس في عهده ان نجوا من الطاعون ، ليمثل شعور الناس الغالب في ذلك العصر ، وهو : «ان الله لارحم من ان يصيبنا بالطاعون وبحكمك في وقت واحد[4]» . اما النصارى فقد ساءت احوالهم بسبب التمادي في ابتزاز اموالهم ، وزيادة الضرائب عليهم . وقد مرّ قرنان قبل ان تيسر لرعايا الدولة الاموية ان يصالحوا الدولة العباسية ويدخلوا في وضع رعاياها .

ولم يكد عبدالله ، حاكم الشام الاول ، يتسلم مهام وظيفته سنة ٧٥٠ ، حتى قامت في وجهه فتن عديدة في حوران وبثنيّه وقنسرين ، كان يتزعمها قادة سابقون في جيش مروان . اما المتمردون في حمص وتدمر ، فقد كان زعيمهم زياد : سليل معاوية الذي وقع عندهم انه السفياني المنتظر ، وكان في معسكره بالسلمية ٤٠ الف رجل[5].

---

١) البلاذري ، ص ١٦٣ ؛ راجع الفصل ٣٤ الصفحة الاولى .

٢) كتاب العيون ، قسم ٣ ، ص ٢٧٨ . يجعل تاريخ الحملة ١٦٣ ﻫ (٧٨٠ م) ؛ ويجعله اليعقوبي (ج ٢ ، ص ٤٧٨ ، ٤٨٦) ١٦٤ ، والطبري (ج ٣ ص ٥٠٣ – ٤) ١٦٥ ﻫ.

٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٩٦ ، ٧٠٩ – ١٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥١٩ س ١٤ ، ص ٥٢٣ س ٢ ؛ الدينوري ، ص ٣٨٦ – ٨٧ ؛ المسعودي ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ – ٥٢ . ويتجلى في خرائب الرقة ، وهي المدينة التي اسسها سلوقس الاول ، ذلك التخطيط الواسع الذي رسمها الرشيد وحصنها المأمون على اساسه .

٤) ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

٥) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٤١ وما بعد .

واشتد في هذه الآونة النزاع في سورية المسلمة، وبرز بين القيسية واليمنية الحزبين اللذين ظهرا بمختلف الاسماء. وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام، فاعتمدوهم في شؤونهم. وبلغ النضال اشده في خلافة هارون الرشيد، حينما كان واليه على دمشق ابراهيم، احد احفاد عبدالله[١]. وقد سفكت دماء كثيرة في دمشق وحوران والبقاع والاردن وحمص، ونشب القتال واستمر سنتين بلا هوادة وذلك — فيما روي — لان قيسياً سرق بطيخة من بستان يمني[٢]. حتى ان الخليفة فكر بتجريد حملة تأديبية عليهم يقودها بنفسه، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة، فجرد هذا المتقاتلين من كل سلاح حتى «لم يدع لهم رمحاً ولا فرساً[٣]». وكان للاضطرابات التي رافقت النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون ابني الرشيد رد فعل قوي في سورية. ذلك ان الجنود السوريين، عندما وجدوا انفسهم (٨١١—١٢) مع الخراسانيين في معسكر واحد في الرقة، وصاح بهم احد قادتهم المتمردين: «يا معشر كلب انها الراية السوداء... اعتزلوا الشر قبل ان يعظم... داركم داركم، الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري[٤]» اعتزلوا الحرب وساروا مع قائدهم. وفي عهد الامين المضطرب عمد سفياني آخر، اسمه علي، الى رفع العلم الابيض. وكان هذا المنافس الجديد من العلماء. وكان له من العمر تسعون عاماً. فاستطاع ان يجمع حوله جماعة من المؤيدين بينهم حاكم صيدا، وسار على حمص فاحتلها، ثم حاصر دمشق، ودخلها بعد ان طرد عامل العباسيين منها[٥].

وفي سنة ٨٢٩ قدم المأمون الى سورية، ووضع كشفاً جديداً لاراضيها على امل زيادة الدخل الوارد منها[٦]. وبعد ذلك باربع سنوات زار دمشق، لينظر في

---

١) ان الوضع القلق في سورية اقتضى ان يكون حاكمها من الاسرة العباسية. وكان صالح والد ابراهيم، واخا عبد الله. وقد جرى تعيين حكام مختلفين على المناطق السورية المختلفة في بعض الاحوال؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٦١.

٢) ابو الفداء، ج ٢، ص ١٤؛ ابن الاثير، ج ٦، ص ٨٧.

٣) الطبري، ج ٣، ص ٦٣٩.

٤) الطبري، ج ٣، ٨٤٤ — ٤٥.

٥) اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٣٢، ابن الاثير، ج ٦، ص ١٧٢؛ الطبري، ج ٣، ص ٨٣٠.

٦) ابن عساكر، ج ٤، ص ١٠٧ — ٨. راجع بشأن زيارته الى القدس ما سبق، ص ١٣٠ من هذا الجزء.

امر القضاة، ويطبق بحقهم القانون الذي سبق ان وضعه في بغداد، وهو ان كل من لا يوافق المعتزلة من القضاة في عقيدة خلق القرآن لا يسوغ له ان يحتفظ بمنصبه[١]. وكان عدد من الخلفاء الذين سبقوه قد قاموا كذلك بزيارة سورية في طريقهم الى الحج، او في حملاتهم على الروم. ولقد كانوا جميعاً على علم بكل ما يجري هناك عن طريق ولاتهم، وعن يد عامل خاص يمدهم بالاخبار هو صاحب البريد، وكان هذا — بواقع الامر — رئيس فرقة التحرّي[٢]. اما تعليم المعتزلة الذي كان الخليفة قد اعتنقه فقد كان معارضاً تماماً لتعليم اهل السنة. وهذه الحركة الفكرية العقلانية كانت قد نشأت وترعرعت في ظل الحكم الاموي[٣].

الثائر المقنّع

وكانت فلسطين مسرحاً للفتنة الكبرى التالية، فقد عمد رجل من عرب اليمن، مجهول النسب، الى اعلان العصيان برفع العلم الابيض (٨٤٠ — ٤١). ومن غريب امره انه كان لا يظهر في الجمهور الا مقنعاً، فعرف «بالمبرقع». وكان اتباعه، البالغون — فيما روي — مئة الف رجل، من ابنـــاء المناطق الريفية ومن طبقة المزارعين، مما يشير الى وجود حافز اقتصادي الى جانب العامل السياسي. وكان المعتقد السائد انه سفياني النسب. عـــلى ان القائد العباسي تربص بهم حتى فصل الحراثة، وهاجم مركز قيادتهم بالف رجل امده بهم الخليفة المعتصم، واعتقل الثائر المبرقع، وحمله الى سامرا عاصمة العباسيين المؤقتة[٤].

دمشق عاصمة مؤقتة

وفي عهد المتوكل بن المعتصم عادت نار الثورة فشبت ثانية في دمشق (٨٥٤ — ٥٥). ذلك ان الرعايا ثاروا بالحاكم العباسي وقتلوه، فارسل الخليفة اليهم قائداً تركياً على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة، اعملوا فيهم السيف

---

١) اليعقوبي، ج ٣، ص ٥٧١.

٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 325

٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 429

٤) الطبري، ج ٣، ص ١٣١٩ — ٢٢؛ ابن عساكر، ج ٥، ص ٣١١ — ١٢.

لمدة ثلاثة ايام، وانتهبوا المدينة بكاملها[١]. وكان ابعد المحتملات عن التصديق ان يقع اختيار الخليفة على دمشق فيجعلها، بعد فترة وجيزة، مقراً له. ففي سنة ٨٥٨ نقل المتوكل قاعدته اليها، وكان الحافز لذلك، فيما يظن، تفادي سيطرة حرس الخلافة المتغطرسين عليه، اولئك الحرس الذين كان اكثرهم من الترك غير النظاميين وكانوا من المرتزقة والعبيد في خدمة سلفه السابق. لكن مناخ المدينة الرطب، ورياحها العاصفة، وبراغيثها وهوامّها الكثيرة المزعجة رحّلت عنها الخليفة المتقلب بعد ثمانية وثلاثين يوماً من نزوحه اليها[٢].

التشريع ضد النصارى

هذا النهج الذي سلكه الثوار السوريون في العصر العباسي الاول غدا نموذجاً يحتذى لسنين كثيرة. وطرأ في هـــذا الوقت طارئ جديد هو اشتداد نقمة النصارى، بسبب التدابير الصارمة التي فرضت عليهم. ولم نسمع، قبل عهد المتوكل الا بحركة عصيان واحدة قام بها نصارى لبنان. وقع ذلك سنة ٧٥٩ — ٦٠، عندما كان صالح بن علي، اخو عبدالله، والياً عليها. فقد لجأت جماعة منهم الى السلاح تفادياً لمصادرات جديـــدة تنزل بهم، وانتهزوا وجود اسطول بيزنطي في مياه طرابلس، وانقضوا من قاعدتهم في المنيطرة[٣] — في اعالي لبنان — وانتهبوا عدداً من قرى البقاع. وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية، بلغ من جرأته وتهوّره ان اقام نفسه ملكاً. لكن العصابة اللبنانية قيدت بعد حين الى كمـــين قرب بعلبك، نصبته لها فرقة فرسان عباسية، وفتكت بهم. ثم عمد صالح الى الانتقام، فشرّد أهل القرى الجبلية، مع ان الكثيرين منهم لم يساهموا في الفتنة، ونثرهم في المناطق السورية على اختلافها[٤]. وعلى اثر ذلك رفع الامام الاوزاعي، الفقيه المشهور في بعلبك وبيروت[٥]، احتجاجاً الى الحاكم يجدر بنا اثباته في ما يلي :

---

١) ابن عساكر، ج ٦، ص ٤٧ — ٤٨.

٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٥ — ٣٦؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٠١؛ ابن عساكر، ج ٤، ص ٢٨٨ — ٨٩.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٦ في الفقرة عن شهادة أسامة.

٤) ابن عساكر، ج ٥، ص ٣٤١.

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٢ في الفقرة عن الاوزاعي.

وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان . ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم الى قراهم ، ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم ، وحكم الله تعالى ان لا تزر وازرة وزر اخرى[١]. وهو احق ما وُقف عنده واقتدي به . واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله صلعم ، فانه قال : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه »[٢].

ولقد كان هارون الرشيد ، جد المتوكل ، قد اعاد مفعول بعض الاجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز[٣] ضد النصارى واليهود . ففي سنة ٨٠٧ امر بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بنيت منـــذ الفتح الاسلامي ؛ وسن كذلك قانوناً اوجب به على جميع الذميين ان يلبسوا اللباس المعيّن[٤] . على ان الكثير من هذه التدابير ، ولا شك ، لم يوضع موضع التنفيذ[٥]. وفي سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ اعاد المتوكل ثانية شرعة التمييز العنصري ، واتبعها بتدابير جديدة كانت أشد ما فرض بحق الاقليات على الاطلاق . فقد اجبر النصارى واليهود على ان يجعلوا عـــلى بيوتهم تماثيل خشبية للشياطين . وان لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الارض ، وان يرتدوا معطفاً عسلي اللون ، ويجعلوا على كل من الكمّين رقعتـــين عسليتين ، تخاط احداهما من امام والثانية من وراء ؛ وان لا يركبوا الا البغال والحمير ، وذلك على سرج من خشب له على قربوسه كرتان خشبيتان كأنهما رمانتان[٦] . فصار الذمي يسمى بسبب هذه الملابس الخاصة « بالارقط[٧] » . ثم ان القضاة المعاصرين عمدوا الى اعتبار شهادة اليهودي والنصراني على المسلم غير مقبولة ، بناء على الآية القرآنية

---

١) سورة الانعام : ١٦٤ .

٢) البلاذري ، ص ١٦٢ .

٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء .

٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٧١٢ — ١٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ١٤١ .

٥) انظر : Laurence E. Browne, *The Eclipse of Christianity in Asia* (Cambridge, 1933), pp. 46 *seq.*

٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٣٨٩ — ٩٣ ، ١٤١٩ .

٧) الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ٧٩ ، س ٢٨ .

التي تتهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدس[١]. ولم يقع بعد ذلك اضطهاد خطير حتى زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره (٩٩٦ – ١٠٢١).

واذ اقدم المتوكل على سن هذه الشرائع انطلقت فتنة عنيفة في حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون، لكنها اخضعت بعد مقاومة شديدة (٨٥٥)، وبعد ان ضربت اعناق زعمائها، او جلدوا حتى الموت، وصلبوا على ابواب المدينة. ثم هدمت جميع الكنائس الا تلك التي ضمت الى المسجد الكبير، وابعد جميع النصارى من المدينة الهائجة، وقد كان سواد سكانها، على ما يبدو، من النصارى[٢].

كان الحيف الاكبر الذي لحق بالذميين عادة هو ضريبة الجزية. فقد كانت هذه الضريبة، مبدئياً، الثمن الذي يؤدى عن حق الاقامة وحرية العبادة، وفي مقابل الامان على الحياة وعلى المقتنيات. لذلك كان هذا العقد عرضة للالغاء في حال الامتناع عن دفع الجزية، او القيام بفتنة، او اللجوء الى التجسس لحساب دولة غريبة، او ايواء عدو من اعداء الدولة. وقد اضيفت الى ذلك اسباب اخرى مع مرور الزمن، منها الفجور بمسلمة حرّة، وصرف المسلم عن دينه، والتجديف على الله او على رسوله او كتابه. اما المسلم فلم يكن له ان يعتنق النصرانية او اليهودية، دون ان يعرض نفسه للموت. وقد اجازوا اقصاء الذمي غير المرغوب فيه الى خارج البلاد الاسلامية. وكانت اكثر المذاهب الفقهية تمتنع عن انزال العقوبة القصوى بالمسلم ان هو قتل ذمياً. ولم يمنع غير المسلم من ان يرفع امره الى محكمة اسلامية، ان هو اراد ذلك؛ اما اذا كان احد المتقاضيين مسلماً فلا بد من رفع الشكاية الى قاضٍ مسلم. ثم ان القضية اذا كانت بين ذميين من مذهبين مختلفين: احدهما نصراني والاخر يهودي، فان الشرع الاسلامي لا يتعرض لها، الا في حال تعذر الاتفاق بين الفريقين على اختيار المحكمة. ومن ذلك ان الزوج اذا اعتنق الاسلام، وكانت زوجته كتابية، فان عقد الزواج يبقى قانونياً؛ اما اذا اعتنقت هي الاسلام، فينبغي عندها على الزوج ان يتبعها في ذلك، في غضون ثلاثة

---

١) سورة البقرة: ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦ – ١٨.

٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٢٢ – ٢٤؛ ابن الاثير، ج ٧، ص ٥٩ – ٦٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٩٩. راجع ص ١٢٨ – ١٢٩ من هذا الجزء.

اشهر، تنقطع بينها في إثنائها كل صلة زوجية، والا طلقت منه. اما في ما يتعلق بالارث فقد منعوا على الذمي ان يرث من المسلم شيئاً.

الدخول في الاسلام

حافظت سورية حتى هذا الوقت – فيا يظهر – على طابعها المسيحي العام، لكن الوضع اخذ بعد هذا، يتبدل تبدلاً محسوساً. ذلـــك ان خمسة آلاف من نصارى بني تنوخ في جوار حلب كانوا قد عملوا باشارة المهدي العباسي واعتنقوا الاسلام[١]. وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان في مطلع القرن التاسع من الاسر العربية الاسلامية الاولى التي استوطنت الجبل. وقد اقتطعوا لانفسهم، في تلك المنطقة القليلة السكان، التي لا تزال تعرف بالغرب، مقاطعة حكموا فيها قروناً عديدة. وقد اقامهم العباسيون حاجزاً دون الموارنة في شمالي لبنان، وسداً في وجه الروم المقبلين من البحر. وعندما اقبل الصليبيون اصابوهم في بـــيروت وجوارها. وكان قد سبق التنوخيين الى هذا المكان شيخ الاسرة الارسلانية التي تعيد نسبها الى اللخميين، فاستوطنوا الغرب[٢]. وكان الشيخ الارسلاني من اتباع الامام الاوزاعي، اما ذريته اليوم فمن اشراف الطبقة الارستقراطية في المجتمع الدرزي. وغالب الظن ان عدداً كبيراً من الاسر المسيحية في سورية – باستثناء لبنان – قد اوى الى حظيرة الاسلام بعد عهد المتوكل. وربما كان الدافع الى ذلك رغبتهم في تفادي التدابير المذلة والضرائب الفادحة، وحرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والنفوذ السياسي. وكان الكثيرون من وجهاء النصارى قد هاجروا الى آسية الصغرى وجزيرة قبرس وهكذا تحقق الوجه الثاني من الفتح الاسلامي، وهو فتح الاسلام من حيث هو دين وعقيدة، وكان الفتح الاول فتح القوة المسلحة الذي تم في سورية قبل ذلك باقل من عشر سنوات.

---

١) ابن العبري: *Chronicon Syriacon*، نشر برنز وكيرتش (ليبتزغ ١٧٨٩)، ج ٢، ص ١٣٣؛ راجع ص ٩٨ – ٩٩ من هذا الجزء.

٢) محاسن المساعي في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي، نشر شكيب ارسلان، (القاهرة)، ص ١٩ – ٢٠، الشدياق، ص ٦٤٦ – ٤٧.

فتح اللغة العربية

اما الوجه الثالث من هذا الفتح فهو الفتح اللغوي[١]. كان الانتصار اللغوي ابطأ الانتصارات وآخرها. ففي هذا الميدان اتخذت الشعوب المغلوبة في سورية وسواها اشد تدابير المقاومة. والظاهر انهم كانوا اكثر استعداداً للتخلي عن عهودهم السياسية بل والدينية، منهم للتنازل عن استقلالهم اللغوي. لذلك استطاعت العربية الفصحى ان تحرز كسبها قبل العامية، فشرع الادباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة، قبل ان ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد[٢]. واقدم ما وصل الينا من المخطوطات العربية النصرانية المؤرخة، مخطوطة الفها أبو قرة (ت ٨٢٠)، ونسخت سنة ٨٧٧ في دير القديس سابا قرب القدس[٣]. وهي محفوظة اليوم في مكتبة المتحف البريطاني. اما المؤلف، وهو من تلامذة القديس يوحنا الدمشقي، فقد كان اسقف المذهب الملكاني في حرّان. ولا شك في ان اعتناق الاسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطاه، وان التحول من لغة سامية الى اخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية.

وما ان استهل القرن الثالث عشر، وآذن العصر العباسي بالزوال، حتى كان النصر قد تم للعربية على اللغة المحلية، وغدت هي اداة التفاهم في الحياة اليومية. انما بقيت هنالك «جزر لغوية» لاقوام غير مسلمين، نظير اليعاقبة والنساطرة والموارنة؛ وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه «الجزر». وعندما زار بنيامين التودلي[٤] جبل سينا حوالي سنة ١١٧٠، وجد على قمته معبداً سريانياً، وعند سفحه قرية كان اهلها يتكلمون «اللغة الكلدانية». وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعاً مريراً وطويلاً، وصمدت في دفاعها حتى القرن السابع عشر[٥]. ولا تزال السريانية اللغة المحكية في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي: معلولا

١) راجع ص ٩٥ — ٩٨ من هذا الجزء.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٢ في الفقرة عن حنين بن اسحاق.

٣) انظر: Theodorus abu Kurra, *De cultu imaginum*, ed. and tr, I. Arendzen (Bonn, 1897)؛ قسطنطين الباشا، ميامر ثاودورس، (بيروت، ١٩٢٤ ؟).

٤) انظر: Itinerary, vol. i, (London, 1840), p. 159.

٥) راجع حتي، اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان (بيروت، ١٩٢٢) ص ٣٠ — ٣٤.

ومجمة وجبعادين[١]. وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السريانية الاخرى. على ان الموارنـــة يجرون بعض شعائرهم الكنسية بالكرشوني ايضاً[٢]، وهذا الاسم يطلق على العربية المكتوبة بالحرف السرياني. اما السريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الام ، وليس لدينا الا نص عربي واحد كتب بالحرف اليوناني. وهو نص من الكتاب المقدس (المزمور ٧٨ : ٢٠ — ٣١، ٥٦ — ٦١) يعود ، على ما يبدو ، الى القرن الثامن ، وقد عثر عليه في الجامع الاموي[٣].

واذ اخذ غير العرب في الاستعراب واعتناق الاسلام عمـــدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موالٍ[٤] وذابوا فيها تباعاً. ثم اخذ الخط الفاصل بين العرب وغير العرب، وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين، في الاضمحلال؛ وسرعان ما غدا الجميع عرباً بـــلا تمييز. حتى كان عهد المماليك فعرف فيه سكان الحواضر «باولاد العرب» وهم يعرفون به الى اليوم تمييزاً لهم من الاعراب سكان البوادي[٥]. وقد انقرض السواد الاعظم من اولئك الذين تكلموا السريانيـــة في سورية والعراق، وكانوا يسمون بالانباط[٦] او العلوج تحقيراً لهم. ثم زال اسم «آرام» الذي كان يطلق على سورية باللغة المحلية ، ليحل محله اسم جديد هو الشام ، ومعناه الشمال او اليسار ، لانها تقع الى يسار الكعبة ، وذلك في مقابل اليمن التي تقع الى اليمين[٧]. وهكذا تمّ تعريب العالم الأسلامي برمته في غضون العصر العباسي. ولاول مرة اخذ الشعور الواعي بالوحدة ، مقروناً بوحدة اللغة ووحدة الاعتقاد يستحوذ على النفوس .

---

١) راجع: G. Bergstrasser, *Neuaramâische Mârchen und andere Texte von Ma'lula*, (Leipzig, 1915); Anton Spitaler, *Grammatik des neuaramâischen Dialekts von Ma'lula*, (Hamburg, 1938).

٢) من « غوشون » السريانية بمعنى الغريب ، وترد محرفة بالكاف « كرشوني » .

٣) انظر: Paul Kahle, *Die arabischen Bibilubersetzungen* (Leipsig, 1904) pp. xiv, 32-33.

٤) راجع ص ٩٥ — ٩٨ من هذا الجزء .

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٧ في آخر البحث عن لبنان .

٦) المسعودي ، التنبيه ، ص ٧٨ — ٧٩ .

٧) المسعودي ، ج ٣ ، ص ١٣٩ — ٤٠ .

على ان اللغة السريانية ماكانت لتزول دون ان تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانية . وهذا الطابع هو الفارق الاساسي الذي عيّز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة . وهو واضح في التراكيب والمفردات والاصوات اللغوية. على ان المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالالفاظ المستعارة من السريانية[١]. وهذه اسماء الاشهر قد تحدرت من السريانية مباشرة . وكانت السريانية قد تلقت اكثرها من اصل أكادي[٢] .

---

١) مثالاً على ذلك راجع : Michel T. Fêghali, *Etudes sur ces emprunts syriaques dans les parlers du Liban*, (Paris, 1918) : وله أيضاً : *Le Parler de Kfar'abida* (Paris, 1919) ; ويوسف حبيقة في مجلة المشرق، ج ٣٧ (١٩٣٩) ص ٢٩٠ – ٤١٢ ؛ واغناطيوس افرام في مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١٣ (١٩٤٨)، ص ١٦١–٨٢، ٣٢١ – ٤٦؛ ٤٨١ – ٥٠٦؛ و ج ٢٤ (١٩٤٩) ، ص ٣ – ٢١ ، ١٦١ – ٨١ ، ٣٢١ – ٤٢ ، ٤٨١ – ٩٩؛ و ج ٢٥ (١٩٥٠) ص ٣ – ٢٢ الخ . وايضاً : أنيس فريحه ، معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانيـــة (جونيه ، ١٩٤٧) . اما بشأن الالفاظ الكنسية المستعارة فراجع ما سبق ص ١٤٦ – ١٤٧ .

٢) هي ابتداءً من كانون الاول والثاني : كانون معناه الموقـــد ؛ شباط : الضارب او المهلك ؛ اذار : تغيم ؛ نيسان : العلم ، الحرب ؛ ايار : انتـــاج الحبوب ؛ حزيران : الحصاد ؛ تموز : وليد الماء العذب (راجع الجزء الاول ، ص ١٢٦ ، ذ ١) ؛ آب : العصب ؛ ايلول : التهليل ؛ تشرين : تكريس (الى اله الشمس) .

الفصل الثاني والأربعون

فضل السريان في نهضة العرب الفكرية

الترجمة عن اليونانية

كان للشعوب المسيحية الناطقة بالسريانية من الفضل في يقظة العرب العامة ونهضتهم الفكرية، في بغداد زمن العباسيين، ما لم يكن مثله لامة واحدة سواهم — تلك النهضة التي غدت ولا تزال مفخرة العصر الاسلامي القديم. فقد كان العالم العربي، ما بين سنة ٧٥٠ و ٨٥٠، مسرحاً لحركة من ابرز الحركات واخطرها في تاريخ الفكر. ولقد تميّزت هذه الحركة بالنقل الى العربية عن الفارسية واليونانية والسريانية، اذ ان العربي لم يحمل معه من الصحراء فناً ولا علماً ولا فلسفة، ولا شيئاً يذكر من الادب، انما رافقته رغبة ملحة في الاطلاع، ونهم شديد للعلم، وشيء كثير من المواهب الفطرية الكامنة. وقد سنح للعربي في الهلال الخصيب ان يصبح الوريث الفكري لعلوم اليونان ومعالم حضارتهم، مما كان من غير شك انفس ما هو ميسور آنذاك من الذخائر الفكرية. فما ان مضى على تأسيس مدينة بغداد (٧٦٢) عقود قليلة، حتى وجد الجمهور الناطق بالعربية في متناوله اهم مؤلفات ارسطو وشروح افلوطين، واعظم مؤلفات ابقراط وجالينوس الطبية، وابرز كتب اقليدس الرياضية، واروع آثار بطليموس الجغرافية. ولقد لعب السريان في نقل هذا التراث بجملته دور الوسيط. ذلك لان العرب لم يكونوا يحسنون اليونانية، في حين كان السريان على اتصال باليونان لاكثر من عشرة قرون. وكان علماؤهم، في القرنين السابقين لظهور الاسلام، يعملون جاهدين في نقل المؤلفات اليونانية الى السريانية. وقبل ان عمد عمر بن عبد العزيز الى نقل مدرسة الاسكندرية الفلسفية الى انطاكية بوقت طويل، كانت موجة عارمة من الترجمة قد اجتاحت اديار الكنيسة. وهكذا فان الذين اتاحوا كنوز اليونان العلمية والفلسفية للفرس في ما سبق، اصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة عينها الى العرب، واذا بأولئك الذين دئبوا قبل الاسلام على ترقية العناصر الرئيسية في الثقافة اليونانية، وعلى نشرها في اتجاه شرقي وبثها في مدارس الرها ونصيبين وحران وجنديشابور،

يعملون الآن جاهدين على نقل هذه العناصر الى قرّاء العربية . وكما كانوا في عهد الروم عملاء للحضارة المادية ، ينقلون غلال الشرق الى الغرب[١]، هكذا اصبحوا الآن عملاء الثقافة الغربية في المجتمع الشرقي .

وكان الكهنة من بينهم ادراهم باهميـــة منطق ارسطو ونظام الافلاطونية الجديدة ، في ما يتصل بالمشادات اللاهوتية ، وهي آنذاك من الحياة الفكرية بمنزلة القلب النابض ، حتى ان الاناجيل التي فقد اصلها الآرامي[٢] أُعيد تدوينها من الترجمة اليونانية ، ونقل الى السريانية الترجمة السبعينية للتوراة بذاتها . وكانت الرها ــ تلك المدرسة التي انشئت سنة ٣٧٣ ــ المركز الرئيسي لنشاط الفكر السرياني ، وكان احـــد اساتذتها صاحب الترجمة الاولى لكتاب الايساغوجا الذي وضعه فرفوريوس ، وهو كتاب ممتاز في المنطق يقترن عادة بكتاب ارسطو في المقولات ويمهد السبيل اليه . اما كتاب ارسطو هذا فقد نقله ، بعد ذلك ، سرياني آخر اسمه جورجيس ، وهو الذي سيم سنة ٦٨٦ اسقفاً على القبائل العربية[٣] ، وكانت ابرشيته تضم قبيلتي تنوخ وتغلب ، وسواهما من قبائل العرب المقيمة في بادية الشام والعراق وقام سرياني آخر ، اشتهر امره قبيل الفتح الاسلامي ، بشرح كتاب لارسطو هو كتاب «العبارة». وغدت الشروح السريانية من ثم نموذجاً للشروح العربية. وعندما اقفل الامبراطور زينو مدرسة الرها سنة ٤٣٩ ، هاجر اساتذتها المشردون عـــبر الحدود الشرقية الى حران ، وهي آنذاك تحت سيطرة الفرس ، وافتتحوا فيها معهـــداً علمياً جديداً ، او اعادوا فتح معهدها القديم . وقد وجد غير هؤلاء من ضحايا السياسة البيزنطية ملجأً في المناطق الفارسية ــ تلك السياسة التي كانت ترمي الى تنسيق العقائد الدينية تنسيقاً صارماً في طول البلاد وعرضها .

ومن المواضيع التي كانت موضعاً لعناية السريان الخاصة ، فضلًا عن الفلسفة واللاهوت ، الطب والفلك؛ وكان الفلك من حيث علاقته بالتنجيم من العلوم المتصلة

١) راجع الجزء الاول ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ، ٣٨٩ ــ ٣٩٣ .

٢) راجع الجزء الاول ص ١٨٢ ــ ١٨٣ .

٣) انظر : Assemani, vol. i, pp. 494 ; Rubens Duval, *La Littérature syriaque*, 3rd, ed. (Paris, 1907), pp. 353, 377 ; Barhebraeus, *Chronicon ecclésiasticum*, ed. and tr. J. B. Abbeloos and T. J. Lamy (Louvain, 1872), vol. i, cols, 303-6.

بالطب . ففي سنة ٥٥٥ انشأ كسرى انوشروان في جنديشابور معهـــداً للطب والفلسفة ، كان عدد وافر من كبار اساتذته من علماء النصارى ، وكانوا يلقون دروسهم باللغة السريانية . من هؤلاء جورجيس بن بختيشوع عميد المعهد ، وهو الذي استدعاه المنصور سنة ٧٦٥ في استشارة طبية ، وعرض عليه الدخول في الاسلام وقال له أنا أضمن لك الجنّة ، فكان جوابه : "قد رضيت حيث آبائي في الجنّة أو في النار"[١]. وجورجيس هذا مؤسس اسرة من الاطباء استأثرت بممارسة الطبابة في دار الخلافة استئثاراً كاد يكون تاماً ، استمر ستة او سبعة من الاجيال . وكان ابنه بختيشوع (ت ٨٠١) رئيس الاطباء في مستشفى بغداد في خلافة الرشيد .

حنين بن اسحاق

ويعزى الى يوحنا (يحيى) بن ماسويه وهو تلميذ نصراني لعالم آخر من آل بختيشوع انه ترجم للرشيد عدداً من الكتب اكثرها في الطب ، كان الخليفة قد غنمها في بعض غاراته على آسية الصغرى[٢]. وكان حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٩٧٣)، وهو تلميذ يوحنا ، من اعظم مترجمي العصر ، ومن ابرز شخصياته وانبلها ، ومن ابناء الكنيسة السريانية الشرقية ؛ ولد في الحيرة ، واقامه المأمون قيّماً على بيت الحكمة – تلك المؤسسة التي أنشأها المأمون واقام فيها مكتبة ومتحفاً ومعهداً للترجمة . وكان يساعد حنيناً في عمله ابنه اسحاق[٣] ، وابن اخته حبيش بن الحسن[٤]. على ان الوالد كان اجود معرفة باليونانية ، فكان لذلك يحقق المرحلة الاولى، فينقل الكتاب من اليونانية الى السريانية ، ثم يدفعه الى معاونيه فينقلونه من الترجمـــة السريانية الى اللغة العربية. وعلى ذلك فقد غدت اكثر مؤلفات ارسطو وجالينوس[٥]

---

١) القفطي، تاريخ الحكماء ، نشر ج لبرت (ليبتزغ ، ١٩٠٣) ص ١٥٨ — ٦٠ ؛ الفهرست ، ص ٢٩٦ ؛ ابن العبري ، ص ٢١٣ — ١٥ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

٢) ابن العبري ، ص ٢٢٧ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ القفطي ، ص ٣٨٠ .

٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١١٦ .

٤) الفهرست ، ص ٢٩٧ ، ابن العبري ، ص ٢٥٢ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، ٢٠٣ .

٥) لقد اعتمد حنين في بعض مؤلفات جالينوس على ترجمات سريانية كان ايوب الرهاوي (حوالي ٧٦٠ — ٨٣٥) قد نقلها عن اليونانية . انظر : Job of Edessa, *Book of Treasurss*, ed A. Mingana (Cambridge, 1935), pp. xix-xx ; Barhebraeus, vol. iii, Cols. 181-2.

في متناول الطالب العربي. ويعزى كذلك الى حنين انه ترجم رسائل ابقراط الطبية، وسياسة افلاطون. ويتضح لدى مقابلة هذه الترجمات باصولها ان الترجمة السريانية كانت في جميع الحالات اقرب الى الاصل اليوناني، وان الترجمة العربية كانت شرحاً للترجمة السريانية. ولقد كان حنين يعالج اموراً اخرى غير الترجمة؛ فقد جعله المتوكل طبيبه الخاص، وأمر مرة بسجنه لانه أبى ان يركب سماً لقتل احد اعدائه.

وكان يحيى بن عدي (٩٧٤) مترجماً آخر من مشاهير المترجمين. وقد عمل على تهذيب عدد من الكتب المترجمة السابقة، واخرج ترجمات عديدة لكتاب ارسطو «الشعر» وكتابي افلاطون «النواميس» و«طيماوس». وكان يحيى هذا تابعاً للملة السريانية الغربية التي انجبت علماء آخرين احتذوا مثال زملائهم ابناء الملة الشرقية. وادخلوا على مترجماتهم تحسينات شتى. وممن عملوا في هذا الحقل من النصارى قسطا ابن لوقا البعلبكي (ت حوالي ٩١٢) الذي اشتهر على الاخص بترجمة المؤلفات الرياضية والفلسفية. وكان قسطا هذا يحسن اليونانية والسريانية والعربية. وكان يرحل الى بلاد الروم في طلب الكتب، ويعكف على الاشتغال بها في بغداد. وقد ادركته الوفاة في ارمينيا بعد ان خلف ٦٩ مؤلفاً موضوعاً و١٧ كتاباً مترجماً، واقيم له في مكان وفاته مدفن تذكاري[1].

على ان السريان لم يلقوا بالاً الى الشعر اليوناني، وكذلك كان موقف العرب منه. ومع ان مارونياً من منجمي المهدي اسمه تاوفيل الرهاوي عمد الى نقل الياذة هوميروس وادسته. فإن البقاء لم يكتب لها[2].

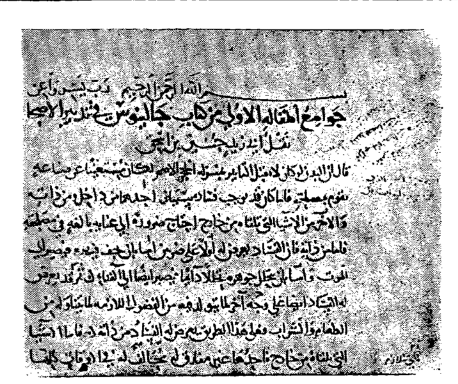
الصابئة

ولم يقتصر الفضل على النصارى من السريان وحدهم، بل قد كان للوثنيين منهم كذلك فضل كبير على حياة العرب الفكرية. وهؤلاء السريان الوثنيون هم

---

١) الفهرست، ص ٢٩٥، القفطي، ص ٢٦٢ — ٦٣؛ G. Gabrieli in *Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei*, ser. 5, vol. xxi (Rome, 1912) pp. 361-82.

٢) Assemani, vol. i pp. 521-22; ابن العبري، ص٢٢٠ يذكر انه كان من اتباع الكنيسة اللبنانية؛ قابل الغزيري، ص ٤٤؛ راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء؛ الدبس، تاريخ سورية، ج ٣، ص ٢٩٧.


بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر واعن
جوامع المقالة الاولى من كتاب جالينوس في تدبير الاصحا
نقل ابي زيد حنين بن اسحق

ترجمة عربية لكتاب من كتب جالينوس

تمثل هذه الصفحة المصورة السطور الاولى من احد فصول كتاب الصناعة الصغير لجالينوس الذي ترجمه حنين بن اسحق . ويعود تاريخ هذه النسخة الى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦/٧٧ م) . وهذا المخطوط اقدم من اي مخطوط موجود لهذا الكتاب في اليونانية واللاتينية، وفيه اقسام لم تنشر بعد ولم تترجم الى اية لغة اوروبية حديثة

الصابئة او على الاصح هم منتحلو الصابئية[١] . وقد كانوا يقيمون في مدينة حران . ولما كان هؤلاء من عبدة النجوم وكانوا ورثة العلوم البابلية، فقد توفروا على الاهتمام بالفلك والعلوم المتصلة به من عهد عريق في القدم . اما في ما يتصل بالاقبال على علوم اليونان فقد كان لهم من الرغبة فيها ما كان لمواطنيهم النصارى . وكان من ابرز علماء الفلك ثابت بن قرة (حوالى ٨٣٦ — ٩٠١) وإليه والى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات، لاسيما مؤلفات بطليموس وارخميدس[٢] . هذا عدا تهذيب الترجمات السابقة، نظير ما قام به ثابت بن قرة من

١) Hitti, *History of the Arabs*, p. 358.
٢) الفهرست، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ٢١٨ — ٢٠ .

تهذيب ترجمة حنين بن اسحق لآثار اقليدس[١]. وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لاحد احفاده، وبنى كل منهم شهرة لنفسه في ذلك. وقد حمل احد الخلفاء سنان بن ثابت على اعتناق الاسلام[٢]، وكذلك اسحق بن حنين فقد حمل على قبول الاسلام ديناً له[٣].

وكان محمد بن جابر بن سنان البتاني (حوالي ٨٥٨ – ٩٢٩) مسلماً آخر من اصل صابئي، وعالماً من مشاهير علماء الرقة. قام بابحاث مبتكرة ادت الى اصلاحات كثيرة في نظام افلوطين، لاسيما في حساب فلك القمر وافلاك بعض الكواكب السيارة الاخرى. وقد جاءت ارصاده للخسوف والكسوف رائعة من حيث سعة مداها ومقدار دقتها. ثم اثبت امكان وقوع الكسوف سنوياً وقرر بارقام، ادق مما في الارصاد السابقة، مقدار الانحراف في دائرة الفلك، ومدى طول السنة الاستوائية وقد عين في احدى نظرياته المبتكرة الاحوال التي يستطاع فيها رؤية الهلال الجديد. واثره النفيس الباقي، وهو «الزيج الصابئي» ترجم لاول مرة الى اللاتينية في اسبانيا وذلك في القرن الثاني عشر[٤].

على انه من المحتمل ان يكون الاراميون والسريان المقيمون في بلاد بابل قد عملوا على نقل آثار رياضية وفلكية اخرى. ذلك ان الجبر مثلاً يظهر لتوه علماً مستكملاً في كتاب للرياضي الشهير الخوارزمي (ت ٨٥٠). وقد كان لهذا العلم عند البابليين اسم خاص هو هذا الاسم عينه أي «غبرو». لكن حلقات الاتصال المفترضة بين السريانية والبابلية في هذا الموضوع مفقودة تماماً[٥].

---

١) ابن خلكان، ج ١، ص ١٧٧، ٢٩٨.

٢) الفهرست، ص ٣٠٢؛ ابن ابي اصيبعة، ج ١، ص ٢٢٠ – ٢١.

٣) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، نشر محمد كرد علي، (دمشق، ١٩٤٦) ص ١٩.

٤) نشره نللينو في ثلاثة مجلدات (روما، ١٨٩٩ – ١٩٠٧). للاستزادة من اخبار البتاني راجع الفهرست، ص ٢٧٩.

٥) من التعابير العلمية المستعارة من اليونانية واللاتينية مباشرة او بطريق السريانية، والتي لا تزال متداولة في اللغة لفظة: فلسفة، وجغرافية، وموسيقى. وهنالك الفاظ يونانية ولاتينية اخرى تعربت في ازمنة مختلفة منها: كورة (منطقة) واسكلة (مرفأ) ونوتي (ملاح – قابل باللفظ الانكليزي Nautical) وسيف (سيفوس باليونانية). اما الالفاظ الواردة من اصل فارسي فمنها: بستان (حقل) وديدب (حارس) وسراويل (بنطلون) وصولجان (قضيب السلطة).

المآثر السريانية الاصيلة

من الواضح ان معظم النتاج السرياني يتألف من الشروح والترجمات . ولذلك كان يعوزه الكثير من صفة الابتكار والخلق . وعلى ذلك لم يتحدر الينا مما يمثل نتاجهم الاصيل الا الشيء القليل . ذلــــك ان الكهنة السريان المغرقين في النسك والتقشف لم يكونوا في حقل واحد على الاقل مجرد نقلة ومقلدين . ففي هــذا الحقل بالذات جرى تفكيرهم في اتجاه موازٍ للاتجاه الصوفي ، على نحو يثير الاستغراب . وهذا اسحق النينوي الذي زها في اواخر القرن السادس يحض في رسائله واحاديثه على التأمل، ويذهب الى انه بمثابة نفس ثانية، وروح ملهم . ثم يقرر ان هذا الروح لا يمكن ان يتولد في العقل . لذلك يوصي اتباعه بان ينشدوا العزلة، وينصح لكل منهم ان يتصور في ابان تأمله ان ليس في الدنيا من شيء الا هو نفسه والله الذي هو موضوع تأمله[١]. وكان هنالك ناسك سرياني آخر اسمه سمعان الطيبوثة (ت حوالى ٦٨٠) يعلم بان ضرباً واحداً من المعارف على الاقل لا يدرك عن طريق الالفاظ بل بالحدس الباطني، وان هذا النوع من العلم هو اسمى ضروب المعرفة لانه يوصل الى كنه الاله[٢] وقد اشتهر ابن العبري (١٢٢٦ — ٨٦) — وكان كاهناً يعقوبياً في حلب — بالتأليف في اللاهوت والتاريخ باللغتين السريانية والعربية، وقد استعنا ببعض مؤلفاته في اعداد هذا الكتاب .

المآثر الاسلامية — ابو تمام

وفي هذا العصر تجلت ارفع مواهب سورية الاسلامية في ما ظهر فيها من الشعر. فقد برز اثنان من ابنائها هما ابو تمام والبحتري وبلغـــا من التفوق درجة اهلتهما للالتحاق بالبلاط العباسي فصارا من شعراء الخلفاء . ولد حبيب بن اوس[٣] المعروف بابي تمام (حوالي ٨٠٤ — ٨٥٠) في قرية جاسم في حوران . وكان ابوه نصرانياً يتعاطى صناعة العقاقير . اعتنق الاسلام وهو بعد فتى ، والحق نفسه ببني طيء.

---

١) للاستزادة من اخبار اسحاق هذا راجع : Assemani, vol. i, p. 444-63

٢) Margaret Smith, *an Early Mystic of Baghdad*, (London, 1935), P. 101, n.2.

٣) اوس محرف عن تدوس (ثيودوسيوس ؟) ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

ثم انه قام بجولة في العالم الاسلامي، على جاري عادة الادباء في بلاده، فزار مصر حيث اشتغل بسقاية الماء، وقصد الى الحجاز، ثم تحول الى ارمينيا ففارس فالعراق، واستقر اخيراً في بغداد. وقد تيسر له الاتصال بالخليفة المعتصم في عاصمته الجديدة سامرا[٣]، ورافقه في حملته المظفرة على عمورية، ووصف هذه الحملة بقصيدة[١]، هي الى الآن مما يحفظه احداث الطلاب غيباً. وقد عاش كما عاش شعراء عصره، فشرب الخمرة وسمع الغناء وعاشر الغواني، وكان قليل الاحتفال باوامر الدين ونواهيه[٢]. على ان مكانته الرفيعة لا تقوم على الشعر الذي نظمه فحسب، بل وعلى كتابه المعروف بديوان الحماسة[٣]، والمشتمل على روائع الشعر من زمن الجاهلية حتى العصر الذي عاش فيه. ونحن مدينون في وجود هذا المجموع من الشعر العربي الى حادث بسيط في حد ذاته هو ان الشاعر احتبس في بعض اسفاره في همذان، بسبب تراكم الثلوج وانقطاع الطرق، فنزل على وجيه من ادبائها عثر في مكتبته على عدد وافر من مجموعات الشعر الجاهلي وعلى شيء من شعر بعض الاقطار العربية، فكان يقضي بعض اوقاته في تصفحها[٤]. وقد امضى ابو تمام ايامه الاخيرة في الموصل، وفيها دفن.

ابو عبيدة البحتري

اما زميله الاصغر ابو عبيدة الوليد، المشهور بالبحتري (حوالي ٨٢٠ — ٩٧)، فقد ولد في منبج، وينتهي به النسب الى عشيرة بحتر من بني طي[٥]. وفي الاخبار ان ابا تمام صادفه في حمص، وسمعه ينشد قصيدة عصماء، فشهد به لاهل المعرة خير شهادة، فتعاقدوا معه على مرتب قدره اربعة الاف درهم. وقد اعجب البحتري من جانبه بابي تمام واحتذى مثاله في نظم الشعر. وقاده طموحه الى بغداد فغدا فيها

---

١) ديوان ابي تمام، نشر شاهين عطية (بيروت، ١٨٨٩) ص ١٥ — ١٨؛ قابل الصولي، اخبار ابي تمام، نشر خليل عساكر (القاهرة، ١٩٣٧)، ص ١٠٩ — ١١٣.

٢) المسعودي، ج ٢، ص ١٥١.

٣) التبريزي، شرح ديوان الحماسة، ٣ مجلدات (بولاق، ١٢٩٦)؛ G. G. Freytag, *Hamasae carmina*, 2 vols. (Bonn, 1847-51): Friedrich Rückert, *Hamasa*, 2 vols (Stuttgart, 1846).

٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٦٨.

٥) ياقوت، معجم الادباء، ج ٧، ص ٢٢٦.

شاعر المتوكل ومن تولى بعده من الخلفاء، وحظي بصورة خاصة عند المعتز. وكان البحتري من البخل بحيث يرتدي الملابس القذرة، ويقتر على غلامه واخيه حتى ليكاد الجوع يقضي عليهما[١]. وكان نظير زملائه، يستخدم شاعريته لاستدرار الاموال من ذوي السلطة واصحاب الثروات، مهدداً — في حال الحرمان — بالتحول الى الهجاء. وفي ديوانه قصائد قالها في بعض الناس مادحاً وهاجياً[٢]. وفي ديوانه يتجلى ايضاً حبه للخمرة[٣]. وبراعته في وصف القصور والبرك وحيوان الفلاة[٤]. وهو مما يندر وجوده في الشعر العربي. وللبحتري غير ديوانه كتاب شعر مجموع هو كتاب الحماسة[٥] لكنه لم يحظَ لدى علماء اللغة بالمنزلة التي كانت لكتاب زميله السابق ابي تمام. ولقد اعتبر نقاد العرب البحتري في ما تلا من العصور، احد ثلاثة شعراء هم في طليعة الشعراء العباسيين، اما الاثنان الباقيان فهما ابو تمام والمتنبي[٦]. «وربما اعتبر اكثر النقاد الاوروبيين البحتري دون المتنبي مكانة»، لكنهم يجعلونه من حيث مواهبه الشعرية فوق ابي تمام بمراحل[٧].

ديك الجن الحمصي

ولقد كان دون هذين بمراحل بعيدة شاعر آخر هو عبد السلام بن رغبان (٧٧٧ — ٨٤٩) الملقب بديك الجن لبشاعة سحنته وخضرة عينيه. وهو من ابناء حمص، لزم موطنه طول حياته فلم يبرحه. وكان في الراجح من ذرية نصراني اعتنق الاسلام في موقعة مؤته[٨]. على ان شاعرنا هذا يتمتع باهمية خاصة لانه عمد في شعره — الذي لم يبقَ منه الا القليل — الى تأييد قضية الشعوب المغلوبة في وجه مفاخر العرب، ودافع عن تفوق السريان — اي السريان المستعربين — ضد العرب.

---

١) الاغاني، ج ١٨، ص ١٧٠.
٢) المجلد الاول؛ (القسطنطينية، ١٣٠٠)، ص ٧٥، ٨٧، ١١٧ — ١١٩.
٣) المجلد الثاني، ص ١٧٦، ١٨٦.
٤) المجلد الاول، ص ١٠٨، ١٦، ٥١، ١١١.
٥) نشره: R. Geyer and D. S. Margoliouth (Leiden, 1909).
٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن المتنبي.
٧) انظر: D. S. Margoliouth, art. «al-Buhturi» *Encyclopedia of Islam*.
٨) الاغاني، ج ١٢، ص ١٤٢؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٥٢٥؛ راجع ص ٤ من هذا الجزء.

لذلك كان خليقاً بان يعتبر رائداً لتلك الحركة الفكرية الهامة التي عرفت بالشعوبية[١]، لاسيا وقد ارتدت طابعاً سياسياً في فارس وفي سواها من البلدان . ولقد كان ديك الجن شيعياً معتدلاً ، ومع اعتداله اقرب الى التهـــاود ، اذ بذر امواله في التماس الطرب والسعي وراء اللذات . وفي ساعة اهتياج من ساعات الغيرة الشديدة عمد الى امرأته — وكانت قبلا امة نصرانية عنده — فسدد اليها طعنة قاتلة . لكنه تثبت بعدئذ من براءتها ، فكان طيفها لا ينفك يعتاده ، فيبرح به الالم ، عـــلى ما وصف في شعره الذي يتدفق عاطفة[٢].

الامام الاوزاعي

اما في غير الشعر ، فقد برز الفقيه والمتشرع عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي[٣]. ولد في بعلبك سنة ٧٠٧ ، وزها في بيروت ، وفيها ادركته الوفاة سنة ٧٧٤ وهو في الحمام . ولا يزال مقامه[٤] يعلو الرمال المنتشرة الى الجنوب من المدينة . اشتهر الامام الاوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجرأة الادبية[٥] ! وقد قال عنـــه احد مؤلفي التراجم انه «امام اهل الشام ، ولم يكن بالشام اعلم منه[٦]». ولقد عارض الاوزاعي الامام مالك وابا حنيفة ، واستنكر ما اقرّاه من تدابير صارمة بحق المشركين ، نظير قطع اشجارهم وهدم كنائسهم وتخريب بيوتهم[٧]. وعندما قدم المنصور الى سورية سمع الاوزاعي يعظ فاعجب به اعجاباً شديداً . وقد بقي المذهب الفقهي

---

١) هي النسبة الى الشعوب والمقصود بها الشعوب غير العربية كما في القرآن سورة الحجرات آية ١٣ .

٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٢٦ — ٢٧ ؛ الاغاني ، ج ١٢ ، ص ١٤٣ — ٤٦ .

٣) سمي بذلك اما نسبة الى قبيلة يمنية او الى ضاحية من ضواحي دمشق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠٣ — ٤ ، ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب (القاهرة ، ١٣٥٧) ، ص ٧٤ — ٧٥ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٥١٤ ؛ ابو الفداء ، ج ٢ ، ص ٧ .

٤) راجع ما سبق ، ص ٣٤ من هذا الجزء ح ٢ .

٥) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء .

٦) ابن خلكان ، ج ١ س ٤٩٣ . وللاستزادة من اخباره راجع : زين الدين الخطيب ، محاسن المساعي في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي ، نشر شكيب ارسلان (القاهرة) ص ٤ ، ٩٤ — ٩٥.

٧) الطبري ، اختلاف الفقهاء ، نشر Joseph Schacht (Leyden, 1933) ص ١٢١ ، ١٤١.

الذي وضعه هذا المتشرع شائعاً في سورية نحواً من قرنين، قبل ان زحزحه عنها المذهب الحنفي والفقـــه الشافعي؛ وتوثق كذلك في الاندلس والمغرب نحواً من اربعين سنة، ثم حل محله المذهب المالكي[١].

ومع اننا لا نعلم اليوم الكثير عن مذهب الاوزاعي، فان الراجح انه لم يتأثر بالقانون الروماني الذي كان قد شاع آنئذ في سورية حيث كان الاوزاعي يعلم، والذي كان يدرّس عـــلى نطاق واسع في بيروت[٢] حيث كان الاوزاعي يقيم. فالقانون الجزائي في الاسلام، والقانون المدني الذي ينص على قضايا الزواج والارث والربا ونحوها، وارد في الكتاب المنزل. وليس هنالك من مشابهات بين النظامين الا في العقود والمعاملات. ولئن كانت بعض التعابير القانونية في العربية واللاتينية ذات مدلول واحد، نظير: فقه و «قضاء»، وفتوى و «راعي» واجتماع و «اتفاق» وعادة و «عرف»، ومصلحة العامة و «صالح الجمهور». فان ذلك لا ينم بالضرورة عن التوكؤ والاستعانة. وليس هنالك الفاظ مستعارة، ولا كلمات يونانيـــة ولاتينيـــة معربة؛ ولسنا نعلم – الى ذلك كله – بان كتاباً من كتب القانون الروماني او البيزنطي سبق ان نقل الى العربية.

---

١) صالح، ص ٢٣.

٢) راجع الجزء الاول ص ٣٦٠ وما يتبع.

الفصل الثالث والاربعون

سورية اقليم تابع لبعض الدويلات

الطولونيون

كان قيام الحرس التركي، في عهد خلفاء المأمون (ت ٨٣٣)، اول بادرة من بوادر الانحلال في الحكم العباسي. فقد غدت هذه الجماعة — نظير الانكشارية في التاريخ العثماني — اشد نفوذاً من الخليفة نفسه؛ واستطاعت، بين الحين والحين، ان تحمل الخليفة صاغراً على ما تشاء وتهوى[1]. واخذ نفوذ العباسيين، بعد هذا الزمن، ينحل شيئاً فشيئاً، واستمر هذا الانحلال اللهم الا في فترات قليلة قصيرة. وكان ذلك بمثابة انتحار بطيء، دفعت اليه الخلافة تمهيداً لتقبل «الضربة القاضية» من يد هولاكو وجماعته من عشائر المغول (١٢٥٨). وفيما كانت الخلافة العباسية تزداد تفسخاً، كانت بعض السلالات المتنفذة الصغرى، وجلها من اصل عربي، تقتطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة الغربية، وبعضها الآخر — وجلها من الترك والفرس — تفعل مثل ذلك في المناطق الشرقية.

وكانت اولى الدويلات الناشئة المتصلة بسورية، دولة قصيرة العمر هي الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥)، اسسها احمد بن طولون (٨٦٨ — ٨٨٤)، وكان ابوه مولى تركياً أرسل من بخارى هدية الى الخليفة المأمون[2]. بدأ احمد حياته السياسية، عندما وجهه زوج امه الى مصر، على اثر تعيينه اميراً اقطاعياً وحاكماً عليها؛ وذلك لينوب عنه ريثما يتوجه هو اليها. لكن الشاب الطموح، ما كاد يبلغها حتى بدأ يضع الخطط، مستغلاً تراخي المسافة الفاصلة بينه وبين الحكومة المركزية، ليتصرف تصرفاً مستقلاً[3]. وقد زاد عدد جنوده بناء على ترخيص من الخليفة حتى

---

١) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

٢) الطبري، ج ٣، ص ١٦٧٠؛ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٩٥؛ ج ٤، ص ٢٩٧.

٣) اليعقوبي، ج ٢، ص ٦١٥ وما بعد؛ الطبري، ج ٣، ص ١٦٩٧.

بلغ ، في ما روي ، مئة الف مقاتل ؛ وسار برجاله الى سورية ليخضع ثائراً كان قد ظهر فيها — وكثيراً ما كانت سورية بلد الثائرين على الحكم العباسي .

واتاحت هذه السانحة لابن طولون فرصة الدخول الى هذا البلد المجاور . وما ان توفي حاكم سورية سنة ٨٧٧ ، حتى بدا ان الوقت مؤات لاحتلالها احتلالاً تاماً . فعبر الجيش المصري الرملة في الجنوب الى دمشق ، وتوجه من ثم الى حمص فحماة ، حتى بلغ حلب بدون مقاومة . لكن انطاكية وحدها اقفلت ابوابها في وجهه ، ففتحها عنوة بعد حصار قصير[١] . وفي سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩/٨٠م) اقام ابن طولون نفسه حاكماً على البلدين ؛ وفي سنة ٨٧٥ وقع حادث كان بمثابة امتحان لقيمة الاستقلال العملية ؛ ذلك ان الخليفة المعتمد وجد نفسه في حاجة ماسة الى النقود ، فارسل الى ابن طولون في طلب المال ، لكن واليه على مصر امتنع عن تلبية هذا الطلب .

وكان هذا الحادث نقطة تحول في تاريخ مصر ؛ اذ دخلت من ثم ، ومنذ ذلك الحين ، في طور جديد من حياتها السياسية غدت بحكمه دولة مستقلة . وقد حافظت على هذا الوضع في غضون القرون التالية الا لفترة واحدة ؛ وكانت سورية في اثناء هذا العهد الطويل تابعة لمصر ، كما كان شأنها في زمن الفراعنة . وهكذا عادت الصلات التي كانت قد انقطعت ، قبل ذلك بنحو من الف عام ، الى سابق عهدها الوثيق . على ان هذا التحول كان في مصلحة بلاد النيل ، فكان اقل ما انتفعت أن موارد البلاد كانت تنفق برمتها في مصر ، في حين لم يحظ الاقليم السوري التابع بشيء من الاصلاح .

كان احمد بن طولون مثال الحاكم العسكري المستبد ؛ قبض على ازمة الامور بيد من حديد ، وبنى جهازاً عسكرياً قوياً كان عليه اعتماده في صيانة سلطانه . وكانت نواة هذا الجهاز فرقة من الحرس تشتمل على ٢٤ الف تركي ، و ٤٠ الف زنجي ، اخذ على كل منهم بمفرده عهد الولاء . ثم انه عمد الى وضع منهج من المشاريع العمرانية العامة لم يسبق له مثيل منذ عهد الفراعنة . وكأنما اراد بذلك ان يبرر اغتصابه للحكم في عيون رعاياه ؛ فانشأ في عاصمته الفسطاط ، لاسيما في حيها

---

١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ ؛ الكندي ، نشر غوست Guest ، ص ٢١٩ وما بعد .

الجديد المعروف بالقطائع[١]، مباني فخمة، بينها مستشفى ومسجد. اما المستشفى[٢] فقد انفق على بنائه ٦٠ الف دينار، وكان الوحيد من نوعه في مصر، وعين موارد الممتلكات الخاصة في سورية لتغطية نفقاته الجارية. واما المسجد، الذي لا يزال يعرف باسمه، فيعد من افخم المباني التذكارية في مصر الاسلامية. وقد انفق على بنائه ضعفي ما انفق على المستشفى[٣]، وراعى في بعض تفاصيله الهندسية الطراز السامرائي حيث قضى ابن طولون فترة صباه. وجدير بالذكر ان مئذنة هذا المسجد هي اقدم المآذن التي لا تزال قائمة في مصر. على ان ادخال الطراز العراقي في البناء لم يُنحِّ عن مصر الطراز السوري اليوناني السابق، ولا قدر له ان ينتشر فيها انتشاراً واسعاً. وعلى ذلك فمسجد ابن طولون هو المثال الوحيد الباقي مما يمثل ذلك الطراز.

اما على الشاطئ السوري، فقد حصّن ابن طولون مدينة عكا، وانشأ فيها قاعدة بحرية. وكان البرج الذي يعلو سورها المزدوج من القوة بحيث صمد، بعد ذلك بثلاثة قرون، في وجه ملكين من ملوك الصليبيين، مدة سنتين؛ وشهد بمناعتها صمودها سنة ١٧٩٩ لمدفعية نابوليون البرية[٤]. وقد روى العالم الجغرافي السوري (المقدسي[٥]) ان جده استُدعيَ شخصياً من القدس، ليقوم بالعمل الذي طالما قام به وهو بناء مرفأ في الماء. فحقق ذلك بان ضمّ جذوعاً من الخشب الضخم بعضها الى بعض، وحملها بالصخور الثقيلة: ثم جعل في الوسط باباً دلّى منه سلاسل طويلة، فكان بامكان السفن الداخلة ليلاً ان تجذبها فتشير بذلك الى وصولها.

خمارويه

وتولى الحكم، بعد ابن طولون، ابنه المسرف الفاسد خمارويه (٨٨٤ — ٩٥)، وهو بعدُ في العشرين من عمره؛ وكان واحداً من ثلاثة وثلاثين ولداً لابيه، بينهم

---

١) المقريزي، ج ١، ص ٣١٣ وما يتبع.

٢) الاسم العربي له: بيمارستان؛ انظر في الفصل السابع والاربعين الفقرة الخاصة بالمستشفيات، والهامش الاول؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول، ج ٢، (ليدن، ١٨٥٥)، ص ١١؛ الكندي، ص ٢١٦.

٣) ابن تغري بردي، ج ٢، ص ٨؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٩٧.

٤) انظر في الفصل التاسع والاربعين في فقرة عن احمد باشا الجزار.

٥) ص ١٦٢ — ٦٣: كما في ياقوت، ج ٣، ص ٧٠٧ — ٨.

سبعة وعشرون من الذكور[١]. وقد بنى قصراً جعل فيه قاعدة مذهبة الجدران ، زينها بصور ناتئة تمثله وتمثل نساءه وقيانه[٢]. اما حديقة القصر ، فكانت حافلة بالاشجار المستوردة المغروسة حول احواض الماء المذهبة ، محفوفة بالرياحين النابتة في خطوط تشكل الفاظاً عربية . وقد اشتمل القصر – الى ذلك – على مأوى للطيور ، وحديقة للحيوانات ، وحوض من زئبق . وكان يطفو على سطح هذا الحوض وسائد من الجلد ، تدلت منها حبال من الحرير ، ربطت الى اعمدة من الفضة : فكان الامير اذ يستلقي عليها ، تهتز به ، حتى يغلبه النعاس فينام[٣] .

وقد امتد سلطان الطولونيين في عهد خمارويه من برقة الى الفرات ، بل الى ابعد من ذلك – الى دجلة . واقر المعتمد ، لدى اعتلائه سدة الخلافة سنة ٨٩٢ – وهو اقوى خلفاء فترة الانحلال وامضاهم عزيمة – الوضع القائم . وثبت سلطة الحاكم وورثائه على هذه الممتلكات الواسعة لمدة ثلاثين سنة ؛ وذلك في مقابل جعالة سنوية مقدارها ثلاث مئة الف دينار . بل ان الخليفة خطب الى خمارويه ابنته الجميلة قطر الندى ؛ وعندما زفت اليه ، اغدق عليها والدها مهراً بلغ ، في ما روي ، مليون درهم ؛ واهداها الف هاون من الذهب ، وتحفاً اخرى « وجهزها بجهاز لم يعمل مثله[٤] » .

على ان تبذير خمارويه ترك الخزينة فارغة . وقد بلغ من الاسراف في معاشرة الغلمان – على ما في بعض الاخبار[٥] – مبلغاً اثار عليه عبيده ، فانقضوا عليه ذات ليلة وهو في دارة له خارج دمشق وقتلوه . ونقل جثمانه الى مصر ليدفن فيها ، وفيما كان يوارى في التراب ، كان سبعة من القراء يقرأون على قبر والده المجاور . فاذا بهم يرتلون اتفاقاً : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم[٦] » . اما ابنه وخلفه « جيش » ،

---

١) ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٢١ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١١ .

٢) ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٥٧ – ٥٨ ؛ المقريزي ؛ ج ١ ؛ ص ٣١٦ – ١٧ .

٣) ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ المقريزي ، ج ١ ؛ ص ٣١٧ .

٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣١٠ ؛ قابل ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ – ٨ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٤٥ – ٤٦ ؛ ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

٥) ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

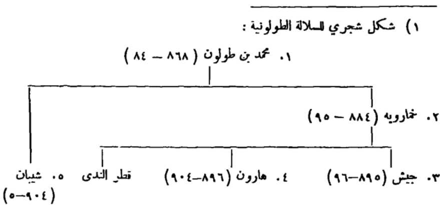
٦) سورة الدخان . الآية ٤٧ .

فما مضى على ولايته سبعة اشهر ، حتى قتله جماعة من جنده ، كان سرحهم بداعي الضائقة المالية[١] .

القرامطة

كان عهد هارون (٨٩٦ — ٩٠٤) اخي جيش عهداً مضطرباً ، وبظهور القرامطة غدا اشد اضطراباً . والقرامطة من الشيعة المتطرفة ، تصلهم صلة النسب بالاسماعيلية والفاطميين . وهذا الاسم تحدر اليهم من فلاح عراقي اسمه حمدان قرمط[٢] . اما نظامهم فهو في اساسه نظام جمعية سرية ذات مبدإ اشتراكي . ولم يكن الانضمام الى جماعتهم جائزاً الا بشروط معينة ، وبعد اجراء مراسيم خاصة . فحوالي سنة ٨٩٠ احتل زعيمهم حمدان قاعدته الجديدة قرب الكوفة . وبعد مضي تسع سنوات صار اتباعه اسياد دولة مستقلة ، قائمة على الضفة الغربية من الخليج الفارسي . ومن هذين المركزين نشر القرامطة الخراب في كل صوب . ولقد كانت سورية الاسلامية ، طيلة العهد الاموي ، على مذهب اهل السنة ؛ لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسيين افسح المجال امام تعاليم العلويين ، وهذه بدورها أعدت الشعب ، في هذه الآونة ، لتقبل آراء القرامطة . وكما حاول الناس ، في سورية البيزنطية ، ان يثبتوا قوميتهم باعتناق التعاليم المسيحية التي اعتبرتها السلطة البيزنطية من قبيل الهرطقة ، هكذا اظهر هؤلاء الآن كل استعداد لقبول المبادئ الشيعية المتطرفة المعادية للعباسيين . وكان قائد القرامطة في زحفهم على سورية ابن زكرويه[٣] . وقد هزم الحامية الطولونية ، وحاصر دمشق (٩٠١) ؛ ثم احتل حمص ،

١) شكل شجري للسلالة الطولونية :



٢) راجع: Bernard Lewis, *The Origins of Ismā'īlism* (Cambridge, 1940), pp. 19-22 والراجح ان لفظة «قرمط» سريانية معناها : المعلم السري » .

٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٢١ — ٢٢ .

وقضى على عدد كبير من اهالي حماة ، ومعرة النعمان ، وكاد يبيد سكان بعلبك . لكن سلمية القت السلاح ، وهي التي غدت ، في ما بعد ، مركزاً للحشاشين من الاسماعيلية . وقد دعي له في صلاة الجمعة من على عدد من منابر المساجد السورية ، كما لو كان المهدي المنتظر .

وفي سنة ٩٠٢ ارسل الخليفة لقتال القرامطة قائداً باسلاً تمكن من قهرهم . وبعد ان اخذ عهد الولاء على حكامها الاقطاعيين سار نحو مصر فاتحاً . وفي هذه الاثناء قتل هارون اغتيالاً ، فولي الحكم بعده عمه شيبان (٩٠٤ — ٥)[١] . وفي سنة ٩٠٤ بلغ القائد العباسي عاصمة الطولونيين (القطائع) وهدمها الى الارض ، وضرب اعناق عشرين من الطولونيين ، وحمل سائر رجالهم ، مكبلين بالقيود ، الى عاصمة الخلافة . وفي العام الثاني ، عمد آخر سفياني معروف الى رفع العلم الابيض في سورية ، ولكنه اسر بدوره وسيق الى بغداد[٢] . وهكذا ، فان القوم الذين نوهوا سابقاً بانهم لا يقرون بالسلطة الا لبني امية[٣] ، قد تخاذلوا الآن وعنوا لسلطة غريبة .

الاخشيديون

كان القائد الذي دفع القرامطة عن دمشق باسم الطولونيين رجلاً تركياً من فرغانة اسمه طغج[٤] . وقد حاول ابنه محمد ان يجعل من نفسه وريثاً للطولونيين . فاقام نفسه ، بعد عهد قصير من الحكم العباسي الحافل بالمحاذير في مصر وسورية . حاكما على مصر[٥] ، وذلك سنة ٩٣٥ . وكانت قاعدته مدينة الفسطاط ، وبعد اربع سنوات ، استجاب الخليفة الراضي الى رغبته ومنحه اللقب التقليدي لامراء ايران ، وهو « الاخشيد » . فارتفع به فوق اقرانه . وفي القرن التاسع عشر . منح احد سلاطين بني عثمان ، واليه على مصر ، لقباً فارسياً مماثلاً هو « الخديوي » . وجرى الاخشيد على الخطط التي رسمها الطولونيون من قبل . فرمق جارة مصر الشمالية بعين

١) الكندي ، ص ٢٤٧ — ٤٨ .

٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٧٧ .

٣) المقدسي ، ص ٢٩٣ — ٩٤ .

٤) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، نشر Tallqvist (ليدن ، ١٨٩٩) ، ص ٥ .

٥) مسكويه ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، ٣٦٦ ه ؛ ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

طامعة ، وكان معظمها قد وقع في يد مغتصب مغامر هو ابن رائق[١] ؛ لكن الوفاة ادركت ابن رائق سنة ٩٤١ ، فاقر الخليفة للامراء البويهيين بالسلطة على بغداد . وللاخشيد على سورية ومصر ومكة والمدينة[٢] . ومضت بعد ذلك قرون عديدة ، ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر . وفي سنة ٩٤٤ استحصل الاخشيد من الخلافة لاسرته على حقوق وراثية في البلاد التي استولى عليها .

الحاكم الزنجي

ولم يكد الاخشيد يستقر في كرسي الحكم ، حتى اخذ نفوذ الحمدانيين في شمالي سورية يتحدى سلطانه ، على يد ناشئهم النابه سيف الدولة ، في مدينة حلب . اما المعارك الكبرى فقد جرت في عهد ابني الاخشيد : انوجور[٣] الذي ولد في دمشق حيث توفي والده ، وسيف الذي تولى بعد اخيه سنة ٩٤٦ ، تحت وصاية عبد خصي اسمه ابو المسك كافور[٤] . وكان سيف الدولة قد قام بمحاولات عديدة للاستيلاء على سائر سورية ، لكن حاكم مصر الداهية افسد خططه ، وهزم جيوشه في اشتباكين كبيرين ، واجبره على الخضوع لسيادة مصر العليا . وظل كافور قابضاً على زمام الحكم في غضون ولاية ابي الحسن علي (٩٦٠ — ٦٦)[٥] اخي انوجور . وقد دفن علي

---

١) راجع بشأن وقائع الاخشيد مع ابن رائق المؤرخ المعاصر الكندي ، ص ٢٨٨ — ٢٩١ ؛ وكذلك مسكويه ، ج ١ ، ص ٤١٤ ؛ ابن سعيد ، ص ٣٧ وما بعد ؛ وابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٢٧٢ .

٢) قابل : سيدة كاشف ، في عصر الاخشيديين ، (القاهرة ، ١٩٥٠) ، ص ٩٠ — ٩١ .

٣) أيضاً أنجور ، وأُنجور ؛ قابل : ابن سعيد ، ص ٤٥ ؛ ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ؛ الكندي ، ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣١٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٣٤٣ ؛ مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ؛ انظر ايضاً F. Wüstenfeld, *Die Statthalter von Agypten zur Zeit der Chalifen*, pt. iv (Gottingen, 1876), p. 37.

٤) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

٥) رسم شجري لبني طغج ، والخط المتقطع يشير الى صلة العبد بالسيد :

طغج
١. محمد الاخشيد (٩٣٥—٤٦)
٢. ابو القاسم انوجور (٩٤٦ — ٦٠) | ٣. علي (٩٦٠ — ٦٦) | ابو المسك كافور (٩٦٦ — ٦٨)
٥. احمد (٩٦٨ — ٦٩) [ابن علي]

هذا في القدس، حيث دفن ابوه واخوه من قبله . واستمرّ العبد في الحكم سنتين بعد ذلك، وهو منفرد بالسلطة على ولاية ضمّت – فضلاً عن مصر وسورية – جانباً من كيليكيا، وفيها كبرى مدنها طرسوس[1]. وكافور هذا، عبد حبشيّ في الاصل، اعلم مشقوق الشفة؛ اشتراه الاخشيد من بائع زيت بثمانية عشر ديناراً. فكان المثل الاول في تاريخ الاسلام لسلاطين ارتفعوا الى اوج الشهرة من اوضع الاصول. وقد أعتق، على ما في الرواية، لان انتباهه كان دائماً موجهاً نحو سيده، في حين كان اهتمام سواه من العبيد والخدم منصرفاً الى الفيل او الزرافة، مما اهدي الى اسيادهم. اما العبد هذا، فلم يدع لحظة تمر دون ان ينتهزها فرصة لخدمة سيده، وقد كوفىء على رعايته هذه مكافأة جزيلة[2] .

ولقد خلد اسمَ كافور، واسمَ خصمه سيف الدولة، اعظم شعراء ذلك العصر – المتنبيء – بشعر لا يزال طلاب المدارس في العالم العربي، الى اليوم، يحفظونه غيباً. وكان الشاعر قد بدأ بنظم المدائح في عاهل مصر[3]. لانه كان يطمح ان ينال ولاية منه ولكن العبد خيّب امل الشاعر فانقلب هذا عليه وصارت اشعاره فيه هجاء.

نهاية الاخشيديين

تولى الحكم بعد كافور احمد ابو الفوارس (٩٦٨ – ٦٩)، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره، عاجز عن مواجهة مشاكل العصر. ذلك ان الحمدانيين كانوا يهددونه من الشمال، والقرامطة المتحفزون من الشرق، والفاطميون[4] – وهم اشد خطراً – من الغرب. وكان الخليفة الفاطمي، الذي ظهر في تونس سنة ٩٠٩ لسنوات عديدة، على صلة سرية بالعلويين وسواهم من الموالين في مصر؛ وكان زمن العمل قد ازف. ففي سنة ٩٦٩ قام القائد جوهر بحملة كاسحة، مكّنته من ابادة

١) ابن خلكان، ج ٢، ص ١٨٥ – ٨٩؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١٤ – ١٥؛ ابن تغري بردي، ج ٢، ص ٣٧٣.

٢) ابن سعيد، ص ٤٦ – ٤٧.

٣) انظر ما يتبع في هذا الفصل في فقرة عن المتنبيء.

٤) انظر ما يتبع في الفصل التالي في فقرة عن قيام الخلافة الفاطمية.

الجيش الاخشيدي . واحتلال مدينة الفسطاط (٦ تموز) ، دون كبير عناء . وعلى الاثر ، دعي للخليفة المعز في الصلاة العامة ، وضربت النقود الجديدة باسمه . وقد حاول والي الاخشيد في دمشق ، وهو ابن عم لابي الفوارس ، القيام بمحاولة ضئيلة لانقاذ سورية ، لكن جوهراً بعث اليه بقائد هزم جيوشه في الرملة واقتاده اسيراً . وعلى هذا النحو التحقت فلسطين وسورية الوسطى بالامبراطورية الفاطمية الناشئة[١].

كانت السلالة الاخشيدية (٩٣٥ ـ ٩٦٩) ، نظير سابقتها الطولونية (٨٦٨ ـ ٩٠٥) ، ذات حياة قصيرة . وقد كان منهج حياتها واحداً ـ ذلك المنهج الذي وسم بسمته عدداً من الولايات الاخرى التي انسلخت في العهد المتفسخ عن السلطة المركزية . فقد عمدت كلتاهما الى تبذير المال الوارد من الولايات لاسترضاء الرعايا ، فكان بذلك خراب الخزينة ؛ وكل منهما لم تقم الحكم في الامصار التي استتبعتها على اساس قومي ؛ ولا استطاعت ان تعتمد ، في ما بين رعاياها ، على جماعة متجانسة متماسكة من ابنائها الموالين . ولما كان هؤلاء الحكام دخلاء ، فقد كان عليهم ان يتخذوا حرسهم الخاص ـ وهم في الوقت نفسه جنودهم ـ من مصادر غريبة . ومثل هذا الحكم لا يمكن صيانته الا بان تستمر اليد التي امتشقت السيف قوية ماضية .

الحمدانيون ـ سيف الدولة

ان الحمدانيين ، الذين حكموا شمالي سورية بعد الاخشيديين ، يعودون بصلة النسب الى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب ، التي كانت قبلاً على النصرانية ؛ ومنها ظهر الشاعر الاموي الشهير : الاخطل[٢] . كان اول ظهور حمدان على مسرح الحروب والسياسة في اواخر القرن التاسع ، عندما استولى على قلعة ماردين[٣] . واستطاع اعقابه بعد كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء ، ان يبسطوا سلطانهم على الموصل ، وجانب كبير من العراق وشمالي سورية . وكان ابرزهم ابو العلي حسن ، الذي استطاع في سنة ٩٤٤ ، ان ينتزع من عامل الاخشيد مدينة حلب وانطاكية وحمص[٤] ، وان يحصل

---

١) الكندي ، ص ٢٩٧ ـ ٩٨ .

٢) راجع ص ٤٠ و ١٠٨ ـ ١٠٩ من هذا الجزء .

٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٤١ .

٤) ابن سعيد ، ص ٤١ .

من الخليفة على اللقب المشرف: سيف الدولة (يعني الدولة العباسية ٩٤٤ — ٦٧). وكان غرض الخليفة من الانعام بمثل هذه الالقاب الطنانة، ان يوهم الناس بان المنعم عليه — وهو بالفعل مستقل — انما هو مؤتمر بامره. وقد كان سيف الدولة، ومن تولى الامارة من بعده، من الشيعة المتساهلين، فاستمروا — من ثم — في الدعاء باسم الخليفة العباسي في صلاة الجمعة. وقد اختار سيف الدولة مدينة حلب[١] عاصمة له؛ اما سبب اختياره لها فربما كان وجود القلعة القديمة فيها، وقربها من الحصون القائمة على الحدود؛ اذ كان ينوي ان يدفع عنها تلك الغارات التي اخذ الروم يشنونها عليها. ولاول مرة، بعد عهد الاموريين[٢]، غدت المدينة الشمالية قاعدة لحكومة ذات خطر. وقد انشأ الحاكم الجديد في هذه المدينة قصراً فخماً، جعل فيه ثلاث حمّامات فيها مياه جارية، واطلق حوله جدولاً من الماء، واقام الى جانبه حديقة غنّاء، ومضماراً لسباق الخيول[٣].

شملت سلطة سيف الدولة شمالي سورية، وجانباً من كيليكيا، وجزءاً كبيراً من شمالي العراق. وانتزع مركزاً امامياً في ارمينيا بمساعدة اخواله الاكراد[٤]. وقد اتخذ احدى بنات الاخشيد زوجة له، على امل ان لا يُنازع في ملكه. وحاول فتح دمشق ففشل[٥]؛ ولما كانت دولته قائمة على الحدود فقد استنفدت حمايتها من حملات البيزنطيين جل وقته ومعظم جهده. وكان سيف الدولة اول قائد جدد الكفاح، بعد فترة طويلة من السكون، في وجه خصوم المسلمين من نصارى الاعاجم. وهذا النزاع الحمداني البيزنطي جدير بان يعتبر فصلاً سابقاً لتاريخ الصليبيين.

وكان للامير الحمداني من حيث هو بطل محارب ندٌّ مقابل في شخص الامبراطور نقفور[٦]. سجل لها المؤرخون عشرة اشتباكات لم يكن النصر فيها جميعها حليفاً

---

١) حلب معروفة ايضاً بالشهباء وربما لبياض حجرها.

٢) راجع ص ٧٤ من الجزء الاول.

٣) ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ حلب (بيروت، ١٩٠٩)، ص ٦٠ — ٦١، ١٣٣.

٤) مسكويه، ج ٢، ص ١٦١.

٥) ابن سعيد، ص ٤٢.

٦) هو: Nicephorus II Phocas (963-9).

لسيف الدولة . ففي سنه ٩٦٢ دارت الدائرة عليه ، وخرجت حتى عاصمته من يده ، ولو الى حين ، وذلك بعد حصار قصير المدى ، هُدم في اثنائه قصره الفخم الذي كان رمزاً لمجده[١] . وكان لهذا الحادث اسوأ الوقع في بغداد ، حيث قام الشعب بمظاهرة طلب فيها من الخليفة ان يقود بنفسه حملة انقاذ سريعة . لكن المظاهرة لم تسفر عن اكثر من دموع ذرفتها عينا الخليفة[٢] . ثم كانت وفاة سيف الدولة سنة ٩٦٧[٣] ، وما تلاها من فتن داخلية ، فمكن ذلك نقفور وخلفاءه من ان يتقدموا بجيوشهم ، ويحتلوا جانباً كبيراً من شمالي سورية . وان يفرضوا سلطة بيزنطية موقتة على ملك الحمدانيين . وفي سنة ٩٦٨ استولى نقفور ثانية على حلب ، وضم اليها انطاكية وحمص ، والمدن الواقعة بينها ؛ واستطاع خلفه ابن الشُمُشْقيق (يوحنا زمسيس[٤]) ، بعد ذلك بست سنوات ، ان يخضع المدن الساحلية : بيروت وجبيل وعرقة وطرطوس وجبلة واللاذقية ، وبعض المدن الداخلية نظير : صهيون وبعلبك . وبقيت انطاكية في يد البيزنطيين ما يزيد على مئة عام (٩٦٨ — ١٠٨٤) .

ولم يسترجع الحمدانيون مدينة حلب حتى سنة ٩٧٥ ، وامتنعت عليهم قلعتها عامين آخرين . فقد شُغل سعد الدولة بن سيف الدولة بمحاربة منافس له في حمص ، هو احد انسبائه ، قبل ان تسلم له الولاية . وفي الوقت نفسه عمد عامله على حلب الى خيانته ، فوقع اتفاقاً مع البيزنطيين تعهد بموجبه ان يدفع لهم جعالة ، الا ان سعد الدولة ابى ذلك . وفي سنة ٩٨٥ حاصر سعد الدولة قلعة سمعان[٥] ، وهي آنذاك في ايدي البيزنطيين ، وانتهبها وفتك برهبانها او باعهم في اسواق العبيد . وفي عهد سعيد

---

١) ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٤٠١ — ٢ ؛ مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٩٢ — ٩٤ .

٢) مسكويه ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٥ .

٣) للقارئ ان يراجع مجموعة النصوص العربية المتعلقة بسيف الدولة في Marius Canard, *Histoire de la dynastie des Hamdanides*, vol. i, (Paris, 1950), pp. 595 *seq*; والنص العربي في « سيف الدولة » الجزائر ، ١٩٣٤) .

٤) ابن القلانسي ، ص ١٢ — ١٤ .

٥) راجع ص ٤٠٤ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

الدولة (٩٩١ — ١٠٠١)[١] . الذي تولى بعد ابيه سعد ، بدا في الافق الجنوبي عدو جديد هو الجيش الفاطمي . واذ شعر الامير الحمداني بحراجة الموقف ، ارسل الى الامبراطور باسيل يلتمس نجدة ، فبعث اليه على جناح السرعة بـ ١٧ الف مقاتل . فارتد العدو المداهم ، وتربص زمناً ؛ لكن سعيداً اضطر بعد حين الى التسليم بسيادة الفاطميين . وكان سعيد هذا صغير السن ، فعمد وصيه الى تزويجه من ابنته ، واستأثر بالامر دونه . ثم دس له ولزوجته السم وتخلص منهما . واستمر سنتين بعد ذلك وهو يحكم البلاد باسم الخليفة الفاطمي وصياً على ابني سعيد : علي وشريف (١٠٠١ — ٣) . وفي سنة ١٠٠٣ ارسل بالاميرين الصغيرين ، مع سائر نساء الحمدانيين ، الى القاهرة ؛ وعيّن ابنه الخاص مساعداً له في الحكم . وكان هذا المشهد هو الاخير في حياة السلالة الحمدانية ، وهي السلالة العربية الثانية والاخيرة ، التي قامت في البلاد السورية .

الحلقة الزاهية في بلاط سيف الدولة

ان دورة الحياة التي عاشتها السلالة الحمدانية لم تختلف ، في جوهرها ، عن دورة حياة السلالتين السابقتين : الاخشيدية والطولونية — قائد طموح يستأثر بمقاطعة يحكمها حكماً مباشراً ؛ يخلفه حاكم ضعيف يبذر اموال الدولة ؛ ثم خلاف في الداخل ، وعدوان من الخارج ، يكون بهما ختام الحكاية . اما في ما يتعلق بالحمدانيين ، فان رعاية سيف الدولة للعلوم والفنون كانت من اهم الدواعي لاستنزاف مال الخزينة .

احاط سيف الدولة نفسه ، في قصره الفخم ، بحلقة من ارباب الادب والفن ، تكاد لا تباريها الا حلقات خلفاء بغداد في ايام عزّهم : فقد ضمت الفيلسوف الشهير

---

١) رسم شجري لسلالة الحمدانيين :

١. سيف الدولة (٩٤٤ — ٦٧)
|
٢. سعد الدولة (٩٦٧ — ٩١)
|
٣. سعيد الدولة (٩٩١ — ١٠٠١)
|
٤ ا. ابو الحسن علي (١٠٠١ — ٣) — ٤ ب. ابو المعالي شريف (١٠٠١ — ٣)

والموسيقي البارع ابا نصر الفارابي ، ومؤرخ الادب العربي اللامـــع ابا الفرج الاصبهاني . والواعظ البليغ ابن نباته (ت ٩٨٤)[١]، والعالم اللغوي ابن خالويه ، والنحوي الشهـــير ابن جني (ت ١٠٠٢)[٢]، والشاعر الفارس ابا فراس ؛ وفوق هؤلاء جميعاً الشاعر المداح الاشهر ابا الطيب المتنبي ؛ قال صاحب يتيمة الدهر :

وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وبواسطة قلادتهم ، وكان — رضي الله عنه وارضاه، وجعل الجنة مأواه — غرّة الزمان ودعامة الاسلام، وبه سِداد الثغور وَسداد الامور... ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك ، بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لديها . وكان اديباً شاعراً محباً لجيد الشعر[٣] ... !

ابو الطيب المتنبي

وابو الطيب هذا هو احمـــد بن الحسين ؛ لقب بالمتنبي (٩١٥ — ٦٥)[٤] لانه ادعى النبوة في مطلع شبابه ، وحاول تقليد القرآن ؛ فاتبعه جماعة ممن سحرهم ببيانه في اللاذقية وفي بادية الشام . لكن عامل الاخشيد في حمص اعتقله واودعه السجن ، حيث بقي نحواً من عامين . ثم خرج وقد شفي من وهم النبوءة . ولكنه لم يبرأ من داء الكبرياء والغطرسة والاعجاب بالنفس ، ذلك الداء الذي رافقه مدى حياته . قال يصف ادبه :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صممُ
انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم![٥]

١) طبعت خطبه عدة مرات في القاهرة وفي بيروت.

٢) هو ابن عبد تركي اشتهر بشرحه لشعر المتنبي .

٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر ، (دمشق ، ١٣٠٣) ج ١، ص ٨ — ٩ .

٤) اقيم له المهرجان الالفي في سورية ١٩٣٩ (١٣٥٤ هـ) ؛ انظر : Al Mutanabbi ; *Recueil Publié à l'occasion de son millénaire* (Beirut, 1936): Cf. Blachère, *Un poète arabe: Abou-t-Tayyib al-Motanabbi* (Paris, 1935), pp. 69 *seq.*

٥) الواحدي ، شرح ديوان المتنبي ، نشر ديتريشي (برلين، ١٨٦١)، ص ٤٨٣ — ٨٤ .

ان الرجل الذي امتدح نفسه ، واشاد بفضائله في هذه الابيات المشرفة ، قد نشأ من اصل وضيع . ولد في الكوفة ؛ وكان ابوه سقّاء ، انتقل باسرته الى سورية وشاعرنا بعدُ فتىً . وبعد ان امضى زمناً، وهو يلتمس اميراً يخص نفسه به ويعمل في رعايته ، استقرّ في حلب ووقف شعره على سيف الدولة ؛ فاقترن اسماهما منذ ذلك الحين اقتراناً وثيقاً . وقد اشترط الشاعر المتغطرس على الامير ان ينشده الشعر وهو جالس ، وان لا ينحني ويقبل الارض بين يديه . وكان في اثناء التحاقه بكافور يأبى ان يخلع حذاءه لدى المثول في حضرته ، او ان ينزع سيفه من وسطه[1] وكان يواكبه في تنقلاته اثنان من عبيده بالسلاح الكامل . اما السبب الذي حمله على مغادرة بلاط سيف الدولة ، وايثار بلاط كافور ، فهو — على ما ورد — ان جدالاً نشب بين المتنبي وابن خالويه استاذ سيف الدولة ، عمد ابن خالويه على اثره الى مفتاح رمى به المتنبي فاصابه في وجهه . وعندما يئس المتنبي من سيده كافور ، خرج من مصر خفية ، وتوجه الى بغداد ففارس . وفي ما كان عائداً الى الشام ، تصدى له جماعة من الغزاة البدو ، وقتلوه هو وغلامه ، وفروا بنسخته الخاصة من ديوان شعره[2].

ومن اروع القصائد في هذا الديوان تلك التي سجل فيها امجاد سيف الدولة في حروبه مع الروم . وربما كانت هذه القصائد — لا واقع المآتي — هي التي جعلت من سيف الدولة ذلك البطل الاسطوري الذي تحدثت عنه اخبار العرب ، وهي تشهد بان صاحبها ابلغ شاعر انجبته العربية ؛ وزاد في قيمة هذه القصائد ما زدانت به من روائع الحكم . اما حياة الشاعر الخاصة فقد كانت رزينة ، بخلاف المعروف عن افراد هذه الطبقة في عهده . وقد اتسم اسلوبه احياناً بالغلو ، وحفل بالمحسنات البديعية ، وزخر بالزخارف اللفظية وفنون المجاز . علـى ان ذلك لم يكن غير مستساغ بالنسبة الى القارئ الشرقي . هذا ما كان لشاعرنا من سلطان على خيال ابناء الضاد ، فكان ذلك داعياً لبقائه ، حتى الآن ، اعظم شعراء الاسلام في نظرهم . وبه وبزميليه السابقين : ابي تمام والبحتري ، بلغ الشعر العربي اتم نضجه ، ان لم نقل اسمى اوجه ؛ واخذ من بعد ذلك في طريق الانحدار ، الا في انتفاضات قليلة .

---

١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٦٤ .

٢) لديوان المتنبي طبعة اخرى غير التي اعدها ديتريشي اخرجها ناصيف اليازجي بعنوان : « العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب » (بيروت، ١٨٨٢).

ابو فراس الحمداني

كان للمتنبي في ابي فراس ، الحارث بن ابي العلاء الحمداني (٩٣٢ — ٦٨) منافس يباريه ، وهو ابن عم سيف الدولة ورفيقه في الحروب . ويقال ان سيف الدولة اجازه على بيت واحد من الشعر ، اقطاعاً قرب منبج ، بلغ دخله السنوي الف دينار . وفي سنة ٩٦٢ وقع الشاعر الباسل اسيراً بيد الروم ، ونقل على الاثر الى القسطنطينية . وبعد ان مكث في الاسر اربع سنوات دفعت عنه الفدية فعاد الى قومه[١]. وقد نظم ، وهو في الاسر ، جملة من اروع القصائد وارقها[٢]. وله قصيدة عامرة اطرى بها العلويين وغمز من العباسيين ، لا تزال من القصائد الاثيرة في اوساط الشيعة[٣]. وهو الذي استأثر بالسلطة على حمص بعد وفاة سيف الدولة . وسقط قتيلاً في معركة نشبت بينه وبين الجيش الذي وجهه ابن سيف الدولة لقتاله[٤].

وكان دون هذه الطبقة من شعراء العصر شعراء آخرون منهم كشاجم الاديب الفنان ، والوأواء الشاعر البارع بتزويق الكلام . اما الاول فمن اصل هندي[٥] (ت حوالي ٩٧١) ، يتألف اسمه الغريب من الحروف الاولى للالفاظ التالية : كاتب ، شاعر ، اديب ، جدلي ، منجم ؛ على اعتبار انه كان جامعاً لهذه المناقب . وكشاجم هذا من ابناء الرملة ؛ بدأ حياته طاهياً عند سيف الدولة ، ونظم ابياتاً وصف فيها بعض الوان الطعام والشراب[٦]. وقد اضاف الى مناقبه الكثيرة علم الطب ، والف كتاباً في علم الحيوان . واما الوأواء (ت ٩٩٩) فدمشقي المنشأ من بني غسان ؛ اشتهر بقصيدة وصف فيها فتاة تبكي ، وقد عضت على شفتيها ، بهذا البيت :

---

١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ — ٢٦ .

٢) راجع ديوانه نشر نخله قلفاط (بيروت ، ١٩٠٠) ؛ وانظر ايضاً الثعالبي ، ج ١ ، ص ٢٢ — ٦٢ .

٣) راجع نص هذه القصيدة في ديوانه ، نشر سامي الدهان (بيروت ١٩٤٤) ج ٣ ، ص ٣٤٨ — ٥٦ ; وايضاً Canard, pp. 325-33 .

٤) راجع ما سبق ص ١٩٣ من هذا الجزء .

٥) المسعودي ، ج ٨ ، ص ٣١٨ .

٦) المسعودي ، ج ٨ ، ص ٣٩٤ — ٩٥ ، ٣٩٩ — ٤٠٠ : وانظر ايضاً ديوانه (بيروت ، ١٣١٣) ، ص ٤٤ — ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧٩ — ٨٠ .

واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
وردأ ، وعضت على العناب بالبرد[١]

من علماء البلاط الاصبهاني

وقد حظي بلاط سيف الدولة ، الى جانب هؤلاء الشعراء بجملة من العلماء نؤثر بالذكر منهم : مؤرخاً للادب والموسيقى هو الاصبهاني ، وفيلسوفاً موسيقياً هو الفارابي . اما ابو الفرج الاصبهاني (او الاصفهاني ٨٩٧ — ٩٦٧) فسليل البيت الاموي ، لكنه كان شيعي النزعة . ولد في اصبهان ، وتواردت عليه الهدايا من انسبائه الحاكمين في الاندلس ، تقديراً له على ما وضعه من الكتب على شرفهم . وقد اجازه سيف الدولة ، بألف قطعة من الذهب ، على النسخة التي قدمها اليه بخط يده من مؤلفه الضخم « كتاب الاغاني »[٢]. والحق ان هذا الكتاب اجلّ جداً مما يتبادر الى الذهن من اسمه المتواضع . وقد نقل عن وزير معاصر من اهل العلم ، كان يستصحب في اسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الادب ليطالعها فلما وصل اليه كتاب « الاغاني » استغنى به عنها[٣].

الفيلسوف الموسيقي الفارابي

واما محمد ابو نصر الفارابي فتركيّ من فاراب ، وهي بلدة في تركستان[٤]. عاش في سورية في زي المتصوفين ، قانعاً بمرتب اكرامي ، اجراه عليه سيف الدولة ، مقداره اربعة دراهم في اليوم . وقد صحب سيده سيف الدولة الى دمشق ، وفيها توفي سنة ٩٥٠ عن ثمانين سنة . كان الفارابي من اسبق مفكري الاسلام الى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعليم الاسلام . وكان نظامه الفكري نظاماً توفيقياً جامعاً ما بين الفلسفة المشائية ومبادئ الافلاطونية الجديدة وتعاليم الصوفية . وقد اطلق عليه ابناء قومه لقباً تفرد به هو « المعلم الثاني »، على اعتبار انه ثاني معلم

١) اللؤلؤ ، ديوانه ، نشر سامي الدهان (دمشق ، ١٩٥٠) ، ص ٨٤—٢٦٧ ؛ الكتبي ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

٢) نشر عشرون مجلداً منه في بولاق ١٢٨٥ ، ونشر برونو المجلد الحادي والعشرين في ليدن ١٨٨٨ ، ثم وضع له غويدي فهرساً عاماً نشر في ليدن ١٩٠٠ .

٣) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١١ .

٤) ابن ابي اصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ القفطي ، ص ٢٧٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٣٩٠ .

للمنطق بعد ارسطو. والفارابي رائد الفكر الفلسفي في الاسلام؛ عنه اخذ ابن سينا وجميع من تلاه من فلاسفة الاسلام. اما مؤلفاته الرئيسية فرسالة فصوص الحكم[١]، ورسالة في اراء اهل المدينة الفاضلة[٢]، والسياسة (السياسات) المدنية[٣]. ويبسط الفارابي في الكتابين الاخيرين رأيه في المدينة المثالية. فاذا هي — كما تخيلها — ذات رئاسة دينية، ونظام عضوي، شبيه بنظام الجسم الانساني؛ ومن الواضح انها قد نسجت على منوال جمهورية افلاطون.

وكان الفارابي — الى ذلك — طبيباً مرموقاً، ورياضياً فلكياً، وموسيقياً من الطبقة الاولى. فقد اهلته كتبه الثلاثة في الموسيقى، التي توجها بـ «كتاب الموسيقى الكبير»[٤]، لان يكون بين اعظم العلماء النظريين في الموسيقى العربية، ان لم يكن اعظمهم. وكان، فضلاً عن ذلك، يجيد العزف: فقد استطاع — على ما روي — ان يعزف في البلاط الحمداني على عود اخترعه، فيحمل السامعين على الضحك، فالبكاء، ثم النوم، طبقاً لرغبته[٥].

العالم الجغرافي — المقدسي

وفي العهد الذي تسلط فيه الحمدانيون على شمالي سورية، والفاطميون على جنوبيها، زها في فلسطين عالم مبدع، من خيرة علماء الجغرافية، هو المقدسي (المقدّسي ٩٤٦ — حوالي ١٠٠٠)؛ ولد في بيت المقدس في العهد الاخشيدي، وعندما بلغ العشرين من العمر بدأ يقوم باسفار حملته الى جميع اقطار العالم الاسلامي، باستثناء اسبانيا والهند وسجستان. وفي سنة ٩٨٥ اخذ يدون ما تجمع لديه في هذه الاسفار في كتاب سماه: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم[٦]. وقد

١) نشره فردريك ديتريشي في: *Die Philosophie der Araber im IX. und X Jahrhundert n. Chr.*, vol. XIV (Leyden, 1890), pp. 66-83.

٢) نشر في القاهرة، ١٣٢٣؛ ونشره ديتريشي في *Philosophie der Araber*, vol. XVI (Leyden, 1895)، وترجمه بعنوان *Der Musterstaat von Al-Fārābi* (Leyden, 1900):

٣) (حيدر اباد، ١٣٤٦).

٤) نشر لاند (J. P. N. Land) مختارات منه في *Actes du Sixième Congrès international des orientalistes*, pt. 2, sec. 1 (Leyden, 1885), pp. 100-168.

٥) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٠١.

٦) نشره دي غويه (ليدن، ١٨٧٧).

ذكر في المقدمة ، انه اعتمد في تأليفه على ملاحظاته الخاصة ،واختباره الشخصي ، اكثر منه على الكتب المدونة . ويتجلى في الكتاب ميـــل المؤلف نحو الشيعة ، وايثاره للفاطميين . وكان الشيعة في عصره يمثلون الجانب الفكري التقدمي في الاسلام .

وبفضل مؤلفات المقدسي وزملائه من علماء الجغرافية، ممن سلكوا سبيـــل الشهرة في هذا العصر ، بلغت معارفنا عن الاحوال الاقتصادية والاجتماعيـــة في سورية ، في القرن العاشر ، مستوى لم يسبق له نظير ؛ اذ لم يخلف لنا اي عالم جغرافي – لاتينياً كان او يونانياً او سامياً – من المادة الجغرافية ، ما يعادل المادة العربية ، ان من حيث الكمية ، او من حيث النوع . فالمقدسي يستعرض احوال التجارة والزراعة والصناعة والتربية العامة ؛ ويتحدث عن امور اخرى كثيرة ، منها وجود الحديد الخام في «جبال بيروت»[١]، وكثرة الاحراج وانتشار النساك في لبنان[٢]، ومنتجات السكر والزجاج في صور ، ومصنوعات الجبن والقطن في القدس ، ومحاصيل الحبوب والعسل في عمّان[٣]. ويصف سورية بانها اقليم مبارك ، بلد الرخص والفواكه والصالحين[٤]. ويشير ابن الفقيه[٥]، المعاصر الفارسي للمقدسي ، بصورة خاصة الى النساك والاحراج في لبنان، ويوجّه التفاتة خاصة الى تفاّحه . ويعنى جغرافي فارسي آخر ، هو ابن خرداذبه (ت حوالي ٩١٢) باحصاء اقاليم سورية ، ووصف الطرق، وتعيين المسافات بين المدن[٦]؛ ويذكر ان عرقة وطرابلس وبيروت ، وسواها من المدن الساحلية والداخلية، كانت لا تزال منيعة الحصون . وعلى الجملة ، فان الفكرة العامة التي تعلق في الذهن من مطالعة هذه المؤلفات ، وسواها من المصادر المعاصرة ، عن مستوى المعيشة ، تدعو الى عظيم الارتياح . فقد كان الناس، في ما بدا لهؤلاء المؤلفين ، يعيشون حياة سعيـــدة ونافعة . ولا

---

١) ص ١٨٤ ؛ الادريسي ، نزهة المشتاق : ذكر الشام ، نشر غلدمايستر (بون ، ١٨٨٥) ، ص ١٦ . راجع الجزء الاول ص ٣٦، ٣٠٣ – ٣٠٥، والفصل السابع والاربعين ، عن « تيمور » .

٢) ص ١٨٨ .

٣) ص ١٨٠ .

٤) ص ١٧٩ .

٥) ص ١١٢، ١١٧.

٦) ص ٧٤ وما بعد ، و ٩٥ وما بعد .

يبدو ان النصارى واليهود كانوا أسوأ حالاً في عهد الدولتين السورية والمصرية، مما كانوا عليه في زمن خضوعهم للعباسيين. فان معظم الكتبة في سورية — ان لم نقل جميعهم — والعدد الاكبر من الاطباء، كانوا بعــد من النصارى[1]. وفي سنة ٩٩٢ تعرضت سورية لزلزال لم ينزل فيها من الخراب ما انزل الزلزال الذي اجتاحهـا سنة ٨٥٩/٦٠؛ فان هذا الزلزال كاد يمحو اللاذقية وجبلة من الوجود؛ وقد هدم في انطاكية وحدها ١٥ الف بيت[2]. وكانت سورية في القرن السابق قد تعرضت لزلزالين، على الاقل، وقع احدهما سنة ٧٣٨، والآخر ٧٤٦.

طلائع العصور المظلمة

وكانت في هذه الاثناء غيوم دكناء تتلبد على الافق، وتنذر بمستقبل قريب حافل بالمكاره. ذلك ان جيوشاً فاطمية مؤلفة من مقاتلين مصريين وبرابرة، اخذت، بعد منتصف القرن العاشر، في شن الغارات من الجنوب؛ وكذلك فان متعصبي القرامطـــة من عشائر العراق وفارس، عاودوا اجتياح البلاد من الشمال الشرقي. ثم لم يلبث السلاجقة، وسواهم من قبائل الاتراك المتمردين، ان انحدروا من الشمال. فبدأت بذلك عصور الظلمة في تاريخ سورية، وغدت البلاد على شفير الفوضى، وجرى النهب والحريق والفتك في اثر الغزاة الغائرين. واذا بكبريات المدن، نظير حلب ودمشق والقدس، كالكرة تتقاذفها الايادي الغريبـــة. وفي اواخر القرن الحادي عشر، كان اقوام من الفرنج، وفئات اخرى من الصليبيين، ينحدرون من الشمال الغربي الى الجنوب. وعقب امارات المماليك بحكمهم — بل بسوء حكمهم — الذي يتحدى الوصف، سلطة الاتراك العثمانيين. وعندها خيّم على البلاد ظلام لم ينقشع عنها حتى اواسط القرن التاسع عشر.

---

١) المقدسي، ص ١٨٣، س ٧٤٤ — ٨.

٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٩ — ٤٠.

الفصل الرابع والأربعون

ما بين السلاجقة والفاطميين

لم تكن كبريات الدول، التي نشأت على اثر تجزؤ الخلافة العباسية ، هي التي بسطنا شأنها في الفصول السابقة ، بل هي التي نحن في صدد معالجتها الآن . اي : دولة السلاجقة ، وخلافة الفاطميين . فقد اقتسمت هاتان الدولتان البلاد السورية فيما بينهما، فاستولى السلاجقة على شماليّها ، وسيطر الفاطميّون على جنوبيّها ؛ وكان الاولون من الترك ، وانتسب الاخرون الى العرب .

طغرل بك في بغداد

كان مؤسس السلالة السلجوقيـة زعيماً من زعماء التركمان ، هو امير قبيلة الغز في تركستان . وكان قد تمكن ، بمساعدة عشيرته البدوية الجافية ، من اجتياح منطقة بخارى [1]، حيث تم ، في ما يظهر ، اعتناقهم للاسلام . ثم استأنف حفيـــده طغرل هذه الفتوحات غرباً ، عبر فارس ، حتى وقف سنة ١٠٥٥ . في جمع من رجاله ، على ابواب بغداد نفسها . ولم يكن امام الخليفة القـــائم ، لفرط عجزه ، الا طريق واحد يسلكه هو ان يستبدل سيداً بآخر — ففارق الفرس الشيعيين ، ليستقبل سلاجقة الاتراك السنيين[2]. وقد ميز الحاكم السلجوقي الجديد نفسه بلقب « سلطان »، وهو اول حاكم مسلم نقش على نقوده هذا اللقب ؛ ثم جرى من تلاه في الحكم على مثل ذلك، حتى غدا عرفاً جارياً فيهم . وفي غمرة الانتصارات التي احرزها طغرل ، عمد الى ترحيل جموع من الاتراك والسلاجقة وسواهم الى غربي آسيا ، فانتشروا في انحاء هذا الاقليم واخذوا في الاستعراب واعتناق الاسلام تباعاً .

وفي عهد ابن اخيه وخلفه الب ارسلان (١٠٦٣ — ٧٢) . وعهـد ملكشاه ابن الب ارسلان (١٠٧٢ — ٧٩) ، بلغ سلطان السلاجقة اوسع مداه ، ممتـــداً من

---

١) ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ٣٢١ — ٢٢ .

٢) ابن خلكان ، ج ١، ص ١٠٧ — ١٠٨؛ ابن تغري بردي ، نشر بوبر ، ج ٢ ، قسم ٢ ص٢٢٥ .

حدود افغانستان الى تخوم امبراطورية الروم في آسية الصغرى . وفي سنة ١٠٧٠ اغار الب ارسلان بجيوشه على الدولة المرداسية في شمالي سورية ، واحتل مدينة حلب ، واستتبع حاكمها المرداسي[١] . واقتحم اتسيز ، قائد جيوش الب — وهو تركماني من خوارزم — فلسطين ، وانتزع من يد الفاطميين رام الله والقدس وسواهما من المدن ، حتى عسقلان جنوباً ، وصمدت في وجهه حامية عسقلان الفاطمية[٢] . وفي سنة ١٠٧٦ دخل دمشق ، وضيق على اهلها ، وانتهب اموالهم . ثم عاد تتش ابن الب ارسلان فاحتلها ثانية بعد سنتين ، وقتل اتسيز[٣] . وفي سنة ١٠٧١ احرز الب ارسلان انتصاراً حاسماً على البيزنطيين في ملازكرت ، شمالي بحيرة فان ، ووقع الامبراطور نفسه اسيراً في يده ، واذ ذاك غدت آسية الصغرى برمتها مكشوفة امام الاتراك ، فتدفقت قبائل السلاجقة الرّحل على اناطوليا وشمالي سورية ، واندفع قادة الترك حتى هلسبونت . وهكذا وبضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية ، التي طالما فصلت بين الاسلام والمسيحية ، اربع مئة ميل الى الغرب . ولاول مرة استطاع الاتراك ان يحرزوا موطىء قدم في تلك الاصقاع وما زال في يدهم حتى اليوم .

على ان سلطنة السلاجقة الواسعة لم تلبث ان تجزأت ، وحكم اجزاءها من السلالة السلجوقية . فاستولى على آسية الصغرى (بلاد الروم) سليمان ابن عم الب ارسلان ؛ وكان سنة ١٠٧٧ قد ثبت قدميه في نيقيا (ازنيق) ، غير بعيد عن القسطنطينية . وفي سنة ١٠٨٤ نقلت العاصمة الى قونيا في الجهة الجنوبية الشرقية ؛ وفي العام نفسه استرجع السلاجقة مدينة انطاكية من الروم ، وردّوها الى الاسلام[٤] ؛ اذ لم يكن في احتلال آسية الصغرى امن ولا استقرار ما دام الروم مرابطين من وراء ظهورهم . وكان قلج ارسلان ، احد ابناء سليمان ، اول من اصطدم بطلائع الحملات الصليبية (١٠٩٦) ، وذلك لدى مرورهم في آسية الصغرى ، في طريقهم الى

١) ابن الاثير ؛ ج ١٠ ، ص ٤٣—٤٤ ؛ انظر الفقرة عن المرداسيين في ما يلي من هذا الفصل ؛ وكذلك Claude Cahen in *Byzansion*, vol. XVIII (1948), pp. 25-90 .

٢) ابن عساكر ؛ ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٤٥ — ٤٦ .

٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

٤) راجع الفصل السابق ص ١٩٣ — ١٩٥ .

سورية[١] . وكان من بين الدول التركية العديدة التي عقبت سلاجقة الروم حوالي سنة ١٣٠٠ ، دولة العثمانيين ، وهم تاريخياً فرع آخر من الغز[٢] .

سلاجقة سورية

اسس دولة سلاجقة سورية تتش بن الب ارسلان . ففي سنة ١٠٩٤ استولى على مدينة حلب[٣] ، وكانت لا تزال اهم مدن سورية الشمالية ، فكانت جديرة بان تغدو قاعدة لهذه الولاية . لكن تتش سقط في احدى المعارك في السنة التالية ، فحكم مكانه في حلب ابنه رضوان (١٠٩٥ — ١١١٣) ، وتولى الحكم في دمشق ابنه الآخر دقاق[٤] . على ان الخلاف لم يلبث ان نشب في الاسرة بين الاميرين الاخوين[٥] ، بحيث اضطر دقاق ، بعد سنتين من الزمان ، الى الاقرار لاخيه بالسيادة العليا . وكان صهر لتتش يتولى اقطاع القدس ، فأجبر سنة ١٠٩٨ ، على التخلي عنه للفاطميين . وعندما بلغ الصليبيون الاراضي المقدسة ، كانت خاضعة لسلطة الفاطميين . وكان رضوان موالياً للحشاشين من الاسماعيلية ، وكان اكثر الحلبيين ، على ما يبدو ، شيعيين واسماعيلية[٦] ، فكان اهل السنة والحالة هذه يمقتونهم . وقد بقي رضوان نحواً من شهر يدعو للخليفة الفاطمي وللملة الاسماعيلية في صلاة الجمعة ، لكنه عاد بعده الى الدعاء للخليفة العباسي ؛ وكان من جملة القواد الذين اشتبكوا بالصليبيين في معارك عديدة في شمالي سورية . وقد تمكن من صد حملات الفرنجة عن حلب ، ومن الاحتفاظ بها في قبضة يده . لكن محاولاته لفك الحصار الذي ضربوه على انطاكية سنة ١٠٩٨ باءت بالفشل[٧] .

---

١) انظر الفصل التالي — الحملة الصليبية الاولى .

٢) انظر الفصل الثامن والاربعين — الدولة العثمانية .

٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٥٧ — ٥٨ .

٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

٥) ابن القلانسي ، ص ١٣٠ — ٣٢ ؛ ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٦٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

٦) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٣٤٩ ؛ ابن القلانسي ، ص ١٤٢ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٥٣ — ٥٤ .

٧) انظر الفصل التالي الفقرة عن انطاكية .

وخلف رضوان على حلب سنة ١١١٣ ابنـــه الب ارسلان، وكان فتى في السادسة عشرة من عمره، فاجراً ضعيف المدارك؛ فاغتاله الوصي عليه في حلب بعد فترة قصيرة من بدء ولايته[1]. وحكم اخ له اسمه سلطان شاه، وهو تحت الوصاية، ثلاث سنوات. وفي سنة ١١١٧ استولى على حلب قائـد تركماني من قادة الجيش السلجوقي، هو ايل غازي بن ارطق[2]، واتخذ مدينة ماردين قاعدة لهذا الفرع الناشئ من السلالة الارطقية. وكان ايل غازي هذا من اشد خصوم الصليبيين.

الاتابكة

وفي سنة ١١٢٨ استولى على حلب محارب تركي آخر هو عماد الدين زنكي من الموصل. وكان ابوه في اول امره عبداً في خدمة ملكشاه، ثم صار ضابطاً صغيراً في جيش تتش[3]. وفي السنة التالية ألحقت حماه وحمص وبعلبك بسلطة زنكي وكان زنكي البطل المقاوم للصليبيين؛ تمكن سنة ١١٤٤ من انتزاع الرها من يدهم[4]: واستهل سلسلة

---

١) ابن القلانسي، ص ١٨٩، ١٩٨؛ كمال الدين، منتخبات من تاريخ حلب في *Recueil des historiens des Croisades: historiens orientaux*, vol. iii (Paris, 1884), pp. 602-3, 605-6.

وهذا شكل شجري لسلاجقة سورية (١٠٩٤–١١١٧):

١) تتش بن الب ارسلان (١٠٩٤ – ٩٥)

٢) رضوان (في حلب ١٠٩٥ – ١١١٣)　　٢) دقاق (في دمشق ١٠٩٥ – ١١٠٤)

٣) الب ارسلان (١١١٣ – ١٤)　　٤) سلطان شاه (١١١٤ – ١٧)

٢) ابن القلانسي، ص ١٩٩.

٣) هو مؤسس سلالة الاتابكة في الموصل وسورية. والاتابكة (اتابك لفظة تركية: «اتا» معناها والد، و «بك» معناها امير؛ قابل اتا ترك) كانوا اولاً اوصياء او مؤدبين لصغار امراء السلاجقة، ثم خلفوهم في السلطة العليا. انظر: ابو شامة، الروضتين في اخبار الدولتين، ج ١، (القاهرة، ١٢٨٧)، ص ٢٤.

٤) كمال الدين في: *Recueil*, vol. iii, pp. 703 *seq*. وابن الاثير، «تاريخ الدولة الاتابكية» في: *Recueil*, vol. ii pt. 2 pp. 10 seq. كمال الدين في: *Recueil*, vol. iii, pp. 685-6؛ ابن الاثير في *Recueil*, vol. ii, Pt. 2, pp. 118-9؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٣٤٤؛ الذهبي ج ٢ ص ٣٨، ٤٠؛ ابو شامة، ج ١، ص ٣٣ – ٣٤، ٣٦ – ٣٧.

من الانتصارات عليهم، استأنفها من بعده ابنه نور الدين، وبعده خلفه صلاح الدين[١]. وهو الذي بنى مدينة الموصل المعروفة في العصر الوسيط. وكان من اتابكة الاتراك طغتكين[٢]، وكان مولى لتتش مكلفا بتأديب ابنه دقاق. وقد جرى على سيرة سواه من الاوصياء، فعمد الى اغتصاب السلطة، ثم اقرّت سلطته على دمشق بعيد وفاة سيده القاصر، وكان قد تزوج من امه[٣]. وفي سنة ١١١٦ عيّن كبيرُ سلاطين السلاجقة في بغداد طغتكين حاكماً على سورية، وأولاه حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال. وقد حالف طغتكين ايل غازي فاشتركا في القتال ضد الفرنجة[٤]. وكان كلاهما من المسرفين في شرب الخمرة! وربما بقي ايل غازي احيانا «عشرين يوماً» تحت تأثير الكحول في سكرة واحدة. وذات يوم ارسل ايل غازي الى زميله باسير من الفرنجة، هو سيد صهيون، على امل ان يفزعه فيحمله على تأدية فدية اكبر. لكن، لم يكن من طغتكين، الذي كان قد اكثر من الشرب في خيمته، الا ان استل سيفه وأطاح به رأس السيد المشؤوم. وقد علل تصرفه هذا، في ما بعد، بأنه اعتقد انه اشد ما يكون للأسير[٥]. وفي سنة ١١١٢ استنجدت صور، وهي بيد الفاطميين، من الصليبيين بطغتكين، لكن النجدة التي ارسل اليهم بها كانت مدداً مؤقتاً. فاستطاع الصليبيون احتلال هذا الثغر سنة ١١٢٤[٦].

---

١) انظر الفصل التالي: بحث «صلاح الدين».

٢) لفظ تركي معناه «الصقر المغير». وكان لقبه التكريمي ظهير الدين. وقد اتخذ معظم هؤلاء القادة القاباً عربية فخمة: فاختار ايل غازي (اي بطل قومه) لقب نجم الدين، وتتش، تاج الدولة؛ ورضوان، فخر الملوك.

٣) ابن القلانسي، ص ١٩٠؛ ابن خلكان، ج ١، ص ١٦٩، ابن خلدون، ج ٥، ص ١٥٥؛ ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ٣٨٨.

٤) كمال الدين في *Recueil*, vol. iii, pp. 620 seq.

٥) اسامة، ص ١١٩ — ٢٠.

٦) ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ٣٣٦— ٣٧.

ان السلالة التي بدأها طغتكين عرفت بعدئذ باسم ابنه وخلفه بوري[1]. ثم قام بعدها اتابكة زنكي سنة ١١٥٤، وسيأتي الكلام عن مآثرهم في ما بعد[2].

قيام الفاطميين

كان قيام الخلافة الفاطمية، نظير العباسية[3]، وثيق الصلة بسورية. ذلك لان بلدة سَلَمْيَة[4] الخاملة المنعزلة، الواقعة الى الجنوب الشرقي من حماة، كانت قد غدت في أواخر القرن التاسع، مقراً لزعيم الحشاشين من الاسماعيلية، ومركزاً لنشاطهم. وكان هذا الزعيم يدعى محمداً الحبيب. وكان في ظن اتباعه انه ابن حفيد الامام اسماعيل بن جعفر الصادق، وهـذا بدوره سليل علي وفاطمة عن طريق الحسين[5]. وكان الحبيب اميناً لاساليب الاسماعيلية، فعمد من ثم الى بث العملاء سراً في انحاء العالم الاسلامي، ليعملوا على تقويض سلطة اهل السنة، واعادة اسلام الشيعة الصحيح الى نصابه. وكانت هذه الدعاية، بعد الدعاية العباسية[6]، اعظم وافعل جهاز للدعاية في تاريخ الاسلام السياسي.

ذلك ان داعياً مقتدراً من دعاته اسمه ابو عبد الله الحسين الشيعي، من اهل اليمن، التقى في مكة بعدد من الحجاج البرابرة المنتسبين الى قبيلة قطامة في شمالي افريقية، وحملهم على اعتناق ملته. وفي سنة ٨٩٣ رافقهم الى تونس، حيث بذل

---

١) شكل شجري لاتابكة دمشق (١١٠٤ — ٥٤)

١) طغتكين (١١٠٤ — ٢٨)

٢) بوري (١١٢٨ — ٣٢) ٣) اسماعيل (١١٣٢ — ٤) ٤) محمود (١١٣٤ — ٨)

٥) محمد (١١٣٨ — ٩)

٦) ابق (١١٣٩ — ٥٤)

٢) الفصل التالي، الفقرة عن نور الدين.

٣) راجع ص ١٥١ — ١٥٢ من هذا الجزء.

٤) سلَمْيَة بالتخفيف اصح من التشديد سلمّية؛ تحريف عن الاصل اليوناني (سلمياس)؛ قابل: Canard, p. 235; Dussaud, *Topographie*, pp. 201, 244, 252.

٥) راجع شجرة النسب الفاطمي في هامش ص ١٥١ من هذا الجزء.

٦) راجع ص ١٥١ — ١٥٢ من هذا الجزء.

كل ما أوتي من دهاء، حتى جعل من نفسه زعيماً مرموقاً. ثم اخذ في كفاح شديد متواصل من اجل ان يزيل حكم الاغالبة الذي كان قـــد توثق في مدى قرن من الزمان. وعندما وثق من الظفر، دعا اليه زعيم ملته من سلمية، وهو آنذاك عبيد الله بن محمد الحبيب. لكن امر عبيد الله هذا افتضح في سجلماسة فاعتقله حاكم الاغالبة (٩٠٥) واودعه السجن. على ان داعيه الحسين الشيعي تمكن سنة ٩٠٩ من خلع حاكم الاغالبة؛ وعندها اطلق سراح عبيد الله، واقامه في الرقة سيداً على المنطقة[١]. ثم اعلن عبيد الله عن نفسه انـــه المهدي المنتظر، وبذلك نشأت سلالة خلافية جديدة هي السلالة الفاطمية، وتعرف ايضاً بالعلوية وبالعبيدية. ولم تكن هذه السلالة بالسلالة الخاملة؛ فقد كان ظهورها بمثابة تحدّ مدبرٍ للزعامة العباسية الراهنة في الاسلام. واتسعت سلطتها في اوج عزها حتى ضمت شمالي افريقية وغربي الجزيرة العربية، والبلاد السورية. وقد كانت الخلافة الشيعية الكبرى الوحيدة، وآخر ما ظهر من خلافات الاسلام في العصر الوسيط.

ولقد حجب التاريخ نسب عبيد الله بحجاب من الابهام الشديد. والمظنون انه ولد في سلمية، غير بعيد عن حمص — وهي التي انجبت للعرش الروماني بعض من تولاه[٢] — وكذلك ابنه وخلفه[٣]. ويشير المحققون الى ان سلسلة نسبه الشريف جاءت في المدونات على صور عديدة، فهي والحالة هذه غير حرية بالثقة؛ بل ان البعض يغالي في التخمين حتى ليقول بان المهدي الحقيقي قتـــل في سجن سجلماسة، وان «عبيد الله» الذي خرج من السجن لم يكن الا يهودياً تقمص شخصية الزعيم المنشود، ولعب دور المهدي المنتظر. ويؤكد آخرون ان عبيد الله هذا لم يكن علوياً، حتى ولا عربياً؛ بل كان بواقع الامر سليل الزعيم الفارسي عبد الله ابن ميمون القداح، المؤسس الثاني بعد اسماعيل للفرقة الاسماعيلية[٤]. وكانت مبادئ هذه الفرقة قد غدت في هذا الزمن مزيجاً غريباً من الافكار الشيعية المتطرفة، والتأملات

---

١) المقريزي، ج ٢، ص ١٠—١١؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١ وما بعد.

٢) راجع الجزء الاول ص ٣٧٧.

٣) ابن حماد، اخبار ملوك بني عبيد، نشر فندر هيدن، الجزائر (١٩٢٧)، ص ٦، ١٨؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٤٨٨.

٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٨٧؛ ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١١٢.

الصوفية الفارسية ، والاصول السريانية الغنوسطية والمبادئ العقلية البرهانية . وفيما يبطل المؤرخون المشايعون للعباسيين شرعية الدعوة الفاطمية ، يؤيدها جماعة من العلماء الحديثين في اوروبا ، ويوافقون على صحة النسب السلفي[١].

اتساع ممتلكاتهم

لقد اسس عبيد الله (٩٠٩ — ٣٤) عاصمة جديدة الى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان دعاها باسم منسوب الى لقبه هو : « المهدية ». وانتقل خلفه الثالث المعز (٩٥٢ — ٧٥) الى مصر سنة ٩٧٣ ، حيث كان قائده المظفر جوهر قد اسس عاصمة جديدة هي مدينة القاهرة — تلك المدينة التي قدّر لها ان تصير اشهر مدن القارة الافريقية على الاطلاق . ثم بنى فيها المسجد الجامعي المعروف بالازهر ، وهو اقدم المؤسسات الباقية للتعليم العالي ، ومن اوسع المؤسسات التعليمية في العالم حتى الوقت الحاضر . كان جوهر هذا في الاصل عبداً نصرانياً ، والراجح انه من اهل صقلية اشتراه سيد مسلم في مدينة القيروان . فارتفع من هذا الاصل الوضيع الى اوج شاهق غدا فيه منشئ امبراطورية عظيمة[٢]. وجوهر هو الذي طرد الاخشيديين سنة ٩٦٩ من مصر وسورية[٣].

وكان لجوهر في سورية خصوم كثيرون لم ير بداً من قتالهم . منهم القرامطة يتزعمهم الحسن ابن احمد الاعصم . وكان يعتمد على مساعدة العباسيين وتأييدهم . وقد لاح الفوز اولاً في جانب الاعصم . فاحتل دمشق ، وحمل الفاطميين على الانسحاب من البلاد برمتها ، واقدم على اللحاق بهم حتى عاصمتهم القاهرة[٤]. ومنهم الروم ، وهم آنئذٍ يتحينون الفرص لتجديد حملاتهم على الاراضي التي كانت في حوزتهم . ومنهم كذلك الاتراك ، اذ لم يكونوا غافلين عما يجري حولهم . فان احد قوادهم المدعو افتكين استولى على دمشق ، وبدأ يشن الغارات منها على جميع

---

١) انظر : P. H. Mamour, *Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs* (London, 1934), pp. 16 seq., 43 seq., 124 seq.; W. Ivanow, *Ismaili Tradition concerning the rise of Fatimids* (Oxford, 1942), pp. XVII-XIX, p. 127 seq. (Eng.); cf. Lewis, p. 22.

٢) ابن خلكان ، ج ١، ص ٢٠٩ — ١٣ ؛ المقريزي، ج ١، ص ٣٥٢ ، ٣٧٧ وما بعد .

٣) راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء .

٤) ابن خلدون ، ج ٤، ص ٥٠ — ٥١ .

انحاء البلاد. وكان من الطبيعي ان يتعاون الاتراك والقرامطة ضد العدو المشترك ففي سنة ٩٧٧ تولى الخليفة الفاطمي الثاني العزيز قيادة الجيش بنفسه، وانزل بجيوش المتحالفين هزيمة نكراء خارج الرملة[١]. وقد وسع العزيز ملكه في سورية، لاسيا في المنطقة الساحلية، لكنه اخفق في احتلال حلب لاسباب اهمها تدخل الروم[٢]. وقد بلغت الخلافة الفاطمية في عهده اوسع مداها، وخضعت لسلطته البلاد من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، وعنت له كذلك الحجاز واليمن وسورية، بل والموصل[٣]. وقد استخدم حمام الزجل لاقامة مواصلات سريعة مع الاقليم السوري، وعمد مرة الى استخدام ١٢٠ حمامة لنقل الخوخ من دمشق الى قصره في القاهرة، فتم ذلك في غضون ثلاثة ايام او اربعة. وقد كانت جاريته الاثيرة امرأة نصرانية عيّن احد اخويها رئيس اساقفة في القاهرة، والآخر في القدس. وكان وزيره نصرانياً ايضاً هو عيسى بن نسطوروس، وقد اناب عنه في سورية رجلاً يهودياً اسمه منشّا (منسّه) ابن ابراهيم. فاتهم كل منهم انه كان يراعي مصالح ابناء ملته. وفيما كان الخليفة يوماً يجري على بغل سريع، القت امرأة في طريقه لوحة كتب عليها: «بالذي اعزّ اليهود بمنشّا، والنصارى بابن نسطور، واذل المسلمين بك، الا نظرت في امري»[٤].

وضع سورية القلق

كان حكم الفاطميين في سورية قلقاً مضطرباً. وذلك لانه لم يكن القرامطة والسلاجقة والترك والروم وحدهم قد تنازعوا عليها، بل لان المواطنين احياناً

---

١) ابن القلانسي، ص ١٨ — ١٩؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٢.

٢) ابن القلانسي، ص ٢٩.

٣) ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١٠؛ ابن خلكان، ج ٣، ص ٥٤.

٤) قابل: ابن القلانسي، ص ٣٣؛ ابن تغري بردي، ج ٢، ق٢، ص ٤؛ السيوطي، ج ٢، ص ١٤؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ١٣٨.

واهل البادية قد اشتركوا في ذلك. في العام الثاني لخلافة الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢١)[١] بلغت الجرأة من ملاح من اهل صور، اسمه علاقة، ان يضرب النقود باسمه، ويعلن استقلال مدينته. وقد صمد في وجه الجيش الفاطمي الى حين، واستعان بعمارة من اسطول الروم للوقوف في وجه الاسطول الفاطمي؛ لكنه اضطر اخيراً الى تسليم المدينة المحاصرة، وتحمل بلاء التنكيل والصلب[٢]. ثم حشي جلده بالقش وعرض في القاهرة.

---

١) شكل شجري للخلفاء الفاطميين.

١) المهدي (٩٠٩ — ٣٤)
٢) القائم (٩٣٤ — ٤٦)
٣) المنصور (٩٤٦ — ٥٢)
٤) المعز (٩٥٢ — ٧٥)
٥) العزيز (٩٧٥ — ٩٦)
٦) الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢١)
٧) الظاهر (١٠٢١ — ٣٥)
٨) المستنصر (١٠٣٥—٩٤)

ابناء المستنصر: ٩) المستعلي (١٠٩٤—١١٠١)، و(محمد)

٩) المستعلي (١٠٩٤—١١٠١)
١٠) الآمر (١١٠١ — ٣٠)

(محمد)
١١) الحافظ (١١٣٠ — ٤٩)

ابناء الحافظ: ١٢) الظافر، و(يوسف)

١٢) الظافر (١١٤٩—٥٤)
١٣) الفائز (١١٥٤ — ٦٠)

(يوسف)
١٤) العاضد (١١٦٠ — ٧١)

٢) ابن القلانسي، ص ٥٠ — ٥١؛ ابن خلدون ج ٤، ص ٥٦ — ٥٧.

الامراء المرداسيون

ان الفوضى التي شاعت في خلافة الحاكم بامره قد اغرت اعراب بادية الشام بشن الغارات على سورية ففي سنة ١٠٢٣ تمكن صالح بن مرداس، زعيم بني كلاب من انتزاع عاصمة سورية الشمالية من يد الفاطميين. واستطاعت السلالة المرداسية ان تحتفظ بمدينة حلب، بين شدة ورخاء، اكثر من خمسين سنة (١٠٢٣ — ٧٩)، عمدوا في غضونها الى محالفة بني كلب وبني طيء؛ فحاصر الكلبيون دمشق(١٠٢٥) واضرم الطائيون النار في الرملة (١٠٢٤). اما اللصوصية وقطع الطرق وحركات التمرد، التي بدأت بقيام القرامطـــة، فقد استمرت واسعة الاثر في طول البلاد وعرضها. لكن مدينة حلب نفسها، على ما يبدو، حافظت على ظاهرة الازدهار. فناصري خسرو[1] الرحالة الاسماعيلي الفارسي الذي قصد حلب سنة ١٠٤٧، يذكر ان تجاراً من العراق ومصر وآسيا الصغرى كانوا فيها، ويتحدث عن المكوس التي كان المرداسيون يتقاضونها عن البضائع. وهنالك رسالة ارسل بها طبيب نصراني من اهل بغداد — اسمه ابن بطلان — الى صديق له على اثر زيارته للمدينة المذكورة في تلك الاثناء، تعطي فكرة عامة عن المدينة في عهد السلطة المرداسية: فالمدينة كانت محاطة بسور مبني بالحجر الابيض، فيه ستة ابواب. وقد قامت قلعتهـــا القديمة الى جانب السور، وازدانت قمة الرابية بكنيستين ومسجد. وكان في المدينة ست كنائس اخرى ومسجد جامع (بما يشير الى ان جانباً كبيراً من سكانها كانوا من النصارى). وكان هنالك ايضاً مستشفى صغير. وكان اهل المدينة يستقون من احواض تجمع فيها مياه المطر. وكان في بناء واحد من مباني السوق عشرون تاجراً من تجار الالبسة، كانوا لعشرين سنة يجرون اعمالاً تجارية تقدر بعشرين الف دينار في اليوم الواحد[2].

المعري — الشاعر الفيلسوف الضرير

ان روح العصر، بكل ما عراه من فوضى سياسية وتفسخ اجتماعي وتشاؤم

١) سفر نامه، نشر شارل شفر (باريس، ١٨٨١)، ص ١٠.

٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٦ — ٨.

فكري وتشكك ديني ، قد انعكس بجلاء في شعر شاعر من ابناء سورية الشمالية هو ابو العلاء المعري (٩٧٣ — ١٠٥٧). اما مسقط رأسه فظاهر من اسمه ، وهو معرة النعمان ؛ واما نسب قومه فيعود الى قبيلة تنوخ من عرب اليمن . وعندما بلغ الرابعة من عمره اصابه جدري ذهب باحدى عينيه ، ثم ذهب بعد حين بالعين الاخرى . فزادت هذه النكبة المشؤومة في نقمته على الحياة . ولقد حصل الناشىء الكفيف ما استطاع تحصيله من العلوم في حلب ؛ ثم قصد الى بغداد مرتين[1]. واذ كان فيها في رحلته الثانية ، جرت له احاديث مع جماعة من المفكرين ، ومع شيوخ المعتزلة وبعض الفلاسفة المتأثرين بالمذاهب اليونانية . والتحق بحلقة ادبية انشأها احد المفكرين الاحرار . لكنه اضطر الى ان يعجل بالعودة الى موطنه سنة ١٠١٠ ، بعد ان امضى في بغداد تسعة عشر شهراً ، وذلك بداعي مرض ألمّ بامه ؛ لكنها ماتت قبل وصوله اليها . والراجح انه اتصل وهو في بغداد بمفكرين من الهنود تمكنوا من حمله على مذهبهم في الاقتصار على الاطعمة النباتية .

وقد امضى الباقي من عمره عازباً في مسقط رأسه ، ويقال انه اوصى ان يكتب[2] على قبره البيت الذي يقول فيه :

هذا جناه ابي علـيّ   وما جنيت على احد[3]

وكان المعري يعيش على دخل ضئيل يكسبه من تعليمه . وعندما احتل المعرة الخليفة الفاطمي المستنصر ، حفيد الحاكم بامره ، قدم لشاعرها كل ما كان في الخزانة من مال ، فرفضه[4]. وكان شاعرنا يقضي اكثر اوقاته منفرداً ، فلقب نفسه برهين المحبسين (البيت والعمى). وقد خرج مرة الى احدى ضواحي المعرة ليتوسط لدى صالح بن مرداس بشأن ستين من وجهاء بلدته كان صالح قد اعتقلهم ، فنزل صالح على طلبه واطلق سراحهم في الحال .

والمعري ، بخلاف شعراء عصره ، لم يقف شاعريته على مدح الامراء وارباب النفوذ رغبة في الكسب ؛ وعليه فالقصيدة التي مدح بها سيف الدولة في عهده الباكر

---

١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١ ، ص ١٦٢ .
٢) ياقوت ، ج ١ ، ص ١٧٠ .
٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٩ .
٤) ياقوت ، ج ١ ص ١٧٨ .

لم ينشدها على مسمعه[١]. اما شعره المتأخر فينم عن فلسفة التشاؤم والشك في الحياة، وعن موقفه العقلاني من مشاكلها . وكان من الذين بادلهم الرسائل داعي دعاة الاسماعيلية. وقد حشد في رسالة الغفران[٢] مشاهير المراطقة واحرار المفكرين بجوار الجنة . يرفهون عن انفسهم ، ويخوضون في مناقشات نقدية تتناول الشعر. وهذه الرسالة، في ظن البعض، هي التي حفزت دانتي على وضع رائعته المعروفة بالكوميديا الالهية[٣]. وتشتمل لزوميات المعري على قصائد هي من اشهر شعره. وقد اشتملت بعضها على معانٍ[٤] احرز بها شاعر المعرة السبق على زميله عمر الخيام. وحاول ابو العلاء في كتاب الفصول والغايات[٥] ان يقلد القرآن ، مما عده المسلمون خرقاً فاضحاً لحرمة الدين . اما الطابع الفلسفي الغالب على هذا الديوان فطابع ابيقوري في الاساس . وفي الابيات التالية ما يشهد على انحرافه هذا ؛ قال :

ضحكنا ، وكان الضحك منا سفاهة وحق لابناء البسيطة ان يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك[٦]

جاءت احاديث، ان صحت فان لها شأناً ، ولكنّ فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً ، فالعقل خير مشير ضمّه النادي[٧]

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين، وآخر ديّن لا عقل له[٨]

وكان المعري واحداً من شعراء العرب القليلين الذين تخطوا حدود الزمان

---

١) المعري، الديوان: سقط الزند نشر شوكت شقير (بيروت، ١٨٨٤)، ص ٤ وما بعد .

٢) نشرها كامل كيلاني في مجلدين (القاهرة، ١٩٢٣).

٣) انظر Miguel Asin, *Islam and the Divine Comedy*; tr. H. Sunderland (London, 1926).

٤) او لزوم ما لا يلزم ، نشرها عزيز زند في مجلدين (القاهرة ، ١٨٩١ــ٩٥)؛ ونقل اقساماً منها ومن سقط الزند امين ف. ريحاني الى اللغة الانكليزية بعنوان : The Quatrains of abu'l-Ala' (London, 1904).

٥) نشرها محمود هـ. زناتي ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٣٨).

٦) ابو العلاء المعري ، رسائل ابي العلاء ، نشر مرغوليوث (اكسفورد، ١٨٩٨) ص ١٣١.

٧) اللزوميات، ج ١، ص ٣٩٤.

٨) اللزوميات ، ج ٢، ص ١٩١ .

والمكان، ليرتفعوا الى رحاب الانسانية العالمية . وقد احتفل بمرور الف عام على مولده سنة ١٩٤٤ في بيروت تحت رعاية رئيس الجمهورية اللبنانيـــة وفي دمشق واللاذقية ومعرة النعمان ، تحت رعاية المجمع العلمي العربي في الشام . وساهمت في هذه المهرجانات وفود من سورية ولبنان وشرقي الاردن والعراق ومصر ، واسهم بعض المستشرقين من اوروبا واميركا في كتابة الابحاث للمناسبة . وقد وصف المهرجان في دمشق بانه اعظم احتفال شهدته المدينة في تاريخها الادبي[١]. وبهذه المناسبة عمد اولو الامر الى ترميم مدفنه وحوله الى مزار عام .

الدروز

نشأت على يد الحاكم بامره (٩٩٦ — ١٠٢١) ملة جديـــدة في الاسلام هي الطائفة الدرزية . جاءها هذا الاسم من اسم داعٍ تركي من دعاة الباطنية[٢] هو محمد بن اسماعيل الدرزي (الخياط بالفارسية)، وكان اول من جهر بتقديس الخليفة المذكور[٣]. والجدير بالذكر ان المبدأ القائل بتجسد «مولانا» بصورة انسان، وان الحاكم بامره هو اهم مراحل هذا التجسد ومنتهى غايته ، انما هو من التعليم الدرزي في الاساس اما الانبياء فهم — نسبياً — اقل خطراً .

واذ لم يلقَ الدرزي في تعليمه اذناً صاغية بين المصريين ، رحـــل الى وادي التيم[٤] عند سفح جبل الشيخ في لبنان . فاستجاب له ابناء ذلك الريف الذين عرفوا بالشجاعة وحب الحرية، اذ كانت بعض الاراء الشيعية المتطرفة قد غشت اوساطهم[٥]. لكنه قتل ههنا سنة ١٠١٩ في بعض المعارك، فخلفه منافسه حمزة بن علي الملقب

---

١) المهرجان الالفي لابي العلاء المعري (دمشق ، ١٩٤٥ ص ٩) .

٢) اطلق اهل السنة هذا الاسم على من ذهبوا الى ان القرآن ينبغي ان يفسر تفسيراً مجازياً ، وان الحق انما يوقف عليه باكتشاف المعنى الباطن للنص ، وان الظاهر انما هو حجاب للباطن يراد به اخفاء الحق عن اعين من ليسوا له باهل ؛ وقد كان الاسماعيلية والقرامطة من الفرق الباطنية .

٣) ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٩ .

٤) الاسم مأخوذ من تيم الله (تيم اللات اصلاً) وهو اسم لقبيلة عربية كانت في منطقة الفرات حيث تنصرت ، ثم تحولت الى جنوبي لبنان ؛ الطبري، ج ١، ص ٢٤٨٩ — ٢٩٠ ، ٢٠٣١ .

٥) ابن تغري بردي، ج ٢، ق٢، ص ٧٠.

بالهادي، وهو الآخر احد الدعاة الفرس[١]. وعندما اغتيل الحاكم بامره، انكر الهادي وفاته، واشاع انه تحول الى «غيبة» مؤقتة، وانه من الواجب، بالتالي، ترقب «رجعته» المظفرة. وقد كتب بهاء الدين المقتنى (ت بعد ١٠٤٢)، المساعد الاول لحمزة في نشر الملة الجديدة، رسائل دعاوة بلغت حتى الهند والقسطنطينية، لكنه عمد بعدئذ الى تدبير جديد هو عدم السماح بافشاء اي جانب من جوانب هذا المذهب في غضون «غيبة» الحاكم بامره، وهو تدبير ربما املته رغبة الفئة القليلة في سلامة البقاء. ومنذ ذلك الحين «اقفل الباب». وحظر على اي كان الدخول الى الملة او الخروج منها. اما فكرة الامام الغائب، فكان قد قال بها قبل الدروز، جماعات من غلاة الشيعة في مقدمتهم الاسماعيلية.

وقد جمع بهاء الدين في «الرسالة المسيحية» بين شخصيتي حمزة والمسيح، وخاطب المسيحيين في رسائل اخرى وجهها اليهم «بالقديسين»، و«بجامع القديسين» راجياً ان يحملهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يضرب من الامثال ما هو من قبيل الوارد في العهد الجديد من الكتاب المقدس. وفي ذلك ما قد يشير الى سابق صلة له بالتعليم المسيحي[٢].

وقد اقدم حمزة، بالنيابة عن الحاكم بامره، على حل اتباعه من فرائض الاسلام الكبرى، ومنها الصوم والحج؛ وسن مكانها شرائع اوجب بها الصدق في القول، والعون المتبادل بين ابناء الملة، ونبذ العقائد الباطلة في جميع اشكالها، والخضوع التام للارادة الالهية. وقد اصبحت هذه القاعدة الاخيرة، المشتملة على عقيدة القضاء والقدر، عاملاً فعّالاً في التعليم الدرزي، كما كانت في مذهب اهل السنة في الاسلام. ومبدأ آخر مما تميزت به هذه الملة هو تناسخ الارواح. وكان هذا المبدأ قد ورد على الاسلام من مصدر هندي، فاضيفت اليه عناصر اخرى من الفلسفة الافلاطونية. ثم ان المعتزلة وكذلك الباطنية كانت قبل الحاكم بامره بزمن طويل، قد اقرت بضرب من تناسخ الارواح لا يزال عليه بعض متصوفة الفرس المعاصرين

---

١) ان كتاب ابن حجر العسقلاني، «رفع الاصر عن قضاة مصر» في «الكندي» نشر غوست، ص ٦١٢ يسميه الزوزني (من زوزن في شرقي فارس).

٢) انظر Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes*, (Paris, 1838), vol. i, p. 83, n. 1.

واعلام البهائية في الوقت الحاضر. اما العمل بالمبدأ الثاني الذي وضعه حمزة، والذي يوجب العون المتبادل، فقد جعل من الدروز جماعة شديدة التماسك مفرطة الانكماش، حتى لتكاد تبدو اقرب الى المنظمة الاخوية الدينية منها الى الملة المذهبية الدينية. والجماعة، مع ذلك، مقسومة الى طبقتين متمايزتين: العقّال والجهّال، وكتبهم المقدسة متاحة لفئة العقال القليلة العدد لا غير، وجميعها مخطوطة غير مطبوعة. وهم يعقدون اجتماعاتهم مساء كل خميس في خلوات قائمة على التلال خارج القرى.

وعندما حاول الدروز ان يوثقوا امرهم، ويثبتوا اقدامهم في جنوبي لبنان، نشب نزاع بينهم وبين جماعة اخرى هناك، كانت قد انحرفت عن الاسلام، هم النصيرية. وكان من نتيجة هذا النزاع، ان دفع هؤلاء الى شمالي سورية، حيث لا يزال موطنهم حتى اليوم. ولقد كان على الدروز ان يناضلوا غير هؤلاء من المجاورين. بعضهم من الشيعة والبعض من اهل السنة. ثم اخذوا في الانتشار، من موطنهم في جنوبي لبنان، الى منطقة الشوف، الى الشرق من مدينة بيروت، حيث اصابهم الصليبيون، وحيث ما زالوا مزدهرين الى اليوم. على انهم لم يتسنّ لهم الفلاح في مدينة ما. واول ذكر للدروز في المدونات الاوروبية ورد في رحلات بنيامين التودلي[١] (حوالي ١١٦٩)، وهم بعدُ في وادي التيم. على ان جماعات منهم هاجرت، على اثر المنازعات القبلية الدامية ما بين القيسية واليمنية، في مطلع القرن الثامن عشر، من الشوف الى حوران في سورية[٢]. وقد ارتفع معدل هذه الهجرة في القرن التاسع عشر، في اعقاب المضايقات الكثيرة في لبنان. ويبلغ عددهم الآن في حوران نحواً من تسعة وثمانين الفاً، في مقابل تسعة وسبعين الفاً في لبنان. ولقد اظهروا في جميع مراحل تاريخهم عزيمة حربية بالاعجاب، وكان لهم في الشؤون القومية العامة في لبنان وسورية من النفوذ ما يفوق نسبتهم العددية.

النصيرية

والنصيرية فرع آخر من الفروع الاسماعيلية الباقية. والراجح ان اسمهم متحدر

---

١) Vol. i, p. 61

٢) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

من محمد بن نصير الكوفي (زها في اواخر القرن التاسع) وهو احد مشايعي الحسن العسكري (ت ٨٧٤)[١]، الامام الحادي عشر من ايمة العلويين . وقد وردت اقدم اشارة هامة الى ابن نصير واتباعه في بعض اثار حمزة ، وغير حمزة من فقهاء الدروز السابقين . على ان آخر مؤسسي هذه الشيعة ، على ما في مدوناتهم ، هو حسين ابن حمدان الحصيبي (ت حوالي ٩٥٧)، وقد كان قبلاً مولى اسماعيلياً من موالي الحمدانيين في حلب[٢].

اما المعروف عن مذهبهم فليس بالشيء الكثير : انه مذهب سري الطابع كهنوتي النظام باطني التعليم . ومدوناتهم المقدسة لم يعرف عنها بمقدار ما عرف عن مدونات الدروز . فان الكثير من هذه قد كشف في اعقاب الفتن الاهلية التي نشبت في غضون القرن التاسع عشر . واذ وجدت هذه الملة نفسها جماعة صغيرة خارجة ، بين اكثرية معادية ، آثرت اللجوء الى العمل في الخفاء ؛ وهي الى الآن اللغز الديني الذي لم يحل حلاً كاملاً في الشرق الادنى .

وبعد، فالمعروف من امرهم هو هذا : ان النصيرية، شأن غلاة الشيعة ، يؤلهون علياً؛ وهو، في ما يرون، آخر مراحل التجسد الالهي واهمها[٣]. اما المتأخرون من اتباع هذه الملة فمنهم « التختجية » (الحطابون) في غربي الاناضول ، و « القزلباشية » (ذوو الرؤوس الحمراء) في شرقي الاناضول ، و « العلي الهية » في فارس وتركستان ؛ ولذلك يسمى النصيرية احياناً بالعلويين . وقد اشتهروا بهذا الاسم عندما حول الفرنسيون المنطقة التي تكتنف اللاذقية الى دويلة منفصلة سموها « العلويين ». لكنهم سُموا في تاريخ الصليبيين « النزري » (Nazarei). ويتمثل مذهب هذه الملة في اراء شيعية متطرفة نابتة في اصل وثني ؛ او هو، بتعبير آخر رواسب من ملل سورية وثنية مغلفة بغشاء من التعليم الشيعي المنحرف . وينبغي ان يكون اعلامها قد تحولوا من الوثنية الى المذهب الاسماعيلي بصورة

---

١) راجع ص ٥٥ وص ١١٩ من هذا الجزء . قابل ابو الفداء، التقويم، ص ٢٣٢، هامش٣ حيث يذكر ان المؤسس هو نصير احد موالي علي .

٢ انظر L. Massignon in *Actes du XVIII. Congrès international des Orientalistes* (*Leyden*, 1931), p. 212.

٣) الشهرستاني، ص ١٤٣ـ ٤٥ .

مباشرة[١]، ثم تبنّوا بعض الظواهر المسيحية السطحية . فهم مثلًا يحتفلون جماعياً لاداء بعض شعائرهم بما يشبه « القداس »، ويشاركون النصارى في عيد الميلاد[٢] وعيد القيامة، ويستخدمون اسماء انفرد بها النصارى نظير : متى ، وجبرائيل ، ويوحنا ، وهيلانة . اما طبقة الشيوخ التي تقابل « العقّال » في نظام الدروز فمنظمة في ثلاث مراتب كهنوتية ، وأما سائر الملة فتؤلف طبقة العاميين . والنصيرية يخالفون الدروز في انهم لا يتيحون للنساء الدخول في طبقة المكرسين . وهم يقيمون اجتماعاتهم ليلًا في اماكن خفية . ولقد اتهموا باتيان بعض المنكرات في مجتمعاتهم الليلية هذه ، ونسبوا الى عبادة اشياء غريبة ؛ وقد طالما اتهم بمثل ذلك سائر اصحاب المذاهب السرية[٣].

ويبلغ عدد النصيرية اليوم نحواً من اربع مئة الف ، اكثرهم من المزارعين . وهم يستوطنون المناطق الريفية في سورية الوسطى والشمالية ، وينتشرون متفرقين حتى كيليكيا التركية .

اضطهاد النصارى

كان النصارى واليهود على خير حال في ظل الحكم الفاطمي ، الا في عهد الحاكم بامره . ذلك لانه عاد فاجرى عليهم التدابير المذلة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكل قد فرضاها عليهم[٤]، ثم اضاف اليها فنوناً اخرى من الاذلال ، مع ان والدته ووزيره كانا من النصارى . فقد زاد سنة ١٠٠٩ على القيود السابقة المتعلقة بالملابس تمييزاً للذمي من المسلم ، فاوجب على النصارى ، متى دخلوا الحمامات العامة، ان يجعلوا في اعناقهم صلباناً زنة الواحد منها خمسة ارطال نحو كيلو غرامين على ان يرسلوها متدلية على صدورهم . ورتب على اليهود ، في مثل هذا الحال ، ان يجعلوا في اعناقهم اطاراً من الخشب بالوزن نفسه ، شدت اليه الاجراس المجلجلة[٥].

---

١) كتاب الاعتبار ، نشر حتي، ص ١٥٩ — ٦٠ ؛ سيد عربي سوري ، ص ١٩٠ .

٢) انظر R. Strothman in *Der Islam*, vol. xxvii, No. 3 (1946), p. 175-8.

٣) انظر : Conder, *Syrian Stone-Lore*, p. 423. n.

٤) راجع ص ١٠٠ — ١٠١، وص ١٦٧ من هذا الجزء .

٥) ابن خلكان ، ج ٣، ص٥ ؛ ١٩٥ ؛ سعيد بن البطريق ، ص ١٩٥ ؛ القريزي، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن حماد، ص ٥٤ .

وفي العام نفسه امر بهدم كنائس كثيرة كان من اهمها كنيسة السيدة في دمشق ، وكنيسة القيامة في القدس . وعمد ، تطبيقاً للنصوص القرآنية التي حرمت الخمرة ، الى الامر باقتلاع الكرمة ، وهي في مصر من مزروعات النصارى . اما من ابى الخضوع لهذا التدبير من اهل الذمة فقد خيره بين اعتناق الاسلام والرحيل الى بلاد الروم . والظاهر ان عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم — بعد النبي محمد بنحو اربع مئة سنة — كان مساوياً لعدد المواطنين من المسلمين ان لم يفقه . وبعد مضي عشرين سنة ، عمد ابن الحاكم وخلفه الملقب بالظاهر ، بموجب معاهدة عقدها مع امبراطور الروم ، الى اعادة بناء الكنائس التي هدمت ، ومنها كنيسة القيامة . ومع ذلك فان تهديم هذا الاثر من اثار المسيحية قد اسهم في اقدام الفرنجة ، على تجريد الحملات الصليبية على الارض المقدسة .

ان الحاكم بامره ، الازرق العينين ، تولى الخلافة وهو في الحادية عشرة ، وتوفي في السادسة والثلاثين ، ولم تخلُ سيرته من الغرائب . فقد انشأ معهداً للعلوم العالية في القاهرة ، ولم يمض عليه ثلاث سنوات حتى هدمه وبطش باساتذته . ووضع تشريعاً ضد الدعارة ، وحظر حتى ظهور النساء في شوارع القاهرة . ثم انه سن قوانين منع بموجبها المآدب وحفلات الطرب ، وحرم بعض الوان الطعام ، ولعب الشطرنج . وكان تصرفه الشخصي بحيث اتهمه مدونو الاخبار من خصوم الفاطميين بغرابة الاطوار[١] . على ان تفرد قديسي النصارى او دراويش المسلمين ، وفقراء الهنود في تصرفاتهم امر معروف في اخبار الشرق الادنى .

ولما كان خلفاء الحاكم بامره اشد رغبة في خفض العيش منهم في ادارة شؤون الدولة . فقد عجزوا عن توثيق الامن في مصر ، وصون سيادتهم على الامصار . ففي سنة ١٠٢٣ تمكن اعراب بني مرداس من احتلال حلب ، عاصمة سورية الشمالية . وسنة ١٠٧١ سقطت مدينة القدس ، وهي كبرى مدن سورية الجنوبية ، في ايدي السلاجقة ، وتبعتها بعد اربع سنوات مدينة دمشق[٢] . وما ان استرجعوا القدس سنة ١٠٩٨[٣] من الارتقيين ، عمال السلاجقة ، حتى خرجت في السنة التالية من يدهم ، لتقع في يد اعداء غرباء ، لم يكونوا في الحسبان ، هم الصليبيون .

---

١) ابن خلكان ؛ ج ٣ ، ص ٤ — ٧ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٥٩ — ٦١ ؛ ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٢ وما بعد ؛ السيوطي حسن المحاضرة ؛ ج ٢ ، ص ١٤ — ١٥ ؛ ابن القلانسي ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ٧٩ — ٨٠ ؛ المقريزي ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ — ٨٩ ؛ ابن حماد ص ٥٤—٥٥ .

٢) راجع ص ٢٠٤ وص ٢١٤ من هذا الجزء .

٣) بعض المصادر تجعل ذلك سنة ١٠٩٦ ، راجع بهذا الشأن : W. D. Stevenson, *The Crusaders in the East*. (Cambridge, 1905), p. 20.

الفصل الخامس والأربعون

تلاقي الشرق والغرب ـ الصليبيون

في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ القى البابا اوربانوس الثاني ، الفرنسي مولداً ، خطبة نارية في مدينـــة كلرمونت في جنوبي فرنسا ، حث فيها المؤمنين على سلوك الطريق الى كنيسة القيامة ، لانتزاعها من ايدي الغاصبين ، والاحتفاظ بها لانفسهم . ولعل هذه الخطبة ، باعتبار النتائج التي تخلفت عنها ، اشد الخطب في التاريخ وقعاً وابعدها اثراً . اذ تنادى الناس ، على الاثر ، بصيحة هي : «هكذا يريد الله» ، غدت بمثابة نفير تردد صداه في اوروبا من ادناها الى اقصاها ، وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كانما بعدوى نفسانية عجيبة .

تعدد البواعث وتشابكها

على ان هذه الاستجابة لم تكن بجملتها وليدة الدافـــع الديني الذي غذته الكنيسة ، بل كان هنالك ، فضلاً عن المتعبدين ، القواد العسكريون الطامعون بالاستيلاء على مناطق جديدة ، والتجار ـــ لاسيما تجار جنوى والبندقية وبيزا ـــ الذين كانوا اشد اهتماماً بالشؤون التجارية منهم بالامور الروحية ؛ ثم ارباب الخيال البعيد ، والنفوس المضطربة ، وعشاق المغامرات ، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد ابداً للانضمام الى كل حركة بارزة ؛ وكذلك المجرمون والخطأة الذين نشدوا الغفران بالحج الى الارض المقدسة التي وطئتها قدما المسيح ؛ ومثلهم من منوا بالشقاء الاقتصادي والاجتماعي ، فكان «حمل الصليب» راحة وتفرجاً لهمومهم اكثر منه تضحية[1].

وكانت هنالك عوامل اخرى ذات طابع عام ؛ فاختيار البابا لجنوبي فرنسا مكاناً لبدء دعوته لم يكن من قبيل المصادفة المحض . اذ كانت تلك البقعة من

---

١) للاستزادة من العلم عن احوال اوروبا راجع August C. Krey, *The First crusade* (*Princeton*, 1921), pp. 24-43.

القارة الاوروبية قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من اسبانية[١]، وكان المسلمون خلال اربعة قرون ونصف القرن يوالون الهجوم على مواطن المسيحية : اولاً عن طريق الامبراطورية البيزنطية ، وثانياً عن طريق اسبانيا وصقلية وايطاليا[٢]، وكان قد آن للمسيحية ان تبدي ردة ما . وفوق ذلك كله ، فان امبراطور الروم ، الكسيوس كومنينوس، كان قبل ان القى البابا اوربان خطبته المثيرة ، قد التمس العون منه على السلاجقة الذين اجتاحوا ممتلكاته الآسيوية حتى جوار القسطنطينية[٣]. دفعاً للغزو الاسلامي . ورأى البابا في هذا الالتماس فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٠٩ و ١٠٥٤، ولاقامة نفسه رئيساً اوحد للمسيحية .

الحملة الصليبية الاولى

وحتى ربيع عام ١٠٩٧، كان قد استجاب لنداء البابا نحو من ١٥٠ الف من الافرنج والنورمنديين ؛ وكان ملتقاهم المتفق عليه مدينة القسطنطينية ، فتقاطروا اليها وقد حملوا الصليب شارةً ، فعرفوا من ثم بالصليبيين . على هذا النحو دفعت الى الميدان الحملة الصليبية الاولى ؛ وكان طريقها الى الارض المقدسة يخترق آسية الصغرى ، وينتهي منها الى بلاد قلج ارسلان . وفي شهر حزيران من تلك السنة احتلوا نيقيا قاعدة السلاجقة، وفي التالي سقطت في يدهم مدينة دوريلا يوم (اسكي شهر حديثاً)[٤]. فاعاد هذا الفتح المظفر على امبراطور الروم القسم الاكبر من آسية الصغرى ، اذ كان قد حصل من جميع قواد الصليبيين تقريباً ، علــى تعهد بالولاء لرابطة العرق التي تجمع بينهم .

---

١) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء .

٢) راجع بشأن فتح الاغالبة لصقلية ، Hitti, *History of the Arabs*, pp. 602, 605, 617, 622.

٣) راجع ص ٢١٤ من هذا الجزء .

٤) انظر *Gesta Francorum et aliorum Hiero soly mita norum*, ed. Hein rich Hagemeyer (Heidelberg, 1890), pp. 197, 208 seq ; Fulcher *Historia Hierosolymitana*, ed. Hagemeyer (Heidelberg, 1913), p. 192 sep. ابن القــلانسي ، ص ١٣٤ للاستزادة من المراجع عن الصليبيين راجع Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), pp. 3-104.

الولاية اللاتينية الاولى : الرها

لكنْ، ما ان عبر قواد الحملات الصليبية جبال طورس ، حتى وقع الخلاف بينهم، واخذ كل منهم يضع خططه الخاصة للتوسع المحلي . فتحول بلدوين شرقاً — وهو احد قادة اللوثرنجيين القادمين من بلاد الرين — ودخل منطقة اهلها من النصارى ثم احتل الرها ، وهي آنذاك تحت حكم الارمن ، في اوائل سنة ١٠٩٨[١] . وهكذا نشأت الولاية اللاتينية الاولى — ولاية الرها — وجلس بلدوين اميراً على عرشها . وقد عمد هذا الامير — الذي غدا في ما بعد ملكاً على القدس — الى الزواج من اميرة ارمنية، واستقر في الشمال الى حين . اما تانكرد ، وهو احد قواد النورمنديين القادمين من جنوبي ايطاليا وصقلية ، فتحول غرباً ، ودخل كيليكيا ، وسكانها كذلك من الارمن ، بينهم جماعة من اليونان ؛ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها

على ان معظم الجيش الصليبي كان ، في هذه الاثناء ، يتدفق على سورية ، إذ كانت هدفه الاول . وكان يحكم سورية الشمالية ، كما ألمعنا سابقاً ، امراء من السلاجقة مستقلون عملياً ؛ فيما كان جنوبيها تابعاً للخلافة الفاطمية[٢] . وقد كانت البلاد بجملتها لسنوات كثيرة ، موضوع نزاع بين الاتراك السنيين والمصريين المتشيعين . وكانت اقسام اخرى منها في عهدة زعماء محليين من العرب . فطرابلس وجوارها مثلاً ، كانت منذ سنة ١٠٦٩ تحت سلطة بني عمّار ، وهم من الشيعة[٣] ؛ وشيزر في منطقة العاصي كانت منذ ١٠٨١ تحت حكم بني منقذ[٤] . ثم ان المنازعات المحلية ، والتحاسد الاخوي، ومشكلات الولاية السلالية، كانت قد ولّدت حالة مزمنة من الوضع القلق. اما اهل البلاد فقد كانوا بعيدين من تكوين جبهة موحدة ؛ وذلك لأن الفرق العديدة التي تفرّعت من الاسلام اخذت في اقتسام البلاد ؛ فاعتصم الدروز في جنوبي لبنان، واستوطن النصيرية في جبال سورية الشمالية ، واستقر الاسماعيلية ثم الحشّاشون الى

١) انظر Matthew of Edessa, *Chronique*, ed. E. Dulaurier (Paris, 1858) p. 218

٢) راجع ص ٢١١ و ٢١٢ من هذا الجزء .

٣) راجع : G. Wiet in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928) vol. ii, pp. 279-84 ؛
ابن تغري بردي ، ج ٢، ق ٢، ص ٢٦٧ .

٤) انظر الفصل التالي تحت شهادة اسامة .

الشرق من مواطن النصيرية[١]. وكان موارنة لبنان الشمالي، من بين نصارى لبنان، لا يزالون يتكلمون السريانية[٢].

الولاية اللاتينية الثانية : انطاكية

كانت انطاكية المدينة السورية الاولى في طريق الجيش الصليبي. وكان حاكمها اميراً سلجوقياً اسمه ياغي سيان[٣]؛ عينه عليها ملكشاه في بغداد، وهو الثالث من كبار ملوك السلاجقة (بعد طغرل وألب ارسلان) واذ كانت هذه المدينة مهداً للكنيسة المسيحية المنظمة الاولى[٤]، فقد كانت بالنسبة الى الصليبيين ذات خطر خاص. وكان حصارها طويل الأمد، شديد الوطأة، (من ٢ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨). وقـام رضوان صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق، بمحاولات يائسة لفك الحصار عنها، لكن الامداد التي ارسلت ردت على اعقابها[٥]. وكان القائد الصليبي الذي تولى هذه العمليات الحربية بوهمند نسيب تانكرد، وقائد الحملة النورمندية. وكان الاسطول الايطالي يسانده من البحر، في هذه المعركة، وفي ما تلاها من المعارك، وذلك بتوفير المؤن وآلات الحصار، لاستخدامها ضد المدن المحصنة القائمة على الساحل او قريباً منه. لكن خيانة صدرت من قائد ارمني ناقم، كان يتولى الدفاع عن احد ابراجها، أدت الى سقوط المدينة[٦].

وما كاد المحاصرون يدخلون المدينة، حتى وجدوا انفسهم محاصرين بدورهم. ذلك ان كربوقا، المغامر السلجوقي، كان قد انتزع الموصل من اعراب بني عقيل[٧]، فسار من عاصمته الى المكان بامداد وافرة. فكان ما قاساه الفرنج[٨] على اثر ذلك من

---

١) راجع ص ٢١٧ وص ٢٢٠ من هذا الجزء.

٢) راجع ص ١٤٠ من هذا الجزء.

٣) ورد هذا الاسم محرفاً في ابن الاثير، ج ١٠، ص ١٨٧؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ٢٢٠ ابن خلدون، ج ٥، ص ٢٠.

٤) اعمال الرسل، ١١ : ٢٦.

٥) راجع ص ٢٠٦ — ٢٠٨ من هذا الجزء.

٦) كمال الدين. *Recueil*, vol. iii, pp. 580 *seq.*؛ ابن القلانسي، ص ١٣٥.

٧) كان بنو عقيل تابعين للحمدانيين (راجع ص ١٩٣ وما بعدها من هذا الجزء) ثم حكموا بعدهم في الموصل.

٨) او الافرنج، وقد اطلقت منذ عهد الصليبيين على الاوربيين بلا تمييز.

الوباء والمجاعة مدة خمسة وعشرين يوماً من اشد ما سبق لهم ان عانوه[١]. ولم يعد بالامكان رفع حالتهم المعنوية وكسب الوقت الا باعجوبة. وقد تحققت هذه الاعجوبة باكتشاف «الحربة المقدسة» التي طعن بها جنب السيد المخلص وهو معلق على الصليب، اذ عثر عليها دفينة في احدى كنائس انطاكية. فاندفع الصليبيون على الاثر بجرأة بالغة، استطاعوا بها ان يردوا المحاصرين عن المدينة. وظل بوهمند، وهو أدهى قواد النصارى وامضاهم عزيمة، حاكماً على هذه الولاية الجديدة مضموماً اليها انطاكية وجوارها. وقد كان امبراطور الروم يأمل اعادة انطاكية اليه، لكنه مني بخيبة الامل. وكان اشد منه خيبةً ريمُند صاحب تولوز، زعيم اغنياء جنوبي فرنسا، وهو الذي تحقق الاكتشاف المدهش على يد رجاله، اذ كان يطمع بان تكون امارة انطاكية له. ويتصل هذا النضال من اجل انطاكية باسطورة اخرى تدور حول القديس جاورجيوس؛ وهو على ما في الاخبار المحلية، من اللد[٢]، قتل في عهد ديوكليتيان (٣٠٣)، فخفّ الآن لمساعدة الصليبيين المضنكين[٣].

الزحف على الساحل

دفع الكونت ريمُند جيوشه في اتجاه جنوبي، مضرماً النار في معرة النعمان، بلدة ابي العلاء، ومنزلاً الدمار بسكانها[٤]. ثم استأنف سيره في وادي العاصي، محتلًا في طريقه حصن الاكراد[٥]، ذي الموقع الحصين، المسيطر على الممرّ الخطير الذي يصل بين السهول الساحلية وسهول العاصي. لكن مدينة عرقة،

---

١) حتى انهم نبشوا جثث الحيوانات الميتة واكلوها؛ *William of Tyre*, vol. i p. 271; ابن القلانسي، ص ١٣٦.

٢) صالح ص ١٦؛ *William of Tyre*, vol. i, p. 332.

٣) لقد نقل النورمنديون هذه الاسطورة الى اوربا وغدا القديس جاورجيوس من ثم قديس انكلترا الحافظ. اما في الكنائس السورية، حيث اتصل اسمه بقتل تنين وانقاذ اميرة من الاسرة المالكة، فانه ينافس القديس سرجيوس في الشهرة (راجع الجزء الاول ص ٤٣٦) ولا يزال خليج بيروت، حيث قيل انه فتك بالوحش، يحمل اسمه فيعرف بخليج مار جرجس.

٤) ابن الاثير، ج ١٠، ص ١٩٠، واليه استند ابو الفداء، ج ٢، ص ٢٢١. قابل: *Gesta Francorum*, p. 387; Kamāl-al-Din in *Recueil*, vol. iii, pp. 586-7.

٥) يعرف اليوم بقلعة الحصن؛ وقد قامت على انقاض قلعة قديمة بناها احد امراء حمص سنة ١٠٣١ وجعل فيها جماعة من الاكراد.

مسقط رأس احد امبراطرة الرومان المتحدر من سلالة سورية[١] وهي آنئذٍ تابعة لامارة طرابلس — صمدت للحصار بفضل حصونها المنيعة ، وذلك من شهر شباط الى اواسط ايار . وكان غودفري دي بويون (عاصمة اللورين الادنى) ، اخو بولدوين ، قد انحدر بقواته جنوباً بمحاذاة الساحل وحاصر جبلة ، فالتقى الآن بريمند . لكنه نزولاً عند إلحاح رجاله بالاسراع نحو القدس — اذ كان صبرهم عنها قد نفد — ومراعاة لابن عمار امير طرابلس ، في مقابل ما كان ارسل اليه من الهدايا ، عمد الى رفع الحصار عنها . ولم تبدِ انطرطوس[٢] ، حيث بلغ الشاطئ ، اية مقاومة ، وغدا الاتصال بالاسطول الايطالي بعد الآن مستطاعاً ؛ فسارت الحملة من هنا على الطريق الساحلي ، وهو الطريق الذي سلكها قبله الاسكندر[٣] وسواه من الفاتحين . وقد عرج من اللاذقية لانها كانت بيد القوى البحرية البيزنطية التي كانت تعمل مستقلة عن الحملات اللاتينية [٤] . وعندما بلغ الصليبيون البترون اتصلوا بالموارنة ، وهم قوم اشداء ومقاتلون بواسل فأسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة ، لمعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الادلاء لهم[٥] . وجرى امير بيروت على الخطة التي انتهجها امير طرابلس ، فقدم لهم مالًا ومقداراً سخياً من المؤن[٦] . وبعد ان ضربوا خيامهم بضعة ايام في بساتين صيدا ، قرب المياه الجارية ، استأنفوا السير ، فبلغوا عكا في فترة لم تتجاوز ٢٤ ايار . والظاهر ان بعض المدن الكبرى فقط كانت مجهزة بالحاميات المدافعة ، ولذلك لم يتعرض الفرنجة للمواطنين ولا تعرض لهم المواطنون . فكان الزحف في ما يبدو اشبه شيء بنزهة . وبعد ان مروا بقيسارية وارسوف ، تحولوا نحو الداخل واجتازوا الرملة ، وفي السابع من حزيران وقفوا امام الهدف الذي كانت الحملة برمتها ترمي الى بلوغه ، وهو مدينة القدس .

احتلال القدس

كانت حملة الصليبيين آنئذٍ تبلغ نحواً من اربعين الف مقاتل نصفهم تقريباً من

---

١) راجع الجزء الاول ص ٣٨١ .

٢) هي طرطوسا في التاريخ اللاتيني ؛ انظر الفقرة عن بيبرس والصليبيين في هذا الفصل.

٣) راجع ص ٢٥٤ من الجزء الاول .

٤) Cahen, p. 222.

٥) انظر *William of Tyre*, vol, ii, p. 459; vol. i, p. 330; Ludolph von Suchem, p. 135.

٦) *William of Tyre*, vol. i, p. 331 .

الجنود النظاميين[١] . اما الحامية المصرية فتقدر بنحو الف وجل . وبعد حصار القاه على المدينة غودفري وريمند وتنكرد استمر شهراً من الزمان ، اطبقوا عليها (١٥ تموز) وفتكوا بأهلها على اختلاف السن والجنس ، بلا تمييز ولا مراعاة . وفي احد المصادر العربية[٢] ان عدد الضحايا بلغ نحواً من ٧٠ الفاً ، وقدره مصدر ارمني[٣] بـ ٦٥ الفاً ؛ ويذكر مصدر لاتيني ان النظر كان يقع على اكوام من الرؤوس والأيدي والاقدام في الطرق وفي الساحات العامة[٤] . وهكذا برزت الى الوجود دولة لاتينية ثالثة في سورية هي اهمها على الاطلاق ؛ تولى الحكم فيها غودفري الزعيم المندفع والمقاتل الباسل . وقد قيل انه امتنع عن ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب ، حيث حمل السيد المخلّص تاجاً من شوك ، واختار ان يلقب بـ « حامي القبر المقدس[٥] » .

على ان حكم غودفري كان قصير الامد ، فهو لم يتجاوز العام الواحد ؛ لكنه احرز في خلاله انتصاراً على الجيش المصري قرب عسقلان ، جعل مركز اللاتين في مدينة القدس اكثر حصانة واوفر أمناً . لكن هذا المرفأ ظل مركزاً للحامية الفاطمية ، وقاعدة لاسطولها[٦] اما مدينة يافا ، التي جاوزها الصليبيون بعد ان تركوها خراباً ، فقد احتلوها الآن ، واعطي فيها لابناء بيزا امتيازات خاصة . وتمّ احتلال مدينة حيفا بعدها بمساعدة اسطول البندقية[٧] . وكان تنكرد ، في الوقت نفسه ، يوغل في داخل البلاد نحو منطقة الاردن . ذلك لأن مركز القدس اللاتينية يظل معرّضاً للخطر ما لم يُستولَ على الاراضي الداخلية المجاورة ، وعلى المناطق الساحلية . وكانت بيسان الواقعة على الطريق بين المتوسط ومدينة دمشق ، من المدن الاولى التي كسبها . واما نابلس فقد خضعت بلا مقاومة . ولقد استقر تنكرد في طبرية

---

١) قابل « Annales de Terre Sainte », *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii (Paris 1884), pt. 2, p. 429; Raimundus de Agiles, « Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem », in Migne, *Patrologia Latina*, vol. clv, p. 657; *William of Tyre*, vol. i, p. 349.

٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٩٤ .

٣) *Matthew of Edessa*, p. 226.

٤) Agiles, p. 659; cf. *William of Tyre*, vol. i pp. 370-72.

٥) Agiles, p. 654.

٦) ابن ميسر ، اخبار مصر ، نشر هنري ملبي (القاهرة ، ١٩١٩) ، ص ٣٩ وما بعد .

٧) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

يعمل بامرة غود فري ، لكنه تخلى عن هذا الاقليم في آذار سنة ١١٠١ ليخلف عمه بوهمند حاكم انطاكية ، اذ كان هذا قد وقع اسيراً بيد قائد تركي في بعض المعارك التي جرت في شمالي البلاد .

بلدوين اول ملوك الصليبيين

ثم استدعي بلدوين اخو غود فري وأمير الرها ، وتوج ملكاً على هذه المنطقة يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ . اذ كان المؤسس الحقيقي للملكة اللاتينية . وكان همه الاول ان يخضع مدن الساحل ، فيؤمن المواصلات البحرية بالوطن الاول ، ويقطع الطريق على الاسطول الفاطمي واعماله العدائية . وقد وجد في ملّاحي الجمهوريات الايطالية حلفاء مندفعين ، لكنه الفاهم شديدي الطمع ، اذ اشترطوا الحصول على نصيب من الغنائم ، والاستيلاء على مناطق خاصة من المدن المحتلة ، تجعلها تابعة لتشريع جمهورياتهم ثم إعفاء البضائع التي يستوردونها ويبيعونها من كافه الرسوم[١] ، فيتمتعون بالامتيازات التي تمنح على اثر الخضوع والتسليم . وعلى ذلك فقد سقطت ارسوف وقيسارية سنة ١١٠١ بمساعدة اسطول جنوى ، ووافقتا على دفع الجزية بعد فترة الهدنة[٢]. وسقطت عكا ذات الاسوار الحصينة بعد ثلاث سنوات ، وذلك على اثر هجوم كاسح من بوارج بيزا وجنوى . وفي سنة ١١١٠ ضرب على بيروت حصار من البر والبحر استمر احد عشر اسبوعاً ، انتهى في ١٣ ايار بهجوم عليها قتل فيه كثيرون من سكانها . وقد أمدتهم غابات الصنوبر التي لا تزال في جوار المدينة بالخشب اللازم لبناء الابراج وقذف القذائف وتقويض الاسوار[٣] . وفي السنة نفسها سقطت صيدا بمساعدة اسطول نرويجي مؤلف من ستين بارجة[٤].

وقد عمل بلدوين على توسيع ممتلكاته جنوباً ايضا ، على امل الاستيلاء — ولو جزئياً — على تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندي . وبنى (١١١٥) جنوباً من البحر

١) انظر *William of Tyre*, vol. i pp. 434, 455 .

٢) انظر *Albert of Aix*, « Historia Hierosolymitanae expeditionis » *Migne*, vol. cixvi, p. 575.

٣) انظر W. B. Stevenson, *Crusaders*, pp. 58-9; *William of Tyre*, vol. i, pp. 484-5 ؛ ابن القلانسي ، ص ١٦٧ — ١٦٨ ؛ صالح ، ص ٢٨ — ٢٩ .

٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ — ٣٧ ؛ ابن القلانسي ، ص ١٧١ .

الميت، قلعة الشوبك [١] ، وذلك لحراسة طريق القوافل من دمشق الى مصر والحجاز. وسار خلفاؤه على خطته ، فشددوا قبضتهم على مقاليد الامور بانشاء الحصون في كل بلد استولوا عليه . وكانت قلعة الشوبك وحصن الكرك ، بحكم موقعهما ، امنع الحصون السبعة التي اقاموها في تلك المنطقة [٢]. وعندما مات بلدوين سنة ١١١٨، كانت مملكته قد بلغت اوج مجدها ، فكانت تمتد من العقبة الى بيروت. الا ان صور بقيت بيد المسلمين حتى سنة ١١٢٤ [٣]، وذلك بفضل قيامها على شبه جزيرة حصينة ؛ وكذلك عسقلان فقد بقيت بيدهم حتى سنة ١١٥٣ . اما من حيث الاتساع شرقاً فان المملكة لم تتجاوز وادي الاردن بعيداً .

التوسع في الشمال

وكذلك الاقاليم اللاتينية في الشمال ، فانها اخذت في التوسع . ذلك ان عين ريمند [٤] كانت على مدينة طرابلس منذ ان تخطاها في حملته الساحلية ، فعاد اليها بعد فتح القدس ، والقى عليها الحصار . وقد عمد سنة ١١٠٣ ، رغبةً منه في ان يعزلها تماماً عما حولها ، الى بناء قلعة [٥] – هي قلعة طرابلس – على تل مجاور يُعرف بِـ «تل الحجاج» ، ثم غدا هذا الموقع نواة لحي لاتيني . وطال امر الحصار على الرغم من الامدادات التي كانت تصل من الجبال المجاورة [٦]. وكان عدد سكان المدينة ٢٠ الفاً ، وكانت أهم صناعاتها صناعة الزجاج وصناعة الورق . وقد عمد ريمند بين الفينة والفينة الى مهاجمة بعض المدن المجاورة ، وقد تم له إخضاعها ، وكان ذلك في الغالب بمساعدة اسطول جنوى . وكانت «المرقب» الحد الشمالي لمنطقة طرابلس ،

---

١) سماها اللاتين Mons Regalis (الجبل الملكي) لكن نصوصاً قديمة تشير الى ان هذا الاسم اطلق على قلعة شبيهة الى الشمال الشرقي هي قلعة الكرك بنيت حوالي ١١٤٠ . ولفظة كرك العربية محرفة عن الارامية كرخا ومعناها «بلدة».

٢) للاستزادة عن هذه الحصون راجع Camille Enlart, *Les Monuments Croisées* 2 vols. (Paris, 1925-8).

٣) راجع ص ٢٠٧ و ٢٠٨ من هذا الجزء.

٤) لما كان يلقب بـ Saint-Gilles فقد دعاه العرب صنجيل او ابن صنجيل.

٥) ولقد رممها الاتراك واتخذوها سجناً ، ثم استخدمها الانكليز في الحرب العالمية الثانية مركزاً لقذف الطائرات المهاجمة.

٦) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٨٦ .

و «جبيل» حدها الجنوبي، اما طرابلس نفسها فلم تسقط حتى سنة ١١٠٤، اي بعد مضي اربع سنوات على وفاة ريمند. والظاهر ان المدينة كانت قد غدت، تحت حكم بني عمار، مركزاً للتعليم الشيعي، فكثرت فيها المدارس والمكاتب. لكن هذه المعالم زالت في اعقاب تلك الكوارث [١]. وكان المعري بين كبار الادباء الذين افادوا من مكتبة طرابلس.

ثم ان اللاذقية الى الشمال، سقطت بيد تانكرد سنة ١١٠٣ وكذلك سقطت افامية، بعد ذلك بثلاث سنوات. ثم الحقت كلتا المدينتين بولاية انطاكية، وقد كانت تضم بعض الاحيان اقساماً من كيليكيا.

ولدى وفاة بلدوين الثاني (١١١٨ — ٣١)، كانت المملكة اللاتينية مع اقطاعاتها قد اكتملت. فإن الدول اللاتينية الثلاث في الشمال — طرابلس، وانطاكية، والرها — كانت تدين بالولاء الاسمي لملك القدس. لقد كان الانتصار باهراً، ولا ريب في انه ألهم الفرنج بالثقة في النفس، وعمر صدورهم بالأمل في المستقبل. على ان الشيء الذي ارتقبوه لم يكن، بواقع الامر، براقاً الى هذا الحد. فباستثناء الشمال الاقصى والجنوب الاقصى، فان باقي المنطقة الوسطى لم يكن سوى ساحل ضيّق، وهو منطقة مسيحية صغيرة في متسع من البلاد الاسلامية مترامي الاطراف. ولم يكن بين مدنها ما يبعد عن العدو اكثر من مسيرة يوم واحد. اما المدن الداخلية نظير حلب[٢] وحماة وحمص وبعلبك[٣] ودمشق، فلم تقع بيد الفرنج، مع انها كانت هدفاً لغارات شنّت عليها بين الحين والحين. وقد اجبرت احياناً على دفع الجزية، شأن دمشق، إذ أدتها الى بلدوين الثاني سنة ١١٢٦[٤]. وكان سهل البقاع الخصيب تابعاً لهذه المدينة، وكان الافرنج قليلي العدد في ولاياتهم الخاصة. ولم يكونوا يوماً حتى في القدس وسواها من المدن المحتلة، اكثر من اقلية ضئيلة. ذلك ان كثيرين

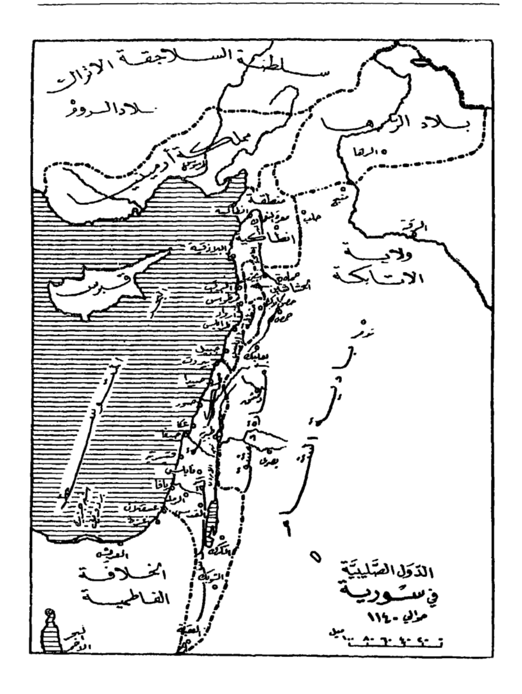
---

١) ابن القلانسي، ص ١٦٣: ابن الاثير، ج ١٠، ص ٣٣٣ — ٣٤؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، نشر جيمس جويت (شيكاغو، ١٩٠٧)، ص ١٧؛ *William of Tyre*, vol. i, pp. 477-8.

٢) انظر *William of Tyre*, vol. ii, p. 22.

٣) انظر *William of Tyre*, vol. ii, p. 413.

٤) في السنة التي بدأت في ايلول ١١٥٦ دفع حاكمها نور الدين ٨٠٠٠ دينار؛ ابن القلانسي، ص ٣٣٦.



منهم، بعد ان تحقق الاستيلاء على القدس، اعتبروا ان تعهدهم قد انجز، وعادوا ادراجهم إلى أوطانهم. ولا يخفى ان بقاء مثل هذه الدول الغريبة كان رهناً بوصول امدادات جديدة من الجندين بصورة متواصلة من الوطن الاول، وببقاء الاعداء مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة.

الردة الاسلامية على يد زنكي

بقيام اتابك زنكي (١١٢٧ — ١١٤٦) — التركي الازرق العينين — امير حلب والموصل[١]، أخذت بوادر التوحيد والزعامة في الظهور . وكان زنكي هو الاول بين عدد من الابطال ، تعاقبوا على مناجزة الصليبين . وكانت ضرباته المسددة هي اولى الضربات التي زعزعت الدول اللاتينية ، فرزحت تحتها في ما بعد . كانت حملته الاولى على الرها ، وهي الحصن الشمالي لهذه الدول . فقد ألقى حولها حصاراً سنة ١١٤٤ استمر اربعة أسابيع ، وانتهى بانتزاعها من يد جوسلين الثاني[٢]. فكانت اسبق الولايات الصليبية إلى الظهور اسبقها الى السقوط ؛ وكان سقوطها نذيراً بتحول مجرى الحوادث في مصلحة المسلمين . أما وقع الخبر في اوروبا فكان باعثاً على تجهيز ما يعرف بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ٤٩) .

على ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية الى عدد معين من الحملات ، لا يخلو من تكلف وافتعال ، لأن سيل الامدادات كاد يكون متواصلاً ، فالخط الفاصل بينها لا يبدو بجلاء . ولعل الاولى بنا ان نجعل هذه الحركة في ثلاث فترات ، الاولى تشمل عصر الفتح اللاتيني ، وتمتد الى سنة ١١٤٤ ؛ والثانية تضم عهد الردة الاسلامية ، التي استهلها زنكي واختتمها صلاح الدين بانتصاراته الباهرة ؛ والثالثة تجمع عهد الحروب الصغيرة ، التي رافقت بوجه عام ، القرن الثالث عشر ، وبرزت فيها بطولة الايوبيين والمماليك ، وانتهت باخراج باقي الصليبيين من البلاد .

نور الدين زنكي

لقد انتقلت بطولة القضية الاسلامية من زنكي الى ابنه نور الدين محمود . وقد كان نور الدين يفوق اباه مقدرة ، فتمكن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من احد خلفاء طغتكين[٣]، مزيلاً بذلك العقبة الاخيرة القائمة بين المنطقة الخاضعة لزنكي

---

١) راجع ص ٢٠٧ — ٢٠٨ من هذا الجزء .

٢) ابو شامة ، ج ١ ، ص ٣٦ — ٣٧ ؛ ابن الاثير في *Recueil* ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١١٨ وما بعد .

٣) راجع ص ٢٠٧ — ٢٠٨ من هذا الجزء ؛ ابن الاثير ، ج ١١ ص ١٣٠—٣١ .

ومدينة القدس . وقد كانت دمشق ، لسنين كثيرة ، حليفة فعلية للقدس[١] ؛ اما صرخد (صلخد) ، وبصرى ، وبانياس — التي كانت خاضعة للاسماعيلية — وغيرها من المدن في منطقة دمشق . فربما عمدت احياناً الى التماس العون من اللاتين لمواصلة كفاحها ضد المسلمين الآخرين[٢] . وكذلك بنو فضل المتحدرين من طي — ولعلهم اوسع القبائل سلطانا في بادية الشام — فانهم ربما حالفوا الافرنج آناً ، والفاطميين آناً آخر[٣] . وقد كان لدى اللاتين في القدس فرقة خفيفة من الفرسان عرفت بأبناء الاتراك[٤] ، كان جلها من المسلمين المدربين ؛ ثم فرقة من الارمن المشاة ، واخرى من النبالة الموارنة[٥] . وباستيلاء نور الدين على دمشق ، امتد سلطانه من الموصل الى حوران ، واخذ قرن « الهلال » يمتد جنوباً .

وكان نور الدين عالماً باحوال الفاطميين الواهنة ، فرغبةً منه في تحقيق الفائدة المرجوة من وضع القدس بين حجري رحى — من الشمال ومن الجنوب — بعث بقائد باسل من قواده ، هو اسد الدين شيركوه الى مصر . ففاز هذا سنة ١١٦٩ ، بعد انتصارات حققها في ميدان السياسة والقتال ، بتولي الوزارة للخليفة العاضد (١١٦٠ — ٧٠) ؛ لكنه قضى نحبه بعد شهرين من تقلد الوزارة ، فانتقلت شارتها من بعده الى ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب[٦] .

ظهور صلاح الدين

ولد الملك الناصر صلاح الدين يوسف في تكريت على نهر دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين . وبعد سنة من مولده انتقل بـه ابواه الى بعلبك ؛ وكان زنكي قد

---

١) ابن القلانسي (الذي كان يشغل في هذا الوقت مركزاً هاماً في حكومة دمشق) ، ص ٣٠٨— ٩ ؛ ابو شامة ، ج ١ ، ص ٧٧ ؛ *William of Tyre*, vol. ii, pp. 76-7, 105-6, 147-8, 224

٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٩ — ٩٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢ — ٣ .

٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٦ وما بعد ؛ A. S. Tritton in *Bulletin, School of Oriental and African Studies*, vol. xii (1948), p. 567.

٤) عماد الدين الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، نشر دي لاند برغ (ليدن ، ١٨٨٢) ، ص ٤٢٥ ؛ اسامة ، ص ٥١ .

٥) قابل Jacques de Vitry, *The History of Jerusalem*, tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 79 ; Dib, p. 94.

٦) ابو شامة ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ٦١ ؛ سبط بن الجوزي ، ص ١٧٥ .

عين اباه ايوب قائداً لحاميتها . وكان صلاح الدين ، فيما يبدو ، اكثر نزوعاً الى العلوم الدينية منه الى الشؤون العسكرية . ولذلك لم يرافق عمه في حملته على مصر سنة ١١٦٤ ، إلا بعد تردد وتمنع[١] . على ان هذه الرحلة كانت طليعة اتجاه جديد في حياته – اتجاه يرمي الى السعي وراء ثلاثة اهداف هي : احلال التعليم السني مكان التعليم الشيعي في مصر ، وتوحيد مصر وسورية تحت سلطة واحدة ، ثم مواصلة الجهاد ضد الافرنج . وقد كان الهدف الاول اسهلها تحقيقاً ؛ ذلك ان صلاح الدين عمد ، والخليفة العاضد مسجى على فراش الموت سنة ١١٧١ – وهو آنئذٍ وزيره – الى جعل اسم الخليفة العباسي المعاصر « المستضيء » في صلاة الجمعة مكان « العاضد » ، وعلى هذه الصورة كان ختام الخلافة الفاطمية . ومهما كان من غرابة هذا الامر وصعوبة تصديقه ، فواقع الامر ان التغيير الفوري هذا قد تم « ولم ينتطح فيه عنزان »[٢] ، وبه غدا صلاح الدين الحاكم الفرد في مصر . واما هدفه الثاني ، فقد حققه سنة ١١٧٤ ، عندما توفي سيده نور الدين حاكم سورية ؛ إذ تمكن ، بعد بضعة اشتباكات طفيفة ، من انتزاع سورية من ابن نور الدين ، اسماعيل وهو بعد في الحادية عشرة من عمره . وكان تحقيق الهدفين الاولين مما جعل الثالث في حكم المتوقع .

واذ كانت القيروان والحجاز متاخمتين لمصر ، فقد انضمتا فوراً اليها . واصبحتا جزءاً من الدولة السورية المصرية الناشئة . ثم الحق طوران شاه اخو صلاح الدين الاكبر بهذه الدولة النوبة واليمن . وفي سنة ١١٧٥ اسند الخليفة العباسي الى صلاح الدين ، بناء على طلبه الخاص ، السلطة على جميع هذه المناطق ، مانحاً بذلك ما لم يكن يملك فعلاً ، ولكن ما اتاح له ان يعتزّ بعدم رفضه . وكان الحاق العراق الاعلى ، باستثناء الموصل نفسه ، مما استكمل الوضع الجغرافي لهذه السلطنة[٤] . وهكذا فإن ما حلم به نور الدين من محاصرة الافرنج وسحقهم وقطع دابرهم ، بدأ يتحقق بما تمّ من جليل الاعمال على يد خلفه الذي فاقه مهارة .

---

١) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ : ابو شامة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ؛ ابو الفداء ج ٣ ، ص ٤٧ .

٢) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٤٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ؛ ص ٥٣ ؛ قابل : ابو شامة ج ١ ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

٣) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ – ٧٥ .

٤) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٣١٩ – ٢١ .

معركة حطين الفاصلة

واخيراً تفرغ صلاح الدين لتركيز قواه ضد الافرنج؛ ودقت ساعة الخطر المؤذنة بزوال المملكة اللاتينية، عندما سقطت طبرية، بعد حصار دام ستة ايام. وتحوّل من ثم جيش المسلمين نحو حطين[١] في جوار طبرية، وهنالك نشبت المعركة في الثالث والرابع من تموز سنة ١١٨٧. وكان الحر شديداً للغاية؛ وكان السير الطويل قد انهك جيوش الافرنج المدججين بالسلاح الثقيل، والعطش قد خبلهم. فأحاط بهم المسلمون بسلاحهم الخفيف، وامطروهم بوابل من النبال لم يسبق لهم ان تعرضوا لنظيره. ولم يسلم من العشرين الفاً، بين فارس[٢] وراجل، إلا من ارتدّ او لاذ بالفرار؛ اما الباقون فقد سقطوا في المعركة، او وقعوا في الاسر. وكان على رأس موكب الاسرى ملك القدس بذاته، غي ده لوسينيان. وقد استقبله السلطان الكبير الباسل بما يليق برتبته الرفيعة. لكن رفيقه رجينالد الشاتيوني، حاكم الكرك[٣]، عومل معاملة اخرى استحقها، ذلك لأنه عمد مراراً عديدة الى خرق الاتفاقات المعقودة، وهاجم الحجاج وقوافل التجار لدى مرورهم بحصنه، على الطريق الرئيسي، الى الجنوب من مدينة القدس؛ وقد كانت اخت السلطان مرة في احدى هذه القوافل. وكان رجنلد هذا مغامراً بمقدار ما كان اهوج، فكان يوالي التعديات على الساحلين النوبي والعربي، حتى انه انزل قواه على ارض الحجاز المقدسة، واتجه صوب المدينة. واذ غدا على مسيرة يوم او بعض يوم من المدينة المقدسة نفسها، صدته فرقة مصرية كانت قد نقلت الى هناك على جناح السرعة، في اسطول جهز بعجلة. وقد شاع انه كان ينوي نقل جثمان محمد الى الكرك، وفرض رسوم فادحة على حجاج المسلمين في مقابل مشاهدته[٤]. وكان صلاح الدين قد اقسم على ان ينحره

---

١) ترتفع قرون حطين ١٧٠٠ قدم فوق سطح بحر الجليل وهي فوهة بركان خامد. وفي الاخبار ان عظة السيد المسيح على الجبل انما كانت في هذا المكان.

٢) من الهيكليين والاسبتاريين؛ فالهيكليون دعوا كذلك لان مقامهم الاول كان قرب موقع هيكل سليمان، وقد نظموا حوالي ١١١٩ لتأمين الحجاج في طريقهم الى الارض المقدسة. اما الاسبتاريون او فرسان القديس يوحنا القدسي فقد تحدروا من مؤسسة سابقة كان هدفها اعداد المأوى للحجاج لكنهم تحولوا في ما بعد الى اغراض عسكرية. وقد تقيد الفريقان بالعهود الرهبانية.

٣) راجع ص ٢٣٠. في ما سبق من هذا الفصل.

٤) شاهد ابن جبير (ص ٥٨ — ٦٠) في الاسكندرية بقايا جيشه مشدودين الى الجمال يواجهون اذنابها وهم يقادون الى الاعدام على صوت الطبول. ابو الفداء؛ ج ٣، ص ٦٨ — ٦٩.

بيده ، وقد حان الوقت للبر بالقسم . ولم ينجهِ ، وهو اسير مكبَّل بالاصفاد ، ان شرب الماء في خيمة آسره ، بحكم التقليد العربي في امان الضيف ، لأن الماء طلب ولم يقدم . وارتعد غي اذ هوى صلاح الدين بالسيف على عنق اسيره ، لكن صلاح الدين ردّ الامان الى نفسه بقوله «ان الملك لا يقتل الملك[١]» .

كان القضاء ، في يوم حطين ، على جيش الافرنج ، وفيــه مفارز من الولايات الاخرى ، منذراً بمصير المملكة اللاتينية المحتوم . فبعد حصار دام اسبوعاً واحداً استسلمت القدس في الثاني من تشرين الاول . وكان الفرق جلياً بــين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج ، ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثمانٍ وثمانين سنة . فمن استطاع ان يؤدي الفدية عن نفسه فقد فعل ؛ وسمح للفقراء منهم بفرصة عشرين يوماً يجمعون خلالها مبلغاً يفتدون به نفوسهم ؛ وبيع الباقون عبيداً . أما الاراضي التي اخلاها الافرنج ، فقد ابتاعها الجنود والنصارى من المواطنين[٢]. واتجهت موجة الفتح بعد القدس نحو الحصون الباقية ، فجرفت في طريقها الشوبك والكرك الى الجنوب ، وقلعة كوكب[٣] والشقيف[٤] وصهيون الى الشمال . ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبلة واللاذقية جميعها قبل نهاية سنة ١١٨٩[٥] ؛ ولم يبقَ في يد الافرنج إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض المدن والحصون الصغيرة[٦].

عكا مركز النشاط الحربي

إن خروج المدينة المقدسة من يد الصليبيين أثار اوربا ، ودفعها إلى إعداد «حملة

---

١) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ٧٥ وما بعد ، وهو ينقل عن شاهد عيان ؛ ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٣٥٢ — ٥٥ ؛ بهاء الدين ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (القاهرة ، ١٣١٧) ، ص ٢٧ ، ٦٠ — ٦٥ ، عماد الدين الاصفهاني ، ص ٢٢ — ٢٨ ؛ Ernoul and Bernard le Tresorier, *Chronique*, ed. M. L. de Mas Latrie (Paris, 1871), pp. 172-4.

٢) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣١١ .

٣) حصن جديد بناه الصليبيون على الاردن الى الشمال من بيسان وكان اسمه التام «كوكب الهواء» .

٤) قائمة على صخر شاهق يعلو ١٥٠٠ قدم عن نهر الليطاني وكأنها عش نسر . وهي تسيطر على الممر الجبلي من دمشق الى صيدا واسمها التام شقيف ارنون (شقيف من لفظة سريانية معناها الصخر العظيم ؛ ارنون كذلك بمعنى السيل المندفع).

٥) المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة الملوك ، نشر مصطفى زيادة ، ج ١ ، ق ١ (القاهرة ١٩٣٤) ، ص ٩٩ — ١٠١ .

٦) ابن شداد ، ص ٦٥ وما بعد ؛ عماد الدين ، ص ١٣٦ وما بعد ؛ Ernoul and Bernard, pp. 179 seq. 251.

صليبية ثالثة » ، ساهم فيها اقوى الملوك في اوربا الغربية آنذاك وهم ثلاثة : فردريك باربا روسا ملك المانيا ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا ، وريكاردس الاول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد . وقد التقت الاسطورة بالتاريخ لتجعل من هذه المعركة التي تقابل فيها البطلان : ريكاردس وصلاح الدين ، حقبة من أروع الحقب وأشدها اثارة في تاريخ الغرب والشرق .

سلك ملك المانيا طريق البر ، لكنه غرق وهو يعبر نهراً في كيليكيا ، فاذرك الخور والتخاذل الكثيرين من اتباعه وعادوا أدراجهم . اما اللاتين المقيمون في سورية ، فقد ايقنوا ان مدينة عكا هي المفتاح لاستعادة الملك المفقود . وعليه فقد وجهوا نحوها جميع القوى المقاتلة ، سواء منها ما كان في حوزتهم ، وما تقاطر من اوربا على صورة إمدادات . وقد تولى قيادة هذه الحملة الملك غي ، مع انه كان قد اقسم بشرفه لصلاح الدين ، بعد معركة حطين ، انه لا يعود الى شهر السلاح في وجهه . لكنه سار نحو القدس والقى عليها الحصار . وعندها خف صلاح الدين لانقاذها وضرب خيامه في مقابل مخيم العدو .

وكان للافرنج على العرب افضلية اكيدة هي مؤازرة الاسطول ومعدات الحصار الحديثة . وقد استمرت العمليات الحربية سنتين (من ٢٧ آب ١١٨٩ الى ١٢ تموز ١١٩١) ، وتعتبر من اعظم المواقع التي دارت في تاريخ القرون الوسطى. عمد فيها صلاح الدين الى جماعة من الملاحين المسلمين في بيروت ، فألبسهم ملابس الافرنج ، وارسل معهم الخنازير ، وكلفهم بنقل المؤن بحراً الى المدينة المحاصرة[١]. وسجل فيها التاريخ اعمالاً من البطولة النادرة جرت في كلا المعسكرين ، منها ان نحاساً دمشقياً آثر نيل الاجر من الله على كسب مكافأة من السلطان لاحراقه ثلاثة من ابراج المحاصرين بمتفجرات ركبها هو لهذه الغاية[٢]. وكان ريكاردس قد استقدم من صقلية حجراً كبيراً من الصوان ليرميه بالمنجنيق ففعل وقتل به ، في ما يروي ، ثلاثة عشر من اهل عكا ؛ فحمل الى صلاح الدين كتحفة نادرة . وقد استعين بالسباحين والحمام الزاجل لتأمين الصلات بين صلاح الدين والمدينة المحاصرة . وحدث مرة ان احد السباحين غرق ، وكان يحمل مالاً ورسائل الى المحاصرين ، فقذفت الامواج

١) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ١٦٠ — ٦١ .
٢) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٢١ .

بجثمانه الى الشاطئ حيث تلقاه ابناء عكا، واخذوا ما كان يحمله من مال ورسائل . وقد أوحت هذه الحادثة لمدون سيرة صلاح الدين [١] ان يسجل : «فما رؤي من اخذ الامانة في حال حياته وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل» . واذ أخفق صلاح الدين في الحصول على نجدة من الخليفة ، اضطرت حامية المدينة الى الاستسلام .

وكان من شروط الاستسلام اعادة «الصليب الحقيقي» الذي انتهب في حطين، واخلاء سبيل الحامية ، في مقابل اداء ٢٠٠ الف قطعة من الذهب [٢] . واذ لم يدفع المال بعد مضي شهر أمر قلب الاسد بالألفين والسبع مئة اسير فقتلوا عن آخرهم [٣] .

وكان ريكاردس وجداني الخيال ، فاقترح على صلاح الدين ، حسماً للنزاع ، ان تزفّ اخت ريكاردس الى اخ صلاح الدين الاصغر ، الملك العادل ، وان تقدم عكا والقدس للعروسين هدية زفاف ؛ فيكون بذلك ختام النضال المسيحي الاسلامي [٤] . وفي ايار سنة ١١٩٢ قام ريكاردس بمنح الملك الكامل ابن الملك العادل رتبة الفروسية في احتفال رسمي مهيب ، وكان عمه صلاح الدين قد منح ، قبل ذلك بسنين عديدة ، هذه الرتبة السامية من رتب الفروسية المسيحية . وقد تبادل ريكاردس وصلاح الدين الهدايا لكن لم يقدر لهما ان يلتقيا . وفي ٢ أيلول من سنة ١١٩٢ تم الصلح بينهما على ان يكون الساحل من مدينة صور الى الجنوب تابعاً للاتين ، وان يبقى الداخل بيد المسلمين ، وان لا يعترض احد سبيل الحجاج الوافدين على القدس . وهكذا قسمت فلسطين ، وودع ريكاردس سورية ، وعاد ادراجه الى وطنه . وفي مستهل شهر آذار من العام التالي توفي صلاح الدين على اثر حمى اصابته، وله من العمر خمس وخمسون سنة . ولا يزال قبره القائم الى جانب المسجد الاموي من اجلّ المزارات في العاصمة السورية .

لم يكن صلاح الدين بطلاً من ابطال الحروب ، وعلما من اعلام اهل السنة فحسب ، بل كان — الى ذلك — من بناة النهضة العلمية وحماة اربابها . فقد أنشأ

---

١) ابن شداد ، ص ١٢٠ .

٢) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ عماد الدين ، ص ٣٥٧ ؛ ابن العبري ، ص ٣٨٦ — ٨٧ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٣ — ٨٤ .

٣) ابن شداد ، ص ١٦٤ — ٦٥ ؛ Benedict of Peterboroug, ed. W. Stubbs (London, 1867), vol. ii. p. 189.

٤) قابل : ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

المدارس ومعاهد البحث، وبنى المساجد في مصر وفي سورية . وكانت بطانته الخاصة تشتمل على الوزير الاديب، القاضي الفاضل[١]، والمؤرخ الانيق الاسلوب عماد الدين الاصفهاني[٢]، ثم كاتبه الخاص ومدوّن اخباره، بهاء الدين بن شداد[٣]. وقد وزع على اتباعه الكنوز التي وقعت في يده عند اكتساح الخلافة الفاطمية[٤]، ولم يترك لنفسه شيئاً منها. وكان من هذه النفائس حجر من الياقوت وزنه ابن الاثير بنفسه[٥] فاذا زنته ١٧ درهماً . وقد عرف هذا الحجر الثمين بالجبل وكان « يشرق في الليل كأنه المصباح » وقد كان في ما روي للسلاجقـــة ، وقبلهم في حوزة العباسيين، فسقط يوماً من الرشيد في نهر دجلة ؛ وقد سبق ان كان قبل ذلك عند الاكاسرة[٦].

اما املاك نور الدين فقد عفّ عنها صلاح الدين وتركها لابن الفقيد . وامـــا الارث الذي خلفه هو فقد بلغ سبعة واربعين درهماً . وقطعة واحدة من الذهب[٧]. لكن الذكرى التي خلفها لا تزال كنزاً يفوق كل تقدير في تراث الشرق العربي . ويتمتع صلاح الدين في اوربا بما يقرب مما يتمتع به في الشرق من ذكرى المروءة والبسالة . وقد الهمت ذكراه خيال الشعراء الانكليز ، وغذت خواطر الروائيين الحديثين[٨].

---

١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٠٩ وما بعد ؛ السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ، ١٣٢٤) ج ٤ ، ص ٢٥٣ — ٥٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ وما بعد ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١، ص ٢٧٠ . وقد اعتمد في مادة هذا الفصل على كتابه : « الفتح » .

٣) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٤٢٨ وما بعد . وقد اعتمد في هذا الفصل على كتابه : « السيرة » الى مدى بعيد .

٤) المقريزي ، ج ١ ، ص ٤١٤ — ١٦ ؛ ابن تغري بردي ، نشر پوپر ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٨٥ — ٨٦ .

٥) المجلد ١١ ، ص ٢٤٢ .

٦) ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٧٤ ؛ ج ١٠، ص ٢٦٦ ؛ المسعودي ، ج ٧ ، ص ٣٧٦ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٢ ، ١٦٤٧ .

٧) ابو الفداء ، ج ٨ ، ص ٩ .

٨) هنالك شاعر دمشقي عرف صلاح الدين معرفة شخصية هجاه بمرجه . وذكره كذلك ابن عنين في ديوانه ، نشر خليل مردم (دمشق ، ١٩٤٦) ، ص ٦ ، ٢١٠ — ٢١١ ؛ اما ابن الساعاتي وهو شاعر معاصر آخر فقد امتدحه بقصائد عديدة وحيا بطولته ، نشر الديوان انيس المقدسي ، (بيروت ، ١٩٣٨) ج ١ ، ص ١٩ — ٢١ .

بعد وفاة صلاح الدين

تبدأ بموت صلاح الدين، بطل الاسلام العظيم، الحقبة الثالثة في تاريخ الصليبيين، وهي فــترة من التفسخ والفتن استمرت قرناً من الزمان. ولم يكن الجمهور في اوربا، طيلة القرن الثالث عشر، ليلقي بالاً الى هذه الحروب، ولم يجهز منها ما هو شبيه بالحملة الصليبية الاولى، من حيث انها تخلفت عن دوافع دينية، الا حملات القديس لويس ملك فرنسا، وذلك في اواسط ذلك القرن. عــلى ان عدداً من الحملات الصليبية التي جهزت في هذا العصر قد وجهت الى مصر على امل ان تبلغ البحر الاحمر، وتساهم في النشاط التجاري العامر في المحيط الهندي، على افتراض ان احتلال دمياط او الاسكندرية – مثلاً – قــد يمكن من استبدال القدس باحداهما. وكان المسلمون، الى ذلك، قد فقدوا روح الجهاد، ولم تكن اضاعة الزعامة الموحدة والممتلكات الموحدة باقل خطورة. فقد انقسمت سورية بين ابني صلاح الدين، على ان الملك العادل اخو صلاح الدين احرز بعد ذلك بامد قصير، السيادة على مصر وعلى جزء كبير من سورية[1]. وقد حاول الملك العادل، طيلة عهد ولايته (١١٩٩ – ١٢١٨)، ان يحافظ عــلى الصلات الودية مع الافرنج. وكان هدف هذه السياسة تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الايطاليين.

وقد نشأت بعد العادل اسر ايوبية عديــدة تولت الحكم في مصر ودمشق والعراق، وظهرت منها فروع اخرى في حمص وحمــاة واليمن[2]. وفي خلال الاضطرابات التي نشبت ما بين فروع هذه السلالة، اخذت المدن التي احتلها صلاح الدين، نظير بيروت وصفد وطبرية، بل والقدس (١٢٢٩)، تعود تباعاً الى ايدي الافرنج. فقد تخلى الملك الكامل ابن العادل عن القدس لفردريك الثاني ملك صقلية، بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تعهد بها فردريك ان يقدم العون للكامل على اعدائــه، وجلهم من الايوبيين[3]. لكن الملك الصالح، نجم الدين ابن اخي الكامل، عمد سنة ١٢٤٤ الى استخدام مفرزة من اتراك خوارزم، الذين اخرجهم

١) انظر الفصل السابع والاربعين الصفحة الاولى.

٢) انظر جداول انساب الايوبيين في الفصل السابع والاربعين.

٣) ابو الفداء، ج ٣، ص ١٤٨؛ ابن الاثير، ج ١٢، ص ٣١٥.

جنكيز خان من موطنهم في آسيا الوسطى ، ليعيد المدينة الى حوزة الاسلام . على ان الافرنج لم يكن بوسعهم ان يستغلوا هذا التفسخ ، لان الشقاق كان قد دب ايضاً في صفوفهم ، فاشتدت المنافسة بين اهل جنوى منهم واهل البندقية ، واستحكم التحاسد بين الفرسان الهيكليين والفرسان الاسبتاريين ، فنشب النزاع بين زعمائهم ؛ ولم يكن حصول احد الجانبين ، في هذه الخصومات ، على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر ، باغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى ، ضد مسلمين آخرين[١] .

القديس لويس

كان الحدث البارز في اواسط القرن الثالث عشر قدوم لويس ملك فرنسا ، قائداً «للحملة الصليبية السادسة» (وهي الاولى الموجهة ضد مصر) . وقد قضى اربع سنوات في سورية (١٢٥٠ – ١٢٥٤) حصّن في أثنائها يافا وقيسارية وعكا وصيدا[٢] . وخرائب الحصن الذي اتخذه مركزاً في صيدا ، وقام الفرسان الهيكليون على حمايته ، لا تزال قائمة الى اليوم . وكان لويس ، بالنسبة الى سائر قواد الصليبيين ، اطهرهم قلباً واسماهم خلقاً – بل لقد كان له شخصية القديس الحقيقي[٢].

بيبرس قائد المقاومة ضد الصليبيين

على ان خطراً جديداً مداهماً اخذ ينذر بسوء العاقبة من الشرق : هو غزو التتر . فقد كانت قبائل المغول تجتاح شمالي سورية وتتقدم جنوباً . وكان الايوبيون في الوقت نفسه ، يتراجعون امام المماليك[٣]. وكان رابع هؤلاء الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ٧٧) ، وقد جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سددوا الى سورية اللاتينية الضربات القاضية الاخيرة ، وقضوا تماماً على مملكة كيليكيا الارمنية . ولقد فاز بيبرس بايقاف زحف المغول الاول في فلسطين[٤] ، واسترجع

---

١) راجع القطعة عن ردة المسلمين على يد زنكي في هذا الفصل .

٢) Joinville, §§ 406-595.

٣) انظر الفصل السابع والاربعين حول المماليك بعد الايوبيين .

٤) انظر الفصل السابع والاربعين حول الفتح المغولي .

ما اخضعوه من سورية، وأعاد توحيد مصر وسورية؛ وغدا من ثم قادراً على مواصلة الحرب المقدسة. وعليه فقد شنّ بين سنتي ١٢٦٣ و ١٢٧١ غارات سنوية على معاقل الافرنج حتى عنت له تباعاً. ومع ان الفرسان الهيكليين والاسبتاريين كانوا معتصمين في حصون منيعة، كانت للدول اللاتينية بمثابة المتراس، فقد عجزوا عن الصمود لضرباته المتتالية. ففي سنة ١٢٦٣ احتل بيبرس الكرك، وهدم كنيسة الناصرة الجليلة: وبعد ذلك بسنتين ظفر بقيسارية على أثر هجوم مفاجئ. وبعد حصار دام اربعين يوماً تسلم ارصوف من يد الفرسان الاسبتاريين[1]. وفي سنة ١٢٦٦ القت صفد السلاح وأبيدت غدراً حاميتها التي بلغت الالفين عدداً بعد ان منحوا الأمان[2]. ولا تزال أسوار المدينة تحمل العبارة المنقوشة: «اسكندر زمانه وعماد دينه». وعلى الجسر الذي بناه عبر الاردن كتابة نقش على كل من جانبيها رسم أسد. وفي سنة ١٢٦٨ سقطت يافا واستسلمت شقيف ارنون. وأهم من ذلك كله ان انطاكية نفسها القت سلاحها. وقد سقط من حامية انطاكية وسكانها ١٦ الف تحت حد السيف، ووقع ١٠٠ الف منهم — على ما في الرواية — في الاسر؛ فبيع الصبي منهم باثني عشر درهماً، والبنت بخمسة دراهم. اما المدينة نفسها بقلعتها القديمة وكنائسها الشهيرة، فقد جعلت طعاماً للنار. وهي ضربة لم تصحُ منها انطاكية حتى الآن[3].

سقطت انطاكية، وهي الدولة اللاتينية الثانية التي برزت الى الوجود، فكان سقوطها هادماً لمعنويات اللاتين. وعليه فقد سارعوا الى إخلاء عدد من الحصون الصغرى. وفي سنة ١٢٧١ استسلم حصن الاكراد المنيع، بعد حصار قصير (من ٢٤ اذار الى ٨ نيسان)، وهو الحصن الخلفي الرئيسي للفرسان الاسبتاريين، وأروع ما خلفته لنا العصور الوسطى من الحصون. وقد كان هذا الحصن تابعاً لحاكم طرابلس. وكان يتسع لألفين من الجنود في آن واحد. وقد حمى لسنين عديدة الممر الذي يصل ساحل لبنان الشمالي بسورية، كما حرست قلعة الشقيف الممر الجنوبي. وكان

---

١) ابن الفرات، التاريخ، نشر قسطنطين زريق، ج ٧، (بيروت، ١٩٤٢)، ص ٨٢.

٢) المقريزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ترجمة كاترمير (باريس، ١٨٥٤) ج ١، ق ٢ ص ٢٩ — ٣٠؛ ابو الفداء، ج ٤، ص ٣.

٣) ابن العبري، ص ٥٠٠، المقريزي، ترجمة كاترمير، ج ١ (ق ٢)، ص ٥٢ — ٥٤؛ ابو الفداء، ج ٤، ص ٤ — ٥.

حصن الاكراد في طليعة الحصون الجبلية التي بنيت لتسيطر على الممرات التي امتدت بين الاقاليم الاسلامية الداخلية والمناطق الافرنجية الساحلية . وكان من هذا النوع من الحصون : مصياف[1] والقدموس، والكهف، والخوابي ؛ وكانت جميعها بيد الحشاشين احلاف الاسبتاريين . وهذه الحصون — وأمنعها قلعة مصياف — تقع في منطقة النصيرية وقد قهرت في هذه الآونة ، فسارعت طرطوس[2] وهي حصن الهيكليين الرئيسي[3]، وقلعة المرقب ، وهي بيد الاسبتاريين، الى عقد الصلح . وهذان الحصنان الاخيران يمثلان طراز الحصون الساحلية التي اقيمت لتسيطر على الطريق البحري ، ولتحمي المرافئ من الاسطول المرابط في مصر . أما قلعة طرطوس فلم يبقَ منها شيء كثير، لكن المرقب لا تزال جاثمة وكأنها مدرعة على رابية . وقد احصى الادريسي[4] العالم الجغرافي الشهير ، الذي زار سورية قبل هذا الوقت بقليل، ما لا يقلّ عن ستين حصناً ما بين بيروت واللاذقية . وتشير الابحاث الحديثة الى ان المباني الحربية الصليبية ، في ظواهرها المسيحية والاسلامية ، انما تقوم على اساس من فن التحصين البيزنطي[5].

الحشاشون

هم فرقة اسماعيلية متجددة ، أسسها الحسن بن الصباح ، وجعل مقرّه الرئيسي، سنة ١٠٩٠ ، قلعة ألموت[6] في جبل ألبرز . اما اسمهم فمشتق من لفظة « حشيش[7] »

---

١) ورد الاسم كذلك : مَصْياف ، ومَصْياد ، ومَصيات ، ومَصياث ، راجع الموسوعة الاسلامية مادة مصياد ؛ اسامة ، ص ١٤٨ ، Dussaud, *et al.*, *Syrie antique* ; pl. 128, حيث لا يزال الاسماعيلية يقيمون ؛

٢) هي طرطوس الحديثة (واقعة في مقابل جزيرة ارادوس)، وهي في ياقوت طرطوس ، ج ٣ ص ٥٢٩ .

٣) اما حصنهم الداخلي الرئيسي فهو المعروف اليوم ببرج صافيتا وكان كنيسة الروم الارثوذكس.

٤) نشر كتابه غولد ميستر ، انظر ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

٥) Paul Deschamps, *le Crac des Chevaliers* (Paris, 1934), vol. I, pp. 43 *seq.* cf. T. E. Lawrence, *Crusader Castles* (London, 1936), vol. i, pp. 13-15.

٦) ترتفع القلعة كأنها عش النسر ولعل هذا معنى الاسم، وذلك على الطريق الوعرة بين شواطئ قزوين ومرتفعات ايران .

٧) عشبة تعرف بالهندية بـ « بهانغ » معربها بنج ، وقد ورد في المدونات البابلية ذكر عقار من قبيل الترياق « سالبُ العقل » يزيل الهموم .

العربية ، وهو عشب مخدّر كانوا — في ما يظن — يعمدون الى تخدير انفسهم بـه ، عند الاقدام على أعمالهم . وهذه الجماعة عبارة عن منظمة سرية يرئسها سيد كبير هو « داعي الدعاة » يليه جماعة من الزعماء هم « كبار الدعاة » ، ويلي هؤلاء « الدعاة العاملون » واخيراً جماعة « الفدائيين[1] » ، المستعدين ابداً لتنفيذ اوامر داعي الدعاة ، فهم لا يتحرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر ، نصارى كانوا او مسلمين ، حتى انهم اتخذوا الاغتيال فناً .

وحوالي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدخلون سورية من الشمال الغربي ، كان الحشاشون يدخلونها من الشمال الشرقي . وكان اول رجـل بارز انقاد اليهم واعتنق مذهبهم الامير السلجوقي رضوان[2] (ت ١١١٣) ؛ وأول معقل اتخذوه مدينة بانياس[3] . وفي غضون سنة ١١٤٠ استولوا على عدد من المعاقل في المنطقة الجبلية في شمالي سورية . وهو تدبير ساروا فيه على خطى انسبائهم الفرس . وكان اول ما وقع منها في ايديهم قدموس . وقد قدر وليم الصوري[4] عددهم بـ ٦٠ الفاً . اما الأوربيون فقد عرفوا داعي الدعاة بـ « شيخ الجبـل » ، وكان مقره في مصياف[5] . شغل هـذا المنصب الرفيع راشد الدين[6] سنان ، مدة ثلاثين سنة ، ابتداء من سنة ١١٦٢ ، ورجاله هم الذين قاموا بمحاولتين فاشلتين لاغتيال صلاح الدين[7] . فإن وزيراً دمشقياً كان قد اغرى راشد الدين بالمال من اجـل القيام بذلك ، وفاء منه لذكرى نور الدين الزنكي . وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف ، لكنه لم يتمكن من قهرها . واتجه اليه الظن بانه استخدم الحشاشين ضد كونراد مونتفرات ملك

١) قابل ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦٦ — ٦٧ .

٢) راجع ص ٢٠٦ من هذا الجزء .

٣) راجع ص ٢٣٤ من هذا الجزء .

٤) المجلد الثاني ، ص ٦٩١ ؛ قابل Burchard of Mount Zion, fr. Aubrey Stewart, (London, 1896), p. 105 حيث ورد ان عددهم كان ٤٠ الفاً .

٥) يذكر Benjamin of Tudela (ca. 1169), vol. I, p. 59 ، ان قاعدته كانت القدموس .

٦) راشد وليس رشيد ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٩ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

٧) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

القدس الاسمي . فقد اغتالته سنة ١١٩٢ عصابة تخفّت بزيّ النصارى[١] . وهنالك علم آخر من اعلام الافرنج يعزى قتله الى الحشاشين هو الكونت ريمند الثاني حاكم طرابلس (حوالي ١١٥٢) . وقد قام احد اشراف الافرنج بزيارة لخلف سنان في حصنه الجبلي ذي الابراج الشاهقة ، وكان يتولى حراستها جماعة من الحشاشين بالثياب البيضاء . ولدى اشارة من « الشيخ » عمد اثنان من الحرس الى الالقاء بنفسيهما من اعلى البرج الى الصخور فتمزقا شرّ ممزق[٢] . ومن هذا يتبين ان الباعث للحشاشين على الطاعة العمياء ، وتفانيهم في الاخلاص لسيدهم ، إنما كان الحمية الدينية ، لا العقاقير المخدرة .

وفي سنة ١١٧٢ ارسل « شيخ الجبل » وفداً الى ملك القدس للمفاوضة بشأن احتمال اعتناق اتباعه للنصرانية . وهو تدبير منسجم مع مبدإ التقية الذي يأخذ به غلاة الشيعة . على ان الفرسان الهيكليين ، حرصاً منهم على الجزية التي كان الحشاشون يؤدونها ، عمدوا الى قتل اعضاء الوفد[٣]. هذا في حين كان القديس لويس في عكا يستقبل وفداً من الحشاشين جاءه بهدايا منها أدوات للزينة ومنها حيوانات مصنوعة من الزجاج وشيء من العنبر ، وخاتم وقميص . وكان القميص يرمز الى ان لويس كان من راشد بمنزلة قميص راشد من جسده قرباً . فقابله لويس على هذه الهدايا بالمثل[٤] ، وتولى الترجمة بينهما اثنان من الفرسان كانا يحسنان العربية . والقول ان الحشاشين حاولوا اغتيال لويس قبل قيامه من فرنسا لم يثبت غير انه ليس من شك في ان نطاق نشاطهم كان قد بلغ شرقاً حتى منغوليا ، حيث حاولوا اغتيال احد كبار الخانات . وبقضاء بيبرس على المركز السوري الذي ظل زمناً يدسّ الدسائس ويوالي الاغتيالات ، تمّ له سحق الحشاشين في سورية الى الابد .

آخر المستعمرات الصليبية

إن النضال الذي بدأه بيبرس ضد الافرنج ، استأنفه من بعده بطل لا يقلّ عنه اندفاعاً وحمية هو قلاوون (١٢٧٩ — ٩٠)، الملقب عن جدارة بالملك المنصور . ففي

---

١) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٥١ ؛ Jacques de Vitry, pp. 116-17; Ambroise, pp. 334-5

٢) Marinus Sanuto, « Liber Secretorum », in Bongars, *Gesta Dei per Francos* (Hanau, 1611), vol. ii, p. 201.

٣) *William of Tyre*, vol. ii, pp. 392-4; Burchard, pp. 105-6.

٤) Joinville, pp. 250 *seq*.

١٥ نيسان سنة ١٢٨٢ جدد الهدنة التي كان بيبرس قد عقدها مع الفرسان الهيكليين في طرطوس، لعشر سنوات اخرى وعشرة اشهر. وبعد ثلاث سنوات عقد معاهدة مماثلة مع أميرة صور، وكانت بيروت في حوزتها[١]. وقد حاصر قلعة المرقب ثمانية وثلاثين يوماً استسلمت بعدها، وكان استسلامها في ٢٥ ايار سنة ١٢٨٥. ولا يزال عدد كبير من رؤوس النبال مغروساً ما بين الاحجار في اسوارها الخارجية. وكان المؤرخ الايوبي الامير ابو الفداء[٢] آنئذٍ ناشئاً في الثانية عشرة من عمره، وكانت هذه المناسبة هي المرة الاولى التي عرف بها الحرب. وقد سيقت حاميتها من فرسان الاسبتاريين مخفورة الى طرابلس[٣]. وكانت طرابلس اكبر مدينة لا تزال في يد الافرنج، فسقطت بعد ذلك باربع سنوات، ودكت معالمها الى الارض. وقد كانت الروائح النتنة المنبعثة من الجثث المتراكمة على الجزيرة القائمة خارج المرفإ، من القوة، بحيث لم يستطع ابو الفداء[٤] احتمالها. وأعيد بناء طرابلس بعد ذلك بعدّة سنوات ولكن ليس على موقعها الاول، بل على مسافة عدة اميال من البحر، حيث تقوم الآن. ثم ان عقلية «الأمان وراء الحصون المنيعة» التي اعتمدها الهيكليون، قد خانتهم، وكانت عكا الموقع الحربي الخطير الباقي بيد الافرنج. وفيما كان قلاوون يعدّ هجوماً عليها أدركته الوفاة، فتسلم الامر من بعده ابنه الاشرف (١٢٩٠–٩٣)، فسار نحوها؛ وبعد قتال دام اكثر من شهر، استخدم فيه ٩٢ منجنيقاً، انقض عليها في ١٨ ايار ١٢٩١ واحتلها. ولم يراعِ عهد الأمان الذي قطعه على نفسه للهيكليين، بل فتك بهم اشد الفتك. وقد كان ابو الفداء[٥] في عداد المحاصرين، أما المدينة فغدت بحكم الزائلة من الوجود[٦].

---

١) لقد حفظ المقريزي نص المعاهدتين ونشرهما كاترمير ج ٢ (ق ٣) ص ١٧٢ – ٧٦، ١٧٧–٧٨؛ قابل النص كما في ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٤ – ٦، ٢٦٢ – ٧٢.

٢) المجلد الرابع، ص ٢٢.

٣) ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧ – ١٨.

٤) المجلد الرابع، ص ٢٤؛ قابل ابن الفرات، ج ٨، ص ٨٠ – ٨١. ويشير الادريسي ص ١٨ الى وجود اربع جزر في مرفأ طرابلس، وما يرى منها اليوم لا يكاد يسمى بالجزر.

٥) المجلد الرابع، ص ٢٥ – ٢٦؛ المقريزي ترجمة كاترمير، ج ٢ (ق ٣) ص ١٢٥ – ٢٩.

٦) اعيد بناؤها في القرن الثامن عشر اما القلعة فقد جعلها الانكليز سجناً لكن الارهابيين الصهيونيين نسفوه في ايار ١٩٤٧.

ثم ان سقوط عكا قرر مصير المدن الساحلية القليلة الباقية . فاخليت صور في اليوم نفسه ، وصيدا في ١٤ تموز، واستسلمت بيروت في ٢١ تموز ، وانطرطوس في ٣ آب . وكان الهيكليون قد هجروا عثليث ، فهدمت في اواسط آب[١] . لكنهم صمدوا في جزيرة ارواد احـــدى عشرة سنة . ولا يزال ظاهراً فوق باب القلعة الخربة في هذه الجزيرة ، الشعار اللوسيني الحربي وهو اسد ونخلة . وبسقوط ارواد أسدل الستار على المشهد الاخير من فصل هو من اروع الفصول في تاريخ النضال بين الشرق والغرب .

---

١) صالح ، ص ٤٢ ؛ ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٢٦ ؛ Sanuto in Bongars, vol. ii, pp. 231 *seq.*

الفصل السادس والأربعون

التفاعل الحضاري

لقد ابدع الصليبيون حقاً في روائع الاحداث وغرائب الوقائع، الا انهم كانوا مدعاة لخيبة الامـــل في مآتي الفكر ومآثر الحضارة؛ فكانوا، من حيث فاعليتهم الحضارية، ابعـد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق. ذلك لأنهم فتحوا امام بصائر الاوربيين آفاقاً جديدة ــ صناعية وتجارية واستعمارية؛ فكانت الدول التي اقاموها في سورية من قبيل الممالك الاستعمارية الحديثة، وكان التاجر او الحاج آنئذٍ، في مقام الجندي المسرح اليوم ــ اداة فعالة في نقل الحضارة. على انهم تركوا في الشرق من النفور بين المسلمين والنصارى، ما هو باقي الاثر حتى اليوم.

تأثيرهم في الغرب : العلم والادب

كانت الحضارة الاسلامية في العصر الصليبي آخذة في الانحلال في الشرق، فقوة الابتكار كانت قد غدت اثراً بعد عين [1]، قبل ذلك بزمن يسير، وانوار العلم والادب والفلسفة قد خبت؛ هذا مع العلم بان الافرنج كانوا اصلاً دون الشرقيين حضارةً. فلقد حال العداء القومي والتعصب الديني، دون التفاعل الحضاري الطليق، بينهم وبين المسلمين؛ وخلقا جوًّا تعذرت فيه الاستجابة للمؤثرات. فلا غرابة إذن في اننا لا نعلم إلا بكتاب علمي واحد ذي خطر، نقل من العربية الى اللاتينية، في هذا العصر بطوله، هو كتاب المجوسي [2] «كامل الصناعة الطبية» المعروف بـ «الكتاب الملكي»؛ ترجمه سنة ١١٢٧ في انطاكية عالم من علماء بيزا اسمه اسطفان. ونقل بعده في انطاكية ايضاً (١٢٤٧) كتاب آخر اقـــل منه خطراً هو كتاب «سر الاسرار»، وهو رسالة منسوبة الى ارسطو في علم السحر احرزت شهرة واسعة

---

١) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء.

٢) اسمه الاول علي بن العباس توفي سنة ٩٩٤.

في اواخر العصر الوسيط . وغالب الظن ان تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بحوافز تسربت من الشرق الادنى ، فإذا عدد من المستشفيات ودور الصحة، لاسيا محاجر الامراض السارية[١]، يظهر في اوربا في القرن الثاني عشر، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الاوربية وليدة محاجر الجذام السورية .

وكان التأثير الادبي اضعف وأخفى ؛ فقد نقلت قصص يعود بعضها الى اصل فارسي او هندي ؛ فاذا هي ، كما وردت في « جستا روماتوروم » ومجموعات اخرى ، قد اجري فيها تبديل غريب . فقصة تشوسر : « سكويرز » (Squieres) لها سابقة في الف ليلة وليلة ، وكذلك قصة بوكاتشيو : « ديكاميرون » (Decameron) ، فإنها تشتمل على عدد من الحكايات ، نقلت شفاهاً من اصول تعود الى الشرق الادنى . اما اسطورة « الكأس المقدس » (Holy Grail) فقد احتفظت بعناصر لا شك في انها ذات اصل سوري .

الفنون الحربية

لقد تعلم الافرنج في سورية استخدام القوس المصلبة[٢]، وارتداء الدروع الثقيلة، يلبسها فرسانهم ويلبسونها خيولهم ؛ ومارسوا النقر على الطنبور والنقّارة في جوقة الجيش ، واستعانوا بالحمام الزاجل لنقل المعلومات العسكرية ، وعمدوا الى إرسال الاشارات ليلاً بايقاد النار[٣]؛ واقتبسوا كذلك عادة ايقاد المشاعل ابتهاجاً بالانتصارات . وقد عرفوا في الشرق مباريات البطولة بين الفرسان ؛ إذ ان نظام الفروسية بجملته نشأ على الارض السورية . وكان احتكاكهم بفرسان المسلمين مما اغراهم باتخاذ الاوسمة وشارات البطولة ؛ مثال ذلك ان النسر ذا الرأسين ، الذي تحدر من اصل سومري قديم ، فنقشه زنكي على النقود التي ضربها ، ثم اتخذه الارتقيون شارة مميزة لهم قد انتقل الى فرسان المائدة المستديرة وإلى المملكة البيزنطية ،

---

١) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء .

٢) انظر Ludolph von Suchem, p. 135.

٣) راجع : صالح ، ص ٦٠ — ٦١ ؛ الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، نشر رافيس (باريس، ١٨٩٤)، ص ١١٦ — ١١٧ ؛ القلقشندي ، ج ٨ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٤ ؛ العمري ، ص ١٩٦ — ١٩٧ ؛ قابل : السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢، ص ١٨٦ .

واتخذه اباطرة المانيا سنة ١٣٤٥ شارة لهم . وأخيراً وصل هــــذا الرمز من رموز البطولة الى الولايات المتحدة فاتخــــذت النسر شعاراً لها . اما زهرة الزنبق ، التي اشتهر امرها عند العيلاميين والاشوريين ، فأول من أثبتها من المسلمين شعاراً على الدروع نور الدين ابن زنكي ؛ وكثيراً ما تجدهـا على النقود التي ضربها الايوبيون والمماليك . ثم اقتبسها الافرنج ؛ ومنهم تسربت الى الفرنسيين ، وانتهت بعد ذلك الى كندا . وكان للوردة مكانتها لدى الايوبيين والمماليك ايضاً . وكان كثيرون من المماليك يتسمون باسم بعض الحيوانات ، ويجعلون صورها على دروعهم شعاراً . فاتخذ بيبرس رسم الاسد شارة[١]، وهذه لفظة ازور azure (من لازورد العربية) وسواها من اسماء الشارات ، تشهد للتأثير الراسخ الذي تركته الفروسية الاسلامية في النظام الافرنجي .

ان منظمة الفرسان الهيكليين، نظير زميلتها الاسبتارية ، كانت اقرب المنظمات الى مبدأ الجمع بين دوافع الحرب واهداف الدين — وهو المبدأ الذي سبق ان تحقق في الاسلام قديماً — وقد سارت في تصرفها على منهج شبيه بمنهج الحشاشين ، دون ان يقتضي ذلك افتراض صلة بين الفريقين . ففي ادنى مراتب المنظمة المسيحية كان : الاخوة العلمانيون ، والاسياد ، والفرسان ؛ في مقابل : اللصقاء ، والفدائيين ، والرفقاء في نظام الحشاشين . وكان الفارس يلبس معطفاً ابيض موسوماً بصليب احمر ؛ ويرتدي الرفيق معطفاً ابيض وقبعة حمـــراء ؛ وكانت الرتب العليا ثلاثاً ايضاً ، هي : المدبر ، والمدبر الاعظم ، والسيد الاعظم ، في مقابل : الداعي ، والداعي الكبير ، وشيخ الجبل[٢]. وكان هنالك منظمة سرية اخرى تعرف بالفتوة ، وهي المنظمة التي تجلت فيها روح الفروسية العربية . وقد عمل الناصر العباسي (١١٨٠ — ١٢٢٥) على اصلاح هـــذه المنظمة ورعايتها ، متأثراً — في الراجح — بالمنظمات الصليبية . وكان المبتدئ فيها يدعى ايضاً بالرفيق ، ويرتدي طرازاً خاصاً من السراويل ، وقد لبسه العادل اخو صلاح الدين ، وابن العادل ايضاً . وكان لهذه المنظمة في سورية فرع عامل عرف بالنبوية[٣].

---

١) انظر : L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry* (Oxford, 1933), pp. 7, 26, 107 .

٢) راجع ص ٢٤٥ — ٢٤٦ من هذا الجزء .

٣) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٢٦٨ ؛ الفخري ، ص ٤٣٤ ؛ ابن جبير ، ص ٢٨٠ .

هندسة البناء

ان ابرز ما خلفه الصليبيون من الآثار في سورية تلك الحصون العديدة التي لا تزال تتوّج روابيها ؛ وتجيء من بعد الحصون الكنائس . ولقد اعتمد الافرنج في بناء الكنائس الطراز الروماني والطراز القوطي، لكنهم اتخذوا لتزيينها الزخارف البيزنطية والسورية . وقد قلدوا كنيسة القيامة وقبة الصخرة في كثير من مبانيهم الكنسية لا سيا في ما اقيم منها على طراز « الهيكل المستدير » في انكلترة وفرنسا واسبانيا والمانيا . ثم تحول كثير من كنائس الصليبين ، بعد ذلك العهد ، الى مساجد ، منها الكاتدرائية العظمى المبنية باسم السيدة في صور ، حيث كان المؤرخ وليم الصوري[1] رئيساً للاساقفة (١١٧٥ — ٨٥) ؛ وكنيسة صيدا التي بناها الاسبتاريون ، فتحولت الى ما هو معروف بالجامع الكبير ، وكاتدرائية القديس يوحنا التي بناها الملك بلدوين[2] سنة ١١١٠ في بيروت ، فغدت بعدئذ الجامع العمري ؛ وكاتدرائية السيدة في انطرطوس وهي اجملهن واسلمهن من عاديات الزمن — وكانت منسكاً من مناسك الحج . شرع في بنائها سنة ١١٣٠ . وكانت تشتمل على صورة رسمها — في ما يظن — القديس لوقا ، وعلى مذبح اجرى عليه بطرس ، فيما قيل ، القداس الاحتفالي الاول[3]. ثم اضيفت الى هذا البناء مئذنة حديثة تقوم ولا شك على انقاض كنيسة سابقة . واخيراً كنيسة البلمند على مقربة من طرابلس، بناها رهبان الافرنج سنة ١١٥٧[4] وهي الآن دير للروم الارثوذكس.

الزراعة والصناعة

كان الحجاج يترددون على الاراضي المقدسة ، والتجار يرتادون شواطئ المتوسط الشرقية . قبل مجيء الصليبيين باجيال متطاولة . لكن الحركة الصليبية زادت في نشاط القوى العاملة ، وعممت في اوروبا منتجات الشرق الادنى، التي كان

---

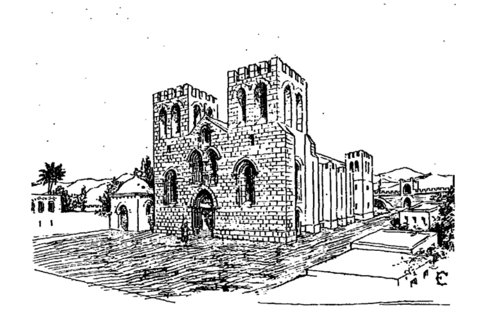
١) المجلد الثاني ، ص ٤١١ ؛ Enlart, vol. ii, pp. 353 *seq.*

٢) صالح، ص ٥٨ ؛ Enlart, vol. ii, pp. 69 *seq.*

٣) Joinville, § 597 ; Jacques de Vitry, pp. 20-21 ; Dussaud *et al.*, *Syrie Antique* pls. 117, 118 ; Enlart, vol. ii, pp. 403 *seq.*

٤) Enlart, vol. ii, pp. 45 *seq*

بعضها ولا بد معروفاً قبل ذلك. على ان الذي يزيد في صعوبة تعيين اصول الاشياء ومصادرها، ان سورية لم تكن الجسر الوحيد الجامع بين الشرق والغرب، بل



رسم ترميمي لكنيسة السيدة التي بناها الصليبيون في انطرطوس (المعروفة اليوم بطرطوس)

كان هنالك جسران آخران يؤمنان هذة الصلة، هما صقلية واسبانيا. لذلك كان من الصعب ان نعين بالضبط الطريق الذي سلكته السلع التجارية.

ففي اثناء اقامة الافرنج في سورية ألفت اذواقهم بعض المنتجات المحلية، وبعض حاصلات الاقليم الحار، التي كانت تملأ اسواق سورية في ذلك العهد؛ نذكر منها: السمسم والخروب[١] والذرة والارز والليمون والبطيخ والمشمش[٢] وبصل عسقلان[٣]؛ وكان المشمش يدعى احياناً بخوخ دمشق. وقد أختصت عاصمة سورية بالروائح العطرية وماء الورد؛ وغدت العطور، والزيوت الزكية الخفيفة الواردة من فارس، وبخور الجزيرة العربية، وصموغها الطيبة الشذا، وسوى ذلك

١) من اصل اشوري: راجع الجزء الاول ص ١٤٩ ح ٢.

٢) الاسم القديم برقروق، وهو من اصل لاتيني معناه النضيج الباكر.

٣) اسمه بالافرنجية مشتق من عسقلان فهو معروف بـ shallots, scallions

من التوابل والعطور والحلويات ، اثيرة عندهم ؛ وكذلك كبش القرنفل وما شابهه من العطور ، والفلفل ونظيره من التوابل ، والشبة وعود الند ، وكثير من العقاقير ؛ فانها تسربت الى مطابخ الاوربيين ومستودعاتهم في الشرق اولا ثم في الغرب . وقد تقبلوا بلا تردد غرائب المزاعم عن التوابل الغوالي ، التي تنشأ في الفردوس ، وتنحدر طافية على صفحة النيل ، فتنتشل عند مصبه[١]. وفي مصر اضاف الصليبيون الى الوان طعامهم الزنجبيل . واهم من هذه الاصناف جميعها السكر ؛ وكانوا قد عرفوا قصب السكر في سهول لبنان الساحلية . اذ كان تجار العرب قد استحضروه من الهند ، او من جنوبي شرقي آسيا ، حيث يظن انه كان ينمو بريًا . وكان الاوربيون ، الى ذلك الحين ، يستخدمون العسل لتحلية الطعام وتركيب الادوية . وكانت صور وجوارها – وهي موطن وليم[٢] (ت حوالي ١١٩٠) اعظم مؤرخي الصليبيين – حافلة بمزارع قصب السكر . وقد اقترنت بالسكر انواع عديدة من الشراب والحلويات والسكاكر . واول ما ظهرت نواعير الهواء في اوربا سنة ١١٨٠ ، وذلك في نورمنديا ، حيث دعيت «بالتركية» . ونواعير الماء في اوربا اقدم من نواعير الهواء ، لكن الذي ينتشر منها في جوار بايروت ، في المانيا ، قد بني على الطراز السوري . وكان هذا الاستنباط قد استخدم في سورية منذ العهد الروماني .

اما في ما يتصل بالازياء والملابس والرياش المنزلية ، فقد ارهفت كذلك رغائب جديدة ، ان لم نقل تولدت اذواق جديدة . فقد اقتنع الافرنج اخيراً بان الملابس الاهلية ، فضلًا عن الوان الطعام المحلي ، هي خير من ملابسهم ، فاخذ الرجال منهم في ارخاء لحاهم ، وارتداء الجبب الفضفاضة ، وستر رؤوسهم بالكوفية ؛ وعمدت النساء الى لبس الشفوف المطرزة بالسكة (سقع) ، والجلوس على الدواوين مصغيات الى الحان العود وانغام الرباب ؛ بل لقد عمدن الى اتخاذ الحجاب في المجتمعات العامة[٣]. وكان المحاربون والحجاج والملاحون والتجار ، يعودون الى اوطانهم حاملين السجاد والبسط والمزركشات ، وهي من ضروب الزخارف البيتية

١) انظر Joinville, § 104.

٢) المجلد الثاني ، ص ٦ ؛ Joinville, § 310

٣) ابن جبير ، ص ٣٣٣ .

التي كانت المنازل في الشرق الادنى تحف بها منذ عهد عريق في القدم . وقد غدا اقبالهم على المنسوجات ، نظير الاقمشة الدمشقية والموصلية والبغدادية [١] والشرقية ، وعلى الاطلس والتفتا [٢] والمخمل والحرير والساتان [٣] ، اشد منه في اي وقت مضى . وشاع استعمال الحلة وانواع الفراء ؛ وازداد الطلب على المجوهرات التي اشتهر امرها في دمشق والقاهرة ، حتى ليقال عن العادل اخي صلاح الدين انه كان يرشو بها زوجات الافرنج من اجل ان يحملن ازواجهن على الامتناع عن الحرب . وهكذا غدت الكماليات الشرقية ضروريات غربية . ثم ان المرايا الزجاجية حلت محل المعدنية ؛ وكان النصارى السوريون وبعدهم المتصوفة المسلمون ، قد اقتبسوا استخدام المسبحة في الصلاة وهي من اصل هندي ، قبل ان تقع في يد الرومان الكاثوليك . وكان الحجاج يرسلون الى اوطانهم بالصناديق المزخرفة المصنوعة محلياً ، كنماذج لارباب الصناعات من الاوربيين ، يصنعون على غرارها . ثم اخذت اراس ، وسواها من مراكز الصناعة الاوربية ، تقلــد ما في الشرق الادنى من صناعات الخزف والسجاد والانسجة . وقد رافق الاقمشة والمصنوعات المعدنية ما اتصل بها من الاصباغ لاسيما الالوان الجديدة نظير الليلكي والاحمر القرمزي . وقلدوا كذلك صناعات الخزف والذهب والفضة والميناء والزجاج الملون [٤] .

التجارة العالمية

بلغت حركة الملاحة والتجارة العالمية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من النشاط درجة لم تعرف منذ العهد الروماني . وكانت البوصلة ، التي يظن ان المسلمين اول من انتفع عملياً باستخدامها ، مما ساعد كثيراً في تسهيل شؤون الملاحة . وكان الصينيون قد اهتدوا قبل المسلمين الى سر الابرة المغناطيسية في اتخاذ اتجاه معين ؛ اما في اوربا فان الملاحين الايطاليين كانوا اسبق الامم الى استخدام البوصلة [٥] . وكان

---

١) هذه الاسماء الثلاثة قد خلدت اسماء المدن التي نسبت اليها : دمشق والموصل وبغداد .

٢) اللفظة العربية من اصل فارسي هو « تافته » .

٣) عرف بالزيتوني ، وهو تحريف لاسم المدينة الصينية التي اتى منها هذا الحرير في الاصل .

٤) انظر الفصل التالي : التجارة والصناعة .

٥) راجع جورج سارطن George Sarton, *Introduction to the History of Science*, vol. iii (Baltimore, 1947), pp. 714-15.

من تضخم سيل التجارة نشوء ضرورات جديدة، منها حاجة الحجاج والصليبيين الى النقد. وهذه الحاجة ساعدت على إنشاء ادارة مالية، وأدت الى زيادة كمية النقد، وارتفاع نسبة تداوله. وقد أنشئت مؤسسات في جمهوريات المدن الايطالية فتحت مكاتب فرعية لها في الشرق الادنى. ومست الحاجة كذلك الى تدبير مالي آخر هو فتح الاعتمادات المالية [1]. ولعل «الدينار البيزنطي العربي» (Byzantinius Sara-cenatus) الموسوم بكتابة عربية، اقـــدم ما سكّه اللاتين من النقود الذهبية. أما اقـــدم من أتى التاريخ على ذكرهم من القناصل، فأولئك الذين عينتهم جمهورية جنوى لها في مدينة عكا، وذلك سنة ١١٨٠. وقد كان هؤلاء القناصل يرئسون المحاكم الجنوية المحليـــة، ويصادقون على توقيعات العقود والوصايا والوثائق والصكوك، ويتثبتون من هوية الوافدين الجدد من مواطنيهم، ويحسمون الخلافات التي تنشب بينهم، ويعالجون — على العموم — شؤوناً هي من قبيل ما يعالجه قناصل الدول الغربية اليوم في الشرق الادنى.

الصلات الاجتماعية

ينبغي ان لا يغرب عن البال ان فترات السلم، في غضون العهد الصليبي، كانت اطول مدى من فـترات الحرب؛ فكان هنالك مجال واسع لنشوء روابط المودة وصلات المجاورة بين الشرقيين والغربيين. فالافرنجي، لدى زوال الحاجز اللغوي بينه وبين المواطن، قـد بان له ولا شك ان المسلم، بعد كل حساب، ليس ذلك الملحد الذي كان يتصوره، بل انه ذو صلة بالارث اليهودي المسيحي واليوناني الروماني الذي عرف به الاوروبيون. ان التاريخ ليحدثنا عن كثيرين من الصليبيين، نظير رجينالد الشاتيوني ووليم الصوري، ممن كانوا يتقنون العربية [2]، لكنه لا يشير الى عربي واحد تكلم الفرنسية او اللاتينية. فالتسامح وسعة الصدر وتقديم العـــامل المدني على كل اعتبار — مما ينجم عادة عن اختلاط ارباب العقائد المختلفة والحضارات المتباينة — قد كان في هـذه الحالة وليد المجتمع الغربي لا الشرقي، وفضلًا عن ذلك

---

١) عبر عنها «بالصك» ومنها لفظة تشك cheque الانكليزية، وقد استعيرت اللفظة العربية في القرن الثامن عشر في الهند.

٢) راجع ص ٢٤٧ من هذا الجزء.

فقد كان في البلاد المقدسة مزارات يكرمها النصارى والمسلمون واليهود على السواء. اما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، فقد كان النصارى والمسلمون يختلطون بلا حرج [١]، فكانوا يتاجرون بالخيل وكلاب الصيد وطيور القنص، ويتبادلون تأمين المصالح، بل ربما عمدوا الى التزاوج . وقد تحدر من بعض الامهات المواطنات ذرية جديدة عرفت بـ «البولاني [٢]» . ويكثر بين اللبنانيين والفلسطينيين اليوم، لاسيما في اهدن (لبنان) وبيت لحم، اصحاب العيون الزرقاء والشعر الاشقر . وقد بقي من تقاليد بعض الاسر ومن اسمائها ما يدل على اصلها الاوربي، نذكر منها : فرنجية (Frankish) وصليبي (Crusading) ودويهي (de Douai ?) وبردويل (Baldwin) [٣] وصوايا (Savoie) . ويصدق ذلك ايضاً على قريتي سنجيل (Saint Gilles) والرينه (Reynaud) في فلسطين .

شهادة اسامة

أثبت اسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١١٨) في مذكراته اوضح صورة لشاهد عيان عن اختلاط الشعوب المختلفة . وكان اسامة صديقاً لصلاح الدين، وقد دافع عن قصر شيزر — وهو قصر لأسرته قائم على ضفة العاصي — ضد الحشاشين والافرنج، فلم يقع يوماً في يد الصليبيين . ولقد كان اسامة وثيق الصلة بالافرنج في فترات السلم، لكنّ حرية الاختلاط الجنسي التي عاينها في اوساطهم قد بدت له في غاية الفظاعة، وغدوا في حكمه «خالين من الحمية والغيرة» [٤]، وقد وجد اساليبهم في معاقبة المجرمين بالماء او المبارزة [٥] في غاية الانحطاط، بالنسبة الى ما جرى عليه المسلمون آنذاك من اللجوء الى احكام القضاء المدني . وكذلك اساليبهم في معالجة المرض فقد كانت، إذا قورنت بتطبيب العرب، سقيمة للغاية . مثال ذلك ان احد الاطباء من النصارى المواطنين كان يتعهد مريضين، في عائلة افرنجية بالمنيطرة ؛ الى

---

١) ابن جبير : ص ٢٨٧ — ٨٨، ٢٩٨، ٣٠٢ : اسامة، الاعتبار، ص ١٣١، ١٣٤ .

٢) من لفظة : Poulains ومعناها الاحداث الصغار .

٣) انظر Marino Sanuto, *Secrets, for True Crusaders to Help Them to Recover the Holy Land*, tr. Aubrey Stewaut (London, 1896).

٤) الاعتبار، ص ١٣٥ .

٥) الاعتبار، ص ١٣٨ — ٣٩ .

ان استدعي طبيب اوربي ، فأمر بأن توضع الساق العليلة لاحد المريضين على خشبة ضخمة ، ثم اشار الى فارس ان يهوي عليها بفأسه . ففعل وقطعها بضربة واحدة . ثم تحوّل الى المريض الآخر — وهو امرأة — فأمر بأن يحلق رأسها ، ثم عمد اليه فجرحه جرحاً صليبياً عميقاً ، ودلك الجرح بالملح رجاء ان يطرد من رأسها الشيطان ، ففارق كلاهما الحياة في الحال . وقد ختم الطبيب المواطن الذي روى عنه اسامة هذه الحادثة بقوله : « فقلت لهم : أبقي لكم إليَّ حاجة ؟ فقالوا : لا ! . فجئت وقد تعلمت من طبّهم ما لم اكن أعرفه »[1] .

عواقب الحملات الصليبية على سورية

وعلى العموم ، فان عواقب الحملات الصليبية على سورية كانت مفجعة . فقد خشي المماليك من رجوع الافرنج ، اذ كان بعضهم قد تحوّل الى جزيرة قبرص . فعمدوا الى تخريب المرافئ[2] ؛ بعد ان كان الايوبيون قد هدموا عسقلان[3] . وكانت عكا ، بعد صور ، أشدّ المدن ازدهاراً في سورية الافرنجية ، وقد ألفاها ابن جبير[4] مدينة منقطعة النظير بحصونها ، فإذا ابو الفداء[5] يجدها ، بعد ذلك بقرن ، خراباً يباباً . ثم ان العناصر الاسلامية المنشقة ، من شيعة واسماعيلية ونصيرية — وكانوا على ما ذكر ابن جبير[6] اوفر عدداً من السنة — عمدوا في مناسبات عديدة الى نقض ولائهم بتقديم العون الى الافرنج فتعرّضوا الآن لفتك ذريع ولجأ من بقي منهم الى لبنان الاوسط والبقاع . وكان المملوك الاشرف قبل ذلك قد فرض على الدروز التقيّد بفرائض الاسلام اهل السنة ، لكن هذه المراعاة لم تدم طويلاً . وكان بيبرس قد اجبر النصيرية على بناء المساجد في قراهم ، لكنه لم يتمكن من حملهم على تأدية الصلاة

١) الاعتبار ، ص ١٣٢ — ٣٣ .

٢) راجع : ابو الفداء ، التقويم ، ص ٢٣٩ ؛ ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الامصار ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ٣٠ ؛ قابل : الادريسي ، ص ١١ .

٣) راجع ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

٤) راجع رحلته ص ٣٠٤ .

٥) التقويم ، ص ٢٤٣ .

٦) راجع رحلته ص ٢٨٠ .

فيها ؛ فبدلاً من ان تكون معابد للصلاة جعلوها زرائب للمواشي والدواب[١]. وقد عمد سلاطين المماليك، استئنافاً لسياسة التخريب ، الى تدمير لبنان تدميراً منظماً. وكانت حملة النـــاصر سنة ١٣٠٦ أشد الحملات فجيعة ، اذ اسفرت عن ابادة اهل كسروان إبادة تامة [٢]. فأحلّ الاكراد والتركمان في محل الشيعة من سكانها ثم انحدر الموارنة من الشمال ليملأوا باقي الفراغ . اما الدفاع عن بيروت ضد الغارات البحرية المتتابعة فقد اقاموا عليه اسرة من آل بحتر كانت قد وليت امارة الغرب ؛ والى هذه الاسرة ينتسب المؤرخ صالح بن يحيى [٣]. وأخذ لبنان ، من ثم ، يتحوّل عن الغرب الاوربي . وبقي على ذلك حتى مستهلّ العصر الحاضر . والواقع ان سورية بجملتها قد وعت، منذ ذلك الوقت، جميع العناصر الحضارية التي احرزتها حتى مستهل القرن التاسع عشر . وعندها اخذت موجة جديدة من الافكار الاوربية والعناصر الحضارية تتكسّر على شطآنها .

ولم يكن ما قاساه النصارى المواطنون ، اقلّ مما تحمّله المسلمون المنشقّون . فقد أحدثت تدابير اذكت العداء بين النصارى السوريين وجيرانهم المسلمين ، حتى بلغ من الشدّة حدّاً لم يبلغه من قبل ، بل هو الى الآن لم يخمد تماماً . فقد تخوّف حكام القدس المسلمون من التأييد الذي أبداه نصارى الرها وانطاكية للصليبيين ، فعمدوا الى ابتزاز «جميع الاموال والسلع التي كانت في حوزة النصارى» [٤] من اهل هذه المدينة، وعملوا على تشريدهم باستثناء العاجزين والمرضى والنساء والاطفال. وعندما دخل الصليبيون المدينة لم يجدوا الا القليلين منهم في قيد الحياة . وقد منح اللاتينُ موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لابناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية[٥]، لكن الوفاً منهم هاجروا ، بعد استيلاء صلاح الدين على بيروت سنة ١١٩١، الى قبرص حيث لا يزال من ذريتهم نحو الفين من المواطنين .

---

١) ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

٢) صالح ، ص ١٣٦. الروايات المحلية تعيد هذا الاسم الى اسم قائد من المردة؛ شدياق، ص ٢١٠.

٣) ص ٦٣ من مؤلفه .

٤) وليم الصوري *William of Tyre*, vol. i, p. 334 .

٥) راجع ص ١٤٠ من هذا الجزء : وانظر ديب : ج ١، ص ١٨٦ — ٩٠ .

ثم ان روح الجهاد الذي اثاره المماليك على الصليبيين اخذوا الآن يسددونه ضد القبط ونصارى سورية. فقد أصدر قلاوون (١٢٧٩ — ٩٠) في اواخر عهده مراسيم تحرّم على النصارى من رعاياه تولي الوظائف الحكومية. وأعاد السلطان الناصر في سنة ١٣٠١ تطبيق التدابير القديمة بحقّ اهل الذمة — تلك التدابير التي اوجبت على النصارى واليهود ان يرتدوا ملابس خاصة يُعرفون بها، وان يمتنعوا من ركوب الخيل والبغال.[٢] وجرى السلطان الصالح على مثل ذلك سنة ١٣٥٤.[٣] بل ان الناصر قد فعل اكثر من ذلك، فأمر بإلغاء عيد قومي من اعياد القبط[٤]، وأقفل الكثير من كنائس النصارى في مصر. وهذه الموجة العاطفية العارمة، الموجهة ضد النصارى، تنعكس بجلاء في ادب العصر، فإذا الاحاديث والفتاوي والخطب المثيرة تلهب الجماهير، ومؤلفات الفقيه السوري ابن تيمية (١٢٦٣ — ١٣٢٨) تزخر بروح العصر الرجعية[٥]. وابن تيمية هذا وُلد في حرّان، وكان من اخلص اتباع ابن حنبل وأشدهم اندفاعاً وراءه. زها في دمشق، وفيها رفع صوته مسفّهاً عبادة القديسين، وتقديم النذور، والتردد على المزارات. وقد انتصر لمبادئه هذه، في ما بعد، الوهابيون الذين يبسطون اليوم سلطانهم على الحياة السياسية والدينية في نجد والحجاز. ويستطيع الزائرون اليوم ان يروا مدفنه، وكذلك مدفن ابن عساكر، في باحة الجامعة السورية.

وازدهر نوع آخر من الادب يسوغ اعتباره «دعـــاية مضادة» ادب يطري فضائل القدس، ويوصي الحجاج بزيارتها، ويؤكد ان النبي قد ذكر ان تأدية الصلاة في مسجدها خير ألف مرة من تأديتها في اي مسجد آخر، إلا مسجدي مكة والمدينة. بل ان خطيباً من خطباء المسجد الاموي في دمشق، هو ابن الفركاح (ت ١٣٢٩)[٦]،

---

١) انظر بشأنه الفصل التالي: الفتح المغولي.

٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

٣) القلقشندي، ج ١٣، ص ٣٧٧ — ٨١؛ ابن تغري بردي، نشر بوبر، ج ٥، ص ١٣٣.

٤) المقريزي، ج ١، ص ٦٩.

٥) راجع الكتبي، ج ١، ص ٤٨ — ٤٩: Henri Laoust, *Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimiya* (Cairo, 1939) pp. 634-9.

٦) «باعث النفوس لزيارة القدس المحروس». وقد كتب ابن الجوزي (ت ١٢٠٠) البغدادي رسالة «فضائل القدس» وصفهـــا فيليب حتي ونبيه فارس وبطرس عبد الملك في فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون (برنستون، ١٩٣٨) تحت رقم ٥٨٦.

أيد هذا الاتجاه كل التأييد . وظهر الى جانب هذا الادب نوع آخر هو ادب السيرة ؛ وهو ضرب من الحكاية التاريخية يمتدح مآتي ابطال العرب ، حقيقية كانت ام خيالية . وكان من ابطال هـذه السير صلاح الدين والملك الظاهر وعنترة بن شداد . وعنترة هذا شاعر جاهلي من الشعراء الفرسان ، لكنّ روايته (سيرة عنتر) ، كما يبدو لنا اليوم من قرائنها التاريخية ، كان اول ظهورها في سورية ، وذلك في اوائل القرن الثاني عشر . والناس اليوم اشد إقبالاً في مقاهي القاهرة وبيروت وبغداد ، على قراء القصص ، وهم يتلون حكاية عنتر وسيرة الظاهر (بيبرس) ، منهم على القصاصين وهم يروون حكايات من الف ليلة وليلة .

النظام الاقطاعي

إن الدول الافرنجية في سورية قامت على المبادئ الاقطاعية التي كانت شائعة في اوربا ، مع ان بعض متعهدي الاقطاعات كانوا من المواطنين . ولما كانت سورية بلداً إسلامياً فقد نشأ فيها ، منذ الفتح العربي ، نظام اقطاعي من نوع خاص . فقد كان الفاتحون ، من خلفاء وسلاطين وأمراء ، يهبون قوادهم وكبار موظفيهم الاقطاعات ، فيعمد هؤلاء بدورهم الى تقسيمها الى مناطق يوزعونها على الاتباع والمتعهدين . وكان الارقّاء والعبيد — وهم الطبقة الاجتماعية السفلى — يتولون حراثتها . اما جباية الخراج[1] من غير المسلمين ، فكان يعهد بها الى بعض المتنفذين على سبيل « الضمان » . لكن الخلفاء العباسيين ابطلوا ضمان المزارع بالمزايدة ، واستبدلوا به نظاماً من الزراعة الوراثية ، يؤدي المزارعون بموجبه ايجاراً معيناً ثابتاً ؛ في حين استمر الفاطميون والمماليك على العرف الاسلامي[2] . اما في اوربا ، فان طبقة من الارستقراطيين ، اصحاب الاراضي ، ظهرت في العصر الوسيط ، اقام افرادها لانفسهم المساكن الحصينة في الارياف ، وانشأوا صلات متبادلة مع افراد الاسرة المالكة او سيطروا عملياً وبصور مباشرة على من هم دونهم . ولم يظهر مثل هـذا النظام الارستقراطي في المجتمع العربي الاسلامي . اذ كان متعهدو الاقطاعات يقيمون على العموم في المدن ، ويكتفون باستدرار الدخل الضروري من اقطاعاتهم

---

١) راجع ص ١٩ — ٢٠ من هذا الجزء .

٢) القلقشندي ، ج ١٣ ، ص ١٢٣ ، وما بعد . و ١٣٩ وما بعد ؛ راجع A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon* (London, 1939), pp. 18 *seq.*

الريفية . ولم يترك النظام الاقطاعي الذي ادخله الافرنج الى سورية اي تأثير في النظام المحلي لضمان الاراضي ، الا ما كان من جعل الاقطاع العسكري ، الى حين وفي ظل الايوبيين ، النظام الرئيسي المتبع في تحديد العلاقات الزراعية . وكذلك النظام الملكي الافرنجي ، فانه لم يخلّف اثراً راسخاً في منظمات سورية السياسية ، يستثنى من ذلك ان الكنيسة التي ظاهرت الملكية لا تزال ممثلة بشخص البطريرك اللاتيني في مدينة القدس .

نشاط الارساليات

ومن النتائج الفرعية الهامة التي تخلفت عن الحملات الصليبية انشاء الارساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين . فقد اقتنع رجال الفكر بفشل هذه الحروب ، واخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين ؛ فاخذوا يدعون الى تركيز الاهتمام على الوسائل السلمية . وكان الكاهن القطلاني ريمند لال (ت ١٣١٥) اول اوربي شدد على اهمية الدراسات الشرقية كأداة فعالة لنضال سلمي يعتمد الاقناع وسيلة بدلًا من الاكراه . وكان قد تعلم العربية على يد عبد ، ثم اشتغل في تعليمها . وبتأثير ريمند هذا جرى الروح الصليبي في مجرى جديد هو اقناع المسلمين باعتناق المسيحية بدلاً من محاولة ابادتهم .

اما الاخوية الكرملية التي لا تزال عاملة في سورية ، فقد اسسها في هذا البلد احد الصليبيين سنة ١١٥٧ ، وسماها باسم احد جباله . وفي اوائل القرن الثالث عشر نشأت اثنتان من الاخويات الرهبانية هما الفرنسيسكان والدومينيكان ؛ وانشأت كل منهما لنفسها فروعاً في كثير من المدن السورية . وفي السنوات الاخيرة من ذلك القرن كان للفرنسيسكان في بيروت كنيسة كبيرة [١]. وفي سنة ١٢١٩ زار مؤسس الاخوية الفرنسيسكانية ، القديس فرنسيس الاسيسي ، بلاط الايوبيين في مصر ، واجرى مناقشة دينية عقيمة مع الكامل . وكتب اسقف دومينيكاني — هو وليم الطرابلسي — رسالة من اوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين ، موضحاً المواطن التي يتفق فيها الاسلام مع المسيحية ، وموصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود ، لاستعادة البلاد المقدسة . وكان نظير زميله وليم الصوري مولوداً في هذه البلاد لكن من ابوين اوربيين .

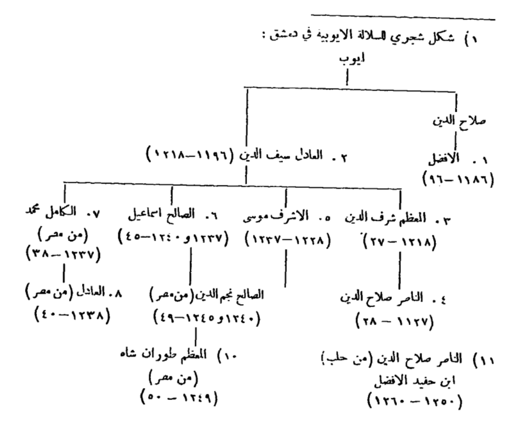
١) صالح ، ص ١٤٩؛ Enlart, vol. ii, p. 79.

الفصل السابع والاربعون

الأيوبيون والمماليك

ان السلطنة التي انشأها صلاح الدين ووسعها حتى بلغت من النيل الى نهر الدجلة، تجزأت من بعده بين ابنائه ؛ ولم يكن لأيٍّ منهم ما كان له من النبوغ . فقد خلفه في دمشق ابنه الملك الافضل ، لكن ملكه آل سنة ١١٩٦ الى عمه العادل حاكم مصر . وعاد الفرع الدمشقي سنة ١٢٥٠ فانضم الى فرع حلب ، لكن حملة هولاكو الجارفة لم تلبث ان اكتسحته بعد عقد من الزمان[١] . وجلس على عرش مصر بعد صلاح الدين ابنه الثاني العزيز ، لكن العادل نفسه لم يلبث ان أزال ابن العزيز سنة ١١٩٨ . ففي كلتا الحالتين استغل العادل فرصة الخلاف الذي شجر بين ابناء أخيه واغتصب الامر لنفسه . وهذه المنازعات السلالية بين افراد الاسرة الحاكمة ، هي التي أتاحت للافرنج الفرصة لاستر داد بعض ما كانوا قد فقدوه من ممتلكاتهم .

١) شكل شجري للسلالة الايوبية في دمشق :



وفي سنة ١٢٠٠ عين العادل احد ابنائه حاكماً على بلاد ما بين النهرين ؛ وكان الظاهر، وهو الابن الثالث لصلاح الدين، قد خلف اباه على حلب[١]، وكان الفرع الايوبي الصغير الذي أسسه في حماة واحد من ابناء اخي صلاح الدين قد نجا سنة ١٢٦٠ من الفتح المغولي الذي اكتسح الخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بعامين، واستمر في ظل المماليك حتى سنة ١٣٤١ ؛ فهو اطول فروع هذه الاسرة حياة[٢]، وكان من افراده الملك المؤرخ ابو الفداء (ت ١٣٣٢)[٣]. وكانت هنالك فروع اخرى من السلالة الايوبية أقل شأناً من هذا الفرع، بينها فرع حمص المتحدر من احد اعمام

---

١) شكل شجري للسلالة الايوبية في حلب :

صلاح الدين
|
١) الظاهر غياث الدين (١١٨٦–١٢١٦)
|
٢) العزيز غياث الدين ١٢١٦ – ١٢٣٦)
|
٣) الناصر صلاح الدين (١٢٣٦–١٢٦٠)

٢) كانت هنالك فترة قصيرة (١٢٩٨– ١٣١٠) تولى الحكم للمماليك فيها حكام آخرون .

٣) شكل شجري للسلالة الايوبية في حماة .

نور الدين شاهنشاه (اخو صلاح الدين)
|
١) المظفر الاول تقي الدين (١١٧٨–٩١)
٢) المنصور ناصر الدين (١١٩١–١٢٢٠)
|
٣) الناصر صلاح الدين (١٢٢٠– ٢٩) — ٤) المظفر الثاني تقي الدين (١٢٢٩ – ٤٤)

فروع ٤):
٥) المنصور سيف الدين (١٢٤٤–٨٤)
|
٦) المظفر الثالث تقي الدين (١٢٨٤–٩٨)

(المظفر علي)
|
٧) المؤيد ابو الفداء (١٣١٠ – ٣٢)
|
٨) الافضل محمد (١٣٣٢ – ٤١)

صلاح الدين ، وقد اباده المملوك بيبرس سنة ١٢٦٢[١] ، وفرع بعلبك المتحدر من طوران شاه اخي صلاح الدين[٢] .

المماليك يخلفون الايوبيين

كان الفرع المصري من السلالة الايوبية هو الرئيسي بين فروعها الكثيرة . وقد تسلط عدد من افراده على القاهرة ودمشق . وكان من هؤلاء الصالح نجم الدين ايوب[٣]، الذي توفي في تشرين الثاني سنة ١٢٤٩، تاركاً وراءه ارملة هي (شجر الدر) . وكانت شجر الدر ، في اول امرها ، جارية تركية او ارمنية في حريم الخليفة العباسي المستعصم في بغداد . ثم اعتقها الصالح بعد ان رزق منها صبياً . على انها كتمت موت زوجها مدة ثلاثة اشهر ، ريثما عاد ابنه طوران شاه من رحلة قام بها الى ما بين النهرين . وإذ لم يحسن طوران شاه إلى مماليك ابيه ، تآمروا عليه بالاشتراك مع زوجة ابيه واغتالوه . وعندها عمدت هذه المرأة الجريئة النشيطة الى تنصيب نفسها ملكة على المسلمين[٤] . وقد منح شرف مشاركتها في الملك طفل له من العمر ست سنوات، هو الأشرف موسى سليل الفرع الايوبي في دمشق . وكانت شجر الدر هذه ، المرأة المسلمة الوحيدة التي سادت بلداً في شمالي افريقيا وغربي آسيا . وقد استمرّت في الحكم ثمانين يوماً تتولى منفردة السلطة المطلقة في البلاد التي انجبت

---

١) شكل شجري للسلالة الايوبية في حمص :

شيركوه (عم صلاح الدين)
|
١) القاهر ناصر الدين (١١٧٨–٨٥)
|
٢) المجاهد صلاح الدين (١١٨٥–١٢٣٩)
|
٣) المنصور ناصر الدين (١٢٣٩–٤٥)
|
٤) الاشرف مظفر الدين (١٢٤٥–٦٢)

٢) راجع بشأن اسماء افراد هذا الفرع وفرع الكرك : Zambaur, *Manuel de généalogie et de chronologie* (Paris, 1927), p. 98.

٣) راجع شجرة الانساب في ص٢٦٤ من هذا الجزء .

٤) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٧.

قبلها زنوبيا وكليوبترا وقد ضربت النقود باسمها [١]، وأمرت ان ينوه باسمها في صلاة الجمعة . وعندما وليت الحكم وجه الخليفة العباسي ، سيدها السابق ، رسالة جارحة الى امراء مصر يقول فيها : « ان كان ما بقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنــا نرسل اليكم رجلاً » [٢] . فوقع اختيارهم على قائد جيوشها عز الدين ايبك [٣] فنصبوه سلطاناً ؛ اما هي فقنعت بافضل شيء بعد الملك ، ورضيت به زوجاً . وقد قضى ايبك السنين الاولى من حكمه في سحق الحزب الايوبي المطالب بالسيادة في سورية ، وكان افراده يعتبرون انفسهم ورثة انسبائهم المصريين . ثم انه خلع الاشرف الطفل المشارك في الملك ، وتخلص من قائده الخاص الذي كان قــد برز في حروبه ضد لويس التاسع ، وإذ بلغ الملكة انــه ينوي الزواج من امرأة اخرى ارسلت اليه من قتله ، وهو يستحم ، بعد الفراغ من لعب الكرة . ثم جاء دورها هي فعمدت جارية لقرينة زوجها الاولى الى قبقاب انهالت به عليها ضرباً حتى اوردتها حتفها . وطرح جسدهــا من من احد ابراج قلعة القاهرة [٤] .

المماليك البحرية

كان ايبك (١٢٥٠ — ٥٧) اول سلاطين المماليك ؛ وسلسلة المماليك ؛ هذه ذات وضع غريب في تاريخ السلالات ، لأنها — إذا صح اعتبارها سلالة — كانت كما يستدل من اسمها [٥] سلالة عبيد — عبيد من اجناس مختلفة وقوميات متباينة ، اقامت دولة عسكرية في بلاد غريبة . فاذا مات احدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده ، في الغالب ، ليس ابنه بل احد عبيده او بعض المرتزقة من اتباعه ، ممن تميزوا بعمل عظيم ، او احرزوا شهرة بعيدة . وهكذا فان العبد بالأمس ، كثيراً ما كان يصبح قائد جيش في الحال ، ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم . وبقي السلاطين العبيد نحواً من قرنين وثلاثة ارباع القرن ، يحكمون بالسيف بقعة من اشد بقاع الارض اضطراباً . ومع انهم كانوا ، بوجه العموم ، سفاكين وغير مثقفين ، فإنهم احتفوا

---

١) هذا هو النقد الوحيد الذي يحمل اسم امرأة مسلمة باستثناء بعض النقود التي ضربت في الهند وفارس .

٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

٣) يستفاد من اسمه انه كان تركياً : « اي » معناها قمر ، و « بك » معناها : امير .

٤) قلعة الجبل . ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٦٤ ؛ ابن الاثير ، ج ١٠ ٢، ص ١٦٠ ، ١٦٠ .

٥ المملوك عبد ، ويطلق بصورة خاصة على من لم يكن اسود البشرة .

القاهرة مبانٍ هندسية لا تزال تفخر بها بحق . وقد أدّوا الى الاسلام خدمتين اخريين : الاولى انهم حرروا سورية ومصر من بقايا الصليبيين ؛ والثانية انهم اوقفوا الزحف المخيف الذي قامت به قبائل المغول والتتر، بقيادة هولاكو وتيمورلنك[1]. ولولا ذلك لجاز ان يكون سبيل الحضارة والتاريخ ، في غربي آسيا ومصر، برمّته، غيره اليوم .

كان اول المماليك عبداً اشتري من سوق العبيد في روسيا الاسلامية وبلاد القوقاس ، ليكون المرافق الخاص للصالح الايوبي[2] . فخلف سلسلة من الحكام جرى العرف الى تقسيمهم الى سلالتين هما : المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٩٠)، والمماليك البرجية (١٣٨٢ — ١٥١٧) . فالبحرية سموا بذلك نسبة الى النيل[3] ، إذ كانت ثكناتهم تقوم على جزيرة صغيرة في نهر النيل ؛ وكانوا في اكثرهم، من الترك والمغول. أما البرجية فكانوا في الغالب من الجراكسة[4] . وقد جاءت حملة المغول بعد ظهورهم بقرن من الزمان . وهكذا عادت سورية، مرة اخرى ، ميداناً تطاحنت فيه قوّتان متنافستان.

الغزو المغولي

ما كادت قبائل المغول تقضي على الخلافة العباسية في بغداد ، وتخرب وكر الحشاشين في قلعة أَلَمُوت بقيادة هولاكو حفيد جنكيزخان ، حتى كان ظهورهم المشؤوم في شمالي سورية . وكانت مدينة حلب ضحيتهم الاولى ، حيث سقط خمسون الفاً من اهلها بحدّ السيف ، وكان ذلك صورة مصغرة لما سيجيء . وسقطت بعد حلب، حارم وحماة؛ ووجّه هولاكو احد قواده لحصار دمشق بينما عاد هو الى فارس بداعي وفاة اخيه الخازن الكبير . ولم تلبث انطاكية اللاتينية ان التحقت بالمغول . وقد خطر للويس التاسع وللبابا ان عقد ميثاقٍ مع الغزاة قد يساعد في

١) انظر ما يلي من هذا الفصل في موضوع «التاريخ والجغرافية»

٢) ابو الفداء، ج ٣ ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٧٣.

٣) يدعى نهر النيل عندهم بالبحر .

٤) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٦٩ ، والسيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ يعتبر انهم سلالة تركية .

النضال ضد المسلمين، إذ كانت ديانة الفاتحين الرسمية هي الشامانية، وهي ديانة انسبائهم الاتراك كذلك . وكان بينهم بعض النصارى الذين تحدروا من أسلاف لهم اعتنقوا المسيحية على يد جماعة من قدماء المرسلين السوريين[١] . وكان القائد الذي اجتاح معظم سورية ودكّ معالمها قائداً مسيحياً هو كتبغا ؛ وكان المملوك الحاكم آنذاك قطز (١٢٥٩ – ٦١) ، وهو الذي اهلك رسل هولاكو[٢] . وكانت نهاية هذا النزاع في وقعة عين جالوت قرب الناصرة . ففي هذه المعركة تولى بيبرس قيادة الطليعة تحت امرة قطز ، وألحق بالغازين هزيمة منكرة . وسقط كتبغا في هذه المعركة قتيلاً[٣]، وهزم جيشه ، وفرّ من بقي منه الى خارج سورية . وقد توقع بيبرس ، مكافأة له على خدماته الحربية ، ان يقطعه قطز مدينة حلب ، لكن السلطان خيّب أمله . وفيما كان عائداً من سورية إلى مقره في مصر تآمر بيبرس وزميل له على حياة السلطان ، وإذ اخذ هذا في مخاطبته، وأكبّ على يده يقبلها، اهوى بيبرس على عنقه بالسيف فأورده حتفه ، واستولى على الحكم في مكانه .

وكان بيبرس[٤] الرابع من سلسلة المماليك ، والاول من عظماء السلاطين ، والمؤسس الحقيقي لسلطة المماليك . ولئن كان قد كسب مفاخره الاولى في رد المغول، فانه قد نال تاج المجد بفضل انتصاره على الصليبيين[٥] . ولم يكن بيبرس رجل حرب فحسب، بل كان إلى ذلك من كبار رجال الادارة . فقد شق الاقنية وأصلح المرافئ، ووصل ما بين عاصمته في مصر وبين سورية ببريد سريع ، نظّمه على الطراز الفارسي العباسي . فكان باستطاعته ان يلعب بالكرة والصولجان في كلتا المدينتين في غضون اسبوع واحد[٦] . وقد انشأ مشاريع عامة ، وجدد المساجد – ومنها قبة

---

١) راجع ص ١٣٧ – ١٣٨ من هذا الجزء .

٢) ان نص الرسالة التي كانوا يحملونها محفوظة في المقريزي نشر كاترمير ج ١ (ق ١) ص ١٠١–١٠٢ .

٣) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ – ١٩ ؛ المقريزي نشر كاترمير ، ج ١، (ق ١)، ص ٩٨ ، ١٠٤ وما بعد ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٤ .

٤) راجع بشأن المماليك البحرية شجرة الانساب في ما يجيء من هذا البحث .

٥) راجع ص ٢٤٣ من هذا الجزء .

٦) ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨٢ .

الصخرة ، ورمم الحصون – ومنها قلعة حلب ؛ وأنشأ الاوقاف الدينية والوقفيات الخيرية[١] . ومدفنه في دمشق اليوم بمثابة مكتبة تحمل لقبه وتعرف بالظاهرية وفيها مخطوطة من اقدم المخطوطات المكتوبة على الورق ، هي كتاب « مسائل الامام احمد بن حنبل » يعود تاريخها الى سنة ٢٦٦ هجرية (٨٧٩/٨٠ م)[٢].

على ان تفادي الخطر المغولي آنذاك كان امراً مؤقتاً . فقد اندفعوا من موطنهم في آسيا الوسطى في اتجاه غير معين تاماً ؛ وبعد ان جالوا جولات اوصلتهم الى حدود الامبراطورية الصينية ، اخذوا يتدفقون في موجات تشبه ، من بعض الوجوه ، الموجات السامية ، وموجات الغزو الجرماني في العهود السابقة . فان اباقا ابن هولاكو خليفته ، اتخذ مدينة تبريز قاعدة له ، وجدد منها الهجوم على سورية . وكان المغول آنئذٍ يتوددون الى النصارى . فدخل اباقا في مفاوضات مع البابا وادورد الاول ملك انكلترا ، وسواهما من اصحاب السلطة في اوربا ، وحثهم على إرسال حملة صليبية جديدة لطرد المماليك من سورية . ومع ان جيش المغول كان اوفر عدداً ، وقد عزز بفرق من الارمن والجورجيين والفرس ، فانه هزم في حمص سنة ١٢٨٠ شر هزيمة[٣] . على ان المغول لم يلبثوا ان ذللوا الحواجز ، وتحولوا نهائياً الى الجانب الاسلامي . وقع هذا الفتح في عهد قلاوون (١٢٧٩ – ٩٠) ، وهو اعظم المماليك بعد بيبرس . وكان في الاصل ، نظير سلفه ، عبداً تركياً يلقب بـ « الالفي » كناية عن الثمن الباهظ الذي شري به ، وهو الف دينار[٤].

ولقد عمد الايلخان السابع ، غازان محمود ، الذي نشأ على دين بوذا ، الى اتخاذ الاسلام ديناً للدولة ؛ لكن ذلك لم يردّ عن سورية غارات اخرى ، بل قد تعرّضت على الأثر لغارتين كانتا الاخيرتين في هذا الزحف ؛ حدثت الاولى في اواخر سنة ١٢٩٩ ، وكان عدد الجيش الفاتح ، على ما قيل ، مئة الف مقاتل فيهم الارمن والجورجيون والافرنج والقبرصيون ، فتمكنوا من إبادة الجيش المصري الذي

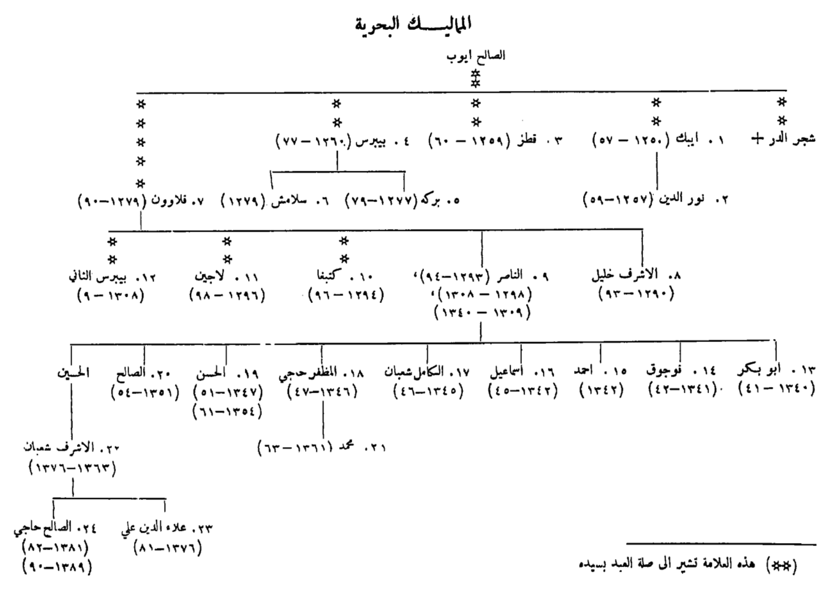
---

١) في الكتبي ، ج ١ ، ص ١١٣ – ١٥ جدول يحصي جلائل اعماله ذات المنفعة العامة .

٢) قابل : Hitti, *History of the Arabs*, p. 347.

٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ١٥ – ١٦ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ – ٤٦ .

٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ .



(✡✡) هذه العلامة تشير الى صلة العبد بسيده

قدر بنحو ثلث الجيش المهاجم ، وذلك شرقاً من حمص[١] . وكان المملوك الحاكم ابن قلاوون ، وخليفته الثاني الناصر وهو الذي تميز بانه تولى السلطة ثلاث مرات (١٢٩٣ — ٩٤ ، ١٢٩٨ — ١٣٠٨ ، ١٣١٦ — ٤٠) ، فكان عهد ولايته اطول العهود في تاريخ المماليك . واستمر المغول في زحفهم المظفّر ، واجتاحوا شمالي سورية ناشرين الويل والخراب انّى توجهوا . وفي اوائل سنة ١٣٠٠ احتلوا دمشق . وقد صمدت قلعتها لكن اقساماً كبيرة من المدينة ، بينها حي الصالحية ، أُحيل الى خراب تام . وهنا اضطرّ غازان للعودة الى فارس بداعي ثورة نشبت فيها ، لكن جيشه استمرّ في زحفه جنوباً حتى بلغ غزة . وهنا انتزع الجيش المصري المبادرة ، وردّ الغازين على أعقابهم ، وانزل بهم سنة ١٣٠٣ شر هزيمة وذلك في ميدان الحرب التاريخي : مرج الصفّر[٢] ، جنوباً من دمشق . وكان ابو الفداء[٣] في مدينة حماة عين الجيش المصري على المغول ، يرقب حركاتهم ويرسل التقارير عن تحركاتهم . فأعاد اليه صديقه الناصر ، في ما بعد ، امارة اسرته التقليدية على حماة . وهكذا فشلت ثالث محاولات المغول لاخضاع سورية ، وتمكن المماليك من قهر اخطر وأشد عدوّ واجهته مصر منذ ظهور الاسلام .

ولقد اورث الفتح المغولي الاقليات من الكوارث نظير ما اورثتها حملات الصليبيين[٤] . فدروز لبنان الذين ارسلوا ١٢ الف مقاتل لمطاردة الجيش المصري ، بينما كان يتراجع امام المغول سنة ١٣٠٠ ، قد حُوسبوا على ذلك حساباً صارماً . والارمن عاينوا الناصر يعمل في بلادهم الخراب ، مراراً وتكراراً ، في سنة ١٣٠٢ وما بعد . وكذلك النصارى واليهود من رعاياه ، فقد قاسوا الامرّين .

المماليك البرجية

تولى الحكم بعد الناصر في مدة اثنتين واربعين سنة (١٣٤٠ — ١٣٨٢) اثنا عشر سلطاناً من سلالته ، لم يتميز احد منهم بأي لون من الوان النشاط . وكان

---

١) صالح ، ص ١٧٤ .

٢) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

٣) المجلد الرابع ، ص ٥٠ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٨ — ٤٩ .

٤) راجع ص ٢٥٩ من هذا الجزء .

آخرهم الصالح حاجيّ (١٣٨١ – ٨٢، ١٣٨٩ – ٩٠)، وكان طفلاً ضعيفاً، فقد تولى السلطة زمناً، ثم انتزعها منه كردي هو برقوق. وبرقوق هـذا انشأ سلسلة جديدة من المماليك عرفت بالبرجية (١٣٨٢ – ١٥١٧)، نسبة الى برج القلعة في القاهرة، حيث اقاموا اولًا بوصفهم عبيداً[١]. وقد كان جميع المماليك البرجية اكراداً الا اثنين منهم كانا يونانيين. وقد رفضوا باشد مما رفض اسلافهم المماليك البحرية مبدأ الوراثة في الولاية. فقد كانوا بمجموعهم ثلاثة وعشرين مملوكاً، لكن اربعة عشر منهم لم يكونوا ذوي خطر. وقد توالى ثلاثة منهم على الحكم في سنة واحدة هي السنة الـ ١٤٢١، وقلّ منهم من مات ميتة ربه. وكان اطولهم عهداً قائتباي (١٤٦٨ – ٩٥)، وكان عهده، من بعض الوجوه، ازهى عهودهم[٢].

---

١) المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٤١.

٢) جدول المماليك البرجية:

١) الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢
(استأثر بالحكم دونه حاجي البحري ١٣٨٩–٩٠)	
٢) الناصر ناصر الدين فرج	١٣٩٨
٣) المنصور عز الدين عبد العزيز	١٤٠٥
ثم الناصر فرج ثانية	١٤٠٦
٤) الخليفة العادل المستعين	١٤١٢
٥) المؤيد شيخ	١٤١٢
٦) المظفر احمد	١٤٢١
٧) الظاهر سيف الدين ططر	١٤٢١
٨) الصالح ناصر الدين محمد	١٤٢١
٩) الاشرف سيف الدين برسباي	١٤٢٢
١٠) العزيز جمال الدين يوسف	١٤٣٨
١١) الظاهر سيف الدين جقمق	١٤٣٨
١٢) المنصور فخر الدين عثمان	١٤٥٣
١٣) الاشرف سيف الدين اينال	١٤٥٣
١٤) المؤيد شهاب الدين احمد	١٤٦٠
١٥) الظاهر سيف الدين خشقدم	١٤٦١
١٦) الظاهر سيف الدين يلباي	١٤٦٧
١٧) الظاهر تمربغا	١٤٦٧
١٨) الاشرف سيف الدين قائتباي	١٤٦٨
١٩) الناصر محمد	١٤٩٥
٢٠) الظاهر قانصوه	١٤٩٨
٢١) الاشرف جان بلاط	١٤٩٩
٢٢) الاشرف قانصوه الغوري	١٥٠٠
٢٣) الاشرف طومان باي	١٥١٦–١٧

على ان الوضع الجديد لم يكن خيراً من القديم . فقد استمر الفساد والدس والاغتيال والشغب في نشاط ؛ فكان عدد من السلاطين عاجزين وخونة ؛ وكان بعضهم فاسدين بل ساقطين ؛ وكان اكثرهم غير مثقفين . وقد ادعى واحد منهم فقط ، هو برقوق ، بانه تحدر من والد مسلم[١]. اما برسباي (١٤٢٢ — ٣٨)، وكان اولاً عبداً من عبيد برقوق ، فلم يكن يحسن العربية[٢] ؛ ولم يتحرج من ان يصدر امراً بان يقطع رأس كلٍّ من طبيبَيْه لانهما اخفقا في شفائه من علة قاتلة . وكان عبد آخر لبرقوق اسمه اينال (١٤٥٣ — ٦٠) لا يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسمية، الا اذا رسمه فوق كتابة امين سره، على ما ذكر معاصره ابن تغري بردي[٣]. وقد عاد نظام تسري الغلمان الى مثل ما كان عليه من الشيوع في ايام العباسيين ، واتهم عدد من المماليك ، اولهم بيبرس ، باللواط . ولم يكن السلاطين وحدهم فاسدين ، بل ان الامراء ايضاً ، وسائر من في الحكم ، كانوا على جانب من الفساد . ولم يستطع اقدر الموظفين ان يستمروا في وظائفهم اكثر من ثلاث سنوات ، الا في ما قل وندر . وقد عيّن احد القضاة وعزل عشر مرات .

الادارة في سورية

ومع ان حكومة المماليك كانت غريبة الوضع ، فان ادارتهم لم تكن الا امتداداً للنظام الفاطمي العباسي . فقد كانت سورية مقسمة الى بضعة اقاليم عرفت «بالنيابات» ، وذلك تبعاً للتقسيم العام الذي اعتمد في عهد الايوبيين ، وهي نيابة حلب ، وحماة ، ودمشق ، وطرابلس ، وصفد ، والكَرك . وحكام هذه النيابات — وهم من مماليك السلاطين — كانوا يختارون عادة من ارباب السيف[٤]، تمييزاً لهم عن اهل القلم المتصفين بالعلم . وكانوا بوجه العموم مستقلين الواحد عن الآخر ، وكان لكل حاكم قصر هو صورة مصغرة عن بلاط القاهرة . وكانت الخصومات والفتن في العاصمة الاقطاعية كثيراً ما تتمثل في قواعد النيابات . وكان انتقال الحكم من

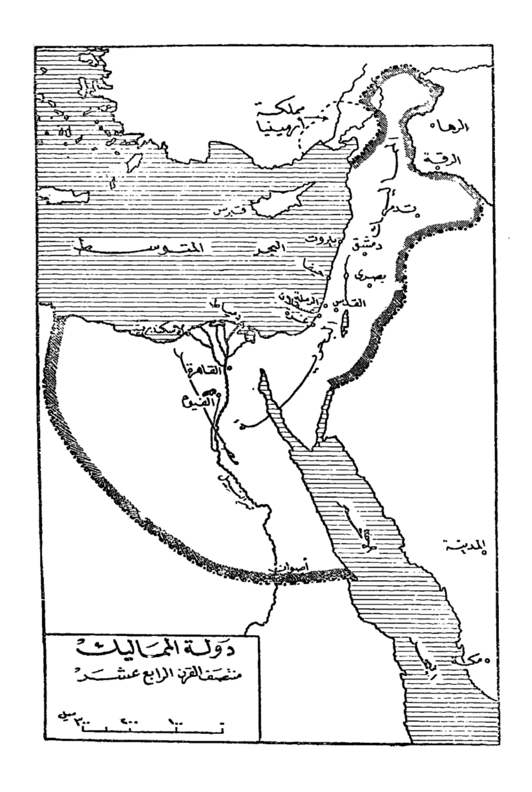
---

١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

٢) لم يكن هذا الوضع فريداً في تاريخ المماليك ؛ راجع الاسحاقي ، اخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول (القاهرة ، ١٢٩٦)، ص ٢١٠ .

٣) المجلد السابع ، ص ٥٥٩ .

٤) القلقشندي ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .


مملكة أرمينيا
الرها
الرقة
تدمر
قبرس
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
بصرى
القدس
الرملة
عسقلان
غزة
الاسكندرية
القاهرة
الفيوم
أسوان
المدينة
مكة
دولة المماليك
منتصف القرن الرابع عشر
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ميل

احـــد سلاطين المماليك الى آخر ، في دمشق وسواها من الاقاليم[١]، يدعو الى اثارة الفتنة. اما غربي لبنان، فكان قد اقطع الى زعماء من اهله البحتريين من بني تنوخ[٢].

ولما كانت دمشق ذات امجاد قديمـــة ، وقد اختارها بيبرس — منظم سلطة المماليك — مقراً له، فقد صار لها بذلك الفضل على سائر الاقاليم الاخرى. وقد عيّن تنغيز (١٣١٢ — ٣٩) ، احد حكامها ، نائباً للسلطان على سورية ، وذلك في غضون العهد الثالث من ولاية الناصر. وكان اقليمه هذا ، أي «مملكة دمشق[٣]» ، يشتمل على فلسطين — باستثناء منطقتين صغيرتين هما صفد والكرك — ويمتـــد شمالاً الى بيروت وحمص وتدمر. وتنغيز هذا جرّ المياه الى مدينة القدس ، ورمم برج بيروت ، وبنى فيها الخانات والحمامات العامة[٤]. وبعد ولاية تميزت بطول الامد ، وكثرة اعمال الاحسان، ارتكب امراً شائناً فقتل في سجن من سجون الاسكندرية[٥].

الجوع والطاعون

تخلل عهد المماليك بجملته فترات من الجدب والمجاعـــة والوباء ؛ ووقعت فيه زلازل زادت في اسباب الخراب ؛ وقـــد حفلت صفحات تاريخه باخبار الويلات والكوارث[٦]. فالمقريزي[٧]، وهو زعيم مؤرخي هذا العصر ، يخصص كتاباً بكامله لوصف المجاعات التي وقعت في مصر سنة ١٤٠٥ ، وهي السنة التي وضع مؤلفه فيها. ويتحدث ابن تغري بردي[٨] عن اربعة اوبئة ، شديدة الوطأة ، اجتاحت مصر في

---

١) للاستزادة عن حكومة سورية راجع : Gaudefroy-Demembynes, pp. xix seq., 29, seq.; Walther Bjorkman, *Beitrage zur Geschichte der Staats kanzlei im islamischen Agypten* (Hamburg, 1928), pp. 101 seq., 157 seq. ; علي ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ، ١٩٤٤) ص ٢٤٨ — ٥٣ .

٢) صالح ، ٨١ وما بعد .

٣) العمري ، ص ١٧٦ ؛ قابل : الظاهري ، ص ١٣١ .

٤) ابن بطوطة ، ج ١، ص ١٢١؛ صالح ، ص ١٥٥— ٥٦ .

٥) ابن اياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور، ج ١، (القاهرة ١٨٩٣)، ص ١٧٢ ؛ المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٥٤ — ٥٥ .

٦) صالح ، ص ١٤٤ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن الفرات، ج ٨ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ابن تغري بردي ، ج ٧ ، ص ٥٢٨ — ٤٢ ؛ حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، نشر وليم پوپر (بركلي، ١٩٤٢)، ص ١١، ٧٣ ، ٣١٢ ، ٣١٩ . اما في مايتصل بالايوبيين فينبغي مراجعة المقريزي : السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ق ١، ص ١٣٠ — ٣٣ ، ١٥٦— ٥٨ ، ٢٤٨ .

٧) اغاثة الامة بكشف الغمة نشر محمد زياده وجمال الدين شيال (القاهرة ، ١٩٤٠) .

٨) المجلد الخامس ، ص ٧٠ — ٧٦ ، ١٥٤، ١٨٥، ٤٠٨ ، ٥٠٧ .

غضون القرن الرابع عشر (١٣٤٨ — ٤٩، ١٣٥٩ — ٦١، ١٣٦٢ — ٦٣). وفي مختلف المدونات التاريخية ذكر لما لا يقل عن اربع عشرة فتنة خطيرة وقعت في خلال القرن الخامس عشر، اي بمعدل واحدة كل سبع سنوات. اما «الموت الاسود» او «الفناء الكبير» الذي اجتاح اوربا بين سنة ١٣٤٨ و ١٣٤٩، وفتك باهلها فتكاً ذريعاً، فقد استطال في مصر سبع سنوات، وبلغ عدد ضحاياه في العاصمة، على ما قدر ابن اياس[1]، رقماً يصعب تصديقه هو ٩٠٠ الف. وفي الاخبار ان غزّة فقدت ٢٢ الفاً في شهر واحد، وكان معدل خسارة حلب خمس مئة ضحية في اليوم الواحد. وكان عدد كبير من هؤلاء الضحايا من الاعراب، ومن الاولاد الذين لم يكن عندهم مقدار كافٍ من المناعة. وكان من هذه الكوارث ومن سوء ادارة المماليك، ان هبط عدد السكان في مصر وسورية الى نحو الثلث مما كان عليه سابقاً.

التجارة والصناعة

ومما زاد الوضع الاقتصادي سوءاً الضرائب الفادحة والسياسات التي قامت على اسس فاسدة، ان لم نقل استغلالية نفعية. فالحروب ضد الافرنج والمغول دعت الى فرض الضرائب الفادحة في مصر وسورية، منها فرض ٣٣ ١/٣ بالمئة على قيمة الايجار، فكان ذلك باعثاً على سيل من الاحتجاجات لا نهاية له. ولم تكن هذه الرسوم الثقيلة على الخيل والقوارب فحسب، بل على ضروريات الحياة ايضاً نظير الملح والسكر. وقد احتكر بعض السلاطين سلعاً معينة، وتلاعبوا باسعارها تبعاً لمصلحتهم الخاصة. وعمد سواهم الى تخفيض قيمة النقد بحيث ادى الى احداث تضخم لولبي[2]. وكانت كلما ازدادت حالة الشعب فاقة، نمت ثروات الحكام وانتفخت جيوبهم. ولولا تجمع الاموال الكثيرة لما تمكن السلاطين من اقامة تلك المباني الهندسية الفخمة التي لا تزال مصر تفخر بها بحق[3].

على ان ازدياد النشاط التجاري، الذي عقب المشاريع الصليبية عوّض، لحسن الطالع، عن بعض التأخر الاقتصادي. فان الامتيازات التي اولاها العادل[4]

---

١) المجلد الاول، ص ١٩١؛ قابل: ابن تغري بردي، ج ٥، ص ٧١.
٢) المقريزي، الاغاثة، ص ٧٠ — ٧٢؛ ابن تغري بردي، الحوادث، ص ٣١٠ — ١٢.
٣) انظر ص ٢٨٦ من هذا الجزء.
٤) راجع ص ٢٤٢ من هذا الجزء.

وبيبرس ، لتجار البندقية وسواهم من تجار اوربا ، نشطت تبادل السلع ، وجعلت من القاهرة مستودعاً تجارياً هاماً ما بين الشرق والغرب . فالحرير السوري شارك العطور والتوابل في احتلال المركز الاول في حركة التصدير . وجاء بعده في جدول الصادرات الزجاج ، والادوات المصنوعة[١] . وكانت دمشق وطرابلس وانطاكية وصور في طليعة المراكز الصناعية الكبرى . وكان بعض الحرير في اسواق سورية مستورداً من الصين . وكانت التوابل ترد من الجزيرة العربية وسواها من البلاد الاستوائية . وكانت اللآلىء تجلب من خليج العجم الى مرفأي يافا وطرابلس[٢] . وعندما ارسل احد حكام دمشق عملاءه الى ناحية الشوف في لبنان ليدرس امكانية صنع النبال من اغصان شجر التوت ، اضطرب اللبنانيون اضطراباً شديداً[٣] . وكان باستطاعة الشاري ان يبتاع من اسواق حلب ودمشق وبيروت مصنوعات العاج والحديد ، والنسيج المصبوغ ، والسجاد والخزف المطلي بالميناء . وكانت ضواحي بيروت تنتج الزيت والزيتون والصابون[٤] شأنها اليوم . ولا تزال احواض صناعة الملح ترى في عثليث ، وفي مواضع اخرى على طول الشاطىء[٥] .

على ان السوريين لم يعتمدوا على الاغراب اعتماداً كلياً في حركة التصدير فان تجارهم كانوا من عهد صلاح الدين قد انشأوا لانفسهم قواعد في القسطنطينية ، حيث كان الامبراطور — نزولاً على رغبة صلاح الدين — قد بنى مسجداً لهم ولزملائهم المصريين ؛ وذلك في مقابل الامتيازات التي نعم بها تجار الروم في سورية ومصر . ولم يكن يسمح لسواهم من التجار الاغراب بالاقامة الدائمة في عاصمة الروم . وقد قام قسيس الماني اسمه لودوف فون سوخم بزيارة الى الاراضي المقدسة ، ما بين سنة ١٣٣٦ و ١٣٤١ ، فراقه ما شاهد من دلائل الرخاء في دمشق[٦] ، وفي « مدينة عكا المجيدة » ، وسواها من مدن سورية فقال واصفاً عكا :

---

١) راجع. E. Rey, Les *Colonies franques de Syrie* (Paris, 1883), pp. 204, 214-34.

٢) Hilmar C. Krueger, « The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century », *Speculum*, vol. xii (1937), pp. 64, 71.

٣) صالح ، ص ٢٢٥ .

٤) صالح ، ص ٢٢٩ .

٥) Conder, p. 451.

٦) ص ١٢٩—٣٢ .

كانت الشوارع داخل المدينة [عكا] نظيفة للغاية ، فجدران البيوت جميعها ذات ارتفاع واحد ، وهي مبنية بالحجر المنحوت . وقد ازدانت بالنوافذ الزجاجية والرسوم الملونة . وكذلك سائر قصور المدينة وبيوتها ، فانها لم تبنَ لتكون مجرد مأوى لاصحابها ، بل لتوفر لهم اسباب الراحة والبذخ . وكانت طرق المدينة مظللة بالحرير المنسوج ، وبسواه من ضروب السقائف المظللة الجميلة ، دفعاً لاشعة الشمس . وكان يقوم عند كل منعطف برج حصين للغاية ، مسيج بباب حديدي وسلاسل من حديد . وكان جميع الاشراف يقيمون في قلاع حصينة وقصور منيعة تمتد على طول حدود المدينة الخارجية . أما العمال والتجار فقد اقام كل منهم في السوق الخاص بنوع عمله [١] .

وزار ابن جبير[٢] دمشق في عهد صلاح الدين ، ومكث فيها فترة من الزمان ، ولقبها «بعروس المدن» . ووصف مطولاً ساعة كانت تقوم في باحة مسجدها يشير فيها الى مرور الوقت نهاراً نسران من النحاس ، وليلاً جهاز خاص من الانوار . وقد ذكر هذه الساعة بالذات بنيامين التودلي[٣] .

في لبنان

ولقد عمد زعماء لبنان الاقطاعيون الى مزاولة الفن السياسي المكيافلي ببراعة فائقة ، قبل ظهور ساسة البندقية بزمن طويل . فلعبوا لعبتهم هذه في غضون القلاقل التي ادت الى قيام الفاطميين والايوبيين والافرنج والمماليك والتتر اسياداً عليهم . وعندما احتل الصليبيون بيروت وصيدا ، استولى امراء الغرب من بني بحتر على بعض الاراضي المجاورة واتبعوها في قطاعاتهم ، وقدموا خدمات عسكرية للافرنج[٤] . ولم يترددوا مع ذلك في انشاء علاقات مماثلة مع المماليك[٥] . وكان بين اقطاعات البحتريين قرى صغيرة نظير شملان وعيناب وبيصور ، لم يسبق لها ذكر في التاريخ ، وهي معروفة الى اليوم[٦] . وفي غضون النزاع الذي نشب بين التتر والمماليك ، كان

١) Ludolph von Suchem, p. 51 .

٢) ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ — ٧١ .

٣) المجلد الاول ، ص ٨٤ — ٨٥ .

٤) صالح ، ص ٧٤ — ٧٥ ، ٨٣ — ٨٤ ، ١١١ — ١٢ ؛ راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

٥) صالح ، ص ٨١ .

٦) صالح ، ص ٨١ ، ١٢٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ — ٩٩ ، ٢٣٤ — ٣٥ ؛ راجع ٢٧٥ — ٢٧٦ من هذا الجزء .

لهؤلاء الامراء احياناً يمثلون في الجبهتين — وهو موقف يضمن لهم ان يكونوا في الجانب الفائز ، اياً كان هذا الجانب[١] . وهكذا فان سياسة الانتظار والحذر والمداهنة ، التي زاولها ابناء هذه السواحل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد[٢] ، استمروا عليها حتى عهد فخر الدين والامير بشير[٣] .

وكان عدد من القبائل العربية قد اوغل في هذا الجبل لا سيا من الجنوب[٤] . ومع ذلك فقد بقيت منه غابات كثيرة . وكان المسافر ، حتى اواخر القرن الرابع عشر ، يصادف فيها الدببة والاسود والخنازير البرية والحمر الوحشية[٥] . وكان في سورية ايضاً مثل هذه الوحوش كما يشهد بذلك اسامة[٦] . وقد ذكر منها الحمر والغزلان والاسود والخنازير والضباع والنمور . ونظراً لكثرة الفواكه البرية والبقول الصالحة للطعام وغزارة المياه العذبة ، غدا ملجأً مستحبّاً لرهبان النصارى ومتصوفة المسلمين . وقد خصص احد المؤرخين في اواخر القرن الثاني عشر[٧] فصولاً طوالاً للكلام عن مثل هؤلاء الرجال والنساء في جبال لبنان وسورية . وهذا ابن جبير[٨] ، يشير اشارة مفعمة بالسرور والاستغراب ، الى العطف الذي يبديه السكان

---

١) صالح ، ص ٩٣ — ٩٤ ؛ قابل ٢٤٧ — ٤٨ .

٢) راجع ص ٧٦ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

٣) انظر الفصل التالي « وضع لبنان الخاص » .

٤) راجع ص ٩٤ — ٩٥ من هـذا الجزء ؛ **Lammens, *Syrie*, vol. ii, pp. 8-14** دعي العرب الذين حلوا في سورية ومصر في ادب العصر باولاد العرب (ابن تغري بردي ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ ، س ١٠ ؛ راجع ص ١٧٢ من هـذا الجزء) : اما لفظة « العرب » فقد استخدم بصورة خاصة للاشارة الى البدو (ابن تغري بردي ، الحوادث ص ١٣ ، س ٣ ، ص ٤٧ ، س ١٥ ، ص ١٩٣ ، س ٢١) ، هذا مع ان اللفظة القرآنية « عربان » لم تكن قد هجرت تماماً (ابن تغري بردي ، الحوادث ، ص ١٢ س ٢٠ ، ص ١٩٠ ، س ٣ ، ص ٦٩٢ ، س ١٥ ، ١٧ ؛ وكذلك ، ج ٦ ، ص ٧٤٩ ، س ١ ، ٣ ؛ الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار (القاهرة ، ١٢٩٧) ، ج ١ ، ص ٣٧٩ س ٩ ، ص ٤١٧ ، س ٣٠ ؛ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٧٨ ، س ١١ ؛ القلقشندي ج ١٣ ، ص ٥ ، ج ٩ ، ص ٢٥٤ ؛ الظاهري ، ص ١٣٦ .

٥) صالح ، ص ١١٣ ، ١٩٣ ؛ ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

٦) الاعتبار ، ص ٢٢٠ ، ٢١٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٣ — ٢٤ ، ١٤٤ — ٤٥ ، ١٢٦ ، ١٠٣ — ١٢ .

٧) ابن الجوزي . صفوة الصفوة ، ج ٦ (حيدر اباد ، ١٣٥٦) ص ٣١٤ — ٢١ ، ٣٢٣ — ٢٧ ، راجع ص ٢٠١ — ٢٠٢ من هذا الجزء .

٨) ص ٢٨٧ .

النصارى الى هؤلاء النساك . وقـــد حفظ لنا الادب الصوفي عدداً من القصص الاسطورية عن امثال هؤلاء الرجال ؛ منها ان متصوفـــاً مسلماً لبنانياً اضاع زاد يومه ، وهو رغيف حصل عليه من مصدر مجهول . فقصد الى اقرب بيت في المزرعة المجاورة والتمس صدقة . فاعطاه الفلاح النصراني رغيفين من الشعير . لكن الكلب جرى في اثره ، وما زال ينبح حتى انتزع منه الرغيفين وسلبه ثوبه . وعندما عجب الصوفي من فرط طمع الكلب ، انطق الله الكلب بما مؤداه : انا أحمي بيت سيدي وماشيته وكثيراً ما أبيت على الطوى إذا لم يكن هناك من طعام له او لي ولكنك انت وقد أضعت زاد يومك اتيتنا تطلب غوثنا . أيّنا أشدّ طمعاً انا ام انت[١] ؟

النشاط الثقافي : العناية الطبية

ان سورية مع كل ما قاسته من الاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية ، لاقت في عهـد الزنكيين والصلاحيين – لاسيما في زمن نور الدين وصلاح الدين – ازهى العصور من حيث النشاط الفني والتربوي . ولا تزال المبـــاني الهندسية في عاصمتها دمشق تشهد للنهضة العمرانية التي تحققت على يد هذين الحاكمين . فقد رمم صلاح الدين اسوار المدينة ، بما فيها من ابراج وابواب . ثم اقام مباني عامة بقي بعضها الى عهد قريب ، من اهمها المستشفى الذي يسمى باسمه[٢] . وقد تحول الآن دار مدرسة تجارية . اما نفقات بنائه فقد اخذت من فدية اداها احد اسرى الافرنج[٣] . وقد زار ابن جبير[٤] هذا المستشفى سنة ١١٨٤ ، فوجـده ذا دخلٍ يدرّ عليه يومياً خمسة عشر ديناراً ، وألفى القيمين عليـه يعنون بتسجيل الاصابات المرضية المنقولة اليه والاموال التي تنفق فيه ؛ ولاحظ ان الاطباء يهتمون جدياً بالمرضى ، فيعينون لهم الطعام المناسب ، ويعطونهم الدواء من غير مقابل . وقد عولج في هـذا المستشفى المؤرخ المعروف ابن الاثير ، وعندما احتج على مجّانية المعالجة بانه ميسور ، وقادر على دفع ثمن الدواء ، قيل له ان احداً لم يرفض بعدُ نعمة نور الدين . وقد ذكر هذا

١) المكي ، نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس (القاهرة ، ١٢٩٣) ، ٥٨ –٥٩ .

٢) المارستان النوري ؛ ابن جبير ، ص ٢٨٣ . والمارستان « العربية محرفة عن الاصل الفارسي بيمارستان معناه دار المرضى . فابن جبير يشير على ما يبدو الى مستشفى اقدم ربما بناه دقاق ابن ططش السلجوقي (راجع ص ٢٠٦ من هذا الجزء) لا الوليد (راجع ص ١١٣ من هذا الجزء) .

٣) المقريزي ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

٤) ص ٢٨٣ .

المؤرخ[١] ان نور الدين بنى مستشفيات اخرى وخانات عديدة في انحاء البلاد. وقد جرى اختيار الموقع لمستشفى حلب[٢] بان ذبح ضأن، وقسم اربعة اقسام علق كل منها في ناحية من نواحي المدينة الاربع. واختير الموقع الذي وجدت فيه قطعة اللحم، في الصباح التالي، «اجود رائحة». وقد نسب مثل هذا التدبير الى الرازي، عند اختيار الموقع الملائم لمستشفى بغداد، قبل ذلك بنحو قرنين ونصف القرن[٣]. وفي الاخبار ان الموظف المصري والمؤلف المعروف الظاهري[٤] زار مستشفى دمشق حوالي سنة ١٤٢٨، وكان برفقته حاجّ فارسي ظريف، ادهشه ما اتيح للمرضى من اسباب الراحة، فتظاهر بالمرض، وقبل حالاً في عــداد المرضى. لكن رئيس الاطباء، لدى جس نبضه، وبعد فحصه فحصاً مدققاً، وجد انه سليم معافىً! ومع ذلك فقد وصف له الدجاج المسمن، والاشربة الزكية، والفواكه النهية، واقراص الحلوى، وغير ذلك من الاطايب. وعندما حل الوقت كتب له وصفة اخرى هي: «ان حد الضيافة ثلاثة ايام».

الطبابة

كان هذا المستشفى مجهزاً فوق ذلك بمكتبة، فكان في الوقت نفسه معهداً لدرس الطب. وقد حفظ لنا ابن ابي اصيبعة[٥] اسم استاذ الطب الاول في هذه المؤسسة، وهو ابو المجــد بن ابي الحكم، وترجمة طويلة لحياة عميدها الممتاز، في عهد العادل الايوبي، وهو مهــذب الدين بن الدخوار (١١٦٩/١١٧٠ — ١٢٣٠). وهنالك بينات تشهد على ان الطبيب والصيدلي والكحالي، كانوا يخضعون لنظام امتحان، لينالوا اجازة عمل قبل ان يسمح لهم بممارسة حرفتهم. وفي الدليل الذي يسترشد به المحتسب — وهو الموظف الموكل بتطبيق القوانين — نص واضح يعين واجبات المحتسب نحو الفصادين والحجامين والاطباء والجراحين والمجبرين والصيادلة. وهو يشير الى مدى صلاحية السلطة في مراقبة هـذه الاعمال[٦]. وكان بين تلامذة ابن

١) المجلد الحادي عشر، ص ٢٦٧.
٢) ابن الشحنــة، ص ٢٣٠ — ٣١؛ للاستزادة عن هذا المستشفى راجع: احمد عيسى *Histoire des bimaristans à l'époque islamique* (Cairo, 1928), pp. 203-5.
٣) ابن ابي اصيبعة، ج ١، ص ٣٠٩ — ١٠.
٤) ص ٤٤ — ٤٥.
٥) المجلد الثاني، ص ١٥٥، ٢٣٩ — ٤٣.
٦) ابن الاخوة، معالم القربى في احكام الحسبة، نشر روبن لفي (كامبردج، ١٩٣٨)، ص ١٥٩-١٧٠.

الدخوار النجباء ابن النفيس[١] الطبيب الذي تولى ادارة مستشفى قلاوون[٢] في القاهرة، ثم تحول الى دمشق وفيها توفي سنة ٨٩/١٢٨٨ وقد عرف عنه انه كان لا يصف دواء متى كان الغذاء وافياً بالغرض. وقد اورد ابن النفيس، في كتابه «شرح تشريح القانون» الذي شرح فيه قانون ابن سينا، رأياً له في دوران الدم في الرئة، وذلك قبل سرفتوس الاسباني الذي يقرن هذا الاكتشاف باسمه، بثلاثة قرون. وكان اهم ما ظهر من المؤلفات في طب العيون في القرن الثالث عشر كتابان لكحالين سوريين اولهما «الكافي في الكحل» لخليفة بن ابي المحاسن، الذي زها في حلب حوالي سنة ١٢٥٦، والثاني «نور العيون وجامع الفنون» لصلاح الدين بن يوسف، الذي مارس التطبيب في حماة حوالي سنة ١٢٩٦. وقد كان خليفة بن ابي المحاسن هذا من الثقة بحذقه الجراحي بحيث لم يتردد في ازالة الماء الازرق لمريض كان ذا عين واحدة[٣]. على ان هؤلاء جميعاً قد عاشوا في الغسق المتأخر من عهد العلوم الاسلامية.

وفي هذا العصر ظهر ابرز من انجبتهم دنيا العرب من مؤرخي الطب، وهو موفق الدين احمد بن ابي اصيبعة (١٢٠٣ — ٧٠). وقد كان هو نفسه طبيباً، وابن كحال شامي. حصّل الطب على ابن ابي دخوار في القاهرة. ولازم ابن البيطار، العالم الاسباني المسلم الشهير، في ابحاثه النباتية. وهذا كتابه الرائع «عيون الانباء في طبقات الاطباء»[٤] منقطع النظير في اثار العرب، وهو موسوعة متقنة تضم نحواً من اربع مئة من سير الاطباء العرب واليونان، قل منهم من لم يكن، الى طبه، فيلسوفاً او فلكياً او طبيعياً او رياضياً. وكان اقرب المؤلفات اليه كتاب لمعاصرٍ له مصري هو القفطي (١١٧٢ — ١٢٤٨)[٥]. والقفطي هذا قضى الشطر الثاني من حياته في حلب، حيث تقلد الوزارة لحكامها الايوبيين. وكان ممن اعتمدهم

---

١) السبكي، ج ٥ ص ١٢٩.

٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

٣) راجع سارطن Sarton, vol. ii, pp. 1101-2

٤) نشره اولاً «امرؤ القيس ابن الطحان» [اوغست مولر August Müller] في مجلدين (القاهرة، ١٨٨٢)، ثم طبع ثانية مع صفحات اضافية وتصحيحات وفهرس بعناية اوغست مولر في مجلدين (كونسبرغ، ١٨٨٤).

٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء (تاريخ الحكماء) نشر جوليوس لبرت (ليبتزغ، ١٩٠٣).

ابن ابي اصيبعة[١] في تحصيل فلسفة اليونان عالم مصري من اصل شامي هو ابو الوفاء مبشر بن فاتك[٢]. وكان في سنة ١٠٣٥ قد الف كتاباً سماه «مختار الحكم ومحاسن الكلم»، تُرجم الى الاسبانية في النصف الاول من القرن الثالث عشر ثم الى اللاتينية فالفرنسية فالانكليزية. وقد كانت طبعته الانكليزية، التي اخرجها وليم كاكستون سنة ١٤٧٧، اول كتاب طبع بتلك اللغة ممهوراً بتاريخ الطبع وموضعه. وقد ظلت المؤلفات التي غذاها هذا الكتاب العربي ذات اثر في عالم الفكر والتأليف في اوربا الغربية، اكثر من اربعة قرون.

المدارس

وجرت المدارس والمساجد مجرى المستشفيات. فقد عمل النوريون في سورية على انهاض نوع من المعاهد عرف بالمدرسة «هو مسجد جامعي» والمدرسة هذه لم تكن وليدة بيت الحكمة الذي انشأه المأمون في بغداد سنة ٨٣٠ ليكون ندوة عامة للعلوم والفنون، بل لعلها اقرب لان تكون وليدة النظامية التي تأسست في بغداد سنة ١٠٦٧ واتخذت اسمها من الوزير الفارسي. نظام الملك الذي استوزره سلاطين السلاجقة الاولون. كانت هذه المدارس معاهد مسجدية، وحلقات فقهية، ومجامع شرعية. انشأتها الدولة من اجل ان تثبت مذهب اصل السنة وتعمل على نشره. وكانت تعنى بالتعاليم التي اقرتها السنة وايدها الفقه الاسلامي درساً وتدريساً. وكان الاساتذة والطلاب يتناولون مرتباتهم من وقفيات[٣] لهذه المؤسسات، ويقيمون في اماكن مهيئة لهم فيها. وكان المدرسون من جماعة الفقهاء والعلماء والمحدثين. ولم تكن الوظائف المدنية متاحة بحسب العرف الجاري، لغير من طلبوا العلم في احدى هذه المدارس. واذا لمس النوريون وبعدهم الايوبيون الفائدة التي تعود على الدولة من مثل هذه المدارس، عمدوا الى الانتفاع بها قدر المستطاع؛ فبنى نور الدين مثل هذه المدارس، ليس في دمشق وحدها، بل وفي حلب وحمص وحماة وسواها من المدن السورية[٤]. وفي دمشق اليوم ثلاث من مدارسه هي اقدم ما بقي

---

١) المجلد الاول، ص ٩، ١٦، ٢١، ٢٨، ٣٠، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٤٧، ٥٠.

٢) ياقوت، ارشاد الاريب، ج ٦، ص ٢٤١؛ القفطي، ص ٢٦٩.

٣) راجع ص ٨٨ من هذا الجزء.

٤) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٢١؛ ابن الاثير، ج ١١، ص ٢٦٧. للاستزادة عن المدارس في حلب راجع: J. Sauvaget, *Alep* (Paris, 1941), pp. 122-4, 148.

من هـــذا النوع من المباني ؛ وهي ذات شكل هندسي مصلب منقول عن اصل فارسي . وقد دفن نور الدين في احداها . وهي المدرسة النورية التي قال ابن جبير[١] في وصفها انها من اجمل المباني المدرسية في العالم . وقـــد نقشت على الحجر كتابة بسيطة لا تزال تقرأ بسهولة هي « هـذا قبر الشهيد نور الدين بن زنكي رحمه الله » وما زال الدمشقيون يكرمون هذا الضريح الى اليوم. اما قبته فمن الطراز المعروف بالمقرنص[٢]. وقد اعتبره الكثيرون من الرواشح، بينما هو على الاصح من الرفارف. وعن طريق هذا البناء توثقت الصلة بين المدرسة والتربة والمسجد في سورية .

وكان نور الدين سخياً في بناء المساجد ، شأنه في بناء المدارس . وهوذا مسجد حماة لا يزال يحمل اسمه فيعرف بالنوري. مجهز بالماء الجاري، كما كانت سائر المساجد الكبرى والمستشفيات والمدارس التي انشأها . وقد عمل كذلك على ترميم المساجد القديمة في عدد من المدن اخصها حلب حيث جـــدد بناء القلعة الشهيرة . ولا تزال نقوشه ظاهرة على الجانب الغربي من برج القلعة وهـذه النقوش النورية تمثل نقطة تحول في علم الخطوط العربية ، اذ بها يتعيّن العهـــد الذي حل فيه الخط النسخي العادي المستدير محل الخط الكوفي الحاد الزوايا .

وقد سلك الايوبيون في النهج الذي اختطه النوريون قبلهم ، فاستأنف العادل اخو صلاح الدين بناء مدرسة كان نور الدين قد شرع ببنائها قبله ، فدفن فيها ؛ وهي المعروفـة اليوم بالعادلية . والتي يشغلها في الوقت الحاضر المجمع العلمي العربي في دمشق[٣] .

وكان صلاح الدين منافساً لنور الدين في رعاية المشاريع الانشائية والتعليمية. فقد عرف معاصره ابن جبير[٤] في دمشق عشرين مدرسة، ومئة حمام عمومي ، واربعين داراً للوضوء ، وعدداً كبيراً من تكايا الدراويش[٥] ، جلها مجهز بالماء الجاري. وصلاح

---

١) ص ٢٨٤. راجع النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، نشر جعفر الحسني (دمشق، ١٩٤٨)، ص ٦٠٦ — ٧ .

٢) اللفظة تحريف للفظة يونانية الاصل؛ انظر Herzfeld in *Ars Islamica*, vol. ix (1942), p. 11.

٣) النعيمي ، ص ٣٥٩ .

٤) ص ٢٨٣ ، ٢٨٨ .

٥) يعرف واحدها بالخانقاه ، واللفظة فارسية .

الدين هو الذي ادخل تكية الدراويش ونظام المدرسة الى مصر ؛ وكان غرضه من انشاء نظام المدرسة فيها محاربة التعليم الشيعي[١] . ثم بنى في مــدينة القدس مستشفى ومدرسة وتكية نسب كل منها اليه وعرف باسمه[٢] .

الهندسة المعمارية وفن الزخرفة في عهد المماليك

ولقد اتبع المماليك في مصر الطراز الايوبي السوري في الهندسة المعمارية . ويتمثل هـذا الطراز في مصر اليوم في عـدد من اروع المباني التي اخرجها الفن العربي على الاطلاق . وتتميز هذه المدرسة المعمارية بقوة البناء ومناعته ، ووفرة الزخارف فيه . وتبدو الرسوم الزخرفية التي يزدان بها بالغة الاناقة ، راسخة في الحجر الصلد الناعم الذي نقشت فيه . وفي القرن الثالث عشر استقبلت مصر مؤثرات جديـدة سورية عراقية ، وذلك على يد الفنانين من ارباب الصناعة الذين لجأوا اليها من دمشق وبغداد والموصل، فارين من وجه الغارات المغولية . وهي ظاهرة في مباني المدارس والمساجد والمستشفيات والقصور وتكايا الدراويش . فقصر « الابلق » المشهور الذي بنـاه المملوك الناصر سنة ١٣١٤ اختار له طراز احـد قصور دمشق ، والزخارف التي ازدانت بها مباني الايوبيين والمماليك قد زادت في روعتها الهندسية زيادة عظيمة . وكان مما ابتدعه الايوبيون الحرص على إتقان التفاصيل ، والمزيد من الدقة في مراعاة النسبة القياسية ، والاكثار من الرواشح السقفية . وحصل، إلى ذلك ، تحول عن الشكل المربع المستوي الجوانب ، الذي كان متبعاً في بناء البروج . وكذلك المآذن المتقنة ، فقد نشأت في عهد المماليك البحرية من اصول ايوبية . على ان اروع المآذن إنما تعود إلى العهد البرجي، الذي بلغ فيه فن الهندسة المعمارية العربية، كما يتجلى في المباني المسجدية، اقصى روعته ومنتهى رقيّه[٣] .

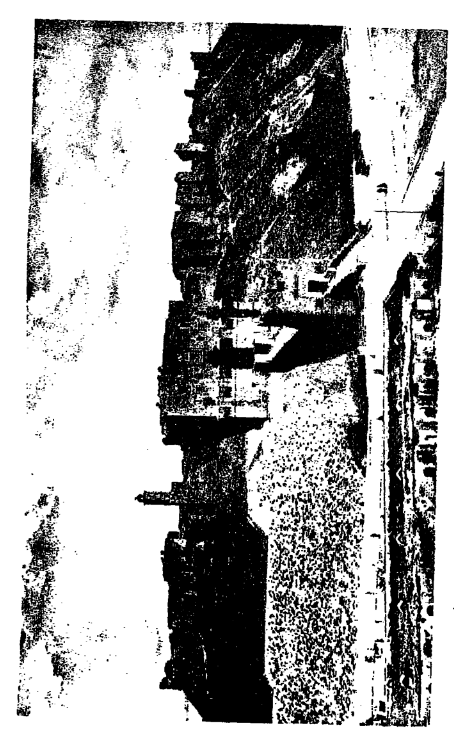
وقد تحدر الينا من العهــد الايوبي المملوكي نماذج رائعة من المصنوعات الفنية

---

١) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٥٢١ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨ ؛ قابل : المقريزي ، ج ٢ ص ٣٦٣ .

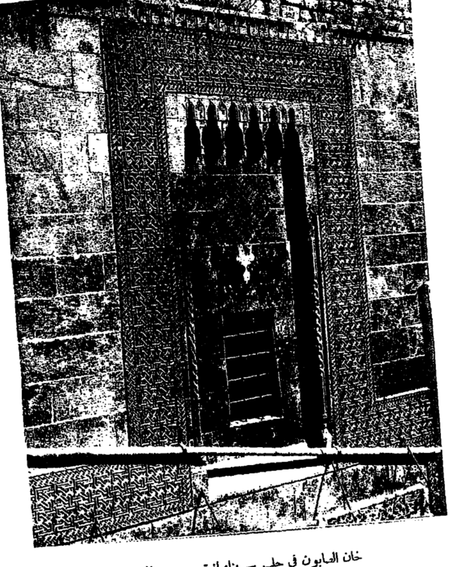
٢) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٥١٦ ؛ المقريزي ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

٣) انظر : René Grousset, *the Civilizations of the East*, vol. i, *The Near and Middle East*, tr. Catherine A. Phillips (New York, 1931), p. 235; M. van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, pt. 2, vol. i (Cairo, 1922) p. 87 seq.



قلعة حلب القديمة وقد رمّها نور الدين والى يسار المدخل برج بيزنطي اصلحه المسلمون وجعلوه مئذنة

الحديدية والادوات النحاسية والاواني الزجاجية والمحفورات الخشبية . ومما يستحق إشارة خاصة من الادوات النحاسية ، المزهريات والاباريق والاطباق والشماعد



خان الصابون في حلب — بناء انيق من عهد المماليك

والمباخر وغلافات القرآن ؛ وجميعها زاخرة بضروب الزركشة والتزويق . قال احد المعاصرين في وصفها :

ومع هذا الاسراف الباهر في الرسوم ، فان الزخرفة ، مع ما يتخللها من كتابة كوفية بارزة ، واوراق نباتية متلاحقة ، واشكال فنية متشابكة ، ونماذج زهرية الصورة ، وزخارف عربية الطراز ، وشعائر

ترمز الى البطولة ؛ فقد احتفظت بما يوحي العزم والثقة بالنفس ، فإذا هي تدعو الى اغتباط الذهن فضلاً عن ارتياح البصر . وذلك في رأينا هو السر الكامن في فن الزخرفة العربية [١] .

أما دمشق فقد احرزت شهرة خاصة بصناعة المراكن والاطباق الذهبية ، المنزلة بالزخارف الفضية ذات الاشكال الهندسية والرسوم النباتية ، وغير ذلك من الزخارف الدقيقة . وقد ذكر رحالة ايطالي [٢] زار دمشق سنة ٨٥/١٣٨٤ « ان الوالد إذا كان جوهرياً تعذر على الابن ان يمارس حرفة اخرى » . وهكذا قضت الظروف على ابناء الحرفة ان يتقنوها إتقاناً تاماً . ثم ان الزخارف التي تزدان بهـا ابواب المساجد البرونزية تشهد لذوق العصر الرفيع ، وكذلك المحفورات الخشبية الحافلة بالرسوم النباتية والاشكال الهندسية ، فانها تنبئ بالتحرر من قواعـد الفن الفاطمي . وفي المتحف العربي في القاهرة زجاجة عليها اسم الناصر صلاح الدين سلطان دمشق وحلب (١٢٥٠–٦٠) هي من اقدم عينات الزجاج المطلي بالميناء . وتشهد مصابيح المساجد المحفوظة في هذا المتحف وفي سواه من المتاحف بان سورية ظلت الى ذلك الحين متفوقة على جميع البلدان الاوربية في فن صناعة الزجاج [٣] .

المجهود الفكري

أما على الصعيد الفكري فإن العصر الايوبي المملوكي كان عصر تجميع وتقليد اكثر منه عصر توليد وإبداع . ومع هذا فقد بقيت دمشق والقاهرة ، لاسيما بعد خراب بغداد وانهيار الحكم الاسلامي في اسبانيا ، المركزين المقدمين في شؤون التعليم والفكر في العالم العربي . فقد كان من شأن المدارس التي أسست في هاتين المدينتين ، ورصدت لها الاموال الطائلة ، ان تعمـل على حفظ العلوم العربية ، والاجتهاد في بثها ونشرها .

التصوف الاشراقي

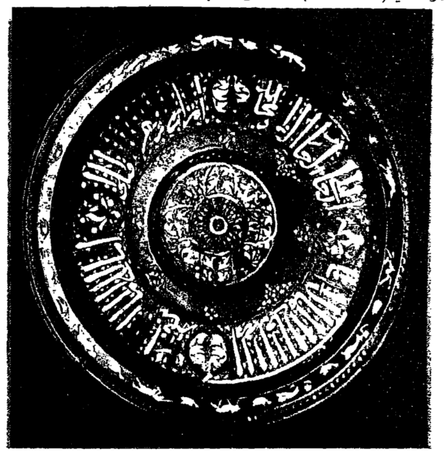
وقد ظهرت في التصوف اتجاهات جديدة هامة ؛ وكانت حلب قد غدت في عهد

١) Grousset, p. 234

٢) Simone Sigoli in Cesare Angelini, *Viaggi in Terrasanta* (Florence, 1944), p. 227.

٣) انظر Sarton, vol. iii, p. 173

الملك الظاهر ابن صلاح الدين مسرحاً لنشاط احد المتصوفين البارزين ، هو شهاب الدين السهروردي (١١٥٥ — ٩١) ، مؤسس مذهب التصوف الاشراقي[١]، ومنشئ إحدى



طبق من نحاس منزل بنوع آخر من المعادن وهو يمثل الفن في عهد المماليك في دمشق في القرن الرابع عشر

طرق الدراويش ، ويقوم هذا المذهب على ان النور جوهر الله وحقيقة الاشياء الاساسية ، وانه يمثل المعرفة الصحيحة والطهارة التامة والمحبة الخالصة والخير المحض. وبيّن ان هذه النظرية تضم آراء من الزرادشتية — لاسيما المانوية — والافلاطونية الجديدة والتعليم الاسلامي . ومعلوم كذلك ان الاشراق إنما هو وليد التعليمين الافلوطيني والماني[٢] ، وان السهروردي نفسه ولد في فارس . وجدير بالذكر ان

---

١) راجع الحاجي خليفة ، ج ٣ ، ص ٨٧ وما بعد .

٢) راجع Arthur. J. Arberry, *An Introduction to the History of Ṣufism*, **(London, 1942), p. 32.**

مبادئ الافلاطونية الجديدة قد تسرّبت ، ولو جزئيا ، من مصادر مسيحية غلب فيها الاصل السرياني ، وان القرآن نفسه يشتمل على آيات تصف الله بانه نور (سورة النور ، الآية ٣٥) . وقد خصص الغزالي ، قبل السهروردي بزمن طويل ، رسالة كاملة هي « مشكاة الانوار » لمعالجة هذه الفكرة[١] . وهو ايضاً يرى ان الله إنما هو النور الحقيقي الاوحد ، وان سائر الانوار لا تعدو كونها اشعاعات منه او انعكاسات عنه . وكان نساك النصارى قد سبقوه الى الالماع بأن هنالك نوراً روحانيا يتخلل الكون ، وان هذا النور إنما هو إشعاع من الذات الالهية ، وجوهر الكائنات بجملتها فالغزالي ، في ما يظهر ، قد اتصل اثناء مروره في سورية بتعاليم بعض نساك النصارى التابعين للكنيسة اليونانية ؛ بحيث غدا غرضه الاول ، التوفيق بين السنة الاسلامية والتعليم الصوفي . وقد خلف السهروردي عــدة مؤلفات[٢] اهمها كتاب «حكمة الاشراق» [٣] وكان لهذا الناشئ الصوفي من الحمية الصوفية المتقدة ما هاج الفقهاء المحافظين عليه ، ودعاهم الى الالحاح على الظاهر ابن صلاح الدين ، بان يأمر باعدامه جوعاً او خنقا[٤] . وجاء من ثم لقبه « بالشيخ المقتول » . ومدفنه قائم الى اليوم قرب دار البريد في حلب .

ابن عربي

وهنالك علم آخر من اعــلام التصوف الاشراقي هو محي الدين ابن عربي (١١٦٥ — ١٢٤٠)[٥] . ولد في الاندلس ، وقضى ايامه الاخيرة في سورية . وابن عربي هذا لم يكن فيلسوفاً شموليا فحسب ، بــل يعتبر صاحب اعظم عبقرية تأملية في التصوف الاسلامي . ولعله غـادر موطنه في الاندلس فراراً من القيود التي كانت آنذاك مفروضة على التفكير الحر ، في ذلك الصقع الذي احرقت فيــه مؤلفات

---

١) (القاهرة ، ١٣٢٢) .

٢) راجع جدول مؤلفاته في ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ — ٥٨ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٧٠ — ٧١ . واحدى القصائد التي اثبتها له ابن خلكان لا تزال تنشد لاسيما في الحلقات الصوفية .

٣) (طهران ، ١٣١٦) .

٤) ابن شداد ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ؛ السهروردي ، ثلاث رسائل ، نشر وترجمة Otto Spies and S. K. Khatak (Stuttgart, 1935), p. 98 ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

٥) A. E. Affifi, *The Mystical Phylosophy of Muḥyid Din-Ibnul 'Arabi* (Cambridge, 1930), pp. 3, 5, 47, 108, 183-4.

الغزالي ؛ وتوجه سنة ١٢٠٢ إلى مكة حاجًا ، ثم اختار دمشق موطناً . وفيها مدفنه الذي بنى حوله السلطان العثماني سليم الاول مسجداً ، والذي لا يزال مقصد الزائرين الى اليوم . ويذهب ابن عربي الى ان الصوفي الحقيقي يسترشد بأمر واحد هو النور الباطني ، ويجد الله في جميع الاديان [1] . وفي تعاليم ريمند لال [2] ، وسواه من متصوفة النصارى ، بقايا من تأثير ابن عربي . ويتبسط ابن عربي في كتابه « الفتوحات المكية » [3] وفي كتاب « الاسراء الى مقام الاسرى [4] » في موضوعه الاثير الذي يعالج فيه صعود محمد الى السماء السابعة [5] . وجدير بالذكر ان الكثير من الدقائق المتصلة بالمشاهد والاحداث والمواقع والمباني ، المعروفة في كوميدية دانتي الالهية ، لها سابقات في كتابي ابن عربي هذين ، وفي سواهما من المدونات الاسلامية [6] .

كتابة السير

كان من اوائل الاساتذة في دار الحديث النورية في دمشق ابن عساكر [7] (١١٠٥ — ١١٧٦) ، مؤلف « التاريخ الكبير » ، الذي اوجز فيه سير جميع الوجهاء الذين سبقت لهم صلة ما بهذه المدينة ؛ لكن لم يبقَ لنا من أجزائه الثمانين إلا عدد قليل [8] . على ان شهرة ابن عساكر في كتابة السيرة لم تلبث ان كسفتها شهرة علم آخر من اعلام مدارس دمشق [9] هو شمس الدين احمد ابن خلكان ، ابرز مؤلفي السير على الاطلاق في الاسلام . وُلد في اربل ، وعين قاضي قضاة في سورية [10] سنة ١٢٦١ ، وشغل هذا المنصب في دمشق حتى قبيل وفاته سنة ١٣٨٢ ، لم ينقطع عنه إلا فترة

---

١) ابن عربي ترجمان الاشواق ، نشر وترجمة نيكلسون (لندن ، ١٩١١) ، ص ١٩ ، ٦٧ .
٢) راجع ص ٢٦٣ من هذا الجزء .
٣) الطبعة الثانية اربعة اجزاء (القاهرة ، ١٢٩٣) .
٤) (القاهرة ، ١٢٥٢) .
٥) القرآن ١٧ : ١ .
٦) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء .
٧) الكتبي ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ؛ ياقوت ، ارشاد الاريب ، ج ٥ ، ص ١٣٩ — ٤٦ ؛ السبكي ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ — ٧٧ ، النعيمي ، ص ١٠٠ — ١٠٤ ، ١٠٥ .
٨) نشر منه عبد القادر ابن بدران سبعة اجزاء (دمشق ، ١٣٢٩/٥١) .
٩) راجع ص ٢٨٤ من هذا الجزء .
١٠) السبكي ، ج ٥ ، ص ١٤ — ١٥ ، السيوطي ، ج ١ ، ص ٢٦٥ — ٦٦ .

دامت سبع سنوات . وضع ابن خلكان اول معجم لاعلام المواطنين باللغة العربية، وهو مجموعة كبيرة من السير سماها «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان [١]» وكلف نفسه عناء ايراد الاسماء بالشكل الصحيح ، وتعيين التواريخ وسرد الانساب والتحقق من الحوادث الهامة ؛ كل ذلك رغبة منه في ان تجيء تراجمه من الدقة واناقة الاخراج على خير ما يستطاع. واستأنف من بعده هذا العمل الجبار الكتبي الحلبي (ت ١٣٦٣) في مؤلف سماه «فوات الوفيات[٢]» .

وهنالك اديب آخر من مؤلفي السير كان اضخم إنتاجاً من ابن خلكان ، لكن اقل منه تدقيقاً ، هو صلاح الدين خليل بن ايبك المعروف بالصفدي ، نسبة الى صفد مسقط رأسه (١٢٩٦ — ١٣٦٣)[٣]. وكان الصفدي ابن عبد تركي ، درس في دمشق على النحوي المشهور ابي حيان التوحيدي ، ثم رافق المؤرخ المحدث الحافظ الذهبي (١٢٧٤ — ١٣٤٨)[٤]، والفقيه المتشرع تاج الدين السبكي (حوالي ١٣٢٧ — ٧٠)[٥]. وضع الذهبي مؤلفاً في تاريخ الاسلام كان من الضخامة بحيث تهيّب منه النساخ ، فظهر في اعداد دورية يفصل بين الواحد منها وما يليه عشر سنوات ؛ الامر الذي اعيا جامعي الكتب . وكان الصفدي يشغل منصب خازن في مدينة دمشق ؛ واكثر ما اشتهر بمؤلفه الضخم «الوافي بالوفيات»[٦]، الذي ارتقى عدد اجزائه الى الثلاثين ، وفي الاجزاء التي وصلت الينا منه نحوٌ من اربعة عشر الف سيرة من سير الحكام والقضاة والادباء . وهو اضخم موسوعة للاعلام في الاسلام . ففي «وفيات» ابن خلكان ٨٦٥ ترجمة ، وفي «فوات» الكتبي ٥٠٦ ترجمات ، وفي «عيون» ابن ابي اصيبعة حوالى ٤٠٠ . وقد قدّم الصفدي لمعجمه ببحث في النهج التاريخي هو الاول

---

١) نشر مرات عديدة ، والمعتمدة هنا تقع في ثلاثة اجزاء (القاهرة ، ١٢٩٩) .

٢) في مجلدين (القاهرة ، ١٢٨٣) . ولغوستاف فون غرونباوم نقد لطريقة ابن خلكان لدى مقارنتها باساليب بلوتارش وذلك في كتابه *Medieval Islam* (Chicago, 1946), pp. 279-80

٣) السبكي ، ج ٦ ، ص ٩٤ — ١٠٣ .

٤) لقد رجعنا من مؤلفاته العديدة الى كتابه «دول الاسلام» فقط وهو يقع في مجلدين طبع في حيدر اباد سنة ١٣٣٧ هـ .

٥) اعتمدنا كتابه «طبقات الصوفية الكبرى في كتابة هذه النبذة وهو يقع في ستة اجزاء وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

٦) نشره رتر H. Ritter المجلد الاول في اسطنبول ، ١٩٣١ .

من نوعه في العالم بأسره[١]. وقد جاء كتابه تكملة لمؤلفات زملائه السابقين، لا سيما «وفيات» ابن خلكان و«معجم» ياقوت. وكان ياقوت هذا في اول امره عبداً رومياً، وضع مؤلفاً هاماً في سير الادباء هو «معجم الادباء» (او إرشاد الاريب)، لكنه نال شهرة اوسع بمعجمه الجغرافي «معجم البلدان»[٢] الذي فرغ من وضعه سنة ١٢٢٨ في مدينة حلب وقدمه لوزيرها القفطي[٣]، وفي حلب قضى ياقوت نحبه.

التاريخ والجغرافيا

وبما يتصل بالسيرة والجغرافية اتصالا وثيقاً موضوع التاريخ؛ وبين المؤرخين السوريين الذين عرضوا لنا في الصفحات السابقة ابو شامة (١٢٠٣ — ٦٨)[٤] صاحب كتاب «الروضتين في اخبار الدولتين»[٥]، وجله في تاريخ نور الدين وصلاح الدين، ثم ابو الفداء (١٢٧٣ — ١٣٣٢)، احد المتأخرين من حكام حماة[٦] الايوبيين؛ ويعتبر تاريخه[٧] خلاصة وتكملة لتاريخ ابن الاثير (ت ١٢٣٤)، الا ان هذا الاخير يفوقه ضخامة. وولد ابو الفداء في دمشق حيث استقر اهله بعد فرارهم من وجه المغول. وقد حظي تاريخه من الاعجاب بما حمل الكثيرين من المؤلفين المتأخرين على اكماله وتلخيصه واختصاره. ولم يكن مؤلفه الجغرافي «تقويم البلدان»[٨] اقل خطراً، فقد صدره بمقدمة دافع فيها عن فكرة كروية الارض، واستشهد على صحتها بزيادة نهار او نقص آخر لدى السفر حولها في اتجاه معين. وربما صح اعتبار هذا المؤلف السوري «اعظم مؤرخ جغرافي في ذلك العصر على اختلاف الاوطان والاديان»[٩]. وكان لابي الفداء مواطن معاصر هو شمس الدين الدمشقي (ت ١٣٢٦)،

---

١) راجع: Sarton, vol. iii, p. 309.

٢) نشره وستنفيلد في ستة اجزاء (ليبتزغ، ١٨٦٦/٧٣)؛ وقد ظهر في بيروت سنة ١٩٥٧ بطبعة جديدة في خمسة اجزاء.

٣) راجع ص ٢٨٢ من هذا الجزء.

٤) الكتبي، ج ١، ص ٣٢٢ — ٢٥.

٥) في مجلدين (القاهرة ١٢٨٧ — ٨٨).

٦) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء.

٧) في اربعة مجلدات (القسطنطينية، ١٢٨٦).

٨) نشره M. Reinaud and MacGuckin de Slane (Paris, 1840)

٩) راجع: Sarton, vol. iii, p. 308

وضع رسالة في الجغرافيا الفلكية هي « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر »[١] . ومع ان هذه الرسالة اقل شأناً من « التقويم » من الناحية الرياضية ، فانها اجل منه شأناً من حيث المعلومات المتعلقة بالظواهر الطبيعية والثروة المعدنية والشؤون السلالية . وقد اشتهر في هـــذا الموضوع عالم آخر هو ابن فضل الله العمري . شغل منصب صاحب الخاتم في بلاط المماليك في القاهرة ، ثم عاد الى مسقط رأسه دمشق ، وفيها مات بالطاعون سنة ١٣٤٩ . وضع العمري مؤلفين هامين : الاول « مسالك الابصار في ممالك الامصار »[٢] ، والثاني « التعريف بالمصطلح الشريف »[٣] والثاني دليل ينتفع به رجال الادارة والسياسة .

ولقد برز بين المؤرخين في عصر المماليك اثنان : مصري هو المقريزي ، وتونسي هو ابن خلدون . وكان لكل منهما صلة وثيقة تربطه بسورية . اما المقريزي (١٣٦٤ — ١٤٤٢) ، صاحب الكتاب القيّم المعروف بالخطط[٤] — وقد ذكرناه تكراراً في ما سبق — فمتحدر من اصل بعلبكي ، وشغل كرسي استاذ في دمشق بعد ان تتلمذ على ابن خلدون . وكان ابن خلدون قاضي قضاة في مصر ؛ وقد رافق المملوك السلطان الناصر فرج الى دمشق في حملته لوقف زحف تيمور ، وحل ضيفاً مكرماً على قائد المغول الخيف[٥] . « ومقدمة ابن خلدون »[٦] هي الجزء الاول من تاريخه الشامل[٧] ، وقد اهلته لان يعتبر اعظم من انجبهم الاسلام من فلاسفة التاريخ . فشرحه للاحداث التاريخية والخصائص القومية ، على اسس اقتصادية وجغرافية وعضوية ، واعتبارات مدنية اخرى ، محاولة لم يسبقه الى مثلها احد من علماء الاسلام ، ولم يخلفه فيها زميل جدير باستئناف جهده .

---

١) نشره A. F. Mehren (St. Petersburg, 1865).

٢) نشر احمـــد زكي المجلد الاول (القاهرة ، ١٩٢٤) وقرظه عبد اللطيف حمزة في كتابه : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول (القاهرة ١٩٤٧) ، ص ٣٢٤ — ٢٧ .

٣) (القاهرة ، ١٣١٤) .

٤) في مجلدين (القاهرة ، ١٢٧٠)

٥) ابن خلدون ، التعريف ، نشر محمد الطنجي (القاهرة ، ١٩٥١) ص ٣٦٦—٨٣ .

٦) نشرها كاترمير في ثلاثة مجلدات (باريس ، ١٨٥٨) قبل الطبعة المصرية (القاهرة ، ١٢٨٤) .

٧) في المجلد السادس (القاهرة ، ١٢٨٤) ، ص ٣٧٩ وما بعد ترجمة وافية كتبها هو عن نفسه هي خير مصدر لحياته .

هذه السلسلة من اصحاب التراجم والجغرافيين والمؤرخين ، والعلماء الافذاذ الموسوعيين ، التي بدأت بابن عساكر وختمت بابن خلدون ، جعلت لسورية ومصر ، في عصر الايوبيين والمماليك ، مكانة منقطعة النظير بين البلدان الاسلامية .

تيمورلنك

كانت حملة تيمورلنك على سورية آخر الحملات المغولية . وتيمور هذا يدعي انه سليل جنكيزخان[١] ؛ انطلق بجموع قبائله كالعاصفة الهوجاء من اواسط آسيا ، واكتسح غربي آسيا تاركاً في اثره الدمار والخراب . وللمرة الرابعة او الخامسة وجدت سورية نفسها طريحة عند اقدام المغول[٢] . ففي تشرين الاول سنة ١٤٠٠ ابيحت مدينة حلب مدة ثلاثة ايام للنهب والسلب ؛ ولعلها المرة الاولى التي اخذت فيها قلعتها عنوة ، ولكن بعد ان ضحى الغزاة من رجالهم بما كان كافياً لان يملأ الخندق المحيط بها بجثث القتلى ، وبلغ عدد القتلى من الاهلين نحواً من عشرين الفاً . وقد نضدت رؤوس القتلى في كومة بلغ ارتفاعها عشر اذرع ومدارها عشرين ذراعاً[٣] . اما المدارس والمساجد التي انشأها النوريون والايوبيون ، والتي فاقت كل تقدير ، فقد عفا اثرها الى الابد . وبعد ان اباد الغزاة طلائع جيش السلطان فرج ، خلت امامهم السبيل المؤدية الى دمشق ، لكنّ قلعتها صمدت في وجههم مدة شهر استسلمت المدينة بعد انقضائه ؛ غير ان الفاتحين اخلوا بشروط التسليم ، فتعرضت المدينة للنهب واضرمت فيها النيران . فقد حصر ثلاثون الفاً من سكانها ، رجالاً ونساء واطفالاً ، في جامعها الكبير ؛ ثم اضرمت فيه النار ، فلم يبق قائماً من بنائه الا الجدران . وعلى الاثر نقل خيرة من كان فيها من علماء ومحترفين وفنانين وحدادين[٤] وصانعي الاسلحة والادوات الزجاجية الى سمرقند ، عاصمة تيمور ، من اجل ان ينشئوا فيها هذه الصناعات ، وسواها من الفنون الفرعية . وبذلك فقدت

١) قابل : ابن عربشاه عجائب المقدور في اخبار تيمور (القاهرة ، ١٢٨٥) ص ٦ .

٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء .

٣) ابن تغري بردي ، ج ٦ ، ق ٢ ، ٥٢ ؛ قابل ابن اياس ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

٤) لعل الحديد الخام كان يستورد من جبال لبنان . راجع ص ٣٦ و ص ٣٠٥ من الجزء الاول ، وص ٢٠٢ من هذا الجزء من الكتاب .

دمشق القيادة في فنون الزخرفة الدمشقية. وقد خلف لنا ابن تغري بردي[1] — وكان ابوه المرافق الاول للسلطان فرج — وصفاً مفصلاً للحملة السورية بكاملها. وربما كانت هذه الحملة اشد صدمة عانتها المدينة ان لم نقل البلاد باسرها.

وكان الفاتح الجامح قد سحق الجيش العثماني عند انقرة، واجتاح بروسا وازمير، واسر بايزيد الاول[2]. على انه كان من حسن حظ المماليك ان لاقى تيمور حتفه سنة ١٤٠٤؛ ونشب على اثر ذلك نزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية، استنفدت قواهم جميعاً. فاتاح ذلك للسلطة العثمانية ان تستعيد سيادتها على آسية الصغرى، وسهّل للسلالة الصفوية بعد ذلك، ان تفرض سلطتها على فارس

العثمانيون يناضلون المماليك والصفوية

هذه المنافسة بين المماليك والسلطنة العثمانية على السيادة في آسيا الغربية بلغت حدتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ثم لم تلبث الدولة الصفوية ان تورطت في هذه المشادة في اوائل القرن السادس العشر. واشد ما تأزمت العلاقات بين العثمانيين والمماليك في عهد خشقدم (١٤٦١ — ٦٧) الذي كان، خلافاً لسابقيه الاتراك والجراكسة، مملوكاً رومياً[3]، وفي عهد محمد الثاني فاتح القسطنطينية. لكن القتال لم ينشب، حتى سنة ١٤٨٦، عندما عمد قائتباي الى منازعة بايزيد الثاني السلطة على ادنا وطرطوس وسواهما من الثغور. فقد ارسل هذا المملوك، في اواخر عهد سلطته، رسالة الى البابا انذره فيها باتخاذ تدابير انتقامية بحق نصارى سورية، اذا استمر فرديناند في ابادة ما بقي للمسلمين من سلطة في اسبانيا. وبعد ذلك بقليل نشب ما بين العثمانيين والفرس، نزاع انتهى بالقضاء السريع على الجيش الصفوي، وباكتساح سليم الاول (١٥١٢ — ٢٠) للعراق. والصفويون من غلاة الشيعة، وكانوا قد جعلوا مذهبهم الدين الرسمي للدولة. وقد اتهم سليم الاول المملوك قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٦) بعقد معاهدة مع شاه الصفوية ضده، وبانه آوى بعض اللاجئين السياسيين.

---

١) المجلد السادس، القسم الثاني ص ٥، س ١٤، ص ٥٠ وما بعد. قابل: ميرخوند، تاريخ روضة الصفاء (طهران، ١٢٧٠) الكتاب السادس؛ المقريزي، ج ٢، ص ٢٤١.

٢) ابن عربشاه، ص ٦، ابن اياس، ج ١، ص ٣٣٤؛ ج ٣، ص ٤٨.

٣) ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٦٨٥.

النصر الحاسم في مرج دابق

وكان قانصوه في هذه الاثناء قد اتجه شمالاً بحجة عزمه على التوسط بين المتخاصمين[١] . وكان في موكبه قاضي قضاة مملكته والخليفة بالذات ، وهو آنذاك المتوكل سليل المستنصر (عم آخر الخلفاء في بغداد) ، وخليفته . وكان بيبرس قد اقام المستنصر في مصر سنة ١٢٦١ من اجل ان يجعل لسلطته طابعاً شرعياً ، ويضفي على بلاطه سمة السيادة العليا في نظر المسلمين[٢] . فارسل قانصوه الى سليم الاول رسولاً خاصاً ، لكن سليماً لم يجد وسيلة لاذلاله خيراً من ان يأمر بحلق لحيته ، وباعادته على حمار اعرج ، يحمل الى سيده علماً باعلان الحرب . والتحم الجيشان يوم ٢٤ آب سنة ١٥١٦ في مرج دابق الملطخ بالدم ، شمالاً من مدينة حلب . وكان قانصوه في اول امره عبداً لقائتباي ؛ وقاتل الآن ، وهو في اواسط العقد الثامن ، قتال الابطال لكن بغير جدوى. ولم يكن باستطاعته ان يعتمد على اخلاص ولاته السوريين ، ولا ان يقف بجيوشه في وجه جيش الانكشارية[٣] المخيف ، المتفوق بعدده الحربية . فان خائر بك حاكم حلب الخائن ، الذي عهد اليه بقيادة الجناح الايسر، انهزم هو ورجاله عند الهجوم الاول[٤] . وقد استخدم الجيش التركي المدافع والبنادق وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد . وكان الجيش المصري يضم جماعات من البدو والسوريين لا عهد لهم بمثل هذا السلاح ، متشبثين بالنظرية القديمة التي تعتبر البطولة الشخصية العامل الفاصل في القتال . واستخدم الاتراك كذلك البارود[٥] ، «والمدافع الكبار على عجل تجرها خيول[٦] . وفي غمرة القتال اصيب

---

١) القرماني ، اخبار الدول وآثار الاول (بغداد ، ١٢٨٢) ص ٢١٩ — ٢٠ .

٢) المقريزي ، ترجمة Quatremère, vol. i (p. t. 1) pp. 146-68 ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ — ٨٣ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٤٩ — ٥٢ ؛ ابن اياس ، ج ١ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

٣) من التركية بمعنى الجيوش الجديدة ، ويطلق على فرق المشاة النظامية المؤلفة بالاكثر من فتيان النصارى المأسورين وعلى يدهم تمت اكثر الفتوحات .

٤) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ٥١ .

٥) يبدو ان البارود اختراع صيني . ادخله المغول الى اوربا سنة ١٢٤٠ وتم به بعدئذٍ اختراع الاسلحة النارية . قابل :.Sarton, vol. iii, pp. 722-23 ولعل اول من عرض لذكر المدفعية يحيى ، ص ٢٢٩ ، حيث ذكر ان ملاحي جنوى قذفوا بيروت بالمدافع سنة ١٣٨٢ .

٦) القرماني ، ص ٢٢٠ .

قانصوه بسكتة قلبية، سقط على اثرها عن صهوة حصانه، فتم بذلك النصر للسلطان سليم، واعتقل الخليفة، ثم اخذه الى القسطنطينية. اما الادعاء بان الخليفة اوصى بمنصبه الرفيع الى السلطان العثماني، فحكاية من مولدات القرن التاسع عشر. وقد عثر السلطان سليم في قلعة حلب على كنوز للمماليك قدرت بملايين الدنانير. وفي اواسط تشرين الاول اتجه نحو دمشق، فانتقلت سورية بيسر الى ايدي الاتراك، وقدر لها ان تبقى بيدهم اربعة قرون كاملة. وقد رحب اهلها باسيادهم الجدد على اعتبار انهم منقذون من الاسياد السابقين، شأنهم في كثير من المناسبات السابقة المماثلة.

خاتمة حكم المماليك

زحف الجيش العثماني من سورية جنوباً نحو مصر، وكان قد نودي بطومان باي سلطاناً عليها، وكان في اول امره عبداً لقانصوه. والتقى الجيشان في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧ خارج القاهرة. فانهزم الجيش المصري، بعد ان «اثخنته القذائف»[١]. وهرب طومان باي الى مضرب من مضارب البدو. لكنه سلم غدراً ثم شنق في ١٧ نيسان على باب من ابواب القاهرة الرئيسية[٢]، ولم تعد مصر بعد ذلك دولة ذات سيادة.

اما الحجاز بمدينتيه المقدستين، فقد غدا بحكم الواقع جزءاً من الامبراطورية العثمانية الناشئة. وفي صلاة الجمعة الاولى بعد الحدث ابتهل الواعظون الى الله ان يضفي بركته على السلطان الفاتح بهذه الالفاظ:

انصر اللهم السلطان ابن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه؛ اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً مبيناً، يا ملك الدنيا والآخرة، يا رب العالمين (٣).

وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ العرب، هو عهد سلطة الاتراك العثمانيين.

---

١) ابن اياس، ج ٣، ص ٩٧.

٢) ابن اياس، ج ٣، ص ١١٥؛ السيوطي، ج ٢، ص ٩٠؛ القرماني، ص ٢٢٠؛ قابل سعد الدين، تاج التواريخ، ج ٢، (القسطنطينية، ١٢٨٠) ص ٣٦١.

٣) ابن اياس، ج ٣، ص ٩٨.

القسم الخامس

تحت الحكم العثماني

الفصل الثامن والاربعون

سورية اقليم تركي

الدولة العثمانية

ان الدويلة التركية في غربي آسية الصغرى قــد نهضت، من نشاة وضيعة في اوائل القرن الرابع عشر، الى مركز شامخ في آسيا الغربية وجنوبي شرقي اوروبا وشمالي شرقي افريقيا، وذلك في خلال القرنين التاليين؛ وكان قيامها على هذا النحو من ابرز الاحداث في التاريخ الحديث. عُرفت لفظة «ترك» لاول مرة اسماً لاقوام من بداة آسيا الوسطى[1] سنة ٥٠٠ م. وفي خلال القرن السادس تمكنت الشعوب التركية من انشاء دويلات بدوية انتشرت في منغوليا وحـدود الصين الشمالية حتى البحر الاسود. وكما عاش الاعراب على الجمال كذلك عاش الاتراك على الخيل، فشربوا البانها واكلوا لحومها وامتطوها في طلب النصر. وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال، وكانت الميزة التي تفوقوا بها عـلى خصومهم سرعة الانتقال. كان اول اتصالهم بالشعوب الهندية الاوربية في تركستان، وفي هذا البلد واجههم العرب الفاتحون للمرة الاولى، وذلك في اواخر القرن السابع واوائل الثامن[2]. فعندما بلغ آسية الصغرى بعد ذلك، من عرف منهم بالعثمانيين وجدوا البلاد قد تتركت جزئياً على يد انسبائهم السلاجقة[3]. ويعود السلاجقة والعثمانيون بالنسب الى قبيلة الغز، او الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم.

اما المؤسس الذي تسمت باسمه الدولة والسلالة التي عرفت بالعثمانية فزعيم شبه تاريخي اسمه عثمان[4] (١٢٩٩ — ١٣٢٦) ويستدل من اسمه هـذا — اذا صح — ان

---

١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء.

٢) راجع ص ٦٥ — ٦٦ من هذا الجزء.

٣) راجع ص ٢٠٤ — ٢٠٥ من هذا الجزء.

٤) راجع بشأنه: Mehmed Fuad Koprülü, *Les Origines de l'empire ottoman*, (Paris, 1935) pp. 87 seq.; Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938) pp. 7 seq.; Joseph von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches*, vol. i (Pest, 1827), pp. 40 seq.

عشيرته كانت آخذة في اعتناق الاسلام او قد اعتنقته نهائياً[1] . وعلى اثر اتباعهم للدين الجديد تسربت الى لغتهم التركية الوف التعابير الدينية والعلمية والادبية العربية، وبعض الالفاظ الفارسية. ولما لم يكن للغة التركية الا القليل من الادب المدوّن[2]، عمدوا الى اقتباس الحرف العربي، واستمروا عليه في مدوناتهم حتى كان الاصلاح الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨ . وقد بقيت الدولة العثمانية، بعد ان تأسست حوالي سنة ١٣٠٠، نحواً من ست وستين سنة مجرد امارة قائمة على الحدود، واتخذت بعد سنة ١٣٢٦[3] مدينة بروسا قاعدة لها . ثم غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة ادرنة . وكان استيلاء محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١ على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة عهدها الامبراطوري. وبذلك غدت هذه الدولة الاسلامية التركية وريثة للامبراطورية البيزنطية، وظفرت في ما بعد بضم عدد من الدول العربية، تمكنت من سلخها عن الخلافة العباسية. وقد

---

١) راجع ص ٢٦٨ – ٢٧٠ من هذا الجزء .

٢) استخدم الاتراك في آسيا الوسطى الحرف السرياني، راجع ص ١٣٨ وقابل ص ١٨٣ من هذا الجزء .

٣) شكل شجري لسلالة الحكام الاتراك الاولين .

١. عثمان الاول (حوالي ١٢٩٩)
|
٢. اورخان (١٣٢٦)
|
٣. مراد الاول (١٣٥٩)

٤) ٣. مراد الاول (١٣٥٩)
|
٤. بايزيد الاول (١٣٨٩ – ١٤٠١)
|
سليمان (مطالب ١٤٠٣–١٠) | ٥. محمد الاول (١٤٠٣) حاكم فرد (١٤١٣) | موسى (مطالب ١٤٠٣–١٠)
|
٦. مراد الثاني (١٤٢١)
|
٧. محمد الثاني (١٤٥١)

بلغت الامبراطورية التركية اوج عزّها في عهـــد سليمان الاول الملقب بالقانوني (١٥٢٠ — ٦٦)، وهو ابن سليم الاول فاتح سورية ومصر. وتمّ في عهده الاستيلاء على الجانب الاكبر من هنغاريا، والقاء الحصار على مدينة ڤينا، واحتلال جزيرة رودس؛ واقرت شمالي افريقيا — باستثناء مراكش — بالسيادة السياسية عليها للباب العالي في القسطنطينية[1]. على ان إخفاقهم في محاولتهم الثانية لفتح ڤينا سنة ١٦٨٣ كان مؤذناً ببداية النهاية. وقد امتدت الامبراطورية في عهد سليمان الاول من بودابست على نهر الدانيوب الى بغداد على نهرالدجلة، ومن بلاد القرم الى شلال النيل الاول. ولم ينشئ المسلمون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت الى ذلك من اطول الدول الاسلامية عمراً؛ فقـــد توالى على عرشها، من سنة ١٣٠٠ حتى ١٩٢٢، عندما انحلت الامبراطورية، ستة وثلاثون سلطاناً كلهم متحدرون عصباً من عثمان، المؤسس الاول[2].

---

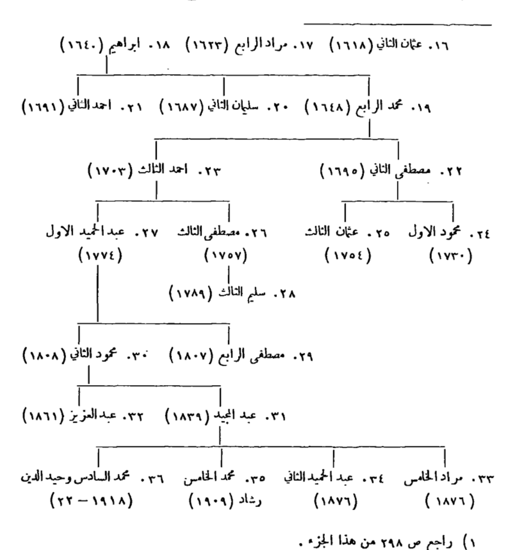
١) ٧. محمـــد الثاني (١٤٥١)
|
٨. بايزيد الثاني (١٤٨١)
|
٩. سليم الاول (١٥١٢)
|
١٠. سليمان الاول (١٥٢٠)
|
١١. سليم الثاني (١٥٦٦)
|
١٢. مراد الثالث (١٥٧٤)

٢) ١٢. مراد الثالث (١٥٧٤)
|
١٣. محمد الثالث (١٥٩٥)
|
١٤. احمد الاول (١٦٠٣) ١٥. مصطفى الاول (١٦١٧، ١٦٢٢)
|
١٦. عثمان الثاني (١٦١٨) ١٧. مراد الرابع (١٦٢٣) ١٨. ابراهيم (١٦٤٠)

(يتبع في الصفحة التالية)

الدوائر الادارية في سورية

ان السلطان سليم الاول (١٥١٢ – ٢٠) هو الذي ضمّ العالم العربي الى الامبراطورية العثمانية[١]. فعلى اثر انتصاره في مرج دابق، استسلمت حماة وحمص، فدخلها دخول الفاتحين. ولم تلبث طرابلس وصفد ونابلس والقدس وغزة ان ألقت سلاحها، ولم تعمد الى اية مقاومة[٢]. ولدى عودته من مصر، توقف طويلاً في سورية من اجل ان يثبت فيها مركزه، ويعمل على تنظيم شؤونها. ورغبة منه في تنظيم الضرائب، عين مجلساً واناط به مهمة مسح جميع الاراضي، على ان يحتفظ



١) راجع ص ٢٩٨ من هذا الجزء.

٢) ابن اياس. نشر بول كهلي ومحمد مصطفى، ج ٥، ص ١٤٩.

للتاج بقسم كبير من سهل البقاع الخصب، ووادي العاصي المثمر[١]. لكنه استمر على التدبير الذي اعتمده المماليك في تلزيم الضرائب على سبيل المزايدة. ثم انه جعل المذهب الحنفي – وهو الذي اختاره العثمانيون – المذهب الفقهي الرسمي في سورية[٢]. وقد وضع احد فقهاء حلب المعروف بابراهيم الحلبي (ت ١٥٩٤)، كتاباً في الفقه الحنفي هو «ملتقى الابحر»، غدا مرجعاً للتشريع الحنفي في الامبراطورية جملة. وقد طبع للمرة الاولى في القسطنطينية سنة ١٣٠٩/١٨٩٢.

أبقى الترك الدوائر الادارية[٣] في سورية على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك؛ لكنهم بدلوا بعض الشيء في نظام التسمية: فدعيت «النيابة» «ولاية»، وعرف «النائب» بـ «الوالي»[٤]. وصار لقب التعظيم الذي يلي اسم الوالي «باشا»، فصار «للباشوية» و «الولاية» مدلول واحد. وكانت ولاية حلب في وقت ما تشتمل على سبعة سناجق[٥]. اما ولاية دمشق، التي اتسعت باضافة القدس وصفد وغزة اليها، فقد انيطت بجان بردي الغزالي. وهو نائب دمشق الخائن الذي تواطأ مع زميله نائب حلب على الغدر بالغوري[٦]. بحيث غدا الغزالي هذا النائب الفعلي للسلطان في سورية. اما سائر الدوائر الادارية فقد اسندت الى حكام من الترك. وعلى اثر حركة التمرّد التي قام بها الغزالي قسمت سورية الى ثلاث ولايات هي: دمشق، مشتملة على عشرة سناجق اهمها: القدس ونابلس وغزة وتدمر وصيدا وبيروت؛ ثم حلب وفيها تسعة سناجق بينها شمالي سورية؛ ثم طرابلس، وفيها خمسة سناجق منها:

---

١) للمزيد عن الضرائب راجع .Omer Lûtfi Barakan, *Kanunlar* (Istanbul, 1945), pp. 206 seq

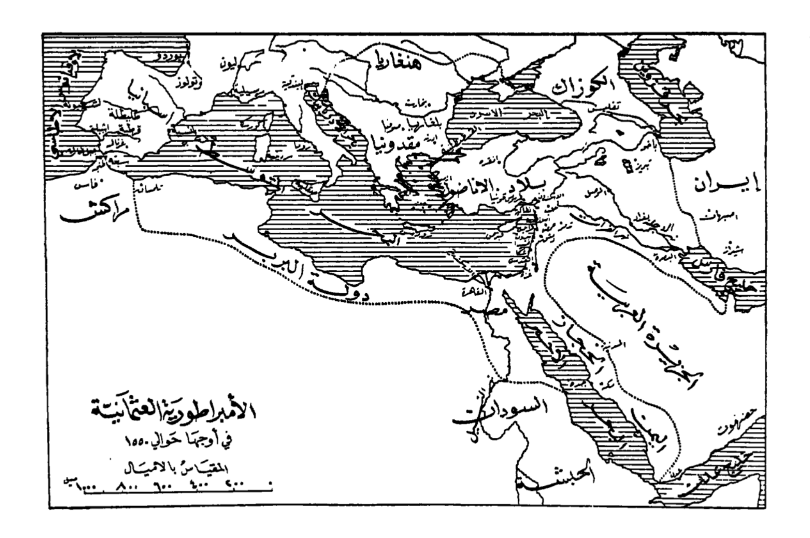
٢) ابن اياس، ج ٥، ص ٢٣٨، الغزي: الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة، نشر جبرائيل جبور (بيروت، ١٩٤٥) ج ١، ص ٢١٠.

٣) راجع ص ٢٧٤ من هذا الجزء.

٤) لم يصطلح على «المتصرفية» و «المتصرف» الا في ما بعد.

٥) انظر: .Von Hammer, vol. ii, p. 477, n. d. ان اللفظة التركية «سنجاق» المعربة «سنجق» هي ترجمة للفظة العربية «لواء» بمعنى العَلَم. وهذه التعابير جميعها كانت في ما يبدو مما استخدمه السلاجقة قبلاً.

٦) فريدون بك، مجموعة منشآت السلاطين، الطبعة الثانية (اسطنبول ١٢٧٤)، ص ٤٥٥؛ ابن اياس، ج ٥، ص ١٥٦، ١٥٧؛ سعد الدين، ج ٢، ص ٣٦٤ – ٦٥.


الأمبراطورية العثمانية
في أوروبا حوالي ١٥٥٠
المقياس بالأميال
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ ميل
هنغاريا
الكوزاك
البحر الأسود
مقدونيا
بلاد الأناضول
إيران
مراكش
دولة البربر
السودان
الحبشة
الجزيرة العربية
اليمن
مصر
القاهرة
إسبانيا
فاس
بغداد
تبريز
أصفهان

حمص وحماة وجبلة وسلمية . وقد جعلت صيدا سنة ١٦٦٠ ولاية من اجل ان تكون مركزاً للرقابة على لبنان[١].

وفي سنة ١٧٢٤ اسندت ولاية دمشق الى اسماعيل باشا العظم، كبير هذه الاسرة البارزة في دمشق؛ وكان ابنه اسعد، الذي بدأ حياته السياسية حاكماً على صيدا ثم على حماة، خير والٍ عرفته دمشق ابان الحكم العثماني. وقد تولى كذلك شؤون الحج المقدس، ولا ريب في انه جنى منه ثروة طائلة. ولا يزال قصره في مدينة حماة، الذي تشغله الآن مدرسة اهلية، من روائع الآثار المقصودة على نهر العاصي. وافخم منه القصر الذي بناه في دمشق سنة ١٧٤٩، والذي يعتبر أروع أثر عربي ظهر في هذا القرن. فطرازه الهندسي، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر في الخشب، تمثل اروع ما بلغه الفن الاسلامي في عهد انحلاله. وقد جلب من ايطاليا كل ما فيه من رخام. وكانت النيران قد ألحقت به بعض الاضرار في إبان الثورة على الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٥، لكنه رمم بعد ذلك، واتخذ مقراً للمعهد الفرنسي في دمشق. وقد عين افراد آخرون من هذه الاسرة حكاماً على دمشق وصيدا وطرابلس فكانوا اطلاقاً — بخلاف حكام لبنان — أوفياء لسلاطين بني عثمان، مع ان منهم من عزلوا وصودرت املاكهم. فإن اسماعيل نفسه قضى بعض ايامه الاخيرة في السجن، وابنه اسعد اغتيل بأمر من القسطنطينية وهو في الحمام[٢].

وضع لبنان الخاص

على ان لبنان، بمن فيه من الدروز الاشداء والموارنة المعتصمين بالجبال، كان حرياً بمعاملة خاصة. فقد قضت الضرورة على السلطة بوجوب اعترافها بمكانة الامراء الاقطاعيين من اهله[٣]، لاسيما والخطر الحقيقي إنما كان مبعثه مصر وفارس. وكان السلطان سليم قد استقبل، وهو في دمشق، وفداً من امراء لبنان على رأسه فخر الدين

---

١) راجع Lammens, *Syrie*, vol. ii, p. 60. G. Berchet *Relazioni dei consoli venete nella Siria* (Turin, 1866), pp. 89, 126.

٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢، (دمشق، ١٩٢٥) ص ٢٨٩، ٢٩٠ — ٩١؛ حيدر الشهابي، تاريخ، نشر نعوم مغبغب (القاهرة، ١٩٠٠)، ص ٧٦٩؛ — *Les Guides bleus : Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie* (Paris, 1932), pp. 124, 303-4.

٣) راجع ص ٢٧٤ و ٢٧٩ من هذا الجزء.

الاول المعني[1] من اهل الشوف، وجمال الدين التنوخي[2] من الغرب، وعساف التركماني من كسروان[3]. وكان فخر الدين، على ما ذكر مؤرخ لبناني[4]، قد نصح لأصحابه في معركة مرج دابق ان يتريثوا، ريثما يتبين الجانب المنتصر فينضموا اليه. وعندما مثل الآن في حضرة السلطان العثماني قبّل الارض بين يديه وألقى خطبة بليغة قال فيها:

اللهم ادم دوام من اخترته للملك، وجعلته خليفة عهدك، وسلطته على عبادك وارضك، وقلدته سنتك وفرضك. ناصر الشريعة النيرة الغراء، وقائد الامة الطاهرة الظاهرية، سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين، الامام العادل، والذكي الفاضل، الذي بيده ازمة الامر بادشاه، ادام الله بقاه، وفي العز الدائم ابقاه، وخلد في الدنيا مجده ونعماه. ورفع الى القيامة طالع سعده، وبلغه مأموله وقصده. من ملك الملك بالعقل والتدقيق، ومده الله بالاقبال والتوفيق. أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد، بأنعم العز والتمهيد، آمين.

فتأثر السلطان سليم بلسانه البليغ وصدقه الظاهر، وثبته وباقي الامراء اللبنانيين في اقطاعاتهم، وترك لهم الامتيازات الاستقلالية التي طالما نعموا بها في عهد المماليك، ورتب عليهم جزية خفيفة نسبياً[6]. واعتبر فخر الدين، من ثم، الزعيم الاكبر في الجبل، حتى عرف بـ «سلطان البر». ودرج سلاطين بني عثمان بعد ذلك على حكم الجبل، اما مباشرة بالاعتماد على اتباعهم من حكامه الاهليين، او بواسطة احد الولاة السوريين المجاورين. وكان هؤلاء الحكام، بوجه العموم، مستقلين استقلالاً داخلياً، يخلفون إقطاعاتهم ارثاً لبنيهم، ويمارسون السلطة المطلقة على رعاياهم. ويجبون الرسوم والضرائب على هواهم، ولا يلزمون مع ذلك بتأدية أية خدمة عسكرية الى السلطان؛ بل قد عمدوا احياناً إلى عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية.

---

١) بشأن منشأ هذه الاسرة راجع شدياق، ص ٢٤٧ — ٤٨.

٢) حيدر، ص ٥٦١؛ راجع بشأن اسرة ارسلان ص ١٧٠ من هذا الجزء وجمال من اليمنية التنوخيين الذين كانوا بالاكثر من القيسية.

٣) راجع الفصل ٤٦ ص ٢٦٠ من هذا الجزء.

٤) هو حيدر، ص ٥٦٠.

٥) حيدر، ص ٥٦١؛ قابل: الدويهي، ١٥٢؛ شدياق ٢٥١.

٦) كان نصيب كسروان منه ٤٢٠٠ غرش ذهباً لا غير؛ الدويهي، ص ١٥٢؛ عيسى أسكندر المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جونيه، ١٩٣٤)، ص ٩، ج ١.

الغزالي

وقد دلل الغزالي على وفائه للعهد الجديد بالتنكر لزعماء العرب التنوخيين من بني بحتر[١]، الذين بقوا على ولائهم للماليك، وسجنهم في قلعة دمشق. وإذ امتنع ابن الحنش، وهو الزعيم العربي في صيدا والبقاع، عن تقديم خضوعه[٢]، احتز رأسه ورأس ابن الحرفوش، وهو زعيم اسرة شيعية في البقاع، وأرسل الرأسين مع رؤوس زعماء آخرين من البدو المعتصمين في جبال نابلس، إلى القسطنطينية. على ان الذي خان أسياده الاولين، لم يستطع ان يبقى طويلاً على الولاء لأسياده الجدد. وعليه فقد انتهز الغزالي فرصة وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠، واعلن نفسه في المسجد الاموي حاكماً مستقلاً بلقب الملك الاشرف[٣]، وضرب النقود باسمه. ثم انه زيّن لزميله السابق، خائر بيك، الذي كان السلطان سليم قد كافأه بأن اقامه نائباً عنه على مصر، ان يقتدي به. لكن مدينة حلب لم تجاهر بتأييد الغزالي. فأرسل السلطان سليمان لمحاربته جيشاً أباد العصاة السوريين في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٥٢١، وقتل الغزالي في قابون قرب دمشق. وكان العقاب الذي نزل بالعاصمة السورية وضواحيها اشدّ وأدهى مما قاسته سابقاً من تيمور[٤]. فقد أبيد ثلث المدينة وقراها ابادة تامة[٥]، ومنذ ذلك الحين غدا اسم الانكشارية مقروناً في ذاكرة السوريين بالدمار والارهاب.

الجهاز الاداري

ان فلسفة العثمانيين السياسية، كما فهمها الوالي العادي على الاقل، كانت تقوم على ان الشعوب المغلوبة، من غير المسلمين، كانوا «رعية»[٦] «يتعهدهم الراعي»

١) راجع ص ١٧٠ و ص ٢٧٤ و ص ٢٧٩ من هذا الجزء. وقد زار احد هؤلاء الامراء السلطان سليم في دمشق واهدى اليه جياداً عربية؛ ابن سباط، الملحق بتاريخ حيدر، ص ٥٩٧، وبتاريخ صالح، ص ٢٦٩؛ قابل: شدياق ص ٢٤٦.

٢) حيدر ص ٥٩٦.

٣) صلاح الدين المنجد، ولاة دمشق (دمشق، ١٩٤٩) ص ٣.

٤) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء.

٥) ابن اياس، ج ٥، ص ٣٦٣، ٣٧١، ٣٧٦ – ٧٨، ٤١٨ – ١٩؛ القرماني، ص ٣١٦–١٧.

٦) استبدل بهذه اللفظة سنة ١٨٥٦ لفظة الطف هي التبعة.

لمنفعة الفاتح . وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية ، كان يعبر كذلك عن المدارك التقليدية التي جالت في اذهان الاجيال التي تحدرت من القبائل البدوية في آسيا الوسطى . فالشعوب المغلوبة في رأيهم بمثابة المواشي الانسانية ، ولذلك اقتضى ان «يُحلبوا» و «يُجزّوا» ، وانما تيسر لهم ان يعيشوا كما يبتغون، ما داموا لا يسببون المتاعب . ولما كان اكثرهم من الفلاحين والصناعيين والتجار، لم يطمحوا الى الانخراط في سلك الجندية ، ولا نزعوا الى تولي المناصب المدنية . لكن «القطيع» كان بحاجة الى «كلاب حراسة» . وكان هؤلاء يجندون بالاكثر من اسرى الحرب، والرقيق الذي في حوزتهم ، واولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدربون ويربون كمسلمين . وكان هؤلاء المجندون يخضعون لمنهج عنيف من التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة ، ويمرون في مباريات شاقة وغربلة دقيقة . فمن أبان عن فطنة وتوقد ذهن ، أُعد من جديد لتولي المناصب الحكومية ، ومن تميز بالقوة الجسدية وجّه الى الخدمة العسكرية . وكان اصلبهم يحولون الى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية . وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في الامبراطورية ، في اول الامر ، تنتقيان منهم على سبيل الحصر[1]. فرؤساء الوزارة، والوزراء ، وأمراء البحر ، والقواد ، وحكام الاقاليم ، جميعهم كانوا في ما سبق عبيداً، وكذلك بقوا . فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن تحت رحمة سيدهم السلطان الذي ما تردد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية . وليس في التاريخ المدون جهاز اداري آخر موازٍ لهذا الجهاز الغريب ، فقد جعل بيت عثمان الاسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية ، ووضع في يدهم سلطة مطلقة لادارة الدولة والذود عن حياضها .

وقد اعتمد العثمانيون اساساً آخر للتقسيم الاداري هو التابعية الدينية . ذلك ان المجتمع في الشرق الادنى كان ، منذ عصور عريقة في القدم ، يقسم على اساس الملة بدلًا من العرق او العنصر . وكانت نواة الملة في التنظيم الاداري الاسرة ، لا الاعتبار الجغرافي . ومن هنا كانت العقيدة والقومية في اذهان الناس اعتبارين متشابكين

---

١) انظر : Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent.* (Cambridge, Mass., 1913) pp. 45 seq. ; Barnette Miller, *The Palace School of Muhammad the Conqueror,* (Cambridge, Mass., 1941), pp. 6 seq., 81-82, 94-96.

يتعذر الفصل بينهما . وكانت كل من الفئات الدينية في الامبراطورية العثمانية تسمى ملة . وكانت اكبر الملل اثنتان هما ملة الاسلام وملة الروم (الارثوذكس)[١] وكان الارمن واليهود يعدون في جملة الملل . وكانت جميع الملل غير المسلمة ، تبعاً لهذا النظام ، مقسمة الى طوائف دينية يرئس كلًّا منها رئيس من ابناء الطائفة ، يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة ، بحيث أدى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بمحكومات الاقليات الخاضعة . وكان الاوربيون المقيمون في البلاد : من بندقيين وألمان وفرنسيين وانكليز ، يعاملون كسائر الملل . ففي سنة ١٥٢١ عقد السلطان سليمان معاهدة مع البندقيين في ثلاثين فصلاً ، ثبت فيها الامتيازات التي كانت لهم في ابان الحكم البيزنطي . وحصل الفرنسيون على امتيازاتهم الاولى بعد ذلك بأربع عشرة سنة[٢] ، والانكليز سنة ١٥٨٠ . ومع ان المقصود اصلاً من هذه المعاهدات انها امتيازات منحها حاكم ذو سلطان ، لا انها حقوق انتزعت من سيد ضعيف ، فقد مُنح الاجانب بموجبها امتيازات إقليمية كانت شيئاً مذلاً للترك حتى انحلال الامبراطورية .

سوء الادارة ومحاولات الاصلاح

ولم يكن الوالي في النظام العثماني اصلح من النائب في حكم المماليك ، اذ كان — نظير سلفه — مجنداً من طبقة العبيد ؛ يضاف الى ذلك انه كان ابعد عن السلطة المركزية ، وبالتالي ، اكثر تحرراً من سلطانها . على ان هذا الامر لم يدخل تبديلاً هاماً على الاوضاع ، اذ كان الفساد متفشياً في العاصمة كما كان في الامصار . فكثيراً ما كان الولاة يشترون تعيينهم في الامصار بالمال ، ويتولون مهام وظائفهم ، وهدفهم الاول تحقيق أطماعهم الخاصة . وربما عاد بعضهم الى القسطنطينية ليلاقوا حتفهم ، او يعاقبوا بمصادرة املاكهم . وكان الاستغلال يسير في ركاب الفوضى ؛ فقد تقلب

---

١) اطلق الترك لفظة « روم » التي اقتطعها العرب من « رومان » على جميع رعاياهم من ابناء الملة الارثوذكسية ، من غير اعتبار العرق او اللغة . وقد حفظت هذه التسمية الى اليوم ، مع ان الروم الارثوذكس لا يخضعون لسلطة روما الدينية . وقد سمى السلاجقة سلطنتهم في اناضوليا « سلاجقة الروم » (راجع ص ٢٠٤ من هذا الجزء) لانهم انتزعوها من الامبراطورية الرومانية الشرقية.

٢) راجع بشأن مواد المعاهدة I. de Testa, *Recueil des traités de la porte ottomane,* vol. i (Paris, 1864), pp. 15, seq.

على دمشق في السنين المئة والاربع والثانين ، من بدء خضوعها للعثمانيين ، ما لا يقل عن مئة وثلاثة وثلاثين والياً، لم يثبت في وظيفته منهم مدة سنتين[١] الا ثلاثة وثلاثون لا غير . وفي أحد سجلات الدولة جدول بأسماء ٦١ والياً عيّنوا في غضون ثمانين عاماً اولها عام ١٨١٥[٢]. ولم تكن حلب ، في ما يظهر ، ارقى حالاً ، فان قنصلاً من قناصل البندقية ، ذكر في تقرير له ، ان تسعة من الباشوات توالوا على المدينة في ثلاث سنوات[٣]. وربما نشبت بينهم خصومات دامية تورّطوا فيها متجاهلين تماماً وجود الحكومة المركزية. وزاد في شقاء الناس تردد الجنود الانكشارية على المدينة من وقت الى آخر ليقودوا الكثيرين جهاراً الى حتوفهم . وكان الشعب ازاء ذلك يعتصم بالاستكانة والخيبة والتنكر للسلطة والتشاؤم من نتائج الجهود . والظاهر ان روح الانتقاض القديمة ، التي طالما ثارت على مساوئ الحكم العباسي والفاطمي ، كانت قد تلاشت. ومن هنا يتضح ان العصور التي بدأت « مظلمة » في عهد الاتراك السلاجقة [٤] ، زادت ظلمتها « حلوكة » في ظل الاتراك العثمانيين ؛ وفي ما كانت اوربا تلج عصر الاستنارة ، كانت سورية تتلمس طريقها في الظلام العثماني الدامس .

كان من اول من تحسسوا الحاجة الى إدخال اصلاحات جارفة ، والحدّ من استغلال الموظفين ، مصطفى كبرولو ، الوزير الاعظم بين سنتي ١٦٨٩ و١٦٩١. فقد وضع من التدابير الجديدة، لتحسين معاملة غير المسلمين من الرعايا، ما تخطى المحاولات الاصلاحية السابقة، التي قام بها ثلاثة من بواسل السلاطين هم : سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ – ٣٩) وعبد المجيد الاول (١٨٣٩ – ٦١) . ذلك ان جميع هذه التدابير الاصلاحية بقيت حبراً على ورق ؛ فما اصدره منها السلطان سليم تحت عنوان « نظامي جديد » (النظام الجديد) قاومه الانكشاريون والموظفون الفاسدون ؛ وتلك التي وضعها السلطان عبد المجيد تحت عنوان « خطي شريف » (١٨٣٩) و« خطي همايون » (١٨٥٦) كان الغرض منها إزالة الظروف المعجزة التي عملت الرعية تحت وطأتها ، وتأمين جميع الرعايا على حياتهم واموالهم

---

١) Lammens, *Syrie*, vol. ii, p. 62.

٢) المنجد ، ص ٩١ – ٩٤ .

٣) *Relazione*, p. 121.

٤) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

وكرامتهم ، على اختلاف مللهم وعناصرهم ؛ وإلغاء تلزيم الضرائب ، واعتبار جميع الناس — على اختلاف لغاتهم وأديانهم — متساوين امام القانون. إنما لم تتخذ التدابير المناسبة لوضع هـذه « التنظيمات » موضع التنفيذ ؛ وقد كانت على كل حال سابقة لأوانها [١] ، وعارضها فوق ذلك كله جماعة من الفقهاء والمحافظين المتنفذين ، ولم يرضَ عنهـا الاجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات اقليمية اضافية ؛ حتى ان صيارفة اليهود والنصارى عارضوا إبطال تلزيم الضرائب . ولئن كان السلطان سليم لم يدفن حياً ، شأن سلفه عبد المجيد الاول [٢] ، فقد كان عرشه الخاص ثمناً لمحاولته الاصلاحية هذه . وقد أدّى السلطان محمود خلفه الثاني ، وأعظم سلاطين بني عثمان في العصر الحديث ، خدمة قومية ُجلى عندما أمر ، في يوم مشهود من ايام حزيران سنة ١٨٢٦ ، بأن ُتطلق المدافع المصوّبة نحو الثكنات التي احتشد فيها الانكشارية ، فكانت بذلك نهايتهم . ومحمود هذا هو الذي اتخذ الطربوش لباساً للرأس ، فدعاه رعاياه — ويا للغرابة — بالسلطان الكافر . [٣]

تدابير دستورية عقيمة

كان البطل التالي الذي ناضل من اجل قضية التحرير والاصلاح مدحت باشا كبير وزراء الدولة . بدأ مدحت حياته المسلكية موظفاً حكومياً في دمشق [٤] ، وله من العمر ٢٢ سنة ، وقضى من ثم سنوات كثيرة يعمل جاهداً ، ولكن طي الخفاء ، بالاشتراك مع بعض الذين تجاوبت روحه معهم ، ليهيئ لبلاده وضعاً دستورياً .

---

١) راجع بشأن النص التركي : لطفي ، تاريخ (القسطنطينية ، ١٣٠٣) ، ج ٦ ، ص ٦١ — ٦٤ ؛ Enver Z. Karal, *Osmanli Tarihi*, V, *Nizam-i Cedit ve Tanzimat Devirleri* (Ankara, 1947), pp. 266-72. ؛ وراجع النص الفرنسي في : de Testa, vol v, pp. 140-43, 132-37 ؛ وراجع ايضاً : Edward Hertslet, *The Map of Europe*, (London, 1875) pp. 1002-5, 1245-49.

٢) ان سلفه عبد الحميد الاول (١٧٧٤ — ٨٩) ابى ان يراعي العرف الذي كان بموجبه يحتجز المرشح لولاية العهد في مقصورة (كشك) في السراي السلطانية . ولفظة « سراي » فارسية الاصل معناها الدار او الخان .

٣) اطلق الاتراك لفظة « غيور » (كافر) على غير المسلمين ، لا سيا النصارى احتقاراً ، وهي من اصل فارسي « غاور » بمعنى جاحد او كافر .

٤) ان الزقاق الذي كان يعرف بـ « المستقيم » (اعمال ٩ : ١١) يحمل اسمه الآن « شارع مدحت باشا » .

وتجلت النتائج الاولى لجهاده في بلاغ اذاعه السلطان مراد الخامس في ١٥ تموز سنة ١٨٧٦، وردت فيه لفظة قانون اساسي[١] لأول مرة في الوثائق السياسية . وبعد حكم دام ثلاثة اشهر أصيب السلطان مراد بخلل عقلي ، فتولى السلطة مكانه اخوه عبد الحميد الثاني ، وهو الذي اعلن رسمياً ، في ٢٣ كانون الاول ، صدور دستور وإنشاء مجلس نيابي . وكان مدحت ، بوصفه كبير الوزراء ، هو الذي اقترح نص الدستور ، وجرى في وضعه على سياق الدستور الفرنسي والدستور البلجكي . وقد نصّ على ان جميع الرعايا ينبغي ان يدعوا عثمانيين ، وان يتمتعوا بالحرية الشخصية ، واعتبر الاسلام دين الدولة الرسمي . وقد اشتمل كذلك على التدابير اللازمة للمحافظة على جميع الاديان المعترف بها، وضمن حرية الصحافة في نطاق القانون، وأقرّ مبدأ التمثيل الشعبي عن طريق هيئة ذات مجلسين : الاول مجلس نيابي ، والثاني مجلس شيوخ . على ان تكون ولاية الاول اربع سنوات ، وان يكون الممثل الواحد عن كل ٥٠ الف ناخب . لكن عبد الحميد، كما دلت الحوادث في ما بعد ، كان يرمي من ادخال هذا التدبير السمح الى تفادي النيل من سلطته ، والى كسب عطف الساسة في دول اوربا الغربية ، اكثر مما كان يرمي الى تحسين اوضاع رعاياه . ففي شباط التالي نفى مدحت باشا ، وفي السنة التي تلت حل الهيئة التمثيلية . على ان ضغط الانكليز حمل السلطان على استدعاء مدحت ثانية ، وتعيينه حاكماً على سورية . لكنه عاد فنفاه الى الطائف في الحجاز ، حيث يظن ان عملاء الباب العالي اغتالوه سنة ١٨٨٣[٢] .

الظواهر الاجتماعية والاقتصادية

لم يتأثر وضع سورية السياسي، ولا تركيبها العنصري ، تأثراً بالغاً بالفتح العثماني. فالتغيير العنصري الوحيد الذي حدث في العهد العثماني كان طارئاً عابراً ، وقد تناول سكان البادية لا غير[٣]. فقد كان الترك يجيئون ويذهبون بحكم وظائفهم، دون ان يستعمروا الارض؛ فكانوا من ثم ، ورعاياهم السوريين ، غرباء روحياً بعضهم عن بعض . ثم تسرب الى شمالي سورية وشرقي الاردن بضعة آلاف من الجراكسة

---

١) وقد استخدمها من بعده خلفه عبد الحميد ؛ انظر : *'Ilmiya Sālnāmehsi,* (Constantinople, 1334), pp. 20-50.

٢) نشر ترجمة حياته ابنه علي حيدر مدحت بك في لندن ١٩٠٣ .

٣) راجع ص ٩٤ وما بعدها من هذا الجزء.

المسلمين ، وذلك على اثر الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وقصد لبنان بضعة الوف اخرى من اللاجئين الارمن بعـــد الحرب العالمية الاولى ؛ فالفوه جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية الا الفاظاً قليلة جلها يتصل بالسياسة او الجيش او الطعام[١]

وكانت حياة سورية الاقتصادية عرضة لتدهور متواصل لم تكن الادارة العثمانية الفاسدة سببها الوحيد ، اذ عاصر اكتساح العثمانيين للشرق العربي تحول في خطوط التجارة العالمية ذهب باهمية البلاد الاقتصادية . لقد كان ازدهار هذه المنطقة قائماً ، كما اشرنا تكراراً في ما سبق[٢] ، عـلى التجارة لا سيما الخط الواصل بين الهند واوربا . على ان اكتشاف الملاح البرتغالي فاسكو داغاما للطريق البحري بين اوربا والهند حول رأس الرجـــاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، ثم سفر فرديناند مغلان البرتوغالي الى الشرق بمروره حول رأس اميركا الجنوبية سنة ١٥٢٠ ، مكتشفاً في طريقـه جزر الفليبين ، بعد المغامرة البحرية الشهيرة التي قام بها خريستفوروس كولمبوس الجنوي ، في رحلته الغريبة التي انتهت به سنة ١٤٩٢ الى اكتشاف اميركا ، جميع هـــذه ، وما شابهها من الاحداث ، ادخلت تعديلاً عظيماً عـلى المسالك التي سلكتها طرق التجارة الكبرى . بحيث ازاح مركز النشاط العالمي والحضارة الانسانية نحو الغرب . فعصر الريادة والاستكشاف الذي بزغ في هذه الاثناء لم يسهم العرب في قيامه . وعلى ذلك فقد عمد القائد البرتغالي افونسو البوكركي الى سحب السفن من البحار الشرقية ، وتيسر له بين سنتي ١٥٠٣ و ١٥١٥ ان يبسط سيادة بلاده على تجـــارة خليج الفارسي وجزر اندنيسيا . واستطاع البرتغاليون بذلك ان يتفادوا قرصان المتوسط ، ويتجاوزوا عن البلدان العربية التي دان اهلها بغير دينهم ، وتقاضى تجارها رسوماً باهظة على السلع العابرة . وهكذا ، فالمتوسط الذي كان بالمعنى الصحيح ، حتى آنئذٍ بحراً متوسطاً ، لم يعد الآن يملأ هـذا الموقع الهام ، وكان لا بد من ان يمر عليه ثلاثة قرون ونصف القرن حتى تشق قناة السويس ، ويعود كما كان طريقاً للتجارة وميداناً للحرب .

---

١) منها : باشا ، وبيرق ، وبلطة ، وجاويش ، وبرغل ، وقاورمه . وبعض الالفاظ التركية المقتبسة ترجع الى اصل يوناني او فارسي .

٢) راجع الصفحات ٣٨٩ وما بعدها من الجزء الاول وص ٢٥٦ و ٢٧٧–٢٧٨ من هذا الجزء.

وعلى ذلك فقد اضطر التجار السوريون بعد الآن ان يجعلوا جلّ اعتمادهم على التجارة البرية. وأخذت من ثم مدينة حلب في طريق الازدهار، اذ كانت رأس الخط التجاري الذي ينتهي الى بغداد فالبصرة. وصارت مركز التجارة المحلية في الامبراطورية، ومنتهى خط التجارة العالمية الممتدّ بين اوربا وآسيا. وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق الى حين، بينما استطاعت الاسكندرون وطرابلس ان تنتزعا من بيروت مكانة مرفإها التجاري [١]؛ بل ان حلب بقيت حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الادنى جملة [٢]. وقد نشأ في مدينة حلب مستعمرة من اهل البندقية ذات شأن، تحدثت تقاريرهم القنصلية عن وصول قوافل محمّلة بالتوابل الى حلب ودمشق من الهند لحسابهم الخاص. وكانت الحاجة ماسة الى التوابل في تلك العهود التي سبقت عصر التبريد الصناعي.

وسرعان ما ظهر للتجار البندقيين، في المدن والمرافئ السورية، مزاحمون من الفرنسيين الذين كانوا قد سبقوا الى انشاء قنصلية لهم في حلب. وقد زعم احد قناصلهم سنة ١٦٨٣ ان هذه المدينة «اكبر المدن في الامبراطورية التركية جملة، وأجملها وأغناها بعد القسطنطينية والقاهرة» [٣]. وعلى اساس معاهدة الصلح، التي عقدها السلطان سليمان مع فرنسيس الاول سنة ١٥٣٥ [٤]، نشطت التجارة الفرنسية وأدّت الى اتساع النفوذ الفرنسي في الشرق الادنى. وفي سنة ١٧٤٠ وقع محمود الاول معاهدة مع لويس الخامس عشر فتح بموجبها البلدان المقدسة، ليس للحجاج الفرنسيين وحدهم، بل لجميع المسيحيين الذين وفدوا على الامبراطورية العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي. ثم اتخذ الفرنسيون هذه الامتيازات اساساً لحق حماية جميع المسيحيين الكاثوليك في سورية [٥]. وكان للفرنسيين في غير حلب جاليات، في الاسكندرون واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا والرملة. ولم يعتم التجار الانكليز ان جروا في اثر

---

١) راجع بشأن هذه المرافئ F. Charles-Roux, *Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVIIe siècle* (Paris, 1928), pp. 5 seq.

٢) انظر: Sauvaget, *Alep*, p. 201.

٣) انظر: D'Arvieux, *Memoires* (Paris, 1735), vol. vi, p. 411.

٤) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء.

٥) انظر: De Testa, vol. i, pp. 186 seq.; F. Charles-Roux, *France et chrétiens d'orient*, (Paris, 1939), pp. 68-77.

الفرنسيين، واخذوا يحلون تباعاً محل تجار البندقية وجنوى، في المدن والمرافىء السورية. وما ان تأسست شركة الشرق الادنى سنة ١٥٨١، في عهد الملكة اليصابات، حتى اخذ رجال الاعمال الانكليز يتدفقون عـلى سورية، في حين ظلت حلب مركز الحركة الرئيسي[١]. ويستدل من التقارير القنصلية انه كان في حلب سنة ١٦٦٢ نحو من ستين تاجراً انكليزياً. ويذكر شكسبير[٢]، عن قرينة احد الملاحين، «ان زوجها ارتحل الى حلب». وكانت الجوالي الاوروبية بجملتها تعد نحواً من ٢٠٠ نفس[٣]. وكان هؤلاء التجار يحاولون ان يشبعوا الذوق الغربي للكماليات الشرقية الذي توثق ابان العصر الصليبي. وتخلف عن نشاطهم هذا عودة الحيوية الى الطريق البرية القديمة. اما جدول المنتجات المحلية فقد كان في رأسه الحرير من لبنان؛ والقطن من فلسطين، ثم الصوف والزيت. وكانت المنافسة بينهم وبين تجار البحار شديدة، لكن حرص التجار البرتغاليين عـلى ابقاء الاسعار عالية بحيث كاد الامر يكون احتكاراً ترك للتجار السوريين مجالاً رحباً للاستفادة.

وكان لكل من الجوالي التجارية خان خاص تعينه لهم الحكومة. وكان الخان النموذجي بناء مربعاً ذا دورين، في وسطه ساحة واسعة مكشوفة. يستخدم الدور الاسفل منه مستودعات للبضائع، ويشتمل الاعلى عـلى غرف يأوي اليها التجار. وكان هؤلاء التجار، بوجه العموم، عازبين؛ وكانوا يرتدون الملابس الاقليمية. ولم يكن يسمح لهم — حفاظاً عليهم — بالبقاء خارج المدينة بعد غياب الشمس، الا ان احكام القضاء المحلي، عملاً ببنود الاتفاق، لم تكن تطبق بحقهم ولا يزال بعض هذه الخانات قائماً الى الآن؛ فالخان الذي بني في عهد فخر الدين الثاني (ت ١٦٣٥) في صيدا للفرنسيين — مثلاً — تشغله اليوم راهبات القديس يوسف.

والذي يبدو، ان سورية لم تجن، من هذا التوسع التجاري الجديد منافع دائمة، اذ كان معظمه في يد التجار الاوروبيين. واما ابناء البلاد فقد استمروا في طريق الانحدار ثروة وعدداً. وهذا فولني[٤]، الذي زار حلب سنة ١٧٨٤ او ١٧٨٥، يقدر

١) انظر: Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company* (Oxford, 1935) pp. 11, 75 *seq.*

٢) في مسرحية مكبث، الفصل الاول، المشهد الثالث.

٣) انظر: Grant, *Syrian Desert*, p. 93

٤) كتابه. *Voyage en Syrie et en Egypte* 2nd ed. (Paris, 1787), vol. ii, p. 135

انه لم يبقَ هناك من القرى الثلاثة الاف والمئتين، التي كانت تدفع الضرائب في ولاية حلب، في مستهل العهد العثماني سوى نحو اربع مئة وهو امر يكاد لا يصدق. ويحسب ان عدد سكان المدينة لم يزد عن مئة الف[١]. في حين ان التقارير القنصلية العائدة الى اواخر القرن السادس عشر تجعله بين ضعفي هذا العدد واربعة اضعافه[٢]. بل ان مؤرخاً تركياً مشهوراً[٣] قد ذكر ان مصلحة الجباية في حلب كانت، حتى سنة ١٧٤٠، من المناصب المرغوب فيها جداً، اذ كان بامكان صاحبها ان يجمع من المال ما يكفيه لشراء وزارة، لدى عودته الى العاصمة.

وفي اثر التجار الاوربيين، جاء المرسلون والمعلمون والسائحون والمستكشفون، وهكذا فتحت الابواب في وجه المؤثرات الحديثة، وهي ظاهرة من اخصب الظواهر في تاريخ سورية العثمانية. وكان هؤلاء المرسلون جماعات من الجزويت والكبوشيين واللعازاريين، وافراداً من بعض الرهبنات الكاثوليكية الاخرى. وكان مركز نشاطهم في الاوساط المسيحية الاهلية، وانتهى بهم الى تأسيس الكنائس المعروفة «بالاتحادية» التابعة للكرسي الرسولي من سريان كاثوليك وروم كاثوليك وذلك في غضون القرن السابع عشر والثامن عشر[٤]. وقد تقبل لبنان، في عهد فخر الدين الثاني وخلفائه المؤثرات الثقافية الغربية، بصورة خاصة[٥]. فاقدم الجزويت، الذين يعود نشاطهم في المنطقة الى سنة ١٦٢٥[٦]، بالاشتراك مع الموارنة، على انشاء اول مدرسة يجوز اعتبارها حديثة، وذلك سنة ١٧٣٤ في قرية عين طورا من قرى لبنان. وعندما حُملوا على ايقاف عملهم، الى حين، بعد ذلك باربعين سنة، حلّ العازاريون في مراكزهم.

الظواهر الثقافية

كان هذا العصر، من الوجهة الثقافية، عصر جمود وعقم. ولا بدع فالحكم

---

١) Volney, vol. ii, p. 139.

٢) راجع: Berchet, pp. 59, 102.

٣) جودت، تاريخ، ج ٣، (القسطنطينية، ١٣٠٩)، ص ٢٦٩.

٤) راجع ص ١٣٩ و١٤٢ من هذا الجزء؛ راجع ايضاً «لبنان». (بيروت، ١٣٣٤)، ص ٤٦٥ وما بعد.

٥) انظر الفصل التالي: «فخر الدين الثاني».

٦) راجع بعض تقاريرهم الاولى في مؤلف انطوان رباط Rabbath, *Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en orient*, vol. i (Paris, 1905), pp. 38 seq.

الاعتباطي ، والضرائب الفادحة ، والتدهور الاقتصادي ، والانهيار الاجتماعي ، لا تغري بالابتكار الشخصي او الانتاج الخلاق في الفن والعلم والادب . فعصر الجمع والتعليق والاختصار والتقليد ، الذي بدأ قبل ذلك بقرون عديدة ، استمرّ في هذه الاثناء ؛ لكن النتائج التي اعطاها كانت اقل واضعف . فالعصر العثماني بجملته لم ينجب شاعراً سورياً واحداً ولا فيلسوفاً ، ولا فناناً ، ولا عالماً ، ولا منشئاً ، من الطبقة الاولى . وكانت الامية واسعة الانتشار ، بل كادت تكون جارفة . وقد عيّن من القضاة من لم يكن يجيد الكتابة الصحيحة .

ولم تستطع عاصمة الامبراطورية الا جذب قليل من المفكرين ، كالمؤرخ نعيم الحلبي (حوالي ١٦٦٥ – ١٧١٦) ليصبحوا عثماني الصبغة .

فمن المؤرخين واصحاب السير ، الذين اعتمدناهم في اعداد هذا الفصل ، احمد بن سنان القرماني (١٥٣٢ – ١٦١٠)[١] ، وكان موظفاً في حكومة دمشق ؛ ونجم الدين الغزي (١٥٧٠ – ١٦٥١)[٢] المحدث والاستاذ في دمشق ؛ ومحمد المحبي (١٦٥١ – ١٦٩٩) الذي كان كذلك استاذاً مرموقاً في دمشق . والظاهر ان دمشق كانت ، حتى اوائل القرن الثامن عشر ، مركزاً فكرياً ، في حين كانت حلب مركزاً مالياً . حصل المحبي علومه في الاستانة ، وعمل الى حين مساعداً قضائياً في مكة . وكان مؤلفه الرئيسي كتاب سير جمع فيه الفاً ومئتين وتسعين سيرة من سير اعلام الرجال الذين توفوا في القرن الحادي عشر الهجري (١٥٩١ – ١٦٨٨) . وفي دمشق وضع المقّري التلمساني (ت ١٦٣٢) ، ما بين ١٦٢٨ – ١٦٣٠ ، مؤلفه الضخم الذي يعتبر المصدر الرئيسي لتاريخ الاندلس الادبي[٣] ، من مواد كان قد احضرها معه من مراكش . ومن اعلام دمشق الجديرين بالذكر عبد الغني النابلسي (١٦٤١ – ١٧٣١) ، العالم الصوفي والسائح الجوال ، الذي لا تزال معظم مؤلفاته غير منشورة[٤] .

---

١) راجع ترجمته في كتاب محمد المحبي ؛ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ، ١٢٨٤) ج ١ ، ص ٢٠٩ – ١٠ .

٢) المحبي ، ج ٤ ؛ ص ١٨٩ – ٢٠٠ .

٣) هو كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، نشره دوزي في ٣ اجزاء (ليدن ، ١٨٥٥ – ٦٠) .

٤) ذخائر المواريث في الدلالة على مواضيع الحديث ٤ اجزاء (القاهرة ، ١٩٣٤) .

ومن الاخباريين الذين استندنا اليهم في هذا الفصل ثلاثة من موارنة لبنان : البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ — ١٧٠٤) وقد التحق ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، بدائرة اللاهوت المارونية في روما التي كان البابا غريغوريوس الثالث عشر قد انشأها سنة ١٥٨٤ لاعداد الطلاب الموارنة للحياة الاكليريكية ؛ والامير حيدر الشهابي (حوالي ١٧٦١ — ١٨٣٥)[١] ، وقد كان يقيم في دارته في قرية شملان الصغيرة التي تشرف على مدينة بيروت ؛ ثم طنوس الشدياق (ت ١٨٦١) من ابناء الحدث المجاورة بيروت . وكان قاضيا تابعاً للامراء الشهابيين ، فدوّن اخبار الاسر الاقطاعية في لبنان .

وكانت دائرة اللاهوت المارونية في روما تتيح لنصارى لبنان هؤلاء فرصة نادرة لتحصيل العلم . فقد كان المتفوّقون منهم على اقرانهم يختارون ليدربوا في تلك الدائرة ؛ وبعد ان ينهوا دروسهم يعود بعضهم الى وطنهم ليشغلوا مراكز اكليريكية رفيعة ، ويبقى آخرون في روما يكبون على الدرس والتأليف . وكان من اوائل المتخرجين الممتازين جبرائيل الصهيوني (عرفه اللاتين بـِ سيونيتا ، (١٥٧٧ — ١٦٤٨) . علّم السريانية والعربية في روما ، ثم عيّن استاذاً للغات السامية في مدرسة السربون في باريس . وهناك ساهم في اعداد نسخة التوراة ذات اللغات العديدة . ثم خلفه في عمله هذا مواطنه اللبناني ابراهيم الحاقلاني (او الحاقلي ١٦٠٠ — ٦٤) الذي كان قد تعلم في روما كذلك ، وكان استاذاً للغة العربية والسريانية في كلية الارسالية التبشيرية هنالك . وفي سنة ١٦٤٦ عيّن الحاقلاني في منصب رفيع في « كلية فرنسا » . وكانت توراة باريس ذات اللغات العديدة اول توراة من نوعها اشتملت على النص السرياني والنص العربي . وهنالك عالم آخر من خريجي الدائرة المارونية ، لعله اشهرهم وانبلهم على الاطلاق ، هو يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ — ١٧٦٨) ، الذي اتحف مكتبة الفاتيكان بعدد من خيرة المخطوطات الموجودة في مجموعتها الشرقية . فالمباحث التي انشأها السمعاني على هذه المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية والارمنية ،

---

١) راجع حيدر ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، نشر اسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٣٣) قسم ١ ، ص ٥ — ٨ من المقدمة ؛ راجع ص ٩٥ من هذا الجزء الحاشية رقم ١ .

والتي اقتضته القيام برحلتين الى الشرق، قد جمعت في موسوعته الكبيرة « الموسوعة الشرقية » Bibliotheca Orientalis (اربعة مجلدات ، روما ١٧١٩ — ٢٨) التي لا تزال مصدراً رئيسياً لمعارفنا عن كنائس الشرق . وفي سنة ١٧٣٦ اوفد البابا السمعاني الى السينودس الماروني الذي عقد في اللويزة في لبنان ، ليعمل على توثيق الصلة بينهم وبين الكرسي البابوي[١]. وكان من اللبنانيين الذين تعلموا ايضاً في روما، ودرّسوا العربية فيها ، ميخائيل الغزيري (١٧١٠ — ٩١) . فقد ترأس ادارة مكتبة الاسكوريال في اسبانيا ، وفهرس فيها المخطوطات العربيـــة البالغة الفاً وثمان مئة عدداً . وقد كانت مآثر هؤلاء العلماء الموارنة من خريجي روما ، هي التي اوقفت اوربا الحديثة للمرة الاولى ، على اهمية اللغات والآداب الشرقية ، ولا سيما من وجهاتها المسيحية .

الآلة الطابعة

تميز دير قزحيا في لبنان بانه اقتنى اول مطبعة في الشرق العربي . واصل هذه المطبعة غير معروف على وجه التحقيق ، لكن الراجح ان احد اعلام اللبنانيين الذين درسوا في روما احضرها معه الى هذا الدير . وقد اخرجت هـــذه المطبعة سنة ١٦١٠ سفر المزامير مطبوعاً باللغة السريانية ، وباللغة العربية مكتوبة بالحرف السرياني[٢]. وكانت اللغة السريانية لا تزال رائجة في اوساط الموارنة ، كما شهد بذلك السائحون من الاوربيين ، والمقيمون منهم . فقد ورد في ما كتبه دارڤيو[٣] على اثر زيارته الى لبنان سنة ١٦٦٠ ، ان اسقف اهـــدن كان يتكلم السريانية والعربية بطلاقة تامة . على انه ، ما كاد القرن ينصرم ، حتى كانت اللغة السريانية قد ماتت كلغة محكية . وقد تبيّن لڤولني[٤]، من الاستقصاء الذي قام به ، ان

١) راجع بشأن تأثير السمعاني في التقريب بين الموارنة وروما تاريخ الدبس ج ٨ ص ٥٦٤ — ٦٨ ؛ Rabbath, vol. i, pp. 181-82 .

٢) تعرف هذه الكتابة بـِ الكرشوني ، راجع ص ١٧٢ من هـــذا الجزء ، راجع ايضاً Joseph Nasrallah, *L'Imprimerie au Liban*, (Harissa, 1949), pp. 2-6 ؛ وراجع ايضاً ، لويس شيخو ، تاريخ فن الطباعة في الشرق ، مجلة المشرق ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٥١ — ٥٧ ، ٣٥٥—٦٢ .

٣) المجلد ، ص ٤٠٧ .

٤) المجلد الاول ، ص ٣٣١ — ٣٢ .

السريانية كانت لا تزال الى عهده لغة محكية في قريتين من قرى لبنان الشرقي، وهي في الواقع لا تزال حتى الآن تحكى في ثلاثٍ منها[١].

واول آلة طابعة استخدمت الحروف العربية ظهرت في حلب سنة ١٧٠٢، وذلك بفضل البطريرك اثناسيوس دباس الذي تنقل ما بين المذهبين الارثوذكسي والكاثوليكي. اما الآلة الطابعة نفسها فالراجح انها استقدمت من ولاخيا، لكن الفضل في اعــداد امات الحروف، انما يعود الى عبدالله زاخر، الذي ارتحل الى الشوير من قرى لبنان. وانشأ سنة ١٧٣٣ مطبعة جديدة. وكانت الاناجيل من الكتب الاولى التي طبعت بالعربية، وذلك سنة ١٧٠٨ في مطبعة حلب[٢]. واصل مطبعة ولاخيا كذلك شديد الغموض. فقد جاءت بعد المطبعة العربية الاولى في العالم، التي كانت قد ظهرت في فانو بايطاليا، قبل ذلك بنحو من مئة وثمانٍ وثمانين سنة[٣]. والراجح ان الفضل في اختراع هذه المطبعة عائد الى الرغبة البابوية. وربما كانت ام المطبعة الحلبية. ثم تبع هذه المطبعة مؤسسات طباعية اخرى في لبنان، كان جل انتاجها كتباً دينية ومدرسية، استخدمت لاستكمال المهام المدرسية. وعلى هذا النحو جرى ببطء، ولكن بعزم اكيد، اعداد الوسائل اللازمة، واستخدامها في انشاء حياة ثقافية جديدة.

---

١) راجع ص ١٧١ — ١٧٢ من هذا الجزء.

٢) نصر الله، ص ١٧—٣٢.

٣) راجع حتي «The First Book Printing in Arabic» *The Princeton University Library Chronicle*, vol. iv (1942), pp. 5-9.

الفصل التاسع والاربعون

أمراء لبنان المعنيون والشهابيون

ان ما عالجناه في الفصل السابق من انكشاف البلد السوري باجمعه لمؤثرات الحضارة الغربية ، وما نحن في صدده هنا من تحول لبنان الى وحدة سياسية قائمة بنفسها، هما حدثان من ابرز الاحداث التي استجدت في العصر العثماني . وحول هذين الحدثين ، وما رافقهما من مساوىء الحكم العثماني ، يسوغ تركيز اكثر الحوادث التي وقعت في هذا العصر .

فقد بدأ المعنيّون ، على اثر الفتح العثماني ، يحلون محل التنوخيين[1] في السيطرة على لبنان الاوسط والجنوبي . والى الشمال بسط بنو عساف نفوذهم، وكان السلطان سليم قد ثبت زعيمهم على كسروان بعد ان ألحق بها جبيل[2]. وبلغ بنو عساف اوج عزهم في ابان امارة منصور (١٥٢٢ — ٨٠) الطويلة ؛ وكانت مقاطعته تمتد من جوار بيروت جنوباً حتى عرقة، الى الشمال من مدينة طرابلس . واتخذ بنو عساف بلدة غزير قاعدة لامارتهم ، ولا تزال بقايا مبانيهم بارزة للعيان حتى اليوم . وفي سنة ١٥٩٠ انتقل تراث هذه الاسرة السياسي الى اسرة منافسة لها هم بنو سيفا في طرابلس ، وكانوا من اصل كردي . وهم الذين عدوا على آخر حاكم من بني عساف[3] فقتلوه . وكان العرف الذي جرت عليه جميع هـــذه الاسر الاقطاعية يقضي ، في الغالب ، بان يقسم اميرها الاكبر ممتلكات الامارة الى اقطاعات يوزعها على من دونه من « المقدمين » او « المشايخ » . وعلى هـــذا النحو كان الشهابيون — وهم

---

١) لا تزال بعض مبانيهم قائمة في عبيه بينها مدفن السيد عبد الله التنوخي (ت ١٤٨٠) الذي لا تزال حجاج الدروز يترددون اليه حتى الآن .

٢) راجع ص ٣٠٨ من هذا الجزء .

٣) الدويهي ص ١٨١ ، حيدر ، تاريخ ص ٦٠٢ ؛ شدياق ص ٣٥٠ .

خلفاء المعنيين — قد اقاموا في اوائل القرن الثامن عشر، آل جنبلاط على الشوف[١] وآل ابي اللمع على المتن، وآل تلحوق على الغرب الاعلى، وآل ارسلان علــى الغرب الادنى، وآل الخازن على كسروان[٢]. وكان للموارنة مقدموهم، وكان على هؤلاء المقدمين ان يجبوا الجزية المستحقة عليهم ويؤدوها الى الحكومة العثمانية. وكان من ابرزهم مقدمو بشري والبترون وجبيل[٣]. ولما كان اكثر اللبنانيين من الموارنة والدروز، فقد كانوا يخضعون، بوجه العموم، لشرائع طوائفهم، فيتولى الرؤساء الدينيون تطبيق هذه الشرائع، كل في ملّته الخاصة تبعاً للنظام الملي.

والذي يشهد علــى ان لبنان كان في حكم الامراء الاقطاعيين الاهليين اشد ازدهاراً من سورية وهي تحت الحكم التركي؛ ازدياد عدد سكانه ازدياداً طبيعياً، عن طريق تدفق الهجرة اليه. فان استقرار الوضع، وانتشار الامن — ولو نسبياً — في ربوعه، اجتذب السنيين من البقاع الى ساحل علما والقرى المجاورة، والشيعيين من بعلبك الى جبيل ومواطن اخرى في كسروان. وانتشر الموارنة من منطقة طرابلس في اتجاه جنوبي حتى سفوح التلال القائمة الى الشمال من جونية، وانساح الدروز في اتجاه شمالي نحو برمانا وسواها من قرى المتن[٤].

وقد شغل النزاع على السلطة في النطاق المحلي، وعلى الصعيد الوطني بالوسائل السلمية او الاساليب العنيفة مقداراً غير قليل من الوقت والجهد الذي بذله الامراء والمقدمون والمشايخ. وكان هؤلاء الزعماء الاقطاعيون احياناً يشتبكون في نزاع مسلح مع اسيادهم في القسطنطينية. ففي سنة ١٥٨٤، هوجمت قافلة من الانكشاريين

١) هي اسرة كردية جاءت من منطقة حلب واسمها في الاصل جانبولاد؛ شدياق ص ١٣٠. وآل جنبلاط اليوم على المذهب الدرزي وهم من الاشراف الملقبون سلالياً بالمشايخ. اما الشهابيون فيلقبون بالامراء ولا يزال بعضهم على الاسلامية لكن اكثرهم على المذهب الماروني.

٢) رفع اللمعيون من «مشايخ» الى «امراء» على يد احــد الحكام الشهابيين سنة ١٧١١ (شدياق، ص ٦٧)؛ وقد كانوا عــلى الدرزية لكنهم اليوم مارونيون جميعاً. اما آل تلحوق فقد جاءوا الى لبنان من شمالي افريقيا في موكب الفاطميين (قابل: شدياق ص ١٥٥، وهذا الرقم قد وضع على صفحتين من النص الاصلي الذي اعتمدناه؛ وقد ورد هذا الترقيم المكرر في مواضع اخرى ايضاً). وهم الآن من مشايخ الدروز. اما آل الخازن فمن مشايخ الموارنة، شدياق، ص ٧١ وما بعد.

٣) للاستزادة عن المقدمين راجع شدياق، ص ٢١٧ — ٢٣.

٤) الدويهي، ص ١٥٣، شدياق، ص ٢١٥.

كانت مارة في لبنان، وسلبت مبالغ كبيرة من المال هي الضرائب التي جبيت من فلسطين ومصر. وكانت القافلة المذكورة عائدة بها الى خزينة الدولة في العاصمة. فغضب السلطان، ووجه الى يوسف سيفا – اذ وقع الاعتداء في منطقته – حملة تأديبية أضرمت النار في كثير من قراه. ثم وجه حملة ثانية الى الدروز في الجنوب، على اعتبار انهم مدبرو العدوان؛ واقتص منهم قائد الحملة التركي – وهو آنذاك ابراهيم باشا والي مصر – بقتل خمس مئة الى ست مئـة من وفود الدروز الذين جاءوا لمقابلته في عين صوفر[1]، و ٦٠ الفاً من الاهالي، وذلك بعد ان جردهم من السلاح. وكان امير جبـل الدروز (وهو الاسم التي عرفت به هذه المنطقة من لبنان) حينذاك قرقماز (او قرقماس)، وكان قد خلف اباه فخر الدين الاول سنة ١٥٤٤. فلجأ الى قلعة نيحا (شقيف تيرون) قرب جزين. وهناك ادركته الوفاة. ويظن ان بعض عملاء الباب العالي قتله بالسم. وكان ابوه قبله قد قتل غدراً كذلك، بايعـاز من والي دمشق. وخلّف قرقماز وراءه ابناً كان له من العمر اثنتا عشرة سنة سمي باسم جده: فخر الدين، وارملته اخفت ابنها هذا عند آل الخازن في كسروان[2].

تولى الفتى فخر الدين الحكم مكان ابيه سنـة ١٥٩٠. وفي عهده بلغت سلطة المعنيين اوجها. وكان بلا ريب اقدر الشخصيات واحبها الى الناس، في تاريخ لبنان العثماني ان لم يكن في تاريخ سورية بجملتها. فقد تولى الحكم وقلبه يتقد بثلاثة مطامح: اقامة لبنان على نطاق اوسع، وقطع آخر صلة له بالباب العالي، ثم السير بلبنان في طريق التقدم والازدهار. ولا شك ان هذه الاهداف الثلاثة كانت تمثل ميولاً راهنة عند اتباعه ورعاياه وقد عمد الى تحقيق هذه الاغراض بوسائل شتى منها: التزاوج، والرشوة، والدس، والاحلاف، والقتـال؛ وجميعها من الوسائل المسلم بها في ذلك العصر.

تسلم فخر الدين من السلطان سنجق بيروت وسنجق صيدا. فحمل على جاره، ووالد زوجته، يوسف سيفا. وبعـد معارك عديدة انتزع من يده السيطرة على لبنـان الشمالي. ولم يلبث بنو حرفوش من شيعة بعلبك، وزعماء البدو في البقاع

١) الدويهي، ص ١٧٨؛ حيدر، تاريخ ص ٦١٨ — ١٩.
٢) شدياق، ص ٨١؛ المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين الثاني، ص ٤٨.

وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، ان خضعوا لامير لبنان الناهض . وقد كان السلطان احمد انذاك متورطاً في قتال الهنغاريين والفرس ، فلم يلتفت الى هذا التابع اللبناني . وكان الى ذلك كله ثائر من زعماء الاكراد اسمه علي جانبولاد[١] قد استأثر بالحكم في ولاية حلب سنة ١٦٠٦ . فانتهز فخر الدين هذه الفرصة وعقد محالفة مع حاكم حلب المطلق . وقد ذكر جورج سانديز[٢] ، الرحالة الانكليزي الذي زار لبنان سنة ١٦١٠ ، ان ساحل البحر من نهر الكلب الى جبل الكرمل ، ومدن صفد وبانياس وطبرية والناصرة ، كانت داخلة في سلطة فخر الدين . وهذا التوسع الى الجنوب وضع في يده حصوناً كانت منذ عهد الصليبيين تسيطر على الطرق والمواقع ذات الخطورة الحربية ؛ كما ان الحاق سهل البقاع الخصيب بمنطقة نفوذه زاد في دخله ، بحيث مكنته هذه الزيادة من ان يعد جيشاً مدرباً منظماً ، انشأه حول نواة من الجنود المحترفين ، يدعم به الجنود القدامى غير النظاميين الذين كانوا عاجزين تماماً عن الوقوف في وجه الانكشارية[٣] . وكان ما بقي من الواردات يكفي لتغطية نفقات الجواسيس الذين استخدمهم في قصور منافسيه وخصومه . ويفي برشوة الموظفين الاتراك[٤] . وكانت التجارة التي نشطها مورداً آخر من موارد الثروة ، لاسيما التعامل مع تجار فلورنسا ؛ اذ كانت سفن هؤلاء التجار تؤمن الاسواق الخارجية والصفقات الرابحة لمنتجات لبنان ، من الحرير والصابون وزيت الزيتون والقمح وسواه من الحبوب . وفي سنة ١٦٠٨ عقد امير لبنان معاهدة مع فردناند الاول ، دوق تسكانيا الاكبر من موتشي — وهو صاحب فلورنسا — اشتملت على بنود عسكرية سرية موجهة ضد الباب العالي[٥] . وعلى الاثر قرر السلطان ، بايعاز من حافظ باشا والي دمشق ، ان يتخذ تدابير فعلية بحق مولاه الوقح ، ويضع حداً لحركته الانفصالية

١) هو احد اسلاف آل جنبلاط اللبنانيين ، راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء ، ح ١ .

٢) انظر *A Relation of a Journey*, 2nd ed. (London, 1621), pp. 211-12

٣) المحبي ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ؛ قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 438 .

٤) قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 457.

٥) راجع بشأن هذه المعاهدة وسواها مما عقد مع حكام المقاطعات الايطالية : Paolo Carali [Qara'li] *Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana* (Rome, 1936-8), vol. i, pp. 146 *seq.*, vol. ii, p. 59; G. Mariti, *Istoria di Faccardino grand-emir dei Drusi* (Livorno, 1787), pp. 74 *seq.*

وسياسته التوسعية . فوجه اليه ، سنة ١٦١٣ من دمشق ، جيشاً لم يتمكن من ان يقوم بعظيم امر في ثنايا الجبال . لكن عندما اقبلت عمارة من الاسطول مؤلفة من ستين بارجة لحصار الشاطئ ، اضطر فخر الدين الى ان يأتمر بوحي العقل ، وعمد الى التراجع . ووافق آنذاك وجود ثلاث سفن في مرفأ صيدا حملته مع احدى زوجاته وموكب من اصدقائه ومريديه الى ايطاليا[1] ، وترك الامارة امانة في يد ابنه علي يساعده اخوه يونس .

مكث فخر الدين في اوربا خمس سنوات (١٦١٣ — ١٨) زار في خلالها ليغهورن ، وفلورنسا ونابلي وبالرمو ومسينا ومالطا ، وسواها من الاماكن الهامة ، وتشرب فيها من الافكار ما قوّى اعتقاده بصحة المبادئ التي عمل سابقاً بوحيها ، بدلاً من ان يضعفه بشأنها ويحوله عنها . الا انه اصيب بخيبة واحدة هي ان مساعيه ليعود مصحوباً بحملة من الدول الاوربية والبابا ذهبت سدى . وفي اثناء وجوده هنالك اخترعت الاسطورة التي تروي ان الدروز نشأوا اصلاً من مستعمرة الكونت دي دريه الصليبية[2] .

واتخذ فخر الدين ، فور رجوعه ، جميع التدابير لاسترداد المناطق التي سلخت من امارته في اثناء غيابه ، لاسيا تلك التي استولى عليها بنو سيفا . على ان وفاة زعيمهم الاكبر يوسف ازاحت من طريق فخر الدين حميه والد اعدائه ، وصار الطريق شمالاً وجنوباً مفتوحاً امامه . وبذلك نهضت الدولة اللبنانية القديمة ثانية ودرجت في سبيل التوسع . وفي سنة ١٦٢٢ اكرمه الباب العالي بالحاق سنجق عجلتون وسنجق نابلس بولايته . وبعد ذلك بسنتين وجد الباب العالي نفسه مضطراً لان يعترف بالامر الواقع ويثبت فخر الدين سيداً على «عربستان» من حلب الى حدود مصر . وهذا القزم الذي قال خصومه في وصفه انه كان من قصر القامة بحيث لو سقطت بيضة من جيبه الى الارض ما انكسرت[3] ، كان الرجل الوحيد الذي

---

١) احمد خالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين ، نشر اسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٣٦)، ص ١٧ — ١٩ .

٢) انظر Volney, vol. ii. pp. 40-41.

٣) المعلوف، ص ٢١١ . قال Sandys ص ٢١٠ في وصفه «اسمه فخر الدين ؛ قصير القامة لكنه عظيم الشجاعة كثير المآثر يناهز الاربعين عمراً ويشبه الثعلب فطانة . ولا يتحرج كثيراً عن الاستبداد والتحكم . لم يباشر في قتال ولا اقدم على تدبير دون ان يستشير والدته »

استطاع ان يحافظ على الامن. ويحكم بالعدل، ويؤمن تحصيل الضرائب القانونية[١] له وللسلطان.

وفي السنة التي تلت تنصيبه حاكماً على سورية، نشبت بين رجاله وجيش مصطفى باشا والي دمشق، معركة عند عنجر في البقاع وقع فيها الوالي اسيراً، لكن فخر الدين اطلق سراحه فوراً[٢]. وتفرغ الامير، في غضون السنين الاحدى عشرة التالية، للعمل على تحقيق مطمحه الثالث، وهو رفع المستوى الحضاري في لبنان. فاستقدم من ايطاليا مهندسين مدنيين ومهندسين للري وخبراء زراعيين، استخدمهم في مشاريعه العامة والخاصة. واستدعى، على ما في الوثائق، ارساليات من توسكانيا لتوجيه الفلاح اللبناني في تحسين وسائل الحراثة. وارسل في طلب الماشية لتحسين الاصناف المحلية[٣]. وقد جمّل بيروت وحصّنها، وبنى لنفسه فيها مسكناً فخماً احاطه بحديقة غناء. وقد زار موندرل[٤] هذه الحديقة سنة ١٦٩٦، فوجد فيها قواعد للتماثيل «مما قد يدل على ان هذا الامير لم يكن محمدياً غيوراً». وله في صيدا قصر غير مكتمل البناء، يقوم تجاه خان بني ليكون نزلاً للفرنسيين[٥]. وفي هذا العهد وفدت على صيدا ارسالية كبوشية انشأت لها مراكز في بيروت وطرابلس وحلب ودمشق، وفي بعض قرى لبنان[٦]. ووفد ايضاً حوالي هذا الوقت على هذه البلاد، المرسلون اليسوعيون والكرمليون[٧]. وقد شجع هجرة النصارى من شمالي لبنان الى جنوبيه، رغبة منه في تنشيط الزراعة؛ ورحب بقدم اصدقائه الجنبلاطيين من

١) عرفت باللغة الدارجة بالميري اي: المال الاميري وهو ما وجب للحكومة.

٢) المعلوف، ص ٢٣٢ — ٣٣؛ قابل: الدويهي، ص ١٩٨ — ٩٩.

٣) انظر Carali, vol, ii, p. 52

٤) انظر Henri Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalam*, 8th ed. (London, 1810), p. 54. وقد نسب فولني في سياق حديثه رحلته ج ٢، ص ١٧٢ غرس حرج الصنوبر خارج مدينة بيروت خطأً الى فخر الدين والواقع انه كان قبل الحملات الصليبية. ولعله أعاد غرس المنطقة بالصنوبر.

٥) راجع ص ٣١٩ من هذا الجزء. كان مقام اسلاف المعنيين في بعقلين، والآثار التي خلفوها لا تزال هنالك وفي دير القمر.

٦) راجع Rabbath, vol. ii, pp. 464-72; vol. iii, pp. 464, 468, 473, *seq.*

٧) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

حلب الى لبنان. وقرب منه الارساليات الاوربية، والتجار والقناصل، وكانوا يتمتعون بالامتيازات التي سمح بها سابقاً السلطان سليمان. ويبدو من تقارير القناصل انه كان يحمي التجار الاوربيين في صيدا من القرصان[١]. وكان له طيلة عهده مستشارون من الموارنة، كان في مقدمتهم ابو نادر الخازن، وكان في الوقت نفسه قائداً لجيوشه. وقد رفع فخر الدين منزلة هذه الاسرة التي سبق لها ان حمته وربته يتيماً، من مستوى العاديين من الناس الى مستوى المشايخ، وذلك بأن وجه الى كبيرها رسالة خاطبه فيها بـ «الاخ العزيز» وهو مقتضى العرف السياسي (البروتوكول) لمنح المشيخة في ذلك العهد[٢]. وبفضل الحكم الوراثي الذي تولته هذه الاسرة في كسروان، غدت هذه المنطقة المسيحية ذات حظ وافر من الازدهار[٣]. وقد كان العالم الكبير الحاقلاني[٤] مدة من الزمان عميلاً له في ايطاليا، وقد اودع عن يده في مصرف فلورنسا اموالاً؛ حاول بعض افراد ذريته، بعد مضي قرن من الزمان، ان يستردوها على يد عالم آخر هو السمعاني، ولكن بلا جدوى[٥].

ثم ان العطف الذي ابداه فخر الدين نحو النصارى جعل البعض ينسبونه الى النصرانية. فقد ذكر عنه ساندز[٦] انه «لم يعرف عنه قط انه كان يصلي. ولا رآه احد في مسجد». اما دارڤيو[٧] فقد اعتقد ان الامير كان على دين قومه «الذين لا دين لهم»؛ ومن المحتمل انه كان هو وسائر المعنيين قد اعتنقوا الاسلام في الظاهر، امام اصحاب السلطة من العثمانيين وامام جمهور الناس، ولكنهم احتفظوا ضمناً بالدرزية ومارسوها مع ابناء قومهم. وفي وثيقة اخرى انه تنصر سنة ١٦٣٣ على يد كاهن كبوشي كان طبيبه الخاص[٨].

---

١) انظر Berchet, p. 163

٢) المعلوف، ص ٧١.

٣) شدياق، ص ٨٥.

٤) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء. وكذلك Carali, vol. i, pp. 402-3.

٥) Carali, vol. ii, pp. 315-18, 378-88.

٦) Sandys, p. 210.

٧) d'Arvieux, vol. i, p. 367.

٨) انظر Carali, vol. ii, pp. 340 seq. وقد وجد، في ما ذكر، صليب في اثوابه عند موته؛ المعلوف، ص ٢٧٥؛ قابل: F. Wüstenfeld, *Fachr ed-Din der Drusenfürst und seine Zeitgenossen* (Gottingen, 1836), pp. 167-8.

واشتغال الامير بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية لم تصرفه عن الاهتمام بحاجات امارته العسكرية. فقد كان الدخل الحاصل من زيادة الحركة التجارية، لاسيما في مرافئ طرابلس وصيدا، يفي بالغرضين معاً. وكانت غراسة شجر التوت آنذاك في عهد ازدهارها. وقد قدر الدخل السنوي في امارته بتسع مئة الف ذهبية، كانت حصة الخزينة الامبراطورية منها ثلاثاً واربعين الفاً. فاستقدم من تسكانيا لوازم حديثة جهز بها جيشاً تراوح عدده بين الاربعين الفاً والمئة الف رجل، جلهم من الموارنة والدروز. وعمل على تجديد بعض الحصون القديمة؛ ولا يزال احد قصوره يعلو رابية في تدمر ويحمل اسمه الى اليوم. على ان هذه الزيادة النسبية في التسلح، واتصال مفاوضاته مع الاوربيين، وعطفه على النصارى، اثارت مرة اخرى ظنون السلطان نحوه، فأمر السلطان مراد الرابع واليه في دمشق كوتشك احمد باشا سنة ١٦٣٣، بالتوجه لقتال فخر الدين على رأس جيش كبير من جنود اناضوليا ومصر. وقام في الوقت نفسه اسطول، بامرة جعفر باشا، بمهاجمة المرافئ والحصون الساحلية. وعندها اخذ اتباع فخر الدين من آل سيفا وحرفوش ومن اليمنيين يتفرقون عنه. وسقط ابنه الباسل علي صاحب صفد شهيداً في معركة جرت قرب وادي التيم، عند سفح جبل الشيخ[١]. وارسل الامير في طلب العون من احلافه الايطاليين لكنه لم يظفر منهم بطائل. فاختبأ في قلعة نيحا بضعة اشهر، ثم تحول الى كهف حصين في جبل قرب جزين. لكن مخبأه هذا لم يلبث ان اكتشف واقتيد الامير مكبلاً بالسلاسل مع ثلاثة من بنيه الى القسطنطينية (حوالي ١٠ شباط ١٦٣٥)[٢]. على انه استطاع بذلاقة لسانه ان ينجو من الموت — كما نجت من قبل امارة جده[٣] — ولكن الى حين قصير، فقد دافع امام السلطان عن نفسه قائلاً.

انني مظلوم فما جمعت الرجال الا بامر الوزراء والنواب، ولم ابنِ القلاع الا للدفاع عن حوزة البلاد، وما قتلت الا الذين مرقوا من طاعة الدولة. فاستوليت على حصونهم لاسلمها الى الحكومة العثمانية، وامّنت طريق الحجاج بمنع العرب من التعدي عليهم، واديت الاموال الاميرية باوقاتها، وايدت الشريعة الشريفة محافظاً على قوانينها وسننها(٤)...

---

١) المحبي، ج ١، ص ٣٨٦.

٢) الدويهي، ص ٢٠٤ — ٥؛ شدياق، ص ٣٣٠ — ٣٥؛ المعلوف، ص ٢٧٢ — ٨٢؛ Carali, vol. ii, pp, 340-56.

٣) راجع ص ٣٠٨ و ٣٠٩ من هذا الجزء.

٤) المعلوف، ص ٢٧٣؛ قابل: شدياق، ص ٣٣٦.

وبقي مصير الامير المنفي معلقاً حتى بلغ الباب العالي ان أقرباءه واتباعه قد تمردوا على السلطة الجديدة التي اقامها . وفي ١٣ نيسان سنة ١٦٣٥ احتز رأسه ورؤوس بنيه الثلاثة الذين كانوا قد اعتقلوا معه ، وعرض جسده في احد المساجد ثلاثة ايام[١] . وهذا الحكم الذي راوده بانشاء «لبنان اكبر مستقل» ونجح في وضع اسسه ، حاول تحقيقه ثانية احد افراد ذريته . الامير بشير الشهابي[٢] . الا ان هذا الحلم لم يتحقق كاملاً حتى سنة ١٩٤٣ .

عهد من الفوضى

وعلى اثر ازالة فخر الدين من المسرح السياسي . طرأ على لبنان عهد مشؤوم من القلق والفوضى ؛ اذ عمد علي علم الدين[٣] وهو الحاكم الذي عينه كوتشك احمد باسم السلطان على لبنان الجنوبي - الى اتباع سياسة موالية للسلطة ، فاحتجز ممتلكات المعنيين وعمل على اضطهادهم. وفي مأدبة اقيمت في عبيه على شرفه، انقض رجاله على مضيفيهم من آل تنوخ وامعنوا فيهم تذبيحاً . ثم لاحقوا الغائبين منهم وحملوا عليهم حتى ابادوا الاسرة بجملتها[٤] . وتزعم المعارضة على الاثر ابن اخ لفخر الدين[٥] هو ملحم بن يونس، وكان قبل ذلك يحاول الاستيلاء على الحكم في المنطقة .

---

١) Carali, vol. ii, pp. 355-6

٢) انظر ما يلي في هذا الفصل «أحمد باشا الجزار» .

٣) يتحدر آل علم الدين اصلاً من التنوخيين وعليه تزعموا حزب اليمنية وكانوا على ذلك خصوماً لانسبائهم القيسية ؛ شدياق ، ص ١١٤ .

٤) حيدر، تاريخ ص ٧١٩ ؛ شدياق، ص ١١٤ — ١٥ (وهذا الرقم مكرور في النص الذي اعتمدنا عليه) .

٥) شكل شجري للاسرة المعنية .

١ . فخر الدين الاول (ت ١٥٤٤)

٢ . قرقاز (قرقاس ، ١٥٤٤ — ٨٥)

٣ . فخر الدين الثاني (١٥٩٠ — ١٦٣٥) — يونس

٤ . ملحم (١٦٣٥—٥٧)

٥ . احمد (ت ١٦٩٧)

وقد ظفر في استعادة سلطة مزعزعة الاركان تحت رقابة عثمانية شديدة اليقظة والحذر. وانتقل الحكم من بعده الى ابنه احمد الذي توفي بلا عقب يخلفه، فكان بذلك انقراض الاسرة المعنية.

الشهابيون يخلفون المعنيين

وفي سنة ١٦٩٧ عقد اعيان لبنان مؤتمراً قومياً في السمقانية قرب بعقلين، وانتخبوا الامير بشير الشهابي من ابناء راشيا حاكماً عليهم؛ وارسلوا بقرارهم هذا الى والي صيدا، مؤكدين انهم يؤدون عن يده الرسوم القانونية، وكان بعضها، في ما يبدو، لا يزال ديناً له عليهم[1]. فنزعة اللبنانيين الى الحكم الذاتي، والحالة هذه، لم تكن قد ماتت فيهم تماماً. ولما كانت تركيا بالذات مهددة بالزوال من جانب الدول الاوروبية، فقد قنعت بهذا التدبير، ما دام وصول الرسوم اليها مؤمناً.

تسلم الشهابيون تراث المعنيين السياسي، وقبضوا على زمام الحكم حتى سنة ١٨٤١، جارين على الاساليب التقليدية المعروفة: من رشوة الموظفين العثمانيين، والانتقاض على ضعفاء السلاطين، واثارة الزعماء والاحزاب كل واحد على الآخر، مؤمنين بذلك استمرار سيطرتهم على الجبل. على انهم لم يعتنقوا المذهب الدرزي الذي كان عليه اتباعهم، وان كان جمهور الدروز قد ظن ذلك في بعضهم. وهذه القرون التي قضاها الساسة اللبنانيون في اصطناع سياسة الحذر والتحفظ اكسبتهم براعة فائقة في ممارسة المداهنة، وضروب المجاملة والتملق.

وبناء على توصيات حسين — وهو ابن لفخر الدين ارسل صغيراً الى القسطنطينية «وتعثمن»، ثم عين سفيراً لبلاده في الهند — وقع الاختيار على بشير[2] ليكون وصياً على الامير حيدر الشهابي الحاصباني ابن بنت احمد معن، ريثما يبلغ اشده. وقد تميزت امارة حيدر (١٧٠٧ — ١٧٣٢) بقضائها على حزب اليمنية قضاء مبرماً في معركة عين دارة سنة ١٧١١[3]. على ان بعض فلول العصاة هاجروا الى

١) حيدر، لبناني، ص ٣ — ٤؛ شدياق، ص ٣٥٨ — ٥٩؛ المعلوف، ص ٤٠١.

٢) يسمى عادة بشير الاول تمييزاً له عن خلفه الشهير بشير الثاني؛ انظر الشكل الشجري التالي في هذا الفصل.

٣) شدياق، ص ٣٦٤ — ٦٥.

حوران، وانشأوا هنالك جالية درزية جديدة[١] . ثم تعقب الحيدريون مناوئيهم من آل علم الدين وابادوهم . ونظراً لما ابداه آل ابي اللمع من البسالة في القتال رفعوا الى مصاف الامراء[٢] . وتسنى لحيدر، بعد ان تم له سحق اليمنية، ان يعيد تنسيق الصلات الاقطاعية مع احلافه — آل جنبلاط وابي اللمع والخازن — في ما يتعلق بالادارة العليا . فرتب على آل ارسلان اليمنيين ان يجعلوا لآل تلحوق[٣] سهماً في اقليمهم . وعمد ابنه وخليفته ملحم (١٧٣٢ — ٥٤) الى اضافة البقاع وبيروت[٤] الى ممتلكاته، لكنه ابقى قاعدته في دير القمر . وتأتى عن هذا التوسع اصطدامه بوالي صيدا ووالي دمشق، وكلاهما من آل العظم[٥] . وادى سحق اليمنيين الى قيام وضع جديد في سياسة الاحزاب اللبنانية، هو انقسامها الى جبهتين : آل جنبلاط، وآل يزبك؛ وكان بنو جنبلاط قد اصبحوا من اقوى الاسر الدرزية واوفرها ثروة . اما آل يزبك فقد تحدر اليهم هذا الاسم من زعيم لهم من آل عماد، وهم كذلك اسرة درزية جاءت اصلاً من منطقة الموصل[٦] . وقد اتسع هذا الانقسام حتى تخطى الطبقة الارستقراطية وتسرب الى الموارنة . وهذا النزاع الذي نشب بين الاسر في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر، استمر ناشطاً حتى العقود الاولى من القرن العشرين . وقد تنازل ملحم عن الحكم سنة ١٧٥٤، وتنازع اخواه على الامارة من بعده، فمال احدهما — وهو منصور — نحو آل جنبلاط، وآثر الآخر — وهو احمد — الانحياز الى آل يزبك . واحمد هذا هو والد المؤرخ حيدر، الذي اعتمدناه غير مرة في هذا الفصل . واستمرت فترة الاضطرابات الداخلية حتى بلغ يوسف بن ملحم اشده، وتولى الامارة بنفسه[٧] . ففي سنة ١٧٧٠ اعلن منصور، في

---

١) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

٢) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء، ج ٢ .

٣) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء، ح ٢ .

٤) حيدر، لبنان، ص ٣٧، ٤٠ .

٥) راجع ص ٣٠٨ من هذا الجزء .

٦) شدياق، ص ١٦٢ وما بعد (وقد تكرر هذا الرقم في صفحات اخرى من النص) .

٧) كان الوصي عليه سعد الخوري، وهو ماروني من رشميا تحدر من اسرة تولى منها اثنان رئاسة الجمهورية اللبنانية؛ حيدر، تاريخ ص ٧٨٣؛ شدياق، ص ٣٧٧ . وقد رفع يوسف هذه الاسرة الى مرتبة المشيخة؛ حيدر، تاريخ ص ٨٤٩ .

اجتماع قومي عقد في الباروك ، ان العناء قد اقعده عن القيام باعباء الحكم . وانه يود ان يتنازل عنه لابن اخيه يوسف. وعلى الاثر نودي بيوسف حاكماً على الجبل[١] ؛ وارسل بذلك علم الى والي دمشق . وكانت المنطقة الداخلة في حكمه تمتد من طرابلس الى صيدا .

الشيخ ظاهر العمر

كان قد برز على المسرح السياسي في هذه الاثناء رجلان آخران شاركا الامير الشهابي في شيء من مجده ، هما : ظاهر العمر ، واحمد الجزار . وبظهورهما اخذت فلسطين في منافسة لبنان على المقام الامامي في سياق الاحداث التاريخية ، في حين بقيت حلب ودمشق متخلفتين. ويغلب على الظن ان السكان، الحضريين والريفيين ، في هاتين المدينتين وضواحيهما ، كانوا قليلي العدد ضعاف النفوس .

وحوالي سنة ١٧٣٧ ظهر على المسرح السياسي شاب بدوي اسمه ظاهر العمر (آل عمر) ، كان الامير بشير الاول قد عين اباه شيخاً ، والحقه بحاكم صفد. ذلك ان ظاهراً هذا ظفر بضم طبرية الى منطقة صفد[٢] ، وعقد العزم على الاستعانة بالشيعة في الجليل الاعلى وهم الذين تحملوا طويلاً ظلم الموظفين الاتراك ، لتحرير المنطقة من حكامها . فكانوا على اتم الاستعداد لتأييد اي زعيم يعمل على تحريرهم . ولم تلبث نابلس والناصرة ان خضعتا له : وكانت الغنيمة الكبيرة التالية ، التي وقعت في يده، مدينة عكا (١٧٥٠)[٣] ؛ وكانت في حالة من الدمار الجزئي منذ عهد الصليبيين، فحصّنها المغتصب الجديد وجعلها مقره ، واستخدمها لتصدير الحرير والقطن والقمح، وسواها من منتجات فلسطين ، الى الاسواق الخارجية .

كان ظاهر العمر حاكماً مطلقاً، لكنه كان محباً للخير . قطع دابر التمرد، ونشط الزراعة ، ووقف من رعاياه النصارى موقفاً سمحاً . وقد ذكر مدوّن سيرته[٤] ، نقلاً

١) حيدر، تاريخ ص ٨٠٧ ، شدياق ، ص ٣٨٦ — ٨٧ .

٢) انظر Volney, vol. ii, p. 85 ؛ شدياق ، ص ٣٦٠ ؛ حيدر، تاريخ ص ٨٠١ ؛ ميخائيل الصباغ (العكاوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني نشر قسطنطين الباشا (حريصا) ص ٣٣١ — ٣٣ (لكن التواريخ غير مضبوطة)

٣) انظر Volney, vol. ii, p. 87 ؛ الصباغ ، ص ٤١ — ٤٤ .

٤) الصباغ ، ص ٤٨ .

عن شاهد عيان، انه كان يوماً ماراً على حصانه بالقرب من كنيسة مريم العذراء في الناصرة، فترجل عن جواده وركع ونذر ان ينير مصباح زيت في الكنيسة، ويبقيه متقداً، انْ هو حالفه النصر؛ «وكانت البلاد براحة واطمئنان والطريق بامان بحيث اذا سافرت المرأة وعلى كفها الذهب لا يعترضها احد في الطريق، ولا تخاف على نفسها امراً»[1] وكان يقوم بتأدية ما عليه من المال الى الحكومة العثمانية بكل دقة وانتظام، اذ كان واثقاً من ان الحكومة قلما اهتمت في من يكون عميلها — تركياً ام عربيا — ما دام المال المستحق يؤدى في حينه.

وكانت تركيا في هذه الآونة قد اشتبكت بنزاع مرير مع روسيا ابان ولاية كاترين. وكانت هيبتها في الشرق اطلاقاً آخذة في الزوال. فبلغت الجرأة من علي بك في مصر ان تحدى السلطان بارسال عامله ابي الذهب[2] ليستولي على دمشق، وعلى سواها من مدن سورية، فتم له ذلك سنة ١٧٧١. وعقد ظاهر محالفة مع علي بك الذي كان عازماً على احياء عهد المماليك البائد. وتمكن ظاهر بمساعدة الروس من احتلال مدينة صيدا ١٧٧٢[3]، بعد ان خربها اسطولهم. ثم تحول الروس الى بيروت وخربوها وانتهبوها. اما يوسف شهاب فانه حالف والي دمشق لاخماد الفتنة الجديدة، وجاءهما من القسطنطينية عمارة من الاسطول التركي على سبيل النجدة، تمكنت بمساندة القوى البرية من احتلال صيدا سنة ١٧٧٥، ومحاصرة ظاهر في قاعدته الحصينة. ولئن كانت قذائف الاتراك لم تفعل فعلها في اسوار عكا، فان ذهبهم فعل فعله في حاميتها، التي اوردت ظاهراً حتفه. وقد كان في الجيش السوري الذي دافع عن صيدا في وجه ظاهر واحلافه الروس رجل قام بمغامرات تضاءلت عندها مغامرات ظاهر، هو احمد الجزار.

احمد باشا الجزار

كان احمد هذا نصرانياً بالولادة من ابناء بوسنيا. اقترف وهو صبي جرماً اخلاقياً، فر على اثره الى القسطنطينية، وباع نفسه الى نخاس يهودي. وانتهى امره

---

١) الصباغ، ص ٥٠.

٢) كان مملوكاً لعلي وكان من السخاء في توزيع الهدايا بحيث كسب هذا اللقب؛ الجبرتي، ج ١، ص ٤١٧.

٣) الصباغ، ص ١١٥؛ شدياق، ص ٣٨٩؛ حيدر، لبنان ص ٩٣.

بعدئذ الى علي بك في القاهرة فعينه جلاداً . وقد اظهر احمد من التفنن في انفاذ مهمته ، والرغبة في القيام بها ، ما اكسبه لقب « الجزار » . وكان شديد الافتخار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على ان يكون جديراً به ، وقد كان به جديراً . ثم توجه الى سورية ، حيث ادى خدمات عسكرية جلى للدولة ضد الظاهر ، كوفىء عليها بتعيينه حاكماً على صيدا[1] . وقد استولى على بيروت حيناً من الزمان ، لكنه رفض الاقرار بسلطة يوسف . وكان سكان بيروت آنذاك ، على ما ذكر ڤولني[2] ، اذ مر فيها ، نحواً من ستة آلاف .

وامتد سلطان الجزار جنوباً ، وحل محل الامير ظاهر في عكا . وقد عمد الى تدعيم حصون المدينة ، وسخر من اجل ذلك رجال القرى المجاورة ، وبنى اسطولاً صغيراً ، وانشأ من ابناء بوسنيا والبانيا فرقة من الخيالة عددها ٨٠٠ فارس ، ومن المغاربة جيشاً من المشاة عدده الف جندي . واستطاع ، باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته ، ان يغطي جميع النفقات الضرورية ، وان يعيش برغد ورفاهية . ولا يزال المسجد الكبير الذي بناه في عكا ماثلاً للعيان . ثم ان طموحه حمله الى ما وراء فلسطين والساحل اللبناني ؛ ففي سنة ١٧٨٠ تسلم براءة بتعيينه والياً على دمشق . وظل بعد ذلك نحواً من ربع قرن يمارس النيابة الفعلية عن السلطان ، ويتصرف بشؤون لبنان كما يهوى . وقد انتهى عهده الذي لم تكدره نكسة ذات بال ، بالموت الطبيعي سنة ١٨٠٤ ، وترك لهذه الحقبة سجلاً منقطع النظير في التاريخ . ذلك ان الاتراك كانوا منهمكين في مناضلة عدو جديد قوي ، برز لهم في جزيرة العرب ، هو قائد الحركة الوهابية .

بلغ الجزار اوج مجده سنة ١٧٩٩ ، على اثر فوزه بايقاف زحف نابوليون . وكان الفاتح الفرنسي قد استولى على مصر ، وسار منها ظافراً على ساحل فلسطين ، حتى بلغ ابواب عاصمة الجزار ، على أن الجزار استطاع ، بمساعدة الاسطول الانكليزي ، المعقود اللواء للسر سدني سميث ، ان يصمد في الدفاع عن المدينة من ٢١ آذار حتى ٢٠ ايار ؛ وعندها اضطر نابوليون الى ان ينسحب ، إذ كان الطاعون

---

١) حيلو ، تاريخ ص ٨١١ ، ٨٢٧ .

٢) Volney, vol. ii, p. 170

قد أخذ يفتك بجيشه . ولا تزال لوحات المدافن على جبل الكرمل تحمل اسماء الضحايا الفرنسيين الى الآن .

وقد عمد امير عكا وحاكمها المغتصب الى القضاء على خصومه ومنافسيه بلا رحمة ولا شفقة . ثم تحول إلى انصار سلفه ، من الشيعة وقبائل البدو ، وعمل على سحقهم



احمد باشا الجزار حاكم عكا يقضي على احد المجرمين

ونشر الرعب في سورية ولبنان بوجه الاجمال . ولا يزال اسمه في هـذه الاوساط مرادفاً للقسوة البالغة . وقد ذكر مواطن من مؤرخي هـذه الحقبة ، هو ميخائيل مشاقة [١]، ان جده الذي كان موظفاً في الحكومة ، شاهد يوماً اكثر من اربعين رجلًا يصفون خارج اسوار المدينة ، لينفذ فيهم حكم الاعدام بالخازوق . وان آخر اربعة منهم نجوا لدى توسط الموظف المذكور . وقد اورد المؤرخ نفسه ان الجزار ، إذ ارتاب يوماً بتصرف حريمه ، وعددهن ٣٧ امرأة ، أمر خصيانه فجرّوهن واحدة

---

١) ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، نشر ملحم عبده واندراوس شخاشيري (القاهرة : ١٩٠٨) . وهو مرجع هام لكنه منشور نشراً سيئاً .

واحدة وألقوا بهن فوق كومة من الحطب ، أضرمت فيها النار فاحترقن جميعهن[١]. وقد كان شأنه في لبنان ان يثير فئة على اخرى . فوالى آل جنبلاط على أثر معركة قب الياس التي قهر بها يوسف سنة ١٧٨٨، ودعا الناس إلى انتخاب بشير الشهابي[٢]، وأمر بيوسف فشنق في سجن عكا[٣]. وقد ذكر ڤولني[٤] ان الكثير من الاسر المسيحية اخذت في هذه الاثناء بالنزوح «يومياً» من سورية الى لبنان ، فراراً من حكم الاتراك .

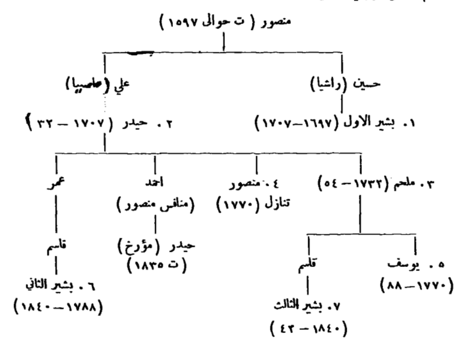
الامير بشير الثاني

كان حكم الامير بشير على جبل لبنان في اول الامر حكماً مزعزعاً . فقد كان ابنا سلفه يوسف ناشطين في نصب المكايد له ، وحوك المؤامرات ضده . وكان سيده الجزار قد اخذ في الانقلاب عليه ، لأنه تخلف عن مساعدته في نزاعه مع ناپوليون .

---

١) مشاقة ، ص ٥٤

٢) شكل شجري للشهابيين :



٣) راجع حيدر ، تاريخ ص ٨٥٦ ؛ مشاقة ، ص ٤٦ ؛ شدياق ، ص ٤١٩ — ٢٠ ، ٤٢٧

٤) Volney, vol. ii, p. 68.

واذ اضطرّ الى التخلي من منصبه ، فرّ إلى قبرس سنة ١٧٩٩ ، على إحدى بوارج سدني سميث[١] ، وأصبح الانكليز من ثم أصدقاء له .

وبعد غياب بضعة اشهر عاد ليقهر خصومه المحليين ويثبت حكمه في المنطقة . وعمد الى ابني يوسف فسمل منهما العيون قبل ان عاقبهما بالموت . ثم ضم البقاع ثانية الى لبنان ، غير عابئ بمعارضة والي دمشق . وغدت سياسته نحو الاتراك ، بعد الآن سياسة حزم وصداقة . ففي اوائل سنة ١٨١٠ ، عندما انطلق الوهابيون من نجد ، واجتاحوا الحدود السورية ، وهددوا عجلون وجنوبي حوران ، كان الامير بشير مع ١٥ الف من رجال لبنان على استعداد لردهم على اعقابهم[٢] . وبعد ان ظفر بمهمته هذه توجه على رأس جنده في زيارة الى دمشق . ولم يعد بعد ذلك زعيماً اقليمياً ، بل ساهم في معالجة الشؤون السورية ، وفي النزاع الذي نشب بين والي دمشق وبين منافسه والي طرابلس . لكنّ هـــذه المساعي أدت إلى إبعاده (١٨٢١ — ٢٢) هذه المرة إلى مصر[٣] . وهنالك أنشأ صداقة متينة مع محمد علي نائب السلطان في مصر ، ومؤسس السلالة المالكة فيها .

وبعد ذلك ببضع سنوات جرد محمد علي حملة على تركية عبر الاراضي السورية ، فوقف الامير بشير الى جانبه . وكان حاكم مصر قد توقع الحاق سورية على الأقل بامارته — وذلك في مقابل الخدمات التي أداهـــا للسلطة التركية في ميدان القتال اليوناني ، حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله ، وفي ميدان الجزيرة العربية حيث قهر الوهابيين — لكن آماله ذهبت هباء منثوراً . وقد انتظم الجنود اللبنانيون الى جانب زملائهم المصريين في حصار عكا سنة ١٨٣١[٤] . وغدت مهمة ابراهيم باشا ابن محمد علي ، قائد الحملة المصرية ، بفضل تعاون الامير بشير معه ، مهمة سهلة نسبياً . فتمكن ابراهيم باشا من الاستيلاء على دمشق ، وهزم الجيش التركي في حمص ، وعبر جبال طوروس ، واوغل في قلب بلاد الترك ، وكاد ينزل الضربـــة القاضية «برجل

---

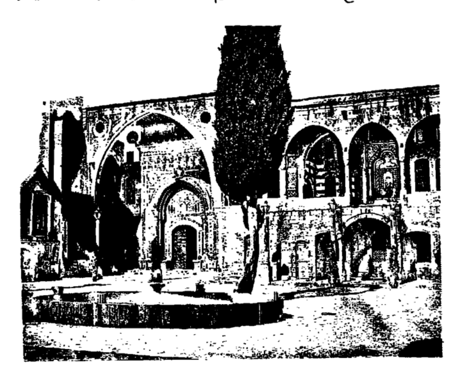
١) حيدر ، لبنان ، ص ٢٠١ وما بعد .

٢) حيدر ، لبنان ، ص ٥٥٦ — ٥٧ .

٣) حيدر ، لبنان ، ص ٧٢٤ — ٢٨ .

٤) مشاقة ، ص ١٠١ ؛ شدياق ، ص ٥٦٧ — ٦٨ ؛ حيدر ، لبنان ، ص ٨٣٢ وما بعد .

اوربا المريض »[١]. لكن بريطانيا والنمسا وروسيا اضطرته الى الانسحاب . وقد انقضى حكمه في سورية سنة ١٨٤٠، وغدا مطمح محمد علي في إنشاء امبراطورية تجمع البلدان العربية تحت حكمه حلماً من الاحلام ؛ إذ لم يكن لمثل هذا الوضع السياسي صورة في خواطر الناس[٢]. وبعد ذلك بنحو من خمس وثمانين سنة ، راود هذا الامل اهلاً آخر هو الشريف حسين صاحب مكة ، لكن حلمه كان ايضاً سابقاً لأوانه . وبعد ما نجح الاتراك باقصاء ابراهيم باشا ارسلوا في طلب الامير بشير



قصر الامير بشير الثاني في بيت الدين

ليناقشوه الحساب . لكن سفينة انكليزية حملته في اوائل خريف سنة ١٨٤٠ الى مالطة[٣]. ثم سمح له بالتوجه الى القسطنطينية ، وهناك توفي سنة ١٨٥٠ . وفي تشرين الاول سنة ١٩٤٧ تم نقل رفاته الى القصر الفخم الذي اقامه في أيام عزه في

١) لقب اطلقه على قيصر روسيا نقولا الاول سنة ١٨٥٣ .

٢) قابل : أسد رستم Asad J. Rustum, *The Royal Archives of Egyqt and the Origins of the Egyptian Expédition to Syria* (Beirut, 1936), pp. 47, *seq.*, 83 *seq.*

٣) مشاقة ، ص ١٣٢ — ٣٤ ؛ شدياق ، ص ٦٢٠ — ٢١ .

قرية بيت الدين . وليس في لبنان دارة اخرى تضاهيه روعة وفخامة . فقد جرّ الامير اليه المياه بقناة طولها تسعة أميال ، من منابع عين زحلتا التي تغذيها الثلوج والامطار من التلال الحافلة باشجار الارز . ولم يكن لبنان في عهد الامير بشير أقل ازدهاراً منه في عهد فخر الدين ؛ فقد اهتم الامير بشير ببناء الطرق وترميم الجسور ، ووجه بيروت في الطريق التي اوصلتها الى ما هي عليه اليوم ، إذ غدت الباب المؤدي الى لبنان وسورية . فقد كان المعنيون والشهابيون يتحاشون هذه المدينة لأسباب منها انها كانت معرّضة لغارات القرصان ولحملات سواهم من المناوئين ولم يكن كفاح فخر الدين والامير بشير من اجل لبنانٍ مستقلٍ فحسب، بل من أجل لبنان كبير ايضاً ، يضم فضلاً عن الجبل نفسه المدن الساحلية والسهل الشرقي وقد عمل كلاهما على تنشيط العلاقات التجارية الخارجية ، ورحبا باللاجئين السياسيين واهتما بالاقليات الدينية . فقد آوى الامير بشير عدداً من الاسر الدرزية المهاجرة من حلب، واكرم وفادة جماعة من الروم الكاثوليك . وكان الامير الشهابي، بخلاف سلفه المعني السمج الصورة ، ذا ملامح مؤثرة واضحة : فعيناه النسريتان ، ومحياه النمري، ولحيته المموجة، كانت جميعها توحي الخشية وتفرض الهيبة . وكان بلا ريب مسيحياً ، لكنه رأى من حسن الدراية كتمان ايمانه . وكان ابوه اول شهابي تحول عن الاسلام الى المذهب الماروني . ولئن كان فخر الدين اول لبناني حديث ، فان الامير بشير كان الثاني . وقد جرى الامير الشهابي في تراث زميله المعني ، لكنه جرى فيه الى غاية ابعد ، وفتح فيه مجالًا ارحب للحضارة الاوروبية ، لا سيا المؤثرات التربوية . ويعرف الامير بشير بين قومه ببشير الكبير ! وقد غدا اسمه ذا طابع اسطوري في الحكايات المحلية الريفية . ولا تزال النوادر التي تمتدح عدله وحزمه وحكمته وقدرته تحكى وتعاد في حلقات السمر حول مواقد النار الى اليوم .

وفي سنة ١٨٤٠ عين امير آخر اسمه بشير[1] حاكماً على لبنان . وكان بشير هذا قد ساهم في ثورة اللبنانيين على ابراهيم باشا ، عندما حاول ان يجردهم من السلاح ويفرض عليهم الضرائب الثقيلة[2] . ثم تعاون مع العثمانيين والانكليز على اخراج

١) راجع الشكل الشجري لنسب الاسرة الشهابية في ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

٢) راجع بشأن منشور العصاة ، فيليب وفريد الخازن ، مجموعة المحررات السياسية ، ج ١ ، (جونية، ١٩١٠) ص ٣ — ٥.

الباشا من البلاد . وكان العثمانيون يجرون في ادارتهم على النظام المركزي الذي وضعه السلطان محمود « المصلح » ، وقد اقتنعوا الآن ، اكثر منهم في اي وقت مضى ، بان الطريقة الوحيدة لتوثيق سيطرتهم على الجبل ، ان يبذروا بذور الخلاف بين سكانه النصارى والدروز ، ويثيروا النزاع في ما بينهم . وقد كان الانقسام في الجبل حتى هذا الوقت – كما سبق وقلنا[1] – يشطر الملل الى جبهتين متقابلتين هما : القيسية واليمنية ، او اليزبكية والجنبلاطية . واذ نشأ الخلاف المدني ما بين النصارى والدروز على هذه الصورة ، بدأ النزاع سنة ١٨٤١ ، وبلغ اقصى العنف في مذبحة سنة ١٨٦٠ ، لينتهي بالتدخل الاوربي[2] . ذلك ان جيشاً فرنسياً احتل لبنان ومكث فيه مدة سنة . وقد قدر عدد النصارى الذين ابيدوا سنة ١٨٦٠ باحد عشر الفاً ، والذين قضوا جوعاً بنحو اربعة الاف[3] .

استقلال لبنان بضمانة دولية

وبمقتضى النظام الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦١ ، وعدل سنة ١٨٦٤ ، منح الجبل حكماً ذاتياً على ان يتولاه حاكم عام مسيحي يعرف بالمتصرف ، يعينه الباب العالي ويحظى بموافقة الدول الداخلة في الميثاق[4] . وكان هذا الحاكم المنفذ يعين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، يساعده مجلس اداري منتخب ، مؤلف من اثني عشر عضواً ، يمثلون الملل الدينية المختلفة . ويلي الحاكم سبعة مديرين (قائم مقامين) يتولون ادارة الاقاليم السبعة التي كانت تؤلف متصرفية جبل لبنان ، بعد ان سلخت عنه بيروت وصيدا ووادي التيم وشرقي البقاع . وقد مارست الحكومة نظامها القضائي الخاص ، وجندت قوى الامن من ابنائها : ولم تنشىء فيه مراكز للجيش

---

١) راجع ص ٣٣٤ من هذا الجزء .

٢) انظر William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors*, 1801-1927 (Cambridge, 1936), pp. 306-300; J. F. Scheltema, *The Lebanon in Turmoil* (New Haven, 1920) هو ترجمة غير مضبوطة لأصل عربي وثيق .

٣) انظر Colonel Churchill, *The Druzes and the Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860* (London, 1862), p. 219 ؛ قابل : خازن ج ٢ ، ص ٩٩

٤) اضيف إلى موقعي ميثاق ١٨٦١ الذين مثلوا انكلترا وروسيا وبروسيا واوستراليا ، ممثل عن ايطاليا سنة ١٨٦٧ . انظر Thomas E. Holland, *The European Concert in the Eastern Question* (Oxford, 1885), pp. 210-18.

التركي، ولا ارسلت شيئاً من الضرائب الى القسطنطينية ، ولا كلفت رعاياها بالخدمة العسكرية .

ومع ان جبل لبنان المستقل هذا قد سُلب بعض المناطق الحساسة التي تقع داخل حدوده الطبيعية ، فانه افتتح عهداً من الاستقرار والازدهار النسبي قل ان باراه فيه قطر آخر من اقطار الامبراطورية ؛ فشقت فيه الطرق . وتحولت قراه المرتفعة الى مصايف مقصودة ، وبني فيه خط ضيق ربط بيروت بدمشق . وهكذا فان العقبات التي عاناها اهله عبر العصور ، وهي صعوبة المواصلات الداخلية ، التي تعذر معها تكوين دولة متحدة ، بدأت الآن في ان تقهر . وكانت هذه المصايف تعتمد في ازدهارها على ما حبتها به الطبيعة من ضروب الجمال الساحر والمشاهد الخلابة . واستعاض لبنان ، ولو جزئياً ، عن قلة موارده الطبيعية بالتسهيلات التي سنحت له عن طريق نشاط التجارة البحرية . وكانت قلة هذه الموارد حافزاً جعل من ابنائه ، كما جعل من اسلافهم من قبل ، اشهر التجار والمستعمرين في الشرق الادنى. وشاع على الاثر قول مأثور مؤداه : هنيئاً لمن كان له مرقد عنزة في جبل لبنان. وتجلى هذا الازدهار في ازدياد عدد السكان. لا سيما النصارى منهم ، حتى انهم التمسوا مخرجاً من ازدحامهم بالهجرة، اذ كانت خصوبة نسائهم على العكس من عقم اراضيه[1] . وما استهل العقد الثامن من القرن الماضي حتى كان المهاجرون اللبنانيون قد انشأوا مواطن جديدة لهم ولعيالهم في مصر وامير كا واوستراليا ، وانحاء اخرى من العالم المتمدن . وقد قدر المتحدرون من اصل لبناني في الولايات المتحدة وحدها اليوم بما لا يقل عن ربع مليون[2] .

وقد دشن عهد المتصرفية بمتصرف قادر من الطبقة الاولى هو داود باشا ، فقد حاول ان يعيد الى لبنان جانباً من الاراضي التي سلخت عنه ، وساعد على فتح مدرسة للدروز في عبيه ، لا تزال الى اليوم تحمل اسمه « الداودية » ، وقاوم الامراء الاقطاعيين في الجنوب ، والكتلة الاكليريكية في الشمال . وكان يتزعم هذه الكتلة

---

١) Miller, p. 300

٢) قابل : Cf. *Arabic-Speaking Americans* (Institute of Arab American Affairs) (New York, 1946), p. 4 ; Philip K. Hitti, *The Syrians in America* (New York 1924) pp. 62-5. ولا يزال اللبنانيون يعرفون في اميركا بالسوريين .

يوسف كرم الذي خاض عدة معارك، نفي على اثرها الى ايطاليا، وهناك قضى نحبه. وتولى، بعد داود باشا، رستم باشا، وكان قبل ذلك سفيراً في لبنان؛ فكان نظير سلفه حاكماً حازماً وادارياً مقتصداً[١]. لكن الاتراك عمدوا، في غضون الحرب العالمية الاولى، الى الغاء هذا الوضع الممتاز الذي كان لبنان يتمتع به، غير ان ميثاقه اتخذ نموذجاً للنظام الذي وضع لجزيرة كريت، وكان بوجه العموم «خير نموذج لنظام استقلالي، وضع لاقليم تركي»[٢].

١) هذا جدول المتصرفين: داود (١٨٦١ – ٦٨)، نصري فرنكو (١٨٦٨ – ٧٣)، رستم (١٨٧٣ – ٨٣)، واصا (١٨٨٣ – ٩٢)، نعوم (١٨٩٢ – ١٩٠٢)، مظفر (١٩٠٢ – ٧)، جوزيف فرنكو (١٩٠٧ – ١٢)، اوهانس كيومجيان (١٩١٢ – ١٥). وكان من هؤلاء: داود وكيومجيان من أصل ارمني وفرنكو ورستم من اصل ايطالي، وواصا من اصل الباني، ومظفر من اصل بولندي.

٢) Miller, p. 306.

الفصل الخمسون
المشهد في العصر الحاضر

يتميز العصر الحاضر في حياة الشرق العربي، كما يتجلى في سورية ولبنان، بظواهر منها: نشأة عوامل فعّالة ذات صلة بالتغلغل والتوسع الاستعماري الغربي، وانبعاث الوعي القومي المحلي، ونضال الشعوب من اجل تحقيق استقلالها، وقيام حركة الجامعة العربية وانتشار امرها. وقد كانت هذه الظواهر عوامل نامية ومتفاعلة، تخلفت عنها معظم الاحداث الهامة التي جرت منذ اوائل القرن الماضي.

التغلغل السياسي

استهل القرن التاسع عشر، وفي الشرق ثلاث دول اوربية كبرى تتبارى في بسط نفوذها على الامبراطورية العثمانية المتقلصة، والتي كانت طيلة القرن السابق تقف موقف الدفاع عن كيانها. هذه الدول هي فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى. اما النمسا فكانت قد تراجعت نوعاً، وكانت بروسيا لا تزال من دول المرتبة الثانية، ولم تكن ايطاليا آنذاك في حكم الموجودة. وكانت سياسة فرنسا تقوم على مصالح اقتصادية واعتبارات معنوية، وعلى الامتيازات التي رسخت بتقادم الزمن، والصداقة التقليدية التي كانت تصلها بالاقليات الكاثوليكية والمارونية. وكانت الامتيازات التي ابرمت سنة ١٧٤٠ ذات اهميــــة خاصة لانها وضعت جميع الحجاج الى الارض المقدسة تحت الحماية الفرنسية[1].

على ان الهزيمة المنكرة التي منيت بها تركيا في حربها مع روسيا، كما تشهـــد معاهدة كوتشك كاينارجي (١٧٧٤)، احلت عملياً النفوذ الروسي محل الفرنسي في القسطنطينية. فالمطامع الروسية انما تعود الى عهد بطرس الاكبر وكاترين[2]، وقد

---

١) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء.

٢) راجع ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

نشأت من وضع البلاد الجغرافي المقفل دون البحر ، وبالتالي من الرغبة الملحة في التماس موفأ على المياه الدافئة ، ثم بما اظهرته من عطف على ملة الروم الارثوذكس. فقد اقرت معاهدة كوتشك كاينارجي المذكورة حماية القيصر لهذه الملة ، وكان ادعاء روسيا بحق حماية الاماكن المقدسة احـــد الاسباب التي ادت الى حرب القرم (١٨٥٤ — ٥٦)[١] ومع ان انكلترا لم تكن جارة اقليمية لتركيا، فقد نشأ عندها اهتمام خاص بهذه المنطقة يعود تاريخه الى القرن السادس عشر ، وذلك بحكم علاقاتها التجارية البرية بالهند والشرق الاقصى ، فضلاً عن الشرق الادنى[٢] . فما ان اخذت الامبراطورية العثمانية في الانحلال، حتى بدأت مصالح انكلترا التجارية تتحول الى مآرب توسعية . اذ كرهت ان ترى تركيا تتلاشى ، وروسيا تثبت اقدامها عـــلى البوسفور. وهذه المنافسة بين الدول الكبرى هي التي اطالت بحياة تركيا ومدّت باجلها . وما القضية المعروفة بالمسألة الشرقية ، عند التحقيق ، الا قضية التوسع على حساب الامبراطورية التركية ، وملء الفراغ الطارىء بزوال هذه الدولة تدريجياً ، بعد ان كانت يوماً في عداد الدول العظمى[٣] .

وقبل ختام القرن التاسع عشر، كانت قد اخذت شمس دولة اوربية جديدة تبزغ على الافق العثماني ، هي المانيا . وكان القيصر وليم قـد رسم لها سياسة « التوسع نحو الشرق » فأتاحت لها هذه السياسة نفوذاً سريعاً في الشؤون التركية . وكان ذلك في عهد عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ، وهو من اعنف الحكام الذين اعتلوا العرش العثماني في نزعته الرجعية . وقد آنس السلطان من القيصر صديقاً جديداً يستحق الترحيب ، فقام الامبراطور وزوجته الامبراطورة سنة ١٨٩٨ بزيارة الى القسطنطينية ، واستأنفا السير منها الى القدس فدمشق ، حيث وضعا اكليلاً من الزهر عـــلى قبر صلاح الدين. وفي خطبة مثيرة اكد الامبراطور للسلطان ، ومعه « ثلاث مئة مليون مسلم يجلونه بوصفه خليفة عليهم » ان امبراطور المانيا، كان وسيظل ابداً، صديقهم الحميم[٤] . وعلى الاثر منحت شركة المانية امتياز خط بغـــداد الحديدي عبر شمالي

---

١) انظر: J. A. R. Marriott, *The Eastern Question*, 2nd ed. (Oxford, 1918), pp. 260-61.

٢) راجع ص ٣١٩ من هذا الجزء؛ وايضاً: M. V. Seton-Williams, *Britain and the Arab States*, (London, 1948), pp. 1-5, 101 seq.

٣) انظر: Miller, p. 1

٤) انظر: George Antonius, *The Arab Awakening* (Philadelphia, 1939), p. 77

سورية[١]. وكان هـذا الخط الحديدي احد الاسباب التي ادت الى نشوب الحرب العالمية الاولى. وقد اخذ في الوقت نفسه ضباط المانيون يفدون الى تركيا ليعيدوا تنظيم الجيش التركي.

العهد الحميدي

كانت نقطة الانطلاق في سياسة عبد الحميد رأيه في ان الطابع الاسيوي ينبغي ان يكون اغلب على الدولة من الطابع الاوربي. وتحقيقاً لهذا المبدأ لجأ الى نظام قديم هو نظام الخلافة، وحاول ان يبعث فيه الحيوية من جديد. فعمد الى توثيق سلطة الخلافة الأولى — السياسية ومثلها الاعلى — الجامعة الاسلامية، راجياً ان يحتفظ، عن هذه الطريق، بولاء العناصر الاسلامية غير التركية في داخل الامبراطورية، وان يكسب الى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها. وقد ظفر تدريجياً بمسخ وزرائه الى كتّاب مساعدين، وبتركيز ادارة البلاد في قبضة يديه. فوضع الصحافة تحت رقابة شديدة، والغى جميع التدابير التي تؤمن حرية الفكر مهما كان نوعها، ونشر شبكة محكمة من الدس والتجسس في جميع انحاء البلاد. ولما كان شديد الخوف على عرشه وحياته، عمد الى الاعتصام بالمزيد من العزلة وراء اسوار قصر يلدز. ثم انه اجرى الاعتقالات بالجملة، ونفذ احكام الاعدام على نحو جماعي، وامعن في الارمن فتكاً وتذبيحاً، فاكسبه ذلك لقب «السلطان الاحمر».

واستئنافاً لسياسته بايجاد جامعة اسلامية، أكمل الخليفة السلطان سنة ١٩٠٨ خط الحديد الحجازي الذي وصل القسطنطينية بالمدينة المنورة، مخترقاً سورية من الشمال الى الجنوب؛ فكان ما انفقه على هـذا المشروع ثلاثة ملايين ليرة، جمع ثلثه من تبرعات المسلمين في العالم باسره. ان هذا الخط هو الذي عمل لورنس على نسف جسوره ابان الحرب العالمية الاولى[٢]. بنى هذا الخط الحديدي مهندسون المانيون، وتولى امره موظف سوري هو احمد عزت باشا، كان كاتب السلطان الخاص. وكان لسوري آخر تأثير غريب على الخليفة هو امامه الخاص ابو الهدى الصيّادي.

---

١) انظر: Edward Mead Earle, *Turkey, The Great Powers and the Bagdad Railway*, (New York, 1923), pp. 67-71.

٢) انظر: T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (New York, 1938), pp. 198-203, 207-11.

وبعد حكم استبدادي استمر ثلاثين سنة ، نهض عبد الحميد يوماً من ايام تموز سنة ١٩٠٨، ليجد نفسه قليل الحيلة ، امام ثورة اضرمها بعض القواد في جيشه . وكانت هذه الثورة من صنع «جمعية الاتحاد والترقي» ، وهي اللجنة العاملة لمنظمة سرية عرفت «بتركيا الفتاة» ، تخلفت بدورها عن منظمة اسبق هي منظمة «الاتراك العثمانيين» كان مدحت باشا[١] احد اعضائها . كان منشأ «تركيا الفتاة» في جنيف سنة ١٨٩١، وكانت ثمرة لحركة نشيطة قامت بها جماعة من الطلاب والشبان رغبة في تحقيق الاصلاح ؛ ثم نقلت هذه الجماعة مركزها الى باريس . وكان هدفها ان تضع للبلاد دستوراً ذا طابع غربي ينص على انشاء مجلس تمثيلي، وان تهدم حواجز النظام الملي وتبني دولة ديمقراطية متجانسة . وفي اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٠٨ اعلن عبد الحميد ، مرغماً ، العودة الى دستور ١٨٧٦[٢]، وامر في اليوم التالي بابطال شبكة التجسس والغاء نظام الرقابة، واخلاء سبيل المعتقلين السياسيين جميعهم . وفي اليوم العاشر من كانون الاول ، افتتح جلسة المجلس النيابي بخطاب من على العرش ، اعلن فيه مباهياً ان المجلس السابق كان قد علق مؤقتاً ، ريثما حقق المواطنون الاستعداد المناسب عن طريق التربية والتهذيب . وكانت موجة من التفاؤل والحماسة قد غمرت الامة بكاملها في الوقت نفسه . فاستقبل اعلان الدستور في بيروت ودمشق وحلب والقدس ، وسواهن من مدن الامبراطورية ، بايقاد المشاعل والقاء الخطب واطلاق الالعاب النارية فرحاً وابتهاجاً، وذلك اعتقاداً منهم بان الكابوس قد زال ، وان يوماً جديداً في حياتهم قد بزغ «حتى لكأن تركية قد انقلبت ، بين ليلة وضحاها»[٣] . لكن عبد الحميد لم يكن احرص على دستور سنة ١٩٠٨ منه على دستور سنة ١٨٧٦ . فقد قبض عليه بالجرم المشهود ، وهو يتآمر مع العناصر الرجعية ، ويعد العدة للقيام بثورة معاكسة في نيسان سنة ١٩٠٩ . فخلع للحال ، واقيم مكانه اخوه الأبله محمد رشاد ، لكن السلطة الفعلية بقيت في يد الجمعية .

---

١) راجع ص ٣١٥ وما بعدها من هذا الجزء .

٢) راجع ص ٣١٦ من هذا الجزء .

٣) انظر : Harry Luke, *The Making of Modern Turkey* (London, 1936), p. 144.

جمعية الاتحاد والترقي

على ان رجال العهد الجديد كانوا اوفر حظاً في نطاق الحمية الوطنية منهم في مجال الاختبار والدهاء السياسي . فسياستهم العثمانية التي استهدفت تحويل النزعات العنصرية والنعرات الدينية في الدولة الى صعيد عثماني مشترك آلت الى الفشل التام . اذ فسر العرب هذه «الحرية» الجديدة على انها حرية تحقيق امانيهم القومية الخاصة، وتعزيز ذاتيتهم الثقافية ولغتهم الفصحى. فنشأت على الاثر حركات انفصالية تشبثت كل منها بمطالبها الخاصة . واذ اخفقت سياسة الرابطة العثمانية على هذا النحو ، ارتد رجال تركيا الفتاة الى السياسة الحميدية الفاشلة الداعية الى الجامعة الاسلامية ، وازداد الوضع الداخلي سوءاً بالارتباكات الدولية التي ادت الى نشوب حرب بين تركيا وايطاليا (١٩١١ – ١٢)، فقدت فيها تركيا طرابلس الغرب والقيروان – وهما آخر ما كانت تملكه في شمالي افريقيا – والى حروب بينها وبين دول البلقان (١٩١٢–١٣)، جردتها من جميع ما كانت تملك ، تقريباً ، في تلك الناحية ورزح المثلث المؤلف من انور وطلعت وجمال تحت هذه الاعباء جميعها . ثم انضمت تركيا في الحرب العالمية التي نشبت على الاثر الى جانب المانيا والدول الوسطى ، وكان دورها في العراك شاهداً على اخفاق الرابطة العثمانية ، وافلاس الجامعة الاسلامية . وتخلف عن ذلك نشوء دولة تركية جديدة تقوم على وطنية تركية ، لا يعوقها الكثير من العراقيل المذهبية والسلالية . اما منظم هذه الدولة فعضو من اعضاء تركيا الفتاة ، وقائد من القواد الذين ساهموا في ثورتها ، هو مصطفى كمال . واصلاحاته كانت الاصلاحات الشاملة الوحيدة التي نفذت الى حياة الجمهور .

التسلل الثقافي

كان لبنان اقل المناطق الشرقية في الامبراطورية العثمانية تأثراً من العراقيل التي رضها العهد الحميدي . فقد ضمن له الحكم الذاتي الذي ظفر به بعد سنة ١٨٦١، استمرار تدفق الافكار وسائر المؤثرات الثقافية من المصادر الغربية – ذلك التدفق الذي كان قد بدأ منذ اقدم الازمنة ، وعززه في ما بعد فخر الدين المعني والامير بشير الشهابي[١] . ثم احتل ابراهيم باشا (١٨٣١–٤٠)[٢] سورية ، وكان ابوه

١) راجع ص ٣٣٠ – ٣٣٣ وص ٣٤٠ – ٣٤٣ من هذا الجزء .
٢) راجع ص ٣٤١ من هذا الجزء .

اسبق الحكام الى انشاء صلات حيوية بين مصر والغرب، فاتسع بهذا الاحتلال المجال المفتوح في سورية للمؤثرات الغربية. وقد عمد ابراهيم باشا الى ازالة بعض القيود المتعلقة بالملابس والمطايا، التي كان النصارى في سورية يعانون منها لاجيال كثيرة خلت[1]. وفي هذه الاثناء بالذات (١٨٣٢) تسنى لارسالية الجزويت، بعد فترة من خطر[2]، ان تعود الى ربوع لبنان؛ وسنح لمشاريع الارسالية الاميركية ان تجد مستقراً ثابتاً. وقد احتفلت الكنيسة الانجيلية في سورية بعيدها التذكاري المئوي سنة ١٩٤٨؛ وتأسست المطبعة الاميركانية في مدينة بيروت سنة ١٨٣٤، فجرت في اثرها مطبعة الجزويت الكاثوليك بعد ذلك بتسع عشرة سنة. ولا تزال كلتا المطبعتين تقومان بالمهام المنوطة بهما خير قيام؛ وقد اخرجت كل منهما ترجمة بالعربية الحديثة للكتاب المقدس. وانتهى بالجزويت جهدهم التعليمي، الذي كانوا قد بدأوه في اوائل القرن السابع عشر[3]، الى تأسيس جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤ في بيروت، حيث كانت الارسالية الاميركية قد سبقتهم سنة ١٨٦٦ الى تأسيس كلية تعرف الآن بالجامعة الاميركية في بيروت؛ ولا تزال هاتان الجامعتان في طليعة معاهد التعليم في هذا الجانب من العالم. واخذت، من ثم، المدارس الاهلية والمطابع والصحف والمجلات والجمعيات الادبية تنشأ وتزدهر، وراحت الكتب المترجمة عن الفرنسية والانكليزية تتكاثر وتشيع بين ايدي القراء[4]. وكان اقوى ما تسرب من الافكار الجديدة واعظمها حيوية دون نزاع اليقظة القومية والديمقراطية السياسية.

القومية والنضال من اجل الاستقلال

بدأت هذه اليقظة القومية العربية حركة فكرية خالصة، مركزة على درس لغة العرب وتاريخهم وادبهم. وكان روادها في الغالب من المفكرين السوريين،

---

١) راجع ص ١٦٧ وص ٢٢١ — ٢٢٢ من هذا الجزء.

٢) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

٣) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

٤) انظر: A. H. Hourani, *Syria and Lebanon* (Oxford, 1946), pp. 35-7.

وبنوع اخص، من نصارى لبنان الذين تثقفوا في الجامعة الاميركية في بيروت[١]. فهؤلاء هم الذين شرعوا في تطويع العربية الفصحى لتغدو اداة جديدة صالحة للتعبير عن الفكر الحديث. على ان الفكرة القومية، وما استتبعته من تشديد على الشؤون المدنية والقيم المادية، جرت في اتجاه معاكس لارفع المثل، واعزّ التقاليد الاسلامية، التي لا تقر ولو مبدئياً باية رابطة غير رابطة الدين. ثم ان اختيار الشعوب الناطقة بالعربية لهذا الطراز الجديد من القومية، وثورة الحسين شريف مكة سنة ١٩١٦ على الاتراك العثمانيين، صدعا البقية الباقية من الامل بقيام وحدة اسلامية شاملة، واقاما في مكانها وحدة عربية جامعة. اساسها اللغة والثقافة العلمانية، لا العقيدة الدينية الخاصة. وقد غدا لبنان اسرع استجابة الى المؤثرات المسيحية الغربية، بعد نزوح الالوف من ابنائه الى العالم الجديد[٢]؛ ذلك لانهم استطاعوا، عن طريق المراسلة وتكرار الزيارات، ان يحتفظوا بمشعل الحرية والأستقلال والديمقراطية موقداً مشعاً. وهذا المؤتمر العربي في باريس، انما التأم سنة ١٩١٣ بدعوة من شكري غانم، وهو شقيق نائب سوري كان عضواً في مجلس ١٨٧٦ النيابي في القسطنطينية، وكانت الكثرة الساحقة من اعضاء المؤتمر المذكور من السوريين؛ وكانت مطالبه معتدلة نذكر منها تطبيق اللامركزية، وتحقيق الاستقلال الاداري والثقافي.

ولقد وجد المفكرون السوريون، واركان القومية العربية، في مصر المجاورة جواً انسب لنشاطهم السياسي. واذ كانت هذه الحركة تستمد حوافزها الاساسية من منهج التفكير الاميركي، فقد استلهمت وحيها من الامجاد الماضية التي خلفتها الشعوب الناطقة بالعربية ومن مآثرها الثقافية، واتجهت بانظارها نحو عالم عربي وثيق الاركان. ثم شرعت في عملها على نطاق واسع هو العروبة المطلقة، دون الالتفات الى اي اعتبار اقليمي. لكن الحركة لم تلبث ان تصدعت. لان الناحية السياسية اخذت، مع نموّها واتساعها، تتشعب وتتأثر بالسياسة الاقليمية. وعلى ذلك اخذت اغراض القوميين المصريين في الانحراف عن الجامعة العربية، في اوائل

١) انظر: Antonius, pp. 43, 51-5; Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East* (London, 1929), pp. 268 seq.; Martin Hartmann, *The Arabic Press of Egypt*, (London, 1899), pp. 3-13.

٢) راجع ص ٣٤٥ من هذا الجزء.

العقــد التاسع؛ وذلك عندما غدت مقاومتهم للاحتلال البريطاني اهم اغراضهم المباشرة. وهكذا اتسمت القومية العربية في مصر بسمة اقليمية، رجاء ان تكون اشد اثارة للرأي العام المحلي في اندفاعه ضد الانكليز؛ في حين حشدت القومية العربية قواها في سورية ضد السيطرة العثمانية وسياسة التتريك، وكذلك — بعد اقامة الانتداب الفرنسي سنة ١٩١٩ — ضد الحكم الفرنسي. وقد تجددت عزيمتها باستشهاد الزعماء الوطنيين الذين اعدمهم جمال باشا في غضون الحرب العالمية الاولى[١]. اما فلسطين — وهي القسم الجنوبي من سورية، الذي اقتطع ووضع تحت الانتداب البريطاني — فقد غذّى القومية العربية فيها العداوة للانكليز، والحركة الصهيونية التي برزت الى الوجود الواقعي بمولد اسرائيل، باعتبار انها حركة قومية دخيلة بعثها رجال من يهود اوربة الوسطى والغربية.

وفي سنة ١٩٢١ اقتطعت من فلسطين الانتدابية المنطقة التي عرفت في التوراة بشرقي الاردن، والتي لم تكن حتى آنذاك واقعاً تاريخياً، وولي عبدالله بن الحسين اميراً عليها، ثم نصب ملكاً سنة ١٩٤٦؛ وكان في ذلك الحين يهدد بالانتقام لاخيه فيصل، اذ ازيل عن عرش سورية بعد ولاية قصيرة قبل ان يتسنم عرش العراق[٢]. وقد كانت هذه الامارة بمثابة دولة حاجزة، ما بين منطقــة الانتداب البريطاني وربوع القبائل البدوية الثائرة. وفي سنة ١٩٤٩ تحولت هذه الامارة الى المملكة الاردنية الهاشمية.

وهكذا فقد تجزأت القومية العربية الناشئة تبعاً للتجزئة الاقليمية، وكانت البلاد العربية، حتى الحرب العالمية الاولى، تؤلف وحدة جغرافية تخضع للحكم العثماني. وفي غضون الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين تناثرت البلدان العديدة الناطقة بالعربيــة من كيان الامبراطورية العثمانية، وتحولت الى دول متعددة، وكأنها شعوب مختلفة. لكن الاشتراك في اعتبارات اللغة والدين والمصلحــة الاقتصادية بقيت تعمل على الجمع بين اشتاتهم. ثم عاد الاتجاه نحو الجامعة العربية فنشط ثانية سنة ١٩٤٠؛ وما زال يقوى حتى انتهى الى قيام جامعة الدول العربية

١) راجع بشأن عدم واسباب إعدامهم: *La Vérité sur la question syrienne* (Commandement de la IVème armée) (Constantinople, 1916), pp. 158-68.

٢) Hans Kohn, *Nationalism and Imperialism in the Hither East* (London, 1932), pp. 162-4, 177-8; Antonius, pp. 304-5.

وكان مما حفز الى تحقيق فكرة الجامعة الردة في وجه الصهيونية السياسية باعتبار انها قوه توسعية مفرّقة . وقد انتظم كل من لبنان وسورية في عضوية الجامعة العربية منذ نشأتها في سنة ١٩٤٥ .

الديمقراطية

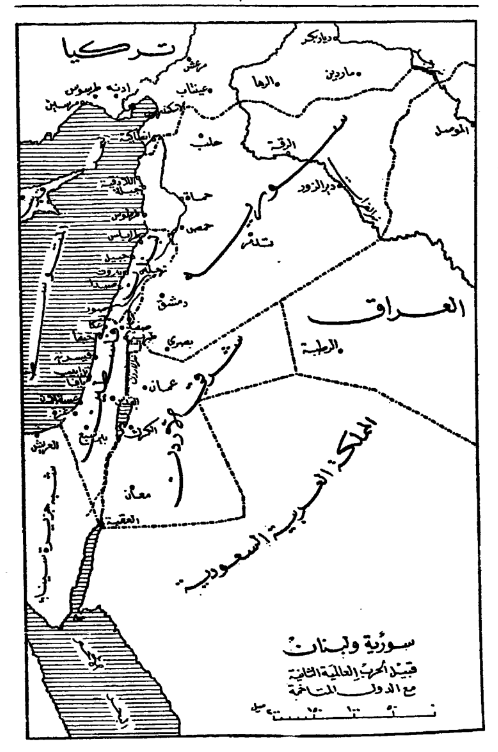
رافق توثيق العاطفة القومية ، وانتشار اسباب التعليم ، رغبة متزايدة في مزاولة المزيد من المناهج الديمقراطية في الحياة الاجتماعية والسياسية . وكان التمرد في طبقة المزارعين قد هيأ جواً صالحاً لاستقبال الافكار الديمقراطية ولتنميتها . حتى اذا توسط القرن التاسع عشر ، اخذت طلائع التفسخ تتجلى في حياة الفئتين الاقطاعيتين الرئيسيتين في المجتمع اللبناني ؛ لكن الاقطاع الدرزي بدا أشد تماسكاً من الماروني ؛ وقد استمر على نحو يتخلله الوهن حتى الوقت الحاضر . وكذلك في سورية ، فان المنظمات الاقطاعية لم تضمحل تماماً . وقد ظهرت بين المزارعين في لبنان الشمالي ايضاً حركة عصيان موجهة ضد آل الخازن[١] وسواهم من الامراء الاقطاعيين ، بلغت اوج عنفها في ابان الفتنة التي نشبت بين الموارنة والدروز[٢] . وكان قائدها بيطاراً من ريفون اسمه طانيوس شاهين ، استطاع في سنة ١٨٥٩ ان ينشيء مجتمعاً زراعياً اشتراكياً تولى هو رئاسته[٣] . ولما كان جل الرهبان الموارنة مستنفرين من جمهور الناس ، فقد ساندوا هذه القضية الشعبية مساندة تامة . وعندما تولى داود باشا الحكم في الجبل ، عمد الجانب الديمقراطي من المجتمع الماروني الى الامتناع عن اداء الضرائب الى حاكم اجنبي يؤيده الجانب الاوستقراطي من المواطنين . وكان الموارنة قد طالبوا بحاكم من المواطنين ، وكان بطل فتنتهم هذه يوسف كرم[٤] . واذ ربح السوريون واللبنانيون معركة الاستقلال من الفرنسيين اقبلوا ، اكثر منهم في اي وقت مضى ، على الافكار والنظم الديمقراطية الغربية ، وكيفوها بحسب حاجاتهم الخاصة . وكان لبنان ، بين

١) راجع ص ٣٣٠ — ٣٣٣ من هذا الجزء .

٢) راجع ص ٣٤٤ — ٣٤٥ من هذا الجزء .

٣) انطون العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ، ١٩٣٨) ص ٣٨ — ٩٠ .

٤) راجع ص ٣٤٦ من هذا الجزء .



الشعوب الناطقة بالعربية السابق الى اقامة نظام حكومي جمهوري؛ ثم تلته سورية. وما أن تصرمت سنة ١٩٤٣ حتى حققت كلتا الجمهوريتين الاستقلال التام الناجز ،

وتحملتا جميع مسؤولياتها في اول كانون الثاني سنة ١٩٤٤ ؛ وسحبت البقية الباقية من الجيش الفرنسي بعد ذلك.

ان انفتاح سورية ولبنان وفلسطين ، في خلال القرن التاسع عشر ، للجديد من الافكار الاقتصادية والعلمية والسياسية ، كان اوسع اثراً واكثر استمراراً منه في القرن السابع عشر[1] ؛ فكان اشبه بانفتاح العالم العربي برمته ، قبل ذلك بقرون عديدة على المؤثرات الثقافة الاوربية اليونانية[2]. وكذلك الامتزاج العنصري في الزمن المعاصر فقد كان ظاهرة عامة شملت الشرق الادنى بكامله ، بل آسيا وافريقيا بوجه الاجمال . وهكذا توجهت شعوب المتوسط الشرقي مرة اخرى نحو الغرب شأنها في عهد الفينيقيين والرومان والبيزنطيين . على ان هذا النضال الناجم عن الفارق بين النظرة التقليدية الجامدة الدينية والنظرة الحديثة العلمية المدنية ، كان اظهر اثراً في الاوساط الاسلاميـــة ، ولم يكن هذا النزاع محصوراً في الطبقات العليا ، بل ان المنطقة برمتها — نظير الكثير من مناطق العالم الاخرى في القرن التاسع عشر — كانت اندرجت في الشبكة الاقتصادية التي انتشرت بتأثير حركة التصنيع في اوربا الغربية وعبثاً حاولت المصنوعات اليدوية المحلية أن تنافس السلع المستوردة المصنوعة آلياً بالجملة ، وقد ادى هذا الى انهيار الاقتصاد المحلي .

ان هذا الاثر الذي كان لاوربا الغربية على الشرق العربي في القرن التاسع عشر ، هو الذي هزّ الشرق تلك الهزة التي ايقظته من رقدة العصور الوسطى . وبهذه الانتفاضة دنت اوضاع العصور الوسطى في سورية ولبنان من نهايتها ، واخذ فجر العصر الجديد في الانبلاج . وقد كانت هذه الفترة برمتها فترة تطور وانتقال ؛ فنشوء الحركة القومية واستيلائها على حياة الشعب ، واقتباس مبادي الديمقراطية السياسية ، والسير في الاتجاه العلماني التجددي جميع هذه ، تؤلف فصلاً جديداً في تاريخ لبنان وسورية ، لكنه فصل لم يدون بعد .

---

١) راجع ص ٣٣٠ — ٣٣٣ من هذا الجزء .

٢) تقدم شرح ذلك في ص ١٧٤ وما بعدها من هذا الجزء .

فهرس عام

ملاحظات

١ ـ لقد اهملنا عند وضع هذا الفهرس كلمة « ابن » و « ابو » و « بنو » و « اخو » فمثلا ابن خلكان يقع تحت خلكان

٢ ـ وضعنا حرف « ح » رمزا للحاشية .

٣ ـ ذكرنا اسماء الكتب في الحواشي كاملة مع تاريخ طبعها ومحله وذلك عند ورودها اول مرة ثم اكتفينا فيما بعد بمختصر لاسم الكتاب .

ـ الالف ـ

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ـ التاء ـ

— الثاء —

— الجيم —

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ــ الخاء ــ

— الدال —

صفحة

— الذال —

— الراء —

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

— الشين —

صفحة

صفحة

— الطاء —

— الظاء —

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ــ الفاء ــ

صفحة

صفحة

ــ القاف ــ

صفحة

صفحة

صفحة

— النون —

صفحة

صفحة

صفحة

